

شرح كتاب التوحيد

لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه اللّه

من الدرس الأول (١) إلى الدرس التاسع (٨)

شرح الشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظهما اللّه تعالى

١٤٤٠/٠١/٠٦ هـ

الدرس الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد : فنسأل الله عز وجل العظيم رب العرش العظيم بأسمائه الحسنى وصفاته العليا أن يكتب مجلسنا هذا فيما يرضيه عز وجل ، وأن يجعله لوجهه خالصا ، وأن ينفعنا به ، وأن يجعله حجةً لنا لا علينا ، وأن يزيدنا من فضله هدًى وتقًى وصلاحًا وعافية ، وأن يصلح لنا شأننا كله ، وأن لا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين .

ثم أيها الإخوة الكرام : هذا المجلس الأول في مجالس –نسأل الله عز وجل أن يبارك فيها– نقرأ فيها كتاباً مباركاً ومؤلَّفاً عظيماً في أعظم الأمور وأجلّها على الإطلاق؛ ألا وهو توحيد الله عز وجل وإخلاص الدين له .

والكتاب موضوع الدراسة في هذه المجالس: « كتاب التوحيد » للإمام شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى وغفر له وجزاه الفردوس الأعلى ، وهو كتابٌ مبارك وفريدٌ في بابه ، بل لم يؤلَّف على منواله ونسْجِه وفي موضوعه مثلَه ، وهو كتابٌ أفرده رحمه الله تعالى لبيان التوحيد الذي هو حق الله سبحانه وتعالى على العبيد ، ونَهَج في تأليفه نهج أهل السنة وسلَك مسلكهم ، وهو كتابٌ قائمٌ على « قال الله قال رسوله صلوات الله وسلامه عليه» ، فليس فيه شيء إلا وهو قائم على الدليل كلام الله وكلام رسوله صلوات الله وسلامه عليه .

وإذا قرأت كتابه التوحيد وقرأت كتب أئمة السلف المؤلفة في الإيمان أو في أصول الديانة أو في الاعتقاد أو في التوحيد تجد أنها على نسَقٍ واحد ونهجٍ واحد وطريقةٍ واحدة ؛ فهم وإن تباعدت بهم الأزمان وتباعدت الأوطان واختلفت الألسن نهجهم واحد ، لأنهم ينهلون من معينٍ واحد ويصدرون عن موردٍ واحد؛ وهو كتاب الله وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه ؛ فقولهم جميعاً متفِقٌ ليس مختلف ، لأنه مستمدٌ من وحي الله ؛ كلامه وكلام رسوله عليه الصلاة والسلام ، بخلاف العقائد الأخرى فإنها مضطربة ومختلفة ومتناقضة لأنها مبنية على العقول والآراء وفهوم الناس وأذواقهم ، والله جل وعلا يقول : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء:٨٢].

وقد وفَّق الله سبحانه وتعالى الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى لجَمْع هذا المصنف وتأليف هذا الكتاب، وجعل الله سبحانه وتعالى في هذا الكتاب بركةً عظيمة ونفعاً كبيراً ؛ فهدى الله به خلقاً لا يحصيهم إلا الله إلى التوحيد والإخلاص والبُعد عن الشرك صغيره وكبيره دقيقه وجليله بما أكرم الله سبحانه وتعالى هذا الإمام من حُسن بيان وحُسن استدلالٍ وحُسن تبويبٍ وترتيبٍ وجمع ؛ ولهذا عظمت عناية أهل العلم وطلابه بهذا الكتاب؛ حفظاً

ومدارسة، وكثرت مصنفات أهل العلم حول هذا الكتاب ، بدءً بما كتبه حفيده سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب في مصنفه الحافل وكتابه الجامع «تيسير العزيز الحميد» ، مروراً بتهذيب واختصار وتتميم أيضاً حفيد الشيخ عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب في كتابه «فتح المجيد» ، ثم فيما بعد توالت الكتب وتعددت المؤلفات شرحاً وإيضاحاً وبياناً لهذا الكتاب العظيم المبارك «كتاب التوحيد» .

وأقول أيها الإخوة الكرام : والله ثم والله ثم والله ؛ إنها نعمة من أكبر النعم أن يوفَّق المسلم لقراءة هذا الكتاب ، والله إنها نعمة عظيمة أن يوفق لقراءة هذا الكتاب ، وأن يجلس لفهمه ومدارسته ، لأنه كتابٌ أُخلص لأجلِّ الأمور وأعظم المقاصد وأنبل الأهداف ، أُخلِص لبيان التوحيد الذي خُلقنا لأجله وأوجدنا لتحقيقه ، أخلص لبيان أمرٍ ضل فيه كثير من الناس ، حتى منهم من ينتسب إلى الإسلام وينتسب إلى الدين! في ضياعٍ لا يعلم مداه إلا الله سبحانه وتعالى ، وذلك بسبب التفريط في دراسة التوحيد ، والتفريط في دراسة الاعتقاد الذي هو الأساس الذي يُبنى عليه الدين وتقام عليه الملة ، والإخلال به إخلالٌ بالدين كله كما قال الله سبحانه تعالى :

﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [المائدة:٥]، كما قال الله سبحانه:

﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ (٦٦) وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر:٦٥-٦٧].

ولئن كان خصوم هذه الدعوة المباركة حاولوا بشتى الوسائل أن يحجبوا عن الناس هذا الضياء وأن يحُولوا بينهم وبين هذا النور؛ إلا أنَّ الله سبحانه وتعالى يأبى إلا أن يتم نوره ، ولهذا لا يزال هذا الخير وهذه الدعوة المباركة تؤتي أُكُلها كل حينٍ بإذن ربها ، ولا يزال الناس يقبِلون على هذا الخير ويقبِلون على هذا النفع العظيم مع كثرة الدعايات المغرِضة ضد دعوته رحمه الله تعالى المباركة . ومن أكرمه الله عز وجل بزوال غبش هذه الدعايات عن وجهه رأى الحقيقة جليَّة ، ورأى الحق ساطعاً ظاهراً بيّنا ، بخلاف من أسلم نفسه للمغرضين وأهل الضلال والباطل وأصغى لأكاذيبهم وترويجاتهم الزائفة الباطلة .

واسمعوا –رعاكم الله– هذه القصة ففيها عظة وعبرة ، وقد ذكرها الإمام الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله تعالى مفتي هذه الديار كما في مجموع فتاواه ؛ عن رجل فاضل يقال له : عبد الرحمن البكري ، وقد أكرمه الله عز وجل بدارسة التوحيد وفهمه ، وكان عنده تجارة فيحتاج من أجل تجارته أن يذهب إلى الهند ويقيم بها الشهور العديدة ، فكان إلى جوار المكان الذي يسكن فيه أحد العلماء هناك يدرّس الطلاب ويجتمع حوله الطلاب وكان يبدأ كل درسٍ من دروسه ويفتتحه بلعن ابن عبد الوهاب . ثم إن هذا الرجل عبد الرحمن البكري أراد أن يوقف هذا الرجل على الحقيقة بعيداً عن الدعايات التي وصلت إليه ؛ فجاء إلى هذا الكتاب « كتاب التوحيد » ونزع الغلاف

الذي يتضح منه اسم المؤلف ، فمر به ذلك العالم فدعاه ورحَّب به وضيَّفه وأكرمه وترك الكتاب في مجلس قريباً من المكان الذي أجلسه فيه ثم غاب عنه ليُحضر شيئاً ، ورجع إليه والكتاب بيد ذلك العالم يقرأ ، وإذا ليس أمامه إلا آيات وأحاديث وتبويبات عظيمة ونفَس مبارك في توضيح التوحيد وبيان الحق والهدى !! رأى شيئاً واضحاً ظاهراً ، رأى نوراً ، فأُعجب بالكتاب ؛ فلما رجع إليه عبد الرحمن قال : لمن هذا الكتاب ؟ –فما أحب أن يخبره بما صنع – قال له : لعلنا نذهب إلى فلان الكُتُبي –صاحب مكتبة– نعرض عليه الكتاب لعله يفيدنا من هو صاحبه ؟ فذهبا معاً إليه ، فنظر إلى الكتاب وجاء بمجموعة التوحيد وقال : هذا الكتاب لمحمد بن عبد الوهاب ، قال هذا العالم : الكافر ؟! ، ثم أعاد النظر مرة ثانية وتنبَّه أن اللعن الذي كان يفعله وكذلك التكفير –والعياذ بالله– الذي يقوله في حق هذا الإمام كله مبني على دعايات ما أنزل الله سبحانه وتعالى بها من سلطان ، فتحوَّل من تلك القصة التي رأى فيها النور والضياء لا يفتتح درساً من دروسه إلا بالدعاء للشيخ رحمه الله ؛ هذه واحدة .

والثانية –وهي أيضاً عجيبة– حصلت لي أنا شخصياً في إحدى الدول ؛ ألتقيتُ رجلاً ودار بيني وبينه حوارٌ يطول شرحه لكنه قال لي : إن محمد بن عبد الوهاب يكره آل البيت ويسب آل البيت و..و..إلخ ، قلتُ له : كتب شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب أكثرها قد قرأتها كتاباً كتاباً ولم أرَ في كتابٍ واحد شيئاً من هذا الذي تقول ؛ فهل تسمي لي كتاباً واحداً معيَّناً فيه هذا الذي تقول ؟ قال لي : يعني ما في ؟ قلت : أنت تجزم الآن جزم بأن الشيخ كيت وكيت وكيت والآن تسألني !! قلت : يا أخي يجب أن تتقي الله ، قبل أن تتكلم انظر في حقيقة الأمر ولا تنساق مع هذه الدعيات الكاذبة المغرضة ، والله ستقف أمام الله عز وجل خصماً لهذا الإمام وأنت تتكلم فيه بغير علم ؛ تكلمتُ معه طويلاً ومن ضمن ما قلت له : كم أولادك وما أسماء أولادك؟ وهو يتعجب من سؤالي ، قلت له : الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله أتعرف من هم أولاده وما هي أسماؤهم؛ وقد قلت فيه ما قلت ؟ أولاده : علي ، وله بنت واحده اسمها فاطمة ، والحسن ، والحسين ، وعبد الله ، وإبراهيم ؛ وهؤلاء كلهم آل البيت ، وعبد العزيز هذا الاسم الذي عبَّده لاسم الله العزيز ، وبقية أولاده وبنت واحده كلهم بأسماء آل البيت. تعجب الرجل من هذه الحقيقة التي عمِي عنها بتلك الدعايات الكاذبة .

ومثل هذا كثير جداً ؛ حجَبَت الدعايات الكاذبة المغرضة الحقيقة وحالت بين العوام وبين شهودها ، والسبب في ذلك أئمة الضلال ودعاة الباطل ، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام : ((إِنَّ مِنْ أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَتِي الأَئِمَّةَ الْمُضِلِّين)) ؛ والسبب : أنهم يحجبون عن الناس الحقيقة .

هذا الكتاب الذي بين أيدينا « كتاب التوحيد » كتابٌ قائمٌ على قال الله قال رسوله صلى الله عليه وسلم ،حتى إنه من عجيب صنيع المصنف – بل من بديع تصنيفه رحمه الله لهذا الكتاب – أنه دخل في الآيات مباشرة دون أن يكتب مقدمة كما هي العادة للمصنفين والمؤلفين ، أليست عادة من يصنف كتاباً أن يبدأ بمقدمة يذكر فيها أهمية الكتاب وموضوع الكتاب وسبب تأليف الكتاب وأمور أخرى طويلة تُذكر في كثير من المصنفات ؟ الشيخ

رحمه الله تعالى بدأ الكتاب بقوله : ((بسم الله الرحمن الرحيم كتاب التوحيد وقول الله تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات:٥٦])) ؛ مباشرة دخل في الآيات ، وكأنه يوصل بذلك رسالة إلى كل من يقرأ كتابه أن الإيمان والتوحيد والدين يُبنى على قال الله قال رسوله صلى الله عليه وسلم . فجعل الآية والآيات التي تتبعها أقامها مقام الخطبة التي يصدَّر فيها الكتاب ويبيَّن من خلالها الغرض من تأليفه ، وفعلاً إذا فتحت الكتاب «كتاب التوحيد » وقرأت الآيات التي صدَّر بها الكتاب تغنيك عن خطبة يُشرَح لك فيها مقصود الكتاب والمراد منه ، إذ من خلالها تهديك إلى مراد الكتاب والغرض منه ؛ فاستغنى بها رحمه الله –وهذا من دقة علمه– عن خطبةٍ يمهِّد بها لكتابه ويذكر فيها سبب تصنيفه له .

فنسأل الله عز وجل أن يجزي هذا الإمام خير الجزاء على كتابه هذا وكتبه كلها وجُهده وجهاده ، وأن يُعلي درجته في الفردوس الأعلى ، وأن ينفعنا جميعاً بما حواه هذا الكتاب من علمٍ عظيم وتقريرٍ نافع وجمعٍ مبارك في أهم الأمور وأعظمها ؛ ألا وهو التوحيد الذي هو حق الله سبحانه وتعالى على العبيد .

وقد جعل رحمه الله عنوان كتابه هذا : « **التوحيد الذي هو حق الله على العبيد** » ؛ والتوحيد : مصدر للفعل وحَّد يوحِّد توحيداً ، وهو أصلٌ يدل على الإفراد . وتوحيد الله عز وجل : هو إفراده سبحانه وتعالى بخصائصه وحقوقه عز وجل ؛ إفراده بخصائصه : كالخلق والرَّزق والإنعام والتصرف والملك والتدبير وغير ذلكم من أفعاله سبحانه وتعالى ، وأيضاً إفراده بأسمائه الحسنى وصفاته العليا والإيمان بها كما وردت وإمرارها كما جاءت بلا تحريفٍ ولا تعطيل وبلا تكيفٍ ولا تمثيل ، وبإفراده سبحانه وتعالى بالعبادة وإخلاص الدين له ؛ ولهذا قال أهل العلم : التوحيد ثلاثة أقسام : توحيد الربوبية ، وتوحيد الأسماء الصفات ، وتوحيد الألوهية .

- أما توحيد الربوبية : فهو توحيد الله عز وجل بالخلق والرَزق والملك والتدبير وغير ذلكم من أفعاله جل وعلا .
- وأما توحيد الأسماء والصفات : فبإثباتها والإيمان بها في ضوء ما جاء في كتاب الله وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه .
- وأما توحيد الألوهية : فبإفراد الله سبحانه وتعالى بالعبادة وإخلاص الدين له .

ولما كان توحيد العبادة هو موضع الخصومة وبين الأنبياء وأقوامهم كتب رحمه الله كتابه هذا في هذا التوحيد خاصة «توحيد العبادة» ؛ لأنه موضع الخلل لدى كثير من الناس في قديم الزمان وحديثه ، مع أيضا تعريجٍ على النوعين الآخرين بحسب ما يقتضيه المقام في تبويبات هذا الكتاب المبارك ؛ ولهذا فإنَّ هذا الكتاب أُفرد لبيان التوحيد وذِكر دلائله وشواهده وبراهينه ، وأيضاً التحذير مما يضاد التوحيد من أصله أو يضاد كماله الواجب ؛ لأن التوحيد له نواقض وله نواقص ؛ له نواقض إن وجدت أذهبت به من أصله ، وله نواقص إن وجدت أذهبت

بكماله الواجب، وفي هذا الكتاب بيَّن ذلك رحمه الله ، فذكر ما ينتقض به التوحيد وذكر أيضاً نواقص التوحيد محذِّراً من ذلك كله ؛ صيانةً للتوحيد وتحقيقاً له وتتميماً وتكميلا .

وقوله رحمه الله في العنوان: « **الذي هو حق الله على العبيد** » ؛ أخذ ذلك من حديث معاذ رضي الله عنه الذي أورده في الباب الأول –كما سيأتي معنا في هذا الكتاب– قال : ((أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ ؟ وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ؟)) ، فالتوحيد حق الله على العباد ؛ لأجله خلقهم ، ولأجله أرسل الرسل وأنزل الكتب ، ولأجله انقسم الناس إلى فريقين : فريقٌ حققوا التوحيد وقاموا به ففازوا برضا الله سبحانه وتعالى وثوابه ، وآخرون نقضوا هذا التوحيد فخسروا الخسران المبين .

ونشرع في قراءة هذا الكتاب المبارك ، ومن الله سبحانه وتعالى نستمد العون ونستمنح التوفيق .

يقول الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي رحمه الله رحمة واسعة في كتابه «التوحيد الذي هو حق الله على العبيد »:

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

كتاب التوحيد وقول الله تعالى: {مَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} .

****

بدأ رحمه الله تعالى كتابه المبارك بالبسملة ((**بسم الله الرحمن الرحيم**)) تأسياً بكتاب الله جل وعلا وتأسياً بالرسول الكريم عليه الصلاة والسلام في مكاتباته ومراسلاته . والبسملة استعانة بالله وتيمُّنٌ وتبركٌ بذكر اسمه، وطلبٌ لمدِّه وعونه سبحانه وتعالى وتوفيقه ؛ ولهذا يستحب أن يُبدأ بها وأن تستهل بها الأمور . فإذا أكل المسلم يبسمل ، وإذا دخل بيته يبسمل ، وإذا خرج يبسمل ، وإذا قرأ يبسمل ، وإذا كتب أيضا يبسمل ، وهكذا ..

والباء في «**بسم الله**» للاستعانة . ومعنى «**بسم الله**» هنا :أي بسم الله أكتب . إذ إنَّ للجار والمجرور في «**بسم الله**» محذوف مقدَّر يُعلم من حال المبسمِل ؛ فإن كان كتابةً فالمعنى : بسم الله أكتب ، وإن كان قراءةً فالمعنى : بسم الله أقرأ ، وإن كان دخولاً فالمعنى : بسم الله أدخل ، وهكذا .

((**بسم الله الرحمن الرحيم**)) ؛ وجُمع في البسملة ثلاثة أسماء حسنى لله تبارك وتعالى ؛ أما «الله» فهو كما يقول ابن عباس رضي الله عنهما في بيان معناه : ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين ، أي أن هذا الاسم يدل على الألوهية التي هي وصف الرب التي هي أوصاف الجلال والكمال والعظمة التي استحق بها سبحانه وتعالى أن يُؤلَه وأن يُخضع له ويُذل ، وتدل على العبودية التي هي العمل الذي يقتضيه إيمان العبد بألوهية الله من ذلٍ وخضوعٍ وانكسارٍ وطاعةٍ لله سبحانه وتعالى . وإلى هذا الاسم ترجع جميع الأسماء ، وهذا واضح من تفسير ابن عباس رضي الله عنهما لهذا الاسم قال : «ذو الألوهية والعبوديه على خلقه أجمعين» ؛ ذو الألوهية عرفنا معناه أي

الذي له أوصاف الكمال والجلال والعظمة التي استحق بها أن يُؤله وأن يُعبَد ، فدخلت الأسماء والصفات كلها تحت هذا المعنى . وذو العبودية : أي ما يقتضيه الإيمان بهذا الاسم من عبوديةٍ وطاعةٍ وذلٍ وخضوع وانكسار .
و«**الرحمن الرحيم**» اسمان لله عز وجل دالان على ثبوت الرحمة . وقيل في الفرق بينهما : أن «الرحمن» دلالته على ما قام بالله عز وجل من هذا الوصف الذي هو الرحمة ، و«الرحيم» دالٌ على تعلق هذا الوصف بالمرحوم ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾[الأحزاب:٤٣] ، وقيل غير ذلك ؛ فهما اسمان دالان على ثبوت الرحمة لله سبحانه وتعالى ؛ الرحمة العامة التي وسعت كل شيء ، والرحمة الخاصة التي خصَّ بها عباده المؤمنين وأولياؤه المتقين .

ثم قال رحمه الله : ((**الحمد لله وصلى الله على نبينا محمد وآله وسلَّم**)) ؛ وهذا الحمد والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثابت في نسخ معتمدة من كتاب التوحيد كما بيَّن ذلك حفيد المصنف الشيخ عبد الرحمن بن حسن رحمه الله تعالى في كتابه «فتح المجيد» ، فهذا الحمد والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثابت ويقول الشيخ عبدالرحمن بن حسن أنه وقف عليه في نسخة معتمدة بخط الشيخ رحمه الله ، فلا يؤثر عدم وجوده في بعض النسخ أوفي بعض الطبعات ؛ إذ هو ثابتٌ بخط المصنف رحمه الله تعالى في نسخ معتمدة لهذا الكتاب . وعلى فرض عدم وجود الحمد والثناء فالاكتفاء بالبسملة سائغ ولا حرج في ذلك ؛ لكن الشيخ رحمه الله صدَّر الكتاب بالبسملة ، وحمد الله سبحانه وتعالى ، والصلاة والسلام على رسوله صلى الله عليه وسلم .
والحمد : هو الثناء مع الحب ، حمد الله عز وجل هو الثناء على الله مع حبه جل وعلا ؛ لأن الحمد إذا عري من الحب يسمى مدحاً ، فحمد الله هو الثناء عليه مع حبه وإجلاله وتعظيمه سبحانه ، والله يُحمَد على أسمائه وصفاته ، ويُحمد جل وعلا على نعمه وآلائه وأفضاله .
والصلاة على الرسول صلوات الله وسلامه عليه : ثناء الله عليه في الملأ الأعلى ، وقد قال الله في القرآن : ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[الأحزاب:٥٦] صلوات الله وسلامه عليه .

وقوله رحمه الله : ((**كتاب التوحيد**)) ؛ كتاب : مصدر بمعنى مكتوب ، وأصل هذا اللفظ من الجمع ، ولهذا يقال: تكتَّب الناس أي: تجمَّعوا ، والكتيبة : الجماعة من الناس . ف«كتاب» : مصدر بمعنى مكتوب . فقوله : ((**كتاب التوحيد**)) أي هذا مكتوبٌ جامع في أمور التوحيد وفيما يتعلق بالتوحيد .
والتوحيد كما عرفنا مصدر للفعل وحَّد يوحِّد توحيداً ، وهو دالٌ على الإفراد . وتوحيد الله عز وجل: أي إفراده سبحانه بخصائصه وحقوقه جل وعلا .

قال: ((**كتابُ التوحيدِ وقولِ الله تعالى**)) ؛ بالخفض في «**قولِ**» معطوفاً على «**التوحيد**» ، ويجوز الرفع على الاستئناف «**وقولُ الله تعالى:{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}**» .

صدَّر بهذه الآية لبيان عظمة التوحيد وأهميته ومكانته العليا وأنه الغاية التي خُلق الخلق لأجلها وأُوجدوا لتحقيقها ، ولم يضع باباً -رحمه الله تعالى- لهذه الآيات كما سيأتي في الأبواب التي بعده ، وإنما دخل مباشرة دون أن يضع باباً كأن يقول : بابٌ في أهمية التوحيد ، أو بابٌ في مكانة التوحيد ، أو بابٌ في عظمة التوحيد أو نحو ذلك ، وإنما دخل مباشرةً في سرد هذه الآيات . ونحن نعلم أن الكتب تحتها أبواب ، لكنَّ ما صدَّر به رحمه الله تعالى كتاب التوحيد من آيات لم يضع باباً !! وذلك أن من يقرأ هذه الآيات التي أقامها رحمه الله تعالى كما قدَّمت مقام الخطبة للكتاب التي من خلالها يتضح مراده ، وكأنه -كما قدمت- يريد القارئ أن يقف على موضوع الكتاب ومضمون الكتاب وطريقة الكتاب من خلال الآيات التي يسوقها مباشرة . وهذا فعلاً ظاهر من صنيعه في انتقاء هذه الآيات العظيمة التي تبين مكانة التوحيد العظيمة ومنزلته العلية .

والآيات التي ساقها رحمه الله -كما سيأتي إيضاح ذلك في كلِّ موضع- جمعت بيان أهمية التوحيد ومكانته العظيمة من خلال :

- أولاً : بيان أنه الغاية التي خُلق الخلق لأجلها وأُوجدوا لتحقيقها ؛ كما في الآية الأولى .
- ومن خلال بيان أنه الأمر الذي لأجله أرسل الله عز وجل الرسل ولأجله بعثهم ؛ كما في الآية الثانية .
- ومن خلال بيان أنه أوجب الواجبات وأعظم الفرائض وأجلُّها على الإطلاق وأنه يُبدأ به ويُقدَّم على غيره ؛ كما في الآيات الثالثة والرابعة والخامسة .
- ومن خلال بيان أن ضده وهو الشرك أعظم النواهي وأخطر الآثام ؛ كما في الآية الخامسة .
- ومن خلال بيان أنه حق الله على العباد ؛ كما في حديث معاذ .

فجمعت هذه الآيات بيان مكانة التوحيد العظيمة ومنزلته العلية وأنه الغاية التي خُلق لأجلها الخلق ولأجلها أرسل الرسل، وأنه أوجب الواجبات وأعظم الفرائض ، وأن ضده وهو الشرك بالله أخطر الآثام وأعظم الظلم ، وأن التوحيد هو حق الله سبحانه وتعالى على العبيد ؛ وهذا كله مما يبين مكانة التوحيد العظيمة ومنزلته العلية . وهذا هو الغرض إجمالاً من سياق المصنف رحمه الله تعالى لهذه الآيات والتي بدأها بقول الله سبحانه وتعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ .

وهذه الآية الكريمة وهي في أواخر الذاريات فيها أن الغاية التي خلق الله عز وجل الخلق لأجلها وأوجدهم لتحقيقها هي عبادة الله وإخلاص الدين له ، فأخبر عز وجل أنه فعل الأول – الذي هو الخلق : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ

﴿وَالْإِنسَ﴾ – ليفعلوا هم الثاني وهو العبادة كما قال : ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ، والأسلوب هنا أسلوب حصرٍ وقصر ؛ ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا﴾ لغاية واحدة ومقصد واحد وهو أن يعبدوا الله ، لم يُخلقوا لشيء آخر، إنما خُلقوا ليقوموا بعبادة الله .

وقوله : ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي : إلا ليوحِّدون ، وكلُّ أمر بالعبادة في القرآن أمرٌ بالتوحيد ، لأن العبادة بدون التوحيد لا يقبلها الله سبحانه وتعالى ، كالشأن في الصلاة إذا كانت على غير طهارة ؛ الصلاة بدون طهارة لا تُقبل ، والعبادة بدون توحيد لا يقبلها الله وإن كثرت وتعدَّدت وتنوعت . قد مر معنا قول الله سبحانه وتعالى : ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الزمر:٦٥-٦٦] ، فمن لم يخلص العبادة لله ما عبَد الله ، لأن العبادة لا تكون عبادةً إلا بالتوحيد ؛ وعليه فإن قوله سبحانه وتعالى : ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي : إلا ليوحدوني بالعبادة ، ليخلصوا العبادة لي . فمن لم يخلص العبادة لله سبحانه وتعالى لم يقم بالغاية التي خُلق لأجلها وأوجد لتحقيقها .

والمشركون الذين قاتلهم النبي عليه الصلاة والسلام كانوا يعبدون الله ويعبدون معه الأصنام ، بل يقولون في سبب عبادتهم للأصنام ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ فهم كانوا يعبدون الله ، ومع أنهم كانوا يعبدون الله ماذا قال الله عنهم في سورة الكافرون ؟ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ مع أنهم كانوا يعبدون الله! لكن لما كانت عبادتهم لله سبحانه وتعالى ليست خالصة بل أشركوا مع الله غيره لم يكونوا في الحقيقة يعبدون الله ؛ لأنه لا يُعبد الله إلا بالإخلاص ، ولا يكون المرء عبداً لله إلا إذا أخلص الدين لله. أما الذي يجعل مع الله سبحانه وتعالى شريكاً في العبادة أو في شيء من العبادة ليس عبداً لله .

فانتبه لهذه الفائدة والشيخ رحمه الله تعالى نبه عليها في المسائل ؛ ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ مع أن المشركين كانوا يعبدون الله مع الأشياء الأخرى التي كانوا يعبدونها ، بل إن كلمة «شرك» التي هي صفتهم تدل على أنهم كانوا يعبدون الله مع الأشياء التي كانوا يعبدونها ، لأن الشرك ما هو ؟ التسوية ؛ فسوَّوا غير الله بالله ، ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ المراد المشركين ﴿مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥] سوَّوا بين الأصنام وبين الله في المحبة ، محبة العبودية والذل والخضوع سوَّوا غير الله بالله فيها . فإذاً لا يكون العبد محققاً الغاية التي

خُلق لأجلها ووجد لتحقيقها إلا بالتوحيد ، فمعنى ﴿ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ : أي إلا ليوحدوني بالعبادة ، فيخلصوا الدين لله سبحانه وتعالى .

قال المصنف رحمه الله :

وقوله : { وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ } [النحل:٣٦] .

****

هذه الآية ساقها رحمه الله تعالى لبيان أنَّ التوحيد الذي هو حق الله على العبيد هو الغاية من بعثت الرسل ، وأنَّ الرسل من أولهم إلى آخرهم دعوتهم واحدة إلى توحيد لله وإخلاص الدين له ، وأول ما يبدأ به الأنبياء أقوامهم الدعوة إلى توحيد الله ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف:٥٩] ، أول كلمة تقرع سمع الأقوام من أنبياءهم هي هذه الكلمة ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ .

والتوحيد هو زبدة دعوة المرسلين وخلاصة رسالتهم وصفْو دعوتهم ، ولهذه الآيات نظائر في القرآن؛ كقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء:٢٥] وقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [الزخرف:٤٥] ، وقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ ﴾ أي الرسل ﴿ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾ [الأحقاف:٢١] ، فالرسل من أولهم إلى آخرهم بُعثوا لهذه الغاية وأُرسلوا لهذا المقصد ﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ .

وقوله ﴿ وَلَقَدْ ﴾ فيه تأكيدان : باللام ، وقد .

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا ﴾ وهذا فيه قيام الحجة ببعثة المرسلين ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ [النساء:١٦٥] ؛ فبَعَث الرسل تترا ووالى سبحانه وتعالى بين الرسل وبعث في كل أمة رسولاً لإقامة الحجة وإزالة المعذرة وإبانة السبيل ، وقد بلَّغ الرسل البلاغ المبين .

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا ﴾ ؛ لماذا؟ ما المقصد من ذلك؟ ما الغرض من ذلك ؟ ما الغاية من ذلك ؟ ﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ ؛ وهذا هو التوحيد : النفي والإثبات .

قوله تبارك وتعالى : ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ هذا هو الغاية التي لأجلها أرسل الرسل ، وهو معنى «لا إله إلا الله» ، لأنه قوله : ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ هو مدلول الإثبات في قوله: «إلا الله» ، وقوله : ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ هو مدلول النفي في قوله: «لا إله» . فقوله : ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ هذا مدلول كلمة التوحيد «لا إله إلا الله» . وقد مر معنا في الآية الكريمة قول الله سبحانه : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ ﴾ هذا هو المفسَّر هنا بقوله ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ ، فهناك ذُكرت كلمة التوحيد بلفظها وهنا ذُكرت كلمة التوحيد بمعناها ، فـ «لا إله إلا الله» معناها: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ .

وقوله ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ : أي أخلصوا العبادة لله سبحانه وتعالى فأفردوه بها ، والعبادة لا تكون عبادةً إلا بالتوحيد كما مر، وهذا يُنقل عن ابن عباس رضي الله عنهما يقول : «كل أمر بالعبادة أمر بالتوحيد» .

وقوله ﴿اجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ أبلغ من قول "اتركوا عبادة الطاغوت" ، لأن «اجتنبوا» فيها قدر زائد على الترك ألا وهو : المباعدة والمبالغة في الابتعاد والحذر الشديد ؛ وهذا هو المطلوب من المسلم أن يبتعد غاية الابتعاد وأن يحذر غاية الحذر من عبادة الطاغوت . وتأمل هذا المعنى في دعوة إبراهيم الخليل عليه السلام إمام الحنفاء قال: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم:٣٥] ؛ أي اجعلني في جانبٍ بعيد عن الأصنام وعن عبادتها ، وهذا هو الواجب على المسلم تجاه هذه الكبيرة التي هي أعظم الكبائر . والمعنى هذا أيضاً جاء في قوله عليه الصلاة والسلام : ((اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ)) وصدَّرها بكبيرة الشرك بالله التي هي أعظم الكبائر وأشد الظلم وأكبر الجرائم على الإطلاق .

والطاغوت : مشتق من الطغيان ؛ وهو ما تجاوز به العبد حدَّه من معبودٍ أو متبوعٍ أو مطاع . والسلف رحمهم الله في كتب التفسير لهم عبارات وألفاظ كثيرة في شرح معنى الطاغوت والمراد به ، لكنها كلها تجتمع في هذه الخلاصة التي ذكرها ابن القيم رحمه الله ملخِّصاً فيها عبارات السلف في تفسير الطاغوت بقوله : «ما تجاوز به العبد حدَّه من معبود أو متبوع أو مطاع» ؛ من الطغيان وهو تجاوز الحد.

ومن عُبِد من دون الله وهو راضٍ فهو طاغوت ، ومن عُبِد من دون الله وهو غير راضٍ كالأنبياء والملائكة والصالحين من عباد الله لا يضرهم ذلك ، والطاغوت هنا هو الشيطان لأنه هو الذي دعا الناس إلى عبادة هؤلاء فأطاعوه ، وأما الأنبياء والأولياء والصالحين من عباد الله سبحانه وتعالى فلا يضرهم ذلك ، بل إنهم يبرؤون إلى الله

سبحانه وتعالى ويتبرؤون من ذلك ، وهذا لا يضرهم . والطاغوت هنا : الشيطان الذي دعاهم إلى عبادة غير الله سبحانه وتعالى فأطاعوه .

ثم واصل الشيخ رحمه الله تعالى في ذكر الآيات في بيان مكانة التوحيد وعظيم شأنه وجليل مقامه ونؤجل الكلام عليها إلى اللقاء القادم بإذن الله سبحانه وتعالى .

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك .

اللهم صل وسلِّم وبارك على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

الدرس الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد :

يقول الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي في كتابه «التوحيد الذي هو حق الله على العبيد» : قال كتاب التوحيد وذكر الدليل الثالث :

وقوله: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا} الآية [الإسراء:٢٣] .

****

فهذا الدليل الثالث مما ساقه الإمام شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في صدر كتابه التوحيد ، قول الله عز وجل في سورة الإسراء : ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ ، قال بعدها : ((**الآية**)) أي : إلى آخر الآية ، أو اقرأ الآية ، أو نحو ذلك.

وموضع الشاهد من هذه الآية الكريمة للترجمة: بدء الله عز وجل بالتوحيد الذي هو أعظم المطالب وأجلُّ الغايات. قال : ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ ؛ والقضاء هنا هو القضاء الشرعي ، لأن القضاء يرِد في القرآن تارةً يراد به القضاء الكوني كقوله تعالى: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ [فصلت:١٢] ، وتارةً يراد به القضاء الشرعي الديني كما في هذه الآية ؛ وعليه فقوله تعالى ﴿وَقَضَى رَبُّكَ﴾ أي : أمر ووصى وشرع وأوجب .

﴿أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ : أي وصى بذلك وقضى بذلك شرعا وديناً ؛ ألا تعبدوا إلا إياه .

وقوله : ﴿أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ هو معنى ومدلول كلمة التوحيد «لا إله إلا الله» ، وهي قائمة كما عرفنا على النفي والإثبات ، ولا توحيد إلا بهما ؛ من نفى ولم يثبِت لا يكون موحِّداً ، ومن أثبت ولم ينفِ لا يكون موحِّدا ؛ فالتوحيد نفيٌ وإثبات «لا إله» ، «إلا الله» . مدلول هذه الكلمة هو ﴿أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ ؛ ﴿أَلاَّ تَعْبُدُوا﴾ هذا مدلول «لا إله» ، ﴿إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ هذا مدلول «إلا الله» ، فنفى وأثبت وهذا هو التوحيد . ومِثْله ما مرَّ في قوله: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ فيها النفي والإثبات ؛ الإثبات في ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ ، والنفي في ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ .

﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ : أي شرع ووصى وأمر وأوجب أن يُخلَص له الدين وأن يُفرَد وحده بالعبادة وأن لا يُجعل معه شريك في شيء منها ، وذكر بعد هذا جملةً من الأوامر ، وسيأتي تنبيه المصنف رحمه الله في

المسائل التي ساقها في خاتمة هذه الترجمة ، ومن طريقته رحمه الله أن يُتْبع كل ترجمة بمسائل يبين ما ينبغي أن يتنبَّه له ويُحرَص على الاستفادة منه مما هو مستفادٌ من الآيات والأحاديث التي ساقها . وسنقرأ بإذن الله تبارك وتعالى في نهاية كل ترجمة المسائل التي أوردها رحمه الله تعالى.

بدأ هذه الأوامر بالأمر بالتوحيد وإخلاص الدين له ، وهي أوامر كثيرة أشار رحمه الله تعالى إلى أن عددها ثمانية عشرة أمراً ونهياً – وسيأتي ذكر ذلك في المسائل– صدَّرها أو بُدئت بالأمر بالتوحيد ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ ، والآية التي قبل هذه الآية هي قوله : ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا (٢٢) وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ فصُدِّرت هذه الأوامر والنواهي بالنهي عن الشرك والأمر بالتوحيد ؛ فأفاد ذلكم أن الأمر بالتوحيد والنهي عن ضده وهو الشرك هو أعظم المطالب وأجلُّها على الإطلاق ، ولهذا به يُبدأ كما في هذه الآية وفي آيات عديدة ساقها رحمه الله تعالى .

ذُكر بعد هذا الحق العظيم حق الله على العباد؛ حق الوالدين ، قال : ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ ؛ فذَكَر حقهما عقب حقه وبعده ، وفي هذا دلالة أن حق الوالدين أعظم الحقوق بعد حق الله سبحانه وتعالى ولهذا قدَّمه على غيره من الحقوق والواجبات التي ذُكرت في الآية ، وكثيراً ما يأتي في القرآن الكريم وكذلكم في أحاديث الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام قرن حق الوالدين بحق الله ، كهذه الآية وكذلكم الآيات التي ساقها بعدها ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ﴾ [الأنعام:١٥١] ، ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [النساء:٣٦] ، ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ [لقمان:١٤] والآيات في هذا المعنى كثيرة وكذلكم الأحاديث عن النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه .

وقوله﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أطلق ولم يعيّن نوعاً من الإحسان ؛ ليتناول اللفظ بإطلاقه وعمومه كل إحسانٍ ممكن ومقدورٍ عليه قولي أو فعلي ، وهذا من كمال الخطاب وعظم أيضاً دلالاته وشموله لكل وجوه الإحسان المقدور عليها . ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ : أي أحسِن لهما ما استطعت في كل مجالٍ وبكل طريقةٍ وبكل أسلوبٍ مقدور عليه أحسن إليهما .

ويأتي حقٌ أعظم للوالدين عند بلوغهما أو أحدهما الكبر ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ ، وبلوغ الكبر فيه الضعف ووهن القوى والحاجة أيضاً إلى العون والمساعدة ، ولهذا جاء التأكيد على حق الوالدين والإحسان إلى الوالدين ولاسيما في هذا الحالة بلوغ الكبر . وحقيقةً وجود الأبوين أو والد الأبوين ، وجود كبار السن في البيوت وتوفيق الله سبحانه وتعالى لعبده للقيام بحقهما وعنايته بهذا الأمر هذا من أعظم

المواهب ومن أجل العطايا والمنن التي يكرم الله سبحانه وتعالى بها من يشاء من عباده ، وآثار ذلك وثماره لا حصر لها ولا عد .

﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ ﴾ ؛ لاحظ هذا التنبيه ولاسيما في حال الكبر ، لأن كبير السن في حال ضعفه في حال أيضاً أحياناً ضعف قواه وتفكيره وتعامله ، شدة ما يكون ما يعاني منه من أمراض أو نحو ذلك قد تفضي ببعض الناس إلى نوع من التضجر أو الملل من الوالد أو الوالدين أو نحو ذلك ؛ فجاء هذا التنبيه العظيم ﴿ فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ﴾ ، و«أف» هذه الكلمة نُبِّهَ بها – وهي أقل ما يكون من الإساءة القولية – على ما هو أعظم من ذلك ، إذا كان في الآية نهي عن التأفُّف من الوالدين أو من أحدهما فكيف بما هو أعظم من التأفف !! من إساءةٍ في القول أو إغلاظٍ في الكلام أو رعونةٍ في التعامل أو نحو ذلك ؛ ﴿ فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ﴾ والنهر : هو الزجر الإغلاظ في القول والإساءة في التعامل .

﴿ وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ : أي عندما تتحدث مع الوالدين تحدَّث بالقول الكريم . وقوله ﴿ وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ هذا مقام منافسة في تخيُّر أطيب الألفاظ وأحسن العبارات وأجمل الأساليب في مخاطبة الوالدين . كثير من الناس إذا لقي أحد أصدقائه أو زملائه يجتهد اجتهاداً كبيراً ليختار له العبارة الجميلة " أخي الفاضل ، زميلي العزيز ، صديقي الكريم ، لك عندي كذا ، وفي قلبي كذا .. " إلى آخره ، وإذا دخل على أمه وجميلها عليه أعظم جميل وإحسانها إليه أحسن إحسان ما يحسن أن يختار لها أو ينتقي لها عباراتٍ طيبة أو كلماتٍ جميلة أو قولٍ كريم . وربما لو أنَّ أحداً من الناس لو صنع له معروفًا ما أَسَرَه بمعروفه وإحسانه وأصبح كلما لقيه ذكر ذلك المعروف والإحسان فأحسن الخطاب وأجاد في التعامل ، وإحسان الأم إلى ولدها ما يقارن ولا يوازى ولا يُلحق فكيف ينسى ذلك الجميل !! وكيف ينسى ذلك الإحسان !! وكيف يكون القول الكريم للآخرين ولا يكون لها حظ منه ولا نصيب !! .

ومن لطيف وجميل صنيع الإمام البخاري رحمه الله تعالى في كتابه المبارك الأدب المفرد – وهو كتاب عظيم في بابه باب الأدب والأخلاق – صدَّر هذا الكتاب بباب بر الوالدين ، وأول حديثٍ أورده في هذا الباب حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قَالَ : سَأَلْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؟ قَالَ: (الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا) قُلْتُ ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ (ثُمَّ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ) إلى آخر الحديث ؛ منبِّهاً بذلك رحمه الله تعالى أن هذه الآداب المبثوثة في الكتاب والأخلاق العظيمة التي ذُكرت في الكتاب أحق من يكون بها الوالدان .

﴿ وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴾ أي أنَّ التعامل معهما ينبغي أن يكون بخفض الجناح ولين الجانب واللطف في التعامل والبشاشة إلى غير ذلكم من المعاني العظيمة . ثم العناية بالدعاء ﴿ وَقُلْ رَبِّ

ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ أي حافظ واعتنِ بهذه الدعوة ﴿ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ ، اِسأل الله عز وجل لهما الرحمة أحياءً كانوا أو أمواتاً ، وأكثِر من هذا الدعاء العظيم الذي أمر الله به ﴿ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا ﴾ ، فاعتنِ بهذا الدعاء العظيم الذي أمر الله سبحانه وتعالى به في هذا المقام ؛ مقام بر الوالدين والإحسان إليهما .

﴿ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ ؛ «كما ربياني» تذكُّرٌ للإحسان والجميل السابق ، وهذا –أيها الإخوة الكرام– أعظم عون للعبد على البر ، وإذا غفل الإنسان عنه ضعف بره وضعُف إحسانه ، وكلما كان مستحضراً الجميل السابق والإحسان العظيم الذي من الوالدين فإنَّ هذا من أعظم ما يعينه على البر والإحسان وكثرة الدعاء.

قال رحمه الله تعالى :

وقوله : { وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا } الآية [النساء:٣٦] .

****

وقوله : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ ؛ وهذه الآية كما سيأتي إشارة المصنف رحمه الله إلى أنها تُعرف بـ « آية الحقوق العشرة » ؛ لأنها تضمنت عشرة حقوق أمر الله سبحانه وتعالى بها ، وقُدِّم في هذه الحقوق العشرة حق الله على العباد ، فعُلِم بهذا التقديم أنه أعظم الحقوق وأجلُّ الواجبات على الإطلاق وأنه هو المقدَّم وله التقديم والعناية والاهتمام على غيره من الحقوق ، ولهذا قدَّمه الله سبحانه وتعالى قال : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ .

وفي ذكر هذا الحق أمرٌ ونفي ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ ، ﴿ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ ؛ وهذا هو التوحيد ، فالتوحيد نفيٌ وإثبات لا توحيد إلا بهما ، ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ هذا الإثبات ، ﴿ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ هذا النفي ، وهذا هو حقيقة التوحيد وحقيقة «لا إله إلا الله» أن يُخلَص الدين لله سبحانه وتعالى وأن يفرَد عز وجل بالعبادة ، وأن لا يجعل معه الشركاء .

﴿ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ وشيئاً جاءت نكرة في سياق النهي وهذا يفيد العموم أي : أيَّ شيء كان وأيَّ شرك كان قَلَّ أو كثر صغُر أو كبر ؛ لا يُجعل مع الله شريك ولا يشرك بالله سبحانه وتعالى أيَّ شيء ﴿ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ .

ثم أتبع ذلك بحق الوالدين قال : ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ ؛ وهذا فيه ما سبق الإشارة إليه أن حق الوالدين أعظم الحقوق بعد حق الله سبحانه وتعالى .

قال رحمه الله تعالى :

وقوله : { قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا } الآيات [الأنعام: ١٥١-١٥٣] .

****

وهذه الآية وآيتين بعدها اشتملت على وصايا ، ولهذا كل آية تُختم ﴿ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ ﴾ ، وصايا من الله سبحانه وتعالى لعباده ،وصايا عظيمة ، وهذه الوصايا بُدئت بأعظم الوصايا على الإطلاق الوصية بالتوحيد ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ ، وفي السياق كما نبَّه أهل العلم ومنهم ابن كثير رحمه الله في تفسيره محذوفٌ مقدر دلَّ عليه السياق «قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ؛ وصاكم أن لا تشركوا به شيئا» .

فالنهي عن الشرك والأمر بالتوحيد هو أعظم وصايا الرب سبحانه وتعالى لعباده ، ولهذا قال ابن مسعود فيما نقله عنه المصنف رحمه الله تعالى : «من أراد أن ينظر إلى وصية محمد صلى الله عليه وسلم التي عليها خاتمه فليقرأ قوله تعالى ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ إلى قوله ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾» ؛ مراد ابن مسعود أن النبي عليه الصلاة والسلام لو قدِّر أنه كتب وصيةً وختَم عليها ووضع عليها الختم والطابَع لوصى بهذه الوصايا التي هي وصايا الرب، لأنه عليه الصلاة والسلام يوصي بما وصَّى به رب العالمين سبحانه وتعالى ، ولهذا قال رضي الله عنه : «من أراد أن ينظر إلى وصية محمد صلى الله عليه وسلم التي عليها خاتمه فليقرأ» أي هذه الآيات الثلاث . ليس معنى ذلك أن النبي عليه الصلاة والسلام كتب هذه الآيات ووضع عليها الختم ووضع عليها الطابع ، ليس هذا المراد ، وإنما المراد أن النبي عليه الصلاة والسلام لو وصى وكتب وختم ووضع الطابع على ما كتب لم يزد على هذه الوصايا . وهذا تنبيه من ابن مسعود رضي الله عنه وأرضاه على عظم شأن هذه الوصايا وأنها أعظم الوصايا على الإطلاق وأجمعها . وصُدِّرت هذه الوصايا بأعظم ما يكون ألا وهو : توحيد الله وإخلاص الدين له والبراءة من الشرك .

قال رحمه الله تعالى :

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه قال : كنت رديف النبي صلى الله عليه وسلم على حمار ، فقال لي: ((يا معاذ ، أتدري ما حق الله على العباد وما حق العباد على الله؟)) قلت : الله ورسوله أعلم ؟ قال : ((حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا ، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئا)) . قلت: يا رسول الله أفلا أبشر الناس ؟ قال : ((لا تبشرهم فيتكلوا)) أخرجاه في الصحيحين .

****

ثم ختم رحمه الله تعالى هذه الترجمة بحديث معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : ((**كنت رديف النبي صلى الله عليه وسلم على حمار**)) ؛ وهذا فيه كما أشار المصنف رحمه الله تواضع النبي الكريم عليه الصلاة والسلام لركوب الحمار مع الإرداف عليه ، مع وجود دواب أفضل وأحسن من الحمار لكنه كان عليه الصلاة والسلام يركب الحمار وأيضاً يُردف ، وقد أردف معه على الحمار غير مرة ؛ أردف معاذ كما في هذا الحديث ، وأردف ابن عباس ، وأرد أيضاً الفضل ابن عباس ، وأردف عدداً ، حتى إن أحد العلماء المتقدمين أفرد مصنَّفاً في «مَن أردفهم النبي صلى الله عليه وسلم» وجمع ذلك من خلال الأحاديث ، فكان عليه الصلاة والسلام وهذا من تواضعه يركب الحمار وأيضاً يُردف على الحمار صلوات الله وسلامه عليه .

قال : ((**كنت رديف النبي صلى الله عليه وسلم على حمال فقال لي : يا معاذ**)) ؛ وهذا أيضاً من حسن الخطاب وجمال التودد، يخاطبه ويلاطفه ويناديه باسمه ، وفي موضع آخر قال له : ((يَا مُعَاذُ وَاللَّهِ إِنِّي أُحِبُّكَ)) فكان عليه الصلاة والسلام يتودد ويتلطف في خطابه تلطفاً عظيماً يجذب القلوب ويأسر النفوس ويهيِّئها أيضاً لكمال الاستفادة مما يُلقى من بيانٍ ونصح وخير .

قال : ((**يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد وما حق العباد على الله؟**)) ؛ بيَّن عليه الصلاة والسلام هذا المقام بهذا الأسلوب السؤال الذي يشوق السامع ويهيئه لكمال الاستفادة «أتدري ما حق الله على العباد وما حق العباد على الله ؟» ، لاحظ الفرق بين هذا الأسلوب العظيم وبين لو قيل مباشرة : "حق الله على العباد كذا وحق العباد على الله كذا" ؛ الأول أكثر وأعظم تشويقاً وجذبا للنفوس ، تصبح النفس متهيئة ومستعدة .

((**قال يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد وما حق العباد على الله ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ؟**)) وهذا فيه أن من الأدب أن يوكَل العلم إلى عالمه ، ففي زمانه عليه الصلاة والسلام يقال الله ورسوله أعلم ، وبعد وفاته عليه الصلاة والسلام إذا سُئل أحدٌ عن مسألةٍ ما لا علم له بها يشرع له أن يقول الله أعلم ، فيكِل العلم إلى عالمه .

((**قال : حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا**)) ؛ وهذا موضع الشاهد من سياق هذا الحديث للترجمة ، ومنه أيضاً أخذ رحمه الله تعالى اسم الكتاب «كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد» .

قال : ((**حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا**)) وهذا حقٌ أوجبه الله على عباده ، بل خلقهم لأجله ، وأوجدهم لتحقيقه ، وبعث رسله للدعوة إليه وأنزل كتبه ؛ فهو حقٌ واجب وفرضٌ لازم ومتعين ، حق أوجبه الله على العباد ((أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا)) ؛ «أن يعبدوه» : أي يخلصوا الدين له . «ولا يشركوا به شيئا» أي لا يجعلوا معه الشركاء والأنداد في أي شيء من العبادات ، إذ العبادة حق لله سبحانه وتعالى فلا يُجعل معه شريك في شيء منها .

((**أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا**)) ؛ وهذا يستوجب من كل مكلف أن يعرف العبادة وأن يعرف ما تشمله من أعمالٍ وأقوالٍ وأفعال ظاهرةٍ أو باطنة، ليخلِصها كلها لله سبحانه وتعالى ولئلا يجعل مع الله سبحانه وتعالى شريكاً

في شيء منها ، وأما من لم يفهم هذا المقام ربما قال «لا إله إلا الله» وربما أيضاً قرأ هذه الآيات ومرَّ عليها مرات وكرات لكنه يقع فيما نُهي عنه وحُذِّر منه فيدعو غير الله ويستغيث بغير الله ويطلب المدد من غير الله ونحو ذلك .

قال : ((**وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئا**)) ؛ وهذا حقٌ أوجبه الله سبحانه وتعالى على نفسه تفضلاً وتكرماً منه على العباد ، وهو وعدٌ والله سبحانه وتعالى لا يخلف الميعاد ، أوجب على نفسه أن لا يعذب من لا يشرك به شيئا . وهذا فيه أن من أخلص التوحيد وحقق التوحيد دخل الجنة بدون حساب ولا عذاب ، وسيأتي في ذلكم ترجمة خاصة عند المصنف رحمه الله تعالى .

((**قال معاذ : قلت يا رسول الله أفلا أبشِّر الناس ؟**)) ؛ وهذا فيه استحباب تبشير الناس بما يسرُّهم ، وهذا يتضمن بشارة عظيمة وجليلة القدر ، ومعاذ لما سمع ذلكم من النبي عليه الصلاة والسلام فرح به وفور فرحه به أراد أن يُدخل السرور أيضاً على الناس بهذه البشارة العظيمة جليلة القدر ، ولهذا استأذن النبي عليه الصلاة والسلام قال ((أفلا أبشر الناس؟)) وهذا فيه كما قدَّمت استحباب تبشير الناس بما يسرهم والمسارعة أيضاً إلى ذلك كما صنع معاذ ؛ فور سماعه من النبي عليه الصلاة والسلام قال «أفلا أبشر الناس ؟»

((**قال : لا تبشرهم فيتكلوا**)) أي : لا تذكر لهم ذلك ولا تخبرهم بهذه البشارة لئلا يتكلوا على هذا الفضل وعلى هذه الرحمة من الله سبحانه وتعالى ويقعوا في تفريط أو تقصير أو تهاون في الرغائب والمستحبات والنوافل وأنواع الأعمال ونحو ذلك . ((قال: لا تبشرهم فيتكلوا)) أي يتكلوا على الفضل والرحمة التي تضمنتها هذه البشارة العظيمة التي ذكرها النبي عليه الصلاة والسلام . وجاء في بعض الروايات أن معاذاً أخبر بذلكم عند موته تأثما .

وسبحان الله !! معرفة الناس وعامة الناس لهذا الحديث بهذه الطريقة تحقَّق بها الغرض من الحديث ، مع أيضاً ارتفاع الوهم أو الخطأ المحتمل الذي نبه عليه عليه الصلاة والسلام بقول ((لا تبشرهم فيتكلوا)) ؛ لأن هذه الطريقة وإخبار معاذ بذلك عند موته تأثماً بهذا الأمر تضمن عند كل من يسمع هذا الحديث معرفة هذا الفضل العظيم ، وأيضاً التحذير في الوقت نفسه من الاتكال ؛ فاجتمع الأمران . ولهذا من أخذ طرف الحديث الأول ولم يأخذ طرفه الثاني لم يحقق العمل بما دل عليه هذا الحديث ، فالحديث تضمن أمران :

١. بيان مقام التوحيد العظيم ومكانته العلية ، وأنَّ الله لا يعذب من لا يشرك به شيئا .

٢. وأيضا تضمن في الوقت نفسه التحذير من الاتكال ؛ بأن يتكل الإنسان ثم يتهاون ويفرِّط ويقصِّر .

فتضمن الحديث الأمرين معًا .

قال رحمه الله تعالى :

فيه مسائل ؛ الأولى : الحكمة في خلق الجن والإنس .

هذه المسألة الأولى مستفادة من قوله تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ ، حيث دلت الآية على أن الحكمة من خلق الجن والإنس عبادة الله وإخلاص الدين له .

الثانية : أن العبادة هي التوحيد؛ لأن الخصومة فيه .

المسألة الثانية : أن العبادة التي خلق الله الخلق لأجلها وأوجدهم لتحقيقها هي التوحيد ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ : إلا ليوحدون . ﴿ اعبدوا الله ﴾ : أي وحِّدوا الله وأخلصوا له العبادة . وكل أمرٍ بالعبادة في القرآن أمر بالتوحيد .

قال رحمه الله : «**لأن الخصومة فيه**» ؛ الخصومة بين الأنبياء وأقوامهم كانت في التوحيد وليس في العبادة مجردة لماذا ؟ لأن المشركين الذين بُعث الأنبياء لدعوتهم إلى التوحيد كانوا يعبدون الله لكن لا يخلِصون العبادة له ، يعبدونه ويعبدون معه غيره . ولفظ «شرك» الذي هو لقبهم ووصفهم يدل على أنهم يعبدون الله ويعبدون معه غيره، لأن الشرك : تسوية غير الله بالله . فإذاً هم كانوا يعبدون الله لكنهم لا يخِلصون العبادة لله فأصبحت عبادتهم كأنها لم تكن ، فالعبادة بدون التوحيد كالصلاة بدون طهارة ، من صلى بدون طهارة يصح أن يقال إنه لم يصلِّ ، وكذلكم من عَبَد الله بدون الإخلاص –لم يخلص العبادة له– يصح أن يقال ما عبَد الله ؛ لأنه لم يوحد الله سبحانه وتعالى . قال «**أن العبادة هي التوحيد لأن الخصومة فيه**» الخصومة بين الأنبياء وأقوامهم فيه أي في التوحيد قالوا ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص:٥] .

الثالثة : أن من لم يأت به لم يعبد الله ، ففيه معنى قوله : { وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ } [الكافرون:٣] .

من لم يأت به – أي بالتوحيد – لم يعبد الله ؛ يصح أن يقال فيه لم يعبد الله وأنه ليس عبداً لله؛ عبداً للشيطان ، عبداً للأصنام ، عبداً للأوثان ، ليس عبداً لله ، ما لم يخلص دينه لله سبحانه وتعالى .

«**من لم يأت به لم يعبد الله ففيه معنى قوله : ﴿ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾**» ؛ ﴿ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ أليس المشركون كانوا يعبدون الله مع ما يعبدونه من أصنام ؟ بلى ، ومع ذلك قال: ﴿ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ !! لأن من لم يخلص العبادة لله ويفرده وحده بها ما عبَد الله ، لأن العبادة لله عز وجل لا تكون إلا بالتوحيد والإخلاص ، فمن لم يخلص العبادة لله ما عبَد الله ، وإنما عبد الشيطان أو عبَد الأصنام أو عبَد الأوثان أو غير ذلك من الشركاء .

الرابعة : الحكمة في إرسال الرسل .

أي : توحيد الله وإخلاص الدين له كما في الآية الثانية التي ساقها رحمه الله تعالى ، ولها في القرآن نظائر كثيرة سبق الإشارة إلى شيء منها .

الخامسة : أن الرسالة عمت كل أمة .

وهذا مستفادٌ من قوله تبارك وتعالى ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا ﴾ [النحل:٣٦] ؛ فهذا فيه أن الرسالة عمَّت كل أمة ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ [النساء:١٦٥] .

السادسة : أن دين الأنبياء واحد .

«**أن دين الأنبياء واحد**» أي لما أخبر الله سبحانه وتعالى في الآية التي تقدَّمت ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ ؛ لما أخبر الله جل وعلا أن دعوة الأنبياء واحدة وهي عبادة الله واجتناب الطاغوت وأن كلمتهم في ذلكم واحدة أفاد ذلك أن دين الأنبياء واحد ؛ وهو توحيد الله وإخلاص الدين له ، وفي ذلكم يقول عليه الصلاة والسلام : ((الْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ)) أي : الشرائع مختلفة ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة:٤٨] ، أما العقيدة والأصول فهو متفق عليها عند الأنبياء وقولهم فيه واحدا من أول نبي بعثه الله إلى أن ختمهم بمحمد عليه الصلاة والسلام دعوتهم واحدة ﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ .

السابعة المسألة الكبيرة : أن عبادة الله لا تحصل إلا بالكفر بالطاغوت ، ففيه معنى قوله تعالى : { فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى } الآية [البقرة:٢٥٦] .

«**المسألة السابعة المسألة الكبيرة : أن عبادة الله لا تحصل إلا بالكفر بالطاغوت**» أي لا يمكن أن تتحقق إلا بالكفر بالطاغوت ؛ وهذا أخذه رحمه الله من قوله ﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ ، فأمر بإفراده سبحانه وتعالى وحده بالعبادة وأتبع ذلك بالأمر باجتناب الطاغوت ، فأفاد ذلكم أنَّ عبادة الله لا تحصل إلا بالكفر بالطاغوت ؛ بمعنى أن من لم يكفر بالطاغوت لم يعبد الله ولم يكن من أهل «لا إله إلا الله» ، ولهذا قال رحمه الله : «**ففيه معنى قوله تعالى ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا ﴾**» أي:

استمسك بـ «لا إله إلا الله» ، لا يكون مستمسكاً بـ «لا إله إلا الله» إلا بالكفر بالطاغوت وإخلاص الدين لله عز وجل .

الثامنة : أنَّ الطاغوت عامٌّ في كل ما عُبِد من دون الله .

وهذا يتناوله قوله ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ ؛ فهذا يتناول كل ما عُبد من دون الله ، لأن الله صدَّر هذا بالأمر بإفراده وحده سبحانه وتعالى بالعبادة وإخلاص الدين له، فالطاغوت عام في كل ما عُبد من دون الله .

ومَن عُبد من دون الله على قسمين :

- قسمٌ عُبد من دون الله وهو راض فهو طاغوت ؛ ويأتي في مقدمة هؤلاء الشيطان ، وكل من دعا إلى عبادة نفسه أو رضي بأن يُعبد .
- والقسم الثاني ممن عبد من دون الله : من لم يرض بذلك مثل الملائكة والأنبياء والصالحين من عباد الله لا يرضون بذلك . فالطاغوت هنا : هو الشيطان ، لأنه هو الذي أمر بذلك .

فإذاً المسألة الثامنة «أن الطاغوت عام في كل ما عُبد من دون الله» ؛ والكفر به : باجتنابه كما في الآية ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ ، والبعد عن عبادته ، والبراءة من ذلك والخلوص منه والبراءة من أهله ؛ كل هذا يدخل تحت الأمر بالكفر بالطاغوت .

التاسعة : عظم شأن ثلاث الآيات المحكمات في سورة الأنعام عند السلف وفيها عشر مسائل ، أولها : النهي عن الشرك .

«**المسألة التاسعة : عظم شأن ثلاث الآيات المحكمات في سورة الأنعام عند السلف**» أي قول الله تعالى ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ إلى قوله : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ ؛ فهذه الثلاث آيات لها مكانة عظيمة عند السلف ، ومما يدل على عظم مكانتها : الأثر الذي ساقه المصنف رحمه الله تعالى عن ابن مسعود «من أراد أن ينظر وصية محمد صلى الله عليه وسلم التي عليها خاتمه فليقرأ هذه الآيات» ، فهذا يدل على مكانة هذه الآيات العظيمة ومنزلتها العلية ، وأيضاً إدراك السلف رحمهم الله ورضي عنهم لمكانة هذه الآيات المحكمات.

وقوله رحمه الله تعالى «**وفيها عشر مسائل**» هي :

الأولى : النهي عن الشرك ؛ كما ذكر ذلك رحمه الله .

الثانية : الوصية بالوالدين .

الثالثة : النهي عن قتل الأولاد .

الرابعة : النهي عن قربان الفواحش .

الخامسة : النهي عن قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق .

السادسة : النهي عن قربان مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن .

السابعة : الوفاء بالكيل والميزان .

الثامنة : الأمر بالعدل .

التاسعة : الوفاء بالعهد .

العاشرة : الأمر باتباع صراط الله المستقيم واجتناب السبل وتركها والبُعد عنها .

العاشرة : الآيات المحكمات في سورة الإسراء وفيها ثمانية عشرة مسألة بدأها الله بقوله: {لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا} [الإسراء:٢٢] ، وختمها بقوله: {وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا} [الإسراء:٣٩] . ونبهنا الله سبحانه على عظم شأن هذه المسائل بقوله : {ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ} [الإسراء:٣٩] .

المسألة العاشرة : الآيات المحكمات من سورة الإسراء ؛ وهي كما ذكر رحمه الله تعالى بُدأت بقوله : ﴿ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا ﴾ ، وخُتمت بقوله : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا ﴾ فبُدأت بالتحذير من الشرك وخُتمت بالتحذير منه ؛ فدل ذلكم دلالةً واضحة أن الشرك أخطر الذنوب وأعظمها على الإطلاق .

قال : ونبَّهنا الله سبحانه على عظم شأن هذه المسائل بقوله : ﴿ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ﴾ ؛ فهذا فيه التنبيه على عظم شأن هذه المسائل .

وقوله رحمه الله «وفيها ثمانية عشر مسألة» هي :

النهي عن جعل إله مع الله سبحانه وتعالى وهو الشرك الأكبر .

الثانية : الأمر بعبادة الله وحده .

الثالثة : الأمر بالإحسان إلى الوالدين .

الرابعة : إيتاء ذي القربى حقه .

الخامسة : إيتاء المسكين حقه .

السادسة : إيتاء ابن السبيل حقه .

السابعة : النهي عن التبذير .

الثامنة : النهي عن التقتير والإسراف .

التاسعة : النهي عن قتل الأولاد .

العاشرة : النهي عن الزنا .

الحادية عشرة : النهي عن قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق .

الثانية عشرة : النهي عن قربان مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن .

الثالثة عشرة : الوفاء بالعهد .

الرابعة عشرة : الوفاء بالكيل .

الخامسة عشرة : الوفاء بالوزن .

السادسة عشرة : النهي عن القول بغير علم .

السابعة عشرة : النهي عن المشي في الأرض مرحا .

الثامنة عشرة وبها خُتم هذا السياق : النهي عن الشرك بالله عز وجل وهي قوله ﴿ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا ﴾ .

الحادية عشرة : آية سورة النساء التي تسمى آية الحقوق العشرة؛ بدأها الله تعالى بقوله: { وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا } [النساء:٣٦] .

الحادية عشرة : آية سورة النساء التي تسمى آية الحقوق العشرة ، بدأها الله تعالى بقوله : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ ؛ وفيها كما ذكر عشرة عقوق وهي : الأمر بعبادة الله ، والإحسان إلى الوالدين ، والإحسان إلى ذي القربى ، والإحسان إلى اليتامى ، والإحسان إلى المساكين ، والإحسان إلى الجار ذي القربى ، والإحسان إلى الجار الجُنُب –يعني الأجنبي عن الإنسان– ، والإحسان إلى الصاحب بالجنب –قيل هو الرفيق في السفر– ، والتاسعة الإحسان إلى ابن السبيل ، والعاشرة الإحسان إلى ملك اليمين . فهذه تسمى «آية الحقوق العشرة» بُدأت بأعظم الحقوق وهو التوحيد .

الثانية عشرة : التنبيه على وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم عند موته .

أي لقول ابن مسعود «من أراد أن ينظر ...» إلى آخره .

الثالثة عشرة : معرفة حق الله علينا .

وهو عبادته جل وعلا وإخلاص الدين له ، وهو حقٌ أوجبه الله سبحانه وتعالى على العباد .

الرابعة عشرة : معرفة حق العباد عليه إذا أدّوا حقه .

وهو أن لا يعذبه ، وهو حقٌ تفضل به سبحانه وتعالى وامتنَّ به على عباده .

الخامسة عشرة : أن هذه المسألة لا يعرفها أكثر الصحابة .

ولهذا معاذ رضي الله عنه لما أخبره وخصَّه النبي عليه الصلاة والسلام بهذا العلم قال : «ألا أبشر الناس ؟» الناس يعني الصحابة ؛ فهذا يفيد أن هذه مسألة لا يعرفها أكثر الصحابة .

الضمير للبشارة ، وإلا حق الله على العباد ووجوب إفراده بالعبادة هذه يعرفها ولا يكون التوحيد إلا بها ، لكن المراد بهذه البشارة أن لا يعذب من لا يشرك به شيئا .

السادسة عشرة : جواز كتمان العلم للمصلحة .

قال : «جواز كتمان العلم للمصلحة» ؛ لأن معاذ رضي الله عنه قال للنبي عليه الصلاة والسلام : «ألا أبشِّر الناس؟» قال ((لا)) ؛ فهذا فيه جواز كتمان العلم للمصلحة ، إذا كان فيه مصلحة من ذلك فيجوز ، ومن هذا القبيل قول علي : «حدثوا الناس بما يعرفون» .

السابعة عشرة : استحباب بشارة المسلم بما يسره .

لأن معاذًا لما سمع ذلك رضي الله عنه وأرضاه قال : «ألا أبشر الناس؟» فهذا فيه استحباب بشارة المسلم بما يسره . قوله «بشارته بما يسره» البشارة تكون في السار وفي غير السار يعني في المحزن ، فيبشَّر بما يسره دون ما يسوءه .

الثامنة عشرة : الخوف من الاتكال على سعة رحمة الله .

الخوف من الاتكال على سعة رحمة الله ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال ((لا تبشرهم فيتكلوا)) أي فيتكلوا على سعة رحمة الله تعالى فيفرط في الأعمال وفي الطاعات ، أو يسرف على نفسه في الذنوب ، لأن من لا يُحِسن فهم هذه البشارات على بابها يقع في التفريط.

التاسعة عشرة : قول المسؤول عما لا يعلم «الله ورسوله أعلم» .

لأن معاذ رضي الله عنه وأرضاه لما قال له النبي عليه الصلاة والسلام ((أتدري ما حق الله على العباد؟ وما حق العباد على الله؟)) قال: «الله ورسوله أعلم» ، فأخذ منها رحمه الله أن المسؤول عما لا يعلم يقول: «الله ورسوله» أعلم ؛ هذا في زمن النبي عليه الصلاة والسلام ، أما في زماننا إذا سئل أحد عن ذلك يقول "الله أعلم "كما نبه على ذلكم أهل العلم .

العشرون : جواز تخصيص بعض الناس بالعلم دون بعض .

جواز تخصيص بعض الناس بالعلم دون بعض ؛ لأن النبي عليه الصلاة والسلام خصَّص معاذاً بذلك ، ولما قال له معاذ «ألا أبشر الناس؟» قال : ((لا تبشرهم فيتكلوا)) ، فخصصه ببعض العلم .

الحادية والعشرون : تواضعه صلى الله عليه وسلم لركوب الحمار مع الإرداف عليه .

تواضعه لأنه عليه الصلاة والسلام جاء في حديث معاذ أنه كان رديف النبي عليه الصلاة والسلام على الحمار ، مع الإرداف عليه لأنه أردف معاذاً معه . وأحد السلف أظنه ابن منده ألَّف في هذا كتابا سماه : «من أردفهم النبي صلى الله عليه وسلم» ، وهو مطبوع .

الثانية والعشرون : جواز الإرداف على الدابة .

الثانية والعشرون : جواز الإرداف على الدابة ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم أردف معاذا ، فهذا دليل على جواز الإرجاف على الدابة ولاسيما إذا كانت الدابة مُطيقة لذلك .

الثالثة والعشرون : عظم شأن هذه المسألة.

الرابعة والعشرون : فضيلة معاذ بن جبل .

عندي تقديم وتأخير ؛ الثالثة والعشرون فضيلة معاذ بن جبل ، وهذا يظهر من جهات : من جهة أن النبي عليه الصلاة والسلام أردفه ، ومن جهة أيضا كون النبي عليه الصلاة والسلام خصَّه بهذا العلم وقال له ((لا تبشر الناس)) فخصَّه بذلك ، فالحديث يدل على فضيلة معاذ رضي الله عنه وأرضاه .

وختم هذه المسائل المتعلقة بالباب الأول **بالمسألة الرابعة والعشرون** قال : **عظم شأن هذه المسألة** .

أراد بالمسألة : أي ما جاء في حديث معاذ ((أتدري ما حق الله على العباد وما حق العباد على الله)) فهي مسألة عظيمة ، هي كبرى المسائل وأعظمها ؛ وهي معرفة حق الله على عباده الذي لأجله خلقهم ؛ وهو أن يعبدوه ولا

يشركوا به شيئا ، ومعرفة حق العباد على الله إذا قاموا بذلك وهو أن الله عز وجل أوجب على نفسه تفضلاً وتكرماً ألَّا يعذب من لا يشرك به شيئا .

الدرس الثالث

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد :

يقول الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد :

بابٌ فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب وقوله الله تعالى : {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ} [الأنعام:٨٢] .

****

هذه الترجمة «**فضل التوحيد وما يكفِّر من الذنوب**» عقدها رحمه الله تعالى بعد أن بيَّن مكانة التوحيد ، وأنه حق الله على العبيد ، وأنه أوجب الواجبات وأعظم الفرائض ، وأنه الغاية التي لأجلها خلَق الخلق ولأجلها أرسل الرسل وأنزل الكتب ؛ فبعد بيانه لذلك رحمه الله تعالى عقد هذه الترجمة ليبين مكانة التوحيد وفضله وعظيم ثوابه وأجره ، وأنه حسنةٌ عظيمة وطاعةٌ كبيرة تكفَّر بها الذنوب وتمحى بها الخطايا وأساسٌ به تُقبل الأعمال .

قال : ((**فضل التوحيد وما يكفِّر من الذنوب**)) ؛ «فضل» : مفرد مضاف يفيد العموم؛ أي فضائل التوحيد ، لأن فضائل التوحيد كثيرة جداً ، وثماره وآثاره متعددة ، وخيراته وبركاته لا حد لها ولا حصر . فقوله ((فضل التوحيد)) أي: فضائل التوحيد ، والمفرد إذا أضيف يفيد العموم .

وقوله ((وما يكفِّر من الذنوب)) يحتمل أن تكون «ما» موصولة ، ويحتمل أن تكون مصدرية ؛ فضل التوحيد والذي يكفِّره من الذنوب ، أو فضل التوحيد وتكفيره للذنوب . والثانية أوْلى ، لأن الأُولى تحتمل أن ثمة ذنوباً لا يكفرها التوحيد ، فالأوْلى أن تكون «ما» مصدرية؛ فضل التوحيد وتكفيره للذنوب .

والتوحيد أعظم مكفِّرٍ للذنوب ، وإن لم يكن المرء موحِّدًا حبطت أعماله وكان من الخاسرين قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ ﴾ أي مخلصًا ﴿ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ [الزمر:٦٥-٦٦] .

والتوحيد له فضائل كثيرة جداً وعديدة ومتنوعة ، وقد ساق رحمه الله شيئاً من الدلائل في بيان عظيم فضل التوحيد وكبير أجره وأنه يكفِّر الذنوب ؛ بدأ أولاً بقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ** ﴾ .

﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي : بالله عز وجل وبما أمرهم سبحانه وتعالى بالإيمان به من أصولٍ عظام ، وأيضاً عملوا الصالحات ،لأن الإيمان إذا أطلق يتناول ما يقوم بالقلب من عقائد وكذلكم يتناول فعل الأعمال الصالحات ، فالإيمان قولٌ واعتقاد وعمل ؛ آمنوا : أي أقرُّوا بقلوبهم وأذعنوا وانقادوا بجوارحهم طاعةً وامتثالاً واتباعاً لشرع الله سبحانه وتعالى ، فلا إيمان إلا بعمل كما أنه لا عمل إلا بإيمان وهما قرينان ، ومنزلة الإيمان من العمل منزلة الروح من الجسد ، فقوله «آمنوا» أي : أقرُّوا وعملوا ، وُجد منهم الإقرار والإذعان القلبي ، ووُجد منهم الانقياد والطاعة والامتثال لله سبحانه وتعالى.

﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾؛ يلبسوا : أي يخلِطوا . لم يلبسوا إيمانهم بظلم : أي لم يخلطوا توحيدهم وإخلاصهم لله سبحانه وتعالى بظلمٍ ، وقوله ﴿بِظُلْمٍ﴾ هنا عام ، ولهذا فهم الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم من هذا العموم أن الآية تتناول ظلم العبد لنفسه ، ولهذا لما نزلت هذه الآية شق الأمر على الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم وقالوا: «يا رسول الله أيُّنا لم يظلم نفسه ؟» أي ما منا إلا وقد وقع في شيء من الظلم للنفس ، قالوا «أينا لم يظلم نفسه؟» لأنهم وجدوا أن الآية نصٌ على أن حصول الأمن والاهتداء في الدنيا والآخرة مرتبط بالإيمان مع السلامة من الظلم ﴿آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ فقالوا أينا لم يظلم نفسه ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : ((ليس ذاك ، أما قرأتم قول العبد الصالح ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣])) ؛ فبين لهم عليه الصلاة والسلام أنَّ الظلم هنا في هذه الآية الكريمة وفي هذا السياق إنما هو الشرك ، وذكر لهم قول لقمان لابنه ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ .

والظلم : وضع الشيء في غير موضعه . وأيُّ وضع للشيء في غير موضعه أشنع من وضع العبادة وجعْلها لغير مستحقها؟! يخلق الله ثم يعبدون غيره ! يرزق الله ثم يلجئون إلى غيره! هذا أظلم الظلم وأشنعه ، وهو الظلم الذي لا يُغفر لمن مات عليه كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء:٤٨] ، وجاء في حديث يُرفع إلى النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال : ((دواوين الظلم يوم القيامة ثلاثة: ديوانٌ لا يغفره الله ، وديوان لا يتركه الله ، وديوان لا يعبأ الله به ؛ أما الذي لا يغفره الله فالشرك ، وأما الذي لا يتركه الله فحقوق العباد حتى يقتص للمظلوم من ظالمه ، وأما الذي لا يعبأ الله به فما دون ذلك)) ؛ فالشرك بالله سبحانه وتعالى هو أظلم الظلم .

فبين لهم صلوات الله وسلامه عليه أنَّ الذي آمن ولم يلبس إيمانه بظلم أي لم يخلط إخلاصه وعبوديته لله بشركٍ فهذا هو الذي له الأمن والاهتداء في الدنيا والآخرة . وهذا الذي آمن ولم يخلط إيمانه بشرك إما أن يكون حقق الإيمان وكمَّله ؛ فإن كان كذلك فله الأمن والاهتداء المطلق أي التام الكامل ، أما إذا كان خلط إيمانه بمعاصي

وكبائر وآثام دون أن يبلغ بذلك حد الكفر بالله سبحانه وتعالى فله حظٌ من الأمن والاهتداء بحسب حظه ونصيبه من الإيمان ، أما الذي خلط أعماله بالشرك والكفر بالله سبحانه وتعالى فهذا لا نصيب له ولا حظ من الأمن والاهتداء .

ولهذا الناس أقسامٌ ثلاثة من حيث حظهم من الأمن والاهتداء :

- الأول : أهل الإيمان المطلق أي الكامل ؛ وهؤلاء لهم الأمن والاهتداء المطلق أي الكامل .
- والقسم الثاني : من عنده مطلق الإيمان ؛ أي عنده أصل الإيمان عنده التوحيد لكنه وقع في شيء من الكبائر أو ترك شيء من الواجبات دون أن يبلغ بذلك الكفر الناقل من الملة ، فهذا له مطلق الأمن ، أي له من الأمن بحسب حظه من الإيمان .
- ومن لا إيمان له – هذا القسم الثالث – فلا أمن له ولا اهتداء .

فالناس في ضوء هذه الآية الكريمة ينقسمون إلى أقسام ثلاثة . والآية فيها دليلٌ لما ترجم له المصنف رحمه الله تعالى من بيانٍ عظيم لفضل التوحيد ومكانته وعظيم ثواب أهله ، وأن أهل التوحيد هم أهل الأمن والاهتداء في الدنيا والآخرة ؛ فلا أمن إلا به ولا اهتداء إلا به ، نظيرها قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ [النور:٥٥] «يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا» إذا كان بهذه الصفة فله الأمن وله الاهتداء في الدنيا والآخرة .

ولهذا الأمن قرين الإيمان كما أن السلامة قرينة الإسلام وقد شُرع لنا في أول كل شهر عند رؤية الهلال أن نقول : «اللهم أهِلَّه علينا بالأمن والإيمان والسلامة والإسلام» ، فالأمن قرين الإيمان بوجوده يوجد وبفقده يُفقد ، وكذلكم قل في اقتران السلامة بالإسلام ، ونظير هذا الاقتران أيضا ما جاء في الحديث ((المسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالمؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ)) ، والأحاديث في هذا المعنى كثيرة .

شاهد القول : أن الآية الكريمة دليلٌ على فضل التوحيد ومكانته العلية ، وعظيم ثواب أهله عند الله سبحانه وتعالى ، وأنَّ لهم الأمن والاهتداء في الدنيا والآخرة .

قال رحمه الله تعالى :

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدًا عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، والجنة حق ، والنار حق ، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل » أخرجاه .

****

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث المتفق على صحته؛ حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((**من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، والجنة حق ، والنار حق**)) ؛ هذه خمسة أمور اشتمل عليها هذا الحديث وهي من جوامع ما ينبغي أن تُربط عليه القلوب وتعتقده القلوب وتؤمن به . وفي الإيمان بهذا الذي ذكر في هذا الحديث مباينة لجميع العقائد الباطلة من وثنية أو ديانات محرفة أو نِحل باطلة أو نحو ذلك ، فجاء بجُمَله الخمس على جماع الاعتقاد .

قال : ((**من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له**)) شهد لله جل في علاه بالوحدانية «وحده لا شريك له»، وهذه الشهادة لا تكون إلا عن علمٍ بالمشهود به ، وصدقٍ من الشاهد ، وعملٍ بما تقتضيه . وإذا كان لا يعلم لم يكن لشهادته معنى والله تعالى يقول : ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف:٨٦] «شهد بالحق» أي لا إله إلا الله ، «وهم يعلمون» أي معنى ما شهد به ، والله يقول ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد:١٩] في صحيح مسلم من حديث عثمان رضي الله عنه ((مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ)) .

فمن الأسس العظيمة لقبول هذا التشهد أن يكون عن علم ، أما أن يقول أشهد أن لا إله إلا الله وهو لا يدري ما يقول ولا يدري ما معناه !! أو أنه يفهمه فهما مغلوطاً مثل من يفسر لا إله إلا الله بالربوبية ؛ لا خالق إلا الله أو لا رازق إلا الله ثم يذهب يستغيث بالمقبورين أو يستنجد بترابٍ أو بشجرٍ أو بحجر ويظن أن أعماله هذه لا تناقض «لا إله إلا الله» ، لأن قصارى فهمه لـ«لا إله إلا الله» أنها تعني الإيمان بأن الله خالق الخلق وموجد الناس وأن أعماله هذه ليس لها شأن ولا علاقة بلا إله إلا الله ، وما يدري هذا الضائع أن أعماله هذه تنقض «لا إله إلا الله» ولو كان يقولها آلاف المرات ، فلا تنفعه لأنه نقضها بأعماله . مثله من توضأ ليصلي ثم أحدث وذهب يصلي؛ لا صلاة له ، فـ«لا إله إلا الله» إنما تكون نافعة من قائلها بعلمه بمعناها وما تدل عليه وأنها تعني إخلاص الدين لله عز وجل والبراءة من الشرك ، وتعني إفراد الله سبحانه وتعالى بالعبادة ، أما أن يقول «لا إله إلا الله» ثم بعد قليل يقول مدد يا فلان هذا ليس من أهل لا إله إلا الله ، أغثني يا فلان ، أو يقول إن لم تدركني يا فلان من الذي يدركني ، أو يقول إن لم تأخذ بيدي من يأخذ بيدي ، أو يقول أنا لائذ ببابك يا فلان ومنيط بأعتابك وملتجئ إليك ومستجير بك ، إلى غير ذلك من الشرك الصراح أيُّ نفعٍ يكون لـ«لا إله إلا الله» إذا كانت تُنقض بفعل ما يضادها وينافيها تمام المنافاة!!

فلا إله إلا الله لابد فيها من علم بما دلت عليه ، ولما كان أقوام يرددون هذه الكلمة ولا يعون المعنى وقعوا في مثل هذه الأمور ووقعوا في مثل هذه الأعمال ، لكن من فهم التوحيد والإخلاص الذي تدل عليه «لا إله إلا الله» وأقر

بذلك وأذعن فإنه سيكون بإذن الله عز وجل في عافية وسلامة من ذلك الباطل وذلك الشرك والضلال ، فلابد فيها من علم .

ولابد من صدق ؛ إن قالها باللسان فقط دون أن تقوم هذه الحقيقة –حقيقة التوحيد– بالقلب إخلاصاً للمعبود سبحانه وتعالى وبراءةً من الشرك لا يكون من أهل لا إله إلا الله ، لابد أن يكون قد قالها صدقاً من قلبه .

ولابد أيضاً من عملٍ بما تقتضيه هذه الكلمة العظيمة من عبادة وطاعة وامتثال لله وإخلاص الدين له جل وعلا . بالعلم يخرج من طريقة النصارى الذين يعملون ولا يعلمون ، وبالصدق يخرج من طريقة المنافقين الذين يظهرون ما لا يُبطنون ، وبالعمل يخرج من طريقة اليهود الذين يعلمون ولا يعملون ، فلا بد من علمٍ وصدقٍ وعمل .

و«لا إله إلا الله» هي مفتاح الجنة لكن لا ينتفع بهذا المفتاح إلا إذا أتى بقيودها وضوابطها الواردة في الكتاب والسنة، ولهذا قيل لوهب بن منبه رحمه الله : أليست لا إله إلا الله مفتاح الجنة ؟ قال : «بلى ، ولكن ما من مفتاح إلا وله أسنان فإن جئت بمفتاح له أسنان فُتح لك وإلا لم يُفتح» . وسيأتي معناها فيما ساقه المصنف رحمه الله تعالى من أدلة في هذا الباب وغيره القيود والضوابط والشروط التي لا تكون لا إله إلا الله مقبولة إلا بها .

قال : ((**من شهد أن لا إله إلا الله**)) ؛ «لا إله إلا الله» هذه كلمة التوحيد ،وفيها نفي وإثبات ، ولا توحيد إلا بهما بالنفي والإثبات «لا إله»، «إلا الله» ، فمن نفى ولم يثبت لم يكن موحدا ، ومن أثبت ولم ينف لا يكون موحدا ؛ التوحيد نفي وإثبات .

وأكد هذا النفي والإثبات الذي هو التوحيد بقوله ((**وحده لا شريك له**)) ؛ فقوله «وحده» تأكيد للإثبات ، وقوله «لا شريك له» تأكيد للنفي ، فلما ذكر كلمة التوحيد أكد ما دلت عليه من معنى بقوله ((وحده لا شريك له)).

((**من شهد لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله**)) أي شهد للنبي عليه الصلاة والسلام بالعبودية والرسالة «عبده ورسوله» ؛ وفي ذكر هذين الأمرين العبودية والرسالة معاً ، وكثيراً ما يُقرن بينهما في النصوص بل قال عليه الصلاة والسلام ((لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم ؛ إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله)) ؛ في الجمع بين هذين الأمرين في الشهادة للنبي عليه الصلاة والسلام توسطٌ واعتدال ، وسلامة من الغلو والجفاء .

ففي قوله «عبده» سلامة من الغلو لأن العبد لا يُعبد ، فمن أضاف إلى النبي عليه الصلاة والسلام شيئا من خصائص الرب أو شيئا من حقوق الرب سبحانه وتعالى هذا يتنافى مع الإقرار بأنه عبد ، لأن العبد لا يُعبد وليس له شيء من خصائص الرب وليس له شيء من حقوق الرب ، قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾[الكهف:١١٠] ؛ فلا يضاف إليه شيء من خصائص الرب أو شيء من حقوق الرب سبحانه وتعالى .

وقوله «ورسوله» هذا فيه السلامة من الجفاء ؛ لأن الرسول يطاع ويُتبع ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء:٦٤] ، فالإقرار بأنه رسول الله تعني: طاعته فيما أمر ، وتصديقه فيما أخبر ، والانتهاء عما نهى عنه وزجر . فإذاً قول المتشهد «وأشهد أن محمدا عبده ورسوله» فيه التوسط والاعتدال والسلامة من الإفراط والتفريط.

قال ((**وأن عيسى**)) أي ابن مريم عليه السلام ((**عبد الله ورسوله**)) أيضا في هذا توسط واعتدال بين غلو من غلا فيه وهم النصارى ، وجفاء من جفا فيه وهم اليهود؛ ففيه التوسط في عيسى عليه السلام «عبد الله ورسوله» .

((**وكلمته ألقاها إلى مريم**)) «وكلمته» أي كلمة الله ، الكلمة هنا مضافة إلى الله سبحانه وتعالى . والكلام صفة من صفاته وهو نوعان : كوني قدري ، وشرعي ديني . والكلمة هنا المراد بها: الكونية القدرية .

قال ((**وكلمته**)) فعيسى عليه السلام كلمة الله لأنه بالكلمة كان ، ليس عيسى ابن مريم عليه السلام هو نفس الكلمة وإنما بالكلمة كان، ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران:٥٩] ، فعيسى كان بالكلمة ، قال الله كن فكان ، هذا معنى «كلمته» أي :كان عليه السلام بالكلمة ، والمراد بالكلمة الكونية القدرية ، قال الله كن فكان عيسى عليه السلام ، فليس هو نفس الكلمة .

والعلماء رحمهم الله يقولون في مثل هذا المقام : المصدر إذا أضيف إلى الله – مثل الكلمة ومثل الرحمة ومثل الأمر ونحو ذلك– المصدر إذا أضيف إلى الله تارةً يراد به الصفة ،وتارة يراد به أثر الصفة ، وهذا إنما يُعلم بالسياق وفهمه وتأمله ؛ مثلًا قول الله في الحديث القدسي للجنة ((أنت رحمتي)) ؛ «رحمة» مصدر مضاف إلى الله رحمتي ، والجنة ليست هي الصفة وإنما هي أثر الصفة ، فالمصدر إذا أضيف إلى الله سبحانه وتعالى تارة يراد به الصفة وتارة يراد به أثرها . فإذاً قوله هنا ((كلمته)) مصدر أضيف إلى الله المراد به الأثر ؛ لأن عيسى كان بالكلمة . قال: ((وكلمته ألقاها إلى مريم))

((**وروح منه**)) ؛ أيضاً إضافة الروح هنا إلى الله أنها من الله الإضافة هنا إضافة خلْقٍ ، وهي تقتضي التشريف والتكريم مثل قوله ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية:١٣] أي خلْقًا وإيجاداً ، وهو يختلف تماماً عن مثل قوله تعالى ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [السجدة:٢] هنا وصفاً .

فما يقال فيه «من الله» لا يخلو من حالتين :

– إما أن يكون عينا قائمة بنفسها ؛ فإضافته إلى الله إضافة خلْق ، مثل إضافة السماوات والأرض إلى الله أنها من الله ، ومثل إضافة الروح هنا «من الله» أي خلقا .

– أما ما لم يكن عيناً قائمة بنفسها وإنما كان وصفًا لا يقوم إلا بغيره فإضافته إلى الله إضافة وصف ، ومنه : ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ .

ومن لم يفرِّق بين النوعين جعل البابين باباً واحدا فضلَّ عن سواء السبيل ؛ إما أن يجعل كل ذلك من الله خلقاً ، أو أنه يجعل كل ذلك من الله وصفاً ، وفي كلٍ من المذهبين نوعٌ من الضلال والباطل ، إما بجعل مخلوقاتٍ لله أوصافًا له كما هي عقائد الاتحادية ومن لفَّ لفهم ، أو جحد لصفات الله سبحانه وتعالى كما هي عقائد المعطلة ونفاة الصفات ومن لف لفهم .

فإذاً قوله ((**وروح منه**)) أي من الأرواح التي خلقها الله ، لكن أضافها إلى نفسه لأنه الذي خلقها سبحانه وتعالى «منه» أي خلْقا ، والإضافة هنا تقتضي التشريف .

قال: ((**والجنة حق والنار حق**)) أي شهد أن الجنة حق وأن النار حق . شهد أن الجنة حق خلقها الله سبحانه وتعالى داراً يكرم فيها أولياءه وأصفياءه وعباده ، أعد لهم فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، أعدَّها نزلاً لعباده وأولياءه ؛ فيؤمن بها وأنها مخلوقة خلقها الله ،وأنها موجودة الآن معدَّة ومهيأة لأهلها ، ويؤمن بما جاء في النصوص من أنواع النعيم وصنوف المنن ، ويؤمن بأن أهلها يخلَّدون فيها أبد الآباد وأنهم يظفرون فيها بأكمل النعيم وأعظم المنن وأجل العطاء ، فيها قرة العين وفيها بهجة النفس وفيها لذة القلب وفيها السرور ، فيؤمن بأن الجنة حق ، وإيمانه بأنها حق وأنها معدَّة لأوليائه يقتضي هذا الإيمان أن يجاهد نفسه للعمل بعمل أهل الجنة والبُعد عن الأعمال التي تُبعده عن الجنة .

((**والنار حق**)) أي يشهد أن النار حق ، فيؤمن بوجود النار وأنها دارٌ أعدها الله سبحانه وتعالى دار عذاب وعقوبة لأولئك الذين غضب الله عليهم وسخط عليهم ولم يقوموا بما أوجب تبارك وتعالى عليهم ، ويؤمن كذلك بأنواع العذاب والنكال الذي أُعدَّ لأهلها ، وأن أهلها الذين هم أهلها الكفار يخلَّدون فيها أبد الآباد ، وأما من دخلها من عصاة الموحدين فإن دخولهم ليس دخول تأبيد وإنما دخول تطهير ثم يُخرجون منها ويكون مآلهم إلى الجنة .

فيؤمن بالنار وأنها حق ؛ وهذا الإيمان يقتضي أن يبتعد هذا المؤمن بالنار وأنها حق عن موجبات دخول النار وأسباب دخولها ؛ فيجاهد نفسه على البُعد عنها والحذر من الوقوع فيها ، لأن هذا أمر يقتضيه هذا الإيمان ؛ أرأيتم لو أن شخصاً قيل له إن هذا الطريق إذا مشيت فيه بعد مسافة ستكون هاوية وفيها نار محرقة ، والهاوية أيضا فجأة تسقط فيها وأنت لا تشعر ، وأن ناسًا كثير ذهبوا وسقطوا في الهاوية وهلكوا ، وعرف أن هذا الأمر حق ؛ هل يخاطر ويذهب مع ذلك الطريق ؟ فإذا وُجد الإيمان الصادق بأن النار حق وأنها دار أعدت للعقاب وللعذاب ، والأعمال التي هي سبب لدخول النار ذُكرت في الكتاب والسنة فهذا الإيمان يقتضي من المؤمن أن يبتعد عن موجبات دخول النار وأسباب دخولها .

لما ذكر هذه الأمور الخمسة التي هي جماع الاعتقاد ذكر الثواب ، وهذا موضع الشاهد للترجمة ، قال : ((**أدخله الله الجنة على ما كان من العمل**)) ؛ يعني من شهد هذه الشهادات الخمس المذكورة في هذا الحديث أدخله الله

الجنة على ما كان من العمل ، هذا الشاهد من الحديث للترجمة لأن فيه ثواب التوحيد وفضل التوحيد وثمرة التوحيد وآثار التوحيد .

قوله ((**أدخله الله الجنة على ما كان من العمل**)) يحتمل أمرين كلاهما ذكره أهل العلم :

❖ الأول : أدخله الله الجنة على ما كان من عملٍ صالح أو طالح ؛ يعني حتى وإن كان عنده معاصي دون الشرك ودون الكفر أدخله الله الجنة ، سواءً كان هذا الدخول دخولاً أوليا لمن كمَّل إيمانه ، أو كان الدخول بعد مرحلة تطهير لكنه يدخل الجنة ((أدخله الله الجنة)) فالموحد مآله إلى الجنة ، إما دخولًا أوليا إن كمَّل إيمانه وسيأتي عند المصنف «باب تحقيق التوحيد» ، أو يكون دخوله بعد مرحلة التطهير . فهذا احتمال .

❖ والاحتمال الثاني : ((أدخله الله الجنة على ما كان من العمل)) أي أن من يدخلون الجنة منازلهم في الجنة ودرجاتهم بحسب الأعمال ، لا يكونون كلهم في مستوى أو درجة واحدة في الجنة ، بل الأمر كما قال الله جل في علاه ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [الأحقاف:١٩] . فـ((أدخله الجنة على ما كان من العمل)) أي أنهم يدخلون الجنة ودرجاتهم فيها ومنازلهم بحسب الأعمال .

قال رحمه الله تعالى :

ولهما في حديث عتبان : « فإن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله » .

****

قال ((**ولهما**)) أي للشيخين البخاري ومسلم .

((**من حديث عتبان**)) بن مالك رضي الله عنه ، وهو حديث طويل اقتصر المصنف رحمه الله على موضع الشاهد منه للترجمة .

قال : ((**فإن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله**)) ؛ ففيه فضل التوحيد وعظيم ثوابه، وأن الله سبحانه وتعالى حرَّم على النار ؛ هذا هو الثواب والثمرة العظيمة للتوحيد أن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله .

((**حرَّم على النار**)) إما أن يكون التحريم تحريم الدخول ، أو يكون التحريم تحريم التأبيد .

- الأول وهو الأقرب في هذا الحديث لأنه قال ((من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله)) قال العلماء هذا شأن المحقق للتوحيد في إخلاصه وإذعانه وكمال صحة التوحيد في قلبه . قالوا من كان بهذه الصفة أثمر صلاحاً في أعماله وطاعاته وعبادته لما قام في قلبه من صدق وقوة إخلاص وابتغاء لوجه الله سبحانه وتعالى بالأعمال والطاعات ، فيكون التحريم تحريما للدخول -دخول النار- ، لأن محقق التوحيد وهذا سيأتي في ترجمة قريبة

يدخل الجنة بدون حساب ولا عذاب؛ أي يدخلها دخولا أولياً مباشرًا دون أن يمر بحساب أو عذاب . نسأل الله أن يكرمنا جميعا بذلك، يا ربنا أكرمنا بذلك يا ذا الجلال والإكرام . هذا قسم .

- والقسم الثاني : قد يكون من أهل لا إله إلا الله ويكون له دخول للنار بسبب الذنوب والمعاصي والكبائر التي ارتكبها التي هي دون الكفر والشرك بالله سبحانه وتعالى ، وقد جاء في الحديث ((أخرجوا من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه أدنى مثقال ذرة من خير)) في رواية ((من إيمان)) ؛ هذا يدل على أن من أهل لا إله إلا الله من سيدخل النار مع أنه قالها إيماناً وعن إخلاص . وهي لا تكون نافعة بمجرد القول باللسان لابد أن يكون قالها عن إيمان . فهؤلاء التحريم الذي في حقهم هو تحريم التأبيد ، لأنه لا يخلد في النار إلا الكافر المشرك ، أما من دخل النار من أهل «لا إله إلا الله» بسبب الذنوب وسبب المعاصي والكبائر التي ارتكبها فإنه يبقى فيها وقتاً أو أمداً ثم يخرج ، ولهذا خروج عصاة الموحدين من النار يكون على دفعات مثل ما جاء في صحيح مسلم ((ضبائر ضبائر)) أي دفعات دفعات ، لا يخرجون جملة واحدة وإنما يخرجون في أوقات متفاوتة لأنهم متفاوتون في الكبائر التي أوجبت دخولهم النار .

فإذًا من قال «لا إله إلا الله» يبتغي بها وجه الله حرم الله عليه النار ؛ إن كان محققاً للتوحيد فهو تحريم للدخول ، وإن كان ليس محققاً وإنما وقع في بعض المعاصي أو الكبائر أو الآثام التي أوجبت دخوله النار فإن التحريم في حقه تحريم التأبيد ، فيدخل ويبقى في النار ليطهَّر وينقَّى من ذنوبه ثم يخرج ، هذا حال دخول عصاة الموحدين. أما دخول المشرك للنار فهو ليس دخول تطهير ، لأن الشرك خبثٌ لا تطهره النار فيدخلها ليؤبد فيها ويخلد ويكون فيها أبد الآباد كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴾ [فاطر:٣٦] .

قال رحمه الله تعالى :

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «قال موسى عليه السلام : يا رب علمني شيئا أذكرك وأدعوك به ، قال : قل يا موسى لا إله إلا الله ، قال : يا رب كل عبادك يقولون هذا . قال : يا موسى لو أن السماوات السبع وعامرهن غيري والأرضين السبع في كفة ، ولا إله الله في كفة، مالت بهن لا إله إلا الله » رواه ابن حبان والحاكم وصححه .

****

ثم أورد الإمام شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى هذا الحديث – حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه – عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((**قال موسى**)) أي ابن عمران كليم الله عليه وعلى جميع النبيين الصلاة والسلام .

قال : ((**يا رب علمني شيئا أذكرك وأدعوك به**)) ؛ «علمني شيئا» أي كلاما «أذكرك» أي كلاماً أواظب عليه ذكراً لك ، ذكرًا أذكرك به أي أكون ذاكرا لك به، «وأدعوك به» أي أتوسل إليك به في دعائي وسؤالي وطلبي.

((**قال**)) أي الله جل في علاه ((**قل يا موسى لا إله إلا الله**)) أي بهذا اذكرني «لا إله إلا الله»؛ وهذا فيه دلالة على أن لا إله إلا الله أفضل الذكر كما صح في الحديث عن نبينا عليه الصلاة والسلام أنه قال : ((أفضل الذكر لا إله إلا الله)) ، وهي أعلى شعب الإيمان كما قال عليه الصلاة والسلام: ((الإيمان بضع وسبعون شعبة –أو ستون شعبة– أعلاها قول لا إله إلا الله)) ، فهي أفضل الذكر .

سأل الله أن يعلمه شيئا يذكر الله ويدعو الله به فقال ((قل لا إله إلا الله)) ؛ مما يستفاد من هذا : أن ذكر الله سبحانه وتعالى لا يكون إلا بما هو جملة تامة مفيدة ، مثل هذه الكلمة «لا إله إلا الله» كلمة تفيد التوحيد والإخلاص ، فلا يُذكر إلا بما كان من الكلام كذلك ، وهذا شأن جميع الأذكار المأثورة : «الله أكبر» ، «سبحان الله» ، «الحمد لله» ، «لا حول ولا قوة إلا بالله» وغير ذلك كلها جمل مفيدة . وهذا مما يدل على بطلان ما عليه الطرقية الذين يذكرون الله بترداد اسم الجلالة مظهَراً أو مضمرا ، فبعضهم يكتفي في الذكر بأن يقول «الله» ويكررها ، أو يأتي بالضمير «هو» ويكرره يكتفي بذلك ؛ هذا ليس ذكرا لله ، وعمله هذا لا يعدُّ طاعة لله ، ولا ينال به شيئا من ثواب الذاكرين ، ولو جلس على هذه الحال يذكر صباحاً ومساء لم يُكتب من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات لأن هذا ليس ذكراً لله سبحانه وتعالى ، وإنما ذكر الله إنما يكون بما شرع ، ويكون بهذه الجمل المفيدة التي تعطي معاني ودلالات ، لما يقول «لا إله إلا الله» هذا توحيد ، لما يقول «الله أكبر» هذا تعظيم ، لما يقول «سبحان الله» هذا تنزيه ، لما يقول «الحمد لله» هذا ثناء ، لما يقول «لا حول ولا قوة إلا بالله» هذه استعانة ، وهكذا كلها معاني عظيمة اشتملت عليها الأذكار المشروعة ، أما مثل ما يصنع أولئك هذا ليس ذكراً لله ؛ ((قال علمني شيئا أذكرك وأدعوك به ، قال قل لا إله إلا الله)) .

((**قال : يا رب كل عبادك يقولون هذا**)) ؛ «كل عبادك» أي : المؤمنين ، أهل التوحيد أهل لا إله إلا الله ؛ كلهم يقولون هذا . أيضا هذا فيه تأكيد الفائدة السابقة ((كل عبادك يقولون هذا)) : يقولون لا إله إلا الله ؛ إذاً أولئك الذين يكتفون بلفظ الجلالة «الله» أو بالضمير «هو» ما دخلوا هنا في هذا الذي ذكره موسى عليه السلام قال ((كل عبادك يقولون هذا)) أي يقولون «لا إله إلا الله» .

ومن المصائب العظيمة أن كبراء أولئك الذين علَّموهم هذه الأذكار قسَّموا الذكر إلى ثلاثة أقسام : قالوا ذِكر للعامة ، وذِكر للخاصة ، وذِكر لخاصة الخاصة ؛ قالوا ذكر العامة: لا إله إلا الله ، وذكر الخاصة: الله ، وذكر

خاصة الخاصة: هو ، هكذا يقولون . إذاً هذا الذي يقوله موسى ((كل عبادك يقولون هذا)) لم يدخل هؤلاء لا على اصطلاحهم الخاصة ولا خاصة الخاصة ما دخلوا تحت ما قال موسى عليه السلام ((كل عبادك يقولون هذا)) ، عباد الله يقولون «لا إله إلا الله» كلمة التوحيد أعظم الذكر وأرفع شعب الإيمان وأجلّ الكلمات على الإطلاق .

قال((كل عبادك يقولون هذا)) ؛ أراد شيئا يخصه سبحانه وتعالى به ، أن يخصه بشيء .

قال سبحانه وتعالى : ((**يا موسى لو أن السماوات السبع وعامرهن غيري والأرضين السبع في كفة**)) السماوات كلها وعامرهن أي ما فيها من الملائكة ، والأرض الأرضين السبع وما فيها من عمّار كل هذه المخلوقات لو جعلت في كفة و«لا إله الله» في كفة ، يعني لو جيء بميزان ووضعت السماوات والأرضين وما فيهما من عمّار لو وضعت في كفة ، و«لا إله إلا الله» قال: ((**مالت بهن لا إله إلا الله**)) وهذا يدل على عظم ثقل «لا إله إلا الله» في الوزن ، ثقيلة في الوزن ، لها ثقل في الميزان ؛ وهذا فيه التنبيه على أهمية الإكثار من ذكر الله بـ«لا إله إلا الله» ، ثقيلة في الميزان ، لو وُضعت السماوات وعمارها والأرضون وعمارها في كفة و«لا إله إلا الله» في كفة مالت بهن «لا إله إلا الله» . وهذا الشاهد من الحديث للترجمة فضل التوحيد وثقل كلمة التوحيد لا إله إلا الله في الميزان .

مثله حديث البطاقة المشهور حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال : ((يُصَاحُ بِرَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ فَيُنْشَرُ لَهُ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ سِجِلًّا كُلُّ سِجِلٍّ مَدَّ الْبَصَرِ ، ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَلْ تُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا ؟ فَيَقُولُ لَا يَا رَبِّ ، فَيَقُولُ أَظَلَمَتْكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ؟ ثُمَّ يَقُولُ أَلَكَ عَنْ ذَلِكَ حَسَنَةٌ فَيُهَابُ الرَّجُلُ فَيَقُولُ لَا ، فَيَقُولُ بَلَى إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَاتٍ وَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ ؛ فَتُخْرَجُ لَهُ بِطَاقَةٌ فِيهَا «أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ» قَالَ فَيَقُولُ : يَا رَبِّ مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ؟! فَيَقُولُ إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ ، فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كِفَّةٍ وَالْبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ ؛ فَطَاشَتْ السِّجِلَّاتُ وَثَقُلَتْ الْبِطَاقَةُ)) فهذا كله مما يدل على فضل التوحيد وفضل كلمة التوحيد لا إله إلا الله ، وأن لا إله إلا الله يجب على قائلها أن يقولها عن إخلاص وعلم وتحقيق للتوحيد الذي دلت عليه .

فهذا الحديث حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه وأرضاه فيه شاهد للترجمة؛ من حيث بيان مكانة التوحيد وفضله وعظيم ثوابه ، وأن كلمة التوحيد هي أثقل ما يكون في الميزان .

والمصنف رحمه الله تعالى أشار إلى أن الحديث رواه ابن حبان والحاكم وصححه ، فأشار إلى تصحيح ابن حبان له وتصحيح الحاكم له ، وأيضاً صحح الحديث غير واحد من أهل العلم ، ومن أهل العلم من تكلم في إسناده من أجل أبي السمح درَّاج ابن سمعان ولاسيما أن روايته عن أبي الهيثم ، فمن أهل العلم من تكلم فيه ، ولكن أيضا مع ذلك لا يضر لأن ما ساق المصنف هذا الحديث لأجله من بيانٍ لثقل «لا إله إلا الله» في الوزن يشهد له ما

خرجه الإمام أحمد رحمه الله تعالى في المسند وغيره من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص عن نبينا عليه الصلاة والسلام أن نوحا عليه السلام قال لابنه : ((يا بني آمرك بلا إله إلا الله ، فإن السماوات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفة ولا إله إلا الله في كفة لرجحت بهن لا إله إلا الله)) والحديث إسناده صحيح . فما جاء في هذا الحديث من بيان لفضل كلمة التوحيد وأنها ترجح لو وضعت في كفة والسماوات السبع والأرضون السبع في كفة أنها ترجح بهن هذا يدل عليه حديث عبد الله بن عمرو بن العاص وهو حديث صحيح .

قال رحمه الله تعالى :

وللترمذي وحسنه عن أنس رضي الله عنه: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «**قال الله تعالى : يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا : لأتيتك بقرابها مغفرة**» .

****

ثم ختم رحمه الله تعالى هذه الترجمة بهذا الحديث حديث أنس بن مالك رضي الله عنه ، والحديث يتكون من ثلاث جمل اقتصر منها رحمه الله تعالى على موضع الشاهد .

قال أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم : ((أن الله تعالى قال : يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً)) ؛ والحديث بجمله الثلاث اشتمل على أعظم أسباب المغفرة وهي ثلاثة : الدعاء مع الرجاء، والاستغفار، والتوحيد . وأعظم هذه الأسباب للمغفرة التوحيد ، بل بدونه لا مطمع للإنسان في المغفرة ، ولا حظ له فيها ولا نصيب إن مات على غير التوحيد كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ ، فالتوحيد هو الأساس الذي تُنال به المغفرة ، وبدونه لا مطمع للإنسان فيها ولا حظ ولا نصيب إن مات على الشرك بالله سبحانه وتعالى .

والشاهد من الحديث للترجمة: أن فيه فضل عظيم للتوحيد ، يقول الله عز وجل : ((**يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض**)) أي ملأ الأرض أو ما يقارب ملأها ((**خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا**)) «شيئا» نكرة في هذا السياق سياق النفي فتفيد العموم ؛ أي : أي شيء من الشرك ، بحيث يكون العبد بعيداً عنه كل البعد صغيره وكبيره ((**لا تشرك بي شيئا ؛ لأتيتك بقرابها مغفرة**)) أي بملأ الأرض مغفرة ؛ فهذا فيه فضل التوحيد ، وفيه تكفير التوحيد للذنوب .

قال المصنف «فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب»؛ وعطف التكفير على الفضل هو من عطف الخاص على العام ، لأن من فضائل التوحيد أنه يكفر الذنوب ، لكن خصها بالذكر مع أنها داخلة في الفضائل لعظم شأن ذلك . وختم بهذا الحديث لما فيه من دلالة على هذه الفضيلة العظيمة للتوحيد .

قال رحمه الله :

فيه مسائل :

الأولى : سعة فضل الله .

وهذه المسألة والفائدة مستفادة من قوله ((لو أتيتني بقراب الأرض خطايا لأتيتك بقرابها مغفرة)) ؛ فهذا من الدلائل الواضحة على سعة فضل الله سبحانه وتعالى ، إضافةً إلى الفضائل التي تضمنتها الأحاديث التي أوردها رحمه الله تعالى في هذا الباب .

الثانية : كثرة ثواب التوحيد عند الله .

وشاهد هذه المسألة ما ساقه رحمه الله تعالى من أحاديث فيها دلائل متنوعة على كثرة فضل التوحيد وعظيم ثوابه عند الله سبحانه وتعالى .

الثالثة : تكفيره مع ذلك للذنوب .

الثالثة : تكفيره مع ذلك – أي مع كثرة ثواب التوحيد وعظيم فضله – للذنوب ، وهذا مستفاد من الحديث ((من مات وهو لا يشرك بالله شيئا)) ، ومن قوله ((ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة)) وقراب الأرض أي ملؤها أو ما يقارب ملئها . فهذا فيه أن التوحيد مع عظيم فضله فيه تكفير الذنوب .

الرابعة : تفسير الآية التي في سورة الأنعام .

أي قول الله سبحانه وتعالى ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾؛ وقد مر معنا تفسير هذه الآية ودلالتها على عظيم ثواب التوحيد وعظيم الفضل المترتب عليه ، وأن من آمن ولم يخلط إيمانه بشركٍ بالله تبارك وتعالى فله الأمن والاهتداء في الدنيا والآخرة .

الخامسة : تأمُّل الخمس اللواتي في حديث عبادة .

حديث عبادة ابن الصامت ذكر النبي صلوات الله وسلامه عليه فيه خمسة أمور :

- الأولى: شهادة أن لا إله إلا الله .
- والثانية: شهادة أن محمداً رسول الله .
- والثالثة: شهادة أن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه .
- والرابعة : أن الجنة حق .
- والخامسة : أن النار حق .

فالمسألة هنا تأمُّل هذه الخمس اللواتي في حديث عبادة ، وهذه الخمس جمعت أصول العقائد وأمهات العقائد الدينية ، وأيضاً جمعت ما تتميز به هذه العقيدة الإسلامية عن العقائد الأخرى سواءً منها العقائد المحرَّفة أو الأديان الباطلة .

السادسة : أنك إذا جمعتَ بينه وبين حديث عتبان وما بعده تبين لك معنى قول «لا إله إلا الله»، وتبين لك خطأ المغرورين .

السادسة : «**أنك إذا جمعتَ بينه**» أي : حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه وأرضاه وفيه ذِكْرُ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ثم في تمامه قال: ((أدخله الله الجنة على ما كان من العمل)) ، يقول «**إذا جمعت بينه وبين حديث عتبان**» ؛ حديث عتبان فيه قول النبي عليه الصلاة والسلام ((يبتغي بذلك وجه الله)) وهذا شرط لقبول هذه الكلمة ، كذلكم قوله رحمه الله تعالى «**وما بعده**» أي وما بعد حديث عتبان يشير إلى حديث أنس ابن مالك وفيه ((ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا)) وهذا أيضاً قيد ؛ فهذه القيود تفيد أن «لا إله إلا الله» لا تكون نافعة لقائلها بمجرد التكلم أو النطق بها ، بل لابد من أن يأتي بشروطها وضوابطها الواردة في كتاب الله جل وعلا وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام ، ومن هذه الضوابط : أن يبتغي بها وجه الله ، ومنها أن لا يشرك بالله شيئا يحقق ما دلت عليه من الإخلاص والبراءة من الشرك والبعد عنه . فبهذه الضوابط وهذه القيود تكون «لا إله إلا الله» نافعة لصاحبها . وأيضا **بهذا يتبين** كما قال المصنف رحمه الله تعالى **خطأ المغرورين** : أي الذي يظن أن «لا إله إلا الله» إنما تنفع بمجرد النطق بها ولو كان لم يحقق ضوابطها وقيودها الواردة في الكتاب والسنة .

السابعة : التنبيه للشرط الذي في حديث عتبان .

في حديث عتبان الشرط هو: أن يبتغي وجه الله ؛ فهذا شرطٌ لقبول «لا إله إلا الله» وترتب الثواب على قولها، ((من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله)) فهذا قيد وشرط لا تكون لا إله إلا الله مقبولة إلا به ((من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله)) ، لكن إن قالها وقلبه لا يبتغي بهذا القول وجه الله !! والابتغاء في القلب ، النطق بهذه الكلمة باللسان لكن ابتغاء وجه الله هذا شيء في القلب لا يطلع عليه إلا الله سبحانه وتعالى ، فلا

تنفع «لا إله إلا الله» قائلها إلا إذا قالها يبتغي بها وجه الله ، لكن إن قالها نفاقاً لم تنفعه ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ [المنافقون:١] ، هذه الشهادة لا تنفعهم مع أنهم نطقوا بها بألسنتهم لكن لا تنفعهم لأن هذا الذي نطقوا به بألسنتهم لم يبتغوا به وجه الله ، فلا إله إلا الله إنما تنفع قائلها إذا قالها يبتغي بها وجه الله .

الثامنة : كون الأنبياء يحتاجون للتنبيه على فضل «لا إله إلا الله» .

وذلك لأن موسى عليه السلام لما قال له الله جل وعلا ((يا موسى قل لا إله إلا الله)) قال : ((كل عبادك يقولون هذا)) ، فقال الله عز وجل : ((يا موسى لو أن السماوات السبع وعامرهن غيري والأرضين السبع في كفة، ولا إله إلا الله في كفة مالت بهن لا إله إلا الله)) ؛ وهذا تنبيه على فضل لا إله الله ، أخذ منه المصنف رحمه الله كون الأنبياء يحتاجون للتنبيه على فضل «لا إله إلا الله» .

التاسعة : التنبيه لرجحانها بجميع المخلوقات ؛ مع أن كثيرًا ممن يقولها يخف ميزانه .

التنبيه لرجحانها – أي لا إله إلا الله – بجميع المخلوقات ؛ لأن في حديث أبي سعيد أن الله عز وجل قال لموسى عليه السلام: ((لو أن السماوات السبع وعامرهن غيري والأرضين السبع وضعت في كفة ، ولا إله إلا الله في كفة لمالت بهن لا إله إلا الله)) ؛ فهذا يدل على رجحانها بجميع المخلوقات ، مع أن كثيراً ممن يقولها يخف ميزانه !! ما السبب وهو يقول «لا إله إلا الله» ؟! هذا فيه فائدة عظيمة تتعلق بهذه الكلمة –كلمة لا إله إلا الله – أنها إنما تنفع قائلها وتكون ثقيلة في الميزان بحسب ما قام في القلب من صدق وإخلاص وإيمان بالله تبارك وتعالى ، أما أن يكون يقولها مجرد قولٍ باللسان مع عدم الصدق والإخلاص ونحو ذلك من الشروط فلا تُقبل ، أو أن يقولها بلسانه ويكون إيمانه القلبي ضعيف جداً فهذا يخف ميزانه وقد يدخل النار ويبقى فيها مدة من الزمان مع أنه يقول لا إله إلا الله !! بسبب أنه خف ميزانه ، ولهذا جاء في الحديث ((أخرجوا من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه أدنى مثقال ذرة من إيمان)) .

العاشرة : النص على أن الأرضين سبعٌ كالسماوات .

هذا جاء مصرحاً به في الحديث قال ((والأرضين السبع)) ، وأيضا هذا قد يستفاد من قول الله جل وعلا في آخر آية من سورة الطلاق ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ .

الحادية عشرة : أن لهن عمارا .

«أن لهن» أي للسماوات والأرض «عماراً» أي سكّانا . والسماوات فيها الملائكة وفي الحديث ((أطت السماء وحق لها أن تئط ، ما فيها موضع شبر إلا وفيه ملك ساجد لله)) فالسماوات لها عمّار والأرض أيضاً لها عمّار .

الثانية عشرة : إثبات الصفات خلافاً للأشعرية .

إثبات الصفات خلافا للأشعرية وفي بعض النسخ "خلافاً للمعطلة" ؛ ففي هذه الأحاديث التي ساق المصنف رحمه الله تعالى ردّ على هؤلاء الذين يعطلون صفات الله سبحانه وتعالى ، سواءً منهم من يعطلها تعطيلا صريحا بجحدها ، أو من يتأوّلها تأويلات بعيدة ويكون نتيجة تلك التأويلات تعطيل صفات الله الثابتة له جل في علاه ، فمثلاً من يقول "الاستواء هو الاستيلاء" حاصل هذا التأويل جحد الاستواء الثابت في القرآن والسنة ، من يقول مثلا "الرضا إرادة الإنعام" حاصل ذلك جحد إثبات الرضا صفةً لله . فتأويل الصفات وصرْفها عن معانيها هو تعطيلٌ لها ، فهذه الأحاديث التي ساقها المصنف رحمه الله فيها إثبات الصفات خلافاً لقول من عطلها ، مثل ما جاء في حديث أبي سعيد من إثبات القول لله عز وجل ((قال الله يا موسى)) ، وأيضا إثبات الوجه في قوله ((يبتغي بذلك وجه الله)) ونحو ذلك ؛ فهذا كله فيه إثبات الصفات خلافاً لمن عطل الصفات.

الثالثة عشرة : أنك إذا عرفتَ حديث أنس عرفتَ أن قوله في حديث عتبان : «فإن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله» أنه ترْك الشرك ، ليس قولها باللسان .

هذه المسألة الثالثة عشرة : أنك إذا عرفتَ حديث أنس ، حديث أنس يقول فيه الله سبحانه وتعالى وهو حديث قدسي ((يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة)) ففيه قيد «لا تشرك بي شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة» ، هذه المغفرة التي ذُكرت في الحديث إنما تُنال بهذا القيد «لا تشرك بي شيئا» . فإذًا هذا القيد الذي في حديث أنس يفيد أن قوله في حديث عتبان : «فإن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله» أنه ترْك الشرك ، يعني قوله ((من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله)) حقيقة ذلك ترك الشرك ، بدليل حديث أنس ، ليس قولها باللسان ؛ لا أن يقولها قولا مجرداً بلسانه بل حقيقة ذلك أن يقولها قولاً يترتب عليه ترك الشرك والبراءة منه والبعد عنه وإخلاص العبادة لله تبارك وتعالى .

الرابعة عشرة : تأمُّل الجمع بين كون عيسى ومحمد عبدي الله ورسوليه .

لأنه قال في حديث عبادة: ((وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله)) فيُتأمل ذلك أي ذِكر العبودية والرسالة ؛ فيما يتعلق بنبينا عليه الصلاة والسلام وأيضا ما يتعلق بعيسى . وأشرتُ فيما سبق أن ذكر العبودية والرسالة في هذا المقام يكون به التوسط والاعتدال والسلامة من الغلو والجفاء ، لأن إثبات العبودية فيه

السلامة من الغلو ، لأن العبد لا يُعبد ولا يضاف له شيء من خصائص الرب ، فهو عبْد ، العبد لا يُعبد ، والعبد لا يضاف إليه شيء من خصائص الرب . فإذاً في الإيمان بأنه عبد سلامة من الغلو ، لكن الذي يقع في الغلو بأن يضفي على عيسى أو على نبينا عليه الصلاة والسلام شيئاً من خصائص الله أو يصرف له شيء من حقوق الله أين فهمه لكونه عبداً ؟! والعبد لا يُعبد . إذاً في إثبات العبودية السلامة من الغلو ، وفي إثبات الرسالة السلامة من الجفاء لأن الرسول يطاع ويُتبع ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء:٦٤] . فبقوله ((عبد الله ورسوله)) فيه أنه عبدٌ لا يُعبد بل رسول يطاع ويتبع وهذا هو التوسط والاعتدال .

هل فيه أن ما حصل لعيسى عليه السلام من الإفراط والتفريط قد يحصل لنبينا كذلك ؟

نعم هذا جاء مصرحاً به في الحديث قال : ((لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم)) ، وأيضا في قوله ((لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً شبرا ذراعاً ذراعا)) ، فما كان عند أولئك من غلو أخبر النبي عليه الصلاة والسلام أنه سيوجد مثله ونظيره شبراً شبرا ذراعاً ذراعا ، فقالوا يا رسول الله اليهود والنصارى ؟ قال ((فمن!!))

الخامسة عشرة : معرفة اختصاص عيسى بكونه كلمة الله .

لأنه جاء في حديث عبادة: ((وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها)) ؛ فينبِّه رحمه الله تعالى هنا إلى معرفة اختصاص عيسى بكونه كلمة الله ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران:٥٩] ، فعيسى كلمة الله : أي بالكلمة كان ، والمراد بالكلمة هنا كما سبق بيان ذلك: الكلمة الكونية القدرية «كن» فكان ، ليس عيسى هو الكلمة نفسها وإنما هو أثر الكلمة ، عيسى بالكلمة كان ، وأُطلق عليه «كلمةً» لأنه بالكلمة كان . فمعرفة اختصاص عيسى بكونه كلمة الله أي أنه بالكلمة كان، بالكلمة التي هي كلمة كن فكان ، والمراد بالكلمة: أي الكلمة الكونية . وأشرت أيضاً فيما سبق أن المصدر إذا أضيف إلى الله سبحانه وتعالى تارةً يراد به الصفة وتارةً يراد به أثر الصفة وهذا يُعلم من السياق ؛ فقوله «كلمته» المراد بكلمته أي أثر الكلمة . المطر رحمة الله لماذا ؟ لأنه بالرحمة وُجد، وأوجده الله برحمته ، ولهذا تارة يطلق على المطر رحمة الله ، وتارةً يقال عنه آثار رحمة الله ، وكل هذا حق هذا باعتبار وهذا باعتبار . الجنة رحمة الله جاء في الحديث القدسي ((يقول الله للجنة أنت رحمتي)) ، والجنة ليست هي نفس الرحمة هي أثر الرحمة ، لكن المصدر إذا أضيف إلى الله سبحانه وتعالى تارةً يراد به الصفة وتارة يراد به أثر الصفة وهذا أمرٌ يُعلم بالتأمل للسياق . إذاً قوله معرفة اختصاص عيسى بكونه كلمة الله أي أنه عليه السلام بالكلمة كان ، قال الله كن فكان.

السادسة عشرة : معرفة كونه روحاً منه .

معرفة كونه روحا منه في قوله في حديث عبادة ((وروح منه)) ؛ فقوله «منه» هذه الإضافة إلى الله سبحانه وتعالى تارةً يراد بها الصفة ، وتارةً يراد بها الخلْق والإيجاد لا الصفة . وهذا أيضاً يُعلم بالسياق وبمعرفة نوع هذا الذي قيل عنه إنه من الله ، فمثلًا قول الله سبحانه وتعالى ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ [الجاثية:١٣] ما المراد بـ«منه» ؟ أي خلقاً وإيجاداً ، أما قول الله عن القرآن: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [السجدة:٢] «منه» وصفاً . ليس البابان باباً واحدا ؛ هذه خلْق وذاك وصْف . إذاً قوله ((وروح منه)) من أي النوعين ؟ ((وروح منه)) الإضافة هنا وصف أو خلق ؟ الروح هنا مخلوقة من جملة الأرواح التي خلقها الله. إذاً قوله «وروح منه» أي من الأرواح التي خلقها الله سبحانه وتعالى ، وتكون هذه الإضافة إضافة تشريف ، أضافها الله سبحانه وتعالى إلى نفسه تشريفاً .

السابعة عشرة : معرفة فضل الإيمان بالجنة والنار .

هذه في حديث عبادة بن الصامت معرفة فضل الإيمان بالجنة والنار ؛ لأنه أولاً قُرن مع الشهادتين شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، وثانياً أيضاً جُعل شرط لدخول الجنة ؛ فهذا كله يدل على فضل الإيمان بالجنة والإيمان بالنار .

-الإيمان بالجنة : أي بأنها مخلوقة وموجودة الآن ، وأنها أعدت للمتقين ، والإيمان بالتفاصيل المتعلقة بثواب الجنة الواردة في الكتاب والسنة .

-وكذلك الإيمان بالنار : أنها مخلوقة وموجودة الآن ، وأنها أعدت للكافرين ، والإيمان بالتفاصيل المتعلقة بأنواع العقوبات التي في النار؛ فهذا كله حقٌّ وهو شرطٌ في دخول الجنة كما هو واضح في الحديث .

الثامنة عشرة : معنى قوله : «على ما كان من العمل» .

وهذه اللفظة وردت في حديث عبادة قال ((أدخله الله الجنة على ما كان من العمل)) ، وأشرتُ فيما سبق أن هذه الكلمة تحتمل أحد معنيين :

١- «على ما كان من العمل» أي : من عمل صالح أو عمل فيه تقصير وأخطاء وتفريط ونحو ذلك .

٢- وتحتمل أن المراد بـ«على ما كان من العمل» أي درجاتهم في الجنة ومنازلهم فيها على حسب الأعمال ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾ [الأحقاف:١٩] .

التاسعة عشرة : معرفة أن الميزان له كفتان .

هذه المسألة مستفادة من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال عن السماوات والأرض : ((لو وضعت في كفة ولا إله إلا الله في كفة)) ؛ فهذا يدل أن الميزان له كفتان .

العشرون : معرفة ذكر الوجه .

أي كما جاء في حديث عتبان ((يبتغي بذلك وجه الله)) ؛ فهذا فيه إثبات الوجه ، وهو صفة لله تبارك وتعالى تليق بجلاله وكماله وعظمته ، فهو وجهٌ لا كالوجوه ، قال الله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١] ، وقال تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم:٦٥] .

الدرس الرابع

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .. أما بعد :

يقول الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتابه التوحيد الذي هو حق الله على العبيد :

بابٌ من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب .

وقول الله تعالى : { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } [النحل:١٢٠] .

****

هذه الترجمة في بيان تحقيق التوحيد ومكانته وعظيم ثوابه وأجره ؛ عقدها الإمام المصنف شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى بعد أن بيَّن مكانة التوحيد وفضله وتكفيره للذنوب ، لما بيَّن ذلك عقد هذه الترجمة لبيان مكانة تحقيق التوحيد ، قال : ((**بابٌ من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب**)) أي ولا عذاب . ومعنى ذلك: أنه يدخلها دخولاً أولياً دخولاً مباشراً دون أن يحاسَب ودون أن يعذَّب ، وهذه رتبة علية ومكانة رفيعة يوفِّق الله سبحانه وتعالى لها من شاء من عباده .

وتحقيق التوحيد المراد به : تتميمه وتكميله ، وهذا التتميم والتكميل على درجتين : التتميم الواجب والدرجة الثانية التتميم المستحب ، وقُل إن شئت درجة المقتصدين ودرجة المقربين ، وكلٌ من المقتصد والمقرَّب أو السابق بالخيرات قد حقق التوحيد واستحق دخول الجنة بدون حساب ولا عذاب ، لكن درجة السابق بالخيرات أعلى ومكانته في الجنة أرفع ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [الأحقاف:١٩] .

وقد قال العلماء رحمهم الله تعالى في بيان حد وضابط التحقيق الواجب الذي هو درجة المقتصدين : هو تصفية التوحيد وتنقيته من شوائب الشرك والبدع والمعاصي ، أما الشرك فالأكبر منه ناقض للتوحيد من أصله ، والأصغر قادحٌ في كماله الواجب ، والبدع بنوعيها القولية والفعلية قادحة أيضاً في كمال التوحيد الواجب ، وهكذا أيضاً الشأن في كبائر الذنوب والمعاصي لها أثرها على التوحيد .

فتحقيق التوحيد هو: تصفيته وتنقيته من شوائب الشرك والبدع والمعاصي ، وهذه الثلاث يسميها أهل العلم «العوائق» ؛ أي التي تعوق السائر إلى الله عز وجل في بلوغه للجنة والفوز برضا الله سبحانه وتعالى ؛ عائق الشرك، وعائق البدعة ، وعائق المعاصي . والخلاص من عائق الشرك: يكون بإخلاص التوحيد لله ، والخلاص من عائق البدعة: يكون بتجريد المتابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، والخلاص من عائق المعاصي: يكون بمجاهدة

النفس على عدم فعلها والمبادرة إلى التوبة عند الوقوع في شيء منها . والعبد لا يسلم من الخطأ لكنه يجاهد نفسه أن لا يقع في المعصية ، وإن وقع في شيء منها بادر وسارع إلى التوبة إلى الله سبحانه وتعالى ، أما أن يكون مصِرًّا على المعاصي والآثام فهذا لا شك له أثره على تحقيقه للتوحيد الواجب ، لأن تحقيق التوحيد الواجب يكون بتصفيته وتنقيته من شوائب الشرك والبدع والمعاصي ، فمن نقى وصفَّى توحيده وخلَّصه من تلك الشوائب دخل الجنة بدون حساب ولا عذاب ، لأن الحساب والعذاب إنما يكون في فعل محرم أو ترك واجب ، وهذا الذي حقق الواجب عليه لم يفعل المحرم ولم يترك الواجب فكان بذلكم محققاً التوحيد التحقيق الواجب .

وأعلى من هذا درجةً تحقيقه التحقيق المستحب ، والتحقيق المستحب : هو الذي يثاب فاعله ولا يعاقب تاركه ، وهو عبارة عن ميدان للمنافسة والمسابقة للدرجات العلا والمنازل الرفيعة ، كما قال عليه الصلاة والسلام: ((إِنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ يَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ، كَمَا يَتَرَاءَوْنَ الكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الغَابِرَ فِي الأُفُقِ، مِنَ المَشْرِقِ أَوِ المَغْرِبِ، لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ)) فأهل الجنة في درجات ومتفاضلون ، فالتحقيق المستحب ميدان للمنافسة والمسابقة والفوز بالدرجات العلا في جنات النعيم .

حاصل القول: أن تحقيق التوحيد نوعان أو درجتان : تحقيق واجب ، وتحقيق مستحب ، وكلٌّ من هذين النوعين أو أهل هاتين الدرجتين يدخل الجنة بدون حساب ولا عذاب ، وأمَّا من أخلَّ بتوحيده إخلالاً لا ينقض أصل التوحيد فهذا أيضاً يدخل الجنة لكنه قد يحاسَب ويعذَّب قبل ذلك ثم يدخل الجنة ، بمعنى أن دخوله الجنة لا يكون دخولاً أولياً .

والله عز وجل ذكر هذه الأقسام الثلاثة في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾ [فاطر:٣٢-٣٣] من هم ؟ الثلاثة ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾ أي : الثلاثة فالواو في قوله ﴿ يَدْخُلُونَهَا ﴾ تشمل الظالم لنفسه لأن الله قال: ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾ أي هؤلاء . وصُدِّرت الآية بوصفهم بأنهم عباد الله وأنهم المصطَفون ثم ذُكر في الآية التي تليها أنهم في الجنة ، لكن المقتصد والسابق بالخيرات دخولهما للجنة دخولاً أوليا بدون حساب ولا عذاب ، أما الظالم لنفسه فإنه قد يمر بمرحلة عذاب يطهَّر فيها من ذنوبه ومعاصيه ثم مآله بعد ذلكم إلى الجنة .

إذاً هذه الترجمة فيها بيان تحقيق التوحيد الذي يكون به دخول الجنة يوم القيامة دخولاً أولياً بلا حساب ولا عذاب . وأورد الإمام شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى تحت هذه الترجمة آيتين وحديث .

أما الآية الأولى فهي قول الله سبحانه: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل:١٢٠] . ذكر هذه الآية رحمه الله في هذا الباب لبيان أن تحقيق التوحيد وتتميمه إنما يكون بالنظر في صفات

وأعمال محققي التوحيد الذين هم قدوة الناس ، قد قال الله عن إبراهيم الخليل عليه السلام : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الممتحنة:٤] فهو أسوة وقدوة ، وهو أمة ، ومن معاني أمة: أي إمام في الخير ؛ بمعنى أن من أراد تحقيق التوحيد فلينظر في صفات وسيَر وأعمال هؤلاء الأئمة ، ينظر في أوصافهم ، في خصالهم ، في أعمالهم ، فأعمالهم هي تحقيق التوحيد ، والله سبحانه وتعالى في هذه الآية وصف خليل الرحمن عليه السلام بصفات هي تحقيق التوحيد ، ومن عُني بها وعمل على تتميمها وتكميلها كان بذلك محققاً للتوحيد .

وأعجبني مرةً كلاماً للشيخ رحمه الله وهو يتكلم عن أدلة التوحيد إجمالاً قال : «دل عليه الكتاب والسنة والفطرة والأئمة» وذكر أشياء . قال «والأئمة» ثم بيَّن ذلك حيث جرت عادة الناس وكثير منهم في أعمالهم أن يكون له قدوة في عمله وأن يكون مؤتماً بغيره في عمله ، وكم يهلك خلْق وأقوام بسبب ائتمامهم بأئمة الضلال ، و«الأئمة» هذه تعتبر حجة عند كثير من الناس يفعل كذا يقول قدوتي فلان ، بقطع النظر عن أي اعتبار هل عند فلان دليل هل عنده حجة هل عنده برهان ؟ لا يلتفت لذلك ؛ ولهذا يوم القيامة يندم من كان بهذه الحال يطيع أهل الضلال تلك الطاعة العمياء ﴿ إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ [الأحزاب:٦٧-٦٨] ، عندما يكون بهذه الصفة يطيع الطاعة العمياء ولا يفكر هل عند مَن يطيعه حجة؟ هل عنده برهان؟ هل ما يقوله قائم على الدليل أو لا؟ هذه تجر الإنسان إلى ويلات ، لكن الاحتجاج بهذا الباب انظر جماله في كلام الشيخ قال : «ودل على التوحيد الأئمة» قال : إذا قيل نستدل بالأئمة قيل: إن إبراهيم أمة وإمام وقدوة للناس ، فإذا أردتم الاحتجاج بالأئمة فهذا إبراهيم خليل الرحمن اتخذه الله خليلاً ، والله قال في القرآن: ﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ [البقرة:١٣٠] .

فإذاً باب القدوة بابٌ نافع وأيضاً خطير ؛ نافع للعبد غاية النفع إذا وفّق في اختيار القدوة والأسوة الذي يسعد بائتمامه به واقتدائه به ، وخطير جدا عندما يكون يقتدي بأقوام لا خلاق لهم ، وقد قال نبينا عليه الصلاة والسلام : ((إِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ)) كان يخاف على أمته منهم خوفاً عظيما ؛قال: ((أخوف ما أخاف)) كان يخاف على أمته من الأئمة المضلين خوفًا عظيماً ، لأن خطورتهم على الناس بالغة وضررهم جسيم جداً .

فهذه لفتة عظيمة جداً من الإمام رحمه الله تعالى شيخ الإسلام في هذا الباب العظيم «باب تحقيق التوحيد»؛ ذكر صفات إمام الحنفاء خليل الرحمن الذي أمَرَنا الله سبحانه وتعالى أن نأتسي به ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ ﴾ ،أمرنا جلَّ وعلا أن نأتسي به وحذَّر من يرغب عن ملته ، وأنَّ من كان كذلك فقد حكم على نفسه بالسفه والغي والضلال .

إذاً هذه صفات عظيمة جليلة مباركة لإمام الحنفاء وهي تعني تحقيق التوحيد . ذُكر في الآية الكريمة أربع صفات لخليل الرحمن عليه صلوات الله وسلامه :

❖ **الصفة الأولى** : أنه كان أمة ؛ وهذه الكلمة تعني شيئين متلازمين ، أحدهما منبني على الآخر ومترتب عليه :

- الأول : اجتمعت فيه صفات الخير ومعاني الفضل ، فهو أمة اجتمعت فيه الصفات الفاضلة والآداب الكاملة والخلق العظيم والعبودية والإخلاص ؛ فهو أمة .
- والمعنى الثاني وهو مترتب على الأول أنه قدوة ، لا يشاء أحد أن يقتدي به في فضيلةٍ ما إلا ويجده متصفاً بها، ولهذا لا يكون العبد أمةً إلا إذا اجتمعت فيه صفات الخير فكان قدوةً فيها لغيره ، ومنه قول الله سبحانه في ذكر دعوات عباد الرحمن ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾[الفرقان:٧٤] . قال بعض السلف : «﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ أي : واجعلنا مؤتمين بالمتقين» ، ظن بعض الناس أن هذا قلب في المعنى وأنه نوع من الخطأ في الفهم للآية ، قال ابن القيم رحمه الله تعالى في نصيحةٍ له لأحد إخوانه طُبعت بهذا الاسم : «بل هذا من دقة الفهم؛ لأنه لن يكون إمامًا للمتقين بعده إلا إذا ائتم هو بالمتقين قبله» ، فإن لم يأتم بالمتقين قبله لم يسلك مسلك الصحابة ومن ابتعهم بإحسان لا يمكن أن يكون إماماً للمتقين، ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾[التوبة:١٠٠] ، إذا اتَّبعهم بإحسان حقاً وصدقاً صار إماماً للمتقين . أما شخصٌ لا صلة له بالسلف الصالح رحمهم الله ، والعلاقة بينه وبين السلف منبتة منفصلة منفصمة ثم يَزعم أو يُزعم أنه إمام !! أي إمامة هذه!! وهو لا صلة له بهدي المتقين قبله ولم يأتم بمن قبله من المتقين ؟ بل بعض الناس يعادي السلف ويقع في أئمة السلف وله كلام باطل في معاداتهم ويقال عنه إمام !! أي إمامةٍ هذه في مثل شخصٍ هذه صفته وهذه حاله!! إلا إن كان المراد إمامة في الباطل ، أما إمامة في الحق والهدى وهو شخصٌ مُنْبَت لا صلة له بسلف الأمة وخيار الأئمة كيف يكون إماماً في الحق والهدى . إذاً من شروط الإمامة في الدين الائتمام بالمتقين الأولين ، ويأتي في صدر هؤلاء الأنبياء ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾[الأنعام:٩٠] ، وهذا الذي لأجله ساق الإمام رحمه الله تعالى هذه الآية الكريمة قال ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ .

❖ **الصفة الثانية** قال : ﴿قَانِتًا لِلَّهِ﴾ ؛ والقنوت يعني ملازمة الطاعة ومداومة العبادة مع الخشوع والذل والخضوع لله تبارك وتعالى . فكان عليه السلام قانتاً : أي مداوماً على الطاعة ملازماً للعبادة محافظاً عليها معتنياً بها خاشعا خاضعاً متذللاً لله رب العالمين . فهذه الصفة الثانية لمحققي التوحيد .

❖ **الثالثة** : قال ﴿ حَنِيفًا ﴾ ؛ والحنيفية ملة إبراهيم . حنيفًا : أي مائلاً عن الباطل وعن الضلال مقبِلاً على الحق والهدى ، فكل باطل وضلال هو مائل عنه متجافٍ عنه مبتعدٌ عنه في جانبٍ بعيد عنه حنيفاً ، وأمور الخير مقبل عليها تمام الإقبال ، حنيفاً : مائلا عن الشرك والضلال والباطل مقبلا على الإخلاص والتوحيد والطاعة والعبودية لله سبحانه وتعالى .

❖ **والصفة الرابعة** : ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وهذه أهم الصفات البراءة من الشرك ومن أهله والخلوص منه ومجانبته ومجانبة أهله ، ومن دعاء خليل الرحمن ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم:٣٥] . فهو عليه السلام وصفه الله بهذه الصفة ﴿ وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ، قد قال الله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة:٤] ؛ هذه البراءة من الشرك والبراءة من أهله﴿إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ . وهنا وصفه بقوله﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ لم يكن منهم فلا يفعل أفعالهم ، ولم يكن منهم فهو متبرئ منهم ؛ ففيه البراءة من الشرك ومن أهله .

فإذاً هذه الآية العظيمة المباركة فيها صفات محققي التوحيد .

وقال : { وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ } [المؤمنون:٥٩].

****

هذه الآية الكريمة فيها كذلك صفة محقق التوحيد ؛حيث قال الله جل وعلا: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ ، فأعظم صفة يتحلى ويتصف بها محققوا التوحيد البُعد عن الشرك والبراءة منه والبراءة من أهله والبُعد عنه والحذر من الوقوع فيه ؛ فهم لا يشركون بالله ، حذرون من الشرك أشد الحذر مجانبون له أشد المجانبة ، وذلك لما قام في قلوبهم من صدقٍ في الإيمان وإخلاصٍ لله سبحانه وتعالى ومجاهدةٍ للنفس على تحقيق ذلك . وما من شكٍ أن القلب إذا صدق وأخلص ؛ صدق مع الله في إيمانه وتوحيده ، وأخلص لله في عبادته وطاعته ؛ لاشك أن هذا الصدق والإخلاص يثمر صحة العمل والاستقامة على طاعة الله سبحانه وتعالى .

فإذاً أعظمُ صفات محققي التوحيد ما وصفهم الله عز وجل به في هذه الآية الكريمة ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴾ .

وعن حصين بن عبد الرحمن قال : كنت عند سعيد بن جبير ، فقال : أيكم رأى الكوكب الذي انقض البارحة ؟ فقلت : أنا ، ثم قلت : أما إني لم أكن في صلاة ولكني لُدغت ، قال : فما صنعت ؟ قلت : ارتقيت . قال : فما حملك على ذلك ؟ قلت : حديث حدَّثناه الشعبي ، قال : وما حدثكم ؟ قلت : حدثنا عن بريدة بن الحُصيب رضي الله عنه أنه قال : «لا رقية إلا من عين أو حُمَة» . قال : قد أحسن من انتهى إلى ما سمع ، ولكن حدثنا ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ((عُرضت عليَّ الأمم فرأيت النبي ومعه الرهط ، والنبي ومعه الرجل والرجلان ، والنبي وليس معه أحد ، إذ رُفع لي سواد عظيم ، فظننتُ أنهم أمتي ، فقيل لي : هذا موسى وقومه ، فنظرت فإذا سوادٌ عظيم ، فقيل لي: هذه أمتك، ومعهم سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب)) . ثم نهض فدخل منزله ، فخاض الناس في أولئك . فقال بعضهم : فلعلهم الذين صحبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال بعضهم : فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام فلم يشركوا بالله شيئا ، وذكروا أشياء ، فخرج عليهم رسول صلى الله عليه وسلم فأخبروه فقال : ((هم الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون)) . فقام عكاشة بن محصن رضي الله عنه فقال : ادع الله أن يجعلني منهم ، قال : ((أنت منهم)) ، ثم قام رجل آخر فقال : ادع الله أن يجعلني منهم فقال : ((سبقك بها عكاشة)) .

****

ثم أورد الإمام رحمه الله تعالى هذا الخبر عن حصين بن عبد الرحمن ، وحصين بن عبد الرحمن رحمه الله تعالى من أجلَّة التابعين والعلماء المحققين وله مكانة في العلم والفضل والأدب ؛ فيروي هذا الخبر ويحكي أيضاً هذا المجلس ، وتأمل يا طالب العلم هذا المجلس المبارك من مجالس التابعين ، انظر كيف يتحاورون ، وكيف يتحدثون ، وكيف يتناقشون في المسائل العلمية ، وانظر أدبهم الرفيع وخلُقهم العالي ومعاملتهم الكريمة حتى نتأدب بآدابهم ونتخلَّق بأخلاقهم فنسعد كما سعدوا .

يقول حصين بن عبد الرحمن رحمه الله : ((**كنت عند سعيد بن جبير**)) وسعيد معروفٌ من هو في إمامته وفضله وعلمه رحمه الله تعالى .

((**كنت عند سعيد ابن جبير فقال : أيكم رأى الكوكب الذي انقض البارحة ؟**)) الكوكب معروف ، وانقضاضه : سقوطه ، والله عز وجل خلق النجوم لثلاث؛ منها أنها رجوم للشياطين . فكان كوكباً انقض البارحة فسأل سعيد ابن جبير من هو حاضر عنده في المجلس من منكم رأى الكوكب ؟ وهذا فيه اهتمام السلف بهذه الآيات العظيمة واتعاظهم واعتبارهم ، والله جل وعلا يقول : ﴿ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ [الإسراء:٥٩] ، فسأل من منكم رأى الكوكب الذي انقض البارحة ؟

قوله ((**البارحة**)) هذا يستفاد منه أن المجلس كان بعد الظهر أو بعد العصر لم يكن قبل الظهر ، لأن أهل العلم يقولون ما قبل الزوال يقال «هذه الليلة» ، من رأى الكوكب هذه الليلة ، وبعد الزوال يقال «البارحة» ؛ من برح إذا زال ؛ فهذا يفيد أن المجلس لم يكن في الضحى ولا بعد الفجر ، وإنما كان إما بعد الظهر أو بعد العصر .

((**فقلت: أنا**)) القائل أنا :هو حصين رحمه الله .

((**ثم قلت : أما إني لم أكن في صلاة**)) احتراز ؛ من رأى الكوكب البارحة ؟ الكوكب انقض في الليل ، ومن يكون مستيقظاً في ذلك الوقت في ذلك الزمان لا ينصرف الذهن إلا أنه يصلي ، ولم يكن ذلك الوقت يصلي فاستدرك حتى لا يُظَن فيه شيء لم يفعله ، وحتى لا يُحمد بما لم يفعل ، فما كان يصلي ذاك الوقت وإنما كان مستيقظاً لسبب آخر . قال: ((أما إني لم أكن في صلاة)) ، هذه الكلمة قوله «أما إني لم أكن في صلاة» نستفيد منها أنه في ذلك الوقت من كان مستيقظا لا يذهب الذهن إلا أنه في صلاة ولا ينصرف الذهن إلا أنه في صلاة، لكن في زماننا هذا إذا قال شخص "أني الساعة اثنا عشر رأيت الكوكب" ، الساعة اثنا عشر إلى الآن ما أحد نام كانوا قديماً بعد العشاء مباشرة ينامون ويبادرون إلى النوم ، ولم يكن عندهم هذه الإضاءة الحديثة في البيوت والمساجد والطرق ، حتى النجوم الآن ما نراها داخل المدن ، لأنك أي وقت في الليل تمشي تحت الإضاءة ، في البيت أو في الشارع أو في المسجد أو في العمل كلها إضاءة فالنجوم ما نراها ، حياة مختلفة وأيضاً تغير حتى في الفطرة ، الله جعل النوم سبات وجعل النوم في الليل ، والنهار معاشا ، لكن هذه تغيرت ، ولم يكن مع هذا التغير ضياع حظ الناس من صلاة الليل بل حتى صلاة الفجر ، حتى صلاة الفجر عند عدد من الناس ضاعت! يسهر في الليل وينام ليس عن صلاة الليل ينام عن صلاة الفجر ، هذه مصيبة عظيمة جداً ابتُلي بها كثير من الناس في هذا الزمان . فإذاً الاحتراز الذي يحترزه يتناسب مع ذلك الوقت ، لكن الآن لو قال الشخص أنا رأيته ما يحتاج يحترز ، ما يحتاج يقول أما إني لم أكن في صلاة ، لأن الذهن أصلاً ما يذهب إلى ذلك في أمور كثيرة ، ممكن يقول كنت في زواج ، لأن الزواج الآن بعضهم يضع طعام العشاء في الواحدة ليلا ويحبس الناس إلى الواحدة أو الثانية عشر ليلاً ثم ينصرفون بعد ذلك الوقت ؛ فيُجْهِز بطريقته هذه على حظهم من صلاة الليل وربما حظهم من صلاة الفجر . فهذه الآن من المصائب والمعضلات التي نعيشها في زماننا هذا .

فأكرم بمثل هذه الحياة يقول: ((**أما إني لم أكن في صلاة**)) ؛ إذا لم يكن في صلاة ثمة سؤال يطرح نفسه : في ذلك الوقت من الليل وقائم ولم يكن في صلاة ثمة سؤال يطرح نفسه أجاب عنه بدون أن يُسأل قال :

((**ولكني لدغت**)) يعني الذي كنت بسببه مستيقظا تلك اللحظة أنني لدغت ؛ أي لدغتني عقرب ، وهو متأذي متألم بسمِّها ، فكان مستيقظاً من الأذى الذي ناله بسم تلك العقرب ((ولكني لدغت)) .

أيضا سؤالٌ يطرح نفسه والحديث يجرُّ بعضه ، قال له سعيد : ((**فما صنعت؟**)) ؛ ما الذي عملته لمداواة نفسه ومعالجتها من هذه اللدغة ؟

((**قال: ارتقيت**)) وفي بعض الروايات «استرقيت» أي طلبت من أحد أن يرقيني . وظاهر السياق أن الذي فعله هو الاسترقاء؛ أي طلب من أحد أن يرقيه .

((**قال: فما حملك على ذلك؟**)) سؤال عن الدليل ، وهذا فيه عناية السلف رحمهم الله بالدليل وعنايتهم به وبحثهم عنه وتحرِّيهم له . قال ((ما حملك على ذلك)) : أي ما الدليل الذي استندتَ عليه عندما استرقيت أو ارتقيت؟

قال : ((**حديث حدَّثناه الشعبي ، قال : وما حدثكم؟**)) أروي لنا الحديث ، أخبرنا به .

قال : ((**حدثنا عن بريدة بن الحُصيب أنه قال : لا رقية إلا من عين أو حُمَة**)) ؛ العين معروفة، أي عندما يصاب الإنسان بمرض أو آفة أو نحو ذلك بسبب العين ، يكون أحدٌ أصابه بعينه وقد قال عليه الصلاة والسلام ((العين حق)) . والحمة : هي لغة ذوات السموم . الحمة: أي كون الإنسان أصيب بلدغة ذوات السموم فارتقى استناداً إلى هذا الحديث . إذاً هو عمل بعلم بحجة ؛ ولهذا أثنى عليه سعيد ابن جبير فيما صنع .

قال : ((**قد أحسن من انتهى إلى ما سمع**)) يقول له قد أحسنت . الإحسان هنا منبني على أمرين أفادهما كلام سعيد: سماع العلم ، والعمل به ، لأن من سمع العلم ولم يعمل به مسيء ، ومن عمل بدون علم مسيء ، والمحسن هو من علِم وعمل؛ من عمل بعلم ، أما من عمل بلا علم ، أو علم ولم يعمل؛ كل منهما مسيء. فمدحه وأثنى عليه قال ((قد أحسن من انتهى إلى ما سمع)) أي أنك عملت بدليل فأحسنت صنعاً .

قال : ((**قد أحسن من انتهى إلى ما سمع ، ولكن حدثنا ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم**)) وساق الحديث وفيه ((لا يسترقون)) ؛ هل ساق هذا الحديث وفيه هذه اللفظة ((لا يسترقون)) تخطئةً له في صنيعه ؟ الجواب لا ، لأنه لو كان يخطِّئه في صنيعه لم يقل له ((قد أحسن من انتهى إلى ما سمع)) .

إذاً لماذا ساق هذا الحديث وقال «ولكن حدثنا» ؟ أراد أن يبين له درجةً أكمل ومنزلةً أعلى من هذا الذي فعله ، هو استرقى ، والاسترقاء جائز ليس محرماً ، لكنه خلاف الأولى . الاسترقاء : أن يطلب الإنسان المريض من غيره أن يرقيه؛ هذا جائز ، يجوز للإنسان أن يقول لشخص فاضل أنا متعب اقرأ عليّ ، لا بأس بذلك ليس بحرام لكنه خلاف الأولى . فإذاً سعيد عندما قال له ((أحسن من انتهى إلى ما قد سمع)) وساق له حديث ابن عباس أراد أن يبين له الأفضل . وانظر أيضًا بيانه له الأفضل بهذا الأسلوب الرفيع من البيان ، حتى إنه لم يقل له الذي فعلته أنت خلاف الأولى قال «أحسن من انتهى إلى ما سمع ولكن» ، وهذا كله من جمال البيان وكمال الأدب واللطف من هؤلاء الأئمة رحمهم الله تعالى .

قال : ((**ولكن حدثنا ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : عرضت عليَّ الأمم**)) المراد بالأمم : أمم الأنبياء . أي وقت كان هذا العرض؟ الله أعلم . وعرْض الأمم عليه –عليه الصلاة والسلام– كما بيَّن أهل العلم أي أمثالها ، فعُرضت عليه أمم الأنبياء .

قال: ((**فرأيت النبي ومعه الرهط**)) والرهط: هم العدد دون العشرة ، نبي مضى حياته في دعوة قومه فكان من استجاب له أقل من عشرة .

((**والنبي ومعه الرجل والرجلان**)) يأتي بعض الأنبياء يوم القيامة أمضى حياته في بعثته دعوةً إلى الله فلم يستجب له إلا رجل واحد أو لم يستجب له إلا رجلان .

وأعظم من ذلك ((**والنبي وليس معه أحد**)) ؛ يُبعث ولم يتبعه أحد من قومه ، بل بعض الأنبياء قتلهم أقوامهم . فيأتي النبي ومعه الرجل ومعه الرجلان والنبي وليس معه أحد .

((**إذ رُفع لي سواد عظيم فظننتُ أنهم أمتي**)) سواد رآه في الأفق لا يرى أشخاصهم ، ولهذا لم يميّز فظنهم عليه الصلاة والسلام أمته .

((**فقيل لي : هذا موسى وقومه**)) هذا يفيد أن موسى عليه السلام من أكثر الأنبياء تابعاً بعد نبينا صلوات الله وسلامه عليه .

قال ((**فنظرت فإذا سواد عظيم**)) جاء في بعض الروايات «قد سد الأفق» ((**فقيل : هذه أمتك**)) فهو عليه الصلاة والسلام أكثر الأنبياء تابعاً ؛ صلوات الله وسلامه عليه .

((**ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب**)) وهذا موضع الشاهد للترجمة «دخل الجنة بدون حساب» أي ولا عذاب ؛ ومعهم سبعون ألف يدخلون الجنة بدون حساب ولا عذاب . وجاء في بعض الروايات أنه عليه الصلاة والسلام قال : ((فاستزدتُ ربي فزاني مع كل ألفٍ سبعون ألف)) ، وجاء في بعض الروايات ((مع كل واحد سبعون ألف)) ، لما قيل له معهم سبعون ألف قال استزدت ربي طلبت من ربي الزيادة؛ الله أكبر!! ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨]، قال جل وعلا: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب:٦] أي أحرص على نفسك منك صلوات الله وسلامه عليه وأولى بنفسك منك ؛ ولهذا وجب أن تتبعه وتطيعه وتقدم طاعته على طاعة نفسك ومحبته على محبة نفسك حقاً لا ادِّعاءً ، المحبة المثمرة لاتباعه صلوات الله وسلامه عليه .

أما تلك المحبة المثمرة للبدع فلا تجدي لأهلها شيئاً ، المحبة النافعة التي تثمر اتباع للنبي الكريم عليه الصلاة والسلام كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران:٣١] . أما شخص يزعم أنه يحب النبي عليه الصلاة والسلام ثم يسهر الليل مع الطبل والأناشيد وينام عن صلاة الفجر !! فريضة يتركها والبدعة لا يفوّتها!! أين المحبة الحقيقية الصادقة للنبي الكريم عليه الصلاة والسلام ؟! ((فاستزدت ربي فزادني)) هكذا جاء في بعض الروايات .

قال : ((**ثم نهض**)) أي النبي عليه الصلاة والسلام ((**فدخل منزله**)) ؛ كانوا في مسجده هذا صلوات الله وسلامه عليه فدخل منزله .

((**فخاض الناس في أولئك**)) الناس: أي الصحابة ؛ من كانوا حاضرين ذلك المجلس قد سمعوا قول النبي عليه الصلاة والسلام خاضوا في أولئك .

((**فقال بعضهم : فلعلهم الذين صحبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال بعضهم : فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام فلم يشركوا بالله شيئا**)) ؛ هذا فيه كمال علم السلف من حيث أنهم أيقنوا أن هؤلاء فازوا بهذه الرتبة العلية بالعمل ، لكن ما هذا العمل ما نوعه ما صفته ؟ بدأوا كلٌّ يجتهد ويتحرى ؛ فبعضهم قال: لعلهم الذين صحبوا النبي عليه الصلاة والسلام ، وبعضهم قال: لعلهم الذين وُلدوا في الإسلام فلم يشركوا بالله شيئا .

قال: ((**وذكروا أشياء**)) أي ذكروا احتمالات . أخذ منه أهل العلم أن مثل هذا الصنيع لا بأس به إن كان على وجه التحري واحتمالات ، لا يجزم أنَّ هذا هو القول الحق والفهم الصائب وإنما يقول احتمال أنه كذا أو يقول لعله كذا ، والآخر يقول لعله كذا ، لكن لا يجزم ، على سبيل التفكر والتأمل والاجتهاد في معرفة المعنى .

قال: ((**فخرج علهم رسول صلى الله عليه وسلم فأخبروه**)) أخبروه بالذي دار بينهم من اجتهادات ؛ بعضنا قال كذا وبعضنا قال كذا ، أخبروه بما دار بينهم .

فقال : ((**هم الذين لا يسترقون ، ولا يكتوون ، ولا يتطيرون ، وعلى ربهم يتوكلون**)) ؛ أربع صفات ذكرها عليه الصلاة والسلام لأولئك الذين يدخلون الجنة بدون حساب ولا عذاب . اللهم يا ربنا يا كريم يا منَّان يا عظيم فضلاً منك وكرماً نسألك أن تجعلنا أجمعين ممن يدخل الجنة بدون حساب ولا عذاب . اللهم منَّ علينا يا ربنا وتفضل علينا بأن نكون ممن يدخل الجنة بدون حساب ووالدينا وأولادنا وأزواجنا وذرياتنا يا رب العالمين .

قال: ((**هم الذين لا يسترقون**)) وهذا موضع الشاهد من سياق سعيد بن جبير لهذا الخبر ((لا يسترقون)) ، نقلًا لحصين إلى الأوْلى والأفضل . حصين استرقى ، والأولى عدم الاسترقاء ، فقوله ((لا يسترقون)) أي لا يطلبون الرقية من غيرهم ، لا يطلبون من أحد أن يرقيهم ، لأن المسترقي سائل وطالب وملتفت إلى إنسانٍ آخر ، فذكر من صفاتهم لا يسترقون يعني لا يطلب من غيره أن يرقيه ، وهذا ولئن كان جائزاً كما دلت عليه الرواية السابقة إلا أنه خلاف الأوْلى ، فالأولى في تكميل التوحيد وتتميمه أن لا يسترقي .

قال: ((**ولا يكتوون**)) ؛ الكي جائز ليس بحرام ، وقد قال عليه الصلاة والسلام: ((شفاء أمتي في ثلاث وذكر منها كية نار)) ، الكي فيه شفاء كما أخبر النبي عليه الصلاة والسلام بذلك وهو مباح لكنه أيضاً خلاف الأوْلى لما فيه من إيذاء للبدن بالنار عندما يُكوى جزء من البدن بها .

والاسترقاء جائز ولكنه خلاف الأولى ؛ دل على جوازه الرواية الأولى ، ودل على أنه خلاف الأولى الرواية الثانية التي ساقها سعيد بن جبير رحمه الله تعالى .

وقوله ((**لا يتطيرون**)) التطير: هو التشاؤم سواء بالطير أو بغيرها ، سواء بالطير أو بالأصوات أو بالأسماء أو بالحركات أو بالمناظر التي يشاهدها الإنسان . والتشاؤم الذي يضر الإنسان: هو ما أمضاه أو ردَّه ؛ ما جعله يمضي في عمل أو يتوقف عن العمل تشاؤمًا ، إما أن يمضي في عملٍ ما أو في طريق ما ، أو يتوقف عن عملٍ ما بسبب التشاؤم . فمن صفات محققي التوحيد أنهم لا يتطيرون؛ أي لا يتشاءمون لا بطير ولا بأصوات ولا بحركات ولا بأعمال أو مشاهد يرونها أو غير ذلك ، لا يتطيرون .

((**وعلى ربهم يتوكلون**)) وهذا صفو صفاتهم وإليه يرجع ما سبق . «وعلى ربهم يتوكلون» : أي حققوا تمام التوكل على الله سبحانه وتعالى وكمَّلوا هذا المقام العظيم ؛ التوكل على الله عز وجل في مصالحهم الدينية والدنيوية وشؤونهم كلها . يتوكلون على الله : أي يفوضون أمورهم كلها إلى الله ، منه جل وعلا يستمدون العون ويستمنحون التوفيق والتسديد.

((**فقام عكاشة بن محصن**)) رضي الله عنه وأرضاه بادر لما سمع هذه الأوصاف قال : ((**ادع الله أن يجعلني منهم**)) بادر وطلب من النبي عليه الصلاة والسلام هذا الطلب قال : «ادع الله أن يجعلني منهم» .

((**فقال عليه الصلاة والسلام : أنت منهم**)) وهذا علَم من أعلام النبوة ، قال «أنت منهم» : أي من هؤلاء السبعين الذين يدخلون الجنة بدون حساب ، فعكاشة ممن شهد له النبي عليه الصلاة والسلام بالجنة ، وقد مات شهيدا في مقاتلة المرتدين مع خالد بن الوليد وأصحاب النبي عليه الصلاة والسلام في قتالهم للمرتدين قُتل شهيدًا رضي الله عنه وأرضاه . فقال له النبي عليه الصلاة والسلام: ((أنت منهم)).

((**ثم قام رجل آخر فقال : ادع الله أن يجعلني منهم فقال: سبقك بها عكاشة**)) ؛ لم يقل أنت منهم ولم يقل أيضا أنت لست منهم ، قال «سبقك بها عكاشة» وحسم هذا الأمر ، لأنه سيتوالى الطلب ، وقد يطلب من لا يكون مثلاً كذلك أو نحو ذلك ، فحسم الأمر عليه الصلاة والسلام فقال : ((سبقك بها عكاشة)) .

فهذا السياق أو هذا الخبر الشاهد منه : ما جاء من ذكرٍ لهذه الصفات العظيمة التي هي صفات محققي التوحيد الذين يدخلون الجنة بدون حساب ولا عذاب .

وأشرتُ في مقدمة الحديث أن هذا المجلس يبين لنا الصورة الجميلة التي كان عليها السلف في حوارهم ونقاشهم وأدبهم ، وأيضا ارتباطهم بالدليل ، وكنت كتبت مقالاً حول هذا الأثر سميته «مجلس ماتع من مجالس التابعين» ، ومن أراده يجده بإذن الله تبارك وتعالى حول اللطائف التي يشتمل عليها هذا المجلس من ارتباط السلف بالدليل ، خلُقهم الفاضل ، حوارهم اللطيف ، مناقشتهم الهادئة . وكم نحتاج نحن إلى أن نقف على مثل هذه الأخلاق العالية والأدب الرفيع حتى نتأدب بآداب هؤلاء رضي الله عنهم ورحمهم.

قال رحمه الله تعالى **فيه مسائل** ؛ **الأولى** : **معرفة مراتب الناس في التوحيد** .

أي أن أهل التوحيد ليسو فيه على رتبة واحدة بل هم متفاوتون ، ومراتبهم في التوحيد من حيث الجملة ثلاثة :

- المرتبة الأولى : من حقق التوحيد التحقيق المستحب ؛ إضافة إلى تحقيقه التحقيق الواجب حقق التوحيد التحقيق المستحب ؛ وهو درجة المقربين والسابقين بالخيرات .

- والمرتبة الثانية : من حقق التوحيد التحقيق الواجب ؛ وهذه درجة المقتصدين .

- والمرتبة الثالثة : درجة من ظلم نفسه بأمورٍ وأعمال لا تقدح في التوحيد من أصله ولكن تقدح في كماله الواجب ؛ فظلم نفسه بذلك .

فإذاً من حيث الإجمال أهل التوحيد على ثلاثة مراتب ؛ قال الله تعالى: ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [فاطر:٣٢] .

الثانية : ما معنى تحقيقه .

معناها سبق أن مر معنا؛ أي : تصفيته وتنقيته من شوائب الشرك والبدع والمعاصي ، وأيضاً مر بيان ما يتعلق بهذه الأمور الثلاث وأنها معوقات للفوز بثواب تحقيق التوحيد ، فهذه معوقات في طريق السائر إلى الله سبحانه وتعالى الذي يطلب ثواب الله والدار الآخرة ، فتحقيق التوحيد: تصفيته من شوائب الشرك والبدع والمعاصي؛ وهذا التحقيق الواجب ، أما التحقيق المستحب: فهو أن يضيف إلى ذلك مجاهدة نفسه المجاهدة التي يبلغ بها درجة المحسنين ؛ أن يعبد الله كأنه يرى الله .

الثالثة : ثناؤه سبحانه على إبراهيم بكونه لم يك من المشركين .

ثناؤه على إبراهيم خليل الرحمن عليه الصلاة والسلام بكونه لم يك من المشركين في قوله: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ، ومعنى لم يكن من المشركين : أي براءته من الشرك وبراءته من أهله وبُعده عنه ، ومر أيضا معنا قول الله تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ [الممتحنة:٤] .

الرابعة : ثناؤه على سادات الأولياء بسلامتهم من الشرك .

وذلك في قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴾ ؛ فهذا فيه ثناءٌ على سادات الأولياء بسلامتهم من الشرك، قال ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴾ فهذا فيه بُعدهم عن الشرك وبراءتهم منه ومن أهله .

الخامسة : كوْن ترْك الرقية والكي من تحقيق التوحيد .

لأن النبي عليه الصلاة والسلام لما ذكر أوصاف الذين يدخلون الجنة بدون حساب ولا عذاب قال: ((هم الذين لا يسترقون ولا يكتوون)) ؛ فعُلم من ذلك أن كون ترك الرقية والكي من تحقيق التوحيد ، والمراد ترك الرقية : أي الاسترقاء ، «لا يسترقون» أي لا يطلب من غيره أن يرقيه . وذلك كما سبق البيان أن في الاسترقاء طلب وسؤال والتفات بالقلب إلى الغير ، والاكتواء فيه إيذاء للبدن بالنار ؛ فهؤلاء من تمام توكلهم تركوا الاسترقاء وتركوا أيضاً الاكتواء مع أن كلاًّ منهما جائز ؛ الاسترقاء جائز والاكتواء جائز .

السادسة : كون الجامع لتلك الخصال هو التوكل .

كون الجامع لتلك الخصال أي ترك الاسترقاء وترك الاكتواء وترك التطير الجامع لذلك كله هو التوكل ؛ لأنه قال في تمام ذلك : ((وعلى ربهم يتوكلون)) أي أنهم لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون لكمال توكلهم على الله .

السابعة : عمق علم الصحابة بمعرفتهم أنهم لم ينالوا ذلك إلا بعمل .

السابعة : عمق علم الصحابة ؛ وذلك أن النبي عليه الصلاة والسلام لما ذكر لهم أن في أمته سبعون ألف يدخلون الجنة بدون حساب ولا عذاب ثم مضى ودخل بيته عليه الصلاة والسلام خاضوا فيهم ، فقال بعضهم : لعلهم الذين صحبوا محمدا صلى الله عليه وسلم ، وقال بعضهم : لعلهم الذين وُلدوا في الإسلام ، وذكروا أشياء أي من هذا القبيل ، فتركزت هذه المعاني أو التقريرات التي ذكروها أو الاحتمالات التي ذكروها تركزت على العمل ؛ فهذا يدل على عمق علم الصحابة أخذوا ينظرون في أعمال كبيرة جدًا من أعمال الإسلام؛ إما الصحبة ، أو أنه ولد على الإسلام نشأ من ولادته مسلماً أو نحو ذلك ، فهذا فيه دلالة على عمق علم الصحابة حيث إن جميع ما قالوه فيه أنهم لم ينالوا ذلك إلا بعمل .

الثامنة : حرصهم على الخير .

لأنهم أخذوا يبحثون في هذه الصفات حرصاً على الخير ، ليس من باب الفضول أو مجرد المعرفة ، وإنما أرادوا أن يعرفوا هذه الصفات وأن يتوصلوا إليها حرصاً منهم رضي الله عنهم وأرضاهم على الخير .

التاسعة : فضيلة هذه الأمة بالكمية والكيفية .

فضيلة هذه الأمة بالكمية أي العدد ؛ حيث إن النبي عليه الصلاة والسلام رأى سوادًا عظيماً قد سدَّ الأفق وقيل له إن فيهم سبعين ألف يدخلون الجنة بدون حساب ولا عذاب ، وأيضا في الرواية الأخرى أنه استزاد الله سبحانه وتعالى فزاده مع كل ألف سبعون ألفا ، وفي رواية مع كل واحد سبعون ألفا ؛ فهذا فيه فضيلة هذه الأمة بالكمية أي بالعدد . وأيضا بالكيفية أي الصفات ؛ هؤلاء السبعون ألف لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون هذه صفات عالية وجليلة . فإذاً فيه فضيلة هذه الأمة أمة محمد عليه الصلاة والسلام بالكمية والكيفية .

العاشرة : فضيلة أصحاب موسى .

فضيلة أصحاب موسى كليم الله عليه الصلاة والسلام ؛ لأن أتْباعه كثُر ، والنبي عليه الصلاة والسلام في أول الأمر لما رأى سواداً عظيمًا ظنهم أمته ، فهذا فيه فضيلة أصحاب موسى عليه السلام .

الحادية عشرة : عرْض الأمم عليه ، عليه الصلاة والسلام .

وهذا مأخوذ من قوله صلى الله عليه وسلم ((عُرضت علي الأمم)) أي أمم الأنبياء ، وعرفنا أن المراد بعرض الأمم أي عرض مثالها.

الراجح هل هو رؤية أو كان في الإسراء ؟

الله تعالى أعلم هذا العرض الذي ذُكر في الحديث متى كان وكيف كان ؟ هذا الله تعالى أعلم به ، لكن قرر أهل العلم رحمهم الله تعالى أن هذا العرض عرضٌ لمثال هذه الأمم .

الثانية عشرة : أن كل أمةٍ تُحشر وحْدها مع نبيها .

يعني لا تكون أمم الأنبياء مختلطة بل كل أمة تحشر مع نبيها ، وهذا مستفاد من الحديث ((يأتي النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل ، والنبي ومعه الرجلان)) فهذا يفيد أن كل أمة تحشر وحدها مع نبيها .

الثالثة عشرة : قلة من استجاب للأنبياء .

لأنه مر في الحديث ((يأتي النبي ومعه الرهط)) ؛ الرهط عدد أقل من العشرة ، ((ويأتي النبي ومعه الرجل)) رجل واحد فقط ! مضى السنوات الطوال يدعو قومه وبذل وسعه وجهده في دعوة قومه وبلَّغ البلاغ المبين وما ترك خيراً إلا دلهم عليه ولا شراً إلا حذَّرهم منه ولم يؤمن إلا واحد !! أو لم يؤمن به إلا اثنان !! ((يأتي النبي ومع الرجل ويأتي النبي ومعه الرجلان)) بل يأتني النبي وليس معه أحد ؛ وهذا فيه قلة من استجاب للأنبياء .

الرابعة عشرة : أن من لم يجبه أحد يأتي وحده .

أي أن النبي الذي لم يستجب له أحد من قومه إطلاقاً يأتي يوم القيامة وحده ، لأن كل نبي يأتي ومعه أمته ، وكل أمة تحشر وحدها مع نبيها ، فالنبي الذي ليس له تابع يأتي يوم القيامة وحده لم يتبعه أحد من قومه .

الخامسة عشرة : ثمرة هذا العلم وهو عدم الاغترار بالكثرة ، وعدم الزهد في القلة .

ثمرة هذا العلم عندما تقف على هذا الذي ذكره النبي عليه الصلاة والسلام؛ أن النبي يأتي ومعه الرهط ، والنبي ومعه الرجل ، والنبي ومعه الرجلان ، والنبي وليس معه أحد ؛ ثمرة هذا العلم والمعرفة بهذا الأمر عدم الاغترار بالكثرة ، لو كانت العبرة بالكثرة أو لو كان المقياس الكثرة كيف يقال ؟ هل يُحكم بأن الأحق مع الكثرة ؟ وإن كانت هي ميزان رائج في الأزمنة المتأخرة ، يعَدّ الأصح أو الأقوم أو الأفضل أو الأرجح الأكثر أصواتاً ، والتصويت وما أدراك ما التصويت الأكثر أصواتا هو الأصح وهو الأحق وهو الأوْلى فصار المقياس الكثرة !! الله جل وعلا قال : ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف:١٠٣] وقال: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣] والآيات في هذا المعنى كثيرة جدا .

فإذاً من ثمرة هذا العلم عدم الاغترار بالكثرة وعدم الزهد في القلة ؛ يعني لو كان صاحب الحق واحد أو لم يتَّبعه على الحق إلا شخص أو شخصان أو ثلاثة هذا ليس دليلا على أنه ليس صاحب حق ، ما يصح أن يقال هذا ليس صاحب حق لأنه لو كان صاحب حق لرأيت معه أتباع ، يقول لك بعض الجهال ما يمكن يكون هذا صاحب حق ما عنده إلا شخص واحد! ما عنده إلا شخصان أو ثلاثة! وهل هؤلاء كلهم على باطل وهو وحده على حق !! هكذا يتكلم بعض الناس في مثل هذا المقام . فإذاً المقياس ليس القلة والكثرة ، المقياس: موافقة الحق وإصابة الحق ولو كان الإنسان وحده ، ولهذا من أصاب الحق ولو كان وحده لا يستوحش ، وأيضا إذا رأى الناس على باطل وعلى ضلال لا يغتر ، لا يقول أكثر الناس يعملون كذا وأنا واحد منهم ، لا يغتر بالكثرة ؛ هذا مقياس خاطئ لدى كثير من الناس ، ولهذا نبَّه المصنف رحمه الله هذا التنبيه اللطيف قال : «عدم الاغترار بالكثرة

وعدم الزهد في القلة» ؛ عدم الزهد في القلة يعني إذا كان الإنسان صاحب حق ومعه اثنان أو ثلاثة لا يصح أن يُزهد به لأن أتباعه قلة .

السادسة عشرة : الرخصة في الرقية من العين والحمة .

لأنه جاء في الحديث الذي مر معنا ((لا رقية إلا من عين أو حمة)) والعين :كون الإنسان أصيب في بدنه أو بمرض أو نحو ذلك بسبب العين ، والعين حق كما أخبر النبي عليه الصلاة والسلام . والحمة : لدغة ذوات السموم . والحديث لا يفيد حصر الرقية في هذين ، ولكن فيه أن الرقية من العين والحمة نافعة نفعاً عظيما ؛ لا رقية أنفع أو أجدى أو نحو ذلك إلا من عينٍ أو حمة ، لا أن الرقية من أمرٍ آخر لا تجوز .

السابعة عشرة : عمق علم السلف لقوله : قد أحسن من انتهى إلى ما سمع ولكن كذا وكذا . فعُلم أن الحديث الأول لا يخالف الثاني .

عمق علم السلف لقوله – أي سعيد ابن جبير – : قد أحسن من انتهى إلى ما سمع ولكن كذا وكذا . وساق الحديث الذي فيه ((لا يسترقون)) ؛ فعُلم أن الحديث الأول ((لا رقية إلا من عين أو حمة)) لا يخالف الحديث الثاني ((لا يسترقون))، لأن الحديث الأول فيه جواز الرقية وأيضاً يدل على جواز الاسترقاء ، والحديث الثاني يدل على أن الأوْلى عدم الاسترقاء ، فعُلم أن الحديث الأول لا يخالف الثاني .

الثامنة عشرة : بُعد السلف عن مدح الإنسان بما ليس فيه .

لأن حصين بن عبد الرحمن رحمه الله قال : «أما إني لم أكن في صلاة» ؛ فهذا فيه بُعد السلف عن مدح الإنسان بما ليس فيه ، سواءً في ذلك مدح نفسه أو مدح غيره ، فهذا أمرٌ السلف في بُعد عنه ، لا يمدح الإنسان نفسه بما ليس فيه من صفات ، وأيضا لا يمدح الآخرين لا يمدح شخصا بصفاتٍ ليست فيه ، بخلاف من يحبون أن يُحمدوا بما لم يفعلوا ، فالسلف في تمام البُعد عن مدح الإنسان بما ليس فيه .

التاسعة عشرة : قوله : « أنت منهم » علَمٌ من أعلام النبوة .

قوله أي الرسول صلى الله عليه وسلم : ((أنت منهم)) أي عكاشة لما قال «ادع الله أن يجعلني منهم» قال عليه الصلاة والسلام ((أنت منهم)) هذا علَم من أعلام النبوة ؛ وذلك لأن عكاشة قُتل شهيدا في سبيل الله في قتال المرتدين مع جيش خالد بن الوليد رضي الله عنه ؛ فهذا علَم من أعلام النبوة .

العشرون : فضيلة عكاشة .

فضيلة عكاشة بن محصن رضي الله عنه ؛ لأن هذه شهادةٌ له بالجنة ، شهد له النبي عليه الصلاة والسلام بالجنة؛ قال : ((أنت منهم)) أي من هؤلاء الذين يدخلون الجنة بدون حساب ولا عذاب .

الحادية والعشرون : استعمال المعاريض .

استعمال المعاريض لأن النبي عليه الصلاة والسلام لما قال له رجل آخر «ادع الله أن يجعلني منهم» قال : ((سبقك بها عكاشة)) ؛ فهذا فيه استعمال المعاريض .

الثانية والعشرون : حسن خلقه صلى الله عليه وسلم .

لأنه لم يقل لست منهم أو أنت منهم فيستمر الأمر إلى أن يصل إلى مثلاً رجل ليس أهلاً لذلك فيقول له لست منهم ؛ فهذا حُسن خلقه عليه الصلاة والسلام حسَم الأمر بهذه الكلمة اللطيفة الجميلة حيث قال عليه الصلاة والسلام : ((سبقك بها عكاشة)) .

والله تعالى أعلم وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

الدرس الخامس

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد :

يقول الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد :

بابٌ الخوف من الشرك ؛ وقول الله تعالى : {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} [النساء:٤٨،١١٦] .

****

لما بيَّن رحمه الله تعالى ما يتعلق بمكانة التوحيد العظيمة ومنزلته العليَّة ، وبيَّن فضائل التوحيد وتكفيره للذنوب ، ثم بيَّن أيضاً مكانة تحقيق التوحيد وأنَّ من حقق التوحيد دخل الجنة بدون حساب ولا عذاب ؛ فبعد ذاك البيان البيِّن عقد هذه الترجمة رحمه الله تعالى ((**بابٌ الخوف من الشرك**)) تحذيراً من الشرك الذي هو نقيض التوحيد والمنافي له كل المنافاة ، فعقد رحمه الله تعالى هذه الترجمة تحذيراً منه وأنَّ الواجب على من أكرمه الله سبحانه وتعالى بالتوحيد وجعله من أهله أن يخاف من ضده وأن يحذر منه أشد الحذر .

أليس يا إخوان من متَّعه الله سبحانه وتعالى بالصحة وعرف مكانتها وعرف أيضاً ما يترتب على المرض من آلام وأوجاع وأتعاب إلى غير ذلك ؛ أليس هو يحتاط لصحته ويدعو الله سبحانه وتعالى أن يعافيه وأن يسلِّمه ويتحاشى الأمراض ؟ وأي طعام أو شراب أو نحو ذلكم يتوقع أو يظن أنه يجلب له شيئاً من هذه الأمراض يتحاشاه ويحتاط حفظاً لصحته وحِمية لبدنه ؟ وهذا أمرٌ يعلم تعاهد الناس له وعنايتهم به ، حتى إنَّ من الناس من يعمل لنفسه حمية من الأطعمة المباحة التي تشتهيها نفسه حفظاً لصحته ورعايةً لقَوام وسلامة بدنه ؛ ومقام حفظ الدين وحفظ العقيدة وحفظ التوحيد أعظم من مقام حفظ البدن وأجلّ ، حفظ البدن ليسْلَم من الأمراض أمرٌ مطلوب ولكن أعظم منه وأجلّ حفظ الأديان وحفظ العقيدة وحفظ التوحيد مما يثلِمه أو ينقضه أو يهدمه . ويُتعجَّب من حال من يحتمي من الطيبات خوف مضرة بدنه، ولا يحتمي من خبيث العقائد وسيء التعلقات بغير الله تبارك وتعالى خوفاً أن يكبَّه الله يوم القيامة في النار!! يحتمي من الأطعمة خوف مضرتها ولا يحتمي من العقائد الباطلة والأعمال السيئة خوف معرَّتها يوم يلقى الله سبحانه وتعالى!! .

الخوف من الشرك مطلبٌ جليل ومقصدٌ عظيم ، والمسلم الذي عرف التوحيد وعرف مكانته وعرف قدره وعرف منزلته يخاف من ضده وهو الشرك خوفاً شديدا ، مثله تماماً –بل الأمر أشد– الذي عرف قيمة الصحة وأخذ بالأسباب التي يتقي بها الأمراض ؛ فالمقام في التوحيد أعظم والأمر أجلّ . من تأثرت صحته ببعض الأمراض

قصارى ما في ذلك أنه يفقد هذه الحياة الدنيا ، لكن من تلطخ بأمراض الشرك بالله خسر الدنيا والآخرة ، وذلك هو الخسران المبين . ولهذا يجب على الإنسان أن يحذر من الشرك أشد الحذر ، وأن يخافه على نفسه وعلى أهله وعلى أولاده لاسيما وأنَّ الوسائل والطرائق لنشر الشرك وإشاعته بين الناس كثيرة جداً من خلال وسائل كثيرة كثُرت في هذا الزمان . فيجب على العبد أن يكون على خوفٍ من الشرك .

والإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى رجلٌ ناصح نصحاً عظيماً ، ويكتب عن نصحٍ وحرصٍ على نفع الناس وإنقاذهم من هذه الأخطار وإبعادهم عن هذه الأضرار التي تجني على حياتهم في الدنيا والآخرة جناية عظيمة ؛ فهذه الترجمة ترجمة عظيمة القدر «**باب الخوف من الشرك**» .

والخوف من الشرك حتى تكون فعلاً تحقق مقصود هذه الترجمة يحتاج منك أن تقوم بأمرين تداوم عليهما وتعتني بهما لتحقِّق فعلاً الخوف من الشرك ، لا يكفي فقط أن يقول الإنسان أنا أخاف من الشرك ، لا ؛ لابد من أمور أو تحديداً لابد من أمرين تعتني بهما عنايةً مستمرة ، وهذه العناية المستمرة بهذين الأمرين أمارة صدق خوف الإنسان من الشرك .

- أما الأمر الأول : الدعاء واللجوء إلى الله سبحانه وتعالى؛ وتكثر من الدعاء ، وقد جاء في الحديث أن النبي عليه الصلاة والسلام قال : ((للشرك فيكم أخفى من دبيب النمل)) فقالوا يا رسول الله أوليس الشرك أن يُجعل لله ند وهو الخالق ؟ قال : ((والذي نفسي بيده للشرك فيكم أخفى من دبيب النمل ، أولا أدلكم إذا قلتموه أذهب الله عنكم قليل الشرك وكثيره ؟)) –انتبه لهذا– قالوا بلى يا رسول الله ، قال : ((تقولون اللهم إنا نعوذ بك أن نشرك بك ونحن نعلم ، ونستغفرك مما لا نعلم)) ؛ هذا دعاء يحتاج أن يواظب عليه العبد وأن يعتني به وأن يصدُق مع الله في دعائه «اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم ، وأستغفرك مما لا أعلم» .

وكان نبينا عليه الصلاة والسلام كل يوم – وهو سيد ولد آدم عليه الصلاة والسلام – كما ثبت في الأدب المفرد للبخاري وغيره كان كل يوم يقول ثلاث مرات إذا أصبح وثلاث مرات إذا أمسى ((اللهم إني أعوذ بك من الكفر ، وأعوذ بك من الفقر ، وأعوذ بك من عذاب القبر)) . وكان أكثر دعائه عليه الصلاة والسلام ((يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك)) ، وقالت له أم سلمة : «أو إن القلوب لتتقلب؟» قال : ((ما من قلب إلا هو بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلِّبه كيف يشاء فإن شاء أقامه وإن شاء أزاغه)) ، وكان كثير الدعاء عليه الصلاة والسلام بهذا ((يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك)) . وثبَتَ عنه كما في صحيح مسلم أنه كان يقول في دعائه ((اللهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَنْ تُضِلَّنِي، أَنْتَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، وَالْجِنُّ وَالْإِنْسُ يَمُوتُونَ)) . وها هو إمام الحنفاء خليل الرحمن عليه السلام يقول في دعائه : ﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ

﴿نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم:٣٥] وهذا دعاء ، ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ يدعو الله ، وسيأتي ذكر هذه الآية والكلام على معناها عند إيراد المصنف رحمه الله تعالى لها في هذه الترجمة . فهذا الأمر الأول يعتني بالدعاء عنايةً دائمة مستمرة ، يدعو الله أن يخلصه من الشرك ، أن ينجِّيه من الشرك ، أن يعيذه من الشرك ، أن يجنِّبه الشرك ، أن يقيه من الشرك ، يسأل الله ويلح على الله سبحانه والله لا يخيِّب من دعاه .

- الأمر الثاني : أن يعرف الشرك وحقيقته معرفة من أراد اتقاءه والبعد عنه ؛ يعرف ما هو الشرك ، وما حقيقة الشرك ، وما الأمور التي إذا فعلها يكون بها قد أشرك ووقع في الشرك ، يعرف ذلك معرفةً يقصد بها اتقاءه والبعد عنه ، وقد قيل قديماً : «كيف يتقي من لا يدري ما يتقي!!» ؛ كيف يتقي الشرك من لا يدري ما هو الشرك ؟ ولهذا لما جهِل أقوام بالشرك ما هو وما حقيقته دخلوا في أنواع من صور الشرك وأعمال المشركين وهو لا يظن أنه قد وقع في الشرك أو في أمرٍ يضاد التوحيد ويناقضه .

ولهذا ترى في الناس من يقول «لا إله إلا الله» ويدعو غير الله ويستغيث بغير الله ، يقول «لا إله إلا الله» وفي الوقت نفسه يقول مدد يا فلان أو أغثني يا فلان أو يقول إن لم تأخذ بيدي من الذي يأخذ بيدي أو ما لي من ألوذ به سواك أو نحو ذلك! وهو يقول لا إله إلا الله !! . فإذاً يحتاج من يخاف من الشرك أن يعرف ما هو الشرك حتى يتقيه ويحذر منه ، وهذه المعرفة مطلوبة ؛ حذيفة بن اليمان كما في صحيح البخاري يقول : «كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونه عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني» ، ولهذا قيل :

تعلَّم الشر لا للشر لكن لتوقيه   فإن من لم يعرف الشر من الناس يقع فيه

إذا لم يعرف الشر يقع في الشر من حيث لا يشعر .

العلماء رحمهم الله ومنهم هذا الإمام كتبوا كتبا بعنوان «الكبائر» ، والكتاب من أوله إلى آخره يقول : الكبيرة الأولى كذا ، الكبيرة الثانية كذا الثالثة الرابعة ويعدِّد ، ما فائدة الكتابة في الكبائر ؟ ولماذا يكتب هؤلاء الأئمة عن الكبائر ؟ من أجل أن يعرفها الناس ليتقوها ويحذروها ويتجنبوها ويدركوا خطرها وضررها ، لأن من لا يدري ما يتقي كيف يتقي!! . إذاً الصادق في الخوف من الشرك يعرف الشرك ما هو حتى يتجنبه حتى يحْذره ، حتى يحذِّر أهله وولده منه ومن أعماله ومن أعمال المشركين .

فإذاً هذان مطلبان لابد منهما لتحقيق الخوف من الشرك : الدعاء ، ومعرفة الشرك وحقيقته معرفة مَن يقصد بذلك اتقاءه والحذر منه وتجنبه .

قال رحمه الله : ((**باب الخوف من الشرك**)) ؛ والشرك : هو تسوية غير الله بالله في شيء من حقوقه سبحانه وتعالى . حق الله على عباده: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا ، فالشرك في العبادة أن يصرف شيئاً منها لغير الله ؛ من دعا غير الله أشرك ، من ذبح لغير الله أشرك ، من نذر لغير الله أشرك ، من استغاث بغير الله أشرك ؛ هذه

عبادات وهي حق لله سبحانه وتعالى لا يجوز صرفها لغيره ، الذي يذبح لغير الله يكون بذلك أشرك بالله ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢] ، فالذبح عبادة ولا يجوز صرفها لغير الله ((لعن الله من ذبح لغير الله)) ، وسيأتي قريبا عند المصنف رحمه الله بابٌ في الذبح ، من ذبح لغير الله فقد أشرك ، وانظر إلى واقع كثير من الناس حتى في زماننا هذا كيف تُصرف هذه العبادة لغير الله ، يذبحون للقباب وللقبور وللأضرحة وينذرون لها ، حتى حدثني اليوم أحد الأشخاص أن في بلده شخصاً نذر ذبيحةً لضريح واشترى الذبيحة ومرضت عنده وماتت قبل أن يذبحها ، فلما ماتت قال- يخاطب صاحب الضريح- : "يا فلان لماذا عجَّلت في أخذها وأنا كنت أريد أن آتي بها لك قربانا" ، نحن لا نتحدث عن أشياء خيال ، أشياء موجودة أمور واقعة ، وسيأتي معنا قول إبراهيم الخليل في دعائه : ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ﴾ [إبراهيم:٣٦] وهذا أيضاً مما يوجب الخوف من الشرك ، ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ﴾ كثير من الناس يكفيه أن يضل في هذا الباب أن يقول له شخص : أنا جربت ذبحت ذبيحة للمكان الفلاني وحصل لي كذا ، كثير من الناس يكفيه هذا ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ﴾ .

فالشرك : تسوية غير الله بالله في شيء من حقوقه ، وهو نوعان : أكبر وأصغر ؛ والأكبر يختلف عن الأصغر في حده وفي حكمه .

- أما حدّه عرفناه : تسوية غير الله بالله في شيء من حقوقه ، وأما الأصغر فهو ما جاء في النصوص تسميته شركاً ولم يبلغ حد الأكبر؛ كشرك الألفاظ .
- وأما الحكم : فإن الشرك الأكبر ناقل من ملة الإسلام وموجب لمن مات عليه الخلود في النار أبد الآباد لا يُقضى عليه فيموت ولا يخفف عنه من عذابها . وأما حكم الشرك الأصغر فإنه لا ينقل من الملة ، وإذا عُذِّب صاحبه به يوم القيامة فإنه لا يخلد في النار، لأن الخلود في النار لأهل الشرك الأكبر الناقل من الإسلام .

عقد رحمه الله تعالى هذه الترجمة ((**باب الخوف من الشرك**)) وأورد تحتها بعض الآيات وبعض الأحاديث بدأها بقول الله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ** ﴾ [النساء:١١٦،٤٨] .

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ : أي إذا مات على الشرك فلا مطمع له في مغفرة الله ، أما إذا كان في الحياة الدنيا وتاب منه هل يغفر الله له أو لا يغفر ؟ ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي

حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [الفرقان:٦٩-٧٠] .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ﴾ : أي إذا مات على ذلك ، إذا مات على الشرك ، أما إذا كان على قيد الحياة وتاب من الشرك ؛ من تاب من أي ذنبٍ تاب الله عليه ، ولهذا قال الله سبحانه وتعالى في سورة الزمر : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ [الزمر:٥٣] أي بما في ذلكم الشرك ؛ أي في حق من تاب ، بدليل قوله ﴿ لَا تَقْنَطُوا ﴾ أي توبوا إلى الله . أما آية النساء فهي في حق من مات على ذلك .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ ﴾ أي ما دون الشرك ﴿ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ هل المراد بقوله ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ هل المراد من تاب من ذلك أو من مات على ذلك ؟

إذا قلنا ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ أي من تاب من ذلك ما فهمنا الشرح الذي في أول الآية ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ﴾ قلنا من مات على ذلك ، أما من تاب فإن الله يغفر له سواءً كان شركاً أو غير شرك بالله سبحانه وتعالى .

إذاً الكلام في هذه الآية ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ في حق من مات على ذلك . الآية كلها تتعلق بمن مات على ذلك ، من مات على الشرك لم يتب منه لا مطمع له أبداً في مغفرة الله إطلاقاً ، لا رحمة ولا مغفرة ، ليس له يوم القيامة إن مات على الشرك بالله إلا الخلود في النار أبد الآباد كما قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (٣٦) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴾ [فاطر:٣٦-٣٧] . الذي يموت على الشرك والكفر بالله لا مغفرة له ولا رحمة ، ليس له إلا النار خالدا فيها أبد الآباد .

لكن من مات مصِرّاً على ذنب دون الشرك بالله سبحانه وتعالى ما حكمه ؟ ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ ؛ من مات مصِرًّا على معصية دون الشرك حكمه تحت المشيئة . أما الأول الذي مات مصراً على الشرك بالله هذا لا مطمع له إطلاقا في الرحمة والمغفرة ، ليس له إلا النار مخلداً فيها أبد الآباد .

إذاً هذا يستوجب الخوف الشديد من الشرك والحذر منه ، لأن الإنسان إن مات عليه –والعياذ بالله– لا مطمع له في المغفرة إطلاقاً ، وكم بين المشرك وبين النار؟ كم بينه وبين أن يدخل النار ويخلَّد فيها؟ سيأتيكم في الحديث ؛ ليس بينه وبين النار إلا أن يموت، أن تخرج روحه من جسده . النار قريبة جداً من المشرك ليس بينه وبينها إلا أن يموت ، فإذا مات بدأت مرحلة الخلود في العذاب والعياذ بالله . هذا يقتضي الخوف ، والله يقتضي الخوف من الشرك؛ يخافه على نفسه ويخافه على أهله ويخافه على أولاده ، يقتضي الخوف لأنه إن مات عليه بدأت مرحلة الخلود في العذاب أبد الآباد ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾. إذاً هذه الآية فيها الخوف من الشرك كما أراد المصنف رحمه الله تعالى بإيرادها تحت هذه الترجمة .

قال رحمه الله تعالى :

وقال الخليل عليه السلام : { وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ }[إبراهيم:٣٥] .

****

قال : ((**وقال الخليل عليه السلام**)) ؛ الخليل : أي خليل الرحمن ، والله سبحانه وتعالى لم يتخذ من عباده خليلاً إلا إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام ، فهما صفوة صفوةِ عباد الله ، وفي الحديث: ((إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلا)) .

إذاً نستحضر مقام إبراهيم عليه السلام ؛ خليل الرحمن اتخذه الله خليلا ، وكسَّر الأصنام وحطَّمها بيده ، ونابذ قومه وعاداهم من أجل الشرك ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ [الممتحنة:٤] ، ومقاماته عظيمة حتى إن الله وصفه بقوله: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل:١٢٠] ، ويقول عليه الصلاة والسلام في دعائه : ﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾ يسأل الله أن يجنِّبه عبادة الأصنام ويجنِّب أبناءه عبادة الأصنام ، وأبناءه صار فيهم الأنبياء ويدعو الله أن يجنِّبه ويجنب أبناءه عبادة الأصنام!!. ولهذا إبراهيم التيمي أحد علماء السلف قرأ هذه الآية وقال كلمة عظيمة جداً ، قال : «من يأمن البلاء بعد إبراهيم !! » إذا كان إبراهيم عليه السلام خليل الرحمن قال في دعائه ﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾ فمن يأمن البلاء بعد إبراهيم ؟ من يأمنه على نفسه أو على أهله أو ولده؟!

مع أن بعض الناس بسبب الشبهات المردية والدعوات الباطلة يعتقد أن الشرك لا يوجد ولن يقع ، ويستدلون بأحاديث على غير بابها ويفهمونها على غير وجهها ، مثل حديث ((إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي

جَزِيرَةِ الْعَرَبِ)) قالوا هذا دليل على أن الشرك لن يوجد في الجزيرة ، هكذا يقولون وهكذا يروِّجون ، ولهذا بعض العوام يعتقد أنه لن يوجد فيذهب من قلبه الخوف منه ، وهذه مصيبة عظيمة مع أن النبي عليه الصلاة والسلام قال : ((لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَلْحَقَ قَبَائِلُ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ، وَحَتَّى تَعْبُدَ قَبَائِلُ مِنْ أُمَّتِي الْأَوْثَانَ)) ، وقال ((لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَضْطَرِبَ أَلَيَاتُ نِسَاءِ دَوْسٍ عَلَى ذِي الخَلَصَةِ)) صنم من الأصنام ، وقال عليه الصلاة والسلام ((لتتبعنَّ سنن من كان قبلكم شبراً شبرا ذراعا ذراعا حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه)) هذه أيضاً كلها مما تقتضي الخوف من الشرك ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر أن هذه الأشياء ستوجد وستقع . ثم الذي ينظر واقع الناس يرى ذلك ويسمع ذلك ويشاهد ذلك ، ما هي تلك الأمور التي تمارس عند الأضرحة وعند القباب وعند المواقع التي يُعتقد فيها من نذور ومن ذبائح ومن استغاثات ومن ضراعات ومن التجاءات ؟ حتى إن بعضهم ليخشع خشوعًا عند ضريح من يعظمه لا يخشع مثله إذا وقف بين يدي الله في صلاته!! .

فهذا إمام الحنفاء يقول: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ ؛ «واجنبني» : أي اجعلني في جانب بعيد عنها، وأبنائي اجعلهم في جانب بعيد عنها وفي منأى عنها . هذا فيه الخوف من الشرك ، وأن من يخاف من الشرك يدعو الله أن يجنبه إياه . ولهذا ما أحوجنا والله أن نكثر من هذا الدعاء «اللهم اجنبني وبني أن نعبد الأصنام» .

ثم يقول عليه السلام في دعائه : ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ(٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ﴾ كيف يضل كثير من الناس بالأصنام ؟ أكثر ما تأتي القضية من مدخل إما يتعلق بالصحة أو يتعلق بالمال. أكثر ما تقع هذه القضية من هذين ؛ مثلا شخص يعاني من مرض ثم يُشار عليه أن يذهب إلى الضريح الفلاني "وافعل كذا وافعل كذا" ثم يفعل ، ثم يشاء الله أن يعافى من ذلك المرض ، وهذا من الاستدراج ؛ كم يضل من الناس عندما يقولون : "فلان كان فيه المرض الفلاني وذهب وسجد لقبر فلان وأكل من ترابه وذبح له وإلى آخره وشُفي" ؛ هل كونه شفي هذا دليل على صحة العمل ؟! أبداً ؛ ما يُستدل على صحة العمل بالنتائج ، وإنما يستدل على صحة العمل بموافقته لهدي النبيين ، والمقام في مثل هذا مقام استدراج ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾[القلم:٤٤] . بعض الناس أو كثير من الناس يضل من هذا الباب ، ويروِّجون لمثل هذه الضلالات يقولون " قبر فلان ترياق المجربين " يعني من جرب تراب قبره يعرف قيمته وأثره ، والعوام بمثل هذا تروج فيهم الضلالة روجاناً عظيماً وتسري فيهم سرياناً عظيما .

قال رحمه الله تعالى :

وفي الحديث : « أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر » ، فسئل عنه ؟ فقال : « الرياء » .

****

ثم أورد رحمه الله هذا الحديث وهو في مسند الإمام أحمد وغيره ؛ أن النبي عليه الصلاة والسلام قال : ((أخوف ما أخاف عليكم)) يخاطب من ؟ الصحابة ؛ الصحابة رضي الله عنهم الذين أكرمهم الله برؤيته عليه الصلاة والسلام وأخْذ الدين عنه ونصْرته صلى الله عليه وسلم ويقول: ((أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر)) !! وإذا كان خاف عليهم من الشرك الأصغر فمن سواهم ممن لم يبلُغ قدرهم في العلم والفضل والعبادة والديانة يُخاف عليهم مما هو أعظم من ذلك وهو الشرك الأكبر . إذا كان خافه على خيار الأمة وصفوة أمته عليه الصلاة والسلام خاف عليهم من الشرك الأصغر الذي هو الرياء ، فمن لم يبلغ عُشر معشارهم في العلم والفهم والعبادة والديانة يُخاف عليه مما هو أعظم من ذلك .

فإذاً النبي عليه الصلاة والسلام خاف على أمته من الشرك قال: ((**أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر**)) أي أشدُّ شيءٍ أخافه عليه الشرك الأصغر .

((**وسئل عنه فقال الرياء**)) وهذا جوابٌ بالمثال ، يعني ذكر الرياء باعتباره نوع من أنواع أو فرد من أفراد الشرك الأصغر . والمراد بالرياء : أي يسيره ، لأن الرياء الخالص شرك أكبر ناقل من الملة الذي هو رياء المنافقين ، وأهله في الدرك الأسفل من النار ، لكن المراد هنا يسير الرياء .

وجاء في تتمة هذا الحديث أن الله سبحانه وتعالى يقول لهم -أي المرائين- بعد أن يثيب العاملين على أعمالهم سبحانه وتعالى يقول للمرائين يوم القيامة : ((اذهبوا إلى من كنتم تراءونهم في الدنيا هل تجدون عندهم جزاءً)).

فالنبي عليه الصلاة والسلام خاف على أمته من الشرك بل قال: ((أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر وسئل عنه فقال الرياء)) ؛ وإذا كان على الصحابة رضي الله عنهم وهم من هم في العلم والعبادة من الشرك الأصغر فإنَّ من سواهم يُخاف عليه مما هو أعظم من ذلك ؛ وهذا مما يقتضي الخوف من الشرك .

قال رحمه الله تعالى :

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «من مات وهو يدعو لله نداً دخل النار» رواه البخاري .

****

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث -حديث ابن مسعود رضي الله عنه- أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((**من مات وهو يدعو من دون الله ندًا دخل النار**)) ؛ هذا أيضاً مما يقتضي الخوف الشديد من الشرك ، لأنه يدل أن النار قريبة جداً من المشرك ، ليس بينه وبين أن يدخلها إلا أن يموت . قال عليه الصلاة والسلام ((من مات وهو يدعو من دون الله نداً دخل النار)) إذاً النار قريبة من المشرك .

والحديث فيه تفسير لـ «لا إله إلا الله» ((من مات وهو يدعو من دون الله ندا دخل النار)) ؛ فلا إله إلا الله تعني: إخلاص العبادة كلها بما فيها الدعاء لله سبحانه وتعالى ، والدعاء حقٌ لله ، من دعا غير الله أشرك وكان من أهل النار ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف:٥-٦] ، ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون:١١٧] ، ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (١٣) إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر:١٣-١٤] ، ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا (٥٦) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء:٥٦-٥٧] ، ويقول الله سبحانه : ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ [سبأ:٢٢] ، ويقول جل وعلا: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [الرعد:١٤] .

والقرآن فيه آيات كثيرة جداً في هذا الباب . فالذي يدعو من دون الله نداً يدخل النار ، نداً أياً كان ، سواءً دعا صنماً ، أو دعا رجلاً ، أو دعا ولياً ، أو دعا شجراً أيا كان «ندًّا» ، الدعاء عبادة لا تصرف إلا لله سبحانه وتعالى ، من يقول في دعائه "مدد يا فلان" يخاطب وليا من الأولياء أو ملكاً من الملائكة أو رجلاً من الصالحين أو غيرهم اتخذ مع الله نداً وكان من أهل هذا الوعيد ((من مات وهو يدعو من دون الله ندا دخل النار)) ؛ فالحديث فيه الخوف من الشرك ، وأن النار قريبة من المشرك ليس بينه وبين أن يدخلها إلا أن يموت .

قال رحمه الله تعالى :

ولمسلم عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة ، ومن لقيه يشرك به شيئاً دخل النار» رواه البخاري .

****

ثم ختم رحمه الله تعالى هذه الترجمة بهذا الحديث؛ حديث جابر في صحيح مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((**من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة ، ومن لقيه يشرك به شيئاً دخل النار**)) ؛ وهذا فيه أن الجنة

قريبة من الموحِّد والنار قريبة من المشرك ، فليس بين الموحِّد المخلِص لله سبحانه وتعالى دينه ليس بينه وبين دخول الجنة إلا أن يموت ، وفي الحديث ((القبر أول منازل الآخرة)) ، والنعيم أو العذاب يبدأ من حين دخول الإنسان في قبره؛ إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار ، فالجنة قريبة من الموحِّد المخلص ليس بينه وبينها إلا أن يموت . والنار قريبة من المشرك المندِّد ليس بينه وبينها إلا أن يموت .

قال: ((**من لقي الله لا يشرك به شيئاً**)) و«شيئاً» جاءت نكرة في سياق النفي فتفيد العموم ؛ أي : أي شيء من الشرك ، بعيداً عنه متجنبًا له محاذراً من الوقوع فيه . ((من لقي الله لا يشرك به شيئا دخل الجنة)) .

ثم هذا الذي لقي الله لا يشرك به شيئا لا يخلو من حالتين :

- إما أنه لا يشرك بالله شيئا وقد حقق توحيده ، وقد مر معنا تحقيق التوحيد : تصفيته من شوائب الشرك والبدع والمعاصي ، فإن كان قد حقق توحيده دخل الجنة بدون حساب ولا عذاب .
- ومن لقي الله لا يشرك به لكنه وقع في بعض الكبائر التي دون الشرك : أيضاً يدخل يوم القيامة الجنة لكن يصيبه قبل ذلك ما يصيبه ، قد يدخل النار فترةً معينة ليطهَّر فيها من تلك الكبائر ومن تلك الذنوب ، لكنه مآله ومصيره أن يدخل الجنة . ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: ((من قال لا إله إلا الله دخل الجنة وإن زنى وإن سرق)) ، ليس معنى ((وإن زنى وإن سرق)) أي يدخل الجنة مباشرة بل قد يمر قبل ذلك بمرحلة تطهير في النار على معاصيه وذنوبه لكنه لا يخلد في النار بسبب تلك المعاصي ، إذ لا يخلَّد في النار إلا المشرك بالله سبحانه وتعالى .

فإذاً قوله ((**من لقي الله لا يشرك به شيئا دخل الجنة**)) إن كان محققاً للتوحيد دخل الجنة بدون حساب ولا عذاب ، وإن كان ظلم نفسه بمعاصٍ دون الشرك بالله سبحانه وتعالى قد يصيبه قبل دخول الجنة ما يصيبه بسبب معاصيه التي ظلم فيها نفسه .

قال : ((**ومن لقيه يشرك به شيئاً دخل النار**)) وهذا فيه خطورة الشرك وأنه ليس بين المشرك وبين دخول النار إلا أن يموت على ذلك .

إذاً المصنف رحمه الله تعالى في هذه الترجمة «الخوف من الشرك» ساق آيات وأحاديث تدل على الخوف من الشرك من جهات عديدة :

- الجهة الأولى : أن من مات عليه لا يغفر الله له ، واستدل لذلك بقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ .
- والأمر الثاني : أن الأنبياء والصالحين من عباد الله خافوا من الشرك ودعوا الله أن يجنِّبهم إياه ، وذكر مثال ذلك دعوة خليل الرحمن عليه السلام ﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾ .

- والوجه الثالث : أن النبي صلى الله عليه وسلم خاف على أمته منه خوفاً شديداً ، بل قال بصريح العبارة ((إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر)) قال ذلك يخاطب الصحابة؛ أهل العلم والفهم والنصرة والعبادة والتقوى قال لهم ذلك ، فمن دونهم يخاف عليه مما هو أعظم من ذلك ؛ فهذا أيضا وجه ثالث في الخوف من الشرك .
- الوجه الرابع مما يقتضي الخوف من الشرك : أن النار قريبة جداً من المشرك ليس بينه وبين أن يدخلها ويخلَّد فيها أبد الآباد إلا أن يموت . فهذا وجهٌ رابع يدل عليه حديث أبي مسعود وحديث جابر رضي الله عنهما .
- ووجه خامس يقتضي الخوف من الشرك : أن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر في بعض الأحاديث أنه سيقع في الأمة ، قال ذلك على وجه التحذير والتخويف منه وأشرت إلى بعض الأحاديث في ذلك : ((لا تقوم الساعة حتى يلحق فئام من أمتي بالمشركين ، وحتى يعبد فئام من أمتي الأوثان)) ، وقال : ((لا تقوم الساعة حتى تضطرب إليات نساء دوس على ذي الخلصة)) صنم من الأصنام ، وقال : ((لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً شبرا ذراعا ذراعا حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه)) .

فهذه خمسة وجوه كلها تقتضي الخوف الشديد من الشرك والحذر منه . وبالتأمل ثمة وجوه كثيرة لكن المصنف رحمه الله تعالى اقتصر على ذلك من باب الاختصار والتنبيه على أهم ما يكون في التحذير من الشرك والتخويف منه ، على أنَّ أيضاً في الروايات والنصوص التي ساقها قبل وأيضاً يسوقها في هذا الباب ما يدل على وجوب الخوف من الشرك والحذر منه .

قال رحمه الله تعالى :

فيه مسائل ؛ الأولى : الخوف من الشرك .

وهذه التي قصَدَها رحمه الله تعالى بهذه الترجمة، ويدل على هذه المسألة جميع النصوص التي ساقها في هذا الباب؛ كلها تدل على الخوف من الشرك ، ما ساقه من آيات وأحاديث في هذه الترجمة كلها تدل على الخوف من الشرك كما سبق بيان ذلكم وإيضاحه .

قال رحمه الله تعالى :

الثانية : أن الرياء من الشرك .

وهذا أخذه من الحديث قول النبي عليه الصلاة والسلام ((أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر فسئل عنه فقال الرياء)) ، فهذا دليل على أن الرياء من الشرك . والرياء : أن يُظهر الإنسان العمل الصالح من أجل الناس ،

ليس لأجل الله وإنما من أجل الناس ، مثلاً ما جاء في الحديث قال : ((يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته من أجل نظر الرجل)) يزين صلاته مثل أن يحافظ على بعض السنن ويحرص على أن يطبّقها لأن فلان خلفه أو فلان على يمينه أو فلان مر به أو نحو ذلك ، يزين صلاته المراد بتزيين الصلاة: أي تطبيق ما تزين به الصلاة من السنن والمأثورات عن النبي صلى الله عليه وسلم . فإذا كان يفعل ذلك التزيين للصلاة والتحسين لها والمحافظة على ما تزين به الصلاة من أجل نظر رجل إليه فهذا من الرياء وهو من الشرك .

الثالثة : أنه من الشرك الأصغر .

الثالثة : أنه من الشرك الأصغر ؛ والمراد بالرياء الذي هو من الشرك الأصغر : يسير الرياء ، لأن الرياء منه ما هو رياء خالص وهو رياء المنافقين ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾ [النساء:١٤٢] ؛ يُظهرون الإيمان والتوحيد والشهادة للنبي صلى الله عليه وسلم بالرسالة ويُبطنون الكفر ، يراءون الناس . فذاك رياء أكبر وهو كفرٌ ناقل من الملة وصاحبه في الدرك الأسفل من النار خالداً فيها أبد الآباد ، لكن الرياء المقصود هنا : يسير الرياء . فيسير الرياء هو من الشرك الأصغر كما بيَّن المصنف رحمه الله تعالى .

الرابعة : أنه أخوف ما يُخاف منه على الصالحين .

لأن النبي صلى الله عليه وسلم خاطب الصحابة الصالحين رضي الله عنهم وأرضاهم بقوله ((إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر)) ، «فسئل عنه» أيضاً سؤالهم عنه يدل على خوفهم منه وحرصهم على معرفته لتجنبه والوقاية منه . ((فسُئل عنه فقال الرياء)) ؛ سئل عنه فيه شاهد لما ذكرته سابقاً أن الخوف من الشرك يتطلب أمرين: الدعاء والأمر الثاني معرفته . ((فسئل عنه)) هذا السؤال هو الذي يقتضيه هذا المقام أن يسأل الإنسان عن الشرك الأكبر والشرك الأصغر من أجل أن يتجنبه وأن يحذر من الوقوع فيه مثل ما جاء في هذا الحديث «فسئل عنه» هذا السؤال الصادر منهم رضي الله عنهم ناشئ من الخوف ، سألوا عنه من أجل اتقائه وتجنبه والبعد عنه .

الخامسة : قرب الجنة والنار .

«قُرب الجنة» أي من الموحد المخلص لله سبحانه وتعالى ، الجنة قريبة منه لأنه ليس بينه وبينها إلا أن يموت .
و«قُرب النار» أي من المشرك المندد ، فليس بين الموحد المخلص لله سبحانه وتعالى وبين الجنة إلا أن يموت ، وليس بين المشرك وبين النار إلا أن يموت .

السادسة : الجمع بين قربهما في حديثٍ واحد .

أي حديث جابر رضي الله عنه ، وقد تقدَّم .

السابعة : أنه من لقيه يشرك به شيئا دخل النار ولو كان من أعبد الناس .

في نسختي «السابعة : أنه من لقيه لا يشرك به شيئا دخل الجنة ، ومن لقيه يشرك به شيئا دخل النار ولو كان من أعبد الناس» ؛ هذا تنبيه عظيم جداً ينبِّه عليه رحمه الله تعالى في هذا المقام : أن الشخص ولو كان من أعبد الناس – أعبد الناس : أكثرهم عبادة – إذا كان يشرك بالله جل وعلا شركه يبطل عمله كله ويحبطه جميعه كما قال الله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ [الزمر:٦٥-٦٦] . فالشرك مبطل للأعمال ، فلو كان الشخص من أعبد الناس يعني كثير مثلا الصلاة أو الصيام أو الصدقات أو النفقات أو غير ذلك لكنه يشرك بالله؛ شركه بالله تبارك وتعالى يبطل جميع عمله .

وهنا أيضا المقام يحتاج التنبيه إلى أمر، أقدِّم له ببعض الأمثلة للتوضيح : أرأيتم لو أن شخصاً قبِل الرشوة من الراشي ، لأن الراشي أعطاه إياها وقال هذه إكرامية وقبِلها لكونه سماها إكرامية ؛ هل يخرج بهذا الاسم الراشي والمرتشي من قول النبي صلى الله عليه وسلم ((لعن الله الراشي والمرتشي)) ؟ يعني هل تغيير اسمها بهذا يغير الحكم ؟ أيضاً لو أن شخصا شرب خمراً وقال هذا مشروب روحي مثلا ؛ هل يخرج من الوعيد واللعن في قوله ((لعن النبي صلى الله عليه وسلم في الخمر عشرة)) ؟ أو مثلا الربا تعامل به لأنه يُكتب في الإعلانات فوائد بنكية أو فوائد مالية وتعامل به لأنه فوائد ؛ هل تسميتها فوائد تخرجه من الوعيد في لعن النبي عليه الصلاة والسلام للربا وآكله وكاتبه وشاهده إلخ ؟ هل تغيير الاسم يغيِّر ذلك ؟ لا يغير ، هذا واضح . أيضا لو أن شخصاً دعا غير الله واستغاث بغير الله لا يتغير الحكم لكونه يسميه توسل أو يسميه استشفاع أو نحو ذلك ، الحكم لا يتغير الحكم هو شرك بالله ناقل من الملة . الدعاء عبادة لا تصرف لغير الله ، سماه توسلاً سماه استشفاعا أياً كان الدعاء عبادة لا يجوز صرفها إلا لله سبحانه وتعالى .

فمن لقي الله يشرك به دخل النار ولو كان من أعبد الناس ، يعني عبادته الكثيرة الطويلة لا يسْلَم بها من هذا الوعيد ، لأن الشرك إن وجد ومات عليه صاحبه كان هذا حكمه كما هو واضح في الحديث ((من لقي الله يشرك به شيئا دخل النار)) .

الثامنة : المسألة العظيمة سؤال الخليل له ولِبنيه وقاية عبادة الأصنام .

أي إذا كان خليل الرحمن وهو من هو صفوة عباد الله وخيار عباد الله اتخذه الله خليلاً ووصفه بأنه أمة وأبناؤه فيهم الأنبياء ؛ ويقول في دعائه «واجنبني وبني أن نعبد الأصنام» سؤال الله عز وجل له ولبنيه وقاية عبادة الأصنام ؛ فمن يأمن البلاء بعد إبراهيم !! .

التاسعة : اعتباره بحال الأكثر لقوله : { رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ } [إبراهيم:٣٦] .

اعتباره أي خليل الرحمن عليه السلام بهذا الأمر بحال الأكثر لقوله: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ﴾ ، فكثير من الناس ضلُّوا في هذا الوادي السحيق المهلِك عبادة الأصنام ، والله يقول: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف:١٠٣] ، وقال: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣] ، والآيات في هذا المعنى كثيرة . إذاً هذا مما يقتضي الخوف من الشرك ، وهو أيضاً وجه سادس يضاف لما سبق : أن الأصنام أضلت كثيراً من الناس بالدعايات وتزين الباطل وأئمة الضلال ودعاة الباطل ؛ هذا كله مما يقتضي الخوف من الشرك .

العاشرة : فيه تفسير (لا إله إلا الله) كما ذكره البخاري .

«فيه» أي في الحديث الذي ساقه رحمه الله «تفسير لا إله إلا الله» كما سبق بيان ذلكم وإيضاحه .

الحادية عشرة : فضيلة من سلِم من الشرك .

وهي فضيلة لا يعدِلها فضيلة ؛ من سلِم من الشرك وخرج من هذه الحياة الدنيا سالماً من الشرك فهو إلى الجنة . نسأل الله أن يجعلنا وإياكم كذلك .

والله تعالى أعلم ، وصلى الله وسلم على عبد ورسوله نبيينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

الدرس السادس

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد :

يقول الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد :

بابٌ الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله ، وقول الله تعالى : {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي} [يوسف:١٠٨] .

****

هذه الترجمة ((**بابٌ الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله**)) أي : الدعوة إلى توحيد الله وإخلاص الدين له جل وعلا ، وبيان فضل ذلك وعظيم ثوابه وجزيل أجره عند الله تبارك وتعالى .

والإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى اعتنى عناية دقيقة جداً بتبوييات هذا الكتاب وحُسن ترتيبه والتدرج في بيان مطالبه ومقاصده وغاياته ؛ فبدأ رحمه الله كما عرفنا سابقاً في بيان مكانة التوحيد وعظيم أجره ، ثم بيَّن ما يتعلق بفضائل التوحيد وتكفيره للذنوب ، ثم بيَّن المكانة العلية التي هي تحقيق التوحيد بتصفيته وتنقيته من شوائب الشرك والبدع والمعاصي ، ثم انتقل رحمه الله تعالى إلى التحذير من ضده وهو الشرك بالله سبحانه وتعالى وبيان وجوب الخوف منه وأنه أخطر الذنوب وأعظم الآثام وأكبر الجرائم .

وبتحقيق تلك الأبواب يكون العبد كمَّل نفسه؛ قياماً بالتوحيد وعملاً على تحقيقه وخلاصاً من ضده وهو الشرك بالله سبحانه وتعالى ، فيأتي بعد ذلك مرحلة أخرى عظيمة تتعلق بالآخرين ألا وهي: أن يدعو الآخرين إلى هذا الخير العظيم الذي نفعه الله به ، وأن يوصل هذا الخير إلى الغير تعليماً ودعوة وبيانًا ونصحاً .

وأيضاً في هذا الترتيب تنبيهٌ من الشيخ رحمه الله تعالى إلى أن العلم قبل الدعوة ؛ أن يعْلم ويتعلم ويتفقه ثم يعمل ثم يدعو الآخرين إلى ما تعلمه وعمل به ، لا أن يكون بدؤه بالدعوة قبل تعلُّمه وتفقهه ، لأنه في هذه الحال ستكون دعوته عن غير علم وسيكون تعليمه عن غير بصيرة ، وإذا كان الأمر كذلك فإنما يترتب على دعوةٍ مثل هذه من المضرة أكثر مما يُتوقع فيها من نفع ومصلحة ، كما قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى : «من عبَد الله بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح» ، ومثله يقال في الدعوة؛ «من دعا إلى الله بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح» . وهل انتشرت البدع والضلالات وأنواع الخرافات والأباطيل إلا بالدعوة بغير علم وبغير بصيرة !! ولهذا

أول ما يكون التعلُّم والتفقه والبصيرة ، ثم العمل بذلك ، ثم دعوة الآخرين ، قال الله تعالى : ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [محمد:١٩] فبدأ بالعلم قبل القول والعمل .

وهذا الترتيب الذي سلكه الإمام المجدد رحمه الله في كتابه مستقى من السورة العظيمة الوجيزة البليغة سورة العصر ، وبهذا وصفها عمرو بن العاص رضي الله عنه وأرضاه ، وكفى بها حجة كما يُنقل ذلكم عن الشافعي رحمه الله ، فجاء الترتيب في تحقق النجاة والسلامة من الخسران على هذا النحو: ﴿وَالْعَصْرِ(١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ(٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وهذا القدر فيه تكميل النفس علماً وعملاً ، ثم يأتي بعده المرحلة الأخرى ألا وهي إيصال هذا الخير إلى الآخرين ؛قال : ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ أي دعوةً إليه وترغيباً فيه وحثاً عليه ، ﴿وَتَوَاصَوْا﴾ أيضاً ﴿بِالصَّبْرِ﴾ أي على الأذى فيما ينالهم في الدعوة ، وأيضاً تواصوا به عموما في العمل بالطاعة واجتناب المعصية والصبر على أقدار الله تبارك وتعالى المؤلمة .

الشاهد؛ أن الإمام رحمه الله تعالى أحسن أيَّما إحسان في تبويبه لهذا الكتاب وحُسن ترتيبه ؛ فجاء هذا الباب «باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله» في مرحلة مناسبة؛ بعد العلم بمكانة التوحيد وفضله وتكفيره للذنوب ، وبيان فضل تحقيقه وتكميله وإيضاح ذلكم بالدلائل والشواهد ، ثم التحذير من ضده وهو الشرك بالله سبحانه وتعالى ، فبعد العلم بهذه التفاصيل وهذه التقريرات العظيمة والعمل بها تأتي هذه المرحلة الدعوة أو الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله .

وقوله رحمه الله: ((**الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله**)) ؛ المراد بالدعاء : أي الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله. وشهادة أن لا إله إلا الله هي كلمة التوحيد ، فالدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله هي الدعوة إلى التوحيد ؛ لأن هذه هي كلمته ، ولهذا سيأتي معنا في الباب ((فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله)) وفي رواية ((أن يوحدوا الله)) ، وبهذا يُعلم أن الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله هو الدعوة إلى توحيد الله سبحانه وتعالى .

وبهذا أيضاً يُعلَم أن «لا إله إلا الله» لا تنفع صاحبها إذا كان حظه منها مجرد النطق بلفظها دون أن يحقق مقصودها وغايتها وهو توحيد الله، فـ«لا إله إلا الله» هي كلمة التوحيد ، فإذا كان حظ الإنسان منها مجرد نطقها دون التوحيد الذي هو حقيقة هذه الكلمة ومقصودها لم يكن بهذا النطق المجرد من أهلها ، لأن أهلها هم أهل التوحيد ، لأنها هي كلمة التوحيد ، فمن قالها عن علمٍ بما تدل عليه وتحقيقٍ لما تقتضيه من إخلاص الدين لله والبراءة من الشرك والخلوص منه كان بذلكم من أهلها . أما أن يقولها قولاً مجرداً أو ينطق بها مجرد نطقٍ دون أن يعْلم ما هي أو ما تدل عليه أو ما هو مقصودها !! أو أن يقولها وينقضها بفعاله ؛ فهيهات أن يكون من أهلها ،

يقولها نطقاً بلسانه وينقضها بفعاله دعاءً لغير الله وذبحاً لغير الله واستغاثةً بغير الله وطلباً للمدد من غير الله ؛ لا يكون بذلك من أهلها بمجرد نطقه بها .

فإذاً قوله رحمه الله ((**الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله**)) ليس المقصود به الدعاء إلى أن ينطق الناس بألسنتهم هذا اللفظ «أشهد أن لا إله إلا الله» دون أن يفهموه ودون أن يعوه ودون أن يحققوا المقصود منه ، ليس هذا هو المراد ، بل المراد بالدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله : أي الدعاء إلى توحيد الله وإخلاص الدين له جل وعلا والبراءة من الشرك كله .

وشهادة أن لا إله إلا الله هي شهادة التوحيد ، والتوحيد الذي هو مدلول هذه الكلمة يقوم على ركنين لا توحيد إلا بهما : النفي والإثبات ؛ التوحيد لا يكون إلا بالنفي والإثبات «لا إله» ، «إلا الله» ؛ النفي وحده ليس توحيداً ، والإثبات وحده ليس توحيداً ، وإنما التوحيد نفي وإثبات ، ولا يكون المرء موحدًا إلا بهما . «لا إله» : نفي للعبودية عن كل من سوى الله ، وهو نفي عام . و«إلا الله» إثباتٌ خاص للعبودية بكل معانيها لله وحده لا شريك له . ولهذا تجد في بعض الأذكار المأثورة الشرعية يضاف إلى هذه الكلمة «وحده لا شريك له» ؛ «وحده» تأكيد للإثبات ، «لا شريك له» تأكيد للنفي ، اهتمام بمقام التوحيد . فلا إله إلا الله هي كلمة التوحيد ، ولا توحيد إلا بالنفي والإثبات الذين قامت عليهما هذه الكلمة كلمة التوحيد .

إذاً المراد بشهادة أن لا إله إلا الله هو هذا؛ أن يوحَّد الله جل وعلا وأن يُخلَص له الدين ، ولا يكون توحيده إلا بهذين الأصلين العظيمين والأساسين المتينين : نفي العبودية عن كل من سوى ، وإثبات العباد العبودية لله سبحانه وتعالى وحده .

أورد رحمه الله أول ما أورد من أدلةٍ لهذه الترجمة قول الله سبحانه : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف:١٠٨] .

﴿ قُلْ ﴾ : أي أيها النبي ﴿ هَذِهِ سَبِيلِي ﴾ : أي هذا نهجي وطريقي ومسلكي ، وهو مسلك النبيين من قبله ، فبهم عليه الصلاة والسلام اقتدى وعلى نهجهم سار ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام:٩٠] ، فهذا الذي فعَله النبي عليه الصلاة والسلام؛ فنهْجه نهج النبيين من قبله ، ونهجهم واحد ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل:٣٦] ، ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء:٢٥] ، ﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ ﴾ النذر : أي الرسل ﴿ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾ [الأحقاف:٢١] ، ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ

رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف:٤٥] . فالنبيون نهجهم واحد كلهم دعاة إلى الله على بصيرة بالحجج البينات والآيات الواضحات والبراهين الساطعات . فهذا نهجه عليه الصلاة والسلام وهو نهج أتباعه من بعده ، فأتباعه من بعده دعاةٌ إلى الله ودعوتهم إلى الله على بصيرة .

﴿قُلْ﴾ أيها النبي ﴿هَذِهِ سَبِيلِي﴾ أي هذا هو مسلكي وطريقي يتلخَّص في أمرين : ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾ ، ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ ؛ وهذا هو النهج وهذا هو الطريق ، نهج النبي عليه الصلاة والسلام ونهج النبيين من قبله ونهج أتباعه عليه الصلاة والسلام من بعده يتلخص في هذين الأمرين : دعوة إلى الله ، وعلى بصيرة .

﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾ وهذا فيه الإخلاص والدعوة إلى توحيد الله سبحانه وتعالى . ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾ أي لا إلى غيره ، فدعوتي إلى الله ، دعوتي للناس هي دعوة إلى الله أن يوحدوا الله وأن يخلصوا الدين له وأن يعبدوه وحده وأن يفردوه جل وعلا بالعبادة وأن لا يجعلوا معه شريكا وأن لا يتخذوا نديداً ؛ هذه دعوتي ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾ أي إلى الله وحده دون شريك .

وفي هذا أيضا الإخلاص وأن من دعا إلى الله يجب أن تكون دعوته إلى الله عز وجل خالصة ، لأنه كما سيأتي معنا في المسائل التي يوردها رحمه الله «أن في هذه الآية تنبيه على الإخلاص» أي في الدعوة، قال : «لأن كثير من الناس وإن دعا إلى الحق إنما يدعو إلى نفسه»، يعني بعض الناس قد يدعو إلى الحق يعني يحث الناس مثلا على الإسلام على الصلاة على الأعمال الصالحة لكنه في نفسه يدعو إلى نفسه ، كأن يكون مرائياً أو مسمِّعاً أو طالباً للشهرة أو مريداً للسمعة أو كثرة الأتباع ، أو أيضاً ما يسمى في زماننا كثرة الأصوات أن تكون الأصوات له عند الناس كثيرة بحيث أي مناسبة معينة ويطلب التصويت تكون الأصوات كثيرة، فيكون مقصده التكثير . فهو يدعو إلى الحق يعني هو لا يدعو إلى بدعة ، يدعو إلى الحق إلى الإسلام إلى مثلاً السنة إلى الأعمال الصالحة يحذِّر من المحرمات إلى غير ذلك لكنه في نفسه يريد بذلك مثلا شهرة أو يريد أصواتاً أو يريد سمعةً أو يريد رياءً .

فالآية فيها التنبيه على الإخلاص، وأن الداعي إلى الحق لا يريد أتباعاً أو مؤيدين أو أصواتاً ..هذه كلها لا يبالي بها . الإمام الشافعي رحمه الله تعالى يقول : «وددت لو أن الناس دخلوا في دين الله أفواجا ولو قرِّض جسمي بالمقاريض» ، ما يريد شيئا لنفسه وإنما لله سبحانه وتعالى . والنقول عن السلف رحمهم الله تعالى في بيان صدقهم وإخلاصهم وبُعدهم عن مظاهر الرياء والسمعة وغير ذلك كثيرة جدًا ؛ تدل على المكانة العلية التي كانوا يتبوءونها صدقاً وإخلاصاً ونصحا .

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ والبصيرة: العلم والنور والضياء والبرهان والحجة ؛ أي أن دعوتي إلى الله دعوة عن علم وبصيرة بدين الله ، وفهم ومعرفة وفقه بدين الله سبحانه وتعالى . فهذه دعوة النبي

دعوةٌ إلى الله على بصيرة أي: معرفةٍ وفقهٍ ودراية بدين الله سبحانه وتعالى . وهذا فيه أن الدعوة إلى الله لابد أن تكون بعلم ، البصيرة هي العلم، لابد أن تكون بعلمٍ بما يدعو إليه . فالنبي عليه الصلاة والسلام دعوته على بصيرة، وأتباعه دعوتهم أيضاً على بصيرة ﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ .

لاحظ أمرًا واضحا ظاهرا مستفاداً من هاتين الكلمتين اللتين بهما تتلخص دعوة النبي ودعوة النبيين ﴿ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ فيها الإخلاص والمتابعة ، وهما أساس قبول الأعمال ؛ الإخلاص في ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ﴾ ، والمتابعة ﴿ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ والبصيرة : هي أن ينهج الداعي نهج النبي عليه الصلاة والسلام وأن يسلك مسلكه ، لا أن يُحدث أشياءً ويخترع أموراً . وربما بعض الناس يدعو الناس بالقرآن ويدعوهم بالسنة وبالآيات وبالأحاديث ثم لا يجد من يتبعه في هذه الآيات فيبدأ يُحدِث لهم أشياء ، قال السلف رحمهم الله «فاحذروه وبدعته» ، يقول : ما هم بمتبعي حتى أحدث لهم شيئا ؛ فيبدأ بالإحداث والاختراعات والمحدثات ويبني على القصص والحكايات والمنامات المزعومة وإلى آخره ، وبمثل هذه الطرائق الأتباع في غضون أيام أو أسابيع قليلة يكثرون كثرةً سريعة جداً ، لأن الناس ينفُق عندهم الدجل والخرافة ، خاصة أن العوام ليس عندهم نقد النقَّاد فإذا زُخرف لهم القول وزُينت لهم العبارة وذُكرت لهم المنامات المخترعة والقصص والحكايات تأثروا تأثراً سريعا ونفق فيهم الباطل نفوقاً شديدًا .

فالدعوة تكون إلى الله خالصة ، وعلى بصيرة فيها الموافقة والاتِّباع واللزوم لهدي النبي الكريم عليه الصلاة والسلام.

﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ ؛ قف هنا عند العطف في قوله ﴿ وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾؛ العطف هنا على ماذا ؟ هل هو عطف على الضمير في قوله ﴿أَدْعُو﴾؟ أو هو عطف على الضمير في قوله ﴿أَنَا ﴾؟ هل هو على هذا أو ذاك ؟

- ❖ إن كان على الأول؛ فمن اتبعه دعاة إلى الله .
- ❖ وإن كان على الثاني؛ فمن اتبعه على بصيرة في دعوتهم إلى الله .
- ❖ وأهل العلم قالوا : العطف هنا يعود على الأمرين معاً ؛ فمن اتبعه هم الدعاة إلى الله على بصيرة ، فإن كان داعياً إلى الله بلا بصيرة لم يكن متبعاً له ، وكذلك إن كان عنده بصيرة ومفرط في دعوته إلى الله سبحانه وتعالى أيضاً لم يكن كذلك ، فأتباعه هم الدعاة إلى الله تبارك وتعالى على بصيرة ﴿ وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ .

﴿ وَسُبْحَانَ اللَّهِ ﴾؛ والتسبيح : تنزيه الله جل في علاه وتقديسه وتبرئته عن النقائص والعيوب، وعن كل ما لا يليق به ، وعن أن يكون له مثلٌ أو نظير ؛ تعالى وتقدس . ﴿ وَسُبْحَانَ اللَّهِ ﴾ : أي أنزه الله .

﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ وهذا فيه البراءة من الشرك وأهله ، وأنه منهم براء وأنهم منه برئاء ، ليس منهم وليسو منه .

﴿ وَسُبْحَانَ اللَّهِ ﴾ : أي أنزه الله ؛ وهذا فيه تنزيه الله جل وعلا عن كل ما لا يليق به ومن ذلكم بل من أخطر ذلكم أن يُجعل معه الشركاء وأن يُتخذ معه الأنداد ، وفي آيةٍ أخرى يقول جل وعلا : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر:٦٧] تنزه وتقدس مَن هذا شأنه أن يُتخذ معه الأنداد أو أن يُجعل معه الشركاء سبحانه وتعالى .

فهذه الآية العظيمة فيها الدعوة إلى توحيد الله سبحانه وتعالى ، وأن الدعوة تكون بالعلم والبصيرة بدين الله ، وأن هذا هو نهج النبي الكريم عليه الصلاة والسلام ونهج أتباعه من بعده .

قال رحمه الله تعالى :

عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بعث معاذاً إلى اليمن قال له : «إنك تأتي قوما من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله» . وفي رواية : «إلى أن يوحدوا الله» ، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلِمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلِمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فتُرد على فقرائهم، فإن هم أطاعوك لذلك فإياك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم ؛ فإنه ليس بينها وبين الله حجاب» أخرجاه .

****

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث العظيم حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، وهو حديث عظيم جداً في بيان المنهج الذي ينبغي أن يكون عليه الدعاة ، فهو يرسم المنهج الصحيح القويم الذي ينبغي أن يسلكه الداعية ؛ إذ إنَّ هذا الحديث يتضمن وصيةً من النبي عليه الصلاة والسلام أوصى بها أحد الدعاة إلى الله عندما بعثه إلى اليمن؛ وهو معاذ بن جبل رضي الله عنه وأرضاه ، فأعطاه هذه الوصية ورسم له هذا المنهج وبيَّن له أولويات الدعوة ، والطريق الذي ينبغي أن يسلكه ، والمحاذير التي ينبغي أن يتجنبها ، والعدة التي ينبغي أن يستعد بها في دعوته إلى الله ؛ كل ذلك جمعه النبي عليه الصلاة والسلام لمعاذ في هذه الخلاصة العظيمة التي اشتمل عليها هذا الحديث .

وأول ما بدأ عليه الصلاة والسلام في بيانه لمعاذ رضي الله عنه أن قال له : **((إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب))** ؛ وهذا يستفاد منه: أن الداعي إلى الله سبحانه وتعالى إذا أراد دعوة قومٍ في بلدٍ ما أن يعرف حالهم وأن يقف على حالهم ، فمعرفة حال المدعوين هذا من الأمور المهمة ، ونبَّه النبي عليه الصلاة والسلام إلى ذلك بقوله ((إنك تأتي قوما من أهل الكتاب)) إذاً تنبه ولتكن على معرفة بحال من ستدعوهم ، فهم أهل كتاب بمعنى أن هيئ نفسك

تهيئةً جيدة في دعوتهم وأيضاً مجادلتهم وأيضاً التهيؤ لرد ما قد يثيرونه من شبهات ؛كل ذلك كن فيه على تهيئ تام واستعداد تام ، لأن الدعوة تختلف بحسب حال المدعو ، وهذا أيضاً أخذه العلماء من قول الله تعالى : ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل:١٢٥] قالوا هذه ثلاث مراتب في الدعوة بحسب حال المدعوين ، فشخصٌ يكتفى معه بدعوته بالحكمة ، وشخصٌ يحتاج إلى أن يُزاد في ذلك الموعظة ويوعظ ويُخوَّف ، وشخصٌ يحتاج إلى المجادلة بالتي هي أحسن ؛ يكون عنده شيء من الشبهات أو الإشكالات أو نحو ذلك فيحتاج إلى مجادلة . فهذا نبه إليه النبي عليه الصلاة والسلام هذا التنبيه اللطيف بقوله ((**إنك تأتي قوما من أهل الكتاب**)).

ثم نبهه عليه الصلاة والسلام على مراعاة الأولويات في الدعوة ومراعاة الأهم فيما يُبدأ به في الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى؛ قال : ((**فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله**)) أي ابدأ بهذا قبل كل شيء . والقوم أهل كتاب ، وأهل الكتاب عندهم كلمة «لا إله إلا الله» ومع ذلك قال له النبي عليه الصلاة والسلام : ((فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله)) !! وهذا فيه أن من ينطق الكلمة أو الكلمة موجودة عنده أو قرأها في كتابٍ عنده يحتاج أيضًا إلى أن يُدعى إليها إذا كان واقعه العملي وحياته التطبيقية مخالِفة لهذه الكلمة ومصادِمة لها ، فيقول «لا إله إلا الله» مثلا ويقول عزير ابن الله ، أو يقول «لا إله إلا الله» ويقول المسيح ابن الله!! أين «لا إله إلا الله» في حقيقة أعماله والمسلك الذي يسلكه ؟!

فقال عليه الصلاة والسلام لمعاذ : ((**فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله**)) ؛ ما المراد بأول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله ؟ أي أن يوحدوا الله ، ولهذا أورد المؤلف رحمه الله الرواية الأخرى للحديث قال : ((**وفي رواية «إلى أن يوحدوا الله»**)) ؛ وهذا فيه أن الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله المراد به الدعوة إلى توحيد الله وإخلاص الدين له .

والمشركون الذين بعث فيهم النبي عليه الصلاة والسلام وهم أهل لسانٍ عربي يفهمون مدلولات الألفاظ ومعانيها لما قال لهم عليه الصلاة والسلام ((قولوا لا إله إلا الله تفلحوا)) فهموا ما تدل عليه هذه الكلمة من التوحيد والبراءة من الشرك فقالوا كلمتهم التي ذكرها الله عز وجل في القرآن ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ(٥)وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ [ص:٥-٦] ؛ أخذوا يتواصون بالصبر على الآلهة والاستمساك بالشرك بالله سبحانه وتعالى، بل إنهم أخذوا يتفاخرون في مجالسهم أننا سلِمنا من هذه الدعوة التي كادت أن تُبعدنا عن هذه الآلهة ﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ [الفرقان:٤٢] يعني لولا أننا أهل صبرٍ وإلا كِدنا نُضَل عن الآلهة ونُبعَد عن هذه المعبودات ، مع أنه عليه الصلاة والسلام إنما خاطبهم بقوله ((قولوا لا إله إلا الله تفلحوا)) .

ولما كان عليه الصلاة والسلام يقول لعمه أبي طالب وهو يحتضر لما أدركته الوفاة يقول له ((يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله)) ، وعنده أبو جهل وبعض المشركين ماذا كانوا يقولون له ؟ يقولون له "بل على ملة عبد المطلب" لماذا ؟ لأن القوم يفهمون أن «لا إله إلا الله» تعني إبطال تلك الملة التي هي اتخاذ الأنداد والشركاء والمعبودات ، فقالوا "بل على ملة عبد المطلب" ، والنبي صلى الله عليه وسلم يعيد عليه ((يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله)) وهم يقولون له "بل على ملة عبد المطلب" ، ومات وهو يقول هو على ملة عبد المطلب .

فـ«لا إله إلا الله» هي توحيد الله ، ((فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله)) : أي أن يوحدوا الله وأن يخلصوا الدين له وأن يفردوه سبحانه وتعالى وحده بالعبادة .

قال : ((**فإن هم أطاعوك لذلك**)) يعني هذه المرحلة الأساس التي يبنى عليها الدين ، فإن هم أطاعوك لذلك تنتقل للمرحلة الأخرى ، ((فإن هم أطاعوك لذلك)) يعني تقيم على دعوتهم إلى هذا الأصل توحيد الله فإن هم أطاعوك لذلك تنتقل بعد ذلك لدعوتهم إلى الصلاة . هل يسوغ أن يُدعَو إلى الصلاة وهم لم يوحِّدوا بعد؟ أي شيء تفيدهم صلاتهم إن كانوا لا يوحِّدون الله!! وقد قال الله سبحانه وتعالى : ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر:٦٥] ، فالصلاة مع الشرك لا تنفع صاحبها ولا تكون مقبولة ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ [التوبة:١٧] ليسوا عماراً لمساجد الله إن كانوا مقيمين على الشرك دعاءً لغير الله واستغاثةً لغير الله وطلباً للمدد من غير الله وذبحاً لغير الله ، أي صلاة تنفعهم إذا كانت هذه حالهم وهم على الشرك بالله سبحانه!!

فإذاً إصلاح التوحيد أولاً ، إصلاح العقيدة أولا؛ لماذا ؟ لأنها أساس بناء الدين . الدين بناء عظيم قيامه على التوحيد ، الدين شجرة عظيمة أساسها التوحيد ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم:٢٤] أي نفعٍ للفرع إذا قُطع الأصل !! فالتوحيد هو الأصل الذي يقوم عليه الدين والأساس الذي يقوم عليه بناء الدين ، أرأيتم لو أن شخصاً أقام بناءً من طوابق عديدة قل عشرة عشرين لكن لم يعتنِ بالأصل ، لم يثبِّت الأصل ولم يرسِ أعمدته وأصوله ماذا سيكون البناء ؟ حتى لو جمَّله ونمَّقه وحسَّنه وأدخل عليه المجمِّلات والمحسنات ماذا سيكون مآل هذا البناء ؟ سرعان ما ينهار ويتصدع ويسقط . فالأساس الذي به يبُدأ ويقدَّم الدعوة إلى توحيد الله ، ويُنتقل للمرحلة التي بعدها بعد أن يفهَّم الناس التوحيد ويعلَّم الناس التوحيد ثم ينتقل إلى الأمور الأخرى ، ولهذا قال له ((**فإن هم أطاعوك لذلك**)) .

ما مفهوم المخالفة هنا لقوله ((فإن هم أطاعوك لذلك)) ؟ لو أنه دعاهم للتوحيد شهر شهرين ثلاثة أربعة سنة سنتين وما أطاعوه يقول لهم عندي أمر آخر سأدعوكم إليه ، ويبدأ يدعوهم إلى الصلاة وهم لم يطيعوه بعد في التوحيد؟ إذاً يكون هو نفسه ما فهم الدعوة التي يدعو إليها والأساس التي تبنى عليه الدعوة ، ولهذا قال له ((فإن هم أطاعوك لذلك)) مفهوم ذلك أنهم إن لم يطيعوا لا يدعو إلى الصلاة ، لأنهم لو دعوا إلى الصلاة مثلا وقبِلوا وصلُّوا وهم لم يوحدوا لم تنفعهم صلاتهم ، وإن أتوا بجميع الصلوات فرضها ونفلها لا تنفعهم ، لأن الصلاة وغيرها من أعمال الدين إنما تكون نافعة لصاحبها إذا كانت قائمة على التوحيد والإخلاص لله سبحانه وتعالى .

ولهذا قال له عليه الصلاة والسلام : ((**فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة**)) إذاً لا يدعَو إلى الصلاة إلا بعد أن يقبلوا التوحيد .

طيب هل هذا يعني أن الكفار ليسو مخاطبين بفروع الشريعة ؟ وأن الله سبحانه وتعالى يوم القيامة لا يعاقبهم على تركهم للصلاة وعلى تركهم لفرائض الدين ولا يعاقبهم أيضاً على الفواحش والمحرمات والآثام ؟ هل هم ليسو مخاطبين بفروع الشريعة ؟ بل هم مخاطبون بفروع الشريعة ، لكن هنا قال له لا تنتقل إلى الصلاة إلا بعد التوحيد وإقامة التوحيد وقبول التوحيد ، لأنهم لو صلَّوا لم ينفعهم ما لم يوحدوا لا أنهم ليسو مخاطبين بفروع الشريعة ، ولهذا يقال لهم عندما يدخلون النار ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ [المدثر:٤٢-٤٧]

إذاً هذه يعاقبون عليها لأنهم مخاطبون بها ، ومن كان منهم يعمل أعمالاً صالحة ولم يوحّد لا تنفعه أعماله الصالحة عند الله كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ﴾ [التوبة:٥٤] ، الكفر مانع من القبول ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة:٥] .

قال : ((**فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة**)) هذه الخمس: الفجر ، الظهر، العصر، المغرب، العشاء ؛ سبع عشرة ركعة في اليوم والليلة هي التي افترضها الله على العباد ، لم يفترض عليهم صلاةً غيرها، لو كان افتُرض عليهم صلاة غيرها مثل الوتر أو شيء من الرواتب لما قيل خمس صلوات ، لقيل مثلاً ست صلوات أو سبع صلوات ، فالذي افترضه الله على عباده وكتبه عليهم وأوجبه عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة ، هذه فريضة الإسلام ، ما زاد على ذلك فهو تطوع ((هل علي شيء غيرها ؟ قال: لا إلا أن تطوَّع)) ما زاد عليها تطوع ؛ إن فعله أثيب ، وإن لم يفعله لم يعاقَب ، فالذي افترضه الله سبحانه وتعالى خمس صلوات في اليوم والليلة . قال ((**أعلمهم**)) أي أخبرهم وأنبئهم ((**أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة**)) .

((**فإن هم أطاعوك لذلك**)) ؛ وهذا فيه التدرج من جهة ، وأيضا البدء بالأهم فالمهم وهكذا ، التدرج : لم يعطهم هذه الأشياء دفعة واحدة ، لم يقل له قل لهم إن الله افترض عليكم كذا وكذا وكذا ، بل تدرج لم يعطهم هذه الأشياء دفعة واحدة ، والبدء بالأهم فالمهم فالأقل أهمية واضح ببدئه أولاً بالتوحيد ثم الصلاة ثم الزكاة وهكذا .

قال : ((**فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم**))

وهنا ذِكرٌ للزكاة المفروضة قرينة الصلاة في كتاب الله ، قلَّ أن تُذكر الصلاة في كتاب الله إلا وتقرن بها الزكاة ، والزكاة فريضة كتبها الله سبحانه وتعالى على الأغنياء ، تؤخذ من الأغنياء وترد على الفقراء .

قال: ((**صدقة تؤخذ من أغنياءهم**)) وهي قدرٌ يسير جداً من مال الغني ويُرد على الفقير .خص الفقير بالذكر مع أن مصارف الزكاة متعددة ليست خاصة بالفقير؛ قيل لأن الفقير هو أحوج هذه المصارف وأهم هذه المصارف ، ولهذا خُص بالذكر في هذا الحديث .

قال: ((**تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم**)) ؛ قوله «فقرائهم» أيضاً أخذ منه أهل العلم أن الأولى بالزكاة أن تعطى لفقراء البلد ؛ لأنهم هم الذين يرون هذا الغني ويرون الأموال التي عنده ويرون تمتعه بها ، فإذا كانت زكاته تُنقل إلى بلاد بعيدة وهم إلى جنبه ويرون هذا الذي عنده ولا يحظون منه بشيء يفوت مقصد من مقاصد الزكاة الذي هو تحقُّق التكافل والمحبة والألفة والمعاني العظيمة التي تترتب على وجود الزكاة في المجتمع .

قال: ((**فإن هم أطاعوك لذلك**)) يعني قبِلوا إخراج الزكاة المفروضة ورضوا بذلك .

((**فإياك**)) أي احذر ((**وكرائم أموالهم**))كرائم منصوبة على التحذير ؛ ((إياك وكرائم أموالهم)) والمراد بكرائم الأموال أي : نفيسها وغاليها وثمينها وأحسنها وأجودها . ((إياك وكرائم أموالهم)) يعني احذر أن تأخذ كرائم الأموال أي النفيس ، فإذا أردت أن تأخذ مثلا من الماشية القدر أو النصاب الذي للزكاة فتأخذ من الوسط ، أوساطها ، لا تأخذ من النفيس ولا أيضا يُخرج من الرديء ، وإنما يؤخذ من الوسط .

قال : ((**واتق دعوة المظلوم**)) النبي صلى الله عليه وسلم يقول لمعاذ رضي الله عنه ، ومن هو معاذ في إمامته وفضله وعلمه وفقهه ومكانته !! يقول له النبي صلى الله عليه سلم : ((واتق دعوة المظلوم)) أي: بأن تراعي العدل مع الناس والإنصاف والبعد عن الظلم ، ((اتق دعوة المظلوم)) بأن تجعل بينك وبين دعوة المظلوم العدل ؛ تكون عادلاً لا تظلم أحدا لماذا ؟ لأن الإنسان إن ظلم أحداً عرَّض نفسه لدعوة مظلوم ، ودعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب ، أي لا تُرد مستجابة .

((**واتق دعوة المظلوم**)) أي بأن تحافظ على العدل مع كل فرد من الأفراد، وتتجنب الظلم وتبتعد عنه . ((**واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب**)) أي أنها تُرفع إلى الله ولا تُرد ، وهي دعوة مسموعة مقبولة لا ترد .

والمظلوم المقهور الذي أخذ ماله عنوة واعتُدي عليه في ماله أو في غيره في عرضه في غير ذلك وقلبه مقهور ومتألم أشد الألم عندما يدعو بقهر وألم مقبلاً على الله ملحًّا عليه دعوته لا يردها الله سبحانه وتعالى بل هي دعوة مستجابة ؛ وهذا فيه تحذير شديد من الظلم وبيان لخطورته ، وأن الواجب على كل إنسان أن يتقي الظلم وأن يتجنب الظلم وأن يحذر من الظلم لأن الظلم ظلمات يوم القيامة . وهذا الظلم الذي يقع بين الناس سيكون القصاص في تلك المظالم يوم القيامة يوم يقف الناس بين يدي رب العالمين كما قال نبينا عليه الصلاة والسلام : ((لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ)) الحقوق تؤدى ، الله جل وعلا يقول في الحديث القدسي الذي يرويه عبد الله بن أنيس وهو حديث صحيح ((يقول الله يوم القيامة : لا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولأحد من أهل النار عليه مظلمة حتى أقتصها منها ، ولا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار ولأحد من أهل الجنة عليه مظلمة حتى أقتصها منه ، قال حتى اللطمة)) ، والقصاص إنما يكون بالحسنات والسيئات لأن الناس يأتون يوم القيامة بدون الدراهم والدنانير والأملاك التي كانوا يمتلكونها في الدنيا ، يأتون ليس معهم شيء من الدنيا ، كما جاء في الحديث يأتون بهماً أي ليس معهم من الدنيا شيء ، فيكون القصاص بالحسنات والسيئات.

هذا الحديث العظيم هو يرسم منهج مبارك وعظيم في الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى ، والشاهد منه للترجمة قول نبينا عليه الصلاة والسلام لمعاذ رضي الله عنه ((فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله)) وفي رواية ((أن يوحدوا الله)) ، ففي هذا الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله ؛ أي الدعوة إلى توحيد الله وإخلاص الدين له والبراءة من الشرك .

والله تعالى أعلم ، وصلى الله وسلم على عبد ورسوله نبيينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

الدرس السابع

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد :

قال رحمه الله تعالى:

ولهما عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم خيبر : «لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله ، يفتح الله على يديه» ، فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها ، فلما أصبحوا غدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم يرجو أن يعطاها ، فقال : «أين علي بن أبي طالب؟» فقيل : هو يشتكي عينيه ، فأرسلوا إليه فأُتي به ، فبصق في عينيه ودعا له فبرئ كأن لم يكن به وجع ، فأعطاه الراية فقال : «أنفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه ، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم » يدوكون: أي يخوضون .

****

هذا الحديث – حديث سهل بن سعد رضي الله عنه – أورده المصنف الإمام المجدِّد شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب رحمه الله تعالى تحت الترجمة التي عقدها بعنوان «باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله» ؛ وهي ترجمة كما سبق أن عرفنا عقدها رحمه الله لبيان أهمية الدعوة إلى التوحيد وأنه وظيفة النبيين وأتباعهم . وتحت هذه الترجمة أورد الإمام رحمه الله تعالى حديث ابن عباس رضي الله عنهما في ذكر بعثة النبي صلى الله عليه وسلم معاذاً إلى اليمن ، ثم أورد حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه في ذكر وصية النبي عليه الصلاة والسلام لعلي بن أبي طالب يوم خيبر يوم أعطاه الراية – راية القتال – صلوات الله وسلامه وبركاته عليه . وهذا الحديث حديث سهل رضي الله عنه حديثٌ عظيم في بيان مكانة الدعوة إلى التوحيد وفضل الدعاة إلى التوحيد وعظم ثوابهم عند الله تبارك وتعالى وما أعد لهم سبحانه من أجور كبيرة وثواب جزيل .

قال سهلٌ رضي الله عنه : ((**إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم خيبر**)) ؛ «يوم خيبر»: أي يوم غزوة خيبر وهي غزوة كانت بين المسلمين واليهود في منطقة خيبر المعروفة .

في ذلك اليوم يوم خيبر قال النبي عليه الصلاة والسلام :

«**لأعطين الراية غداً رجلاً يحبُّ اللهَ ورسولَه ، ويحبُّه اللهُ ورسولُه ، يفتح الله على يديه**» تضمَّن هذا الكلام بشارة عظيمة بالفتح؛ فتح خيبر ، وأيضاً تضمن إخباراً عن رجل يعطيه صلى الله عليه وسلم الراية في يوم الغد من يوم حديثه عليه الصلاة والسلام ، ووصف ذلك الشخص بأنه يحب الله ورسوله ويحب الله ورسوله ؛ وهذا فيه – كما بيَّن أهل العلم وسيأتي إيضاحه – علَم من أعلام نبوة نبينا الكريم عليه الصلاة والسلام ، وفيه أيضاً بشارة عظيمة بالفتح وأن خيبر تُفتح في يوم الغد من يوم حديثه عليه الصلاة والسلام ؛ فبشرهم بذلك صلوات الله وسلامه عليه .

قال : ((**لأعطين الراية غداً رجلاً يحبُّ الله ورسوله ، ويحبُّه الله ورسوله**)) أي هذه صفته :

«**يحب اللهَ ورسولَه**» ؛ وهذا فيه تتميم هذا الرجل لمقام الإيمان ؛ لأن محبة الله ومحبة رسوله عليه الصلاة والسلام عليها قيام الدين ، فمن أحب الله صادقاً أخلص له الدين ، ومن أحب الرسول صلى الله عليه وسلم صادقاً اتبعه وسار على نهجه . فالذي يتخذ الشركاء مع الله محبته لله سبحانه وتعالى ليست صادقة ، لأنه لو صدق في محبته له لصَفَت المحبة وكانت نقية ولم يجعل مع الله سبحانه وتعالى أحداً أو شركاء ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة:١٦٥] ؛ لأن محبة المؤمنين لله محبةٌ خالصة ، ومحبة المشركين لله محبةٌ اتُخِذ فيها مع الله شركاء وأنداد فلم تكن خالصة ، فمحبة الله عندما تقوم في القلب بصدق يترتب على وجودها وجود الإخلاص لله سبحانه وتعالى ، والمحبة الصادقة للنبي عليه الصلاة والسلام تقتضي اتباعه والسير على نهجه . أما أن يدَّعي محبته صلى الله عليه وسلم ولا يتبعه فهذا أمارة على عدم صدق هذه المحبة ، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران:٣١] . فإذاً وصْف النبي عليه الصلاة والسلام لهذا الشخص بأنه يحب الله ورسوله فيه التنبيه على تتميم الإيمان وتكميله .

«**ويحبُّه اللهُ ورسولُه**» ؛ وهذا ثواب تلك المحبة وأثرها وثمرتها ، فهو يحب الله ورسوله ، والله سبحانه وتعالى يحبه ورسوله صلى الله عليه وسلم يحبه .

قال ((يحبُّ الله ورسوله ، ويحبُّه الله ورسوله)) وهذا فيه إثبات المحبة لله صفةً تليق بجلاله ، وهي صفة ثابتة في القرآن والسنة قال الله تعالى :﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ ، وقال تعالى: ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ [المائدة:٥٤] ، فهي صفة ثابتة في القرآن وفي سنة النبي عليه الصلاة والسلام ، وفي الحديث القدسي : ((مَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا ، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ)) .

قال « **يفتح الله على يديه** » أي أن فتح خيبر يكون على يدي هذا الرجل الذي وُصف بذلك الوصف العظيم.

قال : ((**فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها**)) ؛ يدوكون : أي يخوضون . انشغلوا تلك الليلة بالتساؤل عن من الذي سيُعطى الراية ومن الذي سيحظى بهذا الشرف العظيم والمنقبة الكريمة ؟ أيهم الذي يعطاها ؟ وكانوا جميعاً يتطلَّعون إلى هذا الأمر ، وكل واحد منهم حريص عليه لا لشيء إلا لهذا الوصف العظيم والشهادة العظيمة «يحب اللهَ ورسوله ويحبه اللهُ ورسوله» ؛ فكانوا في أشد ما يكون من الحرص على أن يحظوا بذلك ، حتى إن عمر رضي الله عنه قال : «ما أحببت الإمارة إلا يومئذ» حرصاً على هذه الشهادة العظيمة شهادة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام .

ومن المعلوم أن الله سبحانه وتعالى يحب كل مؤمن، والرسول صلى الله عليه وسلم يحب كل مؤمن ، لا يختص هذا الحب بشخص دون غيره ، لكن هذه الشهادة لها مكانة ولَّدت في نفوس الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم هذا الحرص العظيم؛ فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها ، حتى إن البشارة بالفتح وهو أمر عظيم جداً لم تنشغل أذهانهم به ، ولم ينشغلوا بالحديث عن الفرح بهذه البشارة ، وإنما انشغلوا في من الذي سيحظى بهذا الشرف ويُعطى الراية .

((**فلما أصبحوا غدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم يرجو أن يعطاها**)) أي جاءوا الصباح مبكرين لمجلس النبي عليه الصلاة والسلام كل واحد منهم يطمع أن يعطى الراية .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ((**أين علي بن أبي طالب ؟**)) وهذا فيه تفقُّد الوالي رعيته وسؤاله عنهم ومعرفته بأحوالهم .

((**قال أين علي بن أبي طالب ؟ قيل : هو يشتكي عينيه**)) وجاء في بعض الروايات الأخرى أنه رضي الله عنه كان رمِداً أي مصاباً بالرمد في عينيه ، وجاء في بعض الروايات أنه ما كان يبصر الطريق من شدة ما أصاب عينيه من الرمد ، وجاء أيضاً في بعض الروايات أن النبي عليه الصلاة والسلام أرسل له سلمة بن الأكوع يأتي به ؛ فجاء به يقوده إلى أن أتى به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

((**فأرسلوا إليه فأتي به**)) قوله «أتي به» يفسِّره ما جاء في الرواية الأخرى أن سلمة بن الأكوع أتى به يقوده، لا يرى الطريق من شدة الرمد الذي أصاب عينيه .

((**فبصق في عينيه**))؛ بصق النبي عليه الصلاة والسلام في عينيه ، وريقه عليه الصلاة والسلام وكل ما انفصل منه وخرج منه كله بركة ، وهذا أمر خصه الله سبحانه وتعالى به .

((**ودعا له**)) أي دعا الله سبحانه وتعالى أن يشفيه؛ وهذا فيه تنبيهٌ إلى التوحيد وأنَّ الشفاء بيد الله ، وأنَّ النبي عليه الصلاة والسلام لا يملك شفاءً لأحد ، الشفاء بيد الله وهو تبارك وتعالى الشافي لا شفاء إلا شفاؤه ، وكان عليه الصلاة والسلام كما في الصحيح إذا أُتي بمريض قال: «اللَّهُمَّ رَبَّ النَّاسِ أَذْهِبِ البَاسَ، اشْفِهِ وَأَنْتَ الشَّافِي،

لاَ شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ، شِفَاءً لاَ يُغَادِرُ سَقَمًا» أي لا يُبقي علَّة ولا يبقي أثرًا . فالنبي عليه الصلاة والسلام لا يملك شفاءً لأحد والشافي هو الله سبحانه وتعالى ، ولهذا قال : «ودعا له» أي دعا الله له أن يشفيه .

وبهذه الجملة يُدرَك فساد من يتعلقون بغير الله طلبا للشفاء ؛ كأن يقول مريضٌ : يا رسول الله اشفني ، أو يخاطب وليًا من الأولياء يطلب منه شفاء ؛ فهذا كله من الشرك بالله ؛ لأن الشفاء بيد الله سبحانه وتعالى ، والشافي هو الله ، و«الشافي» اسم من أسماء الله ، لا شافي إلا هو ، لا شفاء إلا شفاؤه سبحانه وتعالى .

قال: ((**ودعا له فبرئ كأن لم يكن به وجع**)) بَرِئ: أي شُفي شفاه الله . «بَرِئ» و«بَرَأَ »كلاهما صحيح على وزن ضَرَبَ وعلى وزن عَلِمَ ؛ برَأ وبرِئ : أي شفي من هذا الرمد الذي أصابه . ودعا أيضا له كما ثبت في أحاديث أخرى في تلك الساعة بقوله عليه الصلاة والسلام : ((اللَّهُمَّ أَذْهِبْ عَنْهُ الْحَرَّ وَالْبَرْدَ)) ، فكان رضي الله عنه بعد ذلك لا يحس ببرد ولا يحس بحر ، في شدة الشتاء القارص لا يجد شدة البرد ، وكذلك في شدة الحر لا يجد شدة الحر ، دعا له عليه الصلاة والسلام في تلك الساعة بأن يذهب الله عنه حره وبرده ، ودعا الله له أن يشفيه فبرئ كأن لك يكن به وجع ، وأخبر علي رضي الله عنه أنه بعد هذا الدعاء لم يُصَب بعد بصداع ولم يصب برمد؛ بعد دعوة النبي صلى الله عليه وسلم له .

قال : ((**فأعطاه الراية**)) هذا فيه -كما قال أهل العلم – الإيمان بالقدر ؛ الصحابة كلهم الذين حضروا مجلس النبي عليه الصلاة والسلام عندما أعلن ذلك الخبر وأعلن البشارة وباتوا كل ليلتهم يخوضون أيهم يعطاها وجاءوا في الصباح مبكرين كل واحد منهم يرجو أن يعطى الراية ؛ لم ينل واحدٌ منهم الراية ، ونالها علي رضي الله عنه !! وما كان يخطر بالبال أن يُعطى علي الراية لأنه كان به رمد ولم يكن موجوداً ، لكن الذي كتبه الله سبحانه وتعالى وقدَّره هو أن يكون الراية من نصيبه رضي الله عنه وأرضاه . وهذا فيه أن العبد إذا فعل السبب لا يلتفت بقلبه إلى السبب ولا يعتمد على السبب وإنما يبذل الأسباب – مثل ما فعل الصحابة حرصوا ورغبوا وبكَّروا – يبذل السبب لكن لا يعتمد عليه . فهذا فيه الإيمان بالقدر ، الأمور بتقدير الله سبحانه وتعالى ، والذي على المرء في مثل هذا أن يفعل ما جاء في الحديث : ((احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا)) لأن هذه الكلمة «لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا» هذا التفات بالقلب إلى الأسباب ، وما يدريك لو أنك فعلت هذا الذي تقوله ربما كان الأمر أسوأ أو أشد ، فهذا التفات بالقلب إلى الأسباب . فإذاً في هذا السياق العظيم الإيمان بالقدر وأن الأمور بقدر الله سبحانه وتعالى ، والعبد عليه أن يبذل الأسباب الصحيحة ويجتهد في فعل الأسباب الصحيحة ولن يكون إلا ما قدَّره سبحانه وتعالى .

قال: ((**فأعطاه الراية**)) لأن الله سبحانه وتعالى قضى وقدَّر أن تكون الراية تعطى لعلي رضي الله عنه .

((فأعطاه الراية)) وهذا فيه كما نبه المصنف رحمه الله فضيلة علي بن أبي طالب رضي الله عنه وفيه منقبة جليلة له. وأهل السنة قاطبة يعرفون فضله ومكانته ، وفضل زوجه فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم ورضي عنها ،

وفضل ابنيهما الحسن والحسين ، وفضل آل البيت ، ويحفظون وصية النبي صلى الله عليه وسلم فيهم يوم غدير خُم حينما أوصى الناس بكتاب الله جل وعلا قال : ((وأهل بيتي)) يكررها عليه الصلاة والسلام . فأهل السنة أعظم الناس حفظاً لهذه الوصية ومعرفةً بفضل آل البيت ومكانتهم ومنزلتهم العلية .

وأقول في هذا المقام شهادة حق أتقرَّب إلى الله سبحانه وتعالى بإعلانها عن هذا الإمام المجدد رحمه الله تعالى شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله ؛ رجل عُرف بالمحبة الصادقة لآل البيت ، ومن يقرأ كتبه وسيرته وأخباره يرى ذلك جلياً ، أما الذي يتلقف الأخبار من الخصوم والأعداء فإنه سيكون الأمر عنده بخلاف ذلك ، والله جل وعلا يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات:٦] . فخصوم الشيخ قديماً وحديثاً إلى يومنا يرجمونه ويصفونه كذباً وبهتاناً وزوراً بأنه يعادي آل البيت ويبغض آل البيت ويشتم آل البيت ؛ وحاشاه رحمه الله تعالى أن يكون كذلك ، بل هذا أمرٌ برَّأ الله سبحانه وتعالى أهل السنة قاطبة منه ؛ فهم يعرفون لآل البيت قدرهم ومنزلتهم ومكانتهم ، وهذه المحبة الصادقة بثَّها في كتبه في مواضع يراها جليةً من يقرأ كتب الشيخ رحمه الله تعالى ، وأيضاً من يقرأ سيرته يدرك محبته لآل البيت .

لكن قد يقول قائل : لماذا بُثَّت هذه الدعايات حوله ؟ ما السبب ؟ ومن يطالع يدرك ذلك ؛ كان رحمه الله داعيةً للتوحيد والإخلاص لله ويبين للناس في كل مقام أن العبادة حق لله وأنه لا يُدعى إلا الله ولا يُستغاث إلا بالله ولا يُذبح إلا لله ولا يُنذر إلا لله ، لا يجوز صرف شيء من العبادة لغير الله ؛ لا لنبي مقرَّب ولا لملك مرسل ولا لولي من الأولياء ولا لأحد من آل بيت النبي عليه الصلاة والسلام ورضي الله عنهم ، فكان يبين أن العبادة حق لله ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن:١٨] ، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الأحقاف:٥] ، ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر:١٣] ، كان يبين ذلك . فمن كان مبتلىً بعبادة الأولياء والتقرب لآل البيت عدَّ ذلك سبًّا لآل البيت وانتقاصاً لهم ، عندما يقول رحمه الله "لا يجوز صرف العبادة لأحد غير الله ، لا لآل البيت ولا لغيرهم" اعتبروا ذلك سبًّا لآل البيت وانتقاصًا لهم ، مع أنَّ آل البيت –علي وفاطمة والحسن والحسين وغيرهم– لا يرضون أن يُعبَدوا مع الله وأن يُتخَذوا أندادا وشركاء مع الله يُدعَون من دون الله ويُذبح لهم ويستغاث بهم لا يرضون بذلك ولا يقبلون ذلك أبداً ، وحاشاهم أن يرضوا أن يُتخذوا شركاء مع الله يُصرَف لهم من العبادة ما هو حق الله سبحانه وتعالى .

فمحمد بن عبد الوهاب رحمه الله كان ينكر ذلك أشد الإنكار ويقول "العبادة حق لله" ، فانظر التوازن والوسطية والاعتدال ؛ حفظ لآل البيت مقامهم ومكانتهم وفضلهم وسمى أولاده بأسماء آل بيت النبي من شدة حبه لهم رحمه الله ورضي الله عنهم ، وفي الوقت نفسه يحذِّر من عبادة غير الله وينهى عن عبادة غير الله ويبين أن العبادة حق لله لا يجوز أن تُصرف لغيره كائنا من كان ؛ لا لملك مقرب ولا لنبي مرسل ولا لولي من الأولياء ، العبادة حق لله

﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [البينة:٥] ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ [الزمر:٣] ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦] .

قال سهل رضي الله عنه في هذا الحديث : ((**فأعطاه الراية فقال** : «**انفذ على رسلك**»)) أنفذ :أي امضي ، على رسلك : أي على مهلك ؛ وهذا فيه الوصية له بالأناة والتُّؤَدة والرفق ، انفذ على رسلك أي على مهلك بتؤدة وأناة .

((**حتى تنزل بساحتهم**)) وساحة القوم: هي الأرض التي حول بيوتهم وقريباً من بيوتهم والأفنية التي حولهم . حتى تنزل بساحتهم : يعني حتى تنزل بالمكان القريب من بيوتهم ومنطقتهم .

((**ثم ادعهم إلى الإسلام**)) وهذا موضع الشاهد من الحديث للترجمة وهي «باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله» ؛ فإنَّ قوله ((ثم ادعهم إلى الإسلام)) أي إلى توحيد الله . المراد بالإسلام هنا : أي التوحيد والإخلاص لله سبحانه وتعالى كما يفسر ذلك رواية أخرى للحديث قال : ((على ما أقاتلهم ؟ قال قاتلهم على شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله)) . فقوله ((ثم ادعهم إلى الإسلام)) أي ادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ادعهم إلى توحيد الله .

والتوحيد هو رأس الأمر كما في حديث معاذ قال له النبي عليه الصلاة والسلام : ((أَلَا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الأَمْرِ كُلِّهِ وَعَمُودِهِ، وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الجِهَادُ)) ، ما المراد بقوله «رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلَامُ» ؟ أي التوحيد ؛ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، هذا هو رأس الأمر وعليه قيام الدين ، وهو أول ما يُبدأ به في الدعوة إلى الله . قد مر معنا في حديث ابن عباس في ذكر وصية النبي عليه الصلاة والسلام لمعاذ عندما بعثه إلى اليمن قال له : ((إنك تأتي قوماً أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله)) وفي رواية ((أن يوحدوا الله)) . فقوله هنا ((ادعهم إلى الإسلام)) أي : ادعهم إلى التوحيد ، ادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

«شهادة أن لا إله إلا الله» فيها توحيد الله عز وجل بالعبادة ، و«شهادة أن محمداً رسول الله» فيها توحيد النبي صلى الله عليه وسلم بالاتباع؛ فهما نوعان : توحيد المرسِل وتوحيد المرسَل . توحيد المرسِل أي الله: بإخلاص الدين له ، وتوحيد المرسَل وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم: بتجريد المتابعة له . يناقِض الأول الشرك ، ويناقض الثاني البدع .

فقال ((ادعهم إلى الإسلام)) أي ادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ؛ أن يخلصوا الدين لله وأن يقبلوا رسالة الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام؛ فينطقوا بالشهادتين عالمين بمعناهما قابلين لمقتضاهما محققين لما دلا عليه .

قال : ((**ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه**)) في الإسلام ، يعني عندما يقبلوا الشهادتين ، يقبلوا الإسلام ، يقبلوا هذه الدعوة أخبرهم بما يجب عليهم . وهذا فيه الحكمة في الدعوة ، قال «بما يجب عليهم» يعني عندما يُدْعى يُخبر أن هذا واجب عليه ، أنت آمنت بأن التوحيد لله والمتابعة للرسول عليه الصلاة والسلام فاعلم بأنَّ هناك أمور تجب عليه في هذا الدين أوجبها الله عليك وافترض سبحانه وتعالى عليك القيام بها ((فأخبرهم بما يجبل عليهم من حق الله فيه)) ؛ وهذا فيه التنبيه إلى أن من يُدعى إلى الإسلام يُدعى بعد قبوله للإسلام إلى ما يجب عليه في الإسلام ويُخبَر أن الإسلام فيه واجبات ؛ أوامر أوجب الله عليك أن تفعلها ونواهي أوجب الله عليك أن تجتنبها ، وهذا حق لله عليك في هذا الدين .

((**فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من حمر النعم**)) حُمْر بإسكان الميم . وحمر النعم : هي النوق الحمراء وكانت تُعَدّ أنفس ما يُمتلك وأثمنه ؛ فذكر حمر النعم لأنها أنفس ما يملكون ، فذِكْرها تنبيةٌ بذلك أن هداية رجل واحد خير لك من الدنيا وما فيها ، لأنه خير لك من حمر النعم وحمر النعم هو أنفس شيء في الدنيا يملكونه، فمعنى ذلك : أن هداية رجل واحد خير لك من الدنيا وما فيها . إذا كان خير من حمر النعم وهو أنفس ما يكون فمعنى ذلك أنه خير من الدنيا وما فيها . وهذا فيه فضل الدعوة وفضل الدعاة وعظم ثوابهم عند الله سبحانه وتعالى .

وقوله ((**خير من حمر النعم**)) هذا للتقريب ، وإلا ثواب الدار الآخرة والثواب الذي أعده الله سبحانه وتعالى في الجنة لا يقارن بما في الدنيا ، ذرة من ذرات نعيم الآخرة ونعيم الآخرة لا تقارن بالدنيا كلها وما فيها ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[السجدة:١٧] ، ((فِيهَا مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ)) ؛ فهذا ذُكر للتقريب ، وأيضاً ذُكر للتنبيه ؛ أنَّ النفس متطلِّعة لتحصيل التجارات الدنيوية والتنافس في الأرباح الدنيوية وتُقبِل على ذلك والتنافس على ذلك يتزايد ؛ فينبِّه أن هداية رجل واحد خير من الدنيا وما فيها، فكيف بمن أكرمه الله سبحانه وتعالى وهدى على يديه خلقاً إلى هذا الدين ، ومنَّ الله عليه بأن هدى على يديه خلْق لهذا الدين فدخلوا إلى دين الله تبارك وتعالى بسببه !! فهذا مما يحرك القلوب تحريكًا عظيماً للإقبال على الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى على بصيرة ؛ إخلاصاً لله وبعلم وببصيرة ومعرفة بهدي نبينا الكريم عليه الصلاة والسلام.

قال رحمه الله تعالى :

فيه مسائل : الأولى : أن الدعوة إلى الله طريق من اتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهذا مستفاد من الآية الكريمة التي صدَّر بها رحمه الله تعالى هذه الترجمة وهي قوله تعالى : ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ ؛ فيستفاد من هذه الآية الكريمة أن الدعوة إلى الله طريق من اتبع رسول الله صلى الله

عليه وسلم ، فأتباعه حقاً دعاة إلى الله لأنه قال: ﴿ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ ففيها أن أتباعه صلى الله عليه وسلم دعاة إلى الله سبحانه وتعالى .

الثانية : التنبيه على الإخلاص ، لأن كثيراً من الناس لو دعا إلى الحق ، فهو يدعو إلى نفسه .

«**الثانية : التنبيه على الإخلاص**» أي فضله ومكانته وعظيم ثوابه ووجوبه وأنه أساس لقبول الأعمال ، وهذا مستفاد من قوله ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾ أي دعوتي إلى الله ، لا أدعو إلى نفسي ولا أريد شيئاً لنفسي شهرةً أو سمعةً أو صيتاً أو أتباعاً أو غير ذلك ؛﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾ أي رسالتي وهدفي وغايتي أن يدخل الناس في دين الله تبارك وتعالى ؛ فهذا فيه التنبيه على الإخلاص، بمعنى : أن من يدعو إلى الله يخطب خطبةً يلقي كلمة يعظ موعظةً يكتب كتاباً يؤلف رسالةً إلى غير ذلك ينبغي أن يتنبه إلى الإخلاص بأن يكون مبتغاه بهذا العمل وجه الله والتقرب إليه ونيل رضاه سبحانه وتعالى .

قال: «**لأن كثيرًا من الناس لو دعا إلى الحق فهو يدعو إلى نفسه**» ما معنى هذا الكلام ؟ قال «كثيرا من الناس لو دعا إلى الحق» يعني الكلام الذي يقوله حق لا يدعو مثلا إلى بدعة وإنما الكلام الذي يدعو إليه حق ، مثل أن يدعو إلى الصلاة يدعو مثلا إلى الصيام يدعو إلى الأعمال الصالحة إلى بر الوالدين بالكلام الجميل إلى آخره لكن هو بهذه الدعوة «يدعو إلى نفسه» ما معنى ذلك ؟ يعني يفعل ذلك رياءً أو طلباً للشهرة أو طلباً للسمعة أو طلبا لكثرة الأتباع أو نحو ذلك ؛ فيكون ما يقوله ويتكلم به حق لكن نيته غير صحيحة؛ يريد شهرةً يريد سمعةً يريد رياءً يريد شيئاً من ذلك فقال «كثير من الناس وإن دعا فهو يدعو إلى نفسه» .

الثالثة : أن البصيرة من الفرائض .

وهذه أيضا مستفادة من الآية الكريمة﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾؛ فذَكَر البصيرة صفةً لأتباعه ، واتِّباعه صلى الله عليه وسلم فريضة ، وصفة أتباعه أنهم على بصيرة ، فإذًا البصيرة فريضة من الفرائض . والبصيرة المراد بها : العلم والدراية والفهم بدين الله ، وليس المراد بالبصيرة هنا الإحاطة بعلوم الشريعة ؛ لكن أن يكون الإنسان على بصيرة وعلم بفرائض الإسلام وواجبات الدين وعلى علم بما يدعو الناس إليه ، فكل شيء يدعو إليه يكون عنده فيه بصيرة؛ أي حجة وبرهان وبيّنة من كلام الله وكلام رسوله صلوات الله وسلامه عليه .

الرابعة : من دلائل حسن التوحيد كونه تنزيه الله تعالى عن المسبة .

«من دلائل حسن التوحيد» أي فضله وكماله وعظمته «كونه تنزيهاً لله عن المسبة»؛ وهذا مستفاد من قوله ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ ومعنى سبحان الله : أي أنزه الله . قال ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ . فإذاً من دلائل حُسن التوحيد كون التوحيد تنزيهاً لله عن المسبة ، ومعنى سبحان الله : أي أنزه الله عن شرك المشركين وكفر الكافرين ، أنزه الله عن ذلك وأقدسه تبارك وتعالى وأبرؤه وأعظّمه جل وعلا، ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر:٦٧] ؛ هذا تنزيه لله سبحانه وتعالى عن المسبة .

الخامسة : أنَّ من قُبح الشرك كونه مسبةً لله .

ولاشك في ذلك ؛ لأن المشرك هضَم مقام الربوبية ، وانتقص مقام الألوهية ، وأساء الظن برب العالمين ، فالشرك فيه لاشك المسبة . والتوحيد فيه التنزيه لله سبحانه وتعالى عن ذلك .

السادسة وهي من أهمها : إبعاد المسلم عن المشركين، لا يصير منهم ولو لم يشرك .

«السادسة وهي من أهمها» يؤكد رحمه الله على عظم شأن هذه المسألة ويلفت الانتباه إليها وهي أيضا مستفادة من الآية قوله ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾؛ إبعاد المسلم عن المشركين ، هذا مأخوذ من قوله ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ، ففي قوله ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ إبعاد المسلم عن المشركين لا يصير منهم ولو لم يشرك؛ وذلكم بالبراءة منهم ومن شركهم ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ [الزخرف:٢٦] ، ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [الممتحنة:٤] فتبرؤوا منهم وتبرؤوا مما يعبدونه من دون الله . فإذًا في هذا إبعاد المسلم عن المشركين لا يصير منهم ولو لم يشرك؛ أي أنه هذا المقام لا يكفي فيه ترك الشرك بأن يكون الإنسان لا يعبد غير الله ، بل يلزمه مع ذلك أن يتبرأ من المشركين .

السابعة : كون التوحيد أول واجب .

وهذه المسألة ومسائل تأتي بعدها مستفادة من حديث ابن عباس . انتهت الفوائد المستفادة من الآية وبدأ في الفوائد المستفادة من حديث ابن عباس قال : «كون التوحيد أول واجب» وهذا مستفاد من قوله : ((فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله))؛ فأول واجب على المكلف هو توحيد الله ، وأول ما يُدعى إليه هو توحيد الله الذي هو مقتضى شهادة أن لا إله إلا الله ومدلول شهادة أن لا إله إلا الله .

الثامنة : أنه يبدأ به قبل كل شيء حتى الصلاة .

«الثامنة : أنه يبدأ به –أي التوحيد– قبل كل شيء» يعني في الدعوة يبدأ بالتوحيد «قبل كل شيء حتى الصلاة» يعني حتى الصلاة مع مكانتها ومنزلتها العظيمة فإنه يُبدأ به قبل كل شيء حتى الصلاة ، قبل أن يدعو إلى الصلاة يدعو إلى التوحيد لماذا ؟ لأن التوحيد هو الأساس الذي تبنى عليه الصلاة ويبنى عليه الصيام وتبنى عليه جميع الطاعات ، وهذه الطاعات لو وُجدت بدون توحيد لم تُقبل ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الزمر:٦٥-٦٦] فإذًا به يُبدأ قبل كل شيء حتى الصلاة .

التاسعة : أن معنى «أن يوحدوا الله» معنى شهادة أن لا إله إلا الله .

لأن حديث ابن عباس فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله)) قال رحمه الله : ((وفي رواية إلى أن يوحدوا الله)) ؛ فبالجمع بين هاتين الروايتين يظهر هذا المعنى الذي قرره رحمه الله في هذه المسألة ؛ أن معنى يوحدا الله معنى شهادة أن لا إله إلا الله . فشهادة أن لا إله إلا الله هي شهادة التوحيد ، ومدلولها أن يوحَّد الله وأن يُخلص الدين له تبارك وتعالى .

العاشرة : أن الإنسان قد يكون من أهل الكتاب وهو لا يعرفها ، أو يعرفها ولا يعمل بها .

هذا مستفاد من الحديث نفسه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((إنك تأتي قوما أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله)) وهم أهل كتاب !! فإذًا أهل الكتاب قد يكون فيهم من لا يعرف «لا إله إلا الله» ، وقد يكون فيهم من يعرف «لا إله إلا الله» ولا يفهم معناها ، أو يعرفها ولا يعمل بها ؛ وكل هؤلاء يحتاجون أن يُدعَو إلى لا إله إلا الله وأن يبدأ معهم بها قبل غيرها .

الحادية عشرة : التنبيه على التعليم بالتدريج .

هذا مستفاد من وصية النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ قال له: أولاً التوحيد ثانياً الصلاة ثالثاً الزكاة ؛ فلم يأمره أن يخبرهم بهذه الأمور كلها دفعة واحدة ، ما قال له عليه الصلاة والسلام أخبرهم أن الله افترض عليهم التوحيد وافترض عليهم الصلاة وافترض عليهم الزكاة ، بل تدرج ، فلم يخبرهم بهذه الأمور دفعة واحدة .

الثانية عشرة : البداءة بالأهم فالأهم .

هذا مأخوذ أيضاً من الوصية نفسها؛ بدأ بالتوحيد وهو الأهم ، ثم الصلاة ثم الزكاة؛ فهذا فيه البداءة بالأهم فالأهم .

الثالثة عشرة : مصرف الزكاة .

هذا من قوله : ((صدقة تؤخذ من أغنياءهم فتُرد إلى فقرائهم)) .

الرابعة عشرة : كشف العالم الشبهة عن المتعلم .

كشف العالم الشبهة عن المتعلم مستفادٌ من قول النبي عليه الصلاة والسلام : ((إنك تأتي قومًا أهل كتاب)) أي أن القوم سيكون عندهم شبهة فتنبَّه حتى تعمل على كشفها عنهم وإزالتها .

الخامسة عشرة : النهي عن كرائم الأموال .

لقول النبي عليه الصلاة والسلام ((فإياك وكرائم أموالهم)) أي احذرها ، وأن تأخذ كرائم أموالهم أي نفيس الأموال وأفضل الأموال ؛ فنهاه عليه الصلاة والسلام عن ذلك .

السادسة عشرة : اتقاء دعوة المظلوم .

اتقاء دعوة المظلوم من قوله : ((واتق دعوة المظلوم)) واتقاؤها بلزوم العدل ، فإذا لزم المرء العدل مع الناس يكون بذلكم اتقى دعوة المظلوم ، لكن إن كان لا يبالي بالعدل فيظلم هذا أو يظلم ذاك عرَّض نفسه لهذه الدعوة التي ليس بينها وبين الله حجاب .

السابعة عشرة : الإخبار بأنها لا تُحجَب .

لقوله في الحديث ((فإنه ليس بينها وبين الله حجاب)) أي أنها دعوة مستجابة لا ترد .

الثامنة عشرة : من أدلة التوحيد ما جرى على سيد المرسلين وسادات الأولياء من المشقة والجوع والوباء .

«من أدلة التوحيد» أي وجوب توحيد الله وإخلاص الدين له وعدم التعلق بغيره كائناً من كان «ما جرى على سيد المرسلين وسادات الأولياء من المشقة والجوع والوباء»؛ فالنبي عليه الصلاة والسلام حصل له جوع وحصل له مشقة وحصل له جهد ، حتى في قصة خيبر من يقرأ وقائع تلك الغزوة يدرك الجهد الذي لحق المسلمين إلى أن

أكرمهم الله سبحانه وتعالى بالنصر المبين . وأيضا ينالهم ما ينالهم من المرض ونحوه ، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه في ذلك اليوم جيء به إلى ساحة القتال يقاد لا يرى الطريق من الرمد الذي أصابه ؛ فهذا كله مثل ما قال الشيخ من أدلة التوحيد ، وأن التعلق واللجوء وطلب الشفاء وصرف العبادة لا يكون إلا لله ، لأن الأنبياء والأولياء لا يملكون لأنفسهم دفعاً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشورا فضلاً أن يملكوا شيئا من ذلك لغيرهم .

التاسعة عشرة : قوله ((لأعطين الراية)) الخ علَمٌ من أعلام النبوة .

قوله ((لأعطين الراية غدا رجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله يفتح الله على يديه)) هذا علم من أعلام النبوة لأنه من الغد حصل الفتح على يد هذا الرجل الذي هذه صفته .

العشرون : تفله في عينيه علَم من أعلامها أيضا .

نعم لأنه عندما تفل عليه الصلاة والسلام في عينيه برئ ، جيء به وهو مصاب بالرمد فتفل في عينيه ودعا الله سبحانه وتعالى فشفاه الله .

الحادية والعشرون : فضيلة علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

وهذا الحديث كما ذكر أهل العلم من الأحاديث الصحيحة العظيمة في بيان فضيلة علي؛ وذلك بشهادة النبي صلى الله عليه وسلم له بتلك الشهادة ، وتنبيهاً أيضا لما سبق ها هو رحمه الله ينص على ذلك «الحادية والعشرون : فضيلة علي رضي الله عنه» .

الثانية والعشرون : فضل الصحابة في دوكهم تلك الليلة ، وشُغلهم عن بشارة الفتح .

فضل الصحابة في دوكهم أي خوضهم تلك الليلة وشُغلهم عن بشارة الفتح ؛ فدوكهم تلك الليلة من الذي يعطاها ؟ هذا فيه فضل الصحابة لأنهم كلهم حريصون على ذلك الفضل وتلك المنقبة .

الثالثة والعشرون : الإيمان بالقدر ، لحصولها لمن لم يسع لها ومنعها عمن سعى .

«المسألة الثالثة والعشرون : الإيمان بالقدر» : أن الأمور بقدر الله «لحصولها» أي راية القتال «لمن لم يسع لها» علي رضي الله عنه لم يسعَ لها كان مصاباً بالرمد ولا حضر قول النبي صلى الله عليه وسلم ((لأعطين الراية غدا)) ، ما حضر ولم يسع رضي الله عنه وأعطي الراية ، ومُنعها من سعى إليها ؛ الصحابة جاءوا ذلك اليوم مبكرين كلهم يرجو أن يعطاها ما أعطوا الراية ؛ فهذا فيه الإيمان بالقدر وأنَّ ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن .

الرابعة والعشرون : الأدب في قوله : ((على رسلك)) .

لأن هذا فيه الأدب في القتال بالرفق والأناة والتمهل والبُعد عن الطيش والجلبة والأصوات العالية فقال له ((على رسلك)) .

الخامسة والعشرون : الدعوة إلى الإسلام قبل القتال .

لأن النبي عليه الصلاة والسلام أمره بذلك ، قال له صلى الله عليه وسلم عندما أعطاه الراية: ((انفذ على رسلك ثم ادعُهم إلى الإسلام)) .

السادسة والعشرون : أنه مشروع لمن دعوا قبل ذلك وقوتلوا .

«أنه مشروع» أي دعوتهم إلى الإسلام «مشروع لمن دعوا قبل ذلك» ؛ لأن هؤلاء الذين في خيبر عدد منهم قد أجلوا من المدينة وبلَغتهم الدعوة إلى الإسلام ؛ فأُخِذ من ذلك أنه مشروع –أي الدعوة إلى الإسلام – لمن دُعوا قبل ذلك وقوتلوا ، فهؤلاء في المدينة دُعوا وقوتلوا وأجلوا من المدينة ومع ذلك قال له النبي صلى الله عليه وسلم ((أدعهم إلى الإسلام)) .

السابعة والعشرون : الدعوة بالحكمة لقوله : ((أخبرهم بما يجب عليهم)) .

قوله في الحديث ((أخبرهم بما يجب عليهم)) هذا فيه الحكمة في الدعوة إلى الله فقال ((أخبرهم بما يجب عليهم)) ما قال أخبرهم بأن الله أمرهم بأوامر وإنما قال «بما يجب عليهم» أي أنَّ لله على عباده واجبات يلزمهم أن يعرفوها ويعملوا بها .

الثامنة والعشرون : المعرفة بحق الله في الإسلام .

وهذه المسألة أيضا مستفادة من الحديث قال : ((أخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه)) ، وحق الله في الإسلام أن يطاع سبحانه وتعالى وأن تمتثل أوامره وأن يُنتهى عما نهى عنه سبحانه وتعالى .

التاسعة والعشرون : ثواب من اهتدى على يديه رجل واحد .

لقول النبي عليه الصلاة والسلام لعلي: ((فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم)) أي خير لك من الدنيا وما فيها .

الثلاثون : الحلف على الفتيا .

هذه آخر المسائل المستفادة من هذا الباب : الحلف على الفتيا ؛ وهي مستفادة من قوله صلى الله عليه وسلم ((فوالله)) .

وصلى الله وسلم على رسول الله .

الدرس الثامن

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد :

يقول الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتابه التوحيد الذي هو حق الله على العبيد :

بابٌ تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله

وقول الله تعالى : {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ} [الإسراء:٥٧] .

****

هذه الترجمة ((**بابٌ تفسير التوحيد وشهادةِ أن لا إله إلا الله**)) ترجمة جاءت بعد مقدمات مهماتٍ عظيمات بدأ المصنف رحمه الله تعالى بها كتابه التوحيد ؛ حيث مر معنا بيان مكانة التوحيد العظيمة ومنزلته العلية ، وبيان فضائل التوحيد وتكفيره للذنوب ، وأيضاً تحقيق التوحيد وتتميمه بتنقيته من شوائب الشرك والبدع والمعاصي ، ثم التحذير من ضده وهو الشرك بالله سبحانه وتعالى ، ثم الدعوة إلى توحيد الله عز وجل ؛ فبعد هذه المقدمات شرع رحمه الله تعالى في شرح التوحيد وبيانه بدءً من هذه الترجمة وما بعدها ، فهذه الترجمة وما بعدها من تراجم كلها في شرح التوحيد وبيانه وتفسيره ، بيَّنه في هذه الترجمة بذكر بعض الآيات المفسِّرة لمعناه والمبيِّنة لمدلوله ثم أشار في تمام هذه الترجمة أن ما بعدها من أبواب إلى نهاية الكتاب كلها تفسيرٌ للتوحيد وبيانٌ له .

والتفسير تارةً يكون بإيضاح المعنى وبيان المدلول ، وتارةً يكون بذكر الضد ، لأن الأشياء تتميز بذكر أضدادها . فيُفسَّر التوحيد ببيان معناه ومدلوله وما يندرج تحته ، وكذلكم يفسَّر التوحيد بذكر نواقضه والقوادح فيه تحذيراً منها وبيانا لخطورتها وعظم ضررها .

وقول المؤلف رحمه الله تعالى في هذه الترجمة «**تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله**» ؛ التفسير : هو الإيضاح والبيان والكشف .

«**تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله**»؛ عطَف شهادة أن لا إله إلا الله على التوحيد ومعلوم أن التوحيد هو مدلولها ؛ فما نوع هذا العطف ؟ العطف هنا عطف الدال على المدلول ، التوحيد هو المدلول، ولا إله إلا الله هي الدالة عليه وهي كلمته ، ولا توحيد إلا بها ، ولا يكون العبد من أهل التوحيد إلا بتحقيق «لا إله إلا الله» وتحقيق ما دلت عليه من البراءة من العبودية لكل معبود سوى الله وإفراد الله سبحانه وتعالى بالعبادة ذلاً وخضوعاً ورغَباً

ورهباً ورجاءً وطمعا ، فلا يُدعى إلا الله ولا يُسأل إلا الله ولا يستغاث إلا بالله ولا يصرف شيء من العبادة إلا لله تبارك وتعالى .

الترجمة كما عرفنا في تفسير التوحيد ، وما تحتها آيات وحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وهذه طريقة عظيمة جداً وبديعة في البيان ، فكلمة التوحيد «لا إله إلا الله» يقول المصنف رحمه الله تعالى في تفسيره لها: يكفيك في تفسير هذه الكلمة أن تقرأ آيات من القرآن وأحاديث عن الرسول عليه الصلاة والسلام توضح لك «لا إله إلا الله» ، لست بحاجة إلى تلك التكلفات التي ابتُليت بها كثير من الكتب التي جنحت في تفسيرها لـ«لا إله إلا الله» مجنحاً بعيداً وأخذت تفسرها بتفسيرات قاصرة أو تفسيرات خاطئة . فالشيخ رحمه الله عقد الترجمة في تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله واكتفى في هذا التفسير بقراءة آيات من القرآن وحديث عن الرسول عليه الصلاة والسلام ، والقرآن يفسّر بعضه بعضا ، وأحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام أيضا جاءت مفسرة للقرآن، فـ«لا إله إلا الله» كلمة عظيمة تكرر ورودها في القرآن وأيضاً تكررت الآيات الكثيرة في القرآن المفسِّرة لها، وأيضا تكررت الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في تفسير هذه الكلمة وبيان معناها .

أول آية أوردها رحمه الله تحت هذه الترجمة : قول الله سبحانه ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا** ﴾ . هذه الآية المفسرة لـ«لا إله إلا الله» وأيضاً يُحتاج في هذا المقام إلى الآية التي قبلها وهي قوله سبحانه :﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾ [الإسراء:٥٦] .

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ ﴾ ؛ قوله «مِنْ دُونِهِ» يتناول كل مدعو ملتجأ إليه من دون الله سبحانه وتعالى أياً كان «فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا» لا يملكون كشفه بالكلية وإزالته ، ولا يملكون أيضاً نقله من مكان إلى آخر ، ليس بأيديهم شيء من ذلك ، لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا دفعاً ولا عطاءً ولا منعاً ولا حياةً ولا موتاً ولا نشورا فضلا أن يملكوا شيئا من ذلك لغيرهم .

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا (٥٦) أُولَئِكَ ﴾ ؛ الإشارة هنا إلى الذين يُدْعَوْنَ من دون الله . وخصَّ السياق من كان منهم ليس راضٍ بذلك بل هو عبْدٌ لله مخلصٌ دينه لله قال : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ ﴾ ؛ «أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ» أي الذين يدعوهم المشركون ويستغيثون بهم ويلتجئون إليهم ويصرفون إليهم أنواع العبادات «يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ» حالهم أنهم

عبيد لله ، فقراء إلى الله ، مخلصون دينهم لله ، ﴿ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ ﴾ أي يتسابقون ويتنافسون في التقرب إلى الله وطلب رضاه سبحانه وتعالى .

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ ﴾ أي الذين يدعوهم المشركون من دون الله ﴿ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ ﴾ أي هم فقراء إلى الله ؛ كيف يُدعى الفقير المحتاج الملتجئ إلى الله ولا يلتجئ إلى الغني الحميد المجيد الذي بيده كل شيء سبحانه وتعالى !! . من اللطائف العجيبة : رجل قصد ذا سلطان وقيل له إنه معروف بالسخاء والعطاء وكان ذا حاجة ، فصادف عندما جاء إلى مكانه أنَّ ذلك السلطان مادٌّ يديه يدعو الله سبحانه وتعالى ، فقال لنفسه : أسأل فقيراً مثلي !! وتوقف عن سؤاله وأخذ يسأل الله سبحانه وتعالى .

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ ﴾ أي من يعبدهم المشركون ويستغيثون بهم ويسألونهم من أنبياء أو ملائكة أو أولياء الحال أنهم عباد لله يعبدون الله ويخلِصون دينهم لله سبحانه وتعالى .

﴿ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾ أي كلهم يتنافس في نيل القرب والفوز بالرضا .

﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ يرجون رحمة الله ويخافون عذاب الله ، جمعوا بين الرجاء والخوف ، هم في عبادتهم لله بين رجاء وخوف؛ وهذه حال الفقير ، حال الملتجئ بين رجاء وخوف ؛ رجاءٍ أن تقبل طاعته وأن تُستجاب دعوته وأن يُعطى حاجته وسؤله ، وخوفٍ أن لا يُقبل عمله وأن تُرد حاجته ولا يقبل عمله ، فهو بين رجاء وخوف يرجو رحمة ربه ويخاف عذابه .

فإذاً هذه الآية مفسرة لشهادة أن لا إله إلا الله ومبينة لمعناها من حيث أنَّ من يُدعى من دون الله من الملائكة والأنبياء والأولياء وأيضاً الصالحين من الجن من يدعو هؤلاء من دون الله يدعو من هو محتاج إلى الله وفقير إلى الله لا يملك لنفسه فضلاً أن يملك لغيره ﴿ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾ لا يملكون ذلك لا لأنفسهم ولا لغيرهم ؛ فتبين بذلك أن المفزع هو التوحيد والنجاة في التوحيد، بأن يخلص الإنسان دينه لله ، فلا يلجأ إلا إلى الله ولا يتوكل إلا على الله ولا يفر إلا إلى الله ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ ﴾ [الذاريات:٥٠] ولا يطلب حاجته إلا من الله ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النمل:٦٢].

فإذاً هذه الآية آية عظيمة جداً في بيان التوحيد ونقض ضده وهو الشرك من حيث أنَّ كل من يُدعى مهما كانت مكانته وعلت منزلته لا يملك شيئاً والأمر كله بيد الله ، فلا يدعى إلا الله ، ولا يلتجأ إلا إلى الله ، ولا تُصرف العبادة إلا لله وحده .

وقوله : {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي} [الزخرف:٢٦- ٢٧] .

****

وقوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ ؛ الكلمة التي جعلها خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام باقيةً في عقبه هي كلمة «لا إله إلا الله» ، وذُكرت هنا في الآية بمعناها في قوله ﴿ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ هذا هو معنى «لا إله إلا الله» .

فالآية مفسّرة لـ «لا إله إلا الله» لأنه قال : ﴿ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً ﴾ بإجماع أهل العلم أن الكلمة التي جعلها إبراهيم الخليل باقية في عقبه هي لا إله إلا الله وذُكرت هنا بمعناها ﴿ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ . فإذا قيل ما معنى لا إله إلا الله ؟ وأجاب من سُئل في ضوء هذه الآية قائلاً : أي البراءة من كل من يُعبد من دون الله وإخلاص العبادة لله عز وجل وحده وإفراده بها وحده سبحانه وتعالى ؛ لكان هذا هو المعنى المستفاد من هذه الآية الكريمة .﴿ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴾ ؛ لا توحيد إلا بالبراء ، أن يبرأ من كل ما يُعبد من دون الله ، لأن العبادة حق لله، فلا يكون موحداً إلا بالكفر والبراءة من كل من يُعبد من دون الله . العبادة حقٌ لله لا يجوز صرف شيء منها لكائن من كان ﴿ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴾ ومن جملة ما يعبده قومه الله سبحانه وتعالى ؛ قال ﴿ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ فإني أخلص ديني له وأفرده وحده بالعبادة .

﴿ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴾ أي إلى دينه ، والهداية بيده سبحانه وتعالى وحده ﴿ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة:١٤٢] .

﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ ؛ وقوله ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ فيه أن «لا إله إلا الله» عصمةٌ لمن اعتصم بها وملجأ ومفزع ونجاة للعبد في دنياه وأخراه ، فما دام العبد مع «لا إله إلا الله» وقَّافاً عندها رجَّاعاً إليها محافظاً عليها كانت بذلك نجاته وفلاحه وسعادته في دنياه وأخراه .

وقوله : { اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ } الآية [التوبة:٣١] .

****

وقوله : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ؛ هذه الآية أيضاً عظيمة في تفسير «لا إله إلا الله» وبيان مدلولها .

قال: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ ﴾ أحبارهم : أي علماءهم ، ورهبانهم : أي عبَّادهم .

﴿ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ ؛ ما معنى أربابا من دون الله ؟ هل المعنى أنهم كانوا يصلُّون مثلاً لهم ويدعونهم ويستغيثون بهم ؟ هل هذا الذي كان يقع من هؤلاء الذين ذكر الله عنهم هذه الحال اتخاذ الأحبار والرهبان أرباباً من دون الله ؟ عدي ابن حاتم وكان من متنصِّرة العرب – مَن دخلوا في النصرانية – لما سمع النبي عليه الصلاة والسلام يقرأ هذه الآية قال : «يا رسول الله لسنا نعبدهم» ظن أن العبادة : السجود والركوع والدعاء ونحو ذلك قال «لسنا نعبدهم» ، قال النبي عليه الصلاة والسلام : ((أليسو يحلون الحرام فتحلونه ؟ ويحرمون الحلال فتحرمونه؟)) قال : «بلى» ، قال : ((تلك عبادتهم)) . فهذا تفسير للتوحيد وبيان لمدلوله ؛ فمن اتخذ غير الله يطيعه في تحليله ما حرَّم الله وتحريمه ما أحل الله فقد اتخذه نداً لله سبحانه وتعالى ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ﴾ [الشورى:٢١] ؛ اتخذه نداً وشريكاً ، ولهذا لما قال «لسنا نعبدهم» قال : ((أليسو يحلون الحرام فتحلونه ويحرمون الحلال فتحرمونه ؟ قال بلى ، قال : ((تلك عبادتهم)) .

﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ أي : واتخذوه كذلك معبوداً من دون الله؛ والحال أنهم لم يؤمروا إلا بعبادة الله وحده وإخلاص الدين له ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ؛ لم يؤمروا إلا بالتوحيد ، لم يؤمروا إلا بعبادة الله وحده وإخلاص الدين له سبحانه وتعالى ، فلم يعملوا بذلك واتخذوا الأنداد والشركاء ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ .

سمى الله عز وجل في هذه الآية طاعتهم للأحبار والرهبان فيما يحلونه من الحرام وما يحرمونه من الحلال عبادةً لأنه قال في السياق ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا ﴾ ، وسمى ذلك اتخاذاً لهؤلاء أربابا من دون الله ؛ فإذاً «لا إله إلا الله» التي ذُكرت في هذه الآية تفسيرها : أن يطاع الله سبحانه وتعالى وأن تكون الطاعة لله عز وجل ، فمن اتخذ غير الله يطيعه في تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحل فقد اتخذه نداً وشريكاً مع الله سبحانه وتعالى .

وقوله : {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ} [البقرة:١٦٥] .

****

وقوله : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (١٦٥) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (١٦٧) ﴾ .

قال : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ﴾ «ومن الناس» المراد بهم : المشركون الذين سوَّوا غير الله بالله في حقوقه وخصائصه سبحانه وتعالى .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ﴾ أنداداً : أي نظراء وشركاء .

﴿ يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ﴾ أي: يحبونهم كما يحبون الله ؛ وهذا فيه من الدلالة أنَّ المشركون يحبون الله حباً عظيما ، الآية تدل على ذلك أن المشركين يحبون الله حباً عظيما ، وهذا واضح في قوله﴿ يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ﴾ ، فهم يحبون أصنامهم كما يحبون الله . فإذاً هم يحبون الله حباً عظيما وفي الوقت نفسه يحبون أصنامهم كما يحبون الله ، إذاً هم سوَّوا بين الله وبين الأصنام في المحبة . محبتهم العظيمة لله التي قامت في قلوبهم هل تنفعهم عند الله ؟ لا تنفعهم ؛ لماذا ؟ لأنها عبودية ولم يجعلوها لله خالصة بل أشركوا مع الله غيره فيها ، لم يجعلوها لله تبارك وتعالى خالصة بل أشركوا الأصنام مع الله في تلك المحبة؛ فسووا غير الله بالله في المحبة ؛ فلم تكن تلك المحبة نافعةً لهم ولا منجيةً لهم من عذاب الله تبارك وتعالى ، ولهذا يقولون يوم القيامة إذا دخلوا نار جهنم : ﴿ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء:٩٧-٩٨] أي نجعل لكم حظاً مساوياً لله سبحانه وتعالى في العبادة . فسوَّوا بين الله وبين الأصنام في المحبة ويوم القيامة يندمون ندامةً لا تنفعهم.

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ أي أشد حباً لله من حب المشركين لله ؛ لماذا ؟ لأن حب المؤمنين لله حبٌ خالص ، وحب المشركين لله حب أشركوا فيه مع الله غيره فلم يكن خالصاً . فالمؤمن ينفعه حبه لله سبحانه وتعالى النفع العظيم ، وذاك لا ينفعه حبه لله لأنه لم يخلصه لله تبارك وتعالى فلا يكون نافعا له .

والمراد بالحب هنا : الحب الذي هو حب العبودية الذي يورث الذل والخضوع والطاعة العبادة ، ولهذا لما أحب أولئك أصنامهم كحب الله عبدوهم مع الله ودعَوهم والتجئوا إليهم وذبحوا لهم ونذروا لهم وقدَّموا لهم القرابين والنذور، لما قام في قلوبهم حب العبودية للأصنام عبدوا الأصنام مع الله سبحانه وتعالى ؛ وهذا يبين لنا أن الحب روح العبودية ولبُّها وأساسها ، وأنه كلما قوي هذا الحب قويت العبودية .

قال: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ ثم بُيِّن في السياق المآل الذي يؤول إليه هؤلاء الذين سوَّوا غير الله بالله في المحبة وفي تمامه قال: ﴿ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ أي أنهم يخلَّدون في النار أبد الآباد ، مع أنهم كانوا في الدنيا يحبون الله !! وكانوا في الدنيا يعبدون الله !! نعم كانوا في الدنيا يحبون الله وكانوا في الدنيا يعبدون الله لكن ما هي مشكلتهم ؟ وما هي مصيبتهم ؟ أنهم سووا مع الله في المحبة وترتب على ذلكم أيضا تسوية غير الله بالله في أنواع العبودية؛ فكانت العقوبة دخول النار والخلود فيها أبد الآباد ﴿ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ أي يُخلَّدون فيها أبد الآباد كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُور(٣٦) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴾ [فاطر:٣٦-٣٧] .

وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ((من قال لا إله إلا الله وكفر بما يُعبد من دون الله حرُم ماله ودمه وحسابه على الله عز وجل)) .

****

بعد أن أورد رحمه الله تعالى الأربع الآيات المتقدمات في تفسير التوحيد ختم هذه الترجمة بهذا الحديث عن النبي الكريم عليه الصلاة والسلام أنه قال : «**من قال لا إله إلا الله ، وكفر بما يعبد من دون الله ؛ حرُم ماله ودمه، وحسابه على الله عز وجل**» .

((**من قال لا إله إلا الله**)) عطَف عليها ليتحقق نفعها ولتكون نافعة لقائلها ((**وكفر بما يُعبد من دون الله**)) ثم رتب على ذلك الثمرة والأثر ؛ مما يفيد أنَّ عدم الإتيان بهذا القيد الذي هو الكفر بما يعبد من دون الله يجعل لا إله إلا الله ليست نافعة لصاحبها ، إن قالها ولم يكفر بما يُعبد من دون الله لا تنفعه ، بل إنه لا يكون من أهلها حتى يكفر بما يُعبد من دون الله . لا يكون من أهلها ولا يكون من المستمسكين بها إلا إذا كفر بما يعبد من دون الله .

وتأمل هذا المعنى الوارد في هذا الحديث في الآية التي تلي آية الكرسي ، وآية الكرسي صُدِّرت بكلمة التوحيد «لا إله إلا الله» ، ثم أُتبعت في الآية نفسها ببراهين التوحيد ودلائله وذُكر فيها أنواع عديدة لبراهين التوحيد ، ثم قال الله عز وجل في الآية التي تليها: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ

بِالطَّاغُوتِ﴾[البقرة:٢٥٦] هذا مثل قوله هنا ((**وكفر بما يعبد من دون الله**)) مثله تماماً ، ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ﴾ أي : يكفر بما يُعبد من دون الله . الطاغوت : هو كل من عُبد من دون الله سبحانه وتعالى .

قال: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾ أي استمسك بلا إله إلا الله . إذاً لا يكون مستمسكاً بالعروة الوثقى إلا بهذا القيد ؛ الكفر بما يعبد من دون الله، الذي هو الكفر بالطاغوت .

قال: ((**من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله**)) ؛ إذاً هذا فيه تفسير للا إله إلا الله ، وأن «لا إله إلا الله» لا تنفع قائلها بمجرد النطق فقط –حتى لو قالها آلاف المرات – حتى يكفر بما يعبد من دون الله .

في ضوء هذا الحديث والآية التي أشرت إليها لو أن إنساناً قال «لا إله إلا الله» آلاف المرات لكنه لم يكفر بالطاغوت أو لم يكفر بما يُعبد من دون الله أيكون من أهلها ؟ أيكون من المستمسكين بها ؟ أيكون من الفائزين بثوابها ؟ لا والله ، لأنها في النصوص قُيِّدت بهذا القيد .

إذاً «لا إله إلا الله» من تفسيرها ومدلولها: الكفر بما يُعبد من دون الله؛ بحيث يتبرأ منه ويتبرأ من عابديه ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ ، ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾[الممتحنة:٤] .

قال: ((**من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرُم ماله ودمه وحسابه على الله**)) أي أنَّ لنا في هذا الظاهر والله عز وجل يتولى السرائر ، حسابه على الله ؛ إذا كان قلبه ينطوي على شيء آخر أو أمر آخر فهذا أمره إلى الله وحسابه على الله ، لكن التوحيد الذي تكون به عصمة الدم والمال هو لا إله إلا الله مع الكفر بما يُعبد من دون الله . لكن لو قال : "أنا أقول لا إله إلا الله لكن لا أكفر بما يُعبد من دون الله ولا أتبرأ من الطاغوت"؛ لا يكون بذلك من أهل لا إله إلا الله .

فإذاً هذا الحديث العظيم حديثٌ مفسر لكلمة التوحيد «لا إله إلا الله» .

قال رحمه الله :

وشرح هذه الترجمة : ما بعدها من الأبواب .

****

((**وشرح هذه الترجمة ما بعدها من الأبواب**)) ولهذا سيعيد بعض الآيات التي أوردها في هذه الترجمة في أبواب مستقلة ، سيأتي لاحقا بابٌ مستقل عن قوله تعالى ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ ، وسيأتي أيضاً بابٌ مستقل عن طاعة الأحبار والرهبان من دون الله وسيعيد الآية هناك رحمه الله تعالى ؛ فالأبواب الآتية إلى تمام الكتاب كلها تفسير لهذه الترجمة .

إذاً الشيخ رحمه الله سيشرح الآن في الأبواب الآتية التوحيد من خلال تبويبات يسوق تحتها آيات من القرآن الكريم وأحاديث عن الرسول صلوات الله وسلامه عليه كلها تشرح التوحيد وتوضح مدلوله توضيحا تفصيلياً في ضوء الآيات والأحاديث .

مما أنبه عليه مما يتعلق بهذه الترجمة ((تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله)) وهو تنبيهٌ أرى أنه في غاية الأهمية ألا وهو : ما جاء في الصحيح عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه أنه قال : كان النبي عليه الصلاة والسلام يهلل دبر كل صلاة «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَلَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ، لَهُ النِّعْمَةُ وَلَهُ الْفَضْلُ وَلَهُ الثَّنَاءُ الْحَسَنُ ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ» ، وجاء في بعض الروايات في صحيح مسلم أن عبد الله بن الزبير قال ذلك في خطبة على المنبر ، ينبِّه الناس في خطبة على المنبر على هذا التهليلات العظيمة وأهمية العناية بها . هذه التهليلات يردِّدها كل مسلم أدبار الصلوات كما كان نبينا عليه الصلاة والسلام يرددها دبر كل صلاة .

وإذا تأملت في هذا الحديث تجد أن كلمة التوحيد «لا إله إلا الله» تكررت ثلاث مرات وأُتبعت في كل مرة بما يفسِّرها ويبين معناها ويؤكد حقيقتها ومدلولها ، وهذا التكرار من المسلم لـ«لا إله إلا الله» بهذه المؤكدات وهذه التفسيرات والتوضيحات كله ترسيخٌ للتوحيد وتثبيتٌ لمعناه وتقويةٌ له وتمكينٌ له وتوسيعٌ لمساحته في القلب ، وهذا لا يتحقق إلا لمن يتأمل في مدلولات الأذكار الشرعية ومعانيها ، أما من كان يقرأها قراءةً دون فهم للمعنى لا يكون لها الأثر البالغ عليه ولا تتحقق الفائدة المرجوة من هذه الأذكار .

في المرة الأولى قال : «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» ، أتبع في المرة الأولى كلمة التوحيد لا إله إلا الله بقوله ((وحده لا شريك له)) لأن «لا إله إلا الله» قائمة على نفي وإثبات وهما ركنا التوحيد ، فأتبع ذلك بقوله ((وحده لا شريك له)) تأكيداً للنفي وتأكيداً للإثبات ، ((وحده)) تأكيد للإثبات ، ((ولا شريك له)) تأكيد للنفي ؛ وهذا اهتمام بمقام التوحيد . وقوله ((لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)) هذه براهين للتوحيد .

التهليلة الثانية قال : «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَلَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ، لَهُ النِّعْمَةُ وَلَهُ الْفَضْلُ وَلَهُ الثَّنَاءُ الْحَسَنُ» ؛ ولا نعبد إلا إياه هذا هو معنى لا إله إلا الله . معنى «لا إله إلا الله» : أن لا نعبد إلا الله ، وتأمل ما مر معنا قريبا ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا

﴿لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ ، فقوله «ولا نعبد إلا إياه» هذا تفسيرٌ لها ، عُطِف عليها تفسيرها ، نظير صنيع المصنف في الترجمة ((تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله)) . قال ((لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَلَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ، لَهُ النِّعْمَةُ وَلَهُ الْفَضْلُ، وَلَهُ الثَّنَاءُ الْحَسَنُ)) هذه كلها براهين التوحيد .

التهليلة الثالثة قال : «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ» وهذا أيضا معنى لا إله إلا الله : إخلاص الدين لله كما قال الله تعالى : ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة:٥] ، كما قال جل وعلا: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر:٣] ، وفي الحديث ((من قال لا إله إلا الله خالصا من قلبه)) . قال ((مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)) .

فإذاً هذه التهليلات الثلاث فيها تفسيرٌ للتوحيد وبيانٌ لمعناه وتأكيدٌ لمدلوله .

في ضوء هذا التهليل الذي يردده كل مسلم دبر كل صلاة نريد أن نستخلص من التهليلات الثلاث تعريفاً جامعاً لكلمة التوحيد «لا إله إلا الله» فماذا نقول ؟ ما معناها ؟ وتأملوا جميعاً لنصغ عبارة نفسر فيها «لا إله إلا الله» من التهليلات الثلاث ، عندنا ((وحده لا شريك له)) في التهليلة الأولى ، و((لا نعبد إلا إياه)) في التهليلة الثانية، و((مخلصين له الدين)) في التهليلة الثالثة ؛ نريد جملةً تحوي هذه الثلاث ؟

لا إله إلا الله معناها : أن لا نعبد إلا الله ، وحده لا شريك له ، مخلصين له الدين ؛ هذا معناها . معنى مستخلص من هذا التهليل الذي يردده كل مسلم ، وهذا على الطريقة التي سلكها الإمام المجدد رحمه الله في هذا الكتاب وهي طريقة أئمة العلم في تفسير هذه الكلمة بالقرآن والسنة ، فهذه تهليلات مباركة عظيمة كل مسلم يحفظها ويرددها دبر كل صلاة ، وهي تشتمل على تفسير وتوضيح وبيان لمعنى لا إله إلا الله . إذاً معنى لا إله إلا الله : أن لا نعبد إلا الله وحده لا شريك له مخلصين له الدين .

قال رحمه الله تعالى :

فيه مسائل ؛ الأولى وهي من أهمها ؛ وهو تفسير التوحيد وتفسير الشهادة وبيَّنها بأمور واضحة ، منها : آية الإسراء بين فيها الرد على المشركين الذين يدعون الصالحين ، ففيها بيان أن هذا هو الشرك الأكبر .

****

يقول رحمه الله تعالى كما هي طريقته في كل الأبواب : «فيه مسائل» وأكبر هذه المسائل وأهمها هي تفسير التوحيد وتفسير الشهادة لا إله إلا الله . وعرفنا طريقته رحمه الله أنه فسَّر التوحيد وفسر لا إله إلا الله بآيات من القرآن وهي أربع آيات ، وبحديث من سنة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام ، وهذا مثل ما وصف رحمه الله أنها بُيِّنت بأمور واضحة ؛ منها آية الإسراء ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ

وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ﴾ فهذه الآية فيها الرد على المشركين الذين يدعون الصالحين ؛ ففيها بيان أن هذا هو الشرك الأكبر ، وأن هؤلاء الذين يدعونهم من أنبياء أو ملائكة أو أولياء أو غيرهم من صالحي الجن كل هؤلاء يدْعُون الله ويخلِصون دينهم لله ، فمن دعاهم وصرف لهم شيئا من العبادة فقد وقع في الشرك الأكبر الناقل من ملة الإسلام .

ومنها : آية براءة بيَّن فيها أن أهل الكتاب اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله ، وبين أنهم لم يُؤمروا إلا بأن يعبدوا إلهًا واحدا ، مع أن تفسيرها الذي لا إشكال فيه : طاعة العلماء والعبَّاد في المعصية، لا دعاؤهم إياهم .

****

«ومنها» أي الآيات المفسرة للا إله إلا الله والمبينة معناها آية براءة ؛ بيَّن سبحانه وتعالى فيها أن أهل الكتاب اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، وبيَّن أيضاً أنهم لم يؤمروا إلا بأن يعبدوا إلها واحداً ، مع أن تفسيرها الذي لا إشكال فيه – يعني تفسير قوله ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ الذي لا إشكال فيه – هو طاعتهم للعلماء والعبَّاد في المعصية لا دعاؤهم إياهم ؛ من أين أخذنا ذلك ؟ من قصة عدي لما قال للنبي عليه الصلاة والسلام : «يا رسول الله لسنا نعبدهم»، لأنه ظن أن العبادة منحصرة في الدعاء والركوع والسجود ، قال «لسنا نعبدهم» ، فقال له النبي عليه الصلاة والسلام : ((أليسو يحلون الحرام فتحلونه ؟ ويحرمون الحلال فتحلونه ؟)) قال بلى قال : ((فتلك عبادتهم)) .

ومنها : قول الخليل عليه السلام للكفار : {إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي} الآية ، فاستثنى من المعبودين ربه ، وذكر سبحانه أن هذه البراءة وهذه الموالاة هي تفسير شهادة أن لا إله إلا الله ، فقال : {وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} .

****

«ومنها» أي الآيات المفسرة للا إله إلا الله «قول الخليل عليه السلام للكفار المشركين : ﴿ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ الآية ، فاستثنى عليه السلام من المعبودين ربه» ؛ أولئك كانوا يعبدون الله ويعبدون الأصنام والأوثان ، فلما تبرأ من معبوداتهم استثنى ربه قال: ﴿ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ . إذاً كانوا يعبدون الله لكن عبادتهم له باطلة؛ لأنهم سوَّوا غير الله بالله فيها وجعلوا مع الله سبحانه وتعالى الشركاء . فالتوحيد إنما هو بالبراءة من كل ما يُعبد من دون الله وإخلاص الدين لله ، أما من يعبد الله ويحب الله ويدعو الله ويستغيث بالله

ويصلي لله ويصوم لله لكنه يتخذ مع الله شركاء في دعاءٍ أو عبادةٍ أو ذبحٍ لا يقبل الله منه كل عبادته ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ [الزمر:٦٥-٦٦] .

قال : «وذكَر سبحانه أن هذه البراءة وهذه الموالاة هي تفسير شهادة أن لا إله إلا الله فقال : ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ ﴾» وبالإجماع أن الكلمة لا إله إلا الله .

ومنها : آية البقرة في الكفار الذين قال الله فيهم : {وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ} ؛ ذكَر أنهم يحبون أندادهم كحب الله ، فدل على أنهم يحبون الله حباً عظيما ولم يُدخلهم في الإسلام ، فكيف بمن أحب الند حباً أكبر من حب الله ؟ وكيف بمن لم يحب إلا الند وحده ولم يحب الله ؟

****

«ومنها» أي الآيات التي تفسر التوحيد وتفسر كلمة التوحيد لا إله إلا الله «آية البقرة في الكفار الذين قال الله فيهم ﴿ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾» في آخر السياق كما مر معنا ؛ أي أنهم مخلدون فيها أبد الآباد لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها . هؤلاء الذين أخبر الله أنهم يخلَّدون في النار وأنهم لا يخرجون من النار ﴿ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ كانوا في الحياة الدنيا يحبون الله حباً عظيما ، وكانوا يحجون ويدعون ويقدِّمون القرابين والنذور لله لكن في الوقت نفسه يقدِّمون هذه الأشياء لغيره كما قال الله عنهم ﴿ يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ﴾ .

يقول الشيخ : «**ذكر أنهم يحبون أندادهم كحب الله ، فدل على أنهم يحبون الله حباً عظيما**» لكن حبهم هذا هل نفعهم ؟ هل يخرجهم يوم القيامة من النار ؟ الله قال ﴿ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ يخلَّدون فيها أبد الآباد مع أنهم كانوا يحبون الله لكنهم لا يخرجون من النار يخلَّدون فيها أبد الآباد لماذا ؟ لأنهم سووا مع الله غيره ، ولهذا يندمون في النار ويعلنون الندامة ﴿ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

قال : «**ذكر أنهم يحبون أندادهم كحب الله ، فدل على أنهم يحبون الله حباً عظيما ولم يدخلهم في الإسلام**» ولم يدخلهم أي هذا الحب في الإسلام «**فكيف بمن أحب الند أكبر من حب الله ؟ وكيف بمن لم يحب إلا الند وحده ولم يحب الله ؟**» أي أن هؤلاء من باب أولى أن لا يدخل في الإسلام ولا يكون من أهل الإسلام ، بل لا

يكون المرء من أهل الإسلام إلا إذا أخلص الحب - حب العبودية والذل - لله سبحانه وتعالى وحده ولم يجعل مع الله تبارك وتعالى شريكاً في شيء من ذلك .

ومنها : قوله صلى الله عليه وسلم «من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله عز وجل» ، وهذا من أعظم ما يبين معنى «لا إله إلا الله» ، فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصما للدم والمال ، بل ولا معرفة معناها مع لفظها ، بل ولا الإقرار بذلك ، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له ، بل لا يحرُم ماله ودمه حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يُعبد من دون الله ، فإن شك أو توقف لم يحرُم ماله ولا دمه . فيا لها من مسألة ما أجلَّها ، ويا له من بيان ما أوضحه ، وحجةٍ ما أقطعها للمنازِع .

****

قوله «**ومنها**» أي النصوص المفسرة للا إله إلا الله والمبينة لمعناها «**قول النبي صلى الله عليه وسلم : من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله**» ؛ نبَّه رحمه الله في هذه المسائل عظم هذا الحديث وجلالة قدره في بيان كلمة التوحيد لا إله إلا الله ، ومتى تكون نافعة لقائلها، وأنها لا تنفع قائلها بمجرد النطق بها ، ولا أيضاً بمجرد فهم معناها ، ولا أيضاً بمجرد وجود العبادة من قائلها لله سبحانه وتعالى؛ بل لابد من هذا الأمر الذي ذُكر في الحديث وهو «الكفر بما يعبد من دون الله» كما في الآية المشار إليها التي تلي آية الكرسي ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى ﴾ أي : لا يكون مستمسكاً بلا إله إلا الله إلا بهذا الكفر بما يُعبد من دون الله ، فإن لم يكفر بما يُعبد من دون الله لا يكون من أهل لا إله إلا الله وإن قالها وإن كررها آلاف المرات حتى يقع منه هذا الكفر والبراءة مما يعبد من دون الله تبارك وتعالى ؛ قال : «بل لا يحرُم ماله ودمه حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يُعبد من دون الله».

«فإن شك أو توقف أو تردد» مثل يقول هؤلاء أولياء لعل لهم نصيب من هذا ولهم مكانة عند الله ما الذي يمنع أنه يُدعى مثلاً ؟ أو أنه مثلا شاة واحدة تُذبح له ؟ أو مثلاً قربة واحدة يتقرب بها له ما الذي يمنع من ذلك؟ إذا توقف في هذا الأمر أو تردد أو شك لا يكون من أهل لا إله إلا الله ، لابد أن يتبرأ من كل ما يعبد من دون الله . «وكفر بما يعبد من دون الله» أيا كان لأن العبادة حق لله وحده سبحانه وتعالى ؛ فإذاً لا يكون من أهل لا إله إلا الله عندما ينطق بها ويتلفظ بها ويصلي ويصوم إلى غير ذلك ثم مثلاً يتوقف فيمن يُعبدون أو في بعض من يُعبدون من دون الله من ملَك أو نبي أو ولي أو غير ذلك ، يقول مثلاً : أنا ما أقول شيء احتمال يكون مثلا ربما ، إذا وجد عنده شك أو تردد لا يكون من أهل لا إله إلا الله ، يكون من أهل لا إله إلا الله : بالكفر بما يعبد من دون الله مثل ما قال الله : ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى ﴾ ، أما من يشك ؛ يجد من يسجد لغير الله أو ينذر لغير الله أو يذبح لغير الله ويقول ربما أنَّ هذا تاعمل سائغ أو ربما صحيح ؛ لا يكون

بذلك من أهل لا إله إلا الله ، لابد من الكفر بما يُعبد من دون الله ، لا تنفعه صلاة ولا صيام ولا غير ذلك من الأعمال إلا بالكفر بما يُعبد من دون الله والبراءة من الشرك والخلوص منه؛ فبذلكم يكون من أهل «لا إله إلا الله».

سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك .

اللهم صل وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .



شرح كتاب التوحيد

لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه اللّه

من الدرس ٩ إلى الدرس ١٢

شرح الشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظهما اللّه تعالى

١٤٤٠/٠٣/١٢ هـ

الدرس التاسع

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد :

يقول الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب أجزل الله له الأجر والثواب في كتابه «التوحيد الذي هو حق الله على العبيد» :

بابٌ من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه

وقول الله تعالى: {قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ} الآية[الزمر:٣٨]

****

هذه الترجمة ((**بابٌ من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه**)) وما بعدها من الأبواب كلها ساقها الإمام المجدِّد رحمه الله تعالى تفسيراً للتوحيد وبياناً له ، لأنَّ الترجمة الأخيرة التي مرت معنا كانت في تفسير التوحيد ثم في تمام تلك الترجمة قال : «وشرح هذه الترجمة ما بعدها من الأبواب» ؛ فإذاً هذا الباب وما بعده كله يعَدُّ تفسيراً للتوحيد وشرحاً له وبياناً له بياناً تفصيليا . وبيان التوحيد يكون بإيضاح معناه وبيان حقيقته وأنواعه والتفاصيل المتعلقة به ، ويكون أيضاً بذكر ضده تحذيراً منه وبياناً لخطورته وبياناً أيضاً في الوقت نفسه لكمال ضده وهو التوحيد ، ففي بيان الشرك وإيضاحه وبيان خطورته بيانٌ لضده وكماله وفضله كما قيل :

والضد يُظهر حُسنه الضدُّ وبضدِّها تتميز الأشياء

فإذاً هذا الباب ((باب من الشرك لبس الحلقة)) إلى آخره عقده رحمه الله تفسيراً للتوحيد؛ بإيضاح ضده والتحذير منه وبيان خطورته . ثم إن لبس الحلقة والخيط إذا كان من أجل الشفاء مع اعتقاد أن الشافي هو الله لكنه يجعلها سبباً فهذا من الشرك الأصغر ومن الوسائل والذرائع المفضية للشرك الأكبر ، فإذاً هذه الترجمة هي في بيان نوعٍ من أنواع الشرك الأصغر ؛ فيكون البدء بهذا الباب بدءٌ بالأدنى ثم ينتقل منه فيما بعد إلى بيان الأعلى والأخطر وهو الشرك الأكبر ، فبدأ بالشرك الأصغر في كتابه رحمه الله قبل الكلام على الشرك الأكبر ترقياً من الأدنى إلى الأعلى أو الأخطر وهو الشرك الأكبر الناقل من ملة الإسلام .

وهذه الترجمة يُحتاج فيها إلى معرفة العقيدة المطلوبة في الأسباب وكيف التعامل معها ؛ سواءً في العلاج أو الاستشفاء أو غير ذلك في رفع البلاء أو دفع البلاء أو نحو ذلك ، لابد في هذا المقام من فقهٍ في الأسباب ، لأن الناس في هذا المقام أقسام :

- فمنهم من يتخذ سبباً ما ليس بسبب ؛ يتخذ سبباً للشفاء والعلاج ونحو ذلكم ما ليس بسبب ، مع اعتقاده في نفس الوقت أن الشافي هو الله وأن النافع هو الله وأن المانع هو الله سبحانه وتعالى والمعطي هو الله ، يعتقد ذلك لكنه يتخذ سببًا ما ليس بسبب ، ومثل هذا واقعٌ في الشرك الأصغر ، ووسيلة من الوسائل التي تفضي بصاحبه إلى الشرك الأكبر الناقل من الملة ، ومن هذا القبيل : لبس الحلقة والخيط والحروز التي يضعها بعض الناس أو التمائم أو غير ذلك ؛ مع اعتقادٍ منه في نفس الوقت أن الشافي هو الله لكن يقول هذه أسباب نتخذها للشفاء ، فيكون اتخذ سبباً ما ليس بسبب فوقع في وسائل مفضية للشرك ومفضية إلى التعلقات الباطلة والعقائد التي ما أنزل الله تبارك وتعالى بها من سلطان .

- القسم الثاني : من تكون عقيدته في السبب نفسه وتعلق قلبه في السبب نفسه اعتقاداً فيه أنَّ الشفاء منه والنفع منه والدفع منه والرفع منه؛ يعتقد في السبب نفسه ، وهذا بلا ريب شركٌ أكبر ناقل من ملة الإسلام .
- والقسم الثالث فيما يتعلق بالأسباب : من لا يتعامل إلا مع الأسباب التي دل الشرع أو القدَر على نفعها وفائدتها؛ هذا أولاً ، وثانيا لا يعلق قلبه وتوكله إلا بالله سبحانه وتعالى ، وثالثاً يؤمن أن الأمور بقضاء الله وقدَره سبحانه ، لأن الإنسان قد يتخذ سبباً نافعاً ويكون معتقداً أن الشفاء من الله سبحانه وتعالى وقد يتخلَّف الشفاء لأن الأمور بقضاء الله وقدره سبحانه وتعالى .

وهذه ثلاثة ضوابط مهمة في هذا الباب يكون الإنسان بعنايته بها في أمر الأسباب على الجادة السوية والصراط المستقيم ، وأعيدها مرة ثانية لأهميتها :

١. الأول : لا يتخذ من الأسباب إلا ما دل الشرع أو القدر على نفعه وفائدته ؛ أما دلالة الشرع فتعلمون أن في القرآن آيات كثيرة وفي السنة أحاديث عديدة ثابتة عن النبي عليه الصلاة والسلام في ذِكر أمورٍ فيها شفاء ، مثل العسل ومثل الحبة السوداء وأشياء كثيرة جاءت في السنة ، وجمع ابن القيم هذه الأشياء جمعاً نافعاً ومفيداً في كتابه «الطب النبوي» وهو من ضمن كتابه «زاد المعاد» أفرد فيه فصلا مطولاً بعنوان الطب النبوي وأُفرد في كتاب مستقل .
٢. الأمر الثاني فيما يتعلق بالأسباب : أن تكون عقيدته وإيمانه بالله سبحانه وتعالى أنه هو الشافي وأن هذه مجرد أسباب أما الشفاء فالشافي هو الله ، وفي دعاء النبي عليه الصلاة والسلام في رقيته للمريض : ((اللهم رب الناس مذهب البأس اشف أنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك شفاء لا يغادر سقما)) .
٣. والأمر الثالث : الإيمان بالقضاء والقدر وأنه لا يكون إلا ما قدَّره الله سبحانه وتعالى وقضاه وكتبه لعبده ، فيؤمن بقضاء الله وقدره ولا يجعله كما يقع لبعض الناس اتخذ بعض الأدوية المباحة أو المشروعة أو المأذون بها ثم لم يستفد لا يجعله ينتقل كما هي حال بعض الناس إلى الخرافة والضلال والباطل والتعلقات التي ما أنزل الله تبارك وتعالى بها من سلطان .

قال رحمه الله تعالى : ((**من الشرك لُبْس الحلْقة والخيط ونحوهما**)) ؛ لبس الحلقة والخيط ونحوهما سواءً بوضعها في المعصم أو في العضد أو تعليقها في الرقبة أو شدها في الفخذ أو في الرِّجل أو في وسط الإنسان أو تعليقها في ثيابه، أو لا يلبسها يجعلها في جيبه أو في سيارته أو في ركن من أركان بيته أو نحو ذلك .

الحلْقة : كل مستدير سواءً على المعصم أو على الساعد أو على الرِّجل أو على الرقبة أو غير ذلك ، سواء كان من النحاس أو الحديد أو غير ذلك من المعادن .

والخيط : ما كان من صوف أو كتَّان أو غير ذلك .

ونحوهما : أي مثل الخرز والصدف والودع ،وكذلك تعليق الأشياء الأخرى ، مثل أن يعلق مسماراً أو أجلَّكم الله حذاءً في سيارته ، أو يعلق مثلا قماشاً لونه أسود في طرف سيارته ، وهذا كثير يقع ويُرى يعلِّق قماشاً أسود أو يعلق حذاءً أو نحو ذلك يزعم أنه يدفع العين أو يدفع البلاء أو يقي أو نحو ذلك ؛ هذا كله من التعلقات الباطلة التي ما أنزل الله تبارك وتعالى بها من سلطان .

قال : ((**بابٌ من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه**)) ؛ الرفع يكون بعد الوقوع ، والدفع قبل الوقوع ؛ اتخاذ هذه الأشياء تارة تُتخذ لرفع بلاء وقع مثل أن يكون الإنسان مرض أو أصيب بعين أو نحو ذلك فيلبس شيئاً من هذه

الأشياء لترفع عنه هذا البلاء الذي نزل به ، والدفع يكون من الإنسان المعافى الذي لم يُصَب بشيء أو لم يُصَب ولده بشيء لكن يعلِّق عليه هذه الأشياء من أجل أن تدفع عنه أو تدفع عن ولده أو تقيه .

فتعليق هذه الأشياء سواء للرفع أو الدفع كله من الشرك كما قال المصنف رحمه الله : ((من الشرك)) ؛ لكن هل هو من الشرك الأكبر أو الأصغر ؟ مر الإشارة إلى ما فيه الجواب على ذلك لكن أعيده مرة ثانية :

إن كان يتخذ هذه الأشياء يعتبرها سبباً لكنه يعتقد أن الشفاء من الله والعافية من الله لكنه هو يتخذها للعلاج باعتبارها سبباً من الأسباب مثل الذي يتخذ مثلاً الحبة السوداء أو مثلا العسل أو غير ذلك مع اعتقاده أن الشافي هو الله ؛ هو يتخذ هذه الأشياء وهذه التعاليق مع اعتقاده في الوقت نفسه أن الشافي هو الله ، فإذا كان بهذه الصفة في تعليقه لهذه الأشياء فشركه شرك أصغر ، والشرك الأصغر لا ينافي أصل التوحيد وإنما ينافي كماله الواجب ؛ بمعنى : أن من وقع في ذلك لا يكون خرج من الملة لكنه ارتكب أمراً عظيماً هو من كبائر الذنوب وعظائمها وهو أشد من الكبائر ، وسيأتي معنا أن السلف رحمهم الله من الصحابة ومن اتبعهم بإحسان يرون أن الشرك الأصغر أعظم من الكبائر مثل ما قال ابن مسعود وسيأتي لاحقا «لأن أحلف بالله كاذباً أحب إليَّ من أن أحلف بغيره صادقا»؛ الحلف بالله كاذباً كبيرة ، والحلف بغيره صادقا شرك ، والشرك أعظم .

- فإذاً تعليق هذه الأشياء إما أن يكون بهذه الطريقة يعلقها ظناً منه وزعماً أنها سبب للشفاء وأما الشفاء فهو من الله سبحانه وتعالى؛ فهذا واقعٌ في الشرك الأصغر .
- أما إذا كان يعتقد فيها أنها بذاتها نافعة ودافعة ورافعة ومعطية ومانعة ويعلقها من أجل ذلك فهذا شرك أكبر ناقل من ملة الإسلام .

أورد رحمه الله في الأدلة لِمَا ترجم له قول الله سبحانه : ﴿ **قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ** ﴾ أي الكافي هو الله ، والحسب : هو الكافي ﴿ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ﴾ أي يكفيني سبحانه وتعالى .

﴿ قُلْ ﴾ أي أيها النبي للمشركين الذين اتخذوا الأصنام وعبدوا الأوثان وتعلقت قلوبهم بغير الله سبحانه وتعالى قل لهم مبيناً بطلان ما هم عليه وفساد الأعمال التي يعملون قل لهم : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ أي أخبروني عن حال هذه الأشياء التي تدعونها من دون الله ﴿ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ ﴾ من مرض أو فقر أو بلاء أو مصيبة أو غير ذلك ﴿ هَلْ هُنَّ ﴾ أي تلك المعبودات ﴿ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ ﴾ ؟ هل تقدر وتستطيع أن تكشف ضراً قدَّره الله وكتبه؟ ﴿ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ ﴾ من صحة أو عافية أو غنى أو غير ذلك ﴿ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ﴾ ؟ المشركون لا يعتقدون في أصنامهم ذلك ، لا يعتقدون أنها تمنع ضراً أراد الله نزوله أو تمسك رحمة أراد الله نزولها ، لا يعتقدون في أصنامهم ذلك بل يعتقدون فيها أنها لا تملك ، لكنهم يلتجئون إليها ويدعونها ويستغيثون بها لتقربهم إلى الله ولتكون وسيطاً بينهم وبين الله لا أنها تملك ذلك كما ذكر الله عنهم ذلك في قوله : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾[الزمر:٣] ، فهم لا يعتقدون أنها تملك ، ولهذا لو سئلوا –كما بيَّن أهل العلم– لقالوا: لا ما تملك شيئا من ذلك ، وإنما النافع الضار المعطي المانع القابض الباسط هو الله سبحانه وتعالى. فإذاً التعلق بها شركٌ وناقل من ملة الإسلام لأنها لا تملك شيئا من ذلك .

يستفاد من عموم هذه الآية بطلان التعلق بالخيط أو الحلقة أو الودَعة أو الخرزة أو غير ذلك بعموم هذه الآية ، ولئن كانت الآية جاءت في إبطال الشرك الأكبر فإنها صالحة لأن يُستدل بها على الشرك الأصغر ؛ وهذا جرى عليه السلف رحمهم الله من الصحابة ومن اتبعهم بإحسان ، يستدلون بآياتٍ نزلت في الشرك الأكبر يستدلون بها على الشرك الأصغر ، وسيأتي في تمام هذه الترجمة أثراً عن حذيفة استدل بآية تتعلق بالشرك الأكبر استدل بها على الشرك الأصغر ، وسيأتي أيضا لاحقاً استدلال ابن عباس بقوله تعالى ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا ﴾[البقرة:٢٢] وهي في الشرك الأكبر استدل بها على الشرك الأصغر .
فإذاً الآية بعمومها تدل على بطلان تلك التعلقات من لبس حلقة أو خيط أو نحوهما لرفع البلاء أو دفعه .

عن عمران بن حصين رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم : رأى رجلاً في يده حلْقة من صُفْر فقال : ((**ما هذه؟**)) **قال** : **من الواهنة ، فقال** : ((**انزعها فإنها لا تزيدك إلا وهنًا ، فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبدا**)) **رواه أحمد بسند لا بأس به** .

****

ثم أورد الإمام المجدِّد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى وأسكنه فردوسه الأعلى حديث عمران ابن حصين رضي الله عنهما ((**أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى رجلا في يده حلْقةٌ من صُفْر**)) أي: نوع من المعادن قيل هو النحاس ، ويقال له صفْر : لما فيه من شبَهٍ مقارب نوعاً في الذهب من حيث صفار اللون ، فعلَّق حلقة من صفر أي علق في عضده حلْقة من صفْر .
((**فقال : ما هذه ؟ قال : من الواهنة**)) والواهنة : مرضٌ يأخذ بالعضد ويؤلم الإنسان ، فكانوا يزعمون ويظنون أنَّ هذه الحلْقة إذا عُلِّقت تخفف الألم وتزيل الألم ، يرون أنها سبب لتخفيف الألم وإزالته ولهذا يعلقونها . ((من الواهنة)) أي هذا الألم الذي يصيب الرجل في عضده فيكون مؤلماً لليد كلها؛ فيعلقون تلك الحلقة من أجل ذلك ، من أجل أن تخفف الألم ويقولون نافعة جداً في إزالة الألم وتخفيفه .
وهذا النوع من الشرك الذي كان موجوداً وأنكره النبي عليه الصلاة والسلام كما يأتي تفصيل إنكاره في هذا الحديث وغيره أُعيدَ من جديد في زماننا هذا وجُعل بقالب طبي حديث وأصبحت بعض الصيدليات تبيعه ؛ أساور نحاسية أو من بعض المعادن ويقولون نافعة جداً في الآلام لاسيما الروماتيزم وغيره وهي تزيل هذه آلام ، فتلك الأشياء والتعاليق التي وُجدت الآن أخذت مأخذ الطب وربما يتبنَّاها بعض الأطباء أو بعض الصيادلة أو نحو ذلك هي حقيقة إعادة لهذا الأمر الذي أنكره النبي عليه الصلاة والسلام . وهذه الأساور النحاسية التي تباع الآن سُئل عنها الشيخ ابن باز رحمه الله وكذلك سئل عنها الشيخ ابن عثيمين رحمه الله تعالى فأفتوا كلاهما بأنها من هذا الباب «باب من الشرك لبس الحلقة والخيط لرفع البلاء ودفعه» . وعرفنا سابقاً ما يتعلق بالأسباب وأنَّ الأسباب التي تُتخذ هي الأسباب التي دل الشرع – أي الوحي – على نفعها ، أو دل القدَر على نفعها من حيث أن تكون أدوية تجرب في الشرب أو الادِّهان أو نحو ذلك ، أما مجرد أن تعلق تعليقاً فهذا اتخاذٌ لسبب ما ليس بسبب ، ويورث في صاحبه تعلقًا قلبيا لهذه الأشياء ربما يفضي به في وقتٍ ما إلى الشرك الأكبر عياذًا بالله تبارك وتعالى من ذلك .
جاء في بعض روايات الحديث عند الحاكم وغيره أن الرجل الذي سأل النبي عليه الصلاة والسلام هو عمران بن حصين نفسه ، قال : ((دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفِي عَضُدِي حَلْقَةُ صُفْرٍ)) ، والرواة من الصحابة يأتي في أحاديث كثيرة تارة

يُبهِم نفسه وفي بعض الروايات يصرّح ، وهذا يأتي في أحاديث كثيرة جداً ، فالرجل الذي رأى في يده هذه الحلقة هو عمران بن حصين رضي الله عنه ، قال : ((رأى النبي صلى الله عليه وسلم في يدي حلقة من صفر قال ((ما هذه ؟)) .

ما المراد بقوله ((ما هذه؟)) هل هو سؤال استفصال ؟ يعني هل يسأله عن السبب لماذا أنت لبستها ما سبب لبسها ما غرضك من لبسها ؟ هل هو سؤال للاستفصال أو أنه استفهام إنكار ؟ يحتمل هذا وهذا ؛ والثاني هو الأقرب ؛ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ((ما هذا)) ينكر عليه ، قال ((ما هذا)) إنكاراً .

فقال ((من الواهنة)) ظن أنه يستفصل ، النبي صلى الله عليه وسلم قال ((ما هذا)) منكراً لكنه ظن أنه يستفصل فقال ((من الواهنة)) يعني لبسته من الواهنة أي من أجل الواهنة . الواهنة : تصيب مثل ما سبق العضد وتؤلم فقال ((من الواهنة)) أي لهذا السبب ، لأنها بزعمهم تخفف الألم أو تزيل الألم . قال: ((من الواهنة)) وكانت متعارف عليها ومتداولة ومشهورة فشدَّها في عضده بناء على ذلك .

فقال عليه الصلاة والسلام : ((**انزعها**)) والنزع : هو الأخذ بشدة ؛ وهذا فيه الحث للمبادة والنزع السريع وبقوة ألقها عن نفسك ، والرواية في المسند ((انبذها)) ففيه معنى النزع وزيادة ، انبذها : أي ألقِها عنك بعيداً لا خير فيها ولا نفع ولا فائدة ، قال ((انبذها)) أي ألقها بعيدًا عنك .

((**فإنها لا تزيدك إلا وهنًا**)) قلنا قبل قليل إن هذه التعاليق ليس بيدها شيء ، لا نفع ولا دفع ولا عطاء ولا منع لا تملك شيء من ذلك وليس فيها شيء من النفع أو الفائدة ؛ إذاً ما معنى قوله ((لا تزيدك إلا وهنا))؟ وهي أصلاً في نفسها لا تعطي ولا تمنع ولا تدفع ولا ترفع! هذه عقوبة من الله سبحانه وتعالى يعاقِب بها من يتعلق بهذه الأشياء ، علقها من أن أجل أن تزيل الوهن والألم الذي أصابه فعوقب بنقيض قصده ، مثل ما سيأتي معنا ((من تعلق تميمة فلا أتم له ، من تعلق ودعة فلا ودع الله له)) يعاقب بنقيض قصده عقوبة من الله ((لا تزيدك إلا وهنا)) ؛ لاحظ هنا من يعلقون هذه الأشياء لم يحصِّلوا عافية بل لم تزدهم إلا وهنا ، وفي الوقت نفسه لم يسْلَم لهم توحيدهم ، فجمعوا لأنفسهم بين مصيبتين : مصيبة عدم سلامة التوحيد ، وأيضاً مصيبة عدم الانتفاع بهذه الأشياء بل لا تزيد صاحبها إلا وهناً أي مرضاً وعلةً وشراً وبلاءً .

يقول النبي صلى الله عليه وسلم لعمران – صحابي رضي الله عنه!!– يقول ((**فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبدا**)) ولم يستفصل منه النبي عليه الصلاة والسلام هل عنده علم أو لم يكن عنده علم ؟ هل بلغ دليل أو لم يبلغه دليل ؟ لم يستفصل منه قال ((لو مت ما أفلحت أبدا)) ، والغالب أنه فعلها عن جهل لأنه الحري به وبغيره من السلف الأولين أنهم وقَّافون عند الأدلة فالحري به أنه ما بلغه ومع ذلك قال ((لو مت ما أفلحت أبدا)) ؛ وهذا أخذ منه الإمام رحمه الله تعالى في المسألة الثانية أنه لم يُعذَر بالجهالة ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال له ما أفلحت أبدا لو مت وهي عليك ، فهذا يدل على خطورة هذه الأشياء ، ويكفي في خطورتها قول نبينا عليه الصلاة والسلام ((ما أفلحت أبداً)) ، والفلاح : هي أجمع كلمة في حيازة الخير فإذا نُفيت عن الإنسان وقيل له ما أفلحت أبداً أي لا في دنياك ولا في أخراك هذا لاشك يدل على خطورة هذه الأشياء وخطورة هذه التعاليق وجنايتها على الإنسان في عقيدته وتوحيده وصِلته بربه سبحانه وتعالى .

قال رحمه الله : ((**رواه أحمد**)) أي في مسنده ((**بسند لا بأس به**)) ؛ والأمر كما قال رحمه الله إسناد الحديث لا بأس به وهو محتَجٌ به ، وإن كان أُعِلَّ في رواية الإمام أحمد له في المسند بلين مبارك بن فضالة ، وأيضاً عنعنة الحسن وهو البصري ، لكن كما قال الشيخ سليمان في كتابه تيسير العزيز الحميد أنَّ رواية الإمام أحمد ظاهرة في سماع الحسن من عمران رضي الله عنه ، وأما

إعلاله بلين مبارك بن فضالة فإنه لم يتفرد به ؛ تُوبع عليه وقد تابعه عليه أبو عامر الخزاز ، وهذا أيضا بيَّنه الشيخ سليمان ابن عبد الله في تيسير العزيز الحميد ـ فالحديث صحيحٌ ثابت .

وله عن عقبة بن عامر مرفوعا : «من تعلق تميمة فلا أتم الله له ، ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له» .

وفي رواية : «من تعلق تميمة فقد أشرك» .

****

قال رحمه الله : ((**وله**)) أي للإمام أحمد في مسنده ((**عن عقبة بن عامر رضي الله عنه مرفوعاً**)) أي إلى النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال : ((**من تعلق تميمة فلا أتم الله له ، ومن تعلق ودْعة** – بسكون الدال ، وأيضاً بفتحها ودَعةً– **فلا ودع الله له**)) .

قوله ((**من تعلق تميمة**)) التميمة : خرز كان يعلَّق في الجاهلية يزعمون أنه يدفع العين ويقي منها ، يعلقونه على مثل الدواب والأطفال والصغار ونحو ذلك بزعم منهم أنه يدفع العين ويردُّها ويقي منها . ويسمونها تميمة يستلمحون من هذا الاسم حصول التمام أن يتم الأمر ؛ تتم السلامة وتتم العافية وأنه يحصل لهم التمام بتعليقها على أنفسهم أو تعليقها على أطفالهم ودوابهم ، فسموها تميمة استلماحًا أو استرواحاً للتمام بتعليقها ؛ فعوملوا بنقيض المقصود .

قال ((**فلا أتم الله له**)) هو يعلقها للتمام ودعا عليه النبي صلى الله عليه وسلم أن لا يتم الله له؛ أي : لا يتم له أمره . فباء بأمرين من يعلقها ، حتى يومنا هذا من يعلقها يبوء بأمرين :

الأول : أنه أشرك بتعليقها .

والثاني : أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا عليه ؛ ودعوة النبي صلى الله عليه وسلم صائبة كل من تعلق هذه الأشياء ، لأن هذه دعوة عامة ؛ قال ((من تعلق)) ليس فقط في زمانه بل في كل زمان .

((**من تعلق تميمة فلا أتم الله له**)) ، «فلا أتم الله له» هذه دعوة من النبي صلى الله عليه وسلم على من يعلق هذه الأشياء أن لا يتم الله له . سبحان الله !! من يعلق هذه الأشياء وما شاكلها مثل الآن بعض الناس يضع عين في سيارته يعتقد أنها تدفع العين ، أو بعضهم يضع عيناً مرسومةً في يد ، يد مرسوم في داخلها عين وتكون اليد مثبتة على قاعدة في السيارة تتحرك كأنها تقول يا عين لا تأتيني ، طول ما السيارة تمشي وهذه تشير ؛ كل هذه خرافات وجاهليات ما أنزل الله سبحانه وتعالى بها من سلطان ، كلها ضلال ، ويقع فيها من يسمَّون مثقفين ومن أيضا عوام وجهال يقعون في ذلك ، وإذا ذهب العلم الشرعي من الإنسان والفهم لكلام الله وكلام رسوله عليه الصلاة والسلام يقع ولابد في هذه الأباطيل سواءً كان مثقفاً أو كان عامياً من العوام ، كلما ابتعد الإنسان عن الوحي وعن كلام الله وكلام رسوله عليه الصلاة والسلام دخل في هذه التعلقات ، لأن الإنسان يصاب بأمراض يصاب بأسقام يصاب ببلايا في هذه الحياة الدنيا فإذا لم يكن عنده علم شرعي يعرف به الأسباب ويفرِّق به بين الأمور إذا قيل له اذهب إلى كذا أو افعل كذا أو علِّق كذا علَّق ولم يبالي ؛ فيقع في خرافة أو يقع في شرك أو يقع في تعلقات باطلة ما أنزل الله تبارك وتعالى بها من سلطان .

قال : ((**من تعلق تميمة فلا أتم الله له ، ومن تعلق ودْعة**)) أي صدفة ، والصدف معروف يؤخذ من شواطئ البحر ، ويعلقونه من أجل أيضا الدَّعَة التي هي الراحة والطمأنينة والسكون وتخفيف الآلام ونحو ذلك. «ودعة» من الدعة وهي الراحة ، وأيضاً يعلقون هذه الأشياء ويظنون أنها تجلب دعة أو راحةً أو سكوناً أو نحو ذلك

فقال : ((**فلا ودع الله له**)) وهذا نظير ما سبق دعاء عليه بأن يحصِّل نقيض ما قصد بتلك التعلقات الباطلة . ((فلا ودع الله له)) : أي لا أبقى الله له راحة ولا سكونا ولا طمأنينة ؛ دعوة من النبي صلى الله عليه وسلم على من يعلق تلك التعاليق .

وهذا الحديث أيضاً ثابت وإن كان أُعِلَّ بخالد بن عبيد المعافري لم يوثِّقه إلا ابن حبان لكنه لم يتفرد به ، تابعه عبدالله بن لهيعة كما في كتاب الفتوح لابن عبد الحكم ، فالحديث حديثٌ ثابت وأيضاً له شواهد تدل على ثبوته عن النبي صلوات الله وسلامه عليه .

قال وفي رواية : «**من تعلق تميمة فقد أشرك**» ؛ وهذا حديث أيضاً عن عقبة بن عامر عن النبي صلى الله عليه وسلم رواه الإمام أحمد في المسند وروى معه قصة وهي : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَقْبَلَ إِلَيْهِ رَهْطٌ فَبَايَعَ تِسْعَةً وَأَمْسَكَ عَنْ وَاحِدٍ ، فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ بَايَعْتَ تِسْعَةً وَتَرَكْتَ هَذَا؟! قَالَ: ((إِنَّ عَلَيْهِ تَمِيمَةً)) أي لا أبايعه وهي في يده ، فَأَدْخَلَ يَدَهُ فَقَطَعَهَا ، فَبَايَعَهُ وَقَالَ : ((مَنْ عَلَّقَ تَمِيمَةً فَقَدْ أَشْرَكَ)) .

إذاً هذا أيضا فيه معنى واضح أنَّ هؤلاء الذين يعلقون هذه التعاليق حريُّون بهذا الموقف الذي حصل لهذا الرجل ؛ يمد يده فيمتنع النبي صلى الله عليه وسلم عن مد يده له ، لا يمد يده له لتعليقه هذه الأشياء ؛ فهؤلاء الذين يعلِّقون هذه الأشياء أيضاً رضوا لأنفسهم بمثل هذه الحال التي جعلت النبي صلى الله عليه وسلم لا يمد يده لشخصٍ جاء يبايع النبي صلى الله عليه وسلم بقوله ((إِنَّ عَلَيْهِ تَمِيمَةً)) ؛ وهذا كله يدل على خطورتها العظيمة وضررها الفادح .

قال : ((**من تعلق تميمة فقد أشرك**)) وهذا فيه التصريح بما صرَّح به الإمام المجدد في الترجمة «بابٌ من الشرك» النبي صلى الله عليه وسلم قال ((فقد أشرك)) أي من يعلق تميمة وما شاكلها من حلْقة أو خيط أو غير ذلك من الأشياء التي تُعلَّق فقد أشرك .

قوله ((فقد أشرك)) الشرك الأكبر أو الأصغر ؟ الجواب في ضوء التفصيل السابق :

إن كان علقها معتقدا فيها أنها تشفي وتنفع وتدفع وترفع إلى آخره فهذا شرك أكبر ناقل من الملة .

وإن كان علقها وهو يعتقد أن الشافي هو الله ولكنه يعلقها سبب يتخذه للشفاء والعافية فهذا من الشرك الأصغر.

ولابن أبي حاتم عن حذيفة رضي الله عنه : أنه رأى رجلاً في يده خيط من الحمى ، فقطعه وتلا قوله : {وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ} [يوسف:١٠٦] .

****

((**ولابن أبي حاتم**)) أي في تفسيره رحمه الله تعالى .

((**عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه : أنه رأى رجلا في يده خيط من الحمَّى**)) أي علَّقه من أجل الحمى ، يعني أن يدفع أو يزيل أو يرفع عنه الحمَّى ، والحمى معروفة ، فرأى رجلا في يده خيط من الحمى أي من أجل رفع الحمَّى عن نفسه .

((**فقطعه** – رضي الله عنه وأرضاه – **وتلا قوله** : ﴿ **وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ** ﴾)) ؛ الآية في الشرك الأكبر ، والفعل الذي فعله الرجل من الشرك الأصغر ، لأن هذه يعلقونها ظناً أنها سبب للشفاء وأنها تشفي من الحمى ؛ فيعلقونها من أجل ذلك مع اعتقادهم أن الشافي هو الله لكنهم يتخذونها سبباً لذلك ، والآية في الشرك الأكبر لكن الصحابة رضي الله عنهم ومن اتبعهم بإحسان يستدلون بالآيات النازلة في الشرك الأكبر على الشرك الأصغر بجامع أنه كله شرك بالله سبحانه وتعالى ، لكن ذاك أكبر ناقل من الملة ، وهذا أصغر قادح في كمال التوحيد الواجب وليس قادحاً في أصله .

وقوله ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ ؛ «يؤمن بالله» : أي رباً خالقاً رازقاً منعِماً متصرفاً «إلا وهم مشركون» أي : به غيره بدعائه وصرف العبادة له . فإيمانهم المثبَت في قوله ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ﴾ هو إيمانٌ بربوبية الله وأنه الخالق الرازق المنعِم المتصرف سبحانه وتعالى ، وهذا يؤمن به المشركون ، يؤمنون بأن الله هو الرب الخالق الرزاق المنعِم يؤمنون بربوبيته ، ﴿إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ : أي يشركون غيره معه في العبادة ، مثل : تلبيتهم يقولون فيها –وتأمل معنى الآية في التلبية التي كانوا يلبون– يقولون : «لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ، تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ» أي أنَّ الملك بيدك ، والربوبية لك والتصرف لك والتدبير لك ، تملكه وما ملك ، لكنهم يجعلونه شريكا مع الله؛ هذا معنى قوله ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ ﴾ أي رباً خالقاً مالكاً متصرفاً ﴿إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ أي مشركون لغيره معه في العبادة . الآية نازلة في الشرك الأكبر وحذيفة رضي الله عنه استدل بها في هذا المقام على الشرك الأصغر !! لأن الشرك الأصغر وسيلة من الوسائل وذريعة من الذرائع المفضية لفاعله إلى الشرك الأكبر الناقل من ملة الإسلام .

قال رحمه الله تعالى :

فيه مسائل ؛ الأولى : التغليظ في لبس الحلْقة والخيط ونحوهما لمثل ذلك .

قال رحمه الله: «**فيه مسائل ؛ الأولى : التغليظ**» والتغليظ : أي التشديد في الإنكار وبيان خطورة هذا الأمر «**في لبس الحلقة والخيط ونحوهما لمثل ذلك**» أي رفع البلاء أو دفعه ، وهذا التغليظ واضح في قول النبي صلى الله عليه وسلم لعمران ((انزعها)) وفي المسند ((انبذها)) ، وقوله ((لا تزيدك إلا وهنا)) ، وأيضا قوله ((لو مت وهي عليك ما أفلحت أبدا)) في رواية ((وكلت إليها)) ؛ فهذا كله فيه التغليظ لبيان خطورة هذه التعلقات الباطلة .

الثانية : أن الصحابي لو مات وهو عليه ما أفلح ؛ فيه شاهد لكلام الصحابة أن الشرك الأصغر أكبر من الكبائر .

من أين أتى بهذا رحمه الله «أن الصحابي لو مات وهو عليه ما أفلح»؟ لأن القصة لعمران نفسه كما جاء مصرَّحاً به في بعض الروايات ، فالقصة لعمران نفسه في بعض الروايات أبهم نفسه وفي بعضها صرَّح بنفسه قال : ((لقيني النبي صلى الله عليه وسلم وفي عضدي حلقة)) ؛ فإذاً عمران صحابي والنبي صلى الله عليه وسلم قال له ((لو مت وهي عليك ما أفلحت)) !! إذا كان النبي عليه الصلاة والسلام قال هذه الكلمة لصحابي ((لو مت وهي عليك ما أفلحت أبدا)) فكيف الأمر بأناس يفعلون أشياء خاطئة ويعتذرون لأنفسهم بأنهم مثلا أبناء صالحين أو أنهم على صلة بمشايخ صالحين أو غير ذلك وأن هذه أشياء تنفعهم ؟! إذا كان النبي صلى الله عليه وسلم قال لصحابي ((لو مت وهي عليك ما أفلحت)) !! فإذاً الإنسان لا يغتر لا بمكانته ولا بقرابته

ولا بصِلاته ولا بغير ذلك ، لا يغتر بشيء من هذه الأشياء لأنه إذا وقع في الباطل لا يفلح ولا تنفعه تلك الأمور ، بل عليه أن يتقي الله سبحانه وتعالى وأن يحذر من كل باطل .

قال: «**أن الصحابي لو مات وهي عليه ما أفلح فيه شاهد لكلام الصحابة أن الشرك الأصغر أكبر من الكبائر**» لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال في هذا العمل ((ما أفلحت أبدا)) ؛ فهذا فيه شاهد -يقول رحمه الله- لكلام الصحابة أن الشرك الأصغر أكبر من الكبائر ، مثل قول عبد الله بن مسعود «لأن أحلف بالله كاذبا أحب إليَّ من أن أحلف بغيره صادقا» ، فكانوا يرون أن الشرك الأصغر أعظم من الكبائر ، وقول النبي عليه الصلاة والسلام ((ما أفلحت أبدا)) شاهد لذلك ودليل عليه .

الثالثة : أنه لم يُعذر بالجهالة .

من أين أخذ ذلك ؟ هل سأله عليه الصلاة والسلام قال له: هل بلغك الدليل في هذا الأمر أو لم يبلغك ؟ هل وقفت على المنع أو لم تقف؟ ما فصَّل معه وإنما مباشرة قال له ((لو مت على ذلك ما أفلحت أبدا)) ، فلم يفصل النبي عليه الصلاة والسلام معه ففي ذلكم دلالة أنه لم يُعذر بالجهالة ، والغالب أن هذا الأمر عن جهل ، لأن الحري بحصين أنه لو كان وقف على دليل للمنع قبل ذلك لم يلبس ، هذا هو الحري به ومع ذلك قال له النبي عليه الصلاة والسلام ((لو مت وهي عليك ما أفلحت أبدا)) .

الرابعة : أنها لا تنفع في العاجلة بل تضر ، لقوله : ((لا تزيدك إلا وهنا)) .

الرابعة : أنها لا تنفع في العاجلة يعني في الدنيا ، هو استعملها لتنفعه في الدنيا تخفيفًا للآلام أو نحو ذلك ؛ يقول أنها لا تنفع في العاجلة بل تضر ؛ يعني في الدنيا تضر لأن النبي عليه الصلاة والسلام قال: ((لا تزيدك إلا وهنا)).

الخامسة : الإنكار بالتغليظ على من فعل مثل ذلك .

لأن النبي عليه الصلاة والسلام قال لعمران : ((انزعها فإنها لا تزيدك إلا وهنا ، فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبدا)) ، والأولى قال : «التغليظ في لبس الحلقة والخيط ونحوهما لمثل ذلك» أي : لبيان أنه من الشرك بالله سبحانه وتعالى مثل ما قرَّر وصرَّح ووضح رحمه الله تعالى في عنوان الترجمة أو الباب .

السادسة : التصريح بأن من تعلق شيئاً وكل إليه .

وهذا مستفاد من الأحاديث التي ساقها رحمه الله تعالى مثل : تعليق الواهنة وأنها لا تزيد إلا وهنا ، وأنَّ من تعلق تميمة فلا أتم الله له ، ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له ، وسيأتي مصرحاً به في حديثٍ يُرفع إلى النبي صلى الله عليه وسلم في الترجمة القادمة ((من تعلق شيئا وكل إليه)) . وأيضا في بعض روايات الحديث كما أشرت روايات حديث عمران بن حصين قال: ((فإنك لو مت وهي عليك وكلت إليها)) أو قريباً من هذا المعنى جاء في بعض روايات حديث عمران بن حصين .

السابعة : التصريح بأن من تعلق تميمة فقد أشرك .

في حديث عقبة مر معنا قال النبي عليه الصلاة والسلام : ((من تعلق تميمة فقد أشرك)) .

الثامنة : أن تعليق الخيط من الحمى من ذلك .

«أن تعليق الخيط من الحمى» أي من أجل الحمى «من ذلك» أي من الشرك ، كما هو واضح في استدلال حذيفة عندما قطع الخيط الذي علقه رجل من الحمى تلا في ذلك قول الله تعالى : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ .

التاسعة : تلاوة حذيفة الآية دليل على أن الصحابة يستدلون بالآيات التي في الشرك الأكبر على الأصغر ، كما ذكر ابن عباس رضي الله عنهما في آية البقرة .

أي قول الله تعالى : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ ، وهذه الآية ستأتي لاحقا عند المصنف واستدلال ابن عباس بها على الشرك الأصغر ؛كالحلف بغير الله ،وقول وحياتي، وقول لولا البط لجاءنا اللصوص ، ونحو ذلك ، فابن عباس رضي الله عنهما استدل بالآية التي هي في الشرك الأكبر على الشرك الأصغر .

العجب أن بعض الناس إذا استُدل عليه بآيات في الشرك الأكبر على أعمال هو يمارسها هي من الشرك الأكبر يقول الآيات في المشركين ، والصحابة رضي الله عنهم استدلوا بآيات في الشرك الأكبر على الشرك الأصغر! وثمة أناس إذا استُدل عليهم بآيات في الشرك الأكبر لأعمالٍ يفعلها هو هي من الشرك الأكبر قال : الآيات في المشركين !! والله يقول في القرآن: ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴾ [القمر:٤٣] .

العاشرة : أن تعليق الودع من العين من ذلك .

العاشرة : أن تعليق الودع من العين من ذلك : أي من الشرك ، الذي يعلق الودع وهو الصدف من العين من ذلك ، وكما أيضا مر معنا كل التعاليق التي تعلق والخيوط وما يسمى بالحروز أو غيرها سواءً يضعها في نفسه أو في ولده أو في دابته أو سيارته أو في بيته أو نحو ذلك كله من ذلك : أي من الشرك .

الحادية عشرة: الدعاء على من تعلق تميمة أن الله لا يتم له، ومن تعلَّق ودعة فلا ودع الله له: أي ترك الله له.

«الحادية عشرة : الدعاء على من تعلق تميمة أن الله لا يتم له» والذي دعا عليه بذلك من هو ؟ النبي عليه الصلاة والسلام ؛ وهذا أيضاً معاملةً له بنقيض قصده . ((ومن تعلق ودعة)) أي طلباً للدعة والراحة والسكون ((فلا ودع الله له)) أي : لا ترك الله له ، أي : لا أبقى الله له راحة أو عافية أو سكوناً . وهذه دعوة من النبي عليه الصلاة والسلام على من تعلق تلك التعاليق .

سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك .

اللهم صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

الدرس العاشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله؛ صلى الله وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد :

يقول الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتابه التوحيد الذي هو حق الله على العبيد :

بابٌ ما جاء في الرقي والتمائم

في الصحيح عن أبي بشير الأنصاري رضي الله عنه : أنه كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره فأرسل رسولًا «أن لا يبقين في رقبة بعير قلادةٌ من وتر ، أو قلادةٌ ، إلا قطعت » .

****

هذه الترجمة ((**بابٌ ما جاء في الرقي والتمائم**)) عقدها رحمه الله تعالى لبيان حكم الرقى وحكم التمائم ، وفي هذه الترجمة لم يقل رحمه الله تعالى كما مر معنا في الترجمة السابقة ((من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما)) فلم يقل هنا "من الشرك الرقى والتمائم" ، وإنما قال : ((باب ما جاء في الرقى والتمائم)) ؛ فلماذا لم يقل من الشرك الرقى والتمائم كما قال سابقاً من الشرك لبس الحلقة والخيط ؟

ملاحظة هذا يتبين به دقة الشيخ رحمه الله تعالى التامة في تصنيفه وعباراته وتبويبه ؛ لأن الرقى وهي جمع رقية، وهي عزائم والنفث بقراءة ودعاءٍ فيُنفَث به على المريض أو من به مرض فيها تفصيل من حيث حكمها ، فليست كلها شرك وليست كلها محرمة ولهذا قال : ((ما جاء في الرقى)) أي من أدلة تبين حكمها تفصيلاً .

والرقى منها ما هو باطل محرم ، ومنها ما هو جائز مشروع ، يُعرف ذلك من قول نبينا عليه الصلاة والسلام لما سألوه عن الرقى قال : ((اعْرِضُوا عَلَيَّ رُقَاكُمْ لَا بَأْسَ بِالرُّقَى مَا لَمْ تَكُنْ شِرْكًا)) ؛ ففصَّل عليه الصلاة والسلام في أمرها ، وأصبح حكمها بحسب ما يقوله الراقي ويتكلم به :

- فإن كان ما يقوله أو يتكلم به أو يتلفظ به من كلماتٍ أو دعواتٍ قائمة على الشرك بالله والتعلق بغيره ودعاء المخلوقين والاستغاثة بهم فهي محرمة وباطلة وهي من الشرك بالله سبحانه وتعالى .
- وإذا كانت بكلامٍ لا يفهم وعبارات لا يُدرى ما هي فإنَّ هذا محرم ممنوع .
- وأما إذا كان بالقرآن أو أسماء الله سبحانه وتعالى أو الدعوات المأثورة عن النبي عليه الصلاة والسلام فهذا جائز مشروع وجاءت الدلائل الكثيرة الدالة عليه ، بل إن النبي عليه الصلاة والسلام رقى ، وقال : ((مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَنْفَعَ أَخَاهُ فَلْيَفْعَلْ)) ، ورُقي رقاه جبريل عليه السلام ، وإذا جيء له بالمريض رقاه صلى الله عليه وسلم ، وحُفظ عنه دعوات عظيمة نافعة في هذا الباب .

فالرقية التي بالقرآن والدعوات المأثورة عن الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام وبأسماء الله جل وعلا الحسنى وصفاته العليا سبحانه وتعالى جائزة مشروعة دلَّ على مشروعيتها الدلائل الكثيرة . أما الرقية القائمة على الشرك وعلى الباطل وعلى الخرافة وعلى الطلاسم وعلى التمتمة بكلمات لا تُفهم وعباراتٍ لا يُدرى ما هي هذا كله لا يجوز وكله حرام ؛ وهو ما بين شرك أو

بدعة وضلالة ويجب أن يُطَّرح وأن يُبتعد عنه ، وإنما تكون الرقية بالقرآن أو بالدعاء المشروع عن النبي عليه الصلاة والسلام المأثور عنه صلى الله عليه وسلم أو بأسماء الله وصفاته ، وكذلك إذا جاء الداعي مستشفياً طالباً من الله قائلا : رب اشفني وعافني وخلِّصني من هذا المرض أو عباراتٍ نحو ذلك فيها دعاء والتجاء إلى الله سبحانه وتعالى ولا تشتمل على مخالفة لما جاء من ضوابط للدعاء في هدي نبينا الكريم صلوات الله وسلامه عليه فهذا مباحٌ جائز ، وأما ما سوى ذلك فإنه محرم وهو ما بين شرك وبدعة وضلالة .

والتمائم: وهي جمع تميمة وهو ما يعلَّق على المريض أو على الدابة أو في البيت أو غير ذلك للوقاية من العين أو الشفاء من المرض أو نحو ذلك ؛ فأيضاً قال رحمه الله في هذه الترجمة ((**والتمائم**)) أي : وما جاء في التمائم .

لأن التمائم على نوعين :

- نوعٌ بلا ريب داخل في الباب السابق ؛ وقد مر معنا في الباب السابق أحاديث فيها التنصيص على هذه التعلقات والتنصيص على التميمة بعيْنها قال : ((من تعلق تميمة فقد أشرك)) ؛ فنوعٌ من التمائم هو داخل في الباب السابق من الشرك؛ وهو : تعليق الخرز أو الصدف والودع وتعليق أنواع الحروز التي تعلق أو الحجُب من جلدٍ أو من قماشٍ أو أيضاً من شعر حيوانٍ أو جلد دابةٍ أو غير ذلك مما يَظنُّ من يعلقها أنها تنفع أو تدفع أو ترفع أو نحو ذلك ؛ فهذه كلها بلا ريب داخلة في الباب السابق الذي هو من الشرك . وهل هو أكبر أو أصغر؟ مرَّ بيان ذلك: إن كان يعلقها باعتبارها سبب للشفاء ويعتقد أن الشافي هو الله فهي من الشرك الأصغر ، أما إذا كان يعلقها معتقدًا فيها أنها تنفع بذاتها وتدفع بذاتها ويتعلق قلبه بها طلباً للشفاء من جهتها فهذا من الشرك الأكبر .
- النوع الثاني من التمائم ولأجله رحمه الله تعالى قال ((وما جاء في التمائم)) ألا وهو : تعليق التمائم التي كُتب فيها آيات من القرآن أو أسماء حسنى لله تبارك وتعالى ؛ فهذه التمائم التي هي من القرآن أو فيها أسماء لله ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ ﴾[الحشر:٢٣] ، فهذه التمائم التيس تعلَّق ما حكمها ؟ لأجلها قال : ((وما جاء في التمائم)) أي من تفصيل . فنوعٌ منها هو من الشرك الأكبر أو الأصغر على التفصيل الذي مر ، ونوع منها وهو التميمة التي من القرآن فهذه فيها خلاف بين أهل العلم ، وقد حكاه رحمه الله فيما سيأتي من تفاصيل في هذا الباب ؛ فبعض السلف أجاز تعليق التميمة من القرآن ، وبعضهم منع ذلك ، والحق في المنع منها كما سيأتي إيضاح ذلك وبيانه عند سياقه رحمه الله تعالى للخلاف في ذلك .

فلأجل أنَّ من التمائم ما قد يكون من القرآن قال: ((**وما جاء في التمائم**)) أي من تفصيل ؛ فإذا كانت من الحروز وغير ذلك فهي شرك ، وإذا كانت من القرآن ففيها خلاف ؛ من السلف من أجازها ، ومنهم من منعها كما سيأتي تفصيل ذلك وبيانه عند المصنف رحمه الله تعالى .

أورد أولاً في هذه الترجمة حديث أبي بشير الأنصاري رضي الله عنه في الصحيحين : ((**أنه كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره**)) قال الحافظ ابن حجر رحمه الله : «ولم أقف على تعيين لهذه السفرة».

((**فأرسل رسولًا**)) أي بعث أحد أصحابه رضي الله عنهم وأرضاهم ، وجاء في بعض الروايات أنه حِبّ رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة .

((**أرسل رسولاً أن لا يَبْقَيَنَّ في رقبة بعير قلادةٌ من وتر أو قلادة**)) ألا يَبقَين في رقبة بعير : أي تُقطع القلادة التي على رقبة البعير – والبعير يطلق على الذكر والأنثى – ولا يُبقى منها شيء . وخُص البعير بالذكر لا لأن هذا الحكم خاص به وإنما حتى ما يُعلق على الخيل أو على الحمير أو البغال أو حتى الماشية أو حتى الإنسان فإنه يُقطع إذا كان عُلِّق للوقاية من العين أو لجلب نفع أو دفع ضر كما هي عقيدة أهل الجاهلية في هذه التعاليق الباطلة التي ما أنزل الله تبارك وتعالى بها من سلطان ، لكن خُصَّ البعير بالذكر لأن هو الغالب؛ تعليق الوتر في الغالب عليها.

والوتر معروف ، وأهل الجاهلية تنوعت استخداماتهم للوتر بحسب حاله من حيث القِدَم وعدمه؛ فإذا كان جديدًا متيناً قوياً فله استعمال ، وإذا كان قديماً بالياً فله استعمال آخر .

سبحان الله !! عندما تتأمل استعمالهم له في مراتب الوتر من حيث القِدَم وعدمه ترى الجاهلية المطبِقة التي خيَّمت على القوم والضلال العظيم الذي اكتنفهم!! الوتر : خيط معروف متين ، ففي حداثته وجِدَّته يكون أكثر متانة وقوة فيُستخدم في القِسِّ وفي النبل في الحروب ، ثم يأتي مرحلة ويستخدم في آلات اللهو والمعازف؛ يُشَد في آلة اللهو ثم يستخدم في اللهو والمعازف ، ثم تأتي مرحلة أخرى له عندما يبلى ويكون قديماً وانتهت استعمالاته في الحرب أو في المعازف وأصبح قديماً فيعلَّق على الدواب ليقيها من العين . سبحان الله هذه الجاهلية العجيبة !! مرةً يستعملونه في النبل والحرب ، ومرة يعزفون به ، ومرة يعلِّقونه على دوابهم ليقيهم من العين ويحميهم من الآفات !! جهل في غايته وذروته ، وإلا لو تأملوا هذا الخيط في مراحله عندهم ما الذي جعله في هذه المرحلة الأخيرة عندما بلي وصار قديماً واقياً من العين وهو خيطٌ لا ينفع ولا يدفع ولا يعطي ولا يمنع ؟! لولا أن القوم خيمت عليهم الجاهلية وطبَّق عليهم الضلال . فيعلقونها على الدواب لتقيهم من العين ، من الحسد ، من الأمراض ، إلى غير ذلك مما يعتقدونه في الوتر .

فإذًا قوله ((**لا يَبقَين في رقبة بعير قلادة من وتر أو قلادة**)) شك الراوي هل هي قلادة من وتر ؟ أو قلادة ؟ وسيأتي معنا في حديث رويفع : ((قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : فأخبر الناس أن عقد لحيته أو تقلد وتراً)) ؛ فذِكْر الوتر دون غيره من الخيوط لأن الغالب الأعم في تعلقاتهم بهذا الخيط ، إما وحده يعلقونه يعتقدون فيه أنه يقي من العين ، أو أيضاً يعلِّقون معه أشياء من خرز أو صدف أو ودع أو غير ذلك ، يعلقونها معه فتكون هي وإياه المانعة أو النافعة أو الواقية ، إلى غير ذلك من عقائدهم الباطلة في هذه الأشياء التي يعلقونها .

فيأتي السؤال : هل هذا الذي يقلَّد يُمنع كله بلا تفصيل ؟ أو أن الذي يُمنع القلادة من الوتر خاصةً ؟ أو ما كان للغرض نفسه الذي عُلقت من أجله القلادة من الوتر ؟

إذا تأملنا أحاديث عديدة فيها مشروعية تقليد البُدن ، وعائشة رضي الله عنها كما جاء في الصحيحين تقول : ((فَتَلْتُ قَلَائِدَ بُدْنِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِيَدَيَّ، ثُمَّ أَشْعَرَهَا وَقَلَّدَهَا، ثُمَّ بَعَثَ بِهَا إِلَى الْبَيْتِ)) ؛ فكانوا يقلِّدون البدن يضعون عليها قلائد تُفتل ثم تقلد البدن وتُرسل حتى تكون القلادة علامة أن هذا هدي سيق إلى بيت الله. هذا أمر مشروع وفعله النبي عليه الصلاة والسلام .

إذاً الذي يُمنع من القلائد ما كان من الوتر الذي يقلد لأجل الدفع من العين بزعم أولئك ، وهو في الوقت نفسه خطير على الدابة لأنه رفيع جداً ، يعني لو أن الدابة اشتبك هذا الوتر بشيء مرّت به لحزَّ عنقها ، بخلاف إذا كان من صوف أو غيره فهذا لا يؤثر . ولهذا بعض أهل العلم حمل المنع من تقليد القلادة من الوتر على ذلك ، لكن الصحيح أنها لِما كانوا يعتقدون في القلادة من الوتر من عقائد ويبنون عليها من تعلقات .

إذاً فالقلادة التي تُمنع هي ما كانت من الوتر من أجل العين ، أو من أي صنف آخر صوفاً أو كتَّانا أو غير ذلك إذا كان يُقصد بها الوقاية من العين ، ومر معنا سابقاً ((رأى في يدي خيط من الحمى)) ، فالخيط أيًّا كان نوعه إذا كان الغرض منه الوقاية من المرض أو الشفاء من المرض أو نحو ذلك فيُقطع وهو محرم وهو من الشرك بالله سبحانه وتعالى .

ثم قوله في الحديث ((**بعير**)) هذا حكم لا يختص كما عرفنا بالبعير ؛ سواءً عُلق على بعير أو على حمار أو على شاة أو على بقرة أو على طفل أو على سيارة أو غير ذلك الحكم واحد ، لكن خُصَّ البعير بالذكر لأن الغالب تعليق الوتر يكون عليه ويقصدون منه الدفع من العين .

وإلى اليوم هذا ومثل هذه التعاليق موجودة على الدواب ، وفي بعض البلدان التي يكثر فيها الجهل ولا يكون فيها نور العلم والتوحيد تكثر هذه التعلقات ، حتى إن بعض من رأوا ذلك في بعض الدواب يعلَّق على بعض الدواب مثل شاة أو حمار أو غيره يعلق عليها أكثر من تعليق – يعني تعاليق عديدة – يقول أحدهم سألت أحد هؤلاء المعلقين لماذا هذه التعاليق المتنوعة ؟ قال هذه فيها تفصيل ؛ هذه تقي من المرض ، وهذه تقي من العين ، وهذه تقي من الضياع وهذه تقي من .. كل واحدة لها اختصاص في نفعها للدابة ؛ ولهذا يعلق عليها عشرة عشرين كل واحدة لها اختصاص بزعمهم ، واحدة من العين ، واحدة من المرض ، واحدة من الضياع ، واحدة من الأسُود والمفترسات إلى غير ذلك ، نفس عمل الجاهلية بعينه لا يختلف عنه مصداقاً لقول النبي عليه الصلاة والسلام ((لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ)) . فإذاً لا يختص هذا بالبعير ، أيُّ تعليق .

أيضاً لا يختص بالرقبة سواء علقه في رقبته أو في يده أو في عضده أو في ساقه أو في أصبع من أصابعه ، أو أيضاً لم يعلقه تعليقاً وضعه في جيبه ، أو ثبَّته في عمامته ، بعضهم يثبت التميمة أو الحرز في عمامته يشدُّها مع العمامة؛ فهذا كله تعلق باطل وهو من الشرك بالله ومما يجب قطعه وإزالته . قال ((لا يبقين في رقبة بعير قلادة من وتر أو قلادة إلا قُطعت)) .

وعن ابن مسعود قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «إن الرقى والتمائم والتولة شرك» رواه أحمد وأبو داود .

****

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث ؛ حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال : **سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول** : ((**إن الرقى والتمائم والتولة شرك**)) هذه الأشياء الثلاثة كلها قال عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم إنها شرك .

و«أل» في ((الرقى)) أي الرقى المعهودة عند أهل الجاهلية التي فيها التعلق بغير الله ودعاء غير الله والاستغاثة بغير الله ومناداة الشياطين وكتابة أسمائهم إلى غير ذلك ، فهذه الرقى المعروفة المعهودة عند القوم هي شرك بالله سبحانه وتعالى ، والدليل على أنها

هي المرادة وهي المقصودة : قرْنُها مع التمائم والتولة ؛ لأن هذه كلها أشياء في الجاهلية وتعلقات موجودة عند أهل الجاهلية .
فالرقى : أي التي كان عليها أهل الجاهلية مما فيه تعلق بغير الله ودعاء لغير الله واستغاثة بغير الله هذه كلها شركٌ بالله .
قال : ((**إن الرقى والتمائم**)) أيضاً التمائم كلها شركٌ التي عُرفت عند أهل الجاهلية من حروز أو ودع أو صدف أو خرز أو وتر أو غير ذلك هذه كلها من الشرك بالله سبحانه وتعالى ، وقد مر معنا في حديث سابق في الترجمة الماضية ((من تعلق تميمة فقد أشرك)) حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه .
((**والتولة**)) والمؤلف رحمه الله تعالى شرح معناها قال : ((**هي شيء يصنعونه يزعمون أنه يحبب المرأة إلى زوجها ، والرجل إلى امرأته**)) ؛ وهذا نوع من السحر ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ [البقرة:١٠٢] . السحر منه ما هو صرف ومنه ما هو عطف .

- ❖ منه ما هو صرف : يعني يفرِّقون به بين المرء وزوجه هذا يسمى صرف .
- ❖ ومنه ما هو عطف : يعني يكون الزوجان بينهما تباغض فيعملون عملاً من السحر يزعمون أنه يحبِّب الزوجين بعضهما إلى بعض ويعطف كلاً منهما على الآخر .

والتولة : شيء يعلقونه يزعمون أنه يقرِّب أو يحبِّب المرأة من زوجها والرجل من زوجته ؛ وهذا نوع من السحر وهو شرك بالله سبحانه وتعالى .
فهذه الثلاث ((إن الرقى والتمائم والتولة شرك)) جمَعَها كلها عليه الصلاة والسلام في حديثٍ واحد وأخبر أنها من الشرك بالله عز وجل .

وعن عبد الله بن عكيم مرفوعا : «من تعلق شيئا وكل إليه» رواه أحمد والترمذي .
****

ثم أورد رحمه الله هذا الحديث حديث عبد الله بن عُكيم مرفوعاً ؛ عبد الله بن عكيم كما ذكر الإمام البخاري وغيره من أهل العلم لم يثبت له سماع ولُقِيّ للنبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه ، وكان موجوداً في زمان النبي عليه الصلاة والسلام لكنه لم يلقاه ولم يثبت أنه سمع من النبي عليه الصلاة والسلام ، وجاء عنه في بعض الروايات أنه قال : «كتب إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم» . والحديث في سنده محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال عنه الحافظ في التقريب «صدوق سيء الحفظ» ، لكن الحديث له شواهد يبلغ بها درجة الاحتجاج به ، فهو حديث ثابت محتج به لما له من شواهد .
قال: ((**من تعلق شيئاً وكل إليه**)) ؛ «تعلَّق» أبلغ في الدلالة من «علَّق» ، لأنها تدل على أيضا ارتباط القلب بهذا المتعلَّق وركونه إليه واعتقاده فيه ، قال: ((من تعلق شيئا وكل إليه)) ؛ «شيئا» نكرة جاءت في هذا السياق تتناول كل الأشياء التي تعلَّق لنفع أو دفع ، لوقاية من عين ، لشفاء من مرض ، لتخفيف ألم .
((من تعلق شيئا وكل إليه)) شيئاً : أي سواء كان المعلَّق خرز أو صدف أو مثلاً قطعة من النحاس أو شيء من الجلد أو غير ذلك من أنواع الأشياء التي تُعلق ((من تعلق شيئا وكل إليه)) .
تعلَّقه أيضاً على نفسه علقه على بدنه أو على دابة له أو على طفل من أطفاله أو في بيته ناحية من نواحي بيته أو غير ذلك وكل إليه ، وهذا يدخل فيه جميع الأشياء التي تعلق للوقاية من العين للسلامة من الحسن للشفاء من المرض ، جميع الأشياء سواء

علقها على بدنه أو علقها على ولده أو علقها على دابته أو علقها في بيته ، وأياً كانت؛ مثل بعض الناس مثلا يعلق في دابته خفاً أو حافراً أو مثلا قطعة من القماش أو نوع من الخرز أو الأحجار ، مثل بعض الأحجار يقولون أحجار كريمة نافعة يقولون جداً في الوقاية من العين تعلّق في السيارة أو في للبيت ، أو أنواع الأخشاب أو غيرها ، أو مثلا بعضهم يعلق في بيته جلداً لسبع من السباع وخاصة الذئب يقولون الذئب جلده نافع ، وكثير ما يقال في هذا المقام وهذا مجرَّب ، وأصبحت هذه الكلمة –كلمة مجرب وفلان جرب إلى آخره– هي التي ورطت كثير من العوام والجهال بهذه التعلقات الباطلة التي ما أنزل الله تعالى بها من سلطان .

فمن تعلق شيء وكل إليه أي : وكل إلى هذا الشيء الذي تعلقه ؛ فيا سبحان الله !! من وكل إلى قطعة من الجلد، أو وُكل إلى خرزة ، أو وكل إلى خيط أو وكل إلى حافر دابة ، أو غير ذلك من الأشياء التي يتعلقونها أو يعلقونها إلى ماذا يكون وُكل ؟ والله إنه إنما وكل إلى ضيعة ، هذه أشياء لا تنفع نفسها فضلاً عن أن تنفع متعلِّقها، لا تنفع نفسها كيف تنفع متعلقها أو تدفع أو تقي إلى غير ذلك ؟! فقوله عليه الصلاة والسلام ((من تعلق شيئا وكل إليه)) أي وكل إلى هذا الشيء الذي تعلقه.

وهذا الحديث وهو في جامع الترمذي له قصة مفيدة ، يعني رواية عبد الله بن عكيم له جاء في مناسبة مفيدة جداً وهي : أن عبد الله ابن عكيم اشتد به المرض ودخل عليه عيسى ابن عبد الرحمن بن أبي ليلى أخو محمد – محمد يروي عن أخيه عيسى – يقول عيسى: دخلت على عبد الله بن عكيم واشتد به المرض فقيل له : ألا تعلِّق شيئا؟ فقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ((من تعلق شيئا وكل إليه)) . فانظر رعاك الله كيف أنَّ السنة ومعرفة أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام عاصمة للعبد من هذه القواصم والطوام والبلايا ، وأن نشر هذه الأحاديث بين الناس وتعليمهم إياها تقيهم من هذه الضلالات ، فهو لما قيل له "ألا تعلق شيئا؟" قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ((من تعلق شيئا وكل إليه)) .

إذاً من يوفقه الله لتعلُّم هذه الأحاديث وفهمها ((من تعلق شيئا وكل إليه)) ، ((من تعلق تميمة فقد أشرك)) ، ((إن التمائم والتولة شرك)) ، ((من تعلق تميمة فلا أتم الله)) ؛ من يقف على هذه الأحاديث ويتعلمها إذا جاءه أحد دعاة الضلال أو أهل الجهل وقيل له علق ، حتى لو اشتد به المرض – عبد الله بن عكيم اشتد به المرض قيل ألا تعلق –كثيرا ما تأتي هذه التعاليق عند اشتداد المرض ، بعض الناس يبلغ به المرض مبلغاً عظيماً ويشتد به إما من عين أو سحر أو بعض الأمراض البدنية فيعاني منها معاناة شديدة؛ فيأتيه بعض الجهال ويقولون "يا فلان علق كذا ، فلان وفلان ويعدِّدون له أسماء ويحكون له قصص وحكايات علقوا واستفادوا علِّق ، لماذا تصبر على المرض وتكابد المرض؟ علِّق " ويحكون له حكايات ، فإذا كان هذا الذي يقال له هذا الكلام يجهل ما جاء في هذا الباب فتنوه في دينه وورطوه في هذه التعاليق . لكن من كان يعرف هذه الأحاديث ويعلم بهذه الأحاديث فإنها بإذن الله تعصمه من تلك القواصم وتقيه من تلك الطوام .

وهذا الذي جعل هؤلاء الأئمة المصلحين من أمثال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى يعملون على نشر هذه الأحاديث وإشاعتها بين الناس نصحاً للعباد؛ حتى يذهب هذا الباطل وينحسر هذا الضلال ولا يبقى له وجود ، مثل ما مر في الحديث الذي مر معنا قال : ((لا يبقين)) ، مراد الشيخ رحمه الله بنشر هذه الأحاديث حتى لا يبقين بين الناس مثل هذه التعاليق الباطلة التي ما أنزل الله تبارك وتعالى بها من سلطان .

التمائم : شيء يعلق على الأولاد عن العين ، لكن إذا كان المعلَّق من القرآن فرخص فيه بعض السلف ، وبعضهم لم يرخص فيه ويجعله من المنهي عنه ، منهم ابن مسعود رضي الله عنه .

****

قال رحمه الله : ((**التمائم : شيء يعلَّق على الأولاد**)) قوله «على الأولاد» ليس على وجه الحصر وإنما غالباً يكثر تعليق هذه التمائم على الأولاد يتقون به العين . بعض الذين يعلقون على الأولاد قد يعلقون عليهم التمائم الشركية الواضح أمرها أنها شرك من خرزة أو ودع أو شيء من ذلك ، لكن بعضهم يعلِّق على ولده تميمة من القرآن ، يعني آيات يكتبها آية الكرسي أو قل هو الله أحد أو المعوذتين أو فاتحة الكتاب ويضعها في جلد أو نحوه ويعلقها على ولده لتقيه مثلا من العين ؛ فيقول رحمه الله : ((**التمائم شيء يعلق على الأولاد يتقون به عن العين، ولكن إذا كان المعلق من القرآن فرخص فيه بعض السلف**)) ممن قيل أنه رخص فيه عبد الله بن عمرو بن العاص ، وجاء في الأثر عنه أن من كان من ولده يتمكن من الحفظ حفَّظه الأدعية والتعاويذ ، ومن لم يكن كذلك كتبها في لوح وعلَّقها ، وكتابته لها في لوح وتعليقها يحتمل -وهو الأقرب والله أعلم- أنه علَّقها عليه حتى تبقى عنده يحفظها ، أو من يراها معلقة عليه يكررها حتى يحفظها ، ولهذا ميز بين الذي يتمكن من الحفظ أو يتيسر له الحفظ وبين من لم يكن كذلك . فالأقرب أنه كان يعلقها لأجل هذا الغرض ، لا أنه يعلِّقها عليه كتميمة تقيه من العين .

قال: ((**وبعضهم لم يرخص فيه ويجعله من المنهي عنه ، منهم ابن مسعود رضي الله عنه**)) ؛ وقد تقدَّم معنا رواية ابن مسعود لحديث ((إن الرقى والتمائم والتولة شرك)) ، وجاء في بعض روايات هذا الحديث أنه رأى على بعض أقاربه شيئاً من ذلك خيطاً فقطعه وقرأ هذا الحديث ((إن الرقى والتمائم والتولة شرك)) .

لازلنا مع التميمة من القرآن، التميمة التي تعلق ويكون كُتب فيها آيات من القرآن ؛ الشيخ حكى خلافاً للسلف في ذلك، منهم من رخص ومنهم من منع ، لكن الأصح في ذلك قول من منع لأسباب عديدة ذكرها أهل العلم :

- الأول : عموم الأدلة ولا مخصِّص ؛ جاءت أدلة كثيرة عامة في منع التمائم ولم يأت شيء يخصص منها نوعاً ما ، فعموم الأدلة يدل على المنع لأنه ليس هناك مخصِّص ، لم يأت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تخصيصٌ لذلك العموم .
- الأمر الثاني : أن في تعليق التميمة من القرآن تعريضٌ لتلك الآيات للامتهان ، لأن هذا الطفل الذي يعلقها سيدخل فيها إلى دورة المياه أو غير ذلك فتعرَّض للامتهان .
- والأمر الثالث : سداً للذريعة ؛ وسد الذريعة في هذا الباب له أهميته ، لأن بعض الناس قد يعلق تميمة ويظن أنها من القرآن ، أو يقول له من علقها إنها من القرآن ، وقد لا يكون صادقاً ، وقد يكون مزج بالقرآن غيره من أسماء الشياطين أو أشياء من هذا القبيل . وأحد الدعاة في وقتنا هذا فك تميمة قال من علقها إنها من القرآن ولما نظر فيها وجد فعلاً آية الكرسي لكن كُتبت بطريقة منكسة وكُتب بين الآيات أسماء شياطين وتصاليب وأيضاً وُضع عليه من حيض النساء وقال له من أعطاه إياها فيها قرآن ، لكنه جعل القرآن ممتهناً بهذه الصفة ويعلِّقها من يعلقها ويظن أنها من القرآن الكريم . ولهذا سد الذريعة في هذا الباب يحسم مثل هذه الأمور ، قد يعلق الإنسان شيئا على صدره سنة وسنتين وثلاث وأربع ويقال له إنها من القرآن ويكون القائل يكذب ليس من القرآن . بل إن شخصاً ذُكر أنه مر على أناس في بادية من البوادي وقال إن عنده تمائم نافعة جداً من العقرب ومن كذا وقال كلها بأشياء مشروعة ، بعد سنوات من تعليق عدد منهم لها فكها بعض الناس فوجد فيها كلمات فيها

سخرية وتهكم بهؤلاء ، وهم معلقينها على صدورهم سنوات كلمات يسخر منهم ، من بينها يقول: أخذت نقودكم وكلمات سخرية ويعلقونها على صدورهم سنوات ؛ فسد الذريعة هذا مهم جداً ، فلا تعلق سدًا للذريعة.

- الأمر الرابع : أن النبي عليه الصلاة والسلام ثبت عنه رقية في أحاديث كثيرة جداً وهو ناصح لأمته ، فلو كان تعليق آيات من القرآن أمر يُشرع لبيَّنه في أحاديث صريحة ودل الناس عليه وطلب ممن يأتيه من المرضى وغيرهم أن يعلق شيء من ذلك ، لم يُنقل عنه شيء من ذلك صلوات الله وسلامه عليه .

فهذه الأشياء كلها تدل على أن الصحيح أن التميمة لا تُعلق حتى من القرآن . إذا قلنا التميمة لا تُعلق حتى من القرآن لا يعني ذلك فقط تعليقها على الصدر، من يضع آيات من القرآن يعلقها مثلاً في سيارته ، أو يعلق آيات من القرآن في طرف من بيته ، أو يكتب آيات من القرآن على جدار بيته ؛ هذا كله من الأشياء التي يشملها المنع، فالقرآن إنما أنزل ليُعمل به ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص:٢٩] .

بعضهم يقول نزين يضع آيات في المجلس يقول : زينة !!

الإمام الحسن البصري رحمه الله له كلمة جميلة حول هذا الأمر يقول : «إنما أنزل القرآن ليُعمل به ، فاتخذ الناس قراءته عملا» ، فكيف بمن اتخذوا آياته زينة في بيوتاتهم !! وتجد آيات مثلاً معلَّقة زاجرة وآيات فيها مثلا ترغيب وحظه منها مجرد الزينة واللوحة الجمالية التي يزيِّن بها البيت ويزخرف بها حيطان البيت!! فالقرآن أُنزل ليُقرأ ولتُتدبر معانيه وليُعمل به ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [البقرة:١٢١] .

و «الرقى» : هي التي تسمى العزائم ، وخص منها الدليل ما خلا من الشرك ، وقد رخص فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم من العين والحمة .

****

قال: ((**والرقى**)) وهي جمع رقية ((**هي التي تسمى العزائم**)) أي أن يقرأ كلمات وألفاظ أو نحو ذلك ثم ينفث على المريض أو ينفث على نفسه .

قال : ((**وخص منها الدليل ما خلا من الشرك**)) يشير إلى قول النبي عليه الصلاة والسلام : ((اعْرِضُوا عَلَيَّ رُقَاكُمْ لَا بَأْسَ بِالرُّقَى مَا لَمْ تَكُنْ شِرْكًا)) .

قال : ((**وقد رخص فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم من العين والحمة**)) وهذا مر معنا في باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب ولا عذاب . وأيضاً العين والحمة ليس على سبيل الحصر لكن في العين والحمة شأن الرقية عظيم جداً وفائدتها عظيمة جدا ، لا رقية أتم أو أكمل ، لا أن الرقية من غير العين والحمة لا تجوز . وهذا المعنى مر إيضاحه فيما سبق .

و «التولة» : شيء يصنعونه يزعمون أنه يحبب المرأة إلى زوجها ، والرجل إلى امرأته .

****

((**والتولة : شيء يصنعونه يزعمون أنه يحبب المرأة إلى زوجها ، والرجل إلى امرأته**)) وهو نوع من السحر كما سبق الكلام على ذلك . والشيخ رحمه الله يشرح هنا الكلمات الثلاث التي جاءت في حديث ابن مسعود: التمائم والرقى والتولة .

وروى أحمد عن رويفع قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا رويفع ، لعل الحياة ستطول بك ، فأخبر الناس أن من عقد لحيته ، أو تقلَّد وترا ، أو استنجى برجيع دابةٍ أو عظم ، فإن محمداً بريء منه » .

****

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث؛ حديث رويفع بن ثابت رضي الله عنه قال : ((**قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا رويفع ، لعل الحياة ستطول بك**)) قال أهل العلم : وهذا علَم من أعلام نبوته عليه الصلاة والسلام، فكان الأمر كما ذكر صلى الله عليه وسلم فطالت به الحياة .

قال : ((**لعل الحياة ستطول بك ، فأخبر الناس**)) هل هذا الذي قاله عليه الصلاة والسلام لرويفع خاص به أو تنبيه ؟ يعني ثمة معنى لعلنا نلمحه في هذا الحديث ، كأنه يقول في هذا الحديث مخاطباً كل مسلم: ما أمدَّ الله في عمرك وأطال في حياتك أخبِر الناس ، عالج هذه الإشكاليات، عالج هذه الأخطاء اعمل على تخليص الناس منها لا يبقين منها شيء ؛ فهذا توجيه لمن رأى هذه الأشياء أو رأى هذه التعاليق أن يعمل على تخليص الناس منها وأن لا يبقين منها شيء .

قال : ((**لعل الحياة ستطول بك فأخبر الناس أن من عقد لحيته ، أو تقلَّد وترا ، أو استنجى برجيع دابة أو عظم فإن محمدا بريء منه**)) أي بريء من هذا الذي علَّق هذه الأشياء أو فعل هذه الأشياء . وكلمة «بريء منه» لا تقال إلا في الكبائر والعظائم ، لا يقال ((ليس منا)) أو ((أنا بريء منه)) إلا في أمرٍ هو كبير من الكبائر. فذكر عليه الصلاة والسلام أشياء ثلاثة أمَر رويفع أن يخبر الناس بها :

الأول منها : عقد اللحية ؛ وعقْد اللحية قيل إن الجاهلية يفعلونه ولاسيما في الحروب على نوع من الكِبْر ، وقيل إنهم يعقدون من أجل أن تتجعد، يعني تصبح متجعدة ليست مسترسلة فيعملونها لذلك فقال ((من عقد لحيته)).

((**أو تقلد وتراً**)) تقلده ؛ أي علقه على نفسه أو أيضاً علقه على ولده أو على دابته ، وتعليق الوتر كانوا يقصدون منه الوقاية من العين أو دفع الحسد أو السلامة من الأمراض أو نحو ذلك . ((أو تقلد وترا)) وقد مر الحديث عن ذلك سابقاً .

قال : ((**أو استنجى برجيع دابة**)) رجيع الدابة الإبل والبقر رجيعها طاهر لكن النبي صلى الله عليه وسلم منع من ذلك وقال : ((كُلُّ بَعْرَةٍ أَوْ رَوْثَةٍ عَلَفٌ لِدَوَابِّكُمْ فَلَا تَسْتَنْجُوا بِهِمَا فَإِنَّهُمَا زَادُ إِخْوَانِكُمْ مِنْ الْجِنِّ)) فنهى عن ذلك، وإن كان رجيع الدواب – السباع وغيره– فرجيعها نجس ، والاستنجاء به يزيد النجاسة نجاسة .

وعن سعيد بن جبير قال : ((من قطع تميمة من إنسان كان كعدل رقبة)) رواه وكيع .

****

هذا الأثر أثر عظيم جداً وهو يدل على فقه السلف العظيم رحمهم الله تعالى عن هذا التابعي الجليل سعيد بن جبير رحمه الله تعالى قال : ((**من قطع تميمة من إنسان كان كعدل رقبة**)) وهذا قال ((**رواه وكيع**)) وأيضا رواه ابن أبي شيبة في مصنفه .

وروى أيضا ابن أبي شيبة عن سعيد رحمه الله أنه رأى إنساناً يطوف بالبيت وفي عنقه خرزة فقطعها . فيقول سعيد ابن جبير رحمه الله : ((من قطع تميمة من إنسان كان كعدل رقبة)) .

لنتأمل في قطع التميمة من إنسان أو في عتق رقبة ولتقارن ، إذا أعتقت رقبة كان بعتقها تخليص لها من الرق والعبودية ، لكن إذا قُطعت التميمة وبُيّن لمعلقها أنها من الشرك وأنها لا تجوز وأنها لا تنفع كان في ذلك تخليص له من الشرك ؛ فأيهما أعظم تخليص الإنسان من الرق أو تخليصه من الشرك ؟! فهذا الأثر يبين لنا الفضل العظيم والثواب الجزيل لتخليص الناس من هذه التعاليق الباطلة التي ما أنزل الله بها من سلطان .

ولا يكفي مجرد القطع دون البيان ، بل يقطع ويبيّن ، إذا قطع يبين للإنسان حتى يقتنع ، ليس المراد أنه يقطع ، وأيضا القطع يُنظر فيه هل هذا يترتب عليه مفاسد وأضرار أو لا ؟ يُنظر في هذا الأمر لأن القصد إزالة التعلق من قلب الإنسان بفهمه الحكم الشرعي ، أما مجرد القطع والدخول معه في خصومة ولجج ثم يشده مرة ثانية ويعلقه ولا يكون انتفع ليس هذا المراد . فيُنتبه لهذا الأمر بحيث أنه يكون عمل على إقناع معلِّق هذه الأشياء ببطلان تعليقها ، وسواء قطعها هو أو مكّن ناصحه من قطعها وإزالتها المهم أن تزول ويقتنع ببطلانها ، أما مجرد شدُّها منه قد يأخذها أو يأخذ غيرها أو أكثر منها ، فالمطلوب البيان ؛ ولهذا مر معنا قصة حذيفة وتلاوته للآية ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ [يوسف:١٠٦] ، والنبي صلى الله عليه وسلم قال : ((انزعها – أو انبذها– فإنها لا تزيدك إلا وهنا)) ؛ فإذاً لابد من العمل على إصلاح القلب ببيان هذا الأمر وإيضاح الأدلة وبيانها وأن هذا شرك وأن هذا من التعلق بغير الله وأن ((من تعلق شيئا وكل إليه)) وأن النبي صلى الله عليه وسلم قال ((من تعلق تميمة فلا أتم الله له)) ، ولهذا هذه الأحاديث تُحفظ حتى تعلَّم الناس ويبين لهم معانيها فتزول بمعرفة هذه الأحاديث مثل هذا الباطل ومثل هذه التعلقات .

وله عن إبراهيم قال : كانوا يكرهون التمائم كلها من القرآن وغير القرآن .

****

((وله)) أي وكيع **((عن إبراهيم))** أي النخعي قال : **((كانوا يكرهون التمائم كلها من القرآن وغير القرآن))** والكراهة في إطلاق السلف يراد بها التحريم ، ليست كراهة التنزيه وإنما كراهة التحريم ﴿ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ [الإسراء:٣٨] .

فالكراهة عند السلف يراد بها التحريم ، يكرهون ذلك : أي يرونه محرمًا ؛ التمائم كلها .

وقوله «كانوا يكرهون» أي أصحاب ابن مسعود ومنهم إبراهيم النخعي وقد مر معنا كلام ابن مسعود رضي الله عنه في ذلك ، فلا يعارض ذلك النقل عن بعض الصحابة في الترخيص في ذلك ، على أن بعض ما نُقل له محمل سبق الإشارة إليه .

وختْم الشيخ رحمه الله بهذا الأثر «كانوا يكرهون التمائم كلها من القرآن وغيره» فيه إشارة إلى أن هذا هو اختياره رحمه الله تعالى ؛ أن التمائم التي من القرآن لا تُعلَّق ، ومر إشارة إلى بعض ما ذكره أهل العلم في أسباب المنع من تعليقها .

فيه مسائل الأولى : تفسير الرقي وتفسير التمائم .

مر معنا ذلك .

الثانية : تفسير التولة .

كذلكم مر .

الثالثة : أن هذه الثلاث كلها من الشرك من غير استثناء .

لقول النبي عليه الصلاة والسلام في حديث ابن مسعود ((إن الرقى والتمائم والتولة شرك)) .

الرابعة : أن الرقية بالكلام الحق من العين والحمة ليس من ذلك .

«أن الرقية بالكلام الحق من العين والحمة ليس من ذلك» أي ليس من الشرك فلا تدخل في عموم قوله ((إن الرقى والتمائم والتولة شرك)) .

الخامسة : أن التميمة إذا كانت من القرآن فقد اختلف العلماء هل هي من ذلك أم لا ؟ .

أن التميمة إذا كانت من القرآن فقد اختلف العلماء هل هي من ذلك أي الذي يمنع ؟ أم لا أي يرخص فيه . والصحيح أنها تُمنع ولا يجوز تعليقها .

السادسة : أن تعليق الأوتار على الدواب من العين من ذلك .

من ذلك : أي من الشرك ؛ لحديث أبي بشير الأنصاري وحديث رويفع .

السابعة : الوعيد الشديد فيمن من تعلَّق وترا .

لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال إنه بريء منه ؛ أي بريء من هذا الذي يعلق الوتر .

الثامنة : فضل ثواب من قطع تميمة من إنسان .

لقول سعيد «من قطع تميمة من إنسان كان كعدل رقبة» .

التاسعة : أن كلام إبراهيم لا يخالف ما تقدم من الاختلاف ، لأن مراده أصحاب عبد الله بن مسعود.

أن كلام إبراهيم أي النخعي حيث قال «كانوا يكرهون التمائم كلها من القرآن وغيره» لا يخالف ما تقدم من الاختلاف أي عن السلف وأن بعضهم رخص في ذلك لأن مراده –أي إبراهيم– أصحاب عبد الله بن مسعود.

سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك .

اللهم صل وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه .

الدرس الحادي عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد :

يقول الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد :

بابٌ من تبرك بشجرة أو حجر ونحوهما

وقول الله تعالى : { أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى } الآيات [النجم:١٩-٢٠] .

****

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد :

هذه الترجمة ((**بابٌ من تبرك بشجر أو حجر أو نحوهما**)) عقدها رحمه الله تعالى لبيان أنَّ ذلك من الشرك بالله المنافي للتوحيد والمصادم له ، لأن التوحيد قائمٌ على إخلاص العمل لله عز وجل والتوكل عليه وحده واللجوء إليه وحده دون سواه في طلب النفع والدفع والعطاء وغير ذلكم من حاجات العبد ومصالحه ، فلا يلجأ إلا إلى الله عز وجل ولا يفزع إلا إليه ولا يتوكل إلا عليه ولا يسأل حاجته إلا منه تبارك وتعالى ، فمن كان يقصد حجراً أو شجراً أو نحوهما متعلقاً قلبه بها راجياً أو طامعا أو ملتمساً بركةً أو نفعاً أو دفعاً فقد أشرك هذه الأشياء بالله عز وجل ، وهي لا تملك لنفسها نفعاً فضلا من أن تملك شيئا من ذلك لغيرها . فالترجمة عقدها رحمه الله لبيان أن التبرك بالشجر أو الحجر أو نحوهما ؛ «نحوهما» مثل القباب والأضرحة والزوايا والمغارات والبقاع والأتربة وغير ذلك من الأشياء فإن ذلك كله من الشرك بالله عز وجل .

وقوله ((**من تبرك**)) «مَن» : اسم شرط ، وفعله «تبرك بشجر أو حجر أو نحوهما» . وجواب الشرط محذوف وهو فقد أشرك ؛ من تبرك بشجر أو حجر أو نحوهما فقد أشرك . وحذف رحمه الله تعالى جواب الشرط لدلالة ما ساقه في الترجمة من أدلةٍ عليه ، فالأدلة التي ساقها الآيات من سورة النجم وحديث أبي واقد الليثي دليل على أن هذا التبرك بالشجر والحجر ونحوهما من الشرك بالله سبحانه وتعالى كما سيأتي معنا دلالة ما ساقه رحمه الله على ذلك .

ويحتمل أن تكون «مَن» اسم موصول بمعنى الذي ؛ فيكون تقدير الكلام : حكم الذي تبرك بشجر أو حجر أو نحوهما ؛ أي أن حكمه هو أنه أشرك بالله عز وجل كما تدل على ذلكم الآيات والحديث الذي ساقه رحمه الله تعالى في الترجمة .

وقوله ((تبرك)) التبرك : طلب البركة والتماسها . والبركة : هي النماء والزيادة . وتكون البركة التي تُطلب قد يقصد بها البركة في الصحة أو البركة في المال أو البركة في العمر أو البركة في الأولاد أو غير ذلك ، فالبركة هي النماء والزيادة وهي في الجملة دلالتها تدل على أمرين :

- الأول : ثبات الموجود ؛ فعندما يسأل مثلاً سائل البركة في صحته أو البركة في ولده أو البركة في ماله أو غير ذلك فإنه يعني ذلك ثبات الموجود .

- ويعني من ناحية أخرى أيضا نماءه وزيادته . فهي تعني الثبات والكثرة ؛ ثبات النعمة وكثرتها .

فالشيء الذي يثبت عند الإنسان ويبقى هذا من البركة ، وأيضاً الذي يزداد خيراً ونماءً فهذا من البركة .

التبرك بالشجر والحجر ونحوهما وهو من صنائع المشركين وأفعال أهل الجاهلية هو : تعلقٌ بهذه الأشياء وارتباطٌ قلبي بها بحيث يقصدها ملتمساً بركةً من جهتها ؛سواء بإلصاق بدنه بها، أو مسح يده عليها ، أو مكثه الطويل عندها، أو غير ذلكم من الطرائق والأعمال التي يصنعونها لالتماس البركة منها ، أو حتى أيضا يعلَّق عليها أشياء إما ثيابه أو مثلاً يعلق سلاحه أو شيء من متاعه يعلقها على ما يطلب البركة من جهته التماسًا للبركة . من ذلك: أن يمسح عليها بيده يطلب بركةً من جهتها ويلتمس بركة من جهتها طالباً نفعاً أو دفعاً أو عطاءً أو منعاً أو غير ذلك ، ولهذا عمر ابن الخطاب رضي الله عنه لما قبَّل الحجر الأسود ماذا قال ؟ والناس من حوله يسمعون كلامه وأراد أن يُسمعهم ذلك قال : «إِنِّي أَعْلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ لاَ تَضُرُّ وَلاَ تَنْفَعُ، وَلَوْلاَ أَنِّي رَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُقَبِّلُكَ مَا قَبَّلْتُكَ» ، فتقبيل الحجر الأسود واستلامه باليد واستلام الركن اليماني هذه عبودية محضة يتقرب بها إلى الله سبحانه وتعالى اتباعاً للرسول الكريم وسيراً على منهاجه القويم ، لا أنَّ من يقبِّل الحجر أو يمسح الحجر أو يستلم الركن اليماني يفعل ذلك لالتماس بركةٍ أو رجاء بركةٍ من الحجر أو الركن ، وإنما يُفعل ذلك تقرباً إلى الله وعبودية لله سبحانه وتعالى تأسياً بالرسول الكريم عليه الصلاة والسلام ، أما الحجر الأسود والركن اليماني فهو كما قال عمر حجر لا يضر ولا ينفع قال : «إِنِّي أَعْلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ لاَ تَضُرُّ وَلاَ تَنْفَعُ، وَلَوْلاَ أَنِّي رَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُقَبِّلُكَ مَا قَبَّلْتُكَ» .

قال رحمه الله تعالى : ((**باب من تبرك بشجر أو حجر ونحوهما**)) أي فقد أشرك .

ساق أولا هذه الآيات الكريمات من سورة النجم ؛ قول الله تعالى –والخطاب للمشركين الكفار عبَدَة الأصنام والأوثان– ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى (٢٢) إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى (٢٣) ﴾ ؛ هذا سياق عظيم جداً في إبطال الشرك وفساد أهله وبطلان ما هم عليه وأنهم لا يملكون على عملهم هذا دليلاً أو حجة ، بل هو قائم على فساد علمٍ أو فساد إرادةٍ أو فسادهما معاً كما سيأتي إيضاح ذلك وبيانه .

قال ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى ﴾ أي أخبروني عنها ماذا تنفع ؟ وماذا تُغني ؟ وأي شيء تجدي ؟ وهي لا تملك لنفسها فضلاً أن تملك لغيرها ؛ أخبروني عنها ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى ﴾ وهذا مخاطبة لعقول هؤلاء إن كانوا يعقلون ، هذه التعلقات التي تتعلقونها بهذه الأشياء اللات والعزى ومناة ماذا يرجى منها ؟ أخبروني ماذا يرجى منها ؟ أيُّ نفعٍ يرجى منها وهي لا تملك لنفسها شيئا فضلا أن تملك لغيرها ؟

﴿ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى ﴾ وهذه الأسماء الثلاثة أسماء أصنام كانت تُعبد وتُقصد ويُلتجأ إليها وتُصرف لها أنواع العبادة ﴿ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى ﴾ ، وخُصت بالذكر هنا من بين أصنام كثيرة وأوثان عديدة كانت تُعبد في الجاهلية لأنها أعظم هذه الأوثان شأناً عند عابديها وأعلاها مكانةً عندهم ، فهي أعظم أوثانهم وأكبر أصنامهم فخُصت بالذكر لأنها أعظم الأصنام عند عابديها وأكبرها في نفوسهم .

وإذا اتجه البيان لبطلان عبادة هذه الأصنام التي هي أكبرها عندهم وأعظمها شأنًا عندهم وأكثر تعلقهم بها فغيرها من الأصنام يكون من باب أولى ، ولهذا خُصَّت بالذكر ، وإلا فإن الأصنام كانت كثيرة . لما دخل النبي عليه الصلاة والسلام مكة عام الفتح حطم الأصنام التي في البيت وحوله فكانت تبلغ ثلاثمائة وستين صنماً ، فالأصنام كانت كثيرة هذه التي حول البيت ، وأما الأصنام المتفرقة هنا وهناك وفي الأمكنة المتنوعة كثيرة جدًا . فهذه الأصنام الثلاثة «اللات والعزى ومناة» خُصت بالذكر لأنها الأشهر والأعظم والأكبر عند هؤلاء المشركين .

و«اللات» : صنمٌ كان في الطائف في ثقيف ، وأصل وجود هذا الصنم : أن رجلاً كان يلُتُّ السويق – اللات من اللت وهو العجن – كان يلت السويق: أي يعجنه ، يقوم بذلك من أجل خدمة حجاج بيت الله ، يعمل ذلك على وجه الإحسان وإكرام الحجاج ، فكان هذا صنيعه ؛ رجل عُرف بالكرم ، بخدمة الحجاج ، بصُنع السويق لهم يلُته بنفسه يعجنه بنفسه ، عُرف بذلك وعُرف بهذا الإحسان واشتُهر به ؛ فلما مات عكفوا على قبره وجعلوه معبوداً لهم ، وأيضًا عكفوا على الصخرة التي كان يلت عليها السويق ، ولهذا عندما نطلع على كلام أهل العلم في المراد باللات؛ منهم من يذكر أنَّ المراد به الصخرة التي كان يلت عليها ذلك الرجل السويق اتخذوها معبوداً ، ومنهم من يذكر أنهم عكفوا على قبره ، وهذا ذكره البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما، وكما قال أهل العلم لا يمنع ذلك أن يكونوا جمعوا بين الأمرين : بين العكوف على قبره هو ، وبين أيضاً التعلق والارتباط بتلك الصخرة التي كانوا يعظِّمونها ويعبدنها ويقصدونها ويلتجئون إليها . والنبي عليه الصلاة والسلام أرسل المغيرة بن شعبة إلى ذلك الوثن فحطَّمه وكسره وأحرق الأشياء التي عنده فما بقي له أي وجود .

و«العزى» : هذا وثنٌ آخر وهو شجرة كان يقصدها المشركون ويلتجئون إليها ويتقربون إليها بأنواع التقربات ، فأرسل النبي عليه الصلاة والسلام بعد الفتح إليها خالد بن الوليد قطعها وأيضاً أحرق المكان ولم يبق لها أي وجود، وكان لها شأن عظيم عند المشركين تعلقاً بها وقصداً لها ، وفي يوم معركة أحد كان أبو سفيان ومن معه يقولون : "لنا العزى ولا عزى لكم" ، فقال النبي عليه الصلاة والسلام : ((أجيبوهم قولوا :الله مولانا ولا مولى لكم)) ؛ إلى هذه الدرجة تعلقهم بهذه الأصنام وهذه الأحجار ، في القتال وفي الحروب يبقون على مثل هذا التعلق والافتخار بالارتباط بهذه الأصنام يقولون "لنا العزى ولا عزى لكم" . والعزى شجرة لا تملك لنفسها شيئا فضلاً أن تملك لغيرها!! ولهذا لما بعث النبي عليه الصلاة والسلام إليها خالد بن الوليد قطع الشجرة وأحرقها ولم يبقَ لها أي ذكر ، فلم تملك دفعاً لنفسها فضلاً أن تملك شيئا من ذلك لغيرها .

و«مناة الثالثة الأخرى» : هذه صخرة كانت على ساحل البحر الأحمر قريباً من قُديد بين مكة والمدينة ، وكان المشركون يعظِّمونها ، وأكثرهم تعظيما لها الأوس والخزرج ، وكانت في طريقهم في الحج إلى مكة يمرون بها في الذهاب والإياب ، حتى إنهم بعد أداء أعمال الحج لا يحلقون رؤوسهم بمكة بل يحلقون رؤوسهم عند مناة ، من شدة تعظيمهم لذلك الصنم يحلقون رؤوسهم عنده ويعكفون عنده بعد الحج ثم يعودون إلى المدينة .

فهذه الأصنام الثلاثة «اللات والعزى ومناة» كانت أكبر أوثان المشركين وأكبر الأصنام التي يتعلقون بها . ولو تأملت : اللات عكوفٌ على قبر رجل صالح عُرف بالكرم وخدمة الحجيج وصنع السويق لهم إلى غير ذلك ، رجل عرفوه بصلاحه في هذا الجانب الكرم السخاء إلى غير ذلك فلما مات عكفوا على قبره . والعزى شجرة ، ومناة صخرة ، والترجمة التي عقدها «من تبرك بشجرٍ» مثل العزى «وحجرٍ» مثل مناة «ونحوهما» أي من التعلق مثلا بالمشايخ أو ما يسمَّون بالأولياء أو غير ذلك ، مثل ما كانوا يتعلقون بذلك الرجل الذي عُرف باللات أي الذي يلت السويق يعجنه .

أيضاً عندما تتأمل في هذه المعبودات التي خُصت بالذكر هنا «اللات والعزى ومناة» وهي متنوعة ؛ اللات: رجل، العزى: شجرة ، مناة: صخرة؛ تجد أنَّ ما وجد فيما بعد من شركيات وتعلقات باطلة ترجع في الغالب إلى ذلك، إما تعلق بقبر رجل صالح ، أو تعلق بشجرة من الأشجار ، وهذا موجود إلى الآن في بعض المناطق توجد أشجار معظمة ، حتى إنه في بعض المناطق إذا جُعل طريق بين بلد وبلد ومرَّ بالشجرة المعظمة لا يقطعونها يحرِفون الطريق ويُميلونه عنها وتبقى مقصِداً للناس وملجئاً إليهم ويتبركون بها؛ يعلِّقون بها خيوط أو حروز أو ملابس أو أشياء من هذا القبيل ، لا يزال هذا . وأيضا التعلق بالصخور هو مثل تعلق أولئك بمناة ؛ فرجعت الشركيات إلى هذه الأمور الثلاثة «اللات والعزة ومناة الثالثة الأخرى» ، فكأن هذه التسمية لهذه الأصنام الثلاثة اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى كما أنها تسمية لأعظم الأصنام والأوثان التي كانت تُعبد ويعبدها المشركون أيضاً في الوقت نفسه جمعت أمهات ما يُقصد ، لأن ما يُقصد التجاءً وخضوعًا وذلا إما قبر أو شجرة أو حجر اللات والعزى ومناة ، في الغالب ترجع إلى هذه الثلاثة : قبر أو شجر أو حجر .

﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى﴾ ومن قول المشركين أنَّ هذه الثلاث اللات ومناة والعزى بنات الله ، وهذا ذُكِر في بعض كتب التاريخ أن المشركين كانوا يقولون : "اللات والعزى ومناة بنات الله وهن يشفعن عنده" كانوا يقولون ذلك ويخصُّون هذه الثلاث حتى في الطواف ، في طوافهم بالبيت يقولون : «اللات وعزى ومناة الثالثة الأخرى تلك الغرانيق الأُلى وإن شفاعتهنَّ لتُرتجى»

يقولون هذه الكلمات حول بيت الله ، وهم يطوفون يهتفون بذكر هذه الأصنام والأوثان التي يتعلقون بها . فقيل ذلك وأيضاً ما جاء عن هؤلاء أنهم يقولون الملائكة بنات الله .

قال﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى﴾ كان الواحد منهم إذا بُشِّر بمولودة أنثى ماذا يحدث له؟ من شدة ما قام في قلوبهم من كراهية للإناث﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾[النحل:٥٨-٥٩] ، يكره الواحد كراهية شديدة أن تُنسب إليه الأنثى أو تكون بنته أنثى ، وفي الوقت نفسه يقولون : الملائكة بنات الله أو الإناث بنات الله !!

قال : ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى (٢٠) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾ أي جائرة . والقوم قام في قلوبهم للبنات كراهية لا توصف، شديدة جداً ، وتقرأ في أخبارهم عجباً ، حتى إن بعض المشركين كما ذُكر في بعض كتب التاريخ من شدة كراهيته للأنثى إذا بدأت زوجته في الطلق وقت الولادة يحفر تحتها حفرة ، وهي في الطلق يحفر تحتها حفرة عميقة وأول ما يخرج المولود إن كان أنثى مباشرة يلقيه في تلك الحفرة ويدفن عليها ، ما يعيش ولا لحظة واحدة من رحم أمه إلى الحفرة ، من شدة الكراهية التي قامت في قلوبهم للأنثى . وبعضهم يصبر ويتوارى من القوم ولا يريد أحد يسأله يقول ماذا جاءك من الكراهية الشديدة للأنثى . ومما ذُكر عنهم في وأد البنات ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾[التكوير:٨-٩] أن بعضهم يتركها حتى تبلغ ست سنوات أو خمس سنوات ثم يقول لأمها جمِّليها طيِّبيها زينيها فيأخذ بنته وتمشي معها كأنها إلى فسحة وإلى نزهة جُملت وطُيبت وزُينت فيكون أعد لها حفرة في الصحراء فيأتي بها ويقول انظري فتنظر فيدفعها من وراءها ويدفن عليها وهي حية .

الشاهد من ذلك أن القوم يكرهون الإناث كراهية شديدة ثم يقولون الإناث بنات الله!! ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى (٢٢)﴾ أي جائرة ظالمة .

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾ ؛ اللات والعزى ومناة وغيرها أيضا هي في الحقيقة أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ، ما هي إلا مجرد أسماء ؛ العزى: شجرة مثل غيرها من الأشجار ، مناة: حجر مثل غيره من الأحجار ، اللات: أيضا رجل مثل غيره من الرجال ، وفي من هو أحسن منه ومن هو أسوء منه ، لكن عظموا هذه الأشياء تعظيماً لا يليق إلا برب العالمين فخضعوا لها وعبدوها وذلوا لها وصرفوا لها أنواع العبادة ، وإلا هي في الحقيقة مثل غيرها من الأشياء لكن سموها بهذه الأسماء آلهة ومعبودات وصرفوا لها أنواع العبادات .

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾ يعني هذه تسمية توارثتموها عن الآباء والأجداد ، والتوارث هذا سبحان الله مصيبة على كثير من الناس ، حتى في زماننا هذا بعض الناس ينشأ في بلده على بعض العقائد الباطلة ويتضح له بطلانها وفسادها ويقف على بعض الأدلة التي تدل ثم يمتنع عن الدخول في هذا الحق ويبقى على الباطل الذي كان عليه ويقول : ماذا أقول للآباء والأجداد ؟ وكيف أغيّر ما عليه آبائي وما عليه أجدادي ؟

﴿أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي حجة ، والحجة سميت سلطاناً لأنها تأسر القلب ولا يتمكن من الانفلات منها ، تأخذ بالقلب ولها سُلطة عليه ولهذا سميت الحجة سلطانا . قال ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي : ما أنزل بها من حجة .

وهذا وحده برهان كافي في إبطال كل باطل ؛ أعني قول الله ﴿ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ يكفي في إبطال كل باطل أن يقال : ما أنزل الله به من سلطان ، لأن العقائد التي بين الناس ويعتقدونها والأعمال التي يعملونها هي إما حق أو باطل ، والحق هو الذي نزل به السلطان أي حجة وبرهان من الله ، والباطل ما لم ينزِّل به تبارك وتعالى سلطانا . ولهذا كان الأنبياء في طريقتهم في إبطال عقائد أقوامهم الباطلة يذكرون هذه الحجة ؛ أنظر قول يوسف عليه السلام لصاحبي السجن قال : ﴿أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٣٩-٤٠] فأبطل عقائدهم بقوله : ﴿ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ .

في ضوء ذلك نستطيع أن نقول : العقائد التي عند الناس وبينهم هي على قسمين :

١- عقائد نازلة : أي نزل بها وحي ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٥] .

٢- وعقائد نابتة كيف نبتت ؟ إما بالرأي أو بالعقل أو بالتجربة أو غير ذلك من وسائل الاستدلال الكثيرة التي نبتت بموجبها عقائد كثيرة بين الناس .

فإذاً كل عقيدة لم ينزل بها سلطان أي حجة وبرهان من الله فهي باطلة ، ويكفي دلالة على بطلانها أنها لا سلطان عليها ولا حجة نازلة من رب العالمين ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ .

إذا كان هذا شأنها لم ينزل بها حجة وبرهان من أين جاءت ؟ وما منبعها ؟ وما مصدرها ؟

قال : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ﴾ ؛الظن هذا بيان لفساد هؤلاء في الناحية العلمية ، فعلومهم ظنون قائمة على الظنون الباطلة ، هذه بضاعتهم في العلم ، بضاعة أهل الجاهلية في العلم: الظنون . وهذا النوع من الحال التي كان عليها أهل الجاهلية في أن علومهم إنما هي ظنون هو حال أيضا من كان على شاكلتهم وطريقتهم ، تجد أقواما عندهم عبادات وأعمال وعقائد ثم إذا بُحث معهم ما الدليل ؟ أحدهم يروي مناماً والآخر يحكي قصة وثالث يبني على تجربةٍ ؛ هذه علومهم ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ﴾ ، ﴿وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ﴾ هذا بيان لفسادهم من جهة الإرادة . فاجتمع في هؤلاء نوعين من الفساد : فساد العلم ، وفساد الإرادة ؛ فساد العلم في قوله: ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ﴾، وفساد الإرادة في قوله: ﴿وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ ﴾ فهو ميَّال مع نفسه أين مالت به ، حق أو باطل هدى أو ضلال أياً كان الذي تميل إليه نفسه هو يتبعها.

﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى ﴾ والواجب على من جاءه الهدى من ربه أن يترك الظن البئيس وأن يترك أيضا اتباع أهوائه الباطلة وأن يلزم الحق والهدى الذي جاءه من رب العالمين .

هذا السياق العظيم المبارك لو تأمله المتأمل وتدبره المنصِف لوجده كافياً وافياً شافياً في إبطال كل التعلقات التي لا يزال إلى زماننا هذا يُبتلى بها أقوام وأقوام ، أناسٌ يتعلقون بشجرة ، وآخرون يتعلقون بضريح أو قبر ، وآخرون يتعلقون بصخرة أو حجر ، إلى غير ذلك من التعلقات ؛ هذا السياق وحده كاف في إبطال كل التعلقات .

﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى (٢٢) إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى (٢٣) ﴾ ؛ بعض الناس قد يقرأ هذه الآيات وهو يمارس أعمالاً من جنس ما أُنكر في هذه الآيات وأُبطل في هذه الآيات ويفهم أن هذه الآيات لا علاقة له بها ، هذه آيات تتحدث عن المشركين الأول ولا تعنيه بشيء ولا تخصه بشيء ، فيا سبحان الله !! يمارس العمل نفسه الذي كان يمارسه أولئك ثم يظن أن الآية لا تعنيه!! والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾[القمر:٤٣] ، إذا كان قولكم قول هؤلاء وفعلكم فعل هؤلاء ما الذي يميزكم عنهم؟ ﴿أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ .

إذاً هذه الآيات الكريمات مبطِلة وناسفة وهادمة لكل التعلقات أيًّا كانت ، ذُكر في الآية اللات والعزى ومناة فكل ما كان من هذا القبيل من تعلقٍ بشيخ أو ولي أو تعلق بشجر أو تعلق بحجر – وهي في الغالب لا تخرج عن هذه الأشياء – بُيِّن في الآية فساد هذا العمل وشناعة هذا الصنيع وأنه أمرٌ باطل وعملٌ فاسد ما أنزل الله به من سلطان ، وما حقيقة هذا الأمر إلا أسماء سمَّاها هؤلاء ، وتجد الأسماء تتغير، والتعلقات هي التعلقات ، يأتي أناس مثلا ويقولون "سيدنا فلان" ويُعظِّم ضريحه وتتعلق

القلوب به ويُقصد في أوقات معينة ذبحاً عنده إراقةً للدماء نذراً له خشوعاً وعكوفاً ، نفس الأعمال التي تمارس هي بذاتها تمارس .

فإذاً هذه الآيات الكريمات ينبغي على كل مسلم أن يتدبرها حق التدبر ، وأن يسأل الله سبحانه وتعالى أن يعيذه من ذلك . ولنتنبه في هذا المقام؛ النبي عليه الصلاة والسلام أعطى في هذا المقام تحذير قوي جداً ، وسيأتي معنا الحديث قال : ((لتتبعن سنن من كان قبلكم)) أي احذروا ذلك ، كما سيأتي معنا في حديث أبي واقد الليثي . فإذاً هذه الآية قوله ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى﴾ هي في مقصود هذه الترجمة وهو إبطال التعلقات الباطلة ؛ التبرك بشرك أو التبرك بحجر أو التبرك بشيخ أو التبرك بأشياء من هذا القبيل ؛ هذه كلها ما أنزل الله بها من سلطان كما هو مبيَّن في هذا السياق المبارك .

قال رحمه الله تعالى :

عن أبي واقد الليثي قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حنين ونحن حدثاء عهد بكفر، وللمشركين سدرة يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم يقال لها ذات أنواط ، فمررنا بسدرة فقلنا : يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((الله أكبر إنها السنن ، قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى : {اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ } [الأعراف:١٣٨] لتركبن سنن من كان قبلكم)) رواه الترمذي وصححه .

****

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث العظيم حديث أبي واقد الليثي رضي الله عنه وأرضاه . وأبو واقد الليثي من مُسلِمة الفتح وكان عددهم يبلغ الألف أو يزيد عليه ، أسلموا في ذلك الوقت إما في يوم الفتح أو قبيله في ذلك الوقت أسلم عدد يصلون إلى الألف أو يزيدون .

يقول أبو واقد : ((**خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حنين**)) ؛ وحُنين بعد الفتح .

«خرجنا إلى حنين» : أي مقاتلين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . تأمل الآن قوم من المسلمين ممن أكرمهم الله عز وجل بصحبة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام ، أيضاً ممن أكرمهم الله عز وجل بحمل السلاح والخروج في جيش النبي عليه الصلاة والسلام نصرةً للدين وذباً عن حِماه ومقاتلَة للمشركين وبصحبة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام ؛ هذه المعاني كلها لا تغيب عن بالك .

يقول : ((**خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حنين ونحن حدثاء عهد بكفر**)) ما معنى ذلك ؟ وما مراده بذلك ؟ أما معناه : أي قد أسلمنا حديثاً ، دخولنا في الإسلام لوقتٍ قريب وقليل جدًا ، ومن المعلوم أن حديث الإسلام لا يكون عنده من التمكن والفهم والعمق في فهم حقائق الدين وقواعده مثل من كان قديم الإسلام راسخ الإسلام . فقدَّم بهذه المقدمة اعتذاراً للخطأ الذي بدَر منهم سببه ما أشار إليه بقوله «ونحن حدثاء عهد بكفر» أي عهدنا بالكفر حديث .

قال : ((**وللمشركين سدرة يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم يقال لها ذات أنواط ، فمررنا بسدرة**)) أي أخرى ((**فقلنا : يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط**)) ؛ هذا الكلام الذي قاله قدَّم بمقدمة يعتذر عن قولهم لهذا الكلام بأنهم كانوا حدثاء عهد بكفر .

قال : ((**وللمشركين سدرة**)) أي شجرة من شجر السدر .

((**يعكفون عندها**)) العكوف : هو المكث الطويل ؛ كان المشرك يأتي عند هذه الشجرة ويمكث الساعتين الثلاث الأربع يجلس أو يقف خاشعاً متذللاً منكِّساً رأسه ، هذا العمل يسمى «عكوف» ، يعكف عندها أي يمكث طويلا خاشعا متذللا .

((**وينوطون بها أسلحتهم**)) ينوطون : أي يعلِّقون أسلحتهم على تلك الشجرة ، لماذا يعلقون السلاح عليها ؟ حتى يبارَك السلاح ، عندما يلمس الشجرة ويبقى معلقًا بها وقتاً تنزل بها بركة مزعومة عند هؤلاء من الشجرة فتحِلُّ فيه . فيعلقون أسلحتهم بها من أجل أن تبارَك تلك الأسلحة .

فهذا تبرك ، والأول عكوف ، وأمر ثالث دل عليه السياق وهو تعظيم هذه الشجرة ؛ خُصَّت من بين الأشجار بأن عُظمت ، وبناء على هذا التعظيم حصل العكوف وحصل التبرك ، وإلا هي في الأصل شجرة مثل غيرها من الأشجار لكن عظَّم هؤلاء الجاهليون تلك الشجرة وكان لها تعظيم في قلوبهم فترتب على ذلكم العكوف والتبرك.

والشركيات التي اجتمعت فيهم تتلخص في هذه الأمور الثلاثة : التعظيم ، والعكوف ، والتبرك .

((**يقال لها ذات أنواط**)) وهذا الاسم أخذوه من الصنيع الذي يفعلونه وهو التعليق ، ينوطون : أي يعلقون أسلحتهم ؛ فبناءً على ذلك سميت «ذات أنواط» .

قال : ((**فمررنا بسدرة فقلنا يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط**)) أي عيِّن لنا شجرة معيَّنة بحيث نقصدها ونعلق عليها الأسلحة مثل ما يعلقون أسلحتهم عليها ، قالوا ذلك لأن القوم بسبب كونهم حدثاء عهد بكفر لم يحصل عندهم العمق في الفهم لمعاني التوحيد ومعاني «لا إله إلا الله» ودلالة «لا إله إلا الله» . هم قالوا «لا إله إلا الله» وشهدوا بكلمة التوحيد ودخلوا في هذا التوحيد وآمنوا بالرسول الكريم عليه الصلاة والسلام لكن قالوا هذه الكلمة "اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط" ، وخفي عليهم لحداثة عهدهم بالكفر أنَّ هذا ينافي التوحيد الذي نطقوا هم بكلمته .

نرجع مرة ثانية نقول : هؤلاء أكرمهم الله بالصحبة والإسلام ومرافقة النبي عليه الصلاة والسلام والخروج معه مقاتلين في سبيل الله وخفي عليهم ذلك ؛ أليس كونه يخفى على أناس في مثل هذا الزمان وما هو أيضاً أوضح منه من باب أولى ؟! إذا كان خفي على هؤلاء وهم مع النبي عليه الصلاة والسلام فكيف بمن بعُد عهده وأيضا قلَّ حظه ونصيبه من العلم الشرعي والدراية بأحاديث الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام! أو زاد على ذلك بأن ابتُلي في بلده بأئمة ضلال لا يبيِّنون له الكتاب والسنة وإنما يبينون له الظن وما تهوى الأنفس .

مرةً أقرأ على رجل آيات في التوحيد لأني وجدت عليه مخالفة لها فقال لي : "أنا من البلد الفلاني ما أحد قرأ علينا هذه الآيات" ، وهذا يدل أن كثير من الناس يبحث عن الخير لا يريد الخرافة ولا يريد الضلال ولا يريد التعلقات الباطلة؛ لكنه نشأ بين أئمة ضلال ودعاة باطل فأركسوه في باطلهم وأوقعوه في ضلالهم والعياذ بالله .

((**فقلنا يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الله أكبر**)) وفي رواية قال : ((سبحان الله)) ؛ «الله أكبر» تعظيم لله سبحانه وتعالى أن يقال هذا الكلام الباطل الذي ينافي كلمة التوحيد وينافي

التوحيد . ((الله أكبر)) يعظِّم الله سبحانه وتعالى . وفي رواية ((سبحان الله)) أي أنزه الله سبحانه وتعالى ، والله عز وجل ينزه ويعظم عن مثل هذه الأقوال . ولهذا يستحب للإنسان إذا سمع القول الباطل أن يكبِّر تعظيمًا لله أو يسبِّح تنزيها لله ، ومن ذلكم قول الله تعالى ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر:٦٧] أي تنزه وتقدس عن ذلك جل وعلا.

((**فقال عليه الصلاة والسلام الله أكبر** – وفي رواية سبحان الله – **إنها السُّنن**)) بضم السين أي الطرق ؛ طرق الجاهلين وسبُل الضالين .

قال: ((**الله أكبر إنها السنن**)) ما معنى إنها السنن ؟ أي أمور ماضية موجودة ولها أهلها في كل زمان إلى قيام الساعة ، أمور باقية وماضية ومستمرة ولها أهلها أعاذنا الله سبحانه وتعالى من سبل الضلال وسنن الضلال .

((**إنها السنن**)) أي الطرق وهي طرق ماضية ، في كل زمان لها أنصار ولها أعوان ولها أتباع .

فقال ((**إنها السنن**)) أي الطرق؛ طرق الضلال وطرق الباطل .

((**قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى: {اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ}**)) ؛ مع موسى علَّمهم التوحيد وعلمهم الحق وعلمهم الهدى فمروا على قوم يعكفون على أصنام لهم وقالوا "يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة" !! وهؤلاء وهم حدثاء عهد بكفر مروا بشجرة للمشركين يعلقون بها أسلحتهم قالوا "اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط" .

فقال النبي عليه الصلاة والسلام : ((**قلتم والذي نفسي بيده**)) يحلف بالله سبحانه وتعالى ((**كما قالت بنو إسرائيل لموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون**)) .

ثم قال عليه الصلاة والسلام محذراً ومنذرا ((**لتركبن**)) هذا تحذير قاله عليه الصلاة والسلام مثله في الحديث الآخر ((لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً شبرا ذراعًا ذراعا ،حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه)) ؛ فيقول ذلك تحذيراً وإنذاراً ونصحاً لأمته .

((**لتركبن سنن من كان قبلكم**)) سننهم : أي طرقهم وسبُلهم ، وفي الحديث الآخر قال : ((**شبرا شبرا ذراعا دراعا حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه**)) ولم خصَّ جحر الضب مع أن الزاوحف كثيرة ولها جحور مختلفة فخص من بينها جحر الضب لماذا؟ لأن جحر الضب أكثر جحور الزواحف التواء وتعقيدا ، جحر ملتوي ومعقد. أي لو دخلوا في وعورة وفي أعمال معقدة وفي صفات سيئة جداً لوُجد في هذه الأمة من ينهج نهجهم ويسلك مسلكهم ((حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه)) هذا يقوله عليه الصلاة والسلام تحذيرا للأمة . وانظر مصداق قوله عليه الصلاة والسلام في واقع عدد من الناس ؛ ما أن تشتهر مثلا قَصَّة شعر لبعض الكفار إلا ويتسابق عدد من أبناء المسلمين أو بناتهم لمحاكاتها ، أو لبس من اللباس أو مشية من المشيات أو أمر من الأمور نسأل الله العافية والسلامة .

قال رحمه الله تعالى :

فيه مسائل ؛ الأولى : تفسير آية النجم .

الأولى من المسائل المستفادة من هذه الترجمة بما فيها من أدلة : «تفسير آية النجم» أي : قول الله تعالى ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩)﴾ والآيات بعدها ، وقد مر معنا بيانٌ لمعناها .

الثانية : معرفة صورة الأمر الذي طلبوه .

«معرفة صورة الأمر الذي طلبوه» أي طلبه هؤلاء الذين كانوا مع النبي عليه الصلاة والسلام والذين ذكر خبرهم أبو واقد في هذا الحديث . وصورة الأمر مرت معنا : أنهم طلبوا من النبي عليه الصلاة والسلام أن يجعل لهم شجرة يعيِّنها ويخصَّها من بين الشجر من أجل أن يعلقوا عليها أسلحتهم مثل ما أن للمشركين شجرة يعكفون عليها ويعلقون عليها أسلحتهم ، فطلبوا منه عليه الصلاة والسلام ذلك قالوا : "اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط" .

الثالثة : كونهم لم يفعلوا .

أي لم يتخذوا ابتداءً شجرة ويذهبوا إليها ويعلقوا عليها أسلحتهم وإنما طلبوا فقط قالوا "اجعل لنا" ، ومع ذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم ((قلتم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسى لموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة)) .

الرابعة : كونهم قصدوا التقرب إلى الله بذلك لظنهم أنه يحبه .

«كونهم قصدوا التقرب إلى الله بذلك»؛ يعني عندما قالوا "اجعل لنا ذات أنواط" هل قصدوا مخالفة الدين ومصادمة ما جاء به النبي الكريم عليه الصلاة والسلام؟ هل هذا كان مرادهم ؟ لا والله ؛ القوم أسلموا ودخلوا مع النبي صلى الله عليه وسلم وهم معه ذاهبون للقتال في سبيل الله ولنصرة دين الله تبارك وتعالى فما قصدوا مخالفة الدين . إذاً ماذا كان مقصدهم ؟ قال : «كونهم قصدوا التقرب إلى الله بذلك لظنهم أنه يحبه»؛ ظنوا أن هذا العمل يحبه الله . وهذا حال كثير من الناس يكون ما أراد بعمله الباطل إلا الخير ، وما أراد به إلا التقرب إلى الله سبحانه ، وما أراد به إلا الفوز عنده ، حتى عبدة الأوثان إذا قيل لهم في عبادتها قالوا ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر:٣] . فإذاً هؤلاء ما قصدوا مصادمة الدين ومخالفة الشرع وإنما قصدوا التقرب إلى الله، ظنوا أن هذا العمل عمل صالح يحبه الله سبحانه وتعالى.

الخامسة : أنهم إذا جهِلوا هذا ، فغيرهم أولى بالجهل .

وهذا تنبيه عظيم جداً قال : «إذا جهلوا هذا فغيرهم أولى بالجهل»؛ إذا جهلوا هذا وهم في زمن النبوة ومع النبي صلى الله عليه وسلم وبين الصحابة وذاهبون في قتال في سبيل الله وجهلوا هذا الأمر الذي ينافي« لا إله إلا الله» خفي عليهم ؛ فكون غيرهم ممن جاء بعدهم ولاسيما بقرون كثيرة يجهل ذلك من باب أولى .

السادسة : أن لهم من الحسنات والوعد بالمغفرة ما ليس لغيرهم .

لأنهم صحابة ، أصحاب النبي ، أكرمهم الله بصحبته ، وأكرمهم الله بالخروج معه للقتال في سبيل الله ولنصرة دين الله تبارك وتعالى؛ فلهم من الحسنات والوعد بالمغفرة ما ليس لغيرهم ، فمع ذلك النبي صلى الله عليه وسلم مثل ما سيأتي معنا تنبيه الشيخ اشتد إنكاره عليهم في قولهم "اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط" .

السابعة : أن النبي صلى الله عليه وسلم : لم يعذرهم بل رد عليهم بقوله : ((الله أكبر إنها السنن لتتبعن سنن من كان قبلكم)) فغلَّظ الأمر بهذه الثلاث .

أن النبي عليه الصلاة والسلام لم يعذرهم بل أنكر عليهم وغلَّظ في الإنكار عليه الصلاة والسلام بهذه الثلاث التي قالها لهم عليه الصلاة والسلام؛ قال ((الله أكبر)) ، وقال ((إنها السنن)) ، وقال ((لتتبعن سنن من كان قبلكم)) .

الثامنة : الأمر الكبير –وهو المقصود– أنه أخبر أن طلبهم كطلب بني إسرائيل لما قالوا لموسى {اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا} .

«الأمر الكبير– وهو المقصود– أنه أخبر أن طلبهم كطلب بني إسرائيل» ؛ انتبه الآن يعني هؤلاء الصحابة لما قالوا للنبي اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ماذا قال النبي ؟ قال ((قلتم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسى لموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة)) أي قولكم مثل قولهم ، حتى وإن اختلفت الألفاظ؛ ألفاظكم هي "اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط" ، وأولئك قالوا "اجعل لنا إلها كما لهم آلهة" إن اختلف اللفظ المضمون واحد ، ولهذا قال ((قلتم كما قالوا)) اللفظ مختلف لكن المضمون واحد ، وهذا ينبه أن الشرك يبقى شركاً وإن تغيرت ألفاظه.

التاسعة : أن نفي هذا من معنى «لا إله إلا الله» مع دقته وخفائه على أولئك .

قوله «على أولئك» : أي على أولئك الصحابة رضي الله عنهم الذين قدَّم الاعتذار عنهم أبو واقد الليثي رضي الله عنه بقوله ((ونحن حدثاء عهد بكفر)) ، فخفي على أولئك هذا الأمر مع أنه من معنى «لا إله إلا الله» ، إذ إنَّ من معنى «لا إله إلا الله» أن لا تتخذ تلك الأشياء التي فيها تعلقات ما أنزل الله بها من سلطان . ((اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط)) يعني عيِّن لنا شجرة تكون لنا مثلهم نعلِّق عليها أسلحتنا ، فقال عليه الصلاة والسلام ((قلتم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسى لموسى: {اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ})) ؛ فإذاً هذا من معنى «لا إله إلا الله» وقد خفي على أولئك ، وهم في زمن النبي عليه الصلاة والسلام وآمنوا به! لكنهم كانوا حدثاء عهد بكفر؛ أي عهدهم بالكفر كان قريب وقدَّم بذلك أبو واقد رضي الله عنه معتذراً أن هذا الخطأ الذي قد وقع منهم بقولهم هذا القول أو طلبهم ذلك الطلب .

العاشرة : أنه حلف على الفتيا وهو لا يحلف إلا لمصلحة .

«أنه حلف على الفتيا» لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال ((قلتم والذي نفسي بيده)) ؛ فحلف صلى الله عليه وسلم بالله ، وهو لا يحلف إلا لمصلحة .

الحادية عشرة : أن الشرك فيه أكبرٌ وأصغر ؛ لأنهم لم يرتدوا بهذا .

«**أن الشرك فيه أكبر وأصغر**» ؛ ومن الشرك الأصغر الوسائل التي تفضي إلى الشرك الأكبر وتؤدي إليه ، والشرع جاء بالنهي عن الشرك الأكبر وكل أمرٍ يفضي إليه ؛ فهذا الحديث يفيد أن الشرك فيه أكبر وأصغر من أين ؟ قال: «**لأنهم لم يرتدوا بهذا**» لأنهم لو ارتدوا لطلب منهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يجددوا الإيمان وأن ينطقوا الشهادتين ليدخلوا في الإسلام من جديد . فإذاً لم يرتدوا بذلك لأنهم لم يفعلوا ذلك ، لكن لما رأوا المشركين عندهم تلك الشجرة التي يقال لها ذات أنواط وكانوا حدثاء عهد بكفر قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم "اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط" .

الثانية عشرة : قولهم " ونحن حدثاء عهد بكفر " فيه أن غيرهم لا يجهل ذلك .

قوله أي أبو واقد : " ونحن حدثاء عهد بكفر " أي عهدنا بالكفر كان قريباً هذا يستفاد منه : أن غيرهم لا يجهل ذلك ، يعني من رسخ إيمانه وتعمق في الدين وكان متقدماً في الإسلام والإيمان لا يجهل ذلك ، ولهذا إنما حصل هذا الطلب من هؤلاء الذين قدَّم أبو واقد عنهم هذا الاعتذار بقوله "ونحن حدثاء عهد بكفر" ، فحديث العهد بكفر لم يستوعب بعد الإسلام بتفاصيله وحقائقه وقواعده ، أما الذي رسخ في الإسلام وتقدم فيه وعرف الأحكام لا يجهل مثل ذلك لما أكرمه الله سبحانه وتعالى من رسوخٍ في الإيمان وفهمٍ للدين .

الثالثة عشرة : التكبير عند التعجب خلافًا لمن كرهه .

لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((الله أكبر)) يعني تعجب من مقالتهم هذه وكبَّر الله سبحانه وتعالى ، فهذا فيه جواز التكبير عند التعجب خلافا لمن كره ذلك .

الرابعة عشرة : سد الذرائع .

وهذا أيضاً واضح في الحديث ، وهؤلاء إنما قالوا هذه الكلمة عن جهل ، فقال لهم النبي عليه الصلاة والسلام: ((قلتم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسى لموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة)) .

الخامسة عشرة : النهي عن التشبه بأهل الجاهلية .

وهذا مستفاد من نهي النبي صلى الله عليه وسلم لهؤلاء عندما قالوا "اجعل لنا ذات أنواط" ؛ هذا فيه تشبه بأهل الجاهلية فنهاهم عن ذلك عليه الصلاة والسلام وحذَّرهم منه صلى الله عليه وسلم ؛ فيستفاد من ذلك النهي عن التشبه بأهل الجاهلية في كل ما كان من أعمالهم أو أفعالهم أو خصائصهم أو نحو ذلك .

السادسة عشرة : الغضب عند التعليم .

وهذا واضح لأن النبي صلى الله عليه وسلم في عباراته كبَّر الله ثم قال ((إنها السنن قلتم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسى لموسى)) ثم قال ((لتركبن سنن من كان قبلكم)) هذا فيه غضب النبي صلى الله عليه وسلم عندما قال هؤلاء هذا القول .

السابعة عشرة : القاعدة الكلية لقوله : " إنها السنن " .

أي أن هذا الأمر الذي هو الجاهلية سُنن ماضية ولها من يثيرها ولها من يفعلها وهي باقية ؛ فهذه قاعدة كلية في قوله ((إنها السنن)) فيها التنبيه على وجود ذلك وبقاءه ، وتحذير أمة الإسلام من أن يصنعوا صنيع الجاهلية أو يفعلوا أفعالهم .

الثامنة عشرة : أن هذا علَم من أعلم النبوة لكونه وقع كما أخبر .

قال ((إنها السنن)) ، وقال ((لتركبن سنن من كان قبلكم)) وهذا إخبارٌ عن أمر مستقبل ووقع كما أخبر صلوات الله وسلامه عليه ، فكان ذلكم علَماً من أعلام نبوته صلوات الله وسلامه عليه .

التاسعة عشرة : أن كل ما ذم الله به اليهود والنصارى في القرآن أنه لنا .

نعم «أن كل ما ذم الله به اليهود والنصارى في القرآن أنه لنا» أي تحذير لنا أن نحذر مثل أفعالهم أو أن نعمل مثل أعمالهم ، ليست معلومات مجرد تذكر لتُعرف بل ذكرت من أجل التحذير من أن يصنع أحد مثل صنيعهم أو يفعل مثل فعلهم ؛ فهي سيقت مساق التحذير من تلك الأعمال . هذا المراد بقول الشيخ رحمه الله «فإنها لنا» يعني تحذير لنا من أن نفعل مثل أولئك .

العشرون : أنه متقرر عندهم أن العبادات مبناها على الأمر ، فصار فيها التنبيه على مسائل القبر ؛ أما : "من ربك " فواضح ، وأما " من نبيك " فمن إخباره بأنباء الغيب . وأما " ما دينك " فمن قولهم " اجعل لنا إلها " إلى آخره .

« أنه مقرَّرٌ عندهم أن العبادات مبناها على الأمر» يعني أمْر الشارع بذلك ، يعني لا يجوز للإنسان أن يفعل أي عبادة من العبادات إلا إذا أذِن له الشارع بذلك ، ولهذا لم يفعلوها ابتداءً ، يعني كونه متقرر عندهم أن العبادات مبناها على الأمر لم يفعلوها ابتداءً وإنما قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم "اجعل لنا" ، فقولهم "اجعل لنا" هذا يدل على أنه متقرر عندهم أن العبادات مبناها على الأمر بدليل أنهم لم يفعلوا ذلك ابتداءً .

قال رحمه الله «فصار فيه التنبيه على مسائل القبر» : أي الثلاثة من ربك وما دينك ومن نبيك .

قال : «أما "من ربك" فواضح» أي واضح في ما ذُكر في سياق هذا الحديث من أن البركة إنما تُنال من الله وأن التعلق لا يكون إلا بالله وأن الأمور إنما هي كلها بيد الله ، فلا يُلجأ إلا إليه ولا يُعبد إلا هو ولا يُقصد إلا هو سبحانه وتعالى ، والحذر من تلك الأعمال أعمال الجاهلية ؛ فهذا يستفاد فيه من ربك ؟ أي أن ربي الذي أعبده وأقصده والتجأ إليه أخضع له وأصرف له جميع عباداتي وأتوكل عليه إنما هو الله سبحانه وتعالى وحده .

قال : «وأما "من نبيك" فبإخباره بأنباء الغيب» فهذا علم مثل ما قال الشيخ قريباً من أعلام النبوة، يخبر عليه الصلاة والسلام عن أمور مستقبلة وتقع طبقاً لما أخبر صلوات الله وسلامه عليه .

قال : «وأما "ما دينك" فمن قولهم : "اجعل لنا إلها"» ؛ وهذا فيه أن الدين هو الاستسلام لله تبارك وتعالى والامتثال لأمره والانقياد لما جاء عنه سبحانه وتعالى، وترك ما سوى ذلك ، وهذا يستفاد كله من قوله "اجعل لنا إلها" ، فهذا يفيد أن العبادة مبناها على الأمر والتسليم والانقياد لأمر الله سبحانه وتعالى وترك ما سوى ذلك مما لم يأت به أمر الله جل وعلا وأمْر رسوله صلوات الله وسلامه عليه .

الحادية والعشرون : أن سنة أهل الكتاب مذمومة كسنة المشركين .

لأن النبي عليه الصلاة والسلام ذكر سنة هؤلاء وسنة هؤلاء في مقام الذم ، في قوله أولاً ((الله أكبر إنها السنن)) ثم قوله ((لتركبن سنن من كان قبلكم)) .

الثانية والعشرون : أن المنتقل من الباطل الذي اعتاده قلبه لا يؤمَن أن يكون في قلبه بقية من تلك العادة لقوله : "ونحن حدثاء عهد بكفر" .

وهذه فائدة ثمينة يختم بها رحمه الله تعالى مسائل هذا الباب «بابٌ من تبرك بشجر أو حجر أو نحوهما» : أن المنتقل من الباطل الذي اعتاده قلبه لا يؤمَن أن يكون في قلبه بقية من تلك العادة ؛ وهذا مستفاد من قول أبي واقد "ونحن حدثاء عهد بكفر" ، فالمنتقل من الباطل الذي اعتاده قلبه إذا دخل في الحق لا يؤمَن أن يكون فيه شيء من الرواسب أو البقايا التي من عقيدته قبل هدايته إلى الحق ؛ فيقولها أو يقررها أو يدعو إليها ظناً أنها من الحق ، وهي في الواقع من بقايا اعتقاداته الأولى أيام جاهليته ؛ فانظروا هذه الطريقة المسددة الموفقة المباركة التي كان عليها أبو واقد ومن معه من الصحب الكرام "قالوا اجعل لنا" يعني لم يتبنَّوا تلك الأمور مباشرة ويدعو الناس إليها وإنما قالوا "اجعل لنا" فلما نبههم توقفوا عن هذا الأمر ، بينما بعض الناس قد يدخل في الإسلام وتكون عنده بعض الرواسب ولاسيما من أمور كانت تعجبه أو نفسه تميل إليها ويبادر لدعوة الناس إليها ما الذي يحدث حينئذ ؟ انظر إلى الفرق الضالة المنتسبة إلى الإسلام –وهي كثيرة جداً– تجد في كثير منها تداخلت الأمور وأصبحت عندها مزيج مثلاً إما من عقائد الهندوك أو عقائد المجوس أو عقائد اليهود أو غير ذلك ، وهذه ترجع في تقديري والله تعالى أعلم إلى أحد أمرين :

- إما سوء طوية من بعضهم ، يعني يدخل في الإسلام ويتظاهر أنه من أهل الإسلام ثم يشق في الناس مذهباً أو معتقداً يمزج فيه بين أمور ينتقيها من الإسلام وأمور من الديانة التي كان عليها أو الديانات الأخرى ، وحصل مثل هذا أن ناساً اندس وتظاهر بالإسلام ثم أخذ يقرر نحلةً أو عقيدةً أو مذهباً فوُجد له أتباع في عقيدته أو مذهبه هذا أمر .
- الأمر الآخر: قد يكون يريد الخير لكنه تعجَّل ولم يتأنِّ ولم يتعلم ولم يتفقه ومجرد أن دخل في الإسلام وأخذ بشيء من الجوانب التي في هذا الدين بدأ يدعو ويتصدر للدعوة ولم ترسخ قدمه في العلم والإيمان أصبحت دعوته مزيجاً بين الشيء القليل الذي تعلمه من الإسلام والركام الذي كان معه في جاهليته قبل إسلامه . ولهذا لما تطالع في كتب الفرق المنتسبة إلى الإسلام وفي الحديث قال عليه الصلاة والسلام ((ستفترق هذه الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة)) تجد أن كثير من هذه الفرق فيها هذا المعنى الذي أشرت إليه .

فإذاً المصنف رحمه الله تعالى لما ذكر هذه الفائدة؛ فيها التنبيه إلى أن من كان حديث عهد بجاهلية عليه أن يتأنى ويتعلم ويتفقه ولا يبادر لأي عمل من الأعمال حتى يتحقق من أن الشرع أذِن به وأمر به ودل عليه ، لا يعمله هو فضلاً عن أن يكون داعيةً للآخرين إلى فعل ذلك الأمر الذي ربما يتبين أنه مما لا أصل له في دين الله وأنه من بقايا جاهليته قبل دخوله للإسلام . فهذه مسألة ثمينة ومهمة نبَّه عليها المصنف رحمه الله تعالى ، والله تعالى أعلم.

الدرس الثاني عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله؛ صلى الله وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد :

يقول الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد :

بابٌ ما جاء في الذبح لغير الله وقول الله تعالى : {قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ} الآية [الأنعام:١٦٢-١٦٣] .

****

قال المصنف الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى ((**بابٌ ما جاء في الذبح لغير الله**)) «ما جاء» أي في آيات القرآن وأحاديث الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام «في الذبح لغير الله» أي من الوعيد الشديد والتهديد لفاعل ذلك ، وأن فاعل ذلك ملعون جاءت الأحاديث بلعنه ، وأنه في النار ، وأن عمله هذا من الشرك الأكبر الناقل من ملة الإسلام .

فهذه الترجمة عقدها رحمه الله تعالى لبيان أنَّ الذبح عبادة وقربة عظيمة ، وهي من العبادات المالية جليلة القدر عظيمة الشأن كبيرة الفائدة والعائدة ، وأنها شأنها كشأن سائر العبادات لا يجوز صرفها لغير الله تبارك وتعالى ، فحق الله على العباد أن يفردوه بالعبادة كلها بجميع أنواعها وأفرادها ، والذبح عبادة وقربة من القرب التي يُتقرب بها إلى الله سبحانه وتعالى . وسيأتي معنا في النصوص أن هذه العبادة – عبادة الذبح – قُرنت في غير موضع مع الصلاة التي هي عماد الدين وأعظم أركانه بعد الشهادتين ، والصلاة عبادة بدنية والذبح عبادة مالية وقد جُمع بينهما في مواضع مما يدل على المكانة العظيمة لهذه العبادة – أعني عبادة الذبح – تقرباً إلى الله سبحانه وتعالى .

وكما أن من صلى لغير الله ؛كأن يذهب إلى شجرة أو حجر أو ضريح أو غير ذلك يصلي له ركعتين أو ثلاث ركعات أو أربع يكون بهذا العمل مشركاً الشرك الأكبر الناقل من ملة الإسلام ، فكذلكم مثله تماماً من يذهب إلى شيء من هذه الأمكنة ليتقرب إليها بشاةٍ يذبحها أو بقرة أو نحو ذلك ؛ فإن هذا كذلك من الشرك الأكبر الناقل من ملة الإسلام . فكما أنه لا يصلَّى إلا لله تبارك وتعالى فكذلكم لا يُذبح إلا له ، لأن الذبح عبادة وقربة لا تُصرف إلا لله عز وجل ، فمن صرفها لغيره فقد أشرك بالله العظيم الشرك الأكبر الناقل من ملة الإسلام .

فهذه الترجمة العظيمة عقدها رحمه الله تعالى لبيان ذلك ، ونصَّ على الذبح وخصَّه رحمه الله تعالى بالذكر: لانتشار وفشوّ صرف هذه العبادة لغير الله تبارك وتعالى ، ذبح القرابين وتقديمها للقباب والأضرحة أو للأشجار أو كذلك تقديمها للجن في صورٍ كثيرة وأمورٍ عديدة تقع في أمكنةٍ مختلفة صرفاً لهذه العبادة لغير الله تبارك وتعالى .

ومن عجيب ما سمعتُه من القصص حديثة العهد : ما أخبرني به أحد الأفاضل قريباً ؛ أن شخصاً اشترى شاةً أراد أن يذبحها قرباناً لضريحٍ من الأضرحة في بلده اشتُهر تقديم الذبائح والقرابين له ، لكن هذه الشاة مرضت عنده وعمل على معالجتها فلم

يفلح في ذلك وماتت ، ماتت عنده قبل أن يذبحها لمن أراد أن يذبحها له فقال مخاطباً ذلك المقبور الميت الذي كان يريد أن يذبح له هذه الشاة : "يا سيدنا فلان لماذا عجّلت بأخذها؟ وأنا إنما جئت بها لأقربها إليك" ؛ فانظر هذا الشرك ما أشنعه ، وكيف أصبحت قلوب هؤلاء معطبة تماماً بمثل هذه التقربات الباطلة والشركيات الجلية والتعلقات التي ما أنزل الله بها من سلطان ، إضافةً إلى العقائد ، انظر كيف يعتقد في ذلك الميت أنه هو الذي قبض روح هذه الشاة وعجّل بموتها؛ وهو ميت مقبور !! وهكذا الضلال والشيطان يتلاعب بالناس فيوقعهم في مثل هذه المهالك ويوصلهم إلى هذه المعاطب .

فالإمام شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله كان ناصحاً للأمة بهذه العناية الدقيقة تبويباً وبياناً ونصحاً واستدلالاً حتى لا تقع مثل هذه الأعمال وحتى لا يكون لأهل الباطل يد ، لأن هذه الآيات – يا إخوان– التي ساقها رحمه الله تعالى والأحاديث عندما تُبلَّغ للعوام والجهال تكون عصمة لهم من دعاة الباطل ، والله يا إخوان بعضهم يُحدِّث أنه في بلده لم يسمع هذه الآيات ولم يسمع هذه الأحاديث وإنما يكون في بلده أئمة ضلال يروّجون له الباطل ويزخرفونه له بالحكايات وبالقصص وبالأحاديث الموضوعات المكذوبات ؛ فينشأ على مثل ذلك الضلال . فإذاً نشر هذه الآيات وهذه الأحاديث عن الرسول عليه الصلاة والسلام هو الذي بإذن الله تبارك وتعالى تقع به سلامة الناس من هذا الباطل .

وأهل الباطل لا يريدون لأتباعهم ومن تأثر بهم أن يسمع القرآن وأن يسمع أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام على غرار الأُوَل الذين قالوا : ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾ [فصلت:٢٦] ، فأصبح بعضهم يحذِّر أتباعه، حتى أحد المهتدين قال لي أنا شخصياً قبل سنوات طوال : "لما أردت أن آتي إلى هذه البلاد حذرني أشياخنا وقالوا انتبه لا يغيرون عليك عقيدتك واحذرهم ، فإن علامتهم – يقول هكذا قالوا لي – فإن علامتهم كلما يتحدثون يقولون قال الله قال رسوله ، انتبه لا يفتنوك" . فمثل هذا الذي لأشياخه تعظيم ولكلامهم قبول عنده لا يسمع للقرآن ولا يسمع لأحاديث الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام. فهذه الآيات والأحاديث حقاً يحتاج الناس والعوام في عموم البلدان أن تُنشر بينهم حتى تقع السلامة بإذن الله تبارك وتعالى من مثل هذه التعلقات الباطلة والشركيات الواضحة .

والإمام رحمه الله طريقته عرفناها ؛ يبوّب ويذكر آيات من كلام ربنا وأحاديث عن رسولنا صلوات الله وسلامه عليه ، والحجة كلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم . ولهذا الترجمة تدلك على ذلك؛ ((**باب ما جاء في الذبح لغير الله**)) ما جاء : أي من آيات وأحاديث ثم ساقها رحمه الله تعالى ؛ ألا فما أعظم نصح هذا الرجل ، جزاه الله خير الجزاء على حُسن صنيعه وجمال نصحه وحُسن بيانه لهذا الأمر العظيم الذي هو توحيد الله سبحانه وتعالى وتحذيره رحمه الله من ضده الإشراك بالله عز وجل .

أورد أول ما أورد قول الله سبحانه : ﴿ **قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ** ﴾ ؛ «قل» : أي أيها النبي صلوات الله وسلامه عليه قل للمشركين الذين عبدوا غير الله وتعلقت قلوبهم بغيره وصرفوا العبادات لغيره دعاءً وذبحاً ونذراً واستغاثةً وتوكلاً وغير ذلكم من العبادات ؛ قل لهم صادعاً بالحق مبيناً المعتقد والدين الذي أنت عليه وتتقرب إلى الله سبحانه وتعالى به ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ .

﴿ صَلَاتِي ﴾ بدأ بهذه العبادة وهي أعظم العبادات البدنية وأجلُّها ، بل هي أجل العبادات وأعظم مباني الإسلام بعد الشهادتين ، وهي عماد الدين وأعظم أركانه بعد الشهادتين ، ذُكرت هذه العبادة عند رسولنا عليه الصلاة والسلام كما جاء في

المسند للإمام أحمد فقال مبيناً صلى الله عليه وسلم عظم شأنها وجلالة قدرها وكبر فوائدها : ((مَنْ حَافَظَ عَلَيْهَا كَانَتْ لَهُ نُورًا وَبُرْهَانًا وَنَجَاةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ لَمْ يُحَافِظْ عَلَيْهَا لَمْ يَكُنْ لَهُ نُورٌ وَلَا بُرْهَانٌ وَلَا نَجَاةٌ ، وَكَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ قَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَأُبَيِّ بْنِ خَلَفٍ)) أي أن تارك الصلاة يحشر يوم القيامة جنباً إلى جنب مع صناديد الكفر وأعمدة الباطل . فهذا الحديث وغيره من الأدلة في القرآن والسنة تبين المكانة العظيمة لهذه الصلاة التي هي عماد الدين وأعظم أركانه بعد الشهادتين .

﴿وَنُسُكِي﴾ وهذا موضع الشاهد من الآية للترجمة ، والنسك : هو الذبح سواءً كان في الحج والعمرة أو عموماً متقربا به إلى الله سبحانه وتعالى فالنسك هو الذبح ، ﴿وَنُسُكِي﴾ : أي ذبحي .

وفي هذه الآية الكريمة قُرن النسك الذي هو أعظم العبادات المالية بالصلاة التي هي أعظم العبادات البدنية ، وخُصَّتا هاتان العبادتان بالذكر لعظم هاتين العبادتين، ولما تشتملان عليه من أنواع التعبد والتذلل والخضوع والانكسار لله سبحانه وتعالى ؛ أما الصلاة فانظر ما فيها من أنواع العبادات من ذكر ودعاء وقراءة قرآن وسجود وركوع وتعظيم لله سبحانه وتعالى ، اشتملت على أنواع من العبادات والتذلل والخضوع والانكسار لله سبحانه وتعالى . وعبادة الذبح أيضاً فيها من معاني التعبد والتذلل والتوكل على الله والثقة به جل وعلا وحُسن الإقبال عليه والبذل في سبيله ، والذبح هو أعظم القربات المالية ، لأن الذبيحة لها شأن ولاسيما عند من تربَّت عنده ونشأت بين ناظريه ورعاها واعتنى بها ثم يسوقها ويقودها ويذبحها متقرباً بها إلى ربه سبحانه وتعالى ، يريق دمها قربةً لله طالباً بذلك ثواب الله وأجره سبحانه وتعالى . فالذبح عبادة عظيمة جداً قُرنت هنا بالصلاة ؛ ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ .

﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ ؛ «وَمَحْيَايَ» أي ما أحيا عليه ، وهذا يتناول كل العبادات التي يحيا عليها المسلم، فالمسلم محياه لله سبحانه وتعالى تقرباً وتذللاً وخضوعاً ودعاءً وذكرا وتعظيما ، محياه كله لله . «وَمَمَاتِي»أي ما أموت عليه ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ، وفي الدعاء ((اللَّهُمَّ مَنْ أَحْيَيْتَهُ مِنَّا فَأَحْيِهِ عَلَى الإِسْلَامِ، وَمَنْ تَوَفَّيْتَهُ مِنَّا فَتَوَفَّهُ عَلَى الإِيمَانِ)) . وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ: أي ما أحيا عليه وما أموت عليه لله سبحانه وتعالى .

﴿لِلَّهِ﴾؛ ذكر هذا الاسم «الله» ومعناه : ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين . ﴿لِلَّهِ﴾: أي للمعبود الذي له العبادة وله الذل وله الخضوع لا شريك له .

﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ : أي خالقهم ومالكهم ومدبر شئونهم والمتصرف فيهم . وأيضاً المربي لهم بالإيمان والإسلام والطاعة والعبودية لله تبارك وتعالى ، وهذا خاصٌ بمن أكرمهم الله عز وجل وهداهم إلى دينه القويم ، لأن تربية الله لخلقه نوعان : عامة وخاصة .

- العامة : تتناول المسلم والكافر والبر والفاجر بالخلق والرزق ونحو ذلك .
- والخاصة هي التربية على الإيمان ؛ وهذه إنما تختص بعباد الله المؤمنين ومن أكرمهم الله سبحانه وتعالى وهداهم إلى هذا الدين .

﴿ وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ ؛ وقوله «لَا شَرِيكَ لَهُ» فيه دلالة على أن صرف شيء من ذلك لغير الله تبارك وتعالى شركٌ بالله ومن ذلكم الذبح ، من صرف الذبح لغير الله فقد جعل لله شريكاً، والآية فيها أن هذه الأعمال كلها

لله وحده تبارك وتعالى ، فمن ذبح لغير الله جعل لله شريكاً ، ومن جعل لله شريكا كان بذلكم كافراً الكفر الأكبر الناقل من الملة الموجب لخلود صاحبه في النار .

﴿وَبِذَلِكَ﴾ : أي بهذا التوحيد والإخلاص والبعد عن الشرك ﴿أُمِرْتُ﴾ ؛ وهذا فيه أن خلاصة دعوة نبينا ودعوة جميع النبيين إخلاص الدين لله ؛ صلاةً ودعاءً ورجاءً وخوفاً وذبحاً ونذراً وغير ذلك إخلاص ذلك كله لله سبحانه وتعالى مع البراءة من الشرك والخلوص منه .

وقوله ﴿وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ﴾ تقديم المعمول على العامل يفيد الحصر ؛ أي : به أمرت ولم أؤمر بغيره ، هذا هو دين الأنبياء لا دين لهم سواه ، فكل ما سوى ذلك ليس من دين النبيين وليس من وحي رب العالمين بل هو من وحي الشيطان ومن دين الباطل والضلال ، ومن ذلكم الذبح لغير الله ، الذبح لغير الله هذا ليس من الدين بل هو من الشرك بالله والكفر برب العالمين ، وهو من وحي الشيطان وتزيينه لمن يطيعه ويفعل ذلك .

﴿وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ والمراد بأول المسلمين : أي في هذه الأمة ، لأن كل نبي أول المسلمين في أمته .

الشاهد أن هذه الآية العظيمة فيها الدلالة على وجوب إخلاص الذبح لله وإفراده سبحانه وتعالى بذلك ، وأن الذبح لغير الله شرك بالله العظيم .

وقوله تعالى : { فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ } [الكوثر:٢] .

****

هذه الآية نظير التي قبلها ، فيها الجمع بين الصلاة والذبح ؛ هاتين العبادتين : العبادة البدنية والعبادة المالية ، وهما أعظم العبادات ، الصلاة أعظم العبادات البدنية ، والذبح أعظم العبادات المالية ، وجُمع بينهما في مواضع .

وقوله ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ : أي مخلصاً له ، مخلصًا صلاتك لله سبحانه وتعالى .

﴿وَانْحَرْ﴾ : أي لربك مخلصاً له .

فهذا فيه أن الذبح عبادة كالصلاة يجب أن يُخلَص لله وأن يُفرد وحده تبارك وتعالى به ، فكما أنه لا يجوز أن يصلى إلا لله فكذلك لا يجوز أن يُذبح إلا لله سبحانه وتعالى ؛ فهما عبادتان من أعظم العبادات وأجلِّها جمع بينهما في مواضع .

وأيضا مزيد توضيح : أمْر الصلاة وأنها يجب أن تُخلص لله أمرٌ واضح ، ويدرك الجميع حتى من يقع في عبادات أخرى يصرفها لغير الله أمر الصلاة واضح ؛ لا يفكر أن يذهب لضريح ليصلي له أربع ركعات أو يصلي له ثلاث ركعات، بل يقول "الصلاة لله ، لا تُصرف إلا له" ، فالذبح قُرن بالصلاة وجُمع بينه وبين الصلاة في مقام الدعوة للإخلاص والتحذير من الشرك ؛ فكيف قبِل أن يخلص الصلاة لله وأبى أن يخلص الذبح له !! مع أنه جُمع بينهما . وأيضاً كما أنه واضح أن الصلاة لله لا لغيره ولا يجوز أن تُصرف لغيره فإنه تماماً مثلها الذبح واضح أنه لله ، والنصوص جاءت صريحة بهذا وهذا فكيف فرَّق أولئك بين الصلاة والذبح !! مع أن بعض أهل الضلال وُجد منهم صرفٌ لشيء من أعمال الصلاة لغير الله ، مثل: وُجد من يسجد للقبر ، نعم يسجد سجوده في صلاته لصاحب القبر!! وهذا من الشرك الأكبر الناقل عن ملة الإسلام .

قال رحمه الله تعالى :

عن علي رضي الله عنه قال : حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم بأربع كلمات : ((لعن الله من ذبح لغير الله ، لعن الله من لعن والديه ، لعن الله من آوى محدثا ، لعن الله من غيَّر منار الأرض)) رواه مسلم .

****

ثم أورد رحمه الله حديث نبينا عليه الصلاة والسلام المخرَّج في صحيح مسلم عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه قال : ((**حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم بأربع كلمات** : «**لعن الله من ذبح لغير الله ، لعن الله من لعن والديه ، لعن الله من آوى محدثا ، لعن الله من غيَّر منار الأرض**»)) ؛ هذه أمور أربعة كلها فيها لعن . واللعن : الطرد والإبعاد من رحمة الله ، ولا يأتي اللعن إلا في الأمور العظام والكبائر الجسام التي يستحق صاحبها العقوبة من الله سبحانه وتعالى .

فعلي بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه يقول : ((**حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم بأربع كلمات**)) وجاء في سياق روايته لهذا الحديث أنه سُئل قيل : هل خصك رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء ؟ قال لم يخصني بشيء ثم ذكر هذا الحديث ؛ قال : «حدثني بأربع كلمات» .

بدأ نبينا عليه الصلاة والسلام هذه الكلمات ، والكلمة من إطلاقاتها أنها تطلق على الجملة ، وهنا «أربع كلمات» أي أربع جمل ، أطلق الكلمة على الجملة ، منه قول الله تعالى: ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ [المؤمنون:١٠٠] إشارةً إلى قوله ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون:٩٩-١٠٠] ، فالكلمة تطلق على الجملة ، وتطلق أيضاً على ما هو أوسع من ذلك ؛ الخطبة يقال عنها كلمة ، أو المقالة الطويلة يقال عنها كلمة .

((**حدثني بأربع كلمات**)) : أي بأربع جمل كلها فيها اللعن لمن قام بأعمال معينة ذُكرت في هذا الحديث .

بُدأت هذه الأمور الأربعة بالذبح لغير الله ولعن فاعله قال : ((**لعن الله من ذبح لغير الله**)) ؛ ولا شك أن البدء به وتقديمه على غيره دليلٌ على أنه أخطر هذه الأمور المذكورات ، والأمور المذكورة في الحديث : لعْن الرجل والديه ، وتغيير منار الأرض ، وإيواء المحدِث ، والذبح لغير الله قُدِّم عليها لماذا ؟ لأنه شرك بالله ، والشرك هو أخطر الذنوب وأكبر الآثام ، ودائماً عندما تُذكر الذنوب يقدَّم الشرك؛ انظر قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان:٦٨] قدَّمه على الزنا والقتل لأنه أخطر من القتل والزنا . في قوله عليه الصلاة والسلام : ((اجتنبوا السبع الموبقات)) بدأ بالشرك بالله لأنه أخطر الموبقات ، وهنا قُدِّم على هذه الأمور التي فيها اللعن والطرد والإبعاد من رحمة الله لأنه أخطرها .

قال : ((**لعن الله من ذبح لغير الله**)) وهذا موضع الشاهد من هذا الحديث للترجمة .

((**لعن الله من لعن والديه**)) وهنا يتناول من لعن والديه ابتداءً أو لعن والديه تسبُّبا ، لأنه جاء في حديث آخر أن النبي عليه الصلاة والسلام قال : ((من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه)) قال الصحابة : «وهل يلعن الرجل والديه؟» يعني يقولون ما يتصور هذا أن يوجد رجل يلعن والديه ، قال : ((نعم يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه)) وهذا لعن بالتسبب . فلعْن الرجل والديه أو أحدهما ابتداءً أو تسبباً هذا من الكبائر ومن موجبات حلول اللعنة التي هي الطرد والإبعاد من رحمة الله على فاعل ذلك .

ثم ذكر الأمر الثالث قال : ((**لعن الله من آوى محدِثاً**)) ؛ آوى محدِثًا : أي حال بينه وبين أن توقَع عليه العقوبة أو أن يُقتص منه . والمحدِث: هو الشخص الذي فعل حدثاً استحق به حق لله سبحانه وتعالى؛ وذلك بأن يقام عليه الحد من الحدود التي رُتبت على تلك الذنوب وتلك الجنايات ، فمن آواه أي نصره ومنع أحداً أن يقتص منه أو أن يقام عليه هذا الحد فإن فعله يستحق به اللعن .((لعن الله من آوى محدِثاً)) هذا على رواية الخفض .

ويروى بالفتح ((محدَثاً)) من آوى محدَثاً أي بدعة ، وهذا فيه خطورة الانتصار للبدع وحمايتها والذب عنها والعمل على نشرها . فهذا أمرٌ خطير ، لأنه يروى بالفتح ويروى بالكسر ؛ محدِثا على المعنى السابق ومحدَثاً .

ثم ذكر الأمر الرابع : ((**لعن الله من غيَّر منار الأرض**)) والمراد بمنار الأرض : أي الرسوم والعلامات التي تتمايز بها الحقوق ، مثل: بين بستان فلان وفلان توضع رسوم تميِّز حدَّه من حد صاحبه . وسميت الرسوم والعلامات مناراً لأنها تنير الأرض تجعله واضحاً تميِّز به بين الحقوق ، فلو جاء شخص وقدَّم رسم من هذا الرسوم أو علامة من هذه العلامات قدَّمها شبراً بحيث تتسع أرضه وتضيق أرض جاره فهذا من التغيير الذي يوجب اللعن ((لعن الله من غير منار الأرض)) ، ((ومن اقتطع شبراً ظلما طوقه من سبعة أراضين)) كما جاء بذلك الحديث عن الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه ، والظلم ظلمات يوم القيامة .

ويدخل في ذلك التلاعب بالوثائق أو بالمستندات أو التلاعب مثلاً بالوصايا أو غيرها بحيث يغير كلمة أو يزيد حرفاً بحيث تتغير الحقوق ولا تتمايز ولا يتضح حق فلان من حق فلان ، أو يزيد بذلك حقاً على آخر فهذا يشمله هذا اللعن في الحديث .

أيضاً يشمل الحديث من يغير في منار الأرض التي هي العلامات التي يهتدي بها الناس في الطرق ، مثل أن توضع علامة تدل على بلدٍ ما أو تدل على وجود ماء مثلا أو أمر يحتاج الناس إليه؛ فيأتي شخص فيغير العلامة فيجعل الناس يضلون الطريق ، يشمله اللعن ويتناوله قوله عليه الصلاة والسلام ((لعن الله من غير منار الأرض)) .

فهذه أمور أربعة فيها اللعن وهو الطرد والإبعاد من رحمة الله تبارك وتعالى ، وبُدأت بالذبح لغير الله لأنه أخطرها وأشنعها .

قال رحمه الله تعالى :

وعن طارق بن شهاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((دخل الجنة رجل في ذباب ودخل النار رجل في ذباب)) . قالوا : وكيف ذلك يا رسول الله ؟ قال : ((مر رجلان على قوم لهم صنم لا يجوزه أحد حتى يقرب له شيئا ، فقالوا لأحدهما : قرِّب ، قال : ليس عندي شيء أقرب ، قالوا له : قرب ولو ذبابا ، فقرب ذباباً فخلوا سبيله فدخل النار . وقالوا للآخر : قرِّب ، قال : ما كنت لأقرب لأحدٍ شيئاً دون الله عز وجل، فضربوا عنقه فدخل الجنة)) رواه أحمد .

****

ثم ختم رحمه الله تعالى هذه الترجمة بهذا الحديث حديث طارق بن شهاب : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((**دخل الجنة رجل في ذباب ، ودخل النار رجل في ذباب**)) ؛ والذباب من أحقر الحيوان وأخسه ، وهو حيوان لا قيمة له وليس مما هو له شأن بحيث يُنفَق أو يُبذَل أو يُتقرب به أو يُقدَّم ؛ فالصحابة تعجبوا تعجباً عظيما ذباب دخل بموجبه رجل الجنة وآخر النار !! قال : ((دخل الجنة رجل في ذباب ، ودخل النار رجل في ذباب)) أي بسببه ، هذا أمر عجيب ولهذا قالوا : متعجبين ((**كيف ذلك يا رسول الله ؟**)) ، وفعلاً أمر عجيب جدا.

((**قال : مر رجلان**)) أي ممن كان قبلنا .

((**مر رجلان على قوم لهم صنم لا يجوزه أحد حتى يقرِّب له شيئا**)) لا يجوزه أحد : أي لا يمر من عنده أحد حتى يقرب له شيئا . وقوله «شيئا» يفيد أن هؤلاء الذين عند هذا الصنم لا يجعلون أحداً يمر من ذلك الطريق حتى يقدِّم ، لا يهمُّهم الشيء الذي يقدَّم بقدر ما يهمُّهم الموافقة وعمل القلب ، ولهذا جاء في السياق هنا ((لا يجوزه حتى يقرب شيئا)) و«شيئا» نكرة فتفيد العموم أي شيء كان ، المهم أن يكون عنده موافقة لهم في دينهم لعقيدتهم التقرب لهذا الصنم ((حتى يقرب شيئا)) .

((**فقالوا لأحدهما قرِّب ، قال : ليس عندي شيء أقرِّب**)) ظاهر السياق أن الرجل أبدى استعداداً من أول ما طُلب منه ولم يتمنَّع لكنه اعتذر بأنه ليس عنده شيء يقربه ، ولهذا مباشرة قال لهم ((ليس عندي ما أقرب)) . وثمة احتمال أن هؤلاء يمنعون المرور ((لا يجوزه)) أي لا يمر ، لكن إذا أراد الإنسان يرجع لا يمر؛ فثمة احتمال في السياق أنه له أن يرجع ، لكن لا يمر أحد كما يفيده قول ((لا يجوزه أحد)) .

لأن ثمة سؤال هل هذا مكره أو ليس مكره ؟ الأمر محتمِل ؛ يحتمل أنه مكره ، ويحتمل أنه ليس مكره . أما احتمال أنه ليس مكرهاً ؛ فعلى المعنى الذي أشرت إليه ؛ يمنعون من يمر ، لكن إذا أراد أن لا يمر ويرجع من حيث أتى لا يمانعون من ذلك لأنه قال ((لا يجوز حتى يقرب)) ، فالرجل مباشرة قال ((ليس عندي ما أقرب)) كأنه قال : "أنا مستعد لكن ما عندي شيء" .

((**قالوا له : قرب ولو ذباباً**)) لماذا قالوا ذلك ؟ لماذا قالوا «ولو ذبابا» مع أنهم هم أنفسهم يعرفون أن الذباب ليس مما يقرب ولا يقدَّم ؟ هذا يفيد أن أهل الباطل أكثر ما يهمُّهم الموافقة وعمل القلب ، يهمهم أكثر من صورة العمل ، الموافقة على عملهم والعقيدة التي هم عليها .

((**قالوا قرب ولو ذبابا ، فقرَّب ذباباً**)) ؛ اصطاد لهم ذباباً ربما أنه كان يطير عليه يؤذيه فأخذه وقطع رأسه قربة لذلك الصنم فجعلوه يمر ؛ فدخل النار بذلك الذباب .

انتبه لقوله «**فخلوا سبيله فدخل النار**» العطف بالفاء التي تفيد ترتُّب الحكم على ذلك الذي هو دخول النار مترتب على تقريب الذباب . هذا يؤخذ منه كما أفاد المصنف في المسائل أن الرجل كان قبل ذلك مسلماً ، وإلا فما معنى «فدخل النار»؟ أي بسبب تقريب الذباب إن كان قبل ذلك ليس بمسلم ؟! فهذا يفيد أن الرجل كان قبل ذلك مسلماً فأشرك بالله شركاً استحق به أن يدخل النار ، والمراد بها دخول النار على الكفر ، بماذا ؟ بذباب ذبحه لغير الله .

إذا كان هذا الرجل دخل النار بذباب ذبحه لغير الله؛ فكيف بمن يشتري الشاة السمينة من السوق وينتقيها ويقودها من غير أن يلحَّ عليه مُلِح ولا يطلب منه ذلك طالب ويذبحها لغير الله!! لشجرة أو حجر أو ضريح أو غير ذلك . إذا كان من ذبح ذبابا لغير الله دخل به النار فكيف بمن ذبح شاة أو بقرة أو ناقة أو غير ذلك ؟!

قال : ((**وقالوا للآخر قرِّب، قال : ما كنت لأقرب لأحد شيئاً دون الله عز وجل**)) أعلنها صريحة وصدع بالحق ولم يبالِ بالقوم .

((**فضربوا عنقه فدخل الجنة**)) ؛ قد يكون ضربهم لعنق هذا الرجل لأنه سفَّه هذه الأصنام وأعلن أنه لا يذبح لها شيئاً وأنَّ مثل هذه الأشياء لا تستحق أن يُذبح لها فضربوا عنقه فدخل الجنة .

يأتي سؤال هنا : هل الرجل الذي ضُربت عنقه فدخل الجنة وكذلك الرجل الذي جعلوه يمر هل فيه إكراه أو ليس فيه إكراه ؟ قلت فيما سبق الأمر محتمِل

- يحتمل أنه ليس هناك إكراه وإنما لا يمر أحد حتى يذبح ، أما إن رجع فلا يتناوله هذا الذي عليه هؤلاء الذين على الصنم ويكون قتلهم لهذا الرجل لا لكونه لم يذبح ولكن لكونه صدع بهذا الأمر الذي أعلنه ، فلم يكتفِ بالامتناع والرجوع بل قال لم أكن لأقرب لأحدٍ شيئا دون الله عز وجل . فيحتمل أنه ليس هناك إكراه .
- ويحتمل أن الأمر فيه إكراه لهؤلاء ، والله سبحانه وتعالى قال : ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل:١٠٦] ، يقال : إن كان في هذا إكراه لهؤلاء فلم يعفَ من قبلنا في الإكراه ، وإنما العفو في الإكراه لأمة محمد عليه الصلاة والسلام ، أما من قبلنا فلم يُعف عنهم في الإكراه ومطلوبٌ منه الصمود والصلابة وإن قُتل . ومما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف:٢٠] مع أنه فيه إكراه هنا ﴿يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾ إكراه. ومما يدل على ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : ((رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه)) «أمتي» هذا يفيد أن هذا الأمر خاص بأمة محمد صلى الله عليه وسلم . إذاً على فرض أنه مكره فقوله تعالى ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ هذا مما خص به الله سبحانه وتعالى أمة محمد عليه الصلاة والسلام ولم يكن ذلكم في شرع من قبلنا أو عند من قبلنا .

والشاهد من الحديث للترجمة : شيء معين محدد؛ وهو أن الذبح لغير الله موجبٌ دخول النار ، بقطع النظر عن التفاصيل التي أشير إليها الشاهد من الحديث للترجمة : أن الذبح لغير الله موجب لدخول النار ((فدخل النار)) ، وهذا أمر ثابت مستقر في شرائع جميع النبيين ؛ أن الذبح لغير الله شركٌ موجب دخول النار لأنه عبادة ، والعبادة حق لله تبارك وتعالى لا يجوز صرف شيء منها لغيره سبحانه وتعالى . وقد بعث الله أنبياءه بدعوة الناس إلى إخلاص العبادة لله ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]

وبهذا يكون الشيخ رحمه الله استدل لهذه الترجمة بآيتين وحديثين : الحديثين حديث علي وحديث طارق بن شهاب قال : **((رواه أحمد))** أي بهذا الإسناد عن طارق بن شهاب مرفوعاً إلى النبي عليه الصلاة والسلام . وهذا الإسناد ذكره الإمام ابن القيم رحمه الله في «حادي الأرواح» وعزاه للإمام أحمد أي مرفوعاً إلى النبي عليه الصلاة والسلام . وقد رواه الإمام أحمد في «كتاب الزهد» ، وأبو نعيم في «الحلية» ، وغيرهما عن طارق بن شهاب عن سلمان الفارسي موقوفاً ، لكن الإمام ابن القيم رحمه الله في «حادي الأرواح» ساق الإسناد عن طارق بن شهاب يرفعه أي إلى النبي الكريم عليه الصلاة والسلام .

ومما ينبه عليه في خاتمة هذه الترجمة : أن الذبح يتعلق به الإخلاص وأيضا يقع فيه الشرك من جهتين : من جهة الاستعانة ، ومن جهة العبادة.

- أما الجهة الأولى التي هي الاستعانة ؛ فبأنْ يُهلّ بالذبيحة لله بحيث يُذكر اسم الله عليها ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام:١٢١] فيقال عند الذبح «بسم الله» ، والباء في «بسم الله» باء الاستعانة أي أذبح مستعيناً بالله متبركاً بذكر اسمه تبارك وتعالى طالباً منه البركة سبحانه وتعالى . «بسم الله» : «اسم» مضاف ، و«الله» مضاف إليه ، والمفرد إذا أضيف يعم أي بأسماء الله تبارك وتعالى الحسنى . فهذا جانب .
- الجانب الآخر : جانب العبادة بأن يكون الذبح قربة لله عز وجل .

فإذاً الإخلاص في الذبح من جهتين : من جهة الاستعانة؛ بأن لا يذكر على الذبيحة إلا اسم الله ، فمن ذبح ذبيحةً وقال عليها : "بسم المسيح" ، أو "بسم الشيخ فلان" ، أو "بسم الولي الفلاني" ، أو غير ذلك فهذه لم يذكر اسم الله عليها وإنما ذُكر عليها غير اسم الله ؛ فوقع الشرك فيها من جهة الاستعانة . والجهة الثانية جهة التقرب؛ بأن لا يذبح الذبيحة إلا متقربا بها إلا إلى الله سبحانه وتعالى ؛ فمن ذبح ذبيحة قصد بها التقرب لغير الله من قبرٍ أو شجرةٍ أو ضريحٍ أو غير ذلك فقد أشرك من جهة العبادة .

- ❖ إذاً من ذبح باسم الله ولله فهو الموحِّد استعانةً وعبادة .
- ❖ ومَن ذبح باسم الله لغير الله فهو مشرك في العبادة .
- ❖ ومن ذبح لله ذاكراً عليها غير اسم الله فهو مشركٌ في الاستعانة إذا كان ذكر عليها اسم غير الله تبارك وتعالى .
- ❖ ومن ذبح بغير اسم الله متقرباً بها لغير الله جمع بين الشركين؛ في الاستعانة والعبادة .

فإذاً الإخلاص الذي يتعلق بالذبح يكون من الجهتين : جهة الاستعانة؛ فلا يذكر عليها إلا اسم الله تبارك وتعالى، ومن جهة التقرب؛ فلا يذبح إلا لله عز وجل .

ثم إن الذبح قد يكون عادة وقد يكون عبادة:

- العادة : مثل أن يذبح شاة ليأكل لحمها هو وأولاده ، أو يذبح شاة لضيفٍ أو نحو ذلك ؛ وهذه تكون قربةً عندما يقصِد بها التقرب إلى الله ونيل ثوابه ويحتسب أجره سبحانه وتعالى .
- والنوع الثاني الذي هو عبادة مثل ذبح الأضاحي وذبح الهدايا وغيرها مما جاء الشرع بمشروعية ذبحه تقرباً إلى الله عز وجل ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾ [الحج:٣٧] . والذبح لغير الله هو داخل في هذا الباب وهو من العبادة التي صُرفت لغير الله سبحانه وتعالى فيكون صاحبها واقعاً في الشرك الأكبر الناقل من الملة .

قال رحمه الله تعالى :

فيه مسائل ؛ الأولى : تفسير قوله { قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي } .

تفسير قوله {قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي} وقد تقدم .

الثانية : تفسير قوله { فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ } .

وأيضا تقدَّم .

الثالثة : البداءة بلعنة من ذبح لغير الله .

فيدل على أن هذا أعظم تلك الأمور المذكورة لأنه شركٌ أكبر ناقل من الملة .

الرابعة : لعْن من لعن والديه ؛ ومنه أن تلعن والدي الرجل فيلعن والديك .

الرابعة : لعن من لعن والديه أي ابتداءً أو تسبباً ، وأشار رحمه الله إلى التسبب بقوله : «ومنه أن تلعن والدي الرجل فيلعن والديك» .

الخامسة : لعن من آوى محدثا ، وهو الرجل يُحدِث شيئا يجب فيه حق لله ، فيلتجئ إلى من يجيره من ذلك .

وهذا من الأمور الأربعة التي جاءت في حديث علي ((من آوى محدِثا)) ، وذكر الشيخ رحمه الله تعالى معناه ، وتروى بالفتح «محدَثا» أي آوى بدعة بحيث نصرها وأيَّدها وعمل على نشرها .

السادسة : لعن من غيَّر منار الأرض ، وهي المراسيم التي تفرِّق بين حقك وحق جارك من الأرض فتغيرها بتقديمٍ أو تأخير .

وهذه السادسة : لعن من غير منار الأرض ، وهي المراسيم والعلامات التي تميز الحقوق أو الأراضي ، وأيضاً يتناول ما أشرت إليه وهو ما يُهتدى به من علامات في الطرق .

السابعة : الفرق بين لعن المعين ولعن أهل المعاصي على سبيل العموم .

الحديث فيه لعن على سبيل العموم ((لعن الله من كذا ولعن الله من فعل كذا ولعن الله من فعل كذا)) هذا لعنٌ لأهل المعاصي على سبيل العموم ، أما لعْن المعين فهو أن يوجِّه اللعن لشخص بعينه ، يعني مثلا جاء في الحديث ((لعن الله شارب الخمر)) فيرى شخصاً مثلا يشرب الخمر فيلعنه بعينه ، أو مثلا ((لعن الله آكل الربا)) فيرى شخصا يأكل الربا فيلعنه بعينه، أو ((لعن الله الواصلة والمستوصلة)) وغير ذلك مما جاءت به الأحاديث . ففيه فرق مثل ما أشار الشيخ رحمه الله بين اللعن بالتعميم واللعن بالتعيين؛ فالنبي عليه الصلاة والسلام لعن شارب الخمر ولما جيء بذلك الرجل الذي تكرر شربه للخمر فقال بعض الصحابة : "لعنه الله ما أكثر ما يؤتى به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم" ، قال ((لا تلعنوه)) مع أنه لعن صلى الله عليه وسلم بالتعميم؛ قال ((لعن الله شارب الخمر)) قال: ((لا تلعنوه فإنه يحب الله ورسوله)) ، فلعن عليه الصلاة والسلام بالتعميم ومنعَهم عندما عُيِّن ذلك الشخص باللعن ، ففرق بين التعميم والتعيين؛ هذا معنى قوله «الفرق بين لعن المعين ولعن أهل المعاصي على سبيل العموم» أي أن أهل المعاصي يلعنون على سبيل العموم : لعنة الله على الظالمين ، لعنة الله على شارب الخمر ، لعنة الله على من غيَّر منار الأرض ، لكن اللعن بالتعيين فهذا فيه خلاف بين أهل العلم ، والصحيح عدم جوازه ، وأيضاً من أجازه له فيه ضوابط ولكن لا يصار إليه بل جاء في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ((ليس المؤمن باللعان ولا الطعان ولا الفاحش ولا البذيء)) يعني لا يبادر إلى اللعن .

الثامنة : هذه القصة العظيمة ، وهي قصة الذباب .

ويظهر عظمة هذه القصة في بيان خطورة الشرك ولو كان الذي تُقرب به إلى غير الله سبحانه وتعالى أمراً حقيراً أو نحو ذلك .

التاسعة : كونه دخل النار بسبب ذلك الذباب الذي لم يقصده ، بل فعله تخلصاً من شرهم .

«كونه دخل النار بسبب ذلك الذباب الذي لم يقصده» أي ابتداءً ، يعني هو لم يأتِ أصلاً قاصداً التقرب ، بل هو ليس من أهل هذا العمل ، لكنه لما طلبوا منه قصد ذلك . فقوله رحمه الله «لم يقصده» أي ابتداءً ، لكن لما طلبوا منه قصد ذلك واصطاد ذباباً وقطع رأسه متقرباً به فدخل بسبب ذلك النار.

العاشرة : معرفة قدر الشرك في قلوب المؤمنين كيف صبر ذلك على القتل ولم يوافقهم على طلباتهم ، مع كونهم لم يطلبوا إلا العمل الظاهر .

«معرفة قدر الشرك في قلوب المؤمنين» يعني معرفتهم بخطورة الشرك وعظم عقوبته ؛ فلأجل هذه المعرفة صبر هذا الرجل على القتل ولم يوافقهم على ما طلبوا منه ، مع كونهم لم يطلبوا إلا الظاهر ، أما الباطن ليس لهم إليه سبيل وإنما طلبوا الظاهر وهو أن يقرِّب شيئا .

الحادية عشرة : أن الذي دخل النار مسلم ، لأنه لو كان كافراً لم يقل : ((دخل النار في ذباب)) .

«أن الذي دخل النار مسلم» أي كان مسلماً ؛ فلما اصطاد ذلك الذباب وقربه للصنم انتقل بذلكم إلى الكفر ، قال : «لأنه لو كان كافرا لم يقل : دخل النار في ذباب» ؛ فهذا يفيد أن دخوله النار كان في الذباب ، أي بسبب تقريبه لهذا الذباب لذلك الصنم .

الثانية عشرة : فيه شاهد للحديث الصحيح : ((الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله ، والنار مثل ذلك))

نعم فيه شاهد للحديث الصحيح : ((الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله)) يعني قريبة جداً ، ليس بين المسلم وبين الجنة إلا أن يموت ، ولهذا قال ((دخل الجنة في ذباب)) امتنع من تقريب الذباب لغير الله فقُتل فدخل الجنة. فإذاً الجنة قريبة من المؤمن ، والنار قريبة من الكافر ؛ بمعنى أنه ليس بينه وبينها إلا أن يموت .

الثالثة عشرة : معرفة أن عمل القلب هو المقصود الأعظم حتى عند عبدة الأصنام .

هذه المسألة هي الأخيرة من مسائل هذا الباب ؛ معرفة أن عمل القلب هو المقصود الأعظم عند عبدة الأوثان وهذا يؤخذ من قولهم ((ولو ذباب)) .



شرح كتاب التوحيد

لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه اللّه

من الدرس ١٣ إلى الدرس ١٦

شرح الشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظهما اللّه تعالى

١٤٤٠/٠٣/١٩ هـ

الدرس الثالث عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد :

يقول الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتاب «التوحيد الذي هو حق الله على العبيد» :

بابٌ لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله وقول الله تعالى : {لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا} الآية [التوبة:١٠٨] .

****

قال الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى : ((**بابٌ لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله**)) ؛ «لا يذبح لله» أي مخلصاً لا يبتغي بالذبيحة إلا الله عز وجل متقرباً بها إلى الله «في مكان يعبد فيه غير الله» ، ويُنهى عن ذلك لأن هذا وسيلة من وسائل الشرك .

وإيراد المصنف رحمه الله تعالى لهذه الترجمة بعد الباب الذي مر معنا ((بابٌ ما جاء في الذبح لغير الله)) ؛ تلك الترجمة في المقاصد ، وهذه في الوسائل ، وإتباع هذه الترجمة بالتي قبلها مناسبٌ غاية المناسبة؛ لأن تلك الترجمة في المقاصد؛ فالذبح لغير الله شرك أكبر ناقل من الملة ، وبيَّن رحمه الله في تلك الترجمة الأدلة على ذلك ، ثم عقد هذه الترجمة تحذيراً من الوسائل التي تفضي إلى ذلك الشرك ، فمِن ذلكم أن يُذبح لله في مكان يُعبد فيه غير الله ، حتى وإن كان الذابح ذبحها مخلصاً لله لكن عمله هذا وسيلة من وسائل الشرك وذريعة من ذرائعه . وفيه أيضاً في الوقت نفسه مظاهرة للمشركين ، وفيه أيضاً تأييدٌ لهم في الظاهر ؛ لأنه عندما عمل هذا العمل المشابه لعملهم في صورته وفي هيئته وظاهره أصبح بمثابة التأييد لهم في عملهم ، حتى وإن قال "أنا مخلص لله" يقال إخلاصك هذا في باطنك لكن ظاهر عملك وافقتَ عملهم من حيث الصورة الظاهرة للعمل . إضافةً إلى ما في ذلكم من ذريعة مفضية إلى الشرك ، قد يكون إفضاؤه إلى الشرك في نفسه أو في أتباعه وذريته فيما بعد؛ يعلمون منه أنه يذبح في ذلك المكان فيما علموه من ظاهره ، ولم يعلموا أنه قصد بذلك العمل الله تبارك وتعالى؛ فينشأ ذريةً تصرف هذه العبادة لغير الله تبارك وتعالى ، فهو ذريعة من ذرائع الشرك ووسيلة من وسائله ، والإسلام جاء بالنهي عن الشرك والتحذير منه وسدِّ كل ذريعة تفضي إليه . فقوله ((**لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله**)) أي لما في ذلكم من الإفضاء إلى الشرك، هذه وسيلة من وسائله . إذاً الترجمة التي بين أيدينا الآن في الوسائل ، والتي قبلها في المقاصد.

واستدل المصنف رحمه الله تعالى لهذه الترجمة بآية من القرآن وحديث عن الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام .

أما الآية فهي قول الله سبحانه وتعالى : ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ ؛ والضمير هنا في قوله ﴿فِيهِ﴾ عائدٌ على المسجد الذي بُني ضراراً وكفراً ومن أجل التفرقة بين المؤمنين وإثارة العداوات بينهم ومعاونةً ومظاهرةً للكافرين ، فمسجدٌ أسس على هذه الأسس الباطلة يقول الله سبحانه وتعالى ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ ، مع أنه عليه الصلاة والسلام لو قام فيه لا يصلي إلا لله ، ومن معه عليه الصلاة والسلام لو قاموا معه فيه لا يصلُّون إلا لله ، لكن نهاه الله سبحانه وتعالى عن الصلاة في ذلك المكان لأنه مكانٌ أعد للكفر وللباطل .

قال الله سبحانه وتعالى في الآية التي قبل هذه الآية ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ ؛ لاحظ الأسس التي قام عليها هذا المسجد الذي نهى الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم عن الصلاة فيه ، وهي أربعة أسس ذكرها الله :

- الأساس الأول : الضِّرار ؛ أقاموه للمضارة ، أي : مضارة أهل الإيمان ومضارة عقائدهم وعبادتهم ودينهم الذي يتقربون إلى الله سبحانه وتعالى به .
- والأساس الثاني : الكفر بالله سبحانه وتعالى ؛ فهو في ظاهره مسجد ويقيمون فيه الصلاة لكن في الباطن قائم على الكفر ، والكفر هنا : كفر النفاق ، وكفر النفاق معروفٌ بإظهار الإيمان وإبطان الكفر . فالكفر الذي أُسِّس عليه هو ما يبطنه هؤلاء الذين أسسوه من الكفر ، يعلنون الإيمان الصلاة العبادة ، يعلنون ذلك يظهرون ذلك لكن حقيقة الأمر وباطن الأمر الكفر بالله سبحانه وتعالى ، فهم يظهرون ما لا يبطنون ويعلنون ما لا يسرون ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾ [البقرة:١٤] .
- والأساس الثالث : التفريق بين المؤمنين ؛ من أجل نشر الفرقة والعداوة بين المؤمنين ، وهذا من الأسس التي يقوم عليها النفاق ويقوم عليها أهل النفاق ؛ إحداث الفرقة والتفرقة بين المؤمنين ونشر العداوات والإحن بينهم .
- والأساس الرابع الذي أقيم لأجله هذا المسجد : إرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل؛ أي : معاونةً ومؤازرةً ومساندةً لمن حارب الله ورسوله من قبل . والإشارة في ذلك إلى رجل يقال له «أبو عمرو الفاسق» كان ترهب في الجاهلية وتنصَّر وتنسَّك وكان في المدينة وكان شريفاً له مكانة لدى الناس ومنزلة ، فلما جاء النبي عليه الصلاة والسلام إلى المدينة بارزه بالعداء وعمل على التأليب ، ولاسيما عندما رأى الإسلام في ظهور ورأى انتصار المسلمين المؤزَّر في غزوة بدر ؛ فعلى إثر ذلك ذهب إلى المشركين في مكة وألَّبهم وحرضهم ، وجاءوا في غزوة أحد ومن أسباب هذا المجيء تحريض هذا الرجل لهم «أبو عمرو الفاسق» ، فكان في دأبٍ على التحريض على أهل الإيمان والمحاربة لله ورسوله صلى الله عليه وسلم إلى آخر الوقت ، حتى إنه قال لنفرٍ منهم أو عزى إليهم ببناء هذا المسجد ووعدهم أنه سيذهب إلى قيصر ملك الروم وأنه سيأتي من قِبله بجيش يُخرج بزعمه محمدا صلى الله عليه وسلم ومن معه ، فأراد أن يكون هذا المكانة ثكنة لهم أو موقعاً لهم ﴿ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ «إرصاداً» : أي مؤازرة ومعاونة وتأييد وإعداد وتهيئة «لمن حارب الله ورسوله من قبل» أي أبو عمرو الفاسق . وأبو عمرو الفاسق هذا هو والد حنظلة المعروف بغسيل الملائكة رضي الله عنه وأرضاه ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ﴾ [الأنعام:٩٥] ؛ فهذا الابن بهذه المنزلة العلية الرفيعة ، وذاك والده في محاربةٍ لله ورسوله إلى أن هلك على تلك الحال .

فهذا مسجدهم ولأجل هذا أقيم ، ثم انظر النفاق ﴿ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى ﴾ يعني يحلفون بالله أنهم ما أرادوا بهذا المسجد إلا نفع الناس ولاسيما في الليلة الشاتية والليلة المطيرة؛ راحةً لكبير السن والضعيف والعاجز ، وهم بنوه قريباً من مسجد قباء ، وقالوا أننا والله ما أردنا ببنائه إلا الحسنى مثل: إراحة الضعيف والعاجز وعندما تكون هناك أمطار أو ليلة شاتية ، ما أردنا إلا الحسنى ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ .

وإمعاناً في الخبث لما بنو المسجد جاؤوا إلى النبي عليه الصلاة والسلام وطلبوا منه أن يصلي صلوات الله وسلامه عليه فيه ؛ حتى يتخذوا من ذلك سنداً لهم أن هذا المسجد صلى فيه النبي عليه الصلاة والسلام وأنه أيَّده ولم يمانع من إقامته ، فطلبوا من النبي عليه الصلاة والسلام أن يصلي فيه ، فقال عليه الصلاة والسلام إنَّا على سفر ، كان عليه الصلاة والسلام قد تهيأ لغزوة تبوك قال : ((إنَّا على سفر وإذا عدنا نصلي فيه إن شاء الله)) ، وذهب عليه الصلاة والسلام إلى غزوة تبوك ، ولما رجع ولم يبق على المدينة إلا مسافة يسيرة جداً نزل عليه ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ وفضح الله سبحانه وتعالى تلك المقاصد وتلك المخططات وبعثر أسرار هؤلاء وهتك مخازيهم وفضحهم سبحانه وتعالى .

وهذه من ضمن سورة التوبة سورة براءة ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ هذه من جملة آيات سورة براءة . وسورة براءة فيها آيات كثيرة مبدوءة بـ﴿وَالَّذِينَ﴾، ﴿وَالَّذِينَ﴾ ، وأيضا آيات مبدوءة بـ﴿وَمِنْهُمْ﴾، ﴿وَمِنْهُمْ﴾ ؛وكل ذلكم فضْح للمنافقين وهتْك لأسرارهم ، وكانوا يخشون أن تنزَّل سورة ، فنزلت سورة براءة وكانت تسمى «الفاضحة» لأنها فضحت المنافقين ، أشياء خفية وأسرار مكتومة ومخططات كلها فُضحت في السورة التي تسمى «الفاضحة» ، وتسمى أيضاً «المبعثِرة» لأنها بعثرت أسرار هؤلاء وهتكت ذلك كله وأصبح واضحاً الأمر ، وكانوا أيضاً يسمونها «المقشقِشة» سورة براءة ، لأن من قرأ هذه السورة وفهمها وعرفها ووفقه الله عز وجل للإيمان بها وما دلت عليه والنجاة من تلك الأوصاف المنافقين التي ذكرت في السورة فإنها تقشقش النفاق ، وفي القرآن سورة أخرى أيضاً تُعرف عند السلف بـ«المقشقشة» مثل سورة براءة ؛ وهي سورة الكافرون ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ إلى آخر السورة تُعرف أيضا بالمقشقِشة لأنها تقشقش الشرك ، وسورة براءة تقشقش النفاق ؛ أي تزيله وتنظف الشخص منه ، من قرأ سورة الكافرون وفهمها وآمن بما دلت عليه أزالت بإذن الله عن صاحبها الشرك وأبعدته عنه ، ولهذا جاء في حديث فروة أنَّ من قرأها عندما يأوي إلى فراشه ونام على ذلك كُتبت له براءة من بالله سبحانه وتعالى .

الشاهد أن هذه السورة العظيمة سورة براءة جاءت فاضحةً للمنافقين ، ومِن جملة فضائح القوم بيان نبأ هذا المسجد وخبره ولأجل ماذا أُسس ، وإن كانوا في الظاهر يقولون ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى﴾ ؛ قال : ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ .

الشاهد قول الله تعالى ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ ؛ نهاه الله سبحانه وتعالى أن يقوم فيه مصلياً لله ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ ، ومن المعلوم أن النبي عليه الصلاة والسلام لو قام فيه والصحابة معه لا يصلُّون إلا لله سبحانه وتعالى ؛ فأُخذ من هذه الآية أنه لا يُعبد يعني لا يصلى لله سبحانه وتعالى في مكان يُعبد فيه غير الله، فيه وثن من الأوثان ومعبد من معابد الجاهلية أو صنم من الأصنام ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ لماذا ؟ لأنه أُسِّس على الكفر ، والإرصاد لمن حارب الله ورسوله ، والتفرقة بين المؤمنين ؛ فنهاه الله سبحانه وتعالى أن يقوم فيه قال : ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ .

إذاً قول الله تعالى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ فيه دليل للترجمة ((لا يذبح لله في مكان يعبد فيه غير الله)) ؛ لأن الله نهى نبيه عليه الصلاة والسلام أن يصلي في هذا المسجد الذي أقامه أصحابه وأسسوه على الكفر بالله سبحانه وتعالى ، فنهاه الله جل وعلا عن الصلاة فيه لأنه أُسس على الكفر وعلى الباطل .

قال رحمه الله تعالى :

عن ثابت بن الضحاك رضي الله عنه قال : نذر رجل أن ينحر إبلا ببوانة ، فسأل النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ((**هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد؟**)) **قالوا : لا ، قال :** ((**فهل كان فيها عيد من أعيادهم؟**)) **قالوا : لا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :** ((**أوف بنذرك ، فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله ، ولا فيما لا يملك ابن آدم**)) **رواه أبو داود وإسناده على شرطهما .**

****

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث حديث ثابت بن الضحاك رضي الله عنه قال : ((**نذر رجل أن ينحر إبلاً ببوانة**)) ؛ بوانة هذه هضبة إلى جهة ينبع قريباً من ساحل البحر الأحمر . والرجل حدد موضعاً معيَّنا للإبل التي نذر أن ينحرها لله تقرباً لله لكن في ذلك المكان تحديداً «ببوانة»؛ فحدد ذلك المكان وعيَّنه . وجاء في بعض الروايات أن هذا النذر جعله لله سبحانه وتعالى إن رزقه ولداً ذكراً ، كان يأتيه بنات وأحب أن يرزق بولد ذكر فنذر هذا النذر لله إن رزقه ولداً ذكرًا أن ينحر إبلاً ببوانة ، وأيضا جاء ذكر العدد في بعض الروايات أنها خمسين إبلاً ببوانة . رزقه الله الولد وأراد أن يفي بنذره فسأل النبي عليه الصلاة والسلام عن ذلك قال : ((**إنه نذر أن ينحر إبلا ببوانة فسأل النبي صلى الله عليه وسلم**)) .

أريد أن نتذكر هنا ما جاء في الصحيحين أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه نذر أن يعتكف ليلة في المسجد الحرام فسأل النبي صلى الله عليه وسلم فقال له مباشرة : ((فأوف بنذرك)) لم يستفصل معه، والحديث في الصحيحين . وهذا الرجل الاعتكاف قربة ونحر الإبل لله تبارك وتعالى أيضاً قربة ، وقال الرجل أنه نذر أن ينحر لله إبلاً ببوانة فاستفصل ، لما قال «ببوانة» استفصل منه النبي عليه الصلاة والسلام هذا الاستفصال ؛ قال له صلى الله عليه وسلم : ((هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يُعبد؟)) قالوا : لا ، قال : ((فهل كان فيها عيد من أعيادهم ؟)) قالوا : لا . في الحديث الذي يتعلق بقصة عمر لم يكن هناك استفصال لأن المكان والمقام والموضع لا يحتاج أن يستفصل منه ، لكن إبل في ذلك المكان ما السبب ؟ لأجل ماذا ؟ ولهذا جاء في بعض الروايات الصحيحة رواية ابن عباس في سنن ابن ماجة للحديث نفسه أن النبي عليه الصلاة والسلام قال له : ((فِي نَفْسِكَ شَيْءٌ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ؟)) يعني هل هذا مبني على أمر فيه نوع من الجاهلية اعتقاد جاهلي؟ قال لا ، قال ((فأوف بنذرك)) ، لما حدد ذلك المكان خشي النبي عليه الصلاة والسلام أن يكون هناك فيه اعتقاد جاهلي أو وثن من أوثانهم أو عيد من أعيادهم ، فلأجل ذا استفصل ؛ استفصل عن المكان نفسه ، واستفصل أيضاً من العامل نفسه كما جاء في حديث ابن عباس ، في حديث ابن عباس استفصل من العامل نفسه ؛ الرجل ، والرجل هو كما جاء أيضا في بعض الروايات اسمه كَرْدَم بن سفيان ؛ فاستفصل منه النبي عليه الصلاة والسلام استفصالاً يتعلق به هو نفسه قال : ((هل نفسك أو في قلبك شيء من

الجاهلية يعني بنيت عليه هذا الأمر ؟ قال لا قال أوف بنذرك)) ، وفي الرواية هذه حديث ثابت ابن الضحاك ((فسأل عن المكان)) والسؤال كان موجهاً إلى الناس .

إذاً هذه التحريات وهذه السؤالات يُبنى عليها الحكم ، الحكم الذي هو ((فأوف بنذرك)) مبني على تلك الاستفصالات؛ بمعنى لو أن الرجل في نفسه شيء من أمور الجاهلية لنهاه النبي عليه الصلاة والسلام عن هذا النذر الذي فيه شيء من الجاهلية ، ولما أيضاً استفسر كما في حديث ثابت عن المكان هل فيه وثن يُعبد ؟ هل فيه عيد من أعيادهم ؟ قالوا لا، قال ((أوف بنذرك)) ؛ فأفاد ذلك أنه لو كان فيه وثن يُعبد أو عيدٌ من أعياد الجاهلية لما قال له ((فأوف بنذرك)) ، وإلا فما فائدة الاستفصال إذًا ؟! .

ولاحظ أن الحكم وهو قوله ((فأوف بنذرك)) جاء معطوفاً بالفاء على الوصف في قوله ((هل فيه عيد؟ قالوا لا قال فيه وثن ؟ قالوا لا)) فعطف على ذلك الحكم بقوله ((فأوف بنذرك)) ؛ عُلم من ذلكم أن قوله فأوف بنذرك حكمٌ مقيد بالوصف المذكور ، يعني أوف بنذرك مادام أن المكان لا يوجد فيه وثن من أوثانهم ولا عيد من أعيادهم . ولو كان فيه وثن من أوثانهم وعيد من أعيادهم لم يأمره النبي عليه الصلاة والسلام بالوفاء بهذا النذر لأنه نذر معصية ، ولا وفاء في نذر معصية كما سيأتي في تتمة الحديث .

فقال النبي عليه الصلاة والسلام ((**هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يُعبد؟**)) هل لهم في ذلك المكان وثن يعبدونه ، وقوله «كان» أي ولو من قبل ، لا يلزم أن يكون موجود في ذلك الوقت ، لكن هل كان لهم وثن ؟ إذا كان موجود قبل ذلك وينذر ويذهب إلى ذلك المكان أصبح مشاركاً للأُوَل في الصورة الظاهرة ، كانوا يقصدون هذا المكان بالإبل والماشية والغنم وينحرونها في ذلك المكان ومن يراه يرى ماذا؟ الصورة الظاهرة ، أما الباطن لا أحد يطلع عليه ، يرى الصورة الظاهرة ، الصورة الظاهرة فيها مشاركة لأولئك في العمل الذي كانوا يعملونه .

قال: ((**هل كان فيه عيد من أعيادهم؟ قالوا لا**)) ليس فيه عيد من أعيادهم ، والعيد : مأخوذ من المعاودة ؛ سواء كانت المعاودة متعلقة بزمان أو متعلقة بمكان يُجتمع فيه وتكون أعمال معينة ثم تُكرر تلك الأعمال إما بتكرر الأسابيع أو بتكرر الشهور أو بتكرر السنوات ، فسأل النبي عليه الصلاة والسلام هل فيه عيد من أعيادهم؟ قالوا لا ليس فيه عيد من أعيادهم ؛ فبنى على ذلك عليه الصلاة والسلام حيث قال : ((**فأوف بنذرك**)).

((**فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله**)) لأنه لو كان فيه وثن من الأوثان أو عيد من الأعياد؛ فالمشاركة لهم في ذلك في الصورة الظاهرة هذه معصية لله تبارك وتعالى، لما فيه من الوسيلة التي تفضي إلى الشرك ، ولما فيه أيضًا من التشبه بالكفار . والتشبه بالكفار في الظاهر يورث ماذا ؟ المشاكلة في الظاهر تورث المجانسة في الباطن والموافقة في الباطن ، يعني شيئا فشيئاً فيكون ذريعة ووسيلة إلى الوقوع في الشرك بالله سبحانه وتعالى بهذا التشبه والمشاركة لهم في شعائرهم وأعمالهم وطقوسهم وأعيادهم ، حتى وإن قال "لا والله ما قصدت أنا أعمالهم وإنما قصدت التقرب إلى الله سبحانه وتعالى" يقال لا يجوز لك ذلك ، لأن هذا فيه تشبه ، ومشاركة لهم في شعائرهم، ووسيلة من الوسائل التي تفضي بالإنسان إلى الإشراك بالله سبحانه وتعالى .

قال عليه الصلاة والسلام : ((**فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله ، ولا فيما لا يملك ابن آدم**)) ، والحديث عن النذر وما يتعلق به سيكون مفصلاً في الباب القادم بإذن الله تبارك وتعالى «بابٌ من الشرك النذر لغير الله» .

وقوله هنا ((**ولا فيما لا يملك ابن آدم**)) يعني لا يعيِّن شيئا معيَّناً مُلكًا للآخرين بحيث يقول : لو أنه حصل لي كذا وكذا فقد نذرت لله أن أتصدق بذلك الشيء ، مثل أن يقول شخص مثلا : لله عليَّ إن شفى الله مريضي أن أتصدق بسيارة فلان أو

أتصدق ببيت فلان مثلا ، ((ولا فيما لا يملك ابن آدم)) ؛ فرق بين أن يقول أن أتصدق بسيارة أو أتصدق مثلا ببيت أو أعتق عبداً هذا يلزمه ، لكن إذا قال عبد فلان أو سيارة فلان أو بيت فلان لا يجوز له ذلك ((ولا فيما لا يملك ابن آدم)) . وعلى كلٍّ ما يتعلق بالنذر تأتي شيء من التفاصيل المتعلقة به في الباب القادم بإذن الله تبارك وتعالى .

والشاهد من الترجمة هو قوله : ((هل كان فيه وثن من أوثان الجاهلية يعبد ؟ قالوا لا ، قال : فهل كان فيه عيد من أعيادهم ؟ قالوا لا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فأوف بنذرك)) ؛ عُلم من ذلك أن المكان الذي فيه وثن من أوثان الجاهلية أو عيد من أعيادهم لا يجوز للإنسان أن يقصده ليخص ذلك المكان بقربة لله سبحانه وتعالى ، كأن يذبح شاةً أو يصلي فيه أو يقصده بأعمال من الطاعات ونحو ذلك ؛ لا يقصده بشيء لأنه بذلك سيكون مشاركاً ومتشبهاً بالكفار والمشركين المتقربين لغير الله .

أرأيتم مثلاً لو كان ثمة ضريح معيَّن في مكانٍ ما ويقصده خلْق في وقتٍ ما من السنة ، كلٌّ معه شاة أو بقرة ويذبحونها لصاحب ذلك الضريح ، وشخص أيضا في ذلك الوقت أخذ شاةً وذهب للمكان نفسه ومعهم يمشي ومثلهم يفعل وهو في نفسه يقول : "أنا ما قصدت أن أتقرب لذلك الضريح وإنما قصدت وجه الله سبحانه وتعالى والتقرب إلى الله سبحانه وتعالى" ، يقال له: لا يحل لك ذلك ولا يجوز ؛ لا يُذبح لله في مكان يُعبد فيه غير الله ، حتى وإن كنت لم تقصد أن تذبح لصاحب الضريح وإنما قصدت أن تذبح لله فهذا أمرٌ لا يجوز ولا يحل ؛ لما فيه من التشبه بهؤلاء ، والمؤازرة لهم ، وإقامة شعيرة من شعائرهم في صورة وظاهر عملك ، ولما في ذلك من الوسيلة المفضية إلى الإشراك بالله سبحانه وتعالى .

قال رحمه الله تعالى :

فيه مسائل ؛ الأولى : تفسير قوله : { لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا } [التوبة:١٠٨] .

وقد مر معنا ذلك .

الثانية : أن المعصية قد تؤثر في الأرض وكذلك الطاعة .

«**أن المعصية قد تؤثر في الأرض**» ؛ انظر تأثيرها في تلك الأرض التي بنى فيها أولئك النفر ذلك المسجد ، قد قال عليه الصلاة والسلام ((جُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا)) ، لكن لما أقيمت تلك البقعة على تلك الأسس التي مر ذكرها أثَّرت تلك المعصية في ذلك فجاء النهي {لا تقم فيه أبدا} ، والنهي للنبي صلى الله عليه وسلم وأمته تبعٌ له {لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا} ؛ فأصبح لتلك المعصية تأثير على ذلك المكان ، والنبي عليه الصلاة والسلام لما نزلت عليه تلك الآيات أرسل بعض الصحابة رضي الله عنهم إلى ذلك المسجد فأُحرق وهُدم وأصبح مزبلة ، فانظر أثر المعصية على ذلك المكان .

قال : «**وكذلك الطاعة أيضا لها أثر**»، وانظر ذلك في قوله ﴿ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ ، حتى إنه جاء في الحديث أن النبي عليه الصلاة والسلام أتى أهل قباء وسألهم عن هذا الذي أثنى الله عليهم فيه ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا ﴾ فذكروا للنبي عليه الصلاة والسلام أنه كان قريباً

منهم نفر من اليهود يغسلون أدبارهم بالماء بعد الغائط قالوا فنحن نفعل ذلك ، قال ((عليكم به)) أي افعلوه واستمروا عليه ، هذا موضع الثناء ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾ . وقوله ﴿يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ كما أنه يتناول الطهارة من النجاسة أيضا يتناول الطهارة والتنزه من الشرك والكفر والأمور التي تسخط الله تبارك وتعالى .

فالطاعة لها أثرها في المكان؛ ولهذا لما نهاه سبحانه وتعالى عن الصلاة في ذلك المسجد أتبع ذلكم بقوله ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ وثبت عنه عليه الصلاة والسلام أن الصلاة في مسجد قباء كعمرة ، فانظر هذا الفضل العظيم ، وكان عليه الصلاة والسلام يأتي مسجد قباء كل سبت راكباً وماشيا صلوات الله وسلامه عليه .

الثالثة : رد المسألة المشكلة إلى المسألة البيّنة ليزول الإشكال .

الرجل نذر أن ينحر إبلا ببوانة وهذا الأمر يحتمل أن يكون مأذوناً فيه ، ويحتمل أن يكون منهيًا عنه ، أشكل عليه الأمر فسأل النبي عليه الصلاة والسلام هل يفي بهذا النذر أو لا يفي به؟ فهذا فيه رد المسألة المشكلة إلى البيّنة ، وانظر ذلك التفصيل الذي يتبين به الأمر عندما قال النبي عليه الصلاة والسلام : ((هل المكان فيه وثن يُعبد من أوثان الجاهلية ؟ هل فيه عيد من أعيادهم ؟ قالوا له لا)) ، أيضا وجَّه السؤال كما في حديث ابن عباس للشخص نفسه : هل هذا العمل مبني على شيء في القلب من أمور الجاهلية وأعمال الجاهلية ؟ قال لا ؛ إذًا زال الإشكال وانتفى ، فأمَره النبي عليه الصلاة والسلام حينئذ بالوفاء بالنذر لأنه لم يبق ثمة إشكال .

الرابعة : استفصال المفتي إذا احتاج إلى ذلك .

يعني إذا كان المقام يحتاج إلى استفصال ، أما إذا كان المقام لا يحتاج إلى استفصال لا يُستفصل ، وانظر إلى ذلك فيما أشرت إليه سابقاً حديث عمر في الصحيحين لما قال : «نذرت أن أعتكف ليلة في المسجد الحرام» هل استفصل منه النبي عليه الصلاة والسلام ؟ لم يستفصل، لماذا؟ لأن المقام لم يكن يحتاج إلى استفصال قال ((أوف بنذرك)) مباشرة بدون أي استفصال ، ولما سأل هذا الرجل قال «نذرت أن أنحر إبلاً ببوانة» كان المقام يحتاج إلى استفصال فاستفصل النبي عليه الصلاة والسلام ، استفصل عن المكان هل فيه كذا ؟ هل فيه كذا ؟ واستفصل أيضاً عن العامل نفسه حيث سأله عليه الصلاة والسلام .

الخامسة : أن تخصيص البقعة بالنذر لا بأس به إذا خلا من الموانع .

المسألة الخامسة : أن تخصيص البقعة بالنذر لا بأس به ؛ يعني يحدد شخص مثلاً يقول "نذرت أن أنحر إبل في مكة لفقراء الحرم مثلا أو مثلا في المدينة أو في البلد الفلاني" لأنه سمع مثلا فيه فقراء كُثُر ومحتاجون كثر فعيَّن مكان بلد معين ؛ لا بأس بذلك ، لكن بهذا الشرط الذي أشار إليه المصنف «إذا خلا من الموانع» ، أما إذا كان فيه مانع مثل أن يكون المكان الذي عيَّنه فيه عيد من أعياد الجاهلية أو فيه وثن من أوثانهم أو شيء من ذلك فإنه لا يجوز لأنه يدخل حينئذ في نطاق المعصية .

السادسة : المنع منه إذا كان فيه وثن من أوثان الجاهلية ولو بعد زواله .

السابعة : المنع منه إذا كان فيه عيد من أعيادهم ولو بعد زواله .

المسألة السادسة وكذلكم السابعة : المنع منه أي النذر إذا كان فيه وثن من أوثان الجاهلية أو عيد من أعيادهم ولو بعد زواله؛ يعني حتى لو كان قد زال لما يُخشى أن يكون في ذلك تجديد لذلك العمل وتذكير بذلك العمل مما يكون وسيلة من الوسائل التي قد تعيد الناس إلى تلك الجاهلية ، حتى ولو كان قد أزيل ، حتى لو قال القائل الوثن لم يكن له وجود ولم يبق له بقية ؛ فإنه يُنهَ عن ذلك ، وهذا واضح في الحديث النبي صلى الله عليه وسلم قال ((هل كان فيه من أوثانهم يعبد ؟ هل كان فيه عيد من أعيادهم ؟)) .

الثامنة : أنه لا يجوز الوفاء بما نذر في تلك البقعة؛ لأنه نذر معصية .

المسألة الثامنة : أنه لا يجوز الوفاء بما نذر في تلك البقعة لماذا ؟ قال : لأنه نذر معصية ، وقد قال عليه الصلاة والسلام في الحديث نفسه ((لا وفاء لنذر في معصية الله)) ، فإذا كان المكان الذي عيَّنه الناذر فيه عيدٌ من أعياد الجاهلية أو وثن من أوثانهم فإن هذا النذر دخل في نطاق المعصية، لأنه فيه تشبُّه بالكفار ، وفيه وسيلة من الوسائل التي تفضي إلى الشرك بالله سبحانه وتعالى .

التاسعة : الحذر من مشابهة المشركين في أعيادهم ولو لم يقصده .

يعني وإن لم يقصد أصالةً أن يتشبه بهم ، فالموافقة بحدِّ ذاتها يُنهى عنها حتى وإن لم يقصد ذلك ، يعني حتى وإن قال "أنا في قلبي والله ما قصدت أن أتشبه بهم ،ولا قصدت أن أفعل مثلهم، ولم يقم في قلبي شيء من ذلك"؛ يقال له هذا العمل الذي تفعله لا يجوز لماذا ؟ لأن فيه تشبه بهم ومشابهة لهم . ومن أعجب ما قرأت في استدلال بعضهم لإجازة الاحتفال بالمولد النبي عليه الصلاة والسلام قال : "إذا كان عبَّاد الصليب يتخذون مولد نبيهم عيداً أكبر فالمسلمون أولى بالتكريم وأجدر" ، إذا كانوا هم يفعلون ذلك ويقيمون الموالد فيقول نحن أولى بذلك ، فانظر كيف أقام هذا العمل على التشبه الصريح بأولئك . فالشاهد أن التشبه بغير المسلمين لا يجوز حتى وإن قال القائل أنا لم أقصد التشبه ؛ فالموافقة في الظاهر تورث المشاكلة في الباطن .

العاشرة : لا نذر في معصية .

وهذا مأخوذ من قوله ((لا وفاء لنذر في معصية الله)) فأي نذر قام أو بُني على معصية لله تبارك وتعالى فهو نذرٌ باطل ولا يجوز أن يفي بذلك النذر .

هل عليه كفار أو ليس عليه كفارة ؟ قولان لأهل العلم في ذلك .

الحادية عشرة : لا نذر لابن آدم فيما لا يملك .

وهذا مأخوذٌ من قول النبي صلى الله عليه وسلم في خاتمة حديث ثابت بن الضحاك رضي الله عنه ((ولا فيما لا يملك ابن آدم)) .

وبهذا ينتهي ما يتعلق بهذه الترجمة ((باب لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله)) .

الدرس الرابع عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد :

يقول الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتابه التوحيد الذي هو حق الله على العبيد :
بابٌ من الشرك النذر لغير الله ؛ وقول الله تعالى { يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا} [الإنسان:٧]
****

هذا الباب ((**بابٌ من الشرك النذر لغير الله**)) هو أحد أبوابٍ جاءت في كتاب التوحيد متتالية لبيان بعض أنواع الشرك الأكبر الناقل من الملة ، فذَكر في الذي قبله الذبح لغير الله ، وفي هذا الباب النذر لغير الله ، وفي الذي يليه الاستعاذة بغير الله ، وفي الذي أيضا بعده الاستغاثة بغير الله ودعاء غيره سبحانه وتعالى ؛ فهذه كلها من أنواع الشرك الأكبر الناقل من الملة ، لأن الشرك الأكبر حدُّه صرف العبادة أو شيء منها لغير الله سبحانه وتعالى . والعبادة : اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة .

وقد دلت الدلائل في كتاب الله عز وجل وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام ومنها ما ساقه المصنف رحمه الله تعالى تحت هذه الترجمة على أن النذر عبادة وقربة لله عز وجل ، والعبادة حقٌ لله ؛ فمن صرف شيئاً منها لغيره كان بذلكم مشركًا الشرك الأكبر الناقل من الملة ، قال الله تعالى : ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة:٥] ، وقال تعالى : ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء:٣٦] ، فالعبادة حق لله عز وجل وصرفها لغيره شرك به .

وقوله ((**من الشرك النذر لغير الله**)) «من الشرك» أي : من الشرك الأكبر الناقل من الملة «النذر لغير الله» .

والنذر : أن يوجِب المكلَّف على نفسه ما ليس بواجب عليه ، مثل أن يوجب على نفسه صياماً أو عمرةً أو صدقةً أو صلاةً أو غير ذلكم من الأعمال ؛ فإذا أوجبها على نفسه سواءً تبررًا أو جعلها مشروطةً لحصول مطلوبٍ أو زوال مكروه ، كأن يقول مثلا : "لله عليَّ إن حصل لي كذا وكذا أن أذبح شاة ، أو أصوم يوماً أو أسبوعاً أو شهراً ، أو أن أعتمر أو نحو ذلك" ؛ فهنا يكون أوجب على نفسه ما ليس بواجب عليه في أصل الشرع.

والسنة جاءت بالنهي عن ذلك وأن الأصل في العبد أن يتقرب إلى الله عز وجل بالعبادات بسماحة نفس دون أن يحرج نفسه ، وكم يقع كثير من الناس في إحراج أنفسهم بنذور أوجبوا فيها على أنفسهم أموراً ليست بواجبة ، كأن يقول قائل : "لله عليَّ إن رُزقت بوالد ذكر أن أذبح خمسين شاة" ، وقت حاجته للولد وطمعه في ذلك وحرصه على تحصيله لا يكون وقع في نفسه كبر هذا العمل الذي سيقدِّمه ، لكن إذا حصلت الحاجة وجاء وقت السداد والوفاء بالنذر يجد أنه أحرج نفسه ، ولهذا جاء في الحديث قال: ((إنما يستخرج به من البخيل)) ، بينما المسلم يقدِّم الطاعات والصدقات والنفقات وغير ذلك دون أن يكون ألزم نفسه بها ، وإنما يتقدم بها تنفلاً وتبرراً وتقربا لله سبحانه وتعالى دون أن يكون قد أوجبها على نفسه فيخرجها من نفسه على وجه الإلزام ، ولهذا جاء النهي عنه وقال : ((إنما يستخرج به من البخيل)) .

وجاءت الآيات في القرآن الكريم في الثناء على من يوفون بالنذر ، وأيضاً في الإخبار بعلم الله سبحانه وتعالى بهم واطلاعه عليهم ؛ وهذا يتضمن المجازاة والثواب ، وأيضاً جاءت بالأمر بالوفاء بالنذر في قوله تعالى : ﴿ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ ﴾ [الحج:٢٩] ؛ فهذا كله من الدلائل على أن النذر عبادة ، وعُلم ذلك من ثناء الله تبارك وتعالى على الموفين به وإخباره سبحانه وتعالى بعلمه بوفائهم؛ وهذا يتضمن الإثابة والمجازاة والإنعام ، وأيضاً أمْر الله سبحانه وتعالى بذلك في قوله ﴿ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ ﴾ .

والمصنف رحمه الله أورد تحت هذه الترجمة أولاً قول الله سبحانه : ﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴾ ؛ ذكر جل وعلا ذلكم في معرض الثناء على الأبرار ذاكراً ذلك في جملة خصالهم وأعمالهم التي هي محل الثناء ، فمن ذلكم أنهم يوفون بالنذر ، ذكر ذلك عز وجل ثناءً على أهله فعُلم بذلك أنه عبادة وقربة ، وإذا عُلم أنه عبادة وقربة فالعبادة حق لله ، وصرْفها لغيره سبحانه وتعالى شركٌ ناقل من الملة .

وقوله : { وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ } [البقرة:٢٧٠] .

****

ذِكر العلم هنا يتضمن الإثابة ، أي يعلم بنفقاتكم ويعلم أيضا بنذوركم وقرباتكم لا يخفى عليه سبحانه وتعالى من ذلكم شيء فيثيبكم على ذلك .

وختْم هذه الآية بالعلم – أي أن الله عليم يعلم – يتضمن ذلكم معنى الإثابة ؛ أي عليمٌ بذلك لا يخفى شيء منه وسيثيبكم عليه سبحانه وتعالى .

وكذلكم إذا ذُكر العلم في سياق ذكر المعاصي أو ذكر الذنوب فإن هذا يتضمن العقوبة؛ أي أنَّ الله عليم بكم ولا يخفى عليه شيء من أعمالكم وسيعاقبكم عليها . فإذاً إذا خُتمت الآية بالعلم والذي ذُكر في سياقها أعمال صالحات فهذا يتضمن الإثابة ، وإذا خُتمت بالعلم والذي ذُكر في سياق الآية أو في أثناء الآية شيء من المعاصي أو الذنوب فإنه يتضمن العقوبة .

فإذاً هذه الآية فيها الثناء على الوفاء بالنذر ، وأن الله عليمٌ بذلك وعليم بنذورهم كما أنه عليم بنفقاتهم وصدقاتهم، وأنه سبحانه وتعالى يثيبهم على ذلك عظيم الثواب ؛ فدل ذلكم على أن النذر عبادة وقربة لا يجوز صرفها إلا لله عز وجل ، وأن من صرفها لغيره تبارك وتعالى فقد أشرك .

وفي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «من نذر أن يطيع الله فليطعه ، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه» .

****

ثم ختم رحمه الله تعالى هذه الترجمة بهذا الحديث حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((**من نذر أن يطيع الله فليطعه**)) أي من نذرَ نذْر طاعةٍ لله كأن يصوم مثلا أو يتصدق أو يعتكف ، ومر معنا نذر عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو في الصحيح أن يعتكف في المسجد الحرام ، قال له النبي عليه الصلاة والسلام ((أوف بنذرك)) ؛ فمن نذر أن يطيع الله فليطعه ؛ أي يجب عليه أن يطيع وأن يفي بهذا النذر الذي ألزم نفسه به وجعله أمراً في ذمته.

((**ومن نذر أن يعصِ الله فلا يعصه**)) ؛ إذا كان النذر نذر معصية فلا يجوز له فعل ذلك بل يُنهى عنه .

والحديث دليل على أن النذر من جملة الطاعات والقربات التي يُتقرب بها إلى الله سبحانه وتعالى ، وأنَّ صرف ذلكم لغيره سبحانه وتعالى شركٌ بالله ناقل من ملة الإسلام .

والمصنف رحمه الله أورد هذا الباب وقدَّمه على أبواب أخرى لكثرة وقوع الشرك في هذا الباب «باب النذور» في مناطق كثيرة جداً ، ولهذا عقد هذه الترجمة وقدَّم هذا الباب على غيره من الأبواب تحذيراً من هذا الأمر الذي كثر وقوع الناس فيه ، خاصةً من جهة أن عدداً ليس بالقليل دخلوا في هذا الشرك بالله سبحانه وتعالى من باب ما قد أصيب به بعضهم من مُصاب أو من مرض أو حاجةٍ اشتدت نفسه لتحصيلها ونيلها ، فأصبح شائع عند الجهلة والضُّلَّال قولهم مثلا "إن قبر فلان أو ضريح فلان أو المزار الفلاني أو المكاني الفلاني يقْبَل النذور" ، ويعنون بذلك: أن النذور عندما تقدَّم لذلك الضريح أو لذلك القبر أو لذلك المزار نافعة في جلب النعماء أو دفع الضر والبلاء ، معنى أنه يقبل النذر: أنه ينفع ويدفع ، فيقولون المزار الفلاني أو الضريح الفلاني يقبل النذور ، ثم يذهب إليه هؤلاء زرافات ووحدانا يسوقون القرابين والنذور ويستسمنونها يقدِّمونها لذلك المزار أو لذلك الضريح .

وعندما يوافق بتوفيقٍ أو بمشيئة الله وتقديره سبحانه وتعالى الكوني القدري أن ينال إنسانٌ شيئاً من الأمور التي كان يريدها ؛ مثلًا شخص نذر لمزار من المزارات أو ضريح من الأضرحة إن وُلد له ولد أن يقدِّم له كذا ، ثم وُلد له ولد، أو أنه قدَّم النذر مسبقاً في سبيل أن يحصِّل ولد فقدَّر الله أن يحصل ولد ؛ كم في مثل هذا من فتنة تحصل للعوام واستدراجٌ يحصل لهم ؟! وتجد هؤلاء العوام ينسون خلقاً كثيراً لم يحصِّل أحد منهم شيئا ويذكرون قصة واحدة أو قصتين وقعت بتقدير الله سبحانه وتعالى فتنةً لهؤلاء وابتلاءً ، فيقولون : "فلان سنوات وهو ينتظر ولداً أو يشتكي من المرض الفلاني ولما قدَّم ذلك النذر لذلك الضريح شُفي أو حصَّل الولد أو نحو ذلك" ، فكم في مثل هذا تحصل من فتنة وضلالٌ واسعٌ عريض للعوام والجهال .

وهذا الباب لا يُلتفت فيه أصلًا لتجارب الناس والحوادث الواقعة ، لا يلتفت أصلا لهذه الأشياء ، ومن الذي يقول إن الأحكام إنما تُعرف أو يُعلم أمرها من خلال مثل هذه التجارب !! ويضيّعون بمقابل ذلك آيات واضحات ونصوص صريحات تحرِّم هذا الأمر وتعدُّه من الشرك الناقل من ملة الإسلام . فهذه من المصائب العظيمة والبلايا الكبيرة التي رزئت بها الأمة في أمكنة كثيرة بصرف هذه العبادة لغير الله ؛ ولهذا تجدهم في بعض المناطق يخصِّصون يومًا في السنة يقدمون فيها نذوراً لضريح ما ، أو بعضهم يعلق تلك النذور بحصول منفعةٍ أو اندفاع مثلاً مضرة أو نحو ذلك ؛ فتجد النذور تلو النذور تقدَّم للأضرحة والقبور ومن يعتقدون فيهم ويعظمونهم التعظيم الذي لا يكون إلا لله سبحانه وتعالى . فكان الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى ناصحاً للناس ولعباد الله نصحاً عظيمًا بعقد هذه الترجمة وبيان أن النذر عبادة ، وأن العبادة صرفها لغير الله تبارك وتعالى من الشرك الأكبر الناقل من الملة .

فيه مسائل

الأولى : وجوب الوفاء بالنذر .

وهذا الوجوب يستفاد من قوله عليه الصلاة والسلام ((من نذر أن يطيع الله فليطعه)) ، ومن ثناء الله سبحانه وتعالى على الموفين بالنذر ، وأيضاً مر معنا الآية الكريمة أمر الله عز وجل بذلك ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ .

الثانية : إذا ثبت كونه عبادةً لله فصرفه إلى غيره شرك .

«إذا ثبت كونه عبادة لله» وهذا ثبت بالأدلة التي ساقها رحمه الله من كتاب الله عز وجل وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فيقول «إذا ثبت ذلك فصرفه إلى غيره سبحانه وتعالى شرك» ؛ لأن العبادة حق لله ومن صرفها أو شيئاً منها لغيره سبحانه وتعالى كان بذلكم مشركاً الشرك الأكبر الناقل من الملة .

الثالثة : أن نذر المعصية لا يجوز الوفاء به .

يعني من نذَرَ نذر معصية أن يفعل أمراً محرما أو يرتكب أمراً منهياً عنه أو يترك شيئاً أوجبه الله سبحانه وتعالى عليه أو نحو ذلك ؛ فمن نذَر نذر معصية لا يجوز الوفاء به .

قال رحمه الله تعالى :

باب من الشرك الاستعاذة بغير الله ؛ وقول الله تعالى : { وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا } [الجن:٦] .

****

ثم عقد رحمه الله تعالى هذه الترجمة ((**بابٌ من الشرك الاستعاذة بغير الله**)) ؛ والاستعاذة : التجاء واعتصام؛ وهي طلب العوذ ، يقال «العوذ» و«اللوذ» ، العوذ : في دفع ضر ، واللوذ : في جلب نفع . فالاستعاذة هي احتماءٌ واعتصامٌ والتجاء إلى الله سبحانه وتعالى في أن يقي عبده . ولهذا الاستعاذة أيضاً هي فرارٌ من شيء يخشاه الإنسان أو يخاف منه أو نحو ذلك إلى من يحميه ويقيه من هذا الذي يخشاه أو يخافه . فالاستعاذة لجوء إلى الله ، وجاء في الحديث أن النبي عليه الصلاة والسلام كَانَ إِذَا خَافَ قَوْمًا قَالَ: «اللَّهُمَّ إِنَّا نَجْعَلُكَ فِي نُحُورِهِمْ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شُرُورِهِمْ» .

فالاستعاذة هي التجاء إلى الله سبحانه وتعالى واعتصام به عز وجل في أن يقي عبده وأن ينجّيه وأن يكفيه شر ما يخشاه أو يخافه أو نحو ذلك . فهي عبادة من العبادات التي لا يجوز صرفها إلا لله سبحانه وتعالى ؛ ولهذا قال رحمه الله : ((**بابٌ من الشرك الاستعاذة بغير الله تبارك وتعالى**)) أي طلب العوذ ؛ أي أن يقيه ، أن ينجيه ، أن يسلِّمه ، أن يكفيه ؛ فهذا لا يكون الالتجاء فيه إلا إلى الله سبحانه وتعالى الذي بيده أزمَّة الأمور ومقاليد السماوات والأرض .

وسبحان الله ! تأمل هذا المعنى في التوسل والدعاء العظيم الذي قال النبي عليه الصلاة والسلام فيه بعد جملة من التوسلات ((أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ دَابَّةٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا)) ؛ فالنواصي كلها بيد الله وهو جل وعلا الذي بيده أزمة الأمور ومقاليد السماوات والأرض ، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، من استعاذ بالله صادقاً والتجأ إليه وهو صادق في التجائه إليه وصادقٌ في توكله عليه واعتماده عليه سبحانه وتعالى وقاه الله سبحانه وتعالى وكفاه ، وإن كادته السماوات والأرض ومن فيهن جعل الله سبحانه وتعالى له من كل همٍّ فرجا ومن كل بلاءٍ مخرجا وقد قال الله تعالى ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر:٣٦] . فالله عز وجل هو الذي بيده أزمة الأمور بيده العطاء والمنع ، الخفض والرفع ، العز والذل ، الحياة والموت ، كل شيء بيده سبحانه وتعالى فلا يستعاذ إلا به ولا يلتجأ إلا إليه ولا يتوكل إلا عليه ، لأنه لا ملجأ ولا منجى منه إلا إليه ولا مفر إلا إليه سبحانه وتعالى .

فالاستعاذة عبادة وصرف العبادة لغير الله تبارك وتعالى شرك بالله جل وعلا .

قال رحمه الله : ((**وقول الله تعالى** : ﴿ **وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا** ﴾)) ؛ هذه الآية الكريمة يذكر الله سبحانه وتعالى فيها حال أهل الجاهلية ، ويذكر فيها نوعاً من أنواع شركهم وجاهليتهم وضلالهم ؛ أنَّ الأفراد منهم أو الجماعات إذا نزلوا في أسفارهم بوادٍ من الأودية أو مفازة من المفازات تعوَّذوا بسيِّد ذلك الوادي من شر ما فيه ، أي تعوَّذوا بزعيم الجن أو الشياطين في ذلك الوادي ورئيسهم أن يعيذهم من شر الشياطين أو الأشياء التي تخيفهم في ذلك الوادي . فذكر الله سبحانه وتعالى هذه الحال القبيحة السيئة لهؤلاء في هذا الالتجاء والعبادة التي يصرفونها لسيد الوادي ملتجئين إليه مستعينين به .

يقول الله سبحانه : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ ﴾ يعوذون : أي يلتجؤون ويعتصمون ويطلبون الحماية والكفاية والوقاية.

﴿ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ وهذا عقوبة من الله سبحانه وتعالى لهؤلاء الذين تعلقت قلوبهم والتجأت نفوسهم إلى غير الله بأن نالوا نقيض مقصودهم ؛ فهم تعلقوا بغيره ليحصِّلوا سلامةً أو نجاة أو راحة أو طمأنينة ، فالذي حصلوه كما قال الله ﴿ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ ، وهذه عقوبة لهم بأن نالوا وحصَّلوا نقيض مقصودهم ومر معنا لذلك نظائر مثل : قوله ((انزعها فإنها لا تزيدك إلا وهنا)) ، هنا قال: ﴿ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ وهناك قال: ((فإنها لا تزيدك إلا وهنا)) أي ضعفاً ومرضاً وسُقْماً وعلة . مثله أيضاً قوله عليه الصلاة والسلام ((من تعلق تميمة فلا أتم الله له ، ومن تعلق ودْعة فلا ودع الله له)) ؛ هذا كله من المعاملة لهؤلاء بنقيض المقصود ، ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ .

قال رحمه الله :

وعن خولة بنت حكيم رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم : يقول : «من نزل منزلا فقال : أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق ؛ لم يضره شيء حتى يرحل من منزله ذلك» رواه مسلم .

****

ثم ختم رحمه الله تعالى هذه الترجمة بحديث خولة بنت حكيم رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ((**من نزل منزلًا فقال : أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق ، لم يضره شيء حتى يرحل من منزله ذلك**)) **رواه مسلم** .

قوله عليه الصلاة والسلام ((من نزل منزلا)) هذا يتناول المنزل الذي يسكنه الإنسان بشكل مستمر ، أو المنزل الذي ينزله مثلاً بشكل مؤقت ، أو أيضاً المنزل الذي ينزله لفترة يسيرة في الطريق ؛ فيتناول ذلك كله ، من نزل منزلا كأن يكون اشترى بيتاً فيأتي بهذا الدعاء في أول سكناه لهذا البيت ، أو استأجر مثلا شقة ليسكن فيها شهرًا أو سنة أو أقل أو أكثر فيأتي بهذا الدعاء في أول سكناه لتلك الشقة ، أو مثلاً في السفر أوقف سيارته ونزل منزلا لساعات أو لينام في الطريق أو يرتاح لبضع ساعات فإنه أيضاً يأتي بذلك . فقوله ((من نزل منزلاً)) جاءت «منزلًا» نكرة في هذا السياق فهي تعم ، أي تتناول ذلك كله ؛ سواء مكان بيتا يمتلكه ، أو استأجره لفترة محددة، أو منزلا نزله في الطريق فإنه يأتي بهذا التعوذ المأثور عن النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه .

قال : ((**من نزل منزلا فقال أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق**)) ؛ «كلمات الله التامات» : قيل القرآن الكريم ، وقيل كلماته التامات أي الكونية القدرية ، مثل ما أيضاً جاء في بعض الأحاديث ((التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر)) . فالكلمات التامات تحتمل أن تكون القرآن الكريم أو أنها كلمات الله سبحانه وتعالى الكونية القدرية .

((**من قال أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق**)) المراد بقوله «من شر ما خلق» أي من شر مخلوقٍ قام فيه الشر ، لا أنَّ كل مخلوقات الله سبحانه وتعالى فيها شر ، وإنما المراد «من شر ما خلق» أي من شر كل مخلوق قام فيه شرٌ ؛ فيستعيذ بالله سبحانه وتعالى هذه الاستعاذة .

وانظر هذه الاستعاذة الجامعة التي تتناول ما يخطر ببالك وما لا يخطر ببالك ، وتنبه لهذا ؛ فإن فهم الدعوات والتعوذات المأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم له فائدته في وقوع الأثر والنفع لذلك الدعاء ؛ فقوله ((من شر ما خلق)) هذه تتناول كل ما يخشاه الإنسان والشرور التي يتخوف منها مما يخطر في باله وأيضاً ما لا يخطر بباله.

قال ((**من نزل منزلا فقال أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم يضره شيء**)) أي لا يحصل له ضرر مادام قد تعوذ هذا التعوذ ، لا يمنع أن تلدغه مثلاً عقرب أو نحو ذلك لكنه لا يتضرر ، لا يحصل له ضرر ما دام قد أتى بهذه الدعوة العظيمة المأثورة عن النبي عليه الصلاة والسلام .

قال: ((**حتى يرحل من منزله ذلك**)) بمعنى أن هذه الدعوة تنال بها أيها العبد حصانةً مادمت في هذا المنزل ، فإذا رحلت منه إلى منزلٍ آخر احتاج النزول الآخر إلى تجديد هذا الالتجاء والاستعاذة بالله سبحانه وتعالى . وأيضاً يتطلب المقام أن العبد يعتني بذلك في كل منزل ينزله ويجتهد أن لا يفوته ذلك في أي منزل ينزله .

والإمام القرطبي المفسر رحمه الله تعالى يذكر تجربة عجيبة له تتعلق بهذا الدعاء؛ يقول في شرحه لهذا الحديث : «أن هذا الدعاء علِمْنا صِدْقه روايةً وتجربة» يعني من حيث الرواية أو دلالة الحديث على ذلك ومن حيث أيضاً التجربة، يقول : «فإني منذ علمته ما تركته في كل منزل نزلته ، إلا ليلة نزلنا بالمهدية –منطقة– فلدغتني عقرب فتذكرت أني نسيته في ذلك المنزل» .

فإذاً هذه الفائدة ويدل عليها قوله ((حتى يرحل من منزله)) يدل على أنه ينبغي على العبد أن يجاهد نفسه على تذكر ذلك في كل منزل ينزل فيه يأتي بهذه الدعوة العظيمة المأثورة عن النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه .

أذكر مرةً ذكر لي أحد طلابنا بعد شرحٍ لهذا الباب في مرة سبقت ذكر قصة حصلت لبعض أقربائه قال : كانوا في سفر في سيارة وأرادوا المبيت في الصحراء فأحدهم قال أنا ما أستطيع أن أنام على الأرض أخشى أن تلدغني عقرب أو تصيبني حية أنا سأنام فوق السيارة ، فقالوا له : قل هذا الدعاء ((أعوذ بكلمات الله التامات كلها من شر ما خلق)) ما يضرك شيء ، قال أنا ما أستطيع وأبى ونام فوق السيارة، وهؤلاء الرفقة كل واحد منهم فرش فراشا في الأرض وأتى بهذا التعوذ ونام ، لما أصبحوا وهو فوق السيارة يطوي فراشه وإذا به يصرخ لدغته عقرب ، والعقرب قد تكون حملها مع فراشه والتصق فيه أو دخل فيه ، يعني مثل أول ما نزلوا وضعوا الفراش في الأرض فدخلت في فراشه ثم لدغته وهو فوق السيارة .

فهذه القصة هي من جنس القصة التي يرويها القرطبي عن نفسه ، ومثل هذه القصص عند أهل العلم تُذكر استئناساً لا اعتماداً ، مثل هذه القصص يستأنس بها وليست هي العمدة ، وإنما العمدة الدليل كلام الله وكلام رسوله عليه الصلاة والسلام ، ويكفي في ذلك أن الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه الذي لا ينطق عن الهوى قال : ((من نزل منزلا فقال أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم يضره شيء حتى يرحل من منزله ذلك)) .

وأيضا من نظائر ذلك : ما جاء في سنن أبي داود في الدعاء أو الذكر الذي يقال في الصباح والمساء ((بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء)) من قاله في الصباح ثلاثا لم يضره شيء ، فالراوي للحديث أبان ابن عثمان كان يروي الحديث لبعض من عنده وكان أبان مصاباً بالفالج ، فأحد الحاضرين وهو يروي حديث ((لم يضره شيء)) كان ينظر إليه يعني يحدِّق النظر كأن نظرات عيونه تطلب منه أن يوجد ربطاً بين هذا الدعاء وبين الإصابة التي فيه بالفالج ، فقال له أبان : «لا تنظر فإني نسيته يوماً ليُمضي الله فيَّ قدره» .

فكل هذه تؤكد أهمية المواظبة على مثل هذه الأذكار التي هي حصن حصين للمسلم في صباحه ومسائه ، وعند نومه ، وفي نزوله ، وفي دخوله وخروجه ، إلى غير ذلكم من الأذكار والتعوذات المأثورة عن النبي الكريم عليه الصلاة والسلام .

والشاهد : أن الاستعاذة عبادة وصرفها لغير الله تبارك وتعالى شرك بالله .

قال رحمه الله تعالى :

فيه مسائل ؛ الأولى : تفسير الآية .

أي آية الجن ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ وقد مر معنا الكلام على معناها .

الثانية : كونه من الشرك .

«كونه من الشرك» أي الاستعاذة بغير الله تبارك وتعالى من الشرك بالله تبارك وتعالى ؛ لأن الله عز وجل ذكر ذلك في أعمال أهل الجاهلية وأهل الشرك بالله وأنهم يتعلقون بالجن ويلتجئون إليهم ، وذكر الله جل وعلا أن هذا زادهم رهقاً أي وهناً وضعفاً .

الثالثة : الاستدلال على ذلك بالحديث ، لأن العلماء يستدلون به على أن كلمات الله غير مخلوقة ، قالوا: لأن الاستعاذة بالمخلوق شرك .

«الاستدلال على ذلك بالحديث» أي حديث خولة ، قال النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث : ((أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق)) فيقول «الاستدلال على ذلك بالحديث»؛ ما وجه الاستدلال بهذا الحديث على ذلك ؟ قال : لأن العلماء يستدلون به على أن كلمات الله غير مخلوقة ، وممن استدل به على أن كلمات الله عز وجل غير مخلوقة الإمام أحمد رحمه الله وغيره من أئمة السنة في ردهم على المعتزلة وأضرابهم ممن يقولون بأن القرآن مخلوق ، ففي رد الأئمة – الإمام أحمد وغيره – على أولئك استدلوا بأدلة كثيرة منها هذا الحديث حديث خولة ؛ قالوا : أن النبي عليه الصلاة والسلام صح عنه أنه قال : ((من قال أعوذ بكلمات الله التامات)) والتعوذ عبادة وصرفها لغير الله شرك ، فلو كان القرآن مخلوقاً لكان هذا تعوذٌ بغير الله تبارك وتعالى؛ ولهذا يقول المصنف: «لأن العلماء يستدلون به على أن كلمات الله غير مخلوقة ، قالوا : لأن الاستعاذة بالمخلوق شرك».

الرابعة : فضيلة هذا الدعاء مع اختصاره .

فضيلة هذا الدعاء – أي الدعاء الوارد في حديث خولة بنت حكيم – مع اختصاره ؛ من حيث أن النبي عليه الصلاة والسلام قال : ((لم يضره شيء)) ، وقوله «شيء» جاءت نكرة في سياق النفي فتفيد العموم؛ أي لا يضره أي شيء قلَّ أو كثُر ، صغُر أو كبر ؛ فهذا مما يدل على فضل هذا الحديث .

أيضا قوله ((حتى يرحل من مكانه)) انظر هذا الفضل العظيم ! يعني قد تسكن بيت تشتريه مثلاً وتقول «أعوذ بكلمات الله التامات» أول ما سكنت في هذا البيت ، ثم تسكن عشر سنوات عشرين سنة ثلاثين سنة ربما أنه بيتك الذي تبقى فيه إلى أن تموت فانظر هذا الفضل العظيم ((لم يضره شيء)) ، ولهذا يحتاج فعلاً المسلم أن يتنبه إلى هذا الدعاء في كل منزل ينزله ، سواءً سكنى مستمرة أو نزول مؤقت .

الخامسة : أن كون الشيء يحصل به منفعة دنيوية من كف شر أو جلب نفع ، لا يدل على أنه ليس من الشرك .

هذه فائدة عظيمة جداً وثمينة للغاية ، والمصنف رحمه الله تعالى عندما يذكر هذه الفائدة أيضاً يحسم بها سبباً من أسباب ضلال كثير من الناس في هذا الباب ، لأن كثير من الناس يضل في هذا الباب بحكاية بعض القصص يقولون "فلان انتفع أو فلان جرب أو فلان قال كذا ولم يضره شيء أو سلِم" أو نحو ذلك ؛ فينبه الشيخ رحمه الله على هذه الفائدة الثمينة يقول : «أن كون الشيء يحصل به منفعة دنيوية من كف شر أو جلب نفع لا يدل على أنه ليس من الشرك» ؛ مثلا : أولئك المشركون الذين إذا نزلوا وادياً وتعوذوا بسيد ذلك الوادي ؛ إذا قدَّر الله لهم في منزلهم ذلك السلامة ومنزلهم الآخر السلامة ، هل هذه السلامة دليل على صحة العمل ؟! أو مثلاً أيضاً شخص قدَّم قربانا أو نحو ذلك ليوقى من شيء أو ليحصِّل شيئا فقدَّر الله حصول ذلك الشيء ابتلاءً وامتحاناً واستدراجاً ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾[القلم:٤٤] ، فمثل حصول ذلك يعني حصول المنفعة أو انتفاء المضرة هذا ليس دليلاً أبداً على صحة ذلك العمل .

يقول : «أن كون الشيء يحصل به منفعة دنيوية من كف شر أو جلب نفع لا يدل على أنه ليس من الشرك» ؛ إذاً ما الذي يُستدل به ؟ وما الذي ينهض أن يكون دليلاً ومرجعاً يستدل به ؟ ليست هي التجارب ولا الآراء ولا العقول ولا غير ذلك ، وإنما الدليل : قال الله قال رسوله صلى الله عيه وسلم . والأدلة جاءت واضحة ساق المصنف رحمه الله طرفاً منها دالةً بوضوح وجلاء على أن الاستعاذة بغير الله تبارك وتعالى شرك بالله عز وجل ناقلة من الملة .

الدرس الخامس عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد :

يقول شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب أجزل الله له الأجر والثواب في كتابه «التوحيد الذي هو حق الله على العبيد» :

بابٌ من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره

وقول الله تعالى : { وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٠٦) وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ } الآية [يونس:١٠٦-١٠٧] .

****

هذه الترجمة التي عقدها الإمام شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى هي نظير ما قبلها في بيان أنواعٍ من الشرك الأكبر الناقل من ملة الإسلام ، وقد تقدم قبل هذه الترجمة «بابٌ من الشرك الذبح لغير الله» و«باب من الشرك النذر لغير الله» وهذه الترجمة في بيان أن الاستغاثة بغير الله أو دعاء غير الله عموماً فإنه من الشرك الأكبر الناقل من ملة الإسلام ، لأن الدعاء ومنه الاستغاثة عبادة لا يجوز أن تُصرف ولا أن يلتجأ فيها إلا إلى الله عز وجل الذي بيده الضر والنفع ، والعطاء والمنع ، والقبض والبسط ، والعز والذل ، والخفض والرفع ، وبيده تبارك وتعالى أزمة الأمور ومقاليد السماوات والأرض ، فوحده عز وجل الذي يُلتجأ ، وحده الذي يتوكل عليه ، وحده تبارك وتعالى الذي يُدعى ويستغاث به ؛ فمن صرف شيئا من ذلك لغير الله فإنه يكون بذلك قد عبَد غير الله ، ومن عبد غير الله يكون أشرك بالله سبحانه وتعالى الشرك الأكبر فيكون من الكافرين، ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المؤمنون:١١٧] ؛ فسمى من يدعو غير الله تبارك وتعالى كافراً أي كفراً أكبر ناقلا من ملة الإسلام .

فإذاً هذه الترجمة عقدها رحمه الله تعالى لبيان أن من الشرك الأكبر الناقل من الملة أن يُدعى غير الله، أو أن يستغاث بغير الله ، أو أن يطلب المدد والعون والنصر من غير الله تبارك وتعالى ، لأن الدعاء عبادة ومن صرف شيئاً من العبادة لغير الله أشرك بالله .

قوله رحمه الله ((**باب من الشرك**)) أي الأكبر الناقل من الملة ((**أن يستغيث بغير الله**)) والاستغاثة: هي طلب الغوث ؛ وتكون في الشدائد والكربات والنوازل العظيمة ، فالداعي في الكرْب والشدة والأمر العظيم يسمى «مستغيث» ، وفِعله يسمى «استغاثة» ، والسين في قوله «أن يستغيث» للطلب؛ أي يطلب الغوث من غير الله تبارك وتعالى ، أي يطلب أن ينجيه من شدته وكربه وما نزلت به من شدة يطلب ذلك من غير الله فإن ذلك من الشرك الأكبر . والاستغاثة دعاء وطلب لكنها في الشدائد والكربات ، فإذا كان الدعاء والسؤال في شدة وكرب فإنه يسمى «استغاثة» .

ثم قال رحمه الله تعالى ((**أو يدعو غيره**)) أي يلتجئ بالسؤال والدعاء إلى غير الله تبارك وتعالى .

وعطْف الدعاء على الاستغاثة هو من باب عطف العام على الخاص ؛ لأن الاستغاثة دعاءٌ لكنه دعاء مخصوص بالكرب والشدة ، والدعاء عام ، الدعاء يدخل تحته الاستغاثة ، ويدخل تحته الاستعاذة ، والاستعانة ، والاستنصار ، والاستغفار وغير ذلك ، هذه كلها دعوات والتجاءات إلى الله سبحانه وتعالى . فإذاً عطف الدعاء على الاستغاثة هو من باب عطف العام على الخاص . والعام يُعطف على الخاص ، وكذلك العكس يعطف الخاص على العام . فالعطف هنا من باب عطف العام على الخاص .

إذاً هذه الترجمة فيها بيان أن دعاء غير الله تبارك وتعالى شركٌ بالله عز وجل ، وفي الترجمة تخصيص للاستغاثة التي هي من الدعاء ، وعادةً التخصيص يصار إليه للاهتمام بالأمر المخصَّص ، يعني يُعطف الخاص على العام أو العكس ويكون المخصص خُصَّ لمزيد اهتمامٍ به وعناية بتخصيصه بالذكر مع دخوله في اللفظ العام ؛ وذلك أن الاستغاثة عبادة وُجد خلقٌ من الناس صرفوها لغير الله تبارك وتعالى! مع أن المشركين الأوَل كانوا في الشدائد يخْلصون -وسيأتي بيان ذلك- وفي الرخاء يشركون ، إذا أصابتهم الشدة أخلصوا دينهم لله ويعلنونها صراحة كما سيأتي أيضاً إيضاح ذلك يعلنونها صراحة أن الذي ينجِّيهم في الشدة ولا ينجيهم غيره هو الله ، ولهذا قال الله في القرآن : ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت:٦٥] ؛ إذا ركبوا في الفلك أي وجاءتهم الريح العاصف القاصف اشتدت بهم الأمور تلاطمت الأمواج أخلصوا دينهم لله ، وإذا نجاهم سبحانه وتعالى إلى البر إذا هم يشركون؛ أي عادوا إلى شركهم ، والله سبحانه وتعالى قادر على أخذهم في البر والبحر ، ليس مجيئهم في البر أمرٌ تتحقق به السلامة بل الهلاك قد يكون في البر نفسه ، ولهذا قال الله تعالى :

﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٦٦) وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ ما معنى «ضل من تدعون إلا إياه» ؟ ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ﴾ أي الشدة وعاينتم الموت وتلاطمت الأمواج ﴿ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ أي كل من تدعونهم وتتعلق قلوبكم بهم وتسألونهم كلهم يذهبون عن عقولكم ولا يبقى إلا الله وحده في عقولكم وفي قلوبكم والتجائكم ودعائكم، ﴿فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا (٦٧) أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ﴾ ، أو أيضاً أمر آخر في البر ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾ ، ثم أمرٌ آخر ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى﴾ أي في البحر ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾ [الإسراء:٦٦-٦٩] . وهذا يبين سفه عقول المشركين ؛ هذا الذي أيقنوا أنه لا ينجِّيهم في البحر إلا هو كذلكم لا ينجيهم في البر إلا هو ، لأنه قادرٌ عليهم في البر والبحر ، والأمر بيده سبحانه وتعالى .

فالشاهد أن المشركين الأوَل كانوا يشركون في الرخاء ، أما الشدائد التي يكون فيها الاستغاثة فإنهم يخلصون لله سبحانه وتعالى ، لكن عظُم البلاء في أقوام جاءوا بعد ذلك فصاروا يشركون في الرخاء والشدة ، ولهذا وجدت الاستغاثة بغير الله في الشدائد ، حتى في معاينة الغرق في البحر يهتف بعضهم بمن يستغيثون بهم ممن يسمَّون بالأولياء أو الصالحين أو غير ذلك؛ يهتفون بأسمائهم وهم في الغرق وفي الشدة !! في الموضع الذي يخلِص فيه المشركون الأوَل يشرك هؤلاء ويستغيثون بغير الله سبحانه وتعالى .

فالمقام يحتاج فعلاً إلى تخصيص مزيد اهتمامٍ به مع أنه داخل في الدعاء عموماً ، والدعاء حق لله لأنه عبادة ، والعبادة لا يجوز صرف شيء منها لغير الله ، وفي القرآن مواضع وصف الله سبحانه وتعالى الدعاء فيها بأنه عبادة مثل قوله: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي ﴾ [غافر:٦٠] سمى المستكبر عن دعائه مستكبراً عن عبادته . فالدعاء عبادة ، بل جاء هذا صريحاً في السنة قال عليه الصلاة والسلام في حديث النعمان بن بشير المخرَّج في السنن ((الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ)) وتلا الآية المتقدمة صلوات الله وسلامه وبركاته عليه .

فإذاً هذه الترجمة في بيان أن صرف الدعاء لغير الله ومنه الاستغاثة شرك أكبر ناقل من ملة الإسلام .

وساق رحمه الله تعالى كما هي طريقته المعهودة شيئاً من الأدلة؛ فبدأ بقول الله عز وجل : ﴿ **وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ (١٠٦) وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** ﴾ والخطاب هنا – تأملوا يا إخوان – الخطاب هنا لسيد ولد آدم وقدوة الخلائق أجمعين وأفضل عباد الله صلوات الله وسلامه عليه يقول له ربه جل في علاه ﴿ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ !! وهو عليه الصلاة والسلام سيد المخلصين وإمام المتقين ، برَّأه الله جل وعلا وحماه ووقاه ونجّاه من الشرك حتى منذ نشأته ، مع أنه نشأ في مجتمع جاهلي وفي أقوام مشركين يعبدون غير الله ولا يُعرف بينهم إلا عبادة غير الله سبحانه وتعالى نشأ مبرأً من ذلك .

وقول الله عز وجل ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا ﴾ [الضحى:٧] ليس المراد بالضلال الشرك ، وإنما الضلال المراد به عدم المعرفة بالتفاصيل تفاصيل الدين والشرائع والأحكام كما قال الله في سورة الشورى: ﴿ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ﴾ [الشورى:٥٢] أي هذه التفاصيل لا تعلمها وإنما جاء الوحي إليك بها فعلمتها ، ولهذا قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى : «من قال إن محمدًا صلى الله عليه وسلم كان على شيء من دين قومه فقد أعظم الفرية» ، فالله سبحانه وتعالى برأه من ذلك وحماه ووقاه من ذلك صلوات الله وسلامه عليه .

وفي هذه الآية يقول الله مخاطباً نبيه ومصطفاه ورسوله ومجتباه عليه الصلاة والسلام : ﴿ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ والخطاب هنا كما بيَّن أهل العلم خرج مخرج الخصوص والمراد به العموم ، وإذا كان سيد ولد آدم يُخاطب بهذا الخطاب ﴿ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ ﴾ أي فعلت ذلك دعوت غير الله ، سألت غير الله ، التجأت إلى غير الله ﴿ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ ؛ هذا يستفاد منه أن من دعا غير الله أو صرف شيئاً من العبادة لغير الله مهما كان فإنه يكون من الظالمين ، والمراد بالظلم : الشرك بالله سبحانه وتعالى ، أي يكون من المشركين بالله . الشخص مهما كانت مكانته إن صرف شيئاً من العبادة لغير الله كان بهذا الصرف للعبادة لغير الله مشركاً بالله كافراً بالله العظيم ، قد قال الله تعالى في موضع آخر لنبيه عليه الصلاة والسلام ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٦) وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر:٦٥-٦٧] .

قال: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ﴾ ؛ قوله «مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ» هذا وصفٌ لازم لكل من يُدعى غير الله ، كل من يدعى غير الله لا ينفع ولا يضر ، لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرا ولا موتاً ولا حياة ولا نشورا فضلاً عن أن يملك شيئا من ذلك لغيره . ففي الآية إبطالٌ للشرك وذكرٌ للبرهان البين والدليل الواضح على بطلان التعلق بغير الله، لأن دعاء غير الله دعاءٌ لمن لا يملك ضراً ولا نفعا لا لنفسه ولا لغيره.

قال: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ ؛ قوله «مِن دُونِ اللَّهِ» يتناول كل من يدعى غير الله سبحانه وتعالى من الملائكة والأنبياء والأولياء والأحجار والأشجار وغير ذلك كل هذا يدخل تحت قوله ﴿ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾

﴿ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ﴾ أي لا يملك لك نفعاً ولا يملك لك ضرا ، إن دعوته لم تنتفع بدعائك له ، وأيضاً لا يملك لك ضراً ؛ وهذا يستفاد منه فائدة جليلة ومهمة : بعض العوام يخوَّفون بمن يسمون بالأولياء وأنهم بيدهم كذا وبيدهم كذا إلى آخره ؛ هذا كله باطل ، لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرا فلا يضر غيره ، هو لا يملك لنفسه فكيف يملك شيئا من ذلك لغيره!! .

﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ ﴾ أي ذلك وهو دعاء غير الله ، وحاشاه عليه الصلاة والسلام أن يفعل ذلك ؛ لكن السياق يبين أن من فعل ذلك مهما كان ومهما بلغ قدراً ومنزلة فإنه يكون من الظالمين ﴿ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ ﴾ ، والمراد بالظالمين : أي المشركين الكافرين كما قال الله سبحانه وتعالى فيما ذكره في وصية لقمان: ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان:١٣] ؛ فالمراد ﴿ مِّنَ الظَّالِمِينَ ﴾ أي : المشركين الشرك الأكبر الناقل من الملة الموجب للخلود في النار يوم القيامة .

قال: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ ﴾ و «ضر» جاءت نكرة في هذا السياق تفيد العموم ؛ أيَّ نوع من الضر ؛ في بدنك ، في مالك ، في صحتك ، في ولدك ، في تجارتك ، في أي شيء ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ﴾ أي: لا يزيل الضر ولا يكشفه إلا الله سبحانه وتعالى الذي بيده أزمَّة الأمور سبحانه وتعالى .

﴿ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ﴾ ؛ إن أرادك الله سبحانه وتعالى بخير و«خير» أيضاً نكرة في هذا السياق فتفيد العموم ؛ إن أرادك الله بخير في المال أو في الصحة أو في الولد أو في التجارة أو في غير ذلك ﴿ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ﴾ أي ليس هناك أحدٌ يقدر على منع ما أراده الله سبحانه وتعالى لك من خير وفضل ونعمة ، وفي الحديث يقول عليه الصلاة والسلام: ((وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ)) ويقول الله تعالى: ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾ [فاطر:٢] فالفضل والمن والعطاء كله بيد الله ، الأمر بيده سبحانه وتعالى لا شريك له .

قال: ﴿ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ ؛ الفضل بيده ويصيب به من يشاء ،كما قال تعالى: ﴿ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [الحديد:٢٩] .

إذاً هذه الآية فيها النهي عن الشرك والتحذير منه وبيان خطورته ، وأن من يدعى غير الله ويستغاث به ويلتجأ إليه لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا عطاءً ولا منعا فضلاً عن أن يملك شيئا من ذلك لغيره

قال رحمه الله :

وقوله : { فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ } الآية [العنكبوت:١٧] .

****

وقوله ﴿ فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ ؛ هذه الآية ذكرها الله سبحانه وتعالى في سياق محاجة إبراهيم عليه السلام لقومه وإقامته عليه السلام البراهين والحجج البينات الظاهرات الدالة على وجوب إخلاص الدين لله عز وجل وإبطال الشرك ، ففي هذا السياق جاء قوله ﴿ فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ ﴾ أي عنده لا عند غيره ، فلا تلجئوا إلا إليه ، ولا تطلبوا الرزق إلا منه ، ولا تُنزلوا حاجاتكم وطلباتكم ورغباتكم إلا به سبحانه وتعالى، لجوءً إليه واستغاثةً به وطلباً منه وحده جل وعلا لأن الرزق بيده ، وهو الرزاق سبحانه وتعالى الذي بيده الأرزاق وبيده النعم وبيده المنن عز وجل .

قال: ﴿ فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ ﴾ هنا أسلوب من أساليب الحصر الدال على الإخلاص ، إخلاص طلب الرزق من الله وحده دون سواه ، لأنه قال: ﴿ فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ ﴾ قدَّم المعمول فأفاد الحصر ، أصل الجملة فابتغوا الرزق عند الله ، وهذا التقديم يفيد الحصر ، فقوله ﴿ فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ ﴾ في قوة دلالتها كقولك "ابتغوا الرزق عند الله لا عند غيره سبحانه وتعالى" ؛ ففيها الإخلاص في الطلب . وهذا يدخل فيه أيضاً معنى الشدائد والاستغاثة ، لأن طلب الرزق قد يكون في مواضع شدة وكرب ؛ يحتاج الإنسان رزقاً من الله سبحانه وتعالى في شيء يتغذى به أو رزقاً في صحته يسْلم بها من آفة أو عطب أو نحو ذلك، فكل ذلك لا يُلتجأ فيه إلا إلى الله سبحانه وتعالى وحده.

﴿ فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ فالآية فيها إخلاص الدعاء لله عز وجل والالتجاء إليه وحده وعدم صرف شيء من ذلك لغيره .

قال رحمه الله :

وقوله : { وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ } الآيتين [الأحقاف:٥-٦] .

****

قال رحمه الله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ هذه الآية الكريمة من أبين ما يكون في بطلان الشرك ودعاء غير الله سبحانه وتعالى ، وأن من يدعو غير الله في منتهى الضلال ، وفي غاية السفه والغي والانحراف ، وأنه لا أضل منه . والاستفهام في قوله ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ ﴾ بمعنى النفي؛ أي : لا أحد أضل ممن كان كذلك يدعو غير الله.

﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ ؛ لا يملك استجابة ، لا يملك عطاءً ، لا يملك رزقاً ، لا يملك حياةً ولا موتا ولا نشورا ، لا يملك ذلك لنفسه فكيف يملكه لغيره !! فإذاً من دعا غير الله فهو في منتهى الضلال ، لأن الذي يدعوه غير الله سبحانه وتعالى لا يستجيب له ولا يملك أصلاً استجابةً له ﴿ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ

﴿الْقِيَامَةِ﴾ ؛ وهذا أيضا فيه أن الدعاء وإن امتد وطالت مدته وكثر إلحاح صاحبه فيه فإن هذه الأشياء التي تُدعى لا تملك إجابةً ﴿مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ .

﴿وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ إضافةً إلى أنه لا يستجيب هناك أمرٌ أبلغ من ذلك وهو أنه غافل عن دعائه لا يشعر به ولا يدري بحاله. ﴿وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ أي لا علم به ولا شعور له به ولا يعرف بحاله ، وهذا خلاف لما عليه المقابرية دعاة المقبورين الذين يستغيثون بالمقبورين ويلتجئون بعضهم يعتقد أن المقبور يسمع ويعلم ويطَّلع على أحوال الناس وأنه بيده أن ينفعهم أو أن يغيثهم أو يعطيهم أو يفرّج كربتهم أو غير ذلك ، والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ . والسياق يدل على أن المراد الأموات ليس الأحجار والأشجار .

قال ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ﴾ أي بين يدي الله سبحانه وتعالى ﴿كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً﴾ أي خصوماً ومعادين ﴿وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ ؛ فهذا كله مما يبين أن من يدعو غير الله فهو في غاية الضلال وفي منتهى السفه . ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ .

قال رحمه الله :

وقوله : {أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ} الآية [النمل:٦٢]

****

هذه خاتمة الآيات التي ساقها رحمه الله تعالى في هذه الترجمة وهي قول الله تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ .

﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ﴾ السياق هنا في مقام الرد على المشركين وإبطال تعلقاتهم الباطلة بالأوثان والأصنام والمعبودات التي اتخذوها مع الله ومن دون الله سبحانه وتعالى ، فالسياق في إبطال ذلك وإقامة البراهين الواضحة التي تبين بطلان ما عليه هؤلاء ، وفيها إلزامات قوية لهم لترك الشرك والبعد عنه .

قال: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ المشرك إذا سئل هذا السؤال قيل له : من الذي يجيب المضطر الذي في كرب وفي شدة عظيمة من هو الذي يجيبه إذا دعاه؟ يقول الله ، وفي قصة والد عمران بن حصين وهو حصين ، والقصة في المسند وغيره وسندها جيد ؛ لقيه النبي عليه الصلاة والسلام قبل أن يسلم قال له ((كم إلهاً تعبد؟)) قال: «سبعة ستة في الأرض وواحد في السماء» ، قال : ((مَن من هؤلاء أي السبعة الذي تجعله لرغبك ورهبك في شدائدك في أمورك العظيمة؟)) من مِن هؤلاء الذي تفزع إليه ؟ قال: «الذي في السماء» ، قال ((إذاً اترك الذي في الأرض واعبد الذي في السماء)) . فكانوا يعرفون أن الذي يجيب المضطر هو الله وحده ليست الأصنام ولا غيرها من الذين يدعونه من دون الله . وقد تنوع من يدعونه ؛ دعوا الأشجار ودعوا الأحجار ودعوا الصالحين ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى﴾ [النجم:١٩-٢٠] هذه فيها إشارة إلى هذه الأقسام الثلاثة، فكانوا يعرفون ذلك .

وانظر أيضا في قصة عكرمة ابن أبي جهل وكان ممن أهدر النبي صلى الله عليه وسلم دمهم عندما دخل مكة عام الفتح ، أربعة كان النبي عليه الصلاة والسلام أهدر دمهم عام الفتح وقال عليه الصلاة والسلام للصحابة ((من وجدتموه من هؤلاء الأربعة ولو كان متعلقًا بأستار الكعبة فاقتلوه)) ، كان من هؤلاء الأربعة عكرمة ابن أبي جهل ، ففر –والحديث في النسائي وغيره– فر من مكة وخرج وركب الفلك ، فتعرضت السفينة التي كان قد ركبها تعرضت للغرق أصابها شدة ، فقال أصحاب السفينة للراكبين فيها لمن هم على السفينة : «أخلصوا فإنه لا ينجيكم في هذه الشدة إلا الإخلاص» ، قال عكرمة : «لئن كان لا ينجيني في هذه الشدة إلا الإخلاص فإنه لا ينجِّيني في غيرها إلا الإخلاص» ؛ إذا كان لا نجاة لي في هذه الشدة إلا بالإخلاص فلا نجاة لي في أي مكان إلا بالإخلاص ، فتح الله على قلبه من هذا الموقف وقال : «لله علي عهد لئن أنجاني الله من هذه لأذهبن إلى محمد صلى الله عليه وسلم ولأضعن يدي في يده ولأجدنه عفواً كريما » لأنه عليه الصلاة والسلام أهدر دمه ، وجاء متخفياً لأنه لو رآه أحد من الصحابة أطاح برأسه ، النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((أينما تجدوا واحدًا من هؤلاء فاقتلوه)) ، فجاء متخفياً إلى أن وضع يده بيد النبي صلى الله عليه وسلم وأسلم رضي الله عنه ، وبعد إسلامه قال للنبي عليه الصلاة والسلام : «إنَّ لله عليَّ كل موقفٍ وقفته في الصد عن دين الله لأقفن مثليه في الذب عن دين الله ، وكل نفقةٍ أنفقتها في الصد عن دين الله لأبذلن مثليها في سبيل الله» ، ودخل في معركة اليرموك وقاتل قتالاً شديداً دفاعًا عن الإسلام ومنافحة عن الدين إلى أن قُتل في تلك المعركة ، فلما نظروا في جسده بعد أن قُتل وجدوا فيه أكثر من سبعين ما بين طعنة وضربة سيف ورمية نبل ونحو ذلك ، أكثر من سبعين من قوة بلائه وشدته في الدفاع عن دين الله ، وأخذ على نفسه عهداً أن يكون كذلك ومات في سبيل الله رضي الله عنه وأرضاه .

فالشاهد: أن القوم كانوا يعرفون أنه لا ينجِّي في الضراء وفي الكرب وفي الشدائد إلا الله ، إذاً هذا دليل وبرهان على وجوب الإخلاص لله في كل الأحوال ، مثل ما أخذ هذا البرهان عكرمة ، عكرمة أخذ هذا البرهان من تلك الواقعة التي حصلت له وقيل «أخلصوا لا ينجيكم في هذه الشدة إلا الإخلاص» أخذ من ذلك أنه لا نجاة له في أي مكان إلا بالإخلاص ، وعاهد الله إن نجاه ليخلصن دينه لله سبحانه وتعالى في كل الأحوال وفي جميع المقامات ، وفعلاً كان ذلك سبب إسلامه ودخول الإسلام في قلبه .

فالله جل وعلا يقول: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ والخطاب للمشركين ، يقال أنتم تعرفون أنه لا يجيب المضطر إذا دعاه إلا الله؛ إذاً هذا برهان يجب أن تستفيدوا منه لتخلصوا دينكم لله سبحانه وتعالى .

﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ أي إذا أصاب الإنسان سوء أصابه بلاء أصابه أمر يسوءه لا يكشفه إلا الله سبحانه وتعالى ، مثل ما تقدم معنا في قوله ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ .

﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ﴾ أي : يخْلُف بعضكم بعضا في هذه الأرض؛ قبلكم أناس كانوا على الأرض فتوفاهم الله عز وجل ثم خلفتموهم على هذه الأرض ثم تموتون ويخلفكم آخرين وهكذا .

﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ بعد أن ذكر البرهان دعاهم إلى التوحيد والإخلاص لله سبحانه وتعالى وإفراده بالعبادة ﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ أي أهناك من يستحق أن يدعى ويلجأ إليه وتُصرف له العبادة مع الله سبحانه وتعالى .

﴿ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أي قليلٌ إعمالكم لعقولكم بالتذكر والتفكر والتأمل في الأمور ، أي أنكم لو تذكرتم وتدبرتم لعلمتم أن ما أنتم عليه من شرك أنه في غاية السفه والمنافاة للعقول السليمة ، وأن الواجب عليكم أن تخلصوا دينكم لله سبحانه وتعالى وأن تفردوه وحده جل وعلا بالعبادة .

قال رحمه الله :

وروى الطبراني بإسناده : أنه كان في زمن النبي صلى الله عليه وسلم منافق يؤذي المؤمنين ، فقال بعضهم: قوموا بنا نستغيث برسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا المنافق ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : «إنه لا يستغاث بي وإنما يستغاث بالله عز وجل» .

****

ثم ختم رحمه الله تعالى هذه الترجمة بهذا الحديث المخرج في المعجم للطبراني ، قال : ((**وروى الطبراني بإسناده**)) وبيَّض رحمه الله تعالى لراوي الحديث من الصحابة ؛ وهو عبادة بن الصامت رضي الله عنه .

قال : **وروى الطبراني بإسناده أنه كان في زمن النبي صلى الله عليه وسلم منافق يؤذي المؤمنين ، فقال بعضهم : قوموا بنا نستغيث برسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا المنافق ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : «إنه لا يستغاث بي وإنما يستغاث بالله»** ؛ هذا الحديث كما قال المصنف رحمه الله تعالى رواه الطبراني في المعجم من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه ، وتُكلِّم في إسناده من جهة عبد الله بن أبي لهيعة، وهذا الحديث مع ما فيه من كلام يورده أهل العلم لصحة معناه واستقامة مدلوله وموافقته للنصوص الواردة في هذا الباب ، ولهذا شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى لما اعتُرض عليه في إيراده للحديث قال –كما جاء في كتابه «الاستغاثة»– إنه ساقه رحمه الله تعالى مع غيره من الأدلة اعتضادًا لا اعتماداً ، فمثل هذه الأحاديث يوردها أهل العلم للاعتضاد لا للاعتماد ، وأما من يصحح الحديث أو يرى حُسن الحديث فالأمر فيه واضح ، لكن من يرى أن سند الحديث فيه ضعف أو فيه كلام ويورده يكون أورده اعتضاداً لصحة معناه واستقامة مدلوله وموافقته للأدلة التي سيقت في الباب .

قال : ((**أنه كان في زمن النبي صلى الله عليه وسلم منافق يؤذي المؤمنين**)) المنافق المشار إليه هنا: هو عبد الله بن أبيّ بن سلول رأس المنافقين .

((**كان يؤذي المؤمنين فقال بعضهم**)) جاء في بعض الروايات أن القائل أبو بكر رضي الله عنه .

((**فقال بعضهم : قوموا بنا نستغيث برسول الله صلى الله عليه وسلم**)) ماذا كان مراده بقوله نستغيث برسول الله ؟ هنا استحضروا أن الاستغاثة بالمخلوق على نوعين :

١– استغاثة بالمخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه وتعالى ؛ فهذه شرك أكبر ناقلة من ملة الإسلام ، من صور ذلك : لو أن أقواماً كانوا في سفينة وتلاطمت الأمواج بهم وعاينوا الغرق فأخذوا يهتفون "مدد يا شيخ فلان"، هذا من الشرك الأكبر الناقل من ملة الإسلام . ولهذا من الطرائف اللطائف قرأتها في حاشية على أحد كتب التفسير قال : إن قومًا كانوا في سفينة وعاينوا الموت بسبب تلاطم الأمواج فأخذ كل من هؤلاء يهتف بشيخه ، الذي يهتف بالبدوي والجيلاني إلى آخره

،كلٌ يهتف بشيخه ، فكان على السفينة رجل مسِن موحِّد فرفع يديه وقال : "يا رب أغرق أغرق فما على السفينة من يعبدك" ، يعني كل من على السفينة لا يعبدونك كلهم ملتجئين إلى غيرك . فالاستغاثة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله هذه من الشرك الأكبر الناقل من الملة.

٢- النوع الثاني من الاستغاثة : استغاثة بالمخلوق فيما يقدر عليه المخلوق ، ومادمنا في البحر نأتي بمثال آخر في البحر ؛ لو أن شخصًا نزل في طرف البحر ثم زلَّت قدمه وعاين الغرق وكان حوله بعض الأشخاص الذين يُحسنون السباحة وقال : "أغيثوني أدركوني الحقوني أنا أغرق" إلى آخره ، استغاثته هذه هل هي من الشرك ؟ هذه منها قوله تعالى ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾[القصص:١٥] استغاثة القبطي بموسى عليه السلام استغاثة بشخص قوي حاضر أمامه في أمر يقدر عليه ، فليست من الشرك في شيء .

إذاً الاستغاثة على نوعين :

١- استغاثة بالمخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله؛ فهذه من الشرك الأكبر الناقل من الملة .

٢- واستغاثة بالمخلوق الحاضر الحي القادر في الأمر الذي يقدر عليه؛ فهذه ليست من الشرك .

الصحابة لما قالوا «قوموا نستغيث برسول الله» أي النوعين المراد هنا ؟ فيما يقدر عليه أو فيما لا يقدر عليه ؟ أرادوا فيما يقدر عليه النبي صلى الله عليه وسلم ، «قوموا نستغيث برسول الله» : أي نخبره بخبر هذا المنافق ونُطلعه على حاله ليأمر بقتله أو ليأمر بحبسه أو يأمر بطرده أو غير ذلك ، هذا المراد بقولهم .

((**فقال النبي عليه الصلاة والسلام : إنه لا يستغاث بي**)) انظر حماية المصطفى عليه الصلاة والسلام حمى التوحيد وصيانته لجنابه وسدِّه للذرائع، وأيضاً تنبيههم لمراعاة الأدب والعناية بهذا المقام قال : ((إنه لا يستغاث بي)) ؛ مع أنهم في تلك الاستغاثة طلبوا الذهاب إلى النبي في أمر يقدر عليه من حبسٍ أو طرد أو قتل أو غير ذلك هذا الذي أرادوه ، لكن صيانةً لمقام التوحيد وحمايةً لحماه قال : ((**إنه لا يستغاث بي وإنما يستغاث بالله**)).

وموضع الشاهد من هذا الحديث للترجمة : ((إنما يستغاث بالله)) ، قوله «إنما يستغاث بالله» هذا أمر دلت عليه الدلائل الكثيرة والشواهد العديدة في كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ومنها الآيات التي ساقها المصنف رحمه الله تعالى في هذه الترجمة .

قال رحمه الله تعالى :

فيه مسائل ؛ الأولى : أن عطف الدعاء على الاستغاثة من عطف العام على الخاص .

وهذا تقدم بيانه وإيضاحه .

الثانية : تفسير قوله : { وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ } .

الثانية : تفسير قوله : {وَلَا تَدْعُ} والخطاب كما مر معنا للنبي عليه الصلاة والسلام {مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ} وهذا وصفٌ لكل من يدعى من دون الله سبحانه وتعالى .

الثالثة : أن هذا هو الشرك الأكبر .

«أن هذا» أي دعاء غير الله تبارك وتعالى «الشرك الأكبر» أي الناقل من ملة الإسلام الموجب للخلود في النار يوم القيامة ، والآية دلت على ذلك قال: ﴿فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِّنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي المشركين .

الرابعة : أن أصلح الناس لو فعله إرضاء لغيره صار من الظالمين .

«أن أصلح الناس لو فعله» أي الشرك «إرضاءً لغيره صار من الظالمين» . قوله أن أصلح الناس هذا مستفاد من الخطاب الذي في الآية الله عز وجل قال لنبيه عليه الصلاة والسلام { وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ } ؛ فهذا يفيد أن أصلح الناس لو فعله كان من الظالمين .

الخامسة : تفسير الآية التي بعدها .

والآية التي بعدها هي قول الله سبحانه وتعالى {فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} ومر معنا بيان معناها .

السادسة : كون ذلك لا ينفع في الدنيا مع كونه كفرا .

«كون ذلك» : أي دعاء غير الله «لا ينفع في الدنيا» أي من يدعو غير الله لو استمر طول دهره ومدة حياته يدعو غير الله لا ينفعه ذلك إطلاقاً في الدنيا ، لأن من يدعوه لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً فضلاً عن يملك شيئا من ذلك لغيره ، إضافةً إلى أنه يضره في الآخرة لأنه كفر ناقل من الملة ، وهذا مستفاد من قوله تعالى {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ} إلى آخر الآية .

السابعة : تفسير الآية الثالثة .

وهي قوله تعالى { وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ } .

الثامنة : أن طلب الرزق لا ينبغي إلا من الله ، كما أن الجنة لا تطلب إلا منه .

«أن طلب الرزق لا ينبغي إلا من الله» كما مر معنا في قوله {فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ} ؛ وهذا فيه وجوب إخلاص طلب الرزق من الله وحده دون سواه ، «كما أن الجنة لا تطلب إلا منه» والجنة هي الرزق الذي هو أتم ما يكون وأكمل ما يكون في نيل الرزق والفوز به ، فالرزق الذي هو الجنة كما أنه لا يُطلب إلا من الله فأيضاً عموم الأرزاق لا تُطلب إلا منه وحده سبحانه وتعالى .

التاسعة : تفسير الآية الرابعة .

وهي قول الله تبارك وتعالى ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ إلى آخر الآية وقد تقدم تفسيرها.

العاشرة : ذِكر أنه لا أضل ممن دعا غير الله .

العاشرة : ذِكر أنه لا أضل ممن دعا غير الله وهذا مأخوذ من قوله {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ} والاستفهام هنا بمعنى النفي ، أي لا أحد أضل ممن يدعو غير الله .

الحادية عشرة : أنه غافل عن دعاء الداعي لا يدري عنه .

أنه – أي المدعو غير الله سبحانه وتعالى – غافلٌ عن دعاء الداعي لا يدري عنه ؛ أي من يدعو المقبورين ويفزع إليهم ويلتجئ ويعرض حاجاته إليهم إضافةً إلى أنه لا أضل منه فإن هذا الذي يدعوه ويستغيث به لا يدري به ولا يسمع دعاءه ولا يعلم بحاله، بل هو غافل عنه .

الثانية عشرة : أن تلك الدعوة سببٌ لبغض المدعو للداعي وعداوته له .

لقوله تبارك وتعالى {وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً} ، فتلك الدعوة إضافةً إلى ما سبق فإنها سبب لبغض المدعو للداعي وعداوته له، كما قال الله تعالى: {وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً} ؛ كانوا لهم أعداء بسبب ماذا؟ بسبب دعاء هؤلاء لهم من دون الله تبارك وتعالى .

الثالثة عشرة : تسمية تلك الدعوة عبادة للمدعو .

تسمية تلك الدعوة عبادة للمدعو {وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ} ، فسمى تلك الدعوة عبادة وهذا من الشواهد القرآنية على أن الدعاء عبادة .

الرابعة عشرة : كفر المدعو بتلك العبادة .

كفر المدعو بتلك العبادة التي هي الدعاء ؛ دعاء الأموات من دون الله يكون بذلك كافراً { وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ} أي كافرين بالله سبحانه وتعالى بسبب عبادتهم لهم من دون الله .

الخامسة عشرة : أن هذه هي سبب كونه أضل الناس .

أن هذه الأمور أي أن من يدعى غافل لا يدري عن الداعي ، وأن الدعوة سبب لبغض المدعو للداعي ، وتسمية تلك الدعوة عبادة للمدعو ، وكفر المدعو بتلك العبادة ؛ هذه الأسباب كلها تبين كون هؤلاء لا أحد أضل منهم، أن هذه الأمور هي سبب كونه أي من يدعو غير الله أضل الناس .

السادسة عشرة : تفسير الآية الخامسة .

أي قوله تبارك وتعالى ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ إلى آخر الآية وقد تقدم تفسيرها .

السابعة عشرة : الأمر العجيب ، وهو إقرار عبدة الأوثان أنه لا يجيب المضطر إلا الله ، ولأجل هذا يدعونه في الشدائد مخلصين له الدين .

هذا أخذه رحمه الله تعالى من الآية الكريمة ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ أي أن الله خاطبهم بأمر يقرون به ويعلمونه ؛ أنه لا يجيب في الضرورة والشدة إلا الله سبحانه وتعالى ، ومن يطالع قصصهم وأخبارهم ووقائع أحوالهم يجد ذلك ، مثل ما أشرت في قصة حصين وقصة عكرمة ، والأخبار في ذلك عنهم كثيرة ، والقرآن أيضا في مواضع عديدة دل على ذلك مثل ما أشرت إليه قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ ﴾ [العنكبوت:٦٥] ، وقوله ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ ولها نظائر عديدة في القرآن . إذاً الأمر العجيب وهو إقرار عبدة الأوثان بأنه لا يجيب المضطر إلا الله ، ولأجل هذا يدعونه في الشدائد مخلصين له الدين ؛ أي يدعون الله مخلصين له الدين وإذا كانوا في الرخاء أشركوا معه تبارك وتعالى غيره .

الثامنة عشرة : حماية المصطفى صلى الله عليه وسلم حمى التوحيد والتأدب مع الله .

حماية المصطفى صلى الله عليه وسلم حمى التوحيد والتأدب مع الله عندما قال الصحابة «قوموا بنا نستغيث برسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا المنافق» قال لهم عليه الصلاة والسلام : ((إنه لا يستغاث بي وإنما يستغاث بالله)) ؛ فهذا فيه حمايته حمى التوحيد ، وفيه التأدب مع الله سبحانه وتعالى ، فلأجل ذلك قال لهم عليه الصلاة والسلام ما قال .

وبهذا تكون هذه الترجمة انتهت بما فيها من مسائل .

سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك .

اللهم صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

الدرس السادس عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد :

يقول شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب أجزل الله له الأجر والثواب في كتاب «التوحيد الذي هو حق الله على العبيد» :

بابٌ قول الله تعالى {أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ}[الأعراف:١٩١-١٩٢] **وقوله : {وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ}الآية**[فاطر:١٣].

****

فهذه الترجمة وبعض ما بعدها من تراجم ساقها رحمه الله تعالى لبيان براهين التوحيد ودلائله وحججه ، ومن حكمة الله جل في علاه أن الأمر كلما كانت الحاجة إليه أشد والضرورة إليه ألزم كانت طرق تحصيله ووسائل معرفته ونيله أكثر وأيسر وأعظم ، ولما كان التوحيد هو الغاية التي خُلق الخلق لأجلها وخُلقوا لتحقيقها وهو أعظم الغايات وأجل المطالب وأنبل الأهداف؛ لما كان مقامه أعظم المقامات وأرفعها كانت براهينه أكثر البراهين ودلائله أكثر الدلائل . والمؤلف رحمه الله تعالى في هذه الترجمة وما يليها يسوق شيئاً من هذه البراهين العظيمة والدلائل العظيمة على وجوب إفراد الله سبحانه وتعالى بالعبادة وإخلاص الدين له والبعد عن الشرك كله دقيقه وجليله وصغيره وكبيره ، ومن هذه البراهين ما أورده رحمه الله تعالى في هذه الترجمة جاعلاً الآية الكريمة عنواناً للترجمة لدلالتها على المقصود فيها وهي قول الله تبارك وتعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ [الأعراف:١٩١-١٩٢] .

فهذه براهين قوية جدًا وحجج واضحة على إبطال الشرك وإبطال كل تعلق بغير الله تبارك وتعالى . فانظر رعاك الله هذا التقريع والتوبيخ والزجر في هذه الآية الكريمة لكل مشرك أياً كان شركه وأياً كان تعلقه ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا﴾؟ والاستفهام هنا للتقريع والتوبيخ والزجر وبيان غِلظ وشناعة هذه الفعلة التي فعلها هؤلاء وهي الشرك بالله سبحانه وتعالى واتخاذ الأنداد مع الله عز وجل.

﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا﴾ أي : أيتخذون مع الله شريكاً في العبادة وحال هذا الشريك أنه لا يخلق شيئا!! «شَيْئًا» جاءت نكرة في سياق النفي فتفيد العموم أي : أيَّ شيء كان ولو كان شيئاً يسيرا أو أمراً قليلا ، لا يستطيعون خلْق أي شيء ، وتأمل في هذا قول الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾[الحج:٧٣] ، فمن يُدعى من دون الله تبارك وتعالى أياً كان هذا المدعو لا يخلق شيئاً ، فكونه لا يخلق شيئاً –ولا شيئا يسيراً أو قدراً قليلاً– هذا من أبين ما يكون في الدلالة على بطلان دعائه وبطلان التعلق به .

﴿ لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ أي والحال أن هذا المدعو من دون الله تبارك وتعالى مخلوق لله ، لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشورا فضلاً أن يملك شيئا من ذلك لغيره ، لأن المخلوق مربوب مدبَّر متصرَّف فيه ، أمره ومآله وحاله بيد خالقه وسيده ومولاه ﴿ وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ .

ثم أيضاً ﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا ﴾ أي : هؤلاء الذين يُدعَون من دون الله تبارك وتعالى أيًا كانوا لا يستطيعون نصرًا لمن دعاهم أو التجأ إليهم أو طلب معونتهم ، لا يستطيعون نصراً له لأنه ليس بيدهم شيء ولا يملكون من الأمر شيء ﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا ﴾ وأيضاً ﴿ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴾ ومن كان عاجزاً عن نصر نفسه فلأن يكون عن نصر الآخرين من باب أولى ، فإذا كان لا يستطيع نصراً لنفسه ولا يستطيع إنجاءً أو تخليصاً لنفسه فكيف يستطيع ذلك للآخرين .

فإذاً هذه براهين ؛ برهانٌ تلو البرهان على بطلان الشرك . إذاً إذا كانت هذه حال من يُدعَون من دون الله لا يخلقون شيئا ، وهم مخلوقون ، ولا يستطيعون نصر أنفسهم ، ولا يستطيعون نصر من التجأ إليهم ؛ إذاً كيف يدعون وكيف يلتجأ إليهم وكيف تصرف لهم العبادة فهذا من أبطل الباطل وأشنع الظلم . إذاً هذه براهين ودلائل واضحات على بطلان الشرك والتعلق بغير الله تبارك وتعالى .

ومثل هذه الآية قول الله تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (١٣) إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ** ﴾ [فاطر:١٣-١٤] ؛ وهذه براهين قوية جداً على إبطال الشرك والتعلق بغير الله تبارك وتعالى .

قبلها قوله: ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴾ ؛ فكون الله تبارك وتعالى تفرَّد بالملك كله لا شريك له ، فالملك كله لله ، ومن سوى الله لا يملك مثقال ذرة –أي ملكاً استقلاليا– فالملك كله لله رب العالمين ؛ فهذا من الدلائل على وجوب إفراده بالعبادة ، فكما أنه تفرد بالملك وحده لا شريك له فالواجب أن يُفرد بالعبادة وحده لا شريك له ﴿ لَهُ الْمُلْكُ ﴾ .

﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴾ ذُكر القطمير في هذا السياق بياناً لأن هؤلاء الذين يُدعون من دون الله ما يملكون شيئا ولو كان من أقل القليل أو من أتفه الأشياء ، فضلاً عن الأمور الكبار والأشياء العظيمة .

﴿ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴾ والقطمير ومثله النقير والفتيل كلها أشياء ذُكرت في القرآن في الأمر الذي هو أقل القليل أو التافه من الأشياء ، وكلها تتعلق بنواة التمر ، هذه الثلاث القطمير والنقير والفتيل كلها تتعلق بنواة التمر؛ أما القطمير : فهو الغشاء الرقيق جداً الذي يكون على نواة التمر ، والفتيل : هو الخيط الذي يكون في وسط النواة ممتداً من طرفها إلى طرفها ، والنقير : في كل نواة تمر تجد في ظهرها نُقرة يسيرة جداً . فهذه أمثلة ثلاثة تضرب لأقل الأشياء؛ ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ [النساء:٤٩] ، ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ [النساء:١٢٤] ، ﴿ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴾ [فاطر:١٣] هذه ثلاثة مواضع في القرآن ذُكر فيها هذه الثلاثة التي هي مثل لأقل الأشياء .

فالذي يدعى من دون الله ما يملك من قطمير أي : ما يملك شيئا ولو كان من أقل القليل ، والمراد بالملك هنا الملك الاستقلالي .

﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾ إضافة إلى أنه لا يملك فهو لا يسمع دعاء من دعاه ومناداة من ناداه والتجاء من التجأ إليه ، لا يسمع ذلك ، ولو قُدِّر أنه سمع شيئًا من ذلك ﴿وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ يعني لا يملك القدرة على إجابة دعاء من دعاه .

فهذه ثلاثة أمور تُعد شروطاً لابد أن توجد مجتمعةً فيمن يُدعى ، فإذا انتفت أو انتفى شيء منها لم يستحق أن يُدعى أو يُلتجأ إليه أو أن يُسأل

- فإذا كان لا يملك من قطمير كيف يدعى ويلتجأ إلى من لا يملك وليس بيده ملك ؟!
- وإذا كان لا يسمع دعاء من دعاه كيف يُدعى ويلتجأ إلى من لا يسمع أصلاً نداء من ناداه ودعاء من دعاه؟!
- والأمر الثالث : كونه لا يملك إجابة ولا يقدر على الإجابة ﴿وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ .

فهذه ثلاثة شروط ذُكرت في الآية لابد أن تكون متوافرة مجتمعة فيمن يُدعى :

١. أن يكون مالكاً .
٢. وأن يسمع دعاء من يناديه .
٣. وأن يكون قادراً على إجابة دعائه وإعطائه سؤله .

وهذه الأمور الثلاثة منتفية في حق من يدعون من دون الله؛ فكيف يدعَون .

إذاً هذه براهين واضحة وحجج ساطعة على إبطال الشرك وإبطال التعلق بغير الله تبارك وتعالى .

وهنا تأمل قوله ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ أي من دون الله ، فلا يستثنى في ذلك أيَّ أحد ، هذا شامل لكل من يُدعى من دون الله ، يجب أن يُتنبه لذلك ، هذا شامل لكل من يدعى من دون الله تبارك وتعالى أمْره كما ذكر الله ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ (١٣) إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ .

ثم تأمل المصيبة العظمى التي يجرها هؤلاء الذين يدعون غير الله على أنفسهم يوم القيامة ، قال : ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ أي : هؤلاء الذين تدعونهم من دون الله تبارك وتعالى سيكونون يوم القيامة خصوماً ويكونون عليكم ضدا ، مثل ما جاء في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف:٥-٦] أي أن هؤلاء الذين يُدعون يتحولون إلى أعداء ، ويتبرؤون ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ﴾ [البقرة:١٦٦] ، ويتبرؤون منهم ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ .

﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ هذا نبأ الله ، ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ يعني نفسه تبارك وتعالى ؛ فهذا كلام الخبير بعباده ، العليم بخلقه ، المطلع على خفايا الأمور وبواطن الأشياء وحقائقها ؛ هذا هو كلامه سبحانه وتعالى وهذا بيانه . فإذاً هذه كلها براهين واضحة وحجج ساطعة على بطلان الشرك والتعلق بغير الله تبارك وتعالى .

وهذا الذي ذُكر أنَّ من يدعى من دون الله لا يخلق شيئاً لا يستطيع نصرا لنفسه أو نصراً لغيره وأنه لا يملك قطميرًا وغير ذلك من الأمور ؛ هذه لا تختص بنوع معين من المدعوين من دون الله أو ممن يدعَون من دون الله ، بل كل من يدعى من دون الله تبارك وتعالى فالأمر فيه كذلك ؛ ما يملك شيئا ، ليس له أياًكان من الأمر شيء ، الأمر كله لله ؛ ولهذا أخذ المصنف رحمه الله تعالى –وهذا من دقة علمه وجمال نصحه وتمام بيانه– أخذ يسوق أحاديث من سنة النبي عليه الصلاة والسلام يبين من خلالها أن النبي عليه الصلاة والسلام وهو في أشرف المقامات وأعلى الرتب وأرفعها وأجلِّ المنازل لا يملك شيئاً وليس له من الأمر شيء ، وأن الأمر كله بيد الله تبارك وتعالى .

وفي الصحيح عن أنس رضي الله عنه قال : شُجَّ النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد وكسرت رباعيته . فقال: « كيف يفلح قوم شجوا نبيهم » ؟ فنزلت : { لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ } [آل عمران:١٢٨] .

****

هذا الحديث حديث أنس بن مالك في الصحيح قال : ((**شُج النبي صلى الله عليه وسلم**))؛ أي في غزوة أحد أصابته صلى الله عليه وسلم ضربة تسببت في شجٍّ في رأسه عليه الصلاة والسلام ، وكان موضع الشج الذي حصل للنبي عليه الصلاة والسلام في جبهته لهذا يأتي في بعض الأحاديث ((شج في رأسه)) وفي بعضها ((شج في وجهه)) ، والشج في الجبهة ، والجبهة من الرأس ومن الوجه .

فشُج عليه الصلاة والسلام يوم أحد : أي أصابته من أعداء دين الله وأعدائه عليه الصلاة والسلام ضربةً في رأسه عليه الصلاة والسلام وشج رأسه وأخذ يسيل الدم من رأسه صلوات الله وسلامه عليه .

وأيضا إضافة إلى ذلك كُسرت رباعيته عليه الصلاة والسلام في تلك الغزوة . والرباعية : ما يلي الثنايا ، وفي الإنسان أربع رباعيات ، فمعنى كسرت رباعيته أي أنها ثُلمت لا أنها من أصلها ، وإنما أصيبت رباعيته أي إحداها إحدى رباعياته عليه الصلاة والسلام في كسر فحصل فيها ثُلم .

«كسرت رباعيته وشج رأسه» ؛ فهو عليه الصلاة والسلام لا يملك دفعاً ، ولهذا في التجائه إلى الله عز وجل إذا خاف من قوم قال : ((اللهم إنا نجعلك في نحورهم ونعوذ بك من شرورهم)) ، ويقول ((أنت عضدي ونصيري وبك أحول وبك أصول وبك أقاتل)) ، أما هو في نفسه لا يملك صلوات الله وسلامه عليه ، وهاهو الحديث في صحيح البخاري في غزوة أحد وأعداؤه جاءوا إلى المدينة ، وسميت غزوة أحد نسبة إلى جبل أحد الذي يقع شمال المدينة ، جاء الأعداء إلى المدينة وخرج هو وأصحابه عليه الصلاة والسلام لقتالهم لكن لا يملك النصر ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ [آل عمران:١٢٦] ، ﴿ إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ ﴾ [محمد:٧] ، ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [غافر:٥١] النصر من عند الله لا يملك عليه الصلاة والسلام نصراً لنفسه ولا يملك أيضا نصراً لغيره .

فشُج عليه الصلاة والسلام يوم أحد وكسرت رباعيته وأخذ يسلُت الدم ؛ اللهم صل وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه . أخذ يسلت الدم صلى الله عليه وسلم عن وجهه ويقول : «**كيف يفلح قوم شجوا نبيهم**» ؟ أي كيف ينال قومٌ وصل بهم التعدي والظلم إلى أن شجوا نبيهم الذي يدعوهم لعبادة الله ، يدعوهم إلى الفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة ؛كيف يفلحون إذا كان بلغ بهم التعدي والظلم والبغي إلى أن شجوا نبيهم ؟!

يقول: ((**كيف يفلح قوم شجوا نبيهم**)) فأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ ؛كونهم يفلحون أو لا يفلحون ، يهتدون أو لا يهتدون ، يسعدون أو لا يسعدون ؛ هذا أمره بيد الله سبحانه وتعالى ليس لك من الأمر شيء ، أمر فلاحهم أو أمر نجاتهم أو أمر سعادتهم هذا ليس لك منه أي شيء ، أمره لله وحده .

وستسمع فيما يأتي في هذا الأمر عجب من أبين البيان أن الأمر كله بيد الله ، وأنه صلوات الله وسلامه عليه لا يملك شيئا .

قال : ((**كيف يفلح قوم شجوا نبيهم**)) **فأنزل الله** : ﴿ **لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ** ﴾ و«شيء» جاءت نكرة في هذا السياق لتفيد العموم ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ أي : أيَّ شيء ، الأمر كله لله ؛ يعطي ويمنع ، يخفض ويرفع ، يقبض ويبسط ، يعز ويذل ، يُضحك ويبكي ، يُغني ويفقر ، يحيي ويميت ، الأمر كله بيد الله سبحانه وتعالى ، ليس لك من الأمر شيء .

ومر معنا حرصه عليه الصلاة والسلام الشديد على هداية عمه أبي طالب ، وعمه أبو طالب هو ذلك الرجل الذي كفله من سن الثامنة للهجرة إلى ما بعد النبوة بأكثر من ثمان سنوات ، أي أكثر من أربعين سنة وهو يرعى النبي عليه الصلاة والسلام ويكفل النبي عليه الصلاة والسلام وينصره ويؤازره ويعاونه ويصد عنه ، وكان له في قلب النبي صلى الله عليه وسلم محبة طبيعية ليست محبة شرعية ، وله مكانة في نفس النبي عليه الصلاة والسلام ، وكان حريصا على هداية عمه ، حريصاً على أن يهتدي عمه ، ولما حضرت عمه الوفاة جاء النبي عليه الصلاة والسلام وكان عنده عبد الله ابن أبي أمية وعنده أبو جهل وقال : ((يا عم قل لا إله إلا الله)) وتنبه هنا أن هذا الخطاب في هذه اللحظات الحرجة واللحظات الأخيرة من عمر عمه وهو عليه الصلاة والسلام يذكر ذلك العمر الطويل من عمه نصرةً ومؤازرةً ومعاونة ((يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله)) وفي رواية في الصحيح ((أشهد لك بها عند الله)) وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية يقولان له : بل على ملة عبد المطلب ، فيعيد النبي عليه الصلاة والسلام ((يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله ، أشهد لك بها عند الله)) فيقولان : بل على ملة عبد المطلب ، ومات وهو يقول هو على ملة عبد المطلب وأبى أن يقول «لا إله إلا الله» . الأمر كما قال الله جل وعلا ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ . الهداية والضلال ، الحياة والموت ، الغنى والفقر ، الصحة والمرض ، العز والذل ، العطاء والمنع ، الخفض والرفع ، كله بيد الله سبحانه وتعالى ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ ، ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴾ [الشورى:٤٨] . حزن عليه الصلاة والسلام وحلف يمين بالله ،ماذا قال عليه الصلاة والسلام ؟ ((أما والله لأستغفرن لك)) يذكر التاريخ ويذكر الأمور العظيمة التي قدَّمها له قال : ((أما والله لأستغفرن لك ما لم أنْهَ عن ذلك)) فأنزل الله تعالى قوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة:١١٣] فترك النبي عليه الصلاة والسلام ذلك ، حلف قال ((أما والله)) والحديث في الصحيح ((أما والله لأستغفرن لك ما لم أنه عن ذلك)) أي ما لم يأتني نهي عن ذلك ، وجاء النهي ، ثم أنزل الله تبارك وتعالى تسلية لنبيه عليه الصلاة والسلام قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي

مَن أَحْبَبْتَ﴾ يعني من أحببت هدايته لا تملك ذلك ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾[القصص:٥٦] ، مثلها قول الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾[البقرة:٢٧٢] ومثلها قوله: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[يوسف:١٠٣] يعني ولو اشتد حرصك وعظمت رغبتك في أن يهتدوا الأمر لله سبحانه وتعالى .

هنا تأمل النبي عليه الصلاة والسلام حريص أشد الحرص على هداية عمه! والله سبحانه وتعالى له الأمر من قبل ومن بعد لم يكتب له الهداية ؛ فمات على غير الإسلام ونزل قول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ ، وسيأتي عكس ذلك : أقوام اشتد أذاهم على النبي عليه الصلاة والسلام واشتد عدوانهم على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى أصحابه؛ فصلى وأخذ يقنت في صلاة الفجر ويسميهم بأسمائهم – وسيأتي معنا – يسأل الله في صلاة الفجر والصحابة من خلفه يقولون آمين يؤمّنون يسأل الله أن يطردهم من رحمته ((اللهم العن فلان والعن فلان والعن فلان)) يسميهم بأسمائهم صلوات الله وسلامه عليه ، وهؤلاء الذين سماهم أسمائهم ودعا عليهم في صلاة الفجر والصحابة يؤمّنون ويقول في دعاءه ((اللهم العن فلان والعن فلان والعن فلان)) كتب الله لهم تبارك وتعالى الإسلام ، الأمر لله سبحانه وتعالى من قبل ومن بعد . النبي وهو النبي وهو أفضل عباد الله وسيد ولد آدم وإمام المتقين لا يملك شيئاً ، الأمر لله ، أنزل الله عليه ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ ، وهل أبين من هذا البيان؛ كلام الله سبحانه وتعالى ؟!

ولا يزال المصنف رحمه الله تعالى يسوق من الأحاديث في هذا المعنى وتقريره ؛ فذكر حديث أنس ثم أتبعه بحديث ابن عمر .

وفيه عن ابن عمر رضي الله عنهما : أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر : «اللهم العن فلانا وفلانا» بعدما يقول : «سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد» فأنزل الله : {لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ} . وفي رواية : «يدعو على صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو والحارث بن هشام» فنزلت : { لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ } .

****

قال ((**وفيه**)) أي في الصحيح ((**عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر : «اللهم العن فلانا وفلانا» بعدما يقول : «سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد»**))

؛ هذا قنوت وهو في النوازل ، ولما نزلت بهم صلوات الله وسلامه عليه تلك النازلة واشتد ذلك الأذى من المشركين أخذ يقنُت عليه الصلاة والسلام في صلاة الفجر ويسمي أشخاصاً بأسمائهم من رؤوس المشركين ، سماهم لأن أذاهم زاد وشرهم طغى وعظم عدوانهم على النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه فأخذ يسميهم عليه الصلاة والسلام بأسمائهم .

قال –كما جاء في رواية– «**يدعو على صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو والحارث بن هشام**» ؛ هؤلاء الثلاثة بالأسماء سماهم في صلاة الفجر عليه الصلاة والسلام يدعو عليهم يقول: ((اللهم العن فلانا والعن فلانا والعن فلانا)) يسميهم بأسمائهم ، وخلفه الصحابة رضي الله عنهم خيار هذه الأمة وأفضلها يقولون آمين ، يؤمّنون ، وينزل على النبي صلى الله عليه وسلم : ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ أي الأمر كله لله ، ليس لك من الأمر شيء في الناس ومآلاتهم وبقائهم على الكفر أو دخولهم في

الإسلام ، اهتدائهم أو عدم اهتدائهم ؛ هذا كله ليس لك من الأمر فيه أي شيء ، أنزل تبارك وتعالى ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾

قال : **وفي رواية «يدعو على صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو والحارث بن هشام فنزلت﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾»** ؛ وهؤلاء الثلاثة جميعهم أسلموا ، كتب الله تبارك وتعالى لهم الهداية وشرح صدورهم للإسلام. مر معنا قريبا الإشارة إلى قصة الذين أهدر النبي عليه الصلاة والسلام دمهم لما دخل مكة عام الفتح، لماذا أهدر دمهم ؟ لأن أذاهم اشتد وصار من أعظم الأذى؛ فأهدر عليه الصلاة والسلام دمهم قال: ((من وجدتموه منهم فاقتلوه ولو كان متعلقا بأستار الكعبة)) لشدة الأذى ، بعض هؤلاء كتب الله لهم الهداية وأسلموا وحسُن إسلامهم، منهم كما أشرنا سابقا عكرمة بن أبي جهل ، وجاء للنبي عليه الصلاة والسلام وبايعه على الإسلام في قصة عظيمة جدا في تقرير التوحيد ، لأنه لما بلغه الأمر فرَّ من مكة وركب البحر ، ولما كانوا في السفينة أدركهم الغرق وعاينوا الموت فقال أهل السفينة للركاب لمن هم على السفينة : «أخلِصوا لا ينجِّيكم في هذا المقام إلا الإخلاص» عاينوا الموت شاهَدوا الغرق فملاك السفينة قالوا لهم : أخلصوا لا ينجيكم في هذا المقام إلا الإخلاص ، قال عكرمة : «لئن كان لا ينجينا في هذا المقام إلا الإخلاص فلا ينجينا في أي مكان إلا الإخلاص ، لله عليَّ عهد إن نجاني الله من هذه لأذهبن إلى محمد صلى الله عليه وسلم ولأضعن يدي في يده ولأبايعنَّه على الإسلام ولأجدنَّه عفواً كريما» ، وفعلاً نجَّاه الله وجاء إلى المدينة يتسلل ، لأن أي شخص سيراه يقتله مباشرة ، لأن النبي عليه الصلاة والسلام أهدر دمه ، فجاء متخفياً إلى أن وصل إلى النبي عليه الصلاة والسلام وبايعه على الإسلام ، وعاهد النبي عليه الصلاة والسلام أنه في كل موقف وقفه ضد الإسلام سيقف مثله وأعظم نصرةً للإسلام ، ومات شهيداً في سبيل الله . الأمر لله سبحانه وتعالى يهدي من يشاء ويضل من يشاء ؛ فهذا كله من براهين التوحيد .

إذا كان هذا يقال في سيد ولد آدم صلوات الله وسلامه عليه إمام الأولين والآخرين ويُنزل الله عليه ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾!! مشكلة كثير من الناس أنه لا يقرأ سيرة النبي عليه الصلاة والسلام وإنما تأتيه الأمور هكذا جزافاً من هنا وهناك ويأتي بها خبط عشواء وربما يبني على روايات وأخبار منكرة ثم يتلوَّث بالباطل والضلال والتعلق بغير الله تبارك وتعالى ، لكن لما يقرأ السيرة الناصعة والهدي المبارك الذي كان عليه النبي عليه الصلاة والسلام فإن السيرة كلها تعلِّم التوحيد وتقرر التوحيد وتبطل الشرك ، عندما تقرأ مغازي النبي عليه الصلاة والسلام، والله المغازي بحد ذاتها مدرسة في التوحيد وتقريره وبيانه ووجوب إخلاص الدين لله سبحانه وتعالى والبراءة من الشرك كله دقيقه وجليله وصغيره وكبيره .

ولا يزال المصنف رحمه الله تعالى يسوق الروايات فيما يتعلق بهذا المقام العظيم .

وفيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أنزل عليه : {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ}[الشعراء:٢١٤] **فقال : «يا معشر قريش– أو كلمة نحوها– اشتروا أنفسكم لا أغنى عنكم من الله شيئا ، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئا ، يا صفية عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم لا أغني عنك من الله شيئا ، ويا فاطمة بنت محمد سليني من مالي ما شئت لا أغني عنك من الله شيئا»**

****

وهذا الحديث وهو في الصحيح حديث أبي هريرة رضي الله عنه هو أيضاً في تقرير المعنى نفسه؛ ألا وهو : أن النبي عليه الصلاة والسلام مع علو مقامه ورفعة مكانته وأنه سيد ولد آدم وأفضل عباد الله وأعلاهم مكاناً ومنزلةً عند الله تبارك وتعالى لا يملك من الأمر شيئاً .

فجاء في الصحيح أن النبي عليه الصلاة والسلام حين أنزل عليه : ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء:٢١٤] وهذه نذارة خاصة ، وأيضاً أُمر بالنذارة العامة ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾ [إبراهيم:٤٤] ، فأُمر بنذارة عامة لعموم الناس وأمر أيضاً بنذارة خاصة للأقربين .

فقام عليه الصلاة والسلام ممتثلا أمر ربه وقال : ((**يا معشر قريش أو كلمة نحوها**– يناديهم – **اشتروا أنفسكم**)) أي خلِّصوا أنفسكم أنقذوها من النار من سخط الله تبارك وتعالى .((**اشتروا أنفسكم لا أغنى عنكم من الله شيئا**)) «شيئا» جاءت نكرة في سياق النفي فتفيد العموم لا أغني عنكم من الله شيئاً .

((**يا عباس**)) عمَّم وخصص عليه الصلاة والسلام ، عمم ثم خصص ((**يا عباس ابن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئا ، يا صفية عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم لا أغني عنك من الله شيئا ، ويا فاطمة بنت محمد سليني من مالي ما شئت**)) اطلبي مني من المال الذي أملكه ما شئتِ ((**لا أغني عنك من الله شيئا**)).

وهل أوضح من هذا الواضح ؟ وهل أبين من هذا البيّن ؟ يخاطب عليه الصلاة والسلام بهذا الخطاب ناصحا ومحذرا قرابته بما فيهم بنته صلوات الله وسلامه عليه ورضي الله عنها وعن الصحابة أجمعين يقول «لا أغني عنكم من الله شيئا»!!.

وجاء في صحيح البخاري أنه عليه الصلاة والسلام ذكر الغلول وعظَّم أمره وقال : ((لا يأتين أحدكم يوم القيامة وعلى رقبته بعير – يعني أخذه ظلماً – ويقول يا محمد أنقذني فأقول : لا أملك لك شيئا قد أبلغتك)) ثم ذكر : لا يأتين أحدكم على رقبته بقرة ، على رقبته شاة ، على رقبته خيل ، على رقبته رقاع تخفق ، على رقبته صامت –أي ذهب وفضة– في خطبة عظيمة خطبها عليه الصلاة والسلام وفي كل ذلك يقول : ((لا أملك لك شيئا قد أبلغتك)) وهذا مصداق قوله ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [الشورى:٤٨] ، لكن الأمر بيد الله سبحانه وتعالى ، لله الأمر من قبل ومن بعد .

من أعظم العبر والعظات الموقظات للقلوب في هذا الباب ما جاء في صحيح البخاري : أن إبراهيم الخليل يلقى أباه يوم القيامة – انتبه للموقف فيه عبرة عظيمة جداً – إبراهيم الخليل يلقى أباه يوم القيامة فيقول له : ألم أقل لك لا تعصني ؟ يعني في الدنيا ألم أكن حذرتك وأنذرتك ؟ ألم أقل لك لا تعصني؟ فيقول الآن لا أعصيك ، هل تفيد هذه الكلمة !! فيقول إبراهيم الخليل خليل الرحمن عليه صلوات الله وسلامه مناجياً رب العالمين: ألم تعِدني ألا تخزني يوم يبعثون ؟ وأيُّ خزي أخزى من أبي الأبعد!! فيقول الله له : «إني حرمت الجنة على الكافرين» ، ثم يقال له انظر فينظر فإذا بذيخ ملطَّخ بدمه تحولت هيئة والده إلى هيئة ذيخ ، والذيخ: هو ذكر الضباع ، ثم أخذ بقوائمه وألقي في النار ، وهذا مصداق قول الله تبارك وتعالى في آخر سورة الانفطار ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٨) يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (١٩)﴾ الأمر لله سبحانه وتعالى من قبل ومن بعد .

قد يقول قائل : والشفاعة ؟! الشفاعة مقام عظيم ومكان رفيع وسيأتي لها عند المصنف باب من أعظم الأبواب وأنفعها في تقرير الحق وبيانه بدلائله الواضحات؛ دون شطط أهل الضلال وانحراف أهل الباطل الذين تحت مسمى «الشفاعة» أخذوا يدعون

غير الله ويستغيثون بغير الله ويلتجئون إلى غير الله ويقولون هؤلاء شفعاء لنا عند الله ، فصار أمرهم كأمر من قال الله عنهم: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ [يونس:١٨] . وسيأتي عند المصنف رحمه الله تعالى باب عظيم جدًا بعنوان «باب الشفاعة» يقرر الأمر تقريراً واضحًا بالحجج والدلائل من كلام الله وكلام رسوله صلوات الله وسلامه وبركاته عليه .

قال رحمه الله :

فيه مسائل ؛ الأولى : تفسير الآيتين .

تفسير الآيتين: أي قول الله تعالى: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا ﴾ [الأعراف:١٩١-١٩٢] ، والآية التي تليها وهي قول الله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴾ [فاطر:١٣] ، وقد مر معنا شيء من تفسير الآيتين .

الثانية : قصة أحد .

أي قصة معركة أحد ، وتُنسب المعركة لأحد وهو جبل شمال المدينة لأن المعركة وقعت على مقربة منه ، وهي قصة عجيبة ، ومن يقرأ تلك القصة والنِّزال الذي كان بين المسلمين وبين الكفار والتجاء المسلمين إلى الله وفزعهم إليه ودعاءهم إياه وتلك الآيات التي جاءت في تقرير أن النصر إنما هو من عند الله تبارك وتعالى، من يقرأ هذه القصة يتعلم منها توحيد الله سبحانه ووجوب إخلاص الدين له .

الثالثة : قنوت سيد المرسلين وخلفه سادات الأولياء يؤمِّنون في الصلاة .

القنوت : دعاء والتجاء وابتهال إلى الله ، ويكون في النوازل والشدائد العظام التي تنزل بالمسلمين ؛ فقنوت سيد المرسلين انتبه يقول «قنوت سيد المرسلين وخلفه سادات الأولياء» يعني يفزعون إلى الله ويضرعون إلى الله ويلحُّون على الله سبحانه وتعالى ويمدون يدي الدعاء إلى الله ، إذاً لا يملكون شيئا ، لا يملكون نصراً ولا يملكون شيئاً الأمر بيد الله سبحانه وتعالى ، إذاً قنوتهم هذا دليل على افتقارهم إلى الله وأنهم عبيد فقراء إلى الله سبحانه وتعالى لا يملكون من الأمر شيئاً ، وأن الأمر إنما هو بيد الله سبحانه وتعالى .

الرابعة : أن المدعو عليهم كفار .

أي في ذلك القنوت الذي قنته النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة يؤمِّنون المدعو عليهم كفار ، وسمى بعضهم بأسمائهم ممن اشتد أذاهم من رؤوس الكفار وكبار المشركين سماهم أسمائهم ويدعو عليهم . إذاً لا يملك شيئاً في صد أولئك أو منع أولئك أو الحيلولة بينهم وبين ما يريدون من أذى المسلمين لا يملك شيئا ، ولهذا فزع عليه الصلاة والسلام إلى الله ملتجئاً إليه سبحانه وتعالى .

الخامسة : أنهم فعلوا أشياء لا يفعلها غالب الكفار ، منها شجهم نبيهم وحرصهم على قتله ، ومنها التمثيل بالقتلى مع أنهم بنو عمهم .

أي أن هؤلاء إضافةً إلى أنهم كفار حصل منهم أمور عظيمة جداً لم يفعلها غالب الكفار ؛ مثل أنهم شجوا نبيهم، وأيضاً كسروا رباعيته ، وحرصوا على قتله ، ومنها التمثيل بالقتلى ؛مع أنهم بنو عم !! فكل هذه المعاني توضِّح شدة الأذى الذي حصل من أولئك وما كان عليه الصلاة والسلام يملك إلا الفزع إلى الله واللجوء إلى الله والطلب من الله سبحانه وتعالى بالقنوت الذي كان منه صلوات الله وسلامه عليه .

السادسة : أنزل الله عليه في ذلك : { لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ } .

استحضر الآن المعاني السابقة التي ذكرها ، لأنه أخذ يوطئ بالمسائل السابقة لهذه المسألة العظيمة ؛ فاستحضر المسائل السابقة ؛ الذي كان يدعو سيد الأولين والآخرين ، والذين يؤمِّنون خلفه سادات الأولياء ، والذين يُدعى عليهم كفار ، إضافة إلى ذلك فعلوا أمورًا من الأذى والبغي والظلم ما فعلها غالب الكفار والمشركين ، من ذلكم أنهم شجوا نبيهم وكسروا رباعيته ومثَّلوا ببعض الصحابة ، فكان يقنت ويدعو الله سبحانه وتعالى أن يلعنهم أن يطردهم من رحمته –اللعن: هو الطرد والإبعاد من الرحمة– فأنزل الله تعالى﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ يعني الأمر لله من قبل ومن بعد ، ومن أعظم ما يكون في هذا الباب أن هؤلاء الذين سماهم بأسمائهم والصحابة يؤمِّنون كتب الله تبارك وتعالى لهم الإسلام .

السابعة : قوله { أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ } فتاب عليهم وآمنوا .

أي الأمر لله سبحانه وتعالى؛ إن شاء جل في علاه أن يتوب عليهم ، وإن شاء أن يعذبهم ، الأمر له من قبل ومن بعد ، لكن الله كتب لهم التوبة ومنَّ عليهم بالهداية فتاب عليهم فآمنوا ؛ أي أولئك النفر الذين كان قد سماهم عليه الصلاة والسلام بأسمائهم في دعائه عليهم .

الثامنة : القنوت في النوازل .

أي مشروعية القنوت في النوازل ، والقنوت في النوازل: هو الدعاء على الأعداء بأن يكف الله عز وجل بأسهم . القنوت : هو استنصار ، طلب النصر من الله تبارك وتعالى على الأعداء وأن الله يكف بأسهم وأن الله يقي المسلمين شرهم ؛ فهو مشروعٌ في النوازل .

التاسعة : تسمية المدعو عليهم في الصلاة بأسمائهم وأسماء آبائهم .

أي جواز ذلك ومشروعيته ، عندما يكون من أشخاص وأفراد أذىً شديد وعدوان عظيم وضرر بالغ في حق المسلمين لا مانع أن يسمَّى أولئك بأسمائهم .

العاشرة : لعن المعيَّن في القنوت .

أي كما جاء عنه عليه الصلاة والسلام في حديث ابن عمر ((اللهم العن فلانا وفلانا)) ؛ فهذا لعن لمعيَّن في القنوت ، أي يسمي أشخاصاً بأسمائهم ويلعنهم كما جاء عنه في هذا الحديث .

الحادية عشرة : قصته صلى الله عليه وسلم لما أنزل عليه : { وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ } .

قصته عليه الصلاة والسلام لما نزل عليه ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ أنه امتثل كما مر معنا أمْر الله سبحانه وتعالى ، وعمَّم وخصص قال : ((يا معشر قريش)) ثم خصص العم ((يا عباس بن عبد المطلب)) ، و((يا صفية عمة رسول الله)) ، و((يا فاطمة بنت محمد)) كلهم يقول ((لا أملك الكم من الله شيئا)) فأمره الله سبحانه وتعالى بأن ينذرهم فأنذرهم ، والذي يملكه النذارة والبلاغ والبيان والنصح والدلالة ، أما الهداية والنجاة من عذاب الله وسخطه فهذا أمره كله لله سبحانه وتعالى .

الثانية عشرة : جِدُّه صلى الله عليه وسلم في هذا الأمر بحيث فعل ما نسب بسببه إلى الجنون وكذلك لو يفعله مسلم الآن .

المسألة الثانية عشرة : جِدُّه أي اجتهاده صلى الله عليه وسلم وعنايته الدقيقة بالقيام بهذا الأمر ممتثلاً ما أمره الله سبحانه وتعالى به ، وأخذ ينادي ويجمع الناس حتى اجتمعوا حوله صلوات الله وسلامه عليه ثم أخذ ينذرهم هذه النذارة معمماً قريش ثم مخصصاً قرابته ((اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئا)) .

يقول «بحيث فعل ما نُسب بسببه إلى الجنون» ؛ أخذ الكفار يطعنون فيه ويصفونه بهذا الوصف ويلقبونه بهذا اللقب ، بل إن التلقيب بهذا اللقب أصبح هو الشائع في فجاج مكة، وكل من يدخل من الغرباء حتى لا يذهب إلى النبي أو حتى لا يستمع إلى شيء مما يدعو إليه النبي صلى الله عليه وسلم كانوا يتحيَّنون كل من يأتي من الغرباء ويقولون "إن محمداً مجنون" ، بحيث لا يُقبل عليه ولا يحرص على سماع شيء منه .

ومن لطائف القصص في هذا المقام ما جاء في صحيح مسلم عندما دخل ضمام الأزدي وهو سيد قومه دخل مكة وسمعهم يقولون "إن محمداً مجنون" ويرددونها في طرقات مكة ، فقال : «إنني رجل قارئ -يعني أقرأ على المصابين بالصرع والجنون- إنني رجل قارئ لئن لقيت محمدا لأقرأن عليه لعله يُشفى على يدي» ، فأصبح حريصاً على أن يراه من أجل أن يقرأ عليه والحديث في صحيح مسلم ، فلقيه وقال له : «إنني رجل قارئ فهل لك أن أقرأ عليك ؟» يقول للنبي عليه الصلاة والسلام إنني رجل قارئ فهل أقرأ عليك ؟ لأنه يسمع كل من حوله "محمد مجنون محمد مجنون " فقال تحب أن أقرأ عليك ؟ يعني لعلك تشفى ، فقال له النبي عليه الصلاة والسلام : ((إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله)) قال: أعد عليَّ كلامك هذا ، رجل يفهم الكلام قال أعد عليَّ كلامك هذا ، فأعاده عليه الصلاة والسلام ، قال : «سمعت كلام المجانين ما هذا كلامهم ، وسمعت كلام الشعراء ما هذا كلامهم ، سمعت كلام الكهان ما هذا كلامهم ، ووالله إن كلامك هذا بلغ قاموس البحر» يعني دخل في الصميم ، أعطني يدك أبايعك على الإسلام ، قال : ((عنك وعن قومك؟)) قال عني وعن قومي فبايعه على الإسلام .

الشاهد أن المشركين كانوا يصدون عنه عليه الصلاة والسلام ويقولون مجنون إلى آخره ؛ فيقول المصنف : «وكذلك لو يفعله مسلم الآن» ؛ أرأيتم لو أن شخصاً من دعاة التوحيد ذهب إلى منطقة ملوثة بالشركيات والعبادات الشركية والتعلقات بغير الله وبيَّن لهم أن هذه التعلقات باطلة أي شيء سيقولون عنه ؟ سيقولون "هذا مجنون، وهذا ما يفهم وهذا ما يعرف قدر الأولياء ومكانة الصالحين وأنهم وأنهم ، وما سمع الأخبار التي سمعناها والقصص الذي عرفناه" فسيقولون مثل ذلك الكلام ، وفعلاً الدعاة إلى الله دعاة التوحيد ودعاة الحق دائما تُلصق فيهم مثل هذه التهم ونحوها وقريباً منها صداً عن الحق .

الثالثة عشرة : قوله للأبعد والأقرب : «لا أغني عنك من الله شيئا» ، حتى قال : «يا فاطمة بنت محمد لا أغني عنك من الله شيئا» . فإذا صرَّح وهو سيد المرسلين بأنه لا يغني شيئا عن سيدة نساء العالمين وآمن الإنسان أنه لا يقول إلا الحق ، ثم نظر فيما وقع في قلوب خواص الناس اليوم تبين له ترك التوحيد وغربة الدين .

هذه المسألة الثالثة عشرة وهي خاتمة المسائل استنبطها رحمه الله تعالى من قول النبي صلى الله عليه وسلم للأقرب والأبعد : ((لا أغني عنكم من الله شيئا)) ، حتى قال : ((يا فاطمة بنت محمد لا أغني عنك من الله شيئا)) ، فيقول رحمه الله : «إذا صرَّح وهو سيد المرسلين بأنه لا يغني شيئاً عن سيدة نساء العالمين بنته رضي الله عنها ، وآمن الإنسان أنه لا يقول إلا الحق» عندما قال عليه الصلاة والسلام لبنته ((لا أغني عنك من الله شيئا)) هو صلوات الله وسلامه عليه لا يقول إلا الحق ، فإذا فهم ذلك وعرفه ثم نظر في واقع الناس وخواص الناس اليوم هل فهموا هذا المعنى؟ وهل عرفوا هذا التوحيد أم أنهم تركوه وأصبحوا في تعلقات باطلة ؟ ولاسيما عندما يصاب بعضهم بفقر أو بمرض أو بمشكلة من المشكلات تجده بحكايات من حوله وقصص من حوله يفزع إلى المقبورين ويلتجئ إلى الأموات استغاثةً ودعاءً ورجاءً إلى غير ذلك ؛ أين هؤلاء من فهم التوحيد الذي دعا إليه إمام الأولين والآخرين صلوات الله وسلامه عليه!! .

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك .

اللهم صل وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .



شرح كتاب التوحيد

لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه اللّه

من الدرس ١٧ إلى الدرس ٢٠

شرح الشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظهما اللّه تعالى

١٤٤٠/٠٣/٢٦ هـ

الدرس السابع عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد :

يقول شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله وغفر له ولشيخنا والسامعين في كتابه «التوحيد الذي هو حق الله على العبيد » :

بابٌ قول الله تعالى { حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ } [سبأ:٢٣] **. وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله ، كأنه سلسلة على صفوان ينفذهم ذلك ، {حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ } ، فيسمعها مسترق السمع، ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض، وصفه سفيان بن عيينة بكفه فحرفها وبدَّد بين أصابعه فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته ، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته ، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن ، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها وربما ألقاها قبل أن يدركه ، فيكذب معها مائة كذبة ، فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا ؟ فيُصدَّق بتلك الكلمة التي سُمعت من السماء » .**

****

هذه الترجمة نظير الترجمة التي قبلها من حيث إقامة البرهان وذِكر الشواهد والأدلة على وجوب توحيد الله إخلاص الدين له والبراءة من الشرك ، فهي ترجمةٌ عُقدت لبيان برهان التوحيد ودليله ، وبيان بطلان الشرك بالله سبحانه وتعالى ، وأن أيًّا كان غير الله تبارك وتعالى لا يستحق من العبادة أي شيء ، وأن العبادة إنما هي لله العظيم الجليل الكبير المتعال الذي بيده أزمَّة الأمور ومقاليد السماوات والأرض ؛ ولهذا عقد رحمه الله هذه الترجمة ليبين من خلالها عظمة الله جل وعلا وجلاله سبحانه ، وأن عباده الذين عرفوه وعرفوا جلاله وعظمته سبحانه وتعالى مشفقون منه ، ويخافونه سبحانه وتعالى ويخشون عقابه ، ويذلُّون ويخضعون له عز وجل ، ولا يسبقونه بالقول ولا يعصونه سبحانه وتعالى . فهي ترجمة يبين المؤلف من خلالها عظمة الله عز وجل وجلاله سبحانه وأن هذه العظمة وهذا الجلال وهذا الكمال وهذا الكبرياء وهذا العلو المطلق دليل وبرهان بيِّن على وجوب إخلاص الدين له وإفراده وحده سبحانه وتعالى بالذل والخضوع .

قال رحمه الله تعالى : **قال الله تعالى ﴿ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾** [سبأ:٢٣] ؛ هذه الآية ينبغي أن نعلم أنها جاءت في القرآن الكريم في مساق إبطال الشرك وإقامة البرهان على وجوب توحيد الله وإخلاص الدين له سبحانه وتعالى ، ولهذا فإن من تمام فهمها فهم السياق الذي وردت فيه والآيات التي قبلها ؛ قد قال الله عز وجل قبل هذه الآية: ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ (٢٢) وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٢٣) ﴾ فإذاً تأمَّل السياق بتمامه ، السياق من بدايته في إقامة البرهان والدليل على بطلان الشرك .

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أي من دون الله أياً كانوا ، ويدخل في هذا السياق في قوله ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ يدخل هنا دخولاً أولياً الملائكة ؛ لماذا ؟ لأنه قال بعد ذلك ﴿ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ ﴾ أي : الملائكة ، لتضافر الأدلة في السنة النبوية تفسيراً لهذه الآية أن المراد الملائكة .

فإذاً قوله ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ يتناول كل معبود عُبد من دون الله عموماً ، ويتناول على وجه الخصوص الملائكة . ولماذا خُصُّوا بالذكر هنا؟ والملائكة من جملة المخلوقات التي عُبدت من دون الله واتُّخذت أنداداً مع الله سبحانه وتعالى وأُشركت مع الله في العبادة وهم لا يرضون ذلك ، أياً من الملائكة لا يرضى ذلك كما سيأتي ما يشهد لذلك ويدل عليه ، فالملائكة من جملة المخلوقات التي عُبدت من دون الله .

فالله يقول: ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أيًا كانوا ؛ ملائكة، أنبياء، أولياء، أيا كانوا من المخلوقات أيضاً قل شجرا أو حجرا أو غير ذلك ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ ، كل هؤلاء ﴿ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ يعني لا يملكون شيئاً وإن قَل ، شيئاً قليلاً لا يملكون ، والمراد هنا أي : ملكاً استقلالياً دون أن يكون الله هو الذي ملَّكهم إياه وأعطاهم إياه .

﴿ وَمَا لَهُمْ ﴾ أي هؤلاء الذين يُدعَون من دون الله ﴿ فِيهِمَا ﴾ أي السماوات والأرض ﴿ مِنْ شِرْكٍ ﴾ أي ليس لهم مشاركة ، لا يملكون استقلالا، وأيضاً أقل من ذلك ليس عندهم نصيب مشاركة في ملك السماوات أو الأرض.

وأمر آخر دون ذلك ﴿ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴾ ؛ ﴿ وَمَا لَهُ ﴾ أي الله ﴿ مِنْهُمْ ﴾ أي الذين يدعون من دونه ﴿ مِنْ ظَهِيرٍ ﴾ أي من معين .

إذاً لا مالك ولا شريكاً للمالك ولا معيناً للمالك ، لو كان أحد يملك استقلالاً استحق أن يُدعى نُفي ذلك ، دون ذلك أن يكون شريكاً للمالك لو وُجد استحق أن يدعى نفي ذلك ﴿ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ ﴾ ، أمرٌ ثالث إن وجد استحق من وجد فيه ذلك أن يُدعى ويُعبد وهون أن يكون عوينًا للمالك معيناً له ، قال ﴿ وَمَا لَهُ ﴾ أي الله ﴿ مِنْهُمْ ﴾ أي الذين يدعون من دونه ﴿ مِن ظَهِيرٍ ﴾ أي من معين.

بقي أمر رابع وهو الشفاعة ، والمراد بالشفاعة : أي الابتدائية التي بدون إذن المالك ، فأبطل ذلك ونفاه ، والمشركون كانوا يعتقدون في معبوداتهم أنها تملك الشفاعة ابتداءً عند الله ، تشفع لمن شاءت ابتداءً ، فأبطل الله سبحانه وتعالى ذلك بقوله :﴿ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ ؛ لابد أن يأذن سبحانه وتعالى للشافع ، ولابد أن يرضى عن المشفوع له ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى ﴾ [الأنبياء:٢٨] كما في آية أخرى ، وجُمع بين الأمرين في حق الملائكة في قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴾ [النجم:٢٦] لابد من الأمرين معاً :إذنه للشافع ، ورضاه عن المشفوع له . ولا يرضى سبحانه وتعالى إلا عن أهل التوحيد ، أما أهل الشرك والتنديد فأمرهم كما قال الله ﴿ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ [المدثر:٤٨] .

إذاً لاحظ هذا التدرج : ﴿ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ ، ﴿ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ ﴾ ، ﴿ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴾ ، ﴿ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ ، ﴿ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ ﴾ وهنا كما نبَّه أهل العلم محذوفٌ مقدَّر دل عليه السياق ، ولا يملك أحد شفاعة عنده ، وهؤلاء الذين يدَّعى أنهم يشفعون عنده ابتداءً إنما هم عباد فقراء خاضعون لله سبحانه وتعالى ؛ هذه حالهم ﴿ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ﴾ ، يعني هؤلاء الذين يقال إن فيما يعتقده أهل الشرك أنهم يملكون شفاعةً ابتدائية هذه حالهم عند الله ﴿ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ .

ولهذا قال بعض أهل العلم عن هذا السياق المبارك من بدايته إلى قوله ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ إن هذا السياق قطع شجرة الشرك من أصولها واجتثها من عروقها ؛ أي أنه لم يُبقِ متعلَّق لمشرك ، كل ما يخطر بالبال أن المشرك يتعلق به أبطل في هذا السياق إبطالاً تاماً ، ولهذا سيأتي إيراد هذه الآيات عند المصنف رحمه الله في الترجمة اللاحقة لكنه اقتصر هنا على قوله ﴿ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ .

انتبه هنا للضمير في قوله ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ من هم هؤلاء ؟ إذا نظرت إلى السياق المتقدم فإن قوله ﴿عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ الضمير عائد على ما عادت إليه الضمائر في السياق الذي قبله بدءً من قوله ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ ، أولاً قوله ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ثم قال: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ﴾ انتبه هنا للضمير ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ (٢٢) وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ الضمير عائد على ما عادت إليه تلك الضمائر وهو من يُدعى من دون الله .

وجاءت أحاديث متضافرة في سنة النبي عليه الصلاة والسلام شارحة لهذه الآية فيها بيان أن المراد بقوله ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ أي الملائكة ، فيكون السياق من بدايته يتناول عموم من يُدعى من دون الله ، ويتناول أيضاً الملائكة تناولاً خاصاً لدلالة آخر السياق على أن الملائكة معنيون بذلك في قوله جل وعلا: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ .

ما معنى ﴿فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ ؟ والآية فيها دليل أن الملائكة لهم قلوب ، ووصَف قلوب الملائكة بأنها تصاب بالفزع ، والفزع: هو شدة الخوف والإشفاق ، فوصفهم بقوله: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ ما المراد بذلك؟ جاءت السنة مفسِّرة كما سيأتي في الحديث أنَّ الله سبحانه وتعالى إذا تكلم بالوحي خرت الملائكة صعِقة ، تصاب بالصعق تصعق ويغشى عليها ، والخوف ينفذ إلى قلوبهم ويمضي في قلوبهم ؛خوفاً عظيماً من الله سبحانه وتعالى .

إذاً هنا حتى تدرك أيضا دلالة الآية على التوحيد استحضر من هم هؤلاء الملائكة؛ من حيث أجسامهم ،من حيث قوتهم، من حيث قدرتهم ، هؤلاء الذين مجرد أن يتكلم الله بالوحي يصابون بالصعق والغشي يغشى عليهم من هم هؤلاء ؟ ما هي أجسامهم ؟ ما هي قوتهم ؟ ما هي قدرتهم ؟

مر معنا إشارة إلى بعض الأحاديث في ذلك؛ مثل قول النبي عليه الصلاة والسلام كما في المسند قال : ((رأيت جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ وَلَهُ سِتُّ مِائَةِ جَنَاحٍ كُلُّ جَنَاحٍ مِنْهَا قَدْ سَدَّ الْأُفُقَ)) ، وقال عليه الصلاة والسلام كما في سنن أبي داود : ((أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللَّهِ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ، إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِ مِائَةِ عَامٍ)) . جاءت أحاديث تبين ما أعطاه الله سبحانه وتعالى لهؤلاء الملائكة من ضخامة في الأجسام من قوة من قدرة ، أمور عظيمة جداً أعطاها الله سبحانه وتعالى لهؤلاء الملائكة، فهم مع ضخامة أجسامهم قوتهم قدرتهم إلى غير ذلك إذا تكلم الله سبحانه وتعالى بالوحي خرت الملائكة صعِقة خُضعاناً لقوله؛ أي خاضعين لقول الله سبحانه وتعالى .

إذاً هؤلاء دل هذا السياق أنهم عبيد فقراء خاضعون لله سبحانه وتعالى خائفون مشفقون من الله سبحانه وتعالى هذه حالهم ؛ فهل هؤلاء يستحق أيٌّ منهم أن يُعبد وأن يصرف له شيء من العبادة ؟ وهم عبيد لله! اسمع إلى قول الملائكة فيما ذكر الله عنهم في القرآن : ﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ (١٦٤) وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (١٦٥) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴾ [الصافات:١٦٤-١٦٦] ،كل واحد منهم له مقام معلوم في السماء ، يقول عليه الصلاة والسلام ((أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ)) وهذا مما يفسر قوله ﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ﴾ ، ما في السماء من موضع شبر إلا وفيه ملك ساجد لله . قال ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (١٦٥) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴾ هم عبيد لله ؛ تسبيح وصفوف بين يدي الله وخضوع وذل لله سبحانه وتعالى ، أما العبادة ليس لهم منها أيَّ شيء ولا يستحقون منها أيَّ شيء، حقٌ لله وحده سبحانه وتعالى.

وتأمل أيضا في إبطال التعلق بالملائكة والدعاوى الباطلة دعاوى أهل الشرك في الملائكة وردُّ الله سبحانه وتعالى عليهم في سورة الأنبياء ، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ ﴾ أي تنزه وتقدَّس جل وعلا عن ادِّعاء هؤلاء وزعمهم الباطل ، ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴾ لأنهم – قاتلهم الله – يقولون الملائكة بنات الله ، ولهذا يصرفون للملائكة أنواع من العبادة باعتبار أنهم أولاد لله بزعم هؤلاء .

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ ﴾ والمراد هنا الرد على المشركين القائلين إن الملائكة بنات الله ، ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (٢٦) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) وَمَنْ يَقُلْ ﴾هذا على سبيل الفرض ﴿ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ ﴾ أي الملائكة ﴿ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ ﴾ أي من دون الله ﴿ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ والمراد بالظلم هنا : الكفر والشرك بالله سبحانه وتعالى .

فإذاً هذا باب عظيم جداً في إبطال الشرك وإبطال التعلقات بغير الله سبحانه وتعالى .

سبحان الله !! بعض الناس يأتي أحد الدجاجلة ويقوم بين أيديهم ببعض الأعمال ربما السحرية أو الأمور الخارقة للعادة بالتعاون مع الشيطان؛ فتتعلق قلوبهم به ويذلون له ويقدِّمون له رجاءهم وخوفهم ورغبتهم ورهبتهم ! مجرد أن رأوا بعض الحركات التي هي من التعامل بالسحر أو التعاون مع الشياطين ، ثم يصرفون لهؤلاء أنواعاً من العبادة ويخضعون ويذلُّون لهؤلاء !! إذا عرفنا حال الملائكة مع تلك القوة وتلك الضخامة وتلك القدرة ، ملَك من الملائكة يقول للنبي عليه الصلاة والسلام ((إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين)) ؛ إذاً هم مع هذه القوة ومع هذه الضخامة ومع هذا الكبَر في الأجسام لا يستحقون شيء من العبادة ، هم عباد مكرمون أكرمهم الله بطاعته

وعبوديته والذل له ولا يعصون أمره ، حياتهم كلها طاعة لله سبحانه وتعالى لكن لا يستحق أيٌّ منهم شيء من العبادة ، قال جل وعلا في الملائكة الذين هم على النار : ﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦] .

فإذاً انتبه هنا إلى هذه الدلالة العظيمة على التوحيد أن المخلوق مهما كان؛ عبادةً ،كرامةً ،قوةً ،قدرةً ،كبراً وضخامةً في الجسم إلى غير ذلك من الأوصاف ،مهما كان يبقى عبد لله سبحانه وتعالى ، يبقى فقير لله سبحانه وتعالى ، يبقى لا يستحق من العبادة أي شيء ، العبادة حق لله سبحانه وتعالى ؛ فهذا برهان عظيم جداً في تقرير التوحيد وإبطال الشرك.

﴿ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ عندما يتكلم الله بالوحي تخر الملائكة صعقة ، ثم إذا زال الفزع عن قلوبهم وقاموا من الغشي الذي أصابهم سألوا هذا السؤال ، سأل بعضهم بعضاً ﴿ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ﴾ فيجيبون ﴿ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ أي : قوله حق ولا يقول إلا حقاً سبحانه وتعالى .

﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ والختم في هذا السياق المبارك بهذين الاسمين : العلي الكبير هذا أيضاً برهان عظيم من براهين التوحيد ؛ من حيث أنَّ المعبود بحق ولا معبود بحق سواه هو العلي الكبير ، ولا أحد كذلك إلا الله سبحانه وتعالى هو العلي الكبير ؛ هو الذي له العلو المطلق ذاتاً وقدراً وقهراً ، عليٌّ بذاته سبحانه وتعالى فوق سماواته ، عليٌّ بقدره جل في علاه ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الزمر:٦٧] ، عليٌّ بقهره ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام:١٨] ، عليٌّ بتنزهه سبحانه وتعالى عن النقائص وعن كل ما لا يليق به سبحانه ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس:١٨] ، وهو جل وعلا الكبير الذي لا أكبر منه كما جاء في الحديث في المسند وغيره لما قال النبي عليه الصلاة والسلام لعدي ((يا عدي ما يُفِرُّك ؟)) ما الذي يجعلك تفر عن الإسلام ولا تُقبل عليه؟ ما الذي تخشاه؟ ما الذي تخافه؟ ما يفرك ؟ ((أيفرك أن يقال لا إله إلا الله)) هذا هو الإسلام أيفرك أن يقال لا إله إلا الله ((وهل إله غير الله ؟ أيفرك أن يقال الله أكبر ؟ وهل شيء أكبر من الله)) ؛ الإسلام توحيد وتكبير وتعظيم لله سبحانه وتعالى وتنزيه وتقديس للرب العظيم جل وعلا ، ولهذا كان أحب الكلام إلى الله : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر .

فإذاً كونه جل وعلا العلي الكبير هذا من براهين توحيده ، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج:٦٢] ؛ انظر كيف ختم الآية بهذين الاسمين :

العلي الكبير ، لأن هذا برهان من براهين وجوب توحيده وإخلاص الدين له وإبطال الشرك ، وأنَّ كل من يدعى من دونه فدعوته باطل وضلال .

فإذاً قوله جل وعلا ﴿ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ هذا من براهين التوحيد ودلائله من جهتين :

- الجهة الأولى : بيان عظمة الله سبحانه وتعالى وجلاله وكماله وعلوّه وكبرياءه ، وأنه سبحانه وتعالى الملِك لا ند له ، الرب لا شريك له ، المدبر لا عوين له سبحانه وتعالى ، الذي بيده أزمَّة الأمور ومقاليد السماوات والأرض .
- ومن جهة أن المخلوقات مهما كانت في كرامتها أو مكانتها أو قوتها أو قدرتها أو ضخامة أجسامها أو غير ذلك من الصفات التي أعطاها الله سبحانه وتعالى إياها تبقى عبيداً لله سبحانه وتعالى ذليلة خاضعة لله عز وجل فقيرة إلى الله سبحانه وتعالى ، لا تستحق من العبادة أي شيء وليس لها من العبادة أي شيء ؛ ولهذا جاء في الآية قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ ﴾ أي هؤلاء الملائكة مع الضخامة والكبر والقوة والقدرة إلى غير ذلك ﴿ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٢٩) ﴾ ؛ العبادة حق لله سبحانه وتعالى ولا يجوز أن يُصرف شيءٌ منها لغيره عز وجل .

المؤلف رحمه الله تعالى صدَّر الترجمة بهذه الآية الكريمة ثم أتبع ذلك بذكر حديثين من سنة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام شارحَين لهذه الآية وموضحين لمعناها ومبيِّنين لمدلولها .

الحديث الأول : حديث أبي هريرة وهو في الصحيح – أي صحيح البخاري – عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ((**إذا قضى الله الأمر في السماء**)) ؛ قضى الأمر: أي تكلم به سبحانه وتعالى بالأمر الذي أراده كونياً كان أو شرعيا ، قد قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس:٨٢] .

إذا قضى الله الأمر في السماء أي تكلم بما أراده من قضاء سبحانه وتعالى ؛ قضاءٍ كوني أو قضاءٍ شرعي ، لأن القضاء يطلق ويراد به الكوني ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ﴾ [فصلت:١٢] ، ويطلق ويراد به الشرعي ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء:٢٣] .

((**ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله**)) «خُضعانا» مصدر بمعنى خاضعين ، وتروى بفتحتين في أولها «خَضَعانا لقوله» أي خاضعة لقول الله سبحانه وتعالى .

((**لقوله**)) وهذا فيه إضافة القول لله عز وجل وأن المراد بقوله في أول الحديث ((إذا قضى الله الأمر)) أي إذا تكلم به ، ولهذا قال ((خُضعاناً لقوله)) أي للقول الذي قاله والكلام الذي تكلم به ؛ فهذا فيه إثبات الكلام لله سبحانه وتعالى ، وأنه يتكلم بكلامٍ يُسمع ، والحديث من جملة دلائل كثيرة دالة على ذلك .

((**كأنه سلسلةٌ على صفوان**)) وهذا إخبارٌ عن ما يسمعه الملائكة ، يسمعون صوتاً كأنه سلسلة على صفوان .

((**ينفذهم ذلك**)) أي أن ذلك يدخل ويمضي في قلوبهم؛ ينفذ : أي يدخل ويتمكن من قلوبهم دخولاً في القلوب.

((**حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ**)) أي أنه إذا وصلهم ذلك ونفذ إلى قلوبهم وأصابهم الصعق والغشي كما يأتي في الروايات . قال : ((حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ)) أي زال هذا الفزع وذهب عن قلوبهم .

((**قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ؟ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ**)) وهذا تفسير للآية ، ولهذا قال أهل العلم إن المراد بقوله في الآية ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ المراد به الملائكة ، لأن السنة جاءت مفسرةً للآية بذلك وشارحة للآية بذلك كما في هذا الحديث وغيره .

((**فيسمعها مسترق السمع**)) يعني الشياطين ، لأن الملائكة يسأل بعضهم بعضاً أهل كل سماء يسألون ، وجبريل كلما مر نازلاً بأهل كل سماء سألوه حتى يصل إلى أهل السماء الدنيا فيسألون : ماذا قال ربكم ؟ فيخبرهم جبريل بما قال ؛ فالجن يصعد بعضهم فوق بعض واحداً فوق الآخر إلى أن يصلوا إلى السماء الدنيا من أجل الاستماع ، والله أعطاهم قدرةً على هذا العمل ، فيصعد بعضهم فوق الآخر من أجل استراق كلمة مما يدور بين الملائكة ، يخبر بعضهم بعضاً : قال الله كذا ، فيسترقون الكلمة فينزلون ، والله سبحانه وتعالى جعل في السماء الشهب رجوماً للشياطين ، ولهذا هذا الصعود واحدًا فوق الآخر يُعَدُّ مخاطرة عظيمة جداً يرتكبها هؤلاء ، يصعدون هذا الصعود في هذه المخاطرة ويتعرضون للشهب التي هي رجوم للشياطين من أجل أن يظفروا بكلمة واحدة ، لكنهم يدركون أن هذه المخاطرة لها ثمرة يريدونها وهي إضلال خلق من الإنس وإبعادهم عن دين الله تبارك وتعالى .

قال : ((**فيسمعها مسترق السمع ، ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض**)) أي الشياطين تصعد بعضها فوق بعض .

((**وصفه سفيان**)) أي ابن عيينة رحمه الله تعالى ((**بكفه فحرَّفها**)) أي أمال يده ((**وبدَّد بين أصابعه**)) أي فرج بين أصابعه كما جاء في بعض الروايات في صحيح البخاري ((وفرج بين أصابع يده اليمنى)) هكذا جاء في بعض الروايات في صحيح البخاري .

((**فيلقيها إلى من تحته**)) من هو هذا الذي يلقيها إلى من تحته ؟ أي الشيطان الفوقاني أعلى واحد منهم يسترق الكلمة فيلقيها إلى من تحته ، ومن تحته يلقيها إلى من تحته ، ومن تحته إلى من تحته ، إلى أن تصل إلى الأسفل منهم فيذهب بها إلى الكاهن أو الساحر ؛ جهود كبيرة يبذلها هؤلاء وعمل مضني ومتعب وفيه مخاطرة ! لكن له عندهم ثمرة كبيرة وهي : إضلال خلق لا يحصَون بمثل هذا الأمر الذي يفتِنون به الناس .

((**فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته ثم يلقيها الآخر إلى من تحته حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها ، وربما ألقاها قبل أن يدركه**)) وهذا يدلك أنهم في مخاطرة ، قد يلتقط وقد يضربه الشهاب فيهلك قبل أن يلتقط الكلمة ، فيعطيها إلى الكاهن أو الساحر .

قال : ((**فيكذب معها مائة كذبة**)) يعني يأخذ هذه الكلمة التي استرقها هؤلاء وجاءوا بها له ويكذب الكاهن أو الساحر معها مئة كذبة ، ماذا يكون حال الناس ؟ هل يذكرون كذبه ؟ أو ينسون الكذب ويذكرون المرة الواحدة التي قال قولاً صحيحاً فيها ؟

يقول : ((**فيقال أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا : كذا وكذا ؟ فيُصدَّق بتلك الكلمة التي سُمعت من السماء**)) أما كذبه الكثير الذي لا حدَّ له كله يُنسى وكله لا يروى وكله يطوى ولا يُذكر ، لكن يأخذون هذه المرة الواحدة ويقولون : أليس في اليوم الفلاني قال لنا كذا وكذا ، فيصدَّق بتلك الكلمة .

إذاً هذه المخاطرة التي قام بها الشياطين من أجل أن يصِلوا إلى إضلال الناس وصدهم عن سبيل الله .

الشاهد من الحديث للترجمة : فقر الملائكة وضعفهم وعجزهم وأنهم إذا تكلم الله سبحانه وتعالى بالوحي أصيبوا بالفزع ، وضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله؛ أي خاضعة لقول الله سبحانه وتعالى مشفقة خائفة ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل:٥٠] ؛ فهذه حالهم مع الله سبحانه وتعالى . فهذا من البراهين الواضحات والدلائل البينات على وجوب توحيد الله وإبطال الشرك .

قال رحمه الله :

وعن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا أراد الله تعالى أن يوحي بالأمر ، وتكلم بالوحي أخذت السماواتِ منه رجفةٌ أو قال رعدة[1] **شديدة خوفاً من الله عز وجل ، فإذا سمع ذلك أهل السماوات صُعقوا وخروا سجدا ، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل ، فيكلِّمه الله من وحيه بما أراد ، ثم يمرُّ جبريل على الملائكة ، كلما مر بسماء سأله ملائكتها : ماذا قال ربنا يا جبريل ؟ فيقول جبريل : قال الحق وهو العلي الكبير . فيقولون كلهم مثل ما قال جبربل ، فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله عز وجل »** .

****

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث – حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه – والحديث لم يذكر رحمه الله تعالى من خرَّجه ، وبيَّض في آخره ، ويبدو أنه بيَّض ليُتم لفظةً بقِيت في الحديث وأيضاً ليتم ذِكر مَن خرَّج الحديث ،

---

[1] (السماوات) مفعول مقدم ، و(رجفة) فاعل ، و(رعدة) معطوف عليه .

والحديث له تتمة يسيرة ((فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله عز وجل من السماء والأرض)) ، والحديث رواه ابن جرير الطبري في تفسيره وابن أبي حاتم والطبراني وغيرهم ، وفي سنده كلامٌ لكن له شواهد تقوِّيه وتدل على ثبوته .

والنواس بن سمعان ؛ «سمعان» ضُبطت بفتح السين وبكسرها ذكر ذلك النووي رحمه الله تعالى ، وذكَر أن فتح السين مذهب الأكثر من أهل العلم ، النواس ابن سَمعان ، ويقال إن والده صحابي .

قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((**إذا أراد الله تعالى أن يوحي بالأمر تكلم بالوحي**)) ؛ وهذا فيه إثبات الكلام وأن الله عز وجل يتكلم متى شاء بما شاء ، ولهذا يأتي في الأحاديث : «تكلم» ، و«يتكلم» ، وأيضاً إضافة الكلام إليه في آيات كثيرة جداً في القرآن ، فالله سبحانه وتعالى متصف بأنه يتكلم كلاما يليق بجلاله وكماله ، يتكلم بما شاء متى شاء جل وعلا ، والقرآن الكريم من كلامه ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة:٦] .

قال : ((**إذا أراد الله أن يوحي بالأمر تكلم بالوحي أخذت السماواتِ منه رجفةٌ أو قال رعدةٌ شديدة خوفا من الله عز وجل**)) ؛ السماوات عندما يتكلم الله سبحانه وتعالى بالوحي تصيبها رجفة أو رعدة خوفاً من الله عز وجل . وهذا الخوف والرجفة والرعدة هذا على ظاهره حقيقةً لا يؤوَّل وإنما يُثبت ويمَرُّ كما جاء ، والله سبحانه وتعالى وصف السماوات في القرآن بمثل ذلك ونحوه وقريباً منه ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت:١١] ، ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب:٧٢] ، قال: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:٤٤] ؛ هذا كله حقٌّ على حقيقته .

فالسماوات تصيبها ((**رجفة أو رعدة**)) شكٌّ من الراوي وهما بمعنى واحد ((**شديدة**)) أي الرجفة شديدة أو الرعدة شديدة ((**خوفا من الله عز وجل**)) وهذا أيضا من براهين التوحيد ؛ هذه السماوات مع ضخامتها وكبرها وعظمها ما أن يتكلم الله سبحانه وتعالى بالوحي إلا وتصاب برجفة ورعدة شديدة خوفاً من الله جل وعلا ؛ هذا من براهين التوحيد ووجوب إخلاص الدين لله جل في علاه .

قال: ((**فإذا سمع ذلك أهل السماوات**)) أي الملائكة ((**صُعقوا وخروا سجدا**)) أي يحصل منهم أمران ، والواو لا تقتضي الترتيب ، ولهذا الله أعلم بأيِّ الأمرين أول السجود أو الصعق؟ فتخر الملائكة صعقة تُصعق ، وتخر ساجدةً لله سبحانه وتعالى خاضعةً ذليلةً مشفقةً خائفةً من الله جل وعلا .

((**فيكون أول من يرفع رأسه جبريل**)) وهذا أيضا دليل أن جبريل شأنه شأن الملائكة ويصيبه ما يصيب الملائكة ((**فيكون أول من يرفع رأسه جبريل فيكلمه الله من وحيه بما أراد**)) ويسمع جبريل من الله ، ثم ينزل إلى حيث أمره الله سبحانه وتعالى من السماء والأرض كما جاء ذلك في تمام الحديث ، ينزل ليبلّغ ، ولهذا جبريل الرسول الملكي قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [التكوير:١٩] أي جبريل ،لقوله ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير:٢٠-٢١] المراد جبريل ، فهو رسول ملكي يبلّغ عن الله سبحانه وتعالى رسالته إلى حيث أمره الله من السماء أو الأرض .

((**فيكون أول من يرفع رأسه جبريل فيكلمه الله من وحيه بما أراد ثم يمر جبريل على الملائكة ، كلما مر بسماء سأله ملائكتها**)) وقوله «ملائكتها» هذا فيه أن لكل سماء ملائكتها .

يسألون جبريل ((**ماذا قال ربنا يا جبريل ؟ فيقول جبريل : قال الحق ، وهو العلي الكبير ، فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل**)) أي قال الحق وهو العلي الكبير .

((**فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله عز وجل من السماء والأرض**)) لأن مهمته إبلاغ كلام الله سبحانه وتعالى إلى حيث أمره الله جل وعلا .

شاهد الحديث للترجمة : ذِكر حال الملائكة عندما يتكلم الرب العظيم بالوحي؛ كيف أنهم يصعقون ويخرون لله سجداً ، وكيف أيضاً أن السماوات تصيبها رعدة ورجفة شديدة خوفاً من الله سبحانه ؛ فهذا كله من الدلائل البينات على عظمة الله وجلاله وكماله وكبريائه ، وأنه المستحق للعبادة وحده دون سواه ، وأن المخلوقات أياً كانت ومهما كانت لا تستحق من العبادة أي شيء .

قال رحمه الله :

فيه مسائل ؛الأولى : تفسير الآية .

وقد تقدم .

الثانية : ما فيها من الحجة على إبطال الشرك ، خصوصًا ما تعلق على الصالحين ، وهي الآية التي قيل إنها تقطع عروق شجرة الشرك من القلب .

وهذا أيضاً مضى بيانه وإيضاح ما في هذه الآية الكريمة من دلالة قوية وحجة ظاهرة على إبطال الشرك .

الثالثة : تفسير قوله { قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ } .

أيضا تقدم معنا تفسير ذلك .

الرابعة : سبب سؤالهم عن ذلك .

يعني سبب هذا السؤال «ماذا قال ربكم؟» ، والسبب مر معنا في الحديث لأنهم يصعقون ، وهذا الصعق يترتب عليه أنهم لا يفهمون الكلام ولا يدرون ماذا قال الله وبماذا تكلم الله عز وجل ، ولهذا احتاجوا إلى السؤال عن ذلك .

الخامسة : أن جبريل يجيبهم بعد ذلك بقوله : (قال كذا وكذا) .

أن جبريل يجيبهم بعد ذلك أي بعد سؤالهم له «ماذا قال الله عز وجل؟» بقوله (قال كذا وكذا) أي يخبرهم بذلك.

السادسة : ذكر أن أول من يرفع رأسه جبريل .

وهذا جاء منصوصاً عليه في حديث النواس ((فيكون أول من يرفع رأسه جبريل)) ؛ وذلك والله تعالى أعلم لأنه الموكول بالوحي .

السابعة : أنه يقول لأهل السماوات كلهم لأنهم يسألونه .

وقد تقدم معنا في الحديث ((كلما مر بسماءٍ سأله ملائكتها)) .

الثامنة : أن الغُشِيّ يعمُّ أهل السماوات كلهم .

أي كلهم يصابون بذلك بما فيهم جبريل ، ويكون جبريل أول من يرفع رأسه .

التاسعة : ارتجاف السماوات لكلام الله .

لقوله في الحديث ((إذا تكلم بالوحي أخذت السماوات منه رجفة أو رعدة شديدة)) ؛ فهذا فيه دلالة على ارتجاف السماوات لكلام الله .

العاشرة : أن جبريل هو الذي ينتهي بالوحي إلى حيث أمره الله .

لقوله في تمام الحديث ((فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله عز وجل من السماء والأرض)) .

الحادية عشرة : ذكر استراق الشياطين .

أي استراقهم السمع وأنه يصعد كل واحد منهم فوق الآخر حتى يلتقطوا كلمة واحدة يستمعها الأعلى فيعطيها إلى الأدنى حتى تصل إلى الساحر .

الثانية عشرة : صفة ركوب بعضهم بعضا .

صفة ركوب بعضهم بعضا جاء بيانه في كلام سفيان ابن عيينة : أنه حرَّف يده وفي رواية فرَّج بين أصابع يده اليمنى وحرَّفها أي أمالها ، وبدَّد بين الأصابع أي فرج بين الأصابع .

الثالثة عشرة : إرسال الشهب .

لقوله في الحديث ((فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها)) ففي ذلك إرسال الشهب ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا﴾ [الجن:٩] ، وهل الشهب كانت قبل الإسلام في الجاهلية أو لا ؟ قولان لأهل العلم ؛ لكن الصحيح أنها كانت موجودة لكنه بالبعثة زاد حراسة السماء وحمايتها بالشهب ، ولهذا جاء في بعض الأحاديث أنهم كانوا يعتقدون أن الشهب تكون عندما يولد عظيم أو يموت عظيم ، فهي كانت موجودة لكن لما بُعث محمد عليه الصلاة والسلام زاد الأمر وعظم حراسةً للسماء .

الرابعة عشرة : أنه تارة يدركه الشهاب قبل أن يلقيها وتارة يلقيها في أذن وليِّه من الإنس قبل أن يدركه .

وهذا أيضاً واضح في حديث أبي هريرة .

الخامسة عشرة : كون الكاهن يصْدُق بعض الأحيان .

لأنه تأتيه هذه الكلمة الواحدة فيمزج معها مئة كذبة ؛ فإذاً هو يصدُق في بعض الأحيان بهذه الكلمة التي استُرقت له .

السادسة عشرة : كونه يكذب معها مائة كذبة .

يعني لا يكذب عشر كذبات أو عشرين يكذب كذبات كثيرة جداً ، وكل هذه الكذبات تُنسى ولا يذكر الناس إلا المرة الواحدة التي أخبرهم بأنه يكون كذا فكان كما أخبر مما استُرق له من السمع .

السابعة عشرة : أنه لم يصدَّق كذِبه إلا بتلك الكلمة التي سُمعت من السماء .

أي أن هذه الكلمة الواحدة تكون سبباً في تصديق الكذب الكثير الذي يقوله ، ولهذا جاء في الحديث الأول ((فيصدَّق بتلك الكلمة التي سُمعت من السماء)) .

الثامنة عشرة : قبول النفوس للباطل ؛ كيف يتعلقون بواحدة ولا يعتبرون بمائة .

هذا فيه حال جهل كثير من الناس وقبولهم للباطل ؛ كيف يتعلقون بواحدة ولا يعتبرون بمئة ، كان الأصل أن يقولون : هذا دائماً نسمع منه الكذب فلا نصدقه ، لكن قبول النفوس الباطل كيف يتعلقون بواحدة مرة يصدُق فيها وينسون كذبه الكثير .

التاسعة عشرة : كونهم يتلقى بعضهم من بعض تلك الكلمة ويحفظونها ويستدلون بها .

أي الناس الذين يسمعون الكاهن يتلقى بعضهم من بعض تلك الكلمة ويحفظونها ويستدلون بها ، لكنهم لا يروون الكذب ، الكذب الكثير الذي عنده ما يروونه ، لكن المرة الواحدة التي صدَق فيها يحفظونها ويتلقاها بعضهم من بعض ويروونها ويستدلون بها ، أما الكذب الكثير هذا كله لا يحفظونه ولا يذكرونه .

العشرون : إثبات الصفات خلافاً للأشعرية المعطلة .

لأن السياق الذي مر فيه إثبات العلو ، وفيه إثبات أن الله الكبير ، وفيه إثبات الكلام ؛ فيه إثبات صفات عديدة لله جل وعلا ، ففيه إثبات الصفات لله عز وجل .

الحادية والعشرون : التصريح بأن تلك الرجفة والغُشي خوفاً من الله عز وجل .

كما جاء في الحديث ((أخذت السماوات رجفة أو رعدة خوفا من الله)) .

الثانية والعشرون : أنهم يخرون لله سجداً .

هذه المسألة الأخيرة : أنهم يخرون لله سجداً وقد تقدمت معنا في الحديث ((إذا سمع ذلك أهل السماوات صعقوا وخروا لله سجداً)) .

وبهذا تنتهي هذه الترجمة بما فيها من أدلة ومسائل. وصلى الله وسلم على رسول الله .

الدرس الثامن عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله؛ صلى الله وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد :

يقول شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب أجزل الله له الأجر والثواب في كتابه «التوحيد الذي هو حق الله على العبيد» :

بابٌ الشفاعة وقول الله عز وجل : { وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ } [الأنعام:٥١] .

****

هذا بابٌ عقده المصنف شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في الشفاعة ؛ أي : في بيان حقيقة الشفاعة والمثبَت منها والمنفي في كتاب الله عز وجل ، وسوْق الدلائل والشواهد على ذلك من كتاب الله تبارك وتعالى . وبادئ ذي بدء بين يدي هذا الموضوع العظيم نتوجه إلى الله تبارك وتعالى بالسؤال الذي سبحانه وتعالى بيده أزمة الأمور ومقاليد السماوات والأرض أن يجعلنا أجمعين ممن يشفع لهم النبي الكريم عليه الصلاة والسلام ، اللهم اجعلنا ممن يشفع لهم نبيك محمد صلوات الله وسلامه عليه ،واجعله شفيعاً لنا يوم لقائك يا ذا الجلال والإكرام .

وموضوع الشفاعة موضوع عظيم وكبير جداً وبالغ الأهمية ، والمسلم بحاجة فعلاً إلى أن يعي هذا الموضوع وأن يفهمه فهماً صحيحاً ، لأن من قديم الزمان وفي حديثه ضلَّ خلق لا يحصيهم إلا الله تبارك وتعالى في باب العبادة صرفاً لها لغير الله تبارك وتعالى تحت مسمى الشفاعة ، وهذا من الأخطاء الفادحة التي تُخِل بديانة المرء وإخلاصه وتوحيده لربه تبارك وتعالى ؛ فيأتي أموراً يظنها شفاعة وهي تبطل نيله للشفاعة وتُبطل كونه من أهل الشفاعة ، وهو يفعلها ظاناً أنه بفعله لها ينال بذلك شفاعة الشافعين .

فالأمر لاشك أن له أهمية بالغة ؛ والمصنف رحمه الله أتى به في ثنايا الأبواب التي ساقها رحمه الله تعالى لذكر براهين التوحيد وشواهده ودلائله وإبطال الشرك بالله تبارك وتعالى ، في ثنايا هذه الأبواب عقد رحمه الله تعالى هذا الباب ((باب الشفاعة)) لماذا ؟ لأن خلْقاً من الناس قديماً وحديثا أخذوا يقدِّمون قرباتٍ وعباداتٍ والتجاءاتٍ إلى غير الله تبارك وتعالى خضوعاً وذلاً ودعاءً ورجاءً ورغبةً وطمعاً وغير ذلك يقدِّمون هذه لغير الله ويقولون "نحن نفعل ذلك من أجل الشفاعة ، من أجل أن يكونوا شفعاء لنا عند الله" !! وقد قال الله سبحانه وتعالى في القرآن عن الكفار

المشركين عبَدة الأوثان: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [يونس:١٨] ، فسمى تبارك وتعالى فعلهم هذا شركاً به سبحانه وتعالى ونزَّه جل وعلا نفسه عنه . وقال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ [الزمر:٣] ؛ يتخذون الأولياء الأنداد الشركاء إذا قيل لهم ما السبب؟ لماذا تفعلون ذلك؟ قالوا من أجل أن يقربونا إلى الله ، من أجل أن ننال نصراً عزاً فلاحاً فوزاً. ويقول الله جل وعلا ﴿ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [الأحقاف:٢٨] لاحظ ﴿ قُرْبَانًا آلِهَةً ﴾ يعني يتخذون آلهة يزعمون أنها تقربهم إلى الله وتدنيهم من الله تبارك وتعالى .

فإذاً تحت هذا المسمى «الشفاعة» دخلت أنواع من الضلالات وصنوف من الشركيات والتعلقات الباطلة والالتجاءات إلى المقبورين والموتى ؛ سواءً من الأنبياء أو الأولياء أو غيرهم يلتجئ إليهم ، يدعوهم ، يذلُّ بين يديهم ، يناجيهم ويخاطبهم ، يتقرب لهم وإذا قيل له ماذا تصنع ؟ أيُّ شيءٍ تفعل ؟ قال "هذا شفيع لي عند الله وأن أطلب منه الشفاعة" ، والواقع أنه اتخذه شريكاً مع الله ونداً لله؛ يدعوه ويلتجئ إليه ويخضع له ويصرف له أنواعاً من العبادة.

إذاً الأمر حقيقةً جدير بالانتباه حتى لا يقع الإنسان في الزلل ولا يقع في الانحراف بسبب عدم فهمه لحقيقة هذا الأمر وحقيقة الشفاعة ، وعدم تمييزه بين الشفاعة والمثبتة والشفاعة المنفية . وأنت عندما تقرأ القرآن تجد في آيات من القرآن أُثبتت الشفاعة ، وتجد في آيات من القرآن نُفيت الشفاعة ، وسيمر علينا هذا وهذا ، تجد آيات في القرآن الكريم أثبتت فيها الشفاعة ، وآياتٍ أخرى نُفيت ؛ إذا كان الأمر كذلك ثمة في القرآن شفاعة مثبتة وشفاعة منفية لابد أن يعرف المسلم ما هي الشفاعة المثبتة ؟ وما هي الشفاعة المنفية ؟ يعرف الشفاعة المثبتة حتى يأتي بهذا الأمر على بابه الصحيح ومسلكه القويم ، ويعرف الشفاعة المنفية حتى يحذر من أن يقع في هذه الشفاعة الباطلة الشركية المحرمة التي نفاها القرآن وأبطلها في مواضع كثيرة من كتاب الله سبحانه وتعالى .

والمصنف رحمه الله لما عقد هذه الترجمة كعادته أخذ يسوق الدلائل والشواهد على ذلك من القرآن الكريم ؛ أورد أول ما أورد قول الله سبحانه : ﴿ **وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ** ﴾ [الأنعام:٥١] ؛ والخطاب هنا لنبينا عليه الصلاة والسلام ، والنذارة : هي الإعلام بأسباب المخافة وأسباب العقوبة والتخويف من ذلك . والضمير في قوله ﴿ بِهِ ﴾ به عائدٌ إلى القرآن ؛ أي أنذرهم بالقرآن .

قال: ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ ذكر جل وعلا من ينتفعون بالنذارة ويستفيدون منه ؛ وهم من جمعوا بين وصفين ذكروا في هذه الآية الكريمة ، مع أن القرآن نذارة للعالمين ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾[الفرقان:١] ، القرآن نذارة للعالمين لكن خُصَّ هؤلاء أهل هذين الوصفين بالنذارة ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ ﴾ لأنهم أهل الانتفاع ، وما سواهم القرآن نذراة له لكنه لا ينتفع به ولا يستفيد منه ، تبلغه نذارة القرآن لكنه لا ينتفع . فإذاً خُصَّ هؤلاء أهل هذين الوصفين بذلك لأنهم أهل الانتفاع بما في القرآن من ذكرى ، بما فيه من نذارة ، بما فيه من تهديد وتخويف ، بما فيه من وعد ووعيد ؛ هم الذين ينتفعون .

ذكَر لهؤلاء الذين ينتفعون بما في القرآن من نذارة ووعد ووعيد وترغيب وترهيب وصفين :

- الأول : أنهم يخافون الحشر؛ ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ ﴾ ؛أي هم على ذكر وعلى عِلمٍ بالبعث والنشور والجزاء والحساب والوقوف بين يدي الله تبارك وتعالى ، وعندهم إيمان وإقرار بذلك ، وهذا الخوف من الحشر والوقوف بين يدي الله تبارك وتعالى يدعوهم إلى إصلاح أحوالهم وتهيئة أنفسهم وتزكية قلوبهم والانتفاع بما يأتيهم من تذكير ونذارة ونحو ذلك .
- والصفة الثانية قال : ﴿ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ ؛ وهذا فيه تنبيه على إخلاصهم وتوحيدهم لله تبارك وتعالى . ﴿ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ ﴾ أي الله ، والمراد «من دونه» : أي من دون إذنه تبارك وتعالى لأن الأمر له وبيده وتحت تصرفه سبحانه ﴿ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ ؛ ليس لهم من دونه ولا شفيع أي : ليس هناك شفيع ولا ولي إلا بإذن الله سبحانه وتعالى وأمره جل في علاه . وهذا فيه إخلاص هؤلاء ، يعرفون أن الأمر بيد الله وأنه ملْكُ الله وأنه تحت تدبير الله وتصريفه فلا يلجئون إلا إليه ولا يطلبون إلا منه ولا يدعون إلا إياه ولا يتوكلون إلا عليه؛ فهم أهل الإخلاص والتوحيد ﴿ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ .

قال رحمه الله تعالى :

وقوله : { قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا } [الزمر:٤٤] .

****

قال رحمه الله: وقوله ﴿ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ﴾ قل أيها النبي لأولئك الذين اتخذوا الأنداد والشركاء مع الله زعماً منهم أنهم اتخذوهم كذلك شفعاء لهم عند الله تبارك وتعالى ؛ قل لهم لله الشفاعة جميعا ، ومعنى ﴿ لِلَّهِ ﴾ اللام هنا يقول أهل العلم لام الملك ، «لله» أي ملكا ، الشفاعة ملك الله ، الشفاعة لله أي الشفاعة ملك الله سبحانه

وتعالى ، ولا يمكن أن يشفع أحد إلا بإذن المالك ، أن يأذن له ، مهما كانت منزلته ومكانته وفضله ودرجته لا يمكن أن يشفع إلا إذا أذِن الله له ، ولا يمكن أيضا أن يُشفع إلا لمن رضي الله سبحانه وتعالى قوله وعمله. فالشفاعة ملكٌ لله جل في علاه .

فإذاً قوله جل وعلا ﴿ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي أن مثلما أن السماوات والأرض ملك لله جل وعلا فالشفاعة كذلك ملك له .

﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أي ستقفون بين يدي الله تبارك وتعالى ، ويوم الوقوف بين يديه يتبين لكم ضلالكم وكفركم وشرككم وتعلقاتكم الباطلة ، لأن السياق جاء في الرد على المشركين الذين يتخذون الأنداد والشركاء مع الله تبارك وتعالى زعماً منهم أنها تشفع لهم عند الله ، لأنه جاء في الآية التي قبلها قال الله سبحانه وتعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ ﴾ أي هؤلاء الذين يدعُون غير الله ويستغيثون بغير الله ويلتجئون إلى غير الله اتخذوا من دون الله شفعاء؛ أي : دون أمره ودون إذنه تبارك وتعالى ، وأيضاً تعلقوا بهم دعاءً ورجاءً وسؤالًا وطلباً ﴿ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ (٤٣) قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ﴾ يعني هؤلاء الذين اتخذوهم أولياء ليس بيدهم ملكٌ لشيء؛ لا لأنفسهم ولا لغيرهم ، فالأمر كله بيد الله تبارك وتعالى وملكٌ له سبحانه . فالشفاعة ملك لله .

وفي ضوء ذلك ؛ إذا قال قائل : إذا أردت أن يكون الملائكة الأنبياء النبي الكريم عليه الصلاة والسلام شفيعاً وشفعاء لي يوم القيامة ما الطريقة الصحيحة ؟ وما السبيل الصحيح ؟ وقد سمعنا قول الله ﴿ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ﴾ الشفاعة لله ملكٌ له ، لا يشفع أحد إلا بإذنه ، ولا يُشفع أيضاً إلا لمن رضي الله قوله وعمله ؛ فإذاً من أراد أن يشفع له الأنبياء أن يشفع له الأولياء أن يشفع له الملائكة ما الذي يصنعه ؟ ما الذي يفعله حتى ينال هذه الشفاعة ؟ تأتيك الأجوبة على ذلك من خلال النصوص والأدلة القادمة لكنني ألخص لك الجواب بين يدي ما سيأتي :

- ينال ذلك أولاً بالإخلاص لله ؛ يخلص دينه لله ، لا يدعو إلا الله ، لا يسأل إلا الله ، لا يستغيث إلا بالله ، لا يصرف شيئا من العبادة إلا لله ، ولهذا سيأتي معنا في الحديث أن أبا هريرة سأل النبي عليه الصلاة والسلام قال «مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ القِيَامَةِ؟» أي من أحظاهم ؟ من أولاهم ؟ من أجدرهم بشفاعتك يوم القيامة؟ قَالَ : ((مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ)) ؛ فهذا أساسٌ لا تُنال الشفاعة إلا به ؛ أن يخلص المرء دينه لله، لا يسأل إلا الله لا يستغيث إلا بالله لا يطلب المدد والعون إلا من الله تبارك وتعالى .

■ الأمر الثاني : أن يتبع النبي عليه الصلاة والسلام ويسير على نهجه ويلزم هديه ويقتدي بسنته صلوات الله وسلامه عليه .

ثم في باب الدعاء إذا أراد أن يكون النبي عليه الصلاة والسلام شفيعاً له أو الملائكة أو نحو ذلك فإنه يطلب ذلك من الله ، بحيث يقول في دعائه : اللهم اجعل نبيك محمد صلى الله عليه وسلم شفيعاً لي ، اللهم مُنَّ عليَّ بشفاعته ، اللهم اجعلني ممن يشفع لهم نبيك عليه الصلاة والسلام .

ما الفرق يا إخوة بين هذين الدعائين ؛ قائل يقول في دعائه : اللهم شفِّع في نبيك ، وآخر يقول في دعائه : يا رسول الله اشفع لي . ماذا تجدون فرق بين هذين الدعائين ؟

الفرق بينهما كالفرق بين التوحيد والشرك ؛ الأول أخلص لله «اللهم» يسأل الله يضرع إلى الله يلح على الله يرجو الله يطمع فيما عند الله يسأل الله لأن الأمر ملك لله ، (اللهم) يقول يا رب لأن الأمر بيده لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه ولا يُشفع إلا لمن رضي الله قوله وعمله ، فهو ملك لله ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ ، فهو يلجأ إلى الله سبحانه وتعالى يقول : اللهم شفِّع في نبيك، اللهم اجعله شفيعا لي ؛ فهذا مسلكٌ صحيح قائم على التوحيد والإخلاص . أما أن يقول القائل يا ملائكة الله اشفعي لي مثلا أو يا نبي الله اشفع لي أو يا أولياء الله أو نحو ذلك هذا دعاء لغير الله والتجاء إلى غير الله وطلب من غير الله . يجب أن يعرف المسلم الفرق بين هذا وهذا؛ الشفاعة ملكٌ لله فلا تُطلب إلا من الله هو الذي يملكها ، فإذا أراد أن يشفع له الأنبياء أو الأولياء أو الملائكة أو الصالحين فليطلب ذلك من الله سبحانه وتعالى ، وليلجأ في ذلك إلى الله سبحانه وتعالى .

إذاً هذه الآية ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ تحتها من الفقه العظيم فيما يتعلق بالشفاعة وفهمها ما تزول به أباطيل أهل الباطل ، وأيضاً ما يتحقق به الصفاء في الاعتقاد والإخلاص لله وحُسن الالتجاء إليه سبحانه وتعالى .

قال رحمه الله :

وقوله : { مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ } [البقرة:٢٥٥] .

****

وقوله : ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ ؛ وجاء هذا في آية الكرسي التي هي أعظم آية من كتاب الله ، قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ .

وآية الكرسي كما نعلم هي أعظم آية في القرآن ، أُخلصت لتقرير التوحيد وبيانه واجتمع فيها من أدلة التوحيد وبراهينه ما لم يجتمع في أي آية أخرى ؛ ولهذا جاء في الصحيح أن النبي عليه الصلاة والسلام قال لأُبيِّ بن كعب

-وهو من كبار قرّاء الصحابة وحفّاظ القرآن الكريم- قال له النبي صلى الله عليه وسلم : ((يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟)) قَالَ: قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: ((يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟)) لما أعاد عليه النبي عليه الصلاة والسلام السؤال نفسه مرة ثانية فهم من ذلك أنه إذنٌ له بالاجتهاد في الأمر والتحري ، فقال في المرة الثانية «قُلْتُ: {اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ}» قَالَ: فَضَرَبَ فِي صَدْرِي، وَقَالَ: ((وَاللهِ لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ))؛ يعني هنيئاً لك هذا العلم الذي أكرمك الله به .

انتبه هنا لما قال النبي عليه الصلاة والسلام لأبي ((يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟)) كم عدد الآيات التي في القرآن ؟ أكثر من ستة آلاف آية كلها يحفظها ؛ إذاً لما سأله أي آية معك من كتاب الله أعظم ؟ أي من هذا العدد الكبير – أكثر من ستة آلاف آية – ليس عدداً قليلا من الآيات . ثم أيضا لاحظ ملاحظة ثانية ؛ لم يحدد له مئة آية مثلا أو خمسين آية وقال أي آية فيها أعظم ؟ وأيضاً الجواب مطلوب في الوقفة نفسها؛ ما قال له مثلاً فكر أسبوع أو أسبوعين أو شهر أو شهرين وأجب ، الجواب مطلوب في الوقفة نفسها ، ربما لو قال له فكر شهر وهات الجواب ينظر بتأمل وتدبر للآيات ويقارن إلى آخره ، لكن من أكثر من ستة آلاف آية وفي نفس الوقفة يقول آية الكرسي ؛ هذا علم عظيم . وأيضا من ناحية أخرى : إدراك من هؤلاء الصحابة رضي الله عنهم لمكانة التوحيد ، وإذا قيل كيف وصل مثلاً أبي بهذه السرعة إلى هذه الآية ؟ الجواب لأنهم على علم بمكانة التوحيد ومنزلته وأنه أعظم شيء في القرآن الكريم ، والقرآن يتفاضل بتفاضل المعاني والدلائل التي فيه ، فوجد بفقهه وفهمه أن هذه الآية هي أكثر آية قررت التوحيد وبيّنته وذكرت أدلته وشواهده وبراهينه ، آية الكرسي وحدها فيها أكثر من عشرة براهين على التوحيد ، وفيها خمسة أسماء حسنى لله ، وفيها أكثر من عشرين صفة لله تبارك وتعالى ، وفيها من معاني التوحيد شيء كثير لم يجتمع في أي آية أخرى من القرآن الكريم وإنما جاء مفرقاً في آيات .

فالشاهد من ضمن معاني التوحيد ودلائله في هذه الآية الكريمة قول الله سبحانه ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ ، قال قبلها ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ معبود بحق ولا معبود بحق سواه ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ ؛ الشفاعة ملك له ولا يمكن أن يشفع أحد عنده إلا بإذنه . هذا جاء لإبطال عقيدة باطلة في الشفاعة مضى عليها أهل الشرك ؛ الشفاعة يعتقدون فيها مثل ما يمارس الناس مع العظماء والملوك والرؤساء تجد أن مثلاً الوزير أو مثلاً المسئول الكبير يدخل على الرئيس أو على الزعيم أو على كذا ويستغل جاهه ومكانته ويفرض أشياء ويطلب أمور ويستجاب له فيها لمكانته ؛ فيشفع ابتداء بدون أن يؤذن له ، ويدخل ابتداء بدون أن يطلب إذن ، يستغل جاهه وقوته ومكانته ويدخل ويقول نريد كذا ونطلب كذا ويستجاب له . فكانوا يعتقدون فيمن اتخذوهم آلهة مثل هذا المعتقد أنهم يشفعون عند الله لمن شاءوا ومتى شاءوا

وبدون إذن من الرب سبحانه وتعالى ؛ فجاءت آيات كثيرة في القرآن تُبطل ذلك، منها قوله تعالى ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾أي : لا أحد يشفع عنده إلا بإذنه ، والمراد بالإذن: أي الإذن الكوني القدري ، أن يأذن له تبارك وتعالى فيشفع .

ونبينا عليه الصلاة والسلام كما سيأتي معنا في الحديث يوم القيامة إذا جاء الناس إليه وطلبوا منه أن يشفع لهم عند الله ماذا يصنع ؟ يخر ساجداً لله سبحانه وتعالى ويحمده بمحامد ثم يقول الله له : ((يا محمد ارفع رأسك وسل تعطه)) ؛هذا إذن له بالشفاعة ((واشفع تشفَّع)) لا يشفع ابتداءً وإنما ينتظر الإذن ويسجد لله ويدعو الله ويثني على الله ثم يأتيه الإذن فيشفع ، فلا شفاعة إلا بإذن الله سبحانه وتعالى.

إذاً قوله ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾فيه إبطالٌ لما يعتقده أهل الشرك والضلال في معبوداتهم وآلهتهم التي اتخذوها من دون الله يزعمون أنها تشفع لهم عند الله تبارك وتعالى .

قال رحمه الله :

وقوله : { وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى} **[النجم:٢٦]** .

****

ثم أورد رحمه الله تعالى هذه الآية الكريمة :﴿ وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ ﴾[النجم:٢٦] ؛ «كم» هذه تأتي للتكثير أي : عددٌ لا يحصيه إلا الله كثرةً من الملائكة في السماوات .

﴿ وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا ﴾ أي لا تنفع ولا تفيد شيئاً إلا بشرطين ما هما ؟ قال : ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴾ .

- الشرط الأول : إذن الله للشافع؛ ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ﴾ هذا شرط يتعلق بالشافع ، فلا يشفع عند الله إلا بإذنه .
- والشرط الثاني يتعلق بالمشفوع له﴿ وَيَرْضَى ﴾ أي عن المشفوع له ، والله سبحانه وتعالى لا يرضى إلا عن أهل التوحيد وأهل الإخلاص لله تبارك وتعالى .

ولهذا كما قال أهل العلم : في باب الشفاعة ثلاثة أمور مترتب بعضها على بعض فهمها يحقق للعبد السلامة في هذا الباب ويسلَم بإذن الله تبارك وتعالى من الباطل :

❖ الأمر الأول : لا شفاعة لأحد إلا بإذن الله ؛ لا يمكن أحد أن يشفع عند الله إلا بإذن الله .

❖ والأمر الثاني : لا شفاعة إلا لمن رضي الله عنه؛ ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ ﴾ [الأنبياء:٢٨] .

❖ الأمر الثالث : ولا يرضى جل وعلا إلا عن أهل التوحيد ، أما أهل الشرك بالله سبحانه وتعالى لا تنفعهم شفاعة الشافعين ، حتى لو حصلت شفاعة ولو كانت من أقرب قريب لا تنفعهم ولا تفيدهم لأن أحد الشروط منتفي وهو الرضا عن المشفوع له . وخذ عبرةً وعظةً في هذا الباب بما خرَّجه الإمام البخاري في صحيحه أن إبراهيم الخليل عليه السلام يلقى أباه يوم القيامة فيقول له : «أَلَمْ أَقُلْ لَكَ لاَ تَعْصِنِي ، فَيَقُولُ أَبُوهُ: فَاليَوْمَ لاَ أَعْصِيكَ»، لكن هل تفيد هذه الكلمة يوم القيامة ؟! فيتوجه إبراهيم عليه الصلاة والسلام خليل الرحمن إلى الله، والأمر يتعلق بمن ؟ بوالده ،فيتوجه إبراهيم الخليل إلى الله سبحانه وتعالى فَيَقُولُ : «يَا رَبِّ إِنَّكَ وَعَدْتَنِي أَنْ لاَ تُخْزِيَنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ، فَأَيُّ خِزْيٍ أَخْزَى مِنْ أَبِي الأَبْعَدِ؟» يطلب شيء من الله ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: «إِنِّي حَرَّمْتُ الجَنَّةَ عَلَى الكَافِرِينَ ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا إِبْرَاهِيمُ، مَا تَحْتَ رِجْلَيْكَ؟ فَيَنْظُرُ فَإِذَا هُوَ بِذِيخٍ مُلْتَطِخٍ، ينظر إلى أبيه وإذا به على صورة ذيخ ، -والذيخ: هو ذكر الضباع، ملطخ بدمه- فَيُؤْخَذُ بِقَوَائِمِهِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ» .

فالشفاعة لا تكون إلا بإذن الله ، ولا تكون إلا لمن رضي الله عنه رضي الله قوله وعمله ، والأمر الثالث الله لا يرضى إلا عن أهل التوحيد . أما من لقي الله مشركا فإنه لا تنفعه شفاعة الشافعين .

قال رحمه الله :

وقوله : {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ (٢٢) وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ} [سبأ:٢٢-٢٣] .

قال أبو العباس رحمه الله : نفى الله عما سواه كل ما يتعلق به المشركون ، فنفى أن يكون لغيره ملك أو قسط منه أو يكون عوناً لله ولم يبق إلا الشفاعة ، فبيَّن أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب كما قال : {وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى} [الأنبياء:٢٨] **. فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون هي منتفية يوم القيامة كما نفاها القرآن ، وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنه يأتي فيسجد لربه ويحمده – لا يبدأ بالشفاعة أولا– ثم يقال له : "ارفع رأسك ، وقل يُسمع ، وسل تعطه ، واشفع تشفع" . « وقال له أبو هريرة رضي الله عنه : من أسعد الناس بشفاعتك ؟ قال : " من قال لا إله إلا الله خالصا من قلبه » . فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص بإذن الله ، ولا تكون لمن أشرك بالله . وحقيقته أن الله سبحانه هو الذي يتفضل على أهل الإخلاص ، فيغفر لهم بواسطة دعاء من أُذن له أن يشفع ليكرمه وينال المقام المحمود . فالشفاعة التي نفاها القرآن ما كان فيها شرك ، ولهذا أثبت الشفاعة بإذنه في مواضع ، وقد بيَّن النبي صلى الله عليه وسلم أنها لا تكون إلا لأهل التوحيد والإخلاص . انتهى كلامه .**

****

ثم أورد رحمه الله قول الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ (٢٢) وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ:٢٢-٢٣] ؛ هذه الآية فيها إبطالٌ لكل ما يتعلق به من يدعو غير الله ، وقطعٌ لعلائق الشرك ، والأمور التي دفعت أناساً وأناساً إلى التعلقات الشركية التي ما أنزل الله تبارك وتعالى بها من سلطان .

فيقول الله جل وعلا لنبيه ﴿قُلِ﴾ أي أيها النبي لأولئك الذين يدعون غير الله من الملائكة والأنبياء والأشجار والأحجار وغيرها قل لهم : ﴿ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أياً كانوا ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ (٢٢) وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ ؛ هذه الآية أو هذا السياق كما قال أهل العلم قطعت شجرة الشرك من عروقها واجتثتها من أصولها ولم تُبقِ لمشركٍ متعلَّق ، لأن من يُدعى ويلتجأ إليه ويطلب منه يستحق أن يُدعى إذا كان متصفاً بإحدى صفاتٍ أربع ؛ جاء نفيها مرتبةً حسب الأعلى منها في هذه الآية الكريمة، فلم يبق لمشرك متعلق .

الصفة الأولى : أن يكون مالك في هذا الملك السماوات والأرض ولو شيئاً قليلا ؛ فأبطل الله سبحانه وتعالى في تلك المدعوات التي تُدعى من دون الله أبطل أن تكون تملك شيئا قال: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي استقلالاً . هذا الأمر الأول نفاه الله سبحانه وتعالى .

ثَمَّ أمرٌ آخر دونه ؛ إن لم يكن مالكا فإنه يستحق أن يُدعى لو كان شريكاً للمالك ، فأبطل الله سبحانه وتعالى ذلك بقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ﴾ أي الذين يُدعَون من دون الله ﴿فِيهِمَا﴾ أي السماوات والأرض ﴿ مِنْ شِرْكٍ ﴾ فأبطل الأمر الثاني .

إذاً لا مالك ولا شريكاً للمالك ثمة أمرٌ ثالث إن وُجد استحق من وجد فيه أن يُدعى؛ وهو : أن يكون معيناً للمالك وظهيراً ووزيراً ومشيراً ، فإن وُجد أحدٌ بهذه الصفة استحق أن يدعى لهذا الأمر ، فأبطل الله سبحانه وتعالى ذلك بقوله: ﴿وَمَا لَهُ﴾ أي الله سبحانه وتعالى ﴿مِنْهُمْ﴾ أي الذين يدعَون من دونه ﴿مِنْ ظَهِيرٍ ﴾ أي من عوين ومعين ووزير ؛ فأبطل الله ذلك .

إذاً لا مالك ولا شريكاً للمالك ولا ظهيراً ومعيناً للمالك ؛ انتفت هذه الأمور الثلاثة بقي أمرٌ رابع إن وجد في أحد استحق أن يُدعى وهو : أن يملك الشفاعة الابتدائية عند المالك بدون إذنه ؛ فأبطل الله ذلك بقوله جل

وعلا: ﴿ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ . فجاءت هذه الآية الكريمة مبطِلةً لكل الأمور التي يتعلق بها المشرك في دعائه لغير الله والتجائه إلى غير الله أبطلت مرتبة حسب الأعلى فما دونه .

نقل رحمه الله تعالى بعد إيراده لهذه الآيات عن أبي العباس وهو شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أنه قال : ((**نفى الله**)) أي فيه هذه الآية أو في هذا السياق ((**عما سواه كل ما يتعلق به المشركون ، فنفى أن يكون لغيره مُلك**)) في قوله ﴿ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ .

((**أو قسطٌ منه**)) أي نصيب وحظ ، نفاه في قوله ﴿ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ ﴾ .

((**أو يكون عوناً له**)) وهذا نفاه في قوله ﴿ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴾ .

((**ولم يبق إلا الشفاعة؛ فبيَّن أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب**)) في قوله ﴿ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ .

ثم أورد رحمه الله تعالى آية أخرى وهي قوله : ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى ﴾[الأنبياء:٢٨] ، فالشفاعة لا تكون إلا بإذن الرب جل وعلا ، ولا تكون إلا لمن رضي الله قوله وعمله .

قال رحمه الله : ((**فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون هي منتفية يوم القيامة نفاها القرآن**)) الشفاعة التي يظنها المشركون ما هي ؟ أن يتجه الواحد منهم إلى غير الله يسأله ويدعوه ويرجوه وينذر له ويتقرب إليه ويطلب منه ويقول هذا شفيع لي عند الله ، تجده يلجأ إلى غير الله يطلب منه النجاة ، يطلب منه الفوز ، يطلب منه السعادة ، يطلب منه خير الدنيا والآخرة ، إذا قيل ماذا تصنع ؟ قال هذا شفيع لي عند الله . هذا متكأ المشركين في قديم الزمان وحديثه يدعون غير الله ويقولون نحن ندعوهم ليقربونا إلى الله وليكونوا لنا شفعاء عند الله تبارك وتعالى .

قال : ((**فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون هي منتفية يوم القيامة كما نفاها القرآن ، وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنه يأتي فيسجد لربه ويحمده– لا يبدأ بالشفاعة أولاً– ثم يقال له : "ارفع رأسك ، وقل تُسمع ، وسل تعطه ، واشفع تشفع"**)) ؛ وهذا واضح أن سيد ولد آدم صلوات الله وسلامه عليه لا يشفع إلا من بعد الإذن ، الإذن في قول الله له «ارفع رأسك وسل تعطه واشفع تشفع» ، فلا يشفع ابتداء وإنما يشفع بعد أن يأذن له ، ولهذا أيضا جاء في الحديث نفسه قال : ((فيحُدُّ الله لي حدا فأشفع فيهم فيدخلهم الجنة)) ؛ يحد الله حداً يعني الشفاعة لا تكون إلا بالإذن وتكون أيضاً بالحد الذي حدَّه الله وهو من رضي الله عنهم ، من رضي قولهم وعملهم ، ليست لكل أحد وليست نائلةً كل أحد ، ولهذا جاء في صحيح مسلم عن نبينا عليه الصلاة والسلام من حديث أبي هريرة أنه قال : ((لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ، فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً

لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ)) ادَّخرها شفاعة للأمة ، هذه الشفاعة تنال مَن من الأمة ؟ من الذي يكون من أهلها؟ انتبه لبقية الحديث قال : ((وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا)) هكذا قال عليه الصلاة والسلام -والحديث في صحيح مسلم- قال : ((فَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللهُ)) هذا قيد بإذنه ، الشفاعة بإذن الله قال : ((فَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللهُ)) الأمر بيد الله ومشيئته . ((مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا)) هذا الشرط الثاني وهو من رضي الله قوله وعمله ، ولا يرضى إلا عن أهل التوحيد . قال: ((فَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا)) .

مثل هذا الحديث حديث أبي هريرة وهو في صحيح البخاري قال : قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ ؟ قال : ((مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ)) اشترط في لا إله إلا الله الإخلاص ، أي أن من قالها بدون إخلاص دون توحيد لله تبارك وتعالى لا تنفعه «لا إله إلا الله» مجردةً ، لابد أن تكون صادرة عن إخلاص لله بحيث لا يدعو إلا الله ، لا يستغيث إلا بالله ، لا يطلب المدد والعون إلا من الله ، لا يذبح إلا لله لا ينذر إلا لله، لا يصرف شيئا من العبادة إلا لله ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأنعام:١٦٢-١٦٣] .

قال رحمه الله : ((**فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص بإذن الله ولا تكون لمن أشرك بالله**)) ؛ تلك الشفاعة أي المثبتة لأهل الإخلاص بإذن الله ولا تكون لمن أشرك بالله .

((وحقيقته أن الله سبحانه هو الذي يتفضل على أهل الإخلاص فيغفر لهم بواسطة دعاء من أَذن له أن يشفع ليُكرمه وينال المقام المحمود)) ؛ هي تكون لأهل الإخلاص ، لكن الله سبحانه وتعالى في ذاك المقام يكرم الأنبياء والملائكة والأولياء والمقدَّمين من عباده تبارك وتعالى يكرمهم بأن يشفعوا لهؤلاء ؛ فتظهر كرامة هؤلاء وتظهر منزلة هؤلاء وتظهر مكانة هؤلاء في ذلك اليوم العظيم ، فهي لا تكون إلا بإذن الله للشافع ، وبرضاه سبحانه وتعالى عن المشفوع له .

قال : ((**فالشفاعة التي نفاها القرآن ما كان فيها شركٌ**)) بأن يلجأ إلى غير الله دعاءً استغاثةً رجاءً طلباً إلى غير ذلك فهذه نفاها القرآن وأبطلها .

((ولهذا أثبت الشفاعة بإذنه في مواضع وقد بيَّن النبي صلى الله عليه وسلم أنها لا تكون إلا لأهل التوحيد والإخلاص)) . **انتهى كلامه** : أي شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى .

قال رحمه الله :

فيها مسائل ؛ الأولى : تفسير الآيات .

أي الآيات التي تقدمت في الباب ، ومر ما تيسر من تفسيرٍ لتلك الآيات .

الثانية : صفة الشفاعة المنفية .

معنى المنفية : أي التي نفاها الله في القرآن ، فهي شفاعة منفية . والشفاعة المنفية : هي التي تُطلب من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه وتعالى ، فكل طلبٍ من هذا القبيل فهو مما أبطله الله تبارك وتعالى في القرآن ونفاه .

الثالثة : صفة الشفاعة المثبتة .

الثالثة: صفة الشفاعة المثبتة وهي التي تُطلب من الله تبارك وتعالى ولها شرطان مر معنا ذكرهما : إذن الله تبارك وتعالى للشافع ، ورضاه سبحانه وتعالى عن المشفوع له .

الرابعة : ذكر الشفاعة الكبرى وهي المقام المحمود .

أي شفاعة نبينا عليه الصلاة والسلام التي خصه الله بها وأكرمه بها ، وإليها الإشارة في قول الله تعالى: ﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء:٧٩] . فالشفاعة هي المقام المحمود التي يغبطه عليه النبيون ويغبطه عليه الأولون والآخرون؛ وهي شفاعته عليه الصلاة والسلام لأهل الموقف في أن يبدأ الله سبحانه وتعالى بالحساب ، لأن الناس في ذلك اليوم يقفون يوماً عصيباً ويوماً طويلاً ويوماً عسيراً على أهل الكفر لكنه يسير على أهل الإيمان ، فيقفون موقفاً عصيباً فيأتي الناس إلى الأنبياء يطلبون منهم الشفاعة فيأتون إلى آدم فيعتذر ويحيلهم إلى نوح ، ويعتذر ويحيلهم إلى إبراهيم ، ويعتذر ويحيلهم إلى موسى ، ويعتذر ويحيلهم إلى عيسى ، ويعتذر ويحيلهم إلى محمد عليه الصلاة والسلام فيقول : ((أنا لها)) ثم يخر ساجداً لله تبارك وتعالى ويحمد الله بمحامد ويثني عليه بثناء يعلِّمه الله سبحانه وتعالى إياه في ذلك الوقت ، ثم يقول الله له : ((ارفع رأسك وسل تعطه واشفع تشفَّع)) وحينئذ يأتي الرب سبحانه وتعالى للفصل بين العباد كما قال الله تعالى ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٢٢) وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ﴾ [الفجر:٢٢-٢٣].

الخامسة : صفة ما يفعله صلى الله عليه وسلم ؛ أنه لا يبدأ بالشفاعة بل يسجد ، فإذا أُذِن له شفع .

مثل ما مر معنا في الحديث الذي أشار إليه شيخ الإسلام رحمه الله تعالى قال : أنه يأتي فيسجد لربه ويحمده لا يبدأ بالشفاعة أولا ، ثم يقال له : ارفع رأسك وقل يُسمع وسل تعطه واشفع تشفَّع .

السادسة : من أسعد الناس بها .

من أسعد الناس بها أي الشفاعة ، وجواب ذلك جاء واضحاً في جواب النبي عليه الصلاة والسلام لأبي هريرة رضي الله عنه لما قال : يا رسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال : ((من قال لا إله إلا الله خالصا من قلبه)) .

السابعة : أنها لا تكون لمن أشرك بالله .

وقد مر معنا في حديث أبي هريرة وهو في صحيح مسلم أن النبي عليه الصلاة والسلام قال : ((وإنها نائلة إن شاء الله من لا يشرك بالله شيئا)) ؛ فإذاً الذي يشرك بالله شيئاً لا حظَّ له ولا نصيب من تلك الشفاعة .

الثامنة : بيان حقيقتها .

الثامنة وهي المسألة الأخيرة من مسائل هذا الباب بيان حقيقتها أي : حقيقة الشفاعة ، وحقيقتها تقدمت في تمام كلام شيخ الإسلام : أن الله سبحانه هو الذي يتفضل على أهل الإخلاص فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذِن له أن يشفع ليكرمه وينال المقام المحمود .

سبحانك اللهم وبحمدك ،أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك .

اللهم صلِّ وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

الدرس التاسع عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد :

يقول شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب أجزل الله له الأجر والثواب في كتابه «التوحيد الذي هو حق الله على العبيد» :

بابٌ قول الله تعالى { إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ } [القصص:٥٦] .

في الصحيح عن ابن المسيب عن أبيه رضي الله عنه قال : «لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده عبد الله بن أبي أمية وأبو جهل ، فقال له : ((يا عم قل لا إله إلا الله ، كلمة أحاج لك بها عند الله)) ، فقالا له : أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فأعاد عليه النبي صلى الله عليه وسلم فأعادا ، فكان آخر ما قال : هو على ملة عبد المطلب ، وأبى أن يقول لا إله إلا الله ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ((لأستغفرن لك ما لم أُنه عنك)) ، فأنزل الله عز وجل : {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ} [التوبة:١١٣] . وأنزل الله في أبي طالب : {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} [القصص:٥٦] » .

****

أيها الإخوة الكرام : هذه الترجمة ((**بابٌ قول الله تعالى** ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾)) هي مثل سوابقها من التراجم التي ساقها الإمام رحمه الله تعالى لبيان براهين التوحيد ودلائله وبطلان الشرك ، وأن العبادة حقٌ لله عز وجل لا تُصرف لأحدٍ سواه ،كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة:٥] . وهو جل وعلا الذي بيده الأمر عطاءً ومنعاً ، خفضاً ورفعاً ، عزاً وذلاً ، هدايةً وضلالاً ، كفراً وإيماناً الأمر كله بيده جل وعلا ((مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ)) ؛فالأمر لله سبحانه وتعالى من قبل ومن بعد ، إذا كتب الله عز وجل هدايةً لعبد من عباده لم يستطع أحدٌ على إضلاله ولو تظاهر الناس عليه ، وإذا كتب الله سبحانه وتعالى لعبدٍ ضلالاً لم يستطع أحد أن يهديه مهما كانت مكانته وقدره منزلته ، فالأمر بيده.

وفي هذه الآية الكريمة التي ترجم بها المصنف رحمه الله تعالى يقول الله مخاطباً نبيه ومصطفاه ومجتباه وخير عباده وأعظمهم جاهاً ومكانةً عند الله سبحانه وتعالى ؛ يقول الله له: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ أي : من أحببت هدايتهم ، من أحببت دخولهم في الإيمان ، ولو أيضاً حرصت على ذلك حرصاً عظيماً وبذلت في ذلك

جهداً كبيرا إن لم يكن الله تبارك وتعالى كتب لهم هدايةً فإنك لا تهدي من أحببت . مثلها قول الله تعالى ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف:١٠٣] ولو حرصت على هدايتهم. ومثلها ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ [البقرة:٢٧٢]؛ فالهداية بيد الله فلا تُطلب إلا منه ولا يُلتجأ في نيلها وتحصيلها إلا إليه سبحانه وتعالى لأنه هو الذي بيده الأمر جل في علاه .

إذاً قول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ هذا برهان من براهين التوحيد ودليل من دلائله ، وشاهد عظيم على بطلان الشرك ؛ لأن من يلجأ إلى غير الله حتى لو كان الذي لجأ إليه خير عباد الله وأفضلهم وأعلاهم مكانة فإنه ليس بيده شيء من الأمر ، فقد مر معنا قول الله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران:١٢٨] أي أن الأمر كله لله وبيد الله سبحانه وتعالى . فإذا لجأ ملتجئ إلى غير الله يطلب منه تفريج كربة أو كشف شدة أو إزالة غمة أو صلاح قلب أو حصول هداية أو نجاة من مصيبة أو تفريج كربة أو غير ذلك فإنه قد لجأ إلى من لا يملك شيئاً من ذلك وليس بيده شيء من ذلك ، من لجأ إلى غير الله تبارك وتعالى يطلب صلاح قلبه وهدايته وثباته؛ لجأ إلى غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه وتعالى .

فإذاً قوله جل في علاه: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ هذا برهان من براهين التوحيد ، وفيها دليل واضح أنَّ من طلب من غير الله ما لا يقدر عليه إلا الله فهو مشركٌ الشرك الأكبر الناقل من الملة . من طلب من غير الله ما لا يقدر عليه إلا الله كأن يطلب من غير الله صلاح قلبه وهداية نفسه وثباته على الحق ، أو يطلب من غير الله حسن الخاتمة ، أو يطلب فوزاً بالجنة أو نجاةً من النار أو غير ذلك من الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله وهي بيده وحده ولا يملك منها أي أحد كائناً من كان شيئا لا قليلاً ولا كثيرا ؛ فمن فعل ذلك فقد أشرك الشرك الأكبر الناقل من الملة .

والشرك في باب الدعاء : أن يُدعى ميتا أو يُدعى غائباً أو يدعى حاضراً فيما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه وتعالى؛ فهذا كله شرك أكبر ناقل من الملة . وكيف إذا اجتمعت لإنسان بأن يدعو ميتاً وغائباً بعيداً عنه وعن مكانه في أمرٍ لا يقدر عليه إلا الله !! وهذا يقع من أناس وأناس في التجاءات وذل وخضوع وفزع إلى غير الله تبارك وتعالى، حتى إن بعضهم إذا كان الميت الذي يطلب حاجته منه بعيداً عن بلده بعثها بمكتوبٍ إليه مع من يسافر ، يبعث معه مكتوباً يقول تجعلها عند قبر فلان أو عند قبر النبي عليه الصلاة والسلام أو غير ذلك، ويطلب من المسائل والحاجات الدنيوية والأخروية ؛ فهذا كله من الشرك الأكبر الناقل من الملة . فالله جل وعلا يقول لنبيه ومصطفاه صلوات الله وسلامه عليه﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ أي من لم يشأ الله هدايته وقد أحببت أن تهديه لا يمكن أن تهديه ولا سبيل لك إلى هدايته مهما بذلت ومهما حرصت . والذي لم يكتب الله

سبحانه وتعالى له هداية لو جاءته كل الأمور التي تكون سبباً في إيقاظ القلب وصلاحه وإقباله فإنه لا يهتدي مادام أن الله سبحانه وتعالى لم يكتب له هداية .

وفي سورة الأنعام ، والله آية عظيمة في هذا الباب وهي قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [الأنعام:١١١] ؛ انظر هذه الأشياء : لو أن الملائكة نزلت ورأوها عياناً ، وخرج لهم الموتى من القبور وقالوا إن هذا الدين حق وإننا أيقنا وتبين لنا أنه الحق، خرج لهم الأموات من القبور وخاطبوهم ونزلت الملائكة من السماء وخاطبوهم ، وحشرنا عليهم كل شيئا قُبلا أي جميع الآيات التي أرادوها وطلبوها جاءت كلها معاينةً لهم وشاهدوها ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله . انظر هذه الآية سبحان الله ما أعظمها في هذا الباب «باب الهداية» ؛ الملائكة لو نزلت من السماء ، والموتى لو خرجوا من القبور ، وحُشر لهم كل شيء قُبلا أي معاينة من الآيات والأمور التي طلبوا أن تنزل لأجل أن يؤمنوا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله . فالهداية لا تقع ولا تكون ولا تحصل لأي أحد إلا إذا شاء الله سبحانه وتعالى . فإذاً هذا من براهين التوحيد العظيمة وشواهده الكبيرة أن الأمر بيد الله ؛ هذا الذي هو غير الله يُطلب منه يلجأ إليه يُسأل ليس بيده شيء من الأمر ولا يملك شيئاً من الأمر .

وإذا قرأنا قصة نزول الآية نرى عجباً في هذا الباب العظيم ، ولنتذكر أن نبينا محمدا عليه الصلاة والسلام هو خير عباد الله وأفضلهم وأعلاهم وأرفعهم جاهاً ومكانةً عند الله سبحانه وتعالى . جاء في سبب نزل الآية الكريمة ما جاء في الصحيح عن ابن المسيِّب ((**لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده عبد الله بن أبي أمية وأبو جهل**)) ؛ عبد الله ابن أبي أمية وأبو جهل مخزوميان من بني مخزوم ، وأيضاً المسيِّب مخزومي ، والظاهر أن المسيِّب كان حاضراً ويروي شيئاً كان حاضرًا ومشاهدًا له ، فكان من الثلاثة الذين حول أبي طالب عندما حضرته الوفاة ؛ المسيب وعبد الله ابن أبي أمية وأبو جهل وكلهم في ذلك الوقت كانوا على غير الإسلام . والمسيِّب أسلم وشهد بيعة الرضوان ، وعبد الله ابن أبي أمية أيضاً أسلم ، وأبو جهل واسمه أبو الحكم لكن النبي صلى الله عليه وسلم سماه أبو جهل ووصفه بأنه فرعون هذه الأمة قُتل يوم بدر على الشرك والكفر بالله سبحانه وتعالى .

يقول المسيِّب : ((**لما حضرت أبا طالب الوفاة**)) ؛ حتى يزداد فهمنا لهذه القصة لنتذكر من هو أبو طالب ؟ وما هي مواقفه مع النبي عليه الصلاة والسلام ؟ وأبو طالب هو عم النبي عليه الصلاة والسلام ، وكفل النبي صلى الله عليه وسلم منذ الثامنة من عمره بعد أن توفي جده عبد المطلب ، وبقي على كفالته ثم رعايته ثم نصرته ثم الذب عنه والمدافعة عنه إلى أن توفي ، حتى إنه قال في أبياتٍ له يُقسم بالله العظيم قال : "والله لن يصلوا إليك بكيدهم أو نحو ذلك حتى أوسَّد في التراب دفينا " ؛ لن يصلوا إليك ولن تمتد يد من أيديهم إليك حتى أوسَّد في التراب ،

بمعنى أنه عقد العقد والعهد على نفسه أن ينصر النبي عليه الصلاة والسلام نصرة دائمة متواصلة إلى أن يموت ، وكان فعلاً عند يمينه التي حلفها . وفي الوقت نفسه كان يعلم – وهذا أيضاً من الأمر العجب في هذا الباب – كان يعلم في قرارة نفسه وصرَّح بذلك بأن دين محمد هو الدين الصحيح ولهذا قال في أبياته:

ولقد علمتُ بأن دين محمدٍ من خير أديان البرية دينا

إذاً لماذا لا تسلم وقد علمت هذا العلم وفهمت هذا الفهم ؟ أجاب بقوله في أبياته :

لولا الملامة أو حذار مسبَّة لرأيتني سمحًا بذاك مبينا

يقول أنا أخشى من شيء واحد فقط : أن أعيَّر ، أن يقال ترك دين آبائه وأجداده ؛ هذه عقدة عند كثير من الناس أن يُسَب بأنه ترك دين الآباء ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾[الزخرف:٢٣] ، فخشي أن يعيَّر وأن يُسَب ويقال ترك دين آبائه وترك دين أجداده . هذه العقدة هي التي كانت تمنعه ، وكم منعت من خلْق عن الدخول في الإسلام ، وكم منعت أيضاً من خلْق عن الانتقال إلى السنة ، تجده مثلاً نشأ على أجداد عندهم بدع وآباء عندهم بدع ، وهو يعرف أنهم على بدع وضلالات لكن لا ينتقل من بدع آبائه وهو يعرف أنها بدع يقول : كيف ؟ وماذا يقال عني ؟ والآباء والأجداد والقرية والمجتمع وكلهم على هذا إلا! أنا أخرج من بينهم وأترك ذلك ؟ فتجد هذه العقدة سبحان الله تلازم كثير من الناس فتمنعه من قبول الحق .

ولهذا إذا قرأت قصص أقوام الأنبياء مع الأنبياء تجد هذه حجة متكررة عبر التاريخ ، أولئك الذين يطوفون حول البيت عراة رجال ونساء ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾[الأعراف:٢٨] ؛ فهي حجة قديمة متكررة عبر التاريخ إلى يومنا هذا ، تجد صاحب الباطل يعرف الحق ويتضح له تماماً بلا شك ولا ريب لكنه لا يقبل الانتقال لأنه لا يريد أن يتخلى عن دين الآباء والأجداد .

فالشاهد أبو طالب يقول : " لولا الملامة أو حِذار مسبة لرأيتني سمحًا بذاك مبينا " يعني لرأيتني دخلت في هذا الدين بسماحة وليونة وإقبال، لكنني أخشى من هذه . وسبحان الله هذه العقدة حتى عند لحظات الموت هي التي اتكأ عليها أبو جهل ومن معه في صدِّه عن قبول الحق الذي كان يدعوه إليه النبي الكريم عليه الصلاة والسلام .

إذاً أبو طالب قام على كفالة النبي ورعايته ونصرته إلى أن توفي ، وكانت وفاته قبل الهجرة بثلاث سنوات ، إذاً كم سنة كان على رعاية النبي عليه الصلاة والسلام ؟ وبعد أن نبئ وأرسل عليه الصلاة والسلام؟ عشر سنوات وهو في نصرة النبي عليه الصلاة والسلام ؛ في وقت شدة الأمر في الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى ، لو حسبتها من بدء الكفالة إلى أن توفي أبو طالب أكثر من أربعين سنة ، والنبي عليه الصلاة والسلام يعرف هذه ؛ عمه ومنذ الصغر ثمان سنوات وهو عنده يرعاه ويحتفي به ويكرمه ويقدِّمه في المجلس ، ثم لما أُرسل وقف معه وقفة عظيمة ، في حصار الشِّعب كان مع النبي عليه الصلاة والسلام ، شيء عجب في مواقفه إلى آخر لحظاته ، والنبي عليه الصلاة

والسلام حريص أشد الحرص على هداية عمه ، لأن تلك المواقف التي قدَّمها مواقف عظيمة جداً وفي قلب النبي عليه الصلاة والسلام لهذا العم محبة طبيعية وليست محبة شرعية ، يحبه لكونه عمه ، لأنه كفله ، لأنه نصره ، لأنه آزره ، لأنه وقف معه ، يحبه محبة طبيعية لكن لا يحبه محبة شرعية لأنه ليس على دين الله تبارك وتعالى . وكان عليه الصلاة والسلام باستمرار حريصاً على عمه ودعوة عمه فلا يستجيب ؛ فجاء صلى الله عليه وسلم في اللحظات الأخيرة – والله موقف من أعظم وأشد ما يكون – جاء في اللحظات الأخيرة لما حضرت أبا طالب الوفاة . ومعنى أن حضرته الوفاة ليس المراد أنه عاين وكان في النزع ، لأن الإيمان في مثل هذا الوقت لا ينفع ، إيمان المعاينة لا ينفع ، لكن لما حضرته الوفاة : يعني بدأت تظهر شيء من أمارات دنو الأجل . فجاء النبي عليه الصلاة والسلام وكان عنده عبد الله بن أبي أمية وأبو جهل وأيضاً الراوي المسيّب ابن حزن كانوا عنده .

((**فقال له النبي عليه الصلاة والسلام : يا عم**)) وانظر أيضاً التلطف في الخطاب والترفق معه .

((**يا عم قل لا إله إلا الله**)) يقول له ذلك النبي عليه الصلاة والسلام وهو حريصٌ أشد الحرص على أن يقولها عمه ، لكن ما يملك عليه الصلاة والسلام شيئاً ، لو كان عليه الصلاة والسلام يملك هداية أحدٍ فهذا الموقف موقف يبرز الحقيقة ويوضحها ، لو كان يملك هداية أحد لكان أولى الناس أن تُمنح له أو يعطيه هذه الهداية عمه الذي أمامه وفي اللحظات الأخيرة ومواقفه معروفة ويقول ((**يا عم قل لا إله إلا الله ، كلمة أحاج لك بها عند الله**)) ، وفي رواية ((أشهد لك بها عند الله)) ، وفي رواية ((أجادل لك بها عند الله)) .

((**قل لا إله إلا الله**)) والمراد بقولها : ما يعلمه عمه ومن حول عمه والمشركون عموماً ، كانوا يفهمون وأهل لسان يعرفون ماذا تعني أن يقول الشخص لا إله إلا الله ، دعك من أناس جاءوا في قرون متأخرة وهم يجهلون اللسان ويجهلون المعاني والدلالات؛ تجد الواحد يقول مرات كثيرة «لا إله إلا الله» وبعد ما يقول «لا إله إلا الله» يمد يديه "مدد يا فلان" ، أولئك القوم يعرفون أن قول «لا إله إلا الله» تعني إبطال الشرك كله ؛ لما قال لهم عليه الصلاة والسلام ((قولوا لا إله إلا الله تفلحوا)) قالوا : ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾[ص:٥] ، وأخذوا يتواصون على عدم التخلي عن عبادة الآلهة ﴿ وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴾[ص:٦] ، وقالوا في تفاخرهم: ﴿ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ﴾[الفرقان:٤٢] . فكانوا يعرفون أن قول «لا إله إلا الله» تعني : إخلاص الدين لله وإفراد الله سبحانه وتعالى بالعبادة والبراءة من الشرك والمشركين ؛ ويدركون ذلك ، لا أن تقال باللسان فقط مع نقضها وهدمها بعبادة القبور والذبح لغير الله وصرف العبادة لغير الله ، أين «لا إله إلا الله» إذا كانت هذه حاله يقولها بلسانه وينقضها بفعاله؟! أي شيء تنفعه لا إله إلا الله إذا كانت هذه حاله ؟

ولهذا الشيخ رحمه الله نبَّه تنبيه هو من أهم التنبيهات في هذا الباب قال : «وهي المسألة الكبيرة ؛ تفسير قول لا إله إلا الله بخلاف ما عليه من يدعي العلم» .

السؤال الذي يطرح نفسه هنا : من أين نأخذ تفسير لا إله إلا الله من هذا الحديث ؟ هل يوجد في هذا الحديث تفسير للا إله لا الله ؟ ومن أين نأخذه من الحديث ؟ لاحظ قال ((يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله فقالا له : أترغب عن ملة عبد المطلب؟)) إذاً ما هو تفسير «لا إله إلا الله» من خلال هذا السياق الذي أمامك الآن ؟ تفسيرها : الرغبة عن ملة الشرك والمشركين وعبادة غير الله، وإخلاص الدين لله سبحانه وتعالى . وهم يعرفون أن «لا إله إلا الله» تعني الرغبة عن ملة عبد المطلب .

فالحديث فيه تفسير «لا إله إلا الله» ، وفيه أن أولئك المشركون الأوَل كانوا يعرفون معنى «لا إله إلا الله» ، ولهذا قال من قال من أهل العلم : قُبحاً لمن كان أبو جهل أعرف منه بمعنى لا إله إلا الله ، أنَّ أبو جهل لما قال النبي عليه الصلاة والسلام لأبي طالب ((قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله)) لما قال له هذه الكلمة قال له أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ إذاً هو يفهم أبو جهل أن لا إله إلا الله تعني أن قائلها رغب عن ملة عبد المطلب وتخلى عنها وتركها إلى الإخلاص والتوحيد والبراءة من الشرك .

((**قالا له أترغب عن ملة عبد المطلب؟**)) اقتصرا على هذه الحجة فقط ؛ وهي ملة الآباء وعدم التخلي عنها ، ولكونها عندهم أعظم حجة ووقْعها في النفوس أعظم وقع اكتفيا بها وجاءا بهذا الأسلوب أسلوب الاستفهام الإنكاري «أترغب عن ملة عبد المطلب؟» ؛ يعني كأنهما يقولان له : تعرف أنت ملة عبد المطلب التي نشأنا عليها وترعرعنا عليها وتعرف مكانة هذه الملة أترغب عنها ؟

((**فأعاد عليه النبي عليه الصلاة والسلام**)) وهو حريصٌ صلى الله عليه وسلم أشد الحرص ((**أعاد عليه فأعادا**)) يعني النبي صلى الله عليه وسلم أعاد عليه ((يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله)) فأعادا عليه أي قولهما «أترغب عن ملة عبد المطلب؟» .

ماذا كان آخر ما قال أبو طالب ؟ وعلى أي شيء مات ؟

قال : ((**فكان آخر ما قال : هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول لا إله إلا الله**)) الراوي غيَّر قوله «أنا» إلى «هو» ؛ لما في هذا اللفظ من قبح وشناعة فغيَّره وقال : قال هو على ملة عبد الطلب ، بينما أبو طالب قال أنا ولم يقل هو ، لكن الراوي لما أراد أن يذكر غيَّر هذه العبارة ؛ وهذا من الأمر المستحسن ؛ كره أن يقول "أنا على ملة عبد المطلب" قال هو على ملة عبد المطلب ، مع أنه يقول حكاية !! وجاء في بعض الروايات في المسند وغيره أن الراوي قال : ((فقال أنا على ملة عبد المطلب وأبى أن يقول لا إله إلا الله)) .

ماذا يكون هذا الموقف وهذا الأمر بالنسبة للنبي عليه الصلاة والسلام ؟ انتهى الأمر الآن ومات عمه أمام ناظريه وهو حريص على هدايته ومات على الكفر ، وقبل أيضاً موته وهو يأبى ذلك وهما عنده وأبى أن يقول لا إله إلا

الله حلف النبي عليه الصلاة والسلام حلفاً بالله وفيه تطييب لخاطر عمه ، حلف بالله ماذا قال ؟ يدلك أيضاً على حرصه الشديد على عمه قال : ((**أما والله لأستغفرن لك ما لم أُنه عن ذلك**)) قالها وعمه يسمع .

يقول ((فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأستغفرن لك)) ؛ اللام هنا لام القسم ، وجاء في بعض الروايات التصريح بالقسم قال ((أما والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك)) .

((**فأنزل الله قوله:** ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى ﴾[التوبة:١١٣])) ؛ جاء النهي والمنع ، فتوقف عليه الصلاة والسلام من الاستغفار لعمه ، نُهي عن ذلك .

((**ثم نزل قول الله بارك وتعالى في أبي طالب:** ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾[القصص:٥٦])) أي : من أحببت هدايته لا تملك له شيئاً من ذلك ما لم يكتب الله سبحانه وتعالى له هداية.

وكان نبينا عليه الصلاة والسلام كثيراً ما يقول : ((مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ)) ،كان يقول ذلك في خطبته خطبة الحاجة المعروفة ، يكرر ذلك باعتبار أن هذا أصل عظيم ينبغي أن يُفهم ؛ ((مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ)) ؛ فالهداية بيد الله سبحانه وتعالى .

قوله ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ أي : أمر الهداية بيد الله . عندما تتأمل آيات المشيئة في القرآن ، تتبعتُها مرة وجدتُ أنها تزيد على الأربعمائة موضع ، أشياء متنوعات تُذكر مربوطة بالمشيئة ؛ مثلا هنا: ﴿ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ ، ﴿ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ ﴾[البقرة:٢١٢] ، ﴿ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ ﴾[آل عمران:٢٦] ، ﴿ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴾[الشورى:٤٩] ، ﴿ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ ﴾[آل عمران:٢٦] ، ﴿ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ﴾[المائدة:١٨] يعني مثل هذا قرابة الأربعمائة موضع ، كل شيء بمشيئة الله هداية ، رزق ، صلاح ، استقامة ، غفران ، رحمة ، جنة ، مُلك ، أي شيء ؛ الأمر كله بمشيئة الله ، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، والشيء الذي تشاءه وتريده أيها العبد ولو حرصت عليه لك أو لغيرك لا يمكن أن يقع إلا إن كان الله شاء ذلك ، وفي هذا يقول الشافعي رحمه الله :

مَا شِئْتَ كَانَ وإنْ لم أشَأْ	وَمَا شِئْتُ إن لَمْ تَشأْ لَمْ يكنْ
خَلقْتَ العِبَادَ على مَا عَلِمْتَ	وَفِي العِلْمِ يَجري الفَتَى وَالْمُسِنْ
عَلَى ذَا مَنَنْتَ ، وَهَذا خَذلْتَ	وهـذا أعنتَ ، وذَا لم تُعِنْ
فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ ، وَمِنْهُمْ سَعِيد	وَمِنْهُمْ قَبِيحٌ ، وَمِنْهُمْ حَسَنْ

أي كل ذلك بالمشيئة ، الأمر بمشيئة الله ، فربنا جلا في علاه له القدرة الشاملة ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[البقرة:٢٠] ، وله المشيئة النافذة فما شاء كان طبقاً لما شاء في الوقت الذي شاء ، لا راد لحكمه ولا معقب لقضائه سبحانه وتعالى .

فهذا كله مما يُكسِب القلب فهماً للتوحيد والإخلاص وقوة الإقبال على الله سبحانه وتعالى .كيف يقبِل قلب الإنسان على مخلوق مثله حي أو ميت فيما لا يملكه لا لنفسه فضلاً أن يملكه لغيره!! فهذا كله من براهين التوحيد وشواهده ودلائله العظيمة ووجوب الإخلاص لله سبحانه وتعالى وأن الواجب على العبد أن يكون عظيم الالتجاء إلى الله عظيم الانكسار بين يدي الله ؛ لا يدعو إلا الله ، لا يسأل إلا الله ، لا يستغيث إلا بالله ، لا يطلب المدد والعون إلا من الله ، لا يصرف شيء من العبادة إلا لله سبحانه وتعالى . فكما أنه تفرد بالخلق والرزق وله سبحانه وتعالى المشيئة النافذة والقدرة الشاملة ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء فالواجب أن يُفرد وحده تبارك وتعالى بالعبادة ، فلا يُصرف شيء منها لغيره .

قال رحمه الله تعالى :

فيه مسائل ؛ الأولى : تفسير { إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ } .

قال رحمه الله تعالى : «**فيه**» أي في هذا الباب مسائل ؛ «**المسألة الأولى : تفسير { إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ }**» وتفسيرها واضح ومعناها بيّن وهو أن الهداية أمرٌ بيد الله ، والمتفضل بها هو الله سبحانه وتعالى ، ولا يملك أحد هداية أحد ، فالهداية أمرها بيد الله ، ولهذا الصحابة كانوا يقولون في رجَزهم

لَوْلاَ اللَّهُ مَا اهْتَدَيْنَا وَلاَ صُمْنَا وَلاَ صَلَّيْنَا

يعني لولا أن الله منَّ علينا بالهداية ما اهتدينا ، والله جل وعلا يقول في القرآن: ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧) فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[الحجرات:٧-٨] ، ويقول جل وعلا: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[النساء:٨٣]، ويقول جل وعلا ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾[النور:٢١] ، وقال جل وعلا لنبيه: ﴿ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴾[الإسراء:٧٤] . فالأمر كله بيد الله سبحانه وتعالى ، ولا مهتدي إلا من هداه الله سبحانه وتعالى ، ولا أيضاً سالماً من الضلال إلا من سلّمه الله جل وعلا .

فإذا قيل كيف نجمع بين قوله تبارك وتعالى ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ وقول الله جل وعلا في وصف نبيه عليه الصلاة والسلام ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى:٥٢] ؟ فوصفه أنه يهدي وهنا نفى عنه

الهداية . القاعدة : أن الشيء إذا أُثبت في القرآن ونُفي فالمثبت غير المنفي ، الهداية المثبتة غير الهداية المنفية ، ما الهداية المنفية في قوله ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ ؟ هداية التوفيق وشرح الصدر لقبول الحق ، هذا أمر بيد الله ، لا يملكه أحد كائناً من كان، أمرٌ بيد الله وحده سبحانه وتعالى ، وكان نبينا عليه الصلاة والسلام يقول : ((يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك)) تقول له أم سلمة : «أَوَإِنَّ الْقُلُوبَ لَتَتَقَلَّبُ؟» قَالَ : ((ما من قلب إلا هو بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلّبه كيف يشاء)) انتبه للمشيئة ((يقلّبه كيف يشاء فإن شاء أقامه وإن شاء أزاغه)) فهداية التوفيق وشرح الصدر لقبول الحق هي بيد الله وحده . أما قوله ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ هذه هداية الدلالة والإرشاد ، تهدي : أي ترشد .

النبي عليه الصلاة والسلام في هذه القصة في ضوء قوله تعالى ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى:٥٢] هدى عمه أو لم يهده ؟ هداه بمعنى دعاه ، لأنك إذا قلت هداه كأنك تقول دعاه ، لأن الهداية هداية إرشاد . فإذا قيل : هل هداه بمعنى أرشده ودعاه ؟ نعم ؛ ((يا عم قل لا إله إلا الله))هذه هداية، يهدى عمه بمعنى يرشد عمه ، لكن هداية التوفيق فيها نزل﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ لا يملك أن يوفق عمه للهداية، ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف:١٠٣] .

هذا الأمر حقيقة مهم فهمه بالنسبة للآباء بالنسبة للأمهات بالنسبة للدعاة والمربين ، ينبغي أن يُفهم هذا الأمر؛ أحيانا بعض الناس إذا بذل شيئاً من الجهد مع أبناءه ومع أولاده أو مع المدعوين ثم لم يجد استجابة يضجر ويتململ أو نحو ذلك !! الهداية ليست لك ، أنت لك مهمة واحدة وهي أن تبين وترشد وتدل ، هذه مهمتك ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ [البقرة:٢٧٢] الهداية ليست لك ؛ هدايتهم بمعنى صلاح قلوبهم وشرح صدورهم للاستقامة هذا ليس لك ، أنت لك مهمة واحدة وهي أن تبين وتدل وترشد هذه مهمتك ، فإذا بيَّنت وأرشدت ووضحت وكتب الله سبحانه وتعالى هدايةً لمن دعوته فهذا من فضل الله عليك كما قال النبي لعلي بن أبي طالب ((لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ)) .

الثانية : تفسير قوله {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ} .

هذه الآية معناها أيضاً واضح ، فيها النهي ؛ نهي النبي عليه الصلاة والسلام ونهي المؤمنين أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى ، يعني ولو كان المشرك أباه أو عمه أو خاله أو أمه أو أياً كان ليس له أن يستغفر له إن كان

مات على الشرك والكفر بالله سبحانه وتعالى ، ففيها النهي عن ذلك. والنبي عليه الصلاة والسلام حلف وعمه يسمع قال : ((أما والله لأستغفرن لك ما لم أُنه عنك)) فنزل قول الله تعالى {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ ...} إلى آخر الآية .

الثالثة – وهي المسألة الكبيرة– : تفسير قوله : ((قل لا إله إلا الله)) بخلاف ما عليه من يدَّعي العلم .

المسألة الكبيرة وهي : تفسير قول «لا إله إلا الله» ، وأن «لا إله إلا الله» تعني : إخلاص الدين لله والبراءة من الشرك والبراءة من أهله . «لا إله إلا الله» قائمة على ركنين : الركن الأول النفي ، والركن الثاني الإثبات ، ولا توحيد إلا بهما . التوحيد نفي وإثبات ، لا توحيد إلا بالنفي والإثبات ، نفيٌ عام للعبودية عن كل من سوى الله ، وإثبات خاص للعبودية بكل معانيها لله وحده ؛ هذا هو التوحيد ، ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ [النساء:٣٦] ، ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء:٢٣] ، ﴿ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ [الزخرف:٢٦-٢٧] . التوحيد نفي وإثبات ، من نفى ولم يثبت لا يكون موحداً ، ومن أثبت ولم ينفِ لا يكون موحداً حتى يثبت وينفي هذا هو التوحيد .

فيقول المسألة الكبيرة تفسير قول لا إله إلا الله مستفاد أن النبي قال لعمه ((قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله)) فقالا له أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ أي أن معناها متقرر عندهم أنها تعني نبذ الشرك وإبطال عبادة غير الله سبحانه وتعالى وإخلاص الدين لله عز وجل ؛ هذا معناها المتقرر عندهم ، وهم هل لسان ويفهمون الخطاب ؛ ففيها تفسير «لا إله إلا الله» .

قال رحمه الله : «بخلاف ما عليه من يدَّعي العلم» ماذا يقول من يدَّعي العلم ؟ يقول : أن من قال «لا إله إلا الله» نطقاً نطق بها وتلفظ وقال أنا مسلم ، حتى لو فعل أشياء تخالف لا إله إلا الله لا تضره في إسلامه ، يقول يعتبر مسلماً وإن كان يعبد غير الله ويسأل غير الله ويذبح لغير الله ويصرف من العبادة ما يصرف لغير الله يكون مسلماً. وأين الإسلام إذا كانت حقيقة «لا إله إلا الله» مفقودة في هذا القائل ؟! وأي فائدة في قول حقيقته مفقودة عند الإنسان ؟! ينطق بلا إله إلا الله وهو لا يحققها !! يكررها وهو لا يحققها!! يقول «لا إله إلا الله» ويعبد غير الله !!

فيقول رحمه الله : «بخلاف ما عليه من يدَّعي العلم» أي من يجعل من يقول لا إله إلا الله مسلماً على أي حال وإن عبَد غير الله ، وإن صرف من العبادة ما صرف لغير الله تبارك وتعالى ، مع أن «لا إله إلا الله» إنما تُقبل بشروطها وقيودها التي جاءت في كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام .

الرابعة : أن أبا جهل ومن معه يعرفون مراد النبي صلى الله عليه وسلم إذا قال للرجل : ((قل لا إله إلا الله)) فقبَّح الله مَن أبو جهل أعلم منه بأصل الإسلام .

الرابعة : أن أبا جهل ومن معه يعرفون مراد النبي عليه الصلاة والسلام إذا قال للرجل : " قل لا إله إلا الله " يعرفون المراد ، يعرفون أن لا إله إلا الله تعني نبذ الآلهة . لما قال لهم ((قولوا لا إله إلا الله تفلحوا)) قالوا : ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص:٥] . فأبو جهل ومن معه يعرفون أن «لا إله إلا الله» تعني : البراءة من كل ما يُعبد سوى الله وإفراد الله سبحانه وتعالى بالعبادة وإخلاص الدين له ، يعرفون ذلك .

فيقول الشيخ معلقاً على هذا : «فقبَّح الله مَن أبو جهل أعلم منه بأصل الإسلام»؛ يعني مَن وصَفَهم قبل قليل بمن يدَّعي العلم من يقول إن الذي يقول «لا إله إلا الله» ويزعم أنه مسلم حتى وإن كان يعبد غير الله ويذبح لغير الله ويسجد لغير الله ، حتى بعضهم يقول حتى لو كان يسب الدين ويسب الله ويسب النبي كل هذه الأمور مادام أنه ينطق بلا إله إلا الله ويدَّعي أنه مسلم ما تكون سبباً في أن يقال عنه أنه ليس بمسلم . فيقول رحمة الله عليه : «فقبح الله من أبو جهل أعلم منه بأصل الإسلام» ماذا يقصد رحمه الله بأصل الإسلام ؟ أصل الإسلام النطق بلا إله إلا الله مع فهم معناها ؛ هذا أصل الإسلام ، أما النطق بلا إله إلا الله دون فهم معناها ما جاء بأصل الإسلام أصلاً ، من ينطق وهو لا يدري ماذا تعني هذه الكلمة لم يأتِ بأصل الإسلام ، أصل الإسلام أن يأتي بلا إله إلا الله مع فهم معناها معتقداً ذلك مؤمنا به مقرًّا .

الخامسة : جِدُّه صلى الله عليه وسلم ومبالغته في إسلام عمه .

وهذا أمر واضح ؛كان عليه الصلاة والسلام حريصاً أشد الحرص على هداية عمه ، وحاول مرات وكرات إلى اللحظات الأخيرة وهو عنده يا عم يا عم يحاول معه ، كان حريصا على ذلك صلوات الله وسلامه عليه أشد الحرص .

السادسة : الرد على من زعم إسلام عبد المطلب وأسلافه .

واضح الرد على ذلك لأن الحديث جاء صريحاً بذلك ؛ أنه مات وهو يقول هو على ملة عبد المطلب وأبى أن يقول لا إله إلا الله ، فمات على غير الإسلام ، والنبي صلى الله عليه وسلم أقسم أن يستغفر له ما لم يُنه عن ذلك، وجاء النهي عن ذلك ، فمات على غير الإسلام والأمر واضح ؛ ففيه الرد على من زعم إسلام عبد المطلب وأسلافه ، لأن أهل الغلو في هذا الباب عندهم مغالاة ومجاوزات ومجازفات فيدَّعون إسلام أبو طالب وإسلام أبي النبي وإسلام أجداده ويفهمون ذلك من بعض النصوص فهماً مغلوطاً ويحمِّلون النص ما لا يحتمل من المعنى

ويتركون الواضحات ، الأدلة الواضحة يتركونها ويتمسكون بأمور مشتبهات . فالحديث فيه الرد على من زعم إسلام عبد المطلب وأسلافه .

السابعة : كونه صلى الله عليه وسلم استغفر له فلم يُغفر له بل نُهي عن ذلك .

السابعة : كونه عليه الصلاة والسلام استغفر له ؛ لأنه قال ((أما والله لأستغفرن لك)) حلف وبدأ يستغفر ، ثم جاءه النهي ، نزل النهي فتوقف عليه الصلاة والسلام . فيقول : «كونه صلى الله عليه وسلم استغفر له فلم يغفر له بل نُهي عن ذلك» نُهي أن يستغفر له ؛ فهذا كله من براهين التوحيد ودلائله وأن النبي عليه الصلاة والسلام ليس له من الأمر شيء .

الثامنة : مضرة أصحاب السوء على الإنسان .

إي والله ما أعظم مضرتهم !! خلطاء السوء وقرناء الشر من أضر ما يكون على الإنسان ، وكم من إنسان هلك ودخل في مهالك عظيمة بسبب قرناء السوء وخلطاء الفساد ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : ((الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلْ)) ؛ المرء على دين خليله : يعني على دين أصحابه وخلطائه ومن يجالس ، فالجليس له مضرة عظيمة جداً على جليسه ، وانظر هؤلاء حول أبي طالب وكلما دعاه النبي عليه الصلاة والسلام أعادا عليه إلى أن مات وهو يقول هو على ملة عبد المطلب .

سبحان الله !! هنا أيضا من آيات الله في باب الهداية يهدي من يشاء ويضل من يشاء ؛ هؤلاء النفر الثلاثة الذين كانوا عند أبي طالب ويعيدان عليه –عبد الله بن أبي أمية وأبو جهل– "بل على ملة عبد المطلب" والمسيب كان حاضراً ولم يكن مسلماً ، انظر كيف أن الله سبحانه وتعالى منَّ على عبد الله بن أبي أمية بالهداية مع أنه كان قبل جالساً عند رأس عم النبي عليه الصلاة والسلام أبا طالب وكلما قال له النبي ((قل لا إله إلا الله)) قال له "على ملة عبد المطلب" ، إلى أن مات عم النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول على ملة عبد المطلب ، ثم يشاء الله ويمن على عبد الله بن أبي أمية بالهداية للإسلام ، ويمن على المسيب بالهداية إلى الإسلام ، وأبو جهل الذي وصفه النبي صلى الله عليه وسلم بفرعون هذه الأمة مات على الكفر والشرك بالله سبحانه وتعالى . فهذه من عجائب باب الهداية؛ هذا الرجل الذي كان جالساً عند عم النبي صلى الله عليه وسلم ويصده ويقول له "بل على ملة عبد المطلب" يشاء الله رب العالمين له الهداية ويهتدي ويدخل في الإسلام –الذي هو عبد الله بن أبي أمية– ، فأمر الهداية لله وبيد الله سبحانه وتعالى .

والآن إذا تفكرت في العالم ؛ نستحضر يا إخوان باب الهداية ، إذا تفكرت في العالم الآن وما فيه من الضلال العريض والكفر ؛ انظر نعمة الله عليك وكن حامداً لربك شاكراً له سبحانه وتعالى ،كيف أنه هداك فصرت

مسلماً صائماً مصلياً ذاكراً تالياً لكتابه ، والله هذه النعم لولا أن الله تفضل ومنَّ ويسَّر لك هذا الأمر ما كان ليحصل شيء من ذلك ، لولا فضل الله عليك ورحمته ، لولا أن الله هو الذي تفضل وشرح صدرك وهداك لما كنت من المهتدين ؛ فاذكر دائما نعمة الله عليك ، اذكر هذه الهداية التي يسَّرها الله لك وأكرمك بها واحمد الله ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ [الأعراف:٤٣] . الأرض تعج بالكفر والضلال والشرك والفساد فهذه الهداية منة ولطف وفضل ومنحة ربانية يتفضل ويعطي ﴿ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [الحديد:٢٩] ؛ فهذا من جهة تذكُر نعمة الله سبحانه وتعالى عليك ، ومن جهة كل حاجاتك وطلباتك وأمورك لا تلجأ فيها إلا إلى الله جل وعلا الذي بيده أزمَّة الأمور ومقاليد السماوات والأرض.

عندما يقال «مضرة أصحاب السوء على الإنسان» ؛ هذا الزمان استجد فيه قرناء سوء لم يكن لهم وجود في الزمن الماضي ، ويخالطهم كثير من الناس بالساعات الطويلة ، يجلس معهم جلسات مطولة وساعات طوال وهو يستمع إليهم ويشاهدهم ويرى أعمالهم ويسمع أقوالهم ويرى حركاتهم ساعات طوال ، وهذا النوع من الجليس الذي وُجد هذا الزمان مضرته من أعظم ما يكون وأشد ما يكون؛ أعني القنوات الفضائية والشبكات التي في الانترنت ، وخاصة المواقع الموبوءة مواقع الشبهات ومواقع الشهوات ، وكيف أن الإنسان إذا أسلم نفسه إلى تلك القنوات وتلك المنافذ منافذ الشر وأخذ يستمع ويشدُّه الزخرفة ووسائل الجذب الذي يضعها أولئك في باب الشهوة عملوا عملاً ما كان وُجد له نظير فيما سبق فيما يتعلق بتصوير النساء وتجميل النساء وإبراز مفاتن النساء ، حتى العورات والفروج وكل المنكرات جمعوها في تلك القنوات بصورة مزرية وقبيحة ومضرة بأشد ما يكون ، وتبقى سبحان الله فتنة التصوير التي جاء تحريمها في الشرع وبيان خطرها فتنة عظيمة على الناس ، وما زال الناس يستهينون بالتصوير ويقلِّلون من شأنه وهم ما يزالون يرون أضراره الجسيمة عليهم في أنفسهم في أهليهم في أولادهم في مصائب كثيرة جاءت بالتصوير هذا المحرم ، وكم من الفتيات بسبب هذا التصوير تشتكي من الابتزاز والتعدي ، وكم من صور التقطت خلسةً للنساء في مجالس خاصة لهن وغير ذلك أمور عظيمة جداً ؛ فهذه القنوات – قنوات الشر – دعك لا نتحدث القنوات التي فيها الخير وفيها الفائدة أو المواقع التي فيها الخير والفائدة ، لكن الشر الكبير وتجد بعض الناس وبعض الشباب يجلس ويفتح قنوات فيها شبهات وقنوات فيها شهوات ويجالسهم بالساعات !! كم يترتب على ذلك من المضرة والشر والفساد؟!

التاسعة : مضرة تعظيم الأسلاف والأكابر .

مضرة تعظيم الأسلاف والأكابر هذه مثل ما وصفت عقدة قديمة لدى كثير من الناس حجَبتهم عن الحق ومنعتهم من الخير ﴿ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف:٢٢] ، هذه على عبر التاريخ تتكرر

سواء عند أهل الشرك أو عند أهل البدع ، حتى أهل البدع إذا نشأ الإنسان في بلد فيه بدع مستشرية ومتفشية ثم بُيِّنت له السنة تجد بعضهم لا يقبل السنة لا لشيء إلا لأنه لا يريد مخالفة ما وجد عليه الآباء والأجداد ، فهذه مثل ما وصف مضرة تعظيم الأسلاف والأكابر ، والمراد : تعظيمهم التعظيم الذي يترتب عليه مثل هذا الشر والفساد ، أما تعظيم بمعرفة قدره ومكانته ومنزلته فهذا لا شيء فيه ، لكن أن يعظمه بأن يقبل كل ما عنده ، أن يعظمه يأخذ ما عنده ولو كان يخالف الحق إلى غير ذلك فهذا هو من أضر ما يكون على الإنسان .

العاشرة : الشبهة للمبطلين في ذلك لاستدلال أبي جهل بذلك .

لأن أبا جهل استدل لعم النبي لما قال له النبي صلى الله عليه وسلم ((قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله)) استدل بقوله : «أترغب عن ملة عبد المطلب ؟» وأتى بهذا الاستفهام الإنكاري مما يدل على أن هذا أمر عظيم ومتقرر عندهم وأنه لا يمكن أن يتخلى عنه الإنسان .

الحادية عشرة : الشاهد لكون الأعمال بالخواتيم لأنه لو قالها لنفعته .

فالأعمال بالخواتيم ، وقد قال عليه الصلاة والسلام ((من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة)) فالأعمال بالخواتيم ، والحديث فيه شاهد واضح لذلك .

الثانية عشرة : التأمل في كِبر هذه الشبهة في قلوب الضالين لأن في القصة أنهم لم يجادلوه إلا بها مع مبالغته صلى الله عليه وسلم وتكريره ، فلأجل عظمتها ووضوحها عندهم اقتصروا عليها .

هذه الشبهة «أترغب عن ملة عبد المطلب» وتعظيم الآباء الأسلاف والأكابر ؛ هذه شبهة هي من أكبر الشبهات التي أضلت القوم عن سواء السبيل ، فهي شبهة كبيرة جداً في قلوب الضالين ، ومن كبر هذه الشبهة وتمكنها من نفوسهم اكتفوا بها ، مع أن النبي عليه الصلاة والسلام بالغ وكرر ((يا عم)) ويعيد عليه و((يا عم)) ويعيد عليه وكانا لا يعيدان إلا هذه الشبهة فقط ، في كل مرة يعيدان «أترغب عن ملة عبد المطلب؟» مما يدل على أنها متمكنة في نفوسهم ومعظمة في صدورهم وهي أكبر الموانع التي منعتهم عن الحق والهدى . وجاء في القرآن في مواضع كثيرة أجوبة مسددة ونافعة وموقِظة لقلوب هؤلاء ؛ مثل قوله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة:١٧٠] ، مثل قوله: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾ [الزخرف:٢٤] ؛ هذه أجوبة مسددة في إبطال هذه الشبهة . إذا وجد الإنسان أباه على شيء وكان أبوه لا يعقل ولا يعلم ولا يهتدي أيُّ مسوغٍ له بأن يقبل ما عليه أباه لا لشيء إلا لأنه وجد عليه أباه ؟! هذه حجة من أوهى الحجج

وأفسدها . ثم إذا كان الإنسان على طريقة وجيء له بطريقة أهدى وأنفع وأبرك وأسدّ وعرف ذلك ثم ردَّها لا لشيء إلا لأنه وجد عليه الآباء! هذا من الحماقة ومن السفه ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾ ، جاءهم النبي عليه الصلاة والسلام بالدين القويم والصراط المستقيم والمحجة الواضحة البينة وامتنعوا من قبولها لا لشيء إلا لعدم الرغبة في ترك ملة الآباء والأجداد .

الشاهد أن هذه الترجمة ترجمة عظيمة جداً وموقظة للقلوب في إصلاح التوحيد والبراءة من الشرك وأن الأمر كله بيد الله تبارك وتعالى ، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، له الأمر من قبل ومن بعد ، وبيده تبارك وتعالى أزمة الأمور ، يهدي من يشاء ويضل من يشاء ، قلوب العباد بين أصبعين من أصابعه سبحانه وتعالى ، من شاء أقامه ومن شاء أزاغه ، له الأمر سبحانه وتعالى من قبل ومن بعد .

سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك .

اللهم صل وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

الدرس العشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد :

يقول شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب أجزل الله له الأجر والثواب في كتابه «التوحيد الذي هو حق الله على العبيد » :

باب ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين

وقول الله عز وجل : { يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ } [النساء:١٧١] .

****

فهذا الباب ((**باب ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين**)) بابٌ من الأبواب العظيمة في هذا الكتاب كتاب التوحيد للإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى ، وفي هذا الباب يبين رحمه الله تعالى بالأدلة من كتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه أن سبب الشرك وسبب وجوده : الغلو في الصالحين .

ومن المعلوم أن الصالحين لهم مكانة في قلوب الناس ، ولهم منزلة عندهم ، ولهم إدراك ومعرفة بقدرهم ، فإذا مات العالِم أو الرجل الصالح كان موته فقيدةً عند الناس ويحسون بذلك ويتألمون لفقده ، وذلك لقرب القلوب ومحبتها للصالحين وإدراكهم لفضلهم . ومحبة الصالحين قربة من القرب ، مما يتقرب به إلى الله سبحانه وتعالى محبة أهل الخير وأهل الفضل وأهل العلم وأهل العبادة ، هذه قربة يثاب عليها المحِب ، و«المرء مع من أحب» ، لكن الشيطان –أعاذنا الله عز وجل جميعاً منه– وجد أن هذه المحبة فيها مدخل له للمغالاة في الصالحين والدخول على الناس من خلال هذه المحبة للصالحين ، فيحاول أن يزيد في هذه المحبة عن حدها وأن يرفعها عن قدرها حتى تصبح غلواً في الصالحين يتحول إلى نوع من الممارسات الشركية والتعلقات الباطلة التي ما أنزل الله تبارك وتعالى بها من سلطان . ولهذا من ينظر في التاريخ وكيف أن الشرك يدخل على الناس يجد أن هذا المدخل هو الغالب والأعم في دخول الشرك على الناس ، بل إن أول شركٍ حصل في بني آدم وفي ذرية آدم عليه الصلاة والسلام بسبب الغلو في الصالحين كما سيأتي بيان ذلك عند المصنف رحمه الله تعالى بالأدلة .

عقد هذه الترجمة رحمه الله تعالى لبيان هذا الأمر؛ «**أن سبب كفر بني آدم**» أي بوقوعهم في الشرك بالله عز وجل وعبادة غيره واتخاذ الأنداد والشركاء مع الله سبحانه ، «**وتركهم دينهم**» الذي هو الإخلاص لله عز وجل وإفراده

وحده عز وجل بالعبادة «**هو الغلو في الصالحين**» ؛ ومعنى الغلو في الصالحين : أي تجاوز الحد في الصالحين قولاً أو اعتقاداً ؛ فمن تجاوز الحد المحدود فيما يتعلق بمحبة الرجل الصالح وموالاته والمعرفة بقدره وفضله ، من تجاوز هذا الحد إلى تعظيمٍ لذلك الرجل الصالح تعظيماً لا يليق بالبشر وإنما يليق بخالقهم وربهم وسيِّدهم ومولاهم سبحانه وتعالى فإن ذلك هو الغلو الذي يكون به صاحبه قد وقع في حمأة الشرك وعبادة غير الله سبحانه وتعالى . قال : ((**بابٌ ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين**)) .

أورد أولاً قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ** ﴾[النساء:١٧١] ؛ وأهل الكتاب المراد بهم: اليهود والنصارى ، والنصارى في باب الغلو أشد من اليهود ، حتى إنَّ من غلوِّهم في الصالحين غلوَّهم في نبي الله عيسى عليه صلوات الله وسلامه حيث ادَّعوا أنه إلهاً أو أنه ابناً للإله وعبدوه من دون الله تبارك وتعالى ، وهو نبي من الأنبياء وواحدٌ من ذرية آدم عليه صلوات الله وسلامه وليس له أي حق أو نصيب من الألوهية وخصائصها ومعانيها ، فهو بشر ومخلوق ومن ذرية آدم عليهما صلوات الله وسلامه ؛ لكنهم غلو في عيسى عليه صلوات الله وسلامه فاعتقدوا أنه إلهاً أو ابناً للإله وعبدوه من دون الله تبارك وتعالى .

فالله عز وجل يقول: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ ﴾ أي لا تتجاوزوا في دينكم الحد الذي شرع الله لكم ونزل به وحيه المبين في الإنجيل والتوراة ، والكتب المنزلة كلها تقرر التوحيد وتدعو إليه وتحذِّر من الشرك وتبين فساده وبطلانه ، فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ ﴾ أي الذي شرعه الله لكم وجاء به وحيه سبحانه وتعالى ؛ فإياكم والغلو في الدين فإنه سبب الهلكة ، وهؤلاء الأمم إنما هلكوا بسبب الغلو ، ولهذا سيأتي معنا في الحديث قول نبينا عليه الصلاة والسلام لهذه الأمة – أمته صلى الله عليه وسلم– ((إياكم والغلو فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين)) .

فالغلو في الدين سبب للهلاك ولابد ، والسلامة من الهلاك تكون بملازمة طريق الاستقامة كما أُمر العبد بذلك دون طغيان وغلوٍ ومجاوزة للحد كما قال الله تعالى: ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾[هود:١١٢] أي الزم طريق الاستقامة كما أمرك الله سبحانه وتعالى بذلك دون تجاوزٍ للحد بزيادةٍ أو مغالاةٍ أو نحو ذلك . فالغلو سببٌ للهلاك والله سبحانه وتعالى حذَّر منه الأمم السابقة ، ونبينا عليه الصلاة والسلام حذَّر منه هذه الأمة وأخبر أن سبب هلاك الأمم قبلنا هو الغلو في دين الله تبارك وتعالى .

قال رحمه الله :

في الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : {وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا}[نوح:٢٣] قال : «هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى

الشيطان إلى قومهم : أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابا وسمُّوها بأسمائهم ، ففعلوا ولم تُعبد ، حتى إذ هلك أولئك ونُسي العلم عُبدت» .

قال ابن القيم رحمه الله : «قال غير واحد من السلف: لما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم» .

****

ثم أورد المصنف رحمه الله تعالى ما جاء في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما في معنى قول الله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ [نوح:٢٣] قال ابن عباس رضي الله عنهما : ((**هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح**)) أي عُرفوا بالصلاح ، عُرفوا بالفضل والنبل والعبادة والعلم، عُرفوا في مجتمعهم بمناصحة الناس ودلالة الناس على الخير ؛ فلما مات هؤلاء الرجال الصالحون من قوم نوح وكان عددهم خمسة رجال وماتوا في وقت متقارب تألم الناس لفقدهم ألماً شديداً . وفقْد الرجل الصالح العالم الفاضل الذي شاع فضله وانتشر ذِكره الحسن الطيب مؤلم للقلوب ويتأثر الناس له تأثراً عظيماً؛ فكيف إذا اجتمع في وقت متقارب وفاة خمسة من المشاهير بالصلاح والعبادة والعلم والفضل والدعوة إلى الخير!!

فلما مات هؤلاء ((**أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسمُّوها بأسمائهم**)) انصبوا أي ضعوا في المجالس التي كانوا يعتادون الجلوس فيها ؛ يعظون الناس ويذكِّرون الناس ويعلِّمون الناس الخير ، ضعوا في تلك المجالس أنصاب أي تماثيل على صورتهم على هيئتهم سمُّوها بأسمائهم تقولون هذا ود وهذا سواع وهذا يغوث وهذا يعوق وهذا نسر ، سموها بأسمائهم لماذا ؟ ما الفكرة ؟ ما المراد من ذلك ؟ قال : من أجل أن تتذكروهم ، كلما جئتم لهذه المجالس ورأيتم تلك الصور مباشرة تتذكرون هؤلاء الأفاضل وأنهم كانوا يأمروننا بالخير ويحثوننا على الصلاح وينهوننا عن المنكر ؛ فتكون رؤية تلك الصور لكم مذكِّرةً لكم بالخير ، ناهيةً لكم عن المنكر ، مذكرةً لكم بفضائل هؤلاء الأشخاص ، لكن يقول لهم : لو أنكم ما وضعتم هذه الصور ستنسونهم وتنسون فضائلهم وتنسون نصائحهم وتنسون مواعظهم ويحصل لكم مضرة بذلك ، لكن أفضل أن تضعوا لهم صور في نفس المجالس التي كانوا يجلسون فيها من أجل الذكرى ؛ كلما مررتم بتلك المجالس تذكرتم هؤلاء الأفاضل الأخيار .

هذه الفكرة عندما ينظر لها كثير من الناس بعيداً عن العواقب التي تأتي فيما بعد والنتائج التي تحصل فيما بعد تُعدّ عند كثير من الناس فكرة حسنة فكرة جميلة ؛ كيف ننسى هؤلاء!! كيف لا نضع لهم صور وتماثيل تذكِّرنا بمآثرهم!! هذا من نسيان الجميل ومن تضييع الإحسان ؛ فلابد أن نضع هذه الصور ونضع هذه التماثيل من أجل أن نتذكر هؤلاء فنتذكر الخير الذي كانوا يدعوننا إليه . فالفكرة من حيث هي لمن قلَّ علْمه وقلَّت بصيرته بدين الله وضعُف نظره إلى العواقب ومآلات الأمور تُعد فكرة جميلة .

فاستحسن القوم الفكرة وأعجبتهم ووضعوا تلك التماثيل ، ترك هذا الجيل لم يتعرض له جاء للجيل الذي بعده أو الأجيال التي بعده ؛ ولهذا الشيطان – أعاذنا الله وإياكم وذرياتنا والمسلمين منه – يضع خطط قد لا تكون مقصوداً بها هذا الجيل الحاضر ، يضع خطط وهو يقصد أن تحصل الثمرة في الجيل الآتي أو الجيل الذي بعده ، وهذا من خطورة هذا العدو وعظَم كيده وخُبثه وطول نفَسه وصبره في الدعوة إلى الشر والكفر وعبادة غير الله سبحانه وتعالى .

فجاء للأجيال التي فيما بعد ولما نُسي العلم وضعُف في الناس جاء للأجيال التي من بعد وقال لهم : هل تعلمون لماذا أجدادكم وآباؤكم وضعوا هذه التماثيل ؟ هل تعلمون لماذا وُضعت هذه التماثيل ؟ كانوا إذا أصيبوا بالقحط لجأوا إليها فأغيثوا ، كانوا إذا احتاجوا سألوها فأُعطوا ، كانوا وكانوا ؛ فأخذ يذكر لهم أشياء ويصوِّر لهم أن آباءهم كانوا بتلك الصفة فعبدوها من دون الله تبارك وتعالى . وزاد الأمر وتمادى وتوغل القوم في عبادتها من دون الله فبعث الله سبحانه وتعالى فيهم نوح يدعوهم إلى عبادة الله وحده وإفراده بالعبادة ويذكر لهم براهين التوحيد ودلائل التوحيد وشواهد التوحيد ، ولكن القوم أصروا على كفرهم وبقوا على شركهم وقالوا: ﴿لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ ، ومكروا في ذلك مكراً كبارا كما أخبر الله عز وجل بذلك ، ونوح عليه الصلاة والسلام مكث في دعوة هؤلاء ألف سنة إلا خمسين عاماً يحاول أن يقتلع هذا الشرك وأن يُبعد هذه الأقوام عن الشرك بالله سبحانه وتعالى فأبوا كل الإيباء، وأصروا على الشرك كل الإصرار ، وما آمن معه إلا قليل .

فهذه القصة التي هي قصة أول شركٍ حصل في البشرية لازالت قصةً متكررة عبر التاريخ في أنواع الشرك التي تحصل؛ يدخل الشيطان على الناس من المدخل نفسه ألا وهو الغلو في الصالحين ؛ فيقول ابن عباس رضي الله عنهما : ((**هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا** – أي ماتوا – **أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابًا وسموها بأسمائهم ففعلوا ولم تُعبد**)) لم تعبد أي : في الجيل الأول ((**حتى إذ هلك** –أي هذا الجيل الأول– **ونُسي العلم عُبدت**)) ؛ إذاً عندما أتى الشيطان للجيل الأول وطلب منهم وضع هذه الصور من أجل الذكرى خطته في أن تُعبد من دون الله تبارك وتعالى مقصوداً بها الأجيال القادمة ، أما هذا الجيل الذي عرف التوحيد وعنده العلم وجد أنه لا سبيل له عليه ، لكنه أراد أن يضع أساساً يبني عليه فيما يتعلق بالأجيال المستقبلة .

هذا يوضح لنا خطورة أمر يقع فيه كثير من الناس في البيوت ؛ بأن يضع أشياء هي من وسائل الشرك فإذا نُصح في ذلك يقول : " يا أخي نحن نفهم ونحن على معرفة بذلك وعندنا دراية بالتوحيد وعندنا معرفة بالأدلة " ، ما يدريك أن الشيطان سوَّل لك أن تضع هذه من أجل ذريتك فيما بعد وأولادك وأولاد أولادك ؟ ما يدريك أنك

برضاك بهذا الأمر قد أسست لشرك في أجيال تأتي فيما بعد ؟ فتجني على أولادك أو أولاد أولادك وذرية تأتي من بعد . فلا يستهين الإنسان بذلك ، لا يستهين بهذا الأمر ، مثل يكون مثلاً في بيتهم عالِم معروف بالفضل معروف بالنبل فيأتي بعضهم ويضع صورة كبيرة جميلة في مكان بارز في البيت ؛ لماذا وضعتَ هذه الصورة ؟ هذا والدنا وهذا معروف بعلمه ومعروف بفضله ومعروف بمكانته نريد أن نذكره ما نريد أن ننساه ، نريد أن نكون على ذكر كلما دخلنا البيت ننظر إلى هذه الصورة نقول هذا الوالد رحمة الله عليه ما ننساه . ما يدريك أنَّ الشيطان له تخطيط في أولادك أو أولاد أولادك أو أجيال بعيدة فيما بعد! وتكون أنت الذي وضعت الأساس ، وهاهي القصة أمامنا واضحة كيف أن الشيطان وضع الأساس في جيل من أجل إفساد أجيال لاحقة والجناية على أجيال لاحقة.

ابن القيم رحمه الله تعالى لخَّص أقاويل للسلف رحمهم الله تعالى في معنى الآية قال : ((**قال غير واحد من السلف: لما ماتوا عكفوا على قبورهم**))؛ العكوف : طول الإقامة والملازمة للمكان والجلوس الطويل فيه ، وهذا يحصل من بعض الناس فيما يتعلق بقبور بعض الصالحين ؛ يذهب ويجلس جلوساً طويلاً عند قبره عاكفاً عند قبره!! ماذا تصنع؟ يقول من حبي له ومكانته في قلبي أريد أن أجلس عنده ، فيجلس الساعة والساعتين والأقل والأكثر عند قبره عاكفاً ، فهذا العكوف هو بحد ذاته عبادة ، العكوف : المكث الطويل بتذلل وخشوع وانكسار قلب ؛ ثم بعد ذلكم تأتي أمورٌ تتبع ذلك من التجاء أو دعاء أو غير ذلكم من الأمور ، والباطل يجر بعضه إلى بعض ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾[الأنبياء:٥٢] ، من عبادة غير الله العكوف ، العكوف عبادة ، العكوف عند التماثيل ، العكوف عند الأنصاب ، الوقوف عند المشاهد إقامةً طويلة ملازمةً للمكان مكثاً ، حتى لو كان الإنسان صامتاً لا يتكلم يطيل المكث في المكان هذا عكوفٌ ، ومر معنا قصة الشجرة التي يقال لها ذات أنواط التي يعكف عندها المشركون ويعلِّقون عليها أسلحتهم ، يعلقون الأسلحة من أجل أن تبارك من هذه الشجرة ، ويعكفون عندها أي يقيمون ويلازمون المكث عند تلك الأشجار من أجل أيضاً أن تنعكس عليهم البركة منها . فيقول ابن القيم رحمه الله : ((**لما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوَّروا تماثيلهم**)) إذاً هذان مدخلان للشرك : اتخاذ التصاوير للصالحين ، والعكوف عند قبورهم . هذا مدخل وهذا مدخل ؛ وهما فتنتان لحصول الشرك على مر العصور، وسيأتي مزيد إيضاح لذلك وتقرير له في الباب الآتي .

قال : ((**ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم**)) طال الزمان فعبدوهم ؛ أي : جاء الشيطان إلى أجيال فيما بعد لما نُسي العلم فأملى لهم عبادة هذه الأصنام فعبدوهم من دون الله .

قال رحمه الله :

وعن عمر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم إنما أنا عبدٌ؛ فقولوا : عبد الله ورسوله» أخرجاه . وقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إياكم والغلو ، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو» . ولمسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «هلك المتنطعون» قالها ثلاثا .

****

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث؛ حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((**لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم**)) ؛ والإطراء : هو المغالاة ومجاوزة الحد في المدح ، والكذب أيضاً في ذلك ؛ بأن يضيف للمدوح من الثناء والمدائح ما ليس له ، ويضيف إليه من الخصائص ما ليس له ؛ هذا يسمى إطراء . فنهى النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك قال : ((لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم)) ؛ أي مثل ما حصل من النصارى من مغالاة في عيسى ابن مريم فلا تفعلوا ذلك ، يحذِّر أمته صلى الله عليه وسلم من أن يصنعوا مثل صنيع أولئك .

((**لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم فإنما أنا عبدٌ**)) أي ليس لي من خصائص الألوهية وخصائص الربوبية أيَّ شيء ، خصائص الله لله ، وحقوق الله لله، أنا عبد لا يجوز أن يضاف لي شيء من خصائص الرب سبحانه وتعالى .

((**لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم فإنما أنا عبدٌ فقولوا : عبد الله ورسوله**)) ؛ اختار لنا عليه الصلاة والسلام أن نلقبه أو أن نصفه بهذين الوصفين : «عبد الله» ، و«رسوله» . وأهل العلم يقولون إن الجمع بين هذين الوصفين فيه الاعتدال والتوسط والسلامة من الغلو والجفاء، لأن في قوله «عبد الله» وصفه بالعبودية ، وهذا فيه اطِّراح الغلو ومجاوزة الحد فيه وأن يضاف له شيء من خصائص الرب أو شيء من حقوق الإله سبحانه وتعالى، فهو عبد فهذا فيه بُعدٌ عن الغلو ، الإقرار بأنه عبد فيه بُعد عن الغلو ، لأن العبد لا يُعبد ، والعبد لا يعطى شيء من خصائص الرب ولا يضاف له شيء من صفات الرب، فهو عبدٌ ، العبد لا يعبد ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [الكهف:١١٠] فإذاً في قوله «عبد الله» سلامة من الغلو .

وفي قوله «ورسوله» سلامة من الجفاء ، لأن الرسول يطاع ويُتبع وتُمتثل أوامره ؛ فبالإيمان بأنه رسول الله صلى الله عليه وسلم سلامة من الجفاء . فإذا جُمع بينهما «عبد الله ورسوله» حصلت الوسطية وحصلت أيضاً السلامة من الغلو والجفاء في الرسول الكريم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه . قال ((فإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله)).

لكن إذا لم يلتزم الإنسان بذلك وقال : "والله إني أحب الرسول وقلبي ممتلئ حب الرسول ، وسأنهال ثناءً على الرسول عليه الصلاة والسلام ومدحاً له ،وماذا يضيرني إذا مدحته والذي دفعني لذلك حبي له !!" نقول : حب

النبي صلى الله عليه وسلم مطلوب وقربة من أعظم القرب إلى الله سبحانه وتعالى ، لكن ليس هناك تلازم بين الحب والغلو ، لأن الحب محمود والغلو مذموم ، فلا يُخلط بين المحمود والمذموم ولا يُمزج بينهما ، بل يجِب النبي عليه الصلاة والسلام باعتدالٍ وتوسطٍ وبُعدٍ عن مجاوزة الحد ويحذر في الوقت نفسه من المغالاة في هذا النبي الكريم عليه الصلاة والسلام . وهذه المحبة لا تكون شافعاً لصاحبها أن يغلو في النبي عليه الصلاة والسلام قولاً أو اعتقاداً كيف شاء ، بل غلوه مردودٌ عليه ، حتى وإن قال الذي دفعني إلى ذلك هو المحبة ، فالمحبة الصادقة للنبي صلى الله عليه وسلم إنما هي في اتباعه والسير على منهاجه القويم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه .

وإذا نظرت فيمن ابتُلوا بها الذي حذَّر منه النبي عليه الصلاة والسلام ونهى عنه ترى عجباً في أحوال الناس ، تمهيداً لذلك أذكر لكم قصة حصلت في زمانه صلوات الله وسلامه عليه : امرأة أنصارية تمدح النبي عليه الصلاة والسلام وهي تحبه صلى الله عليه وسلم وقالت في مدحها له وثناءها عليه : "وفينا رسول الله يعلم ما في غدٍ" ، فغضب عليه الصلاة والسلام وقال : ((لا يعلم ما في غد إلا الله)) ، إذا كان غضب عليه الصلاة والسلام من امرأة قالت "يعلم ما في غدٍ" فكيف لو سمع رجلاً يقول في مدح النبي إنه يعلم ما كان وما سيكون وأنه أحاط بكل شيء علما !! وقد قال ذلك فئات ممن غلو في النبي عليه الصلاة والسلام . وكيف لو سمع قائلاً يقول في مدح النبي عليه الصلاة والسلام : وإن من جودك الدنيا وضرتها وإن من علومك علم اللوح والقلم

و«مِن» تأتي للتبعيض ، إذا كان غضب من امرأة قالت "يعلم في غد" ، ولما فُقِد عقد عائشة رضي الله عنها وأرضاها وكان تحت الناقة وأخذوا يبحثون عنه ما كان عليه الصلاة والسلام يعلم الغيب ، وإلا لقال لهم تجدونه تحت الناقة!! صلوات الله وسلامه وبركاته عليه ما كان يعلم ، ويوم القيامة يقال له : ((إنك لا تدري ماذا أحدثوا بعدك)) ما كان يعلم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه . والقصص في ذلك في سنته صلى الله عليه وسلم كثيرة جداً ، وأمَرَه الله سبحانه وتعالى في القرآن أن يقول ﴿ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ ﴾[الأنعام:٥٠] ومع ذلك يأتي من يأتي ويغلو في مدحه وإطرائه فيصفه عليه الصلاة والسلام بأنه يعلم الغيب !! فليكن منا على بال قول نبينا عليه الصلاة والسلام ((لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم فإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله)) .

قال : ((**وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إياكم والغلو ، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو»**)) متى قال ذلك عليه الصلاة والسلام ؟ لما التقط له ابن عباس سبع حصيات من أجل رمي جمرة العقبة وصفهن بأنهن مثل حصى الخذف ، وحصاة الخذف : هي التي توضع على الإبهام وتُدفع بالسبابة ، حصاة صغيرة وحجمها مثل ما قال أهل العلم قريبة من حبة الفول . قال ((مثل حصى الخذف)) فوضع تلك الحصيات بيده وقال : ((بمثل هذا فارموا)) ويُري الناس ((بمثل هذا فارموا ، وإياكم والغلو فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو)) ؛ السبب خاص واللفظ عام ، السبب يتعلق برمي الجمرة ، لكن انظر إلى واقع الناس في هذا السبب الخاص رمي الجمار ؛ هل كل الناس عندما يرمون جمرة العقبة يرمونها بحصاة مثل حصى الخذف ؟ انظر إليهم عند الجمرة هل يرمونها بحصاة مثل

حصى الخذف والنبي صلى الله عليه وسلم قال ((بمثل هذا فارموا)) هل يرمونها بحصاة مثل حصى الخذف ؟ انظر بماذا يرمون ؟ تجد عدداً من الناس يرمي بأحجار كبيرة ، يرمي بالحذاء الذي في قدمه ، يرمي بقطعة من الخشب ، بزجاجة بعلبة من العلب!! والنبي صلى الله عليه وسلم قال ((بمثل هذا فراموا)) ، فتجد غلو في الرمي برمي بأشياء مجاوِزة للحد وتجد أيضاً تفريط في الرمي في بعض الناس من يفرط ويترك الرمي ويتهاون فيه ، بين غلو وجفاء وتوسط واعتدال .

قال : ((بمثل هذا فارموا وإياكم والغلو)) يعني سواء في هذا الأمر المخصوص أو في كل أمرٍ من أمور الدين ((إياكم والغلو)) أي احذروه أشد الحذر ((**فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين**)) والغلو كما تقدم معنا مجاوزة الحد .

((**ولمسلم عن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال**: « **هلك المتنطعون** » **قالها ثلاثاً**)) محذرا صلوات الله وسلامه عليه . والمتنطع : هو المتشدد في غير موضع الشدة مغالاةً وتجاوزاً للحد ، فحذَّر من ذلك صلوات الله وسلامه عليه وأخبر أن التنطع في الدين سببٌ لهلاك صاحبه ، وقال عليه الصلاة والسلام: ((إِنَّ هَذَا الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا)) .

قال رحمه الله :

فيه مسائل ؛ الأولى : أنَّ مَن فهم هذا الباب وبابين بعده تبين له غربة الإسلام ورأى من قدرة الله وتقليبه للقلوب العجب .

المسألة الأولى : أنَّ من فهم هذا الباب وبابين بعده –أي لهما تعلق بالموضوع نفسه– تبين له غربة الإسلام ؛ لأنه سيرى أن هذه الأسباب التي جاء ذكرها في القرآن وفي سنة النبي صلى الله عليه وسلم سبباً لوقوع الشرك يجد أنها تتكرر عند الناس وتوجد بينهم ، وأن المدخل نفسه يدخل على الناس ولا يزال يدخل عليهم ، فمَن فهم هذا الباب وبابين بعده تبين له غربة الإسلام ورأى من قدرة الله وتقليبه للقلوب العجب ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام:١١٠] ، والقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلِّبها كيف يشاء ؛ وهذا يجعل الإنسان يخاف على نفسه ، يخاف على عقيدته ، يخاف على إيمانه من الأمور التي تقلِب العقائد وتفسد الأديان ، فعليه في هذا المقام أن يلجأ إلى الله سبحانه وتعالى أن يثبته على الحق والهدى ، وأن يأخذ بالأسباب النافعة للثبات على الحق ، وأن يحذر من الأسباب التي تفضي إلى الهلكة .

الثانية : معرفة أول شركٍ حدث في الأرض أنه كان بشبهة الصالحين .

معرفة أول شرك حدث على وجه الأرض أنه بشبهة أي بسبب شبهة محبة الصالحين وتعظيم الصالحين ، مثل ما مر معنا في قصة أولئك الخمسة الرجال الصالحين من قوم نوح .

الثالثة : أول شيء غُيِّر به دين الأنبياء وما سبب ذلك مع معرفة أن الله أرسلهم .

دين الأنبياء التوحيد ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل:٣٦] ، فيقول : معرفة أول شيء غُيِّر به دين الأنبياء الذي هو توحيد الله؛ كيف غُير هذا التوحيد؟ عرفنا أن الشيطان دخل على الناس من خلال الغلو في الصالحين باتخاذ الصور لهم وبناء البنايات العالية على قبورهم وتشييدها حتى أوصلهم من خلال ذلك إلى عبادتها من دون الله تبارك وتعالى .

الرابعة : قبول البدع مع كون الشرائع والفطَر تردُّها .

قبول البدع مثل ما حصل من أولئك القوم لما قال لهم : ضعوا صور للذكرى تذكركم بهؤلاء ، وتذكركم بعبادة الله ، تذكركم بالخوف من الله ، تذكركم بهؤلاء الأشخاص فتدعون الله ؛ هذا الصنيع ماذا يسمى ؟ وضْع صورة للصالح من أجل أن يذكِّر بالله ويذكر بعبادة الله ؟ بدعة في دين الله ، ليس في شرع الله ما يدل على جواز وضع صورة للصالح من أجل أن يذكِّر الناس بالله تبارك وتعالى ، فهذا العمل بدعة .

فيقول الشيخ : «قبول البدع مع كون الشرائع والفطر تردُّها» ؛ الشرائع جاءت برد البدع ونهي الناس من أن يعبدوا الله بشيء لم ينزل به دليل ولم ينزل به إذن من الله ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ﴾ [الشورى:٢١] ، والفطَر كذلك السليمة ترد ذلك وتأباه .

الخامسة : أن سبب ذلك كله مزج الحق بالباطل ؛ فالأول : محبة الصالحين . والثاني : فعل أناس من أهل العلم والدين شيئاً أرادوا به خيرا ، فظن من بعدهم أنهم أرادوا به غيره .

الخامسة : أن سبب ذلك مزج الحق بالباطل؛ وهذا مكمن الخطورة ، وكثير من الناس يدخل عليه الباطل لكونه مُزج بحق ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ ﴾ [البقرة:٤٢] ، فيُلبَس الحق بالباطل من أجل أن ينفُق الباطل ويكون له قبول ، لأنه لو جيء بالباطل خالصاً ليس معه شيء من الحق لردَّه الناس ولم يقبلوه ، لكن إذا مُزج معه شيء من الحق قبِله الناس الجهال لما فيه من حق ، مثل ما يعبَّر "يدس السُّم في الدسم أو في العسل" ، فهذا المزج هو الذي يورِّط الناس ويوقعهم في الباطل .

يقول الشيخ : «**فأما الأول الذي هو الحق : محبة الصالحين**» انتبه لكلامه يقول أما الأول الذي هو الحق محبة الصالحين . الشيخ رحمه الله تعالى يحب الصالحين ويدعوا إلى محبة الصالحين ويقرر أن محبة الصالحين حق ، خلافًا للخصوم الذين يلمزون أهل الحق بأنهم لا يحبون الصالحين ، لماذا يقولون عنهم لا يحبون الصالحين ؟ لأنهم ينهون عن عبادة الصالحين وعن الغلو في الصالحين ، والذي يغلو في الصالحين قد امتزج عنده الأمر واعتبر أن الغلو فيهم جزء من محبتهم ، فمن نهاه عن الغلو فيهم اعتبره ناهياً عن محبتهم ؛ وهذا سبب البلاء في هذه المسألة .

يقول «**وأما الثاني : فعل أناس من أهل العلم والدين شيئاً أرادوا به خيراً فظن من بعدهم أنهم أرادوا به غيره**» هنا في هذه القصة ما الذي فعله هؤلاء وأرادوا به خيراً ؟ وضعوا تلك الصور بوحيٍ من الشيطان من أجل أمر هو خير ؛ أن يذكروا هؤلاء وأن يذكروا نصحهم وأن يذكروا دعوتهم وأن يذكروا وعظهم وتعليمهم ، فيقول «فِعل أناس من أهل العلم والدين شيئاً أرادوا به خيراً فظن من بعدهم أنهم أرادوا به غيره» ؛ جاء الشيطان للأجيال التي بعد وقال : إنما وُضعت تلك الصور من أجل الاستشفاع بها ودعاءها والاستسقاء بها إلى غير ذلك .

السادسة : تفسير الآية التي في سورة نوح .

أي قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ ﴾ إلى آخر الآية ، وقد مر معنا شيء من الكلام على معناها .

السابعة : جبلة الآدمي في كون الحق ينقص في قلبه والباطل يزيد .

لكثرة الأمور التي تجرف الإنسان ؛ الدنيا وفتنها ، والشيطان ، والنفس الأمارة بالسوء ، وغير ذلك من أنواع الفتن ، ولهذا قيل : " ليس العجب ممن هلك كيف هلك ، ولكن العجب ممن نجا كيف نجا " ، فجبلة الآدمي في كون الحق ينقص في قلبه والباطل يزيد ؛ إلا من حفظه الله سبحانه وتعالى وثبته وزاده هدى .

الثامنة : أن فيها شاهداً لما نُقل عن السلف أن البدع سبب الكفر . "

السلف يُنقل عنهم كثيرا أن البدعة سبب للكفر ويقولون أيضا البدعة بريد الكفر لأنها توصل إليه وتفضي إليه ، فانظر شاهد ذلك في القصة المتقدمة ؛ بدعة التصاوير من أجل تذكير الناس بالصالحين وفضائلهم ودعوتهم إلى الله كيف أن هذه البدعة جرَّت فيما بعد إلى الكفر بعبادة هذه الصور والتماثيل من دون الله سبحانه وتعالى .

التاسعة : معرفة الشيطان بما تؤول إليه البدعة ولو حسُن قصد الفاعل .

لاحظ أن الشيطان لم يقف مع حُسن قصد الجيل الأول ، لأنه يريد الجيل القادم ، مع أن حسن القصد لا يريده الشيطان لكنه أغضى عنه من أجل الأجيال القادمة ، فالشيطان يعرف بما تؤول إليه البدعة ، وأن البدعة تجر الناس إلى الكفر والشرك بالله سبحانه وتعالى .

العاشرة : معرفة القاعدة الكلية وهي النهي عن الغلو ومعرفة ما يؤول إليه .

«معرفة القاعدة الكلية وهي النهي عن الغلو» مرت معنا في الآية ﴿ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ ﴾ ، وفي الحديث « **إياكم والغلو** » ، «ومعرفة ما يؤول إليه» أي : ما يؤول إليه الغلو في الدين من إهلاكٍ لصاحبه بإيقاعه في الكفر والشرك بالله سبحانه وتعالى .

الحادية عشرة : مضرة العكوف على القبر لأجل عمل صالح .

كما مر معنا نقل ابن القيم عن غير واحد من السلف قال : ((لما ماتوا عكفوا على قبورهم)) ، يقول مضرة العكوف على القبر لأجل عمل صالح ، والعكوف: هو المكث الطويل وملازمة البقاء في المكان مدة من الوقت . قال : من أجل عمل صالح ؛ فانظر كيف يتدرج الشيطان بالناس لإيقاعهم في التعلق بالقبور دعاءً ومناجاة يبدأ أول ما يبدأ بالعكوف عند القبور لأجل عمل صالح ثم ينتقل من ذلك إلى ما وراءه من عبادة واستنجاد بالمقبورين وسؤال لهم من دون الله تبارك وتعالى .

الثانية عشرة : معرفة النهي عن التماثيل والحكمة في إزالتها .

معرفة النهي عن التماثيل ؛ الشريعة جاءت بالنهي عن اتخاذ التماثيل وهي الصور للصالحين والأنصاب التي على أشكالهم وهيئاتهم من أجل تذكُّرهم ، فالشريعة جاءت بالنهي عن ذلك والحكمة في إزالتها ، ما حكمة الشريعة في إزالتها ؟ لئلا يفضي ذلك بالناس ولو بالأجيال القادمة إلى عبادتها من دون الله سبحانه وتعالى .

الثالثة عشرة : معرفة عظم شأن هذه القصة وشدة الحاجة إليها مع الغفلة عنها .

القصة أي قصة قوم نوح وكيف أنهم عبدوا غير الله سبحانه وتعالى بسبب الغلو في الصالحين؛ باتخاذ الصور لهم ، والعكوف عند قبورهم .

الرابعة عشرة وهي أعجب وأعجب : قراءتهم إياها في كتب التفسير والحديث ومعرفتهم بمعنى الكلام ، وكون الله حال بينهم وبين قلوبهم حتى اعتقدوا أن فعل قوم نوح هو أفضل العبادات ، واعتقدوا أن ما نهى الله ورسوله عنه هو الكفر المبيح للدم والمال .

وهذا أمر عجيب للغاية كما ذكر رحمه الله تعالى : أنه يوجد في الناس من يقرأ هذه الآية في سورة نوح ويحفظها عن ظهر قلب وقرأ شيئاً من كتب التفسير في بيان معانيها ووقف على أحاديث في هذا المعنى ؛ النهي عن الغلو ، النهي عن الإطراء ، النهي عن التنطع ، لكنه في واقعه العملي يعمل بخلاف ما تدل عليه هذه الآيات!! في واقعه العملي يقع في قضية العكوف عند قبور الصالحين ، يقع فيما نُهي عنه من اتخاذ الصور مثلاً لهم ، يقع في شيء من هذه الأسباب التي تفضي بصاحبها إلى الإشراك بالله سبحانه وتعالى . فيقول الشيخ : «وهي أعجب وأعجب؛ قراءتهم إياها في كتب التفسير والحديث ومعرفتهم بمعنى الكلام ، وكون الله حال بينهم وبين قلوبهم حتى اعتقدوا أن فعل قوم نوح هو أفضل العبادات» من حيث أن واقعهم العملي يمارسون الممارسة نفسها التي أفضت بأولئك إلى الوقوع في عبادة الصالحين من دون الله . وأيضا في الوقت نفسه اعتقدوا أن ما نهى الله ورسوله عنه فهو الكفر المبيح للدم والمال ، ولهذا من ينهاهم عن ذلك يسخطون عليه ويرون أنه قد نهاهم عن شيء من الدين الذي شرعه الله أو الدين الذي أمر الله سبحانه وتعالى به .

الخامسة عشرة : التصريح بأنهم لم يريدوا إلا الشفاعة .

لأنه قال الشيطان لأولئك -يعني الأجيال القادمة التي جاءت بعد- قال : إن آباءكم وأجدادكم كانوا إذا سألوا بها أعطوا ، وأنهم كانوا يستشفعون بها ويستمطرون بها ويستنزلون بها الخير ؛ ففيه التصريح أنهم لم يريدوا إلا الشفاعة .

السادسة عشرة : ظنهم أن العلماء الذين صوَّروا الصور أرادوا ذلك .

أي أرادوا أن تُعبد وأن يستشفع بها وأن يستغاث بها ؛ ظنوا ذلك ، مع أن العلماء الذين وضعوا الصور لأيِّ شيء وضعوها ؟ وضعوها من أجل تذكر هؤلاء الصالحين وتذكر فضائلهم ، ما وضعوها إلا لأجل ذلك ، فيقول : ظنهم أي الأجيال التي جاءت فيما بعد أن العلماء الذين صوروا الصور أرادوا ذلك .

السابعة عشرة : البيان العظيم في قوله : «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم» ؛ فصلوات الله وسلامه على من بلّغ البلاغ المبين .

نعم بيَّن عليه الصلاة والسلام بياناً عظيماً ونصح أمته عليه الصلاة والسلام نصحاً بالغاً ، ما ترك خيرا إلا دل الأمة عليه ولا شراً إلا حذرها منه ، ولما كان الإطراء باب شر على الأمة نهى عنه وقال «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم فإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله» .

الثامنة عشرة : نصيحته إيانا بهلاك المتنطعين .

في الحديث الذي مر معنا عنه صلوات الله وسلامه عليه أنه قال : ((هلك المتنطعون)) وكرر ذلك ثلاثاً ، والتنطع: هو التشدد والتعمق في غير موضع الشدة .

التاسعة عشرة : التصريح بأنها لم تُعبد حتى نُسي العلم ، ففيها بيان معرفة قدر وجوده ومضرة فقْده .

قال رحمه الله تعالى : «التصريح بأنها لم تُعبد حتى نُسي العلم »كما جاء في أثر ابن عباس رضي الله عنهما قال ((حتى إذا هلك أولئك ونُسي العلم عُبدت)) . يقول رحمه الله : في ذلك من الفائدة معرفة قدر وجود العلم ، وأن وجود العلم يقي أهله بإذن الله تبارك وتعالى الزلل والعثرة . ومضرة فقْده ؛ لأن الناس إذا فقدوا العلم دخل عليهم الضلال ووقعوا في الانحراف والباطل .

العشرون : أن سبب فقْد العلم موت العلماء .

لأن النبي عليه الصلاة والسلام قال : ((إِنَّ اللَّهَ لاَ يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ العِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ العِلْمَ بِقَبْضِ العُلَمَاءِ)) ؛ ففقْد العلم بفقْد أهله وحملته .

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك
اللهم صلِّ وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .



شرح كتاب التوحيد

لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه اللّه

من الدرس ٢١ إلى الدرس ٢٤

شرح الشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظهما اللّه تعالى

١٤٤٠/٠٣/٢٩ هـ

الدرس الواحد والعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد :

فيقول الإمام المجدد محمد ابن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتاب التوحيد :

بابٌ ما جاء في التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح ؛ فكيف إذا عبده!!

في الصحيح عن عائشة رضي الله عنها أن أم سلمة ذكرت لرسول الله صلى الله عليه وسلم كنيسة رأتها بأرض الحبشة وما فيها من الصور فقال : « أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجدا وصوَّروا فيه تلك الصور ، أولئكِ شرار الخلق عند الله » . فهؤلاء جمعوا بين فتنتين : فتنة القبور ، وفتنة التماثيل .

****

هذه الترجمة ((**بابٌ ما جاء في التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح فكيف إذا عبده**))

((**ما جاء**)) : أي في الأدلة ، أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد ساق المصنف الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله جملةً من الأحاديث الواردة في هذا الباب والدالة على هذا المعنى .

وقوله ((**من التغليظ**)) أي ما ذُكر في هذه الأحاديث مما يدل على غلَظ وعظم هذا الجرم ، وأن النصوص التي وردت مشتملةً على الوعيد في فعل هذا الأمر تدل على غلَظه وأنه جرم عظيم ؛ ولهذا سيأتي معنا ذكر اللعن وذكر أنهم شرار الخلق عند الله تبارك وتعالى ، إلى غير ذلكم مما يدل على غلظ هذه الفَعلة وأنها جرمٌ عظيم ، والعقوبة والتهديد الذي جاء فيه تهديد مغلَّظ ووعيد عظيم .

قال: ((**فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح**)) ؛ من عبَد الله أي مخلصاً بالعبادة لم يبتغ بعبادته إلا الله ، لم يقصد التوجه لغير الله كالمقبور أو نحو ذلك ، وإنما توجه وقصد بعبادته وجه الله مخلصاً لله ، لكنه تحرى العبادة وتحرى فعل العبادة عند القبر التماساً للبركة مثلا ، أو زعماً لعظم الأجر وكبر المثوبة مثلا ، أو لغير ذلكم من الأغراض .

قال ((**فكيف إذا عبده!**)) أي إذا كانت النصوص جاءت بالوعيد الشديد والتهديد العظيم لمن عبد الله مخلصاً عند القبر فكيف بمن ذهب إلى القبر ليعبد القبر أو يعبد المقبور ؟! أي أنَّ الأمر أعظم ، فهو من الشرك بالله الناقل من الملة وما قبله من الوسائل المفضية إليه .

وهذه الترجمة ترجمةٌ عظيمة عقدها رحمه الله تعالى نصحاً للأمة وتحذيراً من هذا الذنب العظيم الذي جاءت النصوص النبوية كثيرةً في التحذير منه والنهي عنه وبيان عظم هذا الجرم وغلَظه . وأيضاً هذه الترجمة هي من كمال نصح النبي صلوات الله وسلامه عليه لأمته وحرصه عليهم ؛ فإنه لما نهى الأمة عن الشرك وحذَّرها منه سدَّ كل الوسائل وأغلق جميع المنافذ التي تفضي إلى الشرك وتؤدي إليه ، وهذا من كمال نصحه وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨] ؛ فهذا من كمال نصحه وتمام حرصه أنه سدَّ المنافذ وأغلق الوسائل والسبُل التي تفضي بالناس إلى الشرك ، فكل وسيلة تفضي بصاحبها إلى الإشراك بالله سبحانه وتعالى جاءت الأحاديث النبوية بإغلاقها وسدِّها ؛ حمايةً لحمى التوحيد وصيانةً له ، وإبعاداً للناس عن الشرك وعن وسائله وأسبابه المفضية إليه .

قال رحمه الله تعالى: ((**بابٌ ما جاء من التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح فكيف إذا عبده!**)) قوله رحمه الله «**فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح**» أي يذهب إلى قبر الرجل الصالح ليصلي عند القبر ، يتحرى العبادة عند القبر ؛ التماساً للبركة أو اعتقاداً أن هذا أفضل وأعظم مثوبة أو أقرب إلى الله سبحانه وتعالى أو غير ذلك .

((من عبد الله عند قبر رجل صالح))؛ ومن المعلوم ما في القلوب من المحبة للصالحين وما لهم من مكانة في نفوس المؤمنين ، وهذه المكانة والمحبة إذا لم تُضبط بضوابط الشرع جرَّت أصحابها إلى الغلو والاعتقاد في أولئك واتخاذهم وسائط ، وربما ينتقل الأمر مثل ما حصل في أمم قبلنا وفي أيضا هذه الأمة اتخاذهم شركاء مع الله يدعَون ويُعبدون ويستغاث بهم ويُذبح لهم ويُنذر لهم ويُصرف لهم من العبادات ما هو حق الله تبارك وتعالى ، بل آل الأمر إلى أن بعض الناس إذا كان عند القبر يحصل له من الخشوع والخضوع والذل وغير ذلكم من معاني العبودية ما لا يحصل منه حال وقوفه بين يدي الله في صلاته ومناجاته لربه سبحانه وتعالى ، فالأمر خطيرٌ جداً وهذا الإمام المصلح رحمه الله تعالى عقد هذه الترجمة وعقد أيضاً نظائر لها حول هذا المعنى ، كل ذلكم من جميل نصحه وجميل حرصه رحمه الله تعالى على تجلية هذا الأمر وإزالة ما يكون لدى بعض الناس من غبش أو شُبَه جرفتهم عن الجادة السوية وعن صراط الله تبارك وتعالى المستقيم .

أورد أولًا حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في الصحيح ((**أن أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنها ذكرت لرسول الله صلى الله عليه وسلم كنيسةً رأتها بأرض الحبشة**)) عندما هاجرت مع من هاجر إلى الحبشة وكانت مع زوجها أبي سلمة ، فذكرت كنيسة رأتها بأرض الحبشة وما فيها من الصور ، وجاء أيضاً في بعض الروايات ما فيها من صور وزينة وأشياء من التحسين ونحو ذلك، فذكرت له ما رأت فيها من الصور .

فقال عليه الصلاة والسلام : ((**أولئكِ**)) بكسر الكاف ؛ لأن المخاطب مؤنث وهي أم سلمة رضي الله عنها .

قال ((**أولئكِ إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجدا وصوَّروا فيه تلك الصور**))
إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح سواءً كان نبيًا ، أو كان من الأولياء ، من يعتقدون فيه أنه من أولياء الله ومن المعتنين بالعبادة صلاةً وصياماً ودعوة إلى الله تبارك وتعالى فأصبح له مكانة في النفوس ومنزلة في القلوب، فكانوا إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً وصوَّروا فيه تلك الصور ؛ يفعلون أمرين :

- الأمر الأول : أنهم يبنون على قبره مسجدًا ؛ أي يبنون على قبره بناية عالية رفيعة وأيضاً يحفها ما يحفها من زخرفة ووضع السُّرج ووضع السُّتر وغير ذلك من الأمور التي تأخذ بألباب الجهال وقلوب الغافلين وتسلب عقولهم وأفكارهم وتشدهم وتجرهم تلك الزينة وتلك البنايات وتلك الزخرفة إلى تعلقٍ باطل .
- والأمر الثاني الذي يفعلونه : اتخاذ صور لأولئك ؛ وكانت البداية لهذا الأمر كما علِمنا بوحي من الشيطان ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ﴾ [الأنعام:١٢١] ، فكانت البداية بوحي من الشيطان أوقع الناس من خلاله في هذه الفتنة والتعلق بالقبور ، وعرفنا ذلك فيما سبق في قصة ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر ، وأن هؤلاء رجال صالحين من قوم نوح وأنهم لما ماتوا جاء الشيطان وقال لهم : صوِّروا لهم صور على هيئاتهم حتى إذا رأيتم تلك الصور تذكرتم أولئك وتذكرتم مناقبهم وفضائلهم ومحاسنهم ، حتى مات ذلك الجيل فجاء إلى من بعدهم ودعاهم إلى عبادتهم من دون الله تبارك وتعالى . ولا زالت هذه الفتنة ؛ فتنة التصاوير وفتنة البناء على القبور ، هي الفتنة التي يدخل منها الشيطان إلى الناس لإيقاعهم في عبادة المقبورين من دون الله تبارك وتعالى .

فقال النبي عليه الصلاة والسلام : ((**أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجدًا وصوروا فيه تلك الصور**)) أي يفعلون أمرين : البناء على القبر ، يبنون عليه مسجدا أي بناءً يُتخذ مكاناً للعبادة سواء سمي معبداً أو سمي كنيسةً أو سمي أي اسم ، العبرة بالمعاني وليس بالأسماء ، أيَّ اسم سموه فإذا بنوا عليه مكاناً من أجل التعبد فقد جعلوه مسجداً واتخذوه مسجداً .

((**بنوا على قبره مسجدا وصوَّروا فيه تلك الصور**)) أي صور أولئك المقبورين فتكون البناية علامة عليهم ، وتكون الصورة أيضاً تذكيراً بهم ثم تقع الفتنة فيُعبَدون من دون الله تبارك وتعالى .

قال عليه الصلاة والسلام : ((**أولئكِ شرار الخلق عند الله**))؛ وتأمل هذا التغليظ في ذكر حال هؤلاء الذين يفعلون هذا الأمر ((أولئكِ شرار الخلق عند الله)) مما يدل على عظم الجرم وكِبر الذنب الذي فعله هؤلاء فأصبح وصفهم الملازم لهم بفعلتهم هذه أنهم شرار الخلق عند الله تبارك وتعالى ؛ مما يدل على أنه جرم عظيم وذنب كبير استحقوا به هذا اللقب أو هذا الوصف .

قال رحمه الله : ((**فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين : فتنة القبور، وفتنة التماثيل**)) ؛ وهذه الكلمة منقولة عن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في بعض كتبه في التعليق على هذا الحديث .

قال: ((فجمعوا بين الفتنتين: فتنة القبور وفتنة التماثيل)) ما معنى فتنتين ؟ أي : اللتين توقعان من فعلهما واتخذهما في الشرك بالله ، لأنها تفتن من فعل ذلك أو اتخذ ذلك تفتنه فيقع في الشرك بالله وعبادة هؤلاء من دون الله .

قال ((**فوقعوا في الفتنتين**)) الأولى : فتنة القبور من حيث البناء الرفيع العالي عليها ، والفتنة الثانية : فتنة التصاوير سواءً جُعلت تلك التصاوير على القبور أو قريبة منها أو في مكان آخر ، فإنها أياً كان فتنة تجر إلى التعلق بها . وجاء تحذير النبي عليه الصلاة والسلام من هاتين الفتنتين في أكثر من حديث وسيأتي بعضها عند المصنف رحمه الله تعالى .

قال رحمه الله :

ولهما عنها رضي الله عنها قالت : لما نُزِل برسول الله صلى الله عليه وسلم طفق يطرِح خميصةً له على وجهه، فإذا اغتم بها كشفها فقال وهو كذلك : «لعنة الله على اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» يحذِّر ما صنعوا ، ولولا ذلك أبرز قبره ، غير أنه خشي أن يُتخذ مسجدا . أخرجاه .

****

قال رحمه الله تعالى ((**ولهما**)) أي للبخاري ومسلم ((**عنها**)) أي عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت : ((**لما نُزِل**)) بالبناء لما لم يسمَّ فاعله ، لما نُزِل: أي نزل ملائكة الموت لقبض روحه صلوات الله وسلامه عليه ، وتروى ((لما نَزل)) أي: لما نزل به الموت صلوات الله وسلامه عليه .

((**طفِق يطرِح خميصة له على وجهه**)) طفق: أي أخذ وصار عليه الصلاة والسلام يطرح خميصة ، والخميصة : كساءٌ له أعلام يطرحه على وجهه أي يضعه ويلقيه على وجهه صلوات الله وسلامه عليه .

((**فإذا اغتم بها**)) أي بتلك الخميصة التي على وجهه ((**كشفها**)) ؛ وكان عليه الصلاة والسلام يصنع ذلك في اللحظات الأخيرة من حياته لما نُزل ؛ أي في اللحظات التي كان يقبض فيها صلوات الله وسلامه عليه .

((**فقال وهو كذلك**)) يعني وهو في هذه الحال.

«**لعنة الله على اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**» ؛ تأمل هذا اللعن الذي هو من النبي عليه الصلاة والسلام في هذه اللحظات بالذات في الوقت الذي نُزل به ؛ أي نزلت الملائكة لقبض روحه عليه الصلاة والسلام ، فكان في تلك اللحظات يقول : ((لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)) .

ما سر هذا الحرص من نبينا عليه الصلاة والسلام على هذا اللعن في هذه اللحظة ؟ مع أن هذا اللعن لأولئك صدر منه صلى الله عليه وسلم قبل هذا الوقت غير مرة وسمعه الصحابة رضي الله عنهم منه، وسيأتي بعضه في بعض ما ساقه المصنف رحمه الله تعالى في هذه الترجمة ، فما سر هذا اللعن في تلك اللحظة ؟ وهو عليه الصلاة والسلام في اللحظات التي ستُقبض فيها روحه عليه الصلاة والسلام ويُدفن ويصبح له قبر ، ففي هذه اللحظات

الأخيرة من حياته يقول ((لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)) مع أنه لعنهم قبل ذلك وسمعه الصحابة رضي الله عنهم منه !!

إذاً لهذا سر مهم جداً ومقصد عظيم من الناصح صلوات الله وسلامه عليه بيَّنته عائشة رضي الله عنها وأرضاها بقولها : ((**يحذِّر ما صنعوا**)) ؛ هذا المقصد وهذا هو السبب «يحذر مما صنعوا» في لحظاته الأخيرة .

قالت ((يحذر مما صنعوا)) أي أن يصنع به مثل ما صنع أولئك بأنبيائهم ؛ فيستحق من فعل ذلك به ما استحقه أولئك من لعنةٍ لما فعلوه بأنبيائهم ، ((يحذِّر مما صنعوا)) هذا هو المقصد ؛ ولهذا قالت رضي الله عنها وأرضاها ((يحذر ما صنعوا)) أي يحذر أمته من يصنعوا به مثل ما صنع أولئك بأنبيائهم فسيستحقون من الوعيد والعقوبة مثل ما استحق أولئك من وعيد وعقوبة .

تقول رضي الله عنها : ((**ولولا ذلك**)) يعني لولا هذا الأمر وخطورته ((**أبرز قبره**))

((**غير أنه خُشي أو خَشي**)) يروى هذا وهذا ؛ «غير أنه خُشي» بالبناء لما لم يسمَّ فاعله أي خشي الصحابة رضي الله عنهم لما يعلمونه من النصوص الواردة عنه صلى الله عليه وسلم ومنها هذا النص الذي في لحظاته الأخيرة، «أو خَشي» أي هو صلى الله عليه وسلم ((**أن يُتخذ مسجداً**)) أي قبره صلوات الله وسلامه عليه .

قالت ((ولولا ذلكم أبرز قبره)) ؛ فإذاً هذه العلة في عدم إبراز القبر وكونه دفن في حجرة عائشة وهو المكان الذي مات فيه ، وأيضا لذلكم علة أخرى وهي: أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه روى للصحابة رضي الله عنهم عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الأنبياء يدفنون حيث ماتوا ، وهو عليه الصلاة والسلام مات في حجرة عائشة ودفن في المكان الذي مات فيه .

وهنا ينبغي أن ننتبه أن نبينا عليه الصلاة والسلام لما مات دُفن في حجرة عائشة لم يدفن في المسجد ، المسجد بناية مستقلة والحجرة بناية مستقلة ؛ فهو لم يُدفن في المسجد ، وحجرة عائشة ليست جزءً في المسجد كانت تقيم فيها وتحيض فيها رضي الله عنها ويأتيها النبي صلى الله عليه وسلم فيها ؛ فهي خارج المسجد ليست جزءً منه ، فالنبي عليه الصلاة والسلام عندما دفنه الصحابة رضي الله عنهم دفنوه في حجرة عائشة لأنه المكان الذي مات فيه ، وحجرة عائشة رضي الله عنها خارج المسجد .

إذاً لما دُفن لم يدفن في المسجد ، والمسجد ابتداءً لما بُني لم يُبن على قبر ، النبي صلى الله عليه وسلم بناه وشيده ولم يُبنَ على قبر . فهذا ينبغي أن يُعلم . ثم فيما بعد احتاج المسجد إلى توسعات ، وُسِّع في زمن عمر ووسع أيضا في زمن عثمان وكانت التوسعات كلها لم تكن من جهة الشرق التي فيها الحجرات ، وفي زمن بني أمية احتاج أيضاً المسجد إلى مزيد من التوسعة فوسِّع من جهة الشرق وأُدخلت الحجرات ، ولما أدخلت الحجرات في المسجد لم يكن النية والغرض من إدخال الحجرات فعل هذا الأمر المنهي عنه وهو البناء على القبور ، ينبغي أن يُفهم هذا؛ لم تكن النية عندما وسع المسجد من تلك الجهة أن يُبنى على القبر ، وإنما وُسع المسجد وأدخلت الحجرات على

اعتبار أن في الأصل النبي عليه الصلاة والسلام دُفن في حجرة عائشة وحجرة عائشة بناء مستقل ليس من المسجد، ولما احتاج الأمر إلى التوسعة من الجهة الشرقية وسِّع وأدخلت الحجرات ، وأحيطت الحجرات بجدار وصفه أهل العلم بأنه جدار يمتد من الشرق إلى الغرب ثم يمتد بشكل مائل فيلتقي إلى جهة الشمال بهيئة مثلث ، ثم أيضاً بُني عليه جدار ثالث فأصبح ما أحد يصل إلى القبر ، ولهذا ذكر العلماء أن هذا الذي حصل هو من إجابة الله لدعوة نبيه عليه الصلاة والسلام حيث قال في دعائه: ((اللهم لا تجعل قبري وثناً يُعبد)) ، فأصبح القبر محاط بثلاث جدر : جدار الحجرة ، وبعد أن خرجت عائشة رضي الله عنها من الحجرة بعد دفْن عمر فيها أُغلق الباب وبُني عليه ، ثم بُني هذا الجدار المثلث ، ثم بني بعده جدار ثالث ؛ فما أصبح أحد يصل إلى قبر النبي عليه الصلاة والسلام . ولو حصلت بعض الممارسات الخاطئة فهي في مكان بعيد عن القبر ، أما القبر فقد صانه الله وحماه وأجاب دعوة نبيه ومصطفاه صلى الله عليه وسلم حيث قال: ((اللهم لا تجعل قبري وثنا يُعبد)) .

وبهذا يتبين خطأ من يأتي ويتعمد بدفن القبر في داخل مسجد من المساجد ، أو يتعمد ببناء المسجد فوق قبر من القبور ثم يقول أن هذا مثل الحال أو الوضع في مسجد النبي عليه الصلاة والسلام . هذا قياس مع الفارق ويدل على عدم الفهم وعلى عدم البصيرة ، وعندهم في ذلك أحاديث واضحة عن النبي عليه الصلاة والسلام يطِّرحونها ويأخذون بالمتشابه ، والنبي صلى الله عليه وسلم قال: ((لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)) ، وفي الحديث الأول قال : ((أولئكِ إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجدا قال أولئكِ شرار الخلق)) ؛ يتركون هذه الأحاديث الواضحات المحكمات البينات ويأخذون بشيء متشابه يعتمدونه ويتركون المحكم البين!! ؛ وهذا سبب الخلل ، ثم أفعالهم تلك جرَّت إلى تعلقات باطلة بل إلى شركيات بيّنة تُمارس وتُفعل في تلك المساجد التي فيها قبور ، سواءً كان القبر أولاً ثم بُني عليه المسجد ، أو كان المسجد أولا ودُفن فيه القبر .

وقد قرر أهل العلم رحمهم الله استناداً إلى هذه الأحاديث إلى أن الصلاة باطلة في المسجد الذي فيه قبر وأنها لا تصح ، لِما جاء من أحاديث واضحة وصريحة وبينة في هذا الأمر وأنهم شرار الخلق واللعن والطرد من رحمة الله تبارك وتعالى وغير ذلكم مما جاء ، وأيضا نصَّ أهل العلم إذا كان المسجد بُني على قبر وكان القبر هو الموجود أولا يُهدم المسجد ويبقى المكان قبراً أو قبوراً كما كان ، وإذا كان القبر دُفن داخل مسجد قالوا يُنبش ويُخرج من المسجد ويوضع في مقابر المسلمين ، حتى وإن كان صاحب المسجد الذي بناه أوصى أن يُدفن بعد أن مات في المسجد الذي بناه لا تنفَّذ وصيته لأنه أوصى بشيء محرم شرعاً ، لا يجوز أن يُفعل .

وهذا باب عظيم يتعلق بالتوحيد والمعتقد ، والزلة فيه خطيرة جداً ؛ تجني على عقائد الناس وتجني على عباداتهم وتوقعهم في تعلقات باطلة ما أنزل الله تبارك وتعالى بها من سلطان .

قال رحمه الله تعالى :

ولمسلم عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يموت بخمس وهو يقول: «إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل ، فإن الله قد اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا ، ولو كنت متخذًا من أمتي خليلًا لتخذت أبا بكر خليلا ، ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك» . فقد نهى عنه في آخر حياته ثم إنه لعن وهو في السياق من فَعَله . والصلاة عندها من ذلك وإن لم يُبن مسجد ، وهو معنى قولها رضي الله عنها : «خشي أن يُتخذ مسجدا» فإن الصحابة لم يكونوا ليبنوا حول قبره مسجدا ، وكل موضع قُصدت الصلاة فيه فقد اتُّخذ مسجدا ، بل كل موضعٍ يُصلى فيه يسمى مسجدا كما قال صلى الله عليه وسلم : «جعلت لي الأرض مسجداً وطهورا» .

****

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث حديث جندب بن عبد الله رضي الله عنه وهو في صحيح مسلم قال :

((**سمعت النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يموت بخمس**)) أي بخمس ليالي ، وهذا وقت قريب من موته عليه الصلاة والسلام ، فيقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يموت بخمس وهو يقول :

((**إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل**)) والخلة : هي أعلى المحبة وأرفعها ، وسميت خلة لأن المحبة تتخلل القلب وتملأه وتعمره ، فلا يبقى فيه متسع لمحبوب آخر .

قال: ((**إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل، فإن الله قد اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلا ، ولو كنت متخذاً من أمتي خليلا لاتخذتُ أبا بكر خليلا**)) ؛ وأبو بكر رضي الله عنه هو أحب صحابة النبي عليه الصلاة والسلام إليه ، ولما سُئل من أحب الرجال إليك؟ قال : ((أبو بكر)) ، فأبو بكر رضي الله عنه أحب صحابته صلى الله عليه وسلم إليه . ولما قال في هذا الحديث ((لو كنت متخذاً من أمتي خليلا لاتخذتُ أبا بكر خليلا)) هذا فيه بيان لمنزلة أبي بكر العظيمة ودرجته الرفيعة وشأنه العلي رضي الله عنه وأرضاه؛ حيث قال النبي عليه الصلاة والسلام قبل أن يموت بخمس ، ولننتبه لذلك ، قبل أن يموت بخمس قال: ((لو كنت متخذا من أمتي خليلا لتخذت أبا بكر)) هذا فيه بيان منزلة أبي بكر وأنه أعلى الصحابة شأنا وأرفعهم مكانهم وأحبهم إلى النبي عليه الصلاة والسلام ، ولو كان متخذاً خليلًا من أصحابه لتخذ أبا بكر رضي الله عنه ، فهذا يدل أنه أحب أصحابه إليه رضي الله عنه وأرضاه .

قال : ((**ألا وإن من كان قبلكم يتخذون قبور أنبيائهم مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، فإني أنهاكم عن ذلك**)) ؛ هذا هو موضع الشاهد من سياق الحديث للترجمة ، وفيه النهي عن هذا الأمر والتأكيد على النهي من ثلاثة وجوه :

- الوجه الأول : في قوله ((ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد)) ؛ وهذا إخبارٌ عنهم على وجه الذم لهم والتشنيع عليهم في هذا الفعل ، محذرً للأمة من صنيع أولئك ، ((ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد)) قال ذلك إخباراً عنهم على وجه الشناعة عليهم وبيان قبح فعلهم ، فهذا وجه من وجوه التحذير من هذا الأمر .
- الأمر الثاني: قال ((ألا فلا تتخذوا القبور مساجد)) وهذا نهي واضح وصريح منه صلوات الله وسلامه عليه عن هذا الأمر .
- والأمر الثالث في قوله ((فإني أنهاكم عن ذلك)) ؛ بعد النهي قال ((فإني أنهاكم عن ذلك)) وهذا فيه تأكيد على النهي وبيان خطورة الأمر .

فاجتمعت ثلاثة وجوه في هذا السياق في تحذير النبي صلى الله عليه وسلم من هذا الفعل .

يقول الشيخ رحمه الله : ((**فقد نهى عنه آخر حياته**)) كما في حديث جندب قال ((فإني أنهاكم عن ذلك)) .

((**ثم إنه لعن وهو في السياق من فعَله**)) كما في حديث عائشة رضي الله عنها ، وحديث أم سلمة أيضاً في الباب وهو قبل ذلك ، وفي الباب أحاديث عنه صلى الله عليه وسلم تفيد أنه تكرر منه النهي والتحذير من هذا الفعل في غير موطن ؛ لكن في أيامه الأخيرة ولحظاته الأخيرة جاء مزيد تحذير وتأكيد على خطورة هذا الأمر ، فقبل أن يموت بخمس نهى عن ذلك هذا النهي الشديد المؤكد في حديث جندب ، وفي النزع لحظاته الأخيرة لعن من كان يفعل ذلك كما في حديث عائشة ((لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)) .

قال رحمه الله : ((**والصلاة عندها من ذلك**)) ؛ وهذه جملة مهمة جداً في فقه الحديث ((**والصلاة عندها من ذلك وإن لم يُبن مسجد**)) ؛ قال ((لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)) ما معنى اتخاذها مساجد ؟ بأمرين أياً منهما فُعل فقد اتُخذت مساجد :

١. بالبناء عليها مثل ما في حديث أم سلمة نص على البناء قال صلوات الله وسلامه عليه ((إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجدا)) ؛ هذا من اتخاذها مساجد .
٢. والأمر الثاني حتى وإن لم تُعمل بناية ولم يوضع عليه بناية يذهب الشخص إليه من أجل أن يتحرى العبادة عنده فقد اتخذه مسجداً ، إذا ذهب إليه متحرياً للصلاة والعبادة عنده فقد اتخذه مسجدا ولهذا يقول : ((**والصلاة عندها من ذلك**)) ما معنى «من ذلك» ؟ أي من اتخاذها مساجد ((**وإن لم يبن مسجد**)) .

قال : ((**وهو معنى قولها** -أي عائشة رضي الله عنها - **خُشي أو خَشي أن يُتخذ مسجدًا**)) لماذا؟ هذا المعنى الثاني الذي هو الصلاة عندها وتحري الصلاة عندها قال : ((**فإن الصحابة لم يكونوا ليبنوا حول قبره مسجدا**)) هذا دليل أول لهذا المعنى الذي ذكره وهو أن الصلاة عندها من ذلك ؛ استدل له أولاً بهذا الأمر .

واستدل له ثانياً بقوله : ((**وكل موضع قصدت الصلاة فيه فقد اتخذته مسجدا ، بل كل موضع يُصلى فيه يسمى مسجدا**)) والدليل يقول : ((**كما قال صلى الله عليه وسلم : «جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا»**))؛ خذ مثالاً على ذلك : بعض الأمكنة التي ليس فيها مسجد مبني وإنما استثنيت مثلا غرفة ليُصلى فيها وقت الدوام، إذا سأل سائل لأهل العمل أو المكان قال أين المسجد؟ ماذا يقولون له ؟ يدلونه إلى تلك الغرفة ؛ وهي أصلاً لم تُبن مسجد وإنما اتخذت مسجدا لكونهم يصلون بها . فالمكان الذي يصلى فيه اتخذ مسجد.

فإذاً لو كان لنفرض قبر من قبور الصالحين في الصحراء وذهب شخص إلى ذلك القبر وتحرى العبادة عنده التماساً للبركة أو اعتقاداً أن الأجر أعظم أو نحو ذلك وصلى عنده خالصاً لوجه الله ، لم يقصد صاحب القبر بهذه العبادة ولم يقصد التقرب لكن تحرى البركة عند القبر ؛ يشمله هذا الوعيد ويشمله هذا اللعن ويشمله قول النبي صلى الله عليه وسلم ((أولئك شرار الخلق))؛ لأن هذا من اتخاذها مساجد .

فإذاً اتخاذ القبور مساجد يكون بأحد أمرين:

- الأمر الأول : بالبناء عليها ؛كما في حديث أم سلمة .
- والأمر الثاني : بتحري الصلاة عندها كما قال رحمه الله «والصلاة عندها من ذلك» واستدل له بأمرين ذكرهما رحمه الله تعالى .

هذا الذي لأجله نهى وتهدد وتوعد ولعن وأخبر أن أولئك شرار الخلق ؛ حماية لحمى التوحيد وصيانة له من أن يقع الناس في الإشراك بالله سبحانه وتعالى .

بعض الذين وقعوا في المخالفة باتخاذ القبور مساجد إذا قرئ عليهم هذا الحديث ماذا يقولون ؟ انظر كيف يتأولون الحديث!! يقولون إن مراد النبي عليه الصلاة والسلام النهي عن اتخاذها مساجد أي لا يجوز لك أن تسجد على ذات القبر بحيث تضع جبهتك على القبر نفسه ، ثم يزيدون على ذلك ويقولون : لأن احتمال النجاسة ، ما يتحلل من القبر بعد دفنه بوقت يقولون احتمال النجاسة ، مع أن كلامهم هذا بقولهم هذا يشمل عندهم حتى قبور الأنبياء ، والله سبحانه وتعالى حرَّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء، ومع لك يقولون هذه المقولة التي فيها خطأ وفيها أيضا إساءة من جهة أخرى في مقام الأنبياء وقدرهم ومكانهم ؛ ولهذا يمارسون كل الأشياء المنهي عنها ويجعلون النهي المراد به هذا الأمر . ثم الجاهل إذا سمع منهم هذا الكلام يفعل هذه الأباطيل ولا يستوحش عندما يسمع هذا الحديث ؛ لأنهم جعلوا له الحديث مخصوصاً بهذا المعنى .

ووضع الجبهة على القبر سجوداً هذا داخل في الحديث بلا ريب ، ليس كما يقولون من أجل خشية النجاسة ، وإنما خشية نجاسة الشرك بالله ، عندما يضع جبهته على القبر من أجل نجاسة الشرك بالله التي هي أعظم نجاسة ، فيسجد أولًا ويضع جبهته على القبر أو قريبا منه تحريا للبركة ، ثم بعد ذلك يتحول الأمر إلى تعلقٍ بالمقبور نفسه والتجاء إليه وعبادةٍ له من دون الله تبارك وتعالى . فالنبي عليه الصلاة والسلام سد تلك الذرائع وأغلق تلك الوسائل حماية لحمة التوحيد وصيانة لجنابه .

قال رحمه الله تعالى :

ولأحمد بسند جيد عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعا : « إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء ، والذين يتخذون القبور مساجد » رواه أبو حاتم في صحيحه .

****

ثم ختم رحمه الله تعالى هذه الترجمة بهذا الحديث المخرَّج في المسند للإمام أحمد بسند جيد عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً أي إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((**إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء، والذين يتخذون القبور مساجد**)) ذكر عليه الصلاة والسلام في هذا الحديث من شرار الخلق أو أعظم الخلق شراً:

- ((**من تدركهم الساعة وهم أحياء**))؛ وهؤلاء الذين تدركهم الساعة وهم أحياء هؤلاء أهل شرك وكفرٍ بالله سبحانه وتعالى ، لا يبقى إلا شرار الخلق في آخر الزمان وعليهم تقوم الساعة ، وقبل ذلكم يبعث الله ريحاً فتقبض روح كل مؤمن ومؤمنة فلا يبقى إلا شرار الخلق وعليهم تقوم الساعة .
- ((**والذين يتخذون القبور مساجد**)) ؛ انظر سبحان الله كيف قرن بين الذين تقوم عليهم الساعة ، أولئك الذين لم يبق في الأرض إلا هم ، وهم شرار الخلق عند الله تبارك وتعالى ؛ قرن بهم الذين يتخذون القبور مساجد ، القبور: قبور الأنبياء أو قبور الصالحين أو قبور غيرهم . وهذا الباب دخل فيه خلق في الضلال ، سواء قبور أنبياء أو قبور صالحين أو قبور طالحين لا يُعرفون . يعني في بعض المناطق القبور لأشخاص أصلاً مجاهيل إطلاقا لا يُعرفون إطلاقا ، وفي منطقة من المناطق قبر يسمى قبر الغريب ، يقولون سيدنا الغريب ، لا يعرفونه أصلا ولا يدرون من هو ، هل هو مسلم أو كافر أو مَن يكون لا يدرون أصلاً ! ويلتجئون إليه ويقصدونه ويتحرون عنده العبادة .

فتأمل كيف قرن النبي عليه الصلاة والسلام بين هؤلاء الذين يتخذون القبور مساجد بأولئك الذين تقوم عليهم الساعة وهم شرار الخلق عند الله .

قال رحمه الله تعالى :

فيه مسائل ؛ الأولى : ما ذكر الرسول فيمن بنى مسجدًا يعبد الله فيه عند قبر رجل صالح ولو صحت نية الفاعل .

«**ما ذكر الرسول عليه الصلاة والسلام**» أي من وعيد كما في حديث أم سلمة حيث قال : ((أولئك شرار الخلق عند الله)) قال : «**فيمن بنى مسجداً يعبد الله فيه عند قبر رجل صالح ولو صحت نية الفاعل**» ؛ يعني لو كانت نيته خالصة يعني لم يقصد بهذا العمل أن يُعبد أو أن يعبد هو ذلك المقبور ، فهو بهذا الصنيع أصبح من شرار الخلق عند الله حتى وإن كانت نيته صالحة ، وهذا يبين كيف أن بعض الناس يقع في الخطأ ويعتذر لنفسه بنيته ، يقول أنا نيتي طيبة وأنا ما قصدتُ شرا ؛ حتى وإن صلحت نيته فالعمل بحد ذاته فاسد وباطل ، والعمل لا يُقبل بمجرد صلاح النية ، لابد مع صلاح النية من موافقة الشرع .

الثانية : النهي عن التماثيل وغِلظ الأمر في ذلك .

النهي عن التماثيل أيضا كما جاء في حديث أم سلمة ((وصوَّروا تلك الصور)) أي صنعوا تلك التماثيل على صور أولئك الصالحين ، وغلظ الأمر في ذلك لأنه عدَّ من يصنعون ذلك من شرار الخلق عند الله .

الثالثة : العبرة في مبالغته صلى الله عليه وسلم في ذلك . كيف بين لهم هذا أولا ، ثم قبل موته صلى الله عليه وسلم بخمس قال ما قال ، ثم لما كان في السياق لم يكتف بما تقدم .

هذه أيضا فائدة ثمينة ينبه عليها رحمه الله ؛ أن تحذير النبي من هذا الأمر جاء في أوقات مختلفة ، بيَّن لهم ذلك أولا أي في أحاديث ، ثم قبل موته بخمس أي ليالي كما في حديث جندب بن عبد الله ، ثم لما كان في السياق لم يكتف بما تقدم ، لما كان في السياق أي كما جاء في حديث عائشة بيَّن ذلك؛ لما نُزل به بين ذلك وقال: ((لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)) .

الرابعة : نهيه عن فعله عند قبره قبل أن يوجد القبر .

لأن في حديث عائشة قال ((لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)) قالت : «يحذر ما صنعوا ، ولولا ذلك لأبرز قبره غير أنه خَشي في رواية أخرى وخُشي» فهذا معنى قوله رحمه الله «نهيه عن فعله عند قبره قبل أن يوجد القبر» أي بما جاء عنه من لعن وتهديد لفعل أولئك؛ محذراً الأمة من أن تصنع مثل صنيعهم قبل أن يوجد قبره عليه الصلاة والسلام .

الخامسة : أنه من سنن اليهود والنصارى في قبور أنبيائهم .

أنه من سنن اليهود والنصارى في قبور أنبيائهم ؛ كانوا يفعلون ذلك ، وهنا ينبغي أن يُستحضر قول النبي عليه الصلاة والسلام ((لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً شبرا ذراعا ذراعا حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه)) ، فما دام أن هذا الأمر من سنن اليهود والنصارى إذاً سيوجد في الأمة من يفعل مثل ذلك .

السادسة : لعنُه إياهم على ذلك .

لعنه إياهم أي اليهود والنصارى على ذلك كما في حديث عائشة قال : ((لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)) ، واللعن : هو الطرد والإبعاد من رحمة الله . ولا يصدر اللعن إلا في الكبائر .

السابعة : أن مراده تحذيره إيانا عن قبره .

أن مراده صلى الله عليه وسلم أي بهذا اللعن لليهود والنصارى لما نُزل به صلوات الله وسلامه عليه ؛ تحذيره إيانا عن قبره أي أن نفعل به مثل ما فعل أولئك بقبور أنبيائهم ، وهذا مأخوذ من قول عائشة رضي الله عنها «يحذِّر مما صنعوا» أي يحذر أمته من أن يصنعوا مثل صنيع أولئك فيستحقوا من الوعيد ما استحقه أولئك .

الثامنة : العلة في عدم إبراز قبره .

العلة في عدم إبراز قبره كما جاء في حديث عائشة «ولولا ذلك لأبرز قبره» أي خشية أن يتخذ مسجداً؛ يُقصد لتحري العبادة عنده وتحري الصلاة عنده ، فالعلة في عدم إبراز قبره أي: خشية أن يُتخذ مسجداً . وهذه العلة مستفادة من هذا الحديث ، وأيضاً العلة الأخرى لدفنه في حجرة عائشة رضي الله عنها ما رواه أبو بكر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : ((أن الأنبياء يدفنون حيث ماتوا)) .

التاسعة : في معنى اتخاذها مسجدا .

التاسعة أي من المسائل المتعلقة بهذه الترجمة : معنى اتخاذها –أي قبور الأنبياء والصالحين– مسجداً ، وعرفنا أن هذا الاتخاذ يكون بأمرين : إما بالبناء عليها كما في حديث عائشة رضي الله عنها عن أم سلمة فيما ذكرته للنبي صلى الله عليه وسلم من الكنيسة التي رأتها في الحبشة؛ وصفت له ما يصنعون فيها ، قال عليه الصلاة والسلام : ((أولئك شرار الخلق عند الله إذا مات فيهم العبد الصالح أو الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا)) .

والمعنى الثاني: الصلاة عندها ، وأن الصلاة عندها من ذلك : أي من اتخاذها مساجد لأسباب عديدة ذكر منها المصنف رحمه الله تعالى سببين .

العاشرة : أنه قرن بين من اتخذها مسجدا وبين من تقوم عليهم الساعة ، فذكَر الذريعة إلى الشرك قبل وقوعه مع خاتمته .

وهذه فائدة ثمينة مستفادة من حديث ابن مسعود الذي خُتمت به الترجمة ؛ أنه أي النبي عليه الصلاة والسلام قَرَن أي كما في حديث ابن مسعود بين من اتخذها مسجداً وبين من تقوم عليهم الساعة ، ووصف الجميع بأنهم شرار الخلق عند الله سبحانه وتعالى . يقول رحمه الله : فذكر الذريعة إلى الشرك قبل وقوعه مع خاتمته ؛ الذريعة إلى الشرك : اتخاذ القبور مساجد ، مع خاتمته أي ما يكون في نهاية الزمان قُبيل قيام الساعة أنه لا يبقى إلى شرار الخلق المشركين بالله تبارك وتعالى فأولئك الذين تقوم عليهم الساعة .

الحادية عشرة : ذكره في خطبته قبل موته بخمس؛ الرد على الطائفتين اللتين هما أشر أهل البدع ، بل أخرجهم بعض أهل العلم من الثنتين والسبعين فرقة، وهم الرافضة والجهمية . وبسبب الرافضة حدث الشرك وعبادة القبور ، وهم أول من بنى عليها المساجد .

ثم ذكر رحمه الله هذه الفائدة الحادية عشرة قال : ذكره في خطبته قبل موته بخمس أي كما جاء في حديث جندب رضي الله عنه وأرضاه ، قال : «فيه الرد على الطائفتين اللتين هما أشر أهل البدع ، بل أخرجهم بعض أهل العلم من الثنتين والسبعين فرقة» أي : في الحديث ((وستفترق هذه الأمة على ثلاث أو اثنتين وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة)) ؛ والمراد بالأمة : أمة الإجابة الذين أجابوا إلى الإسلام وإلى دعوة النبي عليه الصلاة والسلام لكنهم تفرقوا في الأهواء والبدع والضلالات إلى اثنتين وسبعين فرقة . فقال : بعض أهل العلم أخرجهم من هذه الفرق ؛ يعني لا يدخلون في الاثنتين وسبعين فرقة ، قال : وهم الرافضة والجهمية .

أما الرد على الرافضة في الحديث وهو حديث جندب من وجهين :

١. الوجه الأول: من جهة النهي عن وسائل الشرك وواضح في حديث جندب بن عبد الله رضي الله عنه وأرضاه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد؛ ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك)) ، والرافضة هم من أشد الناس تعلقاً بالقبور وعبادةً لها وصرفاً لأنواع العبادة إلى المقبورين ، وتعظيم المشاهد أعظم من تعظيم المساجد ، فالروافض هم أكثر الناس إيغالاً في هذا الباب. هذا من جهة ، في الحديث الرد عليهم من جهة .
٢. الجهة الثانية : في قول النبي صلى الله عليه وسلم في حديث جندب رضي الله عنه قال: ((ولو كنت متخذا من أمتي خليلا لتخذت أبا بكر خليلا)) ؛ وهذا يبين مكانة أبي بكر رضي الله عنه العلية ومنزلته الرفيعة . والروافض لا يعتبرون لأبي بكر رضي الله عنه أي مكانة ولا يعتبرون له أي منزلة بل يخرجونه من الإسلام ، بل عُدَّ في بعض

كتبهم أن منزلته في النار أشد من منزلة إبليس ، فأين هم وأين الهدى والحق الذي جاء به رسول الله صلوات الله وسلامه عليه !! إذاً هو فيه الرد عليهم من هذين الوجهين .

وأما ما جاء في الحديث من الرد على الجهمية لأن الجهمية هم منكرة صفات الله سبحانه وتعالى ، والحديث فيه إثبات الخلة ، والجهمية ينكرون الخلة وغيرها من صفات الله تبارك وتعالى ، ولهذا لما قُتل الجعد بن درهم شيخ الجهم بن صفوان على ضلالته قال خالد بن عبد الله القسري في خطبته : "ضحُّوا عباد الله تقبَّل الله ضحاياكم فإني مضحٍ اليوم بالجعد بن درهم ؛ فإنه زعم أن الله ما كلم موسى تكليما ولا اتخذ إبراهيم خليلا " ، لأنهم ينكرون ذلك ، ينكرون الخلة وينكرونه الكلام وينكرون غير ذلك من صفات الله تبارك وتعالى ؛ فهذا وجه ما في هذا الحديث من رد على هؤلاء .

ثم قال رحمه الله : وبسبب الرافضة حدث الشرك وعبادة القبور ، وهم أول من بنى عليها المساجد لأنهم أعظم الناس إيغالاً وإغراقاً في هذا الضلال والباطل .

الثانية عشرة : ما بُلي به صلى الله عليه وسلم من شدة النزع .

وهذا واضح في حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وأرضاها قالت : «لما نُزل برسول الله صلى الله عليه وسلم يطرح خميصة على وجهه فإذا اغتم بها كشفها» ؛ فهذا فيه ما بُلي به صلوات الله وسلامه عليه من شدة النزع ، وهذا يفيد أنه بشر مثل البشر يصيبه ما يصيبهم ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [الكهف:١١٠] .

الثالثة عشرة : ما أُكرِم به من الخلة .

ما أكرم به صلوات الله وسلامه عليه من الخلة ؛ أي أن الله اتخذه خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا ، ولا تُعرف هذه الخلة إلا لنبينا عليه الصلاة والسلام ولإبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ، فهذا مما أكرم الله سبحانه وتعالى به نبيه صلوات الله وسلامه عليه .

الرابعة عشرة : التصريح بأنها أعلى من المحبة .

هذا مستفاد من قوله ((ولو كنت متخذا خليلا لتخذت أبا بكر خليلا)) ، وهو عليه الصلاة والسلام كما دلت أحاديث أُخر أن أبا بكر أحب أصحابه إليه ؛ صلوات الله وسلامه عليه ، فهذا يفيد أن الخلة أعلى من المحبة .

الخامسة عشرة : التصريح بأن الصدِّيق أفضل الصحابة .

وهذا مأخوذ من قوله عليه الصلاة والسلام ((لو كنت متخذا خليلا لتخذت أبا بكر خليلا)) ، فهذا واضح في أن أبا بكر رضي الله عنه أفضل أصحاب النبي الكريم عليه الصلاة والسلام ، بل إنه رضي الله عنه وأرضاه أفضل الناس بعد النبيين في جميع الأمم ،كما جاء في الحديث عن رسولنا صلوات الله وسلامه عليه أنه قال : ((أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ سَيِّدَا كُهُولِ أَهْلِ الجَنَّةِ مِنَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ مَا خَلَا النَّبِيِّينَ)) ، وهذا أيضاً يدل عليه القرآن في قوله﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[آل عمران:١١٠] وأبو بكر رضي الله عنه هو خير أمة محمد صلى الله عليه وسلم؛ فهو خير الناس بعد النبيين .

السادسة عشرة : الإشارة إلى خلافته .

الإشارة إلى خلافته في الجملة نفسها ((لو كنت متخذاً خليلًا لتخذت أبا بكر خليلا)) ؛ قوله لهذا قبل موته بخمس ليال كما جاء في حديث جندب فيه إشارة إلى خلافة أبي بكر رضي الله عنه .

وبهذا تمت هذه الترجمة وما فيها من مسائل .

سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك .

اللهم صلِّ وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

الدرس الثاني والعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد :

يقول الإمام المجدِّد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتاب التوحيد :

بابٌ ما جاء في أن الغلو في قبور الصالحين يصيّرها أوثاناً تُعبد من دون الله

روى مالك في الموطأ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « **اللهم لا تجعل قبري وثناً يُعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد** » .

****

هذه الترجمة ((**باب ما جاء في أن الغلو في قبور الصالحين يصيّرها أوثاناً تُعبد من دون الله**)) عقدها رحمه الله تعالى تحذيراً من الغلو في القبور – قبور الصالحين– وبيان ما يفضي إليه هذا الغلو من اتخاذها أوثاناً وعبادةِ المقبورين فيها من دون الله تبارك وتعالى .

والإمام رحمه الله تعالى تنوَّعت التراجم عنده فيما يتعلق بالغلو ؛ سبق أن مر معنا ((باب ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين)) ، ثم أتبعه بـ ((باب ما جاء في التغليظ فيمن عبَد الله عند قبر رجل صالح فكيف إذا عبده)) ، ثم عقد هذه الترجمة ((باب ما جاء في أن الغلو في قبور الصالحين يصيّرها أوثاناً تُعبد من دون الله)) فتنوعت تراجم المصنف رحمه الله تعالى في التحذير من هذه المسألة الخطيرة والأمر الخطير وهو ما يتعلق بقبور الصالحين ؛ وذلك لخطورة الأمر البالغة من جهة ، ومن جهة أخرى عظم وكثرة ما وقع فيه الناس من زلل في هذا الباب وانحرافٍ في هذا الباب ؛ غلواً في الصالحين وتعظيماً لهم . فتنوعت التراجم عنده رحمه الله تعالى نصحًا وتحذيرا .

وهذه الترجمة التي بين أيدينا قصد من خلالها رحمه الله تعالى أن ينبِّه على أمور عديدة تتعلق بهذا الأمر ، تتعلق بقبور الصالحين وما يقع حولها من مخالفاتٍ وانحرافات :

- فقصد أولاً رحمه الله تعالى التحذير من الغلو في الصالحين ولاسيما بعد وفاة الرجل الصالح . ومن المعلوم أن الرجل الصالح الذي اشتُهر في الناس بصلاحه واستقامته وديانته وطاعته لله سبحانه وتعالى له مكانة في القلوب ومنزلة في النفوس ومحبة لدى عباد الله تبارك وتعالى ، وعند مفارقته بوفاته يتألم الناس لفراقه ، وإذا لم يُضبط هذا الألم وهذا الحب للرجل الصالح بضوابط الشرع يقع الإنسان في الزلل والانحراف ويدخل في الغلو بالرجل الصالح

على إثر وفاته دخولاً شديداً فيقع في أنواع من الغلو . وهذا ما حصل فعلاً مراتٍ عديدة عبر التاريخ ، لاسيما في الأمكنة التي يقلُّ فيها العلم وتقلُ فيها الدراية بسنة النبي عليه الصلاة والسلام وهديه ، فتجد الجهال عندما يموت الرجل الصالح الذي له تلك المكانة وتلك المنزلة في قلوبهم يقولون : ما يمكن أن ندفنه مثل غيره من الناس ، لابد أن نميّزه ، لابد أن نخصه بشيء ؛ فيبدؤون في صور من الغلو في ذلك الرجل الصالح التي تفضي فيما بعد إلى اتخاذه وثناً وعبادته من دون الله . وهذا أمرٌ تكرر كثيراً عبر التاريخ ، بل إن أول شرك حصل في الناس من بداية الأمر في ذرية آدم كان بسبب هذا الأمر ؛ الغلو في الصالحين ، وتقدم معنا ما يتعلق باللات والعزى ويأتي أيضاً إشارة إلى ذلك فيما ساقه المصنف رحمه الله تعالى في هذه الترجمة من روايات .

❖ الأمر الثاني مما أراد أن ينبه عليه المصنف رحمه الله تعالى في هذه الترجمة : أن الغلو في قبور الصالحين يؤدي إلى عبادتها ، فتبدأ أولاً غلوًا في الصالح بتمييز قبره ببناءٍ مشيد وزخرفة وزينة وإضاءة وقناديل وأشياء من هذا القبيل ، ثم يفضي ذلكم بالناس إلى عبادتها وصرف العبادة لها .

❖ الأمر الثالث مما أراد أن يبينه المصنف رحمه الله تعالى : أن عبادة قبر الرجل الصالح يصيِّر القبر وثنا قال : «يصيِّرها أوثانا» ، فإذا كان قبر الرجل الصالح يُعبد يصير بذلك وثناً ، لأن الوثن : هو ما يُتخذ للعبادة سواءً كان شجرةً أو حجراً أو قبراً أو غير ذلك ، ما يُتخذ للعبادة من دون الله يسمى وثنا . أرأيتم مثلاً لو أن شجرةً في الصحراء كغيرها من الأشجار شأنها كشأن الأشجار تسمى شجرة ، ومن رآها يقول هذه شجرة ، لكن لو عُظِّمت مثل تعظيم المشركين للعزى وأصبحت تُقصد للعبادة والسؤال والدعاء والطلب وغير ذلك والتمسح بها وتعليق الأسلحة فيها للبركة والعكوف عندها ، مثل ما مر معنا في الشجرة التي يقال لها ذات أنواط في حديث أبي واقد الليثي فإنها تصبح تلك الشجرة بعبادتها وقصدها للعبادة والتبرك والعكوف ونحو ذلك تصبح وثناً ، يقال هذه الشجرة وثن؛ لماذا ؟ لأنها اتُخذت معبوًدا من دون الله تبارك وتعالى فتكون بذلك وثنا .

قد يقول قائل : نعم الشجرة إذا عُبدت وقُصدت للعبادة والتبرك تصبح بذلك وثناً ؛ لكن هل قبر الرجل الصالح إذا عُبد وقُصد بالعبادة وأصبح اتخذ القبر معبوداً يُقصد بالعبادة ذبحاً ونذراً ودعاء وتبركا وغير ذلك هل يصبح القبر وثناً بذلك ؟ الجواب نعم ؛ نبينا عليه الصلاة والسلام في الحديث الآتي ذكره عند المصنف رحمه الله تعالى قال ((اللهم لا تجعل قبري وثناً يُعبد)) ؛ هذا يفيد أن قبر الرجل الصالح إذا عُبد من دون الله صار بذلك وثنا ، وسيأتي أن الله سبحانه وتعالى حمى قبر نبيه عليه الصلاة والسلام وأجاب دعوته صلى الله عليه وسلم ؛ فأصبح لا أحد

يستطيع أن يصل إلى قبره صلوات الله وسلامه وبركاته عليه . فهذه من الأمور التي أراد المصنف رحمه الله تعالى أن ينبه عليها بهذه الترجمة .

❖ أمر آخر أيضا أراد أن ينبه عليه رحمه الله تعالى في هذه الترجمة؛ ألا وهي : أن اتخاذ القبور مساجد ، وعرفنا فيما سبق أن اتخاذها مساجد يكون بالبناء عليها ويكون بقصدها وتحري العبادة عندها ، فتحري العبادة عند القبور أو البناء على القبور يكون فاعل ذلك قد اتخذها مسجداً ، وقد مر معنا أن نبينا عليه الصلاة والسلام في لحظاته الأخيرة من الحياة قال : ((لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبياءهم مساجد)) يحذِّر مما صنعوا .

فهذه أمور أربعة كلها مقصودة في هذه الترجمة التي بعنوان ((**ما جاء**)) أي في الأحاديث والأخبار ((**أن الغلو في قبور الصالحين يصيِّرها أوثانا تُعبد من دون الله**)) يصيِّرها : أي يجعلها تصير أوثانا تُعبد من دون الله .

فإذاً يجب على كل مسلم يخاف الله تبارك وتعالى ويتقيه أن يحذر من الغلو ، نعم الرجل الصالح له منزلة وله مكانة في القلوب وله محبة في النفوس ؛ لكن ليس معنى ذلك أن يُغلى في قبره وأن يُفعل في قبره أشياء من الغلو تفضي فيما بعد إلى عبادة هذا القبر من دون الله تبارك وتعالى .

وفي بادئ الأمر من يمارس المغالاة في قبور الصالحين تشييداً وبناءً وزخرفةً ربما في بدء الأمر يكون من باب فقط تمييز هذا الصالح وإظهار ما له من مكانة في النفوس ، يكون في بادئ الأمر هذا هو المراد؛ إبرازه ، تمييز ما له من مكانة ، له مكانة عالية هذا رجل ليس كغيره ، هذا كان كذا وكان كذا وكان كذا إلى آخره. إذاً لابد أن نميزه عن الآخرين ؛ ففي بادئ الأمر يكون لأجل هذا القصد فيغلون في قبره رفعاً وتشييداً وزخرفةً وغير ذلك مما هو مخالف ومصادم للنصوص التي فيها النهي عن ذلك وسيأتي الإشارة إلى شيء منها . ثم يؤول الأمر –كما أوضح المصنف رحمه الله تعالى– إلى أن تُعبد ، لأن الشيطان يأتي للأجيال اللاحقة ولاسيما مع دروس العلم وقلة البصيرة في الدين يأتي الأجيال اللاحقة ويقول لهم هذا القبر الذي هذه صفته وهذه زخرفته وهذه زينته ليس كسائر القبور هذا له خصوصية بأن يُقصد تبركاً عكوفا إلى غير ذلك ؛ فيُتخذ وثناً .

وكما أشرت في بدء الحديث أن الوقائع في مثل هذا الأمر في التاريخ كثيرة جدًا ، بدءً من أول حادثة شركٍ حصلت في تاريخ البشرية ذرية آدم وما بعد ذلك كلها راجعة إلى هذا الباب ، ولهذا حذَّر النبي عليه الصلاة والسلام من الافتتان في هذا الباب من جهتين سبق التنبيه عليهما : ما يتعلق بالقبور وتشييدها وزخرفتها ورفعها إلى غير ذلك ، والجانب الآخر ما يتعلق باتخاذ الصور للصالحين والتماثيل التي على هيئاتهم . فهذا وذاك هو أعظم أسباب الفتنة التي تفضي بفاعل ذلك إلى الشرك بالله سبحانه وتعالى .

أورد المصنف رحمه الله تعالى شيخ الإسلام الإمام المجدد المصلح شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى أورد في صدر هذه الترجمة حديثاً خرجه الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة في كتابه الموطأ ((**أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال** : « **اللهم لا تجعل قبري وثنا يُعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»)) ؛ دعا عليه الصلاة والسلام بهذه الدعوة ((اللهم لا تجعل قبري وثنًا يُعبد)) وهذا يستفاد منه كما تقدم أن قبر الصالح إذا عُبد يصبح وثناً . فالنبي عليه الصلاة والسلام خاف وخشي ذلك فتوجه إلى الله سبحانه وتعالى بالسؤال أن يصون قبره عليه الصلاة والسلام وأن يحفظ قبره عليه الصلاة والسلام أن لا يكون كذلك ، فدعا هذه الدعوة سائلاً الرب العظيم جل في علاه ((اللهم لا تجعل قبري وثنا يُعبد)) ، بمعنى أن القبر إن عُبد صار وثناً ، فسأل الله سبحانه وتعالى أن يصون قبره وأن يحفظه من ذلك . فأجاب رب العالمين دعاءه . قال ابن القيم رحمه الله تعالى في نونيته الكافية الشافية :

فأجــاب رب العالمين دعــاءه   فأحاطـــــــه بثلاثة الجـدران

حتى غدت أرجاؤه -أي القبر-   بدعائه في عزةٍ وحمايةٍ وصيان

وهذا من إجابة الله سبحانه وتعالى دعوة نبيه عليه الصلاة والسلام ؛ أحيط القبر بثلاثة جدران ؛ جدار من جهة القبلة ممتد من الشرق إلى الغرب ، ثم جداران يمتدان إلى أن يلتقيا في زاوية في جهة الشمال التي هي الجهة التي تكون مستقبَل القبر . فأحيط بثلاثة جدران على شكل مثلث على شكل ثلاثي الأضلاع ، وأيضا أُتبع ذلك بجدار ثالث . الأول جدار الغرفة الأصل ، ثم هذا الجدار المثلث ، ثم جدار ثالث ، فما أصبح أحد يستطيع أن يصل إلى نفس القبر ، وإن مارس أحد شيئاً مخالفاً أو أمراً خاطئاً فإنه في مكان بعيد عن القبر ، أما القبر – قبر النبي عليه الصلاة والسلام – في عزة وحماية وصيان كما يقول ابن القيم رحمه الله ، لأن الله حماه وأجاب دعوة نبيه ومصطفاه صلوات الله وسلامه وبركاته عليه . قال : ((**اللهم لا تجعل قبري وثنا يُعبد**))

يستفاد من هذا الحديث فيما يتعلق بالترجمة أن الغلو في قبور الصالحين يصيِّرها أوثانا تُعبد ، وأنها إن عُبدت صارت بتلك العبادة أوثاناً ، لأن الوثن: هو ما اتُخذ معبوداً ؛ أياً كان شجرةً حجراً قبرا أيا كان، ما اتخذ معبودا من دون الله تبارك وتعالى فإنه يسمى وثنا .

ثم قال عليه الصلاة والسلام : ((**اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**)) ؛ في قوله «اشتد غضب الله» فيه إثبات الغضب صفةً لله سبحانه وتعالى ، وهذه الصفة جاءت في مواضع في القرآن الكريم ، وأن غضبه سبحانه وتعالى على أهل المعاصي والجرائم والذنوب يشتد بحسب حجم المعصية وحجم الجرم ، وهذا العمل وهذه الممارسة -اتخاذ قبور الأنبياء مساجد- يصيِّرها أوثانا تُعبد ؛ فهو فعلٌ يشتد غضب الرب سبحانه وتعالى عند فعله ، إذا فُعل هذا الأمر فإن الله سبحانه وتعالى يغضب ويشتد غضبه على فاعل ذلك .

قال ((**اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**)) تقدم معنا أن هؤلاء شرار الخلق في الترجمة الماضية ، وتقدم معنا أن النبي عليه الصلاة والسلام لعن فاعل ذلك ، واللعن لا يكون إلا في الكبائر والجرائم العظام ، فلعَن عليه الصلاة والسلام فاعل ذلك ، وكان هذا اللعن لفاعل ذلك في لحظاته الأخيرة من الحياة ، قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها راوية ذلك عنه عليه الصلاة والسلام : ((يحذر مما صنعوا)) ؛ يلعن اليهود والنصارى في اتخاذ قبور أنبياءهم مساجد تحذيراً مما صنعوا .

وسبحان الله!! تجد بعض الناس ممن ابتلي بالانحراف في هذا الباب يترك هذا اللعن الواضح البين الذي هو في لحظات النبي عليه الصلاة والسلام الأخيرة ويحذّر مما صنعوا يترك ذلك ويستدل بما جاء في سورة الكهف ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا(٢١) ﴾؛ أي الفتية أصحاب الكهف . فيترك اللعن الصريح الثابت عن النبي عليه الصلاة والسلام ويستدل بـ ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ﴾ ، من هم هؤلاء الذين سيحاكي فعلهم ويترك لعن النبي صلى الله عليه وسلم لفاعل ذلك ؟

وهنا أيضاً أسألكم سؤال في رد الاستدلال بهذه الآية : هل يناسب أن يقال "هذا شرع من قبلنا وجاء شرعنا بخلافه" ؟ الاستدلال بها على هذا الأمر باطل ؛ لكن هل يصح أن يقال هذا شرع من قبلنا وجاء شرعنا بخلافه ؟ جاء شرعنا بنسخه مثلا ؟ الجواب لا ؛ لأن النبي عليه الصلاة والسلام قال : ((لعنة الله على اليهود والنصارى)) لعن من فعلوا ذلك ولو كان شرعًا لهم لم يلعن ، قال ((لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبياءهم مساجد)) يتحدث عن الأمم التي قبل ويلعن فاعل ذلك ؛ فهذا يُعرف أنه ليس شرعًا لهم .

إذاً هؤلاء الذين قالوا «لنتخذن عليهم مسجدا» كيف يأتي آتٍ ويأخذه حجةً له ويترك اللعن الصريح ؟! ثم من هم هؤلاء الذين قالوا ذلك ؟ ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ﴾ وفي الأظهر من أقوال أهل العلم أنهم ليسو مسلمين قائلو هذه الكلمة ، أنهم ليسو من أهل الإسلام ، والذي يقرأ سياق الآيات في سورة الكهف يتضح له ذلك . وإذا قيل إنهم مثلاً مسلمين فهذا فعلٌ صدر عن جهل وعدم بصيرة فلا يُعد حجة ؛ ولهذا نُسب إلى فاعل ذلك بأهل الغلبة أهل الظهور . وسبحان الله !! عادةً البناء على القبور وتشييدها غالباً ما يكون من عوام الناس والفقراء والضعفة ، لا ؛ يكون من أهل الغلبة وأهل الظهور فيمن يريدون أن يعظمونه ، سواءً من رئيس أو رجل صالح أو غير ذلك يكون الفعل من هؤلاء .

وفي حديث الترجمة يقول النبي عليه الصلاة والسلام : ((اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)) وعرفنا فيما سبق أن اتخاذ قبور الأنبياء أو الصالحين مساجد يكون إما بالبناء عليها ومر معنا شاهد ذلك في حديث أم سلمة المتقدم ، أو بقصدها لتحري العبادة عندها وتحري الدعاء عندها ؛ فبهذا أو ذاك يكون اتخذ

القبر مسجداً ، من تحرى العبادة عند القبر ولو لم يُبنَ عليه البناء العالي فإنه يكون قد اتُخذ مسجدا ، وفيه ما جاء في هذا الحديث أن غضب الله سبحانه وتعالى اشتد على فاعل ذلك .

قال رحمه الله تعالى :

ولابن جرير بسنده عن سفيان عن منصور عن مجاهد في قوله تعالى : {أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى}[النجم:١٩] قال: «كان يلت لهم السويق فمات فعكفوا على قبره» . وكذا قال أبو الجوزاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان يلت لهم السويق للحاج» .

****

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الأثر في تفسير الآية الكريمة في سورة النجم : ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى (٢١) تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى (٢٢) إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾ من هو اللات ؟

فأورد رحمه الله تعالى أثراً عن مجاهد رحمه الله تعالى من علماء التابعين ومن أجلَّة علماء التابعين رحمه الله ، وآخر عن ابن عباس رضي الله عنهما في المراد باللات من هو ؟

قال : ((**كان يلُت لهم السويق**)) ؛ والسويق : هو طعام يُصنع من الحنطة أو الشعير ويُبلُّ بسمنٍ مثلا أو بعسل ويؤكل طعاماً ، فكان هذا الرجل يلُت لهم – والضمير يعود على الحاج وقاصدي بيت الله الحرام – فكان يلت لهم السويق ؛ يعني رجل معروف بالكرم ، اشتُهر بالكرم والإحسان إلى الحجاج ، وله صخرة يعجن أو يصنع عليها هذا الطعام ويقدمه للحاج أي بدون مقابل وإنما إكراماً وإحسانا إلى الحاج ، فرجل اشتهر بالكرم وعُرف بين الناس بالكرم. قال «كان يلت لهم السويق» يعني عرفوه بالكرم عرفوه بالخلق الفاضل عرفوه بالمعاونة والمساعدة للحجاج ؛ هذه المعاني الجميلة عرفوه بها ، لما مات ماذا صنعوا ؟ انظروا في الأمر الذي يتكرر عبر التاريخ فيمن اشتُهر بصلاحٍ أو نحو ذلك .

قال: ((**كان يلت لهم السويق فمات فعكفوا على قبره**)) ؛ عكوفهم على قبره أصبحوا بذلك العكوف على قبره صيَّروه وثناً ؛ ولهذا عد من جملة الأوثان ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى (٢١) تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى (٢٢) إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ فصار وثناً من جملة هذه الأوثان ، هو في الأصل قبر مثل غيره من القبور لكن لمات عبدوه صار ذلك القبر وثناً ((فعكفوا على قبره)) .

قال : ((**وكذا قال أبو الجوزاء عن ابن عباس : كان يلت لهم السويق للحاج**)) ؛ يلت : أي يصنعه لهم ؛ يخلط الحنطة أو الشعير بسمن أو بعسل أو نحو ذلك ويقدمه للحاج إكراماً لهم ، اشتهر بهذا الأمر وعُرف به ، ومثل ما تقدم في أثر مجاهد لما مات عكفوا على قبره .

والمراد بسوق المصنف رحمه الله تعالى لهذين الأثرين : بيان ما ترجم لأجله ؛ ألا وهو أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثاناً تُعبد من دون الله .

قال رحمه الله تعالى :

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم زائرات القبور ، والمتخذين عليها المساجد والسرج » رواه أهل السنن .

****

ثم ختم رحمه الله تعالى هذه الترجمة بهذا الحديث حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال : ((**لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم زائرات القبور**)) ؛ واللعن كما تقدم لا يكون إلا في الكبائر ، لا يكون اللعن في صغائر الذنوب وإنما يكون في الكبائر . فهذا فيه دليل على أن هذا الأمر من الكبائر وإلا لم يَلعن النبي عليه الصلاة والسلام فاعله ، فاللعن لا يكون إلا في الكبائر . والكبيرة تُعرف : بمجيء اللعن لفاعلها ، أو الإخبار أنه من أهل النار ، أو أنه لا يدخل الجنة ، أو نفي الإيمان عنه ؛ فالكبيرة تعرف بذلك . فإذاً هذا اللعن يدل على أن هذا الأمر من الكبائر .

قال : ((**لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم زائرات القبور**)) وقد جاء عنه في حديث آخر أنه عليه الصلاة والسلام قال : ((كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها)) والخطاب هنا للذكور ((ألا فزوروها فإنها تذكركم الآخرة)) ، أما النساء لا يدخلن في ذلك لما جاء في هذا الحديث من لعن من فعلت ذلك ((لعن الله زائرات القبور)) . والحديث وإن كان في سنده كلام إلا أنه ثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام بلفظ ((لعن الله زوارات القبور)) ، وهذه الصيغة «زوارات» صيغة مبالغة ، لكن هذه الصيغة تأتي في مواضع ولا يراد بها المبالغة وإنما يراد بها النسبة، زوارات : أي ذات الزيارة للقبور من يزرن القبور ، فتأتي هذه الصيغة فعَّال ولا يراد المبالغة ، مثل ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦] أي ليس بذي ظلم لهم ، ليس المراد نفي المبالغة في الظلم وإنما نفي الظلم من أصله . ولهذا نظائر كثيرة حتى في ألفاظ الناس العادية يأتي ذكر ذلك ولا يراد المبالغة وإنما تراد النسبة ، مثل «نجار» أي صاحب نجارة منسوب للنجارة ، «حداد» منسوب للحدادة ، وهكذا .

فجاء هذا الوعيد ((**لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم زائرات القبور**)) ؛ قال أهل العلم : مُنع النساء من الزيارة مع أن زيارة القبور فيها مصلحة : تذكر الآخرة ، والدعاء للميت ((ألا فزوروها فإنها تذكركم الآخرة)) هذه مصلحة ، وأيضا فيها الدعاء للميت وعلَّم النبي صلى الله عليه وسلم من يزور القبور ماذا يقول ، ففيها مصلحة الزيارة . لكن هذه المصلحة يقابلها مفسدة إذا زارت المرأة القبور ، وهو ما جُبلت عليه المرأة من ضعف وعدم احتمال ، ولهذا جاء في الحديث ((والنائحة إذا لم تتب)) ، مع أن الحكم يشمل الرجال والنساء ، لكن خُصت المرأة بالذكر لأن المرأة أسرع للجزع وأضعف عن الاحتمال ، إضافة إلى أمورٍ أخرى تترتب على قصد المرأة وزيارتها للقبور .

فإذاً ثمة مفسدة ، لأجل درء تلك المفسدة مُنعت من ذلك مع وجود تلك المصلحة . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى : تحصيل تلك المصلحة ممكنة بدون الزيارة ، الدعاء للأموات ممكن وإن لم يزرهم ، فتدعو للأموات في بيتها، وتذكر الآخرة أيضاً له وسائل وطرق ليس لا يكون إلا بالزيارة للقبور فقط ، فتحصيل هذه المصلحة ممكنة بدون الزيارة ، ومُنعت من الزيارة لما يترتب عليها من مفسدة تخص المرأة وتتعلق بها .

والمسألة فيها خلاف بين أهل العلم معروف، لكن هذا هو الصحيح من أقوال أهل العلم : أن المرأة منهية عن زيارة القبور؛ لما جاء في هذا الحديث المشتمل على اللعن – لعن المرأة في هذا الفعل – . والقول الآخر يقولون : أن زيارة المرأة للقبور جائز .

وإذا تركت المرأة هذا الجائز على قول ، أهل ذلك القول لا يقولون واجب عليها ويلزمها الزيارة وإنما يقولون يجوز لها أن تزور القبور ، فإن تركت هذا الجائز في قول لأهل العلم سلامةً من اللعنة والوعيد الشديد الوارد في هذا الحديث فهذا الذي ينبغي أن تكون عليه المرأة وأن تجتنب زيارة القبور لما في ذلكم من وعيدٍ ثبت عن نبينا الكريم صلوات الله وسلامه عليه .

قال : ((**والمتخذين عليها المساجد والسرج**)) أي ولعَن رسول الله صلى الله عليه وسلم المتخذين عليها المساجد والسرج . المتخذين عليها المساجد مر لعنهم في حديث عائشة رضي الله عنها في لحظاته الأخيرة ((لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)) ، ولماذا لُعن فاعل ذلك؟ لماذا لُعن من يتخذ القبور مساجد لأي شيء ؟ لأن هذا بوابة للشرك ومدخل يفضي بصاحبه إلى الشرك بالله سبحانه وتعالى . واتخاذها مساجد يكون : إما بالبناء عليها أو بقصدها لتحري العبادة عندها ؛ فهذا أو ذاك ذريعة للشرك وأمرٌ يفضي ويؤدي إليه ، فجاء هذا اللعن تحذيراً من ذلك .

وانظر الجمع بين الوسيلة وما تفضي إليه من شركٍ بالله في الحديث الذي تقدم معنا في هذه الترجمة ؛ قال: ((اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبياءهم مساجد)) ، فاتخاذ القبور مساجد الذي اشتد غضب الله على فاعليه يفضي إلى أن تُعبد وتُتخذ وثناً من دون الله .

فإذاً هذا اللعن –لعن متخذي قبور الأنبياء أو الصالحين مساجد– لأنها تفضي إلى الشرك . ومثله تماماً اتخاذ السرج عليها . السُرج : جمع سراج مثل كتب جمع كتاب . متخذي السرج عليها : الذين يضعون هذا القبور بناء يبنون عليها الأبنية ، ويتخذون السرج يعني يضعون الإضاءات القناديل ونحوها ويزينونها بالإضاءات ، وإذا جاء العامي يجد أن هذا شيء آخر غير القبور التي يعرفها ، يجد أن هذا شيء آخر وبناية عظيمة وإضاءة قوية وزخرفة وزينة ، ويكون جاهلاً لا يعي شيئاً فتأخذ هذه الزينة وهذه الزخرفة قلبه وتسلِب عقله ويتجه تبركاً وقصداً وعكوفاً وغير ذلك ؛ فجاء عن النبي عليه الصلاة والسلام اللعن لفاعل ذلك ؛ من يتخذ عليها المساجد بالبناء على القبور، وأيضا السرُج ؛ يضع فيها الإضاءات ، وأيضاً ما يلحق ذلك من أمور الزينة التي توضع ، حتى إن بعض القبور بالذهب تُزيَّن!! تجد المنطقة التي فيها هذا القبر مزين بالزخرفة مليئة بالفقراء ولا يتصدَّقون عليهم بشيء من الذهب ، ولو تصدقوا عليهم بشيء من الذهب لوجدوه عند الله سبحانه وتعالى ثواباً وأجرا ، لكن ينفقونها في هذا الباطل ويبنون عليها يزخرفونها يزينونها يضعون القناديل .
ففيه اللعن قال: ((والمتخذين عليها المساجد والسرج)) ؛ العلة في لعن اتخاذ السرج على القبور هو نفس العلة التي في اتخاذ المساجد عليها لأنه يفضي إلى الشرك ووسيلة من وسائلة أو ذريعة من ذرائعه ، فحمى نبينا عليه الصلاة والسلام حمى التوحيد وصان جنابه وسد كل أمرٍ يفضي إلى الإشراك بالله سبحانه وتعالى .
وتأتي الترجمة القادمة إن شاء الله في تقرير هذا المعنى ((باب ما جاء في حماية المصطفى صلى الله عليه وسلم جناب التوحيد وسدِّه كل طريق يوصل إلى الشرك)) ، فالمنع من اتخاذها مساجد ، المنع من اتخاذ السرج عليها ، إلى غير ذلك من الأمور كلها من أجل ما تفضي إليه تلك الأمور من شرك بالله سبحانه وتعالى ، فحمى المصطفى عليه الصلاة والسلام جناب التوحيد وسد كل طريقٍ يوصل إلى الشرك بالله عز وجل .

قال رحمه الله تعالى :

فيه مسائل ؛ الأولى : تفسير الأوثان .

قال رحمه الله تعالى وغفر له وأسكنه فردوسه الأعلى : «فيه مسائل ؛ الأولى : تفسير الأوثان»؛ والأوثان : جمع وثن ، والوثن : هو ما اتُخذ معبوداً ؛ أياً كان حجراً شجراً قبراً أياً كان ؛ ما اتُخذ وثنا يعبد يُقصد بالعبادة فإنه وثن، حتى لو كان قبر رجل صالح ، وعرفنا دليل ذلكم في الحديث ((اللهم لا تجعل قبري وثنًا يُعبد)) .

الثانية : تفسير العبادة .

قال ((اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد)) والعبادة التي تكون عند القبور بالعكوف عندها ، طول القيام والمكث ، التماس البركة أن تَفيض عليه البركة من هذا المقبور الذي قصَد قبره ، ثم بعد ذلك يزداد في هذا الأمر إلى أن يدعوه ويستغيث به ويسجد له من دون الله تبارك وتعالى ، إلى غير ذلكم من أنواع العبادات .

الثالثة : أنه صلى الله عليه وسلم لم يستعذ إلا مما يَخاف وقوعَه .

فالاستعاذة في الحديث قال ((اللهم لا تجعل قبري)) ، يستعيذ بالله يلتجئ إلى الله عز وجل أن يصون قبره وأن يحميه أن لا يكون وثنا يعبد ، فلم يستعذ عليه الصلاة والسلام إلا مما يخاف وقوعه ، لأن هذا شيء وقع فيما قبل ؛ فخاف ذلك فدعا الله عز وجل وأجاب الله سبحانه وتعالى رب العالمين دعاءه .

الرابعة : قرْنه بهذا اتخاذ قبور الأنبياء مساجد .

هذا فيه فائدة ثمينة ينبه عليها رحمه الله : «قرْنه بهذا اتخاذ قبور الأنبياء مساجد»؛ لأنه لما قال ((اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد)) أتبع ذلك بقوله ((اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)) ؛ وهذا فيه التنبيه – يعني قرْنه به– فيه التنبيه إلى أن اتخاذ قبور الأنبياء مساجد يفضي إلى عبادتها ؛ فتكون وثناً .

الخامسة : ذكر شدة الغضب من الله .

أي في قوله عليه الصلاة والسلام ((اشتد غضب الله)) ، واشتداد الغضب لا يكون إلا في الكبائر وعظائم الذنوب والأمور الخطيرة التي تجر إلى أشياء عظيمة جداً ، وهذا فيه كما قدمت فيه إثبات الغضب صفة لله سبحانه وتعالى وهي ثابتة في كتاب الله وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه . والقاعدة أن يُؤمَن بصفات الله كما جاءت وتُثبت كما وردت على وجه يليق بالله سبحانه وتعالى وبكماله وجلاله وعظمته .

السادسة وهي من أهمها : صفة معرفة عبادة اللات التي هي من أكبر الأوثان .

اللات وثن من أكبر الأوثان ، عندما بُعث النبي عليه الصلاة والسلام كان هذا الوثن من أكبر الأوثان القائمة المقصودة المعبودة ؛ فهنا ينبه الشيخ رحمه الله بما نقله عن مجاهد ثم عن ابن عباس رضي الله عنهما إلى أن صفة عبادة اللات أنه في الأصل كان رجلاً كريماً يكرم الحاج ويصنع لهم السويق فلما مات عكفوا على قبره ، فمعرفة صفة عبادة اللات التي هي من الأوثان أي أنها من خلال هذا الطريق : تعظيم القبور والغلو فيها المفضي إلى عبادتها واتخاذها وثنا ، وشاهدُ ذلك قصة اللات ، اللات في الأصل رجل معروف بالكرم ومعاونة الحجاج ومساعدتهم وتقديم الطعام لهم فلما مات عكفوا على قبره .

السابعة : معرفة أنه قبر رجل صالح .

يعني معروف بهذه المعاني : الكرم ، وخدمة الحجاج ومساعدتهم ، وصنع الطعام لهم ؛ فهو معروف عنه عند الناس بذلك ؛ فلما مات عكفوا على قبره . فهذا فيه شاهد الترجمة ((أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثانا تُعبد من دون الله)) مثل ما صُنع في اللات .

الثامنة : أنه اسم صاحب القبر ، وذِكر معنى التسمية .

الثامنة : أنه اسم صاحب القبر ؛ يعني هذا الوثن الذي يُقصد يقصده المشركون من الأنحاء والجهات يتقربون إليه اسمه اللات ، اسم الوثن اللات ، من أي جاءت هذه التسمية ؟ قال : «أنه اسم صاحب القبر» أي ذلك الرجل الذي كان يلت السويق. وذِكر معنى التسمية «اللات» من اللَّت الذي هو لت السويق : صُنعه وتهيئته من أجل أن يقدَّم للحجاج .

التاسعة : لعنة زوارات القبور .

لعنة زوارات القبور أي من يزرن القبور ، وهذه الصيغة وإن كانت صيغة مبالغة إلا أنه لا يُقصد هنا المبالغة وإنما يُقصد النسبة ، زوارات أي من يزرن القبور ؛ ففيه اللعن لمن فعل ذلك ، وهذا فيه أن المرأة منهية عن زيارة القبور .

العاشرة : لعنه من أسرجها .

لعنه صلى الله عليه وسلم من أسرجها أي : من أسرج القبور بأن وضع عليها السرج ، والسرج : جمع سراج ، وهي الإضاءة القناديل التي توضع في المكان حتى يضيء . فاتخاذ السرج أو أيضا ما يتبع ذلك من زخرفة وزينة وستائر وغير ذلك من الأمور التي تأخذ بعقول الجهال كلها تأخذ هذا الحكم ، لأنها مما يفضي ويؤدي بفاعل ذلك أو بمن يشاهد ذلك إلى عبادتها من دون الله تبارك وتعالى .

وبهذا تكون انتهت هذه الترجمة ، ومن المناسب أن نقف فيما يتعلق بهذه الترجمة على نصٍّ ثمين وعظيم جداً من كتاب إغاثة اللهفان للإمام ابن القيم رحمه الله تعالى .

قال رحمه الله تعالى : [ومن جمع بين سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في القبور وما أمر به ونهى عنه وما كان عليه أصحابه وبين ما عليه أكثر الناس اليوم رأى أحدهما مضاداً للآخر مناقضاً له بحيث لا يجتمعان أبداً [1] . فنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصلاة إلى القبور وهؤلاء يصلون عندها. ونهى عن اتخاذها مساجد وهؤلاء

[1] الآن سيذكر رحمه الله تعالى أمثلة كثيرة على ما جاءت به السنة فيما يتعلق بالقبور ، ثم واقع كثير من الناس فيما يتعلق بهذا الأمر .

يبنون عليها المساجد ويسمونها مشاهد مضاهاةً لبيوت الله تعالى . ونهى عن إيقاد السرج عليها وهؤلاء يوقفون الوقوف على إيقاد القناديل عليها . ونهى أن تُتخذ أعياداً وهؤلاء يتخذونها أعياداً ومناسك ويجتمعون لها كاجتماعهم للعيد أو أكثر . وأمر بتسويتها كما روى مسلم في صحيحه عن أبي الهياج الأسدي قال: قال علي ابن أبي طالب رضي الله عنه: "أَلا أَبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي عليهِ رَسُولُ صلّى اللهُ تَعالَى عَلَيْهِ وَسلّم أَنْ لا تَدَعَ تِمْثَالاً إِلا طَمَسْتَهُ، وَلا قَبْرًا مُشْرِفاً إِلا سَوَّيْتَهُ". وفي صحيحه أيضاً عن ثمامة بن شفي قال: "كنا مع فضالة بن عُبيد بأرض الروم ، فتوفى صاحب لنا فأمر فضالة بقبره فسوِّى ثم قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر بتسويتها " وهؤلاء يبالغون في مخالفة هذين الحديثين ويرفعونها عن الأرض كالبيت ويعقدون عليها القباب . ونهى عن تجصيص القبر والبناء عليه، كما روى مسلم في صحيحه عن جابر قال: "نَهَى رَسُولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلم عَنْ تَجْصِيصِ الْقَبْرِ وَأَنْ يُقْعَدَ عَلَيْهِ وَأَنْ يُبْنَى عَلَيْهِ بِنَاءٌ". ونهى عن الكتابة عليها كما روى أبو داود والترمذي في سننهما عن جابر رضي الله عنه "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نَهَى أنْ تُجَصَّصَ الْقُبُورُ وَأَنْ يُكْتَبَ عَلَيْهَا" قال الترمذي: حديث حسن صحيح، وهؤلاء يتخذون عليها الألواح ويكتبون عليها القرآن وغيره. ونهى أن يزاد عليها غير ترابها كما روى أبو داود من حديث جابر أيضاً " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى أن يجصص القبر أو يكتب عليه أو يزاد عليه" وهؤلاء لا يزيدون عليه سوى التراب الآجر والأحجار والجُص. والمقصود: أن هؤلاء المعظمين للقبور المتخذينها أعياداً الموقدين عليها السرج الذين يبنون عليها المساجد والقباب مناقضون لما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم محادُّون لما جاء به ، وأعظم ذلك اتخاذها مساجد وإيقاد السرج عليها وهو من الكبائر . وقد صرَّح الفقهاء من أصحاب أحمد وغيرهم بتحريمه ، قال أبو محمد المقدسي: "ولو أبيح اتخاذ السرج عليها لم يلعن النبي صلى الله عليه وسلم من فعله " ، ولأن فيه تضييعاً للمال في غير فائدة وإفراطاً في تعظيم القبور أشبه تعظيم الأصنام ، قال: "ولا يجوز اتخاذ المساجد على القبور" لهذا الخبر ، ولأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لعن الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، يحذر ما صنعوا" متفق عليه. وقالت عائشة رضي الله عنها : "إنما لم يبرَز قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم لئلا يتخذ مسجداً" لأن تخصيص القبور بالصلاة عندها يشبه تعظيم الأصنام بالسجود لها والتقرب إليها . وقد روِّينا أن ابتداء عبادة الأصنام تعظيم الأموات باتخاذ صورهم والتمسح بها والصلاة عندها] انتهى.

وهذا النص لابن القيم رحمه الله تعالى بالرجوع إلى كتابه إغاثة اللهفان يقف طالب العلم على فوائد عظيمة جدا قبل هذا النص وبعده تتعلق بهذه المسألة ، وتطرَّق إليها لأنها بابٌ من أبواب مصائد الشيطان التي من خلالها صرف الناس عن عبادة الرحمن إلى اتخاذ الأوثان .

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك

اللهم صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

الدرس الثالث والعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد :

يقول شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله وغفر له وللشارح والسامعين في كتابه التوحيد الذي هو حق الله على العبيد :

باب ما جاء في حماية المصطفى صلى الله عليه وسلم جناب التوحيد وسدِّه كل طريقٍ يوصل إلى الشرك

وقوله تعالى : {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} [التوبة:١٢٨] .

****

هذه الترجمة العظيمة في كتاب التوحيد عقدها الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى لبيان كمال حرص النبي عليه الصلاة والسلام وعظيم نصحه في بيان التوحيد وحماية حماه ، وسدِّ كل ذريعة أو طريق أو سبيل يفضي إلى الإشراك بالله سبحانه وتعالى ، وذلك أن التوحيد أعظم المطالب وأجلُّ المقاصد على الإطلاق وهو الغاية التي خُلق الخلق لأجلها وأوجدوا لتحقيقها كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦] ؛ فبيَّن نبينا عليه الصلاة والسلام التوحيد أتم بيان وأوضحه أكمل إيضاح صلوات الله وسلامه عليه ؛ بإقامة البراهين الواضحات والدلائل الساطعات والحجج البينات ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال:٤٢] ، ومن عظيم نصحه عليه الصلاة والسلام وكمال بيانه لهذا المقام مقام التوحيد أنه عليه الصلاة والسلام حمى حماه وسدَّ كل ذريعة تفضي إلى الإشراك بالله سبحانه وتعالى ، وقد جاء عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : ((بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ)) ، والحنيفية: هي التوحيد ملة إبراهيم الخليل عليه صلوات الله وسلامه ، فبُعث نبينا عليه الصلاة والسلام بالحنيفية السمحة ؛ أمران بُعث بهما صلوات الله وسلامه : الحنيفية ، السمحة . الحنيفية فيها توحيد الله عز وجل وإخلاص الدين له والبراءة من الشرك وأهله فهي تتعلق بالتوحيد ، والسمحة أي في الأوامر والتكاليف والأعمال فهي سمحة في الأعمال .

شريعة نبينا عليه الصلاة والسلام من أشد الشرائع في أمر التوحيد وما يتعلق به ، وأسمح الشرائع فيما يتعلق بالأعمال ، قد قال عليه الصلاة والسلام : ((إِنَّ هَذَا الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ)) ، ولهذا تجد

في النصوص –ومن ذلكم ما سيظهر لنا من خلال هذا الباب العظيم– أنَّ أيَّ أمرٍ يخدش جناب التوحيد أو يخل به أو يُنقصه أو يقدح فيه فإن النبي عليه الصلاة والسلام يغلقه تمام الإغلاق وينهى عنه أشد النهي ؛ صيانةً للتوحيد وحماية لحماه . وهذا أمرٌ ظاهر في الأحاديث الكثيرة المروية عنه صلوات الله وسلامه عليه فيما يتعلق بهذا الأمر ، بينما فيما يتعلق بالشرائع والأعمال فهو دينٌ سمح ، دين يسرٍ ، دين لا عنت فيه ولا مشقة على العباد كما مر معنا في الحديث ((إِنَّ هَذَا الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ)) .

وهذه الترجمة عقدها رحمه الله تعالى لبيان هذا الأمر ، وإن كان قد مر معنا في الأبواب المتقدمة ولاسيما الأبواب الأخيرة من الشواهد والدلائل على حماية المصطفى صلى الله عليه وسلم حمى التوحيد وسدِّه لكل ذريعة تفضي إلى الإشراك بالله إلا أن المصنف رحمه الله تعالى لعظم هذا المقام وجلالة قدره وأهمية بيانه وإيضاحه خصه رحمه الله تعالى بترجمةٍ خاصةٍ بيَّن فيها ذلك بسوق بعض الدلائل والشواهد والبراهين على ذلك .

وقوله رحمه الله تعالى ((**بابٌ ما جاء**)) أي في الأدلة من كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ((**في حماية المصطفى**)) أي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو المصطفى لأن الله اصطفاه ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج:٧٥] والاصطفاء هو الاختبار والاجتباء ، فالله عز وجل اصطفى محمدا عليه صلوات الله وسلامه واجتباه فجعله خير عباده وأفضل رسله صلى الله عليه وسلم ، وهو خليل الرحمن وكليم الرحمن وخير عباد الله سبحانه وتعالى وأفضل رسله الكرام صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

قال: ((**حماية المصطفى صلى الله عليه وسلم جناب التوحيد**)) وجناب بمعنى جانب . جناب التوحيد: أي مقام التوحيد ومكانته الرفيعة ومنزلته العلية ، فإن النبي عليه الصلاة والسلام حمى حِمى التوحيد ؛ أي أنه بيَّن التوحيد وإضافة إلى هذا البيان والإيضاح جاء بأمورٍ الهدف منها أن يصان التوحيد وأن يُحمى من كل أمرٍ يخدشه أو يُخلُّ به ، مثل عندما يُعنى شخص بحديقة يضع فيها أنواع الأشجار والزهور وغير ذلك ثم يضع لها حمى يُقصد منه ألَّا يوصَل إلى تلك الثمار بأي ضرر أو بأيِّ نوع من الأذى ، ولعل هذا المعنى يظهر بشكل أوضح وأظهر في قول نبينا عليه الصلاة والسلام ((أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا وَإِنَّ حِمَى اللهِ مَحَارِمُهُ)) ، فالنبي عليه الصلاة والسلام بيَّن التوحيد وحماه ، جاء بأمورٍ الهدف منها حماية التوحيد. حمايته من ماذا ؟ حمايته من شركٍ ينقضه ، أو بدعةٍ تقدح فيه ، أو معصيةٍ تُنقصه ؛ فجاء عليه الصلاة والسلام بالبيان البيِّن والإيضاح الكامل لهذا المقام معذرةً إلى الله سبحانه وتعالى ونصحًا للعباد .

وقوله رحمه الله تعالى : ((**وسدِّه كل طريقٍ يوصل إلى الشرك**)) ؛ وهذا من عظيم نصحه وكمال حرصه عليه الصلاة والسلام أنَّ كل أمرٍ من الأمور يفضي بالناس إلى الإشراك بالله سبحانه وتعالى فإنه نهى عنه وحذَّر منه ونهى من قربانه ، كل أمرٍ يؤدي بالعباد كل ذريعة تفضي بالناس إلى الإشراك بالله سبحانه وتعالى فإنه عليه الصلاة

والسلام جاء بالنهي عن ذلك ، حتى وإن قال القائل :لم أقصد ، كل أمر يفضي إلى الإشراك بالله فإن النبي عليه الصلاة والسلام جاء بالنهي عنه والمنع من فعله ؛ لماذا ؟ حرصاً على العباد ونصحاً لهم حتى لا يصِلوا إلى الإشراك بالله سبحانه وتعالى .

قال ((**باب ما جاء في حماية المصطفى صلى الله عليه وسلم جناب التوحيد وسده كل طريق يوصل إلى الشرك وقول الله تعالى** : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾)) ؛

والله ما أجمل استدلال المصنف رحمه الله تعالى على هذه الترجمة بهذه الآية الكريمة ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ ؛ هذه الآية ماذا فيها ؟ فيها ذكر أوصاف هذا الرسول عليه الصلاة والسلام العظيمة ومناقبه الجليلة وخصاله الرفيعة العليَّة صلوات الله وسلامه عليه .

﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ**﴾أي تعرفونه ، تعرفون نسبه ، تعرفون حسبه ، تعرفون صفاته وأعماله ، تعرفون صدقه وأمانته ، ليس رجلاً بعيدًا أو رجلا غريباً وإنما رجل منكم وفيكم ونشأ بينكم ، تعرفونه تعرفون خصاله تعرفون وفاءه تعرفون أمانته ؛ وهذا من الأمور التي تدفع وتعين على القبول؛ قبول ما جاء به صلوات الله وسلامه عليه ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ .

﴿**عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ**﴾ «عزيز عليه» أي على هذا الرسول «ما عنتم» أي: أن كل أمر يسبِّب لكم عنتاً أذى ألماً مشقة هلكةً فإنه عزيز عليه ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ ، فهو يأخذ بأمته مأخذاً لا يكون فيه عليهم عنت ولا يكون عليهم فيه مشقة ، بل يأخذهم المأخذ الهين الليّن السمح الرفيق ، وهذا من كمال نصحه عليه الصلاة والسلام .

﴿**حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ**﴾ أي في بيان ما فيه مصالحكم الدينية والدنيوية ومنافعكم وما فيه سعادتكم، حريصٌ عليكم أي أشد الحرص ، والحرص يتكون من رغبة عظيمة قائمة بالنفس وعملٍ وجهدٍ يبذله ويقدِّمه . فالنبي عليه الصلاة والسلام قام في نفسه وقلبه حرص عظيم على أمته سعادةً لها ورفعةً وسلامةً ، وتبع هذا الذي قام في نفسه عليه الصلاة والسلام عمل دؤوب وجهد جهيد ودأب عظيم في توجيه أمته إلى ما فيه سعادتها وفلاحها في الدنيا والآخرة .

﴿**بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ**﴾ أي بالمؤمنين به صلوات الله وسلامه عليه وبما جاء به صلى الله عليه وسلم رؤوف رحيم .

هذه الصفات عندما تقرأها وتتأملها في هذا الرسول العظيم صلوات الله وسلامه عليه ؛ أيُعقل أن تجتمع فيه هذه الصفات ومن بينها ما ذكره الله عنه ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ ثم يترك مقام التوحيد دون أن يحمي حماه؟! وأيضاً ما يتعلق

بالشرك دون أن يسد الذرائع المفضية إليه ؟! أيكون ذلكم من الحريص أشد الحرص على أمته صلوات الله وسلامه عليه؟! قال بعض السلف قديماً : محالٌ أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم بيّن للأمة آداب قضاء الحاجة أتم البيان ولم يبين التوحيد . الآن عندما تنظر فيما يتعلق بقضاء الحاجة آداب عظيمة جداً تُشعرك أيها المسلم بكمال هذا الدين الذي منَّ الله عليك به ، آداب رفيعة وعلية جدًا لا يجدها أي شخص في غير الإسلام ؛ كيف يقضي الإنسان حاجته ، كيف يجلس ، كيف يزيل وينظف الخارج من السبيلين ، ماذا يستعمل من أدوات في التنظيف ، كيف يستتر ، كيف يستبرئ ، آداب رفيعة وعالية جداً بيَّنها عليه الصلاة والسلام بيانًا دقيقاً مفصلا وهذا من كمال نصحه ؛ إذا كان ما يتعلق بآداب قضاء الحاجة بُيِّن وفصِّل هذا البيان البين والتفصيل الواضح أيعقل أن يبين ما يتعلق بآداب قضاء الحاجة بهذا التفصيل الواسع البيِّن ولا يبين ما يتعلق بالتوحيد الذي هو أهم المطالب وأعظم المقاصد ؟! لا يعقل أبداً ومحال أن يكون ذلك .

فإذاً يدخل تحت قوله تعالى ﴿ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ ﴾ ما يتعلق بأمر التوحيد دخولاً أولياً ؛ لماذا ؟ لأن التوحيد أعظم المطالب وأجل المقاصد وأوْلى الأمور بأن يُحرص عليه وأن يُعتنى به وهو زبدة دعوة النبيين وخلاصة رسالتهم ؛ أول ما يبدؤون أقوامهم به صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . إذاً هذه الأوصاف وبخاصة قول الله تعالى ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ تدل أوضح دلالة أن النبي عليه الصلاة والسلام بيَّن التوحيد وحمى حماه وسدَّ كل ذريعةٍ تفضي بالناس إلى الإشراك بالله سبحانه وتعالى .

قال رحمه الله :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لا تجعلوا بيوتكم قبورا ، ولا تجعلوا قبري عيدا ، وصلوا عليَّ فان صلاتكم تبلغني حيث كنتم» رواه أبو داود بإسناد حسن ورواته ثقات .

****

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث العظيم حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((**لا تجعلوا بيوتكم قبورا**)) ؛ ما معنى ذلك ؟ كيف يصبح الرجل قد جعل بيته من القبور أو شبيهاً بالقبور ؟ الحديث يحتمل معنيين كلاهما داخل في معناه ويتناولهما الحديث بعمومه :

- ((لا تجعلوا بيوتكم قبورا)) فيه دلالة على أنه لا يجوز دفن الميت في البيت ، البيت ليس مكاناً لدفن الأموات، وفيما يتعلق بنبينا عليه الصلاة والسلام دُفن في بيت عائشة وهذا من خصائصه صلوات الله وسلامه عليه لأنه قد صح عنه أن الأنبياء يُدفنون حيث ماتوا ، هذا أمرٌ خاص بالأنبياء ، الأنبياء يدفنون حيث ماتوا ، وقد مات عليه الصلاة والسلام في حجرة عائشة بين سحرها ونحرها ؛ فدُفن حيث مات لهذا الحديث الثابت عنه

صلوات الله وسلامه عليه . أما غير النبي عليه الصلاة والسلام فإنه لا يجوز أن يدفن في البيت لقوله عليه الصلاة والسلام ((لا تجعلوا بيوتكم قبورا)) . ودفْن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما أيضاً هذا من الخصائص ، فهما صاحبا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحياة وفي الممات رضي الله عنهما وأرضاهما ، أكرمهما الله عز وجل بالصحبة والملازمة للرسول عليه الصلاة والسلام والنصرة العظيمة له حال حياته عليه الصلاة والسلام ، ثم أكرمهما الله عز وجل بهذه الكرامة العظيمة وهي مرافقتهما له عليه الصلاة والسلام دُفنا معه في حجرة عائشة رضي الله عنها وأرضاها .

- الأمر الثاني مما يدل عليه قوله عليه الصلاة والسلام ((لا تجعلوا بيوتكم قبورا)): أي لا تجعلوها مثل القبور، القبور ليست مكان للصلاة ، وليست مكاناً لتحري العبادة ، وليست مكاناً لقراءة القرآن ، ليست مكانا لذلك ، فمن هجر العبادة في بيته وهجر الصلاة في بيته وهجر قراءة القرآن في بيته أصبح بيته مثل القبور، لأن القبور ليست مكان للذكر وتلاوة القرآن والصلوات، ليست مكانا لذلك ، فإذا عطَّل الصلاة في بيته شبَّه بيته بالمقابر . ومما يوضح ذلكم ما جاء في الصحيح عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال : ((مَثَلُ الْبَيْتِ الَّذِي يُذْكَرُ اللهُ فِيهِ، وَالْبَيْتِ الَّذِي لَا يُذْكَرُ اللهُ فِيهِ ؛ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ)) البيت الذي لا يُذكر فيه الله سبحانه وتعالى مثله مثل الميت .

إذاً الحديث في قوله عليه الصلاة والسلام ((**لا تجعلوا بيوتكم قبورا**)) أي اعتنوا في بيوتكم بالصلاة ، ولهذا صلاة الرجل في بيته أفضل إلا المكتوبة ؛ أي الصلوات الخمس صلاتها في المساجد أفضل وهي واجبة على الرجال ، يجب أن يؤدوا الصلوات الخمس في المساجد بيوت الله التي ينادى فيها للصلاة «حي على الصلاة حي على الفلاح» ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ﴾ [النور:٣٦-٣٧] الرجال في الصلوات الخمس أماكنهم المساجد .

الرجال إذا أردنا أن نعرف يا إخوان الرجولة ، وكثيراً ما يتحدث الناس عن الرجولة وبعضهم إذا أراد أن يتحدث عن الرجولة يمسك الشارب ويشده إلى أعلى ويفتله ويظن أن الرجولة فتل الشوارب ، مع أن السنة جاءت بقص الشوارب ، الرجولة بأبهى صورها وأتم حُلَلها أن يكون أوقات الصلوات الخمس لا يُفتقد في المساجد ، لأن الله قال : ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ﴾ ، إذا كان لا يصلي مع الرجال في المساجد ! وإلا إذا جاء وقت الصلاة مع زوجته يصلي في البيت ومع بنته ومع أخته ومع خالته وعمته والرجال في المساجد ؛ هذا إذا كان يصلي في بيته أينه من هذا الوصف!! ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ﴾ لماذا؟ ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ﴾ الله هكذا يقول جل في علاه ، فالرجولة أن يكون الرجل أوقات الصلوات الخمس يأتي إلى المساجد بعناية شديدة واهتمام بالغ ، ولو علم الناس ما في أداء

الصلاة جماعةً في بيوت الله لأتوا إليها ولو حبواً على الركب ، لكن هذا التفريط وهذه الإضاعة من كثير من الناس سببها الجهل العظيم بمكانة الصلاة ومنزلتها من الدين ، ما عرفوا قيمة الصلاة ولا عرفوا أيضا قيمة أداءها في المساجد بيوت الله تبارك وتعالى ، قال : ((صلاة الرجل في بيته أفضل إلا المكتوبة)) المكتوبة يجب أن يصليها في المساجد ، أما النوافل يصلي في البيت حتى يكون البيت بيتاً حياً ليس بيتاً ميتاً ؛ تُصلى فيه النوافل ، يقرأ فيه القرآن ، يُذكر فيه الله سبحانه وتعالى ((لا تجعلوا بيوتكم قبورا)) البيت الذي ليس فيه قرآن وليس فيه صلاة وليس فيه ذكر لله عز وجل أصبح شبيهاً بالمقابر .

قال عليه الصلاة والسلام ((**لا تجعلوا بيوتكم قبورا**)) ، جاء في الصحيحين عن نبينا عليه الصلاة والسلام وهو أيضا مما يوضح هذا المعنى ويقرره أنه قال: ((اجْعَلُوا مِنْ صَلَاتِكُمْ فِي بُيُوتِكُمْ، وَلَا تَتَّخِذُوهَا قُبُورًا)) ، وجاء في صحيح مسلم أن النبي عليه الصلاة والسلام قال : ((لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ، إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْفِرُ مِنَ الْبَيْتِ الَّذِي تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ)) ؛ إذاً هذا يدل على الحث على قراءة القرآن في البيت ، والحث على الصلاة في البيت ، والترغيب في ذلك حتى يكون البيت بيتاً حياً وليس بيتاً ميتاً ، لأن البيت الذي لا يُذكر فيه الله سبحانه وتعالى مثله مثل الأموات ، والأموات أماكنهم المقابر . فهذا معنى قوله عليه الصلاة والسلام ((لا تجعلوا بيوتكم قبورا)).

((**ولا تجعلوا قبري عيدا**)) وهذا موضع الشاهد من هذا الحديث للترجمة ، قال ((ولا تجعلوا قبري عيدا)) هذا أمرٌ نهى عنه عليه الصلاة والسلام ، نهى عن فعله قال ((لا تجعلوا قبري عيدا)) ؛ و«عيداً» هذه الكلمة مأخوذة من المعاودة والاعتياد . أرأيتم لو أن شخصاً ألزم نفسه أنه مثلاً كل ليلة بعد صلاة العشاء يزور القبر ، أو كل جمعة ، أو في بداية كل شهر أو نحو ذلك ؛ هذا الالتزام وهذا الترتيب وهذه المعاودة والاعتياد نهى عنه النبي عليه الصلاة والسلام لأن مثل هذه المعاودة والاعتياد واتخاذ قبره عليه الصلاة والسلام عيداً يفضي إلى الغلو فيه ، وعرفنا أنَّ من نصحه عليه الصلاة والسلام وكمال حرصه أنه سدَّ كل طريق يفضي بالناس إلى الإشراك بالله سبحانه وتعالى ، وعرفنا في الترجمة الماضية أن الغلو في قبور الصالحين يصيِّرها أوثاناً تُعبد ، فنهى عليه الصلاة والسلام أن يُجعل قبره عيداً ، قال: ((ولا تجعلوا قبري عيدا)) .

وإذا كان الغرض من هذه المعاودة والتكرار وترتيب الوقت الذي يلتزمه الإنسان ويداوم عليه إذا كان الغرض من ذلك الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم والسلام عليه ؛ ففي تتمة الحديث يقول عليه الصلاة والسلام : ((**وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم**)) ؛ إذا كان الغرض من المعاودة والتكرار واعتياد المجيء وتخصيص الأوقات إذا كان المراد من ذلك الصلاة والسلام على رسول الله عليه الصلاة والسلام فأجاب عن ذلك صلى الله عليه وسلم بقوله ((وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم)) ؛ يعني لو كنت هنا في المسجد أو في أي مكان من المدينة أو في أي مكان من الدنيا صلِّ وسلِّم على رسول الله عليه الصلاة والسلام في أي ساعة من ليل أو نهار

والملائكة تبلِّغ ، لأن معنى قوله ((تبْلُغني)) دل حديث آخر صح عن نبينا عليه الصلاة والسلام أن ذلك بواسطة الملائكة ، ((فإن صلاتكم تبلغني)) أي بواسطة الملائكة كما جاء في حديث ابن مسعود وهو في السنن –سنن النسائي ومستدرك الحاكم وغيرهما– أن النبي عليه الصلاة والسلام قال : ((إِنَّ لِلَّهِ مَلَائِكَةً سَيَّاحِينَ يُبَلِّغُونِي مِنْ أُمَّتِي السَّلَامَ)) .

والآن تجد في بعض المناطق إذا أراد الحاج أن يسافر إلى المدينة يمسك به أهل البلد ويترجَّونه "ولا تنسى واكتب اسمي عندك أرجوك أنت تعرف الصداقة التي بيننا والأخوَّة سلِّم لي على الرسول عليه الصلاة والسلام أرجوك لا تنسى" ويؤكد عليه ، وبعض الزوار يجد أنه فعلاً حُمِّل حمالة كبيرة جداً ، كل ما سلَّم عليه شخص قال له يا أخي سلِّم لي على الرسول عليه الصلاة والسلام ، بلِّغ النبي عليه الصلاة والسلام السلام . طيب الآن استعد هذا الزائر أن يبلغ ؛ بلغ فلان وحفظ اسمه والثاني وحفظ اسمه والثالث وكثرت الأسماء وجاء أيضاً بالأوراق وبدأ يكتب الأسماء حتى يبلغ ، ولما يصل إلى القبر يزاحم الناس ويقف وقفة طويلة ومنهي عن ذلك حتى يقرأ الأسماء "ويسلِّم عليك فلان ويسلم عليك فلان إلى آخره"! في أمور لم تُشرع وما دل عليها الدليل ، وبعضهم يأتني يقول يا شيخ عندي قائمة بالأسماء وضاعت ، بلغوني وطلبوا مني أبلغ السلام والقائمة ضاعت فقدتها؟ وسأل بعضهم عن ذلك كيف الطريقة وأسماؤهم ضاعت مني الآن ؟ فيما يتعلق بالملائكة ما في أرجوك ولو سمحت ولا تنسى واكتب اسمي كل هذا ما له حاجة إطلاقاً ، صلِّ وسلِّم على رسول الله عليه الصلاة والسلام في أي ساعة من ليل أو نهار في أي مكان في الدنيا والملائكة بضمان وأمان ووفاء تبلغ النبي عليه الصلاة والسلام السلام ، ما يحتاج تنتظر أحد من الناس يسافر أو تترجاه أو غير ذلك .

ولهذا مثل هذا العمل لا أصل له في الهدي وفي المأثور عن النبي عليه الصلاة والسلام وعن الصحابة الكرام . وإذا طُلب من إنسان أن يبلغ النبي عليه الصلاة والسلام السلام يقول لمن طلب منه : أكثِر يا أخي من الصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم كل وقت وحين والملائكة تبلغ ، ويورِد له هذا الحديث الذي معنا في هذه الترجمة ((وصلوا عليَّ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم)) ، مثل ما جاء عن بعض السلف قال لرجل في المدينة: «ما أنت ومن بالأندلس إلا سواء» ، كل واحد منكم يقول اللهم صلِّ وسلِّم على رسول الله الملائكة تبلِّغ؛ هنا في المدينة أو في أي بلد من الدنيا الملائكة تبلغ السلام .

فإذا كان هدف الزائر الذي اتخذ القبر عيداً الصلاة والسلام على رسول الله فجاء الجواب في الحديث قال : ((وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم)) أي في أي مكان تكونون فيه فإن الصلاة تبلغ النبي عليه الصلاة والسلام ؛ أي تبلِّغه إياها الملائكة الكرام .

قال :

وعن علي بن الحسين رضي الله عنه : أنه رأى رجلاً يجيء إلى فرجةٍ كانت عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم فيدخل فيها فيدعو ؛ فنهاه وقال : ألا أحدثك حديثاً سمعته من أبي عن جدي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تتخذوا قبري عيداً ، ولا بيوتكم قبورا ، وصلُّوا عليَّ فإن تسليمكم يبلغني حيث كنتم » رواه في المختارة .

****

ثم ختم رحمه الله تعالى هذه الترجمة بهذا الحديث عن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما ، فهو يروي عن الحسين والده رضي الله عنه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وتأمل الإسناد الذي ذكره المصنف كله من آل البيت ، وهنا ينبغي التنبه لذلك ؛ مخرج الحديث من آل بيت النبي عليه الصلاة والسلام وهم أقرب الناس إليه عليه الصلاة والسلام نسباً ، وأيضا أقرب بيتاً إلى النبي عليه الصلاة والسلام ؛ فاجتمع قرب النسب وقرب البيت ، وتأتي هذه الوصية العظيمة التي مخرجها من آل بيت النبي الكريم عليه الصلاة والسلام .

والراوي هنا هو علي بن الحسين والمعروف بزين العابدين لأنه عُرف بالعبادة ؛ وهو من خيار التابعين رحمه الله تعالى، عُرف بالعبادة والصلاة والخير رحمه الله تعالى ، وأيضا عُرف رحمه الله بالنصح مثل ما نرى في هذا الحديث فيما يتعلق بمقام التوحيد الذي هو أعلى المقامات .

وتعلمون أن بعض الناس أصيبوا بمصيبة وابتُلوا ببلية عظيمة جرَّت عليهم ويلات ونكبات وأوقعتهم في شرور وبليات؛ حيث غلو في آل بيت النبي عليه الصلاة والسلام غلواً أفضى بهم إلى إعطائهم شيئاً من خصائص الله وأوصافه سبحانه وتعالى؛ وهذا أمر لا يرضاه هؤلاء الأئمة الأعلام الأكابر، مثل زين العابدين ووالده الحسين وجده علي بن أبي طالب لا يرضون ذلك أبداً . ولهذا أورد الذهبي رحمه الله في سير أعلام النبلاء وأورد ذلكم غيره أن علي بن الحسين هذا قال : «يا أهل العراق – وجاء في بعض الروايات يا أيها الناس – يخاطب أقواما عرف منهم الغلو في آل البيت قال : يا أهل العراق أحبونا حب الإسلام ولا تحبونا حب الأصنام» انظر الكلام الجميل ؛ حب الأصنام معروف ، لأن حب الأصنام: تعلُّق وتذلل وخضوع وصرف للعبادة وتوجُّه إلى تلك الأصنام ، فقال رحمه الله تعالى «أحبونا حب الإسلام»: أي الحب الذي شُرع في الإسلام ودل عليه الكتاب وسنة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام، أما الحب الذي فيه الغلو فهو ينهى عنه ، وجميع الأئمة الأكابر من آل بيت النبي عليه الصلاة والسلام ينهون عن ذلك ؛ ولهذا أهل السنة ميَّزهم الله وأكرمهم وشرَّفهم بأنهم يحبون آل البيت مثل ما وصف هذا الإمام رحمه الله تعالى حب الإسلام ، أما حب الأصنام هذا منهي عنه ، هذا هو الضلال ؛ عندما يُحَب الرجل حبًا قائم على الغلو وإعطاء هذا المحبوب من الخصائص والصفات ما لا يليق إلا بالله سبحانه وتعالى هذا باطل ، وأئمة آل البيت من أوائل من ينهون عن ذلك ويحذِّرون منه ، يقول رحمه الله تعالى «أحبونا حب

الإسلام ولا تحبونا حب الأصنام ؛ فما زال بنا حبكم – أي القائم على الغلو – حتى صار علينا شيْناً » يقول ذلك تحذيراً ونهياً عن ذلك . فإذا ثمة نوعان من الحب أشار إليهما رحمه الله :

الأول : حب الإسلام وقد جاء في الحديث : ((أَوْثَقُ عُرَى الْإِسْلَامِ الْحُبُّ فِي اللَّهِ وَالْبُغْضُ فِي اللَّهِ)) ، وفي الحديث: ((مَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ، وَأَبْغَضَ لِلَّهِ، وَأَعْطَى لِلَّهِ، وَمَنَعَ لِلَّهِ فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ)) فهذا حب يحبه الله ويرضاه ويثيب عليه جل في علاه .

النوع الثاني من الحب : حب الأصنام الذي هو حب الغلو في المحبوب وإعطائه من الخصائص أو الحقوق ما ليس إلا لله تبارك وتعالى ؛ فهذا باطل ولا يجوز ، ومن ابتلي بحب آل البيت حب الأصنام الذي وصفه زينه العابدين بهذا الوصف ؛ من لا يجده يوافقه على هذا الحب لآل البيت بماذا يصفه ؟ يقول لا يحب آل البيت ، لماذا ؟ لأنه لم يفهم الحب إلا بهذه الطريقة .

وأهل السنة يحبون آل البيت حباً عظيما ، ومنهم هذا الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله ، الرجل من يقرأ كتبه ومصنفاته وسيرته وأخباره يعرف المحبة العظيمة التي قامت عنده وتمكَّنت منه حباً لآل بيت النبي صلوات الله وسلامه عليه ، ومن الدلائل والشواهد على ذلك أن أولاده رحمه الله جُلُّهم إن لم يكن كلهم سماهم بآل البيت ، ومن يقرأ كتبه يجد فيها الثناء العاطر وبيان المكانة والمنزلة لآل بيت النبي ، هذا حب الإسلام الذي عليه أئمة السنة وأهل الفضل رحمهم الله ورضي عنهم .

يقول: ((**عن علي بن الحسين رضي الله عنه أنه رأى رجلاً يجيء إلى فرجة كانت عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم**)) ؛ فرجة : أي كوة أو فتحة في الجدار فيأتي عند تلك الكوة أو الفرجة ((**فيدخل فيها فيدعو**)) يدعو من؟ يدعو الله سبحانه وتعالى لكن يتحرى المكان .

((**فنهاه** – نهاه علي ابن الحسين رحمه الله – **وقال** : **ألا أحدثكم حديثاً سمعته من أبي عن جدي**)) أبي : أي الحسين ، وجده : أي علي بن أبي طالب رضي الله عنهما ((**عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال** : « **لا تتخذوا قبري عيدا ، ولا بيوتكم قبورا ، وصلُّوا علي فإن تسليمكم يبلغني حيث كنتم** »)) .

((**لا تتخذوا قبري عيدا**)) انظر كيف استدل بالحديث على هذا الرجل الذي يقصد القبر ويتحراه ويتحرى الدعاء فنهاه عن ذلك واحتج عليه بالحديث عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال : ((لا تتخذوا قبري عيدا)) لماذا ؟ لأن هذا يفضي إلى الغلو ، عندما يُتخذ القبر عيدا بالمعاودة والتكرار والملازمة والمواظبة ثم يضيف إلى ذلك تحري الدعاء مثل ما صنع هذا الرجل ونحو ذلك فإنه يفضي بالإنسان إلى الشرك بالله سبحانه وتعالى ، والنبي عليه الصلاة والسلام حمى حِمى التوحيد وسدَّ كل ذريعة تفضي بالناس إلى الإشراك بالله . إذاً قوله ((لا تتخذوا قبري عيدا)) نهى عن اتخاذ قبره صلى الله عليه وسلم عيداً لأن ذلك ذريعة من الذرائع التي تفضي بفاعل ذلك إلى الإشراك بالله سبحانه وتعالى .

((**ولا بيوتكم قبورا**)) أي ولا تتخذوا بيوتكم قبورا ، بمعنى صلوا في بيوتكم ، اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم ، اقرؤوا القرآن في بيوتكم ، أكثروا من ذكر الله في بيوتكم ، لا تجعلوا بيوتكم قبورا .

((**وصلوا علي فإن تسليمكم يبلغني حيث كنتم**)) أي أينما كنتم في هذه الأرض فإن تسليمكم يبلغني ، أي تبلّغه الملائكة الذين وكل الله سبحانه وتعالى إليهم ذلك .

قال رحمه الله تعالى : ((**رواه في المختارة**)) أي رواه الضياء المقدسي في كتابه المختارة .

قال رحمه الله :

فيه مسائل ؛ الأولى : تفسير آية براءة .

قال رحمه الله : فيه مسائل ؛ الأولى : تفسير آية براءة أي قول الله تبارك وتعالى : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ ، وتفسيرها مر معنا شيء من الكلام عليه ، وفيها وصْف الله سبحانه وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم بتلك الصفات العظيمة التي من بينها وصفه بأنه حريص على الناس بالبيان والإيضاح وإقامة الأدلة والبراهين ، وعرفنا أن التوحيد الذي هو أعظم المطالب وأجل المقاصد يدخل في هذه الآية أو في هذا المعنى دخولاً أولياً لأنه أعظم مطلبٍ وأجلُّ مقصد . ومما يبين هذا المعنى ما جاء في الآية التي تلي هذه الآية وبها خُتمت سورة براءة قال تعالى : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٢٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ أي بعد هذا الحرص وهذا النصح وهذا البيان وهذا الإيضاح إن تولى من تولى وأعرض من أعرض فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم .

الثانية : إبعاده صلى الله عليه وسلم أمته عن هذا الحِمى غاية البعد.

لأنه عليه الصلاة والسلام حَمى حِمى التوحيد وأبعد أمته عن كل أمرٍ يخِلُّ بالتوحيد من ناقضٍ أو قادحٍ أو ناقص .

الثالثة : ذِكْر حرصه صلى الله عليه وسلم علينا ورأفته ورحمته .

لأن الله عز وجل قال : ﴿ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ .

الرابعة : نهيه صلى الله عليه وسلم عن زيارة قبره على وجهٍ مخصوص ؛ مع أن زيارته من أفضل الأعمال .

الرابعة أي من المسائل المستفادة في هذه الترجمة : نهيه صلى الله عليه وسلم عن زيارة قبره على وجه مخصوص ؛ ليس فيه نهي عن زيارة قبره مطلقاً وإنما فيه نهي عن زيارة قبره عليه الصلاة والسلام على وجه مخصوص ، ما هو هذا الوجه ؟ قال : ((لا تتخذوا قبري عيدا)) والعيد عرفنا معناه أي من الاعتياد والمعاودة ، وهذا هو المعنى المراد بالحديث.

بعض أهل المفاهيم المنحرفة قلبوا المعنى تماماً وعكسوه رأساً على عقب قالوا : إن النبي عليه الصلاة والسلام قال ((لا تتخذوا قبري عيدا)) والعيد مرتين في السنة فأكثِروا من الزيارة ، لا تجعلوه مثل العيد مرتين في السنة ، لا ؛ أكثروا من الزيارة مثلا كل يوم أو كل أسبوع ؛ فعكسوا الحديث وأساءوا الفهم !! ولا يمكن أن يكون هذا الناصح الأمين عليه الصلاة والسلام الذي قصد بهذا البيان النصح لأمته أن يحثهم على الإكثار من الزيارة قائلاً ((لا تتخذوا قبري عيدا)) ، هذا لا يتفق مع كمال النصح وعظيم الحرص . فقوله عليه الصلاة والسلام ((لا تتخذوا قبري عيدا)) أي من المعاودة والاعتياد بتخصيص وقت والتزام ، إما بعوْد اليوم أو بعوْد الأسبوع أو بعود الشهر يضع الإنسان له برنامج يلتزمه هذا كله من الاعتياد الذي يفضي بالإنسان إلى الغلو . قال ((ولا تتخذوا قبري عيدا)) إذاً في هذا من الفوائد : نهيه عن زيارة قبره على وجهٍ مخصوص ؛ مع أن زيارته من أفضل الأعمال ، ليس مراده من أفضل الأعمال مطلقاً ، لكن قبره عليه الصلاة والسلام أفضل القبور ، فإذا كان نهى عن زيارة قبره على وجهٍ مخصوص ((لا تتخذوا قبري عيدا)) وقبره أفضل قبر فأيضاً سائر القبور الأمر فيها كذلك ؛ لا يجوز أن يُتخذ شيء من القبور عيداً يعتاده الإنسان ويوقِّت له الأوقات ويضع له برنامجاً يحدِّد رأس الشهر أو الأسبوع أو نحو ذلك ؛ فهذا كله مما يتناوله النهي الذي جاء في هذا الحديث .

الخامسة : نهيه صلى الله عليه وسلم عن الإكثار من الزيارة .

وهذا هو الفهم الصحيح لقوله ((لا تجعلوا قبري عيدي)) ؛ نهيه عن الإكثار من الزيارة ، لأن الإكثار من الزيارة فيه الاعتياد والمعاودة والتكرار وهذا هو معنى قوله ((لا تجعلوا قبري عيدا)) ، ففيه نهيه صلى الله عليه وسلم عن الإكثار من الزيارة؛ لماذا ؟ لماذا نهى صلى الله عليه وسلم عن هذا الإكثار من الزيارة ؟ حتى لا يفضي الإنسان هذا الأمر إلى الغلو في الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام .

السادسة : حثه صلى الله عليه وسلم على النافلة في البيت .

وهذا مأخوذ من قوله صلى الله عليه وسلم ((لا تجعلوا بيوتكم قبورا)) ففيه الحث كما ذكر المصنف رحمه الله تعالى على النافلة في البيت ، وذلك لأن الصحابة متقرر عندهم أن القبور ليست مكاناً للصلاة ، فلما قال لهم ((لا

تجعلوا بيوتكم قبورا)) عرفوا أن المراد : صلوا في بيوتكم ، اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم ، وهذا المعنى عرفنا أنه جاء مصرحاً به في الحديث الذي في الصحيحين قال : ((اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم ولا تتخذوها قبورا)) .

السابعة : أنه متقرر عندهم أنه لا يصلَّى في المقبرة .

أنه لا يصلَّى في المقبرة هذا أمر متقرر عند الصحابة ، ولهذا لما قال لهم ((لا تتخذوا بيوتكم قبورا)) عرفوا أن هذا يعني الحث على الصلاة في البيت وقراءة القرآن وذكر الله حتى لا تكون شبيهة بالقبور التي ليست مكانا للصلاة ، فالصحابة رضي الله عنهم متقرر عندهم أن القبور ليست مكاناً للصلاة ، ومما جاء في الروايات في هذا الباب أن أنس رضي الله عنه كان يصلي وأمامه قبر ما رآه ما انتبه له فأخذ يهتف به عمر رضي الله عنه يقول «يا أنس القبر يا أنس القبر» فكان أنس شرع في الصلاة ولا انتبه أن أمامه قبر ، وصح في الحديث ((لا تصلوا إلى القبور)) كل ذلكم سدًا للذرائع التي تفضي بالناس إلى الإشراك بالله سبحانه وتعالى .

الثامنة : تعليل ذلك بأن صلاة الرجل وسلامه عليه يبلغه وإن بعُد، فلا حاجة إلى ما يتوهمه من أراد القرب .

يعني من أراد القرب من قبر النبي عليه الصلاة والسلام واتخذه عيداً من أجل الصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن يتوهم ذلك قال له النبي عليه الصلاة والسلام ((صلوا علي فإن صلاتكم تبلغني)) .

قال رحمه الله تعالى (الثامنة : تعليل ذلك بأن صلاة الرجل وسلامه عليه صلى الله عليه وسلم يبلغه وإن بعُد) أي وإن كانت المسافة بعيدة في أقصى الدنيا فلا حاجة إلى ما يتوهمه من أراد القرب ، يعني من أراد أن يتخذ القبر عيداً من أجل الصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم يقال له كما دل هذا الحديث "ما أنت ومن بالأندلس إلا سواء" فأكثِر من الصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم كل وقت وحين دون حاجة إلى أن تتخذ القبر عيدا بالمعاودة والتكرار ، بل أكثر من الصلاة والسلام على رسول الله صلوات الله وسلامه عليه كل وقت وحين فإن صلاتك تبلغه صلى الله عليه وسلم حيث كنت .

التاسعة : كونه صلى الله عليه وسلم في البرزخ تُعرض أعمال أمته في الصلاة والسلام عليه .

التاسعة : كونه صلى الله عليه وسلم البرزخ الذي هو القبر ، والقبر يسمى برزخ لأنه مرحلة تأتي بين الدنيا والآخرة «كونه صلى الله عليه وسلم في البرزخ تعرض أعمال أمته في الصلاة والسلام عليه» لأن الحديث واضح في ذلك أن الصلاة تبلغه صلى الله عليه وسلم من المصلين والمسلِّمين عليه صلى الله عليه وسلم حيثما كانوا ، تبلِّغ تلك الصلاة والسلام الملائكة الذين وكل الله إليهم هذا الأمر كما مر معنا في الحديث المتقدم ((إن لله ملائكةً سياحين يبلغوني عن أمتي السلام)) ؛ اللهم صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

الدرس الرابع والعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد :

يقول شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب أجزل الله له الأجر والثواب في كتابه التوحيد الذي هو حق الله على العبيد :

باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان

وقول الله تعالى : { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ } [النساء:٥١] .

****

هذه الترجمة ((**بابٌ ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان**)) أي: ما جاء من دلائل وشواهد في كتاب الله سبحانه وتعالى وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه من أن بعض هذه الأمة أي أمة محمد صلى الله عليه وسلم تعبد الأوثان؛ أي تقع في عبادة الأوثان .

وأورد رحمه الله هذه الترجمة بعد تراجم عديدة حذَّر فيها من الشرك وبيَّن فيها خطره ووجوب الخوف منه ، وأيضاً تراجم عديدة حذَّر فيها من الوسائل والطرائق والذرائع المفضية إلى الشرك بالله سبحانه وتعالى وأن النبي عليه الصلاة والسلام حمى حِمى التوحيد وسدَّ كل بابٍ يفضي بالناس إلى الإشراك بالله سبحانه وتعالى ؛ فلما بيَّن ذلكم رحمه الله تعالى عقد هذه الترجمة على وجه التحذير والإنذار أخذاً من نصوص الكتاب والسنة أن بعض هذه الأمة تعبد الأوثان ، أي أنه مع كثرة الأدلة في التحذير من الشرك والإنذار من عبادة الأوثان وخطورة هذا الأمر وشدة عقوبة صاحبه فإنه مع ذلك كله سيوجد في الأمة –أي أمة محمد عليه الصلاة والسلام– من سيقع في عبادة الأوثان ، وذلكم بسبب الجهل بالدين بل الجهل بأصل الدين وأساسه الذي عليه يبنى وهو توحيد الله تبارك وتعالى وإخلاص الدين له جل وعلا .

والمسلم إذا عرف من خلال هذه الترجمة وما ساقه فيها المصنف رحمه الله تعالى من شواهد ودلائل من كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام من أن بعض هذه الأمة تعبد الأوثان يفيد من ذلك الخوف من الشرك والحذر من الوقوع فيه ؛ لأن نصوصاً كثيرة – سيأتي شيء منها في هذه الترجمة– تدل على أن بعض الأمة سيقع في عبادة الأوثان ؛ إذاً لابد أن يخاف الإنسان على نفسه ، وأن يحذر أشد الحذر من الشرك وأن يجتهد في البعد عنه ، وأن

يدعو الله كثيراً أن يعيذه منه وفي دعاء إبراهيم الخليل عليه صلوات الله وسلامه ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ(٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ﴾ [إبراهيم:٣٥-٣٦] .

فإذاً هذه الترجمة مفيدة جداً فيما يتعلق بالتوحيد وفهمه والحذر من ضده وهو الإشراك بالله سبحانه وتعالى ، حيث يُعلم من خلال هذه الترجمة أن بعض هذه الأمة ستقع في عبادة الأوثان ؛ إذاً لابد أن يكون المسلم على حذر من ذلك وعلى معرفة بالشرك من أجل أن يتقيه ، إذ كيف يتقي من لا يدري ما يتقي ، من لا يدري ما هو الشرك وما هي حقيقته كيف يتقيه !! فهذه الترجمة مفيدة في هذا المعنى فائدة عظيمة جداً .

والأوثان في قوله ((**تعبد الأوثان**)) هو كل ما قُصد وعُبد غير الله تبارك وتعالى ؛ بأن صُرفت له العبادة أو صُرف له شيء منها ، ولا يختص الوثن بالصنم ؛ بل كل ما عُبد من صنم أو شجر أو حجر أو قبر ، وقد مر معنا في ترجمة سابقة قول نبينا عليه الصلاة والسلام ((اللهم لا تجعل قبري وثنًا يُعبد)) مما يدل على أن القبر إذا عُبد صار وثنًا ، قبر الصالح أو غيره إذا عُبد صار بهذه العبادة وثناً ولهذا دعا النبي عليه الصلاة والسلام وأجاب الله دعاءه فقال ((اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد)) .

أورد رحمه الله تعالى في هذه الترجمة ثلاث آيات من القرآن الكريم وبعض الأحاديث .

الآية الأولى : قول الله سبحانه وتعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ [النساء:٥١] ، والآية الكريمة تتعلق باليهود وأنَّ منهم من كان من عبدة الأوثان ، من كان يعبد الأوثان متقرباً إليها صارفاً لها أنواعاً من العبادة وأن هذا أمرٌ وُجد في اليهود فيهم من كان يعبد الأوثان ، فيقول الله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ .

وقد ذكر العلماء للآية سبب نزول وهو: أن حيي بن أخطب وكعب ابن الأشرف وهما يهوديان ذهبا إلى مكة والتقيا بكفار قريش ، فقال لهم كفار قريش : أنتم أهل كتاب ونريد أن تبينوا لنا من الأهدى سبيلا نحن أم محمد -صلوات الله وسلامه عليه- ؟ قالوا : نحن نكرم الضيف ونفك العاني ونفعل كذا إلخ ، ومحمد رجل وأخذوا يذمونه عليه الصلاة والسلام ، فقال حيي ابن أخطب وكعب ابن الأشرف : أنتم أهدى من محمد سبيلا ؛ مع أنهما يعلمان أن أولئك كفار وعبدة أصنام ويعلمان ما عندهما من الكتاب في الآية الكريمة قال﴿أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ﴾ أن النبي عليه الصلاة والسلام هو الأهدى سبيلا يعلمان ذلك في قرارة أنفسهما ؛ ومع ذلك قالا

للكفار لما سألوهم ذلك السؤال : أنتم أهدى سبيلا؛ ﴿ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴾ أي أن طريقتهم أفضل من طريقة محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه .

﴿ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ ﴾ والجبت : يتناول كل الأعمال الشركية الأعمال الباطلة؛ السحر وما شاكل ذلك كل ذلكم يدخل في الجبت .

والطاغوت: فُسِّر بأنه الشيطان ، وفسِّر كل من عُبد من دون الله وهو راض بذلك فهو طاغوت ، وفسِّر الطاغوت بالصنم -الأصنام- . ويجمع ذلك : أن الطاغوت يطلق على الطاغي من الأعيان ، والجبت هو متعلقٌ بالأقوال والأعمال ؛ السحر من الجبت ، العيافة وزجر الطير من الجبت ، أمور السحر الأخرى الكثيرة هذه كلها من الجبت . الأصنام من الطواغيت التي تُعبد من دون الله ؛ الشيطان طاغوت ، كل من عُبد من دون الله تبارك وتعالى وهو راض فهو طاغوت من الطواغيت .

قال: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ ؛ فهذا فيه شاهد للترجمة أن هؤلاء اليهود مع ما عندهم من الكتاب والنصيب الذي عندهم من الكتاب مع ذلك كانوا يؤمنون بالجبت والطاغوت ، يؤمنون بالسحر والكهانة وغير ذلك من الأمور ، وأيضاً يؤمنون بالطواغيت مثل الشيطان والأصنام والأوثان وغير ذلكم من الطواغيت .

﴿ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي يقولون للمشركين ﴿هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴾أي أن طريقتهم أهدى من طريقة المسلمين . وطريقة المشركين هي عبادة الأصنام ، وطريقة المؤمنين توحيد رب العالمين وإفراده تبارك وتعالى بالعبادة .

هذه الآية الكريمة كلها من أولها إلى تمامها تتعلق باليهود وخبر عن اليهود ؛ فما علاقتها بالترجمة «أن بعض هذه الأمة تعبد الأوثان» ؟ هذا سؤال يبقى في الأذهان إلى حين يأتي الجواب عليه .

الآية التي تليها ، قال رحمه الله :

وقوله تعالى : { قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ } [المائدة:٦٠] .

****

وهذه الآية الكريمة أيضاً كسابقتها تتعلق باليهود في ذكر أوصافهم القبيحة وأعمالهم الشنيعة ، لأن اليهود وُصفوا في هذه الآية بأوصافٍ عديدة .

قال الله تعالى : ﴿ **قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ** ﴾ لأن الآية التي قبل هذه الآية قال الله عز وجل : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ (٥٩) ﴾ ثم قال جل وعلا : ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أي أنكم تصِفون المسلمين بالأوصاف الشنيعة والألقاب السيئة ولا تنقمون منهم إلا أنهم آمنوا بالله ؛هذا الذي تنقمون منهم ، وأنهم وحدوا الله وأخلصوا دينهم لله واتبعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هذا الذي تنقمونه منهم ، فيقول الله: ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ ﴾ يعني من له العقوبة الغليظة الشديدة عند الله تبارك وتعالى ، المراد بالمثوبة : أي العقوبة لأن الثواب والمثوبة تطلق على الخير وتطلق على العذاب ، تطلق على الإنعام وتطلق على العذاب ، وهي تُطلق على العذاب في الأغلب .

فيقول : ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أي عقوبة عند الله تبارك وتعالى من اتصفوا بالصفات التالية: ﴿ **مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ** ﴾ هذه مجموعة صفات لليهود :

الأولى : أنها أمة ملعونة لعنهم الله .

والصفة الثانية : أنها أمة غضبية مسخوط عليها ؛ غضب الله عليهم .

والصفة الثالثة : أن الله عز وجل جعل منهم القردة والخنازير ؛ أي مُسخ أفراد وجماعات من هؤلاء اليهود إلى قردة وخنازير ، ولم يجعل الله تبارك وتعالى لأمة ممسوخة نسلًا كما جاء هذا المعنى في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في صحيح مسلم ، لما سُئل عليه الصلاة والسلام في حديث ابن مسعود هل القردة والخنازير الموجودة هي نسل هؤلاء ؟ فأخبر عليه الصلاة والسلام أنه لم يمسخ أمةً ويجعل لها نسلا ، وأن القردة والخنازير موجودة من قبل ذلك . لكن جماعة من اليهود مسخهم الله إلى قردة وخنازير ثم عاشوا مدةً وأهلكهم الله سبحانه وتعالى وهم على ذلك المسخ .

قال: ﴿ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ﴾ وهذا موضع الشاهد من سياق الآية للترجمة ، وهو معطوف على قوله ﴿ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ ﴾ ، من لعنه الله ومن غضب الله عليه ومن جعل منهم القردة والخنازير ومن عبد الطاغوت ؛ هذه مجموعة صفات لليهود، فمن بين صفات اليهود أنهم عبدوا الطاغوت ، فيهم من عبد الطاغوت، والطاغوت: الصنم، أي فيهم من عبد الأوثان هذا أمرٌ وجد في اليهود ، دلت الآية على أنه وجد في اليهود .

أعود للسؤال السابق ؛ هذه الآية تتعلق باليهود فما صلتها بالترجمة ؟ والترجمة تتعلق بأمة محمد عليه الصلاة والسلام «أن بعض هذه الأمة تعبد الأوثان» . فيبقى السؤال قائماً إلى حين أن يأتي الجواب عليه .

قال رحمه الله :

وقوله تعالى : { قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا } [الكهف:٢١] .

****

قال وقوله تعالى : ﴿ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ﴾ ؛ وهذا في السياق الذي يتعلق بأصحاب الكهف ، وأن الناس عندما ظهروا ووقفوا على أصحاب الكهف وعرفوا أنهم ناموا تلك النومة الطويلة ثلاثمائة سنة وتسع سنين ، وأن الله عز وجل أكرمهم بهذه الكرامة الخارقة للعادة؛ اختلفوا في أمرهم ، فقال بعض الناس : ابنوا عليهم بنياناً ، لأنهم ماتوا في نفس الكهف في الغار الذي كانوا فيه في الجبل ماتوا جميعاً في المكان نفسه ؛ فبعض الناس قالوا ﴿ ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا ﴾ يعني يغلق الكهف عليهم إغلاقا محكماً بحيث لا يستطيع أي أحد أن يصل إليهم . لكن أهل الغلبة والنفوذ والسلطة قالوا: ﴿ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ﴾ أي سنبني على هذا المكان الذي ماتوا فيه وهو الكهف مسجداً أي نبني بناء عالياً بحيث نقصد هذا المكان للتعبد والتقرب.

واختلف أهل العلم وممن حكى الخلاف في ذلك الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى وغيره في هؤلاء أهل الغلبة الذين قالوا ﴿ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ﴾ هل هم كفار أو مسلمون ، وذكر في ذلك قولان لأهل العلم :

- من أهل العلم من قال: أن هؤلاء كفار، قوم من الكفار وأهل نفوذ وقالوا هذه المقالة ﴿ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ﴾ .
- وقيل إنهم مسلمون .

وعلى فرض أنهم مسلمون وليسو كفاراً فهم جهلة بدين الله تبارك وتعالى ، وجهلهم بدين الله تبارك وتعالى جرَّهم إلى هذا الغلو ﴿ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ﴾ ، ويدل لذلك أن نبينا عليه الصلاة والسلام صح عنه في الحديث أنه قال: ((أولئكِ شرار الخلق عند الله يوم القيامة؛ إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجدا قال أولئك شرار الخلق عند الله)) ، وصح عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : ((لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)) والحديثان تقدما معنا عند المصنف رحمه الله تعالى في ترجمة سابقة .

فإذاً لعْن النبي عليه الصلاة والسلام لمن يفعل هذا الفعل وإخباره عنهم بأنهم شرار الخلق يدلنا على أن هؤلاء الذين قالوا ﴿ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ﴾ إن كانوا في الأصل مسلمين فهم من الجهلة الذين يجرهم جهلهم بدين الله إلى الغلو في الأولياء والصالحين بمثل هذا الغلو الذي حرَّمه الله سبحانه وتعالى بدليل لعْن النبي صلى الله عليه وسلم من يفعل ذلك .

وشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في بعض كتبه جزم أن هؤلاء الذين قالوا ﴿ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾ أنهم من النصارى ، ويتناولهم قول النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث ((لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)) .

هذا الحديث أيضاً حديث يتعلق بمن قبلنا على قول الذي أشرت ليه لشيخ الإسلام ابن تيمية أنهم من النصارى ، وابن جرير الطبري رحمه الله تعالى أشار في قول أهل العلم أنهم جماعة من الكفار ليسو من المسلمين ؛ فالآية تتعلق بأناس قبل أمة محمد فما صلته بالترجمة ؟

الآية الأولى تتعلق باليهود ، والآية الثانية تتعلق باليهود كذلك ، والآية الثالثة تتعلق بالنصارى ، والترجمة عقدها رحمه الله تعالى في «أن بعض هذه الأمة تعبد الأوثان» فما صلة هذه الآيات الثلاث بالترجمة ؟

جواب ذلكم يأتي في الحديث الذي ساقه المصنف رحمه الله تعالى .

قال رحمه الله :

عن أبي سعيد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه» قالوا : يا رسول الله ؛ اليهود والنصارى ؟ قال : «فمن ؟!» أخرجاه .

****

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه وهو مخرَّج في الصحيحين أن النبي عليه الصلاة والسلام قال : ((**لتتبعن سَنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة**)) سَنن : أي طريق . لتتبعن سنن من كان قبلكم : أي طريق من كان قبلكم . وهذا خبر لكنه خرج مخرج الإنذار والتخويف من ذلك ، فهو يخبر عليه الصلاة والسلام بأنه سيوجد في الأمة من يتبع سَنن من كان قبلنا أي يسلك مسالكهم وينهج مناهجهم ويعمل مثل أعمالهم ، قال ذلك منذراً ومحذِّراً صلوات الله وسلامه عليه .

قال: ((**لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة**)) ؛ القذة: مفرد قُذَذ ، والقُذَّة : هي ريشة السهم ، وإذا جئت بعدد من السهام ونظرت إليها لا تجد بينها فرقاً ، تجدها متساوية متماثلة متطابقة تماما . فإذاً قوله عليه الصلاة والسلام ((حذو القذة بالقذة)) أي مثل ما تشبه ريشة السهم ريشة السهم الأخرى ، لو جئت بسهمين ونظرت في ريشة كل واحدٍ منهما لا تجد فرقاً بين هذه وهذه . فإذًا قوله ((حذو القذة بالقذة)) أي أنه سيوجد في أمة محمد عليه الصلاة والسلام من سيعمل مثل أعمال اليهود ومثل أعمال النصارى عملاً مطابقاً تماماً لما كانوا يعملونه ((حذو القذة بالقذة)) ، وجاء في بعض الأحاديث ((شبراً شبرا ذراعاً ذراعا)) .

والنبي عليه الصلاة والسلام أكد هذه المتابعة التي ستوجد في بعض الأمة أمة محمد عليه الصلاة والسلام : باللام في قوله ((لتتبعن))، وبنون التوكيد ، وبذكر هذا المثل ((حذو القذة بالقذة)) ، وبأيضاً قوله عليه الصلاة والسلام ((**حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه**)) ؛ والضب : حيوان من الحيوانات التي تعيش في البراري وهو من الزواحف، ويمتاز جحر الضب عن غيره من جحور الزواحف وغيرها يمتاز بأنه وعِر للغاية وملتوي وضيق ورديء، كل هذه الصفات مجتمعة فيه، والجحور كثيرة جداً اختار من بينها عليه الصلاة والسلام جحر الضب دون غيره لأنه جحرٌ رديء وضيق ووعر وملتوي ، ولهذا من يريد أن يصطاد الضب يتعب في اصطياده لأن جحره متلوي جداً ، ليس جحرًا مستقيما وإنما جحر في التواءات كثيرة جداً ، حتى لو أراد أن يحفر حتى يصل إليه ما يصل إليه إلا بصعوبة بالغة جداً ، لكثرة الالتواءات التي في جحره . فقوله ((**حتى لو دخلوا جحر ضب**)) هذا ذكره على سبيل المبالغة في بيان هذا الأمر ، أي أنهم لو فعلوا أعمالاً رديئة جدا ووعرة ومتلوية ومعقدة وشديدة في السوء أيضاً سيوجد في الأمة من يفعل ذلك . قال ((لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه)) .

((**قال الصحابة رضي الله عنهم : يا رسول الله اليهود والنصارى ؟**)) يعني تعني اليهود والنصارى ؟

قال عليه الصلاة والسلام : ((**فمن ؟!**)) والاستفهام هنا استفهام إنكاري أي من القوم إلا هؤلاء! اليهود والنصارى . فهذا الحديث صريح جدا وهو في الصحيحين أن في أمة محمد عليه الصلاة والسلام من سيتَّبع اليهود والنصارى حذو القذة بالقذة شبراً شبرا ذراعاً ذراعا حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلوه ، لو فعلوا ما فعلوا .

وبهذا الحديث يتبين مراد المصنف رحمه الله تعالى من سوق الثلاث آيات المتقدمات؛ الأولى والثانية منهما تتعلق باليهود والثالثة تتعلق بالنصارى ، فإذاً اليهود مع ما عندهم من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ؛ يعني يؤمنون بالسحر والكهانة والشعوذة ، وأيضاً الطاغوت الذي هو الشيطان أو الأصنام هذا يؤمنون به ، ومع ما عندهم من الكتاب فضَّلوا دين المشركين على دين سيد ولد آدم أجمعين محمد عليه الصلاة والسلام ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ ؛ وهذا يفيد أنه بعض الأمة من سيفضِّل دين المشركين ودين الكفار على دين محمد عليه الصلاة والسلام ، مثل ما وقع عند اليهود سيقع أيضاً مثل ذلك في أمة محمد عليه الصلاة والسلام ، وسيوجد أيضاً في أمة محمد من يؤمن بالجبت والطاغوت .

وأيضا ما دلت عليه الآية الثانية ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾أي أن اليهود كان فيهم من يعبد الأصنام ، ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ أي عبد الأصنام والأوثان فإذا كان فيهم من فعل ذلك أيضاً دل حديث أبي سعيد أن في أمة محمد عليه الصلاة والسلام من سيفعل ذلك .

والآية الثالثة في سورة الكهف ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾ كما أن هذا الأمر وُجد في النصارى قبلنا أيضاً سيوجد في أمة محمد عليه الصلاة والسلام من سيتخذ على قبور الصالحين مساجد ، وهذا الذي أخبر عنه عليه الصلاة والسلام وُجد كما أخبر صلى الله عليه وسلم لأنه لا ينطق عن الهوى ، ((لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه)) . والحديث حديث أبي سعيد يوضح المقصود من إيراد المصنف رحمه الله تعالى للآيات الثلاث التي صدَّر بها هذه الترجمة .

قال رحمه الله :

ولمسلم عن ثوبان رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها ، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زُوي لي منها ، وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض ، وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة بعامة ، وأن لا يسلِّط عليهم عدوًا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، وإن ربي قال : يا محمد إذا قضيتُ قضاء فإنه لا يُرد ، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكها بسنة بعامة ، وأن لا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها ، حتى يكون بعضهم يهلك بعضا ويسبي بعضهم بعضا » .

ورواه البُرقاني في صحيحه وزاد : « وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين ، وإذا وقع عليهم السيف لم يُرفع إلى يوم القيامة ، ولا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين ، وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان ، وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبي ، وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي ، ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى » .

****

ثم ختم رحمه الله تعالى هذه الترجمة بحديث ثوبان رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((**إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها**)) ؛ زوى لي الأرض : أي جمع لي أطرافها وطوى لي أطرافها ، فأصبح عليه الصلاة والسلام وهو في مقامه يرى مشارق الأرض ومغارب الأرض ، يرى أقصى الدنيا من جهة المشرق وأقصاها من جهة المغرب ، يرى ذلك عليه الصلاة والسلام في الجهتين جهة المشرق وجهة المغرب .

قال ((إن الله زوى لي الأرض)) أي جمع وضمَّ أطرافها ؛ أطراف الأرض من هاتين الجهتين جهة المشرق وجهة المغرب ((فرأيت مشارقها ومغاربها)) رأى عليه الصلاة والسلام في مقامه ذلك مشارق الأرض ومغاربها ، يعني رأى إلى أقصى المشرق وإلى أقصى المغرب ؛ صلوات الله وسلامه وبركاته عليه .

قال: ((**وإن أمتي سيبلغ مُلكها ما زوي لي منها**))؛ سيبلغ ملك أمة محمد عليه الصلاة والسلام ((ما زوي لي منها)) وهذا إخبارٌ عن أمرٍ يقع في المستقبل ؛ أن ملك الأمة سيبلغ ما زوي له عليه الصلاة والسلام منها أي من الأرض ، وهو عليه الصلاة والسلام زوي له هنا كما أخبر مشارق الأرض ومغاربها ، يعني زويت له الأرض فرأى مشارقها ومغاربها ، لم تُذكر جهة الشمال ولا جهة الجنوب وإنما المشرق والمغرب ، وهذا الذي أخبر به عليه الصلاة والسلام حصل في زمان الخلفاء الراشدين ؛ امتدت رقعة الديار الإسلامية من جهة المشرق وامتدت أيضا من جهة المغرب ولم يحصل اتساع من جهة الجنوب ولا من جهة الشمال ، لأن الذي أخبر عنه عليه الصلاة والسلام إنما هو من جهة المشرق ومن جهة المغرب ، وهذا من آيات النبوة ، والحديث مليء بآيات وعلامات على نبوة النبي عليه الصلاة والسلام في أمور كثيرة أخبر أنها ستقع في المستقبل ، ووقعت كلها طبقاً لما أخبر صلوات الله وسلامه وبركاته عليه .

آية أخرى قال : ((**وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض**)) وهذا إشارة لحصول المسلمين على كنوز قيصر وكسرى ، يعني كنوز فارس وكنوز الروم ، والروم كان أغلب كنوزهم الذهب ، والفرس كان أغلب كنوزهم الجواهر والفضة ، ولهذا قال هنا ((أعطيت الكنزين الأحمر)) أي كنز الروم ((والأبيض)) أي كنز فارس لأن هذا الأغلب كان عندهم؛ فهذا فيه إشارة إلى أن المسلمين سيفتحون فارس والروم ويظفرون بما عندهم من كنوز تكون غنيمة للمسلمين ، أخبر بذلك ووقع طبقًا لما أخبر صلوات الله وسلامه عليه .

قال : ((**وإني سألت ربي**)) أي دعوت الله سبحانه وتعالى ((**لأمتي أن لا يهلكها بسنة بعامة**)) السَّنة :هي الجدب والقحط ، وقوله ((بسنةٍ بعامة)) وأيضا تروى في بعض المصادر ((بسنةٍ عامة)) أي تعم الجميع وتُهلك الجميع .

((**وأن لا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم**)) أي عدواً من غيرهم؛ أن لا يسلط عليهم عدوا من غيرهم ((**فيستبيح بيضتهم**)) وبيضة القوم: هي ساحتهم ، وقيل بيضة القوم: معظمهم . والمراد بهذه الدعوة أن النبي عليه الصلاة والسلام دعا الله تبارك وتعالى أن لا يسلط الكفار على المسلمين تسليطًا عاما في كل ديار المسلمين فيستبيحون بيضتهم أو يهلكون معظمهم ؛ فهذا لا يكون ، دعا النبي عليه الصلاة والسلام أن لا يكون ذلك .

قال : ((**وإن ربي قال : يا محمد إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يُرد**)) وفي الدعاء ((ولا راد لقضائك)) أي أن الله عز وجل إذا قضى قضاءً وأبرم أمراً فإنه لا يرد ، لأن قدرته تبارك وتعالى شاملة ومشيئته نافذة ، فما شاء وقع طبقاً لما شاء لا راد لحكمه سبحانه وتعالى ولا معقب لقضائه .

قال: ((**وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنةٍ بعامة**)) أي لا يحصل لأمتك قحط وجدب ومجاعة تهلك الجميع ، ولا يمنع ذلك أن يحصل شيء من ذلك في بعض الديار ، لكن أن يحصل قحط عام وسنة عامة

تستأصل الجميع وتهلك الجميع هذا لا يكون ، دعا النبي صلى الله عليه وسلم الله عز وجل أن لا يهلك الأمة أمته بسنة بعامة .

والأمر الثاني قال : ((**وأن لا أسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم**))؛ وهذا أيضا فيه إجابة الله سبحانه وتعالى لدعوة النبي عليه الصلاة والسلام أن لا يسلط عليهم عدواً من غيرهم فيستبيح بيضتهم أي يهلك معظمهم ويستولي على معظم ديارهم ، فأجاب الله سبحانه وتعالى قال: ((وأن لا أسلط عليهم عدوًا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم)).

((**ولو اجتمع عليهم من بأقطارها**)) يعني لو اجتمع عليهم الكفار أجمعين لتحقيق ذلك لن يكون ذلك .

قال: ((**حتى يكون بعضهم يهلك بعضا ويسبي بعضهم بعضا**)) وهذه مصيبة المسلمين ومصيبة العالم الإسلامي؛ أن بأسهم بينهم والشيطان يحرِّش بينهم ، وتجد المسلم يقتل المسلم ، وتجد المسلم أيضاً ظلم المسلم ويبغي عليه في ماله وفي دمه وفي عرضه، فجاء في الحديث قال ((حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ويسبي بعضهم بعضا)) .

قال: ((**ورواه البُرقاني في صحيحه**)) وأيضا رواه أبو داود في سننه باللفظ الذي ساقه بالزيادة التي أيضاً ساقها.

((**وزاد : وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين**)) ؛ انظر فيما سبق وإجابة الله لدعوة نبيه فلا يخاف النبي على أمته أن يحصل لهم سنة عامة تهلك الجميع ، ولا يخاف أيضاً على أمته أن العدو يتسلط عليهم ولو اجتمع العدو كلهم على ذلك لاستئصال المسلمين ، ثم يقول في السياق نفسه : ((إنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين)) ؛ والأئمة المضلين يتناول:

- أمراء الشر والفساد والباطل والحكم بغير ما أنزل الله ؛ فهؤلاء هلاك لمن تحتهم وضرر عظيم جداً على من تحتهم .
- ويتناول أيضاً علماء السوء وهؤلاء خطرهم على الناس عظيم جدا ، علماء السوء وعلماء الباطل وعلماء الضلال هؤلاء من أخطر ما يكونون على الناس ، والنبي عليه الصلاة والسلام خاف على أمته منهم خوفاً عظيما . وعالم السوء يضل الناس كما أنه ضالٌ في نفسه فإنه يضل الآخرين ويزين لهم الحرام ، ويُضعِف فيهم المحافظة على الفرائض وطاعة الله سبحانه وتعالى ، وينشر فيهم المحرمات والشهوات ، وأيضا ينشر فيهم الشبهات ، ينشر فيهم البدع والضلالات ؛ فكان النبي عليه الصلاة والسلام يخاف على أمته من الأئمة المضلين ومنهم علماء السوء .
- أيضا يدخل في هؤلاء العبَّاد الذين يعبدون الله على غير بصيرة فصاروا قدوةً للآخرين يأتمُّون بهم في عبادات ما أنزل الله بها من سلطان ، وكم يكون الناس يتضررون عندما يكون في منطقتهم أو في حيهم أو في ديارهم رجل عابد ومواظب على العبادة جداً لكنه صاحب بدعة ، عبادته على بدع وضلالات ، كم يكون ضرره على الناس!! لأنه سيكون قدوة للناس .

فهذه الأصناف الثلاثة الأمراء والعلماء والعبَّاد يتناولهم قول النبي عليه الصلاة والسلام ((إنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين)) . وانظر في أنواع الباطل التي وُجدت في الناس من البدع الاعتقادية والبدع العملية؛ تجدها كلها

مرتبطة بأئمة ضلال أسَّسوا ذلك الباطل للناس وأخذوه عنهم وتلقوه عنهم وأصبحوا أيضا في باطلهم ينتسبون إلى أشياخ الضلال الذين أخذوا عنهم ذلك الباطل وتفرقوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون .

قال عليه الصلاة والسلام : ((**وإذا وقع عليهم السيف لم يُرفع إلى يوم القيامة**)) وهذا أيضاً علَم من أعلام النبوة؛ إذا وقع عليهم السيف يعني إذا رُفع السيف من بعض المسلمين على بعض لم يرفع إلى يوم القيامة ، وهذا وقع طبقاً لما أخبر عندما رُفع السيف على عثمان بن عفان رضي الله عنه –وهو أول رفعٍ للسيف حصل– لم يُرفع إلى يوم القيامة بقي على هذه الحال ، نعم يقِل في بعض الأوقات ويكثر في بعض الأوقات لكنه بقي مستمرًا كما أخبر النبي صلوات الله وسلامه عليه .

قال : ((**ولا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين**)) أي يرتدون عن الإسلام ويلحقون بالمشركين معتقدين عقائدهم فاعلين مثلهم عابدين الأصنام مثلهم .

((**وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان**)) أي جماعات من أمتي الأوثان ، وهذا موضع الشاهد من سياق هذا الحديث الطويل في هذه الترجمة ، لا تقوم الساعة حتى تعبد فئام أي جماعات من أمة محمد عليه الصلاة والسلام الأوثان . فهذا شاهد وهو صريح في الدلالة على الترجمة أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان ، فنبينا عليه الصلاة والسلام أخبر في هذا الحديث أن الساعة لا تقوم حتى تعبد فئام أي جماعات من أمته عليه الصلاة والسلام الأوثان ، مثل هذا ما جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: ((لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَضْطَرِبَ أَلَيَاتُ نِسَاءِ دَوْسٍ عَلَى ذِي الخَلَصَةِ))؛ وذي الخلصة: وثن من الأوثان كانت تعبده دوس ، وأيضا ما جاء في صحيح مسلم من حديث عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قال عليه الصلاة والسلام ((لَا يَذْهَبُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ حَتَّى تُعْبَدَ اللَّاتُ وَالْعُزَّى)) . هذه أحاديث صريحة ولها نظائر عديدة في سنة النبي عليه الصلاة والسلام في أن بعض أمة محمد صلى الله عليه وسلم سيقعون في عبادة الأوثان ، وهذا هو المقصود من سياق هذا الحديث أو موضع الشاهد من هذا الحديث للترجمة .

قال : ((**وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبي**)) وهذا أيضاً من علامات النبوة ، يخبر عن أمرٍ سيكون في المستقبل، وذكر العدد قال ((كذابون ثلاثون)) أي عددهم ثلاثون ، ومن يستقرئ التاريخ وأحوال الناس يجد أن من ادَّعوا النبوة أكثر من هذا العدد بكثير ، فيكون المراد بقوله ((كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبي)) أي ممَّن يكون له شوكة وظهور وأتباع ، لكن يوجد في مجتمعات الناس كثيرا ، بعض الناس مثلاً يصاب عقله بعطب أو يتعاطى مثلا مخدرات أو مسكرات ويصبح فاقد للوعي وتجده مختل العقل ويقول أنا نبي ولا أحد يلتفت له ، ومَن حوله يقولون مسكين مجنون ، هذا يحصل كثير جداً ، لكن المراد بهذا العدد «ثلاثون» يعني يكون لهم ظهور ولهم شوكة ولهم أتباع ؛ مثل مسيلمة الكذاب ، ومثل سِجاح ، والمختار الثقفي ، والأسود العنسي ، عدد

كبير جداً يبلغ هذا العدد الذي قاله النبي عليه الصلاة والسلام ، أما من سوى ذلك فأعداد كثيرة لكن لا يكون لهم شوكة ولا يكون لهم ظهور ولا يكون لهم أتباع .

قال: ((**وأنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبي ، وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي**)) قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب:٤٠] .

قال : ((**ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله**))

وهذه بشارة ختَم بها عليه الصلاة والسلام هذا الحديث ، لما ذكر خوفه على أمته من أئمة الضلال ، وذكر أن في حي من أمته يلحقون بالمشركين ، وذكر أن فئام من الأمة تعبد الأوثان ، وذكر أيضاً أنه سيكون في الأمة كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبي ؛ لما ذكر هذه الأمور التي ذكرها تخويفاً وتحذيراً وإنذاراً من هؤلاء ، بشَّر عليه الصلاة والسلام بعدما أنذر فيما سبق بأنها لا تزال طائفة من أمته على الحق منصورة لا يضرهم من خالفهم إلى قيام الساعة ؛ وهذه الطائفة هي الطائفة المتمسكة بكتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام ، المخلِصة دينها لله تبارك وتعالى ، المقتفية في أعمالها هدي النبي الكريم عليه الصلاة والسلام ، البعيدة عن البدع والخرافات والأمور التي ما أنزل الله تبارك وتعالى بها من سلطان .

والشاهد من الحديث قول النبي عليه الصلاة والسلام ((حتى تعبد فئام من أمتي الأوثان)) ؛ وهذا له نظائر عديدة ثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم .

وينبغي أن يُعلم أن هذا كلام مُحكَم واضح وظاهر وبيِّن؛ أن في الأمة من سيقع في عبادة الأوثان ، لكن بعض الناس الين ابتلوا بشيء من الضلال والباطل والتعلق بالأعمال الشركية يتركون هذه النصوص المحكمة ويستدلون بأحاديث متشابهة ويقضون بالمتشابه على المحكم على طريقة أهل الزيغ ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ [آل عمران:٧] . مثلاً : صح في الحديث عن نبينا عليه الصلاة والسلام أنه قال: ((إن الشيطان يئس أن يعبده المصلُّون في جزيرة العرب)) قال بعض المضلين : إن هذا الحديث نص أنها لن تقع عبادة الأوثان في أمة محمد عليه الصلاة والسلام ، لأنه في الحديث قال ((إن الشيطان يئس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب)) ، وما فهِم هؤلاء الحديث حتى يجعلونه قاضياً على الأحاديث الصريحة التي وردت في أن بعض أمة محمد صلى الله عليه وسلم تعبد الأصنام وهي في الصحيحين وفي غيرهما .

والحديث يدل أن الشيطان لما رأى الدين وانتشاره وإقبال الناس عليه ودخولهم فيه أفواجاً حصل عنده يأس من رجوع هؤلاء إلى الكفر ، لأنه رأى الدين بازدياد قوي وانتشار عظيم والناس تدخل في دين الله أفواجا فحصل عنده يأس ، هذا اليأس الذي وقع عنده لا يدل على أن الشرك لن يقع وأن عبادة الأوثان لن تقع ، لأن هذا يأس حصل للشيطان عندما رأى ظهور الدين وانتشاره ودخول الناس فيه أفواجاً ، نظير ما جاء في الآية الكريمة ﴿الْيَوْمَ

﴿يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ﴾ [المائدة:٣] ، لأنهم رأوا الدين في ظهور فحصل يأسٌ من أن يرجع هؤلاء الذين أسلموا عن دينهم كفاراً بعد أن هداهم الله ومنَّ عليهم بهذا الدين العظيم . فإذاً هذا يأس حصل للشيطان وهو منسوب إليه مضاف إليه ((إن الشيطان يئس)) ، أيضا لم تأتي في صيغة الحديث «يُئِّس» بالبناء لما لم يُسمَّى فاعله قال ((إن الشيطان يَئِس)) أضاف هذا اليأس إلى الشيطان ، فلا يعارض هذا الأحاديث الصحيحة الصريحة أن فئام من أمة محمد عليه الصلاة والسلام تعبد الأوثان .

ثم إن نبينا عليه الصلاة والسلام عندما قال ((لا تقوم الساعة حتى تعبد فئام من أمتي الأوثان)) لماذا قال ذلك ؟ يجب أن نعرف ذلك قال ذلك محذرا الأمة من عبادة الأوثان ، وأن الواجب على كل إنسان أن يحذر في نفسه حذرا شديداً من أن يعبد الأوثان لأن عبادة الأوثان ستقع في أمة محمد ، فيجب على كل مسلم أن يجاهد نفسه وأن يعمل على إنقاذها منى الوقوع في عبادة الأوثان ؛ دعاءً يدعو الله عز وجل أن يعيذه من الشرك وأن يجنبه الشرك وأن يجنِّبه عبادة الأصنام ، وأخذاً بالأسباب ، ومن أعظم ما يكون تعلم التوحيد ودراسته والوقوف على أدلته وبراهينه مثل ما في هذا الكتاب المبارك كتاب التوحيد لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى ، وكله كما رأينا آيات مأخوذة من كتاب الله وأحاديث منتخبة من سنة النبي عليه الصلاة والسلام في بيان التوحيد وتقريره والتحذير من نواقضه ونواقصه .

قال رحمه الله :

فيه مسائل ؛ الأولى : تفسير آية النساء .

وهي قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ ، والشاهد من الآية: أن هذا الأمر كما أنه وُجد في اليهود فسيوجد أيضاً في بعض أمة محمد عليه الصلاة والسلام كما دل على ذلك حديث أبي سعيد .

الثانية : تفسير آية المائدة .

وهي قوله تعالى :﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ ﴾ .

الثالثة : تفسير آية الكهف .

وهي قول الله تعالى : ﴿ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ﴾ ، وعرفنا أن هذا العمل كما أنه وقع في الأمم التي قبلنا فإنه سيقع في أمة محمد عليه الصلاة والسلام ؛ كما دل عليه الحديث ((لتتبعن سنن من كان قبلكم)) ، وكما يدل عليه الواقع المشاهَد .

الرابعة –وهي أهمها– : ما معنى الإيمان بالجبت والطاغوت في هذا الموضع ؛ هل هو اعتقاد قلب ؟ أو هو موافقة أصحابها مع بُغضها ومعرفة بطلانها ؟

هذه مسألة مهمة جدًا ينبِّه عليه الشيخ رحمه الله تعالى في الآية الكريمة ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ ؛ يقول رحمه الله : ما معنى الإيمان بالجبت والطاغوت في هذا الموضع تحديداً ؟ هل هو اعتقاد قلب ؟ يعني هل هؤلاء كانوا يؤمنون بالجبت والطاغوت عن اعتقاد قلب ؟ أو أنه موافقة أصحابها الذين هم المشركون عندما ذهب حيي بن أخطب وكعب ابن الأشرف إلى المشركين وسألوهم قالوا من أهدى سبيلا نحن أو محمد؟ لما قالوا أنتم أهدى سبيلا ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ فهل قالوا ذلك عن اعتقاد أن عبادة المشركين للأصنام أهدى سبيلاً من عبادة النبي صلى الله عليه وسلم لله بالتوحيد والإخلاص؟ وهم عندهم نصيب من الكتاب هل قالوا ذلك عن اعتقاد قلب ؟ أو قالوا ذلك موافقةً لأصحابها ؟ الجواب: أن هؤلاء قالوا ذلك موافقةً لأصحابها لا يعتقدون عبادة الأصنام الذي يعبدها المشركون في مكة ، لكنهم قالوا ذلك موافقة لأصحابها؛ فمع أنهم لم يقولوا ذلك عن اعتقاد قلب وإنما قالوه موافقةً لأصحابها وصفهم الله بأنهم يؤمنون بالجبت والطاغوت .

الخامسة : قولهم إن الكفار الذين يعرفون كفرهم أهدى سبيلا من المؤمنين .

«قولهم» يعني هؤلاء الذين أوتوا نصيبا من الكتاب «إن الكفار الذين يعرفون كفرهم» يعني هؤلاء الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يعرفون كفر كفار قريش الذين يعبدون الأصنام، ومع معرفتهم بكفرهم قالوا «هؤلاء أهدى سبيلاً من المؤمنين» أي طريقتهم أفضل من طريقة المؤمنين . وهذا الأمر كما أنه وقع في اليهود أيضاً سيقع في أمة محمد عليه الصلاة والسلام ؛ سيوجد فيهم من يفضِّل دين المشركين على دين المسلمين ، لحديث أبي سعيد الذي أورده المصنف في الترجمة .

السادسة – وهي المقصودة بالترجمة – : أن هذا لا بد أن يوجد في هذه الأمة كما تقرر في حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

السادسة وهي المقصودة بالترجمة أن هذا لابد أن يوجد ، الإشارة في قوله «هذا لابد أن يوجد» أي ما جاء في الآيات الكريمات التي ساقها المصنف ؛ الآية الأولى والآية الثانية والآية الثالثة كل هذه الأشياء كما أنها وقعت في اليهود والنصارى فإنها ستوجد في أمة محمد عليه الصلاة والسلام كما تقرر في حديث أبي سعيد .

السابعة : تصريحه بوقوعها ؛ أعني عبادة الأوثان في هذه الأمة في جموع كثيرة .

أي كما في حديث ثوبان عندما قال عليه الصلاة والسلام: ((وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان)) ، وقوله «فئام» أي جموع كثيرة .

الثامنة : العجب العجاب : خروج من يدعي النبوة مثل المختار مع تكلمه بالشهادتين وتصريحه أنه من هذه الأمة ، وأن الرسول حق ، وأن القرآن حق وفيه أن محمداً خاتم النبيين ، ومع هذا يصدَّق في هذا كله مع التضاد الواضح ، وقد خرج المختار في آخر عصر الصحابة وتبِعه فئام كثيرة .

هذه المسألة الثامنة من المسائل المتعلقة بهذا الباب قال : العجب العجاب ؛ خروج من يدعي النبوة مثل المختار مع تكلمه بالشهادتين وتصريحه بأنه من هذه الأمة وأن الرسول حق وأن القرآن حق ، وفيه أن محمدا خاتم النبيين ، «فيه» : أي القرآن ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِن رِجَالِكُمْ وَلَكِن رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ [الأحزاب: ٤٠] .

فالمختار الثقفي كان ينطق بالشهادتين ويصرِّح بأنه من هذه الأمة ويصرّح بأن الرسول حق وأن القرآن حق والقرآن فيه أن محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين ، ومع هذا ادَّعى النبوة ، ومع هذا أيضاً وُجد من صدَّقه . ومع هذا يصدَّق في هذا كله مع التضاد الواضح؛ يعني بين ما يدعيه وما يدَّعي أنه يؤمن به .

التاسعة : البشارة بأن الحق لا يزول بالكلية كما زال فيما ومضى ، بل لا تزال عليه طائفة .

لقول النبي عليه الصلاة والسلام في حديث ثوبان ((ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله)) ؛ فهذا فيه بشارة بأن الحق باقٍ ولا يزول كما زال فيما مضى .

العاشرة : الآية العظمى ؛ أنهم مع قلِّتهم لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم .

الآية العظمى : أي بما يكون لهؤلاء من مد وعون وتوفيق ونصر من الله تبارك وتعالى أنهم مع قلَّتهم لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم ، بمعنى أنهم منصورون بنصر الله ، مؤيَّدون بتأييده تبارك وتعالى .

الحادية عشرة : أن ذلك الشرط إلى قيام الساعة .

أن ذلك الشرط إلى قيام الساعة لأنه قال في الحديث ((ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله)) ، والمراد بالساعة : أي ساعة هؤلاء التي تُقبض فيها أرواحهم عندما يبعث الله في آخر الزمان ريحاً تقبض روح كل مؤمن ومؤمنة ثم لا يبقى إلا شرار الخلق فعليهم تقوم الساعة .

الثانية عشرة : ما فيه من الآيات العظيمة ؛ منها إخباره بالله زوى له المشارق والمغارب ، وأخبر بمعنى ذلك فوقع كما أخبر بخلاف الجنوب والشمال ، وإخباره بأنه أعطي الكنزين ، وإخباره بإجابة دعوته لأمته في اثنتين ، وإخباره بأنه مُنع الثالثة ، وإخباره بوقوع السيف وأنه لا يُرفع إذا وقع ، وإخباره بإهلاك بعضهم بعضا وسبي بعضهم بعضا ، وخوفه على أمته من الأئمة المضلين . وإخباره بظهور المتنبئين في هذه الأمة . وإخباره ببقاء الطائفة المنصورة. وكل هذا وقع كما أخبر مع أن كل واحدة منها من أبعد ما يكون في العقول.

هذه المسألة الثانية عشرة : ما فيه –أي حديث ثوبان رضي الله عنه– من الآيات العظيمة الدالة على نبوة نبينا الكريم عليه الصلاة والسلام حيث أخبر عن أمور كثيرة أنها ستقع في المستقبل ووقعت كما أخبر عليه الصلاة والسلام ؛ فكان ذلكم آية من آيات نبوته صلوات الله وسلامه عليه .

الثالثة عشرة : حصر الخوف على أمته من الأئمة المضلين .

أي في حديث ثوبان في قوله عليه الصلاة والسلام ((وإنما أخاف أمتي الأئمة المضلين)) و«إنما» من أساليب الحصر في لغة العرب ، وهذا الحصر يفيد الخوف الشديد العظيم الذي كان يخافه صلوات الله وسلامه عليه على أمته من أئمة الضلال .

الرابعة عشرة : التنبيه على معنى عبادة الأوثان .

وفي حديث ثوبان قال ((وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان)) ، ومر معنا معنى عبادة الأوثان: أي كل من عُبد من شجر أو حجر أو قبر أو غير ذلك ، كل من عُبد من دون الله تبارك وتعالى فهو وثن من الأوثان .

وبهذا تنتهي هذه الترجمة .

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك

اللهم صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .



شرح كتاب التوحيد

لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه اللّه

من الدرس ٢٥ إلى الدرس ٢٨

شرح الشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظهما اللّه تعالى

١٤٤٠/٠٣/٢٩ هـ

الدرس الخامس والعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد :

يقول شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب أجزل الله له الأجر والثواب في كتابه التوحيد الذي هو حق الله على العبيد :

باب ما جاء في السحر

وقول الله تعالى : { وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ } [البقرة:١٠٢] .

****

هذه الترجمة ((**بابٌ ما جاء في السحر**)) أي : ما جاء في كتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم من وعيدٍ على فعل السحر ، وأن السحر كفرٌ بالله تبارك وتعالى ، وما جاء من وعيدٍ وتهديد لمتعلم السحر ومتعاطيه ، وأن السحر محرم في شرع الله تبارك وتعالى ، وفيما جاء عن رسوله صلى الله عليه وسلم ، بل هو محرم في شرائع جميع النبيين .

وإيراد المصنف رحمه الله تعالى لهذه الترجمة في كتاب التوحيد لأن السحر مضاد للتوحيد ومنافٍ له ، والساحر لا يكون ساحراً إلا بالكفر والشرك بالله عز وجل ، ولا يمكن أن يصل إلى السحر وأن يكون من أربابه إلا إذا كفر بالله ونبذ كتاب الله ونبذ سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأطاع الشياطين فيما تتلوه عليه من الكفر والضلال والباطل فحينئذ يكون ساحراً ، ولهذا لا يكون الساحر إلا مشركاً كافراً بالله تبارك وتعالى . فالسحر كفرٌ ومتعاطي السحر كافرٌ بالله عز وجل .

والمصنف رحمه الله عقد هذه الترجمة للتحذير من السحر وبيان خطورته ؛ خطورته على الأديان ، وخطورته على الأوطان والبلدان ، وخطورته على بيوت أهل الإيمان الآمنة المطمئنة . فكم تهدمت بالسحر من بيوت!! وكم من حصلت بالسحر من فرقة!! وكم وُجد به من شقاقٍ ونزاع!! وكم خربت من أديان!! وكم فسدت من عقائد!! وكم حدثت من شرور وبلايا عظام بسبب السحر والسحرة ، قاتلهم الله أنى يؤفكون .

والسحر يجد رواجاً لدى الناس وفي مجتمعاتهم وبين جماعاتهم وأفرادهم عندما يضعف فيهم فهم التوحيد ومعرفة العقيدة ، وعندما يقلُّ فيهم العلم الشرعي ؛ فإن السحرة حينئذ يتسلطون على الناس ، ويكون لعملهم رواج وانتشار ، ويسري في الناس سريان النار في الهشيم ، بينما إذا وُجدت راية التوحيد ووجد صحة المعتقد وحُسن

الصلة بالله عز وجل وصِدق الإخلاص في عبادته والالتجاء إليه عز وجل فإن السحر وأهله لا مجال لهم في أمكنةٍ هذا شأنها بل يفرون منها ويولُّون الدبر . وكلما كان العبد أعظم صلةً بالله عز وجل وإيماناً وتوحيداً وإخلاصاً لله عز وجل كان أعظم في السلامة من شرور هؤلاء ، وقد يبتلى المؤمن الموحِّد ابتلاءً لا يزيده عند الله تبارك وتعالى إلا رفعةً ، لما يتحقق له من صدق توكل وحُسن التجاءٍ إلى الله جل وعلا ودعاءٍ وإلحاحٍ وذكرٍ لله عز وجل .

وهذه الترجمة ((**باب ما جاء في السحر**)) ينبغي أن يعيها الناس وأن يعرفوها ؛ حتى يكونوا على درايةٍ بحقيقة السحر وحقيقة أهله ، بتجلية حالهم وتعرية شنائعهم وفِعالهم وكيف أنهم أهل سوء وشر وخُبثٍ وفساد وجنايةٍ عظيمة على البلاد والعباد ، وقد جاء في كتاب الله عز وجل آياتٌ عديدة في بيان حرمة السحر وخطره وأن الساحر كافر بالله تبارك وتعالى ، وجاء أيضاً في سنة النبي صلوات الله وسلامه عليه أحاديث تقرر هذا المعنى وتدل عليه .

والمؤلف رحمه الله تعالى أورد في هذه الترجمة بعض الآيات من القرآن ثم أتبعها ببعض الأحاديث من سنة النبي عليه الصلاة والسلام في بيان ما جاء في السحر ، بدأ ذلكم بقول الله سبحانه وتعالى : ﴿**وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ**﴾؛ «لمن اشتراه» الضمير هنا عائد على السحر ، والآية فيها أن مشتري السحر ومتعلِّمه ومتعاطيه شأنه يوم القيامة أنه لا نصيب له ولا حظ عند الله ، بل ليس له يوم القيامة إلا النار ، لأن الساحر كافر ، والكافر ليس له إلا النار ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف:٤٠] .

﴿**وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ**﴾ أي السحر . اشتراه : أي تعلمه وتعاطاه وصار من أربابه وأهله .

﴿**مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ**﴾ أي ليس له أي نصيب أو حظ يوم القيامة ، والخلاق هو الحظ والنصيب .

وهذا الموضع ؛قوله جل وعلا ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ جاء في سياقٍ فيه عدة آيات اشتملت على التحذير من السحر وبيان خطورته العظيمة ، وأن الساحر لا يكون ساحراً إلا بالكفر ، ولا يصل إلى السحر إلا عبر خطواتٍ جائرة وأعمالٍ عظيمة آثمة هي كفرٌ بالله سبحانه وتعالى ؛ وهي نبذ كتاب الله جل وعلا ، والاستماع والطواعية للشياطين فيما تدعوه إليه من الكفر والضلال ، وبمثل هذه الخطوات يصل إلى السحر ويكون من أربابه .

وفي هذا السياق الذي جاءت فيه هذه الآيات من سورة البقرة تحذيرٌ شديد من السحر وبيانٌ لخطورته ، وبيانٌ لكفر الساحر من وجوه كثيرة نقف عليها بإذن الله تبارك وتعالى وجهاً وجها من خلال هذا السياق المبارك .

قال الله جل وعلا : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢) وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٣) ﴾

هذا السياق المبارك العظيم في سورة البقرة أولاً يدل على أن الساحر لا يكون ساحراً ولا يصل إلى السحر إلا من خلال خطوتين لابد منهما ، لا يكون ساحراً إلا بهما :

- **الخطوة الأولى** : نبذ الكتاب –كتاب الله– ، وكلما كان نبذه للكتاب أعظم كان شأنه في السحر أمكن ؛ ﴿ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ﴾ ، ولهذا الخبثاء قاتلهم الله الذين يعلِّمون الناس السحر عندما يريدون تعليم شخصٍ السحر أول ما يطلبون منه امتهان القرآن بأي طريقة كانت ؛ سواءً في كتابة القرآن، أو في إلقاء القرآن في النجاسات أو القاذورات ، أو غير ذلك من التصرفات التي كلها تدور في نبذ القرآن وامتهانه.
- **والخطوة الثانية**: أن يطيع الشياطين فيما تدعوه إليه من ترك الفرائض وغشَيان المحركات وارتكاب الشركيات وتعاطي كل ما يريدون منه ، وذلك يدل عليه قوله : ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾.

فبهاتين الخطوتين الآثمتين الجائرتين يصل إلى السحر عياذًا بالله تبارك وتعالى من ذلك، وهذا كفر بالله ومروقٌ من الدين .

وهذا السياق المبارك يدلُّ على أن الساحر كافر من وجوه عديدة :

- **الوجه الأول** : في قوله ﴿ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ﴾ ؛ ومن المعلوم الذي لاشك فيه ولا ريب أن نبذ الكتاب وراء الظهر كفرٌ من أشنع الكفر .
- **الوجه الثاني** : في قوله ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾ أي ما تدعو إليه الشياطين من الكفر بالله والشرك به والذبح لغيره وغير ذلكم من الأمور التي تطلبها الشياطين ممن أراد منهم أن يعلموه السحر ، وهذا من الكفر .

- **الوجه الثالث في دلالة هذا السياق على كفر الساحر** : تبرئة الله لنبيه سليمان عليه السلام من الكفر في قوله : ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ﴾ في مقام تبرئته من السحر الذي نُسب إليه ، فقول الله تبارك وتعالى ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ﴾ هذا تبرئة لسليمان عليه السلام من السحر الذي نسبه إليه اليهود وادَّعوا في نبي الله عليه صلوات الله وسلامه وحاشاه أنه ساحر ، فبرأه الله من السحر بقوله ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ﴾ ؛ فدل ذلكم على أن من يتعلم السحر كافر بالله تبارك وتعالى .
- **الوجه الرابع في دلالة هذا السياق المبارك على كفر الساحر** : أن الله عز وجل وصف الشياطين بالكفر لكونهم يعلِّمون الناس السحر ﴿ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴾ .
- **الوجه الخامس** : أن الملكين الذين أنزلهما الله تبارك وتعالى ببابل هاروت وماروت يعلِّمان الناس السحر ابتلاءً وامتحانا ، وفي الوقت نفسه يحذِّران مَن أراد أن يتعلم من العاقبة الوخيمة والكفر العظيم ؛ قال : ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ ؛ فهذا دليل على أن من يتعلم السحر يكفر بالله تبارك وتعالى .
- **الوجه السادس** : في قوله تبارك وتعالى ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴾ ، ومن يكون لا خلاق له أي لا حظَّ له ولا نصيب إطلاقاً يوم القيامة هو الكافر ، أما المؤمن وإن قلَّ إيمانه له شيء من الحظ وشيء من النصيب يوم يلقى الله ، أما الكافر لا حظ له ولا نصيب .
- **الوجه السابع في الدلالة على كفر الساحر في هذا السياق المبارك** : في قوله ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ ؛ وهذا إنما يقال في حق الكافر ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا ﴾ .

فهذه سبعة وجوه في هذا السياق المبارك كلها تدل على كفر الساحر ، ولا يفوتك أيضا أن تتأمل قول الله سبحانه وتعالى في هذا السياق ﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ﴾ ؛ وهذا فيه بيان لحقيقة عظيمة تتعلق بالسحر أنه كلَّه مضرة لا نفع فيه إطلاقاً ، هذه فائدة ثمينة جداً ؛ السحر كله مضرة لا نفع فيه إطلاقا ﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ﴾ ، بعض المعاصي التي حرمها الله تبارك وتعالى حرمها لأن فيها شرًا عظيماً وفيها شيءٌ من الخير لكن شرها أعظم وبلاؤها أشد ، قال في الخمر: ﴿ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ﴾ [البقرة:٢١٩] ، فبعض المعاصي والذنوب التي حرمها الله فيها شيء من المنفعة لكن فيها مضرة أشد وأعظم وخطرها كبير جداً ؛ فحرمها الله سبحانه وتعالى مع كونها فيها بعض المنفعة لما فيها من شر عظيم وبلاء كبير ، أما السحر فتأمل هذه الآية : ﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا

يَنْفَعُهُمْ ﴾ ؛ السحر مضرةٌ لا نفع فيه مطلقاً ولا فائدة فيه أبداً ،كله مضرة ، وأكبر مضرةٍ في السحر أنه كفرٌ بالله ومروق من الدين وخروج من الملة وأن صاحبه ما له في الآخرة من خلاق .

وقد أخبر الله سبحانه وتعالى عن الساحر في موضع آخر من القرآن الكريم أنه لا يفلح أبداً ، لا يفلح مطلقًا أينما توجه وأينما ذهب وإلى أي مكان سار لا يفلح أبداً ، الفلاح مغلق في وجهه ولا سبيل له إلى نيله ،كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴾[طه:٦٩] ، الساحر لا يفلح ، والفلاح : هو حيازة الخير في الدنيا والآخرة ، فمعنى قوله تبارك وتعالى ﴿ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴾ : أي أن الساحر لا يحصِّل خيرًا أبدا إطلاقاً لا في الدنيا ولا في الآخرة ، محروم من الخير .

فشخص هذه صفته وهذه حاله وهذه عاقبته وهذا مآله كيف يليق بمسلم يخاف الله تبارك وتعالى أن يذهب إليه وأن يضيّع دينه عنده وأن يبيع إيمانه بين يديه !! لأنه إذا ذهب إلى الساحر فالساحر لا يفلح ، وكذلك من يأتيه ويقصده ويطلب من جهته نفعا أو خيراً أو فائدة ينسحب عليه حال الساحر فلا يفلح ،كيف يُنال فلاح أو صلاح أو عافية أو صحة أو غير ذلك من شخصٍ شأنه كما قال الله «لا يفلح حيث أتى» ؟! أينما يمم وأينما توجَّه وأينما سار لا يفلح إطلاقاً ، بل هو من أعظم المفسدين وأشرهم وأخبثهم ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾[يونس:٨١] ، ليس عنده إلا الفساد .

فالإمام شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى بدأ بهذه الآية أو بهذا الموضع من هذا السياق المبارك تنبيهاً بذلك على خطورة السحر وخطورة أهله وأربابه ، وأن الساحر لا يكون إلا كافراً بالله تبارك وتعالى ، وأن السحر كله ضرر لا نفع فيه مطلقا ، وأن للسحرة العواقب الوخيمة والمآلات الأليمة في الدنيا والآخرة .

قال رحمه الله :

وقوله : {يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ}[النساء :٥١] **. قال عمر : «الجبت : السحر ، والطاغوت : الشيطان». وقال جابر : «الطواغيت كهان ينزل عليهم الشيطان ، في كل حي واحد» .**

****

ثم أورد رحمه الله تعالى قول الله عز وجل: ﴿ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ ﴾ ، والآية مرت معنا في الترجمة السابقة في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴾ [النساء:٥١] . فإذاً قول الله تعالى ﴿ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ ﴾ أي اليهود ، لأن السياق في هذه الآية يتعلق باليهود ، واليهود من أكثر الأمم تعاطياً للسحر واشتهاراً به ،

والسحر له رواجٌ عندهم ، ولما جاء موسى عليه صلوات الله وسلامه وبُعث كان في ذلك الوقت للسحر رواج عظيم وانتشار واسع جداً بين الناس ، ولما أراد أن يأتي فرعون كما يزعم بكل سحَّار عليم لمنازلة موسى عليه السلام وتواعدوا يوم الزينة جاء فيما ذكره غير واحد من المفسرين بأكثر من ثلاثين ألف ساحر ؛ فهذا من الشواهد والدلائل على وجود السحر وانتشاره منذ القِدم ، وأن السحر يكون له الانتشار كلما ضعُف في الناس التوحيد وقلَّ العلم وضعف الإيمان ينتشر بينهم السحر ويلقى له الرواج ، ثم فيما بعد أصبح لليهود الباع الواسع والشأن الكبير في السحر كما وصفهم الله في هذه الآية ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ ، وأيضا الآية المتقدمة ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ .

وقوله ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ ؛ نقل الشيخ رحمه الله عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : ((**الجبت: السحر ، والطاغوت: الشيطان**)) وهذا التفسير من عمر رضي الله عنه للجبت وللطاغوت تفسيرٌ يُعرف عند أهل العلم بتفسير الشيء ببعض أفراده .

قال: ((**الجبت :السحر**)) الجبت في حقيقته ومدلوله العام يتناول كل باطل قولي أو فعلي ، كل باطل وضلال قولي أو فعلي فهو من الجبت ؛ العيافة والطيرة والكهانة وزجر الطير وغير ذلك كما سيأتي معنا في ترجمة لاحقة كل ذلكم من الجبت ، فهذه الأنواع الكثيرة من الباطل كلها من الجبت . فقول عمر رضي الله عنه «الجبت: السحر» ليس حصراً وإنما تعريفاً له ببعض أفراده أو شرها وأخطرها .

قال : ((**والطاغوت: الشيطان**)) أيضاً هذا من التعريف للطاغوت ببعض أفراده ؛ وإلا الطاغوت: هو كل طاغٍ من الأعيان يقال له طاغوت ؛ فالشيطان طاغوت ، والساحر أيضا طاغوت ، ومن يُعبد من دون الله وهو راض طاغوت . كل طاغٍ من الأعيان أي متجاوز للحد فهو طاغوت من الطواغيت . فإذاً قول عمر «الطاغوت : الشيطان» هذا تفسير للفظ ببعض أفراده ، بل بشرِّ أفرداه .

قال : ((**وقال جابر : الطواغيت كهان**)) هذا يوضح لك ما سبق ؛ أن الطاغوت يطلق على كل طاغ من الأعيان ؛ فالشيطان طاغوت ، والساحر طاغوت ، والكاهن الذي يدَّعي معرفة الأمور المغيبة طاغوت ، وسيُفرد ذلكم رحمه الله فيما يتعلق بالكهانة ترجمةً تأتي لاحقا .

قال: ((**الطواغيت كهان كان ينزل عليهم الشيطان في كل حي واحد**)) ؛ في كل حي أي قبيلة من القبائل ، في كل حي واحد بمعنى أنهم منتشرون بين الناس وفي القبائل ، والشياطين تتنزل عليهم بما يكون فتنةً للناس وإيقاعاً لهم في شرَك الضلال والباطل .

قال رحمه الله :

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((اجتنبوا السبع الموبقات)) قالوا : يا رسول الله وما هن ؟ قال : ((الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات)) .

****

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((**اجتنبوا السبع الموبقات**)) ومعنى «الموبقات» : أي المهلكات التي تهلك فاعلها ومن كان من أهلها وأربابها ، وخصَّ عليه الصلاة والسلام هذه السبع الموبقات بالذكر هنا لأنها خطيرة جداً ، خطيرة للغاية ، لا أن الموبقات محصورة في هذا العدد . الموبقات : أي المهلكات ،كبائر الذنوب .

وكبائر الذنوب ليست محصورة في هذا العدد سبع بل هي كثيرة جدا ، بل كما جاء عن بعض السلف هي إلى السبعين أقرب بل تزيد على ذلك ، وأهل العلم أفردوا الموبقات التي هي الكبائر برسائل مفردة وكُتب مفردة ، ومن هؤلاء الأئمة الأعلام الذين أفردوا الكبائر: الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله ؛له كتاب عظيم بعنوان «الكبائر» ، وهو كتاب عظيم جدا في بابه أفرده رحمه الله لعدِّ الكبائر وبيان الأدلة عليها وخطورتها وعظم مضرتها على من وقع فيها في دنياه وأخراه ، وهو كتاب عظيم ، وكذلك كتاب الإمام الذهبي رحمه الله «الكبائر» كتاب عظيم جدا في بابه .

وأقول يا إخوان : في مثل هذا الزمان الذي كثرت فيه الأبواب التي تفتح على الناس الكبائر والمعاصي والذنوب من خلال القنوات الفضائية ومن خلال الانترنت ومن خلال المجلات الهابطة ومن خلال وسائل كثيرة أصبح الناس بحاجة فعلاً ومتعينة ومتأكدة أن يعرفوا الكبائر ؛ لأن مشكلة بعض الناس أصبح فقط يستمع لمن يروِّج له فعل الكبائر ، ولا يعطي نفسه وقتاً ليقرأ عن الكبائر وخطورتها وعقوبتها عند الله سبحانه وتعالى لا يحصِّن نفسه ، فيورط نفسه ورطات عظيمة جداً بما يجره للوقوع في عدد من الكبائر والعياذ بالله . ولهذا كتاب الكبائر للذهبي ومثله كتاب الكبائر لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله؛ مثل هذه الكتب ينبغي أن تُقرأ وأن تنتشر في البيوت حتى يتعلم الأولاد والبنات وينشؤون على معرفة الكبائر ومعرفة خطورتها ، أما إذا نشأ الابن أو البنت وهو لا يعرف الكبائر ولا يعرف خطورتها ثم تتلقفه تلك القنوات يهلك هلاكاً عظيما ، وقد قيل قديما : «كيف يتقي من لا يدري ما يتقي؟» ، من لا يعرف الكبائر ولا يعرف خطورتها كيف يتقيها ؟!

إذاً مثل هذه الأمور ينبغي أن يُتنبه لها ، وانظر هذه النصيحة البليغة العظيمة من نبينا عليه الصلاة والسلام قال: ((**اجتنبوا السبع الموبقات**)) ؛ وهذا يعتبر أسلوب من أساليب التشويق في التعليم ، لم يأت مباشرة ويقول اجتنبوا

الموبقات كذا وكذا إلى آخره ، قال ((اجتنبوا السبع الموبقات)) وجعل قلوب الصحابة ونفوسهم تشتاق لمعرفة هذه الأمور من أجل الحذر منها واجتنابها .

قال: ((**اجتنبوا السبع الموبقات قالوا : يا رسول الله وما هن ؟**)) أي علِّمنا هذه الموبقات السبع لنجتنبها ونحذرها ، وحقٌ على كل مسلم أن يعرف هذه الموبقات السبع ويعرف أيضاً غيرها من الموبقات المهلكات حتى يتجنبها ويبتعد عن الوقوع فيها ، ويسلم من مغبَّتها وعقوبتها يوم القيامة وفي هذه الحياة الدنيا .

قال : ((**الشرك بالله**)) ؛ بدأ عليه الصلاة والسلام بأعظم الموبقات وأشدها خطراً وهو الشرك بالله عز وجل الذي هو أعظم الذنوب وأكبر الكبائر ، في حديث آخر قال عليه الصلاة والسلام : ((ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا بلى يا رسول الله قال الإشراك بالله وعقوق الوالدين وكان متكئا فجلس وقال ألا وقول الزور ألا وشهادة الزور ، فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت)) ، عقوق الوالدين من الكبائر وشهادة الزور من الكبائر ولم تُذكر في هذا الحديث حديث ((اجتنبوا السبع الموبقات)) فالحديث ليس حاصراً . الشاهد أن قوله ((الشرك بالله)) هذا أعظم الموبقات وأخطرها على الإطلاق وهو الذنب الذي لا يُغفر ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء:٤٨] .

ثم أتبعه بالسحر ، قال ((**والسحر**)) ؛وهذا موضع الشاهد من سياق هذا الحديث للترجمة في بيان خطورة السحر وأنه من الموبقات المهلكات ، والنبي صلى الله عليه وسلم ذكره في هذا الحديث عقِب الشرك مباشرة مقدَّما على غيره من الموبقات المهلكات ؛ مما يدل على خطورة السحر وعظم ضرره وإهلاكه لأهله .

قال: ((**اجتنبوا السبع الموبقات قالوا يا رسول الله وما هن؟ قال الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق**)) أي قتل النفس المعصومة التي حرم الله تبارك وتعالى قتلها إلا بالحق . وقوله «إلا بالحق» أي بأن يرتد المسلم عن دينه ، أو النفس بالنفس ، أو الثيب الزاني ، كما جمع النبي عليه الصلاة والسلام هذه الثلاث في حديث واحد .

قال : ((**وأكل الربا**)) وذكَر الأكل لأنه أعم الصور التي تحصل في تعاطي الربا ، وإلا سواءً أكل أو لم يأكل المهم في ذلك أن يكون متعاطياً للربا فيكون بذلك قد وقع في هذه الكبيرة العظيمة التي هي حربٌ لله تبارك وتعالى ومحاربة لله تبارك وتعالى . والربا من كبائر الذنوب وعظائم الآثام .

قال : ((**وأكل مال اليتيم**)) ؛ عندما يكون الإنسان ولياً على مال اليتيم فيبتز هذا المال ويأخذ من هذا المال بحكم أن اليتيم لا يدري ما قدر ميراثه وما المال الذي له ، فيستغل عدم درايته بأكل قدرٍ من ماله ؛ فهذا من الكبائر وعظائم الذنوب .

قال : ((**والتولي يوم الزحف**)) أي الفرار من الصف يوم القتال ، ولا يكون هذا الفرار تحيزاً إلى فئة أو ليأتي إلى الأعداء من جهة أخرى ، وإنما فراراً من الزحف وتولياً من القتال ؛ فهذه كبيرة من كبائر الذنوب .

قال: ((**وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات**)) المحصنات : أي مِن فعل الفواحش وارتكابها ؛ سواءً كانت ثيباً أو بِكرا ، لأن الإحصان المراد به هنا العفة من الفاحشة .

الغافلات : أي مما رُمين به وقُذفن به من فاحشة .

المؤمنات : أي بالله تبارك وتعالى وبما أمر سبحانه وتعالى بالإيمان به .

فهذا حديثٌ جمع فيه نبينا عليه الصلاة والسلام سبع موبقات مهلكات؛ ذكر في مقدمتها بعد الشرك بالله السحر، مما يدل على عظم خطورته وأنه من كبائر الذنوب وعظائم الآثام .

قال رحمه الله :

وعن جندب مرفوعا : « حد الساحر ضربُه بالسيف » . رواه الترمذي وقال : الصحيح أنه موقوف .

وفي صحيح البخاري عن بَجَالة بن عَبَدَة قال : «كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن اقتلوا كل ساحر وساحرة ، قال : فقتلنا ثلاث سواحر» . وصح عن حفصة رضي الله عنها أنها أمرت بقتل جارية لها سحرتها فقُتلت. وكذلك صح عن جندب ، قال أحمد: عن ثلاثة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم .

****

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث حديث جندب بن كعب الأزدي رضي الله عنه في بيان حد الساحر وأن حد الساحر القتل ، وأورد أيضاً بعض الآثار عن الصحابة في حد الساحر وأن حده القتل .

قال: ((**وعن جندب مرفوعا «حد الساحر ضربةٌ بالسيف أو ضربه بالسيف» قال: رواه الترمذي وقال : الصحيح أنه موقوف**)) ؛ حد الساحر: أي العقوبة الدنيوية التي يعاقب بها عندما يُقبض عليه متلبساً بالسحر متعاطيا له أن يُقتل ضربةٌ بالسيف على عنقه ينفصل بها رأسه عن جسده؛ وبذلكم يتخلص الناس من شره العظيم وضرره الكبير على الأفراد والمجتمعات . فحد الساحر ضربةٌ بالسيف ، وأكثر أهل العلم على أنه يُقتل دون استتابة. اختلف أهل العلم هل يُقتل بعد الاستتابة أو يُقتل دون استتابة ؟ والصحيح من أقوال أهل العلم أنه يُقتل بدون استتابة ، والآثار الآتية معنا ليس فيها استتابة للساحر ، ولهذا يقولون : لا توبة لساحر ؛ أي عندما يقبض عليه لا توبة له بل يُقتل ، لكن إن تاب بينه وبين الله ؛ من تاب وصدق مع الله قبِل الله توبته ، لكن فيما بينه وبين الناس إذا ضُبط فإنه يقتل دون أن يستتاب، يسارَع بفصل رأسه من جسده تخليصًا للناس من شره العظيم.

وبلاء الساحر المتمكن في السحر على الأفراد والمجتمعات بلاءٌ عظيم جداً ؛ ولهذا أحياناً عندما يُضبط بعض السحرة ويُقتل ثم يُنظر في الأشياء التي في حوزته من عُقد وأشياء يتعامل فيها مع السحر ثم تُفكك وتُتلف يزول

أعراض كثيرة في خلق من الناس سبحان الله!! مما يدل على أن وجود هذا الساحر بعُقده وسحره ونفْثه وأعماله السحرية يعتبر شر عظيم على الأوطان والمجتمعات وضرر عظيم جداً ، وهو مضرة كله لا نفع فيه ، فحد الساحر ضربةٌ بالسيف . قال ((رواه الترمذي وقال الصحيح أنه موقوف)).

قال : ((**وفي صحيح البخاري عن بَجَالة بن عَبَدَة**)) وهو من التابعين ؛ تابعيٌ ثقة أدرك النبي عليه الصلاة والسلام ولكنه لم يره ، فهو ليس من الصحابة وإنما هو من التابعين .

قال ((بَجَالة بن عَبَدَة)) «بجالة» بالفتح في جميع الأحرف ، و«عبدة» أيضا بالفتح في جميع أحرف هذا الاسم .

قال : ((**كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أن اقتلوا كل ساحر وساحرة**)) ؛ كتب أي إلى أحد عماله أن اقتلوا كل ساحر وساحرة ،كل من تجدونه يتعاطى السحر اقتلوه ولم يذكر رضي الله عنه وأرضاه استتابةً . ((**قال : فقتلنا ثلاث سواحر**)) .

وقول المصنف رحمه الله تعالى ((**وفي صحيح البخاري**)) هذا اللفظ ليس في البخاري ولكن أصل هذا الأثر عن بجالة موجود في البخاري ، وهو موجودٌ بتمامه في مصادر أخرى مثل: المسند للإمام أحمد وبعض السنن ، لكن الموجود في صحيح البخاري ليس فيه ذكر قتل كل ساحر وساحرة ، فلعل المصنف قصَد بذلك أن أصله في صحيح البخاري .

قال : ((**وصح عن حفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنهما أنها أمرت بقتل جارية لها سحرتها فقُتلت**))

جارية أي مملوكة عندها سحرتها –أي سحَرت أم المؤمنين حفصة رضي الله عنها– فأمرت بها رضي الله عنها فقُتلت ، لأن حد الساحر ضربةٌ بالسيف .

قال : ((**وكذلك صح عن جندب**)) أي بن كعب الأزدي راوي الحديث المتقدم؛ أي صح عنه قتل الساحر .

((**قال الإمام أحمد : عن ثلاثة**)) أي صح عن ثلاثة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قتل الساحر ؛ أي عمر ابن الخطاب ، وحفصة بنت عمر ، وجندب الأزدي رضي الله عنهم وعن الصحابة أجمعين .

قال رحمه الله :

فيه مسائل ؛ الأولى : تفسير آية البقرة .

قال رحمه الله تعالى "**فيه**" أي هذا الباب "**مسائل الأولى تفسير آية البقرة**" أي قول الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ أي من نصيب ، وقد تقدم شيء من البيان حول هذه الآية الكريمة.

الثانية : تفسير آية النساء .

وهي قول الله تبارك وتعالى : ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ ، وقد ساق المصنف رحمه الله تعالى عقبها بعض الآثار عن بعض الصحابة في تفسير هذه الآية وبيان معناها .

الثالثة : تفسير الجبت والطاغوت والفرق بينهما .

مر معنا تفسير عمر رضي الله عنه للجبت بالسحر والطاغوت أنه الشيطان ، وأيضا مر معنا تفسير جابر رضي الله عنه أن الطواغيت كهان . والفرق بينهما أي بين الجبت والطاغوت : أن الجبت يتعلق بالأقوال والأعمال ، والطاغوت يتعلق بالأعيان . ولشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في بعض كتبه كلاماً قريباً من هذا المعنى قال فيه : الطاغوت هو الطاغي من الأعيان ، والجبت هو من الأقوال والأعمال . فالفرق بينهما أي بين الجبت والطاغوت : أن الجبت يتعلق بالأعمال والأقوال الباطلة ، والطاغوت يتعلق بالأعيان الذين هم طغاة وأهل تجاوزٍ في الحد .

الرابعة : أن الطاغوت قد يكون من الجن وقد يكون من الإنس .

وهذه الفائدة التي نبَّه عليها رحمه الله تعالى مستفادة من أثر عمر وأثر جابر ، فأثر عمر قال: ((الطاغوت الشيطان)) ؛ فهذا فيه أن الطاغوت قد يكون من الجن ، وأثر جابر قال: ((الطواغيت كهان)) ؛ وهذا فيه أن الطاغوت قد يكون من الإنس .

الخامسة : معرفة السبع الموبقات المخصوصة بالنهي .

الخامسة معرفة السبع الموبقات المخصوصة بالنهي أي كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه الذي ساقه المصنف، والمصنف رحمه الله تعالى بهذه المسألة ينبه على أهمية معرفة هذه السبع الموبقات وأهمية الحذر منها ومجانبتها والحذر من الوقوع فيها .

السادسة : أن الساحر يكفُر .

وهذا يستفاد من الموضع الذي ذكره في سورة البقرة ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ ، ومر معنا التنبيه إلى أن السياق بتمامه يدل على كفر الساحر من وجوه سبعة .

السابعة : أنه يقتل ولا يستتاب .

قال رحمه الله تعالى المسألة السابعة : أنه يُقتل أي الساحر ولا يستتاب ؛ وهذا أصح قولي أهل العلم في المسألة ، لأن أهل العلم اختلفوا هل يستتاب؟ أي يُعرض عليه التوبة قبل أن يقتل ، أو يقتل مباشرة ؟ والصحيح من قولي أهل العلم أنه يُقتل دون استتابة ، وقد مر معنا أن عمر أمر بقتل كل ساحر وساحرة ولم يذكر لهم استتابة، وأنهم قتَلوا ثلاث سواحر . وعندما قال أهل العلم "لا توبة لساحر" أي: بينه وبين الناس ، أما إن تاب بينه وبين الله وصدق مع الله في توبته؛ من تاب تاب الله عليه ، لعموم قول الله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٥٣] ، لكن إذا ضبط الناس ساحر فإن ولي الأمر عليه أن يبادر بقتله دون أن تُعرض عليه توبة حتى يتخلص الناس من شره العظيم وبلائه المستطير ، وقد يكون يعلن توبته للفكاك من السيف والسلامة من القتل ؛ فيُقتل مباشرة ويُخلَّص المجتمع من شره ، ومن تاب بينه وبين الله فالله عز وجل يقبل توبته .

الثامنة : وجود هذا في المسلمين على عهد عمر فكيف بعده ؟

يقول إذا كان السحر وجد في مثل هذا الزمان الفاضل وجدوا سحرة وقتلوهم وخلَّصوا الناس من شرهم ؛ فكيف بعده !! وقد قال عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح: ((لا يأتي على الناس زمان إلا والذي بعده شرٌ منه)) ، فإذا كان السحر وُجد في ذلك العهد الفاضل ، وقد قال عليه الصلاة والسلام ((خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم)) فكيف إذاً بالعهود التي فيما بعد أو في مثل هذا القرن في مثل هذا الزمان المتأخر !!

والمصنف رحمه الله ينبه بذلك إلى أن السحر له وجود وله انتشار ، وينبغي على المسلمين أن يكونوا على حذرٍ شديد منه وحذر من أهله ومجانبةٍ له ، وأن يكونوا على عناية بالتوحيد وذكر الله سبحانه وتعالى وإقبالٍ عليه بالمحافظة على الفرائض والنوافل ، وأيضا البعد عن المنكرات والآثام التي تجر على أصحابها الشرور والآفات ، والعناية بالأذكار التي تطرد الشياطين ، العناية بالقرآن الكريم ، قال عليه الصلاة والسلام : ((اقرأوا سورة البقرة فإنها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة)) يعني السحرة . فالذي يعتني بالقرآن قراءةً وتدبراً وعملا بكتاب الله، ويعتني بالأذكار ؛أذكار الصباح وأذكار المساء وأذكار النوم والأذكار التي بعد الصلوات ، يعتني بآية الكرسي هذه الآية العظيمة التي هي أعظم آية في كتاب الله تبارك وتعالى قال عنها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله «إنها من أعظم ما يكون في إبطال السحر وإبطال عمل السحرة» ، ويقول إن بعض السحرة يوهم الناس أنه يطير في الهواء،

قال ولو قُرأت عليه وهو يطير آية الكرسي بصدق لسقط ، ولو قُرأت في المكان الذي يتعاطى فيه السحر لنفر ، لأن السحرة تمِدُّهم الشياطين ، والشياطين لا تصمد أمام ذكر الله ولاسيما تلاوة القرآن ، ولاسيما أعظم آية في كتاب الله تبارك وتعالى . أيضا العناية بـ{قل هو الله أحد} ، والعناية المعوذتين في الصباح وفي المساء ثلاثا وأيضا مرة أدبار الصلوات المكتوبة ؛ المهم عناية المسلم بالذكر والدعاء لله سبحانه وتعالى وقراءة القرآن والعناية بفرائض الإسلام وتجنب الآثام والحرام ؛ هذا كله من أسباب الحفظ والصيانة والعافية. نسأل الله عز وجل لنا أجمعين العفو والعافية والمعافاة الدائمة في الدنيا والآخرة .

ثم إن المصنف رحمه الله تعالى بعد هذه الترجمة عقد أبواباً في أمورٍ هي من أنواع السحر أو مما يتعلق بالسحر ،مثل ما جاء في الكهانة ونحوها ؛ عقد في ذلك باباً ، وما جاء في النشرة وهي حل السحر من المسحور ، وعقد أبواباً أخرى تتعلق بالسحر وبأنواعه ، قبل ذلك عقد رحمه الله تعالى بابًا لبيان شيء من أنواع السحر .

سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك .

اللهم صلِّ وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

الدرس السادس والعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله؛ صلى الله وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد :

يقول الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتاب التوحيد :

باب بيان شيء من أنواع السحر

قال أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا عوف عن حيان بن العلاء، حدثنا قطن بن قبيصة عن أبيه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((إن العيافة والطرق والطيرة من الجبت)) . قال عوف: «العيافة: زجر الطير. والطرق: الخط يُخط بالأرض. والجبت: قال الحسن "رنة الشيطان"» إسناده جيد . ولأبي داود والنسائي وابن حبان في صحيحه المسند منه.

****

هذه الترجمة متمِّمة للترجمة التي قبلها ؛ حيث سبق أن عقد رحمه الله ترجمةً قبل هذه الترجمة بعنوان : ((بابٌ ما جاء في السحر)) ، وذكر في هذه الترجمة التي هي في «باب ما جاء في السحر» ما يتعلق بالسحر وحقيقته وأيضاً ما يتعلق بكفر فاعله ، وأن حدَّه القتل ضربةٌ بالسيف ، إلى غير ذلكم من الأحكام والتفاصيل التي ذكرها رحمه الله تعالى من خلال ما ساقه من آيات وأحاديث في هذا الباب .

عقد رحمه الله بعد ذلك هذه الترجمة ((**باب بيان شيء من أنواع السحر**)) ؛ وذلك لأن هذه الكلمة «السحر» وما رادفها من ألفاظ جاء في الشرع إطلاقها على أعمالٍ وتصرفات لا تبلغ حد السحر الذي عُقد في الترجمة السابقة ولا تأخذ أيضاً حكمه ، وعرفنا أن الساحر فيما يتعلق بالسحر الذي ورد معنا في الترجمة الماضية كافر وأنَّ حده ضربة بالسيف ، لكن هناك أنواع من السحر منها ما لا يصل إلى حد السحر الذي مر معنا في الترجمة الماضية ولا يأخذ أيضاً حكمه الذي هو ضربةٌ بالسيف ؛ وعليه فإن ما يُطلق عليه أنه سحر منه السحر الذي هو كفرٌ ودلت الدلائل والشواهد على أنه كفرٌ ناقل من الملة ، ومنه ما هو دون ذلك . وأُطلق عليه سحرٌ لسببين :

الأول : لخفائه كخفاء السحر ؛ وقد مر معنا في تعريف السحر أنه ما دقَّ وخفي ولطُف سببه ، فهناك أمور تشترك معه في هذا المعنى اللغوي من حيث وقوعها بخفاء . هذا من ناحية .

الناحية الثانية : أن له من التأثير ما للسحر؛ أي يؤثر مثل تأثير السحر وربما أكثر ، مثل ما نُقل عن بعض السلف وسيأتي الحديث عن ذلك في تأثير النميمة وخطورتها البالغة على المجتمعات من حيث التفكك وجود العداوات

وانتشار البغضاء ونحو ذلك ، حتى قال بعض السلف : إن النمام يفسد في ساعة ما لا يفسده الساحر في سنة ، فإذًا هذا ملحظ اخر وهو التأثير الذي يترتب على هذه الأشياء مشارك أو مماثل أو نظير للتأثير الذي يقع بسبب السحر ؛ فاشتركت مع السحر من حيث الخفاء وقوعها بخفاء ، ومن حيث أيضا التأثير الذي يترتب عليها والمضار التي تترتب عليها نظير ما يترتب على السحر أو ربما دون ذلك أو أشد من ذلك على تفاوتٍ في تلك الأمور.

هذه الترجمة عنوانها : ((**بابٌ بيان شيء من أنواع السحر**)) أورد أولاً تحتها ما خرَّجه الإمام أحمد رحمه الله تعالى في كتابه المسند قال: ((**حدثنا محمد بن جعفر** قال **حدثنا عوف**)) هو ابن أبي جميلة .

((**عن حيان بن العلاء** قال **حدثنا قطَن بن قبيصة عن أبيه**)) رضي الله عنه ، وأبوه صحابي جليل ؛ قبيصة ابن مخارِق البصري رضي الله عنه وأرضاه .

((**أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن العيافة والطرْق والطيَرة من الجبت**)) ؛ وقد مر معنا في الترجمة الماضية ((باب ما جاء في السحر)) قول عمر رضي الله عنه «الجبت : السحر» ، فهنا في هذا الحديث قال نبينا عليه الصلاة والسلام ((**إن العيافة والطرق والطيرة من الجبت**)) أي من السحر . فإذاً هذه الثلاثة المذكورة في هذا الحديث هي من أنواع السحر ، والنبي عليه الصلاة والسلام سماها بذلك قال : ((من الجبت)) أي من السحر .

وإذا نظرت في هذه الأشياء الثلاثة وفي ضوء التعريف الذي ساقه الإمام وقد أورده الإمام أحمد رحمه الله عقب هذا الحديث وهو من كلام عوف بن أبي جميلة الراوي لهذا الحديث أحد رجال إسناد هذا الحديث ((**قال عوف: العيافة: زجر الطير ، والطرق: الخط يخط بالأرض. والجبت: قال الحسن: رنة الشيطان**)) قال ((**إسناده جيد**)) .

قول عوف رحمه الله تعالى ((**العيافة : زجر الطير**)) ؛ العيافة أصلها اللغوي ومعنى هذه الكلمة من حيث اللغة: من عاف الشيء يعافه عوفاً وعيافةً . عافه أي لم يقبله أو انردت نفسه عنه وأبغضه أو كرهه أو مالت نفسه عنه.

والعيافة عرَّفها عوف هنا : بأنها زجر الطير ؛ أي ما يترتب على زجر الطير من تركٍ لأمور أو توقفٍ عن مصالح أو تعطيلٍ لأعمال أو إيقافٍ مثلا لتجارات أو أسفار أو غير ذلك ، تتوقف نفسه وتمتنع عن هذا الأمر بزجر الطير ، وكانت طريقتهم في الجاهلية : إذا أراد أحدهم تجارةً أو أراد سفراً أو أراد زواجاً أو أراد مصلحةً من المصالح زجَر الطير أي هيَّجها من مكانها ، ويبني على ذلك إقداماً أو إحجاماً ، فعلاً أو تركاً ، سفراً أو عدم سفر ، يبني على ما يكون من حركة الطير عند زجرها ، فيبني على ذلك هل يُقدِم أو يُحجم ؟ هل يفعل أو لا يفعل ؟ هل يسافر أو لا يسافر ؟ وهذه جاهلية !! أي شيء يكون في هذه الطير حتى يترتب على مثلاً كونها ذهبت إلى جهة اليمين أن يسافر! أو ذهبت إلى جهة اليسار أن لا يسافر!! لكنها جاهلية وفساد في العقول . فهذه العيافة التي هي من

أعمال الجاهلية هي من الجبت أي من السحر لما فيها من التأثير على النفوس وميلها عن بعض الأعمال أو توقفها عن بعض المصالح أو كراهيتها لبعض الأمور بهذا التأثير الذي ترتب على الزجر للطير .

قال : ((**والطرق : الخط يخط بالأرض**)) أي يضع في الأرض خطوطاً ، ولعله –والله تعالى أعلم– سمي طرقاً لأنه جعل فيها مثل الطرق ، خطوطًا كأنه خط في الأرض طرقًا ؛ فيبنون على ذلك إقداماً أو إحجاماً ، وكانت طريقتهم في هذا : أن يخط في الأرض خطوطاً سريعة واحداً تلو الآخر دون عدد ودون حساب يخطها سريعا ثم يبدأ بمسحها ، يمسحها على اثنين اثنين من هذه الخطوط ، ثم في النهاية إن بقي اثنان يرتبون عليه حكم ، وإن بقي واحد يرتبون عليه حكماً آخر ؛ إقداماً أو إحجاما !! سفه في العقول لا حد له ، وجاهلية لا حد لها ، وماذا يترتب على خطوط يخطها سريعاً في الأرض ثم يبني عليها إقداماً أو إحجاما ؟! فكانت مثل هذه الأعمال .

وقيل إن الطرق: هو الطرق بالحصى ، يعني يضربوا الحصى بعضه ببعض ويبنون على ذلك هل يفعل أو لا يفعل؟ هل يُقدم أو يحجم عن هذا العمل ؟ .

قال رحمه الله : ((**والجبت قال الحسن : رنة الشيطان**)) الرنة ويقال الرنين: صوت ، وبالمراد برنة الشيطان : أي ما يصدر من الشيطان من صوتٍ يترتب عليه أنواع من التأثيرات في هؤلاء ، يعني ما يصدر منه صوت فيترتب عليه أعمال ، قال الله تعالى: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء:٦٤] ؛ قال ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ﴾ فالرنة: هي صوت الشيطان الذي يترتب عليه من الباطل ما يترتب .

قال الحسن وهو البصري رحمه الله تعالى من علماء التابعين : ((**الجبت: رنة الشيطان**)) ومعنى رنة الشيطان : أي صوته .

ولفظه في المسند – أعني قول الحسن رحمه الله – ((الجبت: قال الحسن إنه الشيطان)) ؛ وإطلاق الجبت على الشيطان هذا جاء عن بعض الصحابة وعن بعض التابعين ونَقل ذلك عدد من علماء التفسير ، فالجبت هو الشيطان ، وهذا من التفسير للفظ ببعض أفراده ، وأيضاً ما يصدر من الشيطان من أصواتٍ يترتب عليها أنواع من الباطل أو أنواع من الشرور هي أيضاً داخلة في الجبت ، فسواءً قيل إن الجبت رنة الشيطان الذي هو صوته أو قيل هو نفسه فما ثمة تعارض ، لكن لفظ الحديث أو هذا القول للحسن في المسند قال «الجبت: قال الحسن إنه الشيطان» .

قال الشيخ رحمه الله : ((**ولأبي داود والنسائي وابن حبان في صحيحه المسند منه**)) أي لم يذكروا تفسير عوف وإنما اقتصروا على المسند ، أي قول النبي عليه الصلاة والسلام ((إن العيافة والطرق والطيرة من الجبت)) .

قال رحمه الله تعالى :

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر ، زاد ما زاد)) رواه أبو داود بإسناد صحيح.

****

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **((من اقتبس شعبةً من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر، زاد ما زاد)) رواه أبو داود وإسناده صحيح .**

هذا الحديث أورده المصنف رحمه الله تعالى تحت هذه الترجمة لأن النبي عليه الصلاة والسلام سمى هذا الاقتباس لهذه الشعبة من النجوم سماه «سحراً» ؛ ((من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر)) ؛ فإذاً هذا نوع من أنواع السحر ، وعدَّ النبي عليه الصلاة والسلام المتعلم له متعلماً للسحر .

قوله ((**من اقتبس شعبة من النجوم**)) ؛ اقتبس : أي أخذ أو تعلَّم ، أخذ شعبةً من شعب النجوم أو تعلم شعبة من شعب النجوم ، والشعبة : هي الطائفة من الشيء .

ف((**من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر**)) أي: من تعلَّم طائفةً من النجوم أي علم النجوم فقد تعلم طائفةً أو طرفاً أو جانباً من السحر ؛ وذلك لأن التعلق بالنجوم من حيث التأثير وما يقع في الأرض من حوادث وأيضاً ما يكون في المستقبل من أشياء يبنون ذلك بالنظر إلى النجوم ؛ وهذا النوع من العلم يسمى «علم التأثير» ، ويكون فيه شيء من التعلق بهذه النجوم والارتباط بها وربط الأمور بها ، وسيأتي عند المصنف رحمه الله تعالى بابٌ مستقل بذلك ((باب ما جاء في التنجيم)) .

ومن علم النجوم «علم التسيير» ، قال الله سبحانه وتعالى لما ذكر النجوم ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل:١٦] ، النجم كون الإنسان يهتدي بها من حيث معرفة اتجاه القبلة أو يهتدي بها من حيث معرفة الطريق لمعرفته مواضع النجوم وأماكن النجوم هذا لا شيء فيه .

والله سبحانه وتعالى خلق النجوم لثلاث؛ منها هذه المنفعة العظيمة للعباد؛ أن يهتدوا بها إلى القبلة أو يهتدوا بها في الطرقات في سيرهم في أسفارهم ، وقديماً كان الناس في معرفتهم للطرقات إن كان سفرهم ليلاً فبالنجم ، وإن كان نهاراً فبالجبال ، الجبال علامات يُهتدى بها ويميّز الطريق بالجبال ، وإذا كان السير ليلاً فإنه يميز الطريق بالنظر إلى النجوم ، وأما في زماننا هذا لا نعرف الجبال ولا نعرف النجوم ، لا نعرف إلا اللوحات الإرشادية . والآن أيضا وُجدت أجهزة حديثة يفتحها الإنسان ويشير سهم مستمر إلى المكان الذي يحتاجه الإنسان وبدقة ؛ ومع ذلك شكرنا لله على هذا التيسير قليل جدا ، ومن يقرأ أخبار الأولين في المعاناة والشدائد التي يجدونها في الأسفار شيء عجب ، وسمعنا من أجدادنا وأقاربنا أشياء عجيبة جداً ما رأيناها ولا عرفناها إلا بالسماع ، أما الآن تيسرت أمور عظيمة جداً في الأسفار وفي الهداية في الطرقات ولكن الشكر قليل!! تجد الإنسان ربما يسافر ويصل إلى حاجته

ويبلغ مراده ولا يرِد على لسانه أو في قلبه شكر المنعم سبحانه وتعالى على إنعامه أو إضافة النعمة إليه ، تجد بعض الناس عندما يصل إلى المكان الذي وصل إليه يقول: هذه الآلة دقيقة ومصنوعة بدقة ويمدح الآلة ولا يثني على الله !! ينشغل بمدح هذه الآلة التي يسَّرها الله له ودقتها وأنها لا تخطئ إلى غير ذلك ولا يأتي على لسانه نعمة ذكر الله والثناء عليه وحمده وشكره سبحانه وتعالى .

قال رحمه الله تعالى : **((عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من اقتبس شعبةً من النجوم))** ؛ المراد باقتباس شعبة من النجوم : أي تعلُّم علم التنجيم الذي هو العلم المحرم الذي فيه تعلق بالنجوم واعتقادٌ فيها وربْط لما يكون من حوادث ولاسيما حوادث المستقبل بحركة النجوم ، فيربط ذلك ويكون معتقداً ، ولهذا الواحد منهم إذا حصل أمر ينسبونه إلى النوء أو إلى النجم ، مثل قول بعضهم "مُطرنا بنوء كذا وكذا " لا يقولون : مُطرنا بفضل الله ورحمته . كل ذلك مبني على هذه التعلقات الباطلة التي تكون في قلوب هؤلاء تجاه هذه النجوم بسبب هذا الاقتباس لهذه الشعبة من النجوم . قال **((فقد اقتبس شعبة من السحر))**.

قال : **((زاد ما زاد))** أي كلما زاد من الاقتباس لهذه الشعبة من النجوم زاد اقتباسه وحظه ونصيبه من السحر ؛ فكلما زاد تعلقاً أو تعلمًا لهذا العلم علم التنجيم زاد حظه ونصيبه من السحر ؛ وهذا وجه إيراد الشيخ رحمة الله عليه لهذا الحديث في الترجمة مع أنه سيأتي ترجمة خاصة في التنجيم .

قال رحمه الله تعالى :

وللنسائي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: ((من عقد عقدةً ثم نفث فيها فقد سحَر، ومن سحَر فقد أشرك . ومن تعلَّق شيئاً وُكل إليه)) .

****

قال : **((من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر))** وهذا من السحر ، ومن أنواعه النفث في العقد ، وفي القرآن: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ(١) مِن شَرِّ مَا خَلَقَ(٢) وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ(٣) وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴾ [الفلق:١-٤] ، والنفاثات في العقد: هنَّ السواحر يعقدن عقداً ثم ينفثن فيها ، وهذا النفث الذي ينفثنه في العقد هو نفْثٌ خبيث فيه تعلقٌ بالشياطين وتقربٌ للشياطين وذكرٌ للشياطين واستغاثةٌ بهم ؛ فتخرج ريقٌ خبيثة وأنفاسٌ خبيثة تكون أيضاً الشياطين عوناً لها بما كان من صاحبة النفث أو صاحب النفث من تعلق بالشياطين فيؤثر ذلك النفث في المسحور بإذن الله ، ﴿ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [البقرة:١٠٢] ، فيؤثر فيه ربما يمرض يُسقم ، ربما يقتل ، إلى غير ذلك من الأمور التي تقع بهذا النفث .

والنفث يترتب عليه شرور عظيمة وآثار خطيرة ؛ من فرقةٍ بين الزوجين ، أو عداوات بين المتحابين ، أو مثلا أمراض وأسقام ، أو فشل في أمور وأعمال ، أو غير ذلك من الأمور الكثيرة التي تترتب على ذلك . وهذا النفث يترتب عليه عمل السحر الذي يترتب عليه الآثار والأضرار المنبنية على الصلة التي تكون بين الساحر والشياطين وما ينفثه من ريقٍ وأنفاسٍ خبيثة في تلك العقد التي يترتب عليها ما يترتب .

والعقد : منها عقد تكون في أشياء كبيرة واضحة ، ومنها في أشياء دقيقة تُعقد ويُنفث فيها فيترتب عليها من الآثار والأضرار ما يترتب . وغالب السحر في مثل هذه العقد ؛ إما أن يحتفظ بها الساحر عنده ، أو من طلب منه السحر فتوضع في مكان .

وإذا وُجدت هذه العقد فإنها تُحل مع القراءة – قراءة المعوذتين– عقدةً عقدة وينحل بإذن الله تبارك وتعالى السحر ويبطُل ، وسيأتي عند المصنف رحمه الله تعالى ترجمة بـ «ما جاء في النشرة» وهي حل السحر عن المسحور وفيها تفاصيل نقف عليها في موضعها عند المصنف رحمه الله تعالى .

قال: ((**من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر ، ومن سحر فقد أشرك**)) وهذا فيه التصريح بأن السحر لا يكون إلا بالشرك والكفر بالله تبارك وتعالى ؛ لأن الساحر لا يكون ساحراً إلا بالتقرب للشياطين والالتجاء إليهم وطاعتهم فيما يدعونه إليه من الكفر بالله سبحانه وتعالى ؛ كامتهان القرآن ، أو التلفظ والقول بالأقوال الشركية والكلمات الكفرية ، أو استعانة بالشياطين والالتجاء إليهم ، أو ما يطلبونه منه من ترك الفرائض وغشيان المحرمات والمنكرات . فلا يكون الساحر ساحراً إلا بالشرك والكفر بالله تبارك وتعالى .

وقد حدثني أحد الأشخاص من الدول العربية يقول : كان لي جار لا أعرفه بتجارة ولا أعرفه أيضاً بصاحب إرث أنه ورث من قريب له مالاً ولا عنده أعمال ولا مصالح لكن عنده أموال كثيرة!! وأعرف من نفسي أنني إذا احتجت مررت عليه وعرضت عليه حاجتي فيعطيني أموال ، يقول لي : فمرةً قلت له : أنا جارك وجيرتنا قديمة وأراك عندك أموال ولا تجارة ولا عمل !! فأريد أن تدلني طريقة حتى أكون مثلك ، قال أدلك على طريقة لكن كل ما أقوله لك تفعله ؟ قال نعم ، قال لا تترك منه شيئا ؟ قال لا أترك شيئا ، قال مهما كان ؟ أكد عليَّ قلت له مهما كان ، يقول وأنا أخذني الطمع والرغبة في المال والحرص على تحصيله فقبِلت منه ذلك ، ثم أرشدني إلى الطريقة ؛ قال: تذهب إلى شاطئ النهر عند غروب الشمس ، والشمس تغرب بين قرني شيطان ، فتقف عند النهر وقت الغروب وأنت تنظر للشمس وأعطاني أسماء قال تهتف بهذه الأسماء تناديها –فانظر كيف– يقول إذا هتفت وناديتها سيخرج لك شيء من النهر يخاطبك، وكل ما يطلب منك لا ترده مهما كان ، يقول حملني الطمع وذهبت وأخذت أنادي ، يقول فعلاً خرج شيء من النهر وخاطبني باسمي يا فلان ، قال أطلب منك أموراً وتفعلها ما تترك شيئا منها ، قال ما أترك شيئا منها ، يقول فأول أمر طلبه مني قال تترك الصلاة ، يقول من نعمة الله عليَّ أنني منذ الصغر وأنا نشأت على الصلاة والمحافظة عليها ولا أفكر في تركها أبداً وشيء متمسك به تماما

ولا أفكر يوم أترك الصلاة مهما كان الأمر ، فيقول لما طلب مني هذا الأمر وإذا به يطلب مني أمراً لا أفكر أصلاً في تركه مهما كانت الحال ، وهذا من النعم في المحافظة على الصلاة وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت:٤٥] ، وقال ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة:٤٥] ، يقول : فقلت له وأذكرها لكم بلهجته حتى تعرفوا بلدته ، يقول فقلت له " الصلاة دي ما داير أتركها " ، يقول فصدر منه صوت عالي ورجع لمكانه ، فلما رجعت إلى جاري فإذا به في أشد ما يكون من الغضب وتسلطت عليه الشياطين لأنه أرسل لهم من لا يطاوع في ترك الواجبات ولا يطاوع في فعل المحرمات .

وتعمدت ذكر هذه القصة لسماعي لها من صاحبها مباشرة ؛ حتى نعرف أنه لا يمكن أن يكون السحر والتعامل مع الشياطين إلا بالكفر بالله ؛ ترك الصلوات ، الكفر بالله ، امتهان القرآن ، نبذ كتاب الله ، استعانة بالشياطين ودعاءهم من دون الله ، لا يمكن أن يكون السحر إلا بذلك ، لا يمكن أن يكون إلا بالشرك ؛ وهذا فيه التصريح قال ((**ومن سحر فقد أشرك**)) لأنه لا يمكن أنه يصل إلى السحر إلا بالشرك والكفر بالله سبحانه وتعالى .

قال: ((**ومن تعلق شيئا وكل إليه**)) «من تعلق شيئاً» جاءت نكرة في هذا السياق تفيد العموم ؛ أيَّ شيء من هذه الأشياء التي يتعلق بها الناس وُكل إليها ، ومن وُكل إلى هذه الأشياء وُكل إلى مهانة وضعف ومذلَّة ، ومن وكل أمره –والعياذ بالله– إلى ساحر راجياً من جهته صلاح حالٍ أو فلاح أمرٍ أو حصول سعادةٍ أو جلب رزقٍ وُكل إلى هذا الساحر ، وقد قال الله تعالى : ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ [طه:٦٩] ، الساحر أينما توجه لا يفلح، فمن لا يفلح في نفسه أينما توجه كيف يجلب لغيره فلاحاً ؟! كيف يجلب لغيره فلاحاً وهو في نفسه أينما توجه ومهما فعل لا يفلح أبدا !!

قال : ((**ومن تعلق شيئا وكل إليه**)) وفي هذا أن من التجأ إلى الله واعتمد عليه وفوض أمره إليه كفاه سبحانه ووقاه ، كما قال الله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر:٣٦] ، وكما قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق:٣] .

قال رحمه الله تعالى :

وعن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((ألا هل أنبئكم ما العضة؟ هي النميمة القالة بين الناس)) رواه مسلم.

****

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث المخرَّج في صحيح مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((**ألا هل أنبئكم ما العضهُ؟**)) ؛ بدأ بهذه الصيغة التي فيها شدٌ للسامع وترغيبٌ له في الاستماع

((ألا أنبئكم ما العضه)) ؛ والعضه : سحرٌ ، وكانوا يطلقون على السحر العضه ، والساحرة يقال لها العاضهة أو العاهضة . فالسحر: العضه ، وكانوا يطلقون على ذلك ، فقال النبي عليه الصلاة والسلام ((ألا أنبئكم ما العضه؟)) أي : ما السحر ؟ لأنهم كانوا يطلقون على السحر العضه ، وكان العرب يطلقون على السحر العضه فقال عليه الصلاة والسلام ((ألا أنبئكم ما العضه؟)) أي ما السحر ؟

((**هي النميمة القالة بين الناس**)) فسمى عليه الصلاة والسلام النميمة سحراً ، وأطلق عليها أنها سحر ؛ ((ألا أنبئكم ما العضه ؟ هي النميمة القالة بين الناس)) ؛ لماذا أطلق عليه الصلاة والسلام على النميمة أنها سحر؟ للوجهين السابقين: أنها تقع بخُفية وترتيبها يكون بخفاء ، وأنها تؤثر مثل تأثير السحر أو أشد ، مثل ما قال يحي ابن أبي كثير اليمامي: «يفسد النمام في ساعة ما لا يفسده الساحر في سنة» لأن لها تأثير جداً خطير على الناس وعلى المجتمعات وعلى الأسر .

قال: ((**هي النميمة القالة بين الناس**)) ؛ النميمة : هي نقل الكلام بين الناس على وجه الإفساد وإيقاع العداوات بينهم . وهذا النقل للكلام على وجه الإفساد له تأثير خطير جداً على الناس ، والله كم من أناسٍ كانوا على أحسن ما يكون حباً وتصافياً ومودةً ثم نمَّ بينهم نمام فأوقع بينهم عداوة ومضوا على العداوة إلى أن فارقوا الحياة. وكم وجدت عداوات ، كم نشب من قتال ، كم نشبت من محن ومشكلات عظيمة بسبب النمام ، فالنمام خطورته على المجتمع الذي يعيش فيه خطورة بالغة جداً ، وأثره مثل تأثير السحر أو أشد .

وعندما يطلق على النميمة أنها سحر وأن النمام فِعله فعل الساحر لا يعني ذلك أنه مثل الساحر في الحد والحكم؛ الساحر كافر وحدُّه ضربة بالسيف، فلا يعني ذلك، لكن لاشتراكها معه في الوقوع بخفاء وتأثيرها الخفي واشتراكها معه في آثارها ومضارها العظيمة التي هي مثل السحر أو أشد أُطلق لأجل ذلك على النميمة بأنها سحر.

قال ((**ألا هل أنبئكم ما العضه؟ قال هي النميمة القالة بين الناس**)) ؛ والمراد بقوله «القالة بين الناس» أي نقل الكلام والقول بين الناس على وجه الإفساد وإيقاع العداوات .

قال رحمه الله تعالى :

ولهما عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((إن من البيان لسحرا)) .

****

ثم ختم رحمه الله تعالى هذه الترجمة بهذا الحديث في الصحيحين عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((**إن من البيان لسحرا**)) ؛ البيان : في المنطق والحديث وكلام الإنسان بالفصاحة وإلقاء الكلمات القوية أو الخطاب المؤثر ، فيقول عليه الصلاة والسلام ((إن من البيان لسحرا)) .

وقد قيل في المراد بذلك قولان معروفان لأهل العلم :

١- أن ذلك ذكره عليه الصلاة والسلام مساق الذم ؛ وهو الصحيح من قولي أهل العلم أنه ساقه عليه الصلاة والسلام مقام الذم والتحذير ، وجاء ذكر البيان ليس شاملاً لكل بيان وإنما جاء بـ «من» في الحديث قال ((إن من البيان لسحرا)) . والمراد بالبيان الذي وُصف بذلك هو البيان الذي يشتمل على الباطل ، يشتمل على الإثم ، يشتمل على الحرام ، يشتمل على التعدي مثلاً على حقوق الآخرين أو نحو ذلك لكن يكون صاحبه صاحب لسان ومتحدِّث ؛ فيؤثِّر في الآخرين تأثيراً يوقعهم في الباطل ، أو يؤثر تأثيراً يأخذ ما ليس له فيه حق ، فقال عليه الصلاة والسلام ((إن من البيان لسحرا)) أي من البيان ما يؤثر تأثير السحر في التباس الأمور واشتباهها وأخْذ الشيء بغير حق أو التعدي على حقوق الآخرين والظلم لهم ؛ فقال عليه الصلاة والسلام: ((إن من البيان لسحرا)) أي إن من البيان ما تأثيره في الناس وآثاره ومضاره مثل السحر فيما يوصِل إليه من مقاصد أو ما يؤول إليه من أمور وتترتب عليه من أشياء ؛ قال: ((إن من البيان لسحرا)) .

٢- وقيل إن المراد بذلك: المدح للبيان الجيد المؤثر النافع .

ولكن الأول أظهر ، ولهذا أورده المصنف رحمه الله تعالى تحت هذه الترجمة ؛ لأن هذا النوع من البيان الذي هو الفصاحة وقوة المنطق والعبارة التي يصل من خلالها الإنسان إلى الباطل أو المحرم أو الإثم هذا نوع من أنواع السحر المذموم المحرم كما قال عليه الصلاة والسلام : ((إن من البيان لسحرا)) .

قال رحمه الله تعالى :

فيه مسائل ؛ الأولى: أن العيافة والطرق والطيرة من الجبت.

أي من السحر كما تقدم في الحديث عن النبي صلوات الله وسلامه عليه .

الثانية: تفسير العيافة والطرق.

ومر معنا تفسيرها عن عوف بن أبي جميلة قال : «العيافة: زجر الطير ، والطرق: الخط يُخط بالأرض» .

الثالثة: أن علم النجوم من نوع السحر.

الثالثة: أن علم النجوم من نوع السحر أو نوع من السحر ؛ لحديث ابن عباس في سنن أبي داود وقد ساقه المصنف أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد)) .

الرابعة: أنَّ العقد مع النفث من ذلك.

أن العقد مع النفث من ذلك : أي من السحر ؛ لحديث أبي هريرة ((من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر)) .

الخامسة : أن النميمة بين الناس من ذلك.

أن النميمة من ذلك : أي من السحر ؛ لأن النبي عليه الصلاة والسلام سماها بذلك ؛ قال ((ألا أنبئكم ما العضه؟ هي النميمة القالة بين الناس)) ؛ فسمى عليه الصلاة والسلام النميمة سحراً ، والعرب كانت تطلق على السحر العضه ، والنبي عليه الصلاة والسلام في هذا الحديث سمى النميمة عضهاً أي سحرا .

السادسة: أن من ذلك بعض الفصاحة.

«من ذلك» أي من السحر «بعض الفصاحة» أي ليس كل الفصاحة ، لأن من الفصاحة والبيان ما يكون يراد به الحق ويقصد به الحق ويُنشر به الخير ويُعلِّم به الناس ما ينفعهم ويفيدهم أو يُتوصل به إلى حق ، ومنه ما هو بخلاف ذلك ؛ بيان يتوصل من خلاله إلى الباطل ؛ ولهذا قال رحمه الله: «أن من ذلك» أي من السحر «بعض الفصاحة» ؛ وهذا يفيد أن الشيخ رحمه الله تعالى يختار المعنى الأول ؛ أن الحديث جاء في مساق الذم لهذا النوع من البيان ، ووصْفه بأنه سحر لاشتراكه مع السحر في خفاء التأثير ، وأيضاً لاشتراكه مع ما يترتب عليه من عواقب وآثار ومضار .

انتهت بهذا الترجمة .

وصلى الله وسلم وبارك وأنعم على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

الدرس السابع والعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد :

يقول شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب أجزل الله له الأجر والثواب في كتابه «التوحيد الذي هو حق الله على العبيد» :

باب ما جاء في الكهَّان ونحوهم

روى مسلم في صحيحه عن بعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: « من أتى عرافا فسأله عن شيء فصدّقه لم تقبل له صلاةٌ أربعين يوما » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «من أتى كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم» رواه أبو داود .

وللأربعة والحاكم وقال صحيح على شرطهما: «من أتى عرافا أو كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم». ولأبي يعلى بسند جيد عن ابن مسعود رضي الله عنه مثله موقوفا.

****

هذه الترجمة ((**بابٌ ما جاء في الكهان ونحوهم**)) وسيأتي تعريف الكهان من خلال ما ساقه المصنف رحمه الله تعالى من كلام البغوي وكلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى .

والكاهن : هو من يدَّعي معرفة الأمور المغيَّبة ، ولا تكون الكهانة إلا بالصلة بالشياطين ، وذلك بأن يتقرب الكاهن إلى الشياطين فيسترقون له من السمع ما يسترقون ، فيكذب الكاهن مع ما استُرق من السمع الكذبات الكثيرة ثم تروج ضلالته وباطله على الناس من خلال المرة الواحدة التي يذكرون أنه صدق فيها .

والكهانة فيها الشرك والكفر من جهتين :

١ . من جهة ادِّعاء الكاهن علم الغيب ، والغيب أمرٌ اختص الله تبارك وتعالى بعلمه ، لا يعلم الغيب إلا الله جل وعلا ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل:٦٥] فهو أمرٌ اختص جل وعلا به ، وادِّعاء الكاهن أنه يعلم الغيب منازعةٌ لله تبترك وتعالى فيما اختص به جل في علاه وهذا كفرٌ .

٢. وهو أيضا كفر من جهة أخرى ؛ من جهة أنه لا يكون كاهنًا إلا بالتقرب للشياطين ، والشياطين لا ترضى منه إلا بالكفر بالله ، فبتقرُّب الكاهن إلى الشياطين يُعِينونه ويسترقون له السمع ويعاونونه على ضلاله وباطله.

فهو كفر من هاتين الجهتين ، والترجمة في ((**باب ما جاء في الكهان ونحوهم**)) أي من الأشخاص الذين يعملون أعمالًا يدَّعون بها معرفة الأمور المغيَّبة ، وهذه لا تقف عند حد ولا تقف عند باب ، بل لا تزال مع مر الأيام والأعوام تتفتَّح على الناس أبوباً كثيرة من الدعاوى الزائفة التي يدَّعي أربابها وأصحابها معرفة الأمور المغيبة أو معرفة الأمور الغائبة أو نحو ذلك من خلال طرائق كثيرة جداً ، ومن ذلكم أشياء –لعلِّي أنبه عليها في خاتمة هذا الدرس– أشياء استجدَّت في هذا الزمان بطرائق حديثة ووسائل حديثة يدَّعي أصحابها وأربابها أنها من العلم وأنها من العلوم المبْنية على العلوم والتجربة الصحيحة ؛ وهي ضربٌ من الخرافة داخلة في هذا الباب الذي عقده المصنف رحمه الله تعالى .

ولهذا أقول : إن هذا الباب تمس الحاجة إليه في زماننا هذا وتمس الحاجة إلى معرفته وفهمه وضبطه لأن الخرافة خرافة أهل الكهانة وأدعياء العرافة بطرائقهم المختلفة دخلوا على الناس في زماننا هذا دخولاً واسعاً من خلال طرائق كثيرة جداً ، وبعضها انطلت على كثير من الجهال وظنوا أنها ضربٌ من العلم الصحيح أو نوع من التجربة القائمة على علم صحيح ؛ وما هي إلا ضربٌ من الدجْل والخرافة والكهانة التي جاء الإسلام بالتحذير منها وصيانة أمة الإسلام من الوقوع فيها .

ثم إنك إذا قرأت هذا الباب تدرك النعمة العظيمة عليك أيها المسلم والمنة الكبيرة بالهداية لهذا الدين الذي يصون لك عقلك من الخرافة والضلال والدجْل والباطل ، ويصون لك دينك من العقائد الزائفة والضلالات الباطلة والشبهات المردية المهلكة ، ويصون لك مالك ؛ كم أكل أدعياء الكهانة والعرافة من الأموال بغير حق ؟ وكم أخذوا من الأموال بغير حق ؟ بدعوى أنهم يعرفون الأمور ، ويتقاطر الناس عليهم يطلبون منهم معرفة الأمور المستقبلة أو الأمور الغائبة أو الأمور المفقودة أو ما في النفوس أو نحو ذلك ، وتُدفع أموال على مستوى الأفراد وأيضاً على مستوى الشركات والمؤسسات ونحو ذلك ، حتى دخلت هذه الخرافة دخولاً واسعاً على الناس في مجالات كثيرة ، فمن نعمة الله على المسلم هدايته لهذا الدين الذي يصون عقيدته ، ويصون عقله وفكره ، وأيضا يصون له ماله ، ويصون له أدبه وخُلقه ؛ فهذه نعمة الله تبارك وتعالى ومنَّته على عبده المؤمن .

فأؤكد أن من النعم العظيمة بهذا الدين العظيم والدين المبارك ما جاء بهذه المعاني العظيمة الجليلة المباركة صيانةً للعقائد . وانظر قوة البيان والتحذير من هذا الباطل ((من أتى كاهنا لا تقبل له صلاة)) ، ((من أتى كاهنا كفر بما أنزل على محمد)) ؛ قوة عظيمة جداً في التحذير من إتيان هؤلاء ومقاربة أمكنتهم ، صيانةً لعقائد الناس وصيانةً لأديانهم وصيانة أيضا لأموالهم من أن تنطلي عليهم مثل هذه الخرافات والدجْل والضلال والباطل .

قال رحمه الله : ((**باب ما جاء في الكهان ونحوهم**)) ؛ نحو الكهان : مثل المنجمين والعرَّافين والرمَّالين والذين يقرؤون مثلا في الكف أو في الفنجال أو يعرفون الطالع بالنظر إلى النجوم أو نحو ذلك من الزعوم الباطلة والدجل الواسع العريض ؛ فهذه كلها داخلة فيما جاءت النصوص في التحذير منه في هذا الباب العظيم «باب ما جاء في الكهان ونحوهم» .

وقوله ((ما جاء)) أي من الوعيد الشديد والتهديد العظيم فيما يتعلق بالكهان أنفسهم وفيما يتعلق بإتيان الكهان، وإذا كان إتيان الكهان فيه هذا الوعيد ((من أتى كاهنا فقد كفر بما أنزل على محمد)) إذا كان هذا فيمن أتى الكاهن فإذاً كيف الأمر بالكاهن نفسه !! إذا كان من أتى الكاهن فقد كفر بما أنزل على محمد وصدَّقه بما يقول فكيف إذاً بالكاهن نفسه ؟!

أورد رحمه الله تعالى أولاً ما رواه مسلم في صحيحه عن بعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم قال : «**من أتى عرافاً فسأله عن شيء فصدَّقه لم تُقبل له صلاة أربعين يوما**» ؛ قوله ((عن بعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم)) جاء في بعض المصادر التصريح بأنها حفصة رضي الله عنها وأرضاها .

قوله صلى الله عليه وسلم ((**من أتى عرافا**)) أي من أتى من يدَّعي معرفة الأمور من كاهنٍ أو منجمٍ أو رمالٍ أو غير ذلك ، لأن «عرَّاف» هذه كلمة تجمع كل من يدَّعي معرفة الأمور ثم يطلق عليه أسماء بحسب نوع أو طريقة المعرفة ؛ فيقال «كاهن» ، أو يقال «منجم» ، أو يقال «رمَّال» أو نحو ذلك ، كل هؤلاء عرافين لكن بحسب نوع الطريقة التي يدعي فيها معرفة الأمور يكون له اسم ، فيكون له اسم الكاهن أو اسم المنجم أو الرمال أو نحو ذلك، ولهذا أحسن ما عُرِّف به العراف كلمة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله التي ساقها المصنف قال : ((العراف: اسم للكاهن والمنجم والرمال ونحوهم ممن يتكلَّم في معرفة الأمور بهذه الطرق)) ؛ إذاً هي طرق كثيرة يُدَّعى من خلالها معرفة الأمور ، من يتعاطاها يسمى «عرَّافاً» :

- إن كان تعاطيه لهذه المعرفة من خلال علم التنجيم يسمى «منجم» .
- إن كان من خلال الخط في الأرض والرمل ووضع طرق فيها أو خطوط أو نحو ذلك فإنه يسمى «رمال» .
- وإن كان ممن يتصل بالشياطين ويسترقون له السمع ويتكهن للناس يسمى «كاهنا» .

وهكذا كل هؤلاء في الحقيقة ينطبق عليهم هذا الاسم العام «العراف» لكن بحسب نوع ادعاءه لمعرفة الأمور يكون له اسمٌ من خلال الأمر الذي من خلاله يدَّعي معرفة الأمور .

قال ((**من أتى عرافاً فسأله عن شيء**)) ؛ «شيء» جاءت نكرة في هذا السياق فتفيد العموم ؛ أي سأله عن أي شيء كان قليلٍ أو كثير ، دقيقٍ أو جليل ، سواءً من الأشياء التي في الصدور ، أو الأشياء التي في المستقبل ، أو الأشياء المفقودة والغائبة ، أيَّ شيء .

((**من أتى عرافاً فسأله عن شيء فصدقه لم تُقبل له صلاة أربعين يوما**)) قوله «فصدَّقه» هذه اللفظة ليست في صحيح مسلم ، والحديث أحاله المصنف رحمه الله تعالى على صحيح مسلم ، لكن كما نبه أهل العلم وكما هو أيضا في كتاب مسلم رحمه الله تعالى الصحيح هذه اللفظة ليست موجودة فيه ، وإن كانت موجودة في المسند للإمام أحمد بالإسناد نفسه .

((**لم تقبل له صلاة أربعين يوما**)) أي أنه طوال هذه المدة لا تقبل له صلاة ، يصلي ، يؤدي الصلوات المفروضة بأوقاتها بشروطها بأركانها بواجباتها بسننها بمستحباتها لا تُقبل منه ، مهما اجتهد في تتميمها وتكميلها والإتيان بواجباتها وشروطها طوال هذه المدة لا تُقبل منه ، نعم تكون صلاته مجزئة تُسقط عنه الفرض ، ولا يجوز له في هذه المدة أن يتوقف عن الصلاة، بل يصلي وتسقط عنه الفريضة ويكون أدى الفريضة وسقطت عنه الفريضة لكنه لا يُثاب عليها لا في قليلٍ ولا كثير ، ليست مقبولة ، الصلاة ليست مقبولة ، وإذا لم تكن مقبولة لا ثواب عليها ، حتى وإن تمَّمها في واجباتها في شروطها في أركانها في مستحباتها فإنها لا يقبلها الله منه طوال هذه المدة أربعين يوماً؛ إذا أتى عرافا فسأله سواءً صدقه أو حتى شك في خبره ، لو أتاه وهو شاك في خبره ويقول قد يكون صادق وقد لا يكون صادق نسأله ونشوف مع الأيام ، الأيام تكشف لنا هل هو صادق أو غير صادق ؟ يقول ما يضرنا نسأله ونشوف بعد سنة بعد سنتين يطلع صادق أو غير صادق ؟ حتى وإن كان شاكا لماذا ؟ لأن الشاك في عدم صدقه مختل في عقيدته ، لأن العقيدة الإيمانية تدل على أن الكاهن لا يعلم الغيب ، ولا يعلم الغيب إلا الله ، فهذا عنده شك في العقيدة ، عنده خلل في عقيدته ، الغيب لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى ، فإذا كان يأتي للكاهن ويقول أنا لا أجزم أنه صادق أنا أشك في صدقه لكنني سأسأله وأنظر بعد سنة أشوف هل يكون صادقاً أو غير صادق ؟ لا يقبل الله له صلاة أربعين يوما لأن عقيدته اختلت في علم الغيب وأنه من خصائص الله تبارك وتعالى ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل:٦٥] .

وهذا أمرٌ قد لا يتنبه له بعض من يأتي هؤلاء ، ويقول أنا أذهب إليه ولا أجزم أنه صادق أو من أهل الصدق لكنني أنظر ؛ فينطبق عليه ما جاء في هذا الحديث قال: ((**لا تقبل له صلاة أربعين يوما**)) ؛ أربعين يوما ليست قليلة ، يصلي تلك الصلوات في أوقاتها ، يقوم للفجر في وقته والظهر في وقته والعصر في وقته والمغرب في وقته والعشاء في وقته ويواظب عليها أربعين يوم وكلها غير مقبولة ، ولو تركها في هذه المدة إثمه أعظم وبليته أكبر ، يجب عليه أن يصلي هذه الصلوات ويحافظ عليها في أوقاتها وهي غير مقبولة منه ، لا يقبلها الله تبارك وتعالى منه ولا يثيبه عليها .

وهذا الوعيد والتهديد والتخويف كله صيانة لعقائد الناس وحفظ لها من الخلل ، حفظٌ لها من عبث هؤلاء الأفاكين الكذابين الدجالين أكَلَة أموال الناس بالباطل ، والمسلم يعرف قيمة الصلاة ومكانة الصلاة وخطورة عدم قبول صلاته ، فإذا وقف على هذا الوعيد يكون فيه له زجر عظيم وردع كبير جداً من إتيان هؤلاء .

ولا فرق في إتيانهم –وأتحدث عن هذا بمناسبة الوسائل المستجدة في زماننا– بين أن يذهب له في مكانه أو يتصل به من بيته بهاتف الجوال أو يتخاطب معه عبر القنوات الفضائية مثلا أو من خلال الشبكة العنكبوتية مثلا ؛ فهذا في حكم من أتاه ، حتى وإن لم يرحل له في بلده أو يذهب له في مكانه إذا تواصل معه عبر الهاتف أو من خلال قنوات الفضائية أو من خلال الشبكات العنكبوتية أو غير ذلك يعدُّ في حكم من أتى الكاهن ، والآن في زماننا هذا قنوات للكهانة وأيضًا مواقع في الانترنت للكهانة ، من يدخل هذه المواقع أو يتصل بتلك القنوات ولو على سبيل أن يجرب وينظر ويقول أنا لا أجزم بصدقهم يدخل في هذا الوعيد العظيم الذي جاء في هذا الكتاب .

ولهذا أعيد أن هذا الباب «باب ما جاء في الكهان ونحوهم» من الأبواب العظيمة التي تمس إليها الحاجة في هذا الزمان ، لأنه دخلت الآن على الناس دواخل كثيرة ، الآن في زماننا هذا بعض الناس –وعدد منهم حدثني بذلك– تأتيه اتصالات من بلاد بعيدة يتصل على هاتفه ويبدأ يخاطبه ويقول : "أنت فيك كذا ، وأنت سيحصل لك كذا ، وأنا علمت من خلال كذا إلى آخره" ؛ فالتواصل معه وسماع ما يقول أيضًا خطر على الإنسان في عقيدته ، مثل هؤلاء يُغلق الهاتف في وجهه تمامًا ولا يُستمع منه لا إلى حرف ولا إلى كلمة أصلاً ، مجرد ما يُعلم أنه يتحدث في هذه الأمور يغلَق الهاتف ولا يرد عليه أبدًا ، إلا إن كان ذا علم يقول له اتق الله ويحذِّره ويذكر له الأدلة ، أما من سوى ذلك يغلق الهاتف تماماً ولا يتواصل معه لا في قليل ولا في كثير . قال ((من أتى عرافا فسأله لم تقبل له صلاة أربعين يوما)) .

ثم أورد بعده حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « **من أتى كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم** » **رواه أبو داود** .

هنا قال ((من أتى كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد)) ؛ إذا جمعت بين الحديثين في الرواية الأولى والرواية الثانية – ولفظة «فصدقه» ليست في مسلم في الرواية الأولى – جمع أهل العلم بين ذلك بأن من أتى الكاهن معتقداً صدقه مؤمناً بأنه يعلم الغيب فهذا كفْرٌ بما أنزل على محمد عليه الصلاة والسلام ، والذي أنزل عليه القرآن والسنة ، والقرآن والسنة كلاهما جاءا بأنَّ علم الغيب لله ﴿ لَا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾[النمل:٦٥] ، فالذي يذهب إلى الكاهن معتقداً أنه يعلم الغيب وأنه يعلم ما في الصدور وأنه يعلم الأمور الآتية في المستقبل ؛ فلان يموت فلان يمرض الخ ، إذا اعتقد أنه يعلم ذلك فهذا كفْر بما أنزل على محمد ؛ أي كفرٌ بالكتاب والسنة ، لأن النبي عليه الصلاة والسلام أنزل عليه الكتاب والسنة وحيٌ من الله تبارك وتعالى . أما إذا أتاه وهو غير مصدق بما يقول كأن ينظر ماذا عنده مثلا أو نحو ذلك فإنه لا يقبل الله تبارك وتعالى منه صلاةً أربعين يوما .

قال المؤلف رحمه الله تعالى: ((**وللأربعة**)) أي النسائي والترمذي وابن ماجة وأبو داود ، ((**والحاكم**)) أي في مستدركه ((**وقال صحيح على شرطهما**)) أي البخاري ومسلم .

((**من أتى عرافا**)) في الأصل عند المصنف رحمه الله بيَّض يعني ترك فراغاً ترك بياضاً لاسم الراوي من الصحابة ، ربما أنه يكتب من حفظه ولم يذكر وقت التأليف اسم الراوي فترك له فراغ بياض ، في مثل هذا يقال : «بيَّض له المصنف رحمه الله» أي ترك فراغا قدر اسم الصحابي حتى إذا وجده فيما بعد يُلحقه ، والصحابي هو أبو هريرة رضي الله عنه وأرضاه كما في مصادر التخريج .

قال : ((**عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً «من أتى عرافا أو كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم»**)) ؛ ذكرت أن المصنف رحمه الله تعالى بيَّض لاسم الراوي وذَكَر أن الحديث رواه الأربعة أي الترمذي والنسائي وابن ماجة وأبو داود ، والحديث رواه الإمام أحمد ورواه الحاكم كما ذكر المصنف رحمه الله تعالى ،ولم يروه أحد من الأئمة الأربعة أبو داود والترمذي وابن ماجة والنسائي ، ولعل المصنف رحمه الله تبع في ذلك الحافظ ابن حجر في فتح الباري ، لأن الحافظ ابن حجر في فتح الباري عزاه إلى الأئمة الأربعة وقد يكون المصنف تبِعه في هذا العزو ، وعلى كلٍّ الحديث رواه الإمام أحمد رحمه الله في المسند ورواه الحاكم كما ذكر المصنف رحمه الله تعالى في المستدرك ، وهو بمعنى حديث أبي هريرة المتقدم قبله ورواه أبو داود.

قال رحمه الله تعالى : ((**ولأبي يعلى بسند جيد عن ابن مسعود مثله موقوفا**)) أي مثل هذا الحديث موقوفاً أي على ابن مسعود ؛ عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه . ومثل هذا وإن كان موقوفا فإن له حكم الرفع ، لأن هذا من الأمور التي ليست محل اجتهاد ((من أتى كاهنا أو عرافا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد)) هذا وإن كان موقوفًا على ابن مسعود رضي الله عنه فإن له حكم الرفع .

قال رحمه الله :

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه مرفوعا : « ليس منا من تَطَيَّر أو تُطُيِّر له ، أو تَكَهَّن أو تُكُهِّن له ، أو سَحَر أو سُحِر له ، ومن أتى كاهناً فصدَّقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم » رواه البزار بإسناد جيد .

****

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث عن عمران بن حصين رضي الله عنه مرفوعاً أي إلى النبي عليه الصلاة والسلام قال : « ليس منا من تطير أو تُطير له...» الخ ؛ وهذه الصيغة «ليس منا» وتأتي في أحاديث كثيرة هي من الصيغ التي فيها الوعيد الشديد والتهديد العظيم لفاعل ذلك ، ولا يقال «ليس منا» إلا في عظائم الأمور وكبائر الإثم ، لا يقال «ليس منا» في الأمور الصغيرة أو الذنوب اللمم أو نحو ذلك وإنما تأتي هذه الصيغة في الكبائر ،

وقد قال العلماء : إن الكبيرة تُعرف بأمور ؛ منها : أن يتوعد صاحبها بأنه في النار أو أنه لا يدخل الجنة ، أو اللعن مثلا ، أو ينفى عنه الإيمان ((لا يؤمن)) ، ومن ذلك أن يقال «ليس منا» . فهذه الصيغة تأتي في الأمور العظيمة والذنوب الكبار «ليس منا» .

قال ((**ليس منا**)) أي ليس على نهجنا ولا على طريقتنا ولا على مسلكنا المسلك القويم الذي كان عليه النبي عليه الصلاة والسلام وكان عليه صحابته الكرام رضي الله عنهم وأرضاهم .

((**ليس منا من تَطيَّر أو تُطُيِّر له**)) ؛ ليس منا من تَطَيَّر : أي من تعاطى الطيرة سواءً بالطير أو بأي شيء آخر. والتطير : هو التشاؤم ؛ التشاؤم بالطير إما بأسمائها أو بجهة مسيرها أو ألوانها أو حركتها أو غير ذلك أو أصواتها يتشاءم ، يسمع مثلا صوت طير فيتشاءم ، أو يرى طيرًا معيناً فيتشاءم ، أو يسمع اسم طير معين فيتشاءم .

((**من تَطيَّر أو تُطُيِّر له**)) يعني سواء فعل التطير بنفسه أو أمر غيره أن يفعل ذلك له ، كأن يجلس مثلا في بيته ويقول لشخصٍ ما أخرج وازجر طيراً وانظر أين اتجاهها مثلاً ، فهو لم يباشر هذا الفعل بنفسه وإنما أمر غيره فالحكم واحد سواءً تطير بنفسه أو كلَّف غيره بأن يتطير له . ((**ليس منا من تَطيَّر**)) أي بنفسه ، ((**أو تُطُيِّر له**)) أي بأمره لغيره .

((**أو تَكَهَّن أو تُكُهِّن له**)) ؛ ليس منا من تَكهَّن أي : من تعاطى الكهانة بنفسه وادعى معرفة الأمور بنفسه ، أو تُكهن له بأن ذهب إلى من يتكهن له ويدَّعي له معرفة الأمور أو يخبره بالأمور الغائبة أو المستقبلة أو نحو ذلك.

((**أو سَحَر أو سُحِر له**)) ؛ والسحر مر معنا عند المصنف رحمه الله تعالى في باب مستقل ، ((سَحَر)) أي فعل السحر بنفسه بأن يعقد وينفث ويقوم بأعمال السحر بنفسه ، أو أن يذهب لساحر يطلب منه أن يقوم له بعمل السحر .

ثم قال : ((**ومن أتى كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم**)) قال : ((**رواه البزار بإسناد جيد**)) ؛ وخاتمة الحديث ((من أتى كاهناً)) إلى آخره هو بمعنى حديث أبي هريرة المتقدم .

قال رحمه الله :

ورواه الطبراني في الأوسط بإسناد حسن من حديث ابن عباس رضي الله عنهما دون قوله ((ومن أتى)) إلى آخره .

****

قال ((**ورواه الطبراني في الأوسط**)) الطبراني له ثلاث معاجم كلها موجودة ؛ الكبير والأوسط والصغير .

قال ((**رواه الطبراني في الأوسط بإسناد حسن من حديث ابن عباس رضي الله عنهما دون قوله من أتى كاهنا الخ**)) أي أنه رواه من حديث ابن عباس قوله ((ليس منا من تَطير أو تُطير له ، أو تَكهن أو تُكهن له أو سحر أو سحر له)) إلى هنا رواه الطبراني في الأوسط عن ابن عباس رضي الله عنهما .

قال البغوي رحمه الله : « العراف : الذي يدَّعي معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على المسروق ومكان الضالة ونحو ذلك» . وقيل : هو الكاهن ، والكاهن: هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل . وقيل : الذي يخبر عما في الضمير . وقال أبو العباس ابن تيمية رحمه الله : «العراف اسم للكاهن والمنجم والرمَّال ونحوهم ، ممن يتكلم في معرفة الأمور بهذه الطرق» .

****

هذه نقول عن أهل العلم رحمهم الله تعالى في تعريف من هو العراف ومن هو الكاهن ؟ والفرق أيضًا بين الكاهن والعراف ؛ بعد أن ساق رحمه الله تعالى جملة من الأحاديث الواردة في هذا الباب أخذ يورد رحمه الله تعالى هذه النقول عن أهل العلم في بيان من هو العراف ؟ ومن هو الكاهن ؟ .

بدأ أولًا بالنقل عن الإمام البغوي ؛ الإمام البغوي صاحب كتاب شرح السنة والنقل من كتابه شرح السنة ، وأيضا صاحب معالم التنزيل في التفسير وله مصنفات ، ويعُرف بـ«محيي السنة» إمام من الأئمة وعلَم من الأعلام المحققين رحمه الله تعالى .

((**قال البغوي: العراف: الذي يدعي معرفة الأمور**)) «العراف» هذه الكلمة مأخوذة من المعرفة يدَّعي معرفة الأمور .

((**الذي يدعي معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على المسروق ومكان الضالة ونحو ذلك**)) ؛ ولهذا مثل هذا الصنف يؤتى إليه عند فقد الأشياء ، يذهبون إليه الناس يقولون فلان عراف ، إنسان فقَد ولده أو مثلاً فقَّد مالاً أو فقَد شيئاً من الأشياء فيقولون له فلان عراف اذهب إليه ويخبرك . ومن كان كذلك يدَّعي معرفة الأمور يعني الأشياء المفقودة والأشياء المسروقة وما إلى ذلك من يدَّعي معرفة هذه الأمور يقال له عراف ويتناوله الوعيد الذي في الحديث ، يتناول إتيانه الوعيد الذي ورد في الأحاديث .

وقد يكون بعض هؤلاء له صلة بالشياطين بتقربه لهم بطاعته لهم ونحو ذلك فيخبرونه ببعض الأشياء ، وكثير من العوام يغتر بمثل هذا ، عندما يأتي إلى العراف ويقول له قبل أن يتحدث : أنت والدتك فلانة ؟ يقول له نعم ، أنت ساكن في المكان الفلاني ؟ جارك فلان؟ نعم ، أنت كذا الخ ، فبمثل هذه الأشياء التي يخبرونه بها الجن ويذكرها له تستوثق نفسه وتركن إليه ويطمئن لخبره ويصدِّقه بالأشياء التي يقولها . قال ((العراف من يدعي معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على المسروق ومكان الضالة ونحو ذلك)) .

((**وقيل : هو الكاهن**)) ؛ قيل العراف هو الكاهن ، يعني «الكاهن» و«العراف» اسمٌ لمسمى واحد .

((**والكاهن : هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل**)) هذا قول في التفرقة بين الكاهن والعراف ؛ قيل إن العراف : هو الذي يخبر عن الأشياء المفقودة الأشياء الضالة الأشياء المسروقة ونحو ذلك بمقدمات يستدل بها . والكاهن : هو الذي يدَّعي معرفة الأمور المستقبلة . الآن في زماننا هذا بعض التجار ما يدخل عمليات تجارية حتى يدفع أموال لبعض العرافين والكهنة ويقول له هذه تجارة ناجحة أو لا ؟ أربح فيها في المستقبل أو لا أربح ؟ أخسر أو لا أخسر ؟ ويعطيه أموال طائلة ثم يتكهن له وبعد الكهانة يُقدِم أو لا يقدِم. هذه أشياء موجودة في زماننا هذا ، بل دخلت على الناس من خلال مجالات كثيرة سأشير إلى بعض المستجدات في هذا الباب مما دخلت على الناس وانطلت عليهم .

((**وقيل : الذي يخبر عما في الضمير**)) ولا يعلم ما في القلوب والصدور إلا الله سبحانه وتعالى ، نحن لنا الظاهر والله يتولى السرائر ، السرائر الله أعلم بها ، لكن المعرفة تكون بالظاهر ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد:٣٠] ، أما باطن الإنسان وقلبه هذا أمر لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى .

ثم ختم هذه الأقوال بأنفسها وأجمعها ؛ قول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وقوله هذا موجود في مجموع فتاواه ، قال : ((**العراف: اسم للكاهن والمنجم والرمَّال ونحوهم ممن يتكلم في معرفة الأمور بهذه الطرق**)) ؛ وهذه كلمة جامعة لشيخ الإسلام ابن تيمية ، قال : العراف اسم جامع لكل من يدعي معرفة الأمور بهذه الطرق سواء بطريق الطرْق في الحصى ، أو مثلا من طريق الخط في الأرض ، أو من طريق النظر في الكف .

- بعض الدجالين ولهم وجود الآن في زماننا ينظر في الخطوط الموجودة في كف الإنسان ينظر فيها ومسافاتها والتباعد الذي بينها ومن خلال النظر بعد أن ينتهي يقول له أنت تموت بعد عشرين سنة ، أو مثلا تتزوج في السنة القادمة ومن فلانة بنت فلان وينظر في يده وتتزوج مثلا كذا ، والتجارة الفلانية ربحك فيها مئة ألف وينظر الخطوط التي في يده ؛ هؤلاء كلهم يدخلون في حديث النبي ((من أتى كاهنا أو عرافا فصدَّقه بما يقول)) سواءً في النظر إلى الكف ، أو النظر مثلاً إلى خطوط الجسم ولون البشرة أو نحو ذلك .
- بعضهم يدَّعي المعرفة من خلال الاسم اسم الشخص .
- بعضهم يدعي معرفة الأمور من خلال ميولات الشخص ، هذه موجودة الآن بشكل واسع ، يقول له مثلا ما اللون المفضل عندك ؟ أصفر أحمر أخضر ، يقول مثلا أحب اللون الأصفر ، يقول له : يحصل لك كذا وكذا وستكون سعيداً وزواجك هذا ناجح ، لونك أصفر! اطمئن زواجك ناجح وتجارتك هذه رابحة ويحصل لك كذا وكذا إلى آخره من خلال اللون .

○آخر يرسم أشكال هندسية مربع ودائرة ومستطيل ومعين الخ ويقول اختار ماذا تفضِّل من هذه الأشكال الهندسية؟ يقول أنا أفضل الدائرة ، دائما أميل إلى الدوائر أو أميل إلى للمربعات أو أميل للمستطيل ، يقول له أنت يحصل لك كذا ، حتى بعض المؤسسات يأتون بمثل هؤلاء ليختبروا المتقدمين للمؤسسة !! اختبار القبول يضع له دوائر ويضع له ويقول له اختار ، يقول لهم لا هذا اتركوه ، هذا ما يصلح للإدارة أبدًا ، هذا ما دام أنه اختار المربع هذا أبدا ما يصلح للإدارة ولا ينفع هذا فاشل ؛ هذا ظلم للناس ، والله ظلم وتعدي عليهم وجناية عليهم واستخفاف بالعقول وأكل لأموال الناس بالباطل، خرافة ما لها حد لكنها لُبِّست لباس العلم المزعوم والمجرب وما إلى ذلك .

○بعضهم يدخل في هذه الخرافة من خلال التوقيع ؛ يقول وقِّع ، وينظر في توقيعه ومن خلال التوقيع يحكم على الشخصية ، وهذا يسمونه الآن تحليل الشخصية ؛ من خلال مثلا اللون الذي يفضله ، أو من خلال مثلا الأرقام التي يميل إليها ، أو الأشكال الهندسية التي يميل إليها ، أو من خلال النظر في توقيعه ، أو من خلال كتابته ، يقول أطلعني على بعض كتاباتك كيف تكتب ؟ ومن خلال هذه الأشياء يقرأ حال الشخص ويحكم عليه ، يحكم عليه جزماً حتى مثل ما ذكرت لكم يقول للشركة هذا ما يصلح أن يعمل عندكم ، ويقول لهم هذا إداري ناجح ما دام أنه يفضِّل الدويرة هو إداري ناجح يقول خذوها مني قاعدة ، ويصدقونه ويعطونه أموال .

خرافة دخلت الآن على الناس دخولاً عجب ، لكن ما زال الناس والله يحتاجون إلى هذا العلم المبارك الشريف العظيم عن نبينا الكريم عليه الصلاة والسلام حتى تُصَدّ هذه الخرافة من أن تدخل على الناس ؛ صيانةً لعقولهم ، صيانةً لعقائدهم ، صيانةً لأموالهم ، وصيانة لأعراضهم ، صيانةً لعدم ظلمهم ؛ كم يحصل من الظلم الآن بمثل هذه الطرائق والمسالك الزائفة الباطلة التي ما أنزل الله تبارك وتعالى بها من سلطان .

قال رحمه الله :

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوم يكتبون " أبا جاد " وينظرون في النجوم : « ما أرى من فعَل ذلك له عند الله من خلاق» .

****

((وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوم يكتبون "أبا جاد")) ؛ « أبا جاد » هذه الحروف الهجائية : أبجد هوَّز حطي كلمن.. الخ ، هذه الحروف الهجائية ، وتعلُّم أبا جاد وكتابة أبا جاد الذي يقصده ابن عباس رضي الله عنه : أي كتابةً يُدَّعى من خلالها معرفة الأمور ، أما كتابة أبا جاد وتعلُّم حروف الهجاء مثلاً ، أو مثلا كتابة أبا

جاد لحساب الجُمَّل وهو علمٌ معروفٌ صحيح ، أبجد هوَّز هذه يُعرف منها ما يعرف بحساب الجمَّل ؛ أبجد الألف واحد ، الباء اثنين ، الجيم ثلاثة ، الدال أربعة ، وهكذا ، وتُعرف الأرقام من خلال ذلك . ولهذا بعض أهل العلم يذكر أرقام بالحروف على حساب الجمَّل ؛ فهذا لا بأس به وليس هو المعني هنا ، المعني هنا: كتابة أبا جاد بطريقة أو بشكل ما يدَّعي من خلاله أنه يعرف الأمور الغائبة أو الأمور المفقودة أو نحو ذلك .

((**في قومٍ يكتبون أبا جاد وينظرون في النجوم**)) يعني يدَّعي معرفة الأمور سواءً من خلال حروف أبا جاد حروف أبجد هوز ،أو من خلال النظر في النجوم .

قال : ((**ما أرى من فعل ذلك له عند الله من خلاق**)) ؛ وما ذكره ابن عباس في قوم يكتبون أبا جاد ، ما أشبه هؤلاء الذين يدَّعون معرفة الأمور من خلال التوقيع ، أو من خلال خط الإنسان ، أو من خلال مثلا ميولاته للألوان أو المربعات أو الدوائر أو غير ذلك ؛ ما أشبههم لمن حذَّر منهم ابن عباس بقوله ((يكتبون أبا جاد)) ، فتجد هؤلاء الآن المعاصرين إذا جاءه شخص يقول له وقع مثلا أو يقول اكتب لي كذا أو الخ ، ومن خلال هذا يدَّعي معرفة الأمور أو يحلل شخصية الإنسان ، حتى إنني قرأت لأحد هؤلاء لما سُئل قالوا أنت تعرف شخصية الشخص مثلا من خلال توقيعه رسم التوقيع إنه مثلا مندفع أو هادئ أو نحو ذلك من أشياء تكون بالنظر إلى التوقيع ؟ قال : لا أنا أقرأ الذي تحت الحبر ؛ أشياء تحت الحبر ويصدَّق !! يعني لو مثلا يقول أنه متسرع ، يكون توقيعه مثلا طاير ورايح مسافات يقول أنا أتوقع إنه مندفع ، أو إنسان هادئ يكون مثلا توقيعه هذه ربما تكون محل نظر ، أما ادِّعاء تحليل الشخصية كاملةً وادعاء معرفة أمور مستقبلة أو أمور ماضية !! يعني بعضهم من خلال التوقيع يبدأ يتحدث: أنت في صغرك كنت كذا وحصل لك كذا وفي المستقبل يحدث ؛ كله يتحدث من خلال نظره في التوقيع ويصدق في ذلك !! هذا كله يدخل في هذا الباب بلا ريب ، ويجب الحذر من ذلك والتحذير منه صيانة لعقائد الناس وصيانةً لأديانهم وصيانة أيضا لأموالهم من أن يأكلها هؤلاء الدجالون بمثل هذه الخرافة والدجْل والضلال والباطل .

قال رحمه الله :

فيه مسائل ؛ الأولى : لا يجتمع تصديق الكاهن مع الإيمان بالقرآن .

قال رحمه الله تعالى : «فيه مسائل» أي هذا الباب ؛ «الأولى : أنه لا يجتمع تصديق الكاهن مع الإيمان بالقرآن» لأن القرآن الذي هو أنزل على محمد كما في الحديث قال ((فقد كفر بما أنزل على محمد)) فلا يجتمع تصديق الكاهن مع الإيمان بالقرآن ، لأن القرآن فيه أنه لا يعلم الغيب إلا الله ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل:٦٥] ، وأخذ منها الأئمة رحمهم الله تعالى أن من ادعى علم الغيب فقد كفر ؛ لأن الله يقول: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ أي أمر مختص به سبحانه وتعالى ، فمن ادعى علم الغيب

فقد كفر . إذاً الحديث الذي ساقه رحمه الله فيه أنه لا يجتمع تصديق الكاهن مع الإيمان بالقرآن ؛ إن صدَّق الكاهن كفر بالقرآن ، لأن في القرآن أن علم الغيب أمرٌ اختص الله سبحانه وتعالى به .

الثانية : التصريح بأنه كفر.

لقوله في الحديث : ((فقد كفر بما أنزل على محمد)) صلى الله عليه وسلم .

الثالثة : ذِكر من تُكُهن له .

أي أن الأمر ليس فيمن تكهن ، بل أيضا من تُكهن له ؛ تَكهن بنفسه أو تُكهن له فإن الوعيد يتناوله كما في حديث عمران ابن حصين .

الرابعة : ذِكر من تُطير له .

أي أن الوعيد يتناوله سواءً تَطير بنفسه ، أو تُطير له بأمره .

الخامسة : ذِكر من سُحر له .

أيضًا يتناوله الوعيد ؛ ذِكر من سُحر له سواءً سَحر بنفسه أو سُحِر له أي بأمره فإنه يتناوله الوعيد .

السادسة : ذِكر من تعلم أبا جاد .

وهذا جاء فيما ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما ((في قوم يكتبون أبا جاد وينظرون في النجوم قال : ما أرى من فعل ذلك له عند الله من خلاق)) .

السابعة : ذِكر الفرق بين الكاهن والعراف .

وهذا يتضح من خلال النقول التي ساقها رحمه الله تعالى عن الأئمة ؛ فنقل عن البغوي ، ونقل عن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى .

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

اللهم صل وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

الدرس الثامن والعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد :

فيقول الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتابه «التوحيد» :

باب ما جاء في النشرة

عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن النشرة فقال: «هي من عمل الشيطان» رواه أحمد بسند جيد ، وأبو داود . وقال : سُئل أحمد عنها فقال : «ابن مسعود يكره هذا كله» .

****

هذه الترجمة ((**بابٌ ما جاء في النشرة**)) عقدها المصنف الإمام المجدِّد شيخ الإسلام محمد ابن عبد الوهاب رحمه الله في كتابه التوحيد بعد أن عقد قبلها أبواباً في التحذير من السحر وبيان عظيم خطورته ، ثم بيَّن شيئا من أنواعه محذِّراً من السحر بأنواعه ومبيِّنا الخطورة العظيمة والضرر البالغ المترتب على وجوده وفعله وتعلُّمه وتعاطيه ، وبعد أن بيَّن رحمه الله تعالى ذلك عقد هذه الترجمة «بابٌ ما جاء في النشرة»، وعقْد هذه الترجمة بعد ما سبق من أبواب في غاية المناسبة؛ لأن من ابتُلي بشيءٍ من السحر وأصيب بشيء من السحر ، سُحر ، أصيب بهذا الداء فكيف يتعالج منه؟ وكيف يُحَلُّ السحر عنه؟ وكيف يُفك ويخلَّص من هذا السحر الذي أصابه ؟ وهو ما يعرف بحلِّ السحر عن المسحور وهو النشرة .

النشرة : هي حل السحر عن المسحور . لأن المراد بالنشرة – من نشَّر الأمر ينشِّره – يراد بها : إزالة هذا الداء الذي خامر وخالط هذا المصاب بكشفه عنه وحلِّه وفكه وتخليصه منه . فالنشرة هي حل السحر عن المسحور .

والمصنف رحمه الله تعالى قال : ((بابٌ ما جاء في النشرة)) أي: بابٌ ما جاء في حل السحر عن المسحور .

ولما كان هذا الحل للسحر عن المسحور لا يخلو من إحدى طريقتين :

١. إما حلٌّ له بسحر مثله ؛ وهذا باطل ومحرم كما يأتي تفصيل ذلك وبيانه .

٢. أو حلٌّ له باللجوء إلى الله دعاءً وذكراً واسترقاءً بالقرآن الكريم وتعوذًا بالله تبارك وتعالى وحُسن التجاءٍ إليه ؛ وهذه لا بأس بها ومشروعة ، ولهذا عقد المصنف رحمه الله تعالى هذه الترجمة بهذا العنوان «باب ما جاء في النشرة» أي ما جاء في حل السحر عن المسحور .

ولهذا لما كان الأمر فيه تفصيل فلا يقال بالجواز بالإطلاق ولا بالمنع بالإطلاق؛ وإنما يفصَّل بحسب نوع النشرة وحالها ، وهو ما عقد رحمه الله تعالى هذه الترجمة لبيانه وتقريره وتفصيله ، فالنشرة التي هي حلُّ السحر عن

المسحور عندما يُسأل عنها يُنظر في الطريقة أولاً ، قبل أن يقال هي جائزة أو غير جائزة يُنظر في الطريقة التي ستُسلك في هذا الحل ؛ فإن قال السائل "أريد حل هذا السحر بالذهاب إلى الساحر" يقال له حرام ولا يجوز وهذا من عمل الشيطان كما قال ذلكم الرسول عليه الصلاة والسلام ، وإن قال :أريد ذلكم بالدعاء وقراءة القرآن وذكر الله سبحانه وتعالى" فيقال هذا جائز ومباح . ولهذا جاء المصنف رحمه الله تعالى بهذه الترجمة أو عقَد هذه الترجمة لتقرير ذلك وبيانه وساق من الأحاديث والآثار المروية عن السلف رحمهم الله تعالى ما فيه بيانٌ لهذا الأمر وتقريرٌ لهذا التفصيل ، ثم ختم ذلكم بكلمة ابن القيم رحمه الله تعالى التي فصَّل فيها حكم النشرة بالنظر إلى نوعها ؛ إن كانت بسحر مثله فهي محرمة ، وإن كانت بالأدعية والأذكار فهي جائزة .

أورد رحمه الله تعالى أولاً حديث جابر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سُئل عن النشرة فقال : «**هي من عمل الشيطان**» قال : رواه أحمد بسند جيد وأبو داود .

قول جابر رضي الله عنه ((**سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن النشرة**)) «ال» في قوله «النشرة» للعهد ، أي النشرة المعهودة المعروفة التي كان يفعلها المشركون والتي كانت تُفعل في الجاهلية ؛ بإتيان السحرة والذهاب إليهم من أجل تخليص من سُحر من السحر الذي أصابه ، سواءً بالرجوع إلى الساحر الذي يُظن أنه هو الذي وقع على يديه هذا السحر أو بالذهاب إلى غيره . فسُئل عن النشرة أي : تلك النشرة المعهودة المعروفة ، فأجاب عليه الصلاة والسلام بقوله : ((**هي من عمل الشيطان**)) ، وهنا لم يفصِّل في الجواب لأن السؤال كان عن النوع الذي هو حلُّها بسحر مثله بالذهاب إلى الساحر لفك السحر .

فقال عليه الصلاة والسلام: ((**هي من عمل الشيطان**)) أي : أمرٌ إنما يقع بدعوة الشيطان إليه والتحريض عليه وأيضاً بالمعونة منه ، لأن الساحر لا يفعل شيئاً من إيقاع سحرٍ أو حلِّ سحرٍ إلا بالاستعانة بالشياطين ، ولا تكون الاستعانة بالشياطين إلا بالتقرب لهم ، ولا يكون التقرب لهم إلا بما يُسخط الله من كفر وشرك بالله سبحانه وتعالى . فهي من عمل الشيطان لأن الشيطان هو الذي يدعو إلى ذلك ، ولأنه هو الذي يعين على ذلك .

وقوله عليه الصلاة والسلام ((**هي من عمل الشيطان**)) واضح فيه تحريم ذلك والنهي عنه والتحذير منه ، لأن عمل الشيطان لا يؤتى ولا يُقترب منه ، يكفي دلالة على بطلان العمل أن يقال هو من عمل الشيطان ، فأيُّ خيرٍ يرتجى أو عافيةٍ تؤمَّل من أمرٍ وصفه النبي عليه الصلاة والسلام بأنه من عمل الشيطان !! .

فإذاً هذا دليل واضح على تحريم النشرة التي هي حل السحر بسحرٍ مثله وأنها من عمل الشيطان ؛ فهذا دليل على تحريمها وأنها لا تُفعل ولا أيضا حتى من باب ما يقال عنه إنه ضرورة لا يجوز ذلك ، وأيُّ ضرورةٍ تُلجئ الإنسان إلى أمر هو من الشرك بالله سبحانه وتعالى !! لأنه لا يكون السحر إلا بالشرك والتقرب للشياطين والاستعانة بهم والالتجاء إليهم ، بل إنَّ من الخير للإنسان بقاؤه على مرضه محتسباً أجر ذلك وثوابه عند الله تبارك وتعالى ولا أن

يذهب لأحد السحرة فيضِيع دينه عندهم ، وأيُّ عافيةٍ هذه التي تكون بضياع الدين !! حتى وإن ذهب المرض أو توقفت الشكاية التي كان يجدها أيُّ خير في أمرٍ لم يحصل إلا بضياع الدين !! ودين الإنسان هو رأس ماله ، فكيف يضيّع دينه من أجل عافية بدنه المزعومة المتوهمة ؟!

ولهذا المقام هنا مقام صدقٍ في الالتجاء إلى الله سبحانه وتعالى ، وتأملوا معي في هذا الباب جيداً قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[البقرة:١٠٢] ؛ هذا في وقوع السحر على أيدي السحرة ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ، وكذلك ارتفاع السحر أو حلُّه أو زواله لا يمكن أن يقع شيء من ذلك إلا بإذن الله ، فالمقام مقام توكل على الله ، ليس مقام إضاعة للدين بالذهاب إلى السحرة والمشعوذين والدجالين . وإذا كان واضحاً من قوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ من حيث وقوع السحر فالأمر مثله تماماً في رفعه –في رفع السحر وحله– فالأمر بيد الله سبحانه وتعالى فأيُّ خير يرتجى في أن يبيع الإنسان دينه وأن يضيّع دينه بزعم أنه يريد أن يتخلص من الوجع الفلاني أو المرض الفلاني أو المعاناة الفلانية أو الشدة الفلانية أو نحو ذلك .

قال رحمه الله تعالى: ((**رواه أحمد بسند جيد وأبو داود وقال**– أي أبو داود– **سُئل أحمد عنها** أي عن النشرة **فقال : ابن مسعود يكره هذا كله**)) ؛ والكراهة المراد بها التحريم عند السلف رحمهم الله تعالى والصحابة رضي الله عنهم ، يكره ذلك كله : أي يرى عدم جواز ذلك .

((**سُئل عن النشرة فقال : ابن مسعود يكره ذلك كله**)) وقوله «يكره ذلك كله» يتناول حلُّها بهذه الطريقة المتقدم الإشارة إليها والتعريف بها ؛حلها بسحر مثله وهي التي سئل عنها النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث المتقدم وقال ((هي من عمل الشيطان)) ، ويتناول أيضا ما ثبت عنه من النهي عن التعاليق ولو كانت من القرآن، وهذه مسألة سبق أن بُيّنت في ترجمة خاصة مرت بنا عند المصنف رحمه الله تعالى .

قال رحمه الله تعالى :

وفي البخاري عن قتادة : قلت لابن المسيب : رجل به طب أو يؤخَّذ عن امرأته ، أيُحَلُّ عنه أو ينشَّر ؟ قال : لا بأس به ، إنما يريدون به الإصلاح ، فأما ما ينفع فلم يُنه عنه . اهـ .

****

قال رحمه الله: ((**وفي البخاري عن قتادة**)) أي ابن دِعامة السدوسي ؛ من علماء التابعين رحمه الله تعالى .

((**قلت لابن المسيّب**)) أي سعيد ؛ وهو من علماء التابعين ومن أجلة علماء التابعين رحمه الله .

قلت له : ((**رجلٌ به طبٌّ**)) ؛ أي به سِحرٌ ، أي أصيب بسحر ؛سُحر . ويقال للسحر «طب» من باب التفاؤل مثل ما يقال للديغ «سليم» من باب التفاؤل أن تحصل له السلامة . ويقال إن كلمة «طب» من الأضداد بحيث إنها تطلق على الداء وتطلق على الدواء ؛ فيقال للمرض طب ويقال للعافية منه أيضًا طب والشفاء منه يقال له طب . يقال ذلك ويقال إن الإطلاق هنا من باب التفاؤل مثل ما يقال للديغ «سليم» تفاؤلاً بالسلامة والعافية والشفاء . فقال قتادة لابن المسيب ((رجل به طب)) أي به سحر .

((**أو يؤخَّذ عن امرأته**)) أي يُصرف عن امرأته . والعطف هنا من باب عطف الخاص على العام ؛ قال رجل به طب يعني به سحر أياً كان نوعه ، ثم تحدث عن نوع معين من أنواع السحر وهو أن يؤخَّذ الرجل عن امرأته أي يُصرف ، لأن من أنواع السحر الصرف والعطف ، الصرف: أي صرف المتحابين وإيجاد بُغضة بينهما ، والعطف: تحبيب المتباغضين بعضهما لبعض . فالسحر منه سحر الصرف ومنه سحر العطف ، فرجلٌ يؤخذ عن امرأته: أي أصيب بسحر جعله يبغض امرأته ويكرهها ولا يطيق قربها ولا يأنس بالجلوس معها أو معاشرتها . يؤخَّذ أي أصيب بسحر أدى به إلى النفرة والكراهة والبغضة لامرأته ، ولهذا الأُخذةُ : هي السحر الذي يترتب عليه مثل ذلك ، أي أن يصبح الرجل غير مطيقٍ لامرأته وغير محب لها ولا راغب في معاشرتها بسبب السحر ، وهذا قد يحصل ، قد يكون مثلاً بينه وبين امرأته محبة عظيمة جداً ثم فجأة يجد قلبه انصرف عنها تماما ويبغضها بغضاً شديدا ولا يطيق جلوساً معها ولا معاشرة لها ولا غير ذلك ؛ فمثل هذا يقال عنه (يؤخَّذ عن امرأته) ويقال عنه (به سحر الصرف) ؛ أي الإبعاد عن الأهل أو الإبعاد عن الزوجة أو نحو ذلك .

((**فقال رجل به طب**)) هذا عموما فيه سحر أياً كان ((**أو يؤخذ عن امرأته**)) هذا سؤال عن نوع من السحر ((أو يؤخذ عن امرأته)) الذي هو سحر الصرف ، وسحر الصرف إليه الإشارة في الآية الكريمة ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ [البقرة:١٠٢] أي يصرف الزوج عن زوجه ، وهذا الذي فيه هذا السؤال ((أو يؤخذ عن امرأته)) أي يُصرف عن امرأته .

((**أيحل عنه أو ينشَّر؟**)) هذا هو السؤال الآن : أيحل عنه هذا السحر أو ينشَّر؟ يعني تُصنع له النشرة ، والنشرة: هي العلاج من السحر ((أيحل عنه أو ينشر؟)) .

قال سعيد : ((**لا بأس به**)) أي حلُّه عنه وأن ينشَّر من هذا السحر الذي أصابه بأن يُحل عنه السحر؛لا بأس به.

قال : ((**إنما يريدون به الإصلاح ، فأما ما ينفع فلم يُنه عنه**)) وكلام سعيدٍ هذا لا يجوز أن يُحمل إلا على النشرة الشرعية المباحة التي جاءت الأدلة بالإذن بها وجوازها ومشروعيتها ؛ وهي حل السحر بالرقية الشرعية واللجوء إلى الله ودعاءه سبحانه وتعالى .

فقال : ((**لا بأس به إنما يريدون به الإصلاح**)) ومثل هذا الكلام «إنما يريدون به الإصلاح» لا يمكن إطلاقًا أن يصدر من مثل سعيد ابن المسيب ويريد به السحرة ، وأيُّ إصلاح عند السحرة الذين قال الله عنهم ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾[طه:٦٩]؟! عموم قوله ﴿حَيْثُ أَتَى﴾ يتناول حتى هذا الباب الذي نتحدث عنه ؛ لا فلاح عند الساحر ، ﴿حَيْثُ أَتَى﴾ أي : أينما توجه . أينما توجه لا فلاح .

فقوله ((إنما يريدون به الإصلاح)) هذا يُحمل على ما كان منه بالرقية والتعاويذ الشرعية والأدعية والقرآن والذكر ونحو ذلك . قال ((إنما يريدون به الإصلاح)) ؛ أيضًا يدخل في هذا أن يعطى بعض الوصفات العلاجية مثلا بعض الأعشاب ، لاسيما وأن من السحر سحرًا يؤثر في البدن تأثيراً عضوياً ، يعني كأن يجد مثلا ألما في بطنه أو وجعاً في رأسه أو غثياناً أو نحو ذلك فلا بأس أن يعطى بعض الأدوية التي تعالج مثل هذه الأمراض ، وهذا ما سيشير إليه ابن القيم رحمه الله تعالى في تفصيله في هذه المسألة كما سيأتي نصُّ كلامه قريباً .

قال: ((**فأما ما ينفع فلم يُنه عنه**)) ؛ أما ما ينفع يعني من ذكر ودعاء وتعاويذ ونحو ذلك لم يُنه عنه ، والنبي عليه الصلاة والسلام لما سُئل عن الرقية قال : ((اعْرِضُوا عَلَيَّ رُقَاكُمْ لَا بَأْسَ بِالرُّقَى مَا لَمْ تَكُنْ شِرْكًا)) ، فالرقية والاستعاذة والدعاء والالتجاء إلى الله سبحانه وتعالى هذا بابٌ لم يأت النهي عنه إلا إذا كان فيه مخالفة ؛كأن يكون فيه شرك أو يكون فيه بدعة أو يكون فيه شيء من هذا القبيل . قال ((فأما ما ينفع فلم يُنه عنه)) .

قال رحمه الله :

وروي عن الحسن أنه قال : «لا يحلّ السحرَ إلا ساحر» .

****

قول الحسن وهو البصري رحمه الله تعالى ((**لا يحِل السحر إلا ساحر**)) أي لا يحله بغير الذكر والقرآن والدعاء والالتجاء إلى الله سبحانه وتعالى إلا ساحر ، إلا من يتعاطى السحر . قال ذلك رحمه الله تحذيراً من هذا الأمر وبياناً لخطورته وأنه لا يحل السحر أي بغير الأدعية والذكر والرقية واللجوء إلى الله سبحانه وتعالى لا يحله إلا ساحر وهذا أمرٌ ينبغي التنبه له خاصةً أن كثير من العوام يخادَع في هذا الباب أو يُخدع تحت مسميات ، فعندما يُذكر له شخص لا يقول له اذهب إلى فلان فإنه ساحر ، بل يقولون فلان مداوي أو معالج أو يقولون له فلان طبيب أعشاب مثلا أو يقولون فلان خبير بمثل هذه الأمراض أو أشياء من هذا القبيل لا يقولون ساحر ، وكم يتورط العوام ورطات عظيمة جداً بسبب تغيير الاسم من جهة ، وبسبب حكاية التجارب التي حصلت من جهة أخرى؛ فلان راح وحصل له كذا ، وفلانة كانت تشتكي من كذا وحصل لها كذا ، تروى تجارب وبناءً على تغيير الأسماء والتجارب التي ربما يكون كثير منها يلفَّق ترويجاً لهذه الأعمال المحرمة .

فيُتنبه لمثل هذا الكلام العظيم قول الحسن ((لا يحل السحر إلا ساحر)) ؛ لا يحل السحر أي بغير الرقية المشروعة -الذكر والقرآن- إلا ساحر ، وهذا يعطي الإنسان في هذا الباب قاعدة جداً مهمة ومفيدة ؛ لو قُدِّر أن إنساناً قيل له إن فلان طبيب أعشاب أو مثلا فلان خبير وخُدع ببعض الأسماء ثم ذهب إلى شخص للعلاج ثم وجده عنده أشياء ليست قرآن ولا ذكر لله ، إما طلاسم أو أدعية مثلا مستغربة ، أو تمتمة وهمهمة ، أو مثلا يسأله عن اسم أمه أو يقول مثلا ائت لي بكذا وائت لي بكذا ، أو يطلب منه أعمالاً منكرة وأفعالاً محرمة ((لا يحل السحر إلا ساحر)) ؛ يعني كل ما كان خارجاً عن نطاق حل السحر بالطريقة المشروعة التي هي الذكر والالتجاء إلى الله سبحانه وتعالى فإنه من السحر . وهذه تُعد قاعدة ثمينة جداً لو تُنبه لها للسلامة من الدعاوى الزائفة والترويجات المغرضة الماكرة لأناسٍ هم من أهل السحر ومن المتعاطين له وأربابه ، فلا يحل السحر إلا ساحر ؛ يعني لا يحله بغير الطريقة الشرعية التي هي الذكر واللجوء إلى الله إلا ساحر ، أيّ طريقة كانت تدَّعى ، ولا تقف طرائق السحرة عند شكل واحد أو صفة واحدة أو أسلوب واحد ، تتنوع طرائقهم وتختلف أساليبهم لكن في المؤدى النتيجة واحدة ؛ فيجب الحذر من ذلك كله .

وإن كان من دُعي إلى الذهاب إليه للعلاج عنده ليس من أهل الديانة ولا من أهل الصلاة ولا من أهل المساجد ولا من المعروفين بالاستقامة والطاعة لله ثم هو أيضا يأتي بمثل هذه الأمور لا يحل له الذهاب إليه ، وإن قُدِّر أنه خُدِع ببعض الأسماء وذهب إليه فالواجب عليه أن لا يطلب منه علاجاً ولا يعرض عليه مرضاً ، بل يترك مكانه ويغادر ولا يبقى عنده لحظة واحدة حفظاً لدينه ، وعليه أن يحسن التجاءه إلى الله سبحانه وتعالى وتوكله على الله عز وجل ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق:٣] ، ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر:٣٦] .

قال رحمه الله تعالى :

قال ابن القيم : النشرة حل السحر عن المسحور ، وهي نوعان :

أحدهما : حل بسحرٍ مثله ، وهو الذي من عمل الشيطان وعليه يُحمل قول الحسن ، فيتقرب الناشر والمنتشر إلى الشيطان بما يحب فيبطل عمله عن المسحور .

والثاني : النشرة بالرقية والتعوذات والأدوية والدعوات المباحة فهذا جائز .

****

هذا تفصيل عظيم جداً ومتين للغاية نقله المصنف رحمه الله تعالى عن الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى .

قال رحمه الله : ((**النشرة: حل السحر عن المسحور، وهي نوعان**)) أي طريقة هذا الحل للسحر عن المسحور طريقتان أو نوعان .

الأول : ((**حلٌّ بسحر مثله**)) سواء على يد الساحر الأول الذي وقع منه السحر ، أو على يد غيره من السحرة ((حلٌّ بسحر مثله)) ؛ ما معنى حل بسحر مثله ؟ أي : بذهابٍ إلى ساحر من أجل أن يحل السحر عنه ، فهو يذهب إليه بهذه النية ، بنية أنه مسحور وهذا شخص يعرف السحر وخبير به ويطلب منه أن يفك هذا السحر عنه .

قال ابن القيم : ((**وهو الذي من عمل الشيطان**)) الذي ورد في حديث جابر الذي صدَّر به المصنف رحمه الله تعالى الترجمة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((هي من عمل الشيطان)) ؛ فهذا الذي من عمل الشيطان ، وهذا صريح بأن هذا الأمر باطل ولا يجوز ، فلا يؤتى الساحر من أجل حل السحر بسحر مثله .

وقد عرفنا في أول ترجمة تتعلق بالسحر ((باب ما جاء في السحر)) أن الساحر كافر ولا يكون السحر إلا بكفرٍ بالله سبحانه وتعالى ، وأن حد الساحر ضربةٌ بالسيف ؛ فإذا كان هذا حكمه وهذا حده –حكمه أنه كافر وحده ضربة بالسيف– كيف يقال يُذهب إليه ؟! وربما بعض الناس أصبح في غفلة عظيمة في هذا الباب وأصبح يروِّج ربما للسحرة بهذا السبب ، وربما بعضهم قال "إن فلان ساحر جيد وفلان ذهب إليه" يصبح مروجاً للسحرة والعياذ بالله ؛ وهذه مصيبة ، يجد مثلا مريضا ويقول له "أنصحك تذهب لفلان في المكان الفلاني هذا ساحر جيد وفلان ذهب إليه وحصل له كذا" وهذا شيء موجود ، وربما أيضًا أدى إلى هذا الانزلاق وجود بعض الفتاوى الشاذة في هذا الباب التي تجيز الذهاب إلى الساحر بنية حل السحر عن المسحور . أيُّ خير يرتجى في الذهاب إلى الساحر الذي ذاك حكمه وذاك حده مر معنا .

والواجب على من علم به في دولة تحكِّم شرع الله وتقيم حكم الله تبارك وتعالى أن يبلِّغ الجهات المختصة عنه للقضاء عليه وتخليص الناس من شره ، لا أن يقال في المكان الفلاني يوجد كذا واذهب إليه الخ من أجل أن يحل السحر عن المسحور .

ثم هذه إضافة إلى ما سبق فيها خطورة بالغة جدًا من حيث التمكين للسحرة والتأييد لأعمالهم والترويج لأفعالهم ؛ شعَر من دعا إليهم أو لم يشعُر ، بينما الواجب أن يصان المسلم عن مثل أولئك والذهاب إليهم وسؤالهم ، سواءً كان هذا السؤال عن ذهابٍ أو تواصل . الآن أصبح بعض الناس يتواصل مع بعض السحرة عن طريق الهاتف ، وبعضهم يتواصل مع السحرة عن طريق القنوات الفضائية ، أصبح الآن يوجد قنوات متخصصة في السحر ، ويجلس الساحر في القناة والناس يتصلون به من أنحاء الدنيا !! وهذا يقول أنا في كذا والثاني يقول كذا الخ ، وذاك من الشاشة يحدِّث كل هؤلاء في أنحاء العالم كلٌ بكذا من علاج أو مكان سحر أو أمورٌ يدعوه إليها أو يصفها له. وأصبح الآن أيضا من الطرائق الخطيرة أن بعض السحرة أصبحوا يتصلون على بعض الأشخاص هاتفياً ، ويفاجئ بعض الناس إذا هاتفه يرن ويرد على المتصل ويبدأ يحدِّثه يقول له : أنا من بلد كذا ويقدم بمقدمة يستجِرُّه ويستدرجه فيها يقول مثلا : كنت أصلي الاستخارة أو رافعا يدي أدعو ووقع رقمك في قلبي وأنك فيك سحر

وأنا أعرف مكان السحر الذي كذا ويبدأ يتحدث معه يستدرجه ، ووقع فعلًا بعض الجهال والعوام في فخ هؤلاء المكرة الدجاجلة السحرة .

فالشاهد أن هذه الطريقة كلها ينبغي أن تطبق فيها قاعدة الحسن رحمه الله ((لا يحل السحر إلا ساحر)) ، كل مثل هذه الطرائق القائمة على مثل هذا الدجل والشعوذة والأمور المنكرة المحرمة هذه كلها باطلة، لا يحل السحر إلا ساحر .

قال ابن القيم : ((**وهو الذي من عمل الشيطان ، وعليه يُحمل قول الحسن**)) الحسن ماذا قال ؟ «لا يحل السحر إلا ساحر» ، يُحمل قول الحسن لا يحل إلا ساحر : أي لا يحله بغير القرآن والذكر واللجوء إلى الله إلا ساحر ، وهذه قاعدة جدًا ثمينة في هذا الباب ؛ قال ((وعليه يحمل قول الحسن)) .

قال : ((**فيتقرب الناشر والمنتشر إلى الشيطان**)) الناشر من هو ؟ الساحر الذي يصنع النشرة التي هي حل السحر ، فالناشر : هو الساحر ، والمنتشر : هو المسحور الذي يُطلَب من الساحر علاجه ، سواءً طُلب علاجه من نفس المسحور أو من شخص أوفده المسحور أو من شخص أيضا ذهب هكذا من نفسه بزعمه يريد أن يحسن للمسحور . قال ((**فيتقرب الناشر والمنتشر**)) المنتشر: هو المسحور الذي يطلب من الساحر أو من ينوب عن المسحور من يطلب من الساحر إزالة السحر وحله .

((**فيتقرب الناشر والمنتشر**)) ؛ انتبه لكلمة «يتقرب المنتشر» ، دعك الآن من كلمة يتقرب الناشر هذا صنيع الساحر أوقاته كلها تقرب إلى الشياطين ، لكن انظر المصيبة الآن التي ستقع ؛ وهي هلاك دين هذا الإنسان الذي ذهب إلى الساحر لمعالجة السحر وضياع دينه .

قال: ((**والمنتشر**)) يتقرب الناشر والمنتشر – المنتشر الذي هو المريض أو من ينوب عنه – يتقرب إلى الشيطان . كيف يكون هذا التقرب إلى الشيطان؟ إلا بضياع الدين !! هب أن هذا الذي ذهب انتهى الوجع الذي معه لكن بماذا رجع ؟ بضياع دينه ، باستلاب دينه منه بهذا التقرب الذي دعاه إليه الساحر إلى الشيطان .

قال: ((**فيتقرب الناشر والمنتشر إلى الشيطان**)) ؛ هل مثل هذا يقال يجوز للضرورة أن يُذهب إلى الساحر فيتقرب الساحر ويتقرب المسحور إلى الشيطان ؟! قال ((**فيتقرب الناشر والمنتشر إلى الشيطان بما يحب فيُبطل عمله عن المسحور**)) فهل مثل هذا يقال أنه جائز للضرورة ؟ هل يوجد من يقول يجوز أن تتقرب للشيطان من أجل أن تشفى من مرض للضرورة؟! الإذن بالذهاب إلى الساحر لحل السحر هو تحقيق لهذا الأمر ، لأن حل السحر عن المسحور مثل صنيع السحر ابتداءً لا يكون إلا بالتقرب للشياطين ، فعمل الساحر ابتداءً –أي عملا للسحر– أو انتهاءً الذي هو حل السحر كله بالتقرب إلى الشياطين ، فكما أنه يقال لا يجوز أن يُذهب لساحر من أجل أن يعمل السحر فكذلك لا يجوز الذهاب إليه من أجل أن يحل السحر ، لأن كله من باب التقرب إلى الشياطين بما يحبون ، ولا يحبون إلا الكفر بالله والشرك به وضياع الدين .

قال رحمه الله : ((**والثاني : النشرة بالرقية والتعوذات والأدوية والدعوات المباحة فهذا جائز**)) .

((**بالرقية**)) : أي أن يرقي نفسه أو أن يرقيه غيره ، والأوْلى أيضا بالإنسان أن لا يسترقي ، وإن استرقى فهو جائز لكن الأولى به أن لا يسترقي وقد تقدم بيان ذلك في ترجمة مضت .

((**والتعوذات**)) أي الاستعاذة بالله والالتجاء إليه والاعتصام به سبحانه والتوكل عليه وطلب المد والمعونة منه ، وهذا إذا وفِّق به العبد وصدق في اللجوء إلى الله تبارك وتعالى يكون هذا باب خير عظيم عليه ؛ أن يوحِّد ويلجأ ويصدق مع الله ويلح ويدعو الله سبحانه وتعالى، يكون باب خير عظيم عليه في صلاحه والتجاءه إلى ربه جل وعلا .

((**والأدوية**)) الأدوية مثل ما سبق بيان ذلك؛ يعني لو كان السحر تسبب في مرض عضوي –أوجاع في البطن أو آلام في الرأس أو شيء من الغثيان أو نحو ذلك– فذُكر له بعض الأعشاب التي تفيد مثلا في آلام البطن أو في أوجاع الرأس أو نحو ذلك هذا أمر مباح . وأمور الأعشاب ونحوها أمور تُعلم بالتجربة ، قد قال عليه الصلاة والسلام : ((تَدَاوَوْا عِبَادَ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يُنْزِلْ دَاءً إِلَّا أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً عَلِمَهُ مَنْ عَلِمَهُ وَجَهِلَهُ مَنْ جَهِلَهُ)) ، فإذا قيل له العشبة الفلانية خذ منها في الصباح وخذ منها في المساء واشرب كذا وادَّهن مثلا بكذا من الأعشاب والأدوية التي يُعرف أنها تعالج مرضاً أصابه عضوياً بسبب السحر هذا لا بأس به.

ومثله ((**الدعوات**)) ؛ أن يضرع إلى الله ويلجأ إلى الله ويدعو الله سبحانه وتعالى ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ [النمل:٦٢] .

قال رحمه الله تعالى : ((**فهذا جائز**)) يعني هذا النوع جائز ، أما الأول فهو باطلٌ محرم .

قال رحمه الله تعالى :

فيه مسائل ؛ الأولى : النهي عن النشرة .

الثانية : الفرق بين المنهي عنه والمرخص فيه ، مما يزيل الإشكال .

****

قال رحمه الله تعالى ((**فيه مسائل**)) ولم يذكر رحمه الله إلا مسألتين !! فلماذا لم يقل مثلاً فيه مسألتان الأولى كذا والثانية كذا ؟

- جواب ذلك : أنه مشى على النسق الذي مضى عليه في ذكر المسائل عقِب كل باب أو في خاتمة كل باب يقول فيه مسائل .

- وثانيا : أن لغة العرب تتسع لإطلاق الجمع على المثنى ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم:٤] ولم يقل قلباكما وهما قلبان، أطلق الجمع على المثنى المراد قلبين ولم يقل قلباكما ، مثله ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة:٣٨] ، ولهذا نظائر ؛ فلغة العرب تتسع لإطلاق الجمع على المثنى ، فمشى رحمه الله على نسق واحد في الأبواب فعبَّر بهذه الصيغة التي مضى عليها واللغة تتسع لذلك .

قال : ((**الأولى النهي عن النشرة**)) أي التي هي من عمل الجاهلية والتي جاء في الحديث سؤال النبي صلى الله عليه وسلم عنها والتي هي أيضا حل السحر بسحرٍ مثله ؛ فهذه جاء النهي عنها وبيَّن نبينا عليه الصلاة والسلام هي من عمل الشيطان . وقول المصنف رحمه الله «النهي عن النشرة» مأخوذ من قول النبي عليه الصلاة والسلام ((هي من عمل الشيطان)) ؛ فهذا نهي عن النشرة التي هي حل للسحر بسحر مثله .

قال رحمه الله : ((**الفرق بين المنهي عنه والمرخص فيه مما يزيل الإشكال**)) وهذا جاء مبيَّنا موضحًا مبسوطا في كلام العلامة ابن القيم رحمه الله والذي ساقه المصنف رحمه الله تعالى .

سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك .

اللهم صلِّ وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .



شرح كتاب التوحيد

لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه اللّه

من الدرس ٢٩ إلى الدرس ٣٢

شرح الشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظهما اللّه تعالى

١٤٤٠/٠٤/١٧ هـ

الدرس التاسع والعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد :

فيقول الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتابه «كتاب التوحيد» :

باب ما جاء في التطير

وقول الله تعالى : { أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } [الأعراف:١٣١] .

وقوله : { قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ } [يس:١٩] .

****

قال المصنف الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في كتابه «التوحيد الذي هو حق الله على العبيد» : ((**بابٌ ما جاء في التطير**)) ؛ ما جاء في التطير : أي من الوعيد الشديد والتهديد لفاعله وبيان أن التطير ضربٌ من الشرك؛ لما يقوم في قلب المتطير من تعلقٍ بما تطيَّر به ، أو ربما اعتقاد جلب نفع أو دفع ضر من جهته ، ولهذا على إثر ذلك يُحجم أو يُقدِم لما قام في قلبه من أمرٍ أو اعتقادٍ جعل فيه نوعًا من التعلق بهذا الشيء الذي تطيَّر به .

والتطير : هو التشاؤم ، وكانوا في الجاهلية يتشاءمون من بعض الطيور كالبوم والغراب ونحوهما من الطيور ؛ يتشاءمون من أصواتها ويتشاءمون من رؤيتها ، حيث يرى مثلاً البوم واقفاً على بيته فإنه يعتقد في ذلك اعتقاداً ويتشاءم من ذلك ويقول "نعى لي نفس أو أحد أقربائي" ، وربما أيضا تشاءموا بحركة الطير من حيث سيرها يميناً أو شمالا ، فإذا أعطتهم الطير الميامن استبشروا ، وإذا أعطتهم المياسر تشاءموا ، ولهذا إذا أراد بعضهم قضاء حاجةٍ من تجارة أو سفر أو زواج أو نحو ذلك ذهب إلى مكان الطير وهيَّجها من مكانها لينظر إلى أيِّ جهة تطير ؛ فإذا أعطته ميامنها تفاءل واستبشر وأقدَم على الأمر الذي أراد ، وإذا أعطته مياسرها فإنه ينقبض ويُحجم ويتشاءم ولا يفعل الشيء الذي أراد أن يفعله من زواج أو تجارة أو نحو ذلك .

ولما كانت الطيرة والتطير أمراً ينافي كمال التوحيد الواجب وينافي المعتقد الحق القائم على الإيمان بالله والثقة به وحسن التوكل عليه وتفويض الأمر كله إليه سبحانه وتعالى وكانت الطيرة منافيةً لذلك كله عقد الإمام رحمه الله تعالى هذه الترجمة ((بابٌ ما جاء في التطير)) ؛ تحذيراً من هذا المسلك الوخيم والنظرة المظلمة ؛ نظرة التشاؤم

وانقباض النفس والتفات القلب إلى هذه الطيور أو نحوها مما يتشاءم به أهل الجاهلية ومن سار سيرهم ، فعقد رحمه الله تعالى هذه الترجمة تحذيراً من ذلك قال: ((بابٌ ما جاء في التطير)) .

وبدأ رحمه الله هذه الترجمة بآيتين من كتاب الله عز وجل هما : قول الله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف:١٣١] وقول الله تعالى: ﴿ قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ ﴾ [يس:١٩].

بدأ رحمه الله بهاتين الآيتين لبيان أنَّ هذا التطير الذي جاء في الأحاديث الكثيرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذمُّه والتحذير منه وبيان أنه من الشرك عقيدةٌ قديمة موجودة عند الأمم قبلنا ؛ فكان فيهم التطير والتشاؤم ، كانت فيهم هذه العقيدة ،وكانوا من أهل هذا الاعتقاد التطير والتشاؤم ، ولهذا أورد رحمه الله هاتين الآيتين لبيان أن التطير موجود منذ القِدم وهو من صفات وأخلاق أعداء الأنبياء ؛ كانوا يتطيرون –أي يتشاءمون– ومن جملة تطيرهم بل من أشنعه وأقبحه أنهم كانوا يتطيرون في الأنبياء ويظنون أن الأنبياء مجيئهم يعتبر شؤم عليهم وسبب البلاء وسبب الشرور وسبب النكد والآلام وغير ذلك ، وهذا أقبح ما يكون في التطير وكله قبيح ، أقبح ما يكون في التطير عندما يكون التطير فيمن جاء هادياً إلى كل خير وداعياً إلى كل فضيلة ومحذراً من كل شر وبلاء ، فالأنبياء هم صفوة الخلق وخيار الناس وهم الدعاة إلى كل حق وهدى وفضيلة والنُّهاة عن كل شر وبلاء ورذيلة ؛ فانظر حال الأمم كيف يبلغ بها القبح والشناعة أن يتطيروا في الأنبياء وأن يتشاءموا في الأنبياء وأن يعتقدوا أن مجيء الأنبياء مجيء للشر ومجيء للبلاء ومجيء للعواقب والأشياء التي لا تحمد .

فقوله سبحانه وتعالى: ﴿ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ جاءت هذه في سياق الإنكار على تطير هؤلاء الكفار بموسى عليه السلام ومن معه والرد على هذه العقيدة الخبيثة السيئة التي هم يعتقدونها، قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠) فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف:١٣٠-١٣١]

﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ ﴾ مثلا الأمطار والأرزاق وكثرة الماشية وكثرة الأموال وقوة الصحة وكثرة الأولاد ﴿ قَالُوا لَنَا هَذِهِ ﴾ أي نحن جديرون بهذا ونحن حقيقون به ونحن أهل لمثل هذا التكريم وهذا الإنعام ، ﴿ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ يعني يصيبهم مثلاً مرض أو جائحة أو فقر أو موت في الأولاد أو غير ذلك من المصائب ﴿ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ ﴾ أي والمؤمنين الذين معه . ما معنى ﴿ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ ﴾؟ يقولون هذه المصائب التي حلَّت بنا ونزلت من مرض أو فاقة أو شدة أو غير ذلك سببها أن موسى ومن معه أهل شؤم وجاءوا لنا بهذا البلاء وجاءوا لنا بهذا الشر . ﴿ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ ﴾ أي يضيفونه هذه الأمور إلى موسى ومن معه أنهم

شؤم عليه وسببٌ للبلاء ؛ وهذا أقبح ما يكون والعياذ بالله ، أقبح ما يكون أن يصل في الإنسان التطير والتشاؤم إلى أن يتشاءم بأئمة الهدى الذين لا يوجد في الأرض مثلهم خيراً وفضلاً ونُبلا ودعوة إلى الحق ، فيقولون هذه المصائب وهذه المشكلات التي حلت ونزلت بنا السبب في مجيئها موسى ومن معه ، فقال الله تبارك وتعالى في رد هذه العقيدة الباطلة الخبيثة التي يعتقدها هؤلاء بقوله : ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي : ما يحلُّ بهم من مصاب وما يقع من بلاء وما يعرِض لهم من أسقام أو أمراض أو نقص أو غير ذلك ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي بقضاء الله وقدره سبحانه وتعالى ، فإن الأمور كلها بقضاء الله وقدره ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن . فقوله ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي بقضاء الله سبحانه وتعالى وقدَره جلَّ وعلا ، ولهذا سبب وهو: كفرهم وقبحهم وصدودهم وإعراضهم عن دعوة الأنبياء والمرسلين؛ ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وهذا تسجيلٌ عليهم بالجهل وأنهم أهل جهلٍ ، وإلا لو كانوا أهل يفهمون ويعقلون ويتدبرون الأمور وينظرون إليها نظراً صحيحا لعلِموا أن موسى إنما جاء ليهديهم إلى كل فضيلة ويدعوهم إلا كل حق ويحذِّرهم من كل شر وبلاء ، فإن الأنبياء ما تركوا خيراً إلا دلُّوا أممهم عليه ، ولا شراً إلا حذروا أممهم منه .

كذلكم الآية التي تليها التي ساقها المصنف رحمه الله تعالى وهي قوله: ﴿**قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ**﴾ أيضا جاءت هذه في الرد على أعداء الرسل ومن يتشاءمون ويتطيرون بالمرسلين . قبلها قال الله تعالى في قصة أصحاب القرية في سورة يس: ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾؛ ما معنى﴿ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾؟ أي نحن نتشاءم برؤيتكم وسماعكم ومشاهدتكم ودعوتكم ، نتشاءم بهذا ونرى أن ما ينزل بنا من بلاء هو سببه أنتم ، ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ أي نحن متشائمون منكم ونرى أن وجودكم شؤماً علينا وسبباً للبلاء والشر والمصائب، هذا معنى قولهم ﴿ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ .

﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا﴾أي عن دعوتنا ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ؛ فانظر هذه النظرة السيئة الخبيثة المتشائمة التي ينظرها هؤلاء لأنبيائهم ورسلهم عليهم صلوات الله وسلامه ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ ثم حذروا من المضي في هذه الدعوة وهدَّدوا وتوعدوا ﴿ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فماذا كان الجواب ؟

﴿ قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ ﴾ أي ما يحل بكم من بلاء وما تنزل بكم من مصائب وشدائد ونحو ذلك معكم ﴿ قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾ أي : هذه الأمور التي هي ما يحل بكم من بلاء وما ينوبكم من مصائب ونحو ذلك هذه معكم ؛ بسبب كفركم وجحودكم وصدودكم عن دعوة الأنبياء والمرسلين ، ثم لم تقولوا ذلك لنا إلا لأنَّا دعوناكم إلى الله ؟! ﴿قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ﴾أي أأن ذكرناكم بالله والدعوة إليه وتوحيده تطيرتم بنا وقلتم إننا سبب

الشؤم!! ﴿قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ وهذا أشد ما يكون وأنكى ما يكون في الإسراف والعياذ بالله .

وسبحان هذه العقيدة المتشائمة باقية كما قال نبينا عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح : ((لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ)) وهو موجود عند المصنف في بابٍ سبق أورده المصنف رحمه الله تعالى؛ ((لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ)) كما أنه وُجد في الأمم الماضية فيمن قبلنا من يتشاءم بالأنبياء فأيضاً في أمة محمد عليه الصلاة والسلام من يتشاءم في أهل الخير ودعاة الفضل وأئمة الصلاح وأهل العلم ، ولهذا تجد في الغوغى والجهَّال والسفهاء والمعرضين عن دين الله من يتجرأ كل جرأة ويقول هؤلاء المتدينين أو هؤلاء العلماء هم سبب كل شر وهم سبب كل بلاء ، ما جاءنا البلاء إلا منهم وما نزل بنا الشر إلا من جهتهم ؛ على طريقة الأولين التطير في أهل الحق وأهل الفضل وأهل النبل ويقولون هؤلاء هم سبب التأخر وهم سبب الرجعية وهم سبب كذا الخ ، يتشاءمون من أهل الخير والفضل . وهذا أقبح ما يكون في هذا الباب ؛ باب التشاؤم والتطير .

أورد المصنف رحمه الله تعالى هاتين الآيتين لبيان ما سبق الإشارة إليه ثم أخذ يسوق الأحاديث عن النبي الكريم صلى الله عليه وسلم في التطير .

قال رحمه الله تعالى :

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : **((لا عدوى ، ولا طيرة ، ولا هامة ولا صفر)) أخرجاه . زاد مسلم ((ولا نوء ، ولا غُول))** .

****

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث المخرَّج في الصحيحين صحيحي البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : **((لا عدوى، ولا طيرة، ولا هامة، ولا صفر)) وزاد مسلم ((ولا نوء ولا غُول))** ؛ هذه ست أشياء نفاها النبي عليه الصلاة والسلام وكلها من عقائد أهل الجاهلية ، أشياء كان يعتقدها أهل الجاهلية فجاء النبي عليه الصلاة والسلام بنفيها وإبطالها وبيان أن هذه الأمور كلها غير صحيحة ، فنفى ذلك النبي صلوات الله سلامه عليه ، ينفي هذه الاعتقادات التي هي من اعتقادات أهل الجاهلية في هذه الأشياء .

الأول قال : ((**لا عدوى**)) ؛ والعدوى معروفة ، العدوى : انتقال المرض من شخص لآخر أو من بهيمة لأخرى، كأن تكون مثلاً بهيمةٌ فيها جرَب فتأكل معها أو تلتصق بها بهيمة أخرى فتصاب بالمرض نفسه فتنتقل عدوى المرض من البهيمة الأولى إلى البهيمة الثانية ؛ هذا يقال له عدوى ، والنبي عليه الصلاة والسلام قال : ((لا عدوى)) ، والمنفي هنا : اعتقاد جاهلي كان عليه أهل الجاهلية فنفاه النبي صلوات الله وسلامه عليه وبيَّن بطلانه

وعدم صحته ، لأنهم كانوا يعتقدون أن هذه الأشياء تنتقل بطبيعتها ، ولهذا قلوبهم تكون ملتفتة إليها ليست متوكلة على الله ولا ملتجئة إلى الله وإنما تكون ملتفتة إلى هذه الأشياء وأنها عندهم تنتقل بطبيعتها ، ولا يلتفتون إلى من بيده أزمَّة الأمور ومقاليد السماوات والأرض توكلاً عليه وثقةً به وطلباً للعافية من جهته هذا لا يوجد عندهم وإنما يعتقدون فيها ؛ فنفى عليه الصلاة والسلام هذا الاعتقاد الجاهلي وجاء عنه أحاديث منها ؛ ما جاء في المسند أنه عليه الصلاة والسلام قال : ((لَا يُعْدِي شَيْءٌ شَيْئًا)) ؛ قال ذلك نفياً لما يعتقده هؤلاء ونفيا لتلك التعلقات الباطلة. قال ((لَا يُعْدِي شَيْءٌ شَيْئًا)) فقال رجل : «يَا رَسُولَ اللَّهِ النُّقْبَةُ مِنْ الْجَرَبِ تَكُونُ بِمِشْفَرِ الْبَعِيرِ أَوْ بِذَنَبِهِ» يعني قطعة صغيرة من الجرب في ذنبه ، ويكون فِي الْإِبِلِ الْعَظِيمَةِ -يكون في وسط إبل كثيرة جداً – فَتَجْرَبُ كُلُّهَا . لما قال النبي عليه الصلاة والسلام ((لَا يُعْدِي شَيْءٌ شَيْئًا)) جاء هذا الرجل بهذا المثال يسأل ، قال النبي عليه الصلاة والسلام ((فَمَنْ أَجْرَبَ الْأَوَّلَ؟)) قال ذلك عليه الصلاة والسلام لإبطال ذلك ، قال ((فَمَنْ أَجْرَبَ الْأَوَّلَ ؟ لا عدوى ولا طيرة)) هكذا قال عليه الصلاة والسلام ؛ خلق الله المخلوقات وقدَّر أرزاقها ومصائبها وكل أمورها ((فَمَنْ أَجْرَبَ الْأَوَّلَ؟)) ؛ قال عليه الصلاة والسلام هذا كله لبيان أو لإبطال ما يعتقده أولئك من عقيدة باطلة ، وليس نفياً لوجود العدوى التي هي انتقال المرض من مريض إلى آخر بتقدير الله سبحانه وتعالى ، ولهذا جاءت أحاديث تثبت ذلك مثل : ((فِرَّ مِنْ الْمَجْذُومِ فِرَارَكَ مِنْ الْأَسَدِ)) ونحو ذلك من الأحاديث التي جاءت في هذا المعنى .

الثاني : قال ((**ولا طيرة**)) ؛وهذا موضع الشاهد من الحديث للترجمة؛ نفي الطيرة . والطيرة : هي التشاؤم ؛ التشاؤم بالطير أو حتى بالحيوانات الأخرى إما بأصواتها أو بأسمائها أو بحركاتها أو بغير ذلك ، أو حتى التشاؤم بغير الحيوانات مثل ما سيأتي معنا التشاؤم ببعض الأزمنة أو التشاؤم ببعض الأفعال مثل العطاس بعضهم يتشاءم منه ونحو ذلك ، فنفى ذلك عليه الصلاة والسلام وأبطله قال: ((ولا طيرة)) .

((**ولا هامة**)) ؛ أيضا هذا مما نفاه صلوات الله وسلامه عليه . قيل الهامة : البوم ؛ طائر معروف وكان أهل الجاهلية يتشاءمون به ، إذا رأوه تشاءموا ، وكان بعضهم إذا وقع البوم على بيته قال "جاء ينعي نفسي لي" من تشاؤمهم بهذا الطائر . وقيل الهامة : دودة عندما يُقتل الإنسان ظلماً فإنها تخرج من جسده وتطوف برأسه وتقول "اسقوني اسقوني" يعني تطلب بالثأر لهذا القتيل ، وهذه كلها عقائد جاهلية جاء الحديث عن النبي عليه الصلاة والسلام بنفيها وإبطالها .

قال : ((**ولا صفر**)) ؛ قيل في معنى ((ولا صفر)) أقوال أقربها وأظهرها والله أعلم الشهر المعروف شهر صفر ، وكان أهل الجاهلية يتشاءمون به ولهذا لا يُحدِثون فيه تجارةً أو سفراً أو زواجاً أو نحو ذلك تشاؤمًا منه ، يتشاءمون من هذا الشهر ، فنفى النبي عليه الصلاة والسلام ذلك ، يتشاءمون بهذا الشهر قال ((ولا صفر)) نفى تلك العقيدة .

مثل عقيدة أهل الجاهلية ما يوجد في زماننا لدى كثير من الجهلاء من التشاؤم بالرقم ١٣ سواء كان يوماً أو كان وقتاً أو كان بناءً أو غير ذلك ، حتى بلغ الحال بكثير من الشركات والمؤسسات مثلاً إذا بنوا بيتاً يكتبون أرقام الأدوار من الأول إلى الثاني عشر إلى الرابع عشر بعده مباشرة ما يكتبون الثالث عشر لأنه رقم مشؤوم عندهم ، وحتى في بعض الطائرات يكتبون أرقام المقاعد الأول الثاني الثالث الثاني عشر الرابع عشر ما يكتبون الثالث عشر ، وأصل هذه العقيدة التي هي التشاءم بالرقم ١٣ عند النصارى لكن انتقلت إلى بعض الجهلاء ، كما في الحديث ((لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شِبْرًا شِبْرًا)) ، والنصارى يتشاءمون فيما قيل من رقم ١٣ ويوم الجمعة لأنه بزعمهم أن عيسى صُلب في اليوم الثالث عشر في يوم الجمعة ولهذا يتشاءمون من رقم ١٣ ، وإذا اجتمع ١٣ من الشهر ويوم الجمعة لا تسأل عن شدة تشاؤمهم وانقباض نفوسهم في مثل ذلك الوقت ؛ هذه كلها عقائد باطلة .

فقوله ((ولا صفر)) نفي لهذا التشاؤم والتطير بهذا الشهر ، وما كان مثله يأخذ حكمه ؛ التشاؤم بيوم من أيام الأسبوع يعني بعضهم يتشاءم بيوم الأربعاء لا يُحدِث فيه مثلاً زواجاً أو تجارة أو غير ذلك ، أو مثلا ببعض الأيام أو بعض الأوقات أو بعض الساعات مثلا من اليوم هذا كله من عقائد الجاهلية الباطلة .

قال : **((ولا نوء))** ؛ أيضا هذا مما جاء الإسلام بإبطاله وهو التعلق بالأنواء والاستسقاء بالأنواء ، وسيأتي فيه عند المصنف رحمه الله تعالى ترجمة مستقلة .

((ولا غُول)) ؛ وهذا الأمر السادس مما نفاه مما عليه اعتقاد أهل الجاهلية ؛ اعتقادهم في الغيلان، وهو نوع من جنس الجن والشياطين يزعمون أنها تظهر لهم وتتغوَّل وتتلون وتتغير وتضلُّهم عن الطريق فيصبح لديهم شيء من التعلق الباطل المبني على مثل هذا الاعتقاد بالغيلان ؛ فقال عليه الصلاة والسلام: ((ولا غول)) .

الشاهد أن هذه أمور ستة نفاها عليه الصلاة والسلام في هذا الحديث مجتمعةً وهي كلها من العقائد التي كان عليها أهل الجاهلية .

قال رحمه الله تعالى :

ولهما عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((لا عدوى ، ولا طيرة ، ويعجبني الفأل)) قالوا : وما الفأل ؟ قال : ((الكلمة الطيبة)) .

****

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث في الصحيحين؛ حديث أنس رضي الله عنه أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: **((لا عدوى ، ولا طيرة))** وهذا تقدم معنا في حديث أبي هريرة قبله .

قال : **((ويعجبني الفأل))** أخبر عليه الصلاة والسلام أن الفأل يعجبه صلوات الله وسلامه عليه .

فسألوه عن الفأل ((**قالوا يا رسول الله وما الفأل؟**)) لما أخبر أنه يعجبه الفأل قالوا وما الفأل ؟ ؛ وهذا من حرص الصحابة رضي الله عنهم على الخير ورغبتهم فيه وحبهم لما يعجب النبي عليه الصلاة والسلام .

((**قالوا وما الفأل ؟ قال الكلمة الطيبة**)) أي أن يسمع المسلم الكلمة الطيبة فيُسَر ينبسط ينشرح صدره يأنس لذلك . قال ((يعجبني)) ، والكلمة الطيبة تبعث على حسن الظن وتحرك الطمأنينة في القلب وراحة النفس والنشاط أيضاً والعزيمة على العمل، لا تثني الإنسان ولا ترده بل إنها تُدخل عليه سروراً تُدخل عليه انبساطا ؛ فهذا أمر يقول عليه الصلاة والسلام ((يعجبني الفأل)) .

ومن الأمثلة العملية لذلك في سنته ما جاء في قصة صلح الحديبية لما جاء سُهيل ابن عمرو أوفده المشركون إلى النبي صلى الله عليه وسلم لما قالوا للنبي عليه الصلاة والسلام جاء سهيل ابن عمرو قال: ((لَقَدْ سَهُلَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ)) من كلمة سهيل قال سهل عليكم أمركم ؛ هذه من الفأل . وجاء في الترمذي وغيره أن النبي عليه الصلاة والسلام إذا خرج في حاجة يعجبه أن يسمع يا راشد يا نجيح ، هذه كلها كلمة طيبة يسمعها المسلم فيفرح ، لا تؤثر على اعتقاده ولا تغير في شيء من أمره وما هو قادم عليه لكنها تُدخل عليه السرور والانبساط وانشراح الصدر ، مثلاً شخصٌ مريض وسمع شخصاً ينادي آخر يا سالم ، أو مثلا شخص خرج في تجارة وهو أيضا ماشي في تجارته غير متردد سمع واحد يقول يا رابح انبسط ، أو مثلا فقَد شيئا يبحث عنه وإذا بشخص ينادي زميله يا واجد فينبسط ويفرح ، أي شيء في هذا !! هذا شيء جميل جداً يدخل سرور على المرء وانبساط وفرح ولا يغير شيئا في اعتقاده ، بل يفتح باب حسن الظن والمعاني الجميلة الطيبة وليس له أي أثر على اعتقاد الإنسان ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : ((ويعجبني الفأل)) ، قالوا وما هو الفأل ؟ قال ((الكلمة الطيبة)) .

قال رحمه الله تعالى :

ولأبي داوود بسند صحيح عن عقبة بن عامر قال : ذُكرت الطيرة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ((أحسنها الفأل ولا تردُّ مسلماً ، فإذا رأى أحدكم ما يكرهه فليقل : اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ، ولا يدفع السيئات إلا أنت ، ولا حول ولا قوة إلا بك)) .

****

قال رحمه الله تعالى: ((**ولأبي داوود**)) أي في سننه ((**بسند صحيح**)) .

((**عن عقبة بن عامر**)) هكذا وقع في نسخ كتاب التوحيد ((عن عقبة ابن عامر)) لكن الصواب كما في المصادر في سنن أبي داود وغيره «عن عروة بن عامر» ، وهو مختلف في صُحبته ، ومن أهل العلم من جزم أنه صحابي .

قال : ((**ولأبي داوود بسند صحيح عن عقبة بن عامر قال : ذُكرت الطيرة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أحسنها الفأل**)) ؛ قوله عليه الصلاة والسلام ((أحسنها الفأل)) نظير ما تقدم من قوله ((ويعجبني

الفأل)) ، في الحديث المتقدم قال عليه الصلاة والسلام : ((لا عدوى ولا طيرة ويعجبني الفأل فسألوا عنه قال الكلمة الطيبة)) ، فقوله هنا ((أحسنها الفأل)) هو نظير قوله فيما ما تقدم ((ويعجبني الفأل)) . وعرفنا الفأل من بيانه عليه الصلاة والسلام أنها الكلمة الطيبة يسمعها المسلم فينبسط ويُسَر بسماعها .

قال عليه الصلاة والسلام : ((**أحسنها الفأل ولا ترد مسلماً**)) وهذا فيه أن غير المسلم تردُّه الكلمات التي يسمعها ترده عن الأمر الذي هو مقدِمٌ عليه ، يسمع صوتاً أو يسمع كلمةً فيتوقف عن تجارته أو عن سفره أو عن زواجه أو غير ذلك ، أما المسلم صحيح الإسلام فإن مثل هذه الكلمات لا ترده ولا تثنيه .

أيُّ صلة بكلمة يسمعها الإنسان في صلاح المرء أو عدم صلاحه ؟ أو أن يرى طيراً سبحان الله يخرج مثلا لتجارة ثم يرى مثلاً البوم ويلغي التجارة! أيُّ علاقة لهذا البوم بصلاح التجارة من فسادها؟! لولا فساد عقول أهل الجاهلية ، أو يسمع نعيق غراب ويترك التجارة ويلغي السفر أو يلغي الزواج أو يلغي المصلحة التي هو قادم عليها؛ هذا كله لا يكون إلا من وجود الشرك وفساد الاعتقاد ولهذا قال ((ولا ترد مسلمًا)) .

((**فإذا رأى أحدكم ما يكرهه**)) ومثله أيضاً السماع؛ إذا سمع ما يكره من الكلمات التي قد تهجم على القلب وربما تُدخل عليه شيء من الانقباض أو التخوُّف أو نحو ذلك .

((**إذا رأى أحدكم ما يكره فليقل**)) وأرشد عليه الصلاة والسلام إلى هذا الدعاء العظيم الذي يمكِّن للاعتقاد الصحيح في القلب ويقوِّي الصلة بالله وحسن التوكل على الله ويُبعد عن القلب مثل تلك التعلقات الجاهلية الباطلة .

فقال عليه الصلاة والسلام : ((**فليقل اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ولا يدفع السيئات إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بك**)) ؛ وما أعظمها من دعواتٍ لها أثرها العظيم على قائلها من حيث قوة التوكل على الله وحُسن الالتجاء إليه سبحانه وتعالى وأن الأمور بيده ، لا يأتي بالحسنات إلا هو ولا يدفع السيئات إلا هو سبحانه وتعالى، الأمر له من قبل ومن بعد ، أيُّ صلةٍ لطير مثلا يسمع صوته بجلب الحسنات أو دفع السيئات؟ أي صلة للطير بذلك؟ ولهذا يذكر أن طاووس رحمه الله كان عنده رجل فسمع نعيق غراب – صوت طير- فقال (خير) لما سمع صوت الطير قال خير ، قال : أيُّ خير أو شر في هذا ! لا تصاحبني ، أيُّ خير أو شر في هذا !! طير يقع على بيت الإنسان أو يعطيه شماله أو يساره أي خير أو شر بهذا!! لولا فساد عقول أولئك ، وإلا أي علاقة ؟

فلما يأتي بهذه الدعوة ((**اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ، ولا يدفع السيئات إلا أنت**)) هذا توكل على الله وثقة به ولجوء إليه وصرْف أيضاً للقلب عن مثل تلك الأمور إن كانت هجمت على القلب .

((**ولا حول ولا قوة إلا بك**)) وهذه كلمة استعانة ؛ لا حول ولا قوة إلا بالله هذه كلمة استعانة يقولها المرء متوكلاً على الله مستعينا به ملتجئا إليه سبحانه وتعالى .

قال رحمه الله تعالى :

وعن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً: ((**الطيرة شرك، الطيرة شرك، وما منا إلا ، ولكن الله يذهبه بالتوكل**)) **رواه أبو داود والترمذي وصحَّحه وجعل آخره من قول ابن مسعود .**

****

قال رحمه الله : ((**وله**)) أي لأبي داود رحمه الله في سننه ((**من حديث بن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً**)) أي إلى النبي عليه الصلاة والسلام .

((**الطيرة شركٌ، الطيرة شرك**)) وهذا فيه بيان أن الطيرة من الشرك بالله سبحانه وتعالى؛ لأن المتطير الذي يتطير بطير إما بصوته أو بحركته أو بوقوفه على بيته أو بنوع الطير مثلا وُجد فيه هذا التعلق ووُجد فيه هذا الاعتقاد ؛ أنَّ هذا الطير قد يحصل مثلا من جهته خير أو يحصل مثلاً من جهته شر أو يندفع شر أو يقع شر أو نحو ذلك وجد فيه هذا ، فالطيرة شرك لما في قلب المتطيِّر من تعلق بهذه الأشياء وعدم توكل على الله سبحانه وتعالى وعدم التجاء إليه جل وعلا .

قال : ((**الطيرة شرك الطيرة شرك**)) والتكرار لتأكيد الأمر وتقريره .

قال : ((**الطيرة شرك الطيرة شرك ، وما منا**))هذا من كلام ابن مسعود وليس من كلام النبي عليه الصلاة والسلام قال ((**وما منا إلا**)) ولم يتم الكلام للعلم به ، وأيضاً هذا نوع من الأدب ؛ لما ذكر قول النبي ((الطيرة شرك الطيرة شرك)) قال ((وما منا إلا)) ولم يتمه للعلم به .

قال : ((**وما منا إلا ولكن الله يذهبه بالتوكل**)) انتبه للحديث الذي قبله قال : ((إذا رأى أحدكم ما يكره)) يعني إذا هجم شيء على القلب لا طلبه الإنسان ولم يتحرَّه ولم يكن من أهله لكن هجم شيء على القلب ، ولنفرض مثلا أن النفس حصل لها شيء من الانقباض أو التخوف أو نحو ذلك هجم خاطر على القلب بشيء رآه أو صوت سمعه أو نحو ذلك هذا يحصل قال : ((**وما منا إلا ولكن الله يذهبه بالتوكل**)) المؤمن لا ترده هذه الأشياء، يسمع هذه الأصوات أو يرى تلك الطيور أو غيرها مما يتشاءم بها من يتشاءم لكن لا تردُّه عن عمله ، إن كان في تجارة مضى في تجارته ، أو سفر مضى في سفره ، أو زواج مضى في زواجه ولم يبالِ متوكلاً على الله . هذا معنى ((ولكن الله يذهبه بالتوكل)) ، وهنا تأتي الدعوة التي مرت معنا في الحديث قبله يدعو المسلم دعوة التوكل والالتجاء إلى الله عز وجل ((اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ، ولا يدفع السيئات إلا أنت ، ولا حول ولا قوة إلا بك)) .

قال رحمه الله تعالى :

ولأحمد من حديث عبد الله بن عَمرو رضي الله عنه ((من ردَّته الطيرة عن حاجته فقد أشرك)) ، قالوا فما كفارة ذلك ؟ قال ((أن نقول : اللهم لا خيرك إلا خيرك ، ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك)) .

****

ثم أورد رحمه الله هذا الحديث في مسند الإمام أحمد قال : ((**ولأحمد من حديث ابن عمرو**)) أي عبد الله بن عَمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : ((**من ردَّته الطيرة عن حاجته فقد أشرك**)) ؛ يعني هجوم شيء على القلب وطرده بالتوكل على الله والدعاء هذا لا يضر الإنسان ، لكن إن ردَّته عن حاجته ؛ كان مقدماً على تجارة فتوقف أو زواج فأعرض أو سفر فألغى السفر ؛ ((من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك)) وهذا فيه بيان حد الطيرة التي جاءت السنة بالتحذير منها أن الطيرة : ما أمضاك أو ردك كما سيأتي في الحديث الذي بعده ، وهنا قال: ((**من ردَّته الطيرة عن حاجته فقد أشرك**)) لأنه وُجد عنده هذا التعلق وهذا الاعتقاد المنافي لصدق التوكل على الله وحسن الالتجاء إليه سبحانه وتعالى .

((**قالوا فما كفارة ذلك ؟**)) يعني إن وُجد شيء من ذلك في الإنسان فما كفارة ذلك ؟

قال : ((**أن يقول اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك**)) ؛ (ولا طير إلا طيرك) مثل ما مر معنا في الآية الأولى التي ساق الشيخ رحمه الله ﴿ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أي بتقدير الله سبحانه وتعالى وبقضائه .

((**لا خير إلا خيرك**)) : لا يقع من الخيرات شيء إلا بقضائك وقدرك ، ولا يقع أيضاً من المصائب أو النوازل أو غير ذلك إلا بقضائك وقدرك .

((**ولا إله غيرك**)) أي لا معبود بحقٍ سواك ، هذه كلمة التوحيد «لا إله إلا الله» . ((ولا إله غيرك)) أي لا معبود بحق سواك لا ندعو إلا أنت ولا نلجأ إلا إليك ولا نتوكل إلا عليك ولا نصرف شيء من عبادتنا والتجائنا إلا لك.

وهذا الحديث رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى في المسند وفي إسناده ابن لهيعة ، لكن ممن روى هذا الحديث عن ابن لهيعة عبد الله بن وهب وهو ممن روى عنه قبل الاختلاط .

قال رحمه الله تعالى :

وله من حديث الفضل بن العباس رضي الله عنه : ((إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك)) .

****

هذا الحديث ختم به المصنف رحمه الله تعالى هذه الترجمة ، وأورده لأن فيه حدّ الطيرة ؛ ((**الطيرة ما أمضاك أو ردك**)) هذه هي الطيرة التي جاءت الأحاديث بذمِّها ما أمضاك أو ردك ، أما شيء يهجم على القلب ويطرده

الإنسان هذا لا يضره ، لكن الذي يُمضي العبد يجعله يمضي في عمله أو يتوقف عن عمله يُقدم أو يُحجم ويكون له تأثير عليه في عمله هذه الطيرة التي جاءت الأحاديث بذمها والتحذير منها ((**إنما الطيرة ما أمضاك أو ردَّك**)). والحديث أعلَّه المصنف الإمام رحمه الله كما نقل ذلك عنه الشيخ سليمان بن عبد الله في التيسير ، أعله بالانقطاع وبأيضاً الكلام في أحد رواته ، فالشيخ أعل الحديث لكنه أورده هنا لأن فيه ضابط للطيرة المذمومة أن ((الطيرة ما أمضاك أو ردك)) ، مثل ما مر معنا في الحديث الذي قبله ((من ردَّته الطيرة عن حاجته فقد أشرك)) ؛ هذا معنى قوله ((أمضاك أو ردك)) يعني ردته الطيرة عن حاجته ، هذا الذي يقع في الشرك وفي الطيرة التي هي شرك كما مر معنا في حديث ابن مسعود ((الطيرة شرك الطيرة شرك)) عندما تجعل الإنسان يُمضي الأمر أو يتوقف عن الأمر ((إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك)) .

.

قال رحمه الله تعالى :

فيه مسائل ؛ الأولى : التنبيه على قوله { أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ } مع قوله { طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ } .

هاتان الآيتان بهما بدأ المصنف رحمه الله تعالى الترجمة ، وقد مضى الكلام على الآيتين وتعلقهما بالترجمة .

الثانية : نفي العدوى .

الثالثة : نفي الطيرة .

الرابعة : نفي الهامة.

الخامسة : نفي الصفر .

هذه الأربعة كلها جاءت في الحديث المتقدم حديث أبي هريرة ((لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر)) ، وكل هذه الأمور نفاها النبي عليه الصلاة والسلام وبيَّن بطلان ما يعتقده أهل الجاهلية من اعتقادات باطلة في هذه الأشياء فنفاها وأبطلها صلوات الله وسلامه وبركاته عليه .

السادسة : أنَّ الفأل ليس من ذلك ؛ بل مستحب .

لأن النبي عليه الصلاة والسلام قال كما في حديث أنس : ((ويعجبني الفأل)) ، فالفأل ليس من ذلك ، ليس من الطيرة وإنما الفأل كلمة الطيبة يسمعها المسلم فيفرح ويُسَر بذلك ، فالفأل ليس من ذلك بل هو مستحب .

السابعة : تفسير الفأل .

تفسير الفأل مر في حديث أنس عندما سألوه عليه الصلاة والسلام قالوا وما الفأل؟ قال : ((الكلمة الطيبة)) .

الثامنة : أن الواقع في القلوب من ذلك مع كراهته لا يضر ، بل يذهبه اللهُ بالتوكل .

«**الواقع في القلوب**» يعني الذي يهجم على القلب بدون استئذان ، لا يطلبه الإنسان ولا يبحثه ولا يتحراه ولكن يهجم عليه بدون استئذان ، يعني مثلاً شخص مشى مسافراً وأول ما بدأ الطريق وإذا بحادث في طريقه ووقع في نفسه أنه يخشى أنه يحدث له حادث ، مشى قليل وإذا بحادث آخر مثلا ووقع في نفسه انقباض أو نحو ذلك ، هنا يأتي الامتحان ((إنما الطيرة ما أمضاك أوردك)) ، كونه يهجم على الإنسان مثل هذه الأشياء أو مثلا يهجم على قلبه شيء من هذا ؛ هذا لا يضره ، لكن إن رجع قال اليوم ما أسافر مادام أني رأيت كذا لن أسافر اليوم ، إذاً يكون هذا التطير رده ومنعه من عمله أو من حاجته أو مصلحته .

فيقول «**أن الواقع في القلوب من ذلك مع كراهته لا يضر**» الواقع في القلوب مثل ما عبَّرت لكم الذي يهجم على القلب بدون استئذان من رؤية أمر معيَّن هذا لا يضر ، وكون الإنسان يكره هذا الشيء وينفر من وجوده في قلبه ويستمر في حاجته ويلجأ إلى الله «اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ولا يصرف السيئات إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بك» ويمضي في حاجته ولا يبالي ، فهذا معنى قوله ((**أن الواقع في القلوب من ذلك مع كراهيته لا يضر، بل يُذهبه اللهُ بالتوكل**)) .

التاسعة : ذِكر ما يقول من وجده .

تقدَّم في حديث عقبة من حديث عروة بن عامر الذي في سنن أبي داود ؛ يقول : ((اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ، ولا يدفع السيئات إلا أنت ، ولا حول ولا قوة إلا بك)) .

العاشرة : التصريح بأن الطيرة شرك.

وهذا تقدم في حديث ابن مسعود قال : ((الطيرة شركٌ الطيرة شرك)) .

الحادية عشر : تفسير الطيرة المذمومة .

وهذا يستفاد من الحديثين الذين ختم بهما المصنف رحمه الله الترجمة ؛ قوله ((من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك)) ، وقوله ((إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك)) .

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك .

اللهم صل وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

الدرس الثلاثون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد :

يقول الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب التميمي رحمه الله تعالى في كتابه «كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد»:

باب ما جاء في التنجيم

قال البخاري في صحيحه : قال قتادة : «خلق الله هذه النجوم لثلاث : زينة للسماء ، ورجوما للشياطين ، وعلامات يهتدى بها ، فمن تأول فيها غير ذلك أخطأ وأضاع نصيبه ، وتكلف ما لا علم له به » انتهى . وكرِه قتادة تعلُّم منازل القمر ، ولم يرخِّص ابن عيينة فيه ؛ ذكره حرب عنهما . ورخَّص في تعلم المنازل أحمد وإسحاق .

****

فهذه الترجمة ((**بابٌ ما جاء في التنجيم**)) ؛ التنجيم المراد به : تعلُّم العلم أو العلوم المتعلقة بالنجوم .

وقوله رحمه الله «ما جاء في التنجيم» أي ما جاء فيه من وعيد ، وذلك في حق من تعلم علم النجوم الباطل المحرم الذي دلت دلائل الشرع من كتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم على بطلانه وهو ما يسمى بعلم التأثير ، الاعتقاد في النجوم والكواكب والاستدلال بها على الحوادث الأرضية؛ من موت أو حياة ، سعادة أو شقاء ، فلاح أو غيره ، فمن خلال النظر في النجوم ومنازلها يتكهن بعض الناس أنواعاً من التكهنات فيدَّعي أمورا أو حوادث أرضية تحصل يستنتجها بنظره في النجوم من موت أو حياة أو سعادة أو شقاء أو غير ذلك ؛ فهذا علمٌ باطل ، وجاءت الدلائل على الوعيد الشديد على من فعل ذلك ، وأنه ضربٌ من السحر كما تقدم معنا في باب أنواع السحر ((من اقتبس شعبةً من النجوم فقد اقتبس شعبةً من السحر؛ زاد ما زاد)) أي كلما ازداد المرء تعلماً لهذا العلم الباطل ازداد إيغالاً في السحر المحرم الذي هو كفرٌ بالله تبارك وتعالى .

وأيضا تتناول الترجمة بعمومها «باب ما جاء في التنجيم» أي ما لا يحْرم منه ما لا يحرم من علم النجوم والذي هو علم التسيير ؛كأن يعرف مثلا الإنسان القبلة أو اتجاه الطريق أو الشرق من الغرب والشمال من الجنوب أو نحو ذلك ، فهذا أمرٌ مباح الله سبحانه وتعالى قال: ﴿ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾[النحل:١٦] ، فالاهتداء بالنجم

إلى الطريق أو القبلة أو الجهات أو نحو ذلك هذا أمرٌ أباحه الله سبحانه وتعالى ، وهذا مما خُلقت النجوم لأجله كما يأتي معنا في أثر قتادة رحمه الله تعالى .

فإذاً الترجمة ((ما جاء في التنجيم)) والتنجيم نوعان :

١. نوع يسمى علم التأثير ؛ وهذا علم محرم وباطل ، وهو الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية من حياةٍ أو موتٍ أو سعادةٍ أو شقاءٍ أو غير ذلك .

٢. والنوع الثاني : علم التسيير ؛ وهو المراد به : معرفة الطريق أو معرفة الجهة أو معرفة القبلة أو نحو ذلك ، وهذا أمرٌ مباح دل على إباحته كتاب الله سبحانه وتعالى كما تقدم معنا في قوله جلَّ وعلا : ﴿ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [النحل:١٦] .

قال رحمه الله تعالى : ((**قال البخاري في صحيحه: قال قتادة : خلق الله هذه النجوم لثلاث**)) أي لثلاثة أمور، وجميع الأمور الثلاثة التي ذكرها رحمه الله تعالى دلت عليها الدلائل وجاءت بها الشواهد في كتاب الله تبارك وتعالى.

قال : ((**زينة للسماء ، ورجوما للشياطين ، وعلامات يُهتدى بها**)) فالنجوم خلقت لهذه الأمور الثلاثة :

- زينة للسماء : أي جمال ؛ فالله سبحانه وتعالى زيَّن السماء بالنجوم كما قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ﴾ [الملك:٥] ، قال ﴿ بِمَصَابِيحَ ﴾ نكَّرها تعظيماً لشأنها وتفخيماً لأمرها وأنها جمالٌ وزينةٌ للسماء ، وإذا نظر الناظر في النجوم يجد أنها تكسو السماء جمالاً وزينة وبهاء وحُسنا ، ولا يزال المرء ينظر وينظر ويعظِّم ويكبِّر خالقها سبحانه وتعالى لحُسنها وجمالها وكونها زينة لهذه السماء .
- والأمر الثاني : أن الله سبحانه وتعالى خلقها رجوما للشياطين ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ﴾ [الملك:٥] وهي الشهب التي تُرمى بها الشياطين عندما يصعد واحدًا منهم فوق الآخر من أجل استراق السمع فيُقذفون بالشهب ، ومن أغراض هذه النجوم أنها رجوماً للشياطين تدحض باطلهم وتُبطل بإذن الله تبارك وتعالى مكرهم وتُهلك كيدهم .
- الأمر الثالث : قال (وعلامات يُهتدى بها) ؛ علامات : أي دلالات للطرق ، للقبلة، للجهة ، وعلامات يهتدى بها ، والناس قديما اهتداؤهم ليلاً بالنجوم ونهارًا بالجبال ؛ ولهذا تسمى الجبال «أعلام» لأنها منارات يهتدى بها ويعرف الناس الطرق من خلال الجبال ، يعرفونها بأسمائها وجهاتها وأمكنتها فيهتدون نهارا بالجبال، وأما ليلًا فإنهم يهتدون بالنجوم وينظرون إلى هذه النجوم في السماء يعرفون مواقعها وأمكنتها ثم يحددون القبلة من خلال هذا النظر ، وهو معنى قوله تبارك وتعالى ﴿ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [النحل:١٦] .

قال قتادة رحمه الله بعد أن ذكر أن النجوم خُلقت لهذه الأمور الثلاثة : ((**فمن تأول فيها غير ذلك أخطأ وأضاع نصيبه**)) ؛ من تأول فيها غير ذلك أي غير هذه الأغراض الصحيحة التي دل عليها كتاب الله سبحانه وتعالى فإنه أخطأ لأنه قال بغير علم وأتى بما لا دليل عليه ولا شاهد ولا برهان ، وأضاع نصيبه أي من الخير والفلاح لأنه قال بغير علم ، ولربما أيضاً قال أمراً في هذه النجوم يصادم ما دل عليه كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام وينافي التوحيد ، فيكون بهذا قد أضاع نصيبه؛ أي نصيبه وحظه من الخير .

((**وتكلف ما لا علم له به**)) أي أنه بهذا قد قفا ما ليس له به علم والله يقول : ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء:٣٦] .

هذا كلامه رحمه الله تعالى وله تتمة في المصنف لابن أبي شيبة وغيره ذكر فيه رحمه الله تعالى «أن أناساً خاضوا في النجوم فقالوا : إن تزوج فلان في نجم كذا وكذا حصل له كذا وكذا ، وإن سافر في نجم كذا وكذا حصل له كذا وكذا، ما للنجوم ولهذا !! » النجوم ليس لها شأن في هذا ، والطير ليس لها شأن في هذا ، لكن كل ذلك تعلقات جاهلية ما أنزل الله تبارك وتعالى بهذا من سلطان ، وجاء الإسلام بإبطال كل هذه الجاهليات التي ما أنزل الله تبارك وتعالى بها من سلطان .

قال المصنف رحمه الله تعالى : ((**وكره قتادة تعلُّم منازل القمر ، ولم يرخِّص ابن عيينة فيه**)) ؛ وهذه الكراهة من قتادة وعدم الترخيص فيه من ابن عيينة من باب سد الذرائع ، حتى لا يشتغل الإنسان بالمباح فيتجارى به الأمر إلى الدخول في أمرٍ لا يباح ، لأن علم النجوم منه علم تسيير وهذا علم مباح ، وعلم تأثير وهو غير مباح ؛ فيُخشى على من اشتغل بعلم التسيير وتمادى في هذا العلم وتوسَّع فيه أنه ربما انتقلت به القدم إلى ما لا يباح منه، ربما توغل في هذا الأمر إلى ما لا يباح من هذا العلم ، فلا يزال يخطو فيه خطوات إلى أن يقع في هذا العلم في أمر لا يباح له ، فلم يرخص فيه ابن عيينة وكرهه قتادة ؛ وهذا من ورع السلف رحمهم الله تعالى وشدة عنايتهم بأمر الإيمان والتوحيد وسد الذرائع المفضية إلى الباطل .

قال: ((**ذكره حرب**)) أي الكرماني ((**عنهما**)) .

((**ورخص في تعلم المنازل أحمد وإسحاق**)) أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهوية رخصا في تعلم المنازل لأنه داخل في المباح ، وإنما كرهه من كرهه من السلف خشية أن يتمادى الأمر بالإنسان فينتقل إلى ما لا يباح من ذلك .

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاثة لا يدخلون الجنة : مدمن الخمر ، وقاطع الرحم ، ومصدق بالسحر » . رواه أحمد وابن حبان في صحيحه .

****

وختم رحمه الله تعالى هذه الترجمة بهذا الحديث حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((**ثلاثة لا يدخلون الجنة : مدمن الخمر، وقاطع الرحم، ومصدق بالسحر**)) رواه أحمد وابن حبان في صحيحه . وهذا الحديث معاشر الإخوة الكرام من أحاديث الوعيد والتهديد في مثل هذه الكبائر العظيمة وعظائم الأمور المرتكَبة .

قال عليه الصلاة والسلام ((**ثلاثة لا يدخلون الجنة**)) أي الجنة عليهم حرام ، ((**ثلاثة لا يدخلون الجنة**)) فهو وعيد بعدم خول الجنة مما يدل على عظم هذا الأمر وفداحته وكبر هذه الخطايا المذكورة في هذا الحديث ؛ لأن فاعلها تُوعد بعدم خول الجنة . ومن السلف من يرى أن مثل هذه الأحاديث –أحاديث الوعيد– تُمر كما جاءت وتبقى على هيبتها دون أن تفسَّر ، لتبقى الهيبة في هذه الأحاديث ويبقى الوعيد على ما هو عليه زجراً وردعاً لمن يقع أو يفكر في الوقوع في مثل هذه الأعمال ، لكن عموماً دلت الدلائل في كتاب الله وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه أن كل ذنبٍ دون الشرك والكفر بالله سبحانه وتعالى فصاحبه تحت المشيئة ، وكل وعيد جاء في الكتاب والسنة –سواءً هذا الوعيد الذي ورد في هذا الحديث أو غيره– مردود إلى هذه القاعدة التي دل عليها قول الله سبحانه وتعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾[النساء:٤٨] ، أي أن الشرك مقطوعٌ بأن صاحبه مخلد في النار أبد الآباد لا مطمع له في رحمة الله ولا سبيل له لنيل مغفرته سبحانه وتعالى ، أما ما دون الشرك من الذنوب وما دون الكفر بالله سبحانه وتعالى من الذنوب فإن صاحبه تحت المشيئة؛ لأن الله جل في علاه قال: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾، فكل ذنب دون الشرك جاء فيه وعيد فهو تحت المشيئة بدلالة هذه الآية الكريمة . وطريقة أهل السنة رحمهم الله تعالى جمع النصوص واعتبار دلالتها بمجموعها ، لأن من أخذ بطرف من نصوص الوعيد وأهمل طرفا جنح إلى جانبٍ من جوانب الغلو؛ إما إفراط أو تفريط ، ولهذا من أخذ بنصوص الوعد مهمِلاً نصوص الوعيد وقع في باطل ، ومن أخذ أيضا بنصوص الوعيد وأهمل نصوص الوعد أيضا وقع في الباطل ، ولهذا نصوص الوعد والوعيد يضم بعضهم إلى بعض ويُستدل بمجموعها وينظر إلى مجموعها ويستدل بها ، فهذا نص من نصوص الوعيد قال فيه : ((ثلاثة لا يدخلون الجنة)) .

الأول : ((**مدمن الخمر**)) أي : الملازم لشرب الخمر والمداوم عليه والذي لا ينقطع عنه ، يداوم عليه ويشربه باستمرار فله هذا الوعيد العظيم .

والثاني : ((**قاطع الرحم**)) ؛ وأمر الرحم أمرٌ عظيم فإن الله سبحانه وتعالى أمر بصلة الرحم ، وتهدد من لا يصلون ما أمر الله سبحانه وتعالى به أن يوصل وتوعدهم قال:﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾

[محمد:٢٣] ؛ فتهدد من يقطع الرحم ولا يصل الرحم بمثل هذا التهدد وبمثل هذا الوعيد ؛ لعنٌ وطردٌ وإبعاد من رحمة الله تبارك وتعالى .

((**ومصدِّقٌ بالسحر**)) وهذا موضع الشاهد من الحديث للترجمة «ومصدق بالسحر» ، ووجه دلالته على الترجمة والترجمة في التنجيم : أن التنجيم ضربٌ من السحر ، التنجيم الباطل الذي هو الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية ضربٌ من السحر ، دل على ذلكم قول النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه ((من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد)) ، فالمصدِّق بالتنجيم هذا الباطل مصدقٌ بالسحر لأن التنجيم ضربٌ من ضروب السحر .

قال رحمه الله تعالى :

فيه مسائل ؛ الأولى : الحكمة في خلق النجوم .

وقد مر معنا ذِكر الحكمة في ذلك في قول قتادة رحمه الله ((أن النجوم خلقت لثلاث : زينة للسماء ، وعلامات يهتدى بها ، ورجوم للشياطين)). وبمناسبة هذا الأثر: لما كان العلماء في الأرض كالنجوم في السماء فهُم أيضاً وُجدت فيهم هذه الثلاث:

- فهم زينة للأرض وجمال للأرض ، والبلد الذي يوجد فيه عالم يحيي القلوب بالإيمان والتوحيد والطاعة والسنة وتقوى الله سبحانه وتعالى ومراقبته يُعد هذا العالِم في بلده نجم ساطع وضياء لامع ونور للبلد الذي هو فيه ، ولهذا أحياناً ترى في بعض البلدان ظلمة الجهل مطبقة والضلال مخيِّم والشركيات ، ثم يوفق الله سبحانه وتعالى عبدا من عباده إما من أبناء هذا البلد أو من الوافدين إليه فينشر فيهم علما ويحيي سنة ويوقظ قلوبا ويدل إلى حكمة ؛ فيكون نورا وضياء في البلد ، فالعلماء نجوم مضيئة وزينة للأرض وجمال بما منَّ الله سبحانه وتعالى عليهم به من علم ووفقهم إليه من هداية وحكمة ودلالة للناس إلى دين الله تبارك وتعالى .
- وهم أيضا علامات يهتدى بها ؛ لأن أهل العلم هم الذين يهدون الناس ، أي يدلونهم ويرشدونهم إلى الحق والهدى .
- وهم أيضا في الوقت نفسه رجوم للشياطين ؛ يتصدون للباطل وأهله بالصد والردع وبيان زيف شبهات المبطلين وكشف ضلالاتهم وتعرية باطلهم بما آتاهم الله سبحانه وتعالى من بصيرة وفهم . الثالث الذي هو رجوم للشياطين كون أهل العلم رحمهم الله تعالى يتصدون للباطل كشفا للشبهات وردًا لأباطيل المبطلين وتصدياً لأهل الزيغ والإلحاد بكشف باطلهم وتعرية ضلالهم وبيان زيف ما هم عليه .

الثانية : الرد على من زعم غير ذلك .

أي غير هذه الأمور الثلاثة ، كما قال قتادة رحمه الله تعالى «فمن تأول فيها غير ذلك أخطأ وأضاع نصيبه وتكلف ما لا علم له به» .

الثالثة : ذِكر الخلاف في تعلم المنازل .

ومر معنا أن قتادة رحمه الله كرِه تعلم المنازل ، وأن ابن عيينة رحمه الله لم يرخص في ذلك ، وأن الإمام أحمد وإسحاق رخصا في تعلم المنازل .

الرابعة : الوعيد فيمن صدَّق بشيء من السحر ، ولو عرف أنه باطل .

لأن الحديث – حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه– ذكر فيه النبي عليه الصلاة والسلام من الثلاثة الذين لا يدخلون الجنة ((مصدق بالسحر)) ، فأخذ منه رحمه الله الوعيد فيمن صدَّق بشيء من السحر –ومن ذلكم التنجيم– ولو عرف أنه باطل، ولو عرف أنه باطل لكنه قبِله وأخذ به فإن له هذا الوعيد على تصديقه بالسحر. وبهذا تنتهي هذه الترجمة .

قال رحمه الله تعالى :

باب ما جاء في الاستسقاء بالأنواء

وقول الله تعالى : { وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ } [الواقعة:٨٢] .

وعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «**أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن : الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة » . وقال: «النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ، ودرع من جرب » رواه مسلم .**

****

قال المصنف الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتابه التوحيد : ((**بابٌ ما جاء في الاستسقاء بالأنواء**)) ، والأنواء: هي مطالع النجوم وأيضاً مساقط النجوم ، والنجوم لها مطالع ولها منازل ، وكلما سقط نجم صعد آخر ؛ فهذه النجوم التعلق بها ونسبة الحوادث الأرضية إليها من مطر أو غير ذلك مما ينافي التوحيد ومما ينافي وجوب تعلق القلوب بالله حمداً وشكراً وثناءً على الله سبحانه وتعالى وأنه هو وحده المتفرد بالنعمة والعطاء والمن والجود والكرم ، أما أهل الجاهلية فإن الخيرات التي يمن الله سبحانه وتعالى عليهم بها لا

تلتفت قلوبهم إلى الله حمداً وثناءً واعترافا له بالنعمة! وإنما تلتفت إلى ما جعله الله سبباً أو إلى أيضا إلى ما لم يُجعل سبباً ،كقول المشركين عندما يُمطرون بفضل من الله ومَنّ يقولون : "مطرنا بنوء كذا وكذا" ، لا يقولون مُطرنا بفضل الله ورحمته وإنما يقولون بنوء كذا وكذا . فمثل هذا الأمر سواءً نسبة النعمة إلى ما جعله الله سبحانه وتعالى سبباً في نزولها أو لما لم يجعله الله سبباً في نزولها كل ذلكم من كفران النعمة ؛ ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ [الواقعة:٨٢] ؛ قال أهل العلم وأهل التفسير في معنى الآية : أي تجعلون حظكم ونصيبكم من شكر الله على نعمائه أنكم تكذبون فتنسبون النعمة إلى غيره ، كقول المشرك عندما ينزل الغيث وعندما يأتي الله بالغيث يقول "مطرنا بنوء كذا وكذا" .

فلما كان هذا الأمر مما يتنافى مع التوحيد عقد المصنف رحمه الله تعالى هذه الترجمة بيانا لذلك وتنبيها على وجوب اعتراف العبد بتفرد الله سبحانه وتعالى بالمن والعطاء وإنزال الغيث وإنزال الرحمة ، وأن الواجب على العبد كلما نزلت نعمة ومنَّ الله سبحانه وتعالى عليه بمنة أن ينسب النعمة إلى المنعم والمتفضل سبحانه وتعالى.

أورد أولاً قول الله جل في علاه ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ [الواقعة:٨٢] أي : تجعلون حظكم ونصيبكم من الشكر لله سبحانه وتعالى على نعمائه ومنِّه وعطائه أنكم تكذبون فتنسبون النعمة إلى غيره سبحانه وتعالى من نجم أو نوء أو كوكب أو غير ذلك .

وحقيقة سبب نزول الغيث ليس كما يزعم هؤلاء أنهم مُطروا بالنوء ، وإنما حقيقة ذلك رحمة الله بالعباد وتفضله ومنُّه سبحانه وتعالى عليهم ، ولهذا شُرع للمسلمين عند القحط والجدب وقلة المياه أن يفزعوا إلى الصلاة والصدقة والاستغفار طلبًا للرحمة من الله سبحانه وتعالى أن يرحمهم بأن يُنزل عليهم الغيث ، ولهذا يؤثر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه أنه خرج مرة بالناس يستسقي في جدب كان وقحط ؛ فما زاد رضي الله عنه على الاستغفار فنزل الغيث ، فقال له بعضهم في ذلك؟ فقال : ((لقد سألتُ الله بمجاديح السماء التي يُستنزل بها المطر)) ؛ مجاديح: جمع مِجْدَح وهو النوء ، يطلق المجدح على النوء ويطلق على النجم ، قال «سألت الله بمجاديح السماء» قال أهل العلم : أراد بذلك الرد على عقيدة الجاهلية التي ينسبون النعمة إلى النوء وإلى النجم ويقولون مُطرنا بكذا فأراد الرد عليهم ، هو ما زاد على الاستغفار قال : استغفر الله استغفر الله استغفر الله ، ثم قال لما سُئل «سألت الله بمجاديح السماء» يقصد ماذا ؟ هل يقصد بقوله «بمجاديح السماء» النجم ذاته؟ أو الكلمات التي هي كلمات الاستغفار والالتجاء وطلب المغفرة من الله؟ فأراد بذلك إبطال عقيدة المشركين التي هي التعلق بالنجوم والتعلق بالأنواء ونسبة الحوادث إليها قال: «سألت الله بمجاديح السماء» كأنه يقول : انتبهوا هذه المجاديح والنجوم والكواكب ليس بيدها شيء وإنما الأمر بيد الله ؛ نستغفر الله ويغيثنا سبحانه وتعالى ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ

﴿إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح-١٠-١٢] ، فأراد بذلك رضي الله عنه وأرضاه إبطال تلك العقيدة .

مثل هذا تمامًا ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه على إثر ليلةٍ مطيرة قال رضي الله عنه : «مُطرنا بنوء الفتح» أراد مثل ما أراد عمر رضي الله عنه؛ الرد على المشركين الذين يتعلقون بالأنواء ، قال «مطرنا بنوء الفتح ثم تلا قول الله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر:٢] » ؛ «نوء الفتح» أراد بهذه الكلمة مثل ما قال عمر رضي الله عنه «سألت الله بمجاديح» أتى بهذه الكلمة أراد بها الرد على المشركين وتلك التعلقات الباطلة والنسبة الجائرة لهذه النعم إلى الكواكب والنجوم والأنواء إذا نزل الغيث قال قائلهم "مُطرنا بنوء كذا وكذا" . فهذا من فقه السلف العظيم وإيمانهم الكبير وأيضا ردِّهم على باطل المبطلين وتعلقات أهل الجاهلية التي ما أنزل الله تبارك وتعالى بها من سلطان .

أورد المؤلف رحمه الله تعالى حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((**أربعٌ في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن**)) هذا إخبار منه صلوات الله وسلامه عليه بأمرٍ كائن وواقع في أمته صلى الله عليه وسلم وهو من أمر الجاهلية وأنه باقي وله وجود ، قد يكثر في زمان وقد يقل في زمان آخر ، لكن له وجود ، فهي خصال موجودة في الأمة وباقية في الأمة ولا يزال في الأمة من يكون متصفاً بهذه الخصال أو بشيء منها .

قال ذلكم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه على وجه التحذير من ذلك ،تحذيرًا للأمة ، يعني كأنه يقول : إنها خصال موجودة في الأمة وواقعة فاحذروا أن تقعوا فيها ، وجاهدوا أنفسكم على البعد عنها ؛ قال ذلكم تحذيرا . مثله تمامًا الحديث الذي مر وهو قول النبي عليه الصلاة والسلام ((لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً شبرا ذراعاً ذراعا ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه)) ؛ قال ذلكم إخبارًا بأمر كائن وواقع لابد من وقوعه على وجه الإنذار والتحذير من فِعل ذلك والوقوع فيه .

قال ((**أربع في أمتي من أمر الجاهلية**))؛ من أمر الجاهلية: أي من خصال الجاهلية وأعمالهم التي جاء الإسلام بإبطالها .

((**لا يتركونهن**)) قوله «لا يتركونهن» دليلٌ على أن هذه الخصال باقية في الأمة ، قد تقِل وقد تكثر لكنها باقية ((لا يتركونهن)) أي أنها موجودة وباقية .

((**الفخر بالأحساب**)) أي تفاخر الإنسان بحسبه ؛ أنا ابن فلان ، أنا ابن علان ، أنا والدي الذي كذا وكذا ، وأنا جدي الذي كذا وكذا ؛ يتفاخر بالأحساب ، وكما قال أهل العلم فخر الإنسان بعمله نفسه لا يجوز فكيف بأن يفخر بآبائه أو أجداده أو أجداد آبائه أو نحو ذلك !!

قال : ((**والطعن في الأنساب**)) أي الوقيعة في أنساب الآخرين قدحاً وطعناً ونحو ذلك على وجه الإساءة والذم للآخرين والقدح فيهم ، وقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات:١٣] ، الأكرم عند الله الأتقى لله سبحانه وتعالى ، فمن أخذ يطعن في أنساب الناس ويذم ويقدح على وجه الإساءة والانتقاص والاحتقار والازدراء للآخرين فهذا كله من خصال الجاهلية .

((**والاستسقاء بالنجوم**)) وهذا موضع الشاهد للترجمة ، قال ((والاستسقاء بالنجوم)) أي التعلق بالنجوم بنسبة الحوادث إليها ، مثل ما سيأتي قول الكافر "مطرنا بنوء كذا وكذا" ، لا يقول مطرنا بفضل الله ورحمته وإنما يقول مطرنا بنوء كذا وكذا فينسب الحوادث إلى النجوم . والاستسقاء بالنجوم : أي التعلق بالنجوم ونسبة الحوادث إليها.

قال: ((**والنياحة**))؛ الخصلة الرابعة النياحة أي النياحة على الميت بالبكاء والعويل وشق الجيوب ولطم الخدود والدعوى بدعوى الجاهلية فهذه من كبائر الإثم ومن الذنوب العظيمة .

ثم قال عليه الصلاة والسلام : ((**النائحة إذا لم تتب**)) وهذا لا يخص المرأة بل يتناول حتى الرجل ، لكن خُصت المرأة بذلك لأن النساء أكثر جزعاً وأسرع إلى النياحة من الرجال ، والرجال أكثر احتمالا ، لا أنَّ الحكم يختص بالنساء دون الرجال ، لكن لما كان هذا الأمر أكثر وقوعًا في النساء من الرجال خُص النساء بالذكر .

قال عليه الصلاة والسلام : ((**النائحة إذا لم تتب**)) وفيه أن التوبة تجبُّ ما قبلها ، وأن من تاب تاب الله عليه ، لو أن امرأة مثلا قُدِّر أنها في وقت من حياتها وقعت في النياحة لكن تابت وصدقت مع الله في توبتها ؛ من تاب تاب الله عليه مهما كان الذنب ومهما بلغ الجرم ، وقد قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلَّا مَنْ تَابَ﴾ [الفرقان:٦٨-٧٠] من تاب تاب الله عليه ، ولهذا قال في الحديث: ((**النائحة إذا لم تتب**)) وهذا أيضا يتضمن دعوة للتوبة لمن وقعت في شيء من ذلك أن تبادر بالتوبة إلى الله سبحانه وتعالى قبل أن تلقى الله بهذا الذنب العظيم فتنال هذه العقوبة التي ذكر صلوات الله وسلامه عليه .

قال: ((**النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب**))؛ وهذه الأعمال التي فيها هذا الوعيد لا يظن الظان أنها أشياء لا وجود لها ،بل أشياء موجودة ، ربما بعض الناس يقول لطم الخدود وشق الجيوب والدعوى بدعوى الجاهلية هذه أمور إنما كانت في الجاهلية لا وجود لها في زماننا !! بل هذه أشياء موجودة . أذكر مرة رأيت وأدهشني في بلد من البلدان كنا في الطريق فكان أن وقع أمامنا قبل أن نصل إلى المكان بقليل حادث ، وكان حادثا مروعاً دُهس طفل من الأطفال دهسته شاحنة فأصبح هذا الطفل رأسه

مستوي تماما مع الإسفلت في منظر مهيل جداً ، فرأيت بعض قريباته على جنب الشارع يصِحن بصوت عالي ويمسكن بشعورهن ويمزقنها ويقطعن شيئا من ملابسهن نياحةً وعويلاً وصياحاً .

ففي الحديث قال ((والنائحة إذا لم تتب تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب)) ؛ النياحة هي هذه : لطم الخدود وشق الجيوب والدعوى بدعوى الجاهلية؛ تسخطاً وعدم إيمانٍ بقدر الله سبحانه وتعالى وعدم صبرٍ على المصاب . وقال ذلك في النساء لأن النساء أسرع إلى مثل هذا الأمر من الرجال وأكثر جزعاً .

قال: ((**تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران**)) ؛ سربال : أي لباس ؛ ثوب أو قميص أو نحو ذلك من قطران. القطران : هو النحاس المذاب الذي يكون أشد ما يكون حرارةً . فالثوب الذي تُلبس سربال من قطران ، ودرع من جرب ، والدرع : يكون من الحديد يُلبس في القتال للوقاية من النبل . فإذا كانت تقام بهذه الصفة وعليها سربال من قطران ودرع أي من حديد وفيه الجرب ، والجرب: المرض المعروف ، كيف تكون حالها في مثل هذا اللباس عياذًا بالله تبارك وتعالى من ذلك !! وهذا الجزاء من جنس العمل ، لما أنها في المصاب لم تصبر ولم تتلقَّ المصاب بالصبر وأخذت تمزق لباسها الذي يستر زينتها ومحاسنها وتمزق شعرها عوقبت بعقوبة من جنس عملها ، والجزاء من جنس العمل ﴿جَزَاءً وِفَاقًا﴾[النبأ:٢٦] .

الجرب : داء يصيب البدن ، وإذا أصاب جزءً منه تفشى فيه وانتشر .

قال رحمه الله :

ولهما عن زيد بن خالد رضي الله عنه ، قال : «صلى لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليل ، فلما انصرف أقبل على الناس فقال : هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر ، فأما من قال "مطرنا بفضل الله ورحمته" فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب ، وأما من قال "مطرنا بنوء كذا وكذا" فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب » .

ولهما من حديث ابن عباس معناه ، وفيه : قال بعضهم : " لقد صدق نوء كذا وكذا" ، فأنزل الله هذه الآيات: { فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ } إلى قوله : { تُكَذِّبُونَ } [الواقعة:٧٥].

****

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث المخرَّج في الصحيحين حديث زيد بن خالد رضي الله عنه قال : ((**صلى لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحديبية**)) ؛ قوله ((صلى لنا)) أي : بنا كما جاء أيضا في بعض الروايات «صلى لنا» أي صلى بنا صلوات الله وسلامه عليه.

((**صلى لنا صلاة الصبح بالحديبية**)) : المنطقة المعروفة وهي قريبة من مكة وتُعرف في وقتنا هذا بالشميسي ، وهي قريبة من مكة جداً على مرحلة واحدة تقريباً من مكة؛ ثمانين كيلو أو في حدودها .

((**صلى لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليل**)) المراد بالسماء: أي المطر ، ويقال للمطر سماء: لأنه ينزل من السماء ، والمراد بالسماء التي ينزل منها المطر ليست المبنية وإنما المراد بها العلو ﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ [الأنعام:٩٩] المراد بالسماء هنا: السحاب ، ليس المراد بالسماء المبنية ، لأنك الآن إذا ركبت الطائرة تكون فوق السحاب والسماء فوقك والأرض التي تحتك ممطورة ، والسحاب والمطر كله تحتك والسماء فوقك أليس كذلك ؟ فالسماء ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾المراد بالسماء : أي العلو .

- لأن السماء تطلق ويراد بها المبنية ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات:٤٧] .
- وتطلق السماء ويراد مطلق العلو؛ كل ما علا عليك فهو سماء . فقوله ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾أي: أنزل من العلو؛ أي من السحاب .

فقوله ((على إثر سماء كانت من الليل)) أي على إثر مطر كان من الليل .

ثم ((**لما انصرف أقبل على الناس**)) ؛ أقبل على الناس صلوات الله وسلامه عليه وألقى درساً نافعاً غاية النفع في الاعتقاد وجاء هذا الدرس مع المناسبة ، والدرس مع المناسبة وقعه أكبر ونفعه أعظم ، لأن الناس على قرب عهد فكانوا على إثر سماء من الليل ؛ فبهذه المناسبة صباح ذلك اليوم ألقى عليهم عليه الصلاة والسلام هذا الدرس المبارك في الاعتقاد النافع على إثر هذا المطر. ولهذا نظائر في طريقة تعليمه ونهجه في التعليم صلوات الله وسلامه عليه .

قال : ((**فلما انصرف أقبل على الناس فقال: هل تدرون ماذا قال ربكم؟**)) وهذا أيضا أسلوب عظيم في التعليم؛ لما فيه من التشويق وشد النفوس والأذهان إلى حسن الاستماع ، لم يأت مباشرة ويقول "قال ربكم كذا وكذا" ، وإنما شوَّقهم أولًا واستدعى اهتمامهم ثم بيَّن ؛ قال ((هل تدرون ماذا قال ربكم؟)) اشتاقوا إلى سماع ذلك فقالوا رضي الله عنهم وأرضاهم : ((**الله ورسوله أعلم**)) .

((**قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر**)) ؛الله جل وعلا قال ((أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر)) ، وهذا حديث قدسي ، والكلام هنا كلام الله سبحانه وتعالى هو القائل له كما أخبر نبينا ((أتدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا الله ورسوله أعلم قال- أي الله جل وعلا- أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر))

وقوله سبحانه ((**من عبادي**)) المراد بالعبودية هنا العامة وليست الخاصة ، بدليل قوله ((أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر)) ؛ فالعبودية هنا العامة .

- لأن العبودية تطلق ويراد بها العامة وهي العبودية لربوبيته .

- وتطلق ويراد بها العبودية الخاصة وهي العبودية لألوهيته مثالها ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان:٦٣] .

((قال أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر)) هذا إجمالٌ ويأتي تفصيله ، وهذا أيضاً أبلغ في التعليم . ((قال أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر)) وكأن السامع هنا يأتيه التساؤل : من الذي هو مؤمن بالله ومن هو الكافر بالله ؟ فجاء البيان:

قال: ((**فأما من قال "مُطرنا بفضل الله ورحمته" فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب**)) ؛ ولهذا يُشرع للمسلم عند نزول الغيث أن يقول هذه الكلمات ليكون من أهل الإيمان الذين يعرفون نعمة الله وأنها منه سبحانه وتعالى ، يضيفونها إليه ويثنون عليه بها «مطرنا بفضل الله ورحمته»؛ وهذا فيه رد على من يستسقي بالأنواء ، وماذا بيدها الأنواء ؟ مطرنا بفضل الله ورحمته ، المطر بفضل الله وبرحمته. أحيانا تجد البلد انعقدت سماؤها بالغيوم وتلبَّدت ويؤنِس الناس نزول المطر ثم يفاجئون انقشع السماء ولم ينزل منه قطرة واحدة عليهم ، وقد تلبدت السماء بالغيوم!! وأحيانا لا يكون في المكان الذي هو فيه الإنسان سحاب ثم يرحم الله سبحانه وتعالى عباده فينزِّل عليهم الغيث .

أحد المعاصرين أحسبه من الصالحين والله حسيبه حدثني بما سمعته منه مباشرة –وهو كبير في السن قارب المئة– يقول: كنت على جمل لي ومسافر ومعي قربة من الماء فيها قليل جداً من الماء ربما لا يكفيني لأصِل إلى قريتي التي أنا أقصد في شدة الصيف ، فرأيت شجرة وجلست تحت ظلها ارتاح قليلا حتى يخف اشتداد الشمس ، بينما أنا على هذه الحال وإذا بكلب يلهث يأكل الثرى من شدة العطش ، يقول فقام في قلبي رحمة له وليس معي وعاء أصب له الماء ، يحدثني هو مباشرة بذلك ، يقول فحفرت حفرة في الأرض ووضعت ثوبي في الحفرة ويقول ثيابنا قديماً ليست خفيفة مثل الثياب الآن فيها شيء من السماكة ، فوضعت ثوبي وأخذت أصب الماء على ثوبي في هذه الحفرة حتى صببت الماء الذي معي كاملاً ، شربه الكلب ، يقول والله ما جلست قليلا إلا والسحاب يأتي ، وإذا بالأرض التي فيها انعقدت السحب وأمطرت ، يقول فشربت وشربت دابتي وملأت قربتي وشربَت أيضا الطيور والدواب التي في المكان .

((أصبح من عبادي مؤمن بي)) ، ((مطرنا بفضل الله ورحمته)) ؛ أين هذا من عقائد أهل الجاهلية وتعلقاتهم الباطلة التي ما أنزل الله تبارك وتعالى بها من سلطان ؟! المطر رحمة الله يرحم بها من شاء من عباده ، وهذا الرجل رحم كلباً فرحمه الله ((ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ)) .

فهذا الحديث في قوله ((مطرنا بفضل الله ورحمته)) فيه الاعتقاد الواجب ، وأن الواجب أن تتعلق القلوب بالله ، وأن المطر وغيره من النعم فضل الله ورحمته يتفضل به على من يشاء ويرحم به من يشاء ، فالمؤمن هو من كان هذا شأنه؛ يقول "مطرنا بفضل الله ورحمته" إيماناً واعتقاداً وإقراراً بأن هذا فضل الله سبحانه وتعالى ورحمته جل في علاه.

قال : ((**وأما من قال "مطرنا بنوء كذا وكذا" فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب**)) ؛ الذي ينسب المطر إلى الكواكب والنجوم ؛ مطرنا بنوء كذا وكذا ونزل المطر بنوء كذا وكذا فهذا مؤمن بالكوكب كافر بالله سبحانه وتعالى.

قال رحمه الله : ((**ولهما**)) أي وللبخاري ومسلم ((**من حديث ابن عباس رضي الله عنهما معناه**)) أي معنى حديث زيد بن خالد .

((**وفيه قال بعضهم : لقد صدق نوء كذا وكذا**)) أي هذا قول المشركين عندما يُمطَرون يقول بعضهم: مطرنا بنوء كذا وكذا ، وربما قال بعضهم صدَق نوء كذا وكذا . ما معنى صدق ؟ يعني اعتقدنا أنا سنُمطر بهذا النوء فصدق النوء ومطرنا بسبب هذا النوء أو بتأثير هذا النوء . صدق النوء فيما اعتقدناه فيه وظنناه فيه أنَّا سنسقى ((صدق نوء كذا وكذا)) .

((**فأنزل الله هذه الآية : {فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ}**)) ؛ ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَٰبٍ مَّكۡنُونٍ (٧٨) لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ (٧٩) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (٨٠) أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ (٨١) وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ (٨٢) ﴾ ، والشاهد هو قوله: ﴿ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ﴾ . وقد صدَّر المصنف رحمه الله تعالى بهذه الآية الترجمة ومر معنا بيان معناها .

قال رحمه الله تعالى :

فيه مسائل ؛ الأولى : تفسير آية الواقعة .

أي قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ (٨٢) ﴾ ، وقد مر بيان معناها .

الثانية : ذكر الأربع التي من أمر الجاهلية .

أي الواردة في حديث أبي مالك الأشعري قال : ((أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر بالأحساب ، والطعن في الأنساب ، والاستسقاء بالنجوم ، والنياحة)) .

الثالثة : ذكر الكفر في بعضها .

أي أن أدلة أخرى دلت على التصريح بالكفر في بعضها ، مثل قوله عليه الصلاة والسلام ((اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ: الفخر بالأحساب ، والطعن في الأنساب)) ؛ فذِكر الكفر في بعضها وأيضاً الاستسقاء بالنجوم الحديث الذي بعده فيه ((أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر)) ، فجاءت نصوص مصرِّحة بالكفر في بعضها أي بعض هذه الخصال المذكورة في الحديث .

الرابعة : إن من الكفر ما لا يُخرج من الملة .

أي مثل قوله ((اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ: الفخر بالأحساب ، والطعن في الأنساب)) فهذا كفر دون كفر ؛ أي دون الكفر الأكبر ، فهو كفر ليس بمخرج من الملة .

الخامسة : قوله : " أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر " بسبب نزول النعمة .

أي حصول هذا الإيمان والكفر بسبب نزول النعمة ؛ لما نزل المطر انقسم الناس على إثر نزوله إلى قسمين :

١. قسم يؤمن بأن المطر فضل الله ورحمته فينسب الفضل إليه .

٢. وقسم كافر بالله سبحانه وتعالى فينسب ذلك الفضل إلى الأنواء .

السادسة : التفطن للإيمان في هذا الموضع .

أي في قوله ((أصبح من عبادي مؤمن بي)) ، والإيمان في هذا الموضع هو الاعتراف بالنعمة نعمة الله ، وأن الفضل فضل الله ورحمته سبحانه يتفضل به على من يشاء .

السابعة : التفطن للكفر في هذا الموضع .

أي في قوله ((أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر)) ؛ الكفر في هذا الموضع هو كفر النعمة ، وإضافة النعمة إلى غير المنعِم ، وإضافة النعمة إلى الأنواء ونحوها كقول المشرك "مطرنا بنوء كذا وكذا" أو قوله "لقد صدق نوء كذا وكذا" .

الثامنة : التفطن لقوله : " لقد صدق نوء كذا وكذا " .

أي كما جاء في حديث ابن عباس ، فالمشرك يقول "لقد صدق نوء كذا وكذا" لأن هذا ينبني على اعتقاده في الأنواء وأن النوء الفلاني سيمطر أو يكون له تأثير في نزول المطر ؛ فيكون تعلقه بالنوء فإذا نزل المطر بفضل الله سبحانه وتعالى نسَب هذا الكافر المطر إلى النوء قائلاً لقد صدق نوء كذا وكذا .

التاسعة : إخراج العالِم للمتعلم المسألة بالاستفهام عنها لقوله : " أتدرون ماذا قال ربكم ؟ " .

وهذه طريقة نافعة جداً في التعليم لأنها أشوَق وأدعى لحسن الاستماع والتنبه لما يُلقى ويقال .

العاشرة : وعيد النائحة .

العاشرة وهي آخر المسائل التي أوردها رحمه الله في هذه الترجمة : وعيد النائحة ؛ حيث قال صلوات الله وسلامه عليه ((إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب)) .

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك .

اللهم صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

الدرس الواحد والثلاثون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد :

بابٌ قول الله تعالى { وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ } [البقرة:١٦٥] .

وقوله: {قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ}

[التوبة: ٢٤] .

****

هذه الترجمة ((**بابٌ قول الله تعالى** ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ﴾)) عقدها المصنف الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى لبيان مكانة المحبة من العبودية ، وأنها أصل العبودية ، وأن المحبة كلما قويت في القلب قوي الإيمان والتعبد ، وكلما نقصت نقص من توحيد العبد بحسب ذلك .

ولما كانت بهذه المكانة والمنزلة العلية وهي محرِّكة للقلوب ، وهذا أمرٌ معروف أن الشيء الذي يحبه القلب ويُعمر بمحبته يتحرك في طلبه ونيله وتحصيله ونيل مراضيه ومحابه ، فلما كانت بهذه المكانة عقد رحمه الله تعالى هذه الترجمة لبيانها ، وبيان أن المحبة التي هي محبة العبودية التي تقتضي الذل والخضوع وكمال الطاعة لا تكون إلا لله ، ولا يجوز صرفها إلا له سبحانه وتعالى ، ومن صرفها لغيره جل وعلا فقد أشرك بالله الشرك الأكبر الناقل من ملة الإسلام .

وبدءً من هذه الترجمة وعددًا من التراجم التي تأتي بعدها عقدها رحمه الله لبيان العبودية التي تتعلق بالقلب؛ فبدأ أولًا بالمحبة باعتبار أنها أصل عظيم جداً في التعبد ، وهي ركن من أركان التعبد القلبية ، ثم أتبعها بذكر الخوف والرجاء ونحو ذلكم من العبوديات القلبية ؛ وهذا تنبيه وبيانٌ من المصنف رحمه الله تعالى لمكانة أعمال القلوب من توحيد الله ، وأن العبد كما أنه يجب عليه أن يصون جوارحه من أن يصرف في شيءٍ منها عبودية لغير الله تبارك وتعالى فإن عليه كذلك أن يصون باطنه وقلبه وسره فلا يكون فيه عبودية إلا لله جل وعلا ، مثل المحبة محبة العبودية والرجاء والإنابة والتوكل والخشية والرجاء وغير ذلكم من عبوديات القلب ؛ فهذه حق لله تبارك وتعالى لا تُصرف لغيره ، وصرفها لغيره شرك بالله تبارك وتعالى .

وجعل عنوان هذه الترجمة هذه الآية الكريمة لأنها دالة على مقصود هذا الباب تمام الدلالة ؛ وهي قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ﴾ [البقرة:١٦٥] والمراد بالناس هنا : أهل الشرك بالله تبارك وتعالى .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ﴾ ؛ أنداد : أي نظراء وشركاء لله سبحانه وتعالى يسوونهم بالله في المحبة ، وهذا معنى قوله ﴿ يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ﴾ أي: يحبون أنداهم محبةً مساوية للمحبة التي لله ، بمعنى أن في قلوبهم محبة لله عظيمة وأيضاً في الوقت نفسه في قلوبهم محبة للأنداد عظيمة مثل محبة الله ، فالكاف في قوله ﴿ كَحُبِّ اللَّهِ ﴾ بمعنى مثل، وهي تعني التسوية والمماثلة، ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ﴾: أي يحبونهم محبةً مساوية لمحبة الله تبارك وتعالى ، ولهذا لما وُجد فيهم هذا الحب لأندادهم المساوي والمماثل لمحبة الله أصبحوا يصرفون أنواع العبودية التي لا تُصرف إلا لله أصبحوا يصرفونها للأنداد؛ من ذل وخضوع وانكسار ورجاء ورغب ورهب وغير ذلك من أنواع العبوديات .

قال: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ﴾ تفيد الآية أن المشركين يحبون الله ومحبتهم لله عظيمة كبيرة لكنها ليست خالصة ، جعلوا مع الله فيها شريكاً مساويًا لله تبارك وتعالى ، ولهذا رُدَّت عليهم هذه المحبة جملةً وتفصيلا وأصبحوا من أهل النار من مات على ذلك يكون من أهل النار مخلداً فيها أبد الآباد كما قال الله في السياق نفسه: ﴿ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ ، لأنهم سووا غير الله بالله تبارك وتعالى في المحبة محبة العبودية التي تقتضي الذل والخضوع والانكسار وكمال الطاعة .

قال: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾؛ الذين آمنوا أشد حباً لله تبارك وتعالى من حب المشركين لله ، وأيضا هذا الجزء الآخر من الآية يدل على أن المشركين يحبون الله ، ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ لأن حبهم لله خالص لم يجعلوا مع الله تبارك وتعالى فيه شريكاً ، لم يجعلوا لغير الله فيه شركة ، لم يجعلوا لغير الله فيه حظاً ولا نصيباً ، محبة خالصة . قال ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ أي أشد حباً لله من المشركين ، لأن المشركين يحبون الله لكن محبتهم لله ليست خالصة بل جعلوا لغير الله حظاً ونصيبا منها ، بل سوَّوا غير الله بالله فيها ، ولهذا يوم القيامة عندما يدخل أهل هذه التسوية في المحبة لغير الله بالله عندما يدخلون النار يندمون على ذلك ويعلنون ندامتهم قائلين وهم في النار : ﴿ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء:٩٧-٩٨] ، بأي شيءٍ سوَّوا الأصنام برب العالمين ؟ هل سووهم بالله باعتقاد أنها تخلق مثل الله وترزق تدبر ؟ لا ؛ هؤلاء القوم إذا سُئل الواحد منهم من الخالق ؟ من الرازق؟ من

المتفرد بالخلق بالرزق؟ يقولون الله ، لكنهم سووا غير بالله بالله في المحبة كما هو واضح في هذه الآية الكريمة التي هي عنوان هذه الترجمة ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ أي : محبة مساوية لمحبة الله ، ولهذا يقولون يوم القيامة ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ . مثلها أيضاً في الدلالة على المعنى نفسه قول الله تعالى : ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام:١] أي : يجعلون غيره عِدلاً له ؛ أي مماثلا له ومساوياً له .

وهذه المحبة التي ذُكرت في هذه الآية الكريمة هي محبة العبودية ، ومحبة العبودية لا يجوز صرفها إلا لله ، ومحبة العبودية : هي تلك المحبة التي تقوم في القلب مقتضية مستلزمةً ذلاً وخضوعاً وانكساراً وكمال طاعةٍ وتذللٍ وتعبُّد ، فهذه حق لله تبارك وتعالى ليس لأحدٍ فيها أي حظ ، لا لمَلَك مقرب ولا لنبي مرسل فضلاً عمن هو دونهما ، وإنما هي حق لله تبارك وتعالى لا يجوز أن تُصرف لغيره .

- وهذه تسمى أيضاً «المحبة الخاصة»؛ لأنها خاصة بالله لا يستحقها أحد سواه كائناً من كان ، خاصة برب العالمين لا يجوز أن يسوَّى بها غيره وهي محبة العبودية ؛ المحبة التي تقتضي الذل والخضوع وكمال الطاعة هذه خاصة بالله .
- وثمة نوع آخر من المحبة يسمى «المحبة المشتركة» ؛ لا شيء في وجودها في الإنسان ، مثل محبة الجائع للطعام والعطشان للماء ، هذه محبة تسمى محبة طبيعية .
- هناك أيضا محبة تقوم في القلب تسمى «محبة الشفقة والرحمة والحنان»؛ مثل محبة الأم لولدها.
- هناك محبة تقوم في القلب تسمى «محبة الإلف والأنس» ؛ هذه أيضا مثل محبة الرفيق لرفيقه والصاحب لصاحبه، هذه محبة طبيعية ولا حرج في وجودها في قلب الإنسان لأنها محبة طبيعية ومحبة مشتركة .

أما المحبة الخاصة فمن صرف شيئا منها لغير الله كان مشركا الشرك الأكبر الناقل من ملة الإسلام . وضابط المحبة الخاصة: أنها محبة العبودية التي تقتضي الذل والخضوع وكمال الطاعة ؛ فهذه حق لله تبارك وتعالى لا يجوز أن تصرف لغيره جل وعلا .

أورد رحمه الله تعالى قول الله عز وجل : ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ [التوبة:٢٤] أي : انتظروا ما يحل بكم من عقوبة الله جزاء تقديمكم لمحبة هذه الأشياء أو شيء منها على محبة الله تبارك وتعالى .

وهذه المذكورات في الآية الكريمة ثمانية أمور جُبلت النفوس على محبتها ، وكل إنسان يقوم في قلبه حب لهذه الأشياء ؛ حبٌ للوالد والولد والأهل والعشيرة والتجارة والمسكن ..كل إنسان جُبل على محبة هذه الأشياء ، ولا شيء في وجود هذه المحبة في قلبه ولا حرج عليه في ذلك ، وهي محاب ثمانية ذُكرت في الآية جُبلت النفوس على حبها.

﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا ﴾ أي حصَّلتموها واكتسبتموها.

﴿ وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا ﴾ أي بوارها وعدم نَفاقها.

﴿ وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا ﴾ أي تعجبكم جميلة وحسنة وبهية ويأنس الواحد منكم إذا ذهب إلى بيته ويرى أن البيت جميل والأثاث جميل وما إلى ذلك ﴿ تَرْضَوْنَهَا ﴾ أي تحبونها وتستحسنونها ؛ لا شيء في حب الإنسان لهذه الأمور والقلوب جُبلت على ذلك ولا ملامة على أحد في حبه لهذه الأشياء ، ونبينا عليه الصلاة والسلام قال في الحديث : ((حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمُ النِّسَاءُ وَالطِّيبُ)) هذه أيضاً داخلة في الباب ؛ المحبة الطبيعية جبلت القلوب على حب مثل هذه الأشياء . لكن الوعيد في تقيم هذه الأشياء أو شيء منها على محبة الله ومحبة رسوله ، قال: ﴿ أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا ﴾ ؛ أما ما دون ذلك لا حرج عليكم ، لكن الخطورة والوعيد عندما تكون هذه الأشياء أو شيء منها ﴿ أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا ﴾ أي انتظروا وعيد الله ، انتظروا عذاب الله ، انتظروا عقوبة الله . وهذا دليل على أن هذا الأمر من عظائم الذنوب ومن كبائر الآثام ، ولهذا تُهدد من كان كذلك بهذا الوعيد .

عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين » أخرجاه .

****

هذا الحديث حديث أنس رضي الله عنه في بيان وجوب محبة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام ، وليس هذا فقط بل وتقديمها على محبة الوالد والولد والناس أجمعين ، وأنه لا يؤمن العبد إلا إذا كان كذلك ؛ إلا إذا كان مقدِّماً لمحبة النبي عليه الصلاة والسلام على محبة الوالد والولد والناس أجمعين ، بل وأيضاً على محبة النفس كما في حديث عمر ابن الخطاب في صحيح البخاري عندما قال رضي الله عنه للنبي عليه الصلاة والسلام : « يَا رَسُولَ اللَّهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي» ، فَقَالَ عليه الصلاة والسلام: ((لاَ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ)) قال عمر ؟ «فَإِنَّهُ الآنَ وَاللَّهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي» قَالَ: ((الآنَ يَا عُمَرُ)) ؛ فيجب

على العبد أن يحب النبي عليه الصلاة والسلام محبةً مقدَّمة على محبته لنفسه ووالده وولده والناس أجمعين .
والأشياء التي ذُكرت في الآية المتقدمة الآباء والأبناء والتجارة والعشيرة والمساكن وغير ذلك هذه كلها لا حرج في حبها لكن يجب أن تقدَّم محبة النبي عليه الصلاة والسلام على محبة هذه الأشياء .
ومحبة النبي عليه الصلاة والسلام تبعٌ لمحبة الله ، الأصل محبة الله ، ومحبة النبي صلى الله عليه وسلم تبعٌ لمحبة الله تبارك وتعالى ، كما أن طاعته من طاعة الله ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء:٨٠] ومعصية الرسول عليه الصلاة والسلام من معصية الله ومحبته من محبة الله تبارك وتعالى ؛ ولهذا في الدعاء المأثور عن نبينا عليه الصلاة والسلام وهو دعاءٌ عظيم يجدر بالمسلم أن يحفظه وأن يحافظ عليه «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ وَحُبَّ عَمَلٍ يُقَرِّبُنِي إِلَى حُبِّكَ» ؛ أسألك حبك هذا هو الأصل ، حب الله تبارك وتعالى هو الأصل ويبغي أن يميل القلب بكليته إلى الله حباً وتعظيماً وإجلالا وخضوعا وذلاً وانكساراً ، ثم بعد ذلك تأتي فرع وتوابع لهذه المحبة يأتي في مقدمتها محبة النبي صلوات الله وسلامه عليه؛ الذي محبته من محبة الله تبارك وتعالى . ويجب أن تكون هذه المحبة للنبي صلى الله عليه وسلم مقدَّمة على محبة الوالد والولد والناس أجمعين .
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((**لا يؤمن أحدكم**)) وهنا نفيٌ للإيمان ، قال: ((لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين)) ، والعمل الذي ذُكر في الحديث عمل من أعمال القلوب ، المحبة عمل قلبي المحبة عمل من أعمال القلوب ، وإن لم توجد هذه المحبة على هذا الوصف فالإيمان منفي كما في الحديث ؛ فهذا دليلٌ على دخول أعمال القلوب ومنها المحبة في الإيمان ، مثل دخول الحياء وهو من أعمال القلوب في الإيمان بدليل قوله ((وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ)) ، فهذا فيه دليل على دخول أعمال القلوب في الإيمان.
ثم نفي الإيمان هنا قال ((**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده ووله والناس أجمعين**)) ما المراد به؟
هل المراد بنفي الإيمان نفي أصل الإيمان؟ أو نفي كمال الإيمان المستحب؟ أو نفي كمال الإيمان الواجب؟
القاعدة عند أهل العلم في هذا الباب : أن الإيمان لا يُنفى إلا في فعل محرم أو ترك واجب ، لا يأتي نفي الإيمان في ترك مستحب أو فعل مكروه مثلا ، فالقاعدة أن الإيمان لا ينفى إلا في فعل محرم أو ترك واجب من واجبات الدين ، فالنفي هنا في قوله ((لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين)) نفيٌ لكمال الإيمان الواجب ، والمعنى : لا يؤمن أحدكم الإيمان الذي تبرأ به ذمته ويسْلم فيه من العقوبة يوم يقف أمام الله تبارك وتعالى حتى يأتي بهذه الخصلة : أن يكون الرسول صلى الله عليه وسلم أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين .

ثم إن من السهل على كل إنسان ومن اليسير على كل لسان أن يقول "إني أحب الرسول عليه الصلاة والسلام محبة مقدَّمة على الوالد والولد والناس أجمعين وعلى نفسي" هذه سهلة جدا ، نُطقاً بها وتلفظاً بها أمرها سهل جدا، من السهل على الإنسان أن يقول ذلك أو أن يدَّعي هذه الدعوى ، لكن العبرة المطلوب هنا في الحديث

ليس بمجرد الدعاوى ، ليست العبرة بمجر الدعوى أو مجرد أن يقول ذلك بلسانه أو يحلف حتى يقول "والله إني أحب الرسول عليه الصلاة والسلام محبة مقدمة على نفسي وولدي والناس أجمعين" ، بل لابد أن تكون هذه المحبة قائمة فعلا وصدقاً في القلب ، ويكون فعلا قائم في قلبه محبة للرسول عليه الصلاة والسلام وتكون مقدَّمة على محبة الوالد والولد والناس أجمعين ، والله عز وجل جعل لعباده في كتابه علامة يعرفون من خلالها مدى صدق هذه المحبة في قوله جل وعلا ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١] ؛ هذه الآية يسميها أهل العلم «آية المحنة» ، ما معنى ذلك ؟ أي من ادَّعى محبة الله ومحبة رسوله عليه الصلاة والسلام فليمتحن نفسه في ضوء هذه الآية في ضوء قوله ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ ؛ لينظر في عمله هل هو يصدِّق ما يدَّعيه من نفسه من محبةٍ لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو أن عمله لا يصدِّق ذلك؟.

ومن المعلوم في شأن المحبة أنها محرك ، من أعظم محركات القلوب للعمل المحبة؛ المحبة محرك ، ولينظر ذلك الإنسان في محبته للأشياء كيف أنه إذا أحب شيئاً تحرك في طلبه وسعى في تحصيله ، وكلما قوي المحبة قوي التحرك ، المحبة من أعظم محركات القلوب ، فإذا قام في القلب فعلاً محبة صادقة للنبي عليه الصلاة والسلام مقدَّمة على محبة النفس والوالد والولد والناس أجمعين لابد أن تظهر علامة ذلك اتباعاً له وسيراً على نهجه وترسماً لخطاه ، أما أن يدَّعي الإنسان محبة أنه يحب الرسول عليه الصلاة والسلام ثم يكون في وادٍ آخر غير مطيع له ولا متبعٍ له ولا متمسك بسنته هذا دليلٌ على عدم مصداقية هذه المحبة كما قال القائل :

تعصي الإله وأنت تزعم حبه	هذا لعمري في القياس شنيع
لو كان حبك صادقاً لأطعته	إن المحب لمن أحب مطيــع

ولهما عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاثٌ من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان : أن يكون اللهُ ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار » ، وفي رواية : «لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى..» إلى آخره .

****

وهذا الحديث أيضا حديث أنس رضي الله عنه وهو أيضاً في الصحيحين ولهذا قال المصنف ((**ولهما**)) أي البخاري ومسلم ((**عنه**)) أي أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((**ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان**)) أنظر هذا التشويق من نبينا عليه الصلاة والسلام لهذه الخصال العظيمة ؛ «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان» أي أن الإيمان له حلاوة ، له طعم لذيذ ، له مذاق جميل ، طعم حلو طعم جميل مذاق جميل لكن ليس كل أحد يجده ، من الذي يجده؟ قال من اتصف بهذه الصفات وتحلى بهذه الخصال

((ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان)) ، فإذًا حلاوة الإيمان وطعم الإيمان لا يناله كل أحد وإنما يناله من كان متصفاً بهذه الصفات المذكورات في الحديث .

والإيمان شُبِّه في القرآن بالشجرة الطيبة كما في سورة إبراهيم في قول الله تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ(٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم:٢٤-٢٥] ؛ تؤتي أكلها : أي ثمارها وجناها كل حين ، وجاءت السنة في الصحيحين وغيرهما مفسرةً للآية مبينةً أن المراد بالشجرة هنا في الآية النخلة دون غيرها من الشجر ، والنخلة كما هو معلوم تثمر ثمراً حلواً ؛ التمر ، والتمر مذاقه حلو . ولما كان مثل الإيمان مثل الشجر ، ومثله مثل النخلة ، والنخلة لها ثمر وثمرها حلو فكذلك الإيمان الذي شُبِّه بالنخلة في القرآن الكريم له طعمٌ ، مثل ما أن النخلة ثمرة لها طعم حلو فالإيمان له طعم حلو ؛ لكن من الذي يذوق هذا الطعم؟ ومن الذي يفوز بهذه الحلاوة؟

قال: **((ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون اللهُ ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار))** ؛ فذكر خصالاً ثلاثة : الأول الأصل ، والثاني الفرع ما يتفرع عن هذا الأصل ، والثالث دفع المضاد، ما يضاده . وبهذه الأمور الثلاثة يكتمل الإيمان ويجد العبد حقيقة الإيمان مثل ما في الرواية الأخرى : لا يجد أحدٌ حلاوة الإيمان إلا بهذه الخصال الثلاثة لأنها بها يكتمل .

- الأصل: محبة الله ومحبة رسوله عليه الصلاة والسلام ، وعرفنا أن محبة الرسول عليه الصلاة والسلام تبعٌ لمحبة الله .
- والأمر الثاني: ما يتفرع عن هذه المحبة ((أن يحب المرء لا يحبه إلا لله)) .
- والأمر الثالث: دفع ما يضاد ذلك قال ((أن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار)) .

إذاً هذه خصال ثلاثة :

الأولى : ((**أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما**)) أي أن يحب الله ويحب رسوله عليه الصلاة والسلام محبة مقدمةً على محبة ما سواهما ، مثل ما مر معنا في الآية ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ؛ فمحبة الله ومحبة رسوله تكون في القلب مقدَّمةً على محبة ما سواهما .

والخصلة الثانية : ((**أن يحب المرء لا يحبه إلا لله**)) ؛ وهذا كما جاء في الحديث الصحيح أوثق عرى الإيمان ، قال عليه الصلاة والسلام: ((أَوْثَقُ عُرَى الْإِيمَانِ الْحُبُّ فِي اللَّهِ وَالْبُغْضُ فِيهِ)) . قال : ((أن يحب المرء لا يحبه إلا لله))

لا يحبه لرئاسة ولا لتجارة ولا لمصلحة ولا لمنفعة معينة وإنما يحبه لله ، ولماذا أحبه لله ؟ لما رأى فيه من طاعة وعبادة وإقبال على الله سبحانه وتعالى ؛ فيحبه لله تبارك وتعالى متقرباً بهذه المحبة إلى الله جل وعلا .

والخصلة الثالثة : ((**أن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار**)) بمعنى أنه يكون عنده متساوي ، أمران : العود إلى الكفر ، والقذف في النار ؛ هذه أمران متساويان عنده ، العوْد في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه والإلقاء في النار ، ومن الذي يقوم في قلبه محبة أن يلقى في النار!! قال : ((أن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار)) .

فإذا قامت هذه الخصال الثلاثة وجد بهن العبد حلاوة الإيمان .

قال ((**وفي رواية**)) وهي عند الإمام البخاري رحمه الله في كتابه الصحيح بلفظ ((**لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى**)) وذكر هذه الخصال الثلاث .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ((من أحب في الله ، وأبغض في الله ، ووالى في الله ، وعادى في الله ، فإنما تُنال ولاية الله بذلك ، ولن يجد عبدٌ طعم الإيمان– وإن كثرت صلاته وصومه– حتى يكون كذلك ، وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا ، وذلك لا يجدي على أهله شيئا)) رواه ابن جرير .

****

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الأثر عن ابن عباس رضي الله عنهما وقال ((رواه ابن جرير)) أي الطبري رحمه الله تعالى قال رضي الله عنه: ((**من أحب في الله ، وأبغض في الله ، ووالى في الله ، وعادى في الله ، فإنما تنال ولاية الله بذلك**)) ؛ ولاية الله أي: لعبده بأن يكون ولياً لله من أولياء الله الذين يتولاهم جل وعلا بالحفظ والتوفيق والتسديد والمعونة ، وفي الحديث القدسي يقول الله تعالى : ((مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ)) ، فولاية الله التي تقتضي حفظ الله للعبد ونصره وتأييده وعونه وتسديده لا تنال إلا بذلك ؛ أي بهذه الخصال المذكورات .

((**من أحب في الله وأبغض في الله**)) من أحب في الله : أي أحب من يحب في الله، لا يحبهم لدنيا أو لمصلحة أو نحو ذلك وإنما يحبهم في الله أي لما كانوا عليه من طاعة وعبادة وامتثالٍ لأمر الله تبارك وتعالى فهو يحبهم في الله ؛ لأنه رأى فيهم الطاعة والعبادة والإقبال على الله سبحانه وتعالى فأحبهم لذلك ، وهذا كما مر أوثق عرى الإيمان ، في الحديث الصحيح قال عليه الصلاة والسلام: ((أَوْثَقُ عُرَى الْإِيمَانِ الْحُبُّ فِي اللَّهِ وَالْبُغْضُ فِيهِ)) ، في الحديث الآخر قال : ((مَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ، وَأَبْغَضَ لِلَّهِ، وَأَعْطَى لِلَّهِ، وَمَنَعَ لِلَّهِ فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ)) .

قال ابن عباس : ((**من أحب في الله وأبغض في الله ووالى في الله**)) أي كانت موالاته ونصرته في الله ولأجل الله تبارك وتعالى ، ((**وعادى في الله**)) : أي كانت معاداته لمن يعادي لله عز وجل ومن أجل الله عز وجل لا لهوى ولا لأمر آخر وإنما هي في الله جل وعلا .

((**فإنما تنال ولاية الله بذلك**)) ولاية الله أي توليه عبده نصرا وحفظا ومعونة وتأييدا وتسديدا لا تنال إلا بذلك .

ثم قال مؤكداً على هذه الخصال العظيمة : ((**ولن يجد عبد طعم الإيمان– وإن كثرت صلاته وصومه– حتى يكون كذلك**)) ويشهد لكلام ابن عباس هذا الحديث الذي مر معنا –حديث أنس– قول النبي عليه الصلاة والسلام ((لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى)) مر معنا . قال : ((ولن يجد عبد طعم الإيمان)) أي لذة الإيمان وحلاوة الإيمان ((وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك)) أي حتى يكون متحليًا بهذه الخصال متصفا بهذه الصفات .

ثم يقول رضي الله عنه : ((**وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا**)) هذا يقوله رضي الله عنه في زمانه يقول «وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا» ؛ عامة: أي أغلب وأكثر المؤاخاة التي تكون بين الناس صارت في أمر الدنيا ، يقول ذلك في زمانه ذلك الزمان المتقدم القريب من عهد النبوة!! يقول «صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا» وهذا من فقه السلف رحمهم الله للواقع الذي هم فيه وحال الناس الذين يعيشون معهم وأمرهم من حيث الإيمان والعبادة والإقبال على الله سبحانه وتعالى قال : ((وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا)) : أي يصبح تآخي وتحاب وتآلف ، لكن هذه المؤاخاة وهذا التحاب وهذا التآلف لمطامع دنيوية وأغراض دنيوية مصالح دنيوية ، إذا انتهت تلك الأغراض لم يبق ذلك التآخي ولم يبق ذلك التحاب ولم يبق ذلك التواد وإنما ينتهي بانتهاء المصلحة أو الحاجة التي وُجد ذاك التآخي أو ذاك التحاب لأجلها ((صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا)) .

قال : ((**وذلك لا يجدي على أهله شيئا**)) أي لا يحصِّلون من ورائه نفعاً ، لا يجدي على أهله شيئا وإنما الذي يُجدي أن يقبِل الإنسان على الله خضوعًا وذلًا ومحبَّة لله تبارك وتعالى ؛ يحب في الله ويبغض في الله ويوالي في الله ويعادي في الله ، الأرزاق بيد الله والأمور كلها بيد الله ، هو جل وعلا المعطي المانع الخافض الرافع القابض الباسط المعز المذل الذي بيده أزمة الأمور جل في علاه ، أما مؤاخاة الناس لأمر الدنيا لا يقوم في قلبه حبا في الله ولا بغضا في الله ولا معاداة في الله ولا بغضاً في الله!! هذا لا يجدي على أهله شيئا ، ولن يحصِّل عبدٌ من الدنيا إلا ما كتب الله له ، وليست تلك المؤاخاة بالتي تجلب له رزقًا لم يكتبه الله له أو مصلحةً أو منفعة لم يكتبها الله تبارك وتعالى له . ولاشك أن مثل هذه المعاني وجودها في القلوب من دلائل ضعف الإيمان . قال ((وذلك لا يجدي على أهله شيئا)) .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : { وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ } [البقرة:١٦٦] **قال : المودة .**

****

هذه الآية وتفسير ابن عباس رضي الله عنهما لها ختَم به رحمه الله تعالى هذه الترجمة ، وفيه تقريرٌ لما سبق في آخر كلام ابن عباس رضي الله عنهما حيث قال : ((وذلك لا يجدي على أهله شيئا)) .

قال : ((**وقال ابن عباس قي قوله : { وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ } قال ابن عباس : المودة**)) أي أن المودة مهما قويت والمحبة مهما عظمت في القلوب إن لم تكن في الله ولأجل الله فإنما مصيرها ومآلها أن تتقطَّع وتنتهي ، لأن الذي يبقى ما كان لله ، فما كان لله دام واتصلا وما كان لغيره انقطع وانفصلا ، ولهذا قال الله تعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف:٦٧] ، أما ما سوى هؤلاء فإن المحبة مهما عظمت وقويت وكبرت فإنها تتقطَّع بل تستحيل عداوة وتتحول إلى بغضاء ؛ هذا معنى قوله جل وعلا ﴿ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴾ أي أسباب المودة ، تلك الوشائج والروابط والصلات القوية التي كانت بينهم كلها تنتهي ولا يبقى منها شيء إلا ما كان من المحبة في الله .

فيه مسائل ؛ الأولى : تفسير آية البقرة .

وقد تقدم تفسيرها وهي قول الله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ﴾ .

الثانية : تفسير آية براءة .

وهي قول الله عز وجل : ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ﴾ إلى تمام الآية ، وقد مر أيضاً تفسيرها .

الثالثة : وجوب محبته صلى الله عليه وسلم على النفس والأهل والمال .

ويدل على هذا الوجوب قول الرسول عليه الصلاة والسلام كما في حديث أنس : ((لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين)) ، وقوله «على النفس» هذه يدل عليها حديث عمر بن الخطاب وهو في صحيح البخاري كما تقدمت الإشارة إلى ذلك .

الرابعة : أن نفي الإيمان لا يدل على الخروج من الإسلام .

«أن نفي الإيمان» أي في قول النبي عليه الصلاة والسلام في حديث أنس ((لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين)) «لا يدل على الخروج من الإسلام»؛ لأن النفي هنا نفيٌ لكمال الإيمان الواجب وهو الإيمان الذي تبرأ به الذمة ويسلم به العبد من العقوبة ، ومن لم يكن فيه ذلك فإنه عرضة لعقوبة الله تبارك

وتعالى ، فليس النفي هنا نفيٌ لأصل الدين وإنما هو نفيٌ لكمال الإيمان الواجب الذي لا تبرأ الذمة ولا تكون السلامة من العقوبة إلا بوجوده .

الخامسة : أن للإيمان حلاوةً قد يجدها الإنسان وقد لا يجدها.

والدليل على ذلك الحديث ؛ حديث أنس ((ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان)) ، إذاً معنى ذلك إن لم يكنَّ فيه أو لم تكتمل فيه هذه الخصال لا يجد حلاوة الإيمان، لأن وجود الحلاوة مرتبط بوجود هذه الخصال ، ولهذا قال الشيخ رحمه الله «الإيمان له حلاوة قد يجدها الإنسان وقد لا يجدها» ، فهو يجدها إن وجدت فيه هذه الخصال، ولا يجدها إن لم توجد فيه هذه الخصال .

السادسة : أعمال القلب الأربع التي لا تُنال ولاية الله إلا بها ، ولا يجد أحدٌ طعم الإيمان إلا بها .

أعمال القلوب الأربع أي التي جاءت في أثر ابن عباس ((من أحب في الله ، وأبغض في الله ، ووالى في الله، وعادى في الله)) فهذه الأعمال القلبية الأربع لا تُنال ولاية الله إلا بها ، ولا يجد أيضاً طعم الإيمان أي حلاوته إلا بها كما تقدم معنا في أثر ابن عباس رضي الله عنهما .

السابعة : فهم الصحابي للواقع أن عامة المؤاخاة على أمر الدنيا .

فهم الصحابي للواقع ؛ الصحابي : ابن عباس الذي تقدَّم في الأثر الذي ساقه المصنف رحمه الله . فهمه للواقع أي واقع الناس عندما بيَّن مكانة هذه الخصال الأربع وأن ولاية الله لا تنال إلا بها ولا يجد طعم الإيمان إلا إذا وُجدت؛ فبيَّن في أثناء ذلك أن عامة المؤاخاة بين الناس على أمر الدنيا ، فهذا من فهمه ودرايته ومعرفته بواقع الناس .

الثامنة : تفسير {وتقطعت بهم الأسباب} .

تفسير هذه الآية التي ختم بها رحمه الله الترجمة مر معنا عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (المودة) .

التاسعة : أن من المشركين من يحب الله حباً شديداً .

وهذا مستفاد من قوله جل وعلا : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ ؛ أي يحبونهم محبة عظيمة مساوية لمحبة الله. ثم في قوله بعدها ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾؛ أشد حباً لله أي: من حب المشركين لله ، فهذا فيه إثبات أن عندهم محبة شديدة لله لكنها محبة ليست خالصة أشركوا مع الله فيها غيره

فرُدَّت عليهم ولم تُقبل منهم ، وكانوا بسبب ذلك من أهل النار مخلَّدين فيها أبد الآباد ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ ، وعلى هذه التسوية يندمون يوم القيامة ويعلنون الندامة وهم في النار كما مر معنا في قولهم الذي ذكره الله: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:٩٧-٩٨] .

العاشرة : الوعيد على من كانت الثمانية عنده أحب إليه من دينه .

الثمانية : أي المذكورات في آية براءة ، وهي ثمانية أمور جُبلت النفوس على حبها ولا شيء في ذلك ، لكن الوعيد على من كانت الثمانية أحب إليه من دينه فهذا الذي جاء الوعيد في حقه في قوله: ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ [التوبة:٢٤] .

الحادية عشر : أن من اتخذ نداً تساوي محبته محبة الله فهو الشرك الأكبر.

خاتمة هذه المسائل: أن من اتخذ نداً تساوي محبته محبة الله فهو الشرك الأكبر أي : الناقل من ملة الإسلام ، وقد مر معنا في صدر هذه الترجمة قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ أي يحبونهم محبةً مساوية لمحبة الله تبارك وتعالى ، وهذا شرك أكبر ناقل من ملة الإسلام ، والسياق نفسه دل على ذلك ، لأن الله عز وجل قال في شأن هؤلاء:﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ ، وهذا الذي يُحكم في حقه أنه يدخل النار ولا يخرج منها بل يخلد فيها أبد الآباد هم المشركون الكفار كما قال الله في آية أخرى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر:٣٦] .

وبهذا تنتهي هذه الترجمة وما ساقه فيها رحمه الله من أدلة من كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ونقلٍ لبعض المأثور ثم أيضاً المسائل التي ساقها رحمه الله تعالى مستفادةً من هذه الترجمة .

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك .

اللهم صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

الدرس الثاني والثلاثون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . وبعد :

يقول الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتابه «كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد »:

بابٌ قول الله تعالى {إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [آل عمران:١٧٥] .

وقوله: { إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ} [التوبة:١٨] .

****

هذه الترجمة ((**بابٌ قول الله تعالى** ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٧٥] **وقوله** : ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ التوبة:١٨])) ؛ترجم رحمه الله تعالى هذه الترجمة لبيان عبودية عظيمة من عبوديات القلب افترضها الله سبحانه وتعالى على عباده وأوجبها عليهم ، وأوجب إخلاصها له وحده جل وعلا وجعل ذلك شرطاً في الإيمان ألا وهي : عبودية الخوف والخشية من الله جل وعلا .

والخوف المراد به : خوف العبودية الذي هو خوفٌ من الله تبارك وتعالى وخشيةٌ منه ومن عقابه جل وعلا ؛ هذه عبودية لا يجوز صرفها لغير الله عز وجل ، ويسمى هذا الخوف «خوف السر»؛ أي ما يكون في سر الإنسان وباطنه من خوفٍ يترتب عليه ذلٌ وعبودية للمخوف ، وهذه لا يجوز صرفها إلا لله تبارك وتعالى ؛ الذي هو خوف التأله والتعبُّد والخضوع والذل فهذه عبودية لا يجوز صرفها لغير الله ، فمن صرفها لغير الله تبارك وتعالى فقد أشرك بالله واتخذ مع الله تبارك وتعالى شريكاً ، ولهذا قال الله جل وعلا: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٧٥]وقال: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾ [المائدة:٤٤] وقال: ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة:٤٠] والآيات في هذا المعنى كثيرة .

فهذه عبودية لا يجوز صرفها إلا لله تبارك وتعالى ؛ الخوف الذي هو خوف التأله والتعبد والتذلل هذه عبودية لا يجوز صرفها لغير الله ، فمن صرفها لغير الله فقد أشرك ، مثل أن يخاف مثلاً إنسانٌ ما من شخصٍ مقبور ، وهذا يكثر عند المتعلقين بغير الله من المتعلقين بالقبور وبالموتى وبالأشجار أو نحو ذلك ، فإذا وُجد في سره وفي قلبه

خوف من ذلك المقبور أن مثلاً يسلب منه إيمانه أو يسلب منه صحته أو نحو ذلك فهذا من الشرك الأكبر الناقل من ملة الإسلام . وقد دأب أهل الشرك في قديم الزمان وحديثه أن يخوِّفوا من يردُّ باطلهم وينقض شركهم أن يخوِّفوه بتلك الآلهة التي تعلقوا بها وعبدوها من دون الله تبارك وتعالى . ولمقام الخوف في الدين الرفيع ومنزلة الخوف العلية عقد المصنف رحمه الله تعالى هذه الترجمة لبيان مكانة هذه العبودية من دين الله وأنها عبوديةٌ افترضها الله سبحانه وتعالى على عباده وأوجبها على عباده وأوجب إخلاصها له سبحانه وتعالى وحده ، وأن من صرف هذه العبودية لغير الله تبارك وتعالى فقد اتخذ مع الله جل وعلا شريكاً في العبادة .

و«الخوف» يأتي ذكر هذه العبودية في القرآن في مواضع كثيرة جداً ؛ فيأتي بلفظ «الخوف» كما في هذه الآية : ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ ﴾ [آل عمران:١٧٥] ، ويأتي بلفظ «الخشية» و«الرهبة» و«الوجل» و«الهيبة» ، وهذه الكلمات كما بيَّن أهل العلم متقاربة في المعنى ولكنها ليست مترادفة .

والخشية وقد جاءت في قوله سبحانه وتعالى ﴿ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ [التوبة:١٨] أخص من الخوف ، لأن الخشية خوفٌ مع معرفة بالله وعلم ، ولهذا قال الله سبحانه وتعالى ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر:٢٨] .

- فالخشية أخص من الخوف ؛ لأنها تكون مع علمٍ .
- والرهبة : هي الإمعان في الهرب من المكروه ومن الشيء المخوف .
- والوجل : خفقان القلب لذكر من يخافه .
- والهيبة : خوفٌ مقرون بالتعظيم .

فإذاً هذه الكلمات متقاربة المعنى وإن كانت ليست مترادفة ، وكل ذلكم يجب إخلاصه لله تبارك وتعالى وأن يُفرد به جل في علاه .

ومن أعلى مقامات الدين: الخوف من الله ، والخوف من الوقوف بين يديه ، والخوف من حسابه وعقابه جل وعلا، والخوف كما تقدم عبوديةٌ مكانها القلب لها أثرها العظيم على جوارح العبد ؛ لها أثرها على بصره ، لها أثرها على سمعه ، لها أثرها على لسانه ، لها أثرها على سلوكه وأعماله . وكلما زاد القلب خوفاً من الله تبارك وتعالى كان ذلك أدعى لبُعد العبد عن المحرمات والشهوات والأمور التي تُسخط الله تبارك وتعالى ، ولهذا قال العلماء : الخوف زاجر للعبد عن المحرمات ، وهو من أعظم المحركات للقلب ، أعظم محركات القلب لينبعث في الأعمال الصالحة والطاعات الزاكية المقربة إلى الله أن يُعمَر بالخوف من الله سبحانه وتعالى .

وقد تقدم معنا في الترجمة الماضية ذكر عبودية المحبة ، والمحبة كذلك من أعظم محركات القلوب ، لكن تختلف المحبة عن الخوف –وكلاهما من محركات القلوب– أن المحبة عبودية مقصودة لذاتها ، وأما الخوف مقصود لغيره ؛ مقصود الخوف: زجر الإنسان عن الشهوات وعن المحرمات وعن الأمور التي تُسخط الله تبارك وتعالى وتغضبه ، ولهذا لما

كانت المحبة عبوديةً مقصودةً لذاتها ولها هذه المكانة لا تنتهي في الآخرة بل هي مستمرة ، بل تعظم عندما يدخل عباد الله تبارك وتعالى المؤمنون الجنة تتضاعف المحبة في قلوبهم وتزيد ، أما الخوف إذا أكرم الله سبحانه وتعالى أهل الإيمان بدخول جنات النعيم ذهب عنهم الخوف وزال من قلوبهم ؛ فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، لأن الخوف زاجر ورادع للعبد في هذه الحياة عن مقارفة الذنوب وارتكاب الخطايا ، ولهذا قيل إن الخوف من الله سبحانه وتعالى إذا فارق القلب خرب القلب ، وكلما كان القلب خائفاً من الله فإن صاحبه سيكون على الطريق طريق السداد الموصِل إلى الله تبارك وتعالى ، وإذا ذهب عن قلبه الخوف ضلَّ الطريق .

ولهذا الخوف زاجر للسائر إلى الله والدار الآخرة ؛ فهو يسير في طريقه إلى الله وكلما حدَّثته نفسه أن تنعطف عن الطريق يميناً أو شمالاً هنا أو هناك جاء هذا الخوف وردعه وذكَّره بمقامه بين يدي الله وعقاب الله والنار وسخط الله. ولهذا قال العلماء : ثمة أمور يُستجلب بها الخوف إلى القلب مثل : أن يتذكر آيات الوعيد ، أن يتذكر النار، أن يتذكر سخط الله وعقابه جل وعلا ، إلى غير ذلك من المعاني التي يُستجلب بها الخوف ، ولهذا العبد يحتاج إلى الخوف حاجة دائمة مستمرة لأن الخوف زاجر له .

والخوف شأنه شأن أمور الإيمان الأخرى يزيد وينقض ويقوى ويضعف ، ولزيادته أسباب ولضعفه أيضا أسباب ، والعبد لا يزال بخير مادام ينمِّي خوف الله في قلبه ويحاول أن يزيد في قلبه الخوف من الله سبحانه وتعالى رجاء أن يكرمه الله بأن يكون ممن قال الله فيهم: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾[الرحمن:٤٦] . فالخوف من الله تبارك وتعالى يقود العبد ويسوقه ويزجره ، وكلما حدثت العبد نفسه أن يميل يمينا أو شمالا جاء الخوف وزجره وردعه حتى يمضي في الطريق على السداد والقوام ، وكل شيء يخاف منه الإنسان يفر منه إلا الله سبحانه وتعالى فإن العبد كلما ازداد خوفاً من الله أقبل على الله ، لأنه لا مفر من الله إلا إليه ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ ﴾[الذاريات:٥٠] ، فكلما زاد العبد خوف من الله تبارك وتعالى أقبل على الله وتجنب مساخط الله وحرص على عبادة الله وتجنب الأمور التي تُغضب الله تبارك وتعالى فكان له الأثر العظيم على العبد .

لكن ينبغي أن يُعلم أن ثمة ضابط هنا نبه عليه العلماء رحمهم الله ألا وهو : أن الخوف الذي يُحمد هو ذلك الخوف الذي يزجر العبد عن المعاصي وعن فعل ما نهى الله تبارك وتعالى عباده عنه ، أما إذا زاد هذا الخوف عن حده ربما انقلب إلى يأس وقنوط من رحمة الله .

ولهذا قال العلماء: يحتاج العبد في هذا المقام إلى توازن بين أمور ثلاثة : المحبة والرجاء والخوف ، وهذه الأمور الثلاثة كلها محركات للقلوب . والسائر إلى الله تبارك وتعالى يحتاج إلى هذه الأمور الثلاثة : المحبة والرجاء والخوف . قالوا ومثل هذه الأشياء الثلاثة وحاجة العبد في سيره إلى الله إليها مثل الطائر ؛ المحبة رأسه ، والرجاء والخوف جناحاه ، والطائر إذا قُصَّ رأسه مات ، وإذا قص أحد جناحيه لم يتمكن من الطيران وأصبح عرضةً لكل صائدٍ

وكاسِر . فيحتاج فعلا إلى المحبة التي هي روح الدين ، ويحتاج إلى الرجاء والخوف ؛ الرجاء قائد والخوف سائق ، الرجاء قائد يحرك العبد ويرغبه في الفضائل في الأعمال في الطاعات في العبادات ، والخوف من ورائه زاجر ، كلما أراد أن يحيد أو ينحرف عن الطريق جاءَ هذا الخوف وساقه إلى طاعة الله وحُسن التقرب إليه سبحانه وتعالى .

وهذه العبادة عبادة الخوف والخشية من الله عز وجل الناس بحاجة إليها حاجة ماسة ؛ لأن قلوبهم إذا تعطلت عن وجود الخوف من الله سبحانه وتعالى فيها خربت القلوب كما تقدم ، ولما كان الخوف شأنه شأن أمور الإيمان الأخرى كما قدمت يزيد وينقص ويقوى ويضعف فإن الإنسان عندما يضعف فيه جانب الخوف تتسلط عليه الشهوات ويكتنفه الشيطان من كل جانب ويوقعه في الآثام والخطيئات ؛ ولهذا يحتاج العبد أن يقوي في نفسه دائما جانب الخوف ، وكلما حدثته نفسه بريبة أو بمعصية يذكِّرها بأن رب العالمين يراها وأنه مطلع عليه وأنه يحاسبه

إذا خلوت الدهر يوماً فلا تقل   خلوت ولكن قل عليَّ رقيب

ونحن في هذا الزمان الذي فعلاً كثرت فيه الفتن وتوالت على الناس ودخلت عليهم في البيوت وفي الجيوب وفي أماكن كثيرة ، دخلت فتن على الناس لم تكن موجودة في زمان سابق ، أقصد من خلال الوسائل الجديدة الحديثة التي توفرت لدى الناس مثل هذه الشاشات شاشات الانترنت الشبكة العنكبوتية أو الأجهزة الآن التي يحملها كثير من الناس في أيديهم وفي جيوبهم ، كم فيها من الأمور التي تستجر الإنسان إلى الشهوات وإلى المحرمات وإلى النظر المحرم وإلى السماع المحرم!! فما أحوج الناس إلى الخوف من الله ، ما أحوج الناس إلى الخوف من المقام بين يدي الله تبارك وتعالى ، وعندما يضعف في العبد هذا الخوف من الله تبارك وتعالى تتسلط عليه الشهوات ثم لا يبالي بأن يستعمل نظره في أمورٍ حرمها الله عليه ، أن يستعمل سمعه في سماع أمورٍ حرمها الله تبارك وتعالى عليه ، وربما استغرق منه أوقاتاً وأوقاتا وجرَّت عليه الويلات والعواقب التي لا تحمد في الدنيا والآخرة ، وتجد بعض الناس لو تحركت ستارة النافذة أو اقترب أحد من عند باب بيته أو غرفته التي هو فيها ارتعد خشي من إنسان جاء ، وهو يمارس نظراً محرماً وسماعا محرما في المكان الذي هو فيه ولا يبالي بأن رب العالمين مطلع عليه ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ﴾[النساء:١٠٨] . أحدهم يقولون كان في نظر محرم في غرفةٍ له وإذا بصوت عند الباب فارتعد وخاف ، ظنه أحد له مكانة ففتح الباب وإذا بهرة عند الباب !! هرة عند الباب ارتعد وخاف!! ورب العالمين يراه ويطلع عليه . إذاً فعلا يحتاج العبد أن يحرك في قلبه الخوف حتى يكون هذا الخوف واقياً له من الوقوع في الفتن والوقوع في الأمور التي تغضب الله تبارك وتعالى وتسخطه جل في علاه . وإذا سكن الخوف في القلب أحرق مواضع الشبهات ، وإذا فُقد الخوف من القلب استولت عليه الشهوات وأهلكته وأوقعته في المعاطب والمهالك .

قال المصنف رحمه الله تعالى : ((**باب قول الله تعالى** : ﴿ **إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** ﴾[آل عمران:١٧٥])) ؛ انظر هذا الحصر في هذه الآية لكيد الشيطان العظيم ومكره الكبَّار لعباد الله تبارك وتعالى في هذا الباب باب الخوف ، قال ﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ ﴾ أي : يخوفكم بأوليائه . ولهذا ينبغي أن يُعلم -كما تدل هذه الآية الكريمة- أن من أعظم أعمال الشيطان إفقاد العبد الخوف من الله وإدخال مخافة أولياء الشيطان في قلب العبد ، وانظر الانتكاسة العظمى الكبرى عندما يكون قلب العبد بهذه الصفة ؛ ذهب عنه الخوف من الله تبارك وتعالى ووُجد في قلبه الخوف من غير الله سبحانه وتعالى ، وهذا من أعظم مطالب الشيطان التي يريدها من العبد المؤمن.

﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ ﴾ أي يخوفكم بأوليائه ، يحرك في قلوبكم ويثير في نفوسكم الخوف من أولياء الشيطان ، ولهذا إذا وقع في قلب العبد هذا الخوف من أولياء الشيطان أصبح يلتمس رضاهم حتى ولو كان فيما يسخط الله ، حتى لو كان فيما يُغضب الله تبارك وتعالى .

قال الله جل وعلا: ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ جعل من شرط الإيمان إخلاص هذا الخوف لله وإفراده سبحانه وتعالى وحده به؛ ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ ﴾ أي أولياء الشيطان ومن يدعوكم الشيطان إلى الخوف منهم ﴿ وَخَافُونِ ﴾ أي وحدي وأفردوني بذلك وحدي ﴿ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ .

قال رحمه الله تعالى : ((**وقوله**: ﴿ **إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ** ﴾[التوبة:١٨])) ؛ هذه الآية جاء في الآية التي قبلها نفيٌ لمعنىً كان يفهمه أهل الباطل في عمارة المساجد فقال جل في علاه: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ ﴾ ؛ أي من كان على الشرك والكفر بالله وعدم الإيمان به سبحانه وتعالى ليس من عمَّار بيوت الله وإن فعل ما فعل ، وإن شيَّدها واعتنى بنظافتها وعمل على سقاية روَّادها وغير ذلك من المعاني ليس من عمَّار بيوت الله مادام على هذه الحال ﴿ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ ﴾ أي أعمالهم تشهد عليهم أنهم كفار وأنهم مشركون بالله تبارك وتعالى ؛ فهؤلاء لا ينفعهم ذلك النوع من العمارة لبيوت الله .

إذاً من هم عمار بيوت الله ؟ قال الله سبحانه ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ ﴾ و«إنما» من أدوات الحصر ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ هذه صفات عمار بيوت الله . وينبغي على كل مسلم أن يعي هذه الصفات جيداً وأن يعمل على تحقيقها ليكون من عمار بيوت الله حقاً ،

وأول أمرٍ وأول ضابط في أوصاف عمار بيوت الله الإيمان بالله كما قال الله جل وعلا ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ ﴾ ؛ والإيمان بالله : هو الإيمان بوحدانية الله سبحانه في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته ؛ ولهذا الإيمان بالله يقوم على أركان ثلاثة لا إيمان بالله إلا بالإيمان بها :

١. الإيمان بوحدانية الله في ربوبيته ؛ باعتقاد أنه سبحانه وتعالى وحده الرب الخالق الملك المدبر الذي بيده أزمة الأمور ومقاليد السماوات والأرض وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

٢. والإيمان بوحدانية الله في أسمائه وصفاته ؛ بإثبات أسمائه الحسنى وصفاته العليا دون تحريف أو تعطيل ودون تكييف أو تمثيل .

٣. والإيمان بوحدانية الله في ألوهيته ؛ بأنه المعبود بحق ولا معبود بحق سواه ، ولا يكفي في هذا مجرد المعرفة بل لابد من تحقيق العبودية بإخلاص الدين لله تبارك وتعالى وإفراد الله سبحانه وتعالى بالعبادة ، وأن يعبد الله مخلصاً له الدين وأن لا يجعل مع الله تبارك وتعالى شريكاً في العبادة . هذا الإيمان بالله .

﴿ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ : والإيمان باليوم الآخر ؛ وهو اليوم الذي أعده الله تبارك وتعالى بعد الحياة الدنيا ليكون داراً للجزاء والحساب ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ [النجم:٣١] ، فهو يومٌ أعده الله تبارك وتعالى للجزاء والحساب ، فالإيمان بهذا اليوم ركنٌ من أركان الإيمان وأساسٌ عظيم لابد منه في عمارة بيوت الله تبارك وتعالى .

قال: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ ﴾ ؛ وإقام الصلاة أعظم الأغراض التي بُنيت المساجد لأجلها ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ ﴾ [النور:٣٦-٣٧] .

﴿ وَآتَى الزَّكَاةَ ﴾ ؛ والزكاة قرينة الصلاة في كتاب الله ، والمراد بالزكاة أي الزكاة المفروضة ، زكاة المال التي افترضها الله سبحانه وتعالى على عباده ، وهي صدقة تؤخذ من الأغنياء وتردُّ على الفقراء ، وسميت «زكاة» لما فيها من تزكية صاحب المال وتزكية ماله .

﴿ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ وهذا موضع الشاهد من هذه الآية للترجمة، ﴿ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ : أي أفرد الله سبحانه وتعالى بالخشية وعُمِر قلبه بخشية الله وليس في قلبه إلا خشية الله سبحانه وتعالى .

وقوله : {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ} [العنكبوت:١٠] .

****

﴿ وَمِنَ النَّاسِ ﴾ المراد بهؤلاء : أي بعض الناس ممن رق دينه وضعف إيمانه وكان في إيمانه وفي تديُّنه على طرف، يعبد الله على حرف ، من كان على طرف عندما يُبتلى ويُمتحن ينقلب والعياذ بالله على عقبيه .

قال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ لكن هذا الإيمان ليس إيماناً راسخًا ولا إيمانا متمكناً وإنما هو إيمان ضعيف إيمانٌ على طرف .

﴿يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ﴾ إذا تعرَّض لمحنة وابتلاء ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ أي يقوم في قلبه خوفٌ من الناس فيعمل على طلب رضاهم ولو كان ذلك فيما يُسخط الله ويغضب الله تبارك وتعالى ، فيجعل فتنة الناس كعذاب الله ؛ تصبح حاله مع الناس في خوفه منهم بأن يجعل فتنة الناس كعذاب الله الذي يخاف منه أهل الإيمان فينزجرون عن المعاصي وينزجرون عن الأمور التي تسخط الله تبارك وتعالى .

فالآية فيها تقرير وجوب الخوف من الله والخشية من الله تبارك وتعالى ، وأن هذا القدر من الإيمان عندما يرسخ في قلب العبد المؤمن ويتمكن في قلبه لا يكون بهذه الحال ، أما إذا ضعُف هذا الإيمان ورقَّ دين العبد يصبح بهذه الحال إذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله .

وعن أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعا : «إن من ضعف اليقين : أن تُرضي الناس بسخط الله ، وأن تحمدهم على رزق الله ، وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله. إن رزق الله لا يجرّه حرص حريص ، ولا يرده كراهية كاره» .

****

ثم أورد الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى وأسكنه الفردوس الأعلى هذا الحديث حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً : ((**إن من ضَعْف اليقين**)) ؛ اليقين : هو تمام العلم وكماله بحيث لا يصبح في القلب أدنى تردد أو شك أو ارتياب . فاليقين : هو زوال الشك والريب وهو تمام العلم وكماله في القلب ، فمِن ضعْف هذا اليقين بالله سبحانه وتعالى في قلب المرء أن يرضي الناس بسخط الله .

قال: ((**إن من ضَعْف اليقين أن ترضي الناس بسخط الله**)) أي أن يعمل على طلب رضا الناس ولو كان في أمورٍ تسخط الله تبارك وتعالى وتغضب الله ، وهذا الطلب لرضا الناس تارةً يدفع إليه خوفا منهم ، أو تارةً يدفع إليه طمعاً فيما عندهم ، أو غير ذلك من الأغراض ؛ فيطلب رضا الناس في أمور تسخط الله تبارك وتعالى فهذا من ضعف اليقين، من ضعف يقين العبد بربه تبارك وتعالى أن يكون بهذه الصفة يُرضي الناس بفعل ما يسخط الله ويغضب الله جل في علاه.

((**وأن تحمدهم على رزق الله**)) أيضا هذا من ضعف اليقين ، هذه كلها علامات على ضعف اليقين : أن ترضي الناس بسخط الله ، وأن تحمدهم على رزق الله ؛هذا أيضا من ضعف اليقين «أن تحمدهم على رزق الله» وذلك عندما يصل إلى الإنسان خير ما على أيدي بعض المخلوقين جعلهم الله سبحانه وتعالى سبباً في ذلك الخير فلا يلتفت قلبه في الشكر والحمد إلا إليهم وينسى المنعِم المتفضل ، وتجده مثلا "لولا أنتم لما حصل لي كذا ، ولما أصبحت كذا ،ولما نجوت من كذا.." إلى آخره ، فينصرف قلبه إلى حمدهم وينسى المنعم جل في علاه ، ولهذا قال: ((إن من علامات ضعف اليقين أن تحمدهم على رزق الله)) هؤلاء الله جعلهم سببا .

وما جاء في هذا المعنى المقرر هنا لا يتنافى مع حديث ((لَا يَشْكُرُ اللَّهَ مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ)) ، لكن ليس معنى شكر الناس التفات القلب إليهم ونسيان المنعِم سبحانه وتعالى ، وربما أيضا في بعض عبارات الناس حصَر النعمة في هؤلاء الذين جعلهم الله سبباً "لولا أنتم لما أصبحت كذا ،ولما سلِمت من كذا ،ولما حصل لي كذا" إلى آخر ذلك من العبارات ، فهذا كله من ضعف اليقين بالله ((أن تحمدهم على رزق الله)) .

أيضا من علامات ضعف اليقين : ((**أن تذمهم على ما لم يؤتك الله**)) هذا أيضا من ضعف اليقين أن تذم الناس على ما لم يؤتك الله أي : على ما لم يكتبه الله لك من الرزق ، وهذا قد يقع من كثير من الناس عندما مثلا يعرِض حاجةً من حاجاته على بعض الناس فلا تحصل له فيذمهم على ما لم يؤته الله وما لم يكتبه الله له جل وعلا ؛ وهذا إنما يكون فيما ليس للإنسان فيه حق لازم ، أما حقوق العبد التي ظُلم فيها أُخذت ابتزت منه تُعدِّي عليه فيها لا حرج عليه أن يذم من ظلمه لأن هذا الذم ذمٌ لهم في ظلمهم وتعدِّيهم ، ولا حرج عليه مثلا في مداعاتهم ومحاكمتهم ومقاضاتهم ومطالبة حقه وذمهم على تعديهم عليه ؛ هذا يدخل في هذا الباب ، لكن الأمور التي ليس للإنسان فيها حق وطلب معونة أو مساعدة ثم يشرع في ذم الناس فيما لم يؤته الله وما لم يكتبه الله تبارك وتعالى له ((وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله)) أي : ما لم يكتبه الله تبارك وتعالى لك من الرزق ، وهذا من ضعف يقين العبد بالله ، والمفترض أن يقوي يقينه بالله ويسأل الله من فضله ويرجوه من واسع نواله ، ويطلب منه أن يهيأ له أبواب الرزق وأن يهيئ له أبواب المن والعطاء ويرجو الله . فإذاً من ضعف اليقين في قلب العبد أن يكون بهذه الصفة ، وأن يكون فقره إلى الله ضراعته وإلحاحه إلى الله يلتجئ فيه إلى الله سبحانه وتعالى وحده .

يُذكر أن رجلا مرة كانت به حاجة شديدة إلى مال وكانت عليه ديون ، فذُكر له أن أحد الكبار من الأثرياء وأصحاب الأموال جاء إلى البلد الذي هو فيه وقيل إنه سيكون موجوداً في المسجد في الوقت الفلاني ، فلو جئت إليه وكتبت حاجتك وعرضتها عليه وألحت عليه لعله يساعدك في حاجتك ، وفعلاً جاء وأعدَّ كتاباً وعريضةً وشرح حاجته ولما وصل إلى المكان الذي فيه ذلك الرجل وجده يصلي وبعد أن فرغ من الصلاة رفع يديه وأخذ يدعو ، قال "إذاً هو فقير مثلي ، والله لا أعرض حاجتي عليه وإنما أعرض حاجتي لمن رفع هو يديه إليه يسأله" وجلس يصلي في المسجد ويدعو الله ، وهيأ الله له من أبواب الرزق ما لم يكن يحتسب .

فالثقة بالله وحسن التوكل عليه وتمام الالتجاء إلى الله له أثره العظيم على العبد ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر:٣٦] ، ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢-٣] ، ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق:٤] . فمن ضعف اليقين أن يذم الناس على ما لم يؤته الله ، وبعض الناس فعلاً يكون في هذا الجانب ضعيف الإيمان وحاجاته كلها منصرفة إلى طلب الناس ،ومن هذا إلى ذاك ومن الآخر إلى غيره وهكذا ، وهذا كله من ضعف اليقين .

ثم قال : ((**إن رزق الله لا يجرّه حرص حريص، ولا يرده كراهية كاره**))؛ وهذا كلام عظيم جداً في تمتين الإيمان والثقة بالله وحسن التوكل عليه تبارك وتعالى ، وسيأتي عند المصنف في الباب الذي يليه «بابٌ في التوكل على الله جل وعلا» وهو متمم لهذا المعنى . فرزق الله لا يجره حرص حريص ولا يرده كراهية كاره كما قال الله تعالى ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر:٢] ، ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ [الزمر:٣٨]

وكلمة «حسبي الله» هذه كلمة التجاء إلى الله سبحانه وتعالى تقال في باب جلب النعماء وفي باب دفع الضر والبلاء ، بينما كثير من الناس إنما يستعملها في باب دفع الضر والبلاء ، وهي تقال في باب جلب النعماء وفي باب دفع الضر والبلاء والمعنيان مجتمعان في هذه الآية ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ أي: حسبي في جلب النعماء وفي فع الضر والبلاء، ولهذا يشرع للمسلم أن يقول هذه الكلمة وهي كلمة التجاء إلى الله واستعانة به تبارك وتعالى وتفويضٌ للأمر كله إليه سبحانه وتعالى .

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من التمس رضا الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس ، ومن التمس رضا الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس» رواه ابن حبان في صحيحه .

****

ثم ختم رحمه الله تعالى هذه الترجمة بهذا الحديث؛ حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((**من التمس رضا الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس**)) وهذا من أعلى مقامات الدين وأرفعها أن يكون العبد بهذه الصفة في حياته لا يريد إلا رضا الله وأن يرضى الله عنه ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة:٧٢] ، فهمُّه أن ينال رضا الله ولا يبالي إذا كان الناس أو بعض الناس أو كثير

منهم أو قليل منهم سخطوا عليه ،لا يبالي بذلك لأن أهم شيء عنده هو أن يرضى عنه ربه ، أن يرضى عنه خالقه مالكه سبحانه وتعالى ، فسعيه في هذه الحياة التماس رضا الله .

((**من التمس رضا الله بسخط الناس**)) أي في أمور سخط الناس عليه فيها فلم يبالِ بذلك طالما أن هذا العمل في رضا الله وفي نيل مرضاته جل وعلا ، ما الذي يحدث؟ الجزاء من جنس العمل ، قال صلوات الله وسلامه عليه: ((**رضي الله عنه وأرضى عنه الناس**)) .

((**رضي الله عنه**)) ؛ والفوز برضا الله تبارك وتعالى من أكبر المطالب وأجل المقاصد التي يعمل أهل الإيمان على نيلها وتحصيلها ، ((رضي الله عنه)) أي فاز برضا الله سبحانه وتعالى عنه . ولهذا هذا المعنى فعلاً جدير أن يحضر في قلب الإنسان في مقامات الابتلاء ، كثير ما يبتلى الإنسان في هذه الحياة في أمور يُدعى إليها تسخط الله ،إما مثلاً من أب أو من أم أو من أخ أو من قريب أو من جار أو غير ذلك فدائماً يجعل نصب عينيه التماس رضا الله وأن يرضى عنه رب العالمين سبحانه وتعالى .

قال: ((**رضي الله عنه وأرضى عنه الناس**)) أي يعود ذامُّه من الناس حامداً ، وربما لا يكون في وقت الابتلاء والامتحان ولكن تظهر هذه في عواقب الأمور ، وأحيانا تظهر بعد موت الإنسان وتجد أناس كانوا مثلاً منهمكين في حياته في ذمه وإذا مات وذهبت عن النفوس الأغراض تحول إلى مادحٍ له . ولهذا ينبغي على الإنسان أن لا يحفُل قلبه برضا الناس في الأمور التي تسخط الله ، بل عليه أن يكون دائماً نصب عينيه نيل رضا الله سبحانه وتعالى ، قال: ((من التمس رضا الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس)) .

((**ومن التمس رضا الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس**)) وهذا أيضاً جزاءً وفاقا ، عندما أخذ يلتمس في أعماله رضا الناس في أمورٍ تسخط الله تبارك وتعالى وتغضبه كانت النتيجة وبالاً عليه ((سخط الله عليه وأسخط عليه الناس)) ، والصِلات التي بين الناس في غير الله وفي غير طاعة الله تعود دائماً إما في الدنيا أو في العقبى إلى عداوات ﴿ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف:٦٧] ، ﴿ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴾ [البقرة:١٦٦] كما مر معنا .

فهذا الحديث حديثٌ عظيم في هذا الباب عن أم المؤمنين عائشة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال رحمه الله تعالى :

فيه مسائل ؛ الأولى : تفسير آية آل عمران .

وهي قول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ ﴾ [آل عمران:١٧٥]

جاء سؤال : ما المراد بأولياء الشيطان ؟

أولياء الشيطان يعم كل ما يخوف به الشيطان عباده المؤمنين ؛ سواءً مثلا أعداء الدين أو غير ذلك من الأمور التي يحرك الشيطان في قلب العبد الخوف منها مما يجر العبد إلى مثلا ترك الواجب أو يجره إلى فعل المحرم ، فمثل هذا الخوف هو مما يزرعه الشيطان في قلب العبد المؤمن ومما يحركه الشيطان في قلب العبد المؤمن ، ولهذا جاء في الآية الكريمة ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن:٤٦] . إذا كان الخوف هو من الله لا يبالي بهذه الأشياء ، أما إذا ضعف هذا الخوف وأصبح الشيطان مثلا يحرك في قلب العبد الخوف من أوليائه فتجد الإنسان مثلا يتنازل عن واجبات من واجبات الدين ويتخلى عن أمور من أمور الدين وربما أيضا ارتكب أمورا محرمة ؛كل ذلك بما يحركه الشيطان في قلبه من خوف من أولياء الشيطان الذين يخوِّف بهم الناس ليوقعهم إما في محرم أو يوقعهم في ترك واجب أوجبه الله سبحانه وتعالى عليهم .

الثانية : تفسير آية براءة .

وهي قول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ [التوبة:١٨] إلى تمامها .

الثالثة : تفسير آية العنكبوت .

وهي قول الله عز وجل: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ ﴾ [العنكبوت:١٠]

الرابعة : أن اليقين يضعف ويقوى .

وهذا أخذه الشيخ رحمه الله تعالى من قوله ((إن من ضعف اليقين)) ، فهذا يدل على أن اليقين يضعف ويقوى ، ولضعفه أسباب ولقوة اليقين أيضا أسباب ، ولهذا يحتاج العبد أن يُبعد عن نفسه وعن قلبه أسباب ضعف اليقين بالله سبحانه وتعالى وأن يعمل على العناية بالأسباب التي تؤدي إلى قوة اليقين بالله جل وعلا ، فاليقين يقوى ويضعف ولقوته أسباب ولضعفه أسباب .

الخامسة : علامة ضعفه ، ومن ذلك هذه الثلاث .

الخامسة علامة ضعفه يعني ثمة علامات إذا وجدت دلت على ضعف اليقين في القلب . قال رحمه الله تعالى (ومن ذلك هذه الثلاث) أي : أن ترضي الناس بسخط الله هذه واحدة . والثانية: أن تحمدهم على رزق الله . والثالثة: أن تذمهم على ما لم يؤتك الله . والشيخ رحمه الله أيضا ينبه بهذا أن الذي ذُكر في الحديث من علامات ضعف

اليقين ليس على وجه الحصر وإنما ذُكر شيء من أهم علامات ضعف اليقين التي إن وُجدت في القلب أو وُجد بعضها في القلب دل ذلكم على ضعف يقين قلب من وجدت فيه أو وجد فيه بعضها .

السادسة : أن إخلاص الخوف لله من الفرائض .

أن إخلاص الخوف لله من الفرائض : أي مما افترضه الله سبحانه وتعالى على عباده ، وهذا هو مقصود الترجمة ، ودل على ذلك أي أن إخلاص الخوف لله تبارك وتعالى من الفرائض قوله ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٧٥] وقوله ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾ [المائدة:٤٤] وقوله : ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة:٤٠] والآيات في هذا المعنى كثيرة .

السابعة : ذكر ثواب من فعله .

الثامنة : ذكر عقاب من تركه .

ثواب من فعل الخوف وأتى بهذه الفريضة وعمل على تحقيقها في قلبه؛ ثوابه عند الله سبحانه وتعالى ، وأيضا عقاب من ترك ذلك ؛ وهذا واضح في الحديث الذي ساقه رحمه الله تعالى في آخر الترجمة ، وأن من فعل ذلك الذي هو التماس رضا الله تبارك وتعالى والبُعد عن جميع الأمور التي تسخط الله خوفاً من الله وخوفًا من عقابه ثواب ذلك رضا الله عنه سبحانه وتعالى ، وإذا رضي الله عنه توالت عليه الخيرات والمنن والبركات في الدنيا والآخرة، وأما إذا ترك ذلك والتمس رضا الناس بسخط الله ليس مبالٍ بالخوف من الله والأمور التي تسخط الله جل وعلا كانت العقوبة سخط الله تبارك وتعالى عليه ؛ فهذا فيه ثواب من فعله وعقاب من تركه .

وبهذا تنتهي هذه الترجمة بما فيها من مسائل .

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك .

اللهم صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .



شرح كتاب التوحيد

لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه اللّه

من الدرس ٣٣ إلى الدرس ٣٦

شرح الشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظهما اللّه تعالى

١٤٤٠/٠٤/٢٥ هـ

الدرس الثاث والثلاثون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد:

يقول الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب التميمي رحمه الله تعالى في كتابه «كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد » :

بابٌ قول الله تعالى { وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } [المائدة:٢٣] .

وقوله : { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ } الآية [الأنفال:٢] .

****

هذه الترجمة ((**بابٌ قول الله تعالى** ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة:٢٣] عقدها الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتابه التوحيد لبيان هذه العبودية العظيمة من عبوديات القلب؛ وهي التوكل على الله سبحانه وتعالى في الأمور كلها والأحوال جميعها ، وفي شؤون العبد الدينية والدنيوية .

والتوكل : هو اعتماد القلب على الله وتفويضه الأمور إليه سبحانه وتعالى إيماناً بكفايته جل وعلا وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وأن الأمور كلها بيده وطوع تدبيره وتسخيره سبحانه وتعالى .

والله عز وجل أمر عباده في كتابه بالتوكل عليه واتخاذه جل وعلا وحده وكيلا دون أن يُجعل معه شريك في ذلك كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ [المزمل:٩] ، ونهى جل وعلا عن اتخاذ وكيلٍ معه كما قال الله سبحانه وتعالى في أوائل سورة الإسراء: ﴿ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا(٢) ﴾ . ففي القرآن أمرٌ بالتوكل عليه وحده واتخاذه سبحانه وتعالى وحده وكيلا ، وفيه نهيٌ عن اتخاذ وكيل مع الله ، لأن الأمور كلها بيد الله عز وجل؛ فهو المعطي المانع ، الخافض الرافع ، القابض الباسط ، المعز المذل ، الذي بيده أزمة الأمور ومقاليد السماوات والأرض ، فما شاء جل وعلا كان ، وما لم يشأ لم يكن ؛ ولهذا من واجبات الإيمان العظيمة وأسسه المتينة التوكل على الله سبحانه وتعالى وحده في الأمور كلها .

والتوكل عمل القلب؛ أي هو عبودية قلبية ، لكن هذه العبودية تصحب المسلم في أموره كلها ، لأن المسلم لا غنى له عن التوكل على الله جل وعلا في كل أموره الدينية والدنيوية ، فالعبادة بأنواعها لا غنى للعبد في شيء منها عن التوكل على الله ، ومصالح العبد الدنيوية أيضاً لا غنى له في شيء منها عن التوكل على الله سبحانه وتعالى . ولهذا

فإن التوكل عبادةٌ تصحب المسلم مصاحبة دائمة في كل أموره ، إن أراد أن يصلي يحتاج إلى التوكل ، يصوم يحتاج إلى التوكل ، يتصدق يحتاج إلى التوكل ، يبر والديه يحتاج إلى التوكل ، يصل رحمه يحتاج إلى التوكل ، أيضا مصالح العبد الدنيوية في تجارته في سفراته في بيعه وشرائه وجميع أموره كل ذلكم يحتاج فيه إلى التوكل على الله سبحانه وتعالى ، لأنه لا يمكن أن يقع في هذا الكون شيء إلا بمشيئة الله سبحانه وتعالى .

وأساس التوكل الذي عليه يُبنى : معرفة القلب بأن الله عز وجل هو الملك الرب المدبر المتصرف في الأمور ، الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، الذي لا حول للعباد ولا قوة إلا به سبحانه وتعالى ، ثم يَتبع هذه المعرفة اعتماد القلب على الله وثقته بالله وتفويضه الأمور كلها إلى الله سبحانه وتعالى ، ثم يَتبع ذلك فعل السبب دون اعتمادٍ على السبب وإنما الاعتماد يكون على الله سبحانه وتعالى . فهذه أمور آخذ بعضها ببعض لابد منها في تحقيق التوكل على الله سبحانه وتعالى .

وفي الآية التي جعلها عنواناً لهذه الترجمة وهي قول الله عز وجل ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة:٢٣] جعل وجود التوكل على الله تبارك وتعالى شرطاً في الإيمان ودليلاً على صحة الإيمان ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا ﴾. وتقديم المعمول على العامل يفيد الحصر ، فقوله ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا ﴾أي : وحده دون أن يُجعل معه سبحانه وتعالى شريك ، ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا﴾ أي : لتكن قلوبكم معتمدة على الله فيها تفويض الأمور كلها إلى الله سبحانه وتعالى ، وحده جل وعلا ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ؛ فجعل ذلك شرطًا في الإيمان ودليلاً على صحته .

ولهذا فإن التوكل من الإيمان كما دلت على ذلكم الآية ، لأنه من أعمال الإيمان وهو عمْل قلبي من أعمال القلوب ، وكما أنه من أعمال الإيمان فإنه أساسٌ يقوم عليه الإيمان ويحتاجه العبد في جميع أمور الإيمان من عبادة وطاعة وذل وخضوع وغير ذلك لا غنى له عن هذا الأمر العظيم الذي هو التوكل على الله سبحانه وتعالى .

وفي القرآن الكريم يُجمع في آيات كثيرة بين العبادة والتوكل ، التقوى والتوكل ، الهداية والتوكل ، الإسلام والتوكل ، الإيمان والتوكل ، في آيات كثيرة جداً يُجمع بينها ؛ وهذا مما يبين مكانة التوكل في الدين وحاجة العبد إليه في إسلامه في إيمانه في عبادته في تقواه في هدايته في جميع أموره ، يقول الله سبحانه وتعالى في سورة الفاتحة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ(٥)﴾ ، ويقول جل وعلا: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾[هود:١٢٣] . العبادة غاية ، والاستعانة الذي هو طلب العون والتوكل على الله تبارك وتعالى وسيلة لتحقيق هذه الغاية ، ولا يمكن أن تتحقق هذه الغاية إلا بهذه الوسيلة، إذ لا يمكن أن يكون عبداً لله إلا إذا أعانه الله ، لا يمكن أن يكون متقياً لله سبحانه وتعالى إلا إذا

أعانه الله ، لا يمكن أن يكون مهتدياً على صراط الله تبارك وتعالى المستقيم إلا إذا أعانه الله تبارك وتعالى ، فهو يحتاج إلى التوكل في ذلك كله ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود:١٢٣] ، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥] ، العبادة غاية والاستعانة وسيلة لا تتحقق تلك الغاية إلا بها ؛ ولهذا شُرع عن سماع المؤذن يقول «حي على الصلاة حي على الفلاح» أن يقول من يجيب : (لا حول ولا قوة إلا بالله) وهي كلمة استعانة وتوكل ، ولهذا أيضاً شُرع للمسلم في كل مرة يخرج فيها من بيته كما في حديث أنس في السنن أن يقول : «بِسْمِ اللَّهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ» ، يشرع له أن يقول ذلك في كل مرة يخرج من بيته لمصلحة دينية أو مصلحة دنيوية ، فإذا قال ذلك قيل له: «هُدِيتَ، وَكُفِيتَ، وَوُقِيتَ» ، وقال الشيطان لآخر كيف لك السبيل بمن هُدي وكُفي ووُقي؟

وشُرع للمسلم كما في حديث أبي الدرداء يروى مرفوعاً وموقوفاً أن مَنْ قَالَ إِذَا أَصْبَحَ سَبْعَ مَرَّاتٍ وَإِذَا أَمْسَى سَبْعَ مَرَّاتٍ «حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ» كَفَاهُ اللَّهُ سبحانه وتعالى مَا أَهَمَّهُ من أمور دنياه وأخراه .

فهذا يبين لنا حاجة العبد الماسَّة إلى أن يكون متوكلاً على الله سبحانه وتعالى في جميع المصالح جميع الأمور الدينية والدنيوية يحتاج فيها أن يكون دوماً وأبداً متوكلاً على الله ، ولهذا قال العلماء التوكل عبادة قلبية مصاحبة للمسلم في كل أموره ، ليس في أموره الدينية حسب بل في أموره الدينية والدنيوية ، العبد يحتاج إلى هذا التوكل في كل الأمور .

وينبغي التنبه هنا إلى أن التوكل المشروع المأمور به في كتاب الله سبحانه وتعالى وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه هو اعتماد القلب على الله وثقته به مع بذل الأسباب التي أمر الله سبحانه وتعالى عباده ببذلها ، ولاحظنا في الآيات المتقدمة الجمع بين التوكل وبذل السبب ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود:١٢٣] ، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥] ، وفي الحديث قال عليه الصلاة والسلام : ((احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجَزْ)) وقال : ((اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ)) ، وفي حديث عمر بن الخطاب قال : ((لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ ؛ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا)) ، وهذا فيه أيضاً ذكر السبب وذِكر بذل الأسباب ، لأن الطيور لا تبقى في أوكارها وإنما تطير في الصباح الباكر تبحث عن الرزق ، قال ((لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ)) .

فالشاهد أن حقيقة التوكل تنتظم أمرين ألا وهما : اعتماد القلب على الله سبحانه وتعالى ، مع بذل الأسباب التي أمر الله عباده ببذلها ودعاهم إلى فعلها دون تعدٍ للشرع وحدوده في هذا الباب باب بذل الأسباب .

والناس في هذا المقام ثلاثة أقسام :

١. قسمٌ أتوا بالتوكل على الله سبحانه وتعالى ولكنهم عطلوا الأسباب التي أمر الله عز وجل عباده بفعلها ؛ فقالوا نحن المتوكلون على الله لكنهم لا يبذلون الأسباب التي أمر الله عباده ببذلها وفعلها ، وهؤلاء عملهم تواكل.

ولهذا يروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ذُكر له جماعة سافروا إلى الحج ولم يأخذوا زاداً وقالوا نحن المتوكلون على الله ، فقال رضي الله عنه : « أَنْتُمُ الْمُتَوَاكِلُونَ، إِنَّمَا الْمُتَوَكِّلُ الَّذِي يُلْقِي حَبَّهُ فِي الأَرْضِ وَيَتَوَكَّلُ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ» ، إذا كان عنده مثلا أرض معدَّة للزراعة؛ التوكل على الله سبحانه وتعالى بأن يُلقي البذر وأن يحرث وأن يزرع وأن يعمل ،ولا يعتمد على عمله ولا يعتمد على الأسباب التي فعلها وإنما يعتمد على الرب العظيم سبحانه وتعالى .

ولهذا فإن تعطيل الأسباب وعدم فعلها إخلالٌ بمقام التوكل الذي أمر الله سبحانه وتعالى عباده بتحقيقه ، سيد المتوكلين صلوات الله وسلامه عليه كان يبذل الأسباب في أموره كلها؛ جمع بين درعين صلوات الله وسلامه عليه ، ولبس فوق رأسه المغفر والبيضة والخوذة كل هذه الأشياء استعملها عليه الصلاة والسلام ، وانتقل في بيع وفي شراء وفي غير ذلك من الأعمال بذل صلوات الله وسلامه عليه الأسباب ودعا العباد صلى الله عليه وسلم إلى ذلك وأمرهم بذلك صلوات الله وسلامه عليه .

فالتوكل حقاً : أن يبذل العبد السبب دون أن يكون معتمدا على السبب بل يعتمد على الله سبحانه وتعالى ، ولهذا من كان عنده أرض زراعية وعطل الأسباب وقال "إن شاء الله أن تكون حديقة فيها من أنواع الفواكه والثمار والزهور وغير ذلك يكون أما أنا لن أضع فيها بذراً ولن أغرس فيها شجرة" ، أو آخر مثلا يقول عن نفسه أنه متوكل على الله ويقول "إن كتب الله لي في هذه الحياة أولاداً يكون لي أولاد لكن لن أتزوج إلى أن أموت" ، أو آخر مثلا يقول "إن كتبني الله سبحانه وتعالى أو إن شاء الله أن أكون من كبار العلماء المحققين الفقهاء العالمين يكون ذلك، لكن لن أقرأ كتابا ولن أحضر علما ولن أحفظ متناً ولن أتعلم ولن أجلس في شيء من مجالس العلم" يموت ولا يتعلم ، لأن النبي عليه الصلاة والسلام قال : ((إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ، وَإِنَّمَا الْحِلْمُ بِالتَّحَلُّمِ، مَنْ يَتَحَرَّى الْخَيْرَ يُعْطَهُ، وَمَنْ يَتَّقِ الشَّرَّ يُوقَهُ)) ، ولهذا قال الشاعر في ذم أمثال هؤلاء :

تمنيت أن تمسي فقيهًا مناظرا   بغير عناء والجنون فنون

وليس اكتساب المال دون مشقة   تلقيتها فالعلم كيف يكون

أي لابد فيه من بذل الأسباب . فالشريعة جاءت ببذل الأسباب وأيضا في الوقت نفسه أن لا يُعتمد على الأسباب وإنما يُعتمد على الرب العظيم الذي بيده جل وعلا أزمة الأمور ، في العلم يطلب الإنسان العلم ولكنه دوماً يسأل الله أن يرزقه العلم النافع وأن يزيده علما وأن ينفعه بما علَّمه ، وكان نبينا عليه الصلاة والسلام كل يوم إذا أصبح بعد أن يصلي الصبح يقول بعد أن يسلِّم : ((اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عِلْمًا نَافِعًا وَرِزْقًا طَيِّبًا وَعَمَلًا مُتَقَبَّلًا)) هذا قسم .

٢- القسم الآخر من الناس: من يبذلون الأسباب ويقومون بالأسباب ويفعلونها ولكن يعطلون التوكل ، يعتمدون على الأسباب ويعطلون التوكل على الله تبارك وتعالى ؛ وهؤلاء مآلهم إلى الخذلان والحرمان والعياذ بالله .

٣- والحق وسط بين هاتين الضلالتين وحسنةٌ بين هاتين السيئتين : سيئة من عطل الأسباب ، وسيئة من عطل التوكل ؛ وهو التوكل على الله والثقة به والاعتماد عليه مع بذل السباب التي أمر الله سبحانه وتعالى عباده ببذلها وفعلها .

الآية الثانية فيما ساقه المصنف رحمه الله تعالى قول الله عز وجل : ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا** ﴾ ؛ وهذه الآية جاءت في بيان أوصاف المؤمنين الكمَّل الذين جمعوا بين صلاح الظاهر والباطن ، جمعوا بين تحقيق الإسلام وتتميم الإيمان فوصفهم الله عز وجل بعبوديات قلبية عظيمة ثابتة في قلوبهم وهي في قوله : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ ؛ وجل القلب خوفاً وخشيةً من الله سبحانه وتعالى . زيادة الإيمان بسماع كلام الرحمن جل وعلا ، تأثر القلب بتلاوة القرآن وسماعه والانتفاع بذلك . والأمر الثالث : التوكل على الله ﴿ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ ؛ وهذا هو الشاهد من هذه الآية للترجمة؛ ذكر هذه العبودية في أوصاف عباد الله تبارك وتعالى المؤمنين .

وقوله : { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } [الأنفال:٦٤] .

****

وقول الله سبحانه وتعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ؛ حسبك الله : أي الله كافيك ، والحسب : الكافي . ومن أسماء الله تبارك وتعالى «الحسيب» وهو بمعنى الكافي ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ [النساء:٦] ، فالله جل وعلا هو الحسيب الكافي من توكل عليه وأحسن في الالتجاء إليه سبحانه وتعالى .

قال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ ﴾ أي : الله كافيك .

﴿ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي : وكافي من اتبعك من المؤمنين .

فمعنى الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ ﴾ أي الله كافيك وكافي من اتبعك من المؤمنين . وأخطأ خطئاً شديداً فادحاً من قال في معنى الآية "إن المراد أي حسبك الله وحسبك من اتبعك من المؤمنين" ؛ هذا خطأ فادح لأن الحسب هو الله جل وعلا ، هو وحده الذي يتوكل عليه ويلتجأ إليه وهو كافي عباده .

فقوله جل وعلا: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ هذه فيها دعوة للعباد إلى التوكل على الله والثقة به والالتجاء إليه وحده لأنه سبحانه وتعالى هو الكافي ، هو الوكيل ، هو الحسب جل وعلا الذي بيده أزمَّة الأمور .

وقوله : { وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ } [الطلاق:٣] .

****

﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾: أي يعتمد في أموره كلها على الله وتكون ثقته بالله وحده . والثقة توكل بل كما قال ابن القيم رحمه الله تعالى في مدارج السالكين وهو يتحدث عن عبوديات القلب ومنازل السائرين قال : «إن الثقة هي سويداء التوكل وخالصه ولبُّه» ، الثقة توكل ، فالثقة لا تكون إلا بالله تبارك وتعالى .

ومن الأخطاء الشائعة والكلمات الدارجة على الألسن : القول بالثقة بالنفس ، يقول مثلا "ليكن عندك ثقة بنفسك" ، وربما أيضا تُعقد دورات حول هذا المعنى ؛ دورات في الثقة بالنفس . الثقة توكل لا تكون بالنفس ولا تكون بالغير بل لا تكون إلا بالله . من الأخطاء الشائعة أن يقول : "عندي ثقة بك" هذه مثل قولك "عندي توكل عليك" ؛ لأن الثقة توكل . وكيف تكون الثقة بالنفس وأنت تقول في دعائك كما في دعاء الكرب العظيم «اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو، فَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ»!! نعم تبذل الأسباب وتقوم بها لكن لا تكن ثقتك لا بنفسك ولا بالأسباب التي بذلتها ، بل لتكن ثقتك بالله سبحانه وتعالى الذي بيده أزمة الأمور وبيده التوفيق وبيده السداد وبيده الهداية وبيده سبحانه وتعالى صلاح العباد ، الأمر بيده جل في علاه ؛ فهذا من الأخطاء الشائعة في هذا الباب .

إذاً التوكل : هو ثقة القلب واعتماده على الله سبحانه وتعالى وتفويضه الأمور كلها إليه جل وعلا .

قال : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ ؛ لاحظ أن الآخِر في الآية ثمرة للأول فيها ، وأن هذا الذي هو الحسب والكفاية إنما يكون بالالتجاء والتوكل على الله سبحانه وتعالى ، ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ ؛ من يفوض أموره كلها إلى الله سبحانه وتعالى يكون الله كافيه ما أهمه من أمور دينه ودنياه ، ولهذا مر معنا أنه يقال لمن خرج من بيته متوكلاً على الله قائلا «بِسْمِ اللَّهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ» يقال له : «هُدِيتَ، وَكُفِيتَ، وَوُقِيتَ» ولا يقربه شيطان ، ويقول الشيطان للآخر ممن يترصد له: «كَيْفَ لَكَ بِرَجُلٍ قَدْ هُدِيَ وَكُفِيَ وَوُقِيَ؟» .

قال: ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ أي : من يفوض أموره إلى الله معتمداً عليه ثقته بالله سبحانه وتعالى فإن الله حسبه أي كافيه ما أهمه من أمور دينه ودنياه .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : {حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ } [آل عمران:١٧٣] **قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار ، وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قالوا : { إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ}** [آل عمران:١٧٣] **رواه البخاري .**

****

وختم الإمام المجدد رحمه الله تعالى شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب هذه الترجمة بهذا الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ((«**حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ» قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار ، وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قالوا له** : ﴿ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ(١٧٣) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ ﴾)) .

هذه الكلمة «حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ» كلمة توكل ، وعرفنا فيما سبق أن الحسب: هو الكافي وهو الله وحده جل وعلا ، تقدَّم قوله ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾ وقوله ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ أي كافيه ، فالحسب هو الكافي . فقولك «حسبنا الله» أي الله كافينا ؛ فهي كلمة توكل والتجاء إلى الله سبحانه وتعالى ، متى تقال هذه الكلمة «حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ» ؟

الغالب عند كثير من الناس قولها في الشدائد والكربات ، وهذا مقام من المقامات التي تقال فيها هذه الكلمة ، لكنها دلت الدلائل في الكتاب والسنة على أن هذه الكلمة تقال في مقام جلب النعماء وفي مقام أيضاً دفع الضر والبلاء .

- مثلاً قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾[التوبة:٥٩] هذا مقام ماذا ؟ مقام جلب نعماء أو مقام دفع ضر وبلاء ؟ هذا مقام جلب النعماء .
- وإتيانها في مقام دفع الضر والبلاء كما في الآية التي ساق المصنف: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ .
- وجُمع بينهما أي الإتيان بـ(حسبنا الله) في آية واحدة في القرآن الكريم ، الإتيان بـ(حسبنا الله) في مقام جلب النعماء وفي مقام دفع الضر والبلاء جُمع بينهما في آية واحدة وهي قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ

مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ﴾[الزمر:٣٨] ؛ قل حسبي الله : أي في دفع الضراء وفي جلب النعماء ، لأن المقامين ذُكرا في الآية ﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ أي : قُلها في جلب النعماء وفي دفع الضر والبلاء . وممن أوضح هذا المعنى وقرره واستدل له شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى .

فهذه الكلمة العظيمة يؤتى بها في هذين المقامين: مقام جلب النعماء؛ في مصلحة من المصالح حاجة من الحاجات شأن من الشؤون التي أهمتك تقول «حسبنا الله» ، كلمة تقولها متوكلا على الله مستعيناً بالله مفوضاً أمرك إلى الله ، طالباً كفايته وعونه ومده وتوفيقه سبحانه وتعالى ، وقد مر معنا حديث أبي الدرداء أن من قال حين يصبح وحين يمسي سبع مرات «حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ» كفاه الله ما أهمه من أمور دينه ودنياه ، فهذا يتناول الأمرين معاً جلب النعماء ودفع الضر والبلاء . إذاً هي لا تقال في مقام دفع الضر فقط.

أيضا من الأخطاء التي تقع في هذا الباب : أن بعضهم قد يقولها في مقام دفع الضر أو الظلم الذي وقع عليه بأن يقول وهي لفظة شائعة يقول "حسبي الله على فلان" والفعل هذا يوصف بـ«التحسب» يقول فلان يتحسَّب على فلان "حسبي الله على فلان" أو "حسبي الله على من ظلمني" أو نحو ذلك هذا من الأخطاء الشائعة في الألفاظ ؛ لأن الحسب: الكافي ، وإذا فهمنا أن الحسب الكافي فكيف يستقيم الكلام بأن يقول قائل حسبي الله على فلان؟! لأنها هي كلمة استعانة تطلب من الله أن يعينك متوكلاً عليه في دفع ضرٍ أو جلب نفع فتقول «حسبي الله» أي الله كافيني . ولهذا بهذه الصياغة "حسبي الله على فلان أو على من ظلمني" هذا خطأ ولا يحقق المعنى المقصود الذي هو التوكل ، وإنما تقول في مثل هذا المقام : "حسبي الله ونعم الوكيل" ، وأنت بقولك في هذه الكلمة فوضت أمرك إلى الله واعتصمت به والتجأت إليه وطلبت خلاصك ونجاتك وصلاح أمرك منه وحده سبحانه وتعالى .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : ((**{حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار**))
ذلك أنه لما دعا قومه عليه السلام وأقام عليهم الحجة وأبان المحجة وأوضح السبيل وأفلس القوم في مناظرته ومحاجته ؛ فلجئوا إلى هذا الأمر وهو ما يزعمونه نصراً للآلهة بأن يأجِّجوا ناراً عظيمة وأن يلقوا فيها إبراهيم انتصاراً للآلهة ، وفعلاً جمعوا حطبا كثيرا وأججوا ناراً عظيمة ولم يتمكنوا من إلقائه فيها إلا بصناعة آلة قذفوه فيها من بُعد ، لأنه ما يستطيع أحد منهم أن يقترب من النار ، فألقوه في النار فقال عليه صلوات الله وسلامه مفوضاً أمره إلى الله متوكلاً عليه وحده طالباً كفايته جل وعلا «حسبي الله ونعم الوكيل» أي الله كافيني وأنا متوكل عليه ،

وهو سبحانه وتعالى كافي من توكل عليه والتجأ إليه . فقال عليه صلوات الله وسلامه «حسبي الله ونعم الوكيل» قال الله سبحانه وتعالى للنار : ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء:٦٩] ؛ تحولت النار المحرقة إلى برد وسلام على خليل الرحمن عليه صلوات الله وسلامه وكفاه الله سبحانه وتعالى شر هؤلاء وكيدهم ومكرهم .

وقالها نبينا عليه الصلاة والسلام والصحابة الكرام تأسياً به حين قالوا لهم : ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ ؛ وهذا بعد غزوة أحد لما رجع المشركون وأخذ يجمع أبو سفيان العدة ليعود إلى المسلمين زاعماً بأنه سيقضي عليهم ويستأصل الإسلام وأهله ، فمر بأبي سفيان ركب من عبد قيس فقال إلى أين ؟ قالوا إلى المدينة ، قال هل أنتم مبلِّغون محمدا عني رسالة ؟ قالوا نعم ، قال: "قولوا له :إن الناس قد جمعوا لكم" وهذا إرهابًا وتخويفًا للمؤمنين ، فبلَّغ الرسالة ، فكان من النبي عليه الصلاة والسلام والمؤمنين معه أن لجئوا إلى الله وفوضوا أمورهم إليه سبحانه . قال الله عز وجل في بيان ذلك: ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا ﴾ أي بالله ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ أي فوضنا أمورنا إلى الله وطلبنا منه وحده جل في علاه الكفاية والوقاية والنصر والتأييد ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ .

﴿ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ ﴾ وهذا مما يوضح ما سبق وهو قول الله عز وجل :﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ أي فهو جل وعلا كافيه .

انتهت الترجمة بهذا الحديث ، مما ينبَّه عليه فيما يتعلق بالتوكل وقد عرفنا أنه عبودية قلبية وأنه لا يكون إلا على الله سبحانه وتعالى ؛ فلذا فإن من الخطاء أن يقول القائل : "توكلت على الله ثم على فلان" ؛ التوكل عبودية قلبية لا تكون إلا على الله ، ولهذا لا يصلح توكل على غير الله سبحانه وتعالى حتى ولو كان معطوفاً على التوكل على الله بـ«ثم» ، فليست كلمة (توكلت على الله ثم على فلان) مثل (ما شاء الله وشئت) لأن "توكلت على الله ثم على فلان" التوكل عبودية وعمل من أعمال القلوب لا يكون إلا على الله ، مع أن من يطلقها لا يريد بإطلاقها الاعتماد ، وإنما يقصد بقوله (ثم على فلان) أي وكلته وفوضته أن ينوب عني في هذا الأمر، لكن التعبير بـ(توكلت على فلان) لا يستقيم ؛ لأن التوكل عبودية قلبية لا تكون إلا على الله سبحانه وتعالى وحده.

- والتوكل على غير الله إن كان فيما لا يقدر عليه هذا الغير ؛كأن يتوكل على ميت أو على مقبور أو على غير ذلك فيما لا يقدر عليه ذلك الغير أو فيما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه وتعالى ، فهذا من الشرك الأكبر الناقل من ملة الإسلام .
- لكن التوكل على الغير فيما يقدر عليه؛كسلطان في سلطانه أو تاجر في أمواله مثلا أو صانع في صنعته أو نحو ذلك، يتوكل عليه في أمر يقدر عليه بمعنى أن يحصل عنده شيء من التفات القلب؛ فهذا من الشرك

الأصغر. إذا كان توكلاً على الغير فيما يقدر عليه من مال أو تجارة أو مصلحة من المصالح إذا كان قلبه ملتفتاً إليه فهذا شرك أصغر ، أما إذا كان اعتمادٌ على غير الله سبحانه وتعالى فيما لا يقدر عليه إلا الله عز وجل فهذا من الشرك الأكبر الناقل من ملة الإسلام .

- وأما الوكالة التي هي توكيل الغير لينوب عن النفس ويقوم مقام الإنسان في مصالحه وأعماله ومهماته فهذه لا علاقة لها في هذا الباب ولها مجالها المعروف وضوابطها المعروفة في الفقه الإسلامي ، ولها أيضا باب أو كتاب خاص في الفقه الإسلامي . فالوكالة التي هي توكيل الغير هذا الأمر لا شيء فيه في مصالح الإنسان وشئونه وأموره ، أما التوكل الذي هو اعتماد القلب فهذا لا يكون إلا على الله سبحانه وتعالى ، ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة:٢٣] أي : عليه سبحانه وتعالى وحده دون سواه .

سائل يسأل عن الاستعانة (استعنت بالله ثم بك) ؛ مثل التوكل ؟

الاستعانة: هي طلب العون ، وطلب العون من الغير فيما يقدر عليه الغير هذا لا بأس به ، وفي الحديث قال عليه الصلاة والسلام : ((وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ)) ، فطلب العون من الغير مثلا "أعنِّي على حمل هذا المتاع" أو "أعني على الصعود إلى هذا المكان" أو نحو ذلك فيما يقدر عليه أمر لا حرج فيه .

والاستعانة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه وتعالى هذا من الشرك الأكبر الناقل من الملة ، أما طلب العون من الحي الحاضر القادر في الأمور التي يقدر عليها هذا أمر لا حرج فيه .

قال رحمه الله :

فيه مسائل ؛ الأولى : أن التوكل من الفرائض .

ثم ذكر الإمام رحمه الله تعالى المسائل المستفادة من هذه الترجمة قال : «الأولى: أن التوكل من الفرائض» أي من فرائض الدين وواجباته التي افترضها الله سبحانه وتعالى على عباده ، وهذا مأخوذ من الآية الأولى في هذه الترجمة وهي قوله ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا ﴾ [المائدة:٢٣] ؛ أمر الله سبحانه وتعالى عباده بالتوكل فهو فريضة افترضها الله سبحانه وتعالى على عباده .

الثانية : أنه من شروط الإيمان .

أنه من شروط الإيمان كما يدل على ذلكم الآية الأولى لأن الله قال : ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة:٢٣] ؛ فجعل التوكل عليه وحده سبحانه وتعالى شرط في الإيمان .

الثالثة : تفسير آية الأنفال .

تفسير آية الأنفال في أول الأنفال وهي قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) ﴾ ، وقد مر معنا شيء من تفسيرها .

الرابعة : تفسير الآية في آخرها .

تفسير الآية في آخرها : أي في آخر سورة الأنفال وهي قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، وقد مر معنا شيء من بيان تفسيرها ومعناها .

الخامسة : تفسير آية الطلاق .

وهي قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ ، وأيضاً مر شيء من الكلام على معنى هذه الآية .

السادسة : عظم شأن هذه الكلمة .

السابعة : أنها قول إبراهيم عليه الصلاة والسلام ومحمد صلى الله عليه وسلم في الشدائد .

«**عظم شأن هذه الكلمة**» أي كلمة حسبنا الله ونعم الوكيل ؛ فهي كلمة عظيمة وجاء ذكرها في القرآن الكريم في مواطن ، وأن إبراهيم الخليل عليه السلام قالها ، وقالها النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه ، وقالها المؤمنون ، ودعا الله عباده إلى قولها ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ دعا عباه إلى قولها في جلب النعماء ودفع الضر والبلاء ، فهي كلمة عظيمة .

«**وأنها قول إبراهيم عليه الصلاة والسلام ومحمد صلى الله عليه وسلم في الشدائد**» أي أن إبراهيم قالها في تلك الشدة عندما ألقي في النار ، وقالها محمد عليه الصلاة والسلام حينما قال الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل .

والله تعالى أعلم . وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

الدرس الرابع والثلاثون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد:

يقول الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب التميمي في كتابه «كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد»

باب قول الله تعالى {أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ} [الأعراف:٩٩] .

وقوله : { قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ} [الحجر:٥٦] .

****

فهذه الترجمة ((**بابٌ قول الله تعالى** ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ وقوله : ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴾)) عقدها المصنف رحمه الله تعالى لبيان عملين عظيمين من أعمال القلوب ، ولا تزال الأبواب عنده رحمه الله متتالية فيما يتعلق بأعمال القلوب ؛ مر معنا أولاً المحبة ثم الخوف ثم التوكل ثم هذه الترجمة في بيان عبوديتين عظيمتين من عبوديات القلب وهما الرجاء والخوف ؛ رجاء رحمة الله تبارك وتعالى ، وخوف عقابه جل وعلا .

وأتى بهما في باب واحد في هذه الترجمة فذكر أولاً قول الله عز وجل: ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾[الأعراف:٩٩] ثم ذكر قول الله عز وجل: ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴾ [الحجر:٥٦] ؛ فالآية الأولى في الخوف والآية الثانية في الرجاء ، والترجمة معقودة لبيان هاتين العبوديتين العظيمتين ، بل إنهما مع المحبة –وقد تقدمت في باب مستقل عند المصنف رحمه الله– تُعد أركاناً للتعبد ، لأن كل عبادةٍ يتقرب المسلم إلى الله تبارك وتعالى لابد أن تكون قائمةً على أركان ثلاثة وهي : المحبة وقد تقدمت عند المصنف رحمه الله تعالى في ترجمة مستقلة ، والرجاء والخوف وهما ما عقد له المصنف رحمه الله تعالى هذه الترجمة . فالمحبة والرجاء والخوف أركانٌ ثلاثة للتعبد ؛ بمعنى أن كل عبادة تتقرب إلى الله سبحانه وتعالى بها لابد أن تكون قائمة على هذه الأركان ؛ تصلي حباً لله ورجاء لثوابه وخوفا من عقابه ، وتصوم حبًا لله ورجاءً لثوابه وخوفاً من عقابه ، وهكذا في جميع الطاعات .

وقد جمع الله عز وجل هذه الأركان الثلاثة في قوله في سورة الإسراء: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ﴾ [الإسراء:٥٧] ، فذكر جل وعلا في هذه الآية الأركان الثلاثة للتعبد .

وجُمعت هذه الأركان في فاتحة الكتاب فإن قوله سبحانه ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ فيها المحبة ، وقوله ﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ فيها الرجاء ﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ ﴾ ، وقوله ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ أي يوم الجزاء والحساب ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٨) يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ [الإنفطار:١٧-١٩] فيها الخوف ؛ لأن القارئ إذا قرأ متدبراً ومتأملاً في الآية الأولى يتحرك في قلبه الحب، لأن الحمد هو الثناء مع الحب ، وإذا قرأ ﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ تحرك في قلبه الرجاء؛ رجاء رحمة الله سبحانه وتعالى ، وإذا قرأ ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ تحرك في قلبه الخوف ؛ وبهذه الثلاث : المحبة في قوله ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ والرجاء في قوله ﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ والخوف في قوله ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ بهذه الثلاث ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ ، فالعبودية ذكرت في سورة الفاتحة بعد أن أُرسيت أركانها ، وهذا كله يبين لنا المكانة العظيمة والمنزلة العليَّة لهذه العبوديات وهي من أعمال القلوب .

والعبد بحاجة ماسة إلى أن يكون دائماً وأبدًا جامعا بين الرجاء والخوف ؛ يحب الله سبحانه وتعالى وفي الوقت نفسه يرجو رحمة الله ويخاف عذاب الله ، ينبغي أن يكون العبد دائمًا جامعًا بين الرجاء والخوف ، وتكون فيه هاتان الخصلتان بتوازن واعتدال ،لأنه إن أعمل الخوف وأهمل الرجاء قنط من رحمة الله ، وإذا أعمل الرجاء وأهمل الخوف أمن من مكر الله سبحانه وتعالى ، وكل من القنوط من رحمة الله والأمن من مكر الله سبحانه وتعالى كل منهما من كبائر الذنوب وعظائم الآثام كما سيأتي معنا فيما ساقه المصنف رحمه الله تعالى من أدلة .

ولهذا ينبغي أن يكون العبد دائمًا وأبداً راجيًا خائفا ، جامعاً بين الرغبة والرهبة ، والدين كله قائم على الرغبة والرهبة ، ولهذا تجد آيات القرآن الكريم يُذكر فيها الترغيب والترهيب ، يذكر فيه آيات الخوف وآيات الرجاء ، ومثل ذلكم أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام ، ومن أهل العلم من أفرد ذلك بالتصنيف في الترغيب والترهيب ؛ لكثرة ما جاء من ذلكم عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، فتأتي أحاديث مرغبة كثيرة وأيضاً أحاديث مرهبة .

وينبغي على العبد أن تكون هذه حاله دائما وأبدا راجياً رحمة الله تبارك وتعالى خائفا من عذابه ؛ إن فرَّط في إحدى هاتين العبوديتين اختلت العبودية ؛ لأنه إن فرَّط في الخوف أَمِن من مكر الله سبحانه وتعالى ، وإن فرَّط في الرجاء قنط من رحمة الله ، وينبغي على العبد دائما أن يكون جامعاً بين الرجاء والخوف ، ولهذا فإن هذه الترجمة

عظيمة الشأن في باب التوحيد وكتاب التوحيد ، وأهميتها بالغة فيما يتعلق بتحقيق توحيد الله عز وجل لأن التوحيد إنما يتحقق بتحقق هذه العبوديات ، وكلما عظم إيمان العبد بالله سبحانه وتعالى وعظمت معرفته بأسمائه وصفاته وأفعاله ، وأيضا المعرفة بنعمه وعطاياه وآلائه ، والمعرفة بعقوباته التي أعدها لأهل الإعراض عن طريقه ؛ إذا عظمت معرفة العبد بذلك وُجد عنه الرجاء والخوف واجتمعت فيه الرغبة والرهبة . فإذاً هذه الترجمة عظيمة الشأن فيما يتعلق بالتوحيد وتحقيقه .

قال رحمه الله تعالى ((**بابٌ قول الله تعالى ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾**)) والسياق الذي ورد فيه هذا الموضع سياقٌ يتعلق بأهل القرى الذين أعرضوا عن دين الله وعن دعوة أنبياء الله تبارك وتعالى واغتروا بما آتاهم الله سبحانه وتعالى من متَع دنيوية وصحةٍ وعافية ونحو ذلك فازدادوا إعراضا ، يقول الله سبحانه وتعالى في حق هؤلاء وشأنهم: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٧) أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (٩٩)﴾ أي أن الإنسان إذا كان ممتعاً بالصحة والمال والتجارة ونحو ذلك من متع الدنيا يجب عليه أن يتنبه أن هذا العطاء وهذا المن من الله سبحانه وتعالى ليس دليلاً على رضا الله عنه ولا دليلا على محبته له ، وإنما أعطاه ما أعطاه ابتلاءً وامتحاناً ، مثلما أنه يبتلي بعض العباد بالفقر فإنه يبتلي بعض العباد بالغنى والصحة والمال ونحو ذلك ، فإعطاؤه جل وعلا لبعض عباده صحةً ومالاً وتجارة وثراء وغير ذلك ليس ذلك دليل الإكرام والإنعام ، وكذلك منعه لبعض عباده من صحة أو عافية أو غنى أو نحو ذلك ليس دليلًا على أنه سبحانه وتعالى مثلاً لا يحبه أو يعاقبه بمثل ذلك ليس هذا هو المراد ، وإنما كل ذلك ابتلاء وامتحان ؛ قال الله تعالى ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾[الفجر:١٥-١٦] ماذا قال الله ؟﴿كَلَّا﴾ [الفجر:١٧] أي ليس الأمر كما يظن هؤلاء ، ليس الأمر كما يعتقد هؤلاء ، فالذي يكرمه الله ويمده بالمال والعطاء والثراء وغير ذلك ليس ذلك دليلًا على الإكرام ، وكذلك من يمنعه ليس ذلك دليلا على البغض وقصد الإهانة قال ﴿رَبِّي أَهَانَنِ﴾ ليس الغرض ذلك ، قال ﴿كَلَّا﴾ أي ليس الأمر كما يظنون؛ وإنما يعطي سبحانه وتعالى من شاء من عباده من المال والصحة ابتلاءً وامتحانا ، وأيضا يضيّق على من شاء في ماله أو في صحته أو غير ذلك ابتلاء وامتحانا ، كلٌ منهما مبتلى ممتحن .

فإذاً هؤلاء – أهل القرى– اغتروا بالنعمة التي أعطاهم الله سبحانه وتعالى إياها وأمدهم بها فتمادوا في طغيانهم تمادوا في إعراضهم فأمنوا من مكر ربهم سبحانه وتعالى ؛ ولهذا قال ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ [الأعراف:٩٩] .

والأمن من مكر الله يكون في العبد عندما يكون في صحة وفي عافية وفي مال ولا يزال متمادياً في العصيان متماديا في الطغيان متماديا في الإعراض ، وربما أيضا قالت له نفسه أو قال له الشيطان هذه الصحة التي أوتيتها وهذا المال الذي أعطيته وهذا الثراء الذي مُنحته هذا دليل على محبة الله لك لا يزال يعطيك؛ فيتمادى والعياذ بالله في طغيانه آمناً من مكر الله سبحانه وتعالى .

﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ ؛ لا يكون بهذه الصفة آمناً من مكر الله عز وجل إلا من كان من أهل الخسران والحرمان في الدنيا والآخرة ، ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ وهذا يفيد أن الأمن مكر الله خسران وحرمان من خيرات الدنيا والآخرة ، ومفهوم المخالفة لذلك: أن ضد ذلك سبيل خير العبد وفلاحه ورفعته ، عندما يكون يقظا متنبها لا تغره الدنيا ولا تفتنه مُتعها بل لا يزال محافظاً على طاعة ربه مقبلاً على أوامره سبحانه وتعالى .

قال ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ ومن المكر الذي دلت عليه الآية مكر الله بالعبد: أن يمده بالنعم وهو لا يزال متماديا في العصيان استدراجا له سبحانه وتعالى. ثم ماذا ؟ تنتهي دنياه وتنقضي حياته وهو مغترٌّ بهذه المتع والدنيا التي فُتحت عليه، فيموت والعياذ بالله على الصدود والإعراض عن دين الله تبارك وتعالى فيكون من الخاسرين ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ .

الآية الثانية : قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴾[الحجر:٥٦] ، والقائل هو خليل الرحمن فيما ذكره الله سبحانه وتعالى عنه عندما جاءته الملائكة تبشره على كبَر سنه بغلام عليم ﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (٥٤) قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ (٥٥) قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (٥٦) ﴾ ، مثل ذلك قول يعقوب عليه السلام لبنيه: ﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [يوسف:٨٧] ؛ حذَّرهم من اليأس من روح الله تبارك وتعالى.

وإبراهيم الخليل عليه صلوات الله سلامه يقول في هذا المقام العظيم كما ذكر الله عنه ﴿ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴾ ، لا يكون الإنسان بهذه الصفة قانطاً من رحمة الله إلا إذا ضل طريق الصواب وأخطأ الجادة السوية وانحرف عنها . ﴿ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴾ : إلا من ضل عن صراط الله المستقيم ؛ بمعنى أن من كان على الصراط لا يقنط من رحمة الله تبارك وتعالى .

لكن ينبغي التنبه هنا أن عدم القنوط من رحمة الله ينبغي أن يكون مصاحباً له طاعةً لله وسيراً على صراطه المستقيم، فيجمع بين الطاعة والذل والخضوع لله سبحانه وتعالى ، وفي الوقت نفسه مع اجتماع هذا الخير فيه يكون راجيا رحمة الله سبحانه وتعالى خائفا أيضا من عذاب الله عز وجل ، أما من سواه فإنه يشتط به الإنحراف إلى إحدى ناحيتين : إما قنوط من الرحمة أو أمن من المكر مكر الله تبارك وتعالى ، وكلٌ من هذين المسلكين من عظائم الذنوب وكبائر الآثام كما سيأتي في الحديث الذي ساقه المصنف رحمه الله تعالى .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن الكبائر فقال : « **الشرك بالله ، واليأس من روح الله ، والأمن من مكر الله** » .

****

ثم ساق رحمه الله تعالى هذا الحديث حديث عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سُئل عن الكبائر أي سأله رجل عن الكبائر ما هي ؟ فعدَّد صلوات الله وسلامه عليه هذه الكبائر الثلاث : « الشرك بالله ، واليأس من روح الله ، والأمن من مكر الله » ، وعدُّه لها ليس على سبيل الحصر ، فالكبائر ليست ثلاثاً ولا سبعاً بل كما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : إلى السبعين أقرب أو إلى السبعمائة أقرب ، الكبائر التي ذُكرت في كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم كثيرة ، فهذا ليس من باب الحصر لكن تنبيهاً لهذا السائل إلى هذه الكبائر الثلاث العظيمة . ولعله عليه الصلاة والسلام في كل مرة يجيب فيها عن الكبائر يجيب السائل بما يراه متناسب مع المقام بما يراه متناسباً مع المقام أو الحال التي سئل فيها صلوات الله وسلامه عليه .

سأله رجل عن الكبائر فقال : ((**الشرك بالله**)) وهذا أكبر الكبائر وأعظمها على الإطلاق فهو أظلم الظلم وأكبر الجرم ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣] ، والشرك بالله: تسوية غير الله بالله في شيء من حقوقه سبحانه وتعالى كأن يدعو غير الله أو يستغيث بغير الله أو يذبح لغير الله أو يطلب المدد والعون من غير الله أو نحو ذلكم من العبادات ، فكل صرفٍ للعبادة لغير الله شركٌ بالله ناقل من الملة ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأنعام:١٦٢-١٦٣] .

قال : ((**واليأس من روح الله**)) عدَّه صلوات الله وسلامه عليه من كبائر الذنوب ، واليأس من روح الله تبارك وتعالى : هو أن يبلغ الحال بقلب المسلم أو قلب الإنسان إلى أن ييأس يصاب بإياس من الرحمة ، وهذا الإياس من رحمة الله تبارك وتعالى وجوده في القلب له أسباب؛ منها أن تتراكم على العبد الذنوب وتتكاثر الآثام فيبلغ به الحال من الظن مثل هذه الجرائم بهذا الحجم وبهذا القدر وبهذه الكثرة لا مجال لغفرانها فيكون يائسا من رحمة الله تبارك وتعالى ، أو يكون على غير معرفة بالله وأسمائه ورحمته وعفوه وغفرانه وتوبته وقبوله لتوبة التائبين مهما بلغت

الذنوب ومهما كبرت الآثام فييأس من رحمة الله تبارك وتعالى . فاليأس من رحمة الله أو من روح الله جل وعلا له أسباب عديدة وأعظم ما يكون في ذلك تمادي العبد في العصيان مع الجهل بالله سبحانه وتعالى وأسمائه وصفاته ورحمته جل وعلا التي وسعت كل شيء .

قال : ((**والأمن من مكر الله تبارك وتعالى**)) والأمن من مكر الله يكون بتمادي الإنسان في المعاصي وهو في الوقت نفسه آمن من حلول عقوبة الله تبارك وتعالى به ؛ فيتمادى في عصيانه ولا تزال نعم الله عليه تتوالى وهو لا يزال أيضا في صدوده وإعراضه وإقباله على العصيان آمناً من مكر الله جل وعلا .

وكلٌ من اليأس من روح الله والأمن من مكر الله من كبائر الذنوب كما هو واضح في هذا الحديث عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : « **أكبر الكبائر : الإشراك بالله ، والأمن من مكر الله ، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله** » **رواه عبد الرزاق** .

****

ثم أورد عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : « **أكبر الكبائر : الإشراك بالله ، والأمن من مكر الله ، والقنوط من رحمة الله ، واليأس من روح الله** » فجمع رضي الله عنه الأمور الثلاثة التي اجتمعت في الحديث المتقدم حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

وذكر هنا رضي الله عنه القنوط من رحمة الله واليأس من روح الله ؛ وقد تقدم معنا في آيتين في قول إبراهيم عليه السلام ﴿ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴾[الحجر:٥٦] وقول يعقوب ﴿ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [يوسف:٨٧] ؛فالقنوط من رحمة الله هو اليأس من روح الله لكنه أشدُّه ، القنوط أشده وأعظمه ، لأن اليأس من رحمة الله تبارك وتعالى درجات ، أشدُّ ما يكون من ذلك هذه الدرجة وهي القنوط من رحمة الله تبارك وتعالى .

قال رحمه الله تعالى :

فيه مسائل ؛ الأولى : تفسير آية الأعراف .

تفسير آية الأعراف وهي قول الله عز وجل: ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [الأعراف:٩٩]

الثانية : تفسير آية الحجر .

تفسير آية الحجر وهي قول الله تبارك وتعالى : ﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴾ [الحجر:٥٦]

الثالثة : شدة الوعيد فيمن أمِن مكر الله .

والوعيد تقدم ما يدل على شدته في الآية الأولى التي ساقها ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ وفي حديث ابن عباس وأثر ابن مسعود .

الرابعة : شدة الوعيد في القنوط .

وشدة الوعيد في القنوط دل عليه الآية الثانية ﴿ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴾ [الحجر:٥٦] وأيضاً حديث ابن عباس وأثر ابن مسعود رضي الله عنهما .

نقف على كلام الإمام ابن سعدي رحمه الله :

قال رحمه الله تعالى : [**مقصود الترجمة أنه يجب على العبد أن يكون خائفاً من الله راجياً له راغباً راهبا ، إن نظر إلى ذنوبه وعدل الله وشدة عقابه خشي ربه وخافه ، وإن نظر إلى فضله العام والخاص وعفوه الشامل رجا وطمِع ، إن وُفق لطاعة رجا من ربه تمام النعمة بقبولها وخاف من ردِّها بتقصيره في حقها ، وإن ابتلي بمعصية رجا من ربه قبول توبته ومحوها ، وخشِي بسبب ضعف التوبة والالتفات للذنب أن يعاقب عليها .**

وعند النعم واليسار يرجو الله دوامها والزيادة منها والتوفيق لشكرها ، ويخشى بإخلاله بالشكر من سلبها ، وعند المكاره والمصائب يرجو الله دفعها وينتظر الفرج بحلِّها ، ويرجو أيضاً أن يثيبه الله عليها حين يقوم بوظيفة الصبر ، ويخشى من اجتماع المصيبتين : فوات الأجر المحبوب ، وحصول الأمر المكروه إذا لم يوفَّق للقيام بالصبر الواجب ، فالمؤمن الموحِّد في كل أحوله ملازمٌ للخوف والرجاء ؛ وهذا هو الواجب وهو النافع وبه تحصل السعادة .

ويُخشى على العبد من خلقين رذيلين : أحدهما : أن يستولي عليه الخوف حتى يقنط من رحمة الله وروحه. الثاني : أن يتجارى به الرجاء حتى يأمن مكر الله وعقوبته . فمتى بلغت به الحال إلى هذا فقد ضيَّع واجب الخوف والرجاء اللذين هما من أكبر أصول التوحيد وواجبات الإيمان] .

هذا كلام عظيم جداً جدير حقيقةً بالتأمل حتى ندرك من خلاله المجالات التي نحتاج فيها إلى اجتماع الرجاء والخوف ، فالرجاء والخوف مصاحب للمسلم عند فعله للطاعة ؛ إذا قام بعبادة من العبادات أياً كانت ينبغي أن يجتمع فيه الرجاء والخوف ، يعبد الله وهو يرجو رحمة الله وفي الوقت نفسه يخاف عذابه سبحانه وتعالى ، إذا قُدِّر

أنه وقع في ذنب من الذنوب ينبغي أيضا أن يجتمع فيه الرجاء والخوف ، إذا أذنب لا يقنط بل عليه أن يتوب ويرجو أن يقبل الله سبحانه وتعالى توبته ، وفي الوقت نفسه عليه أن يخاف من عقوبة الذنب وسخط الله تبارك وتعالى عليه في فعله للذنوب . أيضا إذا أصيب بمصيبة وابتلي بنوع من البلاء ينبغي أيضاً أن يجمع بين الرجاء والخوف؛ بحيث يرجو أن الله سبحانه وتعالى يكشف ضره ويزيل همه وغمه ويكشف الضر الذي أصابه ، يرجو ذلك من الله حال مصابه، وأيضاً يكون في الوقت نفسه يخشى على نفسه أن تجتمع عليه مصيبة الذنب وأيضاً مصيبة عدم الرضا مثلاً بقدر الله وقضائه أو نحو ذلك . فهذا الرجاء والخوف يحتاجه المسلم في أحوال كثيرة جدا : في الطاعة يحتاجه ، في وقوعه في الذنب يحتاج إليه ، أيضا في المصيبة والابتلاء الذي يبتلى به العبد يحتاج إليه ؛ فهما عبوديتان عظيمتان يحتاج إليهما العبد في مقامات عظيمة .

ثم ينبِّه رحمه الله تعالى أن هذا المقام يُخشى على العبد فيه من خُلقين رذيلين ؛ أحدهما : أن يستولي عليه الخوف ، بمعنى أن يسيطر الخوف على قلبه حتى يصل إلى درجة القنوط من رحمة الله ، أو -وهو الخلق الثاني- أن يتمادى به الرجاء ويتجارى به الرجاء حتى يأمن من مكر الله . والسلامة من هذين الخلقين الرذيلين: الجمع بين الرجاء والخوف بتوازن وأن يكون مع المسلم في مقاماته كلها وأحوالها جميعها راجياً رحمة الله تبارك وتعالى خائفاً من عذابه.

قال رحمه الله : [**وللقنوط من رحمة الله واليأس من روحه سببان محذوران :**

أحدهما : أن يسرف العبد على نفسه ويتجرأ على المحارم فيصِرُّ عليها ويصمِّم على الإقامة على المعصية، ويقطع طمعه من رحمة الله لأجل أنه مقيمٌ على الأسباب التي تمنع الرحمة ، فلا يزال كذلك حتى يصير له هذا وصفاً وخُلقاً لازما ، وهذا غاية ما يريده الشيطان من العبد ، ومتى وصل إلى هذا الحد لم يُرجَ له خير إلا بتوبة نصوح وإقلاع قوي .

الثاني : أن يقوى خوف العبد بما جنت يداه من الجرائم ويضعف علمه بما لله من واسع الرحمة والمغفرة ، ويظن بجهله أن الله لا يغفر له ولا يرحمه ولو تاب وأناب ، وتضعف إرادته فييأس من الرحمة ، وهذا من المحاذير الضارة الناشئة من ضعف علم العبد بربه وماله من الحقوق ، ومِن ضعف النفس وعجزها ومهانتها. فلو عرف هذا ربه ولم يخلد إلى الكسل ، لعلم أن أدنى سعيٍ يوصله إلى ربه وإلى رحمته وجوده وكرمه] .

هنا يبين رحمه الله تعالى أن القنوط من رحمة الله واليأس من روحه له سببان محذوران أي يجب على العبد أن يكون في أشد الحذر منهما ، وهما يتلخصان في : جهل العبد بربه وإسرافه في ذنبه إسرافه في الذنوب ؛ جهل العبد بربه سبحانه وتعالى : أنه غفور رحيم لا يتعاظمه ذنب أن يغفره سبحانه وتعالى ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣].

يحدثني أحد الأفاضل أنه دعا شخصاً للإسلام فعدد له محاسن الدين الإسلامي فاقتنع الرجل تماماً وأدرك جمال الدين وحسنه وبهاءه وما فيه من الخيرات والعوائد الحميدة في الدنيا والآخرة ، أدرك ذلك تماماً لكن ماذا قال ؟ قال "أنا رجل مارستُ كذا وفعلتُ كذا وأخذ يعدد جرائم وذنوب وأشياء كثيرة جداً يعددها على هذا الذي يدعوه إلى الإسلام ويقول : هذه الأوصاف التي اجتمعت فيَّ لا تجعلني أهلاً لأن أكون أهل هذا الدين الذي عددتَ محاسنه أنا فعلت وفعلت" .

فأحيانا يسرف العبد على نفسه في المعاصي والذنوب وتأتيه النفس والشيطان من جهة ويقنعه أن مثل هذه الذنوب لا يمكن أن تُغفر ولا مجال فيها لنيل رحمة ، فيجتمع فيه إسرافٌ في الذنوب من جهة، وجهلٌ بعظيم غفران الله وقبوله لتوبة التائبين مهما كانت الذنوب من جهة أخرى ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣] .

من الناس من يعيش حياته كلها من أولها إلى آخرها إلا قليلاً منها على الكفر والصدود والإجرام وغير ذلك وتتداركه الرحمة ، ولهذا تجد من الناس من يتوب ويعود في أواخر عمره ، مثل ما في الحديث ((وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيَدْخُلُهَا)). في هذا المجلس ولعل أكثر الإخوة يذكر أن أحد الطلاب من إحدى الدول نقل لنا بشارة في درس الوالد حفظه الله بإسلام جدته في التسعين ولم تعش بعد إسلامها إلا أياماً ، فرحمة الله سبحانه وتعالى وسعت كل شيء، ولا يجوز للعبد أن يقنط من رحمة الله وييأس من روح الله مهما كانت ذنوبه ومهما كان إسرافه في ذنبه .

وتأمل كلام الشيخ الجميل الذي ختم به هذا السياق حيث يقول : ((**فلو عرف هذا ربه ولم يخلُد إلى الكسل لعلِم أن أدنى سعيٍ يوصله إلى ربه وإلى رحمته وجوده وكرمه**)) ؛ ولهذا ينبغي على العبد الذي ابتلي بشيء من الإسراف على نفسه في الذنوب في اقتراف الخطايا في الآثام مهما كبرت ومهما عظمت أن يجتهد في التعرف على الله عز وجل بمعرفة أسمائه وصفاته وعظمته ورحمته ومغفرته يزداد معرفةً بالله ويقبل على الله ويجاهد نفسه ويتوب من ذنبه ولا يستولي عليه الشيطان بيأس يحرمه من خير الدنيا والآخرة .

قال رحمه الله : [**وللأمن من مكر الله أيضا سببان مهلكان ؛ أحدهما : إعراض العبد عن الدين وغفلته عن معرفة ربه وماله من الحقوق وتهاونه بذلك ، فلا يزال معرضاً غافلاً مقصراً عن الواجبات منهمكاً في المحرمات حتى يضمحل خوف الله من قلبه ، ولا يبقى في قلبه من الإيمان شيء ، لأن الإيمان يحمل على خوف الله وخوف عقابه الدنيوي والأخروي .**

السبب الثاني : **أن يكون العبد عابداً جاهلاً معجباً بنفسه مغروراً بعمله ، فلا يزال به جهله حتى يدلَّ بعمله ويزول الخوف عنه، ويرى أن له عند الله المقامات العالية ؛ فيصير آمنا من مكر الله متكلاً على نفسه**

الضعيفة المهينة ، ومن هنا يُخذل ويحال بينه وبين التوفيق إذ هو الذي جنى على نفسه . فبهذا التفصيل تعرف منافاة هذه الأمور للتوحيد] .

فيما يتعلق بالأمن من مكر الله بيَّن رحمه الله تعالى أن له سببين مهلكين :

الأول : إعراض العبد عن الدين وغفلته عن معرفة الله وما له من حقوقٍ على عباده سبحانه وتعالى ، فيكون متماديًا في التهاون والتقصير والتفريط منهمكاً في المحرمات، ويستولي عليه والحالة هذه يستولي عليه الأمن من مكر الله تبارك وتعالى ، ويغتر بما آتاه الله مثلا من صحة أو عافية أو تجارة أو نحو ذلك .

والسبب الثاني : أن يكون العبد عابداً جاهلاً معجباً بنفسه ؛ وهذا يكثر عند الطرقية من المتصوفة الذين يعبدون الله تبارك وتعالى بالجهل وبالبدع ، ويأتي ببدع يُعجب بها، إما أن يكون هو الذي اخترعها أو اخترعها له بعض أشياخه فيعجب بها ، كأن مثلا يعتني بطريقة معينة من الذكر ويرى فيها أنها يترتب عليها أجور عظيمة وثواب جزيل وغفران للذنوب مهما كانت حال الإنسان ، ولهذا بعضهم يستمسك ببعض البدع التي يزاولها فيحافظ عليها ثم يغتر ويأمن ، فتجده مثلا يفرط في الفرائض ويفرط في الواجبات، يرتكب مثلا بعض المحرمات ويكون معجباً بذلك العمل ويقول أنا مثلي ومن يقوم بمثل هذه الأعمال التي هو يمارسها وهي من البدع يظن أنها هي التي تنجيه ، فيكون معجباً بها مغترا بها ومفرطاً في طاعات الله سبحانه وتعالى وعباداته !! ويظن أن هذه البدعة التي يمارسها هي التي ينال بها الرحمة . انظر على سبيل المثال من يمارسون بدع الاحتفالات في مواسم معينة ، يمارسونها نوعاً من التقرب لله بتلك الاحتفالات وفي المقابل يضيعون فرائض الدين وواجباته ،ربما ارتكبوا حتى في نفس الاحتفالات أشياء محرمة وأعمال منكرة ، ويصاب بعجب ببدعته التي هو عليها ويغتر بذلك فيأمن من مكر الله سبحانه وتعالى. ولهذا يصف هؤلاء أنفسهم أو يصف بعضهم بعضاً بأوصاف يجزمون فيها لبعضهم بالنجاة ، بل يجزم بعضهم لبعض أشياخهم أن بيده أيضا نجاة الآخرين ، من غلو شنيع مفرط وصل إليه عدد من هؤلاء ، فهذا يدخل في هذا الباب وهو سبب من الأسباب التي توصل بعض الناس إلى الأمن من مكر الله سبحانه وتعالى.

إذاً الأول يمارس المعاصي ويأمن من مكر الله ، والثاني يمارس البدع التي تُبعد صاحبها عن الله تبارك وتعالى وأيضا يأمن من مكر الله ؛ فهذان سببان مهلكان يوصلان العبد إلى الأمن من مكر الله تبارك وتعالى .

وبهذا انتهت هذه الترجمة ، ونسأل الله عز وجل أن يوفقنا أجمعين لما يحبه ويرضاه من سديد الأقوال وصالح الأعمال ، وأن يصلح لنا شأننا كله ، وأن لا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين إنه سميع قريب مجيب .

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك .

اللهم صلِّ وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

الدرس الخامس والثلاثون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد:

يقول الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب التميمي رحمه الله تعالى في كتابه «كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد » :

بابٌ من الإيمان بالله الصبر على أقدار الله

وقول الله تعالى : { وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ } [التغابن:١١] **. قال علقمة : «هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلِّم» .**

****

فهذه الترجمة ((**بابٌ من الإيمان بالله الصبر على أقدار الله**)) ؛ قوله «من الإيمان بالله» أي أن الإيمان بالله سبحانه وتعالى شعبٌ كثيرة وأمور عديدة ،كما قال نبينا صلوات الله وسلامه عليه ((الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق)) .

وفي هذه الترجمة بيانٌ لمكانة الصبر العظيمة ومنزلته العلية وحاجة المسلم إليه في جميع أمور الدين ، ولهذا جاء في الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : ((وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ)) أي: يضيء لصاحبه طريقه ويبدِّد عنه ويبعده عن ظلمات الباطل ؛ ومن ذلكم ظلمات الجزع والتسخط ودعاوى الجاهلية التي ما أنزل الله تبارك وتعالى بها من سلطان ، وجاء في الصحيحين عن نبينا عليه الصلاة والسلام أنه قال : ((مَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ)) مما يدل على عظم هذه العطية وكِبَر هذه المنة ؛ من يكرمه الله سبحانه وتعالى ويمنُّ عليه بالصبر منَّ الله عليه بعطاءٍ عظيم وخيرٍ واسع عميم لماذا ؟ لأن الصبر مقام عظيم من مقامات الدين يحتاجه العبد في جميع أعمال الدين فعلًا وتركا ، لأن من لا صبر عنده لا تنهض نفسه لقلة أو ضعف صبره لفعل الأوامر ، ومن لا صبر عنده لا تحجِم نفسه عن النواهي ؛ فالعبد محتاج حاجةً ماسة إلى الصبر ليعبد الله وليقوم بما أمره الله سبحانه وتعالى به ، ومحتاجٌ أيضا حاجة ماسة إلى الصبر ليتجنب ما نهاه الله سبحانه وتعالى عنه ، وأيضاً يحتاج إلى الصبر في مقام القضاء والقدر ما يقدِّره الله سبحانه وتعالى عليه من أقضية مؤلمة كفقْد محبوب أو حصول مرض أو حلول مصيبة أو نحو ذلك ، فإذا لم يكن عنده الصبر وقع في الجزع والتسخط وغير ذلك من الأعمال التي تسخط الله جل وعلا .

فإذاً العبد يحتاج إلى الصبر حاجة ماسة في أمور الدين كلها ، وهذا يبين لنا معنى قول نبينا صلى الله عليه وسلم المتقدم ((مَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ)) ، لماذا ؟ لأن في الصبر جماع الخير ، إذا وُجد في العبد الصبر وأكرمه الله سبحانه وتعالى بالتحلي به تمكن من فعل المأمورات وتجنب المنهيات ، وتمكن أيضا بفضل من الله سبحانه وتعالى ومنّ مِن البُعد عن الجزع والتسخط وغير ذلك من أعمال الجاهلية التي تقع منهم عند حلول المصائب ، ولهذا قال العلماء رحمهم الله تعالى : إن الصبر أنواعٌ ثلاثة :

١. صبرٌ على الطاعة .

٢. وصبرٌ عن المعصية .

٣. وصبرٌ على أقدار الله تبارك وتعالى المؤلمة .

والحديث في هذه الترجمة عن «الصبر على أقدار الله» ، والمراد بأقدار الله تبارك وتعالى: أي المؤلمة للعبد ، كمثلاً موت قريب ، أو حصول مصيبة ، أو حلول جائحة على ماله ، أو نقصٍ واعتلالٍ مثلا في صحته أو غير ذلك ، والابتلاءات متنوعة وهذه الحياة الدنيا ميدان للابتلاء ، قال الله سبحانه وتعالى ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧] .

فمقام الصبر مقامٌ عظيم ؛ الصبر على أقدار الله تبارك وتعالى المؤلمة للعبد ، ولا يتمكن العبد من الصبر على الأقدار إلا إذا آمن بالله وآمن أن الأمور بقضائه وقدره ، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وأن المصائب قضاءٌ وقدر ، ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [التغابن:١١] أي بقضائه وقدره ، والمراد بالإذن هنا : أي الإذن الكوني القدري ، أي لا يصيب العبد مصيبة إلا وهي قضاء وقدر ، قضاها الله سبحانه وتعالى وقدَّرها ابتلاءً وامتحاناً وتمحيصاً ، هذه الأقضية والأقدار المؤلمة للعبد لم ينزلها الله تبارك وتعالى بعبده المؤمن ليهلكه وإنما أنزلها تبارك وتعالى ليمحِّص بها عباده المؤمنين ، وليكفِّر بها عن سيئاتهم ، وليرفع بها درجاتهم ، وليميز الله تبارك وتعالى الصادق من الكاذب والصابر من الجازع ، فمثل هذه المصائب التي يبتلى بها العبد هي باب من أبواب الابتلاء والامتحان في هذه الحياة الدنيا ، ومثل ما أن الله سبحانه وتعالى يبتلي العبد بالنعمة والسراء فإنه كذلك يبتليه بالمصيبة والضراء ، قد قال نبينا عليه الصلاة والسلام : ((عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ)) أي ذلك النجاح في هذا الامتحان لا يكون إلا للمؤمن ، لأن المؤمن إذا أصابته سراء –أي أمور سارة ومفرحة– يعلم أنها منة الله عليه وفضله سبحانه وتعالى فيحمد الله ويشكره فيفوز بثواب الشاكرين ، وإذا ابتُلي بضراء ومصيبة وأقدار مؤلمة يعلم أنها من عند الله أي بإذنه وقضائه وقدره جل

في علاه ويعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ولا يفتح على نفسه في هذا الباب عمل الشيطان بقول لو أني فعلت كذا أو لو أني لم أفعل كذا ، ((احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ)) ، فالمؤمن يعلم أن الأمور بقضاء الله سبحانه وتعالى وقدره فيرضى ويسلِّم ويصبر على ما أصابه ، ويرجو من الله تبارك وتعالى أن يثيبه على هذا الصبر ؛فيفوزُ في ضراءه بثواب الصابرين ، كما أن المبتلى بالنعماء ينال في هذا المقام ثواب الشاكرين .

فالصبر على أقدار الله أي المؤلمة بابٌ عظيم من أبواب الإيمان ؛ ولهذا قال رحمه الله: ((**من الإيمان بالله الصبر على أقدار الله**)) ؛ من الإيمان بالله أي: رباً خالقاً رازقاً مدبراً قديراً له القدرة الشاملة والمشيئة النافذة والتدبير لهذا الكون عطاءً ومنعا ، خفضًا ورفعا ، قبضًا وبسطا ، عزًا وذلا ، حياةً وموتا ، الأمر كله لله ، فمن الإيمان به سبحانه وتعالى الصبر على أقداره؛ أي على أقداره التي تؤلم العبد ، مثل موت قريب أو فقد حبيب أو ضياع مال أو تلف مثلا تجارة أو غير ذلك من الابتلاءات التي يبتلي الله سبحانه وتعالى بها عبده المؤمن ، فمن الإيمان به جل في علاه الصبر على أقدار الله .

والصبر على أقداره سبحانه وتعالى المراد به : حبس النفس أي منعها من التسخط والجزع ، ومنع اللسان أيضا من التسخط والدعاء بدعوى الجاهلية من صياح وندب وغير ذلك ، وحبس اليد من لطم الخدود وشق الجيوب ؛ ولهذا فإن الصبر على أقدار الله تبارك وتعالى المؤلمة يكون بالقلب بحبس القلب ومنعه من التسخط والجزع ونحو ذلك ، ويكون أيضا باللسان بحبس اللسان ومنعه من الدعاء بدعوى الجاهلية ، وأيضا فيما يتعلق بالجوارح بمنعها من ضرب الخدود وشق الجيوب ونحو ذلك من أعمال الجاهلية ؛ فمن الإيمان بالله تبارك وتعالى الصبر على أقدار الله .

قال : ((**وقول الله تعالى ﴿ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾**)) ؛ قبلها قال الله سبحانه وتعالى ﴿مَا أَصَابَ مِن مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ ؛ ﴿مَا أَصَابَ مِن مُصِيبَةٍ ﴾ أي : من موت أو مرض أو فقر أو غير ذلك ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: إذنه تبارك وتعالى الكوني القدري ، معنى بإذن الله: أي بقضائه وقدره، والمصيبة التي أصابت العبد مكتوبة عليه ، كُتبت في اللوح المحفوظ قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ﴿إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج:٧٠] ، قال عليه الصلاة والسلام : ((كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ)) ، وهذا الذي أصاب العبد وكتبه الله عليه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، فالأمر كله قضاء وقدر ، الأمور كلها بقضاء الله سبحانه وتعالى وقدره ﴿مَا أَصَابَ مِن مُصِيبَةٍ ﴾ أياً كانت ومهما كانت ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي بقضاء الله سبحانه وتعالى وقدره .

﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ ؛ ومن يؤمن بالله : أي رباً خالقاً متصرفاً مدبراً لهذا الكون ، يعطي ويمنع، يخفض ويرفع ، يقبض ويبسط ، يعز ويذل، يحيي ويميت، يُبكي ويُضحك ، من يؤمن بالله وأنه المعبود بحق ولا معبود بحق سواه ، إليه الالتجاء وإليه المفزع وإليه المئاب ولا مفر من الله إلا إليه من يؤمن بالله ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ ؛ يهد قلبه : أي إلى الصبر ، إلى اليقين ، إلى الرضا بقضاء الله سبحانه وتعالى ؛ وهذا يوضح لنا الترجمة وهي قوله ((من الإيمان بالله الصبر على أقدار الله)) ، فالصبر بلوغ العبد له وتحقيقه فرعٌ عن المعرفة بالله سبحانه وتعالى والإيمان به ، فإذا كان مقام الإيمان بالله عنده متحققاً ومتمَّمًا بلغ مبلغا عظيما من الصبر ، لأن من الإيمان بالله الصبر ، أي أن الإيمان بالله يُثمر الصبر على أقداره تبارك وتعالى ، كلما قوي إيمان العبد بالله قوي صبره ، وإذا ضعف الإيمان ضعُف الصبر ، قال: ﴿ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ .

((**قال علقمة**)) وهو ابن قيس النخعي إمامٌ جليل من أئمة التابعين رحمه الله تعالى ، قال في معنى هذه الآية: ((**هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلِّم**))؛ ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ أي أن من كان مؤمنًا بالله وبقضائه الله وقدره ، وأن الأمور كلها بمشيئة الله ، وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن يهد قلبه أي لكل خير ؛ يهديه إلى اليقين ، يهديه إلى الصبر ، يهديه إلى الرضا ، يهديه إلى خيرات عظيمة . ﴿يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ وهذا فيه أن هداية القلب بيد الله سبحانه وتعالى ، وأن الهادي هو الله ، وأن العبد لا نيل له لشيء من الهداية إلا بأمر الله وقضائه جل في علاه فهو الهادي جل وعلا ، قال: ﴿ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾أي يهد قلبه إلى كل خير ، ومن ذلكم الصبر واليقين والرضا .

قال رحمه الله :

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «اثنتان في الناس هما بهم كفر : الطعن في النسب ، والنياحة على الميت» .

****

قال رحمه الله تعالى: ((**وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:** «**اثنتان في الناس هما بهم كفر؛ الطعن في النسب ، والنياحة على الميت**»)) ؛ أولاً الأسلوب هنا أسلوبٌ عظيم في التشويق في مقام التحذير من الأمور التي تسخط الله وتغضبه ، فقال عليه الصلاة والسلام محذرا : ((**اثنتان في الناس هما بهم كفر**)) ؛ إذا وصل إلى سمع الإنسان هذا البيان تتطلع نفسه إلى معرفة هذين الأمرين ليكون منهما على حذر ، وليحرص على البعد عنهما واجتنابهما، لأن المقام مقام تحذير . ويأتي أيضا مثل هذا الأسلوب في

الترغيب؛ مثل قوله عليه الصلاة والسلام : ((كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللَّهِ العَظِيمِ، سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ)) . فيأتي هذا الأسلوب أسلوب التشويق في مقام الترغيب ويأتي أيضاً في مقام الترهيب ، والمقام هنا مقام ترهيب وتحذير من هاتين الخصلتين الذميمتين التين هما من خصال الكفر وشعَبه .

قال: ((**اثنتان في الناس هما بهم كفرٌ**)) ، وقوله «هما بهم» تنبيهٌ إلى بقاء هاتين الخصلتين ووجودها ، مثل ما قال في الحديث الآخر : ((أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ لَا يَتْرُكُونَهُنَّ)) إشارة إلى بقاء هذه الأعمال في كثير من الناس أو في أعداد من الناس .

((**اثنتان في الناس هما بهم كفرٌ**)) ؛ والكفر هنا هو كفر دون الكفر الأكبر الناقل من الملة ، لأن الكفر كفران: كفر ناقل من الملة ، وكفر دون ذلك ليس بناقلٍ من الملة ، وهو يطلق على ما كان من شعَب الكفر وخصاله ولا يكون وحده مخرجاً ولا ناقلاً من ملة الإسلام .

قال: ((**اثنتان في الناس هما بهم كفرٌ**)) ؛ ووجود شعبة من شعب الكفر أو خصلة من خصاله لا يلزم منه قيام الكفر الأكبر في مَن قامت به شعبة من شعب الكفر أو خصلة من خصاله ، مثل ذلك تماماً أن قيام شعبة من شعب الإيمان في شخص لا يلزم منه أن يكون مؤمناً ما لم يكن قام به أصل الإيمان وحقيقة الإيمان ، قد يوجد في الكافر مثلاً أمانة أو صدق أو وفاء أو غير ذلك من خصال الإيمان ولا يلزم من وجودها فيه أن يكون مؤمناً . بالمقابل أيضاً وجود شعبة من شعب الكفر يعني خصلة من خصاله أو فرع من فروعه التي هي بحد ذاتها ليست كفرا لا يلزم من وجودها في الشخص أن يكون كافرًا ما لم تقم فيه حقيقة الكفر . فالكفر هنا كفرٌ دون الكفر الأكبر ، ولهذا جاء منكَّرًا في مقام الإثبات .

قال: ((**اثنتان في الناس هما بهم كفرٌ الطعن في النسب والنياحة على الميت**)) الطعن في النسب : أي أنساب الناس؛ وقيعةً فيها وتهكما وذمًّا وقدحاً .

((**والنياحة على الميت**)) وهذا موضع الشاهد من ذكر هذا الحديث في هذه الترجمة ؛ «والنياحة على الميت» برفع الصوت بالبكاء ، والندب على وجه التسخط والجزع بذكر مآثر الميت ونحو ذلك ؛ فهذا من خصال الجاهلية وأعمال الجاهلية وهو من شعب الكفر .

قال: ((اثنتان في الناس هما بهم كفر الطعن في النسب والنياحة على الميت)) ؛ والحديث دليل على أن هذين الأمرين من كبائر الذنوب ، لأن من علامات الكبيرة وصفها بالكفر وأنها من شعب الكفر ، مثل ذلك أيضا اللعن على فِعلها ، أو الإخبار بأن فاعلها لا يدخل الجنة ، أو أنه يدخل النار ، أو ذكر السخط سخط الله على الفاعل ، أو نحو ذلك .

قال رحمه الله :

ولهما عن ابن مسعود مرفوعا : «ليس منا من ضرب الخدود ، وشق الجيوب ، ودعا بدعوى الجاهلية» .

****

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث المخرج في الصحيحين عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعا أي إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ليس منا من ضرب الخدود ، وشق الجيوب ، ودعا بدعوى الجاهلية » .

((**ليس منا**)) هذه الصيغة دالة على أن الأمور المذكورة من كبائر الذنوب ، ومما يُعرف به أن الأمر كبيرة أن يقول النبي صلى الله عليه وسلم عن فاعله ((ليس منا)) . وقوله ((ليس منا)) ليس نفيًا للإيمان من أصله ولا يراد به إخراج فاعل ذلك من الإيمان ومن الدين ، وإنما المراد بذلك أن هذا الأمر من الكبائر ؛كبائر الذنوب المنافية لكمال الإيمان الواجب ، فهي قادحة في كمال الإيمان الواجب ليست قادحة في أصل الإيمان .

قال: ((**ليس منا من ضرب الخدود**)) ضرَبَ الخدود : أي لطَمها ؛ وهذا يفعله أهل الجاهلية عند المصيبة ، وربما لطَم بعضهم خده لطماً شديداً عنيفًا مضراً به ، ربما يؤدي إلى تلف بعض الحواس من شدة اللطم الذي يكون منه على نفسه .

((**ضرْب الخدود**)) أي لطمها ، وذُكرت الخدود هنا لا لأن الحكم قاصر عليها ، وإنما لأن الغالب إنما يكون اللطم على الخدود ، وإلا من ضرب ولطم عند المصيبة أي موضع من بدنه فعمله هذا من أعمال الجاهلية التي قال النبي صلى الله عليه وسلم عن فاعلها في هذا الحديث ((ليس منا)) ، لكن ذُكرت الخدود لأن اللطم في الغالب عليها. وهذا الفعل فعلٌ جاهلي يدل على سفَه العقل ، وإلا أيُّ فائدة تترتب على لطم الإنسان عند المصيبة لخده!! بل إنه يجمع في لطمه لخده إلى مصيبته مصيبة أخرى على نفسه بهذا الضرب الذي يضرب به نفسه ويؤثر به على حواسه وعلى بدنه ، فهذا عمل جاهلي ويدل على سفَه عقل من يفعل ذلك .

((**ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب**)) والجيب : هو الفتحة التي تكون في الثوب التي يُدخل بها الرأس ، والمراد بشقها: أي تمزيق الثوب بأن يمسك بيده اليمنى طرف الفتحة الأيمن وبيده اليسرى طرف الفتحة الأيسر ثم يجذب الثوب فيتمزق قطعتين ، وسواءً كان تمزيقه للثوب كاملًا أو لجزءٍ منه ، وسواءً كان التمزيق في الجيب أو في موضع آخر من الثوب كل ذلك من أعمال الجاهلية، وإتلاف للمال وإضاعة له بما لا ينفعه في مصيبته أيَّ نفع بل يضره مضرة عظيمة ، وهو دليل على سفه عقل فاعل ذلك .

((**ودعا بدعوى الجاهلية**)) أي من تسخطٍ وجزع وندبٍ فيه تسخط على قضاء الله تبارك وتعالى وقدره ، فهذا كله من أعمال الجاهلية التي قال نبينا عليه الصلاة والسلام عن فاعلها «ليس منا» ؛ قال ((ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية)) .

ومقام الصبر في هذا الموضع هو بمنع النفس من مثل هذه الأعمال وحبسها ؛حجزها أن تفعل شيئاً من ذلك ؛ يمنع اللسان من أن يقول أيَّ قولٍ يسخط الله ، وحبس الجوارح من أن تفعل أي فعلٍ يسخط الله ، فيأتي هنا مقام الصبر بحبس النفس ومنعها عن الجزع والتسخط وشق الجيوب ولطم الخدود والدعاء بدعوى الجاهلية .

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « **إذا أراد الله بعبده الخير عجّل له العقوبة في الدنيا ، وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافي به يوم القيامة** » .

****

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث حديث أنس ابن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((**إذا أراد الله بعبده الخير عجل له بالعقوبة في الدنيا**)) ؛ بأن يبتليه بابتلاءات سواءً مثلاً في صحته أو مثلا في ماله أو غير ذلك من الابتلاءات المتنوعات ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾ [البقرة:١٥٥] ، فيبتليه سبحانه وتعالى بالمصائب لتطهيره وتنقيته من المعائب ، لأن المصائب كفارات وممحصات تمحص العبد وتنقيه وتطهره ، فإذا أراد الله سبحانه وتعالى بعبده المؤمن خيراً عجل له بالعقوبة في الدنيا أي العقوبة على الذنب الذي اقترفه والمعصية التي ارتكبها بأن تكون عقوبة معجلة ؛ بأن يبتليه في صحته في عافيته في ماله في أمورٍ محبوبة له ؛بفوت محبوب أو فقد محبوب أو غير ذلك يبتليه بشيء من ذلك . ووجه إرادة الخير هنا : أن هذه المصيبة التي أصابته وتعجيل العقوبة التي حصلت له فيها تطهير له وتمحيص.

قال : ((**إذا أراد الله بعبده الخير عجل له بالعقوبة في الدنيا**)) بالعقوبة أي على الذنب الذي اقترفه.

((**وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه**)) أي مع بقائه على الذنب ((**حتى يوافي به يوم القيامة**)) ؛ يكون والعياذ بالله يُذنب ويذنب ويُتبع الذنب بالذنب والخطيئة بالخطيئة وهو ممتَّع بالصحة والعافية والمال وكثرة المال ممتع بذلك إلى أن يفاجئه أن الموت وتداهمه المنية ويفارق هذه الحياة بذنبه ، ((حتى يوافي به يوم القيامة)) دون أن يكون له في هذه الدنيا ممحصات ومطهرات له من الذنوب ، فيبقى على الذنب وهو ممتع بالمال بالصحة بالعافية إلى غير ذلك إلى أن يفاجئه الموت وهو على حاله هذه .

هذا يستفاد منه في بابنا –باب الصبر– أن يدرك العبد المؤمن المطيع لله المحافظ على طاعة الله سبحانه وتعالى أن ما يصيبه في هذه الحياة الدنيا مطهر له من الذنوب والخطايا ، والمصائب كفارات ، قال النبي صلى الله عليه وسلم لذاك الشيخ المريض ((طَهُورٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ)) ، وقال : ((مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلاَ وَصَبٍ وَلاَ هَمٍّ وَلاَ حُزْنٍ وَلاَ أَذًى وَلاَ غَمٍّ حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ)) فالمصائب كفارات .

والمصائب التي تصيب العبد المؤمن هي من جملة النعم التي ينعم الله سبحانه وتعالى بها عليه ، وهذا واضح قال : ((**إذا أراد الله بعبده الخير عجل له بالعقوبة في الدنيا**)) أي أصابه ببعض المصائب في هذه الحياة الدنيا فتكون المصيبة في حق العبد المؤمن باب من أبواب النعمة . والمصيبة في حق العبد المؤمن نعمة من عدة وجوه بيّنها أهل العلم رحمهم الله تعالى:

- الوجه الأول: أن المصيبة في حق المؤمن كفارة ؛ تكفيرٌ للذنوب ، فتصيبه المصائب ليطهَّر بها وينقى من المعائب ، فالمصائب تعَدُّ في حق المؤمن نعمة لأنها تطهره من أدران الذنوب .
- والأمر الثاني : ما يترتب على حصول المصيبة عند المؤمن من صبر ورضا وإقبال على الله سبحانه وتعالى فيفوز بثواب الصابرين ، أو ما هو أزود من ذلك من رضا أو شكر لله سبحانه وتعالى حسب مقام العبد الذي يمن الله سبحانه وتعالى عليه بالمصيبة . والثواب الذي يترتب على المصيبة ليس على المصيبة نفسها وإنما على الأمور المترتبة عليها –على الصحيح من كلام أهل العلم في هذا الأمر– لأن المصائب كفارات ودل على ذلك دلائل كثيرة جدا ، المصائب كفارات لكن الثواب الذي يترتب على المصيبة إنما هو مترتب على الأمور التي تتبع المصيبة مما يمن الله به على العبد من صبر أو رضا أو شكر لله سبحانه وتعالى أو نحو ذلك .
- كذلكم ما في المصيبة من تذكير للعبد بذنوبه ؛ وكم من إنسان يكون غارق في الذنوب ومكثر من الخطايا ثم يصاب بمصيبة ويبتلى ببلية في ماله أو في صحته أو نحو ذلك فيبدأ يتفكر في نفسه ويحاسبها ويتأمل في ذنوبه وخطاياه ويرجع إلى ربه ، كم من أناسٍ عادوا إلى الله وصدقوا في عودتهم إلى الله سبحانه وتعالى وكان ذلك بما أصيب به من مصيبة كانت فتحاً له من الله سبحانه وتعالى ليتوب إلى الله وينيب إليه سبحانه وتعالى .
- أيضاً ما يترتب على المصيبة وحصولها من انكسار القلب وذله ، والمصاب منكسر القلب ويكثر تذلله وخضوعه لله سبحانه وتعالى .
- كذلكم من فوائدها وأنها من النعم : أنها تفتح للعبد باب الإنابة والرجوع إلى الله سبحانه وتعالى ، وتفتح له أيضاً باب التضرع والدعاء والإلحاح على الله سبحانه وتعالى بالسؤال .
- أيضا فيها أنها تقطع القلب من الالتفات إلى المخلوقين ويُقبِل على الله إخلاصاً وإلحاحاً ودعاءً ، كما قال أهل العلم : إذا كان المشرك في المصيبة والضراء يخلِص ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت٦٥] فكيف الأمر إذاً بالمؤمن !! .
- ومر معنا في هذا الباب وهو من الدلائل على أن المصيبة في حق المؤمن نعمة : قول الله تعالى ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ

مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧] .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن عِظم الجزاء مع عظم البلاء ، وإن الله تعالى إذا أحب قومًا ابتلاهم ، فمن رضي فله الرضا ، ومن سخط فله السُّخط » حسنه الترمذي .

****

ثم ختم رحمه الله بهذا الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((إن عِظَم)) أو «عُظْم» كله صحيح .

((**إن عِظَم الجزاء مع عظم البلاء**)) بمعنى أن البلاء كلما عظم كان الجزاء الذي هو الثواب أعظم؛ لماذا ؟ لأن مثل ما جاء في الحديث : ((إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ)) ، وسئل أي الناس أشد بلاء ؟ قال : ((الأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ)) ؛ فعظم الجزاء أي الثواب مع عظم البلاء لأن المقربين إلى الله وفي مقدِّمتهم أنبياء الله ورسله في الابتلاء يحصل منهم الضراعة والدعاء والصبر والرضا والشكر وغير ذلك فيعظم ثوابهم عند الله ؛ فتكون المصيبة في حقهم باب عظيم من أبواب رفعة الدرجات عند الله سبحانه وتعالى .((**إن عظم الجزاء مع عظم البلاء**))

((**وإن الله تعالى إذا أحب قوما ابتلاهم**)) وأشد الناس ابتلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل ، ((إذا أحب الله قوما ابتلاهم)) ابتلاهم لماذا ؟ هل ليهلكهم؟ لا والله ، وإنما ابتلاهم ليرفع درجاتهم ،ويعلي منازلهم، ويكفِّر ذنوبهم وخطيئاتهم .

((**إذا أحب قوما ابتلاهم ، فمن رضي فله الرضا**)) وأهل الإيمان وحسن التقرب إلى الله جل وعلا مقامهم في هذا هو مقام الرضا ، «فمن رضي» أي بما قضاه الله سبحانه وتعالى وقدَّره «فله الرضا» أي من الله أي يرضى الله عنه، ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ [البينة:٨] ، وهذا فيه أن الجزاء من جنس العمل ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾ [الرحمن:٦٠] ((فمن رضي فله الرضا)) : من رضي بقضاء الله سبحانه وتعالى وقدره فله الرضا أي له من الله سبحانه وتعالى الرضا .

((**ومن سخط فله السُّخط**)) أي له السخط من الله أن يسخط الله عليه لأنه قابل القضاء الذي قضاه الله بالتسخط . والحديث دليلٌ على أن التسخط من القضاء في المصائب من كبائر الذنوب لماذا ؟ لأن أهل التسخط لهم السخط من الله سبحانه وتعالى ، ولا يكون ذلك إلا لاقتراف كبير . ((فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط)) أي السخط من الله جل وعلا عليه لتسخطه وجزعه عندما أصابته المصيبة ، بخلاف المؤمن الذي يعلم أنها من عند الله تبارك وتعالى فيرضى ويسلِّم .

وهذا الحديث والحديث الذي قبله يدل على حال العبد المؤمن الذي يكرمه الله سبحانه وتعالى بالإيمان كيف أنه يتلقى المصيبة وأنه يتعامل مع المصيبة باعتبارها أمرٌ مقضي ومقدّر وأنها باب من أبواب التكفير للذنوب وتمحيص الخطايا ورفعة الدرجات عند الله سبحانه وتعالى ؛فيرضى ويسلِّم فتعظم درجاته وترتفع منازله ويذوق حلاوة الإيمان، حلاوة الصبر وحلاوة الرضا يذوقها . ولهذا بعض المصابين والمبتلين يظهر على وجهه من السرور والانبساط والانشراح والفرح أمور لا تظهر على كثير من الأصحاء .

قبل أيام قلائل التقيت بشاب لا يتحرك منه إلا رأسه، وله على هذه الحال سبع عشرة سنة ، وترى على وجهه ابتسامة ووجهه مشرق ولو رأيت وجهه فقط دون جسده تقول أن هذا الوجه وجه إنسان في كامل قواه وعافيته؛ مما ترى على وجهه من السرور والابتسامة إلى آخر ذلك ، قلت له كيف حالك يا فلان ما أخبارك ؟ فزادت ابتسامته على وجهه وقال : "الحمد لله أتقلب في نعم الله" ويحمد الله وهو له أكثر من سبعة عشر سنة وهو على هذه الحال شلل رباعي لا يتحرك إلا رأسه ويقول "أتقلب في نعم الله" !! ، وكثير من الناس يقول أتقلب في نعم الله وهو لا يستطيع أن ينقلب على الفراش الذي هو عليه ولا يستطيع أن يتحرك ، لكن لعله والله أعلم مما يجد في قلبه من رضا وصبر ، وتجد كثير من الناس ممتع بصحة وعافية وبنعم وغير ذلك ولا يشعر بذلك ولا يكون عنده مثل هذا الحمد والاستشعار بأنه يتقلب في نعم الله سبحانه وتعالى .

قال رحمه الله تعالى :

فيه مسائل ؛ الأولى : تفسير آية التغابن .

وهي قول الله جل وعلا : ﴿ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ .

الثانية : أن هذا من الإيمان بالله .

أي الصبر على أقدار الله تبارك وتعالى من الإيمان بالله كما يدل على ذلك قوله :﴿ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ﴾ ، قبلها قال: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ فهذا فيه أن الصبر على أقدار الله من الإيمان بالله .

الثالثة : الطعن في النسب .

أي التحذير منه وأنه من كبائر الذنوب ، وتقدم في ذلك قول النبي عليه الصلاة والسلام : ((اثنتان في الناس هما بهم كفر : الطعن في النسب والنياحة على الميت)) .

الرابعة : شدة الوعيد فيمن ضرب الخدود ، وشق الجيوب ، ودعا بدعوى الجاهلية .

نعم شدة الوعيد في ذلك لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((ليس منا)) أي من فعل هذه الأمور ، ولا تأتي هذه الصيغة إلا في الكبائر ، وهي دليل على الوعيد الشديد والتهديد الأكيد لفاعل ذلك .

الخامسة : علامة إرادة الله بعبده الخير .

وهذه جاءت في حديث أنس قال : ((إذا أراد الله بعبده الخير عجل له بالعقوبة في الدنيا)) ، والمراد بالعقوبة : أي ما يصيبه من مصائب في هذه الحياة الدنيا فتكون في حقه كفارات لذنوبه .

السادسة : علامة إرادة الله بعبده الشر .

كما في حديث أنس ((وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافي به يوم القيامة)) أي يبقى ممتعاً بمثلًا الصحة والعافية وتوافر المال وغير ذلك وهو باقٍ على ذنبه وباقٍ على تفريطه في جنب الله ثم يفجؤه الموت ويخرج من هذه الدنيا ثم يوافي ربه يلقى ربه بذنوبه دون أن يكون له في هذه الحياة الدنيا ممحصات ومكفرات .

السابعة : علامة حب الله للعبد .

هذه مأخوذة من قوله عليه الصلاة والسلام : ((إذا أحب الله قوما ابتلاهم)) ؛فهذا من علامة حب الله للعبد ، وإنما يكون ذلك في حق من رضي كما جاء في الحديث نفسه قال ((فمن رضي فله الرضا)) فالذي يرضى ويصبر على ما قضى الله سبحانه وتعالى وقدَّر فيكون هذا الابتلاء في حقه باب من أبواب تكفير الذنوب ورفعة الدرجات .

الثامنة : تحريم السخط .

الثامنة : تحريم السخط يعني عند المصيبة ، لا يتلقى المصيبة بالتسخط والجزع وعدم الصبر ؛فهذا أمر محرم لا يجوز ، لا يجوز للمسلم أن يتلقى المصيبة بالتسخط والجزع فهذا أمر محرم لا يجوز ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((ومن سخط فله السخط)) أي له السخط من الله ، ولا يكون السخط من الله إلا على أمر كبير . فهذا فيه تحريم هذا الأمر .

التاسعة : ثواب الرضا بالبلاء .

هذه المسألة التاسعة وهي المسألة الأخيرة في هذه الترجمة «ثواب الرضا بالبلاء» ؛ وهذا مأخوذ من قول النبي صلى الله عليه وسلم ((فمن رضي فله الرضا)) ، ومعنى فله الرضا : أي من الله جزاءً له من جنس عمله ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن:٦٠] ، فالجزاء من جنس العمل ، فلما تلقى المصيبة بالرضا كان له من الله الرضا بأن الله سبحانه وتعالى يرضى عنه ، ومن رضي الله عنه فقد فاز الفوز العظيم ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة:٧٢] .

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك .

اللهم صلِّ وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

الدرس السادس والثلاثون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد:

يقول الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب التميمي رحمه الله تعالى في كتابه «كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد » :

باب ما جاء في الرياء

وقول الله تعالى : { قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ } الآية [الكهف:١١٠] .

****

هذا الباب ((**بابٌ ما جاء في الرياء**)) أي من الوعيد الشديد والتهديد لفاعله ؛ والرياء: إظهار العمل الصالح وتزيينه بقصد مراءاة الناس وكسب ثنائهم ومحمدتهم ؛ فيزين لهم عمله من صلاةٍ أو حجٍ أو صدقة أو غير ذلكم من الأعمال التي يقوم بها أو يُظهرها من أجل نظر الناس إليه ، ولهذا الرياء يتعلق بالبصر بحيث يُري الناس ؛ فيروا بأبصارهم منه ظاهراً حسَناً وهو في الواقع إنما زينه لأجلهم لا لأجل الله ، وحسَّنه من أجل ثنائهم لا من أجل الله سبحانه وتعالى . والسمعة: وهي مثيل الرياء تتعلق بالسمع ؛ فما كان من أعماله ما لا يراه الناس أخبرهم به من أجل ثنائهم وحمدهم .

والمصنف رحمه الله تعالى عقد هذه الترجمة ((**بابٌ ما جاء في الرياء**)) أي من الوعيد والتهديد في كتاب التوحيد؛ لما في الرياء من منافاةٍ للتوحيد وقدحٍ فيه ، لأن التوحيد قوامه إخلاص العبادة لله عز وجل وإفراد الله جل وعلا بها كما قال الله سبحانه: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة:٥] ، والمرائي لا يجعل العمل لله سبحانه وتعالى خالصاً ، بل يجعل لأحد فيه شيئاً قلَّ ذلك أو كثر ، ولهذا يتفاوت الرياء :

- قد يكون الرياء طارئاً على العمل ، وقد يكون صاحبه مدافعاً له أو مسترسلا له إذا طرأ على العمل .
- وقد يكون الرياء يبدأ مع الإنسان من أول العمل .
- وقد يكون رياءً محضاً خالصاً لا يقدِّم العمل أصلاً إلا لغير الله ،كرياء المنافقين﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾ [النساء:١٤٢] .

وهذا الرياء المحض الذي هو رياء المنافقين يُظهر الإيمان ويبطن الكفر هذا كفرٌ أكبر ناقل من ملة الإسلام . وأما يسير الرياء وما يطرأ على العمل من رياء فهذا مناف لكمال التوحيد الواجب ؛ فهو قادحٌ في كمال التوحيد الواجب وليس قادحاً في أصل التوحيد .

والرياء خطيرٌ على الإنسان خطورةً عظيمة ، وضرره عليه ضرر بالغ ، وهو مبطِل لعمله ؛ لأن الله سبحانه وتعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا لوجهه وابتُغي به وجهه جل وعلا ، أما العمل الذي يُجعل مع الله فيه الشركاء فإن الله يرده على صاحبه ولا يقبله منه ، ولهذا من القبيح بالعبد والشنيع بالإنسان أن يأتي بهذه الأعمال ويجدّ ويجتهد فيها وينصب ثم لا يجد عليها ثواباً لأنه لم يخلصها لله ، سواءً كانت هذه الأعمال صلاة ، أو كانت طلبا للعلم وحفظاً لكتاب الله سبحانه وتعالى ، أو كانت جهاداً وقتالا لأعداء الله ، أو كانت صدقةً ونفقةً وبذلاً في وجوه الخير ، أو نحو ذلك من الأعمال ، وفي الحديث : ((أول من تسعر بهم النار ثلاثة)) وذكر عليه الصلاة والسلام «من تعلم ليقال عالم ، ومن جاهد ليقال جريء ، ومن أنفق ليقال جواد» ، وهذه الكلمات تقال في حقه في الدنيا ويقال أكثر منها ، ويسمع ثناءً واسعا وإطراء كبيراً ، فإذا كان هذا هو قصده من العمل فله ما نوى لكنه لا يجد على ثوابه يوم القيامة أجراً لأنه لم يقصد به وجه الله ، بل إن المرائين كما جاء في الحديث يقال لهم يوم القيامة اذهبوا إلى من كنتم تراءونهم اذهبوا إليهم التمسوا عندهم أجراً ، وهل يمكن أن يعطي هؤلاء من كان يرائي لأجلهم شيئا من حسناتهم أو أعمالهم؟! لا والله ؛ فكلٌ يرى لنفسه يقول نفسي نفسي ولا يفكر في الآخر.

ولهذا من الشنيع بالإنسان أن يزين الأعمال الصالحة والعبادات للناس ثم يكسب منهم ثناءً يسيراً ومدحاً ثم لا يجد على عمله ثواباً ولا أجرا ؛ فتكون مراءاته محبطةً لعمله مبطلة له ؛ ولهذا كان من المهم في فهم التوحيد وتحقيقه والعناية به الحذر من الرياء ، ولهذا عقد رحمه الله هذه الترجمة ((**بابٌ ما جاء في الرياء**)) في كتاب التوحيد؛ تحذيراً من الرياء بما فيه من خطورة على التوحيد ، سواء على أصله كان محضا وخالصا ، أو على كماله الواجب إن كان دون ذلك .

أورد أولاً قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا** ﴾[الكهف:١١٠] . والشاهد من هذه الآية للترجمة في قوله سبحانه وتعالى ﴿ وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ ، والمرائي جعل مع الله سبحانه وتعالى شريكاً في العمل ، وسيأتي في الحديث الذي ساقه المصنف أن الله جل وعلا يقول : ((أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ)) ، فالمرائي أشرك مع الله غيره ، ولهذا فالآية بعمومها تدل على بطلان الرياء والتحذير منه ، وأن الرياء من الشرك بالله سبحانه وتعالى ومن اتخاذ الشركاء ؛ إن كان محضاً فهو شركٌ أكبر ، وإن كان يسيراً فهو شركٌ أصغر قادحٌ في كمال التوحيد الواجب .

قال الله سبحانه لنبيه صلوات الله وسلامه عليه: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ ﴾ ؛ أَمَره جل وعلا أن يخبر ويبلّغ الناس أنه صلوات الله وسلامه عليه إنما هو بشر مثل البشر من ولد آدم تناسل مثلهم شأنه كشأنهم؛ يجوع كما يجوعون ويعطش كما يعطشون وينام كما ينامون ، فهو بشر صلوات الله وسلامه عليه مثل البشر ، لكن الله عز وجل ميَّزه وشرّفه بكمال العبودية فهو أكمل عباد الله عبادةً لله ، وميزه سبحانه وتعالى بالرسالة وأنه عبد الله ورسوله ومصطفاه وخير رسل الله سبحانه وتعالى ، فهو صلى الله عليه وسلم بشر مثل البشر مخلوقٌ من ذرية آدم ، وعبدٌ لله جل وعلا ، والعبد لا يُعبد ولا يعطى شيء من خصائص الرب جل وعلا ، فهو عليه الصلاة والسلام بشر وعبدٌ لله جل وعلا ، والعبد لا يُعبد ،العبادة إنما هي لله ، فلا يعطى شيء من خصائص الله في ربوبيته أو أسمائه سبحانه وتعالى وصفاته ، ولا أيضا يُصرف له شيء من حقوق الله على عباده ؛ فحقوق الله لله لا يعطى غيره شيئ منها كائنا من كان لا لملك مقرب ولا لنبي مرسل .

فإذاً إظهار هذا الوصف ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾ هذا إبطال للغلو فيه صلوات الله وسلامه عليه، إما بإعطائه شيء من خصائص الله أو شيء من حقوق الله على عباده ؛ فهذا كله باطل يتنافى مع وصفه بالبشرية ، خصائص الله لله ، ولهذا كان عليه الصلاة والسلام إذا سمع بشيء من ذلك نهى عنه وزجر عنه أشد النهي والزجر ، مثل لما سمع امرأة تقول : "وفينا رسول الله يعلم ما في غدٍ" غضب وقال : ((لا يعلم ما في غد إلا الله)) . ولما سمع قائلا يقول "ما شاء الله وشئت" قال : ((أجعلتني لله عِدلًا! قل ما شاء الله وحده)) . ولهذا نظائر كثيرة جدا في سنته صلوات الله وسلامه عليه .

فهو صلى الله عليه وسلم بشر ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾ لكن ميزه الله بقوله ﴿ يُوحَى إِلَيَّ ﴾ وهذه أعظم كرامة ومنةٌ عظيمة من الله سبحانه وتعالى بها على عبده ومصطفاه صلوات الله وسلامه عليه بالرسالة والوحي ؛ ﴿ يُوحَى إِلَيَّ ﴾ .

﴿ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ وهذا فيه أن التوحيد هو خلاصة دعوة المرسلين وزبدة رسالتهم كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل:٣٦] ، وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء:٢٥] ، وقال تعالى: ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [الزخرف:٤٥] ، وقال تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ

﴿ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ[1] مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾ [الأحقاف:٢١] ؛ فزبدة دعوة المرسلين وخلاصة رسالتهم : الدعوة إلى توحيد الله وإخلاص الدين له سبحانه وتعالى .

﴿ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ هذه خلاصة دعوة المرسلين وزبدة رسالتهم ؛ ﴿ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ وهذا هو التوحيد ؛ إنما إلهكم إله واحد لا ند له ولا شريك سبحانه وتعالى ، فهو جل وعلا إله واحد ؛ إلهٌ اتصف بصفات الكمال ونعوت الجلال ، له الأسماء الحسنى والصفات العليا، إلهٌ واحد ، واستحق جل وعلا أن يُفرد وحده في العبادة وأن يُخلص له الدين ، ولهذا جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما كما في تفسير ابن جرير وغيره أنه قال في معنى الله : «ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين» ؛ اسم الله تبارك وتعالى «الله» دال على الألوهية والعبوية ؛ الألوهية صفات الكمال والجلال والعظمة التي اتصف بها سبحانه وتفرد بها فاستحق أن يُؤله وأن يُخلص له الدين ، والعبودية فعل العبد من صلاة وصيام وذل وخشوع وخضوع ودعاء وغير ذلك . فالله عز وجل هو الواحد المتصف بصفات الكمال والجلال والعظمة ، والواحد الذي يجب أن يُفرد بالعبادة فلا يُجعل معه شريك كائنا من كان لا ملك مقرب ولا نبي مرسل .

﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ ﴾ أي يخاف الوقوف بين يدي الله ويدرك أنه سيبعث وأنه يلقى الله وأن الله سبحانه وتعالى يحاسبه على أعماله في هذه الحياة ، من كان يدرك ذلك ويعيه ويفهمه ويعقله فليُعِدَّ لهذا اللقاء زاداً وليعِدَّ للسؤال جواباً وليكن الجواب صواباً ، سيُسأل يقف بين يدي الله تبارك وتعالى .

﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ وهذا خلاصة ما تكون به النجاة يوم القيامة وما يكون به الفوز يوم القيامة ، لا نجاة يوم القيامة ولا فوز إلا بهذين الأمرين: ﴿ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا ﴾ ، ﴿ وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ .

﴿ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا ﴾ أي ليجتهد بأن تقع أعماله على الصلاح والسداد والإصابة وموافقة الحق والهدى ، فإن الإنسان ليس له أن يعبد الله بما شاء من الآراء والمحدثات والمخترعات وغير ذلك ، بل مطلوب منه أن يعبد الله بما شرع ، ولهذا فإن قوله ﴿ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا ﴾ فيه الاتباع والاقتداء والائتساء بالرسول الكريم عليه الصلاة والسلام لأن العمل الصالح هو ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، وما سواه محدثات وبدع ، ما ترك خيرًا إلا دل الأمة عليه ولا شرًا إلا حذرها منه ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم : ((مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ)) حتى وإن استحسنه صاحبه ورأى أنه من أحسن الأعمال وخيرها وأجودها فإنه لا يُقبل منه ، لا يُقبل العمل حتى يكون صالحا ، ولا يكون العمل صالحًا إلا إذا وافق السنة .

---

[1] أي الرسل

قال: ﴿ وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ أي لتكن أعماله كلها خالصة لله، لا يبتغي بها إلا وجه الله؛ فهذا فيه الإخلاص للمعبود سبحانه وتعالى ، وهو يتناول كما قدمت بعمومه إبطال الرياء والتحذير منه .

وهذه الآية الكريمة جمعت بين شرطي قبول العمل وهما: الإخلاص للمعبود ،والمتابعة للرسول عليه الصلاة والسلام، فالله لا يقبل العمل إلا بهذين الشرطين ، قال عز وجل: ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾[الملك:٢] . قال الفضيل ابن عياض رحمه الله تعالى : «أخلصه وأصوبه»؛ هذا معنى قوله ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ قال : "أخلصه وأصوبه" ، قيل يا أبا علي وما أخلصه وأصوبه؟ قال : «إن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يُقبل ، وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل حتى يكون خالصا صوابا ، والخالص ما كان لله ، والصواب ما كان على السنة» . وهذا أثر عظيم جدًا مروي عن هذا الإمام رحمه الله تعالى وهو من أجلة علماء التابعين .

فالعمل لا يتقبله الله سبحانه وتعالى من العامل إلا إذا أخلصه لله وكان عمله موافقاً لهدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا هو معنى قول الله تعالى ﴿ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ ، ومن دعاء أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه «اللهم اجعل عملي صالحاً ،ولك خالصاً ،ولا تجعل لأحدٍ فيه شيئا» .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا قال الله تعالى : «أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه » رواه مسلم .

****

قال رحمه الله تعالى: ((**وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا**)) أي إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

((**قال الله تعالى**)) أي أنه حديث قدسي من كلام الله سبحانه وتعالى .

((**أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه**)) وفي رواية للحديث عند ابن ماجة ((فَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ وَهُوَ لِلَّذِي أَشْرَكَ)) هذا معنى قوله ((تركته وشركه)) فلا يقبله الله سبحانه وتعالى من العامل .

قال: ((**أنا أغنى الشركاء عن الشرك**)) ؛ هذا فيه إثبات كمال غنى الله جل وعلا ، ومن أسمائه جل وعلا «الغني»، ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾[فاطر:١٥] . فالله عز وجل الغني ، وغناه جل وعلا غنى ذاتي ، غنيٌ عن المخلوقات كلها ، والمخلوقات كلها فقيرة إليه ، وفقر المخلوقات فقر ذاتي لا غنى لها عن الله سبحانه وتعالى طرفة عين ، العرش الذي استوى عليه الرحمن جل وعلا وما دونه كلها فقيرة إلى الله والله سبحانه وتعالى غني عن المخلوقات كلها ، ولهذا هو جل وعلا بقدرته جل في علاه هو الممسك للعرش والممسك

للسماوات والممسك للأرض ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر:٤١] ، قال تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة:٢٥٥] القيوم: هو القائم بنفسه؛ وهذا فيه إثبات كمال غناه ، والقيوم: أي القائم بشؤون خلقه؛ وهذا فيه كمال قدرته جل وعلا، فالله عز وجل الغني وغناه غنى ذاتي ، والمخلوقات كلها فقيرة إلى الله جل وعلا .

وفي الحديث يقول : ((**أنا أغنى الشركاء عن الشرك**)) ؛ وقوله «أغنى» هذا أفعل تفضيل ، وأفعل التفضيل قد يستعمل في غير بابه ، ومعنى استعماله في غير بابه: أن لا يكون في المفضَّل شيء من أوصاف الفاضل ، مثل قول الله تعالى ﴿آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل:٥٩] ، الأصنام لا خير فيها ، فأفعل التفضيل قد يستعمل في غير بابه بمعنى أن المفضول ليس فيه شيء من الأوصاف المشار إليها أو المذكورة ، يضربون له العلماء في اللغة مثالا للتوضيح يقولون : مثل لو قال قائل العسل أحلى من الملح ؛ هل يلزم من ذلك أن الملح فيه شيء من الحلاوة ؟ لا يلزم ، هذا يقال فيه : استُعمل أفعل التفضيل في غير بابه . ﴿أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف:٣٩] فقوله ((أغنى الشركاء عن الشرك)) هو من استعمال أفعل التفضيل في غير بابه، فيه كمال غنى الله سبحانه وتعالى، والمتخذون شركاء مع الله فقراء ، كل هؤلاء المتخذين شركاء مع الله كلهم فقراء لا غنى لهم عن الله سبحانه وتعالى طرفة عين .

((**أنا أغنى الشركاء عن الشرك**)) فيه إثبات كمال غنى الله ، ولهذا لا يناسب غناه ولا يليق بغناه أن يُجعل معه شريك في العمل ، فإذا جُعل معه شريك في العمل رد الله العمل على العامل ولم يقبله منه ، ومن كمال غناه سبحانه أنه لا تنفعه طاعة الطائعين ولا تضره معصية العاصين ، ولهذا قال في الحديث القدسي سبحانه وتعالى : ((يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا)) ، فهو سبحانه وتعالى لا تنفعه طاعة من أطاع ولا تضره معصية من عصى ، وفي الحديث القدسي نفسه حديث أبي ذر قال: ((يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي ، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي)) هو غني ؛ غني عن العباد ، غني عن توحيدهم ، غني عن صلاتهم ، غني عن صيامهم ، غني عن حجهم ، غني عن جميع طاعاتهم، الطاعات كلها لا تنفعه ، والمعاصي كلها لا تضره ﴿فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [يونس:١٠٨] ، وهذا كله من كمال غنى الله سبحانه وتعالى عن المخلوقات ، فالله غني عن المخلوقات وعن عباداتهم وعن طاعاتهم وعن أعمالهم .

قال: ((**أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملًا**)) أي قلَّ العمل أو كثر .

((**من عمل عملا أشرك معي فيه غيري**)) أي جعل في هذا العمل جعل فيه شريكًا لله وأشرك فيه مع الله غيره ، «غيره» تتناول كل غير ، سواءً كان هذا ملكا أو نبيا أو وليا أو رجلاً صالحاً أو غير ذلك ((**من عمل عملا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه**)) ؛ وهذا فيه أن الشرك مبطلٌ للعمل محبطٌ له لا يقبله الله سبحانه وتعالى، فيه دليل على أن الله لا يقبل العمل إلا إذا أُخلص لله وابتغي به وجه الله وحده ، أما إذا كان جعل مع الله فيه شركاء رده الله على العامل ، ولهذا جاء في رواية قال: ((فَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ وَهُوَ لِلَّذِي أَشْرَكَ)) ، وإذا كان العمل للذي أشرك فأي شيء سيجد العامل عند هذا الذي جعله شريكاً مع الله ؟ هذا هو عين الخسران والحرمان ، أعاذنا الله أجمعين ورزقنا الإخلاص في أعمالنا وأقوالنا وجميع عباداتنا .

قوله ((**تركته وشركه**)) ؛ الضمير في «تركته» يعود على العامل ، «وشركه» أي العمل الذي عمله وجعل مع الله سبحانه وتعالى شريكاً فيه، فلا العامل يحصِّل ثوابا ولا العمل أيضاً يكون مقبولا .

وعن أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعا : ((ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟)) قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : ((الشرك الخفي ؛ يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل)) رواه أحمد .

****

قال : ((**وعن أبي سعيد مرفوعا**)) أي إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

أنه قال : ((**ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟**)) جاء في بعض الروايات للحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لهم ذلك عندما خرج عليهم ووجدهم يتذاكرون فتنة المسيح الدجال وأنها أعظم الفتن ، فتنة عظيمة ، ولهذا شُرع لنا في كل صلاة قبل أن نسلِّم أن نستعيذ بالله من هذه الفتنة استعاذةً متكررة مستمرة ، وما من نبي بعثه الله إلا وأنذر قومه من فتنة المسيح الدجال ، فتنة عظيمة من أعظم الفتن وأشدها وأخطرها وهي فتنة جارفة وعاصفة ومهلِكة للناس ، ولهذا قال نبينا عليه الصلاة والسلام ((مَنْ سَمِعَ بِالدَّجَّالِ فَلْيَنْأَ عَنْهُ)) لا يقترب من المكان الذي هو فيه ، الاقتراب فيه خطورة عظيمة ؛ لما يحمله هذا الدجال من فتن تجرف بعقائد الناس بإيمانهم بعبادتهم .

فخرج عليه الصلاة والسلام على الصحابة يوماً وهم يتذاكرون هذه الفتنة العظيمة ، ومن المهم جدًا في فهم هذا الحديث أن يُستحضر خطورة هذه الفتنة فتنة المسيح الدجال وكيف أنها من أعظم الفتن وأخطرها ؛ يمر على قرية ويدعو أهلها إلى الإيمان به أنه هو الرب وأنه هو المعبود ، فإن استجابوا أمَر السماء أن تمطر فتمطر وأمَر الأرض أن تُنبت فتنبت ، وإن أبوا أمر الأرض أن تخرج كنوزها فتتبعه كنوزها ، فتن عجيبة وعاصفة وجارفة مذهلة للعقول، تطيش معها العقول إلا من سلَّمه الله . ولهذا يجب على الإنسان أن يحذر من قربان مكانه أو الدنو منه . وبين

يدي هذا الدجال الأكبر دجاجلة كثيرون يوطئون له ويمهدون له بنشر الدجْل بين الناس بطرائق تفتن الناس في أديانهم ، ولهذا كما أن قوله عليه الصلاة والسلام ((مَنْ سَمِعَ بِالدَّجَّالِ فَلْيَنْأَ عَنْهُ)) يتناول أصالةً الدجال الأكبر فإنه أيضا يتناول بعمومه جنس الدجال ، فكل دجال يجب على المسلم أن ينأ عنه ، وما أكثر الدجالين ، لا يخاطر الإنسان بينه ويقول أسمع وأنظر وأشاهد وأتعرف، ثم لا يدري وإذا بالباطل تسلل إلى قلبه ودخل إلى نفسه مما يرى من فتن تعصف وجوارف تهلك . ((مَنْ سَمِعَ بِالدَّجَّالِ فَلْيَنْأَ عَنْهُ)) فهذا يتناول أصالةً الدجال الأكبر ويتناول أيضاً ما يأتي قبله من دجاجلة يوطِّئون لمجيئه ويمهدون لمقدمه أعاذنا الله أجمعين من فتنة المسيح الدجال .

قال : ((**ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟**)) هذا أيضا فيه نصحه عليه الصلاة والسلام لأمته وحرصه عليهم ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾[التوبة:١٢٨] ؛ ففيه نصحه صلى الله عليه وسلم وحرصه .

((**قالوا : بلى**)) وهذا أيضا فيه حرص الصحابة على الخير . ((قالوا بلى)) : أي أخبرنا بهذا الأمر الذي تخاف علينا منه أشد من خوفك علينا من فتنة المسيح الدجال .

((**قال : الشرك الخفي**)) ؛ وهذا فيه التنبيه إلى أن الشرك شركٌ جلي وشركٌ خفي ؛ الجلي: الظاهر الواضح البيّن، والخفي: ضده وهو الذي يتسلل إلى القلب ويتسرب إلى النفس ، ولا يدري الإنسان عن نفسه بين وقت وآخر وإذا به دخل إلى قلبه أو إلى نفسه شيء من هذا الشرك ، ولهذا جاء في حديث آخر أن النبي عليه الصلاة والسلام وهو يبين هذا الشرك –الشرك الخفي– وخطورته ، والحديث في الأدب المفرد قال: ((لَلشِّرْكُ فِيكُمْ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ)) سبحان الله !! وانظر شدة خفاء دبيب النمل حتى تدرك خطورة هذا الشرك الخفي ؛ لو كنت جالسًا ومرَّت نملة ومن ورائها عد من النمل تدب دبيبًا ما شعرتَ بها . قال ((لَلشِّرْكُ فِيكُمْ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ)) فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَهَلِ الشِّرْكُ إِلَّا مَنْ جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخر؟" هذا الشرك الجلي ، شخصٌ يجعل لله ندا يسجد له ويذبح له وينذر له ، قال : "وَهَلِ الشِّرْكُ إِلَّا مَنْ جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخر؟" قال : ((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَلشِّرْكُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ، أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى شَيْءٍ إِذَا قُلْتَهُ ذَهَبَ عَنْكَ قَلِيلُهُ وَكَثِيرُهُ؟ قَالَ: قُلِ اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أُشْرِكَ بِكَ وَأَنَا أَعْلَمُ وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا أَعْلَم)) ؛ فهذه دعوة عظيمة حافظ عليها ينفعك الله بها «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أُشْرِكَ بِكَ وَأَنَا أَعْلَمُ وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا أَعْلَم» .

فإذًا الشرك منه شرك جلي أي ظاهر ومنه شرك خفي ، ومن خفاء هذا الشرك أنه يتسلل إلى النفوس ويتسرب إليها ويزاحم النية الصالحة التي في قلب الإنسان ، حتى إن الإنسان قد يخرج من بيته متوضئاً متطهراً ليس عنده نية إلا أن يصلي لله لا يريد إلا وجه الله منذ خرج من بيته ، ثم يقف مصليا وإذا به وهو في صلاته يمر من حوله أو قريباً منه شخصٌ معظم أو له منزلة أو له مكانة فتبدأ تلك النية الصالحة يزاحمها شيء آخر ؛ التفت القلب شيئا

من الالتفات إلى هذا الذي مر به من الناس فيبدأ يزين من صلاته ، ربما أنه أحيانا يطبق بعض السنن لما وُجد في قلبه من التفات إلى هذا الذي حوله ، وتجده في نفسه يطبقها يقول في نفسه حتى يعرف أنني مثلا أطبِّق السنة أو نحو ذلك .

هذا الشرك الخفي أمر خطير جداً ، ولهذا قال الأوزاعي رحمه الله : «ما عالجتُ شيئا أشد علي من نيتي» ، النية تتفلت ويصيبها ما يصيبها ، يدهاها ما يدهاها من هذه الأمور ؛ فيحتاج الإنسان إلى معالجة للنية معالجة مستمرة ومدافعة لهذا الرياء ومدافعة لهذا الشرك مدافعة مستمرة ، إلى أن يتوفاه الله وهو في مدافعة له ، وإلا كل مرة تهجم عليه أمور تؤثر على نيته ، قد قال عليه الصلاة والسلام ((إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى)) .

((**قالوا بلى ، قال الشرك الخفي**)) ثم بيَّنه بالمثال ، بيَّن هذا «الشرك الخفي» ويسمى أيضا «شرك السرائر» .

قال : ((**الشرك الخفي ؛ يقوم الرجل فيصلي**)) هذا الذي صلى قد يكون من بدء أمره وخروجه من بيته وتطهره ما أراد إلا الله .

((**فيزين صلاته ، لما يرى من نظر رجل**)) متى وُجد التزيين للصلاة والإصلاح؟ لما وُجد نظر رجل إليه بدأ يزين صلاته من أجله ، وإلا من قبل من حين خرج وبدأ في صلاته ونيته لله ، لكن لما مر به ذلك الرجل أخذ يزين صلاته .

سمعتُ -ولعلها طرفة سمعتها وأنا صغير وأقولها تذكرتها الآن- يقولون رجل كان يصلي فمر به أناسٌ لهم مكانة في نفسه فزين صلاته لهم ؛ فأبدوا إعجابًا ، مروا من عنده وأبدوا إعجابا في صلاته وقالوا كذا وكذا يمدحون صلاته وهو يسمعهم ، فلما أنهى صلاته لحقهم قال: "وأيضا اليوم صائم" .

فمصيبة النفس مصيبة عظيمة في النظر للناس والالتفات لهم وطلب محمدتهم وثنائهم ؛ هذه مهلِكة للإنسان إهلاكا عظيما ، وتجد نفسه إذا دخل في هذا الباب ما تشبع وتمرض والعياذ بالله ، تمرض مرضا عظيما ولا تشبع ويصبح يزداد مثل ما حكينا في هذه الطرفة يصبح نفسه تزداد طلبا وبحثا وتحريا لهذا المقام وانصرافاً عن الإخلاص لله سبحانه وتعالى في العبادة .

هنا خوف النبي صلى الله عليه وسلم الشديد على أمته من هذا الشرك ؛ ذكر العلماء أن لهذا الخوف أسباب ، قال ((ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي)) لماذا كان هذا الشرك أخوف وخافه النبي صلى الله عليه وسلم على الأمة هذا الخوف الشديد؟

❖ أولاً : لخفائه ؛ ولهذا سمي «شركاً خفيا» ويسمى أيضا «شرك السرائر» ، فهو شرك يدب بخفاء كما تقدم معنا أخفى من دبيب النمل .

❖ الأمر الثاني: قوة الداعي ؛ قوة الداعي: أي في نفس الإنسان النفس البشرية فيها قوة داعي لطلب الثناء والمحمدة وهذا يحتاج إلى مدافعة ، إذا وُجد هذا الثناء من غير طلبٍ من الإنسان له ولم يقصده ولا طلبه هذا من عاجل بشرى المؤمن ، لكن المصيبة عندما يكون هو مراد الإنسان ومقصوده .

❖ الأمر الثالث: عُسر التخلص منه .

الخفاء ، وقوة الداعي ، وعسر التخلص منه إلا من سلَّمه الله سبحانه وتعالى ، ويأتي هنا في هذا المقام الدعوة المباركة التي علَّمها النبي صلى الله عليه وسلم أمته وأخبر أن من اعتنى بها فإن الله يُذهب عنه قليل الشرك وكثيره .

أحسن الله إليك : تقسيمات الشرك المعروفة الشرك أكبر والشرك أصغر ، هل الشرك الخفي نوع ثالث أو تقسيم آخر ؟

- بعض العلماء يقسِّمون الشرك إلى أقسام ثلاثة؛ يقولون : شرك أكبر ، وشرك أصغر، وشرك خفي ، ويجعلون هذا القسم الثالث الذي هو الشرك الخفي هو المعني هنا ؛ الذي هو الرياء وإظهار العمل والتصنع به ونحو ذلك .
- ومن أهل العلم من يجعل الشرك نوعان: أكبر وأصغر ، ويجعل الخفاء خفاء الشرك وصفٌ للأمرين . فعبادة الأصنام شركٌ أكبر وهو في الوقت نفسه جلي ، والرياء المحض الرياء الخالص هو من الأمور التي تخفى على الناس لا يرونه ، ليس شيئا يشاهدونه فهو هذا الاعتبار خفي وهو شرك أكبر ناقل من الملة . والشرك الأصغر منه جلي مثل الحلف بغير الله أو "لولا فلان لكان كذا" ونحو ذلك من الألفاظ الشركية التي لا تصل بقائلها إلى حد الشرك الأكبر الناقل من الملة ، ومنه شرك خفي .
- فمن أهل العلم من يجعله قسمين ، ويجعل الوصف بالخفي يكون في الأكبر باعتبار وفي الأصغر باعتبار ، ومنهم من يجعله أقساماً ثلاثة .

قال رحمه الله تعالى :

فيه مسائل ؛ الأولى : تفسير آية الكهف .

وهي قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا(١١٠) ﴾ ، وتفسيرها مر معنا .

الثانية : الأمر العظيم في رد العمل الصالح إذا دخله شيء لغير الله .

ينبه رحمه الله على عظم هذا الأمر وأهمية الاهتمام به والعناية ؛ «الأمر العظيم في رد العمل الصالح إذا دخله شيء لغير الله» ، وهذا الرد أخذه من قول الله جل وعلا في الحديث القدسي ((أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه)) ؛ ففيه رد العمل إذا جُعل أو أُدخل فيه شيء لغير الله .

الثالثة : ذكر السبب الموجب لذلك وهو كمال الغنى .

ذكر السبب الموجب لذلك وهو كمال الغنى :كمال غنى الله سبحانه وتعالى ، ولهذا صُدِّر هذا الحديث القدسي بقوله جل في علاه : ((أنا أغنى الشركاء عن الشرك)) .

الرابعة : أن من الأسباب أنه تعالى خير الشركاء .

أن من الأسباب في رد العمل وعدم قبوله أنه سبحانه وتعالى خير الشركاء ، يشير إلى لفظة وردت لهذا الحديث ((أنا خير الشركاء)) ، فهذا أيضا من الأسباب لرد العمل الذي جُعل فيه أو أُدخل فيه شيء لغير الله .

الخامسة : خوف النبي صلى الله عليه وسلم على أصحابه من الرياء .

أي فكيف بمن بعدهم؟ إذا كان خاف عليهم من الرياء وهم من هم ديانةً وإيماناً !! وقد قال عليه الصلاة والسلام ((خير الناس قرني)) ، فإذا كان خاف على هؤلاء الذين هم خير الناس خاف عليهم من الرياء وقال : ((ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من فتنة المسيح الدجال؟ فقالوا بلى)) أي أخبرنا بهذا الذي تخاف علينا منه خوفاً أشد من خوفك علينا من فتنة المسيح الدجال ، فإذا كان خاف على أصحابه رضي الله عنهم وأرضاهم من الرياء فكيف بمن هو دونهم ولا يبلغ مبلغهم ولا قريبا منهم من مبلغهم في الإيمان والديانة والعبادة والإخلاص لله سبحانه وتعالى !!

السادسة : أنه فسَّر ذلك بأن المرء يصلي لله ، لكن يزينها لما يرى من نظر رجلٍ إليه .

المسألة السادسة وهي آخر المسائل : «أنه فسَّر ذلك» يعني فسر الشرك الخفي الذي خافه عليه الصلاة والسلام فسره بقوله «بأن المرء يصلي لله لكن يزينها –أي صلاته– لما يرى من نظر رجل» ؛ من أين أخذ رحمه الله تعالى قوله «يصلي لله» ؟ تأمل الحديث ؛ قال ((يقوم الرجل فيصلي)) ، هذه الصلاة أصلاً إنما كانت لله وخروجه إنما كان لله ثم طرأ التزيين في الصلاة وشيء من التحسين فيها متى؟ عندما وُجد نظر الرجل ، قد يكون وجود هذا النظر في منتصف الصلاة أو قبيل آخر الصلاة أو في وسط الصلاة ، فوجد النظر فبدأ يتحرك في نفسه التزيين في صلاته من أجل هذا الرجل . فإذاً قام يصلي لله .

فقوله ((فيصلي)) ظاهر الحديث أن صلاته هذه إنما كانت لله بدءً من خروجه من بيته إلى أن وصل إلى المسجد ثم لما رأى نظر رجلٍ إليه بدأ يحسِّن ويزين من صلاته من أجل نظر ذلك الرجل ؛ فهذا الرياء طارئ على العمل .

- قد يكون الرياء من أصل العمل ومن حيث بدأ به وهو يرائي ؛ وهذا العمل لا شك باطل الذي إنما كان الرياء من أصله .
- وأما الرياء الطارئ في بعض العمل :
  - إن كان طرأ عليه ودافعه الإنسان وطرده ولم يسترسل معه فإنه لا يضره ويثاب على مجاهدته لنفسه في طرد هذا الرياء وإبعاده عنه .
  - وإن وُجد منه شيء من الاسترسال في هذا العمل وهو من الأصل إنما أدى العمل لله وبدأه لله وخرج في أدائه لله ثم في أثناءه في وسطه مثلا في أواخره طرأ عليه يسير رياء فاسترسل معه أو امتد معه شيئاً يسيرًا هذا الرياء ولم يحاول قمعه أو منعه أو طرده عن نفسه فهل يكون مبطلاً لهذا العمل –أي كله –أو لا ؟ قولان لأهل العلم ، ورجح الإمام أحمد رحمه الله أنه لا يبطل العمل بتمامه لأن العمل من أصله إنما كان الله سبحانه وتعالى .

وهذه المسألة من حيث الرياء هل هو رياء محض أو رياء طارئ ؟ والرياء الطارئ هل هو من أصل العمل أو في أثناءه ؟ وهل أيضا استرسل معه أو قمعه؟ تجدون فيه تفصيلا نافعاً نقله الشيخ سليمان بن عبد الله في تيسير العزيز الحميد عن الحافظ ابن رجب رحمه الله وعلق أيضا عليه الشيخ سليمان بتعليقات مهمة ومفيدة جدا لطالب العلم ، ولو كان في الوقت سعة لقرأناه كاملا لأهميته وعظيم فائدته لكن لعله يراجع في تيسير العزيز الحميد .

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك .

اللهم صلِّ وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .



شرح كتاب التوحيد

لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه اللّه

من الدرس ٣٧ إلى الدرس ٤٠

شرح الشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظهما اللّه تعالى

١٤٤٠/٠٥/٠٢ هـ

الدرس السابع والثلاثون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد:

يقول الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب التميمي رحمه الله تعالى في كتابه «كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد » :

بابٌ من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا

وقوله تعالى : {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا} الآيتين [هود:١٥-١٦] .

****

فهذا الباب ((**بابٌ من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا**)) عقده الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب رحمه الله تعالى لبيان أمرٍ آخر مما يكون قادحًا في الإخلاص وتوحيد العبد ؛ وهو أن يريد الإنسان بعمله الدنيا ، والمراد بالعمل : أي العمل الذي يُتقرب به إلى الله سبحانه وتعالى ويُرجى به ما عند الله سبحانه وتعالى ، فإن عمِله العامل لا يريد به إلا الدنيا كان ذلك قادحًا في الإخلاص ، وقد مر معنا في الباب الذي قبله ((باب ما جاء في الرياء)) ؛ والرياء كذلك قادح في الإخلاص ؛ فكلٌ من الرياء وإرادة الدنيا بالعمل كلٌ منهما قادحٌ في الإخلاص ، إلا أن المرائي أراد بمراءاته المدح والسمعة والثناء –ثناء الناس عليه– ، وأما من أراد بعمله الدنيا فإنه يريد بذلك شيئًا محسوسًا؛ مالًا يأخذه دراهم ودنانير وتجارات وأرباح ، وكل منهما قصْده منافٍ للإخلاص وقادحٌ في الإخلاص ، إلا أن المرائي أراد بذلك مدحًا وثناءً فلم يحصِّل طائلًا ، وأما من أراد بعمله الدنيا فقد يحصِّل شيئا من أمور الدنيا التي يطمع فيها أو أصبحت هي همَّه ومبلغ علمه ، قد يحصِّل شيئا من ذلك لكن ليس له في الآخرة من نصيب وليس له في الآخرة ثوابًا على تلك الأعمال ، لأن إرادة الدنيا بالعمل محبطٌ للعمل كما في الآية الكريمة التي ساقها المصنف رحمه الله تعالى مصدِّرًا بها هذه الترجمة .

قال: ((**باب من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا**)) ؛ «بعمله» عرفنا أن المراد بالعمل: أي الأعمال الصالحة والطاعات والعبادات التي لا تُفعل إلا تقربًا إلى الله سبحانه وتعالى ، «الدنيا» :أي لم يرد بهذا العمل إلا الدنيا ، أي لم يرد الآخرة بالعمل ، ومن شروط قبول العمل والثواب عليه ونيل أجر الآخرة : أن يكون العمل أريد به الآخرة كما في قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإسراء:١٩] أي أنَّ الله سبحانه وتعالى إنما يشكر للعامل عمله فيثيبه عليه إذا أراد به الآخرة ، أما إذا

أراد به الدنيا فإنه لا يجد على هذا العمل في الآخرة ثوابًا وأجرًا لأنه لم يرِد به الآخرة ، ومن لا يريدون بأعمالهم الآخرة يتفاوتون كما سيأتي بيان ذلك عند الكلام على الآية الكريمة التي ساقها المصنف رحمه الله تعالى .قال :

((باب من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا)) .

قال : وقول الله تعالى : ﴿ **مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾[هود:١٥-١٦] ؛ فذكر الله سبحانه وتعالى هذا الذي إنما يريد بعمله الدنيا ، أي يريد بعمله الذي هو عمل الآخرة يقدِّمه لكن لا يريد به الآخرة وإنما يريد به الدنيا ، أي يريد ثواب الدنيا ولم يقم في قلبه طمع مثلاً في ثواب الآخرة ، يعمل عمل الآخرة لا يريد ثواب الآخرة وإنما يريد ثواب الدنيا ؛ هذا معنى قوله ﴿يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ أي ويريد زينة الحياة الدنيا من مال وتجارة ومكاسب وأرباح وما إلى ذلك .

قال: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾ ؛ نوف إليهم أعمالهم: أي ثواب الأعمال ، تلك الأعمال التي قدَّمها يريد عليها ثواب الدنيا يوفيه الله تبارك وتعالى أعماله أي ثواب أعماله ، مثل أن يقدِّم مثلًا صدقات ، أو يبني دورًا للأيتام ، أو مثلا يحفر آبارًا ، أو غير ذلك وهو لا يريد بهذا العمل الآخرة ، فالله جل وعلا يقول: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾ أي ينال ثواب الدنيا الذي هو مقصده ومراده ، لكن لا ينال في الآخرة شيئا ، لأنه لم يرد الآخرة بعمله .

على أن هذه الآية وهي قوله ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾ قيَّدتها الآية الكريمة التي في سورة الإسراء وهي قول الله سبحانه وتعالى:﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا(١٨)﴾ ؛ فقوله جل وعلا ﴿ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُرِيدُ ﴾هذا تقييد لقوله ﴿ نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا ﴾ ، فقيَّد قوله ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾ قول الله سبحانه وتعالى في سورة الإسراء﴿ مَا نَشَاءُ لِمَن نُرِيدُ ﴾

قال : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ؛ ذكر حبوط الذي صنعوه ، وهذا يعني أنه لا ثواب عليه في الآخرة ، فالحابط لا ثواب عليه ، وذكر أيضًا بطلان عملهم ، والبطلان يعني فساد العمل ، ومن لازم فساد العمل أن لا يكون له ثوابًا .

فهذه الآية جاءت في الوعيد لمن أراد بعمله الدنيا ، ومن يريد بعمله الدنيا قد يكون كافرًا بالله سبحانه وتعالى ولا طمع له أصلًا في الآخرة ، وأعماله كلها في الدنيا ولا همَّ له في الآخرة بل ولا تفكير له في الآخرة ، بل ربما لا

يؤمن أيضا بالآخرة ، فعمله كله يريد به الدنيا ، حتى مثلا ما يقدِّمه من أعمال ونفقات ووجوه الإحسان ونحو ذلك يقدمه وهو لا يريد به الآخرة ، قد يريد به مثلا جاهًا ، قد يريد به سمعةً ، مثل ما جاء في الحديث أن عَدِي ابن حاتم سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن والده ، والده حاتم الطائي الذي يُضرب به المثل كثيرًا في الكرم ، ودائما إذا ذكر الناس في القديم والحديث الكرم كرم شخص من الأشخاص قالوا : "مثل حاتم الطائي أو أكرم من حاتم الطائي" لأنه اشتهر بكرم عجيب ، ومن يقرأ في أخباره يجد أمورا عجيبة ، لكن تلك الأمور التي قدَّمها ما كان يريد بها الآخرة فلا يجد عليها شيئا في الآخرة ؛ فسأل عَدي بن حاتم الطائي النبي صلى الله عليه وسلم عن والده هل ينفعه ذلك؟ قال : كان يكرم الضيف ويفعل كذا ويفعل كذا ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : ((إِنَّ أَبَاكَ أَرَادَ شَيْئًا فَأَدْرَكَهُ)) قالوا يعني الذكر ، وهو حديث حسن .

ونظيره ما جاء في صحيح مسلم أن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن ابن جدعان وهو عبد الله ، قالت : «إنه كان يقري الضيف ويساعد المحتاج ونحو من هذا ؛ هل ينفعه ذلك؟» قال النبي صلى الله عليه وسلم : ((لَا يَنْفَعُهُ، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ)) أي لم يرد بهذه الأعمال الآخرة ، لم يرد الغفران ، لم يرد العتق من النيران ، لم يرد الفوز بالجنة ورضا الرحمن ، وإنما كان يقدِّم هذه الأعمال لأشياء ومرادات دنيوية قد يكون حصَّلها أو لم يحصِّلها ، لكن ليس له في الآخرة إلا النار ، قالت «هل ينفعه؟» قال ((لا)) .

فإذاً من يريد الدنيا بعمله قد يكون كافرًا ليس له أصلا مراد إلا الدنيا ولا همَّ له في الآخرة أصلا ، وقد يكون هذا الذي يريد بعمله الدنيا مسلمًا لكنه يصاب بنقص شديد في إيمانه وفي دينه في قليلٍ من أعماله أو في كثير منها فيريد بها الدنيا ، ولهذا المفسرون في هذه الآية منهم من حمل الآية على الكافر ، منهم من قال : نزلت في اليهود والنصارى ، ومنهم من حمل الآية على أهل الإسلام ممن جاءوا بالأعمال الصالحة على غير تقوى من الله أو على نقص في التقوى من الله ؛ بأن يكون عنده مثلا شيئا من الرياء أو شيء من إرادة الدنيا بالعمل أو نحو ذلك في حدٍّ لا يكون موصلًا صاحبه إلى الكفر الأكبر الناقل من ملة الإسلام ، وهؤلاء ولاشك الآية تتناولهم بعمومهما ، لكن ليس العقوبة التي لهم كالعقوبة التي للكافر ، وليس الحبوط الذي لأعمالهم كالحبوط الذي للكافر؛ فالكافر أعماله كلها حابطة لأن الكفر يهدم كل العمل ، وقد قال الله سبحانه وتعالى ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ﴾ [التوبة:٥٤] ، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة:٥] ، ويأتي في كثير من آيات القرآن الكريم تقييد قبول الأعمال بوجود الإيمان، كالآية التي تقدمت ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [الإسراء:١٩] ، وكذلك قوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [النحل:٩٧] ، والآيات في هذا كثيرة ، فمثل هذا كفره محبط لكل عمل . أما

المرائي أو من يريد بعمله الدنيا وعنده أصل الإسلام فإن ما وُجد عنده من يسير رياءٍ أو إرادة للدنيا بالعمل لا يكون مبطلا لأعماله كلها ، ولهذا قال العلماء الإيمان إيمانان :

١. إيمان يمنع الدخول ؛ أي يمنع صاحبه من دخول النار ، وهو الإيمان التام الكامل المطلق .

٢. وإيمانٌ يمنع من الخلود في النار ، وإن لم يمنع من دخولها .

فمثل هؤلاء إذا وجد عندهم مراءات وإرادة للدنيا بالعمل لهم عقوبة النار ، لكن ما عندهم من إيمان يمنع من خلودهم في النار ، ولهذا لا إشكال في كون الآية تتناول هؤلاء وهؤلاء ، لكن كلٌ له منها بحسب حاله ؛ فالحبوط للكافر حبوطٌ كامل وبطلان كامل لعمله وليس له في الآخرة إلا النار مخلداً فيها أبد الآباد ، وأما من كان عنده أصل الإيمان فإن أصل الإيمان إذا وُجد عنده منع من الخلود في النار ما لم يقم فيه كفرٌ أكبر ناقل من الملة ، فإن قام فيه هذا الكفر الأكبر أبطل أعماله كلها وأحبطها ولم يكن له في الآخرة إلا النار خالدًا مخلدًا فيها أبد الآباد.

وللإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في الكلام على معنى هذه الآية وتلخيص أحوال السلف كلامٌ عظيم للغاية جديرٌ بكل طالب علم أن يقف عليه وأن يتأمله لمتانته وأهميته وعظيم فائدته ، ولأنه عصارة عظيمة وخلاصة مفيدة جدًا لأقوال السلف في معنى هذه الآية الكريمة .

قال رحمه الله تعالى : قد ذُكر عن السلف من أهل العلم فيها –أي في هذه الآية ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ﴾ [هود:١٥-١٦] – أنواعٌ مما يفعله الناس اليوم ولا يعرفون معناه :

- الأول من ذلك: العمل الصالح الذي يفعل كثيرٌ من الناس ابتغاء وجه الله ؛ من صدقة وصلةٍ وإحسان إلى الناس ونحو ذلك ، وكذلك ترك ظلمٍ أو كلام في عرض ، يعني يترك ظلم الناس أو يترك الكلام في أعراضهم ونحو ذلك مما يفعله الإنسان أو يتركه خالصًا لله لكنه لا يريد ثوابه في الآخرة ، إنما يريد أن الله يجازيه على هذا العمل بحفظ ماله وتنميته وحفظ أهله وعياله وإدامة النعمة عليه ونحو ذلك، ولا همة له في طلب الجنة ولا الهرب من النار ؛ فهذا يعطى ثواب عمله في الدنيا وليس له في الآخرة نصيب ، لأنه لم يرد بهذا العمل الذي عمله لم يرد به الآخرة وإنما أراد عليه شيئا في الدنيا . قال : وهذا النوع ذُكر عن ابن عباس في تفسير الآية ، يشير رحمه الله تعالى إلى ما جاء في التفسير عن ابن عباس في معنى هذه الآية قال : من عمل صالحا التماس الدنيا صومًا وصلاةً وتهجدًا بالليل لا يعمله إلا لالتماس الدنيا ، يقول الله : أوفِّيه الذي التمس في الدنيا من المثابة ، وحبط عمله الذي كان يعمل وهو في الآخرة من الخاسرين ؛ أي لا ينال ثوابًا على هذا العمل في الآخرة لأنه أصلا لم يرد عليه شيئا في الآخرة .
- قال رحمه الله : والنوع الثاني وهو أكبر من الأول وأخوف ؛ وهو الذي ذكر مجاهد أن الآية نزلت فيه ؛ وهو : أن يعمل أعمالًا صالحة ونيته رئاء الناس لا طلب ثواب الآخرة وهو يظهر أنه أراد وجه الله ، وإنما صلى أو

صام أو تصدق أو طلب العلم لأجل أن الناس يمدحونه ويُجَلُّ في أعينهم ، فإن الجاه من أعظم أنواع الدنيا ، فإن الجاه والشهرة والسمعة من أعظم أنواع الدنيا . قوله رحمه الله «وهو الذي ذكر مجاهد» جاء في التفسير عن مجاهد رحمه الله وهو من علماء التابعين قال في تفسير هذه الآية هم أهل الرياء ، ولهذا قال الشيخ وهو الذي ذكره مجاهد أن الآية نزلت فيهم .

- ثم قال رحمه الله النوع الثالث : أن يعمل الأعمال الصالحة ومقصده بها مالًا ، مثل أن يحج لمال يأخذه لا لله ، أو يهاجر لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها ، أو يجاهد لأجل المغنم ؛ فقد ذُكر هذا النوع أيضا في تفسير هذه الآية كما في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم تعس عبد الخميصة..)) إلى آخر الحديث ، وكما يتعلم العلم لأجل مدرسة أهله أو مكسبهم أو رئاسته ، أو يقرأ القرآن ويواظب على الصلاة لأجل وظيفة المسجد كما هو واقع كثيرا ، وهؤلاء أعقل من الذين قبلهم؛ لأنهم عملوا لمصلحة يحصِّلونها والذين قبلهم عملوا لأجل المدح والجلالة في أعين الناس ولا يحصُل لهم طائل ، والنوع الأول أعقل من هؤلاء كلهم لأنهم عملوا لله وحده لا شريك له لكن لم يطلبوا منه الخير العظيم وهو الجنة ولم يهربوا من الشر العظيم وهو العذاب الذي في الآخرة .
- قال رحمه الله النوع الرابع : أن يعمل الإنسان بطاعة الله مخلصًا في ذلك لله وحده لا شريك له ، لكنه على عملٍ يكفِّره كفرًا يخرجه عن الإسلام ، مثل اليهود والنصارى إذا عبدوا الله وتصدقوا وصاموا ابتغاء وجه الله والدار الآخرة ، ومثل كثير من هذه الأمة الذين فيهم شرك أكبر أو كفر أكبر يخرج عن الإسلام بالكلية ، إذا أطاعوا الله طاعة خالصة يريدون بها ثواب الله في الدار الآخرة لكنهم على أعمالٍ تخرجهم من الإسلام وتمنعهم قبول أعمالهم ؛ فهذا النوع أيضا قد ذُكر في الآية عن أنس بن مالك وغيره وكان السلف يخافون منه ، وقوله «ذُكر عن أنس» جاء في التفسير عن أنس رضي الله عنه أنه قال : أنزلت في اليهود والنصارى ، ويقول الشيخ مثل أيضا كثير من هذه الأمة الذين فيهم شرك أكبر ، يعني مثلا شخص يحج ولم يبتغ بحجه إلا وجه الله ، لكنه إذا دعا استغاث بغير الله والتجأ إلى غير الله، والاستغاثة والدعاء عبادة وصرف العبادة لغير الله شرك أكبر ناقل من الملة مبطل للأعمال ، قد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨] .

ثم قال رحمه الله تعالى : (قال بعضهم لو أعلم –انظر خوف السلف رحمهم الله ورضي عنهم وألحقنا أجمعين بالصالحين من عباده– قال بعضهم : لو أعلم أن الله تقبل مني سجدة واحدة لتمنيت الموت) أي على هذه السجدة التي علمتُ أن الله تقبلها مني ، لأن الله يقول ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧] أي الذين اتقوا الله في العمل ، ويقول الله سبحانه وتعالى عن المؤمنين الكمّل ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ

رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾[المؤمنون:٦٠] ، وقد سألت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها كما في المسند وغيره النبي صلى الله عليه وسلم عن معنى هذه الآية قالت: «أهو الرجل يزني ويسرق ويقتل ويخاف أن يعذب؟» قال : ((لا يا ابنة الصديق ، وإنما هو الرجل يصلي ويصوم ويتصدق ويخاف ألا يُقبل)) ، ولهذا قال الحسن البصري رحمه الله : «المؤمن جمع بين إحسان ومخافة ، والمنافق جمع بين إساءة وأمن» ؛ المؤمن عنده إحسان في العمل وفي الوقت نفسه خوف من أن يردَّ عليه العمل وأن لا يُقبل منه ، قال عبد الله بن أبي مليكة وهو من علماء التابعين : «أدركت أكثر من ثلاثين صحابيا كلهم يخاف النفاق على نفسه» ؛ فأهل الإيمان يحسنون العمل وفي الوقت نفسه يخافون أن ترد عليهم أعمالهم ، ولهذا مجاهدة للنفس في الإحسان والإتقان للعمل والإخلاص لله ، وفي الوقت نفسه إلحاح على الله سبحانه وتعالى بأن يتقبل منهم صالح أعمالهم .

قال بعضهم لو أعلم أن الله تقبل مني سجدة واحدة لتمنيت الموت لأن الله يقول : ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة:٢٧] ؛ فهذا قصَد وجه الله والدار الآخرة لكن فيه من حب الدنيا والرئاسة والمال ما حمله على ترك كثيرٍ من أمر الله ورسوله أو أكثره فصارت الدنيا أكبر قصده ؛ فلذلك قيل قصد الدنيا ، وصار ذلك القليل كأنه لم يكن كقوله صلى الله عليه وسلم ((صلِّ فإن لم تصل)) ، والأول أطاع الله ابتغاء وجهه لكن أراد من الله الثواب في الدنيا وخاف على الحظ والعيال مثل ما يقول الفسقة ؛ فصح أن يقال قصد الدنيا والثاني والثالث واضح .

هذه أربعة أنواع ذكرها رحمه الله تعالى كلها داخلة في معنى الآية ، تدل عليها هذه الآية الكريمة وهي منقولة كما أشار رحمه الله تعالى عن السلف في معنى هذه الآية . ثم ختم هذا الكلام بقوله : لكن بقي أن يقال إذا عمل الرجل الصلوات الخمس والزكاة والصوم والحج ابتغاء وجه الله طالبًا ثواب الآخرة ، ثم بعد ذلك عمل أعمالًا كثيرة أو قليلة قاصدًا بها الدنيا مثل أن يحج فرضه لله ثم يحج بعده لأجل الدنيا كما هو الواقع كثيراً ؛ فالجواب : أن هذا عمل للدنيا والآخرة ولا ندري ما يفعل الله في خلْقه ، والظاهر أن الحسنات والسيئات تدافع وهو لما غلب عليه منهما ، وقد قال بعضهم : إن القرآن كثيرًا ما يذكر أهل الجنة الخلَّص وأهل النار الخلَّص ويسكت عن صاحب الشائبتين وهو هذا وأمثاله ، ولهذا خاف السلف من حبوط الأعمال .

هذا كلام عظيم جدا ونافع وهو موجود في مجموع مؤلفات الشيخ وأيضا في الدرر السنية وفي غيرهما من المصادر .

قال رحمه الله تعالى :

في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((تعِس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الخميصة ، تعس عبد الخميلة ، إن أُعطي رضي ، وإن لم يُعط سخط،

تعس وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش ، طوبى لعبدٍ آخذٍ بعِنان فرسه في سبيل الله ، أشعث رأسه، مغبرة قدماه ، إن كان في الحراسة كان في الحراسة ، وإن كان في الساقة كان في الساقة ، إن استأذن لم يؤذن له ، وإن شفع لم يشفع)) .

****

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث وهو في الصحيح –صحيح البخاري– عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((**تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الخميصة ، تعس عبد الخميلة))** ؛ سمى النبي صلى الله عليه وسلم من كانت هذه الأشياء أكبر همه ومبلغ علمه وتمام حرصه عبدًا لها لأنها هي همه إن أعطي منها رضي وإن لم يُعط منها سخط ؛ رضاه وسخطه فيها ، حبه وبغضه فيها ، ولاؤه وبراؤه فيها ، فهو عبدٌ لها ، عبدٌ للدرهم وعبدٌ للدينار وعبدٌ للخميصة وعبدٌ للخميلة .

وبدأ عليه الصلاة والسلام تحذيره من هذه العبودية بقوله ((تعس)) وهذا دعاء عليه بالهلاك والخيبة والخسران .

((تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الخميصة ، تعس عبد الخميلة)) بدأ بالعين ثم ثنَّى بالعرَض ، العين: الدراهم والدنانير ، والعرَض: الخميصة والخميلة ونحو ذلك من الأشياء .

قال: ((**تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الخميصة ، تعس عبد الخميلة))** والخميصة والخميلة نوع من الثياب ؛ الخميصة: ثوب من الخز أو الصوف ولا يقال له خميصة إلا إذا كان معلَّمًا ، والخميلة هو الثوب الذي فيه خمُل أي ذؤابات في أطرافه تجمِّله وتحسِّنه .

((**إن أعطي رضي ، وإن لم يعط سخط**)) وهذا تفسير للعبودية ، عبودية هذا الشخص لهذه الأشياء إن أعطي رضي وإن لم يعط سخط؛ أي أن همه هذه الأشياء ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾[التوبة:٥٨] فهمه هذه الأشياء تفكيره فيها هي مبلغ علمه وهي مقصده ومراده ((إن أعطي رضي وإن لم يعط سخط)) ؛ فجعله عليه الصلاة والسلام عبد ما يرضيه وجوده ويُسخطه فقْده .

قال: (**(تعس وانتكس)**) قال أهل العلم : تعس المراد به الخسران ، والمعنى أنه انكبَّ على وجهه ، تعس أي انكب على وجهه خاسرًا . وانتكس هذه حال أشد وهي أن يكون رأسه في الأرض وأعلاه فوق . تدرج في الدعاء عليه أولا بالتعاسة وهي الانكباب والسقوط على وجهه ، ثم أمر أشد من ذلك وهو أن يكون رأسه في الأرض ورجلاه إلى أعلى ، انتكس أي انتكس على رأسه فصار رأسه أسفل ورجلاه فوق .

((**وإذا شيك فلا انتقش**)) أي إذا أصابته شوكة لم يتمكن من إخراجها ولم يجد أيضا من يخرجها له ، وهذا مثال لحال من أصابه الشر إصابةً لم يتمكن من الخلاص منها ، تلوث فيه وتوغل فيه وأصيب به إصابة لم يتمكن من

الخلاص منها . قال ((وإذا شيك فلا انتقش)) أي لا نال المطلوب ولا سلِم من المكروه ، فهذه حال من كان عبدًا لهذه الأشياء.

قال: ((**طوبى لعبدٍ آخذ بعِنان فرسه**)) لما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم حال عبد الدرهم وعبد الدينار وعبد الخميصة وعبد الخميلة الذي لا همّ له إلا تلك الأشياء فيها يرضى وعليها يسخط ، لما ذكر حاله ذكر حال أهل العبودية الخالصة لله والصدق مع الله وحُسن الإقبال على الله سبحانه وتعالى بقوله ((طوبى لعبد)) ؛ قيل طوبى المراد به الثواب العظيم والأجر الجزيل ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨)الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ [الرعد:٢٨-٢٩] ، قيل طوبى أي الثواب العظيم والأجر الجزيل .

وقيل طوى شجرة في الجنة ، جاء في المسند للإمام أحمد بسند جيد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((طُوبَى شَجَرَةٌ فِي الْجَنَّةِ مَسِيرَةُ مِائَةِ عَامٍ ، ثِيَابُ أَهْلِ الْجَنَّةِ تَخْرُجُ مِنْ أَكْمَامِهَا)) ، وتأمل هذه اللطيفة من أكمامها ثياب أهل الجنة ، وأولئك شغلتهم ثياب الدنيا خميصة وخميلة وأصبحت هي شغلهم الشاغل وهمُّهم عن هذا الموعود الكريم والثواب العظيم .

قال: ((**طوبى لعبدٍ آخذ بعنان فرسه**)) عِنان الفرس : أي خطام الفرس وزمامه ؛ منطلقا في الجهاد في سبيل الله إعلاء لكلمة الله مخلصا بعمله لله لا يبتغي به إلا وجه الله .((آخذ بعنان فرسه سبيل الله)) أي مخلصا إنما يبتغي ذلك وجه الله سبحانه وتعالى .

((**أشعث رأسه، مغبرة قدماه**)) أشعث رأسه: أي رأسه شعِث ليس مرجّل لأنه منشغل في ملاقاة العداء والانتصار لدين الله تبارك وتعالى ، مغبرة قدماه : لأنه ليس عنده وقت للعناية بترجيل شعره وتنظيف بدنه وإنما هو في سبيل الله .

((**إن كان في الحراسة كان في الحراسة ، وإن كان في الساقة كان في الساقة**)) لا يهمه المكان الذي يوضع فيه في الجهاد ، أينما وضعه القائد –قائد جيش المسلمين– في مكان قبِله ، همه نصرة دين الله مطيعًا للقائد إن وضعه في مقدمة الجيش قبِل ، وإن وضعه في الحراسة في مؤخرة الجيش قبِل ، المهم أنه ماضي في هذا العمل المبارك الطاعة العظيمة مجاهدًا في سبيل الله ، ((إن كان في الحراسة كان في الحراسة ، وإن كان في الساقة كان في الساقة)) لا يبالي في أي مكان وضع من الجيش ؛ في المؤخرة أو في المقدمة أو في أي مكان هو مخلص في عمله مطيع لقائد الجيش مؤتمر في المكان الذي يوضع فيه طالبًا بعمله ذلك وجه الله سبحانه وتعالى .

((**إن استأذن لم يؤذن له ، وإن شفع لم يشفَّع**)) أي أنه إن استأذن على أمير من الأمراء أو وجيه من الوجهاء أو شخص من الأشخاص الكبار لم يؤذن له ، لأنه ليس له شأن عند الناس وليس له مكانة عند الناس ، آثر الخمول والتواضع فليس له شأن ولا مكانة عند الناس ((إن استأذن لم يؤذن له)) .
((وإن شفع)) أي احتاج الأمر أن يشفع لأحد في أمر ما لم تُقبل شفاعته ، لأن الشفاعة يقبلونها من الشخص الذي له مكانة عندهم ولهم به معرفة وله بهم خلطة فيقبلون شفاعته ، أما مثل هذا شفاعته تُرد .
قال ((إن استأذن لم يؤذن له وإن شفع لم يشفع)) وليس هذا لهوانه بل إنه كريم عند الله مثل ما جاء في حديث آخر قال نبينا عليه الصلاة والسلام ((رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ)) .

قال رحمه الله تعالى :

فيه مسائل ؛ الأولى : إرادة الإنسان الدنيا بعمل الآخرة .

قال رحمه الله تعالى : ((فيه مسائل ؛ الأولى : إرادة الإنسان الدنيا بعمل الآخرة)) ؛ بعمل الآخرة من صلاة أو صيام أو حج أو صدقة أو بر أو إحسان أو غير ذلك يعمله وهو لا يريد به الآخرة وإنما يريد به الدنيا ؛ وهذا كما تقدم من الشرك ، قال: ((باب من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا)) .

الثانية : تفسير آية هود .

تفسير آية هود وهي قول الله سبحانه وتعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ [هود:١٥-١٦] إلى تمامها والآية بعدها ، ومر معنا تفسيرها وأيضا مر معنا تلك الخلاصة العظيمة الوافية للإمام المجدد رحمه الله تعالى مما استخلصه من كلام السلف رحمهم الله تعالى في معنى الآية .

الثالثة : تسمية الإنسان المسلم عبد الدينار والدرهم والخميصة .

لأنه قال عليه الصلاة والسلام: ((تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم)) ؛ فإذا كان هذا الشخص الذي وصفه النبي صلى الله عليه وسلم عبدًا لها لهذه الأشياء بمعنى أنها استرقَّت قلبه واستلبت فكره وشغلت فكره فأصبح همه لها فهو عبدٌ لها ، وإذا كان عنده مع ذلك أصل الإيمان ولم يبلغ بعبوديته لها ورقِّه لها مبلغ الشرك الأكبر والكفر الأكبر الناقل من الملة فهو مسلم لكنه ناقص الإيمان ضعيف الدين عبوديته لهذه الأشياء قادحة في إيمانه وقادحة في عبوديته لله سبحانه وتعالى .

الرابعة : تفسير ذلك بأنه إن أعطي رضي وإن لم يعط سخط .

«تفسير ذلك» أي عبد الدرهم عبد الدينار إلخ تفسير ذلك بقوله ((إن أعطي رضي وإن لم يعط سخط)) ، ومعنى ذلك أنه جُعل في هذا الحديث عبدًا لما يرضيه وجوده ويسخطه فقده ((إن أعطي منها رضي وإن لم يعط منها سخط)) .

الخامسة : قوله ((تعس وانتكس)) .

وهذا أيضا دعاء عليه بتعس وانتكس ، وكلٌ منهما دعاء عليه بالخسران والخيبة؛ تعس وانتكس ، وقيل في معنى تعس: أي انكب على وجهه ، وانتكس: انتقال إنما هو أشد من ذلك وهو أن يكون رأسه أسفل ورجلاه أعلى .

السادسة : قوله ((وإذا شيك فلا انتقش)) .

أي إذا أصابته شوكة في قدمه أو في موضع من بدنه فلا انتقش أي لم يتمكن من إخراجها ولم يجد أيضا من يخرجها منه ، فلا نال المطلوب ولا سلِم من المكروه .

السابعة : الثناء على المجاهد الموصوف بتلك الصفات .

الثناء على المجاهد –أي في سبيل الله تبارك وتعالى– الموصوف بتلك الصفات في قوله ((لعبدٍ آخذ بعنان فرسه في سبيل الله ، أشعث رأسه مغبرة قدماه ، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة ، إن استأذن لم يؤذن له وإن شفع لم يشفَّع)) .

وبهذا ينتهي ما ذكره رحمه الله تعالى من مسائل تحت هذه الترجمة .

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك .

اللهم صلِّ وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

الدرس الثامن والثلاثون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد:

يقول الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب التميمي رحمه الله تعالى في كتابه «كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد » :

بابٌ من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرمه فقد اتخذهم أربابًا من دون الله .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء، أقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتقولون: قال أبو بكر وعمر؟! رضي الله عنهما .

****

فهذا الباب ((**بابٌ من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرمه فقد اتخذهم أرباباً**)) أي من دون الله تبارك وتعالى ، والله سبحانه وتعالى هو الرب الذي له الحكم ؛ له الحكم القدري ، وله تبارك وتعالى الحكم الشرعي الديني ، وله تبارك وتعالى الحكم الجزائي ؛ فالحكم كله لله سبحانه وتعالى ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام:٥٧] ، فمن اتخذ غير الله حكماً وابتغى غير الله حكماً فقد جعله شريكاً مع الله ونداً لله سبحانه وتعالى ، وهذا من الشرك .

ولهذا أورد المصنف رحمه الله تعالى هذه الترجمة في كتاب التوحيد تحذيراً من ذلك وبياناً لما فيه من المنافاة لتوحيد الله تبارك وتعالى ، وهو سبحانه وتعالى الإله الذي يُخضع له وحده ويُذل ، يؤله ويُعبد ، والطاعة المطلقة له وحده سبحانه وتعالى ، ومن عبادته طاعتُه ، بل العبادة هي الطاعة والامتثال لأمر الله سبحانه وتعالى ، فمن جعل لله سبحانه وتعالى شريكاً في الطاعة وجعل له طاعةً مطلقة فيما يأمر به وما ينهى عنه فقد جعله نداً لله سبحانه وتعالى وهذا من الشرك ؛ فهذه ترجمة عظيمة لابد من فهمها في التوحيد وتحقيق التوحيد لله سبحانه وتعالى ؛ الطاعة المطلقة إنما هي لله سبحانه وتعالى .

وطاعة الرسول عليه الصلاة والسلام من طاعة الله ، لأن الرسول مهمته أن يبلِّغ كلام مرسله ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [المائدة:٩٩] ، قال الله تعالى: ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ

يُوحَى ﴾[النجم:٣،٤] ؛ فهو عليه الصلاة والسلام مبلِّغ عن الله ، يأتيه الوحي من الله تبارك وتعالى ويتنزل عليه الوحي ويبلغه صلوات الله وسلامه عليه ، فبلَّغ البلاغ المبين ، فالطاعة له عليه الصلاة والسلام هي من الطاعة لله ﴿ومَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء:٨٠] ؛ ولهذا جاءت طاعته مقرونةً بطاعة الله سبحانه وتعالى في آيات كثير في كتاب الله عز وجل ، فطاعته صلى الله عليه وسلم من طاعة الله جل وعلا ، ويطاع في كل ما يأمر به لأنه مبلغ عن الله ، لا يأمر إلا بالوحي ولا ينذر إلا بالوحي ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ﴾[الأنبياء:٤٥] لأنه رسول والرسول مهمته إبلاغ كلام من أرسله .

وأما العلماء والأمراء فإن لهم من الطاعة فيما هو في طاعة الله سبحانه وتعالى ؛ لهذا جاء في الآية الكريمة قال الله سبحانه وتعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء:٥٩] ولم يقل : "وأطيعوا أولي الأمر منكم" ؛ لأن الطاعة التي لأولي الأمر –وهم العلماء والأمراء– في حدود طاعة الله سبحانه وتعالى ، فإن أمَر بمعصية فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

قال : ((**بابٌ من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرمه فقد اتخذهم أرباباً**)) ؛ أي إذا أحلوا حراماً فأطاعهم في تحليل الحرام ، أو حرموا حلالاً فأطاعهم في تحريمه فقد اتخذهم بذلك أرباباً من دون الله ، وهذا كفرٌ وشركٌ بالله سبحانه وتعالى .

والشاهد: أن هذه الترجمة ترجمة عظيمة ولها أهميتها في كتاب التوحيد ، لأن من توحيد الله تبارك وتعالى إفراده سبحانه وتعالى بالطاعة ، فهو جل وعلا الرب الحكم الملِك الذي له الحكم لا شريك له في الحكم ، له الحكم القدري الكوني ، وله تبارك وتعالى الحكم الشرعي الديني ، وله تبارك وتعالى الحكم الجزائي ،كل ذلكم لله سبحانه وتعالى لا شريك له في ذلك ، فالطاعة إنما هي لله عز وجل ، والطاعة عبادة لله ، من عبادة الله سبحانه وتعالى طاعته ، بل العبادة طاعة لله وخضوعٌ وذلٌّ له سبحانه وتعالى .

قال : ((**فقد اتخذهم أرباباً**)) أي من دون الله.

أورد أثر عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما قال : ((**يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء ، أقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتقولون: قال أبو بكر وعمر؟!**)) ؛ يوشك : أي يدنو ويقرب ؛ فعلتم فعلةً وقمتم بأمرٍ مؤذِنٌ بقرب العقوبة ودنوِّها منكم .

((**يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء**)) : أي عقوبة من الله . لماذا ؟!

قال : ((**أقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتقولون: قال أبو بكر وعمر!**)) ؛ وقال ذلك رضي الله عنه في مسألة التمتع والإفراد في الحج ، فإن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما يريان أن الإفراد أفضل ؛ بحيث يكون

مجيء الناس إلى البيت مكرراً ولا ينقطع الناس عن البيت ، فيأتي حاجًّا ثم يأتي أيضاً معتمراً ، وأن الأفضل أن يجعل لكلٍ منهما سفرة مستقلة ، للحج سفرة وللعمرة سفرة مستقلة .

وابن عباس رضي الله عنهما يرى أن التمتع أفضل بل هو الواجب ؛ لأحاديث عنده في هذا الباب وكلام سمعه من رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، عندما حج عليه الصلاة والسلام حجة الوداع وقد حج قارناً إلا أنه أمر من لم يسُق الهدي بعد أن يطوف بالبيت ويسعى بين الصفا والمروة من كان قارناً أو مفرداً ولم يسُق الهدي أن يتحلل وأن يجعلها عمرة ، وأمرهم عليه الصلاة والسلام بذلك ، حتى إنه في حديث سُراقة قال : «ألنا خاصة أم للأبد؟» قال : ((بل للأبد)) ، أو كما جاء عنه صلوات الله وسلامه وبركاته عليه .

فابن عباس رضي الله عنهما يرى وجوب التمتع فبلغه أن أناس يرون الإفراد ويقولون : قال أبو بكر وعمر ؛ فقال هذه المقالة . وإذا كان قال ذلك في حق من أخذ بقول أبي بكر وعمر واجتهادهما رضي الله عنهما وأرضاهما فكيف يقال بمن أخذ برأي من هو دونهما ؟! وكيف يقال في من أخذ برأي نفسه وهو من أهل الجهل وعدم البصيرة وأخذ يقدِّم عقله على كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم !! .

وفي هذا الزمان بُلي الناس بأشخاصٍ لهم جرأة سافرة وعظيمة على كلام رسول الله وأحاديثه الصحيحة الثابتة عنه صلى الله عليه وسلم يردونها لا لشيء إلا لأن عقولهم السقيمة لا تتقبلها ولا تقتنع بها ، في جرأة سافرة يردون فيها الأحاديث الصحيحة الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كقول بعضهم في رده لحديث النبي صلى الله عليه وسلم بالاستشفاء ببول الإبل ، وما جاء عنه عليه الصلاة والسلام فيما يتعلق بالذباب إذا وقع في إناء أحدكم ، وغير ذلكم من الأحاديث التي ردها بعض الضُلَّال لا لشيء إلا لأن عقولهم السقيمة لا تقبلها ؛ وهو أمرٌ في غاية الخطورة ، وهو من أشد ما يكون في التجني والتعدي والتجاوز للحدود .

وإذا كانت الأمور أو الأحاديث –أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم– تقاس بالعقول ؛ فعقل من هذا الذي يكون مقياساً في وزن الأحاديث وإخضاعها له قبولاً أو ردا ؟! ولهذا قال بعض السلف قديماً : من لازم قول هؤلاء –وهذا ذكره التيمي في كتابه الحجة– أن يقول الواحد منهم : أشهد أن عقلي رسول الله بدل أن يقول : أشهد أن محمداً رسول الله . لأن عقله هو المقدم ، وأحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام يعرضها على عقله فإن قبلها عقله وإلا ردها ؛ إذاً عقله المقدم على كلام الرسول الكريم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه . وهذا ولا شك خطر عظيم وتجرٍّ وظلم وتعدي على أحاديث الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه .

وإذا كان ابن عباس رضي الله عنهما قال : ((**يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء؛ أقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتقولون: قال أبو بكر وعمر؟!**)) وهما من هما في الإمامة والفقه والفضل والدراية بدين الله تبارك وتعالى ، ومع ذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما كلمته هذه ؛ فكيف بمن يطَّرح الأحاديث إطراحاً كاملاً ويلغيها إلغاءً تاماً لا يقبلها لا لشيء إلا لأن عقله السقيم لا يقبلها !! .

وقال أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى : عجبتُ لقوم عرفوا الإسناد وصحته ؛ يذهبون إلى رأي سفيان، والله تعالى يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣]

أتدري ما الفتنة؟ الفتنة: الشرك ، لعله إذا ردَّ بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك.

****

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الأثر العظيم وهو نظير ما تقدم عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال : ((**قال أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى : عجبتُ لقوم عرفوا الإسناد وصحته يذهبون إلى رأي سفيان**)) ؛ عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته: أي لا يجهلون بل عندهم علم ، عندهم إطلاع ، وقفوا على الحديث ووقفوا أيضاً على ثبوته وصحته عن رسول الله صلوات الله وسلامه وبركاته عليه ، ومع وقوفهم على الحديث ومعرفتهم بصحته وثبوته عن النبي صلى الله عليه وسلم إلا أنهم يذهبون إلى رأي سفيان ؛ سفيان الثوري رحمه الله تعالى وهو من أئمة العلم والفقه وله مكانة علية ومنزلة رفيعة في الفقه والدراية بالأحكام رحمه الله تعالى .

فيقول أحمد ابن حنبل رحمه الله تعالى منتقداً لأشخاصٍ يقدِّمون رأي سفيان الثوري مع أنهم يعرفون الحديث ووقفوا على صحته وثبوته عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا فيه إشارة إلى أن الذي يُذم هو من كانت هذه حاله ؛ يعني وقف على الحديث وعرف صحة الحديث ومع ذلك يذهب إلى أقوال متبوعيه معرضاً عن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليس لأحدٍ استبانت له سنة النبي صلى الله عليه وسلم أن يدَعها لقول أحد كائنًا من كان . إذا استبانت السنة وجب الاتباع ، ووجب لزوم الهدي ؛ هدي النبي الكريم عليه الصلاة والسلام.

فيقول رحمه الله تعالى : ((**عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته، يذهبون إلى رأي سفيان، والله تعالى يقول:** ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾)) .

﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ أي أمر الرسول عليه الصلاة السلام ، وقال : ﴿عَنْ أَمْرِهِ﴾ ولم يقل: يخالفون أمره ؛ عدى الفعل «يخالف» بـ «عن» لأنه ضمَّنه معنى الإعراض ﴿يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ أي معرضين عن أمر الرسول عليه الصلاة والسلام ؛ يستبين لهم أمره ويتضح لهم ويقفون عليه ويعرضون عنه لقول فلان أو فلان أو نحو ذلك.

﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي أن تزيغ قلوبهم وتضل عن سواء السبيل، وربما بلغ بهم الزيغ إلى الوصول إلى الكفر والعياذ بالله.

﴿ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي يحِلُّ الله سبحانه وتعالى بهم عقوبته ، مثل ما تقدم معنا في قول ابن عباس رضي الله عنهما «يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء» ؛ أي عذاب أليم من الله سبحانه وتعالى يحلُّه بكم عقوبة لكم في ترككم لأحاديث رسول الله صلوات الله وسلامه وبركاته عليه .

قال : ((﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ **أتدري ما الفتنة؟**)) وجاء بهذه الصيغة استدعاءً للانتباه والاهتمام بالأمر ؛ أتدري ما الفتنة؟ الله يقول : ﴿ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ ﴾ أتدري ما الفتنة التي يُخشى أن تصيب هؤلاء ؟

((**الفتنة: الشرك**)) وهذا معنى قول أهل العلم قديماً «المعصية بريد الكفر» ، لأن مثل هذه الخطوات خطوات خطيرة جداً تفضي بالإنسان إلى الشرك والكفر بالله سبحانه تعالى ، فوجب الحذر الشديد من ذلك ؛ ولهذا يجب على المسلم أن يعظِّم أحاديث رسول عليه الصلاة والسلام وأن يعرف مكانتها ، وأنها وحي من الله وأنه عليه الصلاة والسلام لا ينطق عن الهوى ، وأنه صادقٌ مصدوق صلى الله عليه وسلم ، وأنه مبلِّغ عن الله وحيه ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴾ [النور:٥٤] ، فينبغي على المسلم أن يتلقى أحاديثه كلها عليه الصلاة والسلام بالقبول والتسليم مثل ما قال الإمام الزهري رحمه الله تعالى : «من الله الرسالة ، وعلى الرسول البلاغ ، وعلينا التسليم» أي ما جاءنا من أحاديث ثبتت عن رسولنا صلوات الله وسلامه عليه نتلقاها بالتسليم والقبول ، لا نعترض ولا ننتقد ولا نقدِّم عقولنا وآرائنا ، وإنما نأخذها بالقبول والرضى والتسليم معظمين لكلام رسولنا عليه الصلاة والسلام متلقين لها بالقبول . أما إذا بلغ الإنسان مبلغاً بأن يرد الحديث ويأباه ويرفضه ، إما مثلاً لكونه يخالف رأيه أو عقله ، أو لكونه يخالف مذهبه أو يخالف متبوعه ؛ فهذا أمر خطير يُخشى على صاحبه الفتنة .

قال : ((**أتدري ما الفتنة؟ الفتنة الشرك، لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك**)) ؛ إذا رد بعض قول النبي عليه الصلاة والسلام حديثاً واحداً أو حديثين هذا أمرٌ ليس بالهين ، قد يقع في قلب الإنسان شيءٌ من الزيغ فيهلك كما قال الله سبحانه : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف:٥] .

فالأمر خطير جداً ؛ ولهذا يجب على المسلم أن ينشأ معظِّماً لأحاديث النبي عليه الصلاة والسلام مدركاً لمكانتها العظيمة ومنزلتها العلية وأن يتلقاها بالقبول ، وإذا استبانت له سنة النبي صلى الله عليه وسلم فلا يدعها لقول أحد كائناً من كان ، والأئمة الأربعة المتبوعون أبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد رحمهم الله وغيرهم أيضاً من أئمة الإسلام كلهم يوصي بذلك .

- فهاهو الإمام أحمد يقول : ((عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته، يذهبون لرأي فلان)) يحذِّر من ذلك .

- والإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى يقول : «لا يحل لأحدٍ أن يأخذ بقولنا ما لم يعلم دليلنا عليه» .
- والإمام الشافعي رحمه الله تعالى يقول : «إذا صح الحديث فاضربوا بقولي عرض الحائط» ؛ ويقول: فهو مذهبي .
- والإمام مالك رحمه الله تعالى يقول : «كلٌ يأخذ من قوله ويُترك إلا صاحب هذا القبر» ؛ يعني رسول الله صلوات الله وسلامه عليه.

فالأئمة كلهم على هذا المبدأ يوصون بهذا الأمر ويحذِّرون من أن يكون الإنسان يبلغ مبلغاً يرد فيه حديث رسول الله ، إما لقول إمام يتَّبعه ، أو لرأيٍ مثلاً يراه ، أو لعقلٍ مثلاً سقيمٍ يرى أنه معارضٌ لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فهذا كله في غاية الخطورة .

ونقف قليلاً مع كلام ثمين جداً مليء بالفوائد والتوجيهات العظيمة المسددة للشيخ سليمان ابن عبد الله في شرحه لهذا الأثر في كتابه « تيسير العزيز الحميد »:

قال رحمه الله : «وفي كلام أحمد إشارة إلى أن التقليد قبل بلوغ الحجة لا يذم ، إنما المذموم المنكر الحرام : الإقامة على ذلك بعد بلوغ الحجة، نعم وينكِر الإعراض عن كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم والإقبال على تعلم الكتب المصنفة في الفقه استغناءً بها عن الكتاب والسنة [1]. بل إن قرؤوا شيئًا من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فإنما يقرءون تبركًا لا تعلمًا وتفقهًا ، أو لكون بعض الموقفين وقف على من قرأ البخاري مثلاً، فيقرؤونه لتحصيل الوظيفة لا لتحصيل الشريعة ؛ فهؤلاء من أحق الناس بدخولهم في قول الله تعالى: ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا (٩٩) مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا (١٠٠) خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا﴾ [طه:٩٩-١٠١] ، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ إلى قوله: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ [طه:١٢٤-١٢٧] .

فإن قلت: فماذا يجوز للإنسان من قراءة هذه الكتب المصنفة في المذاهب؟ قيل: يجوز من ذلك قراءتها على سبيل الاستعانة بها على فهم الكتاب والسنة وتصوير المسائل، فتكون من نوع الكتب الآلية ، أما أن تكون هي المقدَّمة على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم الحاكمة بين الناس فيما اختلفوا فيه المدعو إلى التحاكم إليها دون التحاكم إلى الله والرسول صلى الله عليه وسلم فلا ريب أن ذلك منافٍ للإيمان مضادٌ له كما قال تعالى:

---

[1] يعني يُذم في هذا الباب رجلان :
- الأول : رجل استبانت له السنة ، وقف على الحديث مثل ما جاء في كلمة الإمام أحمد رحمه الله قال : ((عرفوا الإسناد وصحته)) فيترك الحديث ، يترك كلام النبي صلى الله عليه وسلم ويعرض عنه أخذاً بكلام متبوعه ، أو لزوماً للمذهب الذي هو عليه مع وقوفه على الحديث وثبوت الحديث عنده عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فهذا يذم .
- والآخر الذي يذم : هو الذي يُعرض أصلاً عن الأحاديث ، يعرض عنها ولا يقبِل عليها ولا يحرص على سماعها ولا يعبأ بها أيضاً هذا يذم في إعراضه عن أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم . أما شخصٌ تبع مذهباً من المذاهب المتبوعة في الأحكام ولم يستبن له الحديث فهذا لا يذم ، إلا إذا استبان له الحديث . فهو يذم إما لإعراضه عن الحديث إذا استبان له ، أو لإعراضه عن الحديث أصلاً في دراسته وتعلمه والتفقه في معرفة الأحكام من أحاديث الرسول الكريم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه .

﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾ [النساء:٦٥]. فإذا كان التحاكم عند المشاجرة إليها دون الله ورسوله ثم إذا قضى الله ورسوله أمرًا وجدت الحرج في نفسك ، وإن قضى أهل الكتاب بأمرٍ لم تجد فيها حرجًا ، ثم إذا قضى الرسول صلى الله عليه وسلم بأمر لم تسلِّم له ، وإن قضوا بأمر سلّمت له، فقد أقسم الله تعالى سبحانه وهو أصدق القائلين بأجلِّ مقسم به وهو نفسه تبارك وتعالى أنك لست بمؤمن والحالة هذه . وبعد ذلك فقد قال الله تعالى: ﴿ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ ﴾ [القيامة:١٤-١٥] .

على أن الأئمة الأربعة وغيرهم من أهل العلم قد نهوا عن تقليدهم مع ظهور السنة. فكلام أحمد الذي ذكره المصنف كافٍ عن تكثير النقل عنه. وقال أبو حنيفة رحمه الله : «إذا جاء الحديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم فعلى الرأس والعين، وإذا جاء عن الصحابة فعلى الرأس والعين، وإذا جاء عن التابعين فنحن رجال وهم رجال». وفي روضة العلماء سئل أبو حنيفة رحمه الله إذا قلتَ قولاً وكتاب الله يخالفه؟ قال: « اتركوا قولي لكتاب الله»، قيل: إذا كان قول الرسول يخالفه؟ قال: «اتركوا قولي لخبر الرسول صلى الله عليه وسلم» ، قيل: إذا كان قول الصحابة يخالفه؟ قال: «اتركوا قولي لقول الصحابة»، فلم يقل: هذا الإمام ما يدعيه جفاة المقلدين له أنه لا يقول قولاً يخالف كتاب الله ، حتى أنزلوه بمنْزلة المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى.

وروى البيهقي في السنن عن الشافعي رحمه الله أنه قال: «إذا قلت قولاً وكان عن النبي صلى الله عليه وسلم خلاف قولي؛ فما يصح من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أَوْلى؛ فلا تقلدوني» . وقال الربيع: "سمعت الشافعي رحمه الله يقول: «إذا وجدتم في كتابي خلاف سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقولوا بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوا ما قلت». وتواتر عنه أنه قال: «إذا صح الحديث -أي: بخلاف قولي- فاضربوا بقولي الحائط». وقال مالك رحمه الله : «كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم».

وكلام الأئمة مثل هذا كثير ، فخالف المقلدون ذلك وجمدوا على ما وجدوه في الكتب المذهبية، سواءً كان صوابًا أم خطئا ؛ مع أن كثيرًا من هذه الأقوال المنسوبة إلى الأئمة ليست أقوالاً لهم منصوصًا عليها ، وإنما هي تفريعات ووجوهٌ واحتمالاتٌ وقياسٌ على أقوالهم. ولسنا نقول: إن الأئمة على خطأ، بل هم إن شاء الله على هدى من ربهم، وقد قاموا بما أوجب الله عليهم من الإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم ومتابعته ، ولكن العصمة منتفية عن غير الرسول صلى الله عليه وسلم ، فهو الذي لا ينطق عن الهوى ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ [النجم:٤]. فما العذر في اتباعهم وترك اتباع الذي لا ينطق عن الهوى؟ » .

قال المصنف رحمه الله تعالى :

وعن عدي بن حاتم أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ هذه الآية : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ الآية[التوبة:٣١]**. فقلت له: إنا لسنا نعبدهم ، قال: أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلّون ما حرم الله فتحلونه؟ فقلت: بلى . قال : ((فتلك عبادتهم)) رواه أحمد والترمذي وحسنه.**

****

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث حديث عدي ابن حاتم الطائي رضي الله عنه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ هذه الآية ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ ، وعدي رضي الله عنه وأرضاه أسلم في السنة التاسعة من الهجرة ، وهو ابن حاتم الطائي ذلك الرجل الذي اشتهر بالكرم وصار مضرباً له ، فكان ينفق إنفاقاً عجيباً من ماله يكرم الضيف كرماً عجيباً ويعين المحتاج ، واشتهر بذلك ويروى في كتب التاريخ عنه في هذا الباب قصص عجيبة؛ حتى أنه بات الأمر ألا يذكر الكرم في الغالب إلا ويُذكر حاتم ، وإذا أريد مدح شخص بالكرم قالوا : "أكرم من حاتم الطائي" لأنه صار مضرب مثل في الكرم .

وهذا الكرم الذي كان عليه ذلك هذا الرجل لم يكن على توحيد وإيمان بالله سبحانه وتعالى ، ولم يكن أيضًا قربة لله سبحانه وتعالى ؛ ولهذا كرمه ذلك لا ينفعه عند الله كما أخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد جاء في الحديث حديث ابن عمر وأيضاً حديث عدي نفسه حديث عدي ابن حاتم الطائي أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن والده قال إنه يكرم الضيف ويفعل كذا ويفعل كذا ذكر من مآثره أينفعه ذلك ؟ قال : ((لا ذاك رجل أراد شيئاً فأدركه)) قالوا : يعني الذكر ؛ المراد بالذكر : أي الشهرة والمدح وثناء الناس فأدركه ؛ مدحوه الناس وأثنوا عليه ، وهو كان يريد ذلك ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : ((ذاك رجل أراد شيئاً فأدركه)) قالوا : يعني الذكر ، أرد الذكر أراد الشهرة أراد السمعة فأدرك ذلك مدحه الناس وأثنوا عليه بالكرم والبذل والعطاء أثنوا عليه بذلك ثناءً كثيراً ، لكنه لا يحصِّل عليه عند الله سبحانه وتعالى شيئاً لأنه لم يُبتغى به وجه الله ، والذي ينفع عند الله سبحانه وتعالى هو العمل الذي يبتغى به وجهه .

ومثل حاتم عبد الله بن جدعان والحديث في صحيح مسلم قالت عائشة : سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن ابن جذعان قلت: إنه يكرم الضيف ويساعد المحتاج أينفعه ذلك؟ قال: ((لا ، لأنه لم يقل يوماً قط :رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين)) ؛ منبهاً بذلك صلوات الله وسلامه عليه وبركاته عليه إلى أنه لم يفعل ذلك قربةً لله ولا يرجو فيه شيئاً يوم لقاء الله سبحانه وتعالى ، والعمل إنما يكون نافعاً إذا قام على الإيمان وأريد به الآخرة ، كما قال الله جل وعلا: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإسراء:١٩].

قال : ((**وعن عدي ابن حاتم أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ هذه الآية** ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ **فقلت له: إنا** -أي معاشر النصارى- **لسنا نعبدهم**)) ؛ لأنه كان يفهم العباده أنها السجود والركوع والذبح والدعاء ، قال : ((إنا لسنا نعبدهم)) : أي لم نكن نسجد لهم ولا نركع ، ولا كنا ندعوهم أيضا من دون الله ، ولا كنا نذبح لهم .

((**قال: أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه؟ ويحلّون ما حرم الله فتحلونه؟**)) ألستم تفعلون ذلك ؟

قال ((**قلت: بلى . قال : فتلك عبادتهم**)) فبيّن عليه الصلاة والسلام أن مفهوم العبادة أوسع من أن يكون في السجود والركوع والدعاء والذبح ؛ هذه كلها عبادات عظيمة لكن ليست العبادة منحصرة في ذلك ، بل الطاعة عبادة ، والطاعة المطلقة إنما هي لله سبحانه وتعالى ، فمن أطاع غير الله في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم الله سبحانه وتعالى فقد اتخذه رباً من دون الله واتخذه شريكاً مع الله سبحانه وتعالى .

قال : ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ لاحظ قوله ﴿أَرْبَابًا﴾ وقول عدي ((لسنا نعبدهم)) ؛ في الآية الكريمة قال : ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا﴾ وقال عدي: ((لسنا نعبدهم)) ؛ وهذا يدل على الربوبية التي يدل عليها اسم الله «الرب» ، والألوهية التي يدل عليها اسمه الإله واسمه «الله» ؛ أنهما إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا ، وهنا ذُكرت الربوبية ﴿أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ أي: معبودات من دون الله ، والرب: هو الخالق الرازق المالك المتصرف ، لكن في مثل هذا الإطلاق وفي مثل هذا السياق المراد به المعبود اتخذوهم أرباباً من الله : أي معبودات من دون الله . وهذا أيضاً يوضح لك معنى السؤال الذي يكون في القبر يقال : «من ربك ؟» ما المراد بهذا السؤال ؟ أي من إلهك الذي تعبد وتفرده بالذل والخضوع والتأله ؟ من ربك؟ أي من إلهك الذي تعبد؟ ؛ فالربوبية والألوهية إذا اجتمعا افترقا ، وإذا افترقا اجتمعا .

قال : ((**قلت له: إنا لسنا نعبدهم قال: أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلّون ما حرم الله، فتحلونه؟ فقلت: بلى. قال: فتلك عبادتهم**)) فنبَّه عليه الصلاة والسلام أن العبادة مفهومها أوسع مما كان يظنه عدي رضي الله عنه وأرضاه ، وأن طاعة الأحبار وهم العلماء ، والرهبان وهم العبَّاد في تحريم ما أحل الله وتحليل ما حرم الله أن ذلك نوع من العبادة له وهو من الشرك بالله سبحانه وتعالى .

وعنوان الترجمة مستفاد من هذا الحديث ((بابٌ من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرمه فقد اتخذهم أرباباً من دون الله)) .

قال رحمه الله تعالى :

فيه مسائل؛ الأولى: تفسير آية النور.

وهي قول الله سبحانه وتعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وقد مرت معنا في أثناء كلام الإمام أحمد رحمه الله تعالى ساقها مستشهداً بها في ردِّ حديث النبي صلى الله عليه وسلم لرأي فلان أو فلان .

الثانية : تفسير آية براءة.

وهي قوله سبحانه وتعالى ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ، قد مرت معنا الآية في حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه .

الثالثة : التنبيه على معنى العبادة التي أنكرها عدي .

التنبيه على معنى العبادة التي أنكرها عدي : أي بقوله ((لسنا نعبدهم)) ، ومراد عدي بقوله ((لسنا نعبدهم)) أي لسنا نركع ونسجد لهم وندعوهم من دون الله ونذبح لهم؛ لا نفعل ذلك ، فقال له النبي عليه الصلاة والسلام أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ؟ ويحلون ما حرم الله فتحلونه؟ قال بلى ، قال ((فتلك عبادتهم)) .

الرابعة: تمثيل ابن عباس بأبي بكر وعمر، وتمثيل أحمد بسفيان.

تمثيل ابن عباس بأبي بكر وعمر وهما من هما في الفقه والمكانة والمنزلة ، بل إن النبي صلى الله عليه وسلم قال ((عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ)) ؛ فمثَّل ابن عباس بأبي بكر وعمر ، ومثَّل أحمد بسفيان وهو من هو في الفقه والدراية بالأحكام ؛ وهذا تنبيه من المصنف رحمه الله تعالى أن ذِكر أبي بكر وذكر عمر وأيضا في ذكر سفيان الثوري في أثر أحمد بن حنبل المراد به التمثيل ، ليس المراد تعيين شخص معين وإنما المراد به التمثيل ، وأنه لا يجوز أن يقدَّم قول أحد كائنا من كان مهما بلغت مكانته ومهما بلغت منزلته ، فابن عباس رضي الله عنهما مثَّل بأبي بكر وعمر وهما أعلى الصحابة مكانة وأعظمهم فقهًا وبصيرة بهدي النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه ، والإمام أحمد مثَّل بسفيان ضرب مثالا بسفيان وهو من هو في المكانة في الفقه والدراية بالأحكام .

الخامسة : تغيّر الأحوال إلى هذه الغاية، حتى صار عند الأكثر عبادة الرهبان هي أفضل الأعمال، وتسميتها ولاية، وعبادة الأحبار هي العلم والفقه ، ثم تغيرت الحال إلى أن عُبد من ليس من الصالحين، وعُبد بالمعنى الثاني من هو من الجاهلين.

قال رحمه الله تعالى في المسألة الخامسة وهي خاتمة هذه المسائل في هذه الترجمة: ((**تغير الأحوال**)) يعني كان في الزمن الأول حصل أن يقدَّم مثلا عالم وله مكانته العلمية ومنزلته في الفقه والدراية بالأحكام ويكون الأمر بالخطورة التي مر معنا ذكرها في أثر ابن عباس وأيضا الأثر المنقول عن أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى ، فيقول رحمه الله : ((**تغير الأحوال إلى هذه الغاية حتى صار عند الأكثر عبادة الرهبان** – والمراد الرهبان العبَّاد– **هي أفضل الأعمال، وتسمى الولاية**)) يعني يسمون العابد يسمونه وليًا ، وتحت هذا المسمى يعطونه من الحقوق ما ليس إلا لله ، ويعطونه من الخصائص أيضا ما ليس إلا لله تبارك وتعالى ، وهذا يكثر عند الطرقية، أصحاب الطرق الضالة يكثر عندهم ذلك ؛ يعتقدون في شخص الولاية وأنه من أولياء الله ثم يعطونه من الحقوق ما ليس إلا لله تبارك وتعالى ويعطونه أيضا من الخصائص ما ليس إلا لله ، يعتقدون مثلًا فيه أنه يعلم المغيبات ، يعتقدون فيه أنه مثلا يطلع على ما في الصدور ، ولهذا في بعض المناطق يقال لمن عنده مشكلة "اذهب إلى الولي الفلاني واجلس عنده فقط ولا تتحدث بشيء ثم تذهب هو سيطَّلع على ما في صدرك ويضع لك أيضا في صدرك حلًا لإشكالك دون حاجة أن تتكلم" ، فبلغ بهم الأمر إلى هذا المبلغ يعبدون هؤلاء . قال ((عند الأكثر عبادة الرهبان هي أفضل الأعمال وتسمى الولاية)) وهذا يكثر عند أهل الطرق المنحرفة .

قال: ((**وعبادة الأحبار هي العلم والفقه**)) عبادة الأحبار من حيث طاعتهم فيما يحلونه مما حرم الله أو يحرمونه مما أحل الله ويعدّون ذلك هو الفقه وهو العلم .

قال ((**ثم تغيرت الأحوال إلى أن عُبد من دون الله من ليس من الصالحين**)) لا يُعرف بصلاة ولا عبادة ولا طاعة بل يُعرف بعضهم بالفجور ويعبَد من دون الله!! وربما بعضهم في حياته معروفا بالفسق والفجور وعدم المحافظة على الصلوات وغير ذلك ثم يموت ويعظَّم قبره وتبنى عليه القباب ويُقصد من الجهات إلى غير ذلك .

((**حتى عُبد من دون الله من ليس من الصالحين ، وعُبد بالمعنى الثاني من هو من الجاهلين**)) بالمعنى الثاني الذي هو طاعة الأحبار ، عُبد بالمعنى الثاني من هو من الجاهلين أي من لا دراية عنده ولا بصيرة في دين الله تبارك وتعالى ومع ذلك يطاع ويُسمع له فيما يحلُّه مما حرمه الله أو فيما يحرمه مما أحله الله تبارك وتعالى .

وبهذا تنتهي هذه الترجمة ونسأل الله الكريم أن ينفعنا أجمعين بما علَّمنا وأن يزيدنا علمًا ، وأن يصلح لنا شأننا كله ، وأن لا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين إنه تبارك وتعالى سميعٌ قريبٌ مجيب .

الدرس التاسع والثلاثون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد:

يقول الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد ابن عبد الوهاب التميمي رحمه الله تعالى في كتابه «كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد » :

بابٌ قول الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ [النساء:٦٠] .

****

فهذا الترجمة ترجمة عظيمة جدًا من أبواب هذا الكتاب المبارك كتاب التوحيد لشيخ الإسلام الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى .

قال رحمه الله: ((**بابٌ قول الله تعالى** : ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا** ﴾))

هذه الترجمة معقودة لبيان أمرٍ عظيم من أمور التوحيد ألا وهو : تحكيم الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام والتحاكم إلى شرعه صلوات الله وسلامه عليه ، فهو مبلِّغٌ عن الله ، والحُكم لله تبارك وتعالى ، والنبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه مبلِّغ عن الله جل وعلا شرعه ، والحكم لله؛ له جل وعلا الحكم الكوني القدري ، وله الحكم الشرعي الديني ، وله تبارك وتعالى الحكم الجزائي ، فالحكم كله لله تبارك وتعالى ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف:٤٠] ، وكل تحاكمٍ إلى غير حكم الله جل وعلا فهو تحاكم إلى الجاهلية والباطل ، قال الله جل وعلا: ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة:٥٠] وستأتي الآية عند المصنف رحمه الله تعالى .

وهذه الترجمة كما قدَّمت هي في هذا الأصل العظيم والأساس المتين الذي هو جزءٌ من الإيمان وجزءٌ أيضا من التوحيد ؛ ولهذا أورد رحمه الله تعالى هذه الترجمة في كتابه التوحيد، لأن هذا من توحيد الله ، لأن هذا الذي قرره

رحمه الله تعالى في هذه الترجمة تحكيم الرسول عليه الصلاة والسلام والتحاكم إلى شرعه وردِّ أمور النزاع إلى ما جاء عنه صلى الله عليه وسلم هذا كله من التوحيد ، ولهذا بوَّب رحمه الله تعالى هذه الترجمة في كتابه التوحيد .

أما وجه دخول هذه الترجمة في كتاب التوحيد : فإن تحكيم الرسول عليه الصلاة والسلام والتحاكم إلى شرعه ورد ما كان من نزاعٍ إلى ما جاء عنه صلوات الله وسلامه عليه هذا أصلٌ متين وهو من مقتضى شهادة أن محمدًا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأن هذه الشهادة تعني : طاعته فيما أمر ، وتصديقه فيما أخبر ، والانتهاء عما نهى عنه وزجر ، وألا يُعبد الله سبحانه وتعالى إلا بما جاء عنه صلوات الله وسلامه عليه ؛ فهو الرسول الأمين المبلّغ عن الله تبارك وتعالى شرعه ، وقد بلَّغ البلاغ المبين ، وما ترك خيرًا إلا دل الأمة عليه ولا شرًا إلا حذرها منه .

وهذه الشهادة «شهادة أن محمدًا رسول الله صلى الله عليه وسلم» هي قرينة «شهادة أن لا إله إلا الله» التي هي كلمة التوحيد ، بل إن هاتين الشهادتين جُعلتا بمثابة الأصل الواحد ، وانظر إلى هذا المعنى في نصوص عديدة جاءت عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ؛ مثل حديث: ((بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ)) الخمس ما هي؟ الشهادتان واحد من هذه الخمس ، فجُعلت الشهادتان أصلًا واحدًا ، ((بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ)) هذا أحد الخمس ، فجعل الشهادتين أحد المباني الخمسة لدين الإسلام ، وفي حديث جبريل المشهور لما قال «أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ» قَالَ: ((الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ)) ثم ذكر أركان الإسلام الأخرى . فالشهادتان ؛ «شهادة أن لا إله إلا الله»، «وأن محمدًا رسول الله» صلوات الله وسلامه علية هما متلازمتان وهما بمثابة الأصل الواحد ؛ بمعنى : أن أيًا من الشهادتين لا تكون مقبولةً إلا بالأخرى ، فالله جل وعلا لا يقبل «لا إله إلا الله» إلا بشهادة أن محمد رسول الله ، فهما متلازمتان .

وهذا مما يبين لنا ارتباط هذه الترجمة بكتاب التوحيد ؛ لأن من الإيمان بالله سبحانه وتعالى وتوحيده جل وعلا تحكيم شرعه الذي بعث به رسوله صلوات الله وسلامه عليه ، ورسوله بلَّغ الشرع البلاغ المبين ، ما ترك خيرًا إلا دل الأمة عليه ولا شرًا إلا حذرها منه صلوات الله وسلامه عليه .

وإن شئت في تقرير المعنى المتقدم أن تقول وجه دخول هذه الترجمة في كتاب التوحيد : أن التوحيد توحيدان :

١. توحيدٌ للمرسِل سبحانه وتعالى ؛ وذلك بإخلاص العبادة له وإفراده جل وعلا بالعبادة ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾[النساء:٣٦] ؛ هذا توحيد للمرسِل جل وعلا رب العالمين ؛ بأن يخلَص الدين له ، وأن يُفرد وحده بالعبادة، وأن لا يجعل معه سبحانه وتعالى شريك .

٢. والتوحيد الثاني: توحيد المرسَل صلوات الله وسلامه عليه ؛ وذلك بتجريد المتابعة له صلوات الله وسلامه عليه ، بأن يكون التعويل على شرعه ومردُّ النزاع إلى ما جاء به صلوات الله وسلامه عليه وقبول كل ما جاء عنه صلوات الله وسلامه عليه ، لأن الرسالة والشرع والحكم من الله ، والرسول عليه الصلاة والسلام مهمته بلاغ

كلام مرسله صلوات الله وسلامه عليه ، وقد بلَّغ البلاغ المبين ، ومهمتنا القبول والتسليم والانقياد والخضوع لكل ما جاء عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، كما قال الإمام الزهري رحمه الله تعالى : «من الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ ، وعلينا التسليم » .

أورد رحمه الله تعالى في صدر هذه الترجمة وجعلها دليلًا على هذه الترجمة قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ أي آمنوا بالوحي المنزَّل عليك وهو القرآن الكريم وكذلك السنة المنزلة على النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه ؛ وهي وحيٌ من الله جل وعلا .

﴿ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾ أي ما أنزله الله تبارك وتعالى على النبيين من قبلك ، يدَّعون أنهم مؤمنون بالمنزَّل عليك ويدَّعون أنهم مؤمنون بالمنزَّل على الأنبياء من قبلك لكن عندما يجيء المحك والامتحان والتمحيص لصحة هذا الإيمان يتبين أنهم على خلاف ذلك ، على خلاف هذه الدعوى التي يدَّعونها.

﴿ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ ﴾ كيف يستقيم هذا !! أنه يريد التحاكم إلى الطاغوت ، والإرادة تعني: الإقبال والقبول والاختيار والرغبة في التحاكم إلى الطاغوت ، فكيف تستقيم هذه الإرادة إرادة التحاكم إلى الطاغوت وهو في الوقت نفسه يدَّعي أنه يؤمن بالمنزَّل على محمد صلى الله عليه وسلم وبالمنزَّل على الأنبياء من قبله !! والزعم في الغالب إنما يطلق على الدعاوى الكاذبة ، وهذا فيه أن هؤلاء القوم لم يؤمنوا ، لأنهم لو آمنوا حقيقة وصدقوا في الإيمان بالله والإيمان بمحمد عليه الصلاة والسلام والإيمان بما نُزل عليه صلى الله عليه وسلم لما وجدت عندهم هذه الإرادة الباطلة إرادة التحاكم إلى الطاغوت .

قال : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ ﴾ ؛قوله ﴿ يُرِيدُونَ ﴾ هذه تدل على طلب قلوبهم لهذا الأمر وإقبال نفوسهم عليه واختيارهم لهذا الحكم حكم غير الله سبحانه وتعالى وتقديمه على حكم الله جل وعلا ؛ وهذا ما من شك في أنه كفرٌ بالله سبحانه وتعالى وكفرٌ برسوله عليه الصلاة والسلام وكفرٌ بالشرع والحكم الذي نزَّله الله تبارك وتعالى .

﴿ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا ﴾ ؛ ومعلوم أن هذه الإرادة موضعها القلب ، والقلب لا يُطَّلع على ما فيه ، الناس لا يطلعون على ما في القلوب ولا يدرون عما في قلوب الناس من إراداتٍ سيئة أو إراداتٍ صحيحة ، لكن ثمة أمور تظهر تدل على فساد هؤلاء وفساد إراداتهم وفساد مقاصدهم في أمور تظهر من هؤلاء القوم ، ومن ذلكم ما جاء في الآية التي تلي هذه الآية مباشرة ، الآية التي تلي هذه الآية مباشرة قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ فانظر هذا الصدود الذي لا

يكون إلا من مُعطَبِ قلبٍ بالإرادة الفاسدة ، الصدود عندما يُدعى إلى حكم الله وإلى ما أنزل الله وإلى ما جاء عن الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه إذا دعوا إلى ذلك يصدون عنك صدودا .

﴿ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴾ ولم يقل "صدّا" ؛ وهذا يفيد أن هذا الصدود المراد به امتناع أنفسهم ، وليس المراد صدُّهم للآخرين ، وإنما هم في أنفسهم ممتنعين أصلا عن التحاكم لشرع الله والتحاكم إلى ما جاء عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، ولهذا أكده بقوله ﴿ صُدُودًا ﴾ ، «صدودا» هذا يعني امتناعهم في أنفسهم عن قبول ما جاء عن رسول الله صلوات الله وسلامه وبركاته عليه .

قال : ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ ﴾ ؛ و«الطاغوت» هذه الكلمة مشتقة من الطغيان ، والطغيان: هو مجاوزة الحد ، وهو فيما يتعلق بأمر الإيمان وأمر التوحيد مجاوزة الحد سواءً في متبوعٍ أو معبودٍ أو مطاع ، فمن تجاوز الناس به الحد من متبوعٍ أو معبودٍ أو مطاع فهذا طاغوت . ولا يمكن أن يستقيم إيمان أو أن يصح دين إلا بالكفر بالطاغوت ، ولهذا جاء في الآية التي تلي أعظم آية في كتاب الله قول الله سبحانه وتعالى ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى ﴾ [البقرة:٢٥٦] ، والعروة الوثقى هي «لا إله إلا الله» هي توحيد الله سبحانه وتعالى ، فلا يكون العبد من أهل توحيد الله المستمسكين به إلا بأمرين : إيمانٌ بالله سبحانه وتعالى، وكفرٌ بالطاغوت . ولهذا فإن هذه الإرادة الباطلة إرادة التحاكم إلى الطاغوت هي من الكفر بالله سبحانه وتعالى. قال ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ ﴾ هذه الإرادة إرادة التحاكم إلى الطاغوت متنافية مع الإيمان أي من أصله. ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾ ومن ذلكم قول الله ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا ﴾ .

﴿ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ وهذا يفيد أن هذه الإرادة الباطلة التي وجدت عن القوم وهي إرادة التحاكم إلى الطاغوت وتقديم التحاكم إلى الطاغوت على التحاكم إلى الله وإلى شرعه وما جاء عن رسوله صلوات الله وسلامه عليه هذا مما يريده الشيطان من بني آدم؛ صدًا لهم وإغواءً لهم عن الصراط المستقيم والشرع القويم ، ﴿ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ أي يحرفهم ويغويهم ويبعدهم عن صراط الله المستقيم في مسافةٍ بعيدةٍ عن صراط الله المستقيم .

فهذه الآية الكريمة التي صدَّر بها رحمه الله تعالى هذه الترجمة فيها وجوب التحاكم إلى شرع الله وردّ النزاع إلى كتابه وسنة نبيه الكريم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه ، وأن ذلك من الإيمان والتوحيد ؛ ولهذا أدرج رحمه الله تعالى هذه الترجمة في كتابه التوحيد .

وقوله : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ [البقرة:١١] .

****

قال رحمه الله تعالى ((**وقوله**: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾)) والسياق يتعلق بالمنافقين ؛ إذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ، والمراد بالإفساد في الأرض: أي بمخالفة شرع الله والتحاكم إلى غير شرع الله سبحانه وتعالى ، لأن الله جل وعلا أصلح الأرض ببعثة النبيين ، الأرض إنما تصلح بالشرع القويم والصراط المستقيم والحكم المبارك الذي جاء به الأنبياء من عند الله سبحانه وتعالى مبلِّغين ومبشرين ومنذرين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، فالأنبياء يصلحون في الأرض ، فمن أراد أن يغيِّر هذا الذي جاء به الأنبياء وأن يبدله بغيره فهذا إفسادٌ في الأرض ، ولهذا كل ما يكون مخالفا ومجانبًا لما جاء به النبيين فإن العمل على إيجاده في الأرض والدعوة إليه ونشره بين الناس هذا ضربٌ من الإفساد في الأرض.

وأعظم الإفساد في الأرض الإفساد فيها بالدعوة إلى الشرك وترويج عبادة غير الله سبحانه وتعالى في الأرض ، والدعوة إلى الضلالات والبدع والخرافات هذا كله من الإفساد في الأرض ، وكذلك الدعوة إلى التحاكم إلى غير شرع الله سبحانه وتعالى هذا كله داخلٌ في هذا الباب وهو من أوصاف المنافقين ، المنافق يفسد في الأرض بإشاعة الباطل ونشر الضلال الدعوة إلى أحكام هي غير أحكام الله سبحانه وتعالى ، ويزعمون أنهم إنما يصنعون ذلك من باب الإصلاح .

وهذا يستفاد منه فائدة مهمة ألا وهي : أنه ليس كل من يدَّعي الإصلاح يكون من المصلحين ، كثيرًا يرفع أشخاص شعارات الإصلاح والدعوة إلى الإصلاح أو مثلًا جماعة الإصلاح أو نحو ذلك ، كثيرا ما تُرفع هذه الشعارات ، والشعارات بحدِّ ذاتها والدعاوى بحد ذاتها ليست عبرة في استقامة الشخص وصلاحه؛ ما لم يقُم بينات في صدق مسلكه وسلامة طريقته وسلوكه فعلًا نهج النبيين في الإصلاح في الأرض ، أما أن يرفع مثلا شعار إصلاح وهو يدعو مثلا إلى عباداتٍ باطلة ! أو يرفع شعار الإصلاح وهو يدعو إلى بدع وضلالات! أو يرفع شعار الإصلاح وهو يدعو إلى فتن وسلوك مسلك الخوارج ومن لف لفهم ؛ فهذه كلها دعاوى زائفة ودعاوى باطلة ، والدعاوى إذا لم يقم عليها بينات فأهلها أدعياء ، ولهذا لا يكفي أن يقول الشخص أنا مصلح بل ينبغي أن يُعرف مسلكه وحاله وشأنه في الإصلاح ؛ هل هو فعلًا على نهج النبيين في الإصلاح في الأرض بالدعوة إلى توحيد الله والدعوة إلى صراط الله المستقيم ؟ أو هو على خلاف ذلك ؟ .

قال ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ [البقرة:١١] ؛ ووجه دلالة الآية للترجمة : أن التحاكم إلى غير شرع الله سبحانه وتعالى من الإفساد في الأرض ، وهو من صفات المنافقين ونعوتهم .

أنبّه إلى أن الشيخ رحمه الله تعالى لما ذكر الآية الأولى قال بعدها : ((الآيات)) ؛ أي الآيات التي بعد هذه الآية لأنها جاء بعد هذه الآيات آياتٌ عديدة كلها في هذا الباب ، بدءً من الآية التي تلي هذه الآية وهي قوله : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴾ [النساء:٦١] ، أيضا بعدها بآيات قال: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾ [النساء:٦٥] ، وقال بعدها أيضًا بآيات: ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء:٦٩] . فإذاً الآيات التي بعد هذه الآية أشار المصنف رحمه الله تعالى أنها متعلقة بهذا المعنى .

وقوله : ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ [الأعراف:٥٦] .

****

وقوله ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ أي: بعد إصلاح الله سبحانه وتعالى لها ببعثة النبيين ، فإن الله سبحانه وتعالى أصلح الأرض ببعثة النبيين ؛ فدعوا إلى توحيد الله ، وحذروا من الإشراك بالله سبحانه وتعالى ، ودعوا إلى الأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة والآداب الكاملة ، ما تركوا خيرًا إلا دلوا أممهم عليه ولا شرًا إلا حذروا أممهم منه ، ولهذا قال صلوات الله وسلامه عليه كما في الحديث الصحيح : ((إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيْرِ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَيُنْذِرَهُمْ شَرَّ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ)) .

فقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ أي لا تفسدوا في الأرض بالمعاصي ، لا تفسدوا في الأرض بالآثام ، لا تفسدوا في الأرض بالبدع والضلالات ، لا تفسدوا في الأرض بالشركيات ودعوة غير الله سبحانه وتعالى ؛ هذا كله من الإفساد في الأرض وإن كان فيه تفاوت في حجمه وجُرمه كما هو معلوم في تفاوت الكبائر والذنوب .

وقوله : ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة:٥٠] .

****

قال رحمه الله : ((**وقوله: ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾**))

والاستفهام هنا استفهام إنكاري وفيه التقريع والتوبيخ والتحذير لمن كان كذلك؛ ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ﴾ أي: بعد أن جاءهم هذا الوحي العظيم والحكم المبارك حكم الله سبحانه وتعالى الذي بعث به أنبياءه ورسله عليهم

صلوات الله وسلامه ، والأنبياء بلَّغوا هذا الحكم ووضحوه ونشروه ودعوا الناس إليه ، ثم يكون من أقوامٍ تحاكمٌ وحكمٌ بالجاهلية؟ ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ .

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ والاستفهام هنا في قوله تعالى ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا﴾ هو استفهام إنكاري بمعنى النفي ؛ أي لا أحد أحسن حكمًا من حكم الله سبحانه وتعالى .

و«أحسن» هنا هي أفعل تفضيل لكن كما يقول أهل العلم مستعملٌ في غير بابه ، ويكون أفعل التفضيل على غير بابه إذا لم يكن في المفضول شيء من صفات التفضيل ، يعني مما يُذكر مثالًا في ذلك: عندما يقال «العسل أحلى من الملح» ؛هنا يقولون أفعل التفضيل مستعملٌ في غير بابه ، لأن الملح ليس فيه حلاوة إطلاقا . ﴿آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل:٥٩] هنا أفعل التفضيل في غير بابه لأن الذين اتُّخذوا من الأنداد لا خير فيهم إطلاقًا . فقوله ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ هذه الطواغيت التي يتحاكم إليها ليس فيها أي حُسن . هذا معنى قول أهل العلم إن أفعل التفضيل مستعمل في غير بابه .

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به » . قال النووي رحمه الله : حديث صحيح ، رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح .

****

قال رحمه الله تعالى: ((**وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئتُ به» . قال النووي** -أي في كتابه الأربعين ، لأن هذا الحديث من أحاديث الأربعين التي جمعها الإمام النووي رحمه الله تعالى- **قال النووي : حديث صحيح ، روّيناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح**)) .

هذا الحديث يقول فيه صلوات الله وسلامه عليه ((**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به**)) وهنا فيه نفي للإيمان ، نظير هذا النفي قول النبي صلى الله عليه وسلم : «لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ» ، ولهذا نظائر كثيرة في السنة يأتي فيها نفي الإيمان .

ونفي الإيمان في هذه الأحاديث ونظائرها هو نفيٌ لكمال الإيمان الواجب الذي يكون بهذا النفي يعني من كان كذلك فإن النفي في حقه يدل على عدم سلامة أو صحة وصفه بالإيمان لأن الإيمان نُفي إلا بما يدل على ما دل عليه هذا النفي من انتفاء كمال الإيمان الواجب في ذلك الشخص ، ولهذا من ارتكب هذه الأمور التي جاء في الأحاديث نفي الإيمان عن فاعلها فإنه لا يصح أن يوصف بالإيمان المطلق إلا بكلمة تدل على هذا المعنى الذي

نُفي عنه وهو كمال الإيمان الواجب ، ولهذا لا يصح أن يقال «مؤمن» إلا بقيد ، يقال : «مؤمن ناقص الإيمان» ، أو يقال «مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته» ، أو نحو ذلك من العبارات المعروفة في هذا الباب عن السلف .

فإذاً هذا النفي لا يكون إلا في أمورٍ كبيرة ، يعني لا يُنفى الإيمان -هذه قاعدة- لا يُنفى الإيمان في النصوص إلا في ترك واجب أو ارتكاب محرم ؛ «لا ينفى الإيمان إلا في ترك واجب» ومن الأمثلة على ذلك هذا الحديث ، ومن الأمثلة على ذلك أيضا الحديث الذي تقدم ((لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)) . «أو ارتكاب محرم» مثل قول النبي صلى الله عليه وسلم في حديث أبي هريرة في الصحيحين «لاَ يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يَشْرَبُ الخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يَنْتَهِبُ نُهْبَةً ذَاتَ شَرَفٍ يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ أَبْصَارَهُمْ فِيهَا حِينَ يَنْتَهِبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ» ، فهنا نُفي الإيمان لارتكاب محرم ؛ الزنا والسرقة ونحو هذه الأشياء هذه محرمات فارتكابها فيه نفي الإيمان . وأيضا ترك الواجبات الدينية يأتي في النصوص نفي الإيمان .

وبهذا يُعلم أن الإيمان لا يُنفى إلا في ترك واجب أو فعل محرم ، لا يأتي نفي الإيمان في ترك مستحب ، ولا يأتي أيضا نفي الإيمان في فعل مكروه ، وإنما يأتي نفي الإيمان في ترك واجبٍ من الواجبات الدينية ، أو فعل محرم من الأمور التي حرمها الله أو جاء تحريمها عن رسوله الكريم صلوات الله وسلامه عليه .

قال: ((**لا يؤمن أحدكم**)) أي الإيمان الواجب الذي تكون به النجاة من العقوبة ، لأن الإيمان إيمانان : إيمان واجب وإيمان مستحب ؛ الإيمان المستحب ليس فيه عقوبة ، من فعله أُثيب ومن تركه لم يعاقب ، وإنما العقوبة في ترك الإيمان الواجب ، وعرفنا أن الإيمان لا يُنفى إلا في ترك واجبٍ أو فعل محرم .

إذًا قوله ((**لا يؤمن أحدكم**)) أي لا يؤمن الإيمان الذي أوجبه الله سبحانه وتعالى عليه وبه تكون النجاة من العقوبة وبالوقوع فيه يكون الإنسان عرضةً للعقوبة ((**حتى يكون هواه تباعا لما جئت به**)) ؛ والمراد بالهوى: ميل النفس لحظوظها ومشتهياتها ورغباتها ، فلا يؤمن أحدكم أي الإيمان الواجب الذي أوجبه الله سبحانه وتعالى عليه حتى يكون بهذه الصفة ، هواه أي ميله إلى ما جاء به الرسول ، لِما قام في قلبه من صدق إيمان ومحبةٍ صادقة للرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه ومحبة لما جاء به صلى الله عليه وسلم ؛ فإن هذا يثمر في العبد أن ميله ورغبته وهواه لما جاء به الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه لا فيما خالف أو صادم أو عارض ما جاء به الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه . قال: ((لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبلعا لما جئت له)) .

وقال الشعبي رحمه الله : كان بين رجل من المنافقين ورجل من اليهود خصومة ، فقال اليهودي : نتحاكم إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، عرف أنه لا يأخذ الرشوة ، وقال المنافق : نتحاكم إلى اليهود ، لعلمه أنهم يأخذون الرشوة ؛ فاتفقا أن يأتيا كاهنًا في جهينة ليتحاكما إليه ، فنزلت : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ

﴿ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ الآية . وقيل : نزلت في رجلين اختصما ، فقال أحدهما: نترافع إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال الآخر : إلى كعب بن الأشرف ، ثم ترافعا إلى عمر رضي الله عنه ، فذكر له أحدهما القصة ، فقال للذي لم يرض برسول الله صلى الله عليه وسلم : أكذلك ؟ قال : نعم ، فضربه بالسيف فقتله .

****

قال رحمه الله تعالى ((**وقال الشعبي: كان بين رجل من المنافقين ورجل من اليهود خصومة**)) هذا الخبر الذي ذكره عن الشعبي رحمه الله –والشعبي من علماء التابعين– وكذلك الذي بعده أورده رحمه الله تعالى لبيان ما يتعلق بالآية المتقدمة التي صدَّر بها رحمه الله تعالى هذه الترجمة وبيان سبب نزول هذه الآية الكريمة .

فذكر هذا الخبر عن الشعبي قال : ((**كان بين رجل من المنافقين**))؛ومعلوم أن المنافق: هو من يُظهر الإيمان ويبطن الكفر . فحصلت خصومة بين رجل من المنافقين أي من هؤلاء الذين يُظهرون الإيمان ويبطنون الكفر ورجل من اليهود الباقي على يهوديته لم يتظاهر بالإيمان مع البقاء على اليهودية وإنما هو باق على يهوديته ومُظهر يهوديته .

فكان بين رجل من المنافقين ورجل من اليهود خصومة؛ أي مشادة في أمرٍ ما أو في مسألةٍ ما أو في شأنٍ ما .

((**فقال اليهودي : نتحاكم إلى محمد** صلى الله عليه وسلم ، **عرف أنه لا يأخذ الرشوة**)) وهذا يفيد أن الرشوة فاشية بينهم ، وأن من يتحاكمون إليهم من الطواغيت كثيرٌ من أحكامهم مبنية على حجم الرشوة المقدمة لهذا الحاكم، فيعرفون ذلك فيمن يتحاكمون إليهم ، ولهذا لاحظ السياق قال ((عرف أنه لا يأخذ الرشوة)) .

و ((**قال المنافق : نتحاكم إلى اليهود لعلْمِه أنهم يأخذون الرشوة**)) ، وهنا أيضًا يُعرف قول نبينا صلى الله عليه وسلم ((لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ؛ حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ)) ولما قيل له في الحديث «الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى؟» قَالَ ((فَمَنْ؟!)) . فالرشوة من خصال اليهود ومن صفات اليهود، وكانوا يتعاملون بالرشوة وقُضاتهم وحكامهم يقبلون الرشوة ، ولهذا قال هذا القائل: ((**نتحاكم إلى اليهود لعلمه أنهم يأخذون الرشوة**)) فهذه الكلمة تفيد أن الرشوة فاشية في هؤلاء وأنها منتشرة ومن يقومون بالأحكام والقضاء ونحو ذلك يأخذون الرشوة ممن يتحاكمون إليهم .

والرشوة من أخطر الأمور في إفساد المجتمعات؛ إفساد الأخلاق ، إفساد التعامل ، التعدي على الحقوق ، تغيير الأحكام ، أمور عظيمة جدًا تترتب على وجود الرشوة ، ولهذا يقولون قديمًا في الأمثال « إذا جاءت البراطيل نُصِرت الأباطيل» البراطيل : هي الرشوة ، يقولون إذا جاءت الرشوة نُصر الباطل؛ لماذا ؟ لأنه إذا كان من يحكم ومن يُتحاكم إليه يقبل الرشوة معنى ذلك أن الرشوة ستعمل عملها فيه ، في أحكامه في أقضيته لأنه يحكم وعينه تنظر إلى هذا المبلغ الكبير من المال الذي وضع في يده مقابل الحكم الذي يُطلب منه يحكم به .

ولهذا وجود الرشوة نصر للباطل ونشر للباطل وإضعاف للحق ، وتضعيف للأحكام ، وإفساد للمجتمعات ، وإيغار للصور ، ونشر للعداوات ، يترتب على الرشوة أمور كثيرة جدًا ضارة بالمجتمعات ، ولهذا جاء في الحديث عن نبينا صلوات الله وسلامه عليه أنه قال : ((لَعَنَ اللَّهُ الرَّاشِيَ وَالْمُرْتَشِيَ))؛ الراشي: الذي يدفع الرشوة ، والمرتشي: الذي يقبل الرشوة، ولم يوجد المرتشي إلا بوجود الراشي ، وإلا لو كان الناس يمتنعون من تقديم الرشوة لعمِل كلٌ في مكانه العمل المطلوب منه ، لكن لما كان فلان يدفع والآخر يدفع والثالث يدفع فهذا مما يوجِد هذا الفساد ويوجِد المرتشين في المجتمعات مما يترتب عليه من الفساد والانحلال والانحراف ما لا يعلم مداه وخطره على المجتمعات إلا رب العالمين سبحانه وتعالى .

قال : ((**وقال المنافق نتحاكم إلى اليهود لعلمه أنهم يأخذون الرشوة ، فاتفقا أن يأتيا كاهنًا في جُهينة**)) ذهبا إلى كاهن وتحاكما إليه ، فنزلت الآية الكريمة : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ ﴾ .

قال رحمه الله تعالى : ((**وقيل نزلت في رجلين اختصما، فقال أحدهما : نترافع إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال الآخر: إلى كعب بن الأشرف**)) ؛ وكعب ابن الأشرف هذا رأس من رؤوس اليهود ومن كبار الألدَّاء والأعداء والخصوم للرسول عليه الصلاة والسلام ولدعوته ، وهو الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم ((مَنْ لِي بِابْنِ الْأَشْرَفِ؟)) أي في قتله والإجهاز عليه والقضاء عليه ، فكان من أكبر الألداء والخصوم للنبي الكريم عليه الصلاة والسلام ولدعوته صلى الله عليه وسلم .

((**قال أحدهما: نتحاكم إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وقال الآخر: نتحاكم إلى كعب ابن الأشرف. ثم ترافعا إلى عمر، فذكر له أحدهما القصة**)) أي أن أحدنا قال نتحاكم إلى النبي صلى الله عليه وسلم والآخر قال نتحاكم إلى كعب ابن الأشرف .

((**فقال للذي لم يرضَ برسول الله صلى الله عليه وسلم: أكذلك؟**)) ؛ وهذا فيه التثبت وعدم التسرع وعدم أخذ الكلام هكذا على عواهنه من قائله حتى يتثبت ، ولهذا تثبَّت من الشخص مباشرة قال ((أكذلك؟)) يعني أنت فعلا قلت هذا الأمر نتحاكم إلى كعب ابن الأشرف؟

((**قال الرجل : نعم ، فضربه عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالسيف فقتله**)) ؛ ومثل ذلك إذا عُلم أن الحاكم لا يرضى بذلك ولا يأذن بذلك ، أو أن الحاكم خصَّص جهات معنية تتولى هذا الأمر وتقوم به فليس لأفراد الناس يقومون بتطبيق الأحكام أو التعزيرات أو العقوبات أو نحو ذلك ، وإنما هذه الأمور مردُّها إلى الحاكم أو من ينيبه ويفوضه الحاكم فيما قام به . ولهذا هذه الرواية إن صحَّت عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه تُحمل على أنه يعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يمنع من فعله هو لمثل هذا الأمر . وإذا عُلم أن الحاكم لا يرضى

بذلك أو أن هذه الأمور يترتب على فعلها والقيام بها فتنة أو فتن فإنها لا تُفعل ، لأن هذه الأمور مردُّها إلى الحاكم ، ولو كان تطبيق الأحكام إلى الأفراد وآحاد الناس لاشك أنه يترتب على ذلك من الشرور ما لا يعلم مداه ، أرأيتم لو أن مثل هذه التعزيرات أو العقوبات وُكِل أمرها إلى الأفراد كم من الفساد سيحصل ؟ كم من الفساد سيحصل من آحاد الناس وأفرادهم إذا كان آحاد الناس يتولون ذلك؟ لكن هذه الأمور مردها إلى الحاكم إلى ولي الأمر ومن ينيبه ولي الأمر بإقامة مثل هذه الحدود أو عقوبات أو التعزيرات أو نحو ذلك .

قال رحمه الله تعالى :

فيه مسائل ؛ الأولى : تفسير آية النساء وما فيها من الإعانة على فهم الطاغوت .

قال رحمه الله تعالى «**فيه مسائل ؛ الأولى : تفسير آية النساء**» أي قول الله سبحانه وتعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ ﴾ [النساء:٦٠] إلى تمامها .

قال «**وما فيها من الإعانة على فهم الطاغوت**» أي فهم الطاغوت معناه ما المراد به؟ . والآية فيها التحذير من التحاكم إلى غير الله ، وأن التحاكم إلى غير الله مما أُمر بالكفر به ، وأن ذلك مما يريده الشيطان من بني آدم وأنه بذلك يريد أن يضلهم ضلالًا بعيدا ؛ فهذا كله يعيننا على فهم الطاغوت وأن الطاغوت من الطغيان الذي هو تجاوز الحد ومن ذلكم التحاكم إلى غير شرع الله سبحانه وتعالى ، فالتحاكم إلى غير شرع الله سبحانه وتعالى تحاكمٌ إلى الطاغوت الذي أُمرنا بالكفر به .

الثانية : تفسير آية البقرة : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ **الآية** .

ومر معنا شيء من الكلام على معنى هذه الآية .

الثالثة : تفسير آية الأعراف : ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ .

كذلك تقدم الكلام على شيء من معناها .

الرابعة : تفسير ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ﴾ .

أيضًا تقدم .

الخامسة : ما قاله الشعبي في سبب نزول الآية الأولى .

أي آية النساء ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ ﴾

السادسة : تفسير الإيمان الصادق والكاذب .

قال رحمه الله تعالى : السادسة تفسير الإيمان الصادق والإيمان الكاذب في قول النبي صلوات الله وسلامه عليه ((لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به)) مما يدل على صدق الإيمان وقوته أن يكون هوى العبد تبعٌ لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، أما إذا كان الشخص لا يقبل حكم الرسول صلى الله عليه وسلم وإذا دُعي إلى حكم الرسول صلى الله عليه وسلم صد عنه صدوا وأعرض ولم يقبل فهذا دليلٌ على أن إيمانه كاذبٌ وليس بصادق .

السابعة : قصة عمر رضي الله عنه مع المنافق .

وقد تقدمت في الخبر الأخير الذي ذكره رحمه الله تعالى في سبب نزول آية النساء .

الثامنة : كون الإيمان لا يحصل لأحد حتى يكون هواه تبعًا لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم .

الثامنة: **كون الإيمان** أي الواجب **لا يحصل لأحد حتى يكون هواه تبعًا لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم** أي كما جاء مبينًا في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما .

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك .

اللهم صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

الدرس الأربعون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد:

يقول الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد ابن عبد الوهاب التميمي رحمه الله تعالى رحمة واسعة في كتابه «كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد » :

باب من جحد شيئًا من الأسماء والصفات

وقول الله تعالى : ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ ﴾ [الرعد: ٣٠] .

****

قال الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتابه المبارك «كتاب التوحيد» : ((**بابٌ من جحد شيئا من الأسماء والصفات**)) أي من أسماء الله تبارك وتعالى الحسنى وصفاته العليا .

ومعنى «جحد» : أي أنكر ونفى ولم يثبت . «شيئًا من الأسماء والصفات» : و«**شيئا**»جاءت نكرة في سياق الشرط فتفي العموم أي من جحد أي شيء من أسماء الله وصفاته ولو اسمًا واحدًا أو صفةً واحدة فما حكمه ؟.

وإيراد المصنف رحمه الله تعالى هذه الترجمة في كتاب التوحيد: لأن الإيمان بأسماء الله وصفاته ركن من أركان الإيمان بالله ، لأن الإيمان بالله سبحانه وتعالى يقوم على أركان ثلاثة :

١. إيمان بوحدانية الله جل وعلا في ربوبيته .

٢. وإيمان بوحدانية الله جل وعلا في أسمائه وصفاته.

٣. وإيمان بوحدانية الله تبارك وتعالى في ألوهيته .

ولهذا قال العلماء رحمهم الله تعالى : التوحيد ينقسم إلى أقسام ثلاثة : توحيد ربوبية ، وتوحيد الأسماء والصفات ، وتوحيد الألوهية .

فتوحيد الأسماء والصفات هو قسمٌ من أقسام التوحيد وركن من أركان الإيمان بالله ، ومعنى ذلك أن من لم يؤمن بأسماء الله وصفاته لا يكون مؤمنًا بالله عز وجل ، لأن الإيمان بالله يقوم على هذه الأركان الثلاثة والتي منها الإيمان بأسماء الله تبارك وتعالى وصفاته ، فالإيمان بالأسماء والصفات هو من الإيمان بالله جل وعلا ولا يكون مؤمنا بالله جل وعلا من كان منكرًا لأسماء الرب تبارك وتعالى أو منكرا لصفاته جل وعلا .

بل إن الواجب تعظيمُ أسماء الله وصفاته ومعرفة مكانتها وأنها بوابة الإيمان والهداية والسعادة والفلاح في الدنيا والآخرة ؛ فإن العبد كلما كان أعرف بالله وبأسمائه وصفاته كلما كان ذلك أعظم في خشيته لله كما قيل «من كان

بالله أعرف كان منه أخوف ، ولعبادته أطلب ، وعن معصيته أبعد» ، وقد صح في الحديث عن نبينا صلى الله عليه وسلم أنه قال : ((إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ)) ؛ وهذا يفيدنا أن معرفة الأسماء الحسنى وما تتضمنه من الصفات العليا لله تبارك وتعالى من موجبات دخول الجنة والنجاة من النار ، ومن موجبات محبة الله سبحانه وتعالى لعبده وإدخاله له الجنة ، ولعلنا جميعا نذكر قصة الصحابي الجليل وهي في صحيح البخاري الذي أمَّره النبي صلى الله عليه وسلم على سرية فكان يقرأ بهم في كل ركعة بـ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فأشكل ذلك على من معه من الصحابة فلما رجعوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وذكروا له خبره قال : ((سَلُوهُ لِأَيِّ شَيْءٍ يَصْنَعُ ذَلِكَ؟)) فَسَأَلُوهُ ، فَقَالَ: «لِأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ ، وَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَقْرَأَ بِهَا» ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ((أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللَّهَ يُحِبُّهُ)) وفي الحديث الآخر قال : ((حُبُّكَ إِيَّاهَا أَدْخَلَكَ الجَنَّةَ)) .

ولهذا باب الأسماء والصفات باب شريف عظيم من أبواب العلم ينبغي على المسلم أن يُقبِل عليه بمحبة وصدق ورغبة قوية في أن يعرف أسماء ربه تبارك وتعالى الحسنى وأن يعرف صفاته جل وعلا العليا؛ ليزداد إيمانًا ، ليزداد يقينًا، ليزداد تصديقًا ، ليزداد إقبالًا على الله تبارك وتعالى ، ليزداد أيضا بُعدًا عن المعاصي والذنوب ؛ فكم لهذه المعرفة –معرفة أسماء الله تبارك وتعالى وصفاته– من الأثر العظيم في سلوك العبد؛ استقامةً وزكاةً وصلاحًا وملازمةً لعبادة الله تبارك وتعالى وبُعدًا عما نهى الله سبحانه وتعالى عنه وحرمه على عباده .

فهذا بابٌ شريف من أبواب العلم وبابٌ رفيعٌ جدًا وله مكانته العظيمة ، وهو كما تقدم ركن من أركان الإيمان بالله، فلا يكون مؤمنا بالله سبحانه وتعالى من كان جاحدًا لشيء من أسماء الله تبارك وتعالى وصفاته ؛ فلما كان ذلك بهذه المكانة والمنزلة العلية عقد المصنف رحمه الله تعالى هذه الترجمة لبيان أهمية هذا العلم علم توحيد الأسماء والصفات وشرف هذا العلم وأهمية العناية به ، وفي الوقت نفسه خطورة الإنكار لشيء من أسماء الله تبارك وتعالى أو شيء من صفاته جل وعلا .

ومما ينبغي أن يُعلم في هذا المقام : أن الخطأ في أسماء الله وصفاته ليس كالخطأ في أي أمر آخر ، لأن الخطأ في أسماء الله تبارك وتعالى بالغٌ في الخطورة مبلغًا عظيما ، وللتوضيح أضرب مثالين فيهما فائدة عظيمة جدًا .

وأقدِّم لهذين المثالين بمقدمة ألا وهي : أن باب الأسماء والصفات يقوم على ركنين اثنين وهما : الإثبات بلا تمثيل ، والتنزيه بلا تعطيل ؛ على هذا يقوم توحيد الأسماء والصفات أن تثبت لله تبارك وتعالى ما أثبته لنفسه من الأسماء الحسنى والصفات العليا ، وأن تنفي ما نفاه الله تبارك وتعالى عن نفسه وما نفاه عنه رسوله صلى الله عليه وسلم من النقائص ومما لا يليق بجلاله وكماله وعظمته سبحانه ، على حد قوله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١] ، قوله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ هذا النفي ، وقوله ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ هذا الإثبات . فتوحيد الأسماء والصفات قائم على النفي والإثبات . والخطأ في هذا الباب إما أن يكون بإثبات ما نفاه الله أو بنفي ما أثبته ، لا

يخرج عن هذين ؛ الخطأ في باب الأسماء والصفات إما أن يكون بإثبات ما نفاه الله أو بنفي ما أثبته الله سبحانه وتعالى ، وكل من الخطأين في غاية الخطورة .

والآن إلى المثالين من القرآن في بيان خطورة الغلط في أسماء الله تبارك وتعالى وصفاته سواءً بنفي ما أثبت أو بإثبات ما نفى :

- أما الأول وهو إثبات ما نفاه الله : فما نزه الله تبارك وتعالى نفسه عنه الولد في آيات كثيرة جدًا ؛ منها سورة الإخلاص التي أُخلصت لبيان صفة الرحمن ، ومرت معنا قصة الصحابي رضي الله عنه في قراءته لهذه السورة وحبه العظيم لها وفوزه بتلك الكرامة العظيمة دخول الجنة ، قال: ((حُبُّكَ إِيَّاهَا أَدْخَلَكَ الجَنَّةَ)) ، فهذه السورة العظيمة فيها قول الله سبحانه ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) ﴾ نزه نفسه عن الولد ، فمن أثبت هذا الذي نفاه الله ، من أثبت لله ولد والله جل وعلا نزه نفسه عنه ؛انظروا خطورة إثباته لما نفاه الله في قول الله جل وعلا في سورة مريم: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) ﴾ ماذا قال الله ؟﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) ﴾ «إِدًّا» كلمة قوية في التعبير عن خطورة الأمر الذي وقع فيه هؤلاء ، وفي المعنى نفسه معنى «إِدًّا» ألفاظ كثيرة جدا لكن جاءت هذه اللفظة في قوتها دلالةً على خطورة هذا الأمر الذي ارتكبه هؤلاء ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) ﴾ يقول ذلك رب العالمين عندما قالوا﴿ اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) ﴾ ، قال ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) ﴾ أي بالغًا في الجرم والخطورة المبلغ العظيم الكبير ؛ ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) ﴾ . فالغلط في أسماء الله تبارك وتعالى وصفاته أمر ليس بالهيّن ، انظر سماوات وأرض وجبال كلها تتصدع وتندك ويحصل لها ما يحصل من عظم هذا الجرم وكِبر هذا الإثم . هؤلاء أثبتوا ما نفاه الله سبحانه وتعالى فترتب عليه ما ترتب مما ذكره الله سبحانه وتعالى في هذا السياق المبارك .
- أيضا النوع الآخر: وهو نفي ما أثبته الله سبحانه وتعالى لنفسه من الأسماء والصفات ؛ أيضا في غاية الخطورة ، حتى لو لم ينفِ الصفة كاملة نفى بعض المعاني المتعلقة بالصفة أيضا في غاية الخطورة ، ولهذا يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[فصلت:٢٢] هذا ما هو ؟ ما نوع الغلط هنا ؟ نفي ما أثبته الله ، الله سبحانه وتعالى أثبت لنفسه العلم المحيط ، العلم الذي وسع كل شيء ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا ﴾[غافر:٧] علمه وسع كل شيء ، فقال هؤلاء هذا القول الآثم واعتقدوا هذه العقيدة الباطلة، قال جل وعلا: ﴿ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ ؛هل هؤلاء نفوا الصفة من

أصلها ؟ أو أنهم أثبتوا الصفة من حيث هي لكنهم أنكروا سعة علم الله وأن الله سبحانه وتعالى -تعالى عما يقولون- قد يعزب عنه كثير من أعمال العباد وتخفى عليه ؟ مع أنهم يثبتون ، ظاهر الآية يدل على أنهم يثبتون أصل الصفة لكنهم نفوا سعة علم الله ، ماذا ترتب على هذا الإنكار ؟ ﴿ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ ﴾ أي أهلككم وأوقعكم في غاية الهلاك ﴿ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ ﴾ [فصلت:٢٢-٢٤] .

فانظر كيف ترتب على الغلط في أسماء الله سبحانه وتعالى ما يترتب من العواقب الوخيمة والمآلات الخطيرة على الإنسان في دنياه وأخراه ؛ ولهذا يجب على العبد أن يتقي الله سبحانه وتعالى وأن يعظِّم هذا العلم -علم الأسماء والصفات- وأن يحذر غاية الحذر من الغلط في هذا الباب ، لا أن ينفي شيئا أثبته الله، ولا أن يثبت شيئًا نفاه الله.

سبحان الله!! ونحن نتأمل هذا الأمر وخطورته نأسف لحال بعض الناس ممن دخل عليهم بعض الدواخل بسبب علم الكلام الباطل وعلم الفلسفة البغيض المشين ؛ فأصبح بعض الناس سبحان الله تجد عنده شيء من الجرأة في الانتقاد فيما يتعلق بأسماء الله وصفاته ، وتجد بعضهم لا يتورع ولا يخاف! تُذكر له الآية الكريمة التي فيها صفة لله سبحانه وتعالى فتجده بملء فيه يقول: "كيف هذا ؟ وهذا ما يمكن ، ولو أثبتنا هذا للزم كذا ولزم كذا" إلى آخر ذلك من الفلسفات والكلاميات التي ما أنزل الله تبارك وتعالى بها من سلطان .

الصحابة رضي الله عنهم سمعوا هذه الآيات آيات الصفات وسمعوا أحاديث الصفات فآمنوا بها وأمرُّوها كما جاءت ولم يتعرضوا لها بكيفٍ أو اعتراضٍ أو انتقاد كما فعل هؤلاء . الإمام مالك رحمه الله وتعرفون القصة عندما دخل عليه رجل قال يا أبا عبد الله ؛ الله يقول ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ [طه:٥] كيف استوى ؟ هذا سؤال خطير جدًا ، الإيمان بالله التعظيم لله جل وعلا الخوف من الله سبحانه وتعالى ما يتجرأ معه الإنسان أن يخوض في أسماء الله أو صفاته بمثل هذه السؤالات المبتدعة ، قال كيف استوى؟ قال الراوي : «فغضب مالك رحمه الله تعالى حتى علاه الرّحضاء» تصبب عرق ، العادة نحن نتصبب عرقًا إذا أُخذ شيء من دنيانا ؛ فتصبب عرقًا رحمه الله تعالى عندما تعدى هذا المتعدي على صفات الله بهذا السؤال كيف استوى؟ علاه الرحضاء ، ثم قال رحمه الله كلمته المشهورة : «الاستواء معلوم» يعني معناه واضح بيّن ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ : علا وارتفع استواءً يليق بجلاله سبحانه وتعالى ، «الاستواء معلوم» يعني معناه واضح . «والكيف مجهول» لماذا مجهول؟ لأن الله سبحانه أخبرنا أنه استوى ولم يخبرنا كيف استوى ، فنثبت الذي أخبرنا الله به ونسكت عن الذي لم يخبرنا به . قال «والإيمان به -أي الاستواء- واجب» لأنه ثابت في القرآن والسنة ، «والسؤال عنه -أي عن كيفية

الاستواء- بدعة ، وما أراك إلا رجل سوء أخرجوه عني» غضب رحمه الله ؛كيف يُسأل عن صفات الله تبارك وتعالى بهذا السؤال . والعلماء رحمهم الله قالوا هذه الكلمة العظيمة للإمام مالك رحمه الله هي بمثابة القاعدة التي تطبّق في جميع الصفات، أي صفة يسأل عنها سائل بكيف نقول له الصفات معلومة أي معانيها معلومة ، وكيفياتها مجهولة، والإيمان بالصفات واجب ، والسؤال عن كيفياتها بدعة .

فأقول مع خطورة هذا الأمر تجد في بعض الناس من عندهم جرأة ، لما يُذكر حيث النزول ((ينزل ربنا)) هذا الحديث رواه عن النبي صلى الله عليه وسلم ما يقرب من ثلاثين صحابيا ، ذكرهم بأسمائهم واحدًا واحدا ورواياتهم الإمام ابن القيم رحمه الله في كتابه الصواعق المرسلة وبلغ عدَّة من ذكرهم ثمان وعشرين صحابيا كلهم روى هذا الحديث وهو حديث متواتر عند أهل العلم ، وكل هؤلاء الصحابة الذين بلغ عددهم هذا المبلغ كلهم سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول ((ينزل ربنا إلى سماء الدنيا)) آمنوا به كما جاء وأمرُّوه كما ورد ولم ينتقدوا ، الآن تجد بعض الناس يقول عندما يأتي هذا الحديث يقول كيف ؟ ويبدأ يورد أشياء عقلية . الصحابة رضي الله عنهم كانوا أذكى منك وأفهم ولم يسألوا ، وعندما كفّوا عن السؤال كفوا عن بصيرة نافذة وعلِموا أن مثل هذه الأسئلة مما لا خير فيها ، ولهذا كف عنها الصحابة عن بصيرة وإيمان ، عن بصيرة نافذة كفوا ، ولهذا يجب علينا أن يسعنا ما وسع الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم ، وأن نعظم أسماء ربنا تبارك وتعالى وصفاته جل في علاه ،وأن نثبتها له عز وجل كما أثبتها لنفسه وكما أثبتها له رسوله عليه الصلاة والسلام .

هذا المعنى المتقدم يعينك عليه إعانة عظيمة جدًا أن تستذكر أمورًا ثلاثة مهمة جدا في هذا الباب :

- الأمر الأول: أنه لا أحد أعلم بالله من الله ﴿قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾ [البقرة:١٤٠] ، لا أحد أعلم بالله من الله .
- الأمر الثاني : لا أحد أعلم بالله من خلق الله من رسول الله صلى الله عليه وسلم القائل ((إِنَّ أَتْقَاكُمْ وَأَعْلَمَكُمْ بِاللَّهِ أَنَا)) فهو أعلم خلق الله بالله صلوات الله وسلامه عليه .
- الأمر الثالث: الله سبحانه وتعالى بالنسبة لنا غيبٌ لم نره ؛ إذاً ليس ثمة سبيل للخوض في هذا الأمر والكلام فيه إلا من خلال الوحي؛ كلام الله وكلام رسوله عليه الصلاة والسلام المبلِّغ عن الله ؛ فإذا جاءت الآيات وجاءت الأحاديث مهمتنا الإيمان والتسليم ،ليس الاعتراض والانتقاد، مثل ما قال الإمام الزهري رحمه الله تعالى : «من الله الرسالة وعلى الرسول البلاغ وعلينا التسليم» ، بعض الناس لم يقف على قدم التسليم! وإذا جاءت الآيات بدأ يقول لم وكيف ولماذا وينتقد ويعترض وربما أيضا يرد ويجحد !!.

فالمصنف رحمه الله اهتمامًا منه بهذا العلم العظيم المبارك عقد هذه الترجمة لبيان خطورة جحد _أي إنكار_ شيء من أسماء الله الحسنى وصفاته العليا ، وكما قدمت قوله ((من جحد شيئا)) ؛ «شيئا» جاءت نكرة في سياق الشرط فتفيد العموم؛ أي ولو اسمًا واحدًا ولو صفة واحدة فالأمر في غاية الخطورة .

قال رحمه الله: ((**وقول الله تعالى** ﴿**وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ**﴾ [الرعد:٣٠])) ؛ قوله جل وعلا ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ ﴾ ذكَر جل وعلا في هذا السياق إنكار المشركين لهذا الاسم من أسماء الله سبحانه وتعالى الذي هو «الرحمن» ، واصفًا لهم بالكفر في سياق ذِكر إنكارهم لهذا الاسم ، قال﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ ﴾ يعني أخبر عن جحدهم لهذا الاسم بالكفر ﴿ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ ﴾ لأنهم جحدوا هذا الاسم . والقصة معروفة ؛ في صلح الحديبية لما أمر النبي صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب أن يكتب الصلح الذي كان بينهم قال ((اكتب بسم الله الرحمن الرحيم)) ، قال سهيل ابن عمرو موفد المشركين في عقد هذا الصلح : «لا؛ لا نعرف الرحمن؛ اكتب باسمك اللهم» . ثم إن سهيل فيما بعد أسلم ، منَّ الله عليه بالإسلام .

قال: ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ ﴾ فنفيهم لهذا الاسم عدّه رب العالمين جل وعلا كفرًا بالرحمن ؛ فهذا يفيدنا أن جحد اسم واحد من أسماء الله أو صفة واحدة من صفات الله الثابتة في كتابه والثابتة في سنة نبيه صلى الله عليه وسلم يعد كفرًا بالرحمن سبحانه وتعالى .

قال وقول الله تعالى: ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي ﴾ قل : أي «الرحمن» الذي له هذا الاسم وهذا الاسم من الأسماء المختصة بالله ، لأن بعض أسماء الله مشتركة ، أما هذا الاسم فهو من الأسماء المختصة بالله لا يطلق إلا عليه سبحانه وتعالى ، وهو دالٌ على ثبوت الرحمة صفة لله وقيامها به وأنها صفة لا تنفك عن الله سبحانه وتعالى ، ملازمة لذاته لا تنفك عن ذاته ، وهي بهذا الاعتبار صفة الرحمة صفة ذاتية ، وباعتبار تعلقها بالمرحوم ﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب:٤٣] هي من صفات الأفعال .

فقوله سبحانه وتعالى ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ ﴾ فيه إثبات هذا الاسم وفيه إثبات الصفة صفة الرحمة ، والله سبحانه وتعالى أمر نبيه أن يقول على إثر ذلك ﴿ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ أي الرحمن الذي له هذا الاسم العظيم الموصوف بالرحمة التي وسعت كل شيء هو ربي ؛ أي هو خالقي ، هو موجدي ، هو الملِك لهذا الكون لا شريك له ﴿ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ .

وتأمل هذه الآية الكريمة جمعت أنواع التوحيد الثلاثة : ﴿ بِالرَّحْمَنِ ﴾ في الأسماء والصفات ، ﴿ رَبِّي ﴾ الربوبية ، ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ توحيد الألوهية ؛ جمعت أنواع التوحيد الثلاثة هذه الآية الكريمة .

﴿ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ أي اعتماد قلبي وتفويضي في أموري كلها عليه ، ﴿ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ أي أوبتي ورجوعي وإنابتي إليه سبحانه وتعالى وحده جل في علاه .

قال رحمه الله

وفي صحيح البخاري : قال علي رضي الله عنه : «حدِّثوا الناس بما يعرفون ، أتريدون أن يكذَّب الله ورسوله؟!» .

****

ثم أور رحمه الله تعالى هذا الأثر العظيم عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه الخليفة الراشد أنه قال: ((**حدِّثوا الناس بما يعرفون ، أتريدون أن يكذب الله ورسوله؟!**)) وهذا هو التعليل ، تعليل قوله «حدثوا الناس بما يعرفون» أي تعليل ذلك قوله «أتريدون أن يكذَّب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم» . يوضح لنا هذا المعنى ما ثبت في الصحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه وأرضاه أنه قال : «ما أنت بمحدِّث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنةً لهم» أو كما جاء عنه رضي الله عنه وأرضاه .

وهذا فيه أهمية التدرج مع المتعلمين في العلم والتعليم ، والبدء معهم بكبار العلم وأصول العلم وجوامع العلم قبل التفاصيل ودقائق العلم التي قد تُشكل على الإنسان في بدايات الأمور ؛ فيُبدأ معه بالأصول العامة والقواعد الجامعة وأسس الدين العظام ويُتدرج معه في ذلك ، لكن إن حُدِّث بحديث لا يبلغه فهمه ، مثل ما قال علي «حدثوا الناس بما يعرفون» يعني إن حُدِّث بحديث لا يبلغه فهمه لأنه مازال في أوليات التعلم وأوليات التحصيل والفهم ، فربما حُدِّث بحديث كان له فتنة . فهذا فيه أهمية التدرج مع المتلقي والمتعلم في هذا الباب .

ولا يعني ذلك أن أسماء الله الحسنى وصفاته العليا من هذا القبيل ، بل يُعلَّم الناس أسماء الله سبحانه وتعالى وصفاته، لكن إن كان في هذا الباب شيء من الدقائق أو التفاصيل الدقيقة ما لا يبلغه فهم هذا المبتدئ والمتلقي فإنه لا يُعلَّم ولا يُذكر له في بدايات الأمور حتى لا يكون فتنةً له . فهذا معنى قوله رضي الله عنه «حدثوا الناس بما يعرفون» ؛ وهذا فيه أن من مهمات المعلِّم التدرج في التعليم ، ويكون التدرج بالبدء بالأصول الكبار وأسس الدين العظيمة وقواعده الجامعة ثم يُتدرج معه بعد ذلك ؛ الأهم ثم المهم ثم الأقل أهمية وهكذا .

قال : ((**حدثوا الناس بما يعرفون**)) المراد بقوله «بما يعرفون»: أي بما تبلغه أفهامهم . والتعليل لذلك : ((**أتريدون أن يكذَّب الله ورسوله**)) لأنه إذا حُدث بحديثٍ قد لا يبلغه فهمه ربما يقع في الإنكار والتكذيب لله أو للرسول الكريم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه .

مناسبته للباب أشرت إليها : ذكرت ليس المراد أن الأسماء والصفات من هذا القبيل ، لكن قد يكون في بعض الدقائق –دقائق هذا العلم وتفاصيله– ولاسيما أيضا باب المناقشات والردود وأشياء من هذا القبيل قد يكون من هذه الأمور ما لا يبلغه فهم المتعلم ، قد يكون فتنة له ، يعني الآن لو لأن شخصًا جاء إلى بعض المبتدئين أو حديثي عهد مثلًا بإسلام أو قليلي العلم ثم دخل معهم في بعض الدقائق في هذا العلم ودخل أيضا في مناقشات

وردود وأقوال المخالفين وما يقولونه من شبهات وما يرد عليهم به من ردود ونحو ذلك ربما يكون هذا فتنة له، ويصبح أمر الدين عندهم من الأمور المعضلات ، بينما ينبغي أن يُتدرج به ويأخذ الدين بالهوينة متدرجًا في مسائله بحسب حاجته من ضروريات الدين وجوامعه العظيمة .

قال رحمه الله تعالى :

وروى عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاووس عن أبيه عن ابن عباس : أنه رأى رجلًا انتفض لما سمع حديثًا عن النبي صلى الله عليه وسلم في الصفات استنكارًا لذلك ، فقال : «**ما فرَق هؤلاء ؟ يجدون رقةً عند محكمه ، ويهلكون عند متشابهه ؟!**» **انتهى .**

****

قال ((**وروى عبد الرزاق**)) عبد الرزاق الصنعاني رحمه الله تعالى صاحب المصنف ، وهذا الخبر رواه في كتابه التفسير ، يعني عادةً يتبادر إلى الذهن عند الإطلاق عندما يقال رواه عبد الرزاق أي في المصنف ، لكن هذا الخبر موجود في كتابه التفسير .

قال: ((**وروى عبد الرزاق عن معمر**)) ابن راشد شيخ الصنعاني رحمه الله تعالى ((**عن ابن طاووس**)) الذي هو عبد الله بن طاووس ((**عن أبيه**)) طاووس بن كيسان ((**عن ابن عباس**)) عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ((**أنه رأى رجلًا انتفض لما سمع حديثًا عن النبي صلى الله عليه وسلم في الصفات استنكارًا لذلك**)) ؛ هذا الرجل من ظاهر هذه الرواية التي بين أيدينا أن هذا الحديث أول مرة يسمعه، فكان بالنسبة له غريب ، وليس غريب مستنكر ولهذا حصل له رعدة ، (انتفض) كما جاء في الرواية هنا ، انتفض: يعني جسمه ارتعد ، وهذا الارتعاد أو انتفاض الجسم كان استنكارًا لذلك ، مثل ما هو معبَّر هنا قال ((استنكارا لذلك)) أي: استنكارا لما جاء في هذا الخبر الذي هو من أحاديث الصفات ، والمراد بأحاديث الصفات: أي صفات الله سبحانه وتعالى .

هذا الذي حصل لهذا الرجل قد يحصل أيضًا لغيره ولاسيما من ابتلوا بشيء من علم الكلام ودخلت عليهم شيء من شبهاته ، فإذا سمع بعض الأحاديث التي يسمعها لأول مرة وتتنافى مع تلك القواعد التي أخذها من علم الكلام ينتفض ويرتعد وينكر ويصرّح بعضهم أيضا بالإنكار ، وبعضهم يصرّح بجحد الحديث يقول "هذا الحديث أنا لا أقبله" ، بعضهم إلى هذه الدرجة يصرح بجحد الحديث وعدم قبوله ، يكون من الأحاديث المجمع على صحته بل يكون من الأحاديث المتواترة عن النبي صلى الله عليه وسلم ويتجرأ بعضهم بردِّه وعدم قبوله لماذا ؟ لأنه يتصادم مع قاعدته الكلامية التي نشأ عليها .

فهذا الرجل بحضرة ابن عباس رضي الله عنهما لما سمع حديث من أحاديث الصفات والحديث رواه ابن عباس ، ولعل هذا مما يفيدنا في فهم ما يتعلق بكلام علي ابن أبي طالب ؛ ليس معنى كلام علي ابن أبي طالب أنَّا ما نبين

للناس صفات الله ، فها هو ابن عباس يبين الصفات ويورد أحاديث الصفات ، ومن يحصل عنده استنكار يعالج الخطأ الذي فيه ، ويبقى هذا العلم علمًا نعتني به .

والله سبحانه وتعالى في القرآن أمرنا أن نتعلم هذا العلم ، آيات كثيرة في القرآن مبدوءة بـ ﴿اعْلَمُوا﴾ أو في أثناء الآية ﴿اعْلَمُوا﴾ أو ﴿لِتَعْلَمُوا﴾ ثم يُذكر شيء من صفات الله أو أسمائه سبحانه وتعالى ، آيات كثيرة جدًا في القرآن تقرب من الثلاثين آية ، وهذه الآيات كلها دليل على أهمية تعلم أسماء الله وصفاته ، ﴿اعْلَمُوا﴾ أو ﴿لِتَعْلَمُوا﴾ مثل قوله جل وعلا: ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾[الطلاق:١٢] لها نظائر كثيرة جدًا في القرآن الكريم ، فالله أمرنا أن نتعلم هذا العلم وحضَّنا على ذلك في آيات كثيرة في القرآن الكريم ؛ فنتعلمه ونعلِّمه ونتدارسه ، وكلما ازادت معرفتنا بأسماء الله سبحانه وتعالى وصفاته ازاد تعظيمنا له وازداد حبنا له وازداد إقبالنا على طاعته ، والله جل وعلا يقول ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[فاطر:٢٨] أي بالله سبحانه وتعالى .

فهذا الرجل حصل له هذا الارتعاد والانتقاض استنكارًا لما سمعه مما يتعلق بالصفات ، فماذا قال ابن عباس ؟

((**قال : ما فرَق هؤلاء ؟**)) الفرَق: هو الخوف ، ما فرَق هؤلاء ؟ ما خوف هؤلاء ؟ على ماذا هذا الخوف ؟ لأي شيء يكون هذا الخوف؟ ما فرق هؤلاء؟ و«ما» هنا للاستفهام الانكاري ؛ ينكر عليه ، هذا خوف وفرَق في غير محله ، لماذا هذا الخوف؟ يستنكر !كيف يكون هذا الخوف الذي هو خوف استنكار عند سماعه لصفات الله؟ لماذا هذا الخوف! وهي صفة ثابتة في القرآن أو ثابتة في حديث الرسول عليه الصلاة والسلام ؟ لا تنكِر الحديث وإنما أنكر نفسك ، إذا ثمة إشكال فالإشكال فيك أنت ، إذا ثمة خلل الخلل فيك أنت ، لا تستنكر كلام الله ولا تستنكر كلام رسوله عليه الصلاة والسلام فيما يخبر به عن ربه سبحانه وتعالى ، الخلل فيك أنت ، إذا كان عندك استنكار فهذا راجع إلى خلل فيك . يقول ((**ما فرَق هؤلاء؟**)) والاستفهام هنا انكاري : أي علام يخاف هؤلاء؟ مستنكرا هذا الخوف الذي جاء في غير محله .

وضُبطت الكلمة ضبطًا آخر ((**ما فرَّق هؤلاء**)) بفتح الفاء وتشيد الراء ، وتكون «ما» هنا ليست استفهامية وإنما نافية ، ما فرّق هؤلاء: أي لم يفرق هؤلاء ، ما عندهم تفرقة . والتفرقة التي يشير إليها حسب هذا الضبط للرواية التفرقة الذي هو علم يفرِّق به الإنسان بين الحق والباطل ، الهدى والضلال ، عندما يكون مثلا شخص يُذكر له شيء صحيح ثابت وينكره يحدُث عنده استنكار هل عنده فرقان؟ أو مثلًا يُنفى عنده شيء فيثبته وهو منفي أصلا في الكتاب والسنة هل عنده فرقان؟ ليس عنه . فيقول ((ما فرَّق هؤلاء)) يعني هذا الإنكار مبني على عدم علم بالتفرقة بين الحق والباطل والهدى والضلال ، سبب ذلك أنه ما عنده تفرقة . والمراد بـ ((ما فرَّق هؤلاء))

أي ليس عنده فرقان يفرق به بين الحق والباطل ، لو كان عنده فرقان ﴿ إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ [الأنفال:٢٩] أي علمًا وبصيرة تفرقون به بين الحق والباطل .

ولهذا كلمة ابن عباس حسب هذه الرواية نستفيد منها: أن أي شخص ينكر شيء من أسماء الله وصفاته أو ينكر أي شيء من الأشياء الثابتة في الكتاب والسنة؛ فإنكاره مبني على أنه ليس عنده فرقان ، لو كان عنده فرقان بين الحق والباطل لم يكن عنه هذا النفي .

وهذا أيضا نستفيد منه فائدة أخرى : أهمية العلم الشرعي ؛ لأن العلم الشرعي هو وحده الذي يفرَّق به بين الحق والباطل ، يفرَّق به بين الهدى والضلال ، يماز به بين الخبيث والطيب .

قال : ((**ما فرَق هؤلاء** –أو حسب الرواية الأخرى ما فرَّق هؤلاء– **يجدون رقة عند محكمه ، ويهلكون عند متشابهه ؟**)) ؛ هذا كلام لابد أن يُفهم ؛ «يجدون رقة عند محكمه ويهلكون عند متشابهه» هذا فيه إشارة من هذا الإمام الراسخ في العلم رضي الله عنه وأرضاه إلى ما دلت عليه الآية الكريمة في سورة آل عمران ؛ قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾ [آل عمران:٧] ؛ هذا الإمام ابن عباس رضي الله عنهما جاء عنه أنه قال : «أنا من الراسخين في العلم الذين يعلمون تأويله» ، فالقرآن منه آيات محكمات هن أم الكتاب ، ومعنى ﴿ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ : أي هن الأصول وعليهن المعوَّل وجميع ما يتشابه عليك في القرآن رُدَّه إلى هذه الآيات المحكمات . وآيات أخر في القرآن متشابهات .

لابد أن نفهم هنا المراد بالإحكام والمراد بالتشابه ؛ المراد بالإحكام: ظهور المعنى؛ ﴿ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ ﴾ أي واضحة المعنى ، ظاهرة ، بينة ، ليس في معناها أي إشكال ، وآيات أخرى من القرآن متشابهات: أي في معانيها بعض الخفاء ولا يزول هذا الخفاء إلا للراسخين في العلم مثل ما قال الله جل وعلا: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ ﴾ أي المتشابه ، الضمير في قوله ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ ﴾ أي المتشابه ﴿ إِلَّا اللَّهُ ﴾ ؛ هذا على قراءة الوصل.

أما على قراءة الفصل فإن المراد بالتشابه ليس هذا ، ليس المراد بالتشابه خفاء المعنى ، وإنما المراد بالتشابه : الحقيقة والكيفية ؛ فيجب الوقف هنا ؛ ﴿ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ﴾ ؛ إذا كان المراد بالتشابه أي الحقيقة والكيفية والكنه ، ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ ﴾ .

أما إذا أريد بالتشابه أي خفاء المعنى؛ فليس في القرآن معاني تخفى على جميع الأمة ، لم يخاطبنا الله سبحانه وتعالى بكلام لا يُفهم إطلاقًا ، بل في القرآن آيات لا يفهمها إلا أهل الرسوخ ، فهي متشابهة ويراد بالتشابه هنا ليس التشابه المطلق ، وإنما المراد بالتشابه هنا التشابه النسبي ، ليس المراد بالتشابه التشابه المطلق بحيث لا تُفهم مطلقًا لا يوجد في القرآن آيات لا تفهم إطلاقًا ، الله خاطبنا بكلام عربي مبين ، لكن في القرآن آيات متشابهات أي معناها خفي خفاء نسبي ، ما معنى خفاء نسبي؟ أي بعض الناس يفهمونها وبعض الناس لا يفهمها ، الذي يفهمها أهل الرسوخ في العلم مثل ابن عباس قال «أنا من الراسخين في العلم الذين يعلمون تأويله» ؛ فهذا هو المعنى.

فابن عباس رضي الله عنه يقول هنا : ((**يجدون رقة عند محكمه**)) المراد بالمحكم هنا : أي الواضح ، واضح المعنى يجدون رقة ؛ تخشع قلوبهم تلين ، تُقبل نفوسهم عن محكمه .

((**ويهلكون عند متشابهه**)) أي ما يشتبه عليهم ، حتى فيما يتعلق بالأسماء والصفات قد يشتبه على إنسانٍ ما لقلة علمه ، فهذا الاشتباه ليس معناه أن علم الأسماء والصفات من علم المتشابه، لا ، لكن قد يكون بعض المعاني أو بعض الدقائق المتعلقة ببعض الأسماء والصفات تشتبه على بعض الناس وهذا من الاشتباه النسبي؛ مثل ما حصل لهذا الرجل ، ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما ((يجدون رقة عند محكمه ويهلكون عند متشابهه)) .

قف هنا عند قوله ((**يهلكون**)) في هلاك هنا ، ما نوع الهلاك؟ ما هو هذا الهلاك الذي يحصل؟ الرد ، عدم الإيمان، التردد في الإثبات ، الشك في إثبات ذلك ، التردد فيه ، يرتعد استنكارا ؛ هذا هلاك. مر معنا نظير ذلك في الآية قال: ﴿ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ ﴾[فصلت:٢٣] يعني أهلككم ، فابن عباس قال ((يهلكون عن متشابهه)) . إذًا ثمة هلاك هنا ، موطن هلاك ، أناس يهلكون ؛ تأتيهم آيات من آيات الصفات أو أحاديث من أحاديث الصفات فتستنكرها قلوبهم ، تردها قلوبهم ، لا تقبلها نفوسهم ، هذا الرد وهذا الاستنكار وهذا عدم القبول لهذه الصفات ما هو بما بيَّنه ابن عباس رضي الله عنهما ؟ هذا الهلاك قال ((**يهلكون عند متشابهه**)) .

إذا كان ابن عباس رضي الله عنهما قال هذه الكلمة في مثل هذا الموقف ولم توجد بعد مدارس علم الكلام ، مدارس علم الكلام ما وجدت بعد في زمانه ، مدارس علم الكلام تحتها رُدت أسماء كثيرة لله وصفات كثيرة لله سبحانه وتعالى ، أصبح من يتلقى هذا العلم بكل سهولة يقول : هذا ما أثبته ، وهذا عقلي ما يقبله ، وهذا لا يمكن أن أثبته ، وهذا ولو ثبت في الحديث أنا ما أقبله .. إلى آخر ذلك ؛ يهلكون . إذا كان هذا قبل أن يوجد هذا العلم ؛ حصل عند الرجل شيء من الرعدة ارتعد لأنه استغرب بسبب قلة علمه ، فكيف بمن أصلًا عنده قواعد كلامية تصادم هذه الآيات وتصادم هذه الأحاديث !! كم قع فيه أولئك من الهلاك بسبب علم الكلام .

فنستفيد من كلمة ابن عباس هذه رضي الله عنه هذه خطورة علم الكلام الذي ترتب عليه إنكار لكثير من أسماء الله سبحانه وتعالى وصفاته ، ولا أريد أن أثقل على مسامعكم ببعض النقول المستهجنة الغريبة السيئة البالغة في

السوء مبلغًا عظيما في إنكار أسماء الله سبحانه وتعالى وصفاته ممن تربَّوا على هذه المدارس ؛ مدارس الفلسفة ومدارس علم الكلام والمنطق وغير ذلك ، وكيف أن هذه العلوم ولَّدت فيهم جرأة عجيبة جدًا في رد أسماء الله سبحانه وتعالى وردِّ صفاته فوقعوا في حضيض الهلاك ، كما قال رضي الله عنه: ((يهلكون عند متشابهه)).

قال رحمه الله تعالى :

ولما سمعت قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر الرحمن ، أنكروا ذلك ، فأنزل الله فيهم : ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ ﴾ [الرعد:٣٠] .

****

قال رحمه الله: ((**ولما سمعت قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر الرحمن**)) أي يذكر هذا الاسم من أسماء الله ((**أنكروا ذلك**)) ؛ قوله رحمه الله «أنكروا ذلك» الإشارة إلى ماذا ؟ إلى الاسم نفسه ، أنكروا ذلك: أي أنكروا الاسم ؛ لم ينكروا وجود الله، لم ينكروا أنه هو الرب الخالق لم ينكروا ذلك ، لأنهم إن سئلوا من خلقكم؟ من خلق السماوات؟ من خلق الأرض؟ من خلق الجبال؟ يقولون الله ، يؤمنون ، لكن إنكارهم في هذا الموضع إنكار لهذا الاسم تحديدًا ، مثل ما مر معنا في قصة سهيل في كتابة الصلح قال : «لا نعرف الرحمن ، هذا الاسم لا نعرفه» ؛ فامتنع من قبول كتابة «بسم الله الرحمن الرحيم» قال لا نعرف هذا الاسم .

فيقول رحمه الله : ((**ولما سمعت قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر الرحمن**)) أي يذكر هذا الاسم لله ((**أنكروا ذلك فأنزل الله فيهم : ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ ﴾**)) ؛ أيضًا نزل بسبب الموضوع نفسه قول الله سبحانه وتعالى في سورة الإسراء: ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ [الإسراء:١١٠] ، عندما تقول "يا الله ، يا رب، يا رحمن" هذه كلها أسماء لله ﴿ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ ، قال الله سبحانه وتعالى ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف:١٨٠] ، وقال في سورة الحشر في آخرها في سياق مبارك ذكر الله سبحانه وتعالى فيه سبعة عشر اسمًا من أسمائه الحسنى قال: ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٤) ﴾ له الأسماء الحسنى ، هذه كلها أسماء لله ، ((إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ)) ؛ فـ«الرحمن» اسم من أسماء الله العظيمة .

فهؤلاء لما سمعوا هذا الاسم استنكروا وجحدوا هذا الاسم تحديدًا ، وذكر بعض أهل العلم أن جحدهم هذا الاسم كان على وجه العناد ، ولهذا يوجد في بعض أشعارهم في الجاهلية إثبات هذا الاسم ، مثل قول أحدهم «ألا قبض الرحمن ربي يمينها» فيه ذكر هذا الاسم ، ويأتي في أشعارهم ويأتي في منثور كلامهم .

فقيل إن هذا الانكار كان على وجه الجحود والعناد ، عنادًا قالوا «لا نعرف الرحمن ، اكتب باسمك اللهم لا تكتب الرحمن» ، ولهذا ابن جرير في كتابه التفسير قال بهذا الحرف : «زعم بعضُ أهل الغَباء أنّ قريشا أو الجاهلية كانت لا تعرف "الرحمن" » ، معروف الاسم عندهم وموجود في أشعارهم وذكر بعض أشعارهم الموجود فيه هذا الاسم ، قال «زعم بعضُ أهل الغَباء أنّ قريشا أو الجاهلية كانت لا تعرف "الرحمن" » الاسم معروف عندهم وموجود ، لكن قيل إن ذلك على وجه العناد والمكابرة قالوا لا ما نعرف الرحمن ، وفي رواية فيها كلام قالوا : "لا نعرف إلا رحمن اليمامة" أي مسيلمة الكذاب ، قالوا ذلك على وجه العناد .

يقول: ((**ولما سمعت قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر الرحمن أنكروا ذلك فأنزل الله فيهم ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ ﴾**)) ؛ الشاهد أن الله سمى إنكارهم لهذا الاسم وجحدهم له كفرًا قال: ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ ﴾ [الرعد:٣٠] .

قال رحمه الله تعالى :

فيه مسائل ؛ الأولى : عدم الإيمان بجحد شيء من الأسماء والصفات .

أي إذا حصل من الإنسان جحد لشيء من أسماء الله الحسنى أو صفاته العليا ولو شيء قليل ولو اسمًا واحدًا فهذا يترتب عليه عدم الإيمان ، يعني انتفاء الإيمان لأن الله عز وجل سمى جحد المشركين لاسمه الرحمن كفرًا قال: ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ ﴾ [الرعد:٣٠] .

الثانية : تفسير آية الرعد .

وهي قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ (٣٠) ﴾ ؛ تقدم تفسيرها .

الثالثة : ترك التحديث بما لا يفهم السامع .

ليس المراد بترك التحديث يعني تركه مطلقًا وإلغاؤه مطلقا ، وإنما المراد التدرج بالسامع ، ترك التحديث: يعني ترك تحديثه الآن في هذه الفترة التي لم يبلغ علمه ، فيكون تحديثه بما لم يبلغه علمه في مرحلة لاحقة ، ليس المراد بترك التحديث أي إلغاء هذا الأمر مطلقًا ، وإنما يراعى فيه التدرج مع المتعلم في تلقي العلم ، فإذا كان ثمة أمر لا يبلغه فهمه ربما يترتب عليه فتنة لا يحدَّث به كمرحلة أولية ويؤجل إلى مرحلة لاحقة حتى يتسع علمه ويتسع فهمه حتى يفهم هذا الأمر دون أن يكون له فيه فتنة .

الرابعة : ذكر العلة أنه يفضي إلى تكذيب الله ورسوله ولو لم يتعمد المنكِر .

ذكر العلة أي في ترك التحديث بما لا يفهمه السامع أنه يفضي إلى تكذيب الله ورسوله ، مثل ما قال علي رضي الله عنه : «أتريدون أن يكذَّب الله ورسوله» ولو لم يتعمد المنكِر ؛ قد لا يكون المنكِر متعمد ؛ يعني قليل العلم ، لكن المشكلة ليس في قليل العلم ، المشكلة في المتلوث بعلم الكلام ، هذا مصيبته مصيبة ، الشخص قليل العلم الخطب معه هين؛ يُتدرج معه ، لكن المتلوث بعلم الكلام علم الكلام عبث في مخه عبثًا كبيرًا وشوش عليه عقله تشويشا كبيرا فأضرَّ به إضرارًا عظيما ، ولهذا قلت عند بعضهم جرأة سافرة جدًا في رد كلام الله أو رد أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم أحيانًا بألفاظ ما تظن أن مسلم يجرؤ أن يقول مثل هذا الكلام في كلام الله أو كلام رسوله صلوات الله وسلامه وبركاته عليه .

الخامسة : كلام ابن عباس لمن استنكر شيئا من ذلك ، وأنه أهلكه .

قال «كلام ابن عباس لمن استنكر شيئا من ذلك» أي من صفات الله في قصة الرجل التي مرت معنا ، وأنه رضي الله عنه قال: «ما فرَق هؤلاء» في رواية «ما فرّق هؤلاء» ، وانظر تنصيص المصنف على «وأنه أهلكه» أي أن الغلط في هذا الباب باب الأسماء والصفات ليس كالغلط في أي اسم آخر ، لأنه باب هلكة وأمر خطير جدًا ولهذا يجب على العبد أن يتقي الله وأن يحرص على تعلم أسماء الله وصفاته على جادة أهل السنة ، جادة أهل السنة جادة مباركة ، جادة الصحابة ومن اتبعهم بإحسان هذه جادة مباركة قائمة على الإثبات بلا تمثيل والتنزيه بلا تعطيل ، على حد قول الله سبحانه وتعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١] .

والله تعالى أعلم وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .



شرح كتاب التوحيد

لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه اللّه

من الدرس ٤١ إلى الدرس ٤٤

شرح الشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظهما اللّه تعالى

١٤٤٠/٠٥/٠٩ هـ

الدرس الحادي والاربعون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد:

يقول الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد ابن عبد الوهاب التميمي رحمه الله تعالى رحمة واسعة في كتابه «كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد » :

بابٌ قول الله تعالى ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا ﴾ [النحل:٨٣]

قال مجاهد ما معناه : «هو قول الرجل: هذا مالي ورثته عن آبائي» . وقال عون بن عبد الله : «لولا فلان لم يكن كذا» .وقال ابن قتيبة : «يقولون: هذا بشفاعة آلهتنا» . وقال أبو العباس بعد حديث زيد بن خالد الذي فيه : ((وأن الله تعالى قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر)) الحديث وقد تقدم «وهذا كثير في الكتاب والسنة ، يذم سبحانه من يضيف إنعامه إلى غيره ويشرك به» . قال بعض السلف : «هو كقولهم كانت الريح طيبة ، والملاح حاذقا ، ونحو ذلك مما هو جار على ألسنة كثيرة» .

****

هذه الترجمة ((**بابٌ قول الله تعالى ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴾**[النحل:٨٣])) في بيان ما يقع فيه بعض الناس مما يتنافى مع كمال التوحيد الواجب ، لأن من توحيد الله سبحانه وتعالى أن تضاف النعم إليه وأن يكون الشكر له سبحانه وتعالى على نعمه ، فإنه جل وعلا هو وحده المتفضل بالنعم والمولي لها ، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾[النحل:٥٣] ،كما قال جل وعلا: ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾[النحل:١٨] ، والآيات في هذا المعنى كثيرة . والواجب على العبد تجاه هذه النعم أن يشكر المنعم جل في علاه وأن يحمده ، وشكره يكون بالقلب اعترافًا له بالفضل والمن والإنعام ، وباللسان ثناءً على الله وحمدًا وشكرا، وبالجوارح استعمالًا لهذه النعم في طاعة الله سبحانه وتعالى وما يقرب إليه .

ومما يتنافى مع شكر هذه النعم وهو معدودٌ في كفرانها أن لا تضاف النعمة إلى المنعِم الذي هو رب العالمين! وإنما تضاف إلى من جعله الله سببًا في هذه النعمة ، فهذا من كفران النعمة ، والأصل أن المسلم في كل نعمةٍ تحصل له يستشعر أنها نعمة الله عليه ويحمد الله سبحانه وتعالى على فضله ومنِّه ، ولا يضيف النعمة إلى من جعله الله سبحانه وتعالى سببًا ، بل يضيف النعمة إلى المنعم المتفضل رب العالمين جل في علاه .

قال: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا ﴾ ؛ يعرفونها: أي في قرارة أنفسهم يعرفون أن المنعم هو الله والمتفضل هو الله، الذي أمدَّهم بالصحة بالمال بالتجارة إلى غير ذلك هو الله سبحانه وتعالى ، لكن ينكرونها بإضافتها إلى غيره مثل ما سيأتي فيما نقله رحمه الله تعالى عن السلف في بيان معنى الآية ؛ كأن يقول القائل : هذا مالي ورثته عن آبائي، أو أنا جديرٌ به ، أو هذا بعرق جبيني وتعبي ، أو لولا فلان من الناس ما حصلت لي هذه التجارة ولا وجد عندي هذا المال ، أو لولا كذا لسُرقت مثلا ، أو نحو ذلك من العبارات التي ليس فيها إضافة النعمة إلى المنعم جل في علاه وإنما يضيفها إلى من جعله الله سبحانه وتعالى سببا في تلك النعمة .

وهذه الآية قوله جل وعلا ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا ﴾ جاءت في سورة النحل ، وهذه السورة تعرف بـ«سورة النِّعَم» لكثرة ما عدّد الله سبحانه وتعالى فيها من نعمه على العباد؛ بدأ السورة بأعظم نعمة وأجل نعمة على الإطلاق وهي نعمة التوحيد نعمة «لا إله إلا الله» فصُدِّرت السورة بقوله جل في علاه ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (١) يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ (٢) ﴾ صدِّرت بذلك ، وهذه أكبر النعم ، ولهذا قال سفيان بن عيينة : «ما أنعم الله على عبادة نعمة أعظم بأن عرَّفهم بلا إله إلا الله» ، لاشك أن هذه أكبر النعم وأعظم النعم ، ثم بعد ذلك ذُكرت النعم تباعًا نعمة تلو الأخرى في هذه السورة ، فخلق الإنسان وتسخير أنواع النعم له ، تسخير البحار ، تسخير الدواب ، المسكن ، الملبس كل ذلك جاء مفصلًا تفصيلًا واسعًا في هذه السورة «سورة النعَم» .

ثم لما أنهى سبحانه وتعالى عد النعم ختم ذلك بقوله ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا ﴾ ؛ يعرفون أن الله هو الخالق وأنه الرازق المتفرد بذلك لكن إذا حصلت النعمة لأحدهم واستجدَّت المنة قال : لولا فلان لما حصل لي كذا ، أو يقول : أنا جدير بهذا ، أو هذه الأرباح التجارية التي حصلت هذه بحذقي وفطنتي ومهارتي في التجارة وخبرتي ؛ لا يقول "هذا فضل الله عليَّ ، لولا منة الله وفضله وتيسره لما حصل لي ذلك"! وإنما يضيف النعمة إلى من جعله الله سبحانه وتعالى سببًا فيها ، ولاشك أن هذا من كفران النعمة ؛ ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا ﴾ المراد بإنكارها: عزو النعمة إلى غير المنعِم وإضافة النعمة إلى غير المنعم سبحانه وتعالى .

ثم بعد ذلك نقل عن بعض السلف نقولات في معنى الآية فنقل أولًا ((**قال مجاهد ما معناه : هو قول الرجل «هذا مالي ورثته عن آبائي»**)) نقل عن مجاهد أنه قال ما معناه لأن كلام مجاهد وكما هو موجود في كتب التفسير أوسع من هذا لكنه اختصره رحمه الله تعالى قال ما معناه : «هذا مالي ورثته عن آبائي» ؛ الأصل أن يقول هذا مالٌ تفضل الله عليَّ به وأكرمني به ، هذا مالٌ منَّ الله سبحانه وتعالى به عليّ ومن قبل أيضا منَّ به على آبائي ، لولا فضل الله عليَّ وعلى آبائي ما كان عندنا هذا المال . فهذا من كفران النعمة يقول «هذا مالي ورثته

عن آبائي» فهنا أسند النعمة إلى الآباء؛ وهذا من كفران النعمة ، النعمة تسند إلى المنعِم ، فالله عز وجل هو الذي أنعم عليه وعلى آبائه وعلى الناس أجمعين ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل:٥٣] .

وقال عون بن عبد الله : «لولا فلان لم يكن كذا» ؛ وقال عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود : «لولا فلان لم يكن كذا» يعني مثلا شخص يحصِّل أرباح تجارية واسعة جدًا ثم يُسأل عن هذه الأرباح فيقول : لولا فلان ما حصَّلت هذه الأرباح ، لولا أني تعرفت على فلان ودلني على كذا وأخبرني كذا ما أصبحت من التجار الكبار ، أو لما حصل لي كذا أو لما شفيت من كذا الخ ؛ هذا كله من كفران النعمة .

وقال ابن قتيبة : يقولون -أي الكفار المشركون- «**هذا بشفاعة آلهتنا**» ؛ وهذا إضافةً إلى ما فيه من كفران النعمة ففيه الشرك الأكبر بالتعلق بالآلهة﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس:١٨] فيقولون هذا بشفاعة آلهتنا ؛ أي أن هذا المال الذي حصَّلناه أو العافية أو الولد أو التجارة أو غير ذلك إنما حصلناها بشفاعة الآلهة ، بمعنى لولا الآلهة وتعلقنا بها وإقبالنا عليها دعاءً ورجاءً لما حصّلنا ذلك ؛ فهذا فيه الشرك الأكبر إضافةً إلى ما فيه من إضافة النعمة إلى غير المنعم .

وقال أبو العباس بعد حديث زيد بن خالد الذي فيه: «وأن الله تعالى قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر» الحديث وقد تقدم ؛ وهذا كثير في الكتاب والسنة يذم سبحانه من يضيف إنعامه إلى غيره ويشرك به

هنا نقل أيضا في معنى الآية عن أبي العباس شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى ، وهذا النقل موجود في مجموع فتاواه في المجلد الثامن منه ، فنقل عن أبي العباس شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في تفسير الحديث المتقدم حديث زيد بن خالد رضي الله عنه أن الله تعالى قال : «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر فمن قال مطرنا بفضل الله ورحمته فهو مؤمن بي كافر بالكوكب ، ومن قال مطرنا بنوء كذا وكذا فهو مؤمن بالكوكب كافر بي» ، والحديث تقدم بتمامه عند المصنف رحمه الله تعالى في باب ((ما جاء في الاستسقاء بالأنواء)) مر معنا الحديث هناك ، فنقل هنا عن شيخ الإسلام ابن تيمة رحمه الله تعالى أن هذا كثير يأتي في القرآن والسنة في مواضع كثيرة جدًا يذم الله سبحانه وتعالى من كان كذلك يضيف النعمة إلى غير المنعم وإلى غير المتفضل سبحانه وتعالى .

والكلام لا يزال أيضًا موصولًا لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى حيث نقل عن بعض السلف أنه قال :

((قال بعض السلف: هو كقولهم كانت الريح طيبة ، والملاح حاذقا ، ونحو ذلك مما هو جارٍ على ألسنة كثير)) ؛ أي أن هذا لا يختص بلفظة معينة ، الألفاظ التي هي من هذا القبيل كثيرة جدًا تجري على ألسنة الناس، وهي في زماننا هذا ربما أكثر من غيره ، ولكم أن تقولوا لماذا هي في زماننا هذا أكثر من الأزمنة الأولى ؟ لأن الناس في هذا الزمان فُتنوا كثيرا بالحضارات وفتنوا بالصناعات الحديثة ، وأصبح عند كثير من الناس تعلق بهذه

الأشياء ، فتجد مثلًا من الناس من يضيف نجاحه في أمرٍ ما إلى خبرته بكذا ، يقول أنا عندي خبرة بأجهزة الجوالات أو أجهزة الاتصالات أو أجهزة كذا يقول أنا عندي خبرة فهذا النجاح بسبب خبرتي ، ما يقول هذا النجاح بتوفيق الله لي أو منَّته علي ، أو مثلا الصناعات الحديثة أو وسائل النقل الحديثة تجد مثلا شخص عنده سيارة من النوع الجيد يقول : لولا أن سيارتي من النوع الفلاني وإلا أن كان مت ، لولا أن سيارتي من نوع كذا ومؤمَّنة بكذا وفيها كذا ومشتملة على كذا وإلا كان مت ما رأيتني حي مع الأحياء ، لكن السيارة فيها كذا وفيها كذا ونجوت . فكثير جدًا موجود في ألسنة الناس من هذا الشرك الخفي وكفران النعم ألفاظ كثيرة دارجة على ألسنة الناس ، تجد الإنسان أول ما تستجد له نعمة أو يحصل له نجاة من كرب أو كذا لا يقول " الحمد لله ، والله لولا لطف الله ، ولولا فضل الله ، ولولا منة الله لما حصل لي كذا" ، تجده مباشرة يقول : "لولا فلان ومهارته في قيادة السيارة وإلا كلنا هلكنا ، ولولا مثلا قائد الطائرة وحذقه ودربته وإلا كان الركاب كلهم هلكوا ، لولا كذا" ، هذه الألفاظ كثيرة الوجود في هذا الزمان .

وهنا قال في نقله عن بعض السلف أنه قال: ((**كانت الريح طيبة والملاح حاذق**)) يعني يعزو نجاتهم من الغرق في السفينة إلى أن الريح طيبة ، كانت الريح طيبة يعني ما كانت في أمواج ، والملاح حاذق ؛ الملاح: إما أن يراد به صاحب السفينة أو قائد السفينة ، ويقال له «الملاح»: لأنه كثيرًا ما يكون في البحر المالح ، يقال له ملاح لهذه الملازمة الطويلة منه للبحر الذي هو مالح فيقال له الملاح . فيقولون عند النجاة : "لولا أن الرياح كانت طيبة وساكنة ، ولولا أن القطبان والملاح كان حاذقًا وإلا غرقنا" ، مثل ذلك مثل ما يقول "لولا الطيار كان ماهر ولولا الطيار كان هلك الناس ، أو لولا قائد السيارة ومهارته وحذقه ودربته وإلا كان هلكنا لكن السائق كان ماهر" ، كيف نجوتم؟ يقول : "السائق كان ماهر جدًا في قيادة السيارة" . هذه الأشياء كثيرة جدا ، مثلا آفة تحصل في البيت يقول ما حصل مثلا عند فلان ! يقول لا لأن فلان عنده خبرة في كذا أو عنده دراية بكذا .

الشاهد أن مثل الأمور كثيرة الآن في هذا الزمان ومثل هذا الباب يحتاج والله الناس إليه كثيرًا ، يحتاج أن يصحح المرء إيمانه ويصحح توحيده ، وأن يذكر دائما فضل الله سبحانه وتعالى عليه، وكلما استجدَّت نعمة يذكر نعمة الله عليه ويحمد الله ؛ لولا فضل الله عليَّ ، لولا منة الله ، لولا توفيق الله ، لولا أن الله سلَّمنا ، إلى غير ذلك من الكلام الذي هو من التوحيد والإيمان .

قال رحمه الله تعالى :

فيه مسائل ؛ الأولى : تفسير معرفة النعمة وإنكارها .

المسألة الأولى : تفسير معرفة النعمة وإنكارها لأن في الآية الكريمة قال: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ [النحل:٨٣] الآية ذكر فيها معرفة وذكر فيها إنكار ؛ فما المعرفة التي وجدت عندهم ؟ وما الإنكار الذي وجد عندهم؟ المعرفة

أنهم يعرفون أن الرزاق هو الله وحده ، وإذا سئل من الرزاق؟ من المنعم؟ من المتفضل؟ يقول الله وحده ، من الخالق من الرازق؟ يقول الله وحده ، وينكرونها : إذا حصلت نعمة لا يضيف النعمة إلى الرزاق يقول : لولا كذا لحصل كذا ، وهذه بجدارتي ، هذه عن آبائي ، وهذه بحذقي ، وهذه بكذا إلى آخره . فالمعرفة: أي معرفتهم بأن الله هو الرزاق وحده لا شريك له . والإنكار: عندما يضيفون النعمة إلى غير المنعم .

الثانية : معرفة أن هذا جارٍ على ألسنة كثيرة .

أي: على ألسنة كثير من الناس ، وقلت أن هذا في زماننا موجود بشكل كبير جدًا ؛ لأسباب كثيرة أشرت إلى شيء منها .

من ضمن الأسباب : جهل الناس بالتوحيد وقلة دراسة التوحيد في كثير من البلدان ، كثير من البلدان لا يدرَّس فيها التوحيد ولا يوقف الناس على هذه الآيات وهذه الأحاديث والنصوص العظيمة التي تربي الإنسان على العقيدة الصحيحة وعلى الإيمان القويم وعلى توحيد الله وإخلاص الدين له والبُعد عن الشرك ، فكثير من الناس ما ينشأ على ذلك ، وربما يكون أيضًا في مجتمع فيه شيوخ ضلال ينشئونه على شيء من الباطل ، والنبي صلى الله عليه وسلم قال : ((إِنَّ مِنْ أَخْوَفِ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ)) أي دعاة الضلال ودعاة الباطل ، وإلا كثير من الناس لو وقف على هذه الآيات وعُرِّف بها يفرح ويحمد الله الذي وفَّقه لمعرفة هذه الآيات ، وتجده يعاهد نفسه على الاستمساك بها لأنها نور وأمر واضح ، مثل ما يقال «الحق أبلج والباطل لجلج» ، فهي واضحة بينة ظاهرة ، لكن مشكلة كثير من الناس أن في بلده ما نُشئ ولا دُرِّس التوحيد ولا عُرِّف ولا وقِف على مثل هذه النصوص أو هذه المعاني العظيمة .

الأمر الآخر لسبب كثرتها في هذا الزمان: انبهار الناس بهذه الأجهزة وهذه الحضارات وهذه المستجدات المتلاحقة الكثيرة في مثل هذا الزمان ، فأصبحت قلوب الناس متعلقة ؛ إن جاء الأمن فتعلقه بوسائل الأمن ، إن جاء للربح والتجارة تعلقه بها ، حتى الآن أصبحت تُعقد الدورات في الثقة بالنفس صناعة النفس صناعة الذات أشياء من هذا القبيل كلها مبنية على هذا الانحراف؛ الثقة بالله ليست بالنفس ، الاعتماد على الله ، التوكل عليه سبحانه وتعالى ، أنت عبد ضعيف قد تبذل من الأسباب الشيء الكثير ولا يحالفك توفيق من الله ، فالأمر بيد الله سبحانه وتعالى ، ولهذا يحتاج العبد فعلًا إلى عناية دقيقة بهذا المقام .

الثالثة : تسمية هذا الكلام إنكارًا للنعمة .

أي قول القائل: هذا ورثته عن آبائي ، قول القائل: الريح طيبة والملاح حاذق، قول القائل : لولا فلان لما حصل لي كذا وكذا . تسمية ذلك إنكار للنعمة؛ لأن الله قال: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا ﴾ [النحل:٨٣] ، وأئمة السلف

رحمهم الله في كتب التفسير فسروا الآية بهذا المعنى ، وهذه المعاني التي ذُكرت كلها مرادة ، الألفاظ التي جاءت عن السلف رحمهم الله كلها مرادة ، وكلٌ فسر ببعض الألفاظ التي تدخل في عموم المعنى المراد بقوله ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا ﴾ .

الرابعة : اجتماع الضدين في القلب .

اجتماع الضدين في القلب ؛ المعرفة والإنكار هذان ضدان ، فاجتماع الضدين في القلب لكن هذا الاجتماع في القلب ليس من جهة واحدة وإنما من جهتين : معرفة من جهة أن الله هو الرزاق المنعم المتفضل وحده لا شريك له، والإنكار من جهة أنه إذا استجدت النعمة للمرء لم يضفها إلى المنعم وإنما أضافها إلى مهارته أو إلى ميراثه عن آبائه وأجداده أو إلى أشياء من هذا القبيل .

قال الإمام المجدد رحمه الله :

باب قول الله تعالى ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٢٢]

قال ابن عباس في الآية : «الأنداد : هو الشرك؛ أخفي من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل ، وهو أن تقول : والله وحياتك يا فلان وحياتي ، وتقول : لولا كليبة هذا لأتانا اللصوص ، ولولا البط في الدار لأتى اللصوص ، وقول الرجل لصاحبه : ما شاء الله وشئت ، وقول الرجل: لولا الله وفلان ، لا تجعل فيها فلانا ، هذا كله به شرك» رواه ابن أبي حاتم .

****

قال رحمه الله تعالى: ((**باب قول الله تعالى ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾**)) ؛ هذه الترجمة عقدها رحمه الله تعالى للتحذير من شرك الألفاظ ؛ وذلك أن يأتي على لسان الإنسان ألفاظ شركية ولم يقصد ذلك بقلبه ، وبعض الناس ينكَر عليه مثلًا بعض الألفاظ يقول "والله أنا ما أقصد ذلك" . فهذا الباب يتعلق بما يقع على ألسنة كثير من الناس من الألفاظ الشركية التي ليست مقصودة عندهم في قلوبهم ، لم يقصد ذلك وإنما جاءت هكذا على لسانه . والإنسان مؤاخذ بألفاظه ، ويجب أن تكون ألفاظه نظيفة ونزيهة وبعيدة عن لوثة الشرك بالله سبحانه وتعالى ، ويجب عليه أن يصون منطقه ، ولا يكفي أن يقول أنا مقصدي طيب أو نيتي طيبة ولا قصدت الشر أو نحو ذلك ، بل لابد أيضا من صيانة اللسان . فهذه الترجمة عقدها رحمه الله تعالى لبيان ذلك.

قول الله تعالى ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ؛ والآية أصالةً هي في الشرك الأكبر ، لكن من طريقة السلف رحمهم الله من الصحابة والتابعين أنهم يستدلون ببعض الآيات التي جاءت في الشرك الأكبر يستدلون بها

فيما يتعلق بالشرك الأصغر أو شرك الفاظ أو نحو ذلك . مر معنا نظيرٌ لذلك عن حذيفة ابن اليمان رضي الله عنه في قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾[يوسف:١٠٦] ، فمثل هذه الآيات التي هي أصالةً في الشرك الأكبر يأتي عن بعض السلف الاستدلال بعمومها على التحذير من الشرك الأصغر بحكم أن كلًا منهما شرك ، وإن كان هذا أكبر ناقل من الملة وهذا أصغر ليس بناقل من الملة .

وهذه الآية الكريمة ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ هي أول نهيٍ يصادفك إذا قرأت القرآن وافتتحته من أوله، أول نهي يصادفك هو هذا النهي ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا ﴾ ، كما أن أول أمرٍ يصادفك في الآية التي قبل هذه الآية ﴿ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ ﴾[البقرة:٢١] ، فأول أمر في القرآن أمر بالتوحيد ، وأول نهي في القرآن الكريم نهي عن الشرك بالله سبحانه وتعالى .

وقُدِّم بين يدي هذا النهي تذكيرٌ بنعم الله الكبار العظيمة قال سبحانه وتعالى: ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ؛ ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا ﴾ قال غير واحد من السلف منهم ابن عباس رضي الله عنهما في معنى الآية : أي لا تجعلوا لله شركاء في العبادة ﴿ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي: تعلمون أنه لا خالق لكم غير الله ، تعلمون أن الله وحده هو المتفرد بالخلق والرزق والإنعام إلى غير ذلك ؛ فلا تجعلوا لله شركاء في العبادة وأنتم تعلمون تفرده سبحانه وتعالى بخلق هذه الأشياء .

فالآية في الشرك الأكبر لكن جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما الاستدلال بهذه الآية في التحذير من الشرك الأصغر بحكم أن كلًا منهما شرك ؛ ولهذا جاء عنه رضي الله عنه في معنى هذه الآية قال : ((**الأنداد : هو الشرك ، أخفي من دبيب النمل**)) ؛ هنا بدأ يتحدث في تفسير الآية عن نوعٍ من الشرك وهو ما يسمى «شرك الألفاظ» ، وهو من الشرك الأصغر مادام أنه في هذا الحدود ، ليس قائمًا عن عقيدة في القلب وإنما لفظة هكذا جاءت على اللسان فهذا من شرك الألفاظ وهو من الشرك الأصغر .

فيفسر ابن عباس هنا الأنداد، قال ((**الأنداد: الشرك**)) أي أن يجعل مع الله الشريك ، ولو أن يكون هذا الشريك مجرد لفظة هكذا تأتي على اللسان فهذا أيضا محاسب عليه الإنسان ، ولو كانت لفظة هكذا جاءت على لسان الإنسان لم تقم عن عقيدة في قلبه ، لأنها إن قامت على عقيدة في القلب لم يصبح شركًا أصغر ، وصار من الشرك الأكبر ، لكن لما كانت مجرد لفظة هكذا جاءت على اللسان فإنها من الشرك الأصغر .

قال رضي الله عنهما : ((**الأنداد: الشرك؛ أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل**))؛ حتى يتضح لك كلام ابن عباس رضي الله عنهما استحضر في ذهنك هذه الصورة الآن ؛ جالس في ليلة مظلمة ليست

مقمرة ، في آخر الشهر الظلام دامس وإلى جنبك صخرة سوداء وجاءت نملة تمشي فوق الصخرة ؛ هل ترى النملة؟ هل تحس بمشيها؟ هل تحس بدبيبها؟ الليلة مظلمة والصخرة سوداء والنملة تمشي والنملة أيضا لونها أسود ما تراها ، قال ((**الشرك أخفى من دبيب النمل على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء**)) أي من الشرك شرك خفي ، معنى ذلك أنه يتسلل إلى الألسنة ، يتسلل إلى القلوب ، يكثر على ألسنة الناس ، والإنسان في نفسه يظن أنه سليم من هذه الشركيات ويكون لسانه ملوَّث بأشياء كثيرة منها قال: ((**الشرك أخفى من دبيب النمل**)) . أيضا مرة أخرى تصور هذا المنظر؛ صخرة صماء سوداء ليلة مظلمة ونملة سواء تمشي فوق الصخرة أتشعر بها ؟ قال ((**الشرك أخفى من دبيب النمل**)) .

وهذا المعنى الذي جاء عن ابن عباس صح مرفوعا عن نبينا عليه الصلاة والسلام كما في الأدب المفرد وغيره أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :((للشِّرْكُ فِيكُمْ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ)) فَقَالَ بعض الصحابة : «وَهَلِ الشِّرْكُ إِلَّا مَنْ جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخر؟» يعني هذه واضحة ، فأعاد النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الجملة قال : ((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَلشِّرْكُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ)) ، ثم قدَّم عليه الصلاة والسلام لهم دعاءً عظيمًا أنصح نفسي وإخواني بحفظه والمحافظة عليه ؛ قال النبي لهم وهو الناصح الأمين عليه الصلاة والسلام : ((ألا أدلكم على شيء إذا قلتموه أذهب الله عنكم قليل الشرك وكثيره؟)) قالوا بلى يا رسول الله ، قال : ((تقولون : اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أُشْرِكَ بِكَ وَأَنَا أَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا أَعْلَمْ)) ، نجعل من جملة عملنا الصالح ننشر هذا الدعاء ، إذا كان عندي والد ووالدة قريب أحفِّظه إياه ، إذا كان عندي أصدقاء أرسله لهم برسائل الجوال ، أي طريقة تتهيأ لك بادر بأن تجعل هذا من جملة عملك الصالح.

((اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أُشْرِكَ بِكَ وَأَنَا أَعْلَمُ وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا أَعْلَمْ)) ؛ وهذا فيه أن نجاتك من الشرك كبيره وصغيره دقيقه وجليله بيد الله لا تنجو منه إلا إذا نجاك الله ، ولهذا تفزع إلى الله وتلجأ إليه سبحانه وتعالى أن يعيذك من الشرك . والاستعاذة: التجاء إلى الله واعتصام به والتجاء إليه ؛ ((اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ)) أي ألتجئ إليك يا الله أن تنجني منه ، أن تسلِّمني ، أن تعيذني ، ما أعلمه من الشرك وما لا أعلمه . ((اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أُشْرِكَ بِكَ وَأَنَا أَعْلَمُ وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا أَعْلَمْ)) ، فهذا المقام يحتاج إلى هذه الاستعاذة ، ويحتاج أيضًا إلى بذل السبب كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: ((احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ)) ؛ فتستعيذ بالله وتبذل السبب ، ومن أعظم ما يكون في بذل السبب أن تتعلم هذا العلم الصحيح المؤصَّل المستمد من كتاب الله سبحانه وتعالى تعلُّمًا ترجو به نجاة نفسك ونجاة غيرك ، تتعلم هذه الأمور .

الآن ابن عباس لما فصل هذه الألفاظ تفصيلًا وتوسع بذكرها كذا وكذا إلى آخره لما فصَّل هذه الألفاظ فصَّلها على وجه التحذير منها ، فما كان من هذه الألفاظ أو نظائرها من الألفاظ الشركية يحرص المرء على صيانة لسانه وتنزيهه منها . نأخذ هذه الألفاظ لفظةً لفظة :

((**وهو أن تقول : والله وحياتك يا فلان وحياتي**)) ؛ هذه أمثلة الآن ، هذا تفسير لهذا اشرك بأمثلة عليه فمنها: الحلف بغير الله ؛ أن يقول القائل «والله وحياتي» يعني يحلف بالله ويحلف بحياته أو يحلف بحياة فلان أو أيًا كان المحلوف به غير الله سبحانه وتعالى وأسمائه وصفاته ؛ يحلف بحياته ، يحلف بحياة فلان ، يحلف بالنبي يحلف بكذا كل هذا من الشرك ، وسيذكر بعض الأحاديث في هذا الباب ((مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ)) يأتي معنا في هذه الترجمة ، فالحلف بغير الله شرك ، لأن الحلف بغير الله ناشئ عن تعظيم لهذا المحلوف ؛ فهذا التعظيم الذي ترتب عليه هذا الحلف به تعظيما له لا يكون إلا بالله سبحانه وتعالى ، فمن حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك كما جاء بذلكم الحديث عن نبينا الكريم صلوات الله وسلامه عليه .

((**وتقول : لولا كليبة هذا لأتانا اللصوص**)) ؛ «كليبة»: تصغير كلبة ، الكلب يستعمل في الحراسة ، حراسة مثلا الماشية أو حراسة الزرع ، وفي الحديث ((مَنِ اقْتَنَى كَلْبًا إِلَّا كَلْبَ مَاشِيَةٍ أَوْ كَلْبَ صَيْدٍ، نَقَصَ مِنْ عَمَلِهِ كُلَّ يَوْمٍ قِيرَاطٌ)) ، فيستعمل للحراسة ، وإذا رأى الكلب غريبًا ولاسيما في الليل أخذ ينبح عليه حتى يفزّع أهل الحلال وينبّههم إلى وجود غريب دخل المكان أو اقترب من الماشية أو اقترب من الزرع ، فلا يزال ينبح به حتى يفر أو يتنبه أهل الحلال ، فعند حصول شيء من ذلك وسلامة أهل الزرع أو أهل الماشية من سرقة ثم يقول قائلهم : لولا الكلبة التي عندنا لسُرقنا أو لولا كلبة فلان لسرقنا هذا من الشرك ؛ شرك الألفاظ ، لماذا ؟ لأن هذه النعمة التي هي النجاة من السرقة التي الله تفضل بها عليهم وسخر لهم أيضا هذه الكلبة تنبح على من يأتي لم يضيفوا النعمة إلى المنعم سبحانه وتعالى .

((**ولولا البط في الدار لأتى اللصوص**)) البط أيضا نفس الطريقة ، البط يجعلونه في الدار وإذا أحس بغريب صوَّت بصوت عالي ففر الغريب ، فإذا قال الإنسان : لولا البط لسُرقنا مثلها الآن يقول : لولا أن عندنا جرس إنذار كان احترقنا الليلة! لكن عندنا جرس إنذار ، أو يقول مثلا : لولا وسائل الأمن الموجودة في البيت وإلا لحصل لنا كذا وكذا ، ولولا أني صنعت كذا لحصل ؛ هذه كثيرة على ألسنة الناس ، فهذه الألفاظ أو ما كان من نظائرها كله يأخذ الحكم نفسه .

((**وقول الرجل لصاحبه : ما شاء الله وشئت**)) يعني يعطف مشيئة صاحبه على مشيئة الله بحرف الواو ، ولو كان العطف بحرف ثم فإن « ثم» تفيد التراخي والمهلة ، ولهذا جاء في الحديث ((إِذَا حَلَفَ أَحَدُكُمْ فَلَا يَقُلْ مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ، وَلَكِنْ لِيَقُلْ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ شِئْتَ)) ؛ لأن العطف بـ« ثم» يفيد التراخي والمهلة ، أما العطف بالواو فهو يفيد مطلق العطف ، فهو مشعِر بنوع تسوية بين مشيئة المخلوق ومشيئة الخالق . قد يقول القائل: أنا ما قصدت أن أسوّي مشيئة هذا الإنسان بمشيئة الله ، يقال له: لو قصدت تسوية مشيئته بمشيئة الله لكان شركًا أكبر ، لكن لكونك ما قصدت مجرد لفظة جاءت على لسانك فهي من الشرك الأصغر .

((**وقول الرجل : لولا الله وفلان ، لا تجعل فيها فلانا ، هذا كله به شرك**)) ؛ (وقول الرجل : لولا الله وفلان) هذه مثل ما تقدم (لا تجعل فيها فلانا هذا كله به شرك) ؛ هذا كله من الشرك الذي هو شرك الألفاظ الذي يجب على المرء أن يصون نفسه منه .

وطالب العلم عندما ينظر في هذه الألفاظ يتفكر في الألفاظ الموجودة في لغته الدارجة ، لا يلزم هذا اللفظ نفسه لكن الألفاظ الموجودة في لغته الدارجة المشابهة لهذه الألفاظ وينتدب لنصح العوام وتحذيرهم من هذه الألفاظ استصلاحًا لتوحيدهم واستصلاحا لعقائدهم وعملًا على تحقيق هذا الخير .

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك» رواه الترمذي وحسنه ، وصححه الحاكم .

****

قال ((**وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك»**)) ؛ والحديث هو في الترمذي والحاكم وغيرهما من حديث عبد الله بن عمر ابن الخطاب رضي الله عنهما ، فلعل لفظة «عبد الله بن» سقطت . عبد الله ابن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك» ، في بعض المصادر جاءت هكذا على شك ((فقد كفر أو أشرك)) . وهذا فيه أن الحلف بغير الله سبحانه وتعالى شركٌ وهو أيضا كفر لكنه شرك دون الشرك الأكبر الذي هو ناقل عن ملة الإسلام .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : «لأن أحلف بالله كاذبا أحب إلي من أن أحلف بغيره صادقا» .

****

وهذه كلمة عظيمة جدا لعبد الله بن مسعود رضي الله عنهما تدل على كمال فقه الصحابة وعظيم عنايتهم بالتوحيد ، وأيضا عظيم صيانتهم للألفاظ والحذر منها والتحذير منها ؛ فقال هذه الكلمة العظيمة المباركة التي تدل كما قلت على عظيم فقه الصحابة رضي الله عنهم وعظيم عنايتهم بتوحيد الله سبحانه وتعالى .

قال رضي الله عنه: «**لأن أحلف بالله كاذبًا أحب إليَّ من أن أحلف بغيره صادقًا**» ؛ تأمل الآن الكلمة الأولى والكلمة الثانية ووازن بينهما ؛ الكلمة الأولى: «لأن أحلف بالله كاذبًا» ، الكلمة الثانية: «أن أحلف بغيره صادقًا» ووازن بين الكلمتين حتى تنظر في هذا الفقه العظيم ، كلٌ من الكلمتين فيهما حسنة وسيئة ، الكلمة الأولى فيها حسنة وفيها سيئة ، والكلمة الثانية فيها أيضا حسنة وسيئة ؛ الكلمة الأولى: «لأن أحلف بالله كاذبًا» فيها حسنة التوحيد وسيئة الكذب ، الكلمة الثانية «أحب إلي من أن أحلف بغيره صادقًا» فيها سيئة الشرك

وحسنة الصدق. الآن عندما يظهر لك هذا الأمر كلامٌ فيه حسنة التوحيد أو كلام فيه سيئة الشرك نعوذ بالله من الشرك ، وإن نظرت في السيئة التي هي سيئة الكذب أهون من سيئة الشرك ، وإذا نظرت حسنة التوحيد أعظم من حسنة الصدق ؛ فانظر هذا الفقه العظيم يقول «لأن أحلف بالله كاذبًا أحب إلي من أن أحلف بغيره صادقًا» لأن الحلف بغير الله شرك ، وكبيرة الشرك أعظم من كبيرة الكذب وأخطر ، فهذا فقه الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم .

وعن حذيفة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان ولكن قولوا : ما شاء الله ثم شاء فلان» رواه أبو داود بسند صحيح .

****

قال : ((**وعن حذيفة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال** : «**لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان ولكن قولوا : ما شاء الله ثم شاء فلان» رواه أبو داود بسند صحيح**)) ؛ قول القائل «ما شاء الله وشاء فلان» هذا فيه شرك ، والشرك هنا هو شرك الألفاظ ، وكما قدمت قبل قليل لو أنه قال "ما شاء الله وشاء فلان" وهو يقصد تسوية مشيئة غير الله بالله لكان من الشرك الأكبر ، لكن لما كان لا يقصد ذلك وإنما لفظٌة هكذا جاءت على لسانه فهو من شرك الألفاظ .

قال النبي عليه الصلاة والسلام : «**لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان ولكن قولوا : ما شاء الله ثم شاء فلان**» وثمة فرق بين العطف بحرف الواو والعطف بحرف ثم ؛ لأن العطف بحرف ثم عطفٌ يفيد المهلة والتراخي ، أما العطف بحرف الواو فإنه يفيد مطلق العطف وقد يوهم التسوية بين المعطوف والمعطوف عليه ، ولهذا نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك وقال: ((ولكن قولوا ما شاء الله ثم شاء فلان)) .

وهذا كله مما يبين لنا أن هذه الشريعة إضافةً إلى مجيئها بصيانة العقائد ونقاء القلوب وصلاحها بالعقيدة الصحيحة، أيضا جاءت بصيانة الألسنة وحفظها ونقائها من كل لفظ فيه أي شائبة شركٍ .

وجاء عن إبراهيم النخعي : أنه يكره «أعوذ بالله وبك» ، ويجوز أن يقول : « بالله ثم بك» ، قال : ويقول «لولا الله ثم فلان» ، ولا تقولوا «لولا الله وفلان» .

****

قال ((**وجاء عن إبراهيم النخعي**)) وهو من علماء التابعين رحمه الله ((**أنه يكره**)) والكراهة عندهم التحريم .

((**أن يقول أعوذ بالله وبك**)) ؛ يقصد هنا نوع معين من الاستعاذة وهي الاستعاذة بالحي الحاضر القادر ، هذا المقصود هنا بقوله ((**يكره أن يقول أعوذ بالله وبك، ويجوز أن يقول بالله ثم بك**)) هذا إنما هو في الحي الحاضر

القادر ، مثل شخص مثلا هجم عليه أشخاص ليعتدوا عليه وعنده شخص قوي وقادر وقال: أنا أعوذ بالله ثم بك، ﴿ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ ﴾[القصص:١٥] يعني هذه استغاثة بحي حاضر قادر فلا تدخل في الشرك ، لكن إذا كانت هذه الاستعاذة مقصود بها الأموات أو الغائبين حتى وإن قال «ثم» فإنها باطلة ، فإذًا هنا المقصود بقوله ((أعوذ بالله وبك ويجوز ثم بك)) هذا فيما يتعلق بالحي الحاضر القادر .

قال : ((**ويقول لولا الله ثم فلان**)) يعني يذكر فلانا معطوفا بـ«ثم» التي تفيد التراخي والمهلة ((**ولا يقول: لولا الله وفلان**)) .

قال رحمه الله تعالى :

فيه مسائل ؛ الأولى : تفسير آية البقرة في الأنداد .

أي قول الله تعالى : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٢٢] ؛ تفسير آية البقرة ومر معنا ما نقله المصنف رحمه الله تعالى عن ابن عباس رضي الله عنهما في معنى الآية .

الثانية : أن الصحابة رضي الله عنهم يفسرون الآية النازلة في الشرك الأكبر أنها تعم الأصغر .

ولهذا جاء عنهم مثل ذلك يعني يفسر آية هي في الأصل تتعلق بالشرك الأكبر لكن يفسرها بأمورٍ هي من الشرك الأصغر مثل ما صنع ابن عباس رضي الله عنهما في النقل المتقدم .

الثالثة : أن الحلف بغير الله شرك .

أن الحلف بغير الله شرك ؛ إذا كان مجرد لفظة تجري على لسان الإنسان فإنه من الشرك الأصغر ، أما إذا كانت عن تعظيم للمخلوق مثل تعظيم الله أو أعظم من تعظيم الله جل وعلا فهذا من الشرك الأكبر ، وهذا يقع عند بعض الناس ولاسيما من قام في قلبه تعظيم لبعض المخلوقين تعظيمًا لا يليق إلا بالله يقع عندهم مثل ذلك .

ونقلت لكم مرة أنني قرأت في بعض الكتب أن أحدهم حُلِّف بالله على أمر ما فحلف ، فحُلِّف بغير الله من أحد الأولياء المعظمين عندهم فحلف أيضا ، فغضب أحد الحاضرين ، أنا أول ما قرأت النص (فغضب أحد الحاضرين) ظننت أنه غضب للحلف بغير الله ، قال : "فغضب أحد الحاضرين وقال له تحلف بالولي الفلاني وأنت تعلم أنه بعلم أنك كاذب!" لما حلف بالله ما قال هذا الكلام ، لما حلف بالله ما استنكر ولا غضب ، ولما حلف بالولي غضب وقال تحلف بالولي الفلاني وأنت تعلم أنه يعلم أنك كاذب!! ؛ مما يدل على أن بعضهم قام في قلبه من تعظيم الأولياء تعظيما أكبر من تعظيم الله سبحانه وتعالى؛ وهذا من الشرك الأكبر الناقل من الملة .

الرابعة : أنه إذا حلف بغير الله صادقا فهو أكبر من اليمين الغموس .

أي كما تقدم في الأثر المروي عن ابن مسعود رضي الله عنهما قال: «لأن أحلف بالله كاذبا» هذه يمين غموس ، قال «لأن أحلف بالله كاذبا أحب إلي من أحلف بغيره صادقا» ؛ قال «أنه إذا حلف بغير الله صادقا فهو أكبر من اليمين الغموس» ، اليمين الغموس: أن يحلف بالله كاذبا ؛ يمين فاجرة ، لكن الحلف بغير الله صادقا أكبر من ذلك لماذا ؟ لأنه شرك ، والشرك أكبر الكبائر .

الخامسة : الفرق بين الواو وثم في اللفظ .

النبي صلى الله عليه وسلم فرَّق بينهما قال ((لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان لكن قولوا ما شاء الله ثم شاء فلان)) ، ففرق بين الحرفين ، فحرف «ثم» يفيد التراخي والمهلة ، وأما «الواو» فإنه يفيد مطلق العطف .

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك .

اللهم صلِّ وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

الدرس الثاني والأربعون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد:

يقول الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد ابن عبد الوهاب التميمي رحمه الله تعالى رحمة واسعة في كتابه «كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد» :

باب ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله

عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((لا تحلفوا بآبائكم ، من حلف بالله فليصْدُق ، ومن حُلف له بالله فليرضَ ، ومن لم يرض فليس من الله)) رواه ابن ماجه بسند حسن .

****

قال المصنف رحمه الله تعالى: ((**بابٌ ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله**)) أي ما جاء من الوعيد لمن كان كذلك، لأن من حُلف له بالله فعليه تعظيمًا لله عز وجل واستشعارًا لعظمة المحلوف به جل في علاه أن يرضى بهذه اليمين التي بالله سبحانه وتعالى ، فمِن تعظيم الله في القلب أن يقنع المرء إذا حُلف له بالله تعظيمًا لله سبحانه وتعالى .

قال: ((**باب ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله**)) أي ما جاء في ذلك من الوعيد ، وسيأتي معنا في الحديث الذي ساقه المصنف رحمه الله أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((ومن لم يرض فليس من الله)) ، ومثل هذه الصيغة إنما تكون في الكبائر في الأمور العظيمة ، وهذا فيه من الوعيد ما لا يخفى .

أورد رحمه الله تعالى تحت هذه الترجمة حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((**لا تحلفوا بآبائكم**)) خص الآباء بالذكر مع أن الحلف لا يجوز بغير الله لا بالآباء ولا بالأمهات ولا بغير ذلك من المخلوقات ، لكن خص الآباء بالذكر لأن النبي صلى الله عليه وسلم كما جاء في سياق هذا الحديث سمع رجلًا حلف بأبيه فقال : ((لا تحلفوا بآبائكم)) ، فخص الآباء بالذكر لكونه سمع رجلا يحلف بأبيه ، ولهذا خص الآباء بالذكر ، وإلا الحلف بغير الله سبحانه وتعالى محرم وهو من الشرك كما سبق مر معنا في الترجمة الماضية قول النبي صلى الله عليه وسلم ((من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك)) ؛ بغير الله: الآباء الأمهات أيًا من المخلوقات، لأن الحلف تعظيم ولا يكون هذا التعظيم إلا لله سبحانه وتعالى .

قال : ((**من حلف بالله فليصْدُق**)) لأن المقام مقام عظيم جدًا ، عظمة الله سبحانه وتعالى في قلوب أهل الإيمان ومكانته جل وعلا في قلوبهم تستوجب من المرء إذا حلف بالله سبحانه وتعالى أن لا يحلف إلا وهو صادق . قال

((من حلف بالله فليصدق)) ، وإذا كان المسلم مطلوب منه الصدق في حديثه كله وقد قال عليه الصلاة والسلام ((عليكم بالصدق))، وقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩] ، فالمسلم مطلوب منه الصدق في حديثه كله ؛ فكيف بما يحلف عليه من حديثه!! لاشك أن المقام أعظم ، وما يكون في القلوب قلوب أهل الإيمان من التعظيم لله سبحانه وتعالى يستوجب على العبد عندما تخرج منه اليمين «والله ، بالله ، تالله ، ورب العرش ، وربي» ونحو ذلك من الأيمان أن لا يقول إلا كلامًا صدقًا ؛ تعظيما لله سبحانه وتعالى الذي حلف به جل في علاه . قال: ((من حلف بالله فليصدق)) أي ليكن فيما يقول صادقًا .

قال: ((**ومن حُلف له بالله فليرض**)) وهذا موضع الشاهد من الحديث للترجمة ((من حُلف له بالله فليرض)) : يرضى بذلك ، لما يكون في القلوب من التعظيم لله سبحانه وتعالى ، وقد قال أهل العلم في شرح هذا الحديث : أن ذلك عندما تتوجه اليمين على شخص في الخصومات والمنازعات ، فعندما تتوجه اليمين على شخص فيحلف فينبغي على خصمه بل يجب عليه أن يرضى إذا حَلف ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((من حُلف له بالله فليرض)) والأمر هنا للوجوب ، ((فليرض)) أي وجوبًا وليس استحبابًا ، يجب عليه أن يرضى ، لأن ما يقوم في القلوب من التعظيم لله سبحانه وتعالى يستوجب أنه إذا حُلف لك بالله أن ترضى .

ويدل على أن الأمر للوجوب تمام الحديث قال ((**ومن لم يرض فليس من الله**)) وهذا النفي «ليس من الله»، «ليس منا» لا يكون إلا في الكبائر ، لأن من الأمور أو العلامات التي تُعرف بها الكبيرة أن يقال : "ليس من الله أو ليس منا أو يقال لا يؤمن" أو نحو ذلك من الصيغ المعلومة الدالة على أن الأمر كبيرٌ . فإذًا قوله ((**من حُلف له بالله فليرض**)) هذا على الوجوب .

- ومن أهل العلم من اعتبره خاصًا في الدعاوى عندما تتجه اليمين لأحد الخصمين فيحلف فالواجب على خصمه الآخر أن يرضى باليمين .
- ومن أهل العلم من يجعله عامًا تعظيمًا لله سبحانه وتعالى إذا حُلف له بالله فإن الذي عليه أن يرضى بهذه اليمين ، وإذا كان رأى خلاف ذلك فليتهم نظره وليضع احتمالات ، يقول : «مادام حلف لعلي أخطأت ، لعلي وهمت ، لعلي..» ، يبحث عن احتمالات ، ولهذا جاء في الصحيحين أن عيسى ابن مريم رأى سارقا يسرق أو يأخذ متاعًا فقال أتسرق ؟ قال ((كَلَّا وَاللَّهِ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلَّا هُوَ)) حلف بالله ، قال عيسى عليه السلام : ((آمَنْتُ بِاللَّهِ، وَكَذَّبْتُ عَيْنِي)) ؛ فهنا قوله «كذبت عيني» ممكن يضع احتمالات ، يعني من الاحتمالات لعل صاحب المتاع أذن له بأخذه ، لعله لم يرد سرقته أراد أن يقلِّبه وينظر مثلا ما هو هذا المتاع ، أو نحو ذلك من الاحتمالات ، نعم أنت رأيته يحمله لكن مادام أنه حلف فإنه يلتمس الإنسان احتمالات تعظيمًا لهذه اليمين بالله سبحانه وتعالى .

لكن العلماء يقولون: يستثنى من ذلك إذا كان الحالف معروف بالفجور ولا يعظِّم الله وعنده الأيمان الكاذبة الفاجرة دائمًا معروف عنه في ذلك ؛ فمثل هذه الحالة هو لا يعظم الله ، وهذه الأيمان التي تصدر عنه لا تصدر عن تعظيم لله سبحانه وتعالى بل هي صادرة عن فجور وعن كذب وعن عدم تعظيم لله سبحانه وتعالى ، ففي مثل هذه الحالة لا ينطبق الحديث لما يُعلم من حال الرجل فعلًا وواقعًا أنه الرجل فاجر ويحلف بالله ولا يبالي عُرف بذلك فمثل هذه الحالة تستثنى ، وأما ما سوى ذلك فإنه تعظيمًا لله سبحانه وتعالى ينبغي على العبد إذا حُلف له بالله فليرضى ، ومن لم يرض فليس من الله .

قال رحمه الله تعالى :

فيه مسائل؛ الأولى: النهي عن الحلف بالآباء.

لما جاء في الحديث ((لا تحلفوا بآبائكم)) ، وعرفنا أن تخصيص الآباء بالذكر لأن النبي عليه الصلاة والسلام سمع رجلًا حلف بأبيه فقال: ((لا تحلفوا بآبائكم)) ، والنهي يتناول كل محلوف به غير الله ، لا يجوز الحلف بغير الله سبحانه وتعالى .

الثانية: الأمر للمحلوف له بالله أن يرضى.

أي تعظيمًا لله سبحانه وتعالى الذي حلف له به جل في علاه ، وقد قال عليه الصلاة والسلام: ((من حُلف له بالله فليرض)) ، فالأمر للمحلوف له بالله أن يرضى وعرفنا أن هذا الأمر للوجوب .

الثالثة: وعيد من لم يرض.

أي في قول النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث حديث ابن عمر رضي الله عنهما ((فليس من الله)) ، قوله ((فليس من الله)) هذا وعيد ، لأن مثل هذه الصيغة «ليس من الله»، «ليس منا» ونحو ذلك لا يكون إلا في أمر كبير ، لا يقال (ليس منا) ، أو (ليس من الله) ،أو (لا يؤمن) في أمر ليس من الأمور العظمة أو الكبيرة . فهذه الصيغة فيها الوعيد وأن هذا أمرٌ من الأمور العظيمة الكبيرة المستوجبة للعقوبة .

قال المؤلف رحمه الله تعالى :

باب قول ما شاء الله وشئت

عن قُتَيْلَة رضي الله عنها أن يهوديًا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إنكم تشركون؛ تقولون: ما شاء الله وشئت، وتقولون: والكعبة. فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا : «ورب الكعبة»، وأن يقولوا: «ما شاء الله ثم شئت» رواه النسائي وصححه.

****

قال رحمه الله تعالى: ((**بابٌ قول ما شاء الله وشئت**))؛ أي أن هذا القول لا يجوز ، جاءت في الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم بالنهي عنه والتحذير منه وأنه من التنديد والإشراك بالله سبحانه وتعالى ، وهو من شرك الألفاظ ؛ لأن الواو عندما يُعطف بها تفيد مطلق الجمع وفيها إيهام التسوية بين المعطوف والمعطوف عليه ، وهنا ذكر المشيئة ففيه إيهام تسوية مشيئة العبد بمشيئة الرب سبحانه وتعالى ، بخلاف ما إذا عطف بـ«ثم» فإن المعنى يختلف ، لأن «ثم» تفيد التراخي بخلاف «الواو» ، ولهذا لاحظ الآن حرف من حروف العطف إذا تغيَّر هذا يكون شرك وهذا لا يكون شركًا؛ مما يتطلب من المرء دقة في الألفاظ حرفٌ يغير !! عندما تعطف بالواو يكون شركًا بهذا وصفه النبي صلى الله عليه وسلم ، وعندما تعطف بثم «ما شاء الله ثم شاء فلان أو ثم شئت» لا يكون شركا. فإذًا حرفٌ واحد يتبدل يغيِّر المعنى يحيله إلى شرك ، مما يتطلب من المسلم أن يراعي الألفاظ مراعاة دقيقة ويضبط ألفاظه .

ومعلوم أن العبد له مشيئة لكن مشيئته تحت مشيئة الله ولا يشاء العبد إلا ما شاءه الله ، وقد قال الله سبحانه ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[التكوير:٢٩] ، فالعبد له مشيئة لكن لا يمكن أن يكون شيء إلا بإذن الله ومشيئته سبحانه وتعالى ، في هذا المعنى يقول الشافعي رحمه الله:

ما شئتَ كان وإن لم أشأ وما شئتُ إن لم تشأ لم يكن

لأن الأمور بمشيئة الله سبحانه وتعالى ، فما لم يشأه الله لا يكون ، ومن العبارات العظيمة الدارجة «ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن» الأمور كلها بمشيئة الله سبحانه وتعالى ، فالعبد له مشيئة لكن مشيئته تحت مشيئة الله .

ونُهي عن العطف بالواو أن يقال «ما شاء الله وشئت» مع أن العبد له مشيئة نهي عن العطف بالواو؛ لما في هذا العطف من إيهام بالتسوية بين المعطوف والمعطوف عليه ؛ هذا فيما للعبد فيه شيء الذي له مشيئة ، فكيف لو قال قائل: "توكلت على الله وعليك" !! أو "أنا بالله بك" !! أو "ما لي إلا الله وأنت"!! أو نحو ذلك من العبارات، فهذه كلها عبارات فيها من الشرك مثل ما في هذه اللفظة ما شاء الله وشئت بل أشد .

فيجب على المرء أن يراعي الألفاظ مراعاة دقيقة وأن يضبط لسانه ، ولا يكفي الإنسان أن يقول في هذا المقام "لم أقصد" ، لأن الكلام هنا على شرك الألفاظ وليس شرك المقاصد ، هنا الكلام على شرك الألفاظ أما المقصد لو وُجد هنا لاختلف الأمر ، لو كان يقص الإنسان والعياذ بالله أن مشيئة العبد مساوية لمشيئة الله حتى لو عطف بـ«ثم» فاعتقاده شرك أكبر ، اعتقاده بحد ذاته الذي قام بقلبه شرك أكبر حتى لو عطف بثم ، فالكلام الآن ليس على المقاصد حتى يقول أنا لم أقصد الكلام على الألفاظ نفسها، الشريعة كما أنها جاءت بصيانة المقاصد جاءت أيضا بصيانة الألفاظ؛ فيصون الإنسان نفسه ، بعض الناس يأتي على لسانه مثل هذه الألفاظ وإذا أُنكر عليه يقول أنا لم أقصد ، يقال لو كنت تقصد لكان الأمر أعظم وأطم ، لكن الآن هذا خطأ في اللفظ ويجب أن تتركه وأن لا تعود إلى هذا اللفظ وأن تصون لسانك من هذا اللفظ ولا يكفي قولك أنني لا أقصد ، والكلمة قد يقولها

المرء لا يلقي لها بالًا ، يعني لم يقم عنده في قلبه مقصد فيهوي بها في النار سبعين خريفا ، فالشريعة جاءت بصيانة الألفاظ بحيث تكون ألفاظ العبد ألفاظًا دقيقة ألفاظًا نزيهة ألفاظًا سليمة ليس فيها إخلال بالعقيدة .

فهذه الترجمة عظيمة جدًا في النهي عن هذا اللفظ «ما شاء الله وشئت» وما شابهه من الألفاظ مما هو نظيره أو أشد منه مما مثَّلت به كأن يقول : "ما لي إلا الله وأنت" ، أو "أنا بالله وبك" أو "توكلت على الله وعليك" ، أو نحو ذلك من الألفاظ التي هي من هذا القبيل .

أورد رحمه الله تعالى حيث قُتَيْلَة ((**أن يهوديًا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إنكم تشركون، تقولون ما شاء الله وشئت، وتقولون والكعبة ؛ فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا : ورب الكعبة، وأن يقولوا: ما شاء الله ثم شئت**)) رواه النسائي وصححه .

تقول رضي الله عنها: ((**أن يهوديًا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إنكم تشركون**)) ؛ اليهود تعرفون عندهم الشرك الأكبر في عباداتهم وتوجههم لعزير وقولهم عزير ابن الله وتوجههم في العبادة لغير الله سبحانه ، فعندهم شرك أكبر ، فجاء رجل يهودي فقال إنكم تشركون وذكر أمثلة هي من الشرك الأصغر ((**قال: تقولون ما شاء الله وشئت، وتقولون والكعبة**)) ، وأخذ من ذلك المصنف رحمه الله تعالى «معرفة اليهود بالشرك الأصغر» ، هذا يهودي وعندهم شرك أكبر وعقائدهم فيها شرك أكبر ويعرف الشرك الأصغر وأنه خطأ ، وجاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال : «إنكم تشركون تقولون ما شاء الله وشئت وتقولون والكعبة» .

((**فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: ورب الكعبة، وأن يقولوا: ما شاء الله ثم شئت**)) ؛ إذًا النبي صلى الله عليه وسلم أقر قول هذا اليهودي «إنكم تشركون» ، يعني يقصد اليهودي بقوله «إنكم تشركون» أي يوجد في المسلمين من عنده هذه الألفاظ الشركية ، «إنكم تشركون» يعني يوجد نسمع بعض المسلمين عنده هذه الألفاظ يقول والكعبة يقول ما شاء الله وشئت هذا المراد ، فأقر النبي صلى الله عليه وسلم أن ذلك شرك ؛ وهذا فيه : أن الحكمة ضالة المسلم أينما وجدها أخذها وقبِلها ، فهذا يهودي وجاء بهذا الكلام فالنبي صلى الله عليه وسلم أقر ذلك وقال للناس ((**أمرهم إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا ورب الكعبة**)) .

سبحان الله! هنا لطيفة جميلة جدًا في التربية وطريقة التوجيه ؛ الآن لما يعتاد اللسان على كلمة ألِفها عندما يريد يحلف «والكعبة» عندما تُدخل على كلمته كلمةً تصححها هذا أهون عليه فيما ألِفه لسانه واعتاده لسانه ، ولهذا تجد العلماء يقولون لمن اعتاد أن يحلف بالنبي "والنبي" ،يقولون له : قل ورب النبي ، وهذا من نهج هذا الحديث، النبي صلى الله عليه وسلم ما قال قولوا والله أو وربي ، قال: ((قل ورب الكعبة)) ، لأن والكعبة هذه درجت على ألسنتهم ألِفتها ألسنتهم فأدخل عليها كلمة تصلحها ، أدخل على هذا الذي اعتاد عليه كلمة تصلح الخطأ الذي عنده ، قال: ((قل ورب الكعبة)) . ولهذا العلماء يقولون لمن اعتاد الحلف بالنبي يقولون قل ورب الكعبة أضف لها

«ورب» ، مثل ما النبي صلى الله عليه وسلم هنا قال ((قل ورب الكعبة)) أضف «ورب» حتى يكون حلفك بالله سبحانه وتعالى .

فبعض الناس فعلًا أَلِف وأخذ لسانه على الحلف بالنبي وأعتاد عليه ، ومن الطرَف التي تروى : أن شخصًا أقنع آخر وفهَّمه أن الحلف بالنبي سمعه يحلف بالنبي فأقنعه أن لا يحلف بالنبي واقتنع الرجل ، فأراد أن يؤكد له أنه اقتنع وقبِل فحلف له بالنبي أن لا يحلف بالنبي ؛ من كثرة ما أَلِف لسانه لذلك ، لكن إذا أدخلت عليه «ورب النبي» ، قل «ورب النبي» فهذه الكلمة تدخل على هذا المألوف الذي عنده فيصلح بإذن الله سبحانه وتعالى ، مثل طريقة النبي صلى الله عليه وسلم . لاحظ هنا لما قال ((تقولون والكعبة)) ما قال النبي صلى الله عليه وسلم قولوا والله ، قولوا وربي ، لا ؛ أعطاهم تعديل لهذه الكلمة بحيث تصلح هذه اللفظة التي درجوا عليها وأَلِفتها ألسنتهم .

قال: ((**فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا ورب الكعبة ، وأن يقولوا ما شاء الله ثم شئت**)) ؛ أيضا ما شاء الله ثم شئت هي من هذا القبيل إدخال تعديل على الكلمة التي أَلِفتها الألسن ، بدل أن يقول "ما شاء الله وشئت" عطفًا بالواو التي فيها ما يفيد التسوية بين المعطوف والمعطوف عليه ، فأرشدهم إلى العطف بثم قال: ((قل ما شاء الله ثم شئت)) لأن «ثم» تفيد المهلة والتراخي ، والأَوْلى من ذلك ما تقدَّم . ولكن قال ((أجعلتني لله ندا ، بل قل ما شاء الله وحده)) هذا أولى أن يقول «ما شاء الله وحده» هذا لاشك أنه أولى ، لكن إن قال «ثم شئت» لا بأس بذلك ولاسيما الإنسان الذي درج لسانه ، يعني ليست هذه كلمة مختارة أو لفظة مختارة يعتادها الإنسان ، الأولى أن يقول «ما شاء الله وحده» وهذا من كمال التوحيد وتمامه ، لكن إن قال «ما شاء الله ثم شئت» لا بأس بذلك .

وله أيضا عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلًا قال للنبي صلى الله عليه وسلم «ما شاء الله وشئت» فقال: ((أجعلتني لله ندا؟ بل ما شاء الله وحده)) .

****

قال : ((**عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلًا قال للنبي صلى الله عليه وسلم ما شاء الله وشئت**)) مخاطبًا النبي عليه الصلاة والسلام ((**فقال: أجعلتني لله ندا؟**)) سبحان الله !! انظر الآن ؛ النبي صلى الله عليه وسلم أنكر هذا التنديد في الألفاظ مجرد قول الرجل «ما شاء الله وشئت» أنكر ذلك النبي عليه الصلاة والسلام ، وأنكره هذا الإنكار قال ((أجعلتني لله ندا)) ، والند: هو الشريك ، أجعلتني لله ندًا : أي عِدلًا شريكًا لله ، قال ذلك إنكارًا لهذه اللفظة صلوات الله وسلامه عليه ؛ فإذا كان النبي عليه الصلاة والسلام أنكر هذا الإنكار بقوله أجعلتني لله ندا وفي رواية عدلًا أنكر هذا الإنكار لمن كان خطؤه في اللفظ بقوله «ما شاء الله شئت» ، فكيف بمن جعل النبي صلى الله عليه وسلم ندًا لله بالعبادة كيف يكون أمره ؟! كيف بمن جعل النبي صلى الله عليه وسلم

ندًا لله في العبادة والالتجاء والسؤال والطلب والاستعاذة والرجاء وإنزال الحاجات!! أو عندما يستغيث يقول في استغاثته «ما لي من ألوذ به سواك» مخاطبا النبي صلى الله عليه وسلم !!

إذا كان أنكر قول من قال «ما شاء الله وشئت» لكونه يوهم التسوية بين المخلوق والخالق أنكر ذلك وقال ((أجعلتني لله ندا بل قل ما شاء الله وحده))، فكيف بمن جعل النبي صلى الله عليه وسلم ندًا لله يصرف له من العبادة ما لا يُصرف إلا لله !! ويقول في مناجاته «يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به سواك عن حلول الحادث العمم» . فهذه مصيبة عظيمة ؛ إذا كان النبي عليه الصلاة والسلام أنكر قول من قال «ما شاء الله وشئت» فكيف بمن جعل النبي صلى الله عليه وسلم ندًا لله يدعوه ويستغيث به ويلتجئ إليه ؟!

((قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم ما شاء الله وشئت فقال: أجعلتني لله ندا بل ما شاء الله وحده)) ، و«وحده» فيها تأكيد بأن المشيئة مشيئة الله سبحانه وتعالى والأمر بيد الله وحده ، والمشيئة التي عند العبد هي تابعة لمشيئة الله سبحانه وتعالى ، وما شاءه العبد لا يمكن أن يكون إلا أن يشاءه الله رب العالمين ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير:٢٩] ، ولهذا الأولى والأتم والأكمل أن يقول : «ما شاء الله وحده» ، وإن قال «ثم شئت» فإنه لا بأس بذلك .

ولابن ماجه عن الطفيل أخي عائشة لأمها قال: رأيت كأني أتيت على نفر من اليهود، قلت: إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون عزير ابن الله، قالوا: وأنتم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد ، ثم مررت بنفرٍ من النصارى فقلت: إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: المسيح ابن الله ، قالوا: وأنتم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد ؛ فلما أصبحتُ أخبرتُ بها من أخبرت ، ثم أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته ، قال: هل أخبرت بها أحدًا ؟ قلت: نعم. قال: فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: ((أما بعد؛ فإن طفيلًا رأى رؤيا أخبر بها من أخبر منكم ، وإنكم قلتم كلمة كان يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها ، فلا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد، ولكن قولوا ما شاء الله وحده)) .

****

قال رحمه الله تعالى: **((ولابن ماجه عن الطفيل أخي عائشة لأمها قال: رأيت كأني أتيت على نفر من اليهود))** الرؤية هنا منامية، يعني رأى في المنام كما جاء مصرحًا به في بعض الروايات رأى في المنام أنه مر على نفر من اليهود .

((قلت: إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون عزير ابن الله ، قالوا: وأنتم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد)) ؛ قول الطفيل في هذه الرؤية المنامية للنفر الذي مر عليهم يستفاد منه أسلوب في الدعوة، ((قال

لأنتم القوم لولا أنكم)) ؛أنك عندما تدعو شخص تعرف مثلا عنه أخلاق جيدة معاملات جيدة ؛ الصدق البر بالوالدين إلى آخره من المناسب أن تجعل هذه الأمر التي عنده مدخلًا لك في دعوته ، تقول ما شاء الله أنا أرى فيك صفات جميلة ، فيك كذا وفيك كذا وفيك كذا الخ لكنني أتعجب كيف أنك مع هذه الأخلاق الجميلة تقع في هذا الأمر! وأنت شأنك أكبر من هذا والبعد عن هذا الأمر لما تتمتع به من كذا وكذا ؛ هذا من الأساليب التي تستجلب الإنسان عند دعوته أو الإنكار عليه أو تحذيره من بعض المخالفات التي قد يقع فيها.

((**قالوا وأنتم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون ما شاء الله شاء محمد، ثم مررت بنفر من النصارى فقلت: إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون المسيح ابن الله ، قالوا: وأنتم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون ما شاء الله وشاء محمد**)) أي النفر الذين من النصارى أعادوا عليه اللفظة نفسها .

قال: ((**فلما أصبحتُ أخبرتُ بها من أخبرت**)) أي من الصحابة .

((**ثم أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته ، قال: هل أخبرت بها أحدًا؟ قلت: نعم . قال: فحمد الله وأثنى عليه**)) وهذا فيه بدء الخطب بالحمد والثناء على الله سبحانه وتعالى .

ثم قال: ((**أما بعد**)) أيضًا من هديه في الخطب أن يأتي بهذه الكلمة «أما بعد» بعد الثناء والحمد وعند الشروع في المقصود .

((**فإن طفيلا رأى رؤيا أخبر بها من أخبر منكم ، وإنكم قلتم كلمة**)) أي كلمة «ما شاء الله وشئت» .

((**قلتم كلمة كان يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها**)) أي يمنعني الحياء ، كلمة درجَت عليها الألسن وأَلِفها كثير من الناس واعتادوا عليها فكان يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها . وهذا فيما قبل مجيء الوحي إليه عليه الصلاة والسلام بالمنع من ذلك ، يعني كان النبي صلى الله عليه وسلم يكره هذه الكلمة ومنَعَه الحياء أن ينهاهم عنها ، لما جاءه الوحي بذلك نهاهم صلوات الله وسلامه عليه من هذه الكلمة .

قال : ((**كان يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها**)) ؛ وهذا يستفاد منه كما نبه المصنف رحمه الله أن هذه اللفظة ليست من الشرك الأكبر الناقل من الملة ، وإلا لو كانت من الشرك الأكبر الناقل من الملة المبطل للعمل لما أخَّر النبي صلى الله عليه وسلم النهي عنها .

قال: ((**فلا تقولوا: ما شاء الله وشاء محمد، ولكن قولوا: ما شاء الله وحده**))

قال رحمه الله تعالى :

فيه مسائل ؛ الأولى: معرفة اليهود بالشرك الأصغر.

قد تقدم معنا في حديث قتيلة رضي الله عنها ((أن يهوديًا أتى النبي صلى الله عليه وسلم وقال إنكم تشركون)) والنبي صلى الله عليه وسلم أقره ونهى الصحابة عن هذه الكلمة ؛ فهذا فيه معرفة اليهود بالشرك الأصغر مع أنهم متلبِّسون بالشرك الأكبر .

الثانية: فهْمُ الإنسان إذا كان له هوى.

فهم الإنسان أي للحق إذا كان له هوى ؛ فهنا اليهودي مراده الإنكار والتخطئة للمسلمين والتنبيه على أنه يوجد فيهم مثل هذه الألفاظ الشركية ، فله هوى في ذلك ، فهذا فيه فهم الإنسان إذا كان له هوى ، وفعلًا صاحب الهوى تجد أنه له فهم إذا كان له غرض تخطئة أو غرض إنكار ؛ فيتحرك فهمه ويستخرج أمورًا قد توجد في بعض الناس فيقول وأنتم أيضا تقولون كذا وأنتم تفعلون كذا ، فله فهمٌ إذا كان له هوى .

الثالثة: قوله صلى الله عليه وسلم: ((أجعلتني لله ندا؟)) فكيف بمن قال: «يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به سواك» والبيتين بعده!!

أي أن الأمر أعظم وأطم ، إذا كان النبي صلى الله عليه وسلم قال للرجل الذي قال «ما شاء الله وشت» وهذا خطأ شركي في اللفظ فقط وأنكره النبي صلى الله عليه وسلم هذا الإنكار وقال ((أجعلتني لله ندا)) ؛ يقول المصنف رحمه الله ناصحًا ومحذرًا فكيف بمن قال في دعائه ومناجاته :

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به	سواك عند حلول الحادث العمــم
وإن من جودك الدنيا وضرتها	وإن من علومك علم اللوح والقلم

وهذان البيتان اللذان أشار إليهما جمعا تشبيه المخلوق بالخالق في أبواب التوحيد الثلاثة؛ الألوهية والربوبية والأسماء والصفات :

- أما الألوهية : ففي مناجاته في البيت الأول «يا أكرم الخلاق ما لي من ألوذ به سواك» .
- وأما الربوبية: ففي قوله «وإن من جودك –أي فضلك ومنِّك وعطائك– الدنيا وضرتها» يقول مخاطبًا النبي صلوات الله وسلامه عليه .
- وأما في الأسماء والصفات: ففي قوله «وإن من علومك علم اللوح والقلم» .

فانظر هذه المقالة وهي في أبيات يحفظها عدد من الناس وربما في مناسبات مخصوصة لابد أن تقرأ هذه الأبيات وتعتبر أساس في بعض الاحتفالات التي تقام ، انظر هذه اللفظة التي قالها هذا الرجل في أبياته «يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به سواك –يخاطب النبي عليه الصلاة والسلام– عند حلول الحادث العمم» ، «وإن من جودك –أي فضلك– الدنيا وضرتها وإن من علومك علم اللوح والقلم» وقارنها بهذا اللفظ الذي قاله الرجل عند النبي عليه

الصلاة والسلام «ما شاء الله وشئت» أيهما أخطر ؟! والنبي عليه الصلاة والسلام قال لذلك الرجل: ((أجعلتني لله ندا)) أيهما أخطر؟

وحتى تفهم خطورة الأمر انتبه الآن لقول القائل في مناجاته يخاطب الله يناجي الله :

يا خالق الخلق ما لي من ألوذ به   سواك عند حلول الحدث العمم

وإن من جودك[1] الدنيا وضرتها[2]   وإن من علومك علم اللوح والقلم

يناجي رب العالمين هذا الكلام ما هو ؟ هذه المناجاة وهذا الدعاء ما هو ؟

هذا توحيد والتجاء إلى الله وتعظيم لله ، فكيف لو جاء شخص وبدَّل وقال يخاطب النبي عليه الصلاة والسلام:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به   سواك عند حلول الحادث العمم

وإن من جودك الدنيا وضرتها   وأن من علوم علم اللوح والقلم

أليس قد جعل النبي عدلًا لله وندًا !! أكثر من قول ذلك الرجل الذي قال «ما شاء الله وشئت» !!

بعض الناس المفتونين بهذا الأمر ربما يحاول أن يلتمس أعذار يقول لا يقصد كذا أو لا يقصد كذا ، لو كان يقصد الأمور أيضا أشد ، نحن الآن أمام ألفاظ خطيرة جدا ، ألفاظ فيها جناية على التوحيد ، النبي صلى الله عليه وسلم أنكر على ذلك الرجل الذي قال «ما شاء الله وشئت» وقال له ((أجعلتني لله ندا)) وهو لم يقصد تسوية مشيئة النبي صلى الله عليه وسلم بمشيئة الله وأنكر عليه !! وهذه الألفاظ التي في هاتين البيتين أخطر بكثير من ذلك ، خطيرة جدا ؛ فالواجب الحذر من مثل هذه الألفاظ ومثل هذه الكلمات ولاسيما التي توجد في شعر الغلاة في المديح ، سواءً مدح النبي عليه الصلاة والسلام أو مدح بعض الأشخاص المعظمين أو نحو ذلك يحصل أحيانا ألفاظ خطيرة جدًا . فمثل هذه الأمور يجب الحذر منها أشد الحذر .

الرابعة: أن هذا ليس من الشرك الأكبر؛ لقوله: ((يمنعني كذا وكذا)).

أن هذا ليس من الشرك الأكبر أي قول «ما شاء الله وشئت» بدليل قال : لقوله أي عليه الصلاة والسلام ((يمنعني كذا وكذا)) أي يمنعني الحياء ؛ وهذا فيه أن ذلك قبل أن ينزل عليه الوحي بالمنع من ذلك ، ثم بعد ذلك صار ينهاهم عليه الصلاة والسلام . وهذا أيضا يستفاد منه التدرج في الدعوة ، يعني إذا كان مثلا شخص عنده حلف بغير الله وعنده عبادة للقبور توجه لها بالدعاء والاستغاثة والسؤال وعنده حلف بغير الله ؛ أي الأمرين تبدأ به في معالجته ؟ فهذا فيه التدرج في الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى .

الخامسة: أن الرؤيا الصالحة من أقسام الوحي.

[1] أي يا الله .
[2] أي الآخرة.

أن الرؤيا الصالحة مثل رؤيا الطفيل رضي الله عنه من أقسام الوحي .

السادسة: أنها قد تكون سببًا لشرع بعض الأحكام.

أنها أي الرؤية قد تكون سببًا لشرع بعض الأحكام مثل قصة الطفيل هنا ؛ خطب النبي صلى الله عليه وسلم الناس على إثرها ونهاهم عن هذه اللفظة .

قال المؤلف رحمه الله تعالى :

باب من سب الدهر فقد آذى الله

وقول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية:٢٤] .

****

قال رحمه الله تعالى ((**بابٌ من سب الدهر فقد آذى الله**)) ؛ وقوله «فقد آذى الله»كما جاء في الحديث حديث أبي هريرة الآتي ((يؤذيني ابن آدم يسب الدهر)) . و«آذى الله» : أي وقع منه ألفاظ وكلمات مؤذية ، وفرقٌ بين الأذى والضرر ، في الحديث قال الله تعالى في الحديث القدسي: ((يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي)) ولهذا قال «آذى الله» يعني قال كلمة وألفاظ مؤذية فيها أذى ، من الكلمات السيئة والألفاظ السيئة .

قال: ((**باب من سب الدهر فقد آذى الله**)) والدهر: هو تقلب الليل والنهار ؛ الفجر العصر الظهر الليل النهار اليوم الأسبوع الشهر هذا كله دهر ، تقلب الليالي والأيام هذا هو الدهر .

فبعض الناس لجهله وقلة علمه وقلة بصيرته عندما يحصل له أذى في يوم من الأيام أو ليلة من الليالي أو أسبوع من الأسابيع تجده يتجه بالسب إلى الليل أو إلى النهار أو إلى الأسبوع أو إلى العام مثلا ، يتجه بالسب والطعن والكلام السيئ!! مع أن الدهر مسخَّر ومقلَّب الله جل وعلا هو الذي يقلِّبه ولا يملك شيئا من هذا التقلب ، أمره بيد الله ، الله جل وعلا هو الذي يقلِّبه ، وسب المقلَّب سبٌ لمقلِّبه ، سب المقلَّب الذي لا يملك من أمر التقليب شيئا وليس بيده شيء من الأمر وإنما الذي يقلبه رب العالمين فسبُ المقلَّب سبٌ لمقلِّبه ، ولهذا قال كما سيأتي في الحديث ((قال الله وأنا الدهر)) وفسر ذلك ((أقلِّب الليل والنهار)) أي الليل والنهار ليس لهم شيء من أمر التقليب هذا أمر بيد الله ، فمن سب الدهر الذي هو المقلَّب فقد سب الله الذي هو المقلِّب للدهر ، ولهذا قال: ((من سب الدهر فقد آذى الله)) لأن الدهر لا يملك شيئا من الأمر .

ولا يخلو ساب الدهر من أمرين : إما الشرك ، أو السب لله .

- إن كان يعتقد أن الدهر هو نفسه الذي يحصل منه هذه الأمور وأنه هو الفاعل لهذه الأشياء ؛ فهذا شرك لأنه اعتقد خالق غير الله سبحانه وتعالى .
- وإن كان يعتقد أن الدهر لا يملك شيئا وأن الأمر بيد الله سبحانه وتعالى فهذا سب لله ، لأن من سب المقلَّب الذي لا يملك من أمر التقليب شيء فقد سبَّ مقلِّبه .

قال : **وقول الله تعالى:** ﴿**وَقَالُوا**﴾ أي الكفار المشركون ﴿**مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا**﴾ أي يموت قوم ويحيا آخرون ، نموت ونحيا: أي يأتي جيل ويفنَون ثم آخر ويفنون ، وهكذا.

﴿**وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ**﴾ يعني هذا فيه إنكار للبعث وأن هذه أجيال تنتهي بالموت وأن الهلاك من الدهر ؛ وهذا يتضمن سب للدهر ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ أي ما يحصل لنا من المصائب واللأواء والشدة ومن ذلك الموت والهلاك هذا كله بسبب الدهر ، يقولون ذلك على وجه المسبة للدهر .

ولهذا من يسب للدهر من الشعراء ومن سار مسارهم ممن إذا حصل له شيء في يوم من الأيام أو ليلة من الليالي فيسب الليلة أو يسب اليوم سلَفَه هؤلاء الذين يقولون ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ ، بينما المسلم إذا حصلت له مصيبة حصل له بلاء يعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن:١١] قال علقمة : «هو المؤمن تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلِّم» فهذا شأن المؤمن ، أما أن ينتقل الإنسان والعياذ بالله إلى أن يسب الدهر ويقول "قاتل الله هذه الليلة" أو مثلا يشتم الليل أو يشتم النهار أو من هذا الكلام "قبَّح الله الزمان" قبح الله هذه الليلة أو مثل هذا الكلام هذا كله من مسالك المشركين وطرائقهم المشينة التي جاء الإسلام بالتحذير عنها والنهي عنها .

وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((قال الله تعالى: يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر، وأنا الدهر أقلب الليل والنهار)). وفي رواية: ((لا تسبوا الدهر؛ فإن الله هو الدهر))

****

قال: ((**وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: قال الله تعالى: يؤذيني ابن آدم**)) وهذا فيه نسبة الأذى ، ولهذا قال المصنف في الترجمة «فقد آذى الله» ، فتسمية هذا الصنيع أذى ؛ أذى لله ((يؤذيني ابن آدم)) ، وهذا الأذى يعني أنها تصدر من الإنسان من ابن آدم هذه الألفاظ السيئة هذه الألفاظ القبيحة التي هي سبٌ الدهر ، وسب الدهر سبٌّ لمن يقلب الدهر وهو رب العالمين سبحانه وتعالى .

قال: ((**يؤذيني ابن آدم يسب الدهر**)) وعرفنا أن الدهر هو تقلُّب الليل والنهار ، ولا يملك شيئا الأمر بيد الله ، فسب المقلَّب سبٌ لمقلبه .

قال: ((**وأنا الدهر**)) ؛ قوله «وأنا الدهر» لا يعني أن الدهر اسم من أسماء الله ، لأن الكلام جاء مفسرًا ومبينا قال ((**وأنا الدهر أقلب الليل والنهار**)) ، الدهر معروف هو تقلب الليل والنهار ، فقوله جل وعلا في هذا الحديث القدسي ((وأنا الدهر)) جاء مفسرا قال: ((أقلب الليل والنهار)) ، فأمْر الليل والنهار وتقلب الأيام والليالي هذا أمر بيد الله ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ [الفرقان:٦٢] ، ليلٌ يخلفه نهار ونهارٌ يخلفه ليل وهذا أمر بتدبير الله سبحانه وتعالى وتسخيره جل في علاه .

قال: ((وأنا الدهر أقلِّب الليل والنهار)) وهذا يستفاد منه أن من سب الدهر فقد سب الله ، وهذا معنى قوله ((يؤذيني ابن آدم يسب الدهر)) .

قال **وفي رواية**: ((**لا تسبوا الدهر**)) وهذه الرواية فيها النهي عن سب الدهر .

قال: ((**لا تسبوا الدهر ؛ فإن الله هو الدهر**)) وعرفنا أن المراد بقوله هو الدهر: أي الذي يقلب الليل والنهار ، وأن تقلب الدهر تقلب الليل والنهار أمر بيده سبحانه وتعالى .

قال رحمه الله تعالى :

فيه مسائل ؛ الأولى: النهي عن سب الدهر.

كما جاء في الحديث قال : ((لا تسبوا الدهر)) ، فالنبي صلى الله عليه وسلم نهى عن سب الدهر ، وجاء في الحديث الذي قبله تسمية ذلك أذى .

الثانية: تسميته أذى لله.

لأن الله قال في الحديث القدسي ((يؤذيني ابن آدم)) فتسمية ذلك أذًى لله .

الثالثة: التأمل في قوله: «فإن الله هو الدهر» .

أي أن الدهر ليس من أسماء الله ، لكن لما كان أمر الدهر بيده وتقلب الليل والنهار بيده والدهر مسخر لله وبيد الله وبتدبيره سبحانه قال: ((فإن الله هو الدهر)) ؛ أي هو الذي يقلب الليل والنهار .

الرابعة: أنه قد يكون سابًا ولو لم يقصده بقلبه.

يعني الآن لاحظ قال ((يؤذيني ابن آدم يسب الدهر)) لأن سب الدهر سبٌ لله الذي هو مقلب للدهر ، فتجد بعض الناس يسب الدهر ولم يقصد سب الله ، فيقول المؤلف: أنه قد يكون سابًا ولو لم يقصده بقلبه ؛ ولهذا بعضهم يقول : لا والله ما أقصد ، أنا قصدي الدهر نفسه ، الدهر ما يملك شيئا ، كل التقلب الذي يكون منه هذا بيد الله ، فالسب له سبٌ لمقلبه . فقوله «لم يقصد» يفيد أنه قد يكون سابًا ولو لم يقصد يقلبه . وهذا يؤكد المسألة السابقة أن الشريعة جاءت بصيانة الألفاظ ، حتى وإن كان مقصد الإنسان طيب ، يلاحظ على كثير من الناس أنه يقول والله أنا قصدي طيب ما قصدت كذا أو نيتي طيبة ؛ يُشكر الإنسان على نيته الطيبة وقصده الطيب لكن يذم أيضًا على ألفاظه السيئة الخاطئة ، والواجب عليه أن يصون ألفاظه من أي مخالفة لشرعِ الله سبحانه وتعالى ولاسيما المخالفات التي تقدح في التوحيد .

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك .

اللهم صلِّ وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

الدرس الثالث والأربعون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد:

يقول الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد ابن عبد الوهاب التميمي رحمه الله تعالى رحمة واسعة في كتابه «كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد» :

باب التسمي بقاضي القضاة ونحوه

في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((إن أَخْنَعَ اسْمٍ عند الله رَجُلٌ تسمى ملك الأملاك، لا مالك إلا الله)) . قال سفيان: مثل شَاهَانْ شَاهْ. وفي رواية: ((أغيظ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه)) قوله «أخنع» يعني: أوضع.

****

قال المصنف الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتابه التوحيد: ((**بابٌ التسمي بقاضي القضاة ونحوه**)) أي حكم هذه التسمية وما فيها من المنافاة لكمال التوحيد الواجب ، لأن التوحيد مبناه على تعظيم الله سبحانه وتعالى وتعظيم أسمائه جل وعلا والأدب معه جل في علاه والمباعدة عن كل ما يخالف ذلك أو يناقضه ؛ ولهذا عقد رحمه الله تعالى هذه الترجمة ((**بابٌ التسمي بقاضي القضاه ونحوه**)) أي من الأسماء المشابهة لذلك ، مثل : ملك الملوك ، أو مثلا سلطان السلاطين ، أو حاكم الحكام ، أو نحو ذلك ، وأيضا ما كان من هذا القبيل بغير اللغة العربية وبغير اللسان العربي مثل ما نقل رحمه الله عن سفيان أنه قال : «مثل شاهان شاه» وهذا باللغة الفارسية بمعنى ملك الملوك أو سلطان السلاطين ؛ فهذه التسمية باطلة ومحرمة كما سيأتي بيان ذلك فيما نقله رحمه الله من حديثٍ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في النهي عن ذلك والتهديد والوعيد على من تسمى بهذا الاسم .

وقوله ((التسمي)) سواءً تسمى الشخص بذلك أي سمى نفسه بذلك ، أو أنه سُمي بذلك ورضي ولم ينكر ، فإن هذا فيه من المنافاة لكمال التوحيد ما لا يخفى لما يجب على الموحد من التعظيم لله سبحانه وتعالى والتعظيم لأسمائه ، وألا يرفع المخلوق ولا في الاسم بما لا يليق إلا بالله سبحانه وتعالى .

قال: ((**في الصحيح عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: إن أَخْنَعَ اسْمٍ عند الله**)) ومعنى أخنع: أي أوضع وأحقر ؛ فهذا فيه أن هذا الاسم اسم دنيء واسم وضيع ، وهذا فيه معاملة لهذا المتسمي بهذا

الاسم بنقيض قصده ، لأنه عندما سمى نفسه بهذا الاسم أراد لنفسه العلو والرفعة فعومل بنقيض قصده فكان أخنع شخص عند الله وأوضع وأحقر ، وهذا من المعاملة له بنقيض قصده السيئ الذي هو العلو والرفعة ؛ فعومل بنقي قصده ولهذا قال: ((**إن أخنع اسم عند الله عز وجل رَجُلٌ تسمى ملك الأملاك**)) ؛ تسمى ملك الأملاك سواءً تسمى أي هو سمى نفسه ، أو من تحته من رعية ونحو ذلك سموه بذلك وأقر التسمية فإن له هذا الوعيد الذي جاء في الحديث .

قال عليه الصلاة والسلام: ((**لا مالك إلا الله**)) وهذا فيه التعليل لهذا النهي والوعيد لمن تسمى بهذه التسمية ؛ لأنه لا مالك إلا الله سبحانه وتعالى ، وأما الملوك هؤلاء ملكهم محدود وفي نطاق محدود وفي وقت أيضا محدود وهو أيضا بيد الله سبحانه وتعالى ، كما قال عز وجل: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران:٢٦] ، فهذا أمرٌ بيد الله سبحانه وتعالى ، فمن كان من الملوك أو السلاطين أو الرؤساء تعالى وترفَّع على الناس واختار لنفسه هذا الاسم الذي فيه إظهار العلو لنفسه وسعة ملكه ونحو ذلك يعامَل بنقيض قصده مثل ما جاء في الحديث قال ((إن أخنع)) ، فيعامل بنقيض قصده فلا يكون له يوم القيامة إلا الضعة والذلة والحقارة .

قال: ((**قال سفيان: مثل شَاهَانْ شَاهْ**)) ؛ «شاهان شاه» هذه كلمة فارسية بمعنى ملك الملوك وحاكم الحكام وسلطان السلاطين ، وهذا التنبيه من سفيان رحمه الله تعالى فيه أن المراد هذا الاسم سواء باللغة العربية أو ما ماثله في اللغات الأخرى ، يعني لا يختص هذا اللفظ بعينه وإنما أي لفظ يؤدي المعنى نفسه سواءً في اللسان العربي مثلا: حاكم الحكام ، قاضي القضاة ، سلطان السلاطين إلى غير ذلك أو بلسان أعجمي مثل شاهان شاه فالحكم واحد .

قال: ((**وفي رواية: أغيظ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه**)) وهذا مثل ما سبق فيه المعاملة لهذا الشخص بنقيض قصده ، أراد لنفسه العلو والتكبر والرفعة فعومل بنقيض قصده فكان يوم القيامة أغيظ رجل على الله وأخبث رجل، فيكون محله يوم القيامة الضعة والحقارة والسفول؛ معاملةً له بنقيض قصده .

قال رحمه الله تعالى :

فيه مسائل؛ الأولى: النهي عن التسمي بملك الأملاك.

النهي عن التسمي بملك الأملاك ؛ لمجيء النهي عن ذلك في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي ساقه المصنف رحمه الله تعالى ، وجاء التعليل في الحديث بقوله ((لا مالك إلا الله)) فمن تسمى ملك الأملاك اختار لنفسه اسمًا لا يليق إلا بالله ، اختاره لنفسه علوًا وتكبرًا ورفعةً ولهذا كما تقدم عومل بنقيض قصده.

الثانية: أن ما في معناه مثله كما قال سفيان.

أن ما في معناه مثله كما قال سفيان ؛ سواء باللسان العربي أو اللسان الأعجمي ، ما كان في معناه فهو مثله في الحكم ، مثل ما قال سفيان رحمه الله تعالى .

الثالثة: التفطن للتغليظ في هذا ونحوه مع القطع بأن القلب لم يقصد معناه.

«التفطن للتغليظ في هذا ونحوه» يعني هذا اللفظ الذي هو ملك الأملاك ، ونحوه مثل قاضي القضاة ، سلطان السلاطين ، شاهان شاه ونحوها ، «التغليظ في هذا ونحوه مع القطع -أي الجزم- بأن القلب لم يقصد معناه» يعني عند من تسمى بهذا الاسم لم يقصد معناه أن له مُلك كل شيء وأن بيده ملكوت كل شيء ، لم يقصد معناه وإنما قصد تعظيم نفسه بهذا اللقب وتعظيم ملكه بهذا اللقب ، لكن لم يقصد معناه أنه ملك الأملاك أي أن بيده ملكوت كل شيء جميع الأملاك من سماوات أو أرض وغير ذلك، لم يقصد هذا المعنى ، يقول الشيخ «مع القطع أن القلب لم يقصد هذا المعنى» وإنما هذا لفظ أراد به تعظيم نفسه والرفعة لنفسه ؛ وهذا يؤكد لنا أيضًا ما سبق بيانه أن الشريعة كما أنها جاءت بمعالجة المقاصد أيضًا جاءت بمعالجة الألفاظ ، ما يكفي أن الإنسان يقول والله أنا قصدي طيب أو نيتي طيبة وتكون ألفاظه سيئة!! ما يكفي ، الشريعة عالجت المقاصد والنوايا وأيضا في الوقت نفسه عالجت أيضا الألفاظ والكلمات .

الرابعة: التفطن أن هذا لأجل الله تعالى سبحانه.

التفطن أن هذا لأجل الله : أي تعظيمًا لله واحترامًا لأسمائه وأدبًا معه جل في علاه ولهذا قال في الحديث: ((لا مالك إلا الله)) .

وانتهت بهذا المسائل التي تتعلق بهذه الترجمة ، وبالمناسبة -مناسبة هذه الترجمة- كما أن مثل هذه الألفاظ جاءت الشريعة بذمها فإن الولاة إذا اختاروا لأنفسهم ألفاظًا فيها التواضع فإن هذا يُحمد ؛ ولهذا نقول إن ما وفَّق الله سبحانه وتعالى له ولاة أمرنا أيَّدهم الله بتوفيقه أن الملك اختار لنفسه لقب «خادم الحرمين الشريفين» ، فمثل هذه الألقاب التي فيها التواضع وفيها أيضا ملاحظة التعظيم لبيوت الله والعمل على خدمتها والعناية بها ، فلما تقارن بين من يلقب نفسه ملك الأملاك ، سلطان السلاطين ، حاكم الحكام إلى غير ذلك ، ومن لا يقبل إلا أن يلقب بـ«خادم الحرمين» ، وهذه بدأها الملك فهد رحمه الله تعالى وهي باقية الآن في ولاة الأمر الملك عبد الله في اختيار هذا اللقب ؛ فهذا حقيقة مما يحمد . ومثل هذه المعاني ينبغي أن تُذكر وتُشكر ، كما أن المعاني السيئة تذم

فالمعاني الصحيحة تحمد ، ويدعى أيضا بالتوفيق والسداد ، نسأل الله عز وجل أن يزيدهم تسديدًا وتوفيقًا وخدمةً لبيوت الله وخدمة للإسلام والمسلمين .

قال رحمه الله تعالى :

باب احترام أسماء الله تعالى وتغيير الاسم لأجل ذلك

عن أبي شريح أنه كان يكْنى أبا الحكم ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: ((إن الله هو الحكَم، وإليه الحُكم)) ، فقال: إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني فحكمتُ بينهم فرضي كلا الفريقين. فقال: ((ما أحسن هذا! فما لك من الولد؟)) قلت: شريح، ومسلم، وعبد الله. قال: ((فمن أكبرهم؟)) قلت: شريح، قال: ((فأنت أبو شريح)) رواه أبو داود وغيره.

****

قال رحمه الله تعالى : ((**بابٌ احترام أسماء الله تعالى وتغيير الاسم لأجل ذلك**)) أي لأجل احترام أسماء الله عز وجل ، واحترام أسماء الله جل في علاه أي مراعاة حرمتها ومكانتها واختصاص الله سبحانه وتعالى بها هذا من التعظيم لله؛ ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج:٣٢] هذا من علامة تقوى قلب العبد أن يكون معظمًا لله ومعظمًا لأسمائه وصفاته وأن يكون محترِمًا لأسماء الله تبارك وتعالى وصفاته . ومما يتنافى مع الاحترام لأسماء الله تبارك وتعالى وصفاته أن يسمى بها غيره ، ولاسيما الأسماء المختصة التي لا تطلق إلا على الله سبحانه وتعالى .

قال: ((**بابٌ احترام أسماء الله تعالى وتغيير الاسم لأجل ذلك**)) ؛ «تغيير الاسم» : أي تبديله باسم آخر ، «لأجل ذلك» أي لأجل احترام أسماء الله تبارك وتعالى . وإذا كان مطلوبٌ في هذا المقام تغيير الاسم الذي وجد احترامًا لأسماء الله فلأن يُنهى عن التسمي بها ابتداءً من باب أولى ، ولهذا تحترم أسماء الله ؛ فإن وجد أسماء لبعض الناس فيها عدم الاحترام لأسماء الله يجب أن يغير اسمه احترامًا لأسماء الله ، وأيضًا ابتداء لا يسمي أحدًا من أهله أو ولده باسم لا يكون فيه مراعاة لحرمة واحترام أسماء الله جل في علاه .

قال رحمه الله تعالى: ((**عن أبي شريح**)) وهو هاني بن يزيد الكندي رضي الله عنه وكان إسلامه متأخرًا عام الفتح؛ فتح مكة .

قال: ((**عن أبي شريح أنه كان يكْنى أبا الحكم**))؛ الكنية: هي ما يصدَّر بأم أو أب ، يقال أبو فلان أو أم فلان هذه كنية ، والكنية أحيانًا تكون بالمعاني ؛ معاني الشرف والرفعة أبو المعالي أبو المحاسن أبو الجود أو غير ذلك ، وقد تكون بالاسم يعني اسم ولده أبو عبد الله أو أحمد أو نحو ذلك ، وقد تكون أيضًا بالوصف الذي يلابس

الشخص مثل تكنية النبي صلى الله عليه وسلم لأبي هريرة بهذه الكنية ونحو ذلك . فالشاهد أن الكنية: هي ما صُدِّر بأب أو أم . ((فكان يُكنى أبى الحكم)) أي قومه يكنونه بهذه الكنية «أبا الحكم » .

((**فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: إن الله هو الحكَم**)) ؛ جاء في بعض الروايات أنه قال: ((ما هذه الكنية!!)) يعني أنكر عليه التكني بأبي الحكم ، وعلَّل ذلك بقوله ((إن الله هو الحكَم)) ، وهذا يدل على أن «الحَكَم» اسم من أسماء الله تبارك وتعالى ، والأسلوب هنا الأسلوب الذي هو ((إن الله هو الحكم)) هذا من أساليب الحصر في اللغة ، لأن الخبر الذي هو «الحكَم» عُرِّف بـ«أل» وفُصِل بينه وبين المبتدأ بالضمير «هو» ، ((إن الله هو)) ففُصل بينه وبين المبتدأ أو اسم إنَّ بالضمير هو ، فهذا من أساليب الحصر والاختصاص .

قال ((إن الله هو الحكم)) أي الله هو المختص بالحكم ، ولهذا قال بعده : ((**وإليه الحُكم**)) الحكم إليه وحده ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾ [الرعد:٤١] ، ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾ [الأنعام:١١٤] ، ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا﴾ [المائدة:٥٠] ، ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [الأعراف:٨٧] ، فالحكَم هو الله وهو الذي له الحُكم سبحانه وتعالى ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [يوسف:٤٠] الحكْم لله بأنواعه الثلاثة : الحكم الكوني القدري ، والحكم الشرعي الديني ، والحكم الجزائي ؛ الحكم لله يحكم سبحانه وتعالى بما شاء ، يقضي بما يشاء لا راد لحكمه ولا معقب لقضائه ، له الحكم الكوني القدري جل وعلا ، وله الحكم الشرعي الديني ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى:٢١] ، وله الحكم الجزائي؛ الجزاء العقوبات الحكم فيها لله سبحانه وتعالى ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم:٣١] ، فالحكم لله ، الله هو الحكَم وإليه الحكم .

قال أبو شريح : ((**إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني فحكمت بينهم، فرضي كلا الفريقين**)) ؛ وهذا أيضًا مما يؤكد قضية المنع أن اللقب له تعلق بالمعنى الذي هو الحكم ، قال: ((إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني فحكمت بينهم فرضي كلا الفريقين)) والمراد بالحكم هنا: أي الإصلاح بين الخصومات والتلطيف بين المتخاصمين بتهدئة الأمور مثل ما قال الله عز وجل: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء:١١٤] ، الإصلاح تلطيف الأمر ،تهدئة شدة الخلافات والشحناء ، وكانوا يرتاحون له ويطمئنون له ، إذا قال يا فلان سامح يا فلان كذا مثل هذه الأمور كانوا يرتاحون للرجل ، فهذا المراد ، لا أن المراد بأنه يحكم بينهم بأحكام جاهلية ويسن فيهم قوانين وأمور من هذا القبيل وإنما كان يحكم بينهم بهذه الطريقة ، يعني يصلح بينهم ، يحرص على جمع الكلمة ، إبعاد الشحناء والخصومة التي تقع بينهم .

ولهذا قال له النبي عليه الصلاة والسلام: ((**ما أحسن هذا**)) أقره على هذا اللطف وهذا الإصلاح بين قومه ومحاولة الجمع بينهم وإبعاد الشحناء والبغضاء والعداوات ونحو ذلك من الأمور ، إذا شخص أخذ من شخص مال أكد عليه أن يعيد له ماله أو نحو ذلك ، يعني مثل هذه الأمور ، فالنبي صلى الله عليه وسلم قال ((ما أحسن هذا)) .

قال : ((**فما لك من الولد؟ قال قلت: شريح ومسلم وعبد الله. قال: فما أكبرهم؟ قلت: شريح، قال: فأنت أبو شريح**)) كنَّاه النبي صلى الله عليه وسلم بأكبر ولده ، وهذا فيه أن الكبير له الأحقية وله التقديم ، مثل ما جاء في الحديث «كَبِّرْ كَبِّرْ» ، فالكبير له الأحقية يُبدأ به في تقديم الطعام ، يبدأ به في دخوله المجلس ، الآن بعض الناس إذا أرادوا أن يدخلوا قال اليمين ، لا الكبير هو الذي يقدَّم ويبدأ به مثلا في تقديم الطعام ، يبدأ بالحديث إذا كان ثمة حديث سيتحدث به الجميع يتقدم الأكبر منهم ، فالكبير له الأحقية والأولوية على من دونه ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: ((**فمن أكبرهم؟ قلت شريح ، قال فأنت أبو شريح**)) مع أنه يوجد في أسماء أولاده أحب الأسماء إلى الله «عبد الله» ، لكن مراعاة الأكبر وأن الأولوية والتكنية تكون للأب بأكبر أولاده ؛ ولهذا قال له النبي صلى الله عليه وسلم ((فمن أكبرهم؟ قال قلت شريح قال فأنت أبو شريح)) .

قال رحمه الله تعالى :

فيه مسائل؛ الأولى: احترام صفات الله وأسماء الله ولو لم يقصد معناه.

يعني إن وجد الاسم ولم يُقصد المعنى -أي المعنى المختص بأوصاف الله وأسمائه تبارك وتعالى- وإن لم يقصده فإنه يُمنع منه احترامًا لأسماء الله تبارك وتعالى وأدبًا مع الله .

الثانية: تغيير الاسم لأجل ذلك.

تغيير الاسم لأجل ذلك؛ أي لأجل احترام أسماء الله تبارك وتعالى .

الثالثة: اختيار أكبر الأبناء للكنية.

أي أن الأب يكنَّى باسم أكبر أبنائه مثل ما كنى النبي صلى الله عليه وسلم هذا الصحابي هاني بن يزيد؛ كناه بأبي شريح الذي هو أكبر أبنائه .

قال المؤلف رحمه الله تعالى :

بابٌ من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول

وقول الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ [التوبة:٦٥].

****

قال رحمه الله تعالى: ((**بابٌ من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول**)) ولم يذكر جواب الشرط للعلم به من خلال ما ساقه من النصوص؛ الآية الكريمة والأحاديث المفسِّرة لها في بيان سبب نزولها ، وأن هذا الهزل بشيء مما فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول كفر ناقل من ملة الإسلام .

((**من هزل بشيء**)) ؛ هزل: أي استهزأ وتهكم وسخر بشيء فيه ذكر الله سبحانه وتعالى أو ذكر القرآن أو الدين الذي بُعث به الرسول عليه الصلاة والسلام أو الرسول صلى الله عليه وسلم أو حملة الدين لأجل الدين الذي يحملونه ؛ فإن هذا كفر ناقل من الملة منافٍ للتوحيد كل المنافاة مبطلٌ للعمل ، وصاحبه إن مات عليه فإنه يوم القيامة ليس له عند الله تبارك وتعالى إلا النار وبئس المصير .

فهذه الترجمة فيها التحذير من الهزل أو الاستهزاء أو السخرية أو التهكم بشيء فيه كر الله أو ذكر القرآن أو ذكر الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأن هذا الهزل والاستهزاء والسخرية كفر بالله سبحانه وتعالى ناقل من الملة منافٍ للإيمان بالكلية ومخرجٌ من الدين .

قال رحمه الله تعالى: ((**وقول الله تعالى:** ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (٦٥) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾))

هذه الآية نزلت في نفرٍ كانوا خرجوا مع النبي عليه الصلاة والسلام في غزوة تبوك ، ولم يكونوا كفارًا بل كانوا مؤمنين ولكن إيمانهم كان إيمانًا ضعيفا إيمانًا رقيقا لم يكن إيمانًا قويا ؛ ولهذا حصل منهم استهزاء وتهكم بالنبي صلى الله عليه وسلم وقراء الصحابة رضي الله عنهم فيما سيأتي ذكره ، حصل منهم استهزاء فكان هذا الاستهزاء الذي حصل منهم ناقل لهم من ملة الإسلام مخرج لهم من الدين ، ولهذا في الآية قال: ﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ وهذا فيه دليل كما نبه أهل العلم أنهم قبل هذه المقالة كانوا مؤمنين لكن لم يكونوا مؤمنين كاملي الإيمان ، كانوا مؤمنين لكن إيمانهم ضعيف ، دينهم دين ضعف ، وبهذا الضعف في الإيمان وجد منهم هذا الاستهزاء والسخرية فكان موجبًا لكفرهم وخروجهم من الإيمان .

في الآية التي قبل هذه الآية في سورة التوبة ، وسورة التوبة تعرف بـ«المبعثِرة» ، و«المثيرة» ، و«الفاضحة» لأنها فضحت المنافقين وهتكت سترهم وكشفت عن أوصافهم وبيَّنت فضائحهم ومخازيهم ، والمنافقون كانوا يخشون من نزول سورة فاضحة لهم ، يعني يرتكبون ما يرتكبون من مخالفات وهم في قرارة نفوسهم يخشون أن تنزل سورة فاضحة لهم ولا يزالون يتخوَّفون من نزل سورة فاضحة حتى نزلت سورة التوبة التي تُعرف بالفاضحة والمبعثرة والمثيرة لأنها أثارت أوصاف هؤلاء وكشفتها وهتكت سترهم ، ولهذا تقرأ في سورة التوبة كثيرًا ما يقول الله ﴿وَمِنْهُمْ﴾ ،

﴿ وَمِنْهُمْ ﴾ ، ﴿ وَمِنْهُمْ ﴾ ؛ يذكر أوصاف وعلامات لأهل النفاق ، ومن هذه العلامات علامات النفاق وأماراته ودلائله : الاستهزاء بالدين ، لأن الاستهزاء بالدين ضرب من ضروب النفاق وصفة من صفات المنافقين ، ولهذا في الآية التي قبل هذه الآية قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ (٦٤) ﴾ استمروا في استهزائكم ، الله سبحانه وتعالى هاتكٌ ستركم وكاشفٌ فضائحكم ومظهرٌ مخازيكم ، استهزئوا استمروا في استهزائكم فالله مخرجٌ ما تحذرون ، هذا الذي تحذرون الله مخرجه وفاضحكم وكاشفٌ مخازيكم ، والله سبحانه وتعالى من حكمته أنه لما كشف مخازي المنافقين كشفها بالأوصاف ، ذكر أوصاف المنافقين لم يكشفها بالأسماء ، ولهذا في سورة التوبة لم تُذكر أسماء المنافقين فلان وفلان وفلان ، لم تذكر الأسماء وإنما ذُكرت الأوصاف ، ومن الحكمة في ذلك كما قال العلماء : أن تبقى هذه أوصاف ومَعلَم في المنافق في كل زمان ومكان ، تبقى هذه أوصاف وعلامات لأهل النفاق في كل زمان ومكان في أي وقت ، من وُجدت فيه هذه العلامات فهذه علامات المنافقين ، ولهذا الله سبحانه وتعالى كشفهم بالأوصاف لم يكشفهم بالأسماء ، كشفهم بالأوصاف حتى تبقى منطبقة على الأسماء المعيّنة التي نزل فيها أو كانت أسباب لنزول الآيات ، ومن اتصف بتلك الصفات في أي وقت من الزمان وفي أي مكان من الدنيا .

اقرأ مثلا وهي شبيهة بهذه الآية قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾ [المجادلة:٨] يعني هم في أنفسهم يعرفون أن هذه الممارسات ممارسات مضادة للإسلام ومباينة للدين وفيها عدوان وتعدي وتجاوز إلى غير ذلك يعرفون ذلك ويعرفون أن هذا موجب للعقوبة ، يعرفون ذلك ﴿ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾ يعني هذا موجب للعذاب يعرفون أن هذا عمل باطل محرم موجب للعذاب ، يأتي الواحد منهم ويلقي السلام ملغمَطًا «السام عليكم» يعني الموت ، فيعرفون أن هذا الكلام فيه من العدوان والظلم ما يستحقون عليه عقوبة الله سبحانه وتعالى ولهذا عندهم هذا الحذر ، عندهم حذر وخوف من نزول العقوبة ، وعندهم أيضا حذر وخوف من نزول سورة وآيات من القرآن تفضح هؤلاء وتهتك سترهم .

قال الله ﴿ قُلِ اسْتَهْزِئُوا ﴾ أي استمروا في هذا الاستهزاء الذي هو من صفاتكم صفات المنافقين ، استهزئوا استمروا فيما أنتم عليه من استهزاء ﴿ إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ ﴾ يعني هذا الذي تحذرونه وتخشونه في قرارة أنفسكم الله مخرجه بأن يفضحكم ويهتك ستركم .

ثم قال جل وعلا: ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ ؛ إن سألتهم عن هذا الاستهزاء الذي بدر وحصل منهم يقول القائل منهم : نحن لم نقصد الاستهزاء نفسه بالدين أو بالنبي عليه الصلاة والسلام أو بحمَلة

الدين وإنما قصَدنا التسلية ، التسلية مجالها واسع في السفر لماذا ضاقت عليكم التسلية في السفر إلا أن تأتوا للدين أو النبي عليه الصلاة والسلام!! لم تجدوا إلا هذا للتسلية!! هذا دليل على نفاق في القلب ، لا يمكن يتجرأ إنسان على الاستهزاء بدين الله سبحانه وتعالى إلا وقلبه معطب بشيء من النفاق ، ولهذا يتحرك في قلبه الاستهزاء بالدين ، الدين مبني على تعظيم الله وتعظيم دينه وتعظيم شرعه ؛ فإذا وجد هذا الاستهزاء في القلب دل على أن هذا الذي حصل منه هذا الاستهزاء في قلبه مرض النفاق ، ولهذا هذا المرض هو الذي حرك في قلبه هذا الاستهزاء بدين الله ، وإلا شخصٌ يعظم الدين ويعظم رب العالمين ويعظم شرع الله سبحانه وتعالى هل يمكن أن يجرأ على أن يستهزئ بدين الله تبارك تعالى في مجالس المزح!! إذا أراد أن يمزح باب المزح واسع جًدا ومجالاته واسعة كثيرة ، فلا يختار الإنسان عند التسلية والمزح الدين أو ذكر الله أو ذكر الإسلام أو ذكر النبي عليه الصلاة والسلام؛ إلا عن عطب في قلبه ومرض في قلبه بالنفاق والعياذ بالله .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ يعني ما كان قصدنا الدين نفسه أننا نستهزئ به ونسخر ، لا ، ما كان هذا قصدنا وإنما قصَدنا التسلية ، نحن في سفر ومع عناء السفر فنسلي أنفسنا بذلك في الطريق .

فقال الله عز وجل لنبيه ﴿ قُلْ ﴾ أي أيها النبي لهؤلاء المستهزئين ﴿ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (٦٥) ﴾!!

﴿ لَا تَعْتَذِرُوا ﴾ لا تأتوا بهذه الأعذار نحن في سفر وفي تعب وقصدنا المزح إلى آخره ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ ، وقوله ﴿ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ فيه دليل كما نبه أهل العلم أنهم قبل هذه المقالة لم يكونوا كفارًا لأنه قال: ﴿ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ فهم قبل هذه المقالة لم يكونوا كفارًا ، لأنهم لو كانوا كفارا لقال «قد كفرتم بعد كفركم أو إضافة إلى كفركم» ، لكن قال ﴿ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ ، فهذا دليل أنهم قبل هذه المقالة لم يكونوا كفارا ، وفي الوقت نفسه لم يكونوا مؤمنين كاملي الإيمان ، لأن المؤمن قوي الإيمان لا يمكن أن يبدر منه مثل هذا ، لكن مع ضعف الإيمان ورقته ونقصانه يمكن أن تأتي مثل هذه الكلمات التي يلقيها الشخص وربما لا يلقي لها بالًا فيهوي بها في النار سبعين خريفا .

قال عز وجل: ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ أي بسبب هذا الإجرام الشنيع والظلم الفظيع الذي هو الاستهزاء بالله أو برسوله أو بدين الله تبارك وتعالى .

وقوله ﴿ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ ﴾ هذا فيه أن من تاب وصدق مع الله سبحانه وتعالى بالتوبة يعفو الله عنه ولو كانت توبته من نفاق فإن رب العالمين يعفو عنه إن صدق مع الله سبحانه وتعالى ، ولو كانت توبته من نفاق مثل هذا الذي هو الاستهزاء ، ما يقال إن من استهزأ بالدين وكفر بذلك انتهى أمره تماما لا مجال للتوبة أبدا ؛ باب التوبة متاح لكل تائب أيًا كان ، مثل ما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ

﴿أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣] ، فالله عز وجل يغفر الذنب مهما كان الذنب .

فقوله ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ﴾ هذا فيه دليل على أن من تاب إلى الله سبحانه وتعالى وصدق مع الله في توبته أن الله يتوب عليه ، وهذا جاء في قوله سبحانه وتعالى ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (١٤٥) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ [النساء:١٤٥-١٤٦] استثنى ، من تاب من النفاق تاب الله عليه ، إلا الذين تابوا استثناهم الله عز وجل ، من تاب من النفاق تاب الله سبحانه وتعالى عليه إذا صدق مع الله في توبته .

ولذا هؤلاء النفر المجموعة الذين صدرت منهم هذه الكلمات كان من بينهم رجل يقال له مخشي بن حُمَيِّر ،كان من بين هؤلاء ولم يشارك بالقول لكنه ضحك وسمع الكلام ، وقيل إنه حصل منه شيء من الإنكار أو عدم الرضا بالمقالة ، لكن كان معهم ومشارك وضحك وتناولته الآية ، لكنه تاب ، ولهذا قال غير واحد من أهل العلم هو المعني بقوله سبحانه وتعالى ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ﴾ ، ولهذا يُذكر في ترجمته وله ترجمة في «أُسد الغابة» و«الإصابة» وبعض كتب التراجم ذُكر في ترجمته أنه كان يقول في مناجاته لله كلامًا معناه يقول : «اللهم إني أقرأ آية في القرآن تقشعر منها الجلود أُعنى بها» لأنه من الذين نزلت فيهم هذه الآية ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ يقول «تقشعر منها الجلود أعنى بها» ، ثم سأل الله سبحانه وتعالى أن تكون موتته شهيدًا في سبيل الله لا يعلم أحد بمكاني ، ومات في معركة اليمامة شهيدًا في سبيل الله ولم يُعرف له أثر أو لم يوجد له أثر رضي الله عنه ؛ فتاب وصدق مع الله سبحانه وتعالى في توبته وتاب الله عليه . وهذا يستفاد منه : أن من تاب تابَ الله عليه ، من كان حصل منه شيء من أوصاف المنافقين أو علامات المنافقين يتدارك نفسه بالتوبة الصادقة مع الله سبحانه وتعالى ، وإذا صدق مع الله جل وعلا في توبته تاب الله سبحانه وتعالى عليه .

قال رحمه الله تعالى :

عن ابن عمر ومحمد بن كعب وزيد بن أسلم وقتادة – دخل حديث بعضهم في بعض– أنه قال رجل في غزوة تبوك: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء؛ أرغب بطونا ولا أكذب ألسنا ولا أجبن عند اللقاء، يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه القراء، فقال له عوف بن مالك: كذبتَ ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فذهب عوفٌ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليخبره فوجد القرآن قد سبقه، فجاء ذلك الرجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد ارتحل وركب ناقته فقال: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونتحدث حديث الركب نقطع به عناء الطريق . قال ابن عمر: كأني أنظر إليه متعلقًا بنسْعة ناقة رسول الله

صلى الله عليه وسلم وإن الحجارة تنكِب رجليه وهو يقول: إنما كنا نخوض ونلعب، فيقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ ما يلتفت إليه وما يزيده عليه .

****

قال: ((**وعن ابن عمر ومحمد بن كعب وزيد بن أسلم وقتادة**)) أي بن دعامة السدوسي .

((**دخل حديث بعضهم في بعض**)) أي أن الرواية التي ساقها رحمه الله تعالى من مجموع هذه الروايات ؛ حديث ابن عمر ، ومحمد بن كعب ، وزيد ابن أسلم ، وقتادة ، أي مجموع هذه الروايات ؛ هذا معنى قوله ((دخل حديث بعضهم في بعض)) أي أن هذه الرواية من مجموع هذه الروايات .

((**أنه قال رجل في غزوة تبوك : ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء؛ أرغب بطونًا، ولا أكذب ألسنًا، ولا أجبن عند اللقاء، يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه القراء**)) ؛ هذا استهزاء بالرسول عليه الصلاة والسلام واستهزاء بالصحابة القراء الذين أكرمهم الله سبحانه وتعالى بحفظ القرآن وفهم القرآن على ما سيأتي بيانه .

فهؤلاء حصل منهم هذا الاستهزاء بالنبي عليه الصلاة والسلام وبالقراء من الصحابة قالوا: «**ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونًا ولا أكذب ألسنًا ولا أجبن عند اللقاء**» ؛ وهذه الأوصاف الثلاثة هي أوصافٌ لأهل النفاق، وجاء في الأحاديث ما يدل على شرههم وكثرة أكلهم ، وجاء في النصوص ما يدل على شدة جُبنهم وخوفهم مثل ما قال الله سبحانه وتعالى في وصفه للمنافقين: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [المنافقون:٤] من شدة ما في قلوبهم من الخوف والجبن ، والكذب أبرز صفات المنافقين ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون:١] ؛ فهذه صفات المنافقين ؛ قال ((فقالوا ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونا ولا أكذب ألسنا ولا أجبن عند اللقاء يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه القراء)) .

((**فقال له عوف بن مالك: كذبتَ ولكنك منافق**)) وهذا فيه مجابهة المبطِل بباطله والإنكار عليه والتشديد أيضا في الإنكار قال «كذبت ولكنك منافق» لأن هذا الكلام هو النفاق ، استهزاء بالرسول أو بشيء فيه ذكر الله أو فيه ذكر الدين هذا هو النفاق ، وهذه من علامة المنافقين مثل ما في الآية التي قبلها في أوصاف المنافقين ﴿قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ (٦٤)﴾ ، فالاستهزاء بشيء فيه ذكر الله أو فيه ذكر الرسول عليه الصلاة والسلام أو ذكر القرآن أو ذكر الدين هذا من أوصاف المنافقين لهذا قال له: ((كذبت ولكنك منافق لأخبرن رسول الله صلى الله عليه وسلم)) .

((**فذهب عوف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليخبره فوجد القرآن قد سبقه**)) أي سبقه بإخبار النبي وإعلام النبي صلى الله عليه وسلم بذلك .

((**فجاء ذلك الرجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد ارتحل وركب ناقته**)) أي للانطلاق .

((**فقال: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونتحدث حديث الركب نقطع به عناء الطريق**)) أي شدته ومشقته ، نقطع المسافة في السفر بتسلية ومزاح ودعابة لا نقصد حقيقة الاستهزاء أو السخرية ، وقد قال الله عز وجل ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ وفعلًا جاء الرجل وقال هذا الكلام ؛ قال إنما كنا نخوض ونتحدث حديث الركب . وفي الأسفار والمسافات الطويلة يحصل للناس ملل وسآمة فيحبون قطع المسافة ، لكن بعض الناس يبتلى بقطع المسافات في الطريق وعناء السفر بمثلا إما غيبة أو استهزاء أو سخرية بالناس أو أشياء من هذا القبيل ، فلا يزال في سفره يكتسب إثمًا ، ولربما إن كان بلغ مثل هذا المبلغ اكتسب كفرًا وردةً والعياذ بالله عن دين الله جل وعلا .

((**قال ابن عمر: كأني أنظر إليه متعلق بنِسعة ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم**)) ونسعة الناقة: هو السير الذي يشد به الرحل ، وأيضا قد يُستعمل زمامًا للناقة ، فالرجل مكان متعلقا بنسعة ناقة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه .

((**وإن الحجارة تنكُب رجليه**)) أي تضرب في قدميه ، والنبي صلى الله عليه وسلم يمشي في الناقة وهذا متمسك بنسعة الناقة يعتذر بهذا الاعتذار «إنما كنا نخوض ونلعب» يعتذر .

((**فيقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ ما يلتفت إليه وما يزيد**)) أي على هذا الذي جاءه في الوحي ، الله عز وجل قال له: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (٦٥) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ ، فما كان عليه الصلاة والسلام يزيده على ذلك ، ما يزيد على الوحي على النص الذي جاءه في الوحي ، ما كان يزيده صلى الله عليه وسلم على ذلك .

قال رحمه الله تعالى :

فيه مسائل؛ الأولى وهي العظيمة : أن من هزل بهذا فإنه كافر.

قال «الأولى وهي العظيمة» يعني البالغة الخطورة أشد ما يكون «أن من هزل بهذا أنه كافر» بهذا: أي بالله بشيء فيه ذكر الله أو ذكر القرآن أو الدين أو الرسول عليه الصلاة والسلام ، من هزل بهذا فإنه كافر ، والمراد بـ«كافر» أي كفر أكبر ناقل من ملة الإسلام .

إذا كان هذا حال الهازل الذي يقول كلمة من الاستهزاء أو السخرية من باب الهزل فكيف بحال الساب والعياذ بالله !! من يسب الدين أو يسب والعياذ بالله رب العالمين أو النبي عليه الصلاة والسلام ؛ هذه ردة وكفر أكبر ناقل من الملة ، مع أن بعض المناطق أو بعض البلدان استشرى فيهم هذا السب وأصبح بعض الناس يكثر على لسانه هذا النوع من السب أكثر من كلمة السلام عليكم أو الكلمات الطيبة ، لاشك أن هذا كفر أكبر ناقل من الملة ، إن كان هذا الساب يصلي ويصوم ويتصدق وغير ذلك من الأعمال فإن هذا السب ولو مرة واحدة مبطل لعمله كله ومخرج له من دين الإسلام ، لا تنفعه صلاته ولا ينفعه صيامه ولا ينفعه زكاته ولا تنفعه أعماله الصالحات لأن هذا ناقض للدين ، هؤلاء قال الله في شأنهم: ﴿ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ وهم يعتذرون يقولون «إنما قصدنا التسلية وعناء السفر والطريق ما قصدنا الاستهزاء نفسه» ، فكيف بمن يجرؤ والعياذ بالله بأن يسب رب العالمين أو يسب الدين أو يسب مثلًا النبي عليه الصلاة والسلام !!

بعضهم إذا اشتد خصومته مع شخص سب دينه أو دين والديه أو نحو ذلك ، أذكر مرة في طريق في بعض المناطق كان أمامي شخصان فأحدهما يحمل متاعًا فداعبه زميله حركه قليلا فأراد أن يسقط المتاع الذي على رأسه فالتفت على زميله وشتم دين أم زميله ، فأوقفته قلت أنا أريد أن أسألك : الآن أنت تعرف دين أم هذا الشخص زميلك أو لا؟ قال نعم ، قلت ما دينها ؟ قال دينها الإسلام ، قلت إذًا أنت الآن تسب الإسلام ، لأنك أنت الآن تشتم دين أمه ودينها الإسلام معنى ذلك أن تشتم الإسلام وتسب الإسلام ، وهل تعرف معنى شتم الإسلام؟ شتم الإسلام هذا كفر بالله سبحانه وتعالى وبالدين ومبطل للعمل كله ، إن كان الإنسان يصلي أو يصوم أو يتصدق أو يعمل شيء من الصالحات أو غيره كلها لا تقبل منه ، حتى مثل هذا المتاع الذي تحمله خدمة لوالديك أو لبيتك هذا كله ما يقبل منك ما دمت تسب الإسلام . وبعض الشباب ربما تناقلها من بعض زملائه أو بعض أسنانه ولم يستوعب ومع ذلك تبقى الكلمة كفر ناقل من الملة ، سب الدين أو سب الله أو سب الرسول عليه الصلاة والسلام أو نحو ذلك أو الاستهزاء بالدين أو السخرية هذا كفر ناقل من الملة يبطل معه صلاة الإنسان تبطل صيامه صدقاته أعماله كلها لا تنفعه ، لأن الكفر مبطل للأعمال ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ﴾ [التوبة:٥٤]، ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة:٥] .

الثانية: أن هذا تفسير الآية فيمن فعل ذلك كائنًا من كان.

نعم يعني العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، أن هذا تفسير الآية فيمن فعل ذلك كائنا من كان ، ولهذا جاء الفضح للمنافقين بذكر الأوصاف ولم يأت بذكر الأسماء ؛ لتبقى هذه أوصاف للمنافق كائنًا من كان في أي زمان وفي أي مكان .

الثالثة: الفرق بين النميمة وبين النصيحة لله ولرسوله.

قال: «الفرق بين النميمة وبين النصيحة لله ولرسوله» لأن عوف بن مالك رضي الله عنه لما سمع هذه الكلمة نقلها للنبي عليه الصلاة والسلام ؛ فأخذ من ذلك فائدة المصنف : الفرق بين النميمة ؛ لأن النميمة: هي نقل الكلام من شخصٍ لآخر على وجه الإفساد بينهما والوقيعة وإيجاد العداوة ؛ فهذه نميمة ، أما نقل الكلام على وجه الإصلاح ولاسيما للحاكم أو لولي الأمر أو للأمير نقل الكلام له حتى يردع الظالم أو الجاني أو المعتدي فهذا نصيحة ، ولهذا قيل:

الذم ليس بغيبة في ستةٍ ... متظلم ومعرف ومحذر

ولمظهر فسقًا ومستفتٍ ... ومن طلب الإعانة في إزالة منكر

الرابعة: الفرق بين العفو الذي يحبه الله، وبين الغلظة على أعداء الله.

الفرق بين العفو الذي يحبه الله ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٤] ، الفرق بينه وبين الغلظة على أعداء الله ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التحريم:٩] ففيه فرق بين العفو ؛ العفو في محله هذا عظيم وثوابه عند الله عظيم ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ ، وفيه مقامات تحتاج إلى غلظة وشدة وتعنيف ردعًا للظالم المعتدي وأيضًا تحذيرًا لغيره من أن يقع في مثل ما وقع فيه .

الخامسة: أن من الاعتذار ما لا ينبغي أن يُقبل.

أن من الأعذار ما لا ينبغي أن يُقبل ؛ فمثل هؤلاء لما حصل منهم هذا الأمر قالوا : لم نقصد وإنما قصْدنا نخوض ونلعب ، يعني نريد أن تقطع عناء السفر ، هذا غير مقبول؛ لأن عناء السفر عندك مجال واسع جدا من المزح والتسلية والدعابة ، مجال واسع جدا تقطع به عناء السفر ، فلا يمكن أن يكون قطع عناء السفر باستهزاءٍ أو سخرية بشيء فيه ذكر الله أو ذكر الرسول عليه الصلاة والسلام أو ذكر القرآن ، فمن الأعذار ما لا ينبغي أن يُقبل ولهذا كان هذا يعتذر بهذا العذر ﴿ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ والنبي صلى الله عليه وسلم لا يلتفت إليه ولا يزيده على قول الله عز وجل: ﴿ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (٦٥) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ .

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك .

اللهم صلِّ وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

الدرس الرابع والأربعون

بسم الله الرحمن الرحيم

يقول شيخ الإسلام محمد ابن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في «كتاب التوحيد» :

باب قول الله تعالى ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [فصلت:٥٠] ؛ **قال مجاهد : «هذا بعملي وأنا محقوق به» .وقال ابن عباس رضي الله عنهما : «يريد من عندي» . وقوله: ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ﴾** [القصص:٧٨] **قال قتادة : «على علم مني بوجوه المكاسب» . وقال آخرون : «على علم من الله أني له أهل» ؛ وهذا معنى قول مجاهد «أوتيته على شرف» .**

****

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد:

قال المصنف الإمام شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتابه التوحيد : ((**بابٌ ما جاء في قول الله تعالى ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي ﴾**)) ؛ هذه الترجمة التي صدَّرها بهذه الآية الكريمة عقدها رحمه الله تعالى لبيان وجوب إضافة النعم إلى المنعِم سبحانه وتعالى شكرًا له واعترافًا بمنّه سبحانه وتعالى وفضله ، وإقرارًا بأنه جل وعلا هو المنعِم ، وأن العبد ليس له على الله حق واجبٌ وإنما الله سبحانه وتعالى يتفضل على من شاء من عباده بما شاء من نعمه وعطاياه ومننه سبحانه وتعالى ﴿ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [الحديد:٢٩] ؛ ولهذا واجبٌ على العبد وهو من توحيده لله سبحانه وتعالى أن يكون شاكرًا لله على أنعمه معترفًا بنعم الله ، وكلما استجدَّت نعمة استجد منه ذكرٌ للمنعِم اعترافا بفضله وشكرٌ له سبحانه وتعالى على مننه وعطايا .

ولهذا فإن مما يتنافى مع توحيد العبد لله عز وجل وشكره لنعمه سبحانه وتعالى أن يضيف العبد النعمة إلى نفسه؛ إما مثلًا إلى حذقه أو خبرته أو جدارته ، أو أنه ورث المال كابرًا عن كابر ، أو أنه حقيقٌ وجدير به ، أو أنَّ له شأنًا ومكانة ولهذا أعطي هذا المال أو غير ذلك ؛ فالواجب على العبد أن يتجنب ذلك تمام التجنب وأن يحذره

أشد الحذر ، وهذا من كفران النعم ، من كفران النعم: أن يضيف العبد النعمة إلى نفسه ، وأيُّ شيء تصنع جدارة الإنسان أو حذقه أو خبرته أو تجربته لولا فضل الله سبحانه وتعالى عليه ومنُّه جل وعلا .

وهذه الآية الكريمة التي صدَّر بها رحمه الله تعالى هذه الترجمة ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي ﴾ ؛ هذا لي : أي أنا حقيقٌ به وجدير بتحصيله وأهلٌ له ، وسيأتي ما أورده الله رحمه الله تعالى من نقولاتٍ عن بعض السلف رحمهم الله تعالى في بيان معنى الآية الكريمة .

وهذه الآية فيها بيان لطبيعة الإنسان إلا من رحمه الله سبحانه وتعالى بالإيمان والطاعة لله جل وعلا ، وإلا هذه طبيعة للإنسان ، كل إنسان هذه طبيعته ، قال الله سبحانه وتعالى في الآية التي قبلها :﴿ لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴾ [فصلت:٤٩] هذه طبيعة في الإنسان ، كل إنسان لا يسأم من دعاء الخير ؛ يريد صحة ويريد مال ويريد تجارة ويريد أولاد ويريد ويريد ، وكلما جاءه من الخير طلب ، ولو أعطاه الله سبحانه وتعالى واديًا من ذهب لتمنى واديا آخر . ﴿ لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ ﴾ نفسه في أمور دنياه نَهِمةٌ لا تشبع مهما أعطي ، هذه طبيعة في الإنسان ، وبالمقابل ﴿ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴾ ؛ إذا أصابه الشر مثلا من مرض أو فقر أو غير ذلك من المصائب والشدائد واللأواء يؤوس قنوط أي من رحمة الله سبحانه وتعالى ، فهو في السراء ليس شاكرًا للمنعِم سبحانه وتعالى بل في طمعٍ متزايد على غير شكر للمنعم سبحانه وتعالى والمتفضل ، وفي الضراء غير صابر ، لكن من نجاه الله سبحانه وتعالى بالإيمان فأمره أو شأنه آخر كما قال نبينا عليه الصلاة والسلام : ((عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ)) .

قال: ﴿ لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ(٤٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ ﴾ أي هذا الإنسان الذي هذا وصفه لا يسأم من دعاء الخير وإن مسه الشر فيؤوس قنوط ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ ﴾ يعني من بعد فقر مثلا كان به ، أو من بعد مرض أعطاه الله صحة بعد مرض ، أو أعطاه مالًا بعد فقر، أو أعطاه قوةً بعد ضعف ، إن تفضل الله عليه بالرحمة والمنة والعطية بعد ضراء مسته أي بعد حالٍ كان عليها من الضراء والفقر والمرض ونحو ذلك ﴿ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي ﴾ جحْدًا منه لنعمة الله سبحانه وتعالى وعدم اعترافٍ بفضله .

﴿ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ﴾ وهذا إنكار للبعث وجحود للقيام بين يدي الله سبحانه وتعالى.

﴿ وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى ﴾ هذا أيضًا يذكره على سبيل الفرَض المستبعد ، ينكر البعث ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ﴾أي ما أعتقد أن الساعة تقوم لكن على فرض ولو قدِّر على سبيل الاحتمال المستبعد أنها قائمة ﴿إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى ﴾؛ مثل ما أعطاني المال والصحة والتجارة في الدنيا أيضا في الآخرة سيعطيني الحسنى ﴿ إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى ﴾ .

﴿ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ ؛ هذا لاشك كفر بالله سبحانه وتعالى وجحْد لنعمته وإنكارٌ للبعث والقيام بين يدي الله جل وعلا ، وكل ذلك ناشئ من البطر والكبر والعُجب والاغترار بالدنيا، ولاسيما إذا أعطي حظًا ونصيبا من الدنيا من أموال وتجارات وما إلى ذلك ، قد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى ﴾[العلق:٦-٧] . فهذا بيان لحال الإنسان كل إنسان إلا من نجّاه الله سبحانه وتعالى بالإيمان والطاعة لله جل وعلا فإن حاله أخرى وشأنه آخر .

ومثل هذه الآية في تقرير هذا المعنى قول الله سبحانه وتعالى في سورة الزمر: ﴿ فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٤٩) قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٥٠) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (٥١) أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢) ﴾ ؛ فهذا أيضًا فيه بيان لحال الإنسان عندما يعطى من النعمة والمال والتجارة وما إلى ذلك تكون حاله كما ذكر الله سبحانه وتعالى يقول ﴿إنما أوتيته على علم﴾ : أي بجدارة وخبرة ومعرفتي بدروب التجارة ومهارتي فيها وخبرتي الطويلة وما إلى ذلك ، ويجحد نعمة المنعم سبحانه وتعالى .

ومثل ذلك أيضًا قول الله عز وجل في سورة الفجر ﴿ فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴾ قال الله: ﴿كَلَّا ﴾ليس الأمر كما تقولون ولا كما تزعمون وتظنون ، بل الله عز وجل يبتلي من شاء من عباده بالسراء ويبتلي من شاء بالضراء ، ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾[الأنبياء:٣٥] ، ولهذا قال في الآية المتقدمة من سورة الزمر ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾هذا فتنة وامتحان وابتلاء ، يمتحن الله سبحانه وتعالى ويختبر عباده ، منهم من يختبره بالسراء والمال والتجارة هل يكون شاكرًا أو كافر؟ ، ومنهم من يبتليه بالفقر والمرض هل يكون صابرا أو جازع؟ ، فالدنيا كلها دار ابتلاء وامتحان .

فالشاهد أن الإنسان إذا وسَّع الله عليه في المال والتجارة والرزق والصحة والعافية يقول "هذا لي" ، وهذه طبيعة في الإنسان إلا من نجاه الله بالإيمان ، وإلا هذه طبيعة في الإنسان مباشرة يدخله العجب ويدخله الاغترار بالنفس ورؤيتها والزهو والتعالي على عباد الله هذا طبعٌ في الإنسان لا ينجو منه إلا من نجاه الله سبحانه وتعالى بالإيمان .

نقل رحمه الله تعالى نقولات عن بعض السلف في معنى قوله ﴿لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ قال :

((**قال مجاهد** : «**هذا بعلمي وأنا محقوق به**»)) أي أن معنى قوله «هذا لي»: أي بعلمي؛ حصَّلته بعلمي بخبرتي، بمهارتي ، بمعرفتي بدروب التجارة وسبل الربح ، بعرق جبيني ، بحذقي ؛ عبارات مختلفة والمؤدى واحد والمضمون واحد .

قال: «**وأنا محقوق به**» : أي جدير بهذا وأهلٌ له لأني على حذق وعلى معرفة وعلى خبرة وعلى دربةٍ بالتجارة وأصولها ، لا يقول هذا فضل الله سبحانه وتعالى عليَّ ومنُّه جل وعلا .

((**وقال ابن عباس رضي الله عنهما** : « **يريد من عندي**»)) ؛ أي ﴿ هَذَا لِي ﴾ : من عندي ؛ حصَّلتُه واكتسبته من عندي ، أي ليس من عند الله وإنما هو من عندي بجدارة ومهارة ومعرفة وخبرة وما إلى ذلك .

وهذا الكلام الذي يقوله هؤلاء كله كذب ، هؤلاء كل كلامهم كذب يكذبون على أنفسهم وعلى الناس ، وإلا هذا كله من الله لكنهم يكذبون ويقول القائل منهم : هذا بجدارتي وبحذقي.. هذا كله كذب ، هذا فضل الله عليه، الله الذي خوَّله هذه النعمة وأعطاه هذه المنة ، ولهذا تجد في الناس من يكون عنده مهارة مثلا في التجارة ويدخل في أنواع من التجارات ويخسر!! ويكون آخر دونه في المعرفة ويربح!! الأمر بيد الله ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الزمر:٥٢] ، هذا أمر بيد الله يبسط لمن يشاء ويقدِر على من يشاء سبحانه وتعالى الأمر بيده جل وعلا ، ولهذا الذي يقول عندما يربح ويحصِّل من التجارات وغيرها "هذا لي وهذا بمهارتي وهذا بخبرتي.." الخ هذا كله كذب مخالف للحقيقة ، يكذب على نفسه وعلى عباد الله سبحانه وتعالى ، هذا فضل الله عليه ، ليست المهارة ولا الخبرة ولا التجارة بالتي ينال الإنسان من ورائها الأرباح لولا فضل الله وبسط الله عليه بالرزق .

فالرزق بيد الله سبحانه وتعالى يؤتيه من يشاء سبحانه وتعالى والله ذو الفضل العظيم .

وإعطاء الرزق الدنيوي للعبد هذا لا يدل على فضل ولا على مكرمة ولا على منزلة عند الله ؛ لأن الدنيا هينة عند الله يعطيها من يحب ومن لا يحب كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا(٢٠) انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء:٢٠-٢١] ، فالدنيا يعطيها الله سبحانه وتعالى من شاء من البرية؛ من مسلم أو كافر ، أو بر أو فاجر ، أو مطيع أو عاصي ، أما

الدين لا يعطيه إلا خير البرية ، والدنيا يعطيها سبحانه وتعالى من شاء ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ﴾ فالعطاء الدنيوي سواء في الصحة أو المال أو التجارة أو غير ذلك كل ذلكم لا يدل على فضيلة ولا على مكانة .

قال رحمه الله : ((**وقوله ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ﴾**[القصص:٧٨])) هذا كلامٌ قاله قارون الذي آتاه الله من الكنوز والأموال الطائلة ما إنَّ مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة ، قال هذا الكلام لما ذكَّره عقلاء قومه بفضل الله عليه قالوا له ﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾[القصص:٧٧] ، ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ﴾[القصص:٧٨] أي هذه الأموال الطائلة الكثيرة إنما -و«إنما» أسلوب من أساليب الحصر- أوتيته أي نلته وحصَّلته على علم مني ؛ أي مهارة وخبرة ومعرفة بالتجارة وأصول الربح ، ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ وهذا جحد لنعمة الله عليه ، والله عز وجل قال للمشركين كما في الآية التي مرت معنا ﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾[الزمر:٥٠] أي من الكفار والمشركين من أسلاف هؤلاء ومنهم هذا قارون ﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٥٠)﴾؛ الأموال التي حصَّلوها والأموال التي اكتسبوها لما جاءتهم عقوبة الله سبحانه وتعالى ما أغنت عنهم ولا خلَّصتهم من عقوبة الله ، خسف الله به وبماله وبداره الأرض ، ما أغنت عنه أمواله ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾ ، ومعنى قوله ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾ : أي أصابهم عقوبات ما كسبوا ، والمراد بالسيئة هنا: العقوبة ، وسميت العقوبة سيئة لأنها تسوء صاحبها . ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ﴾ أي كفار قريش ﴿ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ .

وهذا يستفيد منه العاقل أن التاريخ مليء بالعبر ، إن كان الإنسان عنده أموال طائلة كم مرَّ في التاريخ من أشخاصٍ كان عندهم من الأموال أكثر من ماله، وعندهم من الصحة أكثر من صحته، وعندهم من الحشم والحواشي وغير ذلك أكثر منه؛ ما أغنت عنه أمواله ، عندما جاءته عقوبة الله سبحانه وتعالى ما أغنت عنه .

((﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ ؛ **قال قتادة : «على علمٍ مني بوجوه المكاسب»**)) أي أن هذه الأموال إنما وُجدت ونلتُها لأن عندي معرفة بوجوه المكاسب ، عندي خبرة ، عندي مهارة .

((**وقال آخرون : «على علم من الله أني له أهل »**)) ؛ ﴿ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ﴾أي أن الله عِلم أني أهل لهذه الأموال فأعطاني إياها لأني أهلٌ لها ، وقد عرفنا أن العطاء الدنيوي إنما هو امتحان فقط ﴿ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾

امتحان وابتلاء ، مثل ما يبتلي الفقير بفقره يبتلي الغني بغناه ، ﴿ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ [الأنبياء:٣٥] ، فالغني مبتلى بغناه والفقير مبتلى بفقره ، وعبودية الغنى الشكر ، وعبودية الفقر الصبر ، والمؤمن شاكرٌ عند السراء صابرٌ عند البلاء والضراء ، وأهل العلم رحمهم الله لهم خلاف معروف أيهما أفضل: الغني الشاكر أو الفقير الصابر ؟ وبعضهم ألَّف فيها مؤلفات مفردة ، يقول ابن القيم رحمه الله سألت شيخ الإسلام عن هذه المسألة فقال : الأفضل منهما الأتقى لله ، قلت له فإن كانوا في التقوى سواء ؟ قال هم في الأجر سواء ؛ لماذا ؟ لأن الغني عبوديته الشكر فأداها، والفقير عبوديته الصبر فأداها ، هذا ابتلي بالغنى فأدى عبودية الغنى ، وهذا ابتُلي بالفقر فأدى عبودية الفقر . فإذا كانوا في التقوى سواء فهم في الأجر سواء ، لأن كلا منهما أدى عبودية الامتحان الذي امتحنه الله سبحانه وتعالى وابتلاه به .

قال : ((**وهذا معنى قول مجاهد «أوتيته على شرف»**)) ؛ قول مجاهد «أوتيته على شرف» مثل ما نَقَل عن بعض السلف أنهم قالوا : «على علمٍ أني له أهل» أي لشرفي ولمكانتي .

وهذه التفسيرات التي نقلها ليست متعارضة وإنما هي تفسيرٌ وبيان لمعنى الآية بذكر أفراد داخلة في معناها ، وإلا كلها مما تدل عليها الآية الكريمة ، والألفاظ كثيرة جدًا لا تتوقف عند هذه الألفاظ التي ذكر المصنف ، الألفاظ كثيرة ولهذا يجب على الإنسان أن يكون دائمًا في كل مرة تتجدد النعمة رأسًا يذكر نعمة الله عليه ، لا يقول هذا بحذقي ولا يقول هذا بجدارتي ولا هذا بعرق جبيني ولا يقول أنا أهلٌ لذلك ولا غير ذلك ، وإنما يقول هذا فضل الله ؛ يحمد الله سبحانه وتعالى ويشكره جل في علاه .

قال رحمه الله تعالى :

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ((**إن ثلاثة من بني إسرائيل أبرص وأقرع وأعمى ؛ فأراد الله أن يبتليَهم فبعث إليهم ملكاً ، فأتى الأبرص فقال: أي شيء أحب إليك ؟ قال لونٌ حسن وجلدٌ حسن ويذهب عني الذي قد قذرني الناس به ، قال فمسحه فذهب عنه قذره ، فأعطي لوناً حسناً وجلداً حسنا ، قال فأيُّ المال أحب إليك ؟ قال الإبل أو البقر –شك إسحاق– فأعطي ناقةً عُشَراء وقال بارك الله لك فيها . قال فأتى الأقرع فقال: أي شيء أحب إليك ؟ قال شعرٌ حسن ويذهب عني الذي قذرني الناس به ، فمسحه فذهب عنه وأُعطي شعراً حسناً ، فقال أي المال أحب إليك؟ قال البقر أو الإبل ، فأعطي بقرةً حاملا ، قال بارك الله لك فيها ، فأتى الأعمى فقال : أي شيء أحب إليك؟ قال أن يرد الله إليَّ بصري فأبصر به الناس ، فمسحه فردَّ الله إليه بصره ، قال فأي المال أحب إليك؟**

قال الغنم فأُعطي شاة والدًا ، فأنتج هذان وولَّد هذا ، فكان لهذا وادٍ من الإبل ولهذا وادٍ من البقر ولهذا وادٍ من الغنم ، قال ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته فقال : رجل مسكين قد انقطعت به الحبال في سفري فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك ، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال بعيراً أتبلَّغ به في سفري ، فقال الحقوق كثيرة ، فقال كأني أعرفك؛ ألم تكن أبرص يقذرك الناس فقيراً فأعطاك الله عز وجل المال ؟ فقال إنما ورثت هذا المال كابراً عن كابر ، فقال إن كنت كاذباً فصيَّرك الله إلى ماكنت ، وأتى الأقرع في صورته فقال له مثلما قال لهذا وردَّ عليه مثل ما رد عليه هذا، فقال: إن كنت كاذباً فصيَّرك الله إلى ما كنت ، قال وأتى الأعمى في صورته فقال: رجل مسكين وابن سبيل قد انقطعت بي الحبال في سفري فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك ، أسألك بالذي رد عليك بصرك شاةً أتبلغ بها في سفري ، فقال : قد كنت أعمى فردَّ الله إليَّ بصري ، فخُذ ما شئت ودع ما شئت فوالله لا أجهدُك اليوم بشيءٍ أخذتَه لله ، فقال أمسك مالك فإنما ابتليتم ؛ فقد رضي الله عنك وسخط على صاحبيك)) أخرجاه.

****

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث؛ حديث أبي هريرة رضي الله عنه في قصة هؤلاء النفر الثلاثة من بني إسرائيل ؛ أحدهم أقرع والثاني أبرص والثالث أعمى ، وامتحان الله سبحانه وتعالى وابتلاؤه لهم بأن أعطاهم الصحة وأعطاهم المال ، أعطاهم صحة في الأبدان وأعطاهم أيضا غنى وكثرةً في الأموال ، وتبدلت حالهم من المرض إلى الصحة ومن الفقر إلى الغنى ابتلاءً وامتحانا ، ابتلاهم الله سبحانه وتعالى وامتحنهم بذلك ، وهي قصة مثل ما قال المصنف رحمه الله تعالى في المسائل قصة عجيبة وفيها عبر عظيمة . ومثل هذه القصص ينبغي على المسلم أن يأخذها على وجه الاعتبار والاتعاظ ؛ فيعتبر بمثل هذه القصص ويتعظ ويصلِح من حال نفسه مع الله سبحانه وتعالى ، ويبتعد عن الأخطاء والمخالفات التي تقدح في الإيمان إما تنافيه من أصله أو تنافي كماله أو تخل بشيء منه ، يبتعد عن ذلك ويستفيد من هذه القصص إصلاحًا لإيمانه وعنايةً به ومحافظةً عليه وبُعدًا عن مثل هذه الأخطاء التي وقع فيها من وقع ولم ينجح فيما ابتلاه الله سبحانه وتعالى وامتحنه به .

قال : وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ((**إن ثلاثة من بني إسرائيل أبرص وأقرع وأعمى**)) ؛ الأبرص: من بجلده برص وهو البياض الذي يكون على الجلد . وكما سيأتي البرص يعدُّ عيبًا في الإنسان ولهذا قال هذا الرجل الذي به برص ((قذرني الناس)) يعني منظري مستقذر عنده ينفرون منه ، فالبرص: مرض يصيب الإنسان وهو بياض يكون على ظهر جلده وتغيُّرٌ في لون الجلد ، وهو منظر يستقذره الناس ولهذا قال : ((قذرني الناس)) .

والآخر أقرع أي به قرع ، والقرع: هو الصلع الذي يكون في الرأس ؛يتساقط الشعر فلا يبقى فيه شعر أو يبقى فيه شعيرات مثلا قليلة ، وأيضا مثل ما قال هذا الرجل قال ((قذرني الناس)) أي لهذا القرع الذي بي وتساقُط الشعر .

والآخر أعمى ، والعمى لا يكون إلا بفقد العينين كلاهما بحيث لا يرى أصلا .
فثلاثة نفر هذه حالهم من حيث الصحة ، أما من حيث المال فكلهم فقراء الثلاثة لا مال عندهم ، من حيث الصحة أحدهم أبرص والآخر أقرع والثالث أعمى ، وأما من حيث المال فهم فقراء كلهم لا مال عنده .
((**فأراد الله أن يبتليَهم**)) والابتلاء: هو الامتحان والاختبار .
أراد أن يبتليهم ((**فبعث إليهم ملكاً**)) أي على صورة بشر .
فجاءهم هذا الملك ((**فأتى الأبرص فقال: أي شيء أحب إليك؟**)) ما الذي تحب؟ وهو كما عرفنا متأذي من هذا البرص الذي أصيب به والناس قذروا هذا البرص الذي فيه ، فلما قال أي شيء تحب؟ ((**قال لونٌ حسن وجلد حسن ويذهب عني الذي قد قذرني الناس به**)) هذا الذي أحب .
قال: ((**فمسحه فذهب عنه قذره**)) شفاه الله سبحانه وتعالى من ذلك وعافاه ((**فأُعطي لوناً حسناً وجلداً حسناً**)) هذا الآن تحول في الصحة .
((**قال فأي المال أحب إليك ؟ قال الإبل أو البقر ،شك إسحاق**)) أي ابن عبد الله أحد رواة الحديث ((**فأعطي ناقة عُشَراء**)) عشراء: أي حامل ، وقيل العشراء: هي التي بلغت في أشهر الحمل الشهر العاشر ، ويبقى هذا للاسم اسمًا لها إلى أن تلد ، يقال لها ناقة عشراء أي ناقة حامل .
((**فأعطي ناقة عشراء وقال بارك الله لك فيها**)) دعا له بالبركة في هذا المال ، والبركة في المال: تعني نماؤه وزيادته، البركة تعني النماء والزيادة والتكاثر كثرة المال ، فدعا له بالبركة فيها :أي في هذه الناقة العشراء .
((**قال فأتى الأقرع فقال أي شيء أحب إليك ؟ قال شعرٌ حسن ويذهب عني الذي قذرني الناس**)) أي هذا القرع ((**فمسحه فذهب عنه وأُعطي شعراً حسناً ، فقال أي المال أحب إليك؟ قال البقر أو الإبل ، فأعطي بقرةً حاملاً ، قال بارك الله لك فيها**)) . إذًا الأبرص أعطي ناقة عشراء ، والأقرع أعطي بقرة حاملا .
((**قال فأتى الأعمى فقال : أي شيء أحب إليك؟ قال أن يرد الله إليَّ بصري فأبصر به الناس؛ فمسحه فرد الله إليه بصره**)) ؛ رأيت مرةً أحد الشباب من حفظة كتاب الله عز وجل وهو كفيف البصر فجاء ذِكر لذلك فقال : والله إني أحمد الله على هذه النعمة لأنني في عافية من أمور كثيرة وسلامة من أمور كثيرة ابتلي بها كثير من المبصرين فعافاني الله سبحانه وتعالى من ذلك ، وأعطاه الله عز وجل من النباهة والحفظ لكتاب الله وأمور كثيرة ليست عند كثير من المبصرين ؛ فكان يحمد الله عز وجل ويرى أنه في نعمة لأن الله عافاه وسلَّمه .
قال: ((**فمسحه فردَّ الله إليه بصره، قال فأي المال أحب إليك؟ قال الغنم، فأُعطي شاة والدًا**)) الشاة الوالد: قيل التي معها ولدها ، وقيل الشاة المعروفة بكثرة الولادة وحسن الحمل ، لأن من الشياة من يكون بطنها أكثر من واحد ، الشاة عادة تحمل في بطنها حملًا واحدا فأحيانًا يكون الحمل أكثر من واحد ، فمعنى والدًا : إما معها ولدها ، أو أنها عرفت بكثرة الولادة .

((**فأَنتج هذان**)) وضبطت أيضا «أُنتِج هذا» ، وتروى «نَتَج هذان» . هذان : أي صاحب البقر وصاحب الإبل، ومعنى أُنتج: أي قام عليها وتولى نتاجها ، ومعنى هذا أن كل واحد منهم قام على رعاية هذه الأنعام التي عنده وتولى رعايتها وتولى نتاجها واعتنى بها ((**فأنتج هذان وولَّد هذا**)) أي صاحب الغنم قام على توليد الغنم التي عنده ورعايتها والعناية بها .

((**فكان لهذا وادٍ من الإبل ، ولهذا وادٍ من البقر ، ولهذا وادٍ من الغنم**)) وهذه من البركة التي في دعاء الملك وهي دعوة مستجابة ، فبارك الله لكل واحد منهم فيما أعطي فكان للأول واد من الإبل ، والثاني له وادٍ من البقر، والثالث وادٍ خمن الغنم . انظر الآن إلى حال هؤلاء الصحة من أحسن ما يكون والمال بهذه الكثرة **!** هذا الآن الابتلاء والامتحان في أوجِهِ وشدته .

قال: ((**ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته**)) في صورته أي كما كان سابقًا أبرص فقير ؛ أتاه في صورته وهيئته.

((**فقال : رجلٌ مسكين وابن سبيل قد انقطعت بي الحبال في سفري**)) انقطعت بي الحبال : أي السُّبل ، ليس عندي ما يكفيني ويسد حاجتي وأتبلَّغ به في سفري .

((**قد انقطعت بي الحبال في سفري فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك**)) وهذا فيه الأدب في الطلب ، و«ثم» كما هو معلوم ومر معنا تفيد التراخي والمهلة .

((**أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال بعيراً أتبلَّغ به في سفري**)) يعني سأل شيئا قليلا من شيء كثير أعطاه الله سبحانه وتعالى إياه .

((**فقال الحقوق كثيرة**)) يعني الالتزامات كثيرة ورائي التزامات ورائي مسؤوليات ما أستطيع أن أعطيك بعيرًا ، الحقوق كثيرة .

فقال : ((**كأني أعرفك ؛ ألم تكن أبرص يقذرك الناس، فقيراً فأعطاك الله عز وجل**)) فجحد نعمة الله عليه.

((**قال: إنما ورثت هذا المال كابراً عن كابر**)) أي أبًا عن جد ، هذا المال ورثته من آبائي وآبائي ورثوه عن آباءهم كلنا كنا أهل أموال وأهل تجارات ورثته كابرًا عن كابر ؛ جحد نعمة الله عليه ؛ نعمة الصحة ونعمة المال .

((**قال إن كنت كاذباً فصيَّرك الله إلى ما كنت**)) أيضا انظر هذه المراعاة في الدعاء وهو يعرف أنه كاذب لأنه هو المرسَل له في امتحانه وابتلائه ، ومع ذلك ترى بعض الناس بقليل من التهمة أو الظن يدعو على الآخرين، ولا يدعو عليهم بمثل هذا القيد وإنما يدعو عليهم جزمًا وهو عنده ظن ليس عنده يقين **!!** وانظر دعوة هذا الملك قال: «إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت» .

((قال: وأتى الأقرع في صورته فقال له مثلما قال لهذا ، ورد عليه مثل ما رد عليه هذا ، فقال إن كنت كاذباً فصيَّرك الله إلى ما كنت)).

((قال: **وأتى الأعمى في صورته فقال رجل مسكين وابن سبيل قد انقطعت بي الحبال في سفري فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك ، أسألك بالذي رد عليك بصرك شاةً أتبلَّغ بها في سفري ، فقال : قد كنت أعمى فردَّ الله إليَّ بصري**)) ما جحد مثل الأولَيْن ((**فخذ ما شئت ودع ما شئت**)) خذ ما شئت من هذه الماشية ودع ما شئت منها ((**فوالله لا أجهدُك اليوم بشيءٍ أخذته لله**)) لا أشق عليك ولا أمنعك بل خذ ما شئت من هذه الماشية . فهذا اعترف بالنعمة وأدى الشكر وحقق أركان الشكر الثلاثة التي هي: اعتراف القلب بالمنعِم وفضله سبحانه وتعالى والإقرار بذلك ، وأيضًا اعتراف اللسان بالمنعِم وفضله سبحانه وتعالى ، وأيضا استعمال النعمة في طاعة الله عز وجل وأداء حق الله فيها من الصدقات ومعاونة ابن السبيل والمحتاج .

قال: ((**فوالله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته لله ، فقال أمسك مالك فإنما ابتليتم**)) أي أنتم الثلاثة ((**ابتليتم فقد رضي الله عنك وسخط على صاحبيك**)) .

أنظر قوله ((**رضي الله عنك**)) فيه أن من يؤدي شكر النعمة يرضى الله عنه ، مثل ما في الحديث عن نبينا عليه الصلاة والسلام قال : ((إِنَّ اللهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا)) ، فالله عز وجل يرضى عن عبده إذا كان معترفًا بالنعمة شاكرا للمنعم فإنه بذلك يفوز برضا الله سبحانه وتعالى عنه .

قال: ((**وسخط على صاحبيك**)) لأن جحد النعم موجبٌ لسخط الله ، والسخط موجب لحلول العقوبة ، مثل مر معنا في الآية ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾ [الزمر:٥١] أي عقوبات ما كسبوا .

قال رحمه الله تعالى :

فيه مسائل ؛ الأولى :تفسير الآية .

الأولى : تفسير الآية ؛ أي التي صدَّر بها الترجمة وهي قول الله عز وجل ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي ﴾ ، وقد مر بيانٌ لشيء من معناها .

الثانية : ما معنى ﴿ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي ﴾ .

ما معنى ﴿ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي ﴾ وهو المقصود بهذه الترجمة ، وقد نقل رحمه الله تعالى نقولات عن بعض السلف في بيان معناها .

الثالثة : ما معنى قوله ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ [القصص:٧٨] .

ما معنى قوله أي ما ذكره الله عن قارون عندما ذُكِّر بنعمة الله عليه وحثه العقلاء من قومه على الإحسان كما أحسن الله إليه ﴿وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص:٧٧] فجحد النعمة جحد إحسان الله وفضله وقال ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ ؛ ومعنى ﴿أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ مر عند المصنف رحمه الله بعض النقولات عن السلف في بيان معناها .

الرابعة : ما في هذه القصة العجيبة من العبَر العظيمة .

ما في هذه القصة العجيبة أي قصة هؤلاء النفر الثلاثة من العبر العظيمة ، والعبر: هي العظات ، وهذه القصة لاشك أن فيها عبر وعظات ويستفاد من ذلك أن مثل هذه القصص لا تُقرأ لمجرد الاطلاع عليها والعلم بها ، وإنما يطَّلع الإنسان ليأخذ منها العبرة والعظة وكما يقال: السعيد من اتعظ بغيره ، والشقي من اتعظ به غيره .

والله تعالى أعلم وصلى الله وسلم على عبده رسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .



شرح كتاب التوحيد

لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

من الدرس ٤٥ إلى الدرس ٤٨

شرح الشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظهما الله تعالى

١٤٤٠/٠٥/١٥ هـ

الدرس الخامسوالأربعون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد:

يقول شيخ الإسلام محمد ابن عبد الوهاب التميمي رحمه الله تعالى في «كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد» :

بابٌ قول الله تعالى﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا ﴾ [الأعراف:١٨٩] الآية

قال ابن حزم: «اتفقوا على تحريم كل اسمٍ معبَّدٍ لغير الله، كعبد عمرو، وعبد الكعبة، وما أشبه ذلك، حاشا عبد المطلب» . وعن ابن عباس رضي الله عنهما في الآية قال: «لما تغشاها آدم حملت، فأتاهما إبليس فقال: إني صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة لتطيعاني أو لأجعلن له قرني أيل فيخرج من بطنك فيشقه، ولأفعلن ولأفعلن، يخوفهما، سمياه عبد الحارث، فأبيا أن يطيعاه، فخرج ميتا، ثم حملت، فأتاهما، فقال مثل قوله، فأبيا أن يطيعاه، فخرج ميتا، ثم حملت فأتاهما فذكر لهما، فأدركهما حب الولد، فسمياه عبد الحارث، فذلك قوله: جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا» رواه ابن أبي حاتم. وله بسند صحيح عن قتادة قال: «شركاء في طاعته، ولم يكن في عبادته». وله بسند صحيح عن مجاهد في قوله: ﴿لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحا﴾ قال: «أشفقا أن لا يكون إنسانا». وذكر معناه عن الحسن وسعيد وغيرهما.

****

هذه الترجمة ((**بابٌ قول الله تعالى﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا ﴾**)) هي نظير الترجمة التي قبلها من حيث وجوب شكر الله سبحانه وتعالى على نعمائه والاعتراف بأن الفضل فضله والمنَّ منُّه سبحانه وتعالى والعطاء عطاؤه.

وفي الترجمة السابقة فيها قول الله سبحانه وتعالى ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي ﴾[فصلت:٥٠] ؛ وهذا فيه جحد إنعام المنعِم وعدم نسبة النعمة إليه سبحانه وتعالى وأن يقول القائل عند حلول أو حصول النعمة "هذا ورثته كابرًا عن كابر" ، أو يقول "أنا حقيق به ، أو أنا جدير بذلك" أو نحو ذلك مما يدل على عدم اعتراف هذا بنعمة الله سبحانه وتعالى . وفي هذه الترجمة بيَّن رحمه الله تعالى أن من شكر الله سبحانه وتعالى ومن توحيده عز وجل فيما يتعلق بنعمة الولد خاصةً أن لا يُعبَّد لغير الله ، أن لا يعبَّد إلا

للمتفضل بالولد والمنعِم به سبحانه وتعالى ؛ فمن عبَّد ولده لغير الله سبحانه وتعالى وقع في الشرك ، وقع في أمرٍ فيه منافاة لما يجب أن يكون عليه العبد المنعَم عليه من توحيدٍ وإخلاصٍ لله سبحانه وتعالى .

فالولد نعمة وهبة ومنَّة ربانية كما قال الله سبحانه وتعالى ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا﴾ [الشورى:٤٩-٥٠] أي منهم من يمن عليه بالبنات دون البنين ، ومنهم من يمنّ عليه بالبنين دون البنات ، ومنهم من يكرمه بالبنين والبنات ، ومنهم من يكون عقيمًا لا يعطى من هذا ولا من هذا . فالولد هبة ربانية ومنة من الله سبحانه وتعالى ، فإذا أراد الأب أن يسمي ولده باسمٍ فيه تعبيد فلا يكون التعبيد إلا لله ، لا يكون التعبيد إلا للمنعِم سبحانه وتعالى ، فهذا الولد عبدٌ لله سبحانه وتعالى ؛ أي عبد لربوبية الله فهو معبَّد مذلل طوع تدبير الله سبحانه وتعالى وتسخيره ، ويرجى إن شاء الله أن يكون عبدًا لألوهية الله بحيث يخلص دينه لله سبحانه وتعالى ويفرِد ربه سبحانه وتعالى بالعبادة . فإذا عُبِّد الابن لغير الله سبحانه وتعالى كأن يقال "عبد النبي أو عبد الحسن أو عبد علي أو عبد عمر أو عبد الكعبة أو عبد البيت" أو غير ذلك هذا كله من الشرك بالله جل وعلا ، لأن تعبيد الأبناء لا يكون إلا للمنعِم بالأبناء والمتفضل سبحانه وتعالى ، فلا يعبَّد إلا لله عز وجل ؛ فمن عبَّد ابنه لغير الله عز وجل وقع في الشرك فيما هو منافٍ لتوحيد الله سبحانه وتعالى ، وأيضًا في هذا تعلقٌ بكفران النعم ، لأن المنعم بهذا الولد هو الله سبحانه وتعالى وحده .

وجعل رحمه الله تعالى الترجمة هذه الآية الكريمة ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ ويتضح المعنى بقراءة الآية قبلها قول الله عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٨٩) فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٩٠) أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الأعراف:١٨٩-١٩١] ؛ فالسياق كله في توحيد الله سبحانه وتعالى والتحذير من الإشراك به ، ومن المعلوم أن من طريقة القرآن في تقرير التوحيد الاستدلال عليه بربوبية الله وتفرده بالخلق والرزق والإنعام والمن والعطاء جل في علاه ، ومن ذلكم تفرده سبحانه وتعالى بخلق آدم وحواء وما تناسل منهما من ذرية ، ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ أي أيها النساء والرجال عبر الأجيال .

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ الذي هو آدم عليه صلوات الله وسلامه ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا﴾ أي النفس الواحدة الذي هو آدم ﴿زَوْجَهَا﴾ التي هي حواء . وبيَّن جل وعلا أنَّ خلْق حواء من آدم لغاية وحكمة بيَّنها في قوله ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ أي تطمئن نفسه إليها وترتاح لأنها منه .

قال: ﴿ فَلَمَّا تَغَشَّاهَا ﴾ أي جامعها وعاشرها ، ومن نعمة الله سبحانه وتعالى أن هذا التناسل في الذرية وبين الذرية جعله سبحانه وتعالى بهذه الشهوة وبهذه المعاشرة بين الزوجين .

﴿ فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ ﴾ ومن المعلوم أن حمل المرأة أول ما يكون يكونُ خفيفًا ، حتى إن المرأة لتحمِل ولا تدري أنها قد حملت ، وأول ما يكون الحمل نطفة ثم يكون علقة ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يكبر ويعظم في بطن المرأة ورحمها .

﴿ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ ﴾ أي ثقل بطنها بالحمل بأن كبر ، فلما أثقلت حينئذ أدركهما حب الولد وخروجه سليمًا ومعافى وصحيحًا ﴿ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ وهذا فيه أن الواجب على العبد أن يعترف بنعمة الله عليه ومنِّه ومن ذلك نعمة الحمل ونعمة الولد وخروجه أيضا سليما صحيحًا معافى ؛ هذه كلها نعم تستوجب شكر المنعِم والمتفضل سبحانه وتعالى .

قال: ﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا ﴾ ؛ جعلا له شركاء فيما آتاهما: بأن عبَّداه لغير المنعِم ، وهذا يقع كثيرًا في الذرية بأن يعبَّد الولد لغير الله سبحانه وتعالى ، وفي الجاهلية تكثر الأسماء المعبَّدة لغير الله عز وجل .

وأجمع أهل العلم كما سيأتي أنه لا يجوز أن يعبَّد لغير الله ، لأن الله سبحانه وتعالى وحده هو المنعم والمتفضل فلا يكون التعبيد إلا له جل في علاه . ويكون أيضًا هذا الشرك في غير التعبيد ؛ بأن تضاف هذه النعمة لغير الله عز وجل ، أو أن يكون الشكر على هذه النعمة لغير الله سبحانه وتعالى ، إلى غير ذلك من الصور التي قد تقع وتكون في الذرية عند حصول هذه النعمة ووجود هذه المنة .

قال: ﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

- قوله ﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا ﴾ قيل إن الضمير هنا يعود على آدم وحواء ، وأن هذا الأمر وقع منهما كما سيأتي في الرواية التي ساقها المصنف عن ابن عباس رضي الله عنهما ، ويروى أيضا في ذلك حديث يُرفع إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو حديث معلول لا يثبت عنه صلوات الله وسلامه عليه كما فصَّل ذلك الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى عند تفسير هذه الآية . فقيل إن الضمير يعود على آدم وحواء استنادًا إلى أن أول السياق كان في آدم وحواء واستنادًا إلى الرواية التي وردت في ذلك .
- وقيل وهو الأظهر والله تعالى أعلم أن قوله ﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا ﴾ هذا انتقال من النوع إلى الجنس ؛ فكان الحديث في الآية التي قبلها عن آدم وحواء ثم جاء الاستطراد في السياق منتقلًا إلى الجنس ، فقوله ﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا ﴾ أي هذا ما يقع ويوجد في كثير من الذرية ﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا ﴾ . قال ابن القيم رحمة الله عليه في كتابه التبيان : «فاستطرد من ذكر الأبوين إلى ذكر المشركين من أولادهما»

أي أن السياق فيه استطراد بحيث انتقل من الحديث عن النوع إلى الحديث عن الجنس الذين هم الذرية ؛ مَن وقعوا في الشرك من الذرية . ويقول رحمة الله عليه في كتابه روضة المحبين : «فالنفس الواحدة وزوجها آدم وحواء ، واللذان جعلا له شركاء فيما آتاهما المشركون من أولادهما . ولا يلتفت إلى غير ذلك مما قيل إن آدم وحواء كان لا يعيش لهما ولد فأتاهما إبليس فقال إن أحببتما أن يعيش لكما ولد فسمياه عبد الحارث ففعلا –قال رحمه الله– فإن الله سبحانه اجتباه أي آدم وهداه فلم يكن ليشرك به بعد ذلك» ، ونحو هذا التقرير الذي ذكر رحمه الله يوجد عند غيره من علماء التفسير منهم الحافظ ابن كثير ، ومنهم أيضا الشنقيطي رحمه الله ، وابن سعدي رحمه الله ، وغيرهما من أهل العلم ؛ وهو الأظهر والله تعالى أعلم أن السياق في قوله ﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا ﴾ فيه الاستطراد من ذكر الأبوين إلى ذكر المشركين من الذرية فهو انتقال من النوع إلى الجنس .

﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٩٠) أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) ﴾ وهذا مما يوضح أن السياق فيه انتقال من النوع إلى الجنس ، وفيه استطراد من ذِكر الأبوين إلى ذكر الذرية ؛قال ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٩٠) أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ هذا كله حديثٌ عمن وقع في الشرك من الذرية .

مراد المصنف رحمه الله تعالى بالترجمة بهذه الآية الكريمة : بيان أن تعبيد الولد لغير الله سبحانه وتعالى كأن يعبَّد كما في الجاهلية للعزى ومناة وغير ذلك ، أو يعبَّد عند بعض الجهال والضلَّال لبعض المعظمين؛ كأن يعبَّد للنبي أو الحسين أو علي أو غير ذلك أو بيت الله سبحانه وتعالى ، فهذا كله من الشرك المنافي للتوحيد كما تدل لذلك الآية الكريمة التي ساقها رحمه الله وأتبعها بحكاية الإجماع على تحريم كل اسم معبَّد لغير الله سبحانه وتعالى .

قال رحمه الله : **قال ابن حزم:** «**اتفقوا** –أي أهل العلم– **على تحريم كل اسم معبَّدٍ لغير الله ، كعبد عمر، وعبد الكعبة، وما أشبه ذلك**» أي عبد النبي وعبد علي وعبد الحسين وعبد البيت وغير ذلك من الأسماء التي عبِّدت لغير الله ؛ فهذا كله محرم لما فيه من المنافاة للتوحيد ووجوب أن لا يكون التعبيد إلا لله سبحانه وتعالى الذي هو المتفضل والمتفرد بالإنعام جل في علاه .

قال ابن حزم : «**حاشا عبد المطلب**» أي يستثنى من ذلك عبد المطلب ، ومراده بـ«حاشا عبد المطلب» أن هذا الاسم لم يقع عليه إجماع وإنما وقع فيه خلاف ؛ فمن أهل العلم من أجاز هذا التعبيد ومنهم من منعه ، فقوله «حاشا عبد المطلب» أي أنه لم يكن داخلًا فيما أجمع عليه لأن فيه خلاف في ذلك، فمن أهل العلم من أجازه ومنهم من منعه . والصحيح المنع وأنه لا يجوز لعموم الأدلة الدالة على ذلك وأنه لا فرق بين أن يعبَّد للمطلب أو يعبَّد للأسماء الأخرى ، بل ربما بعض الأسماء أولى إن جاز ذلك أو ساغ ذلك ، لكن الصحيح أنه لا يجوز أن

يعبَّد لغير الله سبحانه وتعالى بما في ذلك عبد المطلب ، أما قول النبي عليه الصلاة والسلام ((أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب)) فهذا كما قال أهل العلم يجوز في الإخبار ما لا يجوز في الإنشاء ، فالأسماء التي كانت في الجاهلية عندما يُخبَر عن أهلها يخبَر عنهم بأسمائهم كما هي ، ولو لم يخبَر عنهم بأسمائهم كما هي لم يعرفوا ، لأن الشخص إنما يُعرف باسمه ، فيجوز في الإخبار ما لا يجوز في الإنشاء ؛ فهو يذكر ذلك إخبارًا أن هذا هو اسمه الذي عُرف به ، فيجوز في الإخبار ما لا يجوز في الإنشاء ، فالصحيح أنه لا يجوز أن يعبَّد لغير الله لا بهذا الاسم ولا أيضًا بغيره من الأسماء المعبدة لغير الله أيًّا كانت .

ثم أورد رحمه الله تعالى هذه الرواية عن ابن عباس رضي الله عنهما في معنى الآية **قال**: «**لما تغشاها آدم**» أي تغشى حواء؛ عاشرها وجامعها «**حملت**» أي وقع الحمل ، ومن نعمة الله سبحانه وتعالى أن جعل التناسل بذلك.

«**فأتاهما إبليس فقال: إني صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة؛ لتطيعاني أو لأجعلن له قرني أيِّل**» والأيِّل هو الوعل ، نوع من الوحوش .

«**قرني أيّل فيخرج من بطنك فيشقه**» أي أخذ يخوّفهما بأنه يحصل له كذا ويحصل له كذا ويحصل له كذا .

«**فيخرج من بطنك فيشقه ، ولأفعلن ولأفعلن**» يعني يخوفهم بأشياء كثيرة جدا ؛ وهذه من طريقة الشيطان في إضلال الإنسان ومن مسالكه يدخل عليه من مداخل تخويف ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٧٥] .

قال «**يخوفهما سمياه عبد الحارث**» أي إن سميتماه عبد الحارث سلِم ولم يصِبه شيء من ذلك .

«**فأبيا أن يطيعاه، فخرج ميتا**» أي قدَّر الله سبحانه وتعالى أن يخرج هذا المولود ميتا .

«**فخرج ميتا ، ثم حملت، فأتاهما، فقال مثل قوله، فأبيا أن يطيعاه، فخرج ميتا ، ثم حملت فأتاهما فذكر لهما، فأدركهما حب الولد، فسمياه عبد الحارث، فذلك قوله: {جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا} رواه ابن أبي حاتم**» أي في تفسيره .

قال: ((**وله بسند صحيح عن قتادة قال**: «**شركاء في طاعته، ولم يكن في عبادته**»)) أي أن هذا الشرك – وقدَّمت أن هذا قول لأهل العلم أن المراد بقوله ﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا ﴾ أن المراد بذلك آدم وحواء– فيقول قتادة رحمه الله «**شركاء في طاعته، ولم يكن في عبادته**» أي لم يقصدا حقيقة التعبيد لغير الله سبحانه وتعالى ، وإنما حصل هذا الشرك في الطاعة أي طاعته فيما دعاهما إليه ، ولهذا سيأتي معنا قول المصنف أن هذا الشرك في مجرد التسمية لم تُقصد حقيقتها ، لم يكن حقيقة التعبيد مقصودًا ومرادًا بتسميته عبد الحارث ،

وإنما أطاعاه في الاسم فقط فسمياه عبد الحارث ؛ فهذا شركٌ في الطاعة وليس شركًا في العبادة . قال قتادة «**شركاء في طاعته، ولم يكن في عبادته**».

قال : ((**وله بسند صحيح عن مجاهد في قوله: ﴿لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا﴾ قال**: «**أشفقا أن لا يكون إنسانا**»))
ومر معنا أن مما خوفهما به الشيطان قال : لأجعلن له قرني أيِّل ؛ أي وعل .
((**وذكر معناه عن الحسن**)) أي البصري ((**وسعيد**)) أي ابن جبير ((**وغيرهما**)) أي من علماء التابعين .

فيه مسائل:

الأولى: تحريم كل اسمٍ معبَّد لغير الله.

أي لا يستثنى من ذلك أي اسم لا عبد المطلب ولا غيره ، فجميع الأسماء المعبدة لغير الله محرمة ولا تجوز ، ولا يكون التعبيد إلا للمنعِم سبحانه وتعالى .

الثانية: تفسير الآية.

تفسير الآية : أي التي صدَّر به الترجمة وهي قول الله عز وجل ﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا ﴾ .

الثالثة: أن هذا الشرك في مجرد تسميةٍ لم تقصد حقيقتها.

أن هذا الشرك في مجرد التسمية: في قوله ﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا ﴾ ؛ فهذا الشرك في مجرد التسمية ؛ سمّياه عبد الحارث فأطاعاه في مجرد التسمية لا في حقيقة التعبيد لغير الله سبحانه وتعالى ؛ أن هذا الشرك في مجرد تسميةٍ لم تقصد حقيقتها.

الرابعة: أن هبة الله للرجل البنت السوية من النِّعم.

أن هبة الله للرجل البنت السوية من النِّعم خلافًا لما يعتقده أهل الجاهلية ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ﴾ [النحل:٥٨-٥٩] ، فلا يعتبرون البنت نعمة بل يعتبرونها نقمة ، ويتوارى الواحد منهم من الناس من سوء ما بُشِّر به ، لأن هذه عندهم بشارة سيئة وليست مفرحة . فالبنت تُعد من النعم عندما يولد للإنسان البنت السوية

أي كاملة الخلقة ليس فيها نقص فهذه من النعم ، والله سبحانه وتعالى قال في الآية التي تقدم ذكرها في سورة الشورى: ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) ﴾ ؛ فالبنت هبة ومنَّة إلهية ينعِم بها سبحانه وتعالى على من شاء من عباده .

الخامسة: ذكر السلف الفرق بين الشرك في الطاعة والشرك في العبادة.

ذكر السلف الفرق بين الشرك في الطاعة والشرك في العبادة؛ كما نقل ذلك عن قتادة رحمه الله قال : «**شركاء في طاعته، ولم يكن في عبادته**». أي أطاعاه في مجرد التسمية ولم يطيعاه في حقيقة التعبيد لغير الله سبحانه وتعالى.

قال المصنف رحمه الله تعالى :

باب قول الله تعالى ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ﴾ [الأعراف:١٨٠] **الآية**

ذكر ابن أبي حاتم رضي الله عنهما عن ابن عباس: ﴿يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ : **يشركون. وعنه:** «**سموا اللات من الإله، والعزى من العزيز**». **وعن الأعمش:** «**يدخلون فيها ما ليس منها**».

****

قال رحمه الله تعالى : ((**بابٌ قول الله تعالى ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾**)) ؛ هذه الترجمة عقدها الإمام شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى لبيان وجوب تعظيم أسماء الله تبارك وتعالى ، وأن الله عز وجل له الأسماء الحسنى كما قال جل وعلا ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ . وقوله ﴿لِلَّهِ﴾ أي أنها مختصة بالله عز وجل ، فهي له مختصٌ بها جل وعلا لا شريك له في أسمائه عز وجل ، ولهذا سيأتي أن من الإلحاد في الأسماء الشرك ؛ يشركون . فالله عز وجل له الأسماء الحسنى ومن تعظيمه تعظيم أسمائه الحسنى وما دلت عليه من صفات الكمال ونعوت الجلال .

كذلكم مما قُصد بهذه الترجمة: أهمية فقه أسماء الله ومعرفة معانيها وإمرارها كما جاءت والإيمان بها كما وردت وإثبات ما دلت عليه من الصفات العليا لله جل وعلا ، لأن كل اسمٍ من أسماء الله تبارك وتعالى دالٌّ على صفة كمال لله عز وجل ، فهي أعلام وأوصاف ؛ أعلامٌ من حيث دلالتها على الذات ، وأوصاف من حيث دلالتها على المعاني ، ليست أعلامًا محضة ، فمن الإيمان بها إثبات ما دلت عليه من صفات الكمال ونعوت الجلال لله سبحانه وتعالى .

كذلكم من مقاصد هذه الترجمة: أهمية دعاء الله عز وجل بأسمائه ؛ وهذا يتناول دعاء العبادة ودعاء المسألة ، لقوله جل وعلا ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ ؛ ادعوه بها دعاء عبادة تسبيحًا وتحميدًا وتهليلًا وذكرًا لله سبحانه وتعالى ، ودعاء مسألة بسؤاله سبحانه وتعالى بأسمائه ، وفي كل مطلوبٍ يُذكر من أسماء الله تبارك وتعالى ما يتناسب مع ذلك المطلوب؛ ﴿وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [المائدة:١١٤]، ﴿افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف:٨٩] ، اغفر لنا إنك أنت الغفور الرحيم ، وهكذا ؛ فيدعى سبحانه وتعالى بأسمائه دعاء عبادة تسبيحًا وتحميدًا وتهليلًا وذكرًا لله سبحانه وتعالى جل في علاه ، ويدعى دعاء مسألة بأن يُسأل تبارك وتعالى بأسمائه متوسّلا إليه سبحانه وتعالى بها .

كذلك من مقاصد هذه الترجمة: التحذير من الإلحاد في أسماء الله ، قد قال الله عز وجل في هذه الآية الكريمة ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ ، والإلحاد في أسماء الله جل وعلا هو الميل والعدول بها عن الحق الثابت لها ، والملحد: هو المائل عن الحق والعادل عن طريق الهدى والصواب ، فالإلحاد في أسماء الله تبارك وتعالى هو الميل والعدول بها عن الحق الثابت لها ، ولهذا فإن الإلحاد في أسماء الله ليس نوعًا واحدًا بل أنواع ، كل ميلٍ بأسماء الله عن الحق الثابت لها يُعد إلحادًا ؛ فمن جحدها أو جحد ما دلت عليه من الصفات فإنه ملحد في أسماء الله ، ومن سمى غير الله بأسماء الله المختصة به سبحانه وتعالى كما وقع في ذلك المشركون ، سموا اللات من «الإله» ، وعزى من «العزيز» ، ومناة من «المنان» ، هذا إلحاد في أسماء الله ، من الإلحاد فيها التكذيب ، من الإلحاد فيها الإشراك ، فالإلحاد أنواع وليس نوعا واحدا ، ومن يلحدون في أسماء الله تبارك وتعالى لهم في هذا الإلحاد مسالك وطرائق ولهذا قال ابن القيم رحمه الله : «فجمعهم الإلحاد وتفرقت بهم طرقه» أي كلٌ له طريقة ، كلٌ له مسلك ؛ منهم من إلحاده تعطيل ، ومنهم من إلحاده تشبيه ، ومنهم من إلحاده تكذيب ، ومنهم من إلحاده شرك ، فكلٌ له مسلك في الإلحاد وسيأتي مزيد توضيح لذلك في الآثار التي نقلها المصنف رحمه الله تعالى عن أئمة السلف رحمهم الله في بيان معنى الإلحاد .

قال رحمه الله : ((**باب قول الله تعالى ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾**)) خُتمت الآية بالتحذير من الإلحاد في أسماء الله تبارك وتعالى بالميل والعدول بها عن الحق الثابت لها . والحق الثابت لها أن يؤمَن بها ، وأن تُثبَت كما وردت ، وأن يؤمَن بما دلت عليه من الصفات العظيمة والنعوت الجليلة لله تبارك وتعالى ؛ هذا هو الحق الثابت لها فمن عدل عن ذلك إلى أي مسلك آخر فإنه يكون ملحدًا .

وفي الآية تهديدٌ ووعيدٌ للملحدين في قوله أولًا ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ ؛ هذا فيه تحذير من الإلحاد بنهي الله سبحانه وتعالى عن هذا المسلك ، وأن الواجب على المسلم أن يذر هذا الطريق وأن يبتعد عن أهله وأن يحذر منه أشد الحذر ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ ، وفيما أيضا خُتم به السياق في قوله﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي سيعاقبهم الله عز وجل على ما وقعوا فيه من إلحاد في أسماء الله عز وجل . والخطأ في أسماء الله تبارك وتعالى وصفاته جل وعلا ليس كالخطأ في أي اسم آخر .

نقل رحمه الله تعالى نقولات عن أئمة السلف في معنى قوله﴿يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ قال :

((**ذكر ابن أبي حاتم رضي الله عنهما**–أي في تفسيره–**عن ابن عباس:** ﴿يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ **يشركون**))

وقوله «﴿يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ يشركون» هذا نقله عن قتادة رحمه الله تعالى ، والذي جاء عن ابن عباس أنه قال : «الإلحاد: التكذيب» .

وأيضا نقل عن ابن عباس أنه قال : «**سمَّوا اللات من الإله، والعزى من العزيز**». قال : **وعن الأعمش:** «**يدخلون فيها ما ليس منها**».

هذه الأقوال لأئمة السلف رحمهم الله في معنى ﴿يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ ليست متعارضة ؛ لأن الإلحاد كما تقدم ليس نوعًا واحدًا ؛ فكلٌ منهم فسَّر الإلحاد بذكر نوعٍ من أنواعه ، فهذه التفسيرات كلها صحيحة لأن كل ما ذُكر هو من الإلحاد في أسماء الله ، فهي ليست متعارضة وإنما كل منهم فسَّر الإلحاد بنوع من أنواعه ، فمن الإلحاد في أسماء الله تبارك وتعالى الشرك «**﴿يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ : يشركون**» أي يتخذون الشركاء مع الله سبحانه وتعالى ؛هذا من الإلحاد في أسماء الله عز وجل ، لأن من فقه الأسماء الحسنى ودلالاتها العظيمة إخلاص الدين لله عز وجل وإفراده وحده بالعبادة ، ولهذا مما يُبطَل به الشرك ذكر أسماء الله الدالة على الوحدانية والتفرد ﴿أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف:٣٩] .

وجاء عن ابن عباس أنه قال : «الإلحاد –أي في أسماء الله– التكذيب» ولاشك أن من كذب بشيء من أسماء الله الثابتة في كتابه أو سنة نبيه صلى الله عليه وسلم فهو ملحد ، لأن من الإلحاد في أسماء الله التكذيب بها أو بشيء منها ، ويدخل في التكذيب تعطيل ما دلت عليه من الصفات ، فالتعطيل تكذيب وجحدٌ لأسماء الله أو جحد لما دلت عليه من صفات الكمال ونعوت الجلال .

قال: ((**وعنه**)) أي ابن عباس ((**سموا** –أي المشركون– **اللات من الإله، والعزى من العزيز**)) وهذا من الإلحاد ، لأن من الإلحاد في أسماء الله تبارك وتعالى التشبيه ؛ تشبيه غير الله بالله ، بأن يسمى غير الله بأسماء الله سبحانه

وتعالى الخاصة به جل في علاه . قال ((**سموا اللات من الإله، والعزى من العزيز ومناة من المنان**)) فهذا من الإلحاد في أسماء الله أن يشتق للأصنام أسماء من أسماء الله تبارك وتعالى .

قال : ((**وعن الأعمش: «يدخلون فيها ما ليس منها»**)) أيضا هذا من الإلحاد في أسماء الله أن يُدخَل في أسماء الله وان يسمى الله بما لم يسمِّ به نفسه في كتابه أو في سنة رسوله الكريم صلوات الله وسلامه عليه ؛ فهذا أيضا من الإلحاد . مثَّل ابن القيم رحمه الله لذلك قال : «مثل تسمية النصارى له أبًا، وتسمية أيضا الفلاسفة له العلة الفاعلة» أو نحو ذلك من الأسماء فهذا كله من الإلحاد فيها أن يدخل فيها ما ليس منها . فإذًا الإلحاد ليس نوعا واحدًا وإنما هو أنواع متعددة كما هو واضح من تفسيرات أئمة السلف رحمهم الله تعالى لقوله ﴿يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ .

قال رحمه الله تعالى :

فيه مسائل؛ الأولى: إثبات الأسماء.

أي أسماء الله تبارك وتعالى وأنَّ إثبات أسمائه هو من الإيمان به ؛ فمن الإيمان به سبحانه وتعالى إثبات أسمائه الثابتة في كتابه والثابتة في سنة رسوله الكريم صلوات الله وسلامه عليه ، وإثباتها: بأن يؤمَن بها وتُثبت كما جاءت، وأيضا يُثبَت ما دلت عليه من الصفات العلا لله جل وعلا .

الثانية: كونها حسنى.

أي كما وصفها الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ ، في القرآن أربع آيات هذه واحدة منها وصف الله سبحانه وتعالى فيها أسماءه بهذا الوصف «الحسنى» ، والحسنى: أي البالغة في الحسن تمامه وكماله وذلك بكونها دالة على صفات ، والصفات صفات كمال ، فلو لم تكن دالةً على صفات وكانت أعلاما محضة مجردة لا تدل على صفات لم تكن حسنى ، ولو كانت دالة على صفات لكنها ليست صفات كمال أيضا لا تكون حسنى ؛ فهي حسنى لأنها دالة على صفات كمال ، ولهذا كل اسم من أسماء الله سبحانه وتعالى دال على ثبوت صفة كمال لله سبحانه وتعالى .

الثالثة: الأمر بدعائه بها.

الأمر بدعائه بها: أي في قوله سبحانه وتعالى ﴿ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ ، وهذا كما بيَّن أهل العلم يتناول دعاءه بها دعاء العبادة ذكرًا وتهليلًا وتسبيحًا وحمدًا وثناءً على الله سبحانه وتعالى ، ودعاء المسألة بأن يُسأل متوسلًا إليه سبحانه

وتعالى بذكر أسمائه ، ومن أعظم الوسائل التي يتوسل إلى الله سبحانه وتعالى بها : التوسل إليه بأسمائه كما قال الله جل وعلا في هذه الآية: ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ ، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ [الإسراء:١١٠] .

الرابعة: ترك من عارض من الجاهلين الملحدين.

وذلك كما قال الله عز وجل ﴿ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ﴾ وهذا أمر من الله سبحانه وتعالى بأن يبتعد المسلم عن أهل المسالك الباطلة والطرائق الضالة ، ويتناول ذلك تركهم أي أشخاصًا بالبعد عنهم والحذر من مجالستهم وسماع أقوالهم ، ويتناول أيضًا ترك والبعد عما ألَّفوه من كتب وكتبوه من مؤلفات بثوا فيها إلحادهم وضلالهم وباطلهم ، فالله سبحانه وتعالى حذَّر عباده من هؤلاء وأمرهم بالبعد عنهم وتركهم قال: ﴿ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ﴾ وهذا فيه وجوب البعد عن أهل الضلال وأهل الباطل ؛ أهل الإلحاد في أسماء الله سبحانه وتعالى وصفاته أيًّا كان نوع إلحادهم ، عرفنا أن الإلحاد ليس نوعًا واحدًا وإنما هو أنواع ، فأيًا كان نوع الإلحاد الشخص في أسماء الله فالواجب البعد عنه والحذر منه .

الخامسة: تفسير الإلحاد فيها.

وقد نقل رحمه الله تعالى في تفسير الإلحاد فيها نقولات عن أئمة السلف ؛ عن ابن عباس وعن الأعمش ، فنقل نقولات عديدة عن أئمة السلف في معنى الإلحاد ، وعرفنا أنه يتلخص مما نقل عنهم رحمهم الله أن الإلحاد ليس نوعًا واحدًا وإنما هو أنواع .

السادسة: وعيد من ألحد.

وعيد من ألحد أي في قوله جل في علاه ﴿ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ؛ وهذا فيه وعيد لمن ألحد. ﴿ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي سيجازيهم ويعاقبهم الله سبحانه وتعالى على هذا العمل الباطل الذي هو إلحادهم في أسماء الله سبحانه وتعالى.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك .

اللهم صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

الدرس السادس والأربعون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد:

يقول الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد ابن عبد الوهاب التميمي رحمه الله تعالى في «كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد» :

بابٌ لا يقال السلام على الله

في الصحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «كنا إذا كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في الصلاة قلنا: السلام على الله من عباده، السلام على فلان وفلان» فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((لا تقولوا السلام على الله، فإن الله هو السلام)).

****

قال المصنف الإمام شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتابه التوحيد : ((**بابٌ لا يقال السلام على الله**)) ؛ وهذه الترجمة عقدها رحمه الله تعالى للنهي عن ذلك ، وذلك لأن السلام عندما يقال "السلام عليكم" أو "السلام على فلان" هو طلبٌ للسلامة ، والله سبحانه وتعالى هو السلام المنزَّه عن النقص والعيب جل في علاه ، المدعو وليس المدعو له ، والمطلوب المتجَه إليه في السؤال وليس المطلوب له ، بل هو الذي يُلتجأ إليه ويُطلب منه سبحانه وتعالى ، فمن الخطأ أن يقال "السلام على الله" لأن الله هو السلام ، وما يكون من سلامٍ للناس فهو منه تبارك وتعالى ، ولهذا جاء في الصحيح أن النبي عليه الصلاة والسلام يقول دبر كل صلاة : «اللهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وَمِنْكَ السَّلَامُ، تَبَارَكْتَ ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ» ؛ أنت السلام : أي السلام اسمك ووصفك ، وهو من أسماء التنزيه كالسبوح والقدوس .

ومعنى السلام : أي المنزَّه السالم ، المنزه عن النقائص والعيوب ، المنزه عن مماثلة المخلوقات ، فالله عز وجل هو السلام السالم من النقائص والعيوب جل وعلا .

ومنه السلام : أي كل سلام يحصل فهو من الله وهو المتفضل به جل في علاه سبحانه وتعالى ؛ فلا يجوز أن يقول القائل "السلام على الله" لأن السلام اسم من أسماء الله ، ولهذا جاء في الحديث الذي ساقه المصنف رحمه الله ((فإن الله هو السلام)) ، ولأن السلام هو طلب السلامة ، «السلام عليكم» فيه طلبٌ للسلامة لمن يلقى عليه ، والله عز وجل هو السلام الذي يُطلب منه ، لا يُطلب له وإنما يطلب منه سبحانه وتعالى وهو الغني الحميد ، وفي

الحديث القدسي : ((إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي ، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي)) . قال رحمه الله: ((باب لا يقال السلام على الله))

قال : ((**في الصحيح عن ابن مسعود عبد الله رضي الله عنه قال: كنا إذا كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم قلنا: السلام على الله من عباده، السلام على فلان وفلان**)) ، وجاء في بعض روايات الحديث ما يفيد أنهم كانوا يقولون ذلك في التشهد ، ولهذا لما نهاهم قال لهم عليه الصلاة والسلام : ((ولكن قولوا التحيات لله والصلوات والطيبات السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين)) .

فقال: ((**كنا نقول السلام على الله ونقول السلام على فلان وفلان**)) ؛ ففيما يتعلق بالأولى وهي قولهم السلام على الله قال صلوات الله وسلامه عليه : ((**لا تقولوا السلام على الله، فإن الله هو السلام**)) نهاهم عن ذلك ، وهذا بيانٌ أن هذه الصيغة غير جائزة وفيها من المخالفة ما نبَّه عليه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله ((فإن الله هو السلام)) ، هو السلام : أي المنزه سبحانه وتعالى عن النقائص والعيوب جل وعلا ، والسلام الذي كل سلامة إنما تكون منه وتُطلب منه ويلتجأ فيها إليه وحده سبحانه وتعالى ، ولهذا مر معنا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول «اللهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وَمِنْكَ السَّلَامُ» ، فهو السلام أي المنزه سبحانه وتعالى ، وكل سلامٍ يحصل للعباد فهو من الله سبحانه وتعالى ؛ فنهاهم عن قولهم السلام على الله وبيَّن أن هذا يتنافى مع المعرفة والإيمان بأن الله سبحانه وتعالى هو السلام أي المنزه ، وكل سلامٍ يُطلب منه لا يطلب له سبحانه وتعالى لأنه هو المنزه جل وعلا المدعو الملتجأ إليه المفتقَر إليه سبحانه وتعالى في كل الحاجات .

وأيضا قول الصحابة رضي الله عنهم في التشهد «**السلام على فلان السلام على فلان**» يعنون أو يسمون عددًا من الملائكة بأسمائهم ؛ السلام على جبريل ، السلام على ميكائيل ، السلام على إسرافيل ، يسمون عددا من الملائكة ويسمون أيضا عددًا من عباد الله ، وهذا أمرٌ يطول ولا يحصل به استيفاء ، لأنه منهما عدَّد الإنسان طال به العد والذكر للأشخاص ثم في نهاية الأمر يكون فاته الشيء الكثير ، فأرشدهم عليه الصلاة والسلام أن يقولوا : «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» ، وأخبر عليه الصلاة والسلام أنهم إن قالوا ذلك نالت كل عبدٍ صالح في السماء أو الأرض ؛ وهذا من كمال الأدعية النبوية المأثورة عن نبينا الكريم صلوات الله وسلامه عليه ، وأنها جمعت أعلى المطالب وأشرف المقاصد وفي الوقت نفسه سلِمت من الخطأ ، لأن الدعوات المأثورة عن النبي الكريم عليه الصلاة والسلام أدعية معصومة سالمة من الخطأ .

لكن هنا وقفة جديرة بالأهمية : مَن الذين كانوا يقولون السلام على الله ؟ ويقولون السلام على فلان وفلان وفلان؟ حتى وجَّههم النبي عليه الصلاة والسلام هذا التوجيه فيما يتعلق بالأمرين ؛ فيما يتعلق بالسلام على الله نهاهم عن ذلك وقال: ((لا تقولوا السلام على الله فإن الله هو السلام)) ، وفيما يتعلق السلام على فلان وعلى فلان وعلى فلان بيَّن لهم هذا اللفظ الجامع أن يقولوا: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» وأخبر أن هذه

الكلمة الجامعة تشمل وتتناول كل عبدٍ صالح في السماء والأرض ؟ الذين كانوا يقولون ذلك في تشهدهم الصحابة الكرام ؛ وهم من هم في الفضل والخيرية وسلامة اللغة وسلامة اللسان وحُسن الإيمان والطاعة لله سبحانه وتعالى ومع ذلك حصل هذا الخطأ الذي نبه النبي صلى الله عليه وسلم عليه ونهاهم عنه ، وسيأتي معنا في باب لاحق ((لا يقل أحدكم اللهم اغفر لي إن شئت ،اللهم ارحمني إن شئت)) فكان ينبِّه صلوات الله وسلامه عليه على مثل هذه الأشياء .

نستفيد من ذلك أن أدعية الناس عدا أدعية الرسل عليهم الصلاة والسلام ليست معصومة ، الخطأ وارد فيها ، ليس فيها عصمة من الخطأ ، ليس فيها أمَنَة من الزلل ، وأما الدعوات المأثورة عن نبينا الكريم صلوات الله وسلامه عليه فهي أدعية معصومة لا يتطرق إليها الخطأ إطلاقا وفي الوقت نفسه جمعت الخير كله ، اشتملت على غاية المطالب العلية والمقاصد الرفيعة وحوَت جوامع الكلم كما مر معنا في قوله ((ولكن قولوا السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين)) وهذا من جوامع كلم النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه .

وإن تعجب فعجبٌ حال كثير من الناس استعاضوا عن الأدعية الصحيحة المأثورة عن نبينا الكريم عليه الصلاة والسلام بأدعية كتبها بعض المتكلفين واخترعها بعض المتخرصين واشتملت على الباطل أو شيء كثير من الباطل، حتى إن بعضها فيها من الألفاظ الشركية والكلمات البدعية والألفاظ الضالة والكلمات التي فيها تجاوز وتعدي!! ومع ذلك ترى بأيدي كثير من الناس يقرأونها قراءة مستمرة كل يوم، ويتركون الدعوات العظيمة المأثورة عن النبي الكريم عليه الصلاة والسلام . وهذا أمر خطير جدًا ، كثير من الناس بأيديهم أحزاب أو أوراد أو أدعية وإذا فتشت فيها وإذا هي أدعية كتبها بعض المتكلفين وأنشأها بعض المتخرصين ، وعند النظر في كثير منها يجد المتأمل أن فيها أخطاء تصل في بعضها إلى الشرك والبدعة والضلال ، وهذه والله مصيبة ؛ ولهذا ينبغي أن يتنبه المسلم لهذا الأمر ويحذر أشد الحذر من مثل هذه الكتب ويتركها جانبًا ويُقبل على الدعوات المأثورة عن النبي الكريم عليه الصلاة والسلام فإنها دعوات معصومة سالمة من الخطأ والزلل ، وفي الوقت نفسه أتت على غاية المطالب وأجل وأعظم المقاصد .

قال رحمه الله تعالى :

فيه مسائل؛ الأولى: تفسير السلام.

تفسير السلام ؛ عندما يقال «السلام على فلان» أو «السلام عليكم» فالسلام : هو طلب السلامة من الشرور من الأضرار من الآفات من المصائب ، فالسلام: هو طلب السلامة ، والله عز وجل يُطلب منه ولا يُطلب له جل وعلا ، ولهذا نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن أن يقول القائل "السلام على الله" ، ثم إن «السلام» اسم من اسماء الله الحسنى كما في الحديث قال ((فإن الله هو السلام)) فالسلام اسم من أسمائه ، قد ورد هذا الاسم في

القرآن الكريم في أواخر سورة الحشر قال الله عز وجل ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ ﴾ [الحشر:٢٣] ، فهو اسم من أسماء الله عز وجل الحسنى ومعناه: أي المنزه عن النقائص والعيوب ، فهو من أسماء التقديس والتنزيه .

الثانية: أنه تحية.

أي السلام تحية ، عندما يقال "السلام على فلان ، السلام على فلان" هذه تحية ؛ تحية فيها الدعاء للمسلَّم عليه بالسلامة وأن ينيله الله ويمنّ عليه بالسلامة ، يطلبها له من الله سبحانه وتعالى .

الثالثة: أنها لا تصلح لله.

أنها لا تصلح لله ؛ لأنه تبارك وتعالى هو السلام ، ولأن قول القائل "السلام على الله" فيه طلب السلامة والله عز وجل لا يُطلب له وإنما يُطلب منه ، فهو السلام ومنه السلام .

الرابعة: العلة في ذلك.

العلة في ذلك وهي مبيَّنة في الحديث حيث قال عليه الصلاة والسلام : ((فإن الله هو السلام)) .

الخامسة: تعليمهم التحية التي تصلح لله.

لأنه لما نهاهم عن ذلك جاء في بعض الروايات أنه قال: ((ولكن قولوا التحيات لله والصلوات والطيبات)) فهذه التي تصلح لله ، ومعنى التحيات لله: أي التعظيمات ، كل ما يكون من ذل وخضوع وانكسار كل ذلك لا يكون إلا لله سبحانه وتعالى .

قال المؤلف رحمه الله تعالى :

باب قول: اللهم اغفر لي إن شئت

في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((لا يقل أحدكم اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، ليعزم المسألة فإن الله لا مكره له)) . ولمسلم: ((وليعظم الرغبة؛ فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه)) .

****

قال رحمه الله تعالى ((**بابٌ قول: اللهم اغفر لي إن شئت**)) ؛ هذه اللفظة في الدعاء «اللهم اغفر لي إن شئت» نظيرها : اللهم ارزقني إن شئت ، اللهم اهدني إن شئت ، اللهم ارحمني إن شئت ، ونحو ذلك جاء عن نبينا الكريم صلوات الله وسلامه عليه النهي عنها في الحديث الذي ساقه المصنف رحمه الله تعالى ، لماذا ؟ لأنها لفظةٌ ليس فيها عزم في المسألة والطلب والإلحاح على الله سبحانه وتعالى ، بل إنها تدل على فتور في الرغبة وارتخاء في العزيمة والطلب وعدم الاهتمام ، والواجب على العبد في طلبه من الله سبحانه وتعالى أن يُظهر الافتقار والاحتياج إلى الله سبحانه وتعالى ويلح على الله في مطلوبه جزمًا وعزمًا وإلحاحًا ، أما إذا قال "اللهم اغفر لي إن شئت ، اللهم ارحمني إن شئت ، اللهم ارزقني إن شئت" ونحو ذلك فهذا يدل على شيء من الفتور والارتخاء وعدم العزم في الطلب والإلحاح على الله سبحانه وتعالى ؛ فجاء عن نبينا الكريم صلوات الله وسلامه عليه النهي عن ذلك .

قال رحمه الله : ((**في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لا يقل أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، ليعزم المسألة**)) ؛ وهذا يفيد أن لفظة «اللهم اغفر لي إن شئت ، اللهم ارحمني إن شئت ، اللهم ارزقني إن شئت ، اللهم اهدني إن شئت» ليس فيها عزمًا في المسألة بل فيها ارتخاء وفتور في الطلب ؛ فنهى النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك وقال : ((**ليعزم المسألة**)) أي لتكن مسألته عزمًا بإلحاح وصدق إقبال على الله عز وجل وقوة رغبة وطمع فيما عند الله سبحانه وتعالى مهما عظم مطلوب العبد ، مهما عظم مطلوب العبد فعليه أن يعزم في المسألة لا يقول في دعائه "اللهم أدخلني الجنة إن شئت ، اللهم نجني من النار إن شئت ، اللهم أدخلني برحمتك إن شئت" ونحو ذلك هذا كله ينهى عنه ، والواجب أن يكون دعاء العبد وسؤاله لربه سبحانه وتعالى عزمًا ،قال : ((**ليعزم المسألة**)) .

((**فإن الله لا مكره له**)) وهذا يفيد أن النهي عن هذه اللفظة أولًا لأمرٍ يتعلق بالعبد؛ بحيث لا تكون دعواته وسؤاله لربه سبحانه وتعالى تأتي رخوةً بفتور وعدم عزم ليعزم المسألة ، لتكن ألفاظه فيها العزم وصدق الطلب والإلحاح ، أما لفظة «إن شئت» فإنها تدل على شيء من الفتور والارتخاء وعدم قوة الرغبة في الطلب والسؤال من الله سبحانه وتعالى .

الأمر الثاني يتعلق بالله سبحانه وتعالى؛ قال ((**فإن الله لا مكره له**)) ، وفي رواية لمسلم قال عليه الصلاة والسلام: ((فإن الله صانعٌ ما شاء لا مكره له)) أي لا يضطره سبحانه وتعالى في إعطائه العطاء ومنِّه بالمن وتفضله سبحانه وتعالى لا يضطره دعاء العبد او إلحاح العبد ، بخلاف المخلوق ، المخلوق قد يُسأل ويُطلب منه فيعطي من سأله عن كُره ، إما خوف أو لأسباب أخرى كثيرة فيعطيه وهو كاره ، يعطيه وهو ليس راغب في إعطائه .

وفي الطلب من المخلوق لكون هذه حال المخلوق يناسب أن يقال في الطلب منه "أعطني الشيء الفلاني إن شئت" يعني أنا لا ألح عليك ولا أشدد في الطلب منك لئلا تعطيني وأنت كاره ، فكلمة «إن شئت» تعطي هذا المعنى ، ولهذا تناسب للمخلوق لأن المخلوق قد يعطي وهو كاره ، يعطي كرهًا لأسباب كثيرة ، فيناسب لو قال

إنسان لمخلوق "أعطني الشيء الفلاني إن شئت" يعني أنا لا أكرهك لا أضطرك إلى هذا الشيء ، أما الله سبحانه وتعالى فهو صانع كل شيء ، وعطاؤه سبحانه وتعالى كلام مهما كان المطلوب ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢] ، عطاؤه سبحانه وتعالى كلام يقول للشيء كن فيكون جل في علاه سبحانه وتعالى ، فلا يصلح أن يقال في الطلب والسؤال والالتجاء إلى الله "اللهم اغفر لي إن شئت ، اللهم ارحمني إن شئت" بل ليعزم المسألة والله سبحانه وتعالى لا مكره له ، قال: ((فإن الله لا مكره له)) .

قال: ولمسلم ((**وليعظِّم الرغبة**)) بتشديد الظاء . الرغبة: المطلوب الذي تطلبه من الله ؛ عظِّم الرغبة ، اطلب من الله سبحانه وتعالى من خيري الدنيا والآخرة ما شئت ولا تتعاظم مطلوبًا ولا تقُل هذا أمر كبير وعظيم ، فالله لا يتعاظمه شيء ، إذا قيل في إنسانٍ ما "تعاظم عليه الأمر الفلاني" أي عسُر وأعياه وأعجزه ، عندما يقال "فلان تعاظمه كذا" يعني: ما استطاع أعجزه أعياه عسُر عليه أن يقوم به . فيقول عليه الصلاة والسلام ((**وليعظم الرغبة؛ فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه**)) مهما كان مطلوبك اطلب من الله واعزم وادع الله سبحانه وتعالى وأنت موقن بالإجابة ولا تقل هذا أمر عظيم هذا أمر كبير ، لا يدُر في خلَدك توقعات أن هذا لا يحصل لا يتعاظمه شيء سبحانه وتعالى ، مهما عظُم المطلوب وكبُر ألح على الله ، لا تتعاظم أمرًا فتنزل في دعائك .

لعلي ألفت بمثال ربما يوجد عند بعض العامة : النبي عليه الصلاة والسلام لما وجَّه ودعا إلى سؤال الجنة قال : ((إِذَا سَأَلْتُمْ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فَسَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ ؛ فَإِنَّهُ وَسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ وَفَوْقَهُ عَرْشِ الرَّحْمَنِ)) ؛ أعظِم الرغبة ، بعض العوام ينزل في دعائه ويقول : "أسأل الله أن يدخلني الجنة ولو عند الباب" !! لا ؛ أعظِم الرغبة ، لا يتعاظمه سبحانه وتعالى شيء ، اصدق مع الله ، ادع الله وأنت موقن بالإجابة الله سبحانه وتعالى لا يتعاظمه شيء ، ((إِذَا سَأَلْتُمْ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فَسَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ؛ فَإِنَّهُ وَسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ وَفَوْقَهُ عَرْشِ الرَّحْمَنِ)) .

فهذا فيه أن الواجب على العبد –وهذا من تمام توحيده وإيمانه وصدق دعائه وإلحاحه على الله سبحانه وتعالى– أن تكون دعواته عزمًا وجزمًا وإلحاحًا وصدقًا مع الله سبحانه وتعالى في الطلب ، ولا يأتي بمثل هذه الألفاظ "اللهم اغفر لي إن شئت ، اللهم ارحمني إن شئت ، اللهم اهدني إن شئت ، اللهم أدخلني الجنة إن شئت" ؛ هذه كلها خاطئة لأنها تتنافى مع العزم في الطلب ، وفيها أيضًا ما نبه عليه صلوات الله وسلامه عليه بقوله ((فإن الله لا مكره له)) .

قال رحمه الله تعالى :

فيه مسائل؛ الأولى: النهي عن الاستثناء في الدعاء.

الاستثناء في الدعاء: أي قول القائل " اغفر لي إن شئت ، ارحمني إن شئت ، اهدني إن شئت" هذا يسمى استثناء في الدعاء ، فنهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الاستثناء في الدعاء بأن يقول القائل " اللهم اغفر لي إن شئت ، اللهم ارحمني إن شئت" بل تكون الدعوة فيها العزم والصدق والإلحاح على الله سبحانه وتعالى .

الثانية: بيان العلة في ذلك.

بيان العلة في ذلك بقوله: ((فإن الله لا مكره له)) .

الثالثة: قوله: "ليعزم المسألة".

وهذا تنبيه آخر على ما في تلك الدعوة التي فيها الاستثناء من خطأ أنها ليس فيها العزم ، والذي ينبغي على الإنسان في دعائه أن يعزم ، قال : ((ليعزم المسألة)) أي لتكن مسألته عزما بإلحاح وصدق إقبال على الله سبحانه وتعالى ، لا أن تكون بمثل هذه الألفاظ التي فيها شيء من الفتور والارتخاء وعدم العزم .

الرابعة: إعظام الرغبة.

لأن النبي الكريم عليه الصلاة والسلام قال: ((وليعظِّم الرغبة)) ، والرغبة: هي المطلوب ، إذا طلبت من الله سبحانه وتعالى أيَّ أمر من الأمور لا تتعاظم ذلك ولا تقل هذا أمر عظيم أو قد لا يكون أو نحو ذلك ، بل عظِّم الرغبة أي المطلوب .

الخامسة: التعليل لهذا الأمر.

التعليل لهذا الأمر : أي في قول النبي صلى الله عليه وسلم ((فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه)) ، مهما عظُم المطلوب ومهما كبُرت الحاجة فإن الله لا يتعاظمه ذنبٌ أن يغفره ولا حاجةٌ يُسألها سبحانه وتعالى أن يعطيها ، وهو الغفور الرحيم الجواد الكريم .

قال رحمه الله تعالى :

بابٌ لا يقول عبدي وأمتي

في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((لا يقل أحدكم: أطعم ربك، وضيء ربك، وليقل: سيدي ومولاي، ولا يقل أحدكم: عبدي وأمتي ، وليقل: فتاي وفتاتي وغلامي)).

****

قال رحمه الله تعالى : ((**بابٌ لا يقول عبدي وأمتي**)) ؛ أي لنهي النبي صلوات الله وسلامه عليه عن ذلك ، وذلك صيانةً لجناب التوحيد وحفظًا لمقامه ، وابتعادًا عن الألفاظ التي قد تتضمن أو تشعِر بشيء من المخالفة أو المنافاة لما ينبغي أن يكون عليه العبد من تعظيمٍ لجناب الرب سبحانه وتعالى وربوبيته سبحانه وتعالى على عباده ، وأن العباد عباد الله ، والإماء إماء الله سبحانه وتعالى ، وهو جل وعلا رب العالمين ، حتى وإن كان هذه الألفاظ مقصودٌ بها معنى معيَّن خاص ؛العبودية عبودية الرق ، إن كان المقصود معنى خاص لكن تجنب هذه الألفاظ جاءت به الشريعة صيانة لجناب التوحيد ، وبعدًا عن الألفاظ التي قد يكون فيها شيء من الخطأ والمخالفة والمنافاة لما ينبغي أن يكون عليه العبد من تعظيمٍ للرب سبحانه وتعالى .

قال : ((**في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا يقل أحدكم: أطعم ربك، وضئ ربك**)) وفي الصحيح أيضًا ((اسقِ ربك)) ؛ «أطعم» من الإطعام ، «وضئ» من الوضوء ، و«اسق» من السقي سقي الماء ، فلا يقل أحدكم أطعم ربك سواء كان يعني بذلك نفسه إذا كان هو المالك لهذا المخاطَب ، أو يعني غيره إذا كان يأمره أن يخدم مالكه وسيده ؛ فلا يقل أحدكم أطعم ربك وضئ ربك اسق ربك، مع أن من يقول هذه الكلمة مراده بها واضح ، لأن «رب» من معانيها الصاحب والمالك ، فالمقصود بـ«ربك» أي صاحبك ومالكك ومن أنت عبدٌ عنده ومملوك له ، هذا هو المراد بهذه الكلمة .

و«رب» تطلق على غير الله سبحانه وتعالى مضافةً وهي تكون بهذا المعنى ، أما محلاةً بأل مجردة عن الإضافة لا يجوز أن تطلق إلا على الله ؛ «الرب» هذه لا تطلق إلا على الله سبحانه وتعالى ، لكن جاء النهي هنا أدبًا مع الله سبحانه وتعالى وصيانةً للألفاظ أن لا يقل أحد " أطعم ربك ، وضئ ربك ، اسق ربك" ؛ كل ذلك صيانة للأدب مع الله سبحانه وتعالى .

((**وليقل: سيدي ومولاي**)) والمراد بالسيادة كما يدل عليه معنى هذه الكلمة : الرئاسة والتقدم . فسيدي: أي من يملكني .

((**وليقل: سيدي ومولاي**)) أي من بيده ولاية أمري وشئوني ويملك منافعي ، ((وليقل: سيدي ومولاي)) فنهى عن لفظ وذكر البديل صلوات الله وسلامه عليه الصحيح المناسب ، وهذا فيه ما سبق التنبيه عليه .

((**ولا يقل أحدكم: عبدي وأمتي**)) أيضا للمعنى نفسه ؛ أدبًا مع الله ، وإن كان من يقول عبدي وأمتي يقصد بذلك عبودية الرق ، لكن أدبًا مع الله سبحانه وتعالى يُتجنب هذا اللفظ وإن كان المقصود به معنًى صحيح . وهذا نستفيد منه : أن الشريعة كما أنها جاءت بصيانة العقائد وسلامتها أيضا جاءت بصيانة الألفاظ وحُسنها ، حتى الألفاظ المحتملة التي يُخشى أن تفضي أو تدل على معاني فاسدة جاءت الشريعة بالنهي عنها حمايةً لجناب التوحيد وصيانةً لمقامه العلي الرفيع .

قال: ((**ولا يقل أحدكم: عبدي وأمتي**)) لأن العبيد كلهم عبيد الله والإمام إماء الله ، وفي الدعاء المأثور دعاء الهم «اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك» ، فالعبيد كلهم عبيد الله ، والإماء كلهن إماء الله سبحانه وتعالى ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣] .

((**فلا يقل أحدكم عبدي وأمتي وليقل: فتاي وفتاتي وغلامي**)) ؛ ذكر عليه الصلاة والسلام البديل الصحيح المناسب .

قال رحمه الله تعالى :

فيه مسائل؛ الأولى: النهي عن قول: عبدي وأمتي.

كما تقدم في الحديث قال : ((لا يقل أحدكم عبدي وأمتي)) .

الثانية: لا يقول العبد: ربي، ولا يقال له: أطعم ربك.

لا يقول العبد أي لسيده ربي ، لا يقول في مخاطبته ومناداته لسيده ربي ، ولا يقال له: أطعم ربك ، لا يقول له هذه الكلمة لا سيده ولا أيضا غيره؛ لما في هذه اللفظة من المخالفة ، وللنهي عنها صيانةً لمقام التوحيد وجنابه الرفيع .

الثالثة: تعليم الأول قول: فتاي وفتاتي وغلامي.

الرابعة: تعليم الثاني قول: سيدي ومولاي.

أي أن النبي عليه الصلاة والسلام عندما ينهى عن لفظٍ خاطئ فإنه صلوات الله وسلامه عليه يذكر البديل الصحيح المناسب .

الخامسة: التنبيه للمراد، وهو تحقيق التوحيد حتى في الألفاظ.

وهذا الذي لأجله أورد المصنف رحمه الله تعالى هذه الترجمة في كتاب التوحيد ؛ لأن فيها صيانة للتوحيد حتى في الألفاظ ، وينبغي أن تراعى الألفاظ صيانةً للتوحيد . ولعلك تلاحظ في كثير من الناس عندما يأتي بألفاظ خاطئة وربما بعضهم تكون ألفاظه فيها منافاة صريحة لأمور تتعلق بالاعتقاد وأمور تتعلق بالتوحيد يعتذر بأن قصده سليمًا وأنه لم يقصد كذا وكذا ، يقال له : الشريعة كما أنها جاءت بإصلاح المقاصد فهي أيضا جاءت بإصلاح الألفاظ، لا يكفي سلامة المقصد واختلال الألفاظ ، بل الألفاظ يجب أن تصان ، حتى وإن كان مقصد الإنسان سليمًا يجب عليه أن يصون ألفاظه وأن يبتعد عن كل لفظٍ يُخل بالتوحيد أو يتنافى معه أو يفضي إلى أيضا

الإخلال بالتوحيد ؛ فكل ذلك يجب أن يتجنبه العبد لأن الشريعة فيها صيانة المقاصد والعقائد والقلوب ، وفيها أيضا في الوقت نفسه صيانة الألفاظ .

قال المصنف رحمه الله تعالى :

بابٌ لا يُرد من سأل بالله

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((من استعاذ بالله فأعيذوه ، ومن سأل بالله فأعطوه، ومن دعاكم فأجيبوه، ومن صنع إليكم معروفا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه)) رواه أبو داود والنسائي بسند صحيح.

****

قال رحمه الله تعالى : ((**بابٌ لا يُرد من سأل بالله**)) ؛ وهذا فيه أن من توحيد الله سبحانه وتعالى وتعظيمه أن لا يرد من سأل بالله ، إذا سأل سائلٌ غيره بالله كأن يقول: "سألتك بالله ، أو إني سائلك بالله ، أو أسألك بالله" أو نحو ذلك فمن سأل بالله لا يرد تعظيمًا لله سبحانه وتعالى مِن أن يُردَّ من سأل به سبحانه وتعالى ؛ وهذا من تمام توحيد العبد لربه وكمال تعظيمه لمولاه سبحانه وتعالى أن لا يرد من سأله بالله جل وعلا . وهذا يفيد أن هذا النهي -نهي أن يرد من سأل بالله تبارك وتعالى- متعلقٌ بمقام التوحيد ومقام التعظيم لله ، وأن من كمال تعظيم العبد لربه سبحانه وتعالى أنه إذا سُئل بالله أن لا يرد السائل .

وأورد رحمه الله تعالى تحت هذه الترجمة حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((**من سأل بالله فأعطوه**)) ؛ أي من سألكم بالله ؛ قال في خطابه "أسألك بالله ، سألتك بالله ، إني سائلك بالله أن تعطيني كذا" فأعطوه ، والأصل في الأمر للوجوب ، قال ((فأعطوه)) ، إذا سألك بالله فأعطه ما سأل ، لكن هذا فيما يتعلق إما فيما كان له فيه حق ، أو كان مضطرًا إلى ذلك له فيه ضرورة وهو فضلٌ وزائد عند المسؤول ، أما إذا كان فيه مضرة على المسؤول فإنه لا يلزمه أن يعطيه ، لأن من قاعدة الشريعة «لا ضرر ولا ضرار» ؛ فإذا قال قائل لآخر: "أسألك بالله أن تعطيني كذا" وفيه ضرر عليه لا يعطيه لا يلزمه ، وإنما يكون ذلك فيما له فيه حق ، أو فيما هو مضطر إليه وهو فضل وزائد عند الإنسان أو نحو ذلك فإنه يعطيه ولا يرده لاسيما وقد سأله بالله سبحانه وتعالى .

قال : ((**ومن استعاذ بالله فأعيذوه**)) ؛ قال "أعوذ بالله منك ، أو أنا مستعيذ بالله منك ، أو اللهم أعذني من فلان" أو نحو ذلك ، من استعاذ بالله فأعيذوه ، لأنه استعاذ بمعاذ ولجأ إلى عظيم سبحانه وتعالى ، وفي الحديث في قصة الجوْنية -والحديث في صحيح البخاري- لما دخل عليها النبي عليه الصلاة والسلام وقالت «أعوذ بالله منك» قال صلوات الله وسلامه عليه : ((عذتِ بمعاذ إلحقي بأهلك)) التجأتِ واستعذتِ بعظيم جل وعلا قال

((إلحقي بأهلك)) . فيقول عليه الصلاة والسلام : ((من استعاذ بالله فأعيذوه)) وهذا في معنى ما قبله ((من سألكم بالله فأعطوه ، ومن استعاذ بالله فأعيذوه)) أي تعظيمًا لله سبحانه وتعالى .

((**ومن دعاكم فأجيبوه**)) دعاكم إلى وليمة أو نحو ذلك فأجيبوه ؛ أي أجيبوه فيما دعاكم إليه ، وهذا من حقوق المسلم على أخيه المسلم .

((**ومن صنع إليكم معروفا فكافئوه**)) قال أهل العلم : لأن المعروف يجعل فيمن صُنع إليه المعروف شيء من الذل أو الرق لمن صنع إليه معروفًا ، يبقى ذلك المعروف له أثره في نفس العبد ، فحتى لا يبقى مثل هذه الأمور يكافئه ، يجتهد على أن يكافئه على المعروف الذي قدَّمه له حتى لا يبقى هذا المعنى في نفسه .

((**فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له**)) إذا كان ليس عند المرء قدرة على مكافئته على معروفه بالمثل أو بالأحسن فليكثِر من الدعاء له .

((**فادعوا له حتى تُروا**)) أي تظنوا أو ((**تَروا**)) أي تعلموا ((**أنكم قد كافأتموه**)) أي أكثِروا له من الدعاء وسؤال الله سبحانه وتعالى ولاسيما "جزاك الله خيرًا" ؛ فإن من قال هذه الكلمة فقد أبلغ في الثناء والدعاء .

قال رحمه الله تعالى :

فيه مسائل ؛ الأولى: إعاذة من استعاذ بالله.

لقوله عليه الصلاة والسلام : ((ومن استعاذ بالله فأعيذوه)) .

الثانية: إعطاء من سأل بالله.

لقوله صلى الله عليه وسلم : ((من سأل بالله فأعطوه)) ، وعرفنا أن الأمرين كلهما تعظيمًا لله سبحانه وتعالى ؛ أن لا يرد من سأل بالله ومن استعاذ به جل في علاه .

الثالثة: إجابة الدعوة.

لقوله صلوات الله وسلامه عليه ((ومن دعاكم فأجيبوه)). قيل ذلك مختصٌ في الوليمة التي هي وليمة العرس ، وقيل يتناول كل دعوة ما لم يكن فيها منكر ولا يكون فيها مضرة على المدعو .

الرابعة: المكافأة على الصنيعة.

المكافأة على الصنيعة : أي صنيعة المعروف ((من صنع إليكم معروفا فكافئوه)) ، والمكافئة تكون بالمثل أو بالأحسن .

الخامسة: أن الدعاء مكافأة لمن لم يقدِر إلا عليه.

لقول النبي صلى الله عليه وسلم ((فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له)) ، فالدعاء مكافأة لمن لم يقدر على المكافأة، أما إذا قدِر الإنسان على المكافأة فإنه يكافئ من صنع إليه معروفا بالمثل أو بالأحسن .

السادسة: قوله "حتى تُروا أنكم قد كافأتموه".

في هذا الاجتهاد في الدعاء له حتى يظن المرء أنه قد كافأه باجتهاده بالدعاء له .

قال رحمه الله تعالى :

بابٌ لا يُسأل بوجه الله إلا الجنة

عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لا يُسأل بوجه الله إلا الجنة)) رواه أبو داود.

****

قال رحمه الله تعالى : ((**بابٌ لا يُسأل بوجه الله إلا الجنة**)) ؛ وهذا فيه التعظيم لوجه الله سبحانه وتعالى العظيم أن لا يُسأل به إلا أعلى المطالب وأجلّ المقاصد ، وهذا أيضًا من التعظيم لله سبحانه وتعالى لا يُسأل بوجهه إلا أعظم المطالب وأجل المقاصد ؛ فلا يسأل بوجه الله إلا الجنة ، إلا الفوز برضوان الله ، إلا النظر إلى وجهه الكريم، وأيضا ما يقرِّب إلى الجنة ؛كل ذلكم داخل في قوله ((إلا الجنة)) ، «اللهم إني أسلك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل» ؛ فسؤال الله بوجهه الهداية إلى صراطه المستقيم المبلِّغ جنات النعيم هذا كله داخل في هذا المعنى ، وكل ذلكم تعظيم لوجه الله سبحانه وتعالى العظيم بأن لا يُسأل بوجهه إلا غاية المطالب . أما مُتع الدنيا الزائلة وأشيائها الفانية لا يليق بالعبد أن يسأل بوجه الله أشياء من هذا القبيل ، وإنما يكون هذا التوسل وهذا الالتجاء إلى الله سبحانه وتعالى وسؤاله بوجهه يختص بالمطالب العالية العظيمة ؛ قال: ((باب لا يسأل بوجه الله إلا الجنة)).

أورد رحمه الله تعالى حديث جابر ابن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((**لا يُسأل بوجه الله إلا الجنة**)) ؛ وذلك تعظيمًا لوجه الله سبحانه وتعالى أن لا يُسأل به إلا غاية المطالب وأعظم المقاصد: الجنة وما قرب إليها من قول وعمل ، والفوز برضوان الله سبحانه وتعالى ، ولذة النظر إلى وجهه ، أما المطالب الدنيوية وأمور الفانية الزائلة فهذه لا يصلح أن يطلبها العبد أو أن يسألها متوسلًا إليه سبحانه وتعالى بوجهه الكريم .

والحديث تكلم فيه بعض أهل العلم؛ لأن فيه رجل يقال له سليمان ابن قرم ضعَّفه بعض الأئمة ، لكن وثقه الإمام أحمد رحمه الله قال عنه ثقة ، والإمام الذهبي رحمه الله أورده في الرجال الذين أوردهم في كتابه «من تُكلم فيهم بما لا يوجب الرد» ، فوثقه آخرون وأيضا له ما يشهد له مثل حديث النبي صلى الله عليه وسلم : ((مَلْعُونٌ مَنْ سَأَلَ بِوَجْهِ اللَّهِ)) أي في المطالب التافهة والأشياء الحقيرة وأمور الدنيا ، لأن هذا فيه ضعف في التعظيم لوجه الله العظيم ، فوجه الله أعظم من أن يكونه يسأل به أمور الدنيا أو متعها الفائية الزائلة .

وفي الحديث دلالة على شرف الجنة قال ((لا يُسأل بوجه الله إلا الجنة)) ، ولهذا ابن القيم رحمه الله في كتابه حادي الأرواح قال : «ولو لم يكن من خطر الجنة وشرفها إلا أنه لا يُسأل بوجه الله غيرها لكفاها شرفًا وفضلا» ثم ساق هذا الحديث .

قال رحمه الله تعالى :

فيه مسائل ؛ الأولى: النهي عن أن يسأل بوجه الله إلا غاية المطالب.

وهذا يفيد أنه ليس الأمر مختص بالجنة ، بل الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل ، الفوز برضوان الله ، رضوان الله أكبر من الجنة ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾[التوبة:٧٢] ، الفوز بالنظر إلى وجهه الكريم سبحانه وتعالى .

الثانية: إثبات صفة الوجه.

وهي صفة عظيمة ثابتة لله في كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، والواجب إثباتها ، وهو من صفات الله الذاتية فيثبت الوجه لله على الوجه اللائق بجلاله وكماله وعظمته ، فكما أن له ذاتًا لا تشبه الذوات فوجهه سبحانه وتعالى لا يشبه الوجوه على حد قوله سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[الشورى:١١] .

وقوله «فيه مسائل» ولم يذكر إلا مسألتين مشى على النسق الذي سار عليه في الأبواب ، ويصح في اللغة التعبير عن المثنى بالجمع .

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك .

اللهم صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

الدرس السابع والأربعون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد:

فيقول الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب التميمي رحمه الله تعالى في «كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد» :

بابٌ ما جاء في اللَّوْ

وقول الله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ الآية [آل عمران:١٥٤].

وقوله: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ الآية [آل عمران:١٦٨] .

****

قال المصنف الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتابه التوحيد : ((**بابٌ ما جاء في اللَّوْ**)) ؛ «اللو» هذه كلمة ترِد على ألسنة الناس كثيرًا . وتارةً يكون ورود هذه الكلمة على ألسنتهم منافيًا لما ينبغي أن يكون عليه العبد من إيمانٍ وتوحيدٍ وإقرارٍ أنَّ الأمور بقدر الله سبحانه وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن . وتارةً ترد هذه الكلمة على سبيل التمني في أمورٍ مستقبلة ؛ فإن كان ذلك في خيرٍ فلا بأس بها ، وإن كان في شرٍ فإنها مذمومة .

والمصنف رحمه الله تعالى عقد هذه الترجمة لبيان ذم وخطورة استعمال كلمة «لو» عندما يصاب المرء بمصيبة ويقدِّر الله سبحانه وتعالى عليه بأمرٍ ما فيبدأ باستعمال هذه الكلمة التي تدل على ضعف الإيمان بالقدر وأن الأمور بمشيئة الله وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه ، فإذا ضعُف الإيمان بالقدر جاءت مثل هذه الكلمة التي أيضا تفتح لصاحبها بابًا من التسخط والجزع والاعتراض على قدر الله سبحانه وتعالى ؛ أي أنها تفتح عليه بابًا من أبواب الشيطان وتفتح عليه عمل الشيطان ويكون للشيطان مدخل على الإنسان ، ولهذا قال: ((فإن لو تفتح عمل الشيطان)) .

والواجب على العبد في المصيبة أن يعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلِّم ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾[التغابن:١١] ؛ «هو المسلم تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلِّم» . ثم ماذا تفيد هذه الكلمة إذا أصيب بمصيبة وقال "لو أني فعلت كذا لم يكن كذا، ولو أني ولو أني" إلى آخره ، أي

شيء تفيده هذه الكلمة!! إلا أنها تفتح عليه عمل الشيطان ليس إلا ، ولا تفيده أي فائدة ؛ ولهذا عقد المصنف رحمه الله تعالى هذه الترجمة تحذيرًا من استعمال هذه الكلمة في هذا الباب ، عندما يصاب المرء بمصيبة يقدَّر عليه بقدر؛ مثلًا سافر وحصل له حادث قال "لو أني ما سافرت ، لو أنني ما أطعت فلان ، لو أني كذا" إلى آخره ، أو دخل في تجارة وما ربح قال "لو أني ما سمعت فلان ولو أني كذا" الخ ، كثيرًا ما ترد مثل هذه الكلمة على ألسنة الناس بسبب ضعف الإيمان بالقدر ، فتأتي هذه الكلمة على ألسنتهم فاتحةً بابًا من أبواب الشيطان .

ولهذا الواجب الحذر من ذلك وسيأتي ذكر ما أورده المصنف رحمه الله تعالى من أدلة تدل على خطورة هذه الكلمة، وأن الإتيان بها في مثل هذا المقام ليس من أوصاف أهل الإيمان وإنما من أوصاف المنافقين مثل الآيات التي ساقها كل ذلك من أوصاف أهل النفاق ، من لا إيمان عنده ولا إقرار بقدر الله سبحانه وتعالى يقول مثل هذه الكلمات ، أو يقولها لضعف الإيمان بقدر الله عز وجل ، أما مع الإيمان والثقة بالله وحسن التوكل عليه والإيمان بقدره وقضائه فإن المسلم لا يقول ذلك بل يقول « قدَّر الله وما شاء فعل» ، إذا أصابته مصيبة لا يقول لو أني الخ وإنما يقول «قدَّر الله وما شاء فعل» .

وثمة استعمال آخر لكلمة لو غير هذا الباب الذي سبق بيانه باب القضاء والقدر أو المصيبة ، ثمة استعمال آخر لكلمة «لو» وهو: التمني لأمور مستقبلة ؛ فهذا بحسب ما يتمناه الإنسان ، إن كان يتمنى خيرًا ، علمًا ، فضلًا ، طاعةً ، عبادةً إلى غير ذلك من أبواب الخير فهذا ممدوح وليس بمذموم ، وأما إذا كان يتمنى والعياذ بالله شرًا وأمورًا من أبواب الشر فهذا مذموم ، فالأمر في هذا الباب بحسب ما يتمناه .

ومما جمع بين النوعين حديث أبي كبشة الأنماري رضي الله عنه وهو في المسند والسنن أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((مَثَلُ أُمَّتِي مَثَلُ أَرْبَعَةٍ : رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا وَعِلْمًا؛ فَهُوَ يَعْمَلُ بِهِ فِي مَالِهِ فَيُنْفِقُهُ فِي حَقِّهِ)) ؛ فيؤدي حق المال ويتقي الله عز وجل في ماله ، يأخذ المال من حلِّه ويصرفه في حله لأن عنده علم يستضيء به ، أما إذا كان ليس عنده مال وليس عنده علم يدخل في متاهات باطلة وأمور كثيرة محرمة .

((وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ عِلْمًا وَلَمْ يُؤْتِهِ مَالًا فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ كَانَ لِي -انتبه لكلمة «لو» هنا- مِثْلُ مَا لِهَذَا عَمِلْتُ فِيهِ مِثْلَ الَّذِي يَعْمَلُ ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَهُمَا فِي الْأَجْرِ سَوَاءٌ)) سبحان الله! رجل فقير ما عنده أموال إطلاقًا لا يوجد عنده مال ورأى أحد المحسنين عنده أموال كثيرة بنى مساجد وطبع المصاحف وحفر الآبار وأنفق الأموال في سبيل الله وقال صادقًا من قلبه مع ربه جل وعلا في نفسه : «لو أن لي مثل فلان لفعلت مثله» قال عليه الصلاة والسلام ((هُمَا فِي الْأَجْرِ سَوَاءٌ)) ، هذا فضل الله سبحانه وتعالى والله جل وعلا ذو الفضل العظيم ، ومع ذلك كثير من الفقراء ربما يبخل على نفسه بمثل هذه الأمنية الصالحة الطيبة التي يفوز فيها بمثل هذا الأجر العظيم والثواب الجزيل ، ذاك التاجر يُسأل عن ماله ويحاسب على ماله وهذا بنيته الصالحة ليس عنده مال يُسأل عنه ولكنه فاز بمثل أجر ذلك التاجر الذي ينفق في سبيل الله ، قال ((هُمَا فِي الْأَجْرِ سَوَاءٌ)).

قال : ((وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا وَلَمْ يُؤْتِهِ عِلْمًا فَهُوَ يَخْبِطُ فِيهِ يُنْفِقُهُ فِي غَيْرِ حَقِّهِ)) أي ينفق المال في غير حله ويأخذ المال من غير حله ويضيّع المال في المحرمات وفيما يسخط الله سبحانه وتعالى .

((وَرَجُلٌ لَمْ يُؤْتِهِ اللَّهُ مَالًا وَلَا عِلْمًا فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ كَانَ لِي مَالٌ مِثْلُ هَذَا -انتبه لكلمة لو هنا في تمني الشر- عَمِلْتُ فِيهِ مِثْلَ الَّذِي يَعْمَلُ ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَهُمَا فِي الْوِزْرِ سَوَاءٌ)) ؛ لم يعمل مثله تلك المعاصي وتلك الأمور وتلك المحرمات ما فعلها لكن تمنى وقال "لو أن عندي مثله من المال لفعلت مثله" ، يجد أنه مثله في الوزر يوم القيامة ويعاقَب على هذه الأمور التي تحرك في قلبه تحركًا جادًّا وصادقًا أنه لو كان عنده من المال لفعل مثله ، إذًا لم يعُقه عن أن يفعل مثله إلا عدم وجود المال ، قال ((فَهُمَا فِي الْوِزْرِ سَوَاءٌ)) .

- إذًا «لو» يستعملها الإنسان استعمالا فتكون صحيحة محمودة في تمني الخير "لو أن لي من المال مثل فلان -أي المنفق في سبيل الله الباذل في سبيل الله- لفعلت مثله" هذا هو وإياه في الأجر سواء ، وقد يستعملها في تمني الشر والعياذ بالله فيبوء بالإثم والعقوبة .
- وقد تأتي للبيان والتعليم وتقرير الأحكام مثل قول النبي عليه الصلاة والسلام في حجة الوداع: ((لَوِ اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ لَمْ أَسُقْ الْهَدْيَ وَلَجَعَلْتُهَا عُمْرَةً)) .

الشاهد أن المصنف رحمه الله تعالى عقد هذه الترجمة لبيان ما جاء في اللو وأن استعمال لو عند المصيبة عندما يقدَّر على العبد أمرًا يقضيه الله عليه من مرضٍ أو فقر أو غير ذلك من المصائب فيأتي بهذه الكلمة عن ضعف إيمان بقضاء الله وقدره ، وفيها أيضًا ما فيها من عدم التسليم للقضاء ، وفيها أيضًا ما فيها من الجزع والتسخط وفتح هذا الباب عليه ، وفيها أيضا ما فيها من فتح عمل الشيطان على العبد .

أورد رحمه الله تعالى قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ **يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا** ﴾ ؛ هذه كلمات أسرَّها بعض المنافقين في أنفسهم في غزوة أحد ، قال الله تعالى قبل هذا الموضع: ﴿ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ ﴾ ما هذا الذي أخفوه في أنفسهم؟ ﴿ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا ﴾ فهذه كلمة أخفاها هؤلاء في أنفسهم ، قالها هؤلاء في أنفسهم ، الإنسان قد يقول قولًا في نفسه لا يُسمع لكن الله عز وجل فضح المنافقين وهتك سترهم وكشف مخازيهم .

﴿ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا ﴾ ، انظر الشاهد هنا ؛ استعمال هؤلاء المنافقين لكلمة «لو» عند المصاب ، عند الأمر الذي قضاه الله سبحانه وتعالى وقدَّره؛ «لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا» أي أنَّا ليس لنا أمرٌ في ذلك ، وهذا أيضا فيه تعريض بموافقتهم للنبي صلى الله عليه وسلم وإتيانهم معه إلى ساحة القتال وإظهار عدم الرضا بذلك ، ﴿ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا ﴾

هذه الكلمة جاءت عن نوع اعتراض وعدم التسليم بقضاء الله سبحانه وتعالى وقدره ، لم يقولوا «قدَّر الله وما شاء فعل» وإنما قالوا : «لو كان لنا من الأمر شيء ما قُتلنا هاهنا» ؛ هب أنك لم تأتِ إلى هذا المكان كما تقول وبقيت في بيتك ولو كان بيتك برجًا مشيدًا مُحكمًا ما الذي ينجّيك من الموت إن كان الله سبحانه وتعالى قضى أن يكون موتك وأنت على فراشك في بيتك ؟

ولهذا جاء السياق في الرد على هؤلاء: ﴿ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ﴾ ؛ إذا جاءت المنية وحضر الأجل لا يرده شيء ، إذًا ما فائدة قول القائل "لو أني ما ذهبت في هذا الطريق لما حصل لي هذا الحادث ، لما حصلت لي هذه المصيبة، لو أنني ما سافرت لو أنني.." إلى آخر هذه الكلمات ، فهذه كلمات تنُمّ عن ضعف إيمانٍ بالقدر أو عدم إيمانٍ بالقدر .

إذًا هذه الآية دلت على أن هذا الاستعمال الخاطئ الباطل لكلمة «لو» هو من أوصاف المنافقين ومن أعمال المنافقين ، وكفى ذمًا لهذه الكلمة وبيانًا لقبحها أن الله عز وجل ذكرها في غير موضع من القرآن وصفًا لأهل النفاق ،كما في هذه الآية التي بدأ بها ، والآية التي تليها

وهي قول الله سبحانه : ﴿ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ﴾ [آل عمران:١٦٨] ؛ فهؤلاء أيضا من المنافقين وقعدوا لم يشاركوا في القتال ، وفي غزة أحد نفسها لم يشاركوا ، ولما حصل ما حصل وقُتل من قتل من المسلمين قالوا هذه الكلمة ﴿ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ ﴾ ؛ هؤلاء منافقين والمراد بإخوانهم: المسلمين الذين شاركوا في تلك الغزوة ، قيل هذه الأخوة فيما يظهر ، لأن المنافق يُظهر الإسلام فهذه الأخوة بناء على ما يظهره هؤلاء ، وقيل إن المراد بالأخوَّة أخوَّة النسب ، أما الأخوة الدينية فليس بين المنافق والمؤمن أخوة دينية ،لكن فيما يُظهره المنافق قد يؤاخيه المسلم لما يَظهر له من ظاهر أمره ، وسريرته تخفى ، لا يعلم البواطن وخفايا النفوس والصدور إلا رب العالمين سبحانه وتعالى .

﴿ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ﴾ وهذا موضع الشاهد قولهم﴿ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ﴾ ، فهذا استعمال باطل لكلمة «لو» فيه عدم الإيمان بقضاء الله سبحانه وتعالى وقدره ، وهو من أوصاف المنافقين كما هو الشأن في الآية الأولى ، وكما قدَّمت كفى بيانًا وذمًا لقبح هذه الكلمة أن الله ذكرها في أكثر من موضع في أوصاف أهل النفاق .

﴿ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ؛ إن كنتم صادقين في هذه المقالة امنعوا الموت عن أنفسكم ، إذا جاءكم الموت لا تموتوا امنعوا الموت ، إذا كنتم صادقين فيما تقولون أنهم لو أطاعونا ما قُتلوا إذًا إذا جاءكم الموت امنعوه ، لا تموتوا إذا جاء الموت إن كنتم صادقين . وهذا فيه أن من حضرت منيته

وجاء أجله لا يردُّه شيء ﴿إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس:٤٩] ، ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد:٣٨] .

الشاهد أن هاتين الآيتين جاء فيهما استعمال لو هذا الاستعمال الباطل في ذكر أوصاف المنافقين وكفى بذلك ذمًا وتحذيرا من هذه الكلمة .

قال رحمه الله :

في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((**احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجزن، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا ، ولكن قل: قدَّر الله وما شاء فعل، فإن** «**لو**» **تفتح عمل الشيطان**)) .

****

قال رحمه الله تعالى : ((**في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: احرص على ما ينفعك، واستعن بالله**)) الحديث اختصر الشيخ رحمه الله تعالى شيئا من أوله وهو قول النبي عليه الصلاة والسلام : ((الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجِزَن)) .

((**احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ**)) في هذه الكلمة توجيه إلى أمرين مهمين ينبغي على المسلم أن يُعنى بهما:

- الأمر الأول: الحرص ؛ أن يكون حريصًا ، وهذا الحرص إذا وجد في قلب الإنسان تحركت جوارحه تبعًا لما قام في قلبه من حرص ، ولهذا إذا قوي الحرص قوي العمل ، وإذا ضعُف ضعف العمل . ففيه دعوةٌ وحث على الحرص .
- والأمر الثاني: أن يكون الذي تحرص عليه نافعًا لا ضارًا «احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ» لأن الحرص نوعان : حرصٌ على ما ينفع ، وحرصٌ على ما يضر ، والواجب على المسلم أن يحذر أشد الحذر من الأمور الضارة ، وأن يصرف حرصه كله إلى الأمور النافعة .

((**احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ**)) : ما ينفعك في دينك ودنياك احرص عليه ، الشيء الذي ينفعك في دينك وينفعك في دنياك وليس فيه سخط الله وغضبه ليس فيه مخالفة لشرع الله احرص عليه .

((**وَاسْتَعِنْ بِاللهِ**)) أي لا تعتمد على هذا الحرص ولا تعتمد على هذه الأسباب التي بذلتها ، بل في كل أمورك اطلب من الله العون والمدد والتوفيق.

فإذًا قوله «احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ» حرص الإنسان على ما ينفعه من أمور الدين وأنواع القربات هذا باب تعبُّد وتقرب لله سبحانه وتعالى ، وقوله «وَاسْتَعِنْ بِاللهِ» هذا باب الذي هو طلب العون ، فإذا تحقق من العبد هذين

الأمرين : «احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ» ، «وَاسْتَعِنْ بِاللهِ» اجتمع فيه المقامان: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥] ، ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود:١٢٣] اجتمع فيه هذان المقامان : مقام العبودية في «احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ» ، ومقام الاستعانة وحسن التوكل على الله سبحانه وتعالى في قوله «وَاسْتَعِنْ بِاللهِ» .

وهكذا الواجب على المسلم أن يكون دومًا وأبدًا محققا لهذين الأصلين العظيمين والأساسين المتينين : الحرص على ما ينفعه ، والاستعانة بالله سبحانه وتعالى ؛ الحرص على ما ينفع هذا يعني مجاهدة النفس على العمل وبذل الأسباب والبعد عن التواني والعجز والفتور والكسل والخمول؛ يجاهد نفسه على الأعمال الصالحة ويبذل الأسباب فيما يقربه إلى الله سبحانه وتعالى ولا يعتمد على هذه الأسباب بل يطلب دومًا وأبدًا العون من الله ، ولهذا يأتي كثيرًا في الدعوات المأثورة عن نبينا عليه الصلاة والسلام طلب العون ؛ «يَا مُعَاذُ ، وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ، فَلَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ» ، ومن الدعاء المأثور عنه صلوات الله وسلامه عليه: «اللَّهُمَّ أَعِنِّي وَلَا تُعِنْ عَلَيَّ...» إلى آخر الدعاء ، وكان عليه الصلاة والسلام يقول في خطبة الحاجة «إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ» أي نطلب منه جل وعلا وحده العون .

فالعبد مطلوب منه بذل الأسباب في الأمور النافعة المفيدة له في أمور دينه ودنياه ، وأن يكون في كل ذلك مستعينًا بالله ؛ انظر هذه اللطيفة في كل مرةٍ تخرج فيها من بيتك ، في كل مرةٍ تخرج فيها من بيتك يشرع لك أن تقول : «بِسْمِ اللَّهِ تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ» ، في كل مرة تخرج من بيتك لمصلحة دينية أو مصلحة دنيوية تستعين بالله وأنت تخرج من البيت تطلب من الله العون «بِسْمِ اللَّهِ تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ» وهذه كلها كلمات استعانة واعتماد على الله سبحانه وتعالى .

قال : ((**وَلَا تَعْجِزَن**)) أو ((وَلَا تَعْجَزَن)) من العجز وهو التواني والفتور وعدم النهوض والقيام للمصالح ؛ وهذا فيه تحذير من مسلكين يضادان ما قُرِّر في هذا الحديث :

- المسلك الأول : مسلك من يعطل الأسباب ولا يقوم بها اعتمادًا على التوكل ؛ فهذا غالط وخاطئ ، النبي عليه الصلاة والسلام قال : «احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ» : اجتهد وجدّ في الأمور النافعة وإياك والعجز إياك والكسل إياك والتواني بل جاهد نفسك على العمل وبذل الأسباب في الأمور النافعة المقربة إلى الله سبحانه وتعالى .
- والمسلك الثاني الذي في هذا السياق إشارة إلى ذمه : مسلك من يقوم بالأسباب معتمدًا عليها لا على الله سبحانه وتعالى ، فهذا أيضا مسلك منحرف ، والحق قوام بين ذلك في الجمع بين الأمرين : بذل الأسباب ، والاعتماد على الله بطلب العون منه وحده جل في علاه .

قال : ((**وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ**)) أي أصابتك مصيبة؛ قدَّر الله عليك بمرض فقر إلى غير ذلك

((وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا)) لا تفتح على نفسك هذا الباب باب استعمال هذه الكلمة مثل لو ، فإنك إن أتيت بهذه الكلمة في هذا الموضع فتحت على نفسك بابًا من أبواب الشيطان وعمل الشيطان .

((فَلَا تَقُلْ)) إحذر إياك **((فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا))** مثل أن يقول : لو أني ما سافرت ، لو أنني ما خرجت من البيت اليوم في هذا الصباح ، لو أنني بقيت في مكاني لو أنني .. إلى غير ذلك كثيرا ما يأتي على ألسنة الناس مثل هذه الكلمات عندما يصاب الواحد منهم بمصيبة .

قال : **((فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا ، وَلَكِنْ قُلْ قَدَّرَ اللهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ))** أي سلِّم لأمر الله واعلم أن ما أصابك هو بقدر الله ،كما قال الله تعالى: ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ [التغابن:١١] ، قال بعض السلف : «هو المؤمن تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلِّم» .

فالواجب على المسلم إذا أصابته مصيبة أن يؤمن بالقضاء والقدر ، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وأن ما شاء الله كان ، لا راد لقضائه ولا راد لحكمه سبحانه وتعالى ، ماضٍ فينا حكمه سبحانه وتعالى لا راد له ، فإذا أصابت العبد مصيبة لا يفتح على نفسه بابًا من أبواب الشيطان وعليه أن يقول: «قَدَّرَ اللهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ» .

قال : **((فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ))** وهذا بيان لخطورة هذه الكلمة وخطورة استعمالها في هذا المقام مقام حصول المصيبة ؛ فإن الإنسان إذا قالها فتحت عمل الشيطان من مثلا الجزع ، التسخط ، الاعتراض على قدر الله سبحانه وتعالى ، عدم التسليم والإيمان بما قضاه الله جل وعلا وقدَّره ، تفتح عمل الشيطان .

و«عمل» هنا مفرد مضاف ، والقاعدة عند أهل العلم أن المفرد إذا أضيف يفيد العموم ؛ فهو ليس عمل واحد يقوم به الشيطان وإنما في هذا المقام تفتح عليك أعمال للشيطان كثيرة ومتاهات وانحرافات بعضها ربما يتعلق حتى في باب الاعتقاد ، فالواجب على المسلم أن يتجنب مثل هذه الكلمة وأن يقول « قَدَّرَ اللهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ» .

قال رحمه الله تعالى :

فيه مسائل ؛ الأولى: تفسير الآيتين في آل عمران.

وقد تقدم تفسير الآيتين .

الثانية: النهي الصريح عن قول: "لو أني" إذا أصابك شيء.

قال رحمه الله تعالى : «النهي الصريح» لأن النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث قال: ((فَلَا تَقُلْ)) هذا نهي صريح . قال : «النهي الصريح عن قول: "لو" إذا أصابك شيء» فالنهي عن قول هذه الكلمة والذي هو يفتح على الإنسان باب الشيطان عند المصيبة ، إذا أصابك شيء احذر أن تقول في هذا الموضع «لو» فإنها تفاتح عمل الشيطان ، لكن في باب التمني هذا موضوع آخر ، وإنما الأمر بحسب ما يتمناه مثل ما مر معنا في حديث أبي كبشة الأنماري رضي الله عنه .

الثالثة: تعليل المسألة بأن ذلك يفتح عمل الشيطان.

قال رحمه الله تعالى : « تعليل المسألة» المراد بالمسألة : أي النهي الصريح عن استعمال لو عندما يصاب المرء بمصيبة تعليل ذلك بأنه يفتح عمل الشيطان ، لأن إتيان المرء بهذه الكلمة في هذا المقام يكون بابًا من الأبواب التي يدخل منها الشيطان على العبد فيلقي عليه الوساوس ، يلقي عليه الظنون والأوهام ، يدخله في متاهات وربما انحرافات أيضا في باب الاعتقاد ؛ فهي تفتح عمل الشيطان .

الرابعة: الإرشاد إلى الكلام الحسن.

لأن النبي صلى الله عليه وسلم لما نهى عن هذه الكلمة الباطلة في هذا الموضع أرشد إلى الكلام الحسن قال عليه الصلاة والسلام : «وَلَكِنْ قُلْ قَدَّرَ اللهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ» ، وضُبطت أيضًا «قَدَرُ اللهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ» ، ففي مثل هذا الموضع قُل هذه الكلمة المباركة التي تحرك في قلبك طاعة الرحمن ، هناك تلك الكلمة تحرك وتفتح عمل الشيطان ، وهذه الكلمة إذا قلتها « قَدَّرَ اللهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ» حركت فيك طاعة الرحمن وحسن التوكل عليه والإيمان بقضائه وقدره والفوز أيضا بثواب وحسن العاقبة لمن كان مسلِّمًا لقضاء الله تبارك وتعالى وقدره .

وهذا أيضًا يستفاد منه أنه عندما يُنهى عن أمر منكر أو مخالفة أو كلمات فيها شيء من الخطأ يبيَّن في الوقت نفسه القول الصحيح والكلام السليم الذي يقال في هذا الموضع .

الخامسة: الأمر بالحرص على ما ينفع مع الاستعانة بالله.

أي أن الواجب على المسلم أن يجمع بين هذين الأمرين :

الأمر الأول: هو حرصه على ما ينفعه ؛ وهذا هو بذل الأسباب في الأمور النافعة ومجاهدة النفس على القيام بها.

والأمر الثاني: الاستعانة بالله ؛ أي أن يطلب العون والمدد والتوفيق من الله سبحانه وتعالى .

وبالجمع بين هذين الأمرين الحرص على ما ينفع مع الاستعانة بالله؛ الجمع بينهما فيه سلامة بين مسلكين خطيرين سبق التنبيه عليهما : مسلك من يُعمِل الأسباب ويهمل التوكل ، والمسلك الآخر المضاد له من يُعمل التوكل ويهمل الأسباب .

السادسة: النهي عن ضد ذلك وهو العجز.

النهي عن ضد ذلك أي ضد الحرص عما ينفع وهو العجز ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: ((ولا تعجزن)) أي ابتعد عن العجوز والتواني والكسل فإنه لا يأتي بخير ، وفي الدعاء المأثور عن نبينا صلوات الله وسلامه عليه «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ العَجْزِ وَالكَسَلِ» ، وكلٌ من العجز والكسل فيه تركٌ للحرص على ما ينفع ؛ فإذا كان الترك للشيء عن عدم قدرة عليه فهو عجز ، وإن كان تركًا له عن قدرة عليه فهو كسل ، وهذا في الجمع بينهما لكن إذا أُفرد كل منهما تناول معنى الآخر .

قال رحمه الله تعالى :

باب النهي عن سب الريح

عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((**لا تسبوا الريح، فإذا رأيتم ما تكرهون فقولوا: اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح وخير ما فيها وخير ما أمرت به ، ونعوذ بك من شر هذه الريح وشر ما فيها وشر ما أمرت به**)) **صححه الترمذي.**

****

قال رحمه الله تعالى : ((**باب النهي عن سب الريح**)) ، والريح آية من آيات الله سبحانه وتعالى الدالة على كمال عظمته وكمال اقتداره ، وهي مسخرة بتسخير الله جل وعلا ليس لها من أمر تصرفها وتحركها شيء ، وإنما تحركها إنما هو بأمر الله فهي مأمورة ، الريح مأمورة مسخَّرة سيرها إنما هو بتسخير الله جل وعلا .

ولما كان هذا شأن الريح كان سبُّها سبًا لمسخرها ، لأنها هي لا تملك من أمرها شيء ، مثل ما تقدم معنا في باب النهي عن سب الدهر قال : ((لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر)) لأن الدهر مقلَّب وتقلبه بأمر الله سبحانه وتعالى ، فسب المقلَّب سبٌ لمقلبه ، والدهر لا يملك من تقلبه شيء وإنما تقلبه كله بأمر الله سبحانه وتعالى ، فسبه سبٌ لمقلِّبه ومسخره بحانه وتعالى ولهذا قال في الحديث :((لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر يقلب الليل والنهار)) ؛ هذا معنى «إن الله هو الدهر يقلب الليل والنهار» أي أن تقلب الليل والنهار إنما هو بتسخير الله سبحانه وتعالى ؛ فسب الدهر سبٌ لله سبحانه وتعالى ، لأن الدهر لا يملك من أمره شيء ، ومثل ذلك سب الريح ، فالريح ما تملك من أمرها شيء ، وتحركها إنما هو بتسخير المدبِّر لأمرها سبحانه وتعالى ، ولهذا جاء في

سنن أبي داود وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ((لَا تَلْعَنِ الرِّيحَ فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ)) ، مأمورة : أي الله أمرها بذلك هي لا تملك شيئا ، فالله عز وجل يحرك الريح فتتحرك بأمره يدبرها سبحانه وتعالى كيف يشاء ، هي لا تملك شيئا فسبها سبٌ لمسخِّرها ومدبرها ، ولهذا جاء النهي عن سب الريح . ولما كان سب الريح بهذا الوصف عقد المصنف رحمه الله تعالى هذه الترجمة في كتاب التوحيد لبيان ما في ذلك من المنافاة .

ومن يسب الريح أو تأتي على لسانه سب الريح ، عندما تشتد الرياح فيؤذيه مثلا قوتها أو يؤذيه مثلا شدة حرها أو يؤذيه مثلا إتلافها لأشياء من ممتلكاته ومصالحه ومنافعه فيسب الريح في الغالب لا يقع في نفسه وهو يسبها أنه يسب الله ، وإلا لو كان يعي هذا المعنى ويقوله معتقدًا هذا المعنى فهذا كفر أكبر والعياذ بالله ناقل من ملة الإسلام ، لكنه عندما ينزعج من الريح ويحصل له نوع من الأذى فيسبها وهو غافل عن هذا المعنى ، ولهذا جاءت الشريعة بإصلاح ألفاظ الناس وإصلاح كلامهم وإبعادهم عن الألفاظ التي تفضي بهم أو تتضمن أشياء باطلة ومحرمة لا يكون القائل قد قصَدَها ، وكما ذكرت غير مرة أن الشريعة كما جاءت بإصلاح القلوب بالعقائد الصحيحة والإيمان القويم أيضا جاءت بإصلاح الألسن وصيانتها من كل ما يصادم العقيدة أو يفضي بصاحبه إلى ما فيه مصادمة للعقيدة .

أورد رحمه الله تعالى عن أبي بن كعب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((**لا تسبوا الريح**)) أي لا تلعنوها ، لا تشتموها .

((**فإذا رأيتم ما تكرهون**)) أي بسبب هبوب الريح أو شدة هبوب الريح إذا رأيتم ما تكرهون مثلا آذاكم حرها أو مثلا حصل لبعض ممتلكاتكم أضرار عند هبوبها أو غير ذلك من الأمور ، تكون ريح باردة ، تكون ريح قوية شديدة ، تكون ريح حارة .

((**فإذا رأيتم ما تكرهون فقولوا: اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح وخير ما فيها وخير ما أُمرت به، ونعوذ بك من شر هذه الريح وشر ما فيها وشر ما أمرت به**)) ؛ عند هبوب الريح يستحضر العبد المؤمن أن هذه الريح مسخرة بتسخير الله سبحانه وتعالى وهو جل في علاه الآمر لها. قال في الحديث: ((خير ما أمرت به)) ثم قال ((شر ما أمرت به)) فهي مأمورة إما بخير أو بشر ، مأمورة إما بنفع أو بضر ، والأمر بيد الله سبحانه وتعالى ؛ فيستحضر العبد أولًا هذا الإيمان أن هذه مسخرة مدبرة بأمر الله مأمورة ، يستحضر هذا الإيمان ثم يلجأ إلى من أمرها ؛ الله أكبر !! انظر أثر الإيمان والاعتقاد الصحيح في سلامة منطق الإنسان وسلامة لسانه .

فإذًا عندما تهب الريح ويشتد هبوبها أول ما ينبغي على الإنسان أن يستحضر أنها مأمورة ، هذا الهبوب وهذه القوة وهذه الشدة بأمر الله لها ، الله جل وعلا هو الذي أمرها ، بعد ذلك يلجأ إلى الله؛ «اللهم» يسأل الله من خيرها وخير ما فيها وخير ما أمرت به ، ويستعيذ بالله عز وجل من شرها وشر ما فيها وشر ما أمرت به ، يفوض أمره إلى الله سبحانه وتعالى في طلب الخير وفي أيضا الوقاية من الشر ، والأمر كله بيد الله سبحانه وتعالى .

قال رحمه الله تعالى :

فيه مسائل ؛ الأولى: النهي عن سب الريح.

لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((لا تسبوا الريح)) ، وأيضا صح عنه أنه قال ((لا تلعنوا الريح)) ؛ فسب الريح حرام لا يجوز ، نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك .

الثانية: الإرشاد إلى الكلام النافع إذا رأى الإنسان ما يكره.

وهذا أيضا فيه ما تقدم ؛عندما ينهى الإنسان عن لفظ خاطئ يُذكر له البديل النافع . فقال ((لا تسبوا الريح)) وقال ((فإذا رأيتم ما تكرهون قولوا)) ووجَّه عليه الصلاة والسلام إلى الكلام النافع . والكلام النافع في هذا المقام أن تدعو الله وتلتجئ إليه أن يعطيك من خيرها وأن يكفيك سبحانه وتعالى شرها .

الثالثة: الإرشاد إلى أنها مأمورة.

هذا أخذه رحمه الله تعالى من قوله في موضعين في الحديث: ((خير ما أمرت به)) ، و ((شر ما أمرت به)) ؛ فهي مأمورة ، وجاء في حديث آخر أشرت إليه في سنن أبي داود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((لا تلعنوا الريح فإنها مأمورة)) ومعنى مأمورة: أي الله عز وجل هو الذي أمرها ، لم تتحرك هي بنفسها وإنما الله عز وجل هو الذي أمرها . ولما كانت بهذه الصفة –مأمورة لا تملك من الأمر شيء– فإن سبها سبٌ لآمرها .

الرابعة: أنها قد تؤمر بخير، وقد تؤمر بشر.

أنها أي الريح قد تؤمر بخير وقد تؤمر بشر ؛ «قد تؤمر بخير» أخذًا من قوله عليه الصلاة والسلام ((وخير ما أمرت به)) ، «وقد تؤمر بشر» أخذًا من قوله عليه الصلاة والسلام ((وشر ما أمرت به)) . إذًا هذه الريح عندما تهب ويشتد هبوبها قد تكون مأمورةً بخير وقد تكون مأمورةً بشر ؛فعليك يا عبد الله أن تلجأ إلى الله سبحانه وتعالى سائلا إياه جل في علاه أن يعطيك من خيرها وخير ما أمرت به ، وأن يصرف عنك شرها وشر ما أمرت به .

والله تعالى أعلم وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

الدرس الثامن والأربعون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد:

فيقول الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد ابن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في «كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد» :

باب قول الله تعالى ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ الآية [آل عمران:١٥٤].

وقوله: ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ [الفتح:٦] .

****

قال الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتابه التوحيد : ((**بابٌ قول الله تعالى ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾**)) ؛

هذه الترجمة عقدها رحمه الله تعالى لبيان أن من واجبات التوحيد العظيمة حسن الظن بالله تبارك وتعالى ، وأن مما يتنافى مع التوحيد سوء الظن بالله تبارك وتعالى ، ومرجع ذلك إلى باب المعرفة بالله سبحانه وتعالى الذي هو التوحيد العلمي ؛ المعرفة به وبأسمائه وصفاته وعظمته ورحمته وكرمه وإحسانه ، فإن العبد كلما عظُم نصيبه من هذه المعرفة بالله تبارك وتعالى فإنها تثمر فيه حسن ظنٍ بالله ، لأن منشأ حُسن الظن حُسن المعرفة بالله ، ومنشأ سوء الظن سوء الظن بالله ، فحسن الظن راجعٌ إلى حسن المعرفة بالله جل وعلا ، وسوء الظن راجع إلى سوء المعرفة بالله تبارك وتعالى ، وكلما كان العبد بالله سبحانه وتعالى أعرف كان أحسن ظنًا بالله جل وعلا ، وكلما كان بالله أجهل كان أسوء ظن بالله جل وعلا .

فمسألة حسن الظن وسوء الظن راجعة إلى المعرفة ، ولهذا جاء في كلام ابن القيم رحمه الله الذي نقله المصنف قال: «**ولا يسْلم من ذلك إلا من عرف الله وأسماءه وصفاته وموجب حكمته وحمده**» ، فالمسألة راجعة إلى ذلك وهذا يبين لنا أن باب المعرفة بالله عز وجل بابٌ شريف وعظيم للغاية ، وهو أشرف العلوم وأجلّها لأن ثماره وآثاره على العبد لا حدَّ لها ولا عد ؛ كلما زادت هذه المعرفة زاد الصلاح وزاد الخير وأيضا عظُم بعد الإنسان عن ما يسخط الله جل وعلا ، كما قيل : «من كان بالله أعرف كان منه أخوف ، ولعبادته أطلب ، وعن معصيته

أبعد» ؛ بمعنى أن هذه المعرفة لها آثارها وثمارها الكثيرة والله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر:٢٨] .

وهذه الترجمة كما قدمت عقدها رحمه الله تعالى لبيان هذا الأمر العظيم الذي هو حسن الظن بالله . وحسن الظن بالله معدودٌ في أعظم النعم التي يمن الله سبحانه وتعالى بها على عبده ، قد نقل الإمام ابن أبي الدنيا رحمه الله في كتابه "حسن الظن بالله" وهو كتابٌ مطبوع وعظيم في بابه ، روى بسنده عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : «والله الذي لا إله إلا هو ما أنعم الله على عبدٍ نعمةً أعظم من حسن الظن بالله» ؛ وهذا كلام حق ، لأن حسن الظن بالله إذا وجد حقًّا وصدقًا في العبد فهذا دليل صلاح العقيدة وصلاح المعرفة كما قدمت لأنه مبني عليه ، حسن الظن بالله مبني على حسن المعرفة بالله سبحانه وتعالى ، فإذا وُجد فعلًا وحقًّا وصدقًا في العبد حسن الظن بالله تبارك وتعالى فهذه أجلّ النعم وأعظم المنن .

وإذا وُجد في العبد حسن الظن بالله فالله عند ظن عبده به كما جاء في الصحيحين الحديث القدسي أن الله تبارك وتعالى قال : ((أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي)) وهو في الصحيحين من حديث أبي هريرة ، ورواه أحمد في المسند رحمه الله وزاد ((إِنْ ظَنَّ بِي خَيْرًا فَلَهُ ، وَإِنْ ظَنَّ شَرًّا فَلَهُ)) ، وجاء في الحديث الآخر حديث واثلة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((قال الله تعالى : أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي فَلْيَظُنَّ بِي مَا شَاءَ)) . فباب حسن الظن بالله عز وجل باب عظيم ومبارك على العبد ومنشؤه صلاح الاعتقاد وصلاح المعرفة وصلاح الإيمان بالله تبارك وتعالى.

وسوء الظن كما قدمت راجعٌ إلى خلل في الاعتقاد وفساد في الإيمان ، ولهذا عدَّ الله سوء الظن في أوصاف المشركين وأوصاف المنافقين كما في الآية الآتية التي أشار إليها ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ [الفتح:٦] ؛ فذكر ظن السوء في أوصاف أهل النفاق وأهل الشرك بالله سبحانه وتعالى ، وذكر حسن الظن به تبارك وتعالى في أوصاف أهل الإيمان ، لأن الإيمان الحق والإيمان الصادق يثمر ولابد حسن الظن بالله تبارك وتعالى .

ثم إن حسن الظن بالله جل وعلا ناشئٌ في العبد من الصلاح الذي أكرمه الله به ؛ صلاح الإيمان ويتبعه صلاح العمل ، ولهذا يوجد حسن الظن فيمن كان هذا وصفه ؛ صلَح منه الإيمان والعمل وكان مستقيمًا على طاعة الله تبارك وتعالى ، ولهذا يقول الحسن البصري رحمه الله تعالى : «إن المؤمن أحسن بربه الظن فأحسن العمل ، وإن الفاجر أساء بربه الظن فأساء العمل»، وانظر الارتباط بين حسن الظن وحسن العمل ، وسوء الظن وسوء العمل؛ كما أنه من جهة أخرى له ارتباط بالاعتقاد كما قدمت بيان ذلك .

فباب حسن الظن باب مهم للغاية في التوحيد ولهذا عقد المصنف رحمه الله تعالى هذه الترجمة ؛ لبيان مكانة حسن الظن بالله جل وعلا من التوحيد ، وأن حُسن الظن بالله من واجبات التوحيد العظيمة التي ينبغي أن يتحلى بها المؤمن ، وأن ضده الذي هو سوء الظن بالله جل وعلا إنما هو من أوصاف المنافقين والمشركين .

أورد رحمه الله مصدرًا هذه الترجمة به قول الله عز وجل: ﴿ **يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ** ﴾ ؛ وهذا ذكره الله سبحانه وتعالى في وصف أهل النفاق . وهذا السياق يتعلق بما كان في غزوة أحد وما حصل فيها من شدة وهمٍّ وكرب ثم جاء بعده النصر والفرج . والمنافقون لما حصل ما حصل قالوا هذا الكلام الذي هو قائم على سوء الظن بالله تبارك وتعالى ﴿ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ﴾ يعني أن هذا الحصل والهزيمة التي كانت في بدء الأمر فبدرت منهم على إثرها هذه المقالة ﴿ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ يعني جئنا هنا بغير اختيار ولم يؤخذ لنا رأي ، وهذا لم يقولوه تسليمًا بالقضاء ، يعني لم يقولوا «هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ» هذا الاستفهام بمعنى النفي يعني ليس لنا من الأمر من شيء ، ليس مرادهم ﴿ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ ﴾أي أن الأمر كله بتدبير الله ، وإنما قالوا ذلك عدم تسليم للقضاء ، لأن القضاء وقع والأمر حصل فيقولون ذلك عدم تسليم للقضاء ؛ ﴿ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ ﴾أي لو كان لنا من الأمر من شيء ووكل الأمر لنا لما حصل هذا الذي حصل . ولهذا ردَّ الله عليهم جل وعلا بقوله ﴿ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ﴾ ؛ أي بتدبيره وتسخيره ، ولا يكون في هذا الكون إلا ما شاءه سبحانه وتعالى وقضاه وقدَّره جل في علاه .

وهذا قاله هؤلاء عندما حصل شيء من الغلبة في أول الأمر للكفار فقالوا هذه المقالة ، والله سبحانه وتعالى قال قبل ذلك :﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ ﴾ وهذا شيء عجيب سبحان الله!! ﴿ يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ ﴾ والمراد بالطائفة هنا: أهل الإيمان وأهل التوكل على الله والثقة به وحسن الالتجاء إليه جل وعلا ؛ أنزل عليهم من بعد الغم أمنة نعاس ، في اصطفاف وفي معركة وأمامهم الأعداء ويُنزل الله عليهم في تلك اللحظات أمنةً نعاسا يغشى أهل الإيمان فقط ، أما هؤلاء أهل الكلمة التي هي سوء الظن بالله تبارك وتعالى فأمْرهم آخر ، قلوبهم مارجة ومضطربة ، لكن أهل الإيمان غشيَهم هذا النعاس وأمامهم العدو! حتى يزول عن هذه القلوب ما حصل من شدة وغم تطمئن ويدخلها الأمن والقوة والثبات ويتجدد منهم اللقاء للعدو بقوة وثبات وتمكن ، ويزول عن القلوب ما كان فيها من شيء من القلق أو الانزعاج أو نحو ذلك ؛ فأنزل عليهم في تلك اللحظات نعاسًا يغشى طائفة أهل الإيمان ، فكان أحدهم يميل رأسه من النعاس ويسقط سيفه من يده ثم يتنبَّه

ويأخذ السيف ، ويغشاه النعاس مرة أخرى ، فكان هذا النعاس أنزله الله تبارك وتعالى أَمَنَة وطمأنينة . ولهذا يختلف -كما جاء في هذا أثر عن ابن عباس رضي الله عنهما- يختلف النعاس في الجهاد والنعاس في الصلاة ؛ النعاس في الجهاد من الله ، وفي الصلاة من الشيطان . النعاس في الجهاد هذا أمنة يلقيها الله سبحانه وتعالى على قلب المجاهد سكونًا وطمأنينة ، وأما في الصلاة فهذا من الشيطان حتى يفوِّت عليه حظه ونصيبه من هذه الصلاة وما فيها من خير وذكر وبركة .

قال الله عز وجل: ﴿ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ ﴾ وهؤلاء أهل الريب ؛ أهمتهم أنفسهم : أي قلوبهم قلِقة ومضطربة ، ومثل هذه القلوب لم يغشاها النعاس الذي يصحبه السكون والأمنة والطمأنينة ؛ فكانت قلوبهم قلقة ومنزعجة وقالوا في أثناء ذلك مقالتهم هذه ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ ﴾ .

الشاهد أن الله عز وجل ذكر هذا الظن السيئ وصفًا للمنافقين أهل الريب وأهل الشك ؛ ذكره وصفا لهم قال: ﴿ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ﴾أي الظن الباطل ، ما هو الظن الباطل؟ ظنوا في هذه اللحظات أن الأمر الذي سيكون هو أنَّ الغلبة ستكون للكفار ، وأن الإسلام سيبيد ، وأن المسلمين لن يبقى لهم باقية ، وأن الدولة والغلبة تكون للمشركين ويبقى لهم ذلك بقاء مستمرًا ؛ ظنوا ذلك . وهذا ظن بالله باطل ظن سوء ، الله جل وعلا وعد أولياءه ومن نصر دينه وعدهم بالنصر والتمكين ؛ ولهذا مقام الجهاد من الأسس المهمة التي يقوم عليها حسن الظن بالله عز وجل أنه ينصر أولياءه وأنه يمكِّن لدينه وأنه يجعل دائرة السوء على أعداء دينه ، يقوم على الظن الحسن بالله تبارك وتعالى ، أما من ليس عنده حُسن ظنٍ بالله تبارك وتعالى كيف يكون جهاده؟ وكيف يكون ملاقاته للأعداء ؟ ويأتي تفسير ابن القيم رحمه الله تعالى لهذه الآية فيما نقله المصنف رحمه الله تعالى .

قال : **((وقوله ﴿ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ﴾** [الفتح:٦])) وهذا ذكره الله جل وعلا في سورة الفتح وصفًا لأهل الشرك وأهل النفاق ؛﴿ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ ، ولهذا قال بعض العلماء: لم يأتِ في القرآن وعيد مثل ما جاء في الوعيد على سوء الظن بالله كما في هذه الآية الكريمة ، فهذا وعيدٌ شديد ذكره الله سبحانه وتعالى في حق من كان سيء الظن بالله تبارك وتعالى .

ثم ساق رحمه الله كلام الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في تفسير الآية الأولى .

((قال ابن القيم في الآية الأولى: «فُسر هذا بأنه سبحانه لا ينصر رسوله وأن أمره سيضمحل ، وفُسر بأن ما أصابهم لم يكن بقدر الله وحكمته ، ففُسِّر بإنكار الحكمة وإنكار القدر، وإنكار أن يُتم أمر رسوله وأن يُظهره على الدين كله؛ وهذا هو ظن السوء الذي ظنه المنافقون والمشركون في سورة الفتح ، وإنما كان هذا ظن السوء لأنه ظن غير ما يليق به سبحانه وما يليق بحكمته وحمده ووعده الصادق»)) .

يقول ابن القيم رحمه الله ملخِّصًا ما جاء في ألفاظ السلف وعباراتهم في تفسير الآية ، لخَّص رحمه الله ذلك بهذه الخلاصة الدقيقة الوافية ؛ فقوله «فُسر.. وفسر» إلى آخره هذا تلخيص لتفسير السلف رحمهم الله تعالى لهذه الآية.

«**ففسر هذا بأنه سبحانه لا ينصر رسوله وأن أمره** -أي الرسول عليه الصلاة والسلام- **سيضمحل**» ؛ وهذا سوء ظنٍ بالله من جهة وعده الصادق بنصر رسوله ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [غافر:٥١] ، ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم:٤٧] والآيات في هذا المعنى كثيرة ، وهذا وعد من الله عز وجل ؛ فمن ظن هذا الظن أن الله لا ينصر رسوله ، وأن أمر الرسول عليه الصلاة والسلام سيضمحل وينتهي ، وأنه سيكون في تلك اللحظة غلبة للمشركين لا تقوم بعدها أي قائمة لأهل الإسلام ؛ فهذا ظن السوء بالله تبارك وتعالى من هذه الجهة .

قال : «**وفُسر بظنهم أن ما أصابهم لم يكن بقدر الله وحكمته**» ؛ ولهذا قال العلماء : إن قول هؤلاء ﴿ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ ﴾ هذا فيه إنكار للقدر ، لأن القدر وقع والأمر حصل وكان ، ثم يقولون «هل لنا من الأمر من شيء»!! إذًا هذا فيه عدم تسليم بالقدر القدر وقع والأمر حصل ، ثم يقولون هل لنا من الأمر من شيء؟! استفهام إنكاري أي ليس لنا من الأمر من شيء ، لو كان الأمر لنا لما حصل هذا القدر، كأن هذه العبارة مؤدى كلامهم ومآل كلامهم ؛ أنه لو كان لنا من الأمر من شيء وأُخذ منا الرأي لما حصل هذا القضاء . فهذا يتضمن إنكار القدر ؛ وهذا سوء ظن بالله من هذه الناحية من جهة إنكار القدر وعدم التسليم .

قال : «**وفُسر بظنهم أن ما أصابهم لم يكن بقدر الله وحكمته ، ففسر بإنكار الحكمة وإنكار القدر وإنكار أن يُتم أمر رسوله صلى الله عليه وسلم**» أيضا هذا الذي حصل لأهل الإيمان لله سبحانه وتعالى فيه حكمة ، ومن الحكَم التي فيه : أن يميز بين الخبيث والطيب ، ومن الحِكم: أن أمر هؤلاء انكشف وظهر ، وتمحص أهل الإيمان من أهل النفاق ، فلله سبحانه وتعالى فيه حكمة ، وأيضا فيه تمحيص لقلوب أهل الإيمان لأن مثل هذه الشدائد تقوِّي قلب المؤمن وصلته بالله وقوة توكله على الله سبحانه وتعالى ، ويُذهب الله عنه به ما وُجد في القلب من قصور أو ضعف ؛ فمثل هذه الأمور تقوي إيمان الشخص وتمحص إيمان المؤمن ؛ فهذا فيه حِكَم لله جل وعلا

عظيمة ، لكن كلام هؤلاء «يظنون بالله غير الحق» فُسر بإنكار القدر ، وفُسر بإنكار الحكمة على المعنى الذي أشرت إليه .

قال : «**وإنكار أن يتم أمر رسوله صلى الله عليه وسلم وأن يُظهره على الدين كله**» والله جل وعلا وعد بذلك وهو لا يخلف الميعاد . قال : «**وهذا هو ظن السوء**» .

من خلال عبارات السلف –وكلها صحيحة– ندرك المعنى الذي أشار إليه رحمه الله تعالى في المسائل قال : «الإخبار بأن ذلك أنواع لا تحصى» ؛ يعني سوء الظن بالله ليس نوعًا واحدًا بل أنواع كثيرة جدا تدخل تحت هذا الباب وسيأتي إشارةٌ من ابن القيم رحمه الله إلى شيء من ذلك .

قال: «**وهذا هو ظن السوء الذي ظنه المنافقون والمشركون في سورة الفتح**» أي في الآية التي ساقها ﴿ الظَّآنِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ﴾ .

«**وإنما كان هذا ظن السوء لأنه ظنَّ غير ما يليق به سبحانه**» كما تقدم معنا في الآية ﴿ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ﴾ أي غير ما يليق به جل وعلا وما يليق بحكمته وحمده ووعده الصادق .

قال رحمه الله :

((فمن ظن أنه يديل الباطل على الحق إدالة مستقرة يضمحل معها الحق، أو أنكر أن يكون ما جرى بقضائه وقدره، أو أنكر أن يكون قدَّره لحكمة بالغة يستحق عليها الحمد ، بل زعم أن ذلك لمشيئة مجردة فذلك ظن الذين كفروا ، فويل للذين كفروا من النار)).

يقول رحمه الله : «**فمن ظن أنه** –أي الله– **يديل الباطل على الحق**» يعني يجعل الدولة للباطل والغلبة للباطل ، «**يديل الباطل على الحق إدالة مستقرة**» بمعنى أن الإسلام بعد ذلك يضمحل ويتلاشى ولا يبقى منه شيء . من ظن ذلك «**أو أنكر أن يكون ما جرى بقضائه وقدره**» ومر معنا أن قولهم ﴿ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ يتضمن إنكار القدر ، لأن الأمر وقع ثم بعد وقوعه يقولون «هل لنا من الأمر من شيء؟» يعني لو كان لنا من الأمر ما حصل هذا ، فهذا يتضمن إنكار القدر .

«**أو انكر أن يكون قدره لحكمة**» ؛ وهذا أيضا سوء ظن بالله لأن مثل هذا القدر الذي حصل وهو شيء من الانتصار أو الغلبة للكفار لوقتٍ ما أو للحظات ما هذا فيه تمحيص وفيه تقوية لإيمان المؤمنين وتقوية لصلتهم بالله تبارك وتعالى ، وفيه أيضًا اتخاذ شهداء منهم وهذا اصطفاء واجتباء من الله يجتبي من شاء من عباده لذلك وهي

رتبة علية من رتب الدين ، ففيه هذه الحكم العظيمة . فقول هؤلاء أيضا يتضمن إنكار الحكمة وأن الله له حكمةٌ بالغة يستحق عليها الحمد .

«**بل زعم أن ذلك لمشيئة مجردة**» أي بدون حكمة أن هذه أشياء تقع بمشيئة الله لكن بدون حكمة ، ومعنى ذلك: إذا كان يعتقد في الله عز وجل مشيئة مجردة بدون حكمة معنى ذلك أنه يمكن أن ينسب إلى الله من يعتقد هذه العقيدة أنَّ الله يجعل الغلبة والظهور والتمكين للكفار ، وأن دينه يضمحل وأنه لا ينصر دينه ولا يُعلي كلمته؛ كل هذه تدخل تحت هذا الظن السوء باعتقاد أن مشيئة الله مشيئة مجردة ليست عن حكمة ، والله عز وجل له المشيئة النافذة والقدرة الشاملة والحكمة البالغة ، له سبحانه المشيئة النافذة ؛ ما شاء كان طبقًا لما شاء جل وعلا، وله القدرة الشاملة؛ فهو على كل شيء قدير ، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، وله الحكمة البالغة؛ لا يفعل شيء إلا عن حكمة جل وعلا . قال : «**فذلك ظن الذين كفروا ، فويل للذين كفروا من النار**» .

قال رحمه الله :

((وأكثر الناس يظنون بالله ظن السوء فيما يختص بهم، وفيما يفعله بغيرهم، ولا يسْلم من ذلك إلا من عرف الله وأسماءه وصفاته وموجب حكمته وحمده)) .

نعم يقول رحمه الله تعالى – وهذا تنبيه مهم – لما تكلم عن سوء الظن في ضوء الآيات المتقدمة وأنه من عقائد الكفار والمنافقين وهو من أوصاف أهل النفاق ؛ لما ذكر ذلك وساق الأدلة عليه نبَّه هنا إلى أن سوء الظن كثير من الناس لا يسلم منه ويصيبه ما يصيبه من سوء الظن بالله تبارك وتعالى ، ولاسيما عند الشدائد أو المصائب أو نقص الأحوال أو وجود الأمراض أو غير ذلك من الأمور ، يتطرق إلى كثير من الناس من سوء الظن بالله تبارك وتعالى ما يتنافى مع كمال التوحيد الواجب ، ويكون هذا من نقص إيمان العبد ونقص توحيده بالله جل وعلا ، ولهذا يقول : «**وأكثر الناس يظنون بالله ظن السوء فيما يختص بهم وفيما يفعله بغيرهم**» ؛ تجد مثلا شخص يُعرف بالعبادة والديانة والاستقامة والمحافظة على طاعة الله ومشهور بين الناس بذلك ، ثم يصاب مثلا بكرب عظيم وشدة عظيمة ، يصاب ببلاء ، بأسقام مثلا أوجاع أو أشياء من هذا القبيل ، فبعض من يكون عنده قصور في الإيمان أو قصور في التوحيد تجده مثلا يقول: "فلان !! فلان هو الذي حصل له كذا العابد المستقيم المحافظ على طاعة الله!! ما يستاهل ، فلان الذي حصل له !! لو كان حصل لفلان" انظر كيف يدخل عليه .

وذكر العلماء بعض النقول التي تأتي حتى ألسنة بعض العبَّاد ، تجد مثلا بعضهم يصاب بشيء من هذه الأمور ، أحدهم كان معروفا بشيء من العبادة فأصابه جرب قال : "هذا لا يصلح لمثلي ، هذا لجمل يصلح" ؛ هذا كله منشأه خلل في هذا الباب ، تجد الإنسان مثلًا يجد نفسه في فقر وفي قلة ذات يد إلخ وهو في عبادة وفي إيمان وصلاة وطلب علم ثم يمر بقصر لأناس فيهم فسق فيقع فيه شيء من سوء الظن بالله يقول : "أنا اللي عندي

عبادة وعندي الاستقامة وعندي الطاعة ولا عندي مثل هؤلاء ولا حصل لي مثل هؤلاء ، وهؤلاء فساق وحصلوا هذا الأمر!! " . مثل هذه الأمور راجعة إلى خلل في الإنسان وفي إيمانه ، وقصور في هذا الباب ؛ باب حسن الظن بالله ، وباب المعرفة بالله تبارك وتعالى ، وإلا هذا الأمر الذي هو ما يحصل للإنسان من نِعم الدنيا أيًّا كانت صحة عافية مال مسكن الخ ، أو ما يقابل ذلك من فقر أو مرض أو سقم أو غير ذلك هذا كله ابتلاء وامتحان ، لم يعطِ هذا تكريمًا ولم يعطِ هذا تضييقًا ، وإنما ابتلى هذا وابتلى هذا ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ [الفجر:١٥-١٧] قال الله ﴿كَلَّا﴾ يعني ليس كما تظنون أو كما تقولون وإنما هذا مبتلى وهذا مبتلى ، هذا مبتلى بالسراء وهذا مبتلى بالضراء ، وذاك نجاحه في ابتلائه أن يشكر الله سبحانه وتعالى ، وهذا نجاحه في ابتلائه أن يصبر على قضاء الله ، فإذا شكر من ابتُلي بالسراء نجح في امتحانه ، وإذا صبر من ابتلي بالضراء نجح في امتحانه .

وبين العلماء خلاف قوي أيهم أفضل؛ الغني الشاكر أو الفقير الصابر؟ لأن كل منهما حقق العبودية التي عليه ، الغني الشاكر حقق العبودية التي هي عبودية الشكر ، والفقير الصابر حقق العبودية التي هي عبودية الصبر ، يقول ابن القيم رحمه الله سألت شيخ الإسلام عن هذه المسألة قلت : أيهما أفضل الغني الشاكر أو الفقير الصابر؟ قال: «الأفضل منهما الأتقى لله» ، قيل له فإن كانوا في التقوى سواء؟ قال: «هم في الأجر سواء» ؛ لأن هذا حقق عبوديته فشكر ، وهذا حقق عبوديته فصبر ، فكلٌ منهما حقق العبودية التي تتعلق به ؛ ذاك عبوديته الشكر فحققها ، وهذا عبوديته الصبر فحققها فهم في الأجر سواء يقول رحمه الله تعالى .

فالشاهد أن كثير من الناس لا يسلم من ذلك ، ومنشأ ذلك خلل وقصور وضعف في تحقيق الإيمان الواجب بالله سبحانه وتعالى .

قوله «**ولا يسْلم من ذلك إلا من عرف الله وأسماءه وصفاته وموجب حكمته وحمده**» هذا تنبيه إلى أهمية معرفة الأسماء والصفات والعناية بها ، وأن العبد كلما قوي عنايةً بهذا الباب الشريف العظيم وعظمت عنايته به ترتب على ذلك أنواع وأبواب من الصلاح والفلاح ؛ من صلاح القلب وصلاح اللسان وصلاح العمل بحسب هذه المعرفة وقوتها في قلب العبد .

قال رحمه الله :

((فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا، وليتب إلى الله ويستغفره من ظنه بربه ظن السوء)) .

قال: «**فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا**» يعني يعتني بهذا المقام العظيم مقام حسن الظن بالله المبني على حسن المعرفة به ، «**وليتب إلى الله ويستغفره من ظنه بربه ظن السوء**» . ثم يقول :

((ولو فتشت من فتشت لرأيت عنده تعنتا على القدر وملامة له، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، فمستقل ومستكثر، وفتش نفسك: هل أنت سالم؟ فإن تنج منها تنج من ذي عظيمة ، وإلا فإني لا إخالك ناجيا)) .

وهذه ثمرة العلم والتعلم والتفقه في دين الله تبارك وتعالى ؛ عندما يتعلم المرء بابًا من أبواب العلم يبدأ يحاسب نفسه في ضوء ما تعلم ، وينظر يفتش في قصوره في هذا الجانب وتقصيره والنقص الذي عنده ، ثم يبدأ يعالج نفسه ويعالج القصور والخلل الذي عنده ، وإلا ما فائدة العلم ؟ وما فائدة التكثر من العلم ؟ ولهذا لما بيّن هذه المسألة رحمه الله قال –والكلام لابن القيم– «**ولو فتشت من فتشت لرأيت عنده تعنتا على القدر وملامة له وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا**» أي من أنواع الاعتراضات والتسخطات وعدم الرضا بما قضاه الله سبحانه وتعالى «فمستقلٌ ومستكثر» ؛ هذا حال أكثر الناس .

ثم يقول مؤكدًا : «**وفتش نفسك هل أنت سالم؟**» تفقد نفسك ،حاسب نفسك ،زِن نفسك «حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا وَزِنُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُوزَنُوا » ، زن أعمالك وفتش قلبك ، والله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر:١٨] ؛ وهذا أصل كما قال العلماء في محاسبة النفس ؛ فليحاسب اللبيب نفسه في هذا الباب وليتُب إلى الله ، إن كان عنده خلل أو تقصير أو إخلال في هذا المقام العظيم فليتب إلى الله سبحانه وتعالى من ذلك .

قال: «**فإن تنج منها**» أي هذه الخصلة ، البيت قيل في مقام آخر لكن سياقه هنا «إن تنج منها» أي من هذه الخصلة «**تنج من ذي عظيمة**» تنجو من أمر عظيم خطير جدا مهلِك لصاحبه ومردي له ، كما قال الله تعالى ﴿ ذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴾ [فصلت:٢٣-٢٤] .

«**وإلا فإني لا إخالُك ناجيا**» أي لا أظنك ناجيا إن لم تنجُ من هذه الخصلة ، ومعنى ذلك أن هذه الخصلة لها ما وراءها ؛ إن نجوْت منها التي هي سوء الظن فقد نجوت ، وإن لم تنجُ منها لا أظنك تنجو ، لأن هذا يعتبر أساس مهم ، فإذا صلح هذا الأساس صلح ما بعده ، وإذا فسد واختل هذا الأساس اختل أيضًا ما بعده .

قال رحمه الله تعالى :

فيه مسائل؛ الأولى: تفسير آية آل عمران.

وهي قول الله عز وجل: ﴿ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾، ومر معنا كلام ابن القيم رحمه الله تعالى الوافي في تفسيرها .

الثانية: تفسير آية الفتح.

وهي قول الله عز وجل: ﴿ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ﴾ إلى تمامها ، ومر أيضًا شيء مما يتعلق بتفسيرها .

الثالثة: الإخبار بأن ذلك أنواعٌ لا تحصر.

الإخبار أن ذلك أي سوء الظن بالله أنواع لا تحصى ، أي أنواع كثيرة جدًا لا يمكن حصرها ، لأن كل خلل مبني على سوء المعرفة بالله وأسمائه وصفاته سبحانه وتعالى راجع إلى هذه الخصلة التي هي سوء الظن بالله جل وعلا .

الرابعة: أنه لا يسلم من ذلك إلا من عرف الأسماء والصفات وعرف نفسه.

«أنه لا يسلم من ذلك إلا من عرف الأسماء والصفات» وهذا المعنى مر عند ابن القيم رحمه الله في كلامه المتين قال: «ولا يسلم من ذلك إلا من عرف الله وأسماءه وصفاته وموجب حكمته وحمده» ، وعرفنا الارتباط بين حسن الظن والمعرفة ، لأن مبنى حسن الظن على حسن المعرفة ، المعرفة بالله وأسمائه وصفاته ورحمته وجلاله وكماله .
ولهذا ينبغي على المسلم أن يصاحبه حسن الظن بالله في كل تعبُّداته ، وأوضح ذلك :

- مثلًا إذا دعوتَ الله فأحسن الظن بالله وتذكر قول الله عز وجل: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر:٦٠] فأحسِن الظن بالله أن يجيب دعاءك وأن يحقق رجاءك وأن يعطيك سؤلك .
- إذا كنت مذنبًا ومقصِّرًا أحسن الظن بالله؛ لا تستولي عليك الذنوب والمعاصي والآثام وتقول ذنوبي كثيرة ويستولي عليك اليأس والقنوط ، لا تكن كذلك أحسن الظن بالله وأنه سبحانه يغفر الذنوب مهما عظمت ومهما كثرت وهو القائل جل وعلا: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر:٥٣] .
- إذا أيضًا قلَّت ذات يدك وحاجتك أحسن الظن بالله وأنه واسع الفضل وأن خزائنه ملئى وأنه عظيم المن ، وقُل هذا لقصور في أو رحمة بي أو لطفًا بي ، أحسن الظن بالله سبحانه وتعالى ، في حال فقر الإنسان وقلة ذات يده يحسن الظن بالله بأنه واسع الفضل وأن فرجه قريب وأن تيسيره قادم وأن الرزق بيده ، ويصبر أيضا على قلة ذات اليد ويقول هذا من لطف الله بي وإرادة الخير لي ، يحسن الظن بالله جل وعلا .

- في كل مقام من مقامات الدين ينبغي أن يستصحب المرء حسن الظن بربه ومولاه ؛ إذا كان الإنسان مريض يحسن الظن بالله «اللهم رب الناس مذهب البأس اشف أنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك» ، انظر قول إبراهيم الخليل: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ [الشعراء:٨٠] ، يحسن الظن بالله أن يشفيه ويلجأ إلى الله ويدعوه ، لا يقول عن مرض من الأمراض "هذا مستعصي ولا يمكن أن .." ؛ أحسن الظن بالله أيًا كان المرض ، وثمة أمراض تُعد مستعصية ولجأ من أصيب بها إلى الله وصدق مع الله وأحسن ظنه بالله سبحانه وتعالى ومنَّ الله عليه بالشفاء ، والقصص في واقع الناس والحكايات في هذا الباب كثيرة جدا .

فينبغي أن يكون العبد مستصحبًا حسن ظنه بربه سبحانه وتعالى في كل مقاماته وفي كل أحواله ، وكما قدمت أيضا هذا الحسن في الظن بالله سبحانه وتعالى راجع إلى حسن المعرفة به وبأسمائه وصفاته ورحمته وكرمه وإحسانه وجوده وفضله .. إلى غير ذلك من أسمائه الحسنى وصفاته العليا .

قال : «**وعرف نفسه**»؛ إذا كان عندك اتهام في قضيةٍ ما اتهم نفسك التي رُكِّبت على الظلم والجهل ﴿ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب:٧٢] ، فإذا كان ثمة قصور أو خلل أو نقص لا تتهم ربك اتهم نفسك ، اعرف نفسك أنك ظلوم وجهول وأنك مقصِّر ، قُل هذه ذنوبي ، هذا تقصيري ، هذا تفريطي أنا العبد المقصر ، لُمْ نفسك اتهم نفسك .

ولهذا ينبغي أن يُنتبه إلى أن سوء الظن بالله مبني على الجهل بالله والجهل بالنفس ، لأن من عرف الله حقًا بأسمائه وصفاته سبحانه وتعالى أحسن الظن به ولابد ، ومن عرف أيضا نفسه حقًا بظلمها وجهلها وتقصيرها وتفريطها وأخطائها أساء الظن بنفسه لا بربه . ولهذا عندما يتحرك في الإنسان سوء الظن فليجعله على نفسه الظلومة الجهولة ، لا يجعل سوء الظن بربه الحكيم العليم الرءوف اللطيف المحسن المنان المنزه عن النقائص جل وعلا ذي الجلال والكمال والعظمة ، يجعل سوء ظنه بنفسه . ولهذا إذا وُجد سوء الظن فهذا منشأه : عدم معرفة الإنسان بربه ، وعدم معرفته بنفسه .

وهذه الفائدة ثمينة جدًا ختم بها رحمه الله قال : «**الرابعة أنه لا يسلم من ذلك إلا من عرف الأسماء والصفات**» هذه معرفة الرب بأسمائه وصفاته «**وعرف نفسه**» ؛ معرفة الأسماء والصفات: أي معرفة الله بالكمال كمال الأسماء وكمال الصفات والعظمة والجلال والغنى والرحمة واللطف إلى غير ذلك ، وعرف نفسه بالظلم والجهل والذنب والتقصير والخطأ ، فيجعل سوء الظن بنفسه لا بربه سبحانه وتعالى .

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك .

اللهم صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .



شرح كتاب التوحيد

لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه اللّه

من الدرس ٤٩ إلى الدرس ٥٢

شرح الشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظهما اللّه تعالى

١٤٤٠/٠٥/٢٤ هـ

الدرس التاسع والأربعون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد:

يقول الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد ابن عبد الوهاب التميمي رحمه الله تعالى في كتابه «كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد» :

بابٌ ما جاء في منكري القدر

وقال ابن عمر رضي الله عنهما : «والذي نفس ابن عمر بيده لو كان لأحدهم مثل أحدٍ ذهبا ثم أنفقه في سبيل الله ما قبِله الله منه حتى يؤمن بالقدر». ثم استدل بقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره)) رواه مسلم .

****

قال المصنف الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتابه التوحيد : ((**بابٌ ما جاء في منكري القدر**)) أي ما جاء في شأنهم وحقهم من الوعيد الشديد والتهديد العظيم ، وأن إنكار القدر كفرٌ بالله سبحانه وتعالى محبطٌ للأعمال ومبطل لها ؛ وذلك أن الإيمان بالقدر بإجماع أهل العلم أصل من أصول الإيمان وأساس من أسسه العظام ، وأن الأمور كلها بتقدير الله سبحانه وتعالى ، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، له جل وعلا القدرة الشاملة والمشيئة النافذة والحكمة البالغة جل وعلا ، لا يكون في ملكه إلا ما يشاء ، لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه جل وعلا ، خلق كل شيء ، خلق العباد وخلق أعمال العباد ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٦] .

فالإيمان بالقدر أصل من أصول الإيمان ، ومن يكفر بشيء من أصول الإيمان تبطل أعماله ولا تُقبل منه طاعاته ، لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧] ، ومن كان جاحدًا لشيء من أصول الإيمان فما اتقى الله جل وعلا وما حقق الإيمان الذي يُبنى عليه دين الله جل وعلا، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة:٥].

والإيمان بالقدر أحد هذه الأصول العظيمة التي يبنى عليها دين الإسلام ، لأن مثَل الإسلام مثل شجرة لها أصل ثابت وفروع متنوعات وثمار أيضا متعددات كما قال الله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ

﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم:٢٤] . وأصول الإيمان التي تقوم عليه شجرة الإيمان هي هذه الأصول الستة ، ومحل هذه الأصول القلب ؛ الإيمان بالله والملائكة والكتب والرسل والإيمان باليوم الآخر والقدر خيره وشره من الله تبارك وتعالى .

فهذه الترجمة عقدها رحمه الله تعالى لبيان مكانة الإيمان بالقدر من توحيد الله ؛ وذلك أن توحيد الربوبية لا يتم إلا بالإيمان بالقدر ، وأن الأمور بتقدير الله ، وأن الله خالق كل شيء ، فمن جحد القدر ما آمن بربوبية الله ، ومن لم يؤمن بربوبية الله ما وحَّد الله سبحانه وتعالى ، ولهذا جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : «القدر نظام التوحيد ؛ فمن وحَّد الله وكذَّب بالقدر نقض تكذيبه توحيده» ، وهذا يبين لنا الصلة بين الإيمان بالقدر والتوحيد، وأن التوحيد لا ينتظم إلا بالإيمان بالقدر ، فمن لم يؤمن بالقدر لم يوحد الله ، لأن تكذيبه بقدر الله سبحانه وتعالى ناقضٌ لتوحيده ، وهذا وجه إيراد المصنف رحمه الله تعالى لهذا الباب في كتاب التوحيد ، لأن التوحيد لا يستقيم ولا يتم إلا بالإيمان بالقدر وأن الأمور كلها بمشيئة الله سبحانه وتعالى وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن .

قال : ((**باب ما جاء في منكري القدر**)) أي من الوعيد الشديد .

قال ((**وقال ابن عمر**)) عبد الله ابن عمر رضي الله عنه وعن أبيه وعن الصحابة أجمعين .

قال : ((**والذي نفس ابن عمر بيده لو كان لأحدهم مثل أحد ذهبا ثم أنفقه في سبيل الله ما قبِله الله منه حتى يؤمن بالقدر . ثم استدل بقول النبي صلى الله عليه وسلم: الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره**)) ؛ وذِكر ابن عمر رضي الله عنهما لذلك له قصة وهي : أن يَحْيَى بْنِ يَعْمَرَ رحمه الله تعالى وَحُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ –وهما من التابعين ممن أدركوا الصحابة رضي الله عنهم– يقول: خرجتُ أَنَا وَحُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ حَاجَّيْنِ أَوْ مُعْتَمِرَيْنِ ، وَكَانَ أَوَّلَ من تكلم بالقدر قِبَلنا –أي في العراق– مَعْبَدٌ الْجُهَنِيُّ ، فقلنا لعلنا ندرك أو نظفر بأحدٍ من أصحاب رسول الله . قال رحمه الله : فاتفق لنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما فسألناه قلنا له : إن قِبَلنا أناسًا يقرؤون القرآن ويتقفَّرون العلم ويقولون لا قدر ؛ أي مع كونهم يقرؤون القرآن – ومعنى يتقفرون العلم: أي يطلبون العلم ويشتغلون بطلب العلم– ومع هذا يقولون لا قدر ، وهذا أيضًا يستفاد منه أن بعض من يقرأ القرآن ويشتغل بطلب العلم قد يدخل عليه بعض الدواخل من الأمور التي هي من فساد الاعتقاد ويكون دخولها عليه ليس من جهة القرآن ولا من جهة سنة النبي عليه الصلاة والسلام فإنهما لا يأتيان إلا بخير ، ولكن تدخل عليه الدواخل من جهة الشبهات أو أشياخ الضلال أو علماء الباطل أو وساوس الشيطان أو نحو ذلك ، فذكر له أن قِبلهم أقوام يتقفرون العلم ويقرؤون القرآن ومع ذلك يقولون لا قدر ، فقال لهم عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : «فَإِذَا لَقِيتَ أُولَئِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِنْهُمْ وَأَنَّهُمْ بُرَآءُ مِنِّي ، وَالَّذِي يَحْلِفُ بِهِ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ لَوْ أَنَّ لِأَحَدِهِمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا فَأَنْفَقَهُ مَا قَبِلَ اللهُ مِنْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ» لماذا ؟ لأنه فقَد أصل وكذَّب بأصلٍ يقوم عليه دين الله تبارك وتعالى ، وإذا فُقِد الأصل لم يُقبل العمل ، لأن من يعمل وهو جاحد لشيء من

أصول الإيمان لا يكون متقيا لله والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧] ، وأين التقوى إذا كان يجحد شيئا من أصول الإيمان العظيمة وأسسه المتينة التي دل عليها كتابه وسنة نبيه صلوات الله وسلامه وبركاته عليه؟!

قال: «لَوْ أَنَّ لِأَحَدِهِمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا» ليس هذا مرادًا به التحديد ، بل لو كان له مثل جبال الدنيا ومثل الأرض وما فيها ، لكن هذا إشارة ومثال لبيان فساد أعمالهم مهما كثرت ، لو كان عنده مثل أحد ذهبًا وأنفقه في سبيل الله يبتغي بإنفاقه وجه الله سبحانه وتعالى ما تقبَّل الله سبحانه وتعالى منه ما دام منكرًا للقدر ، قال «حتى يؤمن بالقدر» .

ثم استدل بقول النبي صلى الله عليه وسلم : **((الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وأن تؤمن بالقدر خيره وشره))** ؛ ساق رحمه الله لهما حديث والده عمر بن الخطاب عن النبي صلى الله عليه وسلم في ذكر مجيء جبريل عليه السلام إلى النبي عليه الصلاة والسلام في صورة رجل فسأله عن الإسلام وعن الإيمان وعن الإحسان ، وفي جواب النبي صلى الله عليه وسلم لسؤاله عن الإيمان قال : ((أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وأن تؤمن بالقدر خيره وشره)) ، وهذه الستة المذكورات في هذا الحديث هي أصول الإيمان الستة التي يقوم عليها الإيمان ، وهي أصولٌ مترابطة متلازمة ؛ لا يُقبل الإيمان ببعضها إلا بالإيمان بباقيها ، والكفر ببعضها كفرٌ بها كلها لأنها مترابطة ومتلازمة ، فمن يكفر بالقدر كافرٌ بكل أصول الإيمان ولا تُقبل منه أعمال ، مثل من يكذب بالرسل أو يكذب بالكتب أو يكذب باليوم الآخر أو نحو ذلك ؛ فالتكذيب بأصل واحد من أصول الإيمان كفر بالله سبحانه وتعالى وكفر بالقرآن وكفر بالرسل عليهم صلوات الله وسلامه ومُبطل للأعمال كلها كما تقدم معنا في الآية الكريمة ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة:٥]

قال رحمه الله تعالى :

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أنه قال لابنه: «يا بني إنك لن تجد طعم الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((إن أول ما خلق الله القلم، فقال له اكتب، فقال: رب وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة)) يا بني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((من مات على غير هذا فليس مني)) »

وفي رواية لأحمد: «إن أول ما خلق الله تعالى القلم، فقال له: اكتب، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة» . وفي رواية لابن وهب: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره أحرقه الله بالنار)) .

****

قال رحمه الله تعالى : ((**وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أنه قال لابنه**)) أي ابنه الوليد ابن عبادة كما جاء مصرحًا باسمه في بعض الروايات .

((**قال لابنه : يا بني إنك لن تجد طعم الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك**)) ؛ طلب منه أن يوصيه فأوصاه بهذه الوصية التي هي الإيمان بالقدر وبيَّن له كيف يكون الإيمان بالقدر، ولهذا سيأتي في الفوائد المستنبطة قول الشيخ رحمه الله: «كيفية الإيمان بالقدر» ، فبين له كيف يؤمن بالقدر ؛ وذلك بأن يؤمن بأن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، بمعنى أن الأمور كلها بتقدير الله سبحانه وتعالى ؛ الحسنات والسيئات ، الطاعات والمعاصي ، الخيرات والشرور ، كل شيء بقدر كما في الحديث ((كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ، حَتَّى الْعَجْزِ وَالْكَيْسِ)) ، فكل الأمور بتقدير الله سبحانه وتعالى ، والله جل وعلا خالق كل شيء الله ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٦] .

((**فقال يا بني إنك لن تجد طعم الإيمان**)) ومعنى طعم الإيمان : أي حلاوة الإيمان ولذة الإيمان .

((**حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك**)) أي حتى تحقق الإيمان بالقدر على هذه الصفة ويكون عندك علم اليقين بأن الأمور كلها بقدر الله سبحانه وتعالى وأن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك .

وبيَّن رضي الله عنه وأرضاه أن طعم الإيمان وحلاوته لا يذاق إلا بذلك ، وإذا نظرت مع هذا إلى قول النبي عليه الصلاة والسلام : ((ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ)) فالذي يجحد القدر أين محبته لله؟ وأين محبته لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه وهو جاحد لما دل عليه كلام ربه، وجاحد لما دل عليه كلام رسوله صلوات الله وسلامه عليه؟ والآيات في الإيمان بالقدر في القرآن كثيرة ، والأحاديث في الإيمان بالقدر عن الرسول صلى الله عليه وسلم كثيرة ؛ فأين إيمانه بالله؟ وأين محبته لله؟ وأين إيمانه بالرسول؟ وأين محبته للرسول عليه الصلاة والسلام إذا كان جاحدًا ومكذبًا بالقدر ؟! فحلاوة الإيمان لا يذوقها مع التكذيب بأقدار الله سبحانه وتعالى . ومثله أيضا الحديث الآخر : ((ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا)) .

قال ((**لن تجد طعم الإيمان حتى تعلم**)) ؛ مراده بقوله «تعْلَم» : أي علم يقين لا شك فيه ولا ريب ، والإيمان لا يكون مقبولًا إلا إذا كان عن يقين ، أما إذا داخله شيء من الشك والريب فإنه لا يكون إيمانًا ، قد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ [الحجرات:١٥] أي أيقنوا ولم يشكُّوا .

قال: ((**حتى تعلم أن ما أصابك**)) من خير أو شر ، من نفع أو ضر ، من صحة أو مرض ، من غنى أو فقر إلى غير ذلك ((**لم يكن ليخطئك**)) ؛ لأن مشيئة الله سبحانه وتعالى نافذة وما شاء الله سبحانه وتعالى كان ، لا راد لحكمه ولا معقب لقضائه ، ولهذا جاء في الحديث عن نبينا عليه الصلاة والسلام أنه قال: ((وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ قَدَّرَ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ)) ، لأن مشيئة الله نافذة ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن:١١] . ((**فما أصابك**)) أي من خير أو شر ، من صحة أو مرض ، من غنى أو فقر إلى غير ذلك ((**لم يكن ليخطأك**)) لأن مشيئة الله سبحانه وتعالى نافذة ولا راد لقضائه ولا معقب لحكمه سبحانه وتعالى . ((**وما أخطأك لم يكن ليصيبك**)) أي ما أخطأك من هذه الأشياء لم يكن ليصيبك لأن الله ما قدَّر ذلك ، ولو كان قدره الله لوقع طبقًا لما قدر في الوقت الذي قدر على الوصف الذي قدر سبحانه وتعالى .

ثم قال مستدلًا لذلك : ((**سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، فقال: رب وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة**)) قد جاء في صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ، وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ)) ، فقوله في هذا الحديث حديث عبادة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ((إن أول ما خلق الله القلم)) المراد بهذه الأولية: أي في هذا العالم السماوات والأرض وهذه المخلوقات ، أما العرش فكان قبل ذلك كما يفيده حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال : ((وكان عرشه على الماء)) .

فقوله ((**أول ما خلق الله القلم**)) هذه الأولية أي هذا العالم السماوات والأرض وهذه المخلوقات أول شيء خلقه الله سبحانه وتعالى منها هو القلم ؛ فأمره سبحانه وتعالى أن يكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة ، وكان خلقه قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، وأما العرش فمخلوق قبل ذلك ، وهذا قول جمهور أهل العلم : أن الأولية هنا أي في هذا العالم ، وأما العرش فهو مخلوق قبل القلم كما يفيد ذلك حديث عبد الله بن عمرو قال صلى الله عليه وسلم : ((كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ)) ، فالعرش مخلوقٌ قبل القلم لكن القلم خُلق بعد ذلك وهو أول شيء خلقه فيما يتعلق بهذا العالم.

وأول ما خلقه أمره الله سبحانه وتعالى بالكتابة ((**قال اكتب ، فقال القلم رب وماذا أكتب ؟**)) يا رب ماذا أكتب؟ أي شيء تأمرني أن أكتبه ؟

فقال الله سبحانه وتعالى: ((**اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة**)) ؛ مقادير كل شيء هذه الكلية لكل شيء تتناول في جملة ما تتناوله أعمال العباد وأفعال العباد وما يحصل للعباد؛ من حياة أو موت أو رزق أو صحة

أو مرض ، وأيضا أعمالهم من كفر أو إيمان أو طاعة أو معصية أو غير ذلك ، هذه كلها كُتبت قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة .

وهذه الكتابة لأعمال ومقادير العباد إلى قيام الساعة **((حتى تقوم الساعة))** فالكتابة إلى هذا الوقت حتى تقوم الساعة ، فكل ما هو كائن إلى أن تقوم الساعة كُتب ، كُتب قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ؛ خلق الله القلم وأمره أن يكتب بكل ما هو كائن إلى يوم القيامة ؛ فكُتب ذلك ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (٥٢) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ﴾ [القمر:٥٢-٥٣] ، ﴿إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج:٧٠] ، فكل ذلك كُتب في اللوح المحفوظ أمر الله القلم أن يكتب فكتب ذلك كله .

فإذًا الإيمان بأن الله كتب مقادير الخلائق حتى قيام الساعة هذا الإيمان يقتضي أن يؤمن مثل ما قدَّم عبادة رضي الله عنه بأن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، كيف يخطئ العبد وهو مقدَّر من ذلك الحين ومن ذلك الوقت**!!** وما شاء الله سبحانه وتعالى كان في الوقت الذي يشاء على الصفة التي يشاء سبحانه وتعالى .

قال : **((يا بني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من مات على غير هذا فليس مني))** ؛ وهذا فيه براءة النبي عليه الصلاة والسلام ممن لم يؤمن بالقدر . ومرَّت معنا براءة ابن عمر من أولئك الذين يقولون الأمر أُنُف ولا قدر ، قال «فَإِذَا لَقِيتَ أُولَئِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِنْهُمْ وَأَنَّهُمْ بُرَآءُ مِنِّي» .

قال : **((وفي رواية لأحمد: إن أول ما خلق الله تعالى القلم، فقال له: اكتب، فجرى في تلك الساعة))** أي الساعة التي أمره الله سبحانه وتعالى فيها بالكتابة **((جرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة))** أي كتب كل ما هو كائن من مقادير العباد وأعمال العباد وأرزاق العباد وآجال العباد وأحوالهم إلى غير ذلك كله في تلك الساعة جرت كتابته إلى يوم القيامة . وهذا فيه عظمة الله سبحانه وتعالى ، وأنه جل وعلا على كل شيء قدير ، ولا يعجزه شيء جل في علاه . فجرى كتابة القلم بكل ما هو كائن . ولهذا لا يكون العبد مؤمنًا بالقدر إلا إذا آمن بهذه الكتابة .

والعلماء يقولون إن الإيمان بالقدر له أربع مراتب ، لا يكون العبد مؤمنا بالقدر إلا بالإيمان بها :

- المرتبة الأولى : علم الله الشامل المحيط بما كان وبما سيكون وبما لم يكن لو كان كيف يكون ، وأنه جل وعلا أحاط بكل شيء علما وأحصى كل شيء عددا .
- ثم الأمر الثاني أو المرتبة الثانية من مراتب الإيمان بالقدر: الكتابة ؛ أن الله عز وجل كتب قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ما هو كائن إلى يوم القيامة ﴿إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ﴾ [الحج:٧٠] .

- المرتبة الثالثة : الإيمان بمشيئة الله وأن كل شيء بمشيئته وإذنه سبحانه وتعالى ولا يكون إلا ما شاء الله ، فله جل وعلا المشيئة النافذة والقدرة الشاملة ، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن . قال الإمام الشافعي رحمه الله في أبيات له في هذا المعنى :

مَا شِئْتَ كَانَ وإنْ لم أشَأْ	وَمَا شِئْتُ إن لَمْ تَشأْ لَمْ يكنْ
خَلقْتَ العِبَادَ على مَا عَلِمْتَ	وَفِي العِلْمِ يَجري الفَتَى وَالْمُسِنْ
عَلَى ذَا مَنَنْتَ ، وَهَذا خَذلْتَ	وهذا أعنتَ ، وذَا لم تُعِـــنْ
فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ ، وَمِنْهُمْ سَعِيدٌ	وَمِنْهُمْ قَبِيحٌ ، وَمِنْهُمْ حَسَنْ

أي أن هذا كله بقضاء الله سبحانه وتعالى وقدره جل في علاه .

- والمرتبة الرابعة: الخلق والإيجاد والتكوين وأن الله عز وجل خالق كل شيء﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٦] ، ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر:٦٢] .

فهذه مراتب القدر ؛ علمٌ كتابة مولانا مشيئته وخلْقه وهو تكوينٌ وإيجاد

فهذه مراتب القدر الأربعة ، ولا يكون العبد مؤمنًا بالقدر إلا بالإيمان بها .

قال : ((**وفي رواية لابن وهب: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره أحرقه الله بالنار**)) ؛ من لم يؤمن بالقدر: أي بمراتبه الأربعة التي تقدمت ، وقد كان القدرية الأوَل ينكرون القدر بمراتبه الأربعة بما في ذلك العلم والكتابة ينكرون ذلك كله ، ثم متأخروا القدرية صاروا ينكرون المشيئة والإيجاد ، ولهذا كان أئمة السلف رحمهم الله يقولون : «خاصموا القدرية بالعلم» أي علم الله عز وجل بما كان وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون خاصموهم بالعلم ؛ «فإن جحدوه كفروا ، وإن لم يجحدوه خُصموا» لأنها تقوم عليهم الحجة بذلك .

ومن كان يجحد القدر بمراتبه الأربعة فهو كافر كفرًا أكبر ناقل من ملة الإسلام لجحده لهذا الأصل العظيم والأساس المتين ، ومن كان يتعلق قوله في القدر بأعمال العباد وأن مشيئة الله سبحانه وتعالى ليس لها تعلق بأفعال العباد وأن العبد هو الذي يخلق فعل نفسه فهذا مبتدعٌ ضالٌ مضل ، وبدعته هذه إن اتضح له الأمر وزالت عنه الشبهة قد تفضي به إلى الكفر بالله سبحانه وتعالى . ولهذا يخاصَم هؤلاء مثل ما قال أئمة السلف يخاصَمون بالعلم ويجادَلون بالعلم ؛ فإن أقروا بالعلم خُصموا ، وإن جحدوا العلم –أي علم الله الشامل المحيط بما كان وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون– لو جحدوه كفروا بالله سبحانه وتعالى .

وقوله في هذا الحديث «**أحرقه الله بالنار**» أي أحرقه الله بالنار جزاء كفره بالله سبحانه وتعالى ، أو إذا كان عنده بدعة في هذا الباب جزاء بدعته التي ابتدعها وارتكبها في هذا الباب العظيم باب الإيمان بالقدر .

قال رحمه الله تعالى :

وفي المسند والسنن عن ابن الديلمي قال: أتيت أبي بن كعب رضي الله عنه فقلت : في نفسي شيء من القدر فحدِّثني بشيء لعل الله يُذهبه من قلبي ، فقال: «لو أنفقت مثل أحد ذهبا ما قبِله الله منك حتى تؤمن بالقدر، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولو مت على غير هذا لكنت من أهل النار» . قال: فأتيت عبد الله بن مسعود وحذيفة بن اليمان وزيد بن ثابت رضي الله عنهم فكلهم حدثني بمثل ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم . حديثٌ صحيح رواه الحاكم في صحيحه .

****

قال ((**وفي المسند والسنن عن ابن الديلمي**)) عبد الله بن فيروز .

قال : ((**أتيت أبي بن كعب رضي الله عنه فقلت : في نفسي شيء من القدر**)) ؛ أي دخَلَت عليه شبهة أو شيء من الشك فيما يتعلق بالقدر وأقدار الله سبحانه وتعالى .

فقال له أبي: ((**لو أنفقت مثل أحد ذهبًا ما قبِله الله منك حتى تؤمن بالقدر**)) ؛ هذا نظير قول ابن عمر المتقدم «لو أنفقت مثل أحد ذهبا ما قبِله الله منك حتى تؤمن بالقدر» أي أن جميع أعمالك وطاعاتك ولو قدِّر أن عندك مثل أحد ذهبا أو أكثر من ذلك أو أقل وأنفقته كله في سبيل الله وأمضيت حياتك عبادةً وطاعة لله جميع ذلك لا يقبله الله منك حتى تؤمن بالقدر ، لأن -كما تقدم- الإيمان القدر أصل من الأصول التي يقوم عليها دين الله تبارك وتعالى، فإذا لم يحصل الإيمان بهذا الأصل حبطت الأعمال وكانت باطلة ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة:٥] .

قال : ((**حتى تؤمن بالقدر ، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك**)) ؛ وهذا نظير كلام عبادة بن الصامت المتقدم . وهذا فيه كيفية الإيمان بالقدر ، ولهذا سيأتي معنا في المسائل التي ساقها الإمام رحمه الله «المسألة الثانية كيفية الإيمان به» ؛ هذه أخذها رحمه الله من قول عبادة وقول أبي ((أن تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك)) لماذا؟ لأن الأمور كلها بقدر الله وأن ما شاء الله سبحانه وتعالى كان وما لم يشأ لم يكن ، له المشيئة النافذة والقدرة الشاملة جل وعلا .

قال : ((**ولو مت على غير هذا لكنت من أهل النار**)) لو مت على غير هذا ، على غير الإيمان بالقدر لكنت من أهل النار ، وهذا نظير ما تقدم في حديث النبي عليه الصلاة والسلام ((أحرقه الله بالنار)) ، قال : ((فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره أحرقه الله بالنار)) .

قال ابن الديلمي : ((**فأتيت عبد الله بن مسعود، وحذيفة بن اليمان، وزيد بن ثابت، فكلهم حدثني بمثل ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم**)) ؛ وهنا يؤخذ فائدة نبَّه عليها المصنف رحمه الله تعالى : أن الشبهة إذا عرضت للإنسان ووفِّق له بأن يسأل عنها أهل العلم وأهل الرسوخ في العلم والبصيرة فإنها تزول بإذن الله تبارك وتعالى ، إذا رد هذه الأمور إلى أهل العلم إلى الراسخين فيه فإنه بإذن الله تبارك وتعالى يبيِّنون له بما آتاهم الله من علم ووفقهم إليه من بصيرة بدين الله يبينون له ما تزول به الشبهة ويتضح به الأمر ويستبين السبيل ، بينما إذا طرح شبهته على غير أهل العلم زادوا الأمر اشتباهًا والتباسًا ؛ ولهذا من منهج السلف رحمهم الله تعالى –وهذا نبَّه عليه المصنف– ومن عادتهم في إزالة الشُّبه أن يسألون العلماء يسألون الراسخين في العلم ، وانظر ما تقدم من سؤال يحي ابن يعمَر ورفيقه حميد ابن عبد الرحمن لابن عمر رضي الله عنهما في الشُّبه التي يثيرها القدرية في العراق ، فسؤال أهل العلم والرجوع إلى العلماء هو الذي يتضح به الأمر وبه تزول بإذن الله تبارك وتعالى الشبهات.

قال رحمه الله تعالى :

فيه مسائل؛ الأولى: بيان فرض الإيمان بالقدر.

أي أن الإيمان بالقدر فريضة من فرائض الدين وأصل من أصول الإيمان ، وقد تقدم عدُّ النبي صلى الله عليه وسلم للإيمان بالقدر في جملة أصول الإيمان العظيمة .

الثانية: بيان كيفية الإيمان به.

هذه المسألة الثانية من المسائل كيفية الإيمان بالقدر ؛ جاء بيانها في حديث عبادة وأيضا حديث أبيّ في قولهما : «أن تعلم ان ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك» .

الثالثة: إحباط عمل من لم يؤمن به.

وقد تقدم معنا في قول ابن عمر رضي الله عنهما «لو كان لأحدهم مثل أحُدٍ ذهبا ثم أنفقه في سبيل الله ما قبِله الله منه» ، ومثله كذلك قول أبي ابن كعب رضي الله عنه . فإحباط عمل من لم يؤمن به ، والإيمان بالقدر من

أصول الإيمان والله سبحانه وتعالى قال: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة:٥] .

الرابعة: الإخبار بأن أحدًا لا يجد طعم الإيمان حتى يؤمن به.

الإخبار بأن أحدًا أي من الناس لا يجد طعم الإيمان حتى يؤمن به ، وقد تقدم في حديث عبادة ((يا بني إنك لن تجد طعم الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك)) .

الخامسة: ذِكر أول ما خلق الله.

ذِكر أول ما خلق الله أي قبل خلق السماوات والأرض لا قبل خلق العرش ، فأول ما خلق الله قبل خلق السماوات والأرض هو القلم ، وأما العرش فمخلوقٌ قبل ذلك وقد تقدم حديث عبد الله بن عمرو بن العاص وهو في صحيح مسلم في الدلالة على ذلك ، وثمة أيضا أدلة غير ذلك ذكرها أهل العلم وهو قول جمهور أهل العلم في أيهما خُلق أولًا العرش أو القلم ؟ .

السادسة: أنه جرى بالمقادير في تلك الساعة إلى قيام الساعة.

وهذا فيه كمال عظمة الله وقدرته جل في علاه ؛ في تلك الساعة جرى بكتابة كل ما هو كائن من أعمال العباد وغير ذلك إلى قيام الساعة .

السابعة: براءته صلى الله عليه وسلم ممن لم يؤمن به .

لقوله في حديث عبادة : ((من مات على غير هذا فليس مني)) .

الثامنة: عادة السلف في إزالة الشبهة بسؤال العلماء.

ونعمت العادة المباركة وهي التي ينبغي أن يكون عليها المسلم ؛ عندما تعرض عليه شبهة ينبغي عليه أن لا يعرضها إلا على العلماء الذين عندهم البصيرة والرسوخ –رسوخ القدم في العلم– فإنهم هم الذين يحصِّل عندهم بإذن الله ما تزول به الشبهة ، أما إذا عرضها على غير أهل العلم زادوا الاشتباه اشتباهًا .

التاسعة: أن العلماء أجابوه بما يزيل عنه الشبهة، وذلك أنهم نسبوا الكلام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقط .

وهذا فيه ما يتميز به أهل الرسوخ في العلم ، أهل الرسوخ في العلم عندما يُسألون يوضِّحون الأمور من خلال الأدلة ، ولعلك قد رأيت فيما ساقه من أجوبة الصحابة رضي الله عنهم في حديث ابن عمر كان جوابه سوق الحديث ؛ «سمعتُ عمر بن الخطاب» وذكر حديث جبريل بتمامه ليستشهد منه بقوله ((وأن تؤمن بالقدر خيره وشره)) ، ومثله عبادة بن الصامت رضي الله عنه استشهد بقول النبي صلى الله عليه وسلم ((إن أول ما خلق الله القلم)) ، ومثله أيضًا أبي بن كعب رضي الله عنه في استشهاده بكلام النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه .

فالشاهد أن طريقة أهل الرسوخ في العلم إجابتهم من يسألهم بكلام رسول الله صلوات الله وسلامه عليه فقط ، لأن الدين قال الله قال رسوله ، أما من سواهم فإنه يجيبهم إما بفلسفة أو بالرأي المجرد أو بالآراء أو الأهواء أو غير ذلك من الأمور التي تكون من غير أهل العلم والبصيرة بدين الله تبارك وتعالى .

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك .

اللهم صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

الدرس الخمسون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد:

يقول الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب التميمي رحمه الله تعالى في «كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد» :

باب ما جاء في المصوِّرين

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((قال الله تعالى: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي، فليخلقوا ذرة، أو ليخلقوا حبة، أو ليخلقوا شعيرة)) أخرجاه.

****

قال المصنف الإمام شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتابه التوحيد : ((**بابٌ ما جاء في المصورين**)) ؛ أي ما جاء في شأن المصورين من الوعيد والتهديد في غير ما حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مما يدل على عظم خطر هذا الجرم وكبر هذا الذنب وأنه من كبائر الذنوب وعظائم الآثام .

ومن يتأمل النصوص التي ساقها المصنف رحمه الله تعالى في هذا الباب وغيرها مما لم يسُقه رحمه الله تعالى يجد أن التصوير جاءت الشريعة بتحريمه وجاءت بالتهديد العظيم والوعيد الشديد لفاعل ذلك ؛ وذلك لما في التصوير من المضاهاة لخلق الله سبحانه وتعالى كما سيأتي ، ولأنه من أعظم الذرائع المفضية إلى الإشراك بالله سبحانه وتعالى ، بل إن الشرك إنما دخل على الناس من جهة التصوير ومن جهة رفع البنيان على القبور –قبور الأنبياء والصالحين أو غيرهم– ؛ ولهذا سيأتي في هذه الترجمة قول النبي عليه الصلاة والسلام لما بعث عليًا رضي الله عنه قال له : ((لا تدع صورة إلا طمستها ، ولا قبرا مشْرفًا إلا سويته)) ؛ وذلك أن هذين الأمرين من أعظم الأبواب والأسباب والذرائع للوقوع في الإشراك بالله سبحانه وتعالى ، فجاءت الشريعة بالنهي عن التصوير والمنع منه والتهديد على فعل ذلك والوعيد عليه لما فيه أولًا من المضاهاة لخلق الله سبحانه وتعالى كما سيأتي في حديث عائشة الذي ساقه المصنف رحمه الله تعالى ، ولما فيه من ذريعةٍ للشرك بالله سبحانه وتعالى كما يفيده حديث علي بن أبي طالب الآتي أيضا عند المصنف رحمه الله تعالى .

أورد رحمه الله أولًا حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((**قال الله تعالى: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي**)) ؛ والاستفهام هنا في قوله «ومن أظلم» بمعنى النفي أي لا أحد أظلم ممن هو كذلك ، وهذا فيه أن الذي يصنع هذا الأمر ظلمه عظيم وجنايته بالغة .

قال : ((**ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي ، فليخلقوا ذرة، أو ليخلقوا حبة، أو ليخلقوا شعيرة**)) قال ذلك عليه الصلاة والسلام بشأن المصورين ، سواءً كانت الصورة تمثالًا أو رسمًا أو نسجًا أو نحتًا أو غير ذلك ، إذا كانت صورةً لذي روح فإن فيه هذا الوعيد ، لأنه بهذا العمل أخذ يشبِّه بخلق الله ويضاهي بخلق الله سبحانه وتعالى فجاء في الحديث أنه لا أحد أظلم منه . قال ((ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي)) .

قال: ((**فليخلقوا ذرة وليخلقوا حبة وليخلقوا شعيرة**)) وهذا الأمر للتعجيز ؛ أي أنهم أعجز من ذلك ، ولو كان هذا الشيء صغيرًا أو حقيرًا ، سواء كان حيًا أو جمادًا فهم أعجز من ذلك .

قال : ((**فليخلقوا ذرة**)) الذرة معروفة وهي صغيرة جدًا ، قال ((فليخلقوا ذرة)) ؛ الذر: هو صغار النمل ، فهذا المخلوق الصغير جدًا تحداهم الله عز وجل وأظهر عجزهم بأنهم عاجزون عن أن يخلقوا ذرةً تمشي وتتحرك وتأكل وتقوم بالأعمال التي يقوم بها الذر ، فهم أعجز من ذلك .

((**وليخلقوا حبة**)) حبة حنطة أو غير ذلك من البذور ، وتكون مأكولةً لها طعم ، وإذا وضعت في الأرض وسقيت بالماء أنبتت .

((**ليخلقوا حبة ، وليخلقوا شعيرة**)) فذكر هذه المخلوقات الصغيرة منها ما هو من الحيوانات ومنها ما هو من الجمادات؛ إظهارًا لعجز هؤلاء وعدم قدرتهم ، وأيضا بيانا لعظم ظلمهم عندما أخذوا يصوِّرون يضاهئون بخلق الله سبحانه وتعالى ، يصوِّرون سواءً يرسمون ذلك رسما ، أو ينحتونه نحتا ، أو ينسجونه على قماش نسجا ، أو يصنعونه تمثالا ، أو غير ذلك ؛ يشمل هذا كله هذا من الأحاديث التي جاء فيها الوعيد على التصوير وأن أهله من أظلم الناس أي من أشدهم ظلما لارتكابهم هذا الجرم العظيم .

وهذا يفيدنا أن التصوير من الظلم ، بل هو من عظيم الظلم وأشده ، لما يترتب على التصوير من المفاسد العظيمة والأضرار الجسيمة والجناية على الناس في عقائدهم ، عندما يحصل بسبب هذه التصاوير التعلقات الباطلة بتلك الصور والتعظيم لها والالتجاء إليها وتقديسها وغير ذلك من الأمور ، إذ إن هذه التصاوير من أعظم الذرائع المفضية إلى الإشراك بالله سبحانه وتعالى .

قال رحمه الله :

ولهما عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((أشد الناس عذابًا يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله)) .

****

قال: ((**ولهما**)) أي للبخاري ومسلم المتقدم ذكرهما بقوله في الحديث الذي قبله «أخرجاه» .

قال: ((**ولهما عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أشد الناس عذابا يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله**)) ؛ وقد جاء هذا الحديث في الصحيحين من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمُصَوِّرُونَ)) ، وهم المعنيُّون بهذا الحديث حديث عائشة رضي الله عنها بقول النبي عليه الصلاة والسلام ((**الذين يضاهئون بخلق الله**)) .

ومعنى «يضاهئون» جاء مفسرًا في بعض روايات الحديث كما في روايةٍ للحديث في صحيح مسلم قال بدل ((يضاهئون)) : «يشبِّهون بخلق الله» ، وهذا معنى يضاهئون ؛ «يضاهئون»: أي يشبِّهون بخلق الله ، عندما يرسم أو ينقش أو ينحت صورةً على هيئة إنسان أو على حيوان أو على هيئة طائر أو غير ذلك من الحيوانات فإنه بهذا الصنيع يشبِّه بخلق الله ويضاهي بهذا الذي صنعه خلْق الله سبحانه وتعالى ، ولهذا توعدهم الله عز وجل بأشد الوعيد وأشد العذاب كما في هذا الحديث قال : ((**أشد الناس عذابًا يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله**)).

ومن المعلوم أن هذه الأشدية في لعذاب للناس عمومًا إنما هي للكفار مثل ما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾[غافر:٤٦] . فهذه الأشدية إنما هي للكفار ، وما من شكٍ أن الذي يصوِّر التصاوير لهذا الغرض للمضاهاة ((الذين يضاهئون بخلق الله)) لاشك أن هذا العمل كفرٌ أكبر ناقل من الملة ، وكذلك من كان يصنع هذه الصور للناس من أجل أن تُعبد من دون الله تبارك وتعالى فلاشك أن هذا أيضًا من الكفر الأكبر الناقل من ملة الإسلام ، وتكون الأشدية هنا على بابها ، أشدية العذاب أي للكفار ، لأن هؤلاء مثل فرعون وأضرابه من أئمة الكفر وكبراء أهل الباطل . فالأشدية هنا للعذاب أي على كفر هؤلاء بالله سبحانه وتعالى وعملهم أيضا على الترويج للكفر والدعاية إليه ونشر الوسائل والأسباب التي تفضي بالناس إلى الوقوع فيه .

ولهذا في معنى قوله «**أشد الناس عذابا**» من أهل العلم من حمل هذه الأشدية في العذاب في حق من صنع هذه التصاوير من أجل المضاهاة مستشهدًا بلفظ الحديث ((الذين يضاهئون بخلق الله)) . ومن أهل العلم من حمله على أن هذه الأشدية في العذاب في حق من صنعه لأجل أن يُعبد من دون الله ترويجًا للإشراك بالله سبحانه وتعالى ونشرًا له بين الناس بصناعة وإيجاد هذه الأشياء التي ينشرها بين الناس لتُعبد من دون الله تبارك وتعالى فله هذه الأشدية من العذاب الذي هو عذاب الكافر .

- فإذا كان هذا التصوير من أجل المضاهاة ، أو كان هذا التصوير من أجل أن تُعبد من دون الله تبارك وتعالى فالأشدية هنا هي أشدية العذاب الذي هو للكافر مثل ما قال الله عز وجل في شأن فرعون في الآية المتقدم الإشارة إليها .
- أما إذا كان الذي يصور لم يصور لا لهذا ولا لهذا ؛ لم يصور لا للمضاهاة ولا أيضا لأجل أن تعبد من دون الله وإنما لغرض دون ذلك ، فهذا من المعاصي وهو من كبائر الذنوب ، وتكون الأشدية هنا نسبية ، أشد الناس عذابا : أي بالنسبة لأهل الكبائر التي هي دون الشرك بالله سبحانه وتعالى ، ولهذا جاء في بعض روايات الحديث : «إِنَّ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ عَذَابًا» .

قال : ((**ولهما عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أشد الناس عذابا يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله**)) ، ثم إن من يقف على هذا الوعيد وأمثاله مما جاء في السنة عن نبينا الكريم عليه الصلاة والسلام يدرك الخطورة العظيمة لهذا التصوير ، وأن الوعيد الذي عليه ليس بالأمر الهين ، جاء في الأحاديث اللعن ، وجاء أنهم أشد الناس عذابًا ، وجاء أنه لا أظلم منهم ، تنوعت الأحاديث في التغليظ والوعيد والتهديد على هذا الجرم مما يدل على خطورته البالغة وكِبر هذا الذنب وعِظمه .

قال رحمه الله :

ولهما عن ابن عباس رضي الله عنهما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((كل مصوّرٍ في النار، يُجعل له بكل صورة صوَّرها نفس يعذب بها في جهنم)) .

****

قال : ((**ولهما**)) أي للبخاري ومسلم .

((**عن ابن عباس رضي الله عنهما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: كل مصور في النار**)) وهذا فيه وعيد شديد لجميع المصورين ، قال ((كل مصور في النار)) ولم يستثن في هذا الحديث نوعًا من التصوير ، إلا إذا كان تصويرًا لغير ذوات الأرواح لأنه جاء ما يدل على عدم حرمته ، أما صور ذوات الرواح سواءً كانت صور أناس أو صور حيوانات أو صور طير أو صور أسماك فهذه كلها يتناولها هذا الوعيد ، وأيضا سواء كانت هذه الصورة لها ظل أو ليس لها ظل ، سواءً كانت رسما باليد أو نحتًا في جدار أو في لوح ، أو كانت صناعةً على هيئة تمثال أو نسجًا في قماش أو غير ذلك فإنه يتناوله هذا الوعيد، قال عليه الصلاة والسلام ((كل مصور في النار)) فهذا يتناول جميع هذه الصور بجميع صفاتها وهيئاتها لما كان لذوات الأرواح . وهذا وعيد شديد ((كل مصور في النار)) ؛ إن كان الذي يصوِّر صور للمضاهاة أو صوَّر لتُعبد من دون الله فهذا كفر بالله وله في النار ما للكافرين من الخلود ، وأما إذا كان صوَّر لا لهذا وإنما لأمرٍ دون ذلك دون الكفر بالله فله هذا الوعيد شأن الوعيد الذي

جاء في غير ما حديثٍ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل الكبائر بأنهم في النار ، وله من العذاب في النار على قدر جرمه ، ولا يخلَّد في النار إلا من كان كافرًا مشركا بالله سبحانه وتعالى كما قال الله عز وجل : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء:٤٨] .

قال : ((**يُجعل له بكل صورة صوَّرها نفسٌ يعذب بها في جهنم**)) ؛ يُجعل له بكل صورة صوَّرها نفسٌ : أي أن تعذيبه في جهنم بعدد الصور التي صوَّرها ، وكل صورة صوَّرها يُجعل فيها نفس يعذب بها ، فيعذب بالصورة نفسها التي صوَّرها ، فتعذيبه بما صنعت يده وبما اقترفت يده ، بجميع الصور ألف ألفين أقل أو أكثر ، بكل صورة صورها يعذب في نار جهنم . قال: ((يُجعل له بكل صورة صورها نفس يعذب بها في جهنم)) .

قال رحمه الله

ولهما عنه مرفوعا: ((**من صوَّر صورة في الدنيا كُلِّف أن ينفخ فيها الروح ، وليس بنافخ**)) .

****

قال ((**ولهما**)) أي للبخاري ومسلم ((**عنه**)) أي عن ابن عباس رضي الله عنهما ((**مرفوعا**)) أي إلى النبي عليه الصلاة والسلام .

((**من صوَّر صورة في الدنيا**)) أي ذي روح ((**كُلِّف أن ينفخ فيها**)) أي الصورة ((**الروح ، وليس بنافخ**)) ما معنى ذلك ؟ أي أن عذابه يستمر ، يقال له انفخ فيها الروح وعذابك يستمر إلى أن تنفخ فيها الروح ، وما هو بنافخ ، ولهذا جاء في بعض الروايات –روايات هذا الحديث– قال ((حتى ينفخ فيه الروح، وليس بنافخٍ أبدا)) ؛ وهذا فيه أن هذا العذاب يستمر لأنه يقال له انفخ فيها الروح ، العذاب مستمر إلى أن تنفخ فيها الروح ، هذه الصورة التي صنعتها بيدك لتضاهي بها خلق الله سبحانه وتعالى تعذب بالنار بسبب ما صنعت ويقال له : انفخ في هذا الذي صنعت الروح فما هو بنافخ ، فيبقى عذابه لأنه أعجز من أن ينفخ في تلك الصورة أو الصور التي صوّرها الروح . قال : ((من صور صورة في الدنيا كلف –أي يوم القيامة– أن ينفخ فيه الروح وليس بنافخ)) .

قال رحمه الله :

ولمسلم عن أبي الهياج قال: قال لي علي رضي الله عنه : «ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ أن لا تدع صورة إلا طمستها، ولا قبرًا مشْرفًا إلا سويته».

****

قال : ((**ولمسلم عن أبي الهياج الأسدي قال: قال لي علي رضي الله عنه: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ أن لا تدع صورة إلا طمستها، ولا قبرا مشرفًا إلا سويته**)) ؛ أي أن النبي عليه الصلاة والسلام قبل ذلك بعث عليا رضي الله عنه بذلك ، بعثه أن لا يدع صورةً إلا طمسها ولا قبرًا مشرفًا إلا سوَّاه ، ومعنى «مشرفًا»: أي مرتفعًا ؛ بُنيت عليه الأبنية رُفع عليه البناء .

والأصل في القبر إذا دفن الميت أن لا يرتفع إلا بقدر التراب الذي أُخرج منه لا يُزاد على ذلك ، لا يُرفع لا بتراب ولا بغيره وإنما رفعه في حدود التراب الذي أُخرج منه حتى يتبين أنه قبر ، أما رفعه بأبنية أو بقباب أو بغير ذلك فهذا كله جاءت الشريعة بتحريمه والوعيد عليه وأن صانع ذلك أشر الناس ؛ وذلك لأن هذا الصنيع وكذلك التصوير من أعظم الأمور والوسائل المفضية إلى الشرك بالله سبحانه وتعالى ، وقد تقدم معنا عند المصنف رحمه الله تعالى في «باب ما جاء من التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح فكيف إذا عبده» ساق المصنف رحمه الله هناك حديث عائشة في الصحيح أن أم سلمة ذكرت لرسول الله صلى الله عليه وسلم كنيسة رأتها بأرض الحبشة وما فيها من الصور فقال : ((أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجدا وصوَّروا فيه تلك الصور ، أولئكِ شرار الخلق عند الله)) . قال المصنف –وهذا نقله عن شيخ الإسلام ابن تيمية – : «فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين فتنة القبور وفتنة التماثيل» وهاتان الفتنتان –فتنة البناء على القبور ، وفتنة التماثيل والتصاوير– هي من أعظم الفتن التي أفضت بالناس إلى الإشراك بالله سبحانه وتعالى ، لأن كان الأمر في الأمم أنه إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدًا أي بنوا عليه بناية وشيدوا عليه بنيانًا وصنعوا تصاوير على صورته وهيئته فتكون تلك التصاوير وتلك البنيان ذريعة للوقوع في الشرك ، بل إن الشرك وقع في الأمم بسبب ذلك ، كما مر أيضا معنا قبل ذلك في قصة الخمسة الرجال الصالحين من قوم نوح .

فهذه التصاوير وهذا البناء على القبور كله من الأمور التي هي من أعظم الأمور والذرائع المفضية بالناس إلى الإشراك بالله سبحانه وتعالى ؛ ولهذا بعث النبي عليه الصلاة والسلام عليًا رضي الله عنه أن لا يدع صورة إلا طمسها ولا قبرًا مشرفًا إلا سوَّاه ، وعلي رضي الله عنه بعث أبا الهياج فيما بعثه فيه رسول الله صلوات الله وسلامه وبركاته عليه . وأيضا مما يستفاد من ذلك : حماية المصطفى عليه الصلاة والسلام جناب التوحيد وسدّه للذرائع والوسائل المفضية بالناس إلى الإشراك بالله سبحانه وتعالى .

قال رحمه الله تعالى :

فيه مسائل ؛ الأولى: التغليظ الشديد في المصورين .

وهذا التغليظ يظهر من خلال ما ساقه رحمه الله من أحاديث تدل على أنه لا أظلم ممن فعل ذلك ، وأنهم أشد الناس عذابًا ، وأنهم يعذبون بكل صورة ؛ فجاءت أحاديث عديدة فيها التغليظ والوعيد في المصورين .

الثانية: التنبيه على العلة وهو ترك الأدب مع الله ، لقوله: ((ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي)) .

فهذا فيه كما أشار رحمه الله تعالى قلة أدب أو ذهاب الأدب أو ترك الأدب مع الله سبحانه وتعالى . التنبيه على العلة وهو ترك الأدب مع الله لقوله: ((ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي)) .

الثالثة: التنبيه على قدرته وعجزهم ، لقوله: (فليخلقوا ذرة أو شعيرة) .

الثالثة: التنبيه على قدرته سبحانه وتعالى وهو على كل شيء قدير ، وعلى عجزهم وأنهم أعجز من ذلك ؛ من أن يخلقوا ذرة أو يخلقوا شعيرة أو يخلقوا حبة . قال : «التنبيه على قدرته وعجزهم لقوله: (فليخلقوا ذرة أو شعيرة)» فهذا فيه دلالة على عجز هؤلاء .

الرابعة: التصريح بأنهم أشد الناس عذابا.

ومثل ذلك الآية الكريمة قول الله عز وجل: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ [الحج:٧٣] .

الرابعة: التصريح بأنهم أشد الناس عذابا.

وهذا جاء في حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وقد ساقه المصنف رحمه الله تعالى ، وسبق أيضًا بيان هذه الأشدية ؛ إن كانت على وجه المضاهاة ، أو من أجل أن تُعبد من دون الله ، أو كانت أيضا لغرض غير ذلك.

الخامسة: أن الله يخلق بعدد كل صورة نفسًا يعذَّب بها المصوِّر في جهنم.

وهذا مستفادٌ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال : «سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : كل مصور في النار ؛ يُجعل له بكل صورة صورها نفسًا يعذب بها في جهنم» .

السادسة: أنه يكلَّف أن ينفخ فيها الروح.

أنه يكلَّف أن ينفخ فيها الروح أي الصورة ، وهذا في حديث ابن عباس الآخر الذي ساقه المصنف ، وأنه يكلف بأن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ ، ويستمر العذاب مثل ما جاء في بعض الروايات ((حتى ينفخ فيها الروح وليس بنافخ أبدا)) .

السابعة: الأمر بطمسها إذا وجدت.

الأمر بطمسها أي الصور إذا وُجدت كما جاء في حديث علي ؛ قول النبي صلى الله عليه وسلم لعلي رضي الله عنه ((لا تدع صورة إلا طمستها)) .

مر معنا في الحديث حديث أبي الهياج الأسدي في صحيح مسلم قال لي علي رضي الله عنه : «ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا تدع صورة إلا طمستها ولا قبرا مشرفا إلا سويته» ، أشرت إلى أن هدي النبي عليه الصلاة والسلام كما في هذا الحديث سد الذرائع ، ولهذا منع من أمور كثيرة جدا تتعلق بالقبور من بناء عليها أو اتخاذ السرج عليها أو غير ذلك من أمور كل ذلك حماية لحمى التوحيد وسدًا للوسائل المفضية بالناس إلى الشرك بالله سبحانه وتعالى ؛ فلنتأمل في كلام نستمع إليه من كتاب إغاثة اللهفان للإمام ابن القيم رحمه الله تعالى فيه المقارنة بين هذا الهدي المبارك الذي فيه الحماية لجناب التوحيد وسد الوسائل المفضية والذرائع المفضية بالناس إلى الشرك ، وبمقابل ذلك حال الضُّلال من المقابرية الذين خالفوا هدي النبي عليه الصلاة والسلام ، وكيف أن هذه المخالفات جرتهم إلى شنائع عظيمة من عبادةٍ للمقبورين وتعلقٍ بهم وصرف لأنواع العبادة لهؤلاء المقبورين .

قال ابن القيم رحمه الله تعالى : [**ومن جمع بين سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى القبور وما أمر به ونهى عنه وما كان عليه أصحابه، وبين ما عليه أكثر الناس اليوم رأى أحدهما مضاداً للآخر مناقضاً له بحيث لا يجتمعان أبداً . فنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصلاة إلى القبور ، وهؤلاء يصلّون إلا عندها. ونهى عن اتخاذها مساجد ، وهؤلاء يبنون عليها المساجد ، ويسمونها مشاهد، مضاهاةً لبيوت الله تعالى. ونهى عن إيقاد السرج عليها ، وهؤلاء يوقِفون الوقوف على إيقاد القناديل عليها . ونهى أن تُتخذ أعياداً ، وهؤلاء يتخذونها أعياداً ومناسك ، ويجتمعون لها كاجتماعهم للعيد أو أكثر. وأمر بتسويتها كما روى مسلم فى صحيحه عن أبى الهياج الأسدى قال : قال على بن أبى طالب رضى الله عنه: «أَلا أَبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي عليهِ رَسُولُ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسلّم ؛ أَنْ لا تَدَعَ تِمْثَالاً إلا طَمَسْتَهُ، وَلا قَبْرًا مُشْرِفاً إِلا سَوَّيْتَهُ» ، وفى صحيحه أيضاً عن ثمامة بن شُفَى قال: «كنا مع فضالة بن عبيد بأرض الروم برودس ، فتوفى صاحب لنا فأمر فضالة بقبره فسوِّي» ، ثم قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر بتسويتها ، وهؤلاء يبالغون في مخالفة هذين الحديثين ويرفعونها عن الأرض كالبيت، ويعقدون عليها القباب. ونهى عن تجصيص القبر والبناء عليه كما روى مسلم في صحيحه عن جابر قال: « نَهَى رَسُولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلم عَنْ تَجْصِيصِ الْقَبْرِ والبناء عَلَيْهِ وَأَنْ يُقْعَدَ عَلَيْهِ » ، ونهى عن الكتابة عليها كما روى أبو داود والترمذى في سننهما عن جابر رضى الله عنه «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نَهَى أنْ تُجَصَّصَ الْقُبُورُ، وَأَنْ يُكْتَبَ عَلَيْهَا» قال الترمذى: حديث حسن صحيح ، وهؤلاء يتخذون عليها الألواح ويكتبون عليها القرآن وغيره. ونهى أن يُزاد عليها غير ترابها**

كما روى أبو داود من حديث جابر أيضاً «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى أن يجصص القبر، أو يُكتب عليه، أو يزاد عليه» ، وهؤلاء يزيدون عليه سوى التراب الآجر والأحجار والجص. ونهى عمر بن عبد العزيز أن يُبنى القبر بالآجر وأوصى أن لا يُفعل ذلك بقبره. وأوصى الأسود بن يزيد: أن لا تجعلوا على قبرى آجرا ، وقال إبراهيم النخعي: «كانوا يكرهون الأجر على قبورهم» . وأوصى أبو هريرة حين حضرته الوفاة: «أن لا تضربوا على قبرى فسطاطاً». وكره الإمام أحمد أن يضرب على القبر فسطاطاً. والمقصود: أن هؤلاء المعظمين للقبور ، المتخذينها أعياداً، الموقدين عليها السرج، الذين يبنون عليها المساجد والقباب؛ مناقضون لما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، محادون لما جاء به ، وأعظم ذلك اتخاذها مساجد، وإيقاد السرج عليها ، وهو من الكبائر ، وقد صرَّح الفقهاء من أصحاب أحمد وغيرهم بتحريمه.

قال أبو محمد المقدسى: «ولو أبيح اتخاذ السرج عليها لم يُلعن من فعَلَه» ، ولأن فيه تضييعا للمال فى غير فائدة، وإفراطاً فى تعظيم القبور شبيه تعظيم الأصنام. قال: «ولا يجوز اتخاذ المساجد على القبور لهذا الخبر».

ولأن النبى صلى الله عليه وسلم قال: لعن الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، يحذر ما صنعوا متفق عليه. ولأن تخصيص القبور بالصلاة عندها يشبه تعظيم الأصنام بالسجود لها والتقرب إليها . وقد روِّينا أن ابتداء عبادة الأصنام تعظيم الأموات باتخاذ صورهم ، والتمسح بها، والصلاة عندها" انتهى.

وقد آل الأمر بهؤلاء الضلال المشركين إلى أن شرعوا للقبور حجاً، ووضعوا له مناسك، حتى صنَّف بعض غلاتهم فى ذلك كتاباً وسماه «مناسك حج المشاهد» مضاهاةً منه بالقبور للبيت الحرام ، ولا يخفى أن هذا مفارقة لدين الإسلام ، ودخولٌ في دين عبَّاد الأصنام] .

هذا العرض العظيم الذي ساقه وبيَّنه الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى يوضح لنا جليًا حكمة الشريعة في المنع من هذه الأمور والنهي عنها والوعيد الشديد على فعلها ، وذلك لما تفضي إليه وتؤول بأصحابها إليه من مآلات خطيرة جدا على عقائدهم ؛ من صرفٍ للعبادة لغير الله تبارك وتعالى ، والتعلق بتلك الصور . وما من شك أن الرجل الصالح الذي له مكانة في القلوب ومنزلة إذا افتقده الناس وتوفي تألموا جدًا لفقده ، فإذا استُبقيت معالم مثل بناء على قبره أو صور له أو نحو ذلك تبقى هذه في القلب أو توجد في القلب شيء من التعلق والارتباط بتلك الصور أو بتلك البناية ، إلى أن يدخل الشيطان على هؤلاء بأن يعبدوا هؤلاء من دون الله سبحانه وتعالى .

إضافة إلى أن من وراء هؤلاء أناس لا همَّ لهم إلا الأكل أكل أموال الناس بالباطل ، حتى إنه وجد في بعض المناطق من يبني بناية على جيفة حمار ويشيد بناية ثم يزعم للناس أن هذا قبر السيد فلان وأنه قبرٌ معظم وله مكانة عند الناس وله أثر لقاصديه والمتقربين إليه ، ثم يجلسون عنده هؤلاء السدنة الذين جعلوا هذا المكان لأكل أموال الناس بالباطل في قصص لا تزال موجودة مؤلمة جدًا ومدمية ، كيف أنها تحرف عقائد العوام والجهال بمثل هذا التغرير والتوريط لهؤلاء بمثل هذه التعلقات الباطلة ، ثم تُنسج القصص الكاذبة والحكايات المختلقة : المرأة الفلانية

كانت لا تلد وجاءت وصنعت كيت وكيت فولدت ، والمرأة الفلانية كانت مريضة بكذا وكذا واستعصى علاجها فشُفيت ، وينسجون حكايات وحكايات ويروِّجونها بين الناس فيتقاطر الناس على مثل هذه الأمكنة بالنذور والالتجاء وربما أيضا السجود والخضوع والتذلل لهؤلاء المقبورين الذين لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورا .

والعالم بُلي بأمور كثيرة من هذا القبيل ، لأن هذا مدخل قديم من المداخل التي دخل من خلالها الشيطان على الناس فورطهم في العبادة لغير الله سبحانه وتعالى والالتجاء لغيره وتقديم القرابين لغيره ، إضافةً إلى ما يكون لهؤلاء الذين حول القبور من حظوظ دنيوية . وأذكر أن أحد الأفاضل التقى بشخص من هؤلاء وقال له هل أنت مقتنع بهذا الذي تصنعه؟ وأنه حق وأنه دين الله عز وجل وأن الله يقبل؟ قال لا ؛ هذا أكل عيش ، يعني لو توقف لتوقف العيش . فكثير من هؤلاء اتخذوا مثل هذه الطرائق لأكل أموال هؤلاء بالباطل .

فنبينا عليه الصلاة والسلام جاء بالوسائل التي تحمي عقائد الناس وتحمي توحيدهم وتصونهم بإذن الله تبارك وتعالى من الضلال وأئمة الباطل يريدون فتح هذه الأمور ، وقد قال نبينا عليه الصلاة والسلام : ((إِنَّ مِنْ أَخْوَفِ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ)) .

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك .

اللهم صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

الدرس الحادي والخمسون

بسم الله الرحمن الرحيم

يقول الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد ابن عبد الوهاب التميمي رحمه الله تعالى في كتابه «كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد» :

باب ما جاء في كثرة الحلف

وقول الله تعالى: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ [المائدة:٨٩] .

****

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد:

قال المصنف رحمه الله تعالى ((**باب ما جاء في كثرة الحلف**)) أي ما جاء فيه من الذم والوعيد ، وذلك لما في كثرة الحلف من الاستهانة وعدم التعظيم للرب سبحانه وتعالى ، وهذا مما يتنافى مع كمال التوحيد الواجب ، ولهذا أورد المصنف رحمه الله تعالى هذه الترجمة في كتاب التوحيد لما في كثرة الحلف من استهانةٍ وعدم تعظيمٍ لله سبحانه وتعالى ، وهذا مما يتنافى مع كمال التوحيد الواجب . والمسلم يعظِّم ربه وهذا من تمام توحيده لربه جل وعلا ، قد قال الله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح:١٣] أي عظمةً وتعظيما ، وقال جل وعلا ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الزمر:٦٧] ، فالواجب على المسلم أن يكون معظِّمًا لله ، معظمًا لأسمائه سبحانه وتعالى وصفاته ، وأن يكون مجانبًا لكل أمرٍ يتنافى مع هذا التعظيم ؛ ومن ذلكم كثرة الحلف التي تدل على الاستخفاف وعدم التعظيم لله سبحانه وتعالى ، لأن من كان في قلبه لله ولأسمائه جل وعلا وصفاته تعظيم فإنه لا يسارع أو لا يبادر إلى الإكثار من الحلف وأن يكون ديدنه الحلف بغير مبالاة ولا اكتراث ؛ فهذا لا شك أنه مما يتنافى مع التعظيم لله سبحانه وتعالى .

أورد رحمه الله جل وعلا قول الله عز وجل: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ [المائدة:٨٩] ؛ والأيمان: جمع يمين ، واليمين هو الحلف. ولا يكون الحلف إلا بالله سبحانه وتعالى وأسمائه جل وعلا ، قد مر معنا في ذلك ترجمة خاصة عند المصنف رحمه الله تعالى ، قد قال عليه الصلاة والسلام: ((مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ)) ، وقال عليه الصلاة والسلام : ((مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ)) فالحلف لا يكون إلا بالله جل وعلا .

والحلف إنما هو عن تعظيم للمحلوف به ، وهذا التعظيم لا يكون إلا لله ، فكما أن الحلف بغير الله عز وجل يتنافى مع التعظيم لله فكذلك الحلف بالله كاذبا أو الإكثار من الحلف بالله عز وجل عن غير مبالاةٍ بهذا الأمر يتنافى أيضا مع التعظيم لله جل وعلا ، وهذا أيضًا مما يتنافى مع كمال التوحيد الواجب .

وقول الله جل وعلا ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ [المائدة:٨٩] ؛ حفظ اليمين يكون بالبُعد عن كثرة الحلف ، ويكون أيضا بالبعد عن الحنث في اليمين .

- جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في معنى قوله ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ : لا تحلفوا ، وهذا فيه أن من حفظ اليمين أن لا يبادر الإنسان إلى اليمين ولا يسارع إليها ولا يكون مكثرًا منها ، ولا يكون الحلف إلا عن حاجة في مقامٍ يسوغ فيه الحلف ويصح فيه الحلف دون مسارعة ودون أيضًا تسرع في الحلف وعدم مبالاةٍ بعظم اليمين وعظم شأن الرب سبحانه وتعالى المحلوف به . قال «لا تحلفوا» : أي لا تبادروا إلى الحلف ولا تكثروا منه .
- وجاء عن بعض السلف في معنى الآية في معنى قوله ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ أي: لا تحنثوا في أيمانكم .

والقولان متلازمان ؛ لأن كثرة الحلف مفضيةٌ إلى الحنث في اليمين وأيضًا عدم الصدق في تلك اليمين كما سيأتي في بعض الأحاديث التي ساقها المصنف رحمه الله تعالى ما يدل على ذلك .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((الحلف منفقَةٌ للسلعة، ممحقة للكسب)) أخرجاه.

****

قال رحمه الله تعالى : ((**وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: الحلف منفقة للسلعة، ممحقة للكسب**)) ؛ الحلف: أي الأيمان التي تصدر من البائع في بيعه وعرضه لسلعه في السوق ؛ "والله إنها لجديدة ، والله إنها لبضاعة اليوم ، والله إنني أعطيت فيها كذا وكذا ، والله هذا رأس مالها ليس لي فيها أي ربح أو أي مكسب" إلى غير ذلك من عبارات كثيرة تأتي على ألسنة البائعين ويحلفون بالله ، ويكثرون من الحلف بالله سبحانه وتعالى من أجل تنفيق السلعة . إذًا همته نفاق السلعة ، وهذه الكثرة من الحلف بالله عز وجل من أجل تنفيق السلع ولاسيما أيضا مع عدم الصدق في ذلك والوقوع في الكذب هذا ناشئ من عدم التعظيم لله ، لأنه لو كان معظمًا ربه لما كانت هذه السلعة ترخِص عنده عظمة الرب جل وعلا وتعظيم الرب فيحلف به كاذبًا من أجل أن ينفِّق سلعته .

ثم ماذا يكون إذا نفقت هذه السلعة ؟! نفاقٌ للسلعة مع نقصٍ في الدين وضعفٍ في الإيمان فأي ربح حصَّل !!

ثم هذا الربح الدنيوي الذي حصَّله ممحوق البركة ، لا يبارك الله له في مالٍ حصَّله بهذه الطريقة . فخسر من جهتين : من جهة نقصان دينه ، ومن جهة عدم البركة في المال الذي حصَّله . نعم قد تروج سلعته وتُشترى ويتنافس الناس ويتبادرون على شرائها تصديقًا له في تلك الأيمان المتكاثرة التي تصدر منه؛ فتنفق سلعته لكن الله عز وجل يمحق البركة ، ومحق البركة: أي محوها ؛ فيأخذ مالًا لا بركة فيه ، لا بركة له في ذلك المال فيكون خسر من جهتين :

١. من جهة نقص دينه بسبب الحلف وكثرة الحلف والأيمان الكاذبة التي ينفِّق بها سلعته .

٢. ويكون خسر من جهةٍ أخرى أن هذا الربح الذي حصَّله ممحوق البركة .

قال عليه الصلاة والسلام : ((**الحلف منفقةٌ للسلعة**)) ؛ منفقة: من النَّفاق -بفتح النون- وهو رواج السلعة ؛ منفقة للسلعة: أي أن السلعة تروج وتنفق إذا حلف . وكل إنسان في الغالب لما يأتي للسوق ويقول له البائع "والله إنه لجديد ، أو والله هذا رأس ماله ، أو ربحي فيه قليل" أو نحو ذلك يبادر إلى الشراء تعظيمًا لهذه اليمين ولا يظن أنه يحلف على ريال أو ريالين أو عشرة أو مئة أو ألف أو أكثر من ذلك وهو كاذب ، فمقام الله سبحانه وتعالى أعظم من ذلك وأجل سبحانه وتعالى . لكن من كان همه الدنيا وليس له اهتمام إلا في تحصيلها لا يبالي بما فيه تعظيمٌ لله سبحانه وتعالى في سبيل مالٍ قليل يحصِّله أو ربح قليل يكتسبه وهو ممحوق البركة كما جاء بذلكم الحديث عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه .

قال: ((**منفقة للسلعة**)) والسلعة هي البضاعة .

((**وممحقةٌ للكسب**)) أي الكسب الذي يحصِّله من وراء ذلك كسبٌ ممحوق البركة أي لا بركة فيه ؛ يمحو الله سبحانه وتعالى منه البركة .

وعن سلمان رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((**ثلاثة لا يكلمهم الله ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: أشيمطٌ زانٍ، وعائلٌ مستكبر، ورجلٌ جعل الله بضاعته، لا يشتري إلا بيمينه، ولا يبيع إلا بيمينه**)) **رواه الطبراني بسند صحيح .**

****

قال : ((**وعن سلمان**)) أي الفارسي رضي الله عنه وأرضاه ((**أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ثلاثة لا يكلمهم الله ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم**)) ؛ وهذه الأمور الثلاثة التي ذُكرت عن هؤلاء تدل على أن الأمر الذي اقترفوه من كبائر الذنوب وعظائم الآثام ، لأن مثل هذا الوعيد لا يأتي إلا فيما هو كبير وعظيم .

قال : ((**لا يكلمهم الله**)) أي أن هؤلاء العصاة أهل هذه الصفات والخصال لا يكلمهم الله -أي يوم القيامة- بما يكلم به أولياءه وأصفياءه من كلامٍ فيه إكرام وإنعام وتشريف وفضل يمنُّ الله سبحانه وتعالى به عليهم ، فيسمعون كلام الله منه سبحانه وتعالى تكرمة لهم وإنعامًا منه جل وعلا عليهم .

فنفي الكلام أن الله يكلم هؤلاء العصاة دليلٌ على تكليمه سبحانه وتعالى من سواهم من أهل الإيمان والتقوى والصلاح والاستقامة على طاعة الله عز وجل ، ولهذا فالحديث فيه إثبات صفة الكلام لله ، وأن الله عز وجل يتكلم متى شاء بما شاء ومن ذلك أنه يكلم يوم القيامة أصفياءه وأولياءه كلام إكرام وإنعام وتفضل ، مثل ما جاء في صحيح مسلم قال عليه الصلاة والسلام: ((إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ، وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ)) ؛ فهؤلاء يكلمهم الله كلام إنعام وتكرمة وإحسان وفضل ، وأما هؤلاء العصاة فمن الوعيد لهم على هذه المعاصي الكبيرة والذنوب العظيمة التي اقترفوها أن الله عز وجل لا يكلمهم .

والمنفي هنا: كلام الإكرام والإنعام ، وإلا فإن الكفار يكلمهم كلام الزجر والتقريع مثل قول الله لهم: ﴿ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون:١٠٨] ؛ هذا كلام من الله سبحانه وتعالى لكن المنفي هنا هو كلام الإنعام والإكرام والتفضل والإحسان ، وإنما يكون ذلك لأولياء الله سبحانه وتعالى وأصفيائه .

قال : ((**ولا يزكيهم**)) من التزكية وهي التطهير . ولا يزكيهم: أي لا يحصل لهم التزكية من الله تبارك وتعالى والتي يُنال بها دخول الجنة دخولًا أوليًا كما هو الشأن في السابقين بالخيرات وأصحاب اليمين ، يدخلون الجنة دخولًا أوليا ، يزكيهم الله سبحانه وتعالى ويطهرهم ويحصل لهم ما يحصل فيدخلون الجنة يوم القيامة دخولًا أوليا . أما هؤلاء ليسوا أهلًا لذلك ، لا يزكيهم الله .

((**ولهم عذاب أليم**)) أي لهم عذاب شديدٌ مؤلم . وهذا يدل على عظم الأمور التي ارتكبها هؤلاء .

قال عليه الصلاة والسلام: ((**أشيمط زان**)) هذا الأول من هؤلاء الثلاثة الأشيمط الزان ؛ والشمط: هو الشيب. والأشيمط: تصغير أشمط وهو الذي أصابه الشمط ، يعني شاب وكبر سنُّه . ومن المعلوم أن الرجل إذا كبرت سنه ضعُف البدن وضعفت القوى وضعفت أيضا الرغبة والشهوة تضعف فيه مع كبر سنه ، فإذا زنى في كبر سنِّه وشيخوخته إذا وقع في الزنا لا يكون الداعي إلى الزنا قوة الشهوة وتأججها كما هي في الشاب ، وإنما يكون الدافع لذلك فسادٌ في هذا الرجل وانحراف في قلبه ورقة في دينه وعدم خوف من ربه سبحانه وتعالى ، أما الشاب قد يكون عنده شيء من الخوف من الله ولكن قوة الشهوة تغلبه ، وهو لا يُعذر في ذلك لكنه ثمة داعي فيه يدفعه دفعًا إلى المعصية فيحتاج إلى مقاومة ، أما من شاخ وكبُر فإن هذا الداعي أو الدافع ضعف فيه ، فإذا وقع في الزنا

في شيخوخته وكبر سنه فهذا دليل على فسادٍ في قلبه ، لأنه وقع في الفاحشة مع ضعف الداعي أو ربما عدم وجود الداعي ولهذا استحق هذه العقوبة الشديدة المغلظة .

((**أشيمط زان**)) : أي شيخ كبير مسن يقع والعياذ بالله في الزنا ؛ وهذا يفيدنا فائدة مهمة فيما يتعلق بالذنوب: أن الذنوب تتفاوت تفاوتًا عظيما بحسب ما يحتفُّ بها ويقترن بها ، فمثلا زنا الشيخ أعظم جرمًا من زنا الشاب ، الزنا في الشهر الفاضل أو الوقت الفاضل أو الحال الفاضلة أعظم منه في ذلك ، فالمعصية تتفاوت بتفاوت ما يحتف بها ويقترن بها .

ونقف وقفةً نستمع فيها إلى كلامٍ لابن القيم عظيم الفائدة منقول من كتابه «إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان» فيه بيان تفاوت الذنوب بحسب ما يقترن بها ممثِّلا على ذلك بفاحشة الزنا :

قال ابن القيم رحمه الله : [**وبالجملة فمراتب الفاحشة متفاوتة بحسب مفاسدها ، فالمتخذ خِدْناً من النساء والمتخذة خدنًا من الرجال أقل شرًا من المسافِح والمسافِحة مع كل أحد ، والمستخفي بما يرتكبه أقل إثمًا من المجاهر المستعلن ، والكاتم له أقل إثمًا من المخبِر المحدِّث للناس به، فهذا بعيدٌ عن عافية الله تعالى وعفوه، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((كُلُّ أُمَّتِي معافى إلا المُجَاهِرِينَ، وَإِنَّ مِنَ الْمُجَاهَرَةِ أَنْ يَسْتُرَ اللهُ تعالى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللهِ عَنْهُ، يَقُولُ: يَا فُلاَن، فَعَلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا ؛ فَيَبِيتُ رَبُّهُ يَسْتُرُهُ، وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللهِ عَنْ نَفْسِهِ)) أو كما قال . وكذلك الزنا بالمرأة التي لا زوج لها أيسر إثما من الزنا بذات الزوج، لما فيه من ظلم الزوج والعدوان عليه وإفساد فراشه عليه، وقد يكون إثم هذا أعظم من إثم مجرد الزنا أو دونه. والزنا بحليلة الجار أعظم إثما من الزنا ببعيدة الدار، لما اقترن بذلك من أذى الجار وعدم حفظ وصية الله تعالى ورسوله به. وكذلك الزنا بامرأة الغازي في سبيل الله أعظم إثمًا عند الله من الزنا بغيرها .**

وكما تختلف درجاته بحسب المزني بها فكذلك تتفاوت درجاته بحسب الزمان والمكان والأحوال، وبحسب الفاعل ؛ فالزنا في رمضان ليلًا أو نهاراً أعظم إثمًا منه في غيره . وكذلك في البقاع الشريفة المفضلة هو أعظم إثما منه فيما سواها.

أما تفاوته بحسب الفاعل: فالزنا من الحر أقبح منه من العبد؛ ولهذا كان حَدُّه على النصف من حده. ومن المحصن أقبح منه من البكر ، ومن الشيخ أقبح منه من الشاب ؛ ولهذا كان أحد الثلاثة الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: الشيخ الزاني . ومن العالِم أقبح منه من الجاهل، لعلمه بقبحه وما يترتب عليه، وإقدامه على بصيرة . ومن القادر على الاستغناء عنه أقبح من الفقير العاجز] .

هذا كلامٌ عظيم لابن القيم رحمه الله تعالى في بيان تفاوت الذنب الواحد بحسب ما يحتف ويقترن به ، إما من حيث الفاعل ، أو من حيث المفعول به ، أو من حيث الزمان ، أو من حيث المكان كما وضح ذلك رحمه الله تعالى بالأمثلة .

قال : ((**وعائلٌ مستكبر**)) أحد الثلاثة الذين لا يكلمهم الله ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم : عائل مستكبر ؛ والعائل: هو الرجل الفقير الذي له عيال وله أسرة ينفق عليهم وهو رجل فقير لا مال له ومع ذلك يكون مستكبرًا ؛ فهذا تكبرٌ مع ضعف الداعي أو عدم وجوده ، لأن الذي يحرك في الإنسان الكبر: المال أو الرئاسة والمكانة ، وهذا رجل فقير وعنده أسرة وينفق على أسرته من قليلٍ يحصِّله ثم يستكبر على الناس!! فهذا التكبر تكبرٌ ناشئ عن غير داعٍ أو دافعٍ له ، ولهذا صاحب المال أو صاحب الرئاسة يحتاج إلى معالجة لنفسه معالجةً مستمرة يدفع عن نفسه التكبر ، لأن المال يحرك فيه التكبر، والرئاسة تحرك فيه التكبر ، أما إذا كان فقيرًا ثم يتكبر على الناس ما الذي يدفعه إلى هذا التكبر! إلا وجود فسادٍ في قلبه ، أما الداعي فليس موجود ، الداعي وهو المال أو الرئاسة ليس موجودًا ، فهذا يدل على فسادٍ في قلبه تولَّد منه هذا التكبر على الناس فاستحق هذه العقوبة ، لوجود هذا التكبر فيه مع ضعف الداعي أو عدمه .

ثم ذكر الثالث وهو موضعه الشاهد للترجمة قال : ((**ورجلٌ جعل الله بضاعته**)) جعل الله : أي جعل الحلف بالله والأيمان الكاذبة بضاعته ؛ أي ترويجًا لبضاعته وتنفيقًا لسلعته .

((**جعل الله بضاعته؛ لا يشتري إلا بيمينه، ولا يبيع إلا بيمينه**)) وهذا يدل على أنه كثير الحلف ولا يبالي بعظمة الله وعظمة أسمائه سبحانه وتعالى وهمُّه هذا المال الذي يريد أن يحصِّله ، ولاشك أن وقوع ذلك من ضعف التوحيد ونقص التوحيد ونقص التعظيم لله سبحانه وتعالى .

وعمومًا فهذه الأمور الثلاثة التي ذكر النبي صلى الله عليه وسلم عقوبتهم الشديدة في هذا الحديث ، هؤلاء الثلاثة كلهم إنما نشأت أعمالهم من ضعف إيمانهم ورقة دينهم ؛ فوقعوا في مثل هذه الشنائع والعظائم التي استحقوا بها هذه العقوبة المغلظة .

قال رحمه الله :

وفي الصحيح عن عمران بن حصين رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((خير أمتي قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم– قال عمران: فلا أدري أذكَر بعد قرنه مرتين أو ثلاثة؟ – ثم إن بعدكم قوم يشهدون ولا يُستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السِّمَن)).

****

قال : ((**وفي الصحيح عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: خير أمتي قرني ، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**)) ؛ «خير أمتي قرني» هذا فيه خيرية القرن الأول وأنهم خير أمة محمد عليه الصلاة والسلام ، وقد قال الله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾[آل عمران:١١٠] ، والصحابة رضي الله عنهم يدخلون في هذه الآية دخولًا أوليا مقدمًا على دخول غيرهم رضي الله عنهم وأرضاهم .

- فخير الناس قرن النبي عليه الصلاة والسلام أي الذين بُعث فيهم عليه الصلاة والسلام ورأوه صلوات الله وسلامه عليه ، ولهذا الصحيح أن المراد بالقرن الأول الصحابة رضي الله عنهم ، فيتناول هذا القرن جميع الصحابة إلى آخر الصحابة وفاةً ، رضي الله عن الصحابة أجمعين ؛ فهذا هو القرن الأول . المراد بالقرن الأول: أصحاب النبي ، فيتناول كل صحابي ، كل من حصلت له رؤية النبي عليه الصلاة والسلام إلى آخر الصحابة وفاةً هؤلاء هم القرن الأول .
- ثم القرن الثاني: قرن التابعين ؛ ويشمل هذا القرن كل من حصلت له رؤية للصحابة وتلقي عن الصحابة رضي الله عنهم إلى آخر التابعين وفاةً ، إلى آخر من رأى أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وفاةً ؛ فهؤلاء يقال لهم التابعون وهم القرن الثاني . فالقرن الأول الصحابة ، والقرن الثاني هم التابعون .
- والقرن الثالث: هم أتباع التابعين ؛ من تلقوا عن التابعين الذين تلقوا عن أصحاب النبي الكريم عليه الصلاة والسلام .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : «اتفقت الروايات على ذكر الصحابة والتابعين وتابعيهم وهم القرون الثلاثة» ، فالقرون الثلاثة هم هؤلاء : الذين صحبوا النبي عليه الصلاة والسلام ، ثم القرن الذين يلونهم وهم الذين تلقوا عمن صحبوا النبي عليه الصلاة والسلام ، ثم القرن الذي يليهم وهم الذين تلقوا عمن تلقوا عن أصحاب النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه .

قال : ((**خير أمتي قرني**)) وهذا القرن هم الذين شرَّفهم الله وأكرمهم ومنَّ عليهم بصحبة النبي عليه الصلاة والسلام ، وهذه خيرية لم ينلها أحدٌ جاء بعدهم ، ولهذا لا يسبقهم أحد لأنهم حصَّلوا شيئا لا يحصِّله أحد جاء بعدهم مهما عمِل ومهما قدم ومهما بذل ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : ((لاَ تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ، ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلاَ نَصِيفَهُ)) ، هؤلاء شرَّفهم الله عز وجل بشرف عظيم لا يناله كل من جاء بعدهم؛ وهو شرف الصحبة والنصرة والسماع والتلقي من النبي عليه الصلاة والسلام ونقْل الدين لمن بعدهم ، فهذا شرفٌ ميِّز به الصحابة الكرام رضي الله عنهم وأرضاهم .

((**ثم الذين يلونهم**)) أي يلي هؤلاء في الخيرية القرن الذي يليهم وهو قرن التابعين وهم الذين شرفهم الله وأكرمهم بالتلقي عن الصحابة الكرام رضي الله عنهم وأرضاهم .

((**ثم الذين يلونهم**)) وهم أتباع التابعين .

((**قال عمران: فلا أدري أذكَر بعد قرنه مرتين أو ثلاثة؟**)) ؛ إذا كان ذكر مرتين فالقرون المفضلة ثلاثة ، وإذا كان ذكر بعد قرنه ثلاثًا فالقرون المفضلة أربعة قرون .

قال : ((**ثم إن بعدكم قومٌ يشهدون ولا يُستشهدون**)) ؛ «ثم إن بعدكم قومٌ» هكذا جاء في بعض النسخ –نسخ الصحيح– ، وفي بعضها «قومًا» اسم إن ، وأما بحسب ما جاء في هذه النسخة والتي أثبتها الشيخ رحمه الله فهي

على تقدير محذوف ؛ إن بعدكم يجيء قوم أو يكون قومٌ ، وهذا التقدير جاء مصرحًا به في بعض الروايات ، جاء في بعض الروايات «يجيء قومٌ» ، وفي بعضها «يكون قومٌ» .

قال ((**إن بعدكم قومٌ**)) أي يجيء قوم ، أو على الرواية الأخرى إن بعدكم قومًا .

((**يشهدون ولا يُستشهدون**)) ؛ يشهدون: أي يبادرون إلى الشهادة ويسارعون إليها ، ولا يُستشهدون : أي دون أن يُطلب منهم ؛ وهذا فيه مسارعة هؤلاء إلى الشهادة وعدم اكتراثهم بها واستخفافهم بهذا الأمر ؛ أمر الشهادة .

((**ويخونون ولا يؤتمنون**)) أي أن ديدنهم الخيانة وعدم الأمانة ؛ وهذا كله من رقة دينهم وضعف إيمانهم .

((**وينذرون ولا يوفون**)) ينذر "إن حصل لي كذا لأفعلن كذا" أو نحو ذلك ولا يفي بنذره .

وهذه الأمور الثلاثة التي هي أوصاف لهؤلاء الذين يخلُفون من بعد تدل على رقة دين هؤلاء ، ومن ذلك أنهم يشهدون يأتي ويشهد ويحلف الأيمان الكاذبة ويبادر إلى الشهادة وإلى الحلف ، وهذا كله من عدم تعظيه لله سبحانه وتعالى ومن رقة دينه .

قال: ((**ويظهر فيهم السِّمن**)) وهذا مما يدل على إكبابهم على الدنيا ولهفهم عليها واستكثارهم منها وميلهم إلى التنعُّم وكثرة المطاعم والمشارب والمآكل ؛ وهذا ديدنهم وهذا شغلهم ولهذا يظهر فيهم السِّمن . فالذم الذي نال هؤلاء الذي هو السِّمن بسبب إكبابهم على الدنيا ، ولهذا قال العلماء: لا يذم السِّمن مطلقًا ، يعني بعض الناس قد يكون السِّمن بسبب مرض أصابه أو نحو ذلك فلا يذم مطلقًا ، ولكن يذم عندما يكون سمنًا مفرطًا سببه إكباب المرء على الدنيا وتكالبه عليها وهمته إنما هي متجهة إلى المطعم والمشرب والمأكل ونحو ذلك .

الشاهد من الحديث قوله ((يشهدون ولا يُستشهدون)) أي يبادرون إلى الشهادة والشهادة يكون فيها اليمين ويكون فيها الحلف ؛ فهو يشهد يأتي ويبادر يشهد "والله إنه لحصل كذا ، والله إنه لم يحصل كذا" يبادر إلى ذلك ويحلف في شهادته الأيمان الكاذبة ، وهذا كله ناشئ من عدم التعظيم لله سبحانه وتعالى ، وهذا مما يتنافى مع التوحيد الواجب .

قال رحمه الله تعالى :

وفيه عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته)) .

****

قال ((**وفيه عن ابن مسعود**)) أي عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ((**أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**)) وهذا بنحو الحديث الذي قبله في ذكر القرون المفضلة؛ وهي

قرن الصحابة رضي الله عنهم وقرن التابعين وقرن أتباع التابعين، فهذه القرون المفضلة ، وقد جاء في الحديث عن نبينا عليه الصلاة والسلام أنه قال : ((لا يأتي على الناس زمان إلا والذي بعده شرٌ منه)) فالأمور تضعف بعد ذلك ، وأخبر عن ذلك صلوات الله وسلامه عليه أن الأمور إلى ضعف مع إخباره في الوقت نفسه أنه لا تزال طائفة من أمته على الحق منصورة ، وهذا الإخبار على وجه التحذير والإنذار ، وأن الواجب على الإنسان أن يقبِل على دين الله سبحانه وتعالى ، وأن يكون من هؤلاء الذين هم أنصارٌ لدين الله عز وجل ، وأن لا يغتر بكثرة الهالكين .

قال ((**خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ، ثم يجيء**)) أي بعد هؤلاء وبعد هذه القرون المفضلة ((**قومٌ تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته**)) وهذا فيه مسارعة هؤلاء إلى اليمين ومسارعتهم إلى الشهادة دون مبالاة ودون اكتراث ، وهذا من رقة الدين وضعف الإيمان ومن عدم التعظيم لله سبحانه وتعالى . وهذا هو وجه الشاهد من هذا الحديث للترجمة .

وقال إبراهيم رحمه الله : «كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد ونحن صغار» .

****

قال رحمه الله : ((**وقال إبراهيم**)) أي النخعي رحمه الله تعالى وهو من التابعين .

((**كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد ونحن صغار**)) العهد: أي الأيمان "عهد الله إنه لكذا ، أو أحلف بالله إنه لكذا" . والشهادة: "أشهد بالله إنه لكذا" ؛ كانوا يضربوننا على ذلك ونحن صغار .

وهذا فيه أن الصغار يحتاجون من الصغر أن يعوَّدوا على حفظ اليمين وأن يعوَّدوا أيضا على عدم المسارعة إلى الشهادة وعدم المسارعة إلى الأيمان والعهود وعدم المبادرة إلى هذه الأمور ، وأن يعظَّم في نفوسهم هذه الأشياء منذ الصغر ، لأنه كما قيل «من شبَّ على شيء شاب عليه» ، «وينشأ ناشئ الفتيان منا على ما كان عوَّده أبوه» ، ولهذا يحتاج الصغار أن ينبَّهوا على ذلك ، وإذا كان على لسان الصغير كثرة الحلف يقال له : انتبه لا تكثر الحلف فإن كثرة الحلف ينشأ عن ضعف تعظيم للمحلوف به سبحانه وتعالى ، وإنما يُلجأ إلى الحلف عند الحاجة وعند المقام الذي يقتضيه ذلك مع استشعارٍ من الحالف لعظمة من يحلف به ، أما من ديدنه الحلف في كل شيء يحلف!! لاشك أن هذا ناشئ عن ضعف تعظيم للمحلوف به سبحانه وتعالى . ولهذا ينبغي أن ينشَّأ الصغار ويعوَّدوا على تعظيم اليمين وإدراك عظم شأن اليمين ، ويُنهوا عن كثرة الحلف لما في ذلك من ضررٍ على هؤلاء في مقام التوحيد ومقام تعظيم الرب سبحانه وتعالى .

قال: «**كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد ونحن صغار**» ؛ أيضا مما يستفاد من ذلك : أهمية تربية الأولاد والأبناء والنشء على الاعتقاد والتوحيد والإيمان بالله عز وجل وأيضا الفروع المتعلقة بأمور التوحيد وجوانبه العديدة ينشَّئ الصغار على العناية بهذا المقام العظيم الذي في نشأتهم عليه صلاحهم وعزهم وفلاحهم في الدنيا والآخرة.

قال رحمه الله تعالى :

فيه مسائل ؛ الأولى: الوصية بحفظ الأيمان.

كما قال الله سبحانه وتعالى : ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ [المائدة:٨٩] ، والمراد بحفظ اليمين: عدم الحلف وعدم الإكثار من الحلف ، مثل ما جاء عن ابن عباس في معنى الآية قال : «لا تحلفوا» ، وقال غيره من السلف في معنى الآية : أي لا تحنثوا في أيمانكم ، والأمران متلازمان . فإذًا حفظ اليمين يكون بعدم الحلف والبُعد عن كثرة الحلف ، وأيضا البعد عن الحنث في اليمين ، كل ذلكم يُعدُّ حفظًا لليمين .

الثانية: الإخبار بأن الحلف منفقةٌ للسلعة ممحقةٌ للبركة.

أي كما جاء في حديث أبي هريرة وهو الحديث الأول الذي ساقه رحمه الله تعالى في هذه الترجمة ، وهذا الإخبار ينبه الإنسان أن لا يغتر ، عندما يحلف في سلعه ويجد أن السلعة تروج والناس يقبِلون على بضاعته ويشترون لا يغتر بذلك ، نعم الحلف منفقة للسلعة لكن ماذا يتبع نفاق السلعة؟ ليتنبه لذلك ؛ قال : «ممحقة للبركة» أي لا يبارك الله له في مالٍ حصّله بهذه الأيمان وهذا الاسترخاص والاستهانة باليمين وعدم التعظيم لها ، لا يبارك الله له في هذا المال وإن كثر المال الذي حصَّله . فهذا فيه تحذير للمسلم وتنبيهٌ له أن لا يغتر بالمال الذي يحصِّله في هذه الأيمان وكثرة اليمين ، فإنه وإن كان منفقة للسلعة فإنه في الوقت نفسه ممحقة للبركة .

الثالثة: الوعيد الشديد فيمن لا يبيع إلا بيمينه ولا يشتري إلا بيمينه.

الوعيد الشديد فيمن لا يبيع إلا بيمينه ولا يشتري إلا بيمينه ؛ فإنَّ من كان كذلك فهو أحد الثلاثة الذين قال عنهم عليه الصلاة والسلام : ((لا يكلمهم الله ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم)) .

الرابعة: التنبيه على أن الذنب يعظم مع قلة الداعي.

قلة الداعي : يعني ضعف الداعي الذي يحرك هذا الذنب ، مثل ما مر معنا في الأشيمط الزاني ، وفي العائل المستكبر.

الخامسة: ذم الذين يحلفون ولا يُستحلفون.

وهذا في قوله ((يشهدون ولا يُستشهدون)) ؛ أي يبادرون إلى الشهادة والحلف دون أن يكون طُلب منهم ذلك.

السادسة: ثناؤه صلى الله عليه وسلم على القرون الثلاثة أو الأربعة وذِكر ما يحدث بعدهم.

ثناؤه عليهم بأنهم خير القرون ، قال : ((خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم)) قال عمران (فلا أدري أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثة) ولهذا قال الشيخ «الثلاثة أو الأربعة» .

«وذِكر ما يحدث بعدهم» حيث قال عليه الصلاة والسلام ((ثم إن بعدكم قوم يشهدون)) إلى آخر الحديث ، وفي الحديث الذي بعده قال: ((ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته)) .

السابعة: ذم الذين يشهدون ولا يُستشهدون.

أي كما جاء في حديث عمران ابن حصين رضي الله عنه قال: ((يشهدون ولا يستشهدون)) .

الثامنة: كون السلف يضربون الصغار على الشهادة والعهد.

أي كما جاء في الأثر عن إبراهيم النخعي رحمه الله تعالى .

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك .

اللهم صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

الدرس الثاني والخمسون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد:

يقول الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد ابن عبد الوهاب التميمي رحمه الله تعالى في كتابه «كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد» :

باب ما جاء في ذمة الله وذمة نبيه

وقول الله تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ الآية [النحل:٩١] .

****

قال المصنف شيخ الإسلام الإمام المجدِّد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتابه التوحيد : ((**بابٌ ما جاء في ذمة الله وذمة نبيه**)) ؛ الذمة يراد بها هنا : العهد . والغرض من هذه الترجمة : صيانة مقام التوحيد في جناب الله سبحانه وتعالى ، وتعظيمه جل في علاه ، وتجنب كل أمرٍ يخلُّ بهذا التعظيم أو يُنقص من شأن هذا التعظيم ؛ لأن المسلم يجب عليه أن يكون في كل شؤونه معظمًا لربه ، سواءً في جانب التعبد الذي بينه وبين الله سبحانه وتعالى ، أو في جانب التعامل الذي بينه وبين الناس ، وكما أنه يراعى التعظيم لله جل وعلا في جانب التعبد فإنه كذلك يراعى التعظيم له جل وعلا في جانب التعامل مع الناس ، فلا يتعامل أي معاملةٍ تتنافى مع تعظيم الله جل وعلا ، وقد مر معنا عند المصنف -الباب الذي قبل هذا- «النهي عن كثرة الحلف» وهو من هذا القبيل ، لأن التعاملات التي تكون بين المرء وبين الناس لابد أن يحافظ فيها المتعامل على جانب التعظيم لله سبحانه وتعالى ، وأي لفظٍ أو كلمة لابد أن تكون مصونةً عن كل ما يتنافى مع تعظيم الرب تبارك وتعالى .

قال : ((**بابٌ ما جاء في ذمة الله وذمة نبيه**)) والمراد بذلك : أي صيانة ذمة الله وذمة نبيه صلى الله عليه وسلم عند إعطاء العهود والمواثيق ، ولاسيما بين المسلمين والكفار إذا أعطوهم عهد أو طلبوا أن يُنزلوهم على عهد الله وعهد نبيه يُنزلونهم على عهود أنفسهم ، لأنه قد يكون هناك إخفار لهذه الذمة من بعض الأفراد ، أفراد المسلمين قد يقع منه إخفار للذمة أو نقض لهذا العهد الذي كان بين المسلمين وبين أعدائهم ، فإذا كان الذي أُعطي هو عهد الناس عهد المسلمين لهم فأُخفر فإن ذلك أهون من أن يكونوا قد أعطوهم عهد الله سبحانه وتعالى وعهد نبيه فحصل الإخفار ؛ فيكون الذي ارتُكب حينئذ أو وقع هو أخف المفسدتين ، مع ما في ذلك من المراعاة لجانب التعظيم لله سبحانه وتعالى .

أورد قول الله جل وعلا : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٩١) وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ فهذا السياق العظيم المبارك فيه تعظيمٌ لشأن العهد وشأن الميثاق عمومًا ، وأن الواجب على المسلم أن يفي بعهده. ويشتد الأمر ويعظم عندما يكون على هذا العهد أيمان ، عندما يعطي عهدًا ويحلف اليمين على ذلك العهد ، ولهذا قال: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ﴾ أي ضامنًا سبحانه وتعالى .

ثم ختم هذه الآية الكريمة بالتهديد لمن نقض هذه العهود واستهان بهذه الأيمان مما يتنافى مع تعظيم الرب سبحانه وتعالى ، فختم بقوله ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ أي: فسيجازيكم على ذلك ويعاقبكم عليه .

وفي الآية التي تليها قال: ﴿ وَلَا تَكُونُوا ﴾ أي في نقضكم للعهود ﴿ كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ ﴾ لأن من أسباب النقض للعهود الميل الذي يقع في قلب الإنسان عندما يجد أناسًا أكثر مالًا وأكثر مكانةً وأكثر مثلا جاهًا من الذين أعطاهم العهد أو الميثاق فينقض من أجل ذلك ؛ أمة أربى من أمة : أي أكثر مالًا وأكثر شأنًا ومكانةً .

فالواجب على المسلم أن يعظِّم جناب الرب سبحانه وتعالى ، وأن يحفظ العهود ، وأن يفي بالوعود ، وأن لا ينقض ذلك ، وإذا كان العهد مصحوبًا باليمين المؤكِّدة لذلك العهد فإن الأمر يعظُم ، والواجب على العبد المؤمن الموحِّد أن يتجنب كل أمرٍ يتنافى مع تعظيم الرب سبحانه وتعالى . ولأجل ذلك أورد المصنف هذه الترجمة في هذا الباب وساق هذه الآية الكريمة وحديث بريدة ابن الحصيب الأسلمي رضي الله عنه .

قال رحمه الله تعالى :

وعن بريدة رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أمَّر أميرًا على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله، وبمن معه من المسلمين خيرا. فقال: ((اغزوا بسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغُلُّوا ولا تغدروا ولا تمثِّلوا، ولا تقتلوا وليدا ، وإذا لقيتَ عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال –أو خلال– فأيتهن أجابوك فاقبل منهم وكُفَّ عنهم، ثم ادعهم إلى الإسلام ، فإن أجابوك فاقبل منهم ، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين ، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبَوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين،

يجري عليهم حكم الله تعالى، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين ، فإن هم أبوا فاسألهم الجزية ، فإن هم أجابوك فأقبل منهم وكُف عنهم ، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم . وإذا حاصرتَ أهل حصنٍ فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه ، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك ، فإنكم إن تُخفروا ذممكم وذمة أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة نبيه . وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله، فلا تُنزلهم على حكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك، فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا؟)) رواه مسلم .

****

قال رحمه الله تعالى : ((**وعن بريدة**)) أي ابن الحصيب الأسلمي رضي الله عنه .

قال: ((**كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أمَّر أميرًا على جيشٍ أو سريةٍ أوصاه بتقوى الله ، ومن معه من المسلمين خيرا**)) أي أن هذا كان شأن النبي عليه الصلاة والسلام مع أمراء الجيوش والسرايا والقادة ؛ يوصيهم دائمًا بهذه الوصية العظيمة .

((**إذا أمَّر أميرا على جيش أو على سرية**)) والسرية: هي القطعة من الجيش تُرسل قطعة من الجيش يقال لها «سرية» ، ويقال إنَّها أطلق عليها سرية لأن الغالب في خروجها أنه يكون ليلًا وخُفية فسميت سرية ، والسرية: هي القطعة من الجيش .

فكان إذا أمَّر أميرًا على جيش أو على سرية ((**أوصاه في نفسه بتقوى الله**)) أن يكون مراقبًا لله متقيًا لله عز وجل في تعاملاته وأموره وأحواله متقيًا لله عز وجل . وتقوى الله: عملٌ بطاعة الله على نورٍ من الله رجاء ثواب الله ، وتركٌ لمعصية الله على نورٍ من الله خيفة عذاب الله. هذه حقيقة تقوى الله جل وعلا ، وهي وصية الله جل وعلا للأولين والآخرين من خلقه كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾[النساء:١٣١] ، وهي وصية نبينا الكريم صلوات الله وسلامه عليه لأمته ، وهي وصية السلف فيما بينهم .

قال: ((**أوصاه في نفسه بتقوى الله تعالى ، ومن معه من المسلمين خيرا**)) أي يوصيه بمن تحته من الأفراد أفراد السرية أو أفراد الجيش يوصيه خيرًا ؛ بأن يرفق بهم ، أن يحسن التعامل معهم ، أن لا يحمِّلهم ما لا يطيقون ، أن يتقي الله سبحانه وتعالى فيهم ، أن يعاملهم بالمعاملة القائمة على الخير .

((**فقال: اغزوا بسم الله في سبيل الله**)) أي اشرعوا ، بعد هذه الوصية يدعوهم إلى الانطلاق والسير ؛ اغزوا: أي اشرعوا انطلقوا لما أُمرتم به من غزوٍ ؛ «بسم الله وفي سبيل الله» وهذان أصلان عظيمان يقوم عليهما الغزو :

- الأول : أن يغزو مستعينًا بالله متوكلًا عليه مفوضًا أمره إليه سبحانه وتعالى ؛ فإن الباء في قوله «بسم الله» باء الاستعانة ، ((اغزوا بسم الله)) : أي مستعينين بالله طالبين العون منه ، لأن النصر والعون والتوفيق كل ذلكم بيد الله عز وجل ، فانطلقوا غزاةً مستعينين بالله ربكم .
- ((وفي سبيل الله)) هذا فيه التنبيه على الإخلاص وأن يكون الغرض من هذا الخروج لقتال الأعداء ابتغاء مرضات الله عز وجل . «في سبيل الله» : أي مخلصين لله لا رياءً ولا سمعةً ولا شهرةً ولا حميةً ولا غير ذلك من الأغراض وإنما يكون خروجًا في سبيل الله لأجله وابتغاء مرضاته سبحانه وتعالى .

فاجتمع ففي قوله «بسم الله وفي سبيل الله» ما اجتمع في قول الله ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[الفاتحة:٥] ، وقوله ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾[هود:١٢٣] ، ولذلك نظائر عديدة في كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم . فأوصاهم بالجمع بين هذين الأصلين العظيمين الاستعانة والإخلاص ؛ الاستعانة في قوله «بسم الله» ، والإخلاص في قوله «في سبيل الله» . وهذان أصلان عليهما قيام الأعمال ؛ الإخلاص غاية ، والاستعانة وسيلة ، ولا سبيل لنيل هذه الغاية إلا بطلب المعونة من الله تبارك وتعالى .

قال : ((**قاتلوا من كفر بالله**)) أي أن هذا هو الغرض من أمرهم صلى الله عليه وسلم بهذا الغزو ؛ قاتلوا من كفر بالله كما قال الله تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾[الأنفال:٣٩] .

((**اغزوا**)) أعاد هذا الفعل تأكيدًا واهتمامًا .

((**اغزوا ولا تغلُّوا ولا تغدِروا ولا تمثِّلوا ولا تقتلوا وليدا**)) هذه محاذير وأمور نهى عليه الصلاة والسلام من خرج للقتال في سبيل الله مستعينا بالله عنها وعن الوقوع في شيء منها :

الأول من هذه الأمور الثلاثة: النهي عن الغلول ((**ولا تغلُّوا**)) ؛ والغلول يراد به: الأخذ من الغنيمة قبل أن تُقسم، ولو كان الذي أخذه شيئا يسيرا ؛ فإن الغلول عارٌ وشنار ونار كما صح بذلكم الحديث عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ؛ عار: أي خزي ، حتى ولو كان الذي أخذه شيئًا قليلا ، ونارٌ: أي أن أخذ هذا الغلول موجبٌ لصاحبه النار ، والشنار: هو الفضيحة أيضًا لصاحبه والخزي لصاحبه . فحذر عليه الصلاة والسلام من الغلول ، والغلول: هو الأخذ من مال الغنيمة قبل أن تُقسم .

قال : ((**ولا تغدروا**)) نهى عليه الصلاة والسلام عن الغدر؛ وهو الخيانة وعدم الوفاء بالعهد والميثاق .

قال: ((**ولا تمثلوا**)) والمراد بالتمثيل : هو تشويه القتلى ؛ بأن يُقطع مثلا الأنف أو تقطع الأذن أو يشرَّط الوجه ، هذا يسمى تمثيل ، فنهى عنه صلوات الله وسلامه عليه قال : ((ولا تمثلوا)).

((**ولا تقتلوا وليدا**)) ومِثل الوليد الشيوخ الكبار والنساء وكل من لا شأن له في القتال ، نهى صلوات الله وسلامه عليه عن أن يُقتلوا ؛ الأولاد الصغار والنساء والشيوخ الكبار المسنين هؤلاء كلهم ممن لا شأن لهم في القتال فلا

يُقتل أحد منهم ، نهى صلوات الله وسلامه عليه ؛ وماذا يقال ما يقع في مثل هذا الزمان من رمي القذائف والقنابل التي تسقط على المواطن السكنية فتقتل الشيوخ والنساء والأطفال بما فيهم الرضَّع؟! بما فيهم الرضيع يُقتل!! هذا كله ليس من الإسلام وليس من دين الله تبارك وتعالى ، قال عليه الصلاة والسلام ((ولا تقتلوا وليدا)) فالأطفال الصغار والنساء اللاتي لا شأن لهن بالقتال والشيوخ الكبار المسنين الضعفة كل هؤلاء لا يجوز قتالهم ولا يجوز قتلهم .

قال : **((وإذا لقيت عدوك من المشركين))** ؛ «عدو» مفرد ، والمفرد إذا أضيف يفيد العموم ، أي أعداءك ؛ إذا لقيت عدوك أي: إذا لقيتم الأعداء من المشركين .

((فادعهم)) أي قبل القتال ، قبل أن تبدأ بالقتال وجِّه إليهم الدعوة .

((ادعهم إلى ثلاث خصال أو خلال)) شك الراوي ، وهما بمعنى واحد .

قال : **((فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم))** «أيتهن» بالنصب مفعول أجابوك . أيتهن ما أجابوك فاقبل منهم : إذا أجابوك لأيِّ واحدة من هذه الثلاث فاقبل منهم ، وإن لم يجيبوا للثلاث كلها تشرع في القتال .

((فاقبل منهم وكف عنهم)) أي لا تقاتلهم إذا أجابوك لواحدة من هذه الثلاث .

قال: **((ثم ادعهم إلى الإسلام))** ؛ هنا بدأ التفصيل لهذه الأمور الثلاثة ، ولفظة «ثم» جاءت في صحيح مسلم ، وعامة مصادر التخريج لهذا الحديث ليس فيها هذا الحرف ، كمسند الإمام أحمد وسنن أبي داود وسنن ابن ماجة وسنن النسائي ومصادر أخرى عديدة خرَّجت هذا الحديث ليس فيها هذا الحرف «ثم» ، وهو الأوْلى ؛ لأن إثبات هذا الحرف يُشعر بابتداء كلامٍ مستأنف ، والواقع أن المذكور بعد هذا الحرف هو تفصيلٌ لهذه الثلاث .

قال: **((ادعهم إلى الإسلام))** أي ادعهم إلى توحيد الله تبارك وتعالى ؛ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله وأن يقبلوا هذا الدين الذي بُعث به صلوات الله وسلامه وبركاته عليه .

قال : **((فإن أجابوك فاقبل منهم))** لأن الغرض تحقق والمقصد وجد ، فإن أجابوك أي قبِلوا الإسلام ودخلوا في هذا الدين ونطقوا بالشهادتين فاقبل منهم ، في الحديث الآخر قال : ((أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ)) . فإن أجابوك أي للإسلام ؛ شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاقبل منهم .

((ثم ادعهم)) أي بعد إسلامهم وقبولهم للإسلام **((ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين))** ودار المهاجرين إذ ذاك المدينة ، وكانت الهجرة واجبة إلى المدينة لأنها هي دار الإسلام ، فقال: تأمرهم بالتحول إلى دار المسلمين أي إلى المدينة النبوية . قال: **((ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين))** أي إذا قبلوا منك الإسلام ونطقوا بالشهادتين تدعوهم حينئذ إلى التحول إلى دار المهاجرين التي هي المدينة .

قال : ((**وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك**)) أي تحولوا إلى دار المهاجرين ((**فلهم ما للمهاجرين ، وعليهم ما على المهاجرين**)) ؛ لهم ما للمهاجرين : أي مما يكون من فيء أو غنيمة أو نحو ذلك ، الذي للمهاجرين يكون لهم نصيب منه وحظ منه، لأن لهم ما للمهاجرين بهذه الهجرة . وعليهم ما على المهاجرين: أي مطلوب منهم ما هو مطلوب من المهاجرين من النصرة والذب عن هذا الدين والقتال في سبيل الله تبارك وتعالى .

((**فإن أبوا أن يتحولوا**)) أي قبِلوا الإسلام وقالوا نبقى في ديارنا ولا نتحول لكنهم قبِلوا الإسلام .

قال: ((**فإن أبوا أن يتحولوا منها**)) أي من ديارهم ((**فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين ، يجري عليهم حكم الله تعالى ، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء**)) وهذا يوضح لك ما سبق في قوله «لهم ما للمهاجرين» من الغنيمة والفيء ، أما إذا بقي على الإسلام وأراد أن يبقى في وطنه أو في دياره فإنه يكون شأنه كشأن الأعراب يجري عليهم حكم الله سبحانه وتعالى ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء .

((**إلا أن يجاهدوا مع المسلمين**)) فإن جاهدوا كان لهم بهذا الجهاد مع المسلمين الحظ من الغنيمة والفيء .

قال: ((**فإن هم أبوا فاسألهم الجزية**)) أي اطلب منهم الجزية ؛ أن يدفعوا الجزية وهي قدر من المال يعيَّن جزاءً لهؤلاء ويُفرض على هؤلاء يلتزمون به في أوقات معينة يدفعونه للمسلمين .

((**فإن هم أجابوك فأقبل منهم**)) أي اقبل منهم دفعهم للجزية وكف عنهم .

((**فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم**)) إذًا هذه ثلاثة خصال أو خلال ؛ الأول: الإسلام . والثاني: الجزية . والثالث : القتال.

قال : ((**وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه**)) كأن يقولوا مثلًا نستسلم ولكن تعطوننا عهد الله وعهد نبيه أن لا يُقتل أحد منا مثلا ، أو أن لا يُفعل بنا كذا وكذا مثلا ، أعطونا عهد الله وعهد نبيه .

إن طلبوا منكم هذا العهد؛ عهد الله وعهد نبيه ((**فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه**)) قولوا لهم نعطيكم العهد منا ، نحن نعاهدكم أن لا يكون كذا وكذا وكذا من الأشياء التي مثلا طلبوا إعطاء العهد والميثاق عليها .

((**ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك**)) يقول القائد: نعطيكم العهد مني من القائد ومن أصحابي أن لا يحصل منا كذا وكذا ، لا قتل أو كذا من الأشياء التي طلبوها ؛ لماذا ؟

قال معلِّلا لهذا النهي : ((**فإنكم إن تخفروا ذممكم وذمة أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة نبيه**)) وهذا فيه –كما أشار الشيخ رحمه الله في المسائل– الإرشاد إلى أقل الأمرين خطرًا ، لأنه لو قدِّر مثلا أن بعض أفراد الجيش تسرَّع ونقض العهد فقتل ، وكانوا عاهدوهم على أن لا يُقتل منهم أحد مثلا أو نحو ذلك من الأمور المتوقع حصول شيء منها ، قد يتسرع بعض الأفراد ؛ فإن حصل شيء من ذلك فكوْن الإخفار لذمم المسلمين أهون من أن يكون الإخفار لذمة الله وذمة نبيه صلوات الله وسلامه وبركاته عليه ؛ وهذا موضع الشاهد من الترجمة

، وهذا كله تعظيم لله سبحانه وتعالى ولجنابه العظيم جل وعلا ، وأن من توحيده وتمام توحيده سبحانه أن يتجنب مثل ذلك الذي فيه إخفارٌ لذمته سبحانه وتعالى العهد الذي أُعطي بالله جل وعلا والمواثيق التي أعطيت بالله جل وعلا .

قال : ((**فإنكم إن تخفروا**)) أي تنقضوا ((**ذممكم وذمة أصحابكم أهون**)) أي أيسر ((**من أن تخفروا**)) أي تنقضوا ((**ذمة الله وذمة نبيه**)) .

قال : ((**وإذا حاصرت أهل حصنٍ فأرادوك أن تُنزلهم على حكم الله ، فلا تُنزلهم على حكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك**)) لأن الموطن موطن اجتهاد ، إذا طلبوا أن ينزلهم على حكم الله سيجتهد ، قد يصيب الحكم وقد يخطئ مثل ما قال عليه الصلاة والسلام: ((إِذَا اجْتَهَدَ الْحَاكِمُ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ اثْنَانِ ، وَإِذَا اجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ وَاحِدٌ)) ، فالموضع موضع اجتهاد ، فإذا أنزلهم على حكم الله واجتهد في المسألة ولم يكن اجتهاده مصيبًا فهذا فيه أيضًا مثل ما في الأول مراعاة التعظيم لله سبحانه وتعالى ، من أن ينزلهم على حكمه ثم يجتهد فيحكم بحكم أخطأ في الاجتهاد فيه .

قال : ((**فأرادوك أن تُنزلهم على حكم الله ، فلا تُنزلهم على حكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك**)) لأن هذا اجتهاد منك ، والاجتهاد عُرضة للصواب وعرضة للخطأ .

((**فإنك** -انظر التعليل- **لا تدري أتصيب فيهم حكم الله أم لا؟**)) لأنك ستجتهد حينئذ ولا تدري تصيب حكم الله أو لا ؟ فإذًا قل لهم أن أحكم واجتهد ، لكن هل يصيب حكم الله هذا المجتهد أو لا يصيب؟ أحد هذين محتمل كما قال عليه الصلاة والسلام : ((إِذَا اجْتَهَدَ الْحَاكِمُ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ اثْنَانِ ، وَإِذَا اجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ وَاحِدٌ)).

الشاهد من سياقة هذا الحديث للترجمة : قوله عليه الصلاة والسلام : ((فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك، فإنكم أن تخفروا ذممكم وذمة أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة نبيه)) .

قال رحمه الله تعالى :

فيه مسائل ؛ الأولى: الفرق بين ذمة الله وذمة نبيه ، وذمة المسلمين.

وهذا الفرق يتضح من قول النبي عليه الصلاة والسلام : ((فإنكم أن تخفروا ذممكم وذمة أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة نبيه)) ، لأن ذمة الله سبحانه وتعالى شأنها عظيم ، وذمة النبي عليه الصلاة والسلام المبلِّغ عن الله والواسطة بين الله وبين خلقه في إبلاغ دينه شأنها عظيم ؛ فأن تخفروا ذممكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة نبيه صلى الله عليه وسلم . وكلٌ من الذمتين إعطاء عهدٍ؛ أن يلتزمه المعاهِد ، هذا إعطاء عهد ، ولما كان يُخشى

من بعض الأفراد وهو جيش يكون فيه الألف أو الألفين أو الأقل أو الأكثر قد يُخشى من بعض الأفراد ولو فرد واحد يفعل شيئا ينقض فيه هذا العهد ، فلما كان الأمر يُخشى ولو من شخص واحد من هذا العدد الكبير من أفراد الجيش فأن يعطى ذمم أفراد الجيش وعهد أفراد الجيش وميثاق أفراد الجيش أهون عندما يُخفر وينقض هذا العهد من أن يُعطى عهد الله وعهد رسوله صلى الله عليه وسلم ثم يحصل نقضٌ له ولو من بعض الأفراد .

الثانية: الإرشاد إلى أقل الأمرين خطرا.

الإرشاد إلى أقل الأمرين خطرا : وهو أن يعطوا ذمتهم ولو حصل إخفار يكون الإخفار لذمتهم ، وهذا أهون الأمرين خطرًا ، لأن كل من الأمرين خطر ؛ إخفار ذمة الله وذمة نبيه هذا خطر ، وإخفار ذمة المؤمنين أنفسهم أيضا هذا خطر ، لأن هذه عهود لابد أن تُلتزم ، فمثلا لو عاهدوهم أن لا يقتلوا منهم أحدا وتجرأ أحد الأفراد وقتل مثلا! الأمر ليس بالهين ، النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ)) ، لأن العهود أمرها خطير وأمرها ليس بالهين ، فكل من الأمرين خطير ، لكن أحدهما أهون من الآخر ، خطورته أهون من الآخر قال: «الإرشاد إلى أقل الأمرين خطرا» .

الثالثة: قوله: ((اغزوا بسم الله في سبيل الله)).

قوله عليه الصلاة والسلام «اغزوا بسم الله في سبيل الله» فيه التنبيه على الاستعانة والإخلاص ؛ فيه التنبيه على الاستعانة في قوله « بسم الله » الاستعانة بالله والتوكل عليه جل في علاه ، والإخلاص في قوله «في سبيل الله»

الرابعة: قوله: ((قاتلوا من كفر بالله)) .

وهي نظير قول الله تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ [الأنفال:٣٩] .

الخامسة: قوله «استعن بالله وقاتلهم» .

وهذا الأمر الثالث من الخصال أو الخلال «استعن بالله وقاتلهم» أي إن لم يجيبوك بالدخول في الإسلام ثم لم يجيبوا بإعطاء الجزية فقاتلهم ، وقاتلهم معتمدًا على الله متوكلًا عليه مستعينًا به سبحانه وتعالى ، «فاستعن بالله وقاتلهم». وقوله «فاستعن بالله» هذا توضيح لما سبق في قوله ((اغزو بسم الله)) ، اغزوا بسم الله: أي اغزوا مستعينًا بالله طالبا مدَّه وعونه تبارك وتعالى .

السادسة: الفرق بين حكم الله وحكم العلماء.

أي أن حكم العلماء حكم اجتهادي مبني على الاجتهاد عُرضة للصواب وعرضة للخطأ ، كما في الحديث الذي أشرت إليه قول النبي عليه الصلاة والسلام: ((إِذَا اجْتَهَدَ الْحَاكِمُ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ اثْنَانِ ، وَإِذَا اجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ وَاحِدٌ)).

السابعة: في كون الصحابي يحكم عند الحاجة بحكمٍ لا يدري أيوافق حكم الله أم لا؟.

لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((ولكن أنزلهم على حكمك)) أي اجتهد في أن تحكم فيهم حكمًا تصيب فيه حكم الله سبحانه وتعالى ، اجتهد وتحرى ذلك ، ((فإنك لا تدري)) هكذا يقول للصحابي الذي جعله أميرا على الجيش يقول ((فإنك لا تدري أتصيب فيهم حكم الله أم لا؟)) .

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك .

اللهم صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .



شرح كتاب التوحيد

لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه اللّه

من الدرس ٥٣ إلى الدرس ٥٤

شرح الشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظهما اللّه تعالى

١٤٤٠/٠٥/٢٩ هـ

الدرس الثالث والخمسون

بســــــم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد:

يقول الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد ابن عبد الوهاب التميمي رحمه الله تعالى في كتابه «كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد» :

باب ما جاء في الإقسام على الله

عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((قال رجل : والله لا يغفر الله لفلان، فقال الله عز وجل : «من ذا الذي يتألى عليَّ أن لا أغفر لفلان؟ إني قد غفرتُ له وأحبطتُ عملك»)) رواه مسلم. **وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه : أن القائل رجلٌ عابد ، قال أبو هريرة: «تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته»** .

****

قال المصنف الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتابه التوحيد : ((**بابٌ ما جاء في الإقسام على الله**)) ؛ الإقسام على الله : هو التألي على الله سبحانه وتعالى ، مثل ما سيأتي في لفظ الحديث قال ((من ذا الذي يتألى علي)) ، ومعنى يتألى على الله: أي يحلف على الله ويقسم على الله تبارك وتعالى .

والحلف على الله والقسم عليه تبارك وتعالى على نوعين :

- والنوع الأول من هذين النوعين هو الذي عقد المصنف رحمه الله تعالى هذه الترجمة لبيانه ؛ وهو: الإقسام على الله تبارك وتعالى من باب الحجْر والحظر عُجبًا في النفس وغرورًا من العبد بنفسه وعبادته ومكانته وشأنه ، وهذا من سوء الأدب مع الله تبارك وتعالى ، لأن هذا الإدلال على الله عز وجل من سوء الأدب ، والذي يولِّده في الإنسان عجبه بنفسه ورؤيته لنفسه ، فيبلغ به العجب ورؤية النفس إلى هذا الإدلال الذي هو من سوء الأدب مع الله عز وجل بأن يقول: " والله لا يغفر الله لفلان" ، أو يقول "والله لا يدخل الله فلان الجنة أبدا" ، أو نحو ذلك من الكلمات التي فيها هذه الجرأة المتولدة من العجب الناشئة أيضًا من قلة أدب الإنسان مع ربه تبارك وتعالى ، وهذا مما يتنافى مع التوحيد .

ولأجل ذا أورد المصنف رحمه الله تعالى هذه الترجمة في كتابه التوحيد ، لأن الإقسام على الله تبارك وتعالى بهذه الطريقة مما يتنافى مع توحيد العبد الواجب لرب العالمين سبحانه وتعالى ، وقد جاء في بعض الروايات للحديث وهي الرواية التي أشار إليها حديث أبي هريرة أن الله سبحانه وتعالى يقول يوم القيامة لهذا المتألي على الله:

((أَتَسْتَطِيعُ أَنْ تَحْظُرَ عَلَى عَبْدِي رَحْمَتِي؟.. اذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ)) ، وهذا هو المراد هنا بهذا النوع من القَسم على الله تبارك وتعالى الذي هو تألي على الله عز وجل في رحمته التي يختص هو جل وعلا بها من شاء جل في علاه من عباده ، فإذا قال قائل "والله لا يغفر الله لفلان" ، أو "والله لا يدخِل الله فلاناً الجنة" من هو هذا حتى يقول ذلك في شأن الرب العظيم!! الذي يتصرف في ملكه يشاء وفي عباده كيف يشاء هدايةً أو إضلالا ، إيماناً أو كفرًا ، يهدي من يشاء ويضل من يشاء ، الأمر أمره وإليه مرجع الأمر سبحانه وتعالى ، فهذا التألي على الله الذي هو من باب الإدلال الناشئ عن عُجب النفس هذا من سوء الأدب مع الله سبحانه وهو منافٍ للتوحيد الواجب .

- والنوع الثاني من القسَم على الله سبحانه وتعالى : القسم الذي منشؤه حُسن التعبد وحسن الظن بالله سبحانه وتعالى وحسن الثقة به والتوكل عليه جل وعلا ، ويندرج تحت هذا ما جاء في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ)) ، فهذا قسَمٌ على الله تبارك وتعالى لكنه نوعٌ آخر غير النوع الذي تحدث عنه المصنف رحمه الله تعالى في هذه الترجمة ، هذا نوع آخر منشؤه حسن الظن بالله سبحانه ، أما الأول فإن منشأه العجب بالنفس ، عُجب المرء بنفسه ورؤيته لنفسه ثم يقسم هذا القسم الذي هو تألي على الله سبحانه وتعالى في رحمته التي يختص بها جل وعلا من شاء من عباده.

الحاصل أن الإقسام على الله سبحانه وتعالى على وجه الحظر أو الحجر لرحمة الله التي يختص بها سبحانه وتعالى هذا أمرٌ منافٍ للتوحيد الواجب ، ومنشؤه كما قدمت العجب بالنفس وغرور الشخص بما عنده من عبادة أو ما عنده من عمل ؛ فتصدر منه هذه المقالة المنافية للتوحيد .

وهذا أيضًا في الوقت نفسه يبين لنا خطورة الكلمة ، لأن كلمةً واحدة قد توبق المرء في دنياه وأخراه وتهلكه هلكةً عظيمة ، وهذا يستوجب على الإنسان أن يصون لسانه وأن يحفظ منطقه ، وأن يحذر من زلل اللسان فإن خطورته عظيمة وضرره بالغ .

قال رحمه الله تعالى : ((**عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قال رجل: والله لا يغفر الله لفلان**)) ؛ «والله لا يغفر الله لفلان» هذا قسم ، تألي على الله ، في أمرٍ يتعلق برحمة الله التي يختص بها جل في علاه من شاء من عباده ، وكم من أناس اشتد كفرهم وضلالهم ووهب لهم سبحانه وتعالى هدايةً ، حتى بعضهم في آخر أعمارهم وهب الله سبحانه وتعالى لهم هدايةً ومنَّ عليهم بالإيمان وشرح صدورهم للإسلام ، وكم من أشخاص يظن فيهم بعض الناس أن مثلهم بعيد عن الهداية ويمنُّ الله سبحانه وتعالى عليهم بالهداية وربما كانت هدايته خيرًا ممن كان يظن به أنه لا يهتدي ؛ الأمر لله سبحانه وتعالى يهدي من يشاء ويضل من يشاء ، الأمر أمره والهداية هبة ربانية ومنَّة إلهية يمن بها جل في علاه على من شاء من عباده .

فقول القائل «والله لا يغفر الله لفلان» هذه جرأة فيها سوء أدب مع الله سبحانه وتعالى ، وهذا من باب الإدلال، الإدلال يكون من الشخص عندما يُعجب بنفسه وبعمله ويرى أن لكلمته نفوذها فيقول مثل هذا الكلام أو يصدر منه مثل هذا الكلام .

فالشاهد أن هذا سوء أدب مع الله سبحانه وتعالى ؛ قال «والله لا يغفر الله لفلان» ، مثلها "والله لا يرحم الله فلان" ، أو "والله لا يدخله الجنة" ، أو ما أدى إلى هذا المعنى ؛ فهذا كله من سوء الأدب مع الله تبارك وتعالى المنافي للتوحيد الواجب .

((**فقال الله عز وجل : من ذا الذي يتألى عليّ أن لا أغفر لفلان؟**)) يتألى عليّ : أي يحلف علي أن لا أغفر لفلان ، وهذا كما عرفنا هذا التألي فيه تحجير للرحمة ، فيه حظر للرحمة مثل ما أشرت في رواية للحديث أن الله عز وجل يقول لهذا المتألي ((أَتَسْتَطِيعُ أَنْ تَحْظُرَ عَلَى عَبْدِي رَحْمَتِي؟)) ، فهذا الحلف منشؤه العجب والغرور متعلقًا بالرحمة ؛ لارحمة الله سبحانه وتعالى التي اختص بها يهبها سبحانه وتعالى من يشاء .

قال : ((**إني قد غفرت له وأحبطت عملك**)) فيه كما قال المصنف رحمه الله في المسائل : أن الرجل قد يُغفر له بسببٍ هو من أكره الأمور إليه ؛ سبحان الله !! أن الرجل يُغفر له بسببٍ هو من أكره الأمور إليه ، كل إنسان يكره مهما كانت معصيته أن يُحلف في حقه هذا الحلف "والله لا يغفر الله لفلان ، أو والله لا يرحم الله فلان ، أو والله لا يدخل فلان الجنة" هذا أمر كريه للنفس لكنه سبب لمغفرة الله له ، وسبب لرحمة الله سبحانه وتعالى له .

قال : ((**إني قد غفرت له وأحبط عملك**)) وهذا فيه خطورة الكلمة وأن المرء قد يقول الكلمة لا يلقي لها بالًا تهوي به في النار سبعين خريفا ، ((وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ)) . فالكلمة خطيرة جدًا .

ولعلنا نقف وقفةً ثم نواصل مع كلمة لابن القيم رحمه الله تعالى من كتابه «الجواب الكافي» في خطورة الكلمة ولاسيما عندما تنبعث من الشخص في حال عُجبه بنفسه وغروره بعمله .

قال ابن القيم رحمه الله تعالى : [**ومن العجب أنّ الإنسان يهون عليه التحفظ والاحتراز من أكل الحرام والظلم والزنا والسرقة وشرب الخمر ومن النظر المحرّم وغير ذلك، ويصعب عليه التحفظ من حركة لسانه !! حتى ترى الرجلَ يشار إليه بالدين والزهد والعبادة ، وهو يتكلّم بالكلمات من سخط الله، لا يُلقي لها بالًا، ينزلّ بالكلمة الواحدة منها أبعد مما بين المشرق والمغرب! وكم ترى من رجل متورعٍ عن الفواحش والظلم ولسانه يفري في أعراض الأحياء والأموات، ولا يبالي ما يقول! وإذا أردت أن تعرف ذلك فانظر إلى ما رواه مسلم في صحيحه من حديث جندب بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((قال رجل: والله لا يغفر الله لفلان. فقال الله عز وجل: مَن ذا الذي يتألّى عليّ أنيّ لا أغفر لفلان؟ قد غفرتُ له، وأحبطتُ عملَك)). فهذا العابد الذي قد عَبَدَ اللهَ ما شاء أن يعبده أحبطت هذه الكلمةُ الواحدة عملَه كلّه.**

وفي حديث أبي هريرة نحو ذلك ، ثم قال أبو هريرة: «تكلم بكلمةٍ أوبقَتْ دنياه وآخرته». وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم ((إنّ العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالًا يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالًا يهوي بها في نار جهنم)). وعند مسلم : ((إنّ العبد لَيتكلّم بالكلمة ما يتبيّن ما فيها، يزل بها في النار أبعدَ ما بين المشرق والمغرب)). وعند الترمذي من حديث بلال بن الحارث المزني عن النبي صلى الله عليه وسلم : ((إنّ أحدكم ليَتكلّم بالكلمة من رضوان الله ما يظنّ أن تبلغ ما بلغتْ، فيكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه ، وإنّ أحدكم لَيتكلّم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت، فيكتب الله له بها سخطه إلى يوم يلقاه)). وكان علقمة رحمه الله يقول: «كم من كلام قد منعنيه حديثُ بلال بن الحارث»].

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى : **((وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه : أن القائل رجل عابد، قال أبو هريرة: تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته))** ؛ هذا الحديث الذي أشار إليه رحمه الله تعالى حديث أبي هريرة جاء في بعض رواياته كما عند البغوي في شرح السنة وغيره ؛ قال عكرمة رحمه الله تعالى مولى ابن عباس رضي الله عنهما : «دَخَلْتُ مَسْجِدَ الْمَدِينَةِ، فَنَادَانِي شَيْخٌ فَقَالَ: يَا يَمَامِيُّ تَعَالَ ، وَمَا أَعْرِفُهُ ، فَقَالَ: لَا تَقُولَنَّ لِرَجُلٍ "وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ أَبَدًا، وَلا يُدْخِلُكَ الْجَنَّةَ" ، قُلْتُ: وَمَنْ أَنْتَ يَرْحَمُكَ اللَّهُ؟ قَالَ: أَبُو هُرَيْرَةَ ، قَالَ: فَقُلْتُ: إِنَّ هَذِهِ لَكَلِمَةٌ يَقُولُهَا أَحَدُنَا لِبَعْضِ أَهْلِهِ إِذَا غَضِبَ، أَوْ لِزَوْجَتِهِ، أَوْ لِخَادِمِهِ، قَالَ: فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: " إِنَّ رَجُلَيْنِ كَانَا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ مُتَحَابَّيْنِ أَحَدُهُمَا مُجْتَهِدٌ فِي الْعِبَادَةِ وَالآخَرُ مُذْنِبٌ، فَجَعَلَ المجتهد في العبادة كلما لقي المسرف في الذنوب يَقُولُ له : أَقْصِرْ أَقْصِرْ عَمَّا أَنْتَ فِيهِ -أي كف ودع هذه الذنوب- قَالَ: فَيَقُولُ: خَلِّنِي وَرَبِّي، قَالَ: حَتَّى وَجَدَهُ يَوْمًا عَلَى ذَنْبٍ اسْتَعْظَمَهُ، فَقَالَ: أَقْصِرْ، فَقَالَ: خَلِّنِي وَرَبِّي، أَبُعِثْتَ عَلَيْنَا رَقِيبًا؟ -وهذه الكلمة ربما أن بعض المسرفين يقول مثل هذا؛ لست حسيبا علي لست رقيبا عليّ- فَقَالَ ذلك العابد : "وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ أَبَدًا، وَلا يُدْخِلُكَ اللَّهُ الْجَنَّةَ أَبَدًا" ، قَالَ: فَبَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهِمَا مَلَكًا فَقَبَضَ أَرْوَاحَهُمَا، فَاجْتَمَعَا عِنْدَهُ فَقَالَ لِلْمُذْنِبِ: ادْخُلِ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، وَقَالَ لِلآخَرِ: أَتَسْتَطِيعُ أَنْ تَحْظُرَ عَلَى عَبْدِي رَحْمَتِي؟ فَقَالَ: لَا يَا رَبِّ، قَالَ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ » . وهذا هو الذي يشير إليه الشيخ رحمه الله تعالى بقوله أن القائل رجل عابد ، لأنه جاء في الحديث مجتهد في العبادة ، وقال ذلك سخطًا عندما كرر عليه النصح أقصر أقصر يكررها عليه مرات ولا يستجيب غضب منه وقال هذه الكلمة "وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ أَبَدًا، وَلا يُدْخِلُكَ اللَّهُ الْجَنَّةَ أَبَدًا" . قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه : «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ -أي واحدة- أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ» ، وما من شك أن هذا يدل على خطورة الكلمة ولاسيما فيما يتعلق بالرب وعظمته وصفاته وتدبيره لخلقه سبحانه وتعالى .

قال رحمه الله تعالى :

فيه مسائل ؛ الأولى: التحذير من التألي على الله.

والتألي على الله: هو الحلف على الله سبحانه وتعالى ، وعرفنا أن الذي يحذَّر منه هو الحلف على الله سبحانه وتعالى على وجه الحظر أو الحجر لرحمة الله سبحانه وتعالى عُجبا بالنفس وغرورًا ؛ فهذا من سوء الأدب مع الله تبارك وتعالى ومما يتنافى مع التوحيد الواجب .

الثانية: كون النار أقرب إلى أحدنا من شراك نعله.

يشير رحمه الله تعالى إلى أن هذا الشخص مع اجتهاده في العبادة كلمة واحدة أوصلته النار ، فالنار قريبة من الإنسان ، وليس بين من كان من أهل النار ودخول النار إلا أن يموت .

الثالثة: أن الجنة مثل ذلك.

أن الجنة مثل ذلك؛ أي قريبة ممن هو من أهلها ليس بينه وبين الجنة إلا أن يموت . «مَنْ مَاتَ وَهْوَ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ نِدًّا دَخَلَ النَّارَ» هذا يدل على قرب النار .

الرابعة: فيه شاهد لقوله: ((إن الرجل ليتكلم بالكلمة)) إلى آخره.

فيه شاهد لقوله صلى الله عليه وسلم : ((إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالًا يهوي بها في النار سبعين خريفا)) ، والشاهد في الحديث لقول النبي صلى الله عليه وسلم «إن الرجل ليتكلم بالكلمة» ظاهر .

الخامسة: أن الرجل قد يُغفر له بسببٍ هو من أكره الأمور إليه.

والشاهد لذلك في الحديث: أن الرجل الذي قيل في حقه "والله لا يغفر الله لفلان" يكره أن يقال في حقه ذلك ، وهذا من أكره الأمور إليه أن يقال "والله لا يغفر الله له ، أو لا يُدخله الله الجنة" ؛ فغفر الله سبحانه وتعالى بسبب ذلك الذي قيل في حقه .

قال رحمه الله تعالى :

بابٌ لا يُستشفع بالله على خلقه

عن جبير بن مطعِم قال: جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «يا رسول الله نُهِكَت الأنفس، وجاع العيال، وهلكت الأموال، فاستسقِ لنا ربك فإنَّا نستشفع بالله عليك ، وبك على الله»، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ((سبحان الله ، سبحان الله!)) ؛ فما زال يسبِّح حتى عُرف ذلك في وجوه أصحابه.

ثم قال : ((ويحك! أتدري ما الله؟ إن شأن الله أعظم من ذلك ، إنه لا يُستشفع بالله على أحد)) وذكر الحديث . رواه أبو داود.

****

قال رحمه الله تعالى: ((**بابٌ لا يُستشفع بالله على خلقه**)) ؛ وهذا أيضا كالذي قبله من جهة أن فيه سوء أدب مع الله سبحانه وتعالى ، لأن مقام الله عز وجل أعلى وأجلّ من أن يُستشفع به على خلقه ، لأن الأمر بيده جل وعلا ، الأمر كله بيد الله هو المعطي المانع ، الخافض الرافع ، القابض الباسط ، المعز المذل ، الذي بيده أزمَّة الأمور ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢] ، فالاستشفاع بالله على خلقه بأن يقال "اشفع لنا يا رب عند فلان" ، أو "نستشفع بك يا رب عند فلان" أو نحو ذلك هذا كله من سوء الأدب مع الله تبارك وتعالى ، وفيه هضمٌ لمقام الربوبية وعظمة الرب سبحانه وتعالى وجلاله وكماله وأن الأمر بيده . والاستشفاع يكون من الأدنى للأعلى ، أما العلي المتعال الكبير العظيم الذي بيده الأمور سبحانه وتعالى فشأنه أجل وأعظم من ذلك . ولما كان هذا الاستشفاع بالله على خلقه فيه هضم لمقام الربوبية ، وفيه نقص أيضا في توحيد العبد لله سبحانه وتعالى أورد المصنف رحمه الله تعالى هذه الترجمة في كتابه التوحيد لمنافاة هذا الاستشفاع بالله على خلقه للتوحيد الواجب .

وأورد رحمه الله تعالى هذا الحديث عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: ((**جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله نُهِكَت الأنفس وجاع العيال وهلكت الأموال**)) أي بسبب القحط والجدب ، نُهكت الأنفس: أي أجهدت وبلغها من الشدة والنصب ما بلغها ، وجاع العيال ، وهلكت الأموال: أي الماشية والدواب .

((**فاستسق لنا ربك**)) أي سل الله سبحانه وتعالى أن يسقينا ؛ وهذا أمر لا محظور فيه ، ((**فاستسق لنا ربك**)) ذكر الحاجة وطلب من النبي عليه الصلاة والسلام أن يستسقي الرب العظيم الذي بيده الأمر .

((**فإنا نستشفع بالله عليك، وبك على الله**)) ؛ الاستشفاع به على الله بأن يُطلب منه عليه الصلاة والسلام أن يستسقي لهم هذا أمر لا محظور فيه ، الاستشفاع بالحي الحاضر الصالح المعروف باستقامته وديانته لا محظور فيه ، والصحابة رضي الله عنهم كانوا يستشفعون بالنبي عليه الصلاة والسلام في حياته بدعائه أن يستسقي لهم ، ولما توفي عليه الصلاة والسلام لم يفعلوا شيئًا من ذلك ، ولهذا لما حصل الجدب في زمن عمر رضي الله عنه طلب العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم وقال : «اللهم أنا كنا نتوسل إليك بنبينا والآن نتوسل إليك بعم نبينا» ثم طلب من العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم ورضي الله عن العباس وعن الصحابة أجمعين طلب منه أن يتقدم ليستسقي بهم . فالاستشفاع وطلب الدعاء من الرجل الصالح الحاضر الحي هذا أمرٌ لا محظور فيه .

لكن الرجل لما قال «**فإنا نستشفع بالله عليك**» قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((**سبحان الله، سبحان الله**)) وهذه كلمة تنزيه لله سبحانه وتعالى ، تسبيح الله: أي تنزيه الله وتقديسه عما لا يليق به سبحانه وتعالى . وهذه المقولة التي قالها هذا الرجل لا تليق بالله ، لا يليق أن يقال "نستشفع بالله على خلقه" ؛ فالله أعظم من ذلك وأجل سبحانه وتعالى ، لأن الأمر بيده ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢] .

((**فقال سبحان الله سبحان الله فما زال يسبّح**)) فما زال يكرر هذه الكلمة تنزيهًا لله سبحانه وتعالى .

وهذا يؤخذ منه : أن من السنة الاتيان بهذه الكلمة العظيمة التي هي من الكلمات الأربع هي أحب الكلام إلى الله سبحانه وتعالى عند كل قولٍ أو فعل فيه انتقاص لمقام الربوبية أو مقام العظمة لله سبحانه وتعالى ، كالقول في صفاته بلا علم ، أو كتشبيهه تبارك وتعالى في شيء من صفاته بخلقه ، أو نسبة شيء له لا يليق بجلاله وكماله ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ﴾ [الأنبياء:٢٦] ، وقال عز وجل: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات:١٨٠-١٨٢] . فهي كلمة تنزيه يؤتى بها في مثل هذه المقامات .

فلما قال الرجل كلامًا ينزَّه الرب عنه ويقدَّس جل شأنه قال النبي عليه الصلاة والسلام ((سبحان الله سبحان الله)) ((**وما زال يسبح حتى عُرف ذلك في وجوه أصحابه**)) أي: رؤي أثر ذلك الغضب الذي كان من النبي عليه الصلاة والسلام لهذه المقولة التي قالها ذلك الأعرابي في وجوه أصحاب النبي الكريم رضي الله عنهم وأرضاهم .

ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم : ((**ويحك**)) وهي كلمة ردع وزجر .

((**ويحك أتدري ما الله؟ إن شأن الله أعظم من ذلك، إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه**)) ؛ «إن شأن الله أعظم من ذلك» شأن الله عز وجل أعظم من ذلك لأن الأمر كله بيد الله ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٤٤] مُلك الله سبحانه وتعالى ، هؤلاء الشفعاء مهما كانت مكانتهم فإنما يشفعون عند الله بإذن الله لأن الملك كله لله بما في ذلكم الشفاعة ؛ فكيف يقال في حق الرب العظيم المدبر الذي بيده ملكوت السماوات والأرض والعباد كلهم طوع تدبيره وتسخيره كيف يقال فيمن هذا شأنه "نستشفع بك عند أحد من عباد الله سبحانه وتعالى" ؟!

قال : ((**إن شأن الله أعظم من ذلك**)) أي أجلّ من أن يقال ذلك "إنا نستشفع بالله على خلقه" .

قال: ((**شأن الله أعظم من ذلك ، إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه وذكر الحديث ، رواه أبو داود**)) ومن أهل العلم من له كلام في إسناد الحديث ، وشيخ الإسلام بن تيمية رحمه الله يقوي هذا الحديث ، وكذلك ابن القيم رحمه الله يحسِّن هذا الحديث .

قال رحمه الله تعالى :

فيه مسائل؛ الأولى: إنكاره على من قال: "نستشفع بالله عليك".

لأن الرجل قال عدة كلمات ؛ قال: «استسق لنا ربك» وهذه لا شيء فيها ، وقال: «نستشفع بك على الله» وهذه أيضا لا شيء فيها ، وقال : «نستشفع بالله عليك» فأنكر النبي صلى الله عليه وسلم ذلك قوله «نستشفع بالله عليك» أنكر النبي صلى الله عليه وسلم ذلك وقال : ((الله أعظم من ذلك ، إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه)) .

أيضا يستفاد منها : عندما يتضمن قول قائل جملة خاطئة وكلامه كله لا شيء فيه وإنما جملة خاطئة تعيَّن الكلمة الخاطئة ويبين فسادها بعينها ، فهذا الرجل قال كلامًا كثيرا ، الخطأ في كلمة واحدة فعيَّنها النبي صلى الله عليه وسلم وظهر منه الغضب عليه الصلاة والسلام والإنكار لذلك ثم عيَّن الكلمة قال ((شأن الله أعظم من ذلك إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه)).

الثانية: تغيره تغيرًا عُرف في وجوه أصحابه من هذه الكلمة.

قال رحمه الله تعالى : «**تغيره تغيرًا عُرف في وجوه أصحابه من هذه الكلمة**» وهذا فيه أن نبينا الكريم عليه الصلاة والسلام إنما يغضب عندما تُنتهك حرمات الله ، ما غضب لنفسه قط ، وإذا انتهكت حرمات الله سبحانه وتعالى لم يقم لغضبه شيء .

الثالثة: أنه لم ينكر عليه قوله: "نستشفع بك على الله".

أنه لم ينكر عليه قوله: "نستشفع بك على الله" ؛ لأن قوله «نستشفع بك على الله» هذا طلب شفاعة منه عليه الصلاة والسلام في حياته ، وكما عرفنا الاستشفاع الذي هو طلب الدعاء من الحي الحاضر الصالح أمرٌ لا شيء فيه ، والصحابة كانوا في حياة النبي عليه الصلاة والسلام يطلبون منه ذلك ، وأما بعد وفاته لم يُنقل عن أحد منهم أنه فعل شيئا من ذلك .

الرابعة: التنبيه على تفسير "سبحان الله".

أي أن هذه الكلمة كلمة تنزيه وتقديس لله سبحانه وتعالى ، ومن أسماء ربنا سبحانه وتعالى «السبوح» ، وكان النبي عليه الصلاة والسلام يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ : «سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ، رَبُّ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ» ، وكل من «سبوح» و«قدوس» اسمان لله تبارك وتعالى فيهما التنزيه لله عز وجل ، ومثلهما أيضا «السلام» ، كل هذه من أسماء التنزيه، تنزيه الله سبحانه وتعالى عما لا يليق بجلاله وكماله وعظمته جل في علاه . فقوله «سبحان الله» أي أنزه الله وأقدسه عن كل ما لا يليق بجلاله وكماله وعظمته .

الخامسة: أن المسلمين يسألونه صلى الله عليه وسلم الاستسقاء.

أن المسلمين أي في حياته صلوات الله وسلامه عليه يسألونه الاستسقاء ؛ ومعنى يسألونه الاستسقاء: يطلبون منه أن يطلب من الله سبحانه وتعالى ، أن يسأل الله ، أن يدعو الله أن يغيثهم ، ومثل هذا تكرر ؛ يطلبون منه عليه الصلاة والسلام أن يستسقي أي يطلب من الله أن يغيثهم . وهذا أمر لا شيء فيه ، طلب الدعاء أو الاستشفاع بالحي الحاضر الصالح هذا أمرٌ لا شيء فيه ، وكانوا في حياته عليه الصلاة والسلام يسألونه الاستسقاء ، أما بعد وفاته صلوات الله وسلامه عليه لم يُنقل إطلاقًا عن أحد من الصحابة أنه فعل ذلك ، بل سمعنا كلمة عمر لما اشتد القحط والجدب في زمانه دعا العباس وقال كلمته المشهورة «اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا» ومعنى نتوسل إليك بنبينا : أي بدعائه في حياته صلوات الله وسلامه عليه ، «والآن نتوسل إليك بعم نبينا» ثم طلب من العباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدعو لهم .

قال رحمه اله تعالى :

باب ما جاء في حماية المصطفى صلى الله عليه وسلم حمى التوحيد وسدِّه طرق الشرك

عن عبد الله بن الشِّخِّير رضي الله عنه أنه قال: انطلقت في وفد بني عامر إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقلنا: أنت سيدنا. فقال: ((السيد الله تبارك وتعالى)). قلنا: وأفضلنا فضلا، وأعظمنا طولا. فقال: ((قولوا بقولكم أو بعض قولكم ولا يستجرينكم الشيطان)) رواه أبو داود بسند جيد .

****

قال رحمه الله تعالى : ((**بابٌ ما جاء في حماية المصطفى صلى الله عليه وسلم حمى التوحيد وسدِّه طرق الشرك**)) ؛ هذه الترجمة تقدم نظيرٌ لها عند المصنف رحمه الله تعالى في حماية النبي صلى الله عليه وسلم حمى التوحيد . والفرق بين هذه الترجمة والتي سبقت : أن التي سبقت تتعلق بالأمور الفعلية ، وهذه تتعلق بالأمور القولية . ونبينا عليه الصلاة والسلام حَمى حِمى التوحيد وسدَّ كل ذريعة تفضي إلى الشرك سواءً كانت قولية أو فعلية . وما يتعلق بالأمور الفعلية تقدم في الترجمة السابقة ، وما يتعلق بالأمور القولية خصَّها بهذه الترجمة رحمه الله تعالى .

وحماية النبي عليه الصلاة والسلام حِمى التوحيد وسده لكل ذريعة وطريقٍ يفضي إلى الشرك هذا كله من كمال نصحه وعظيم بيانه صلوات الله وسلامه عليه ، وقد نصح لأمته تمام النصح فما ترك خيرًا إلا دلهم عليه ، ولا شرًا إلا حذرهم منه ، وأعظم الشر الشرك بالله عز وجل ؛ فحذَّر من الشرك أشد التحذير صلوات الله وسلامه عليه ، ومن تحذيره من الشرك حذَّر من كل أمرٍ قولي أو فعلي يفضي بالإنسان إلى الشرك بالله سبحانه وتعالى ومن ذلكم المغالاة في الأقوال ، ولهذا جاء عنه في الحديث وقد مر معنا ((لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم فإنما

أنا عبد ، فقولوا عبد الله ورسوله)) ؛ لأن مقام التوحيد -توحيد الله سبحانه وتعالى- مقام عظيم هو أعلى المقامات ، وحرص النبي عليه الصلاة والسلام على صيانة هذا المقام مقام التوحيد وحمايته من كل أمر يُخِلُّ به ، وسد كل ذريعةٍ أو طريقٍ يفضي إلى الشرك ، كل فعل يفضي إلى الشرك أو قول يفضي إلى الشرك بالله سبحانه وتعالى سده وحذَّر أمته صلوات الله وسلامه وبركاته عليه .

قال رحمه الله : ((**عن عبد الله بن الشِّخِّير رضي الله عنه قال: انطلقت في وفد بني عامر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلنا: أنت سيدنا ، فقال: السيد الله تبارك وتعالى . قلنا: وأفضلنا فضلا وأعظمنا طولا. فقال: قولوا بقولكم أو بعض قولكم ولا يستجرينكم الشيطان**)) ؛ هذا الحديث لما قالوا له عليه الصلاة والسلام وخاطبوه بذلك صلى الله عليه وسلم وواجهوه مخاطبةً قائلين «أنت سيدنا» قال : ((**إنما السيد الله**)) والسيد: هو من كمُل في سؤدده عظمة وعزًا وعلوًا ورفعةً . فقال لهم عليه الصلاة والسلام ((**السيد الله**)) وهذا يدلنا على أن «السيد» هذا اسم من أسماء الله . قال ((السيد الله تبارك وتعالى)) ، فالسيد هذا من أسماء الله عز وجل ، ومعنى السيد : الذي له السؤدد الكامل وله العظمة في صفاته وجلاله ، وجميع العباد مفتقرون إليه ، وهو سبحانه وتعالى الغني الحميد .

((**قلنا وأفضلنا فضلا وأعظمنا طولا**)) الطول: هو العطاء والإحسان .

((**فقال قولوا بقولكم أو ببعض قولكم ولا يستجرينكم الشيطان**)) نبههم عليه الصلاة والسلام أن من مداخل الشيطان على الإنسان هذا المدخل ؛ مدخل الغلو في المدح والثناء على من يحب ، وكم يدخل الشيطان على الإنسان من هذا الباب ؛ يغلو في ممدوحه ومن يثني عليه فيعطيه من الصفات ما لا يليق إلا بالله سبحانه وتعالى.

أذكر أنني مرةً رأيت مجلة -والكلام هذا قديم في إحدى الدول- فرأيت قصيدة ، في الفهرس كُتب قصيدة عنوان القصيدة محمد ، ففتحت الصفحة أنظر في هذه القصيدة التي عنوانها محمد صلى الله عليه وسلم ؛ أول بيت في هذه القصيدة قال ناظمه :

هو الأول والآخر محمد   هو الظاهر والباطن محمد

ثم أكمل مدحًا للنبي عليه الصلاة والسلام ، ونبينا عليه الصلاة والسلام كان إذا أوى إلى فراشه قال : ((اللهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ ، اقْضِ عَنِّي الدَّيْنَ، وَأَغْنِنِي مِنَ الْفَقْرِ)) ،كان يقول ذلك عليه الصلاة والسلام إذا أوى إلى فراشه .

فانظروا إلى الغلو عندما يدخل إلى الإنسان كيف أنه يوصله هذا الموصل ، وما دخل الخلل والفساد عند كثير من المتصوفة إلا من هذا الباب ؛باب الغلو ، يكون عندهم محبة لكن هذه المحبة ليست قائمة على هدي النبي الكريم

عليه الصلاة والسلام ولا على سنته ولا على المأثور عنه ، فينشأ عنده مبالغات ومدح للنبي عليه الصلاة والسلام وثناءٌ عليه فيتولَّد من ذلك وصفه بصفات لا تليق إلا بالله سبحانه وتعالى .

وكان عليه الصلاة والسلام يغضب أشد الغضب عند أي بادرة من مثل هذا ؛ لما سمع المرأة الأنصارية التي تقول "وفينا رسول الله يعلم ما في غدٍ" فغضب عليه الصلاة والسلام وقال : ((لا يعلم ما في غد إلا الله)) ، غضب لما قالت تلك المرأة "وفينا رسول الله يعلم ما في غد" فكيف بمن يقول إن النبي صلى الله عليه وسلم يعلم الغيب!! وأنه حاضر ناضر!! وأنه لا تخفى عليه خافية !! ويقول في شأنه وشأن أيضا بعض المعظمين أنهم يعلمون ما كان وما سيكون!! وهذا موجود في كتب الغلاة ، إذا كان في شأن امرأة قالت "وفينا رسول الله يعلم ما في غد" ، والله يقول: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل:٦٥] ، هذا أمرٌ اختص الله سبحانه وتعالى بعلمه، غضب لما قالت "يعلم في غد" فكيف بمن يدَّعي علمه للغيب وأنه حاضر وناضر وأنه مطَّلع على الكائنات ويعلم السر وأخفى !!

فالشاهد أن المدح والثناء على المعظَّم بابٌ خطير ، إذا لم يزُم الإنسان نفسه في هذا الباب بزمام الشرع فإن الأمر ينفلت ويدخل في ضروب من المغالاة الخطيرة التي ربما تصل بالإنسان إلى الشرك بالله ؛ بأن يصف المخلوق من الصفات ما لا يليق إلا بالله سبحانه وتعالى .

الشاهد أن النبي عليه الصلاة والسلام صيانةً للأمة ، وغلقًا لهذا الباب المغالاة القولية ، وحمايةً لحمى التوحيد ، وسدًا للذرائع والطرائق المفضية بالناس إلى الشرك ؛ حذَّر من استجراء الشيطان واستدراجه واستهوائه للإنسان في هذا الباب بأن يدخل أولًا في مدحٍ لا شيء فيه إلى أن يغالي في المدح والإطراء إلى أن يمدح المعظَّم عنده بأوصاف لا تليق إلا بالله سبحانه وتعالى فيقع في المحذور .

قال رحمه الله تعالى :

وعن أنس رضي الله عنه أن ناسًا قالوا : يا رسول الله، يا خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا، فقال: ((يا أيها الناس قولوا بقولكم، ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمدٌ عبد الله ورسوله، ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل)) رواه النسائي بسند جيد .

****

وهذا الحديث كالذي قبله وفيه قال النبي عليه الصلاة والسلام : **((ولا يستهوينكم الشيطان))** أي احذروا أن يفتح عليكم الشيطان باب الأهواء في المغالاة القولية بالأشخاص أو بالمعظمين .

قال صلوات الله وسلامه عليه : ((**أنا محمد عبد الله ورسوله**)) ؛ وهذا نظير قوله في الحديث الآخر ((لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم فإنما أنا عبد ، فقولوا عبد الله ورسوله)) ؛ فهو عليه الصلاة والسلام عبد لا يُعبد ، ورسول لا يكذَّب بل يطاع ويتبع صلوات الله وسلامه عليه .

وفي ذكر هذين الوصفين العبودية والرسالة سلامةٌ من الغلو والجفاء ، الإفراط والتفريط ؛ ففي وصفه بالعبودية سلامة من الغلو ، فالعبد لا يُعبد ولا يعطى شيء من خصائص الرب سبحانه وتعالى ، وفي وصفه بالرسالة سلامة من الجفاء في حقه عليه الصلاة والسلام ، فالرسول حقه أن يطاع وأن يُتبع ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[النساء:٦٤] فحق الرسول أن يطاع وأن تُمتثل أوامره .

قال : ((**ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل**)) انظروا هنا إلى مقام المحبة ، والمحبة عندما تكون عند بعض الناس ليست مضبوطةً بضابط الشرع تدخل في ضروبٍ من الغلو ، فإذا كان من يفعل ذلك من باب المحبة فالنبي عليه الصلاة والسلام يقول : ((ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل)) ، فإذا كانت محبة الإنسان للنبي عليه الصلاة والسلام صادقة لا يفعلنَّ ما لا يحبه عليه الصلاة والسلام وما لا يريد من أمته عليه الصلاة والسلام أن تفعله أو أن تقوله ، وهو عليه الصلاة والسلام الناصح لأمته .

قال رحمه الله تعالى :

فيه مسائل ؛ الأولى: تحذير الناس من الغلو.

والمراد بالغلو في هذه الترجمة : الغلو القولي ، والترجمة الماضية كان الحديث فيها عن الغلو المتعلق بالأفعال .

الثانية: ما ينبغي أن يقول من قيل له: "أنت سيدنا".

إذا كان النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن المواجهة بذلك خشيةً على الأمة فقال عليه الصلاة والسلام : ((لا يستجرينكم الشيطان)) وفي الرواية الأخرى قال: ((لا يستهوينكم الشيطان)) ؛ فنبَّه المصنف رحمه الله تعالى إلى ما ينبغي أن يقوله من قيل له ذلك .

الثالثة: قوله ((لا يستجرينكم الشيطان)) مع أنهم لم يقولوا إلا الحق.

قوله عليه الصلاة والسلام : ((لا يستجرينكم الشيطان)) مع أنهم لم يقولوا إلا الحق ؛ انتبه لهذا !! مع أنهم لم يقولوا إلا الحق ، لأنه عليه الصلاة والسلام قال في الحديث الصحيح ((أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ)) ،

والسيادة التي ذكرها عليه الصلاة والسلام هي تقدُّمه على الناس في الفضل والمكانة والمنزلة ، أما السيادة المطلقة فليست إلا لله كما قال عليه الصلاة والسلام ((السيد الله)) .

مع أنهم لم يقولوا إلا الحق ونهاهم عن ذلك ؛ فكيف بمن لم يقل إلا باطلا في المغالاة في المدح والإطراء للمعظم ، إذا كان هؤلاء مع أنهم لم يقولوا إلا الحق لكن هذا الباب يُخشى على الإنسان من دخوله من خلاله إلى شيء من المغالاة نهى عليه الصلاة والسلام عن ذلك !! إذا كان قال ((لا يستجرينكم الشيطان)) لهؤلاء مع أنهم لم يقولوا إلا الحق فكيف بمن مدح وغلا في المدح؟! كيف يقال في مثل ذلك ؟!

الرابعة: قوله: "ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي".

منزلته عليه الصلاة والسلام ذكرها في الحديث قال : ((أنا محمد عبد الله ورسوله)) ؛ فهو عبدٌ لا يُعبد ولا يضاف إليه شيء من خصائص الرب وصفاته ، ورسول لا يكذَّب بل يطاع ويتبع صلوات الله وسلامه وبركاته عليه .

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك .

اللهم صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

الدرس الرابع والخمسون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد:

فيقول الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد ابن عبد الوهاب التميمي رحمه الله تعالى في كتابه «كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد» :

بابٌ ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر:٦٧] .

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا محمد إنا نجِدُ أن الله يجعل السماوات على إصبع ، والأرضين على إصبع ، والشجر على إصبع، والماء على إصبع، والثرى على إصبع ، وسائر الخلق على إصبع ، فيقول: أنا الملك ، فضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه ، تصديقًا لقول الحبر، ثم قرأ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الآية . وفي رواية لمسلم: "والجبال والشجر على إصبع، ثم يهزهن فيقول: أنا الملك، أنا الله ". وفي رواية للبخاري: "يجعل السماوات على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع" أخرجاه. ولمسلم عن ابن عمر مرفوعا: «يطوي الله السماوات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ثم يطوي الأرضين السبع ثم يأخذهن بشماله، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟».

****

هذه الترجمة ختم بها المصنف الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى كتابه العظيم المبارك «كتاب التوحيد» ، وختْم الكتاب بهذه الخاتمة العظيمة من حُسن الختم لهذا الكتاب وجماله ؛ لأن هذه الخاتمة أو هذه الترجمة التي خُتم بها هذا الكتاب فيها بيانٌ لعظمة الخالق جل في علاه أنه عز وجل الرب العظيم وأنه جل وعلا وحده المستحق للذل والخضوع والانكسار وأن يفرَد جل في علاه بالعبادة ، وهذه الترجمة انتظمت أقسام التوحيد الثلاثة؛ الربوبية ، والألوهية، والأسماء والصفات .

وصدَّرها رحمه الله تعالى بقول الله جل وعلا: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ .

ومعنى ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ : أي لم يعظِّموه سبحانه وتعالى حق تعظيمه .

- وكل من أنكر أسماء الله جل وعلا وصفاته وقال بما يتنافى مع عظمته سبحانه وتعالى وجلاله فإنه ما عظَّم الرب العظيم جل وعلا حق قدره .
- ومن قال في صفاته سبحانه بما يخالف كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم فإنه ما عظَّم ربه تبارك وتعالى حق تعظيمه .
- ومن قال أيضا بما يتنافى مع حكمة الله جل وعلا وخلقه لهذه المخلوقات وإنزاله للكتب مشتملةً على هداية الخلق وصلاحهم وفلاحهم فإنه ما عظَّم ربه تبارك وتعالى حق تعظيمه ، قد قال الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ ﴾[الأنعام:٩١] ، فمن جحد وحي الله أو قال بما يخالف وحي الله عز وجل وما دل عليه كتاب الله جل وعلا من وجوب توحيد الله وإخلاص الدين له وإفراده وحده تبارك وتعالى بالعبادة فإنه ما عظَّم الله حق تعظيمه .
- ومن اتخذ الشركاء مع الله وصرَفَ شيئًا من العبادة لغير الله سبحانه وتعالى أيًّا كان ذلك الغير فإنه ما عظَّم الله تبارك وتعالى حق تعظيمه .

ولهذا فإن تعظيم الله حقًّا وصدقًا يكون بمعرفته ، ومعرفة أسمائه وصفاته ، وأفعاله الدالة على عظمته وكماله وجلاله، ومن ثَمَّ إفراده سبحانه وتعالى بالذل والخضوع والانكسار وصرف العبادة له وحده تبارك وتعالى دون اتخاذ الشركاء والأنداد .

والتأمل في آيات الله ومخلوقاته العظيمة التي تدل على عظمة من خلقها سبحانه وتعالى بابٌ عظيم دعا الله جل وعلا عباده إلى التفكر فيه ، لأنه تفكرٌ نافع يهدي العبد بإذن الله سبحانه وتعالى إلى تعظيم خالق هذه المخلوقات ومبدع هذه الكائنات جلَّ في علاه ، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾[آل عمران:١٩٠-١٩١] .

انظر ثمرة هذا التفكر ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا ﴾ ، فمن يتأمل في هذه المخلوقات العظيمة من سماواتٍ وأرض وجبالٍ وأنهار وليلٍ ونهار إلى غير ذلك من مخلوقات الله تبارك وتعالى العظيمة فإن هذا التفكر يثمر بإذن الله تبارك وتعالى في العبد تعظيما للخالق العظيم جل في علاه ، وتأمل في ذلك قول الله سبحانه وتعالى في سورة نوح قال: ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) ﴾ أي لا تعظمونه حق تعظيمه سبحانه ، فإن قوله ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ نظير قوله ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ .

﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ أي عظمةً وتعظيما ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦) وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (١٨) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴾ ؛ فهذه كلها آيات عظيمات وبراهين ساطعات ودلائل واضحات على عظمة رب الأرض والسماوات ، على عظمة خالق هذه المخلوقات ، وأن الواجب على كل من تفكر وتأمل في هذه المخلوقات أن يعظِّم من خلقها وأن يعرف عظمة من خلقها سبحانه وتعالى .

والله عز وجل عندما يذكر في كتابه العزيز ذكرًا متكررًا في مواضع عديدة منه آيات الله جل وعلا ومخلوقاته العظيمة يذكرها جل وعلا لتكون باب هداية للعباد لتعظيم من خلقها وإفراده وحده سبحانه وتعالى بالذل والخضوع والانكسار ، وتأمل أعظم آية في كتاب الله «آية الكرسي» صدَّرها الله عز وجل بالتوحيد الذي خلق الخلق لأجله وأوجدهم لتحقيقه ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [البقرة:٢٥٥] هذه هو التوحيد الذي خلق الخلق لأجله ، ثم ذكر بعد ذلك البراهين والدلائل على عظمة الرب سبحانه وتعالى المستوجبة لإفراده وحده بالعبادة ، وذكَر من آياته العظيمة الدالة على عظمته ما يحرك في القلوب تعظيم الرب جل وعلا ، وجاء في خاتمة هذه البراهين قوله سبحانه ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ ، وقد قال بعض أهل العلم إن ذِكر الكرسي -هذا المخلوق العظيم الذي وصفه الله سبحانه وتعالى بأنه وسع السماوات والأرض- جاء توطئةً بين يدي عظمة الخالق، لأن الآية الكريمة خُتمت بقوله ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ ؛ وهذا هو المقصود ، المقصود أن يتأمل العبد في هذه الآيات العظيمات والمخلوقات الباهرات تأملًا يهديه إلى تعظيم الخالق جل وعلا .

والمصنف رحمه الله تعالى أورد تحت هذه الترجمة نصوصًا عظيمة كلها جاءت في مساق التفسير والبيان لقوله جل في علاه ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ [الزمر:٦٧] .

وتأمل في هذه العظمة التي ذُكرت في هذه الآية الكريمة في سياق الإنكار على متخذي الأنداد من دون الله تبارك وتعالى ؛ قال: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ ؛ أي هؤلاء الذين يعبدون غير الله ويستغيثون بغير الله ويلتجئون إلى غير الله ويذلُّون ويخضعون لغير الله ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ .

﴿ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ ؛ الأرض على سعتها وترامي أطرافها هذا شأنها ؛ تكون في قبضة الرحمن سبحانه وتعالى يوم القيامة .

﴿ وَالسَّمَاوَاتُ ﴾ وهي أوسع وأكبر من الأرض وهي محيطة بالأرض من كل جوانبها ، وسيأتي معنا المسافة بين السماء والأرض وبين كل سماء وسماء؛ مما يوضح شيئا مهولًا في العظمة ؛ مما يهدي لعظمة الخالق سبحانه وتعالى.

فهذه السماوات على اتساعها وترامي أطرافها ، وسيأتي أن كثف كل سماء مسيرة خمسمائة سنة وبين كل سماء وسماء مسيرة خمسمائة سنة ، جميع هذه السماوات مطويات بيمين الرب سبحانه وتعالى . ثم مع ذلك يوجد في الناس من يصرفون ذلهم وعبادتهم وخضوعهم لغير هذا الرب العظيم جل في علاه ؛ ولهذا ختم هذا السياق بقوله : ﴿سُبْحَانَهُ﴾ أي تنزه وتقدس ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ؛ كيف يصح من عاقل أو يليق بإنسان أعطاه الله سبحانه وتعالى عقلًا يرى هذه المخلوقات التي تهدي وتدل وترشد إلى عظمة من خلقها سبحانه وأنه وحده الذي يجب أن يُخضع له ويُذل ثم يلجؤون إلى شيء من هذه المخلوقات!! إما حجر من الأحجار أو شجرة من الأشجار أو ضريح من الأضرحة أو قبة من القباب أو قُل ما شئت من هذه المخلوقات التي لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، فضلا أن تملك شيئا من ذلك لغيرها .

ساق المصنف رحمه الله تعالى تحت هذه الترجمة نصوصًا من السنة كلها أوردها رحمه الله تعالى بيانًا لهذه العظمة ؛ عظمة الخالق جل وعلا المستوجبة لإفراده وحده بالعبادة .

قال : ((**عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: جاء حَبْرٌ من الأحبار**)) والأحبار: هم علماء اليهود .

((**جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا محمد إنا نجد** -أي في الكتاب الذي بين أيدينا- **أن الله يجعل** -أي يوم القيامة- **السماوات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء على إصبع، والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع ، فيقول: أنا الملك**)) ؛ وهذه النصوص جادة أهل السنة والجماعة فيها واحدة وطريقتهم واحدة وهي مبنية على التعظيم ؛ تعظيم الوحي المنزَّل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتعظيم كلام الرسول صلوات الله وسلامه وبركاته عليه .

فلما قال هذا الرجل من أحبار اليهود أنَّا نجد ذلك أي في المنزل علينا ضحك النبي عليه الصلاة والسلام ((**فضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه**)) قال الصحابي الجليل ابن مسعود رضي الله عنه وأرضاه راوي هذا الحديث «**تصديقًا لقوله**» ، ولا يليق بمقام النبي الكريم عليه الصلاة والسلام أن يكون قال هذا الحبر في حضرته ما لا يليق بالله ثم يضحك إنكارًا لقوله كما يُزعم ويُدَّعى ، لا يليق ذلك بمقام النبي عليه الصلاة والسلام ، لو كان هذا القول لا يليق بالله لظهر عليه الغضب ، فالنبي عليه الصلاة والسلام ما غضب لنفسه قط، لكن إذا انتهكت حرمات الله لم يقم لغضبه شيء صلوات الله وسلامه عليه . فلما قال هذا الحَبر هذه الكلمات وهي كلامٌ حق وصدقٌ ضحك النبي عليه الصلاة والسلام تصديقًا لقول هذا الحبر .

((**ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم** -أي تصديقا لذلك- : **﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾** [الزمر:٦٧])) ؛ فهذا الحَبر جاء بين يدي النبي صلوات الله وسلامه عليه وذكر أن الله يوم القيامة يضع السماوات على إصبع والأرضين على اصبع والثرى على

اصبع والماء على اصبع وسائر المخلوقات على اصبع ؛ فأقر النبي صلى الله عليه وسلم ذلك بضحكه صلى الله عليه وسلم ضحكًا حتى بدت نواجذه ، قال ابن مسعود «تصديقا لقوله» ثم تلا الآية الكريمة ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ .

فإذا نظرت هذه المخلوقات ؛ السماوات باتساعها وترامي أطرافها ، والأرضين وسعتها ، والثرى ، والماء ، وهذه المخلوقات، يضع السماوات على اصبع ، والأرضين على اصبع ، والثرى على اصبع ؛ هذا كله من الدلائل والشواهد على عظمة هذا الخالق ؛ يضع سبحانه وتعالى الثرى يوم القيامة على اصبع وفي الناس من أمضوا حياتهم كلها إلى أن ماتوا وهم يجمعون حفنةً من الثرى يضمون بعضها إلى بعض ويعبدونها من دون الله تبارك وتعالى !! هل عرفوا الله ؟ هل عرفوا عظمة الله سبحانه وتعالى؟ أفنوا حياتهم عند حجر أو صخرة أو قبة يلتجئون إليها ويذلون عندها ويخضعون ويسألونها ويرجون هل عرفوا الله ؟! لا والله ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ .

قال : ((**وفي رواية لمسلم: والجبال والشجر على إصبع، ثم يهزهن**)) جل في علاه ؛ أي يهز هذه المخلوقات وهي السماوات على اصبع ، والأرض على اصبع ، والثرى على اصبع ، إلى آخر ما جاء في الحديث يهزهن تبارك وتعالى ((**فيقول: أنا الملك، أنا الله**)) ؛ أنا الملك : أي المتفرد بالملك سبحانه وتعالى مالك الملك الذي بيده ملكوت السماوات والأرض ، وجاء في بعض الأحاديث أنه سبحانه وتعالى يقول: «أنا الملك أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟» ، وجاء في القرآن ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [غافر:١٦] .

((**فيهزهن ويقول: أنا الملك أنا الله**))«أنا الملك»: أي المتفرد بالملك، «أنا الله»: أي المعبود بحق ولا معبود بحق سواه

قال : ((**وفي رواية للبخاري: يجعل السماوات على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع أخرجاه**)) .

قال : ((**ولمسلم عن ابن عمر مرفوعا: يطوي الله السماوات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى ، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين السبع ثم يأخذهن بشماله**)) ؛ وهذا فيه إثبات اليدين لله عز وجل ، والذي قبله فيه إثبات الأصابع لله سبحانه وتعالى ، وكما قدمت طريقة أهل السنة في هذا الباب: إمرار النصوص كما جاءت والإيمان بها كما وردت ، ولا يجوز لإنسانٍ يقرأ هذه النصوص أن يخطر بباله يد الإنسان أو أصابع الإنسان ، فإن الله عز وجل ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى:١١] ، قال الله تعالى: ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ [مريم:٦٥] ، وقال تعالى ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص:٤] ، فالله سبحانه وتعالى لا سمي له ولا

نظير ولا مثيل له جل وعلا ، وكيف يصح من عاقل يقرأ هذه الآيات ثم يخطر بباله يد الإنسان!هذه اليد الضعيفة اللائقة بضعف الإنسان ونقصه وقد قال الله تعالى ﴿ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ .

قال : ((**ثم يأخذهن بشماله**)) وهذا فيه ذكر اليمين والشمال ؛ ذِكر اليمين في أول الحديث ، وفي آخره قال «ثم يأخذهن بشماله» أي الأرضين السبع ، ولا يتنافى ذلك مع قول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح ((وَكِلْتَا يَدَيْ رَبِّي يَمِينٌ)) ، لأن قوله ((وَكِلْتَا يَدَيْ رَبِّي يَمِينٌ)) فيه دفعٌ لتوهم النقص فقال عليه الصلاة والسلام ((وَكِلْتَا يَدَيْ رَبِّي يَمِينٌ)) أي كاملتين لا نقص فيهما بأي وجه من الوجوه .

قال : ((**ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟**)) .

وروي عن ابن عباس قال: «ما السماوات السبع والأرضون السبع في كف الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم».

****

قال : ((**وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ما السماوات السبع والأرضون السبع في كف الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم**)) ؛ إلا كخردلة في يد أحدكم: أي كقطعة صغيرة جدًا من الحديد في يد أحدكم .

قال: ((**ما السماوات السبع والأرضون السبع في كف الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم**)) وهذا فيه بيانٌ لعظمة الله سبحانه وتعالى ، والذي ذكره ابن عباس شاهده تقدم معنا في الآية الكريمة والأحاديث التي ساقها المصنف رحمه الله تعالى .

وقال ابن جرير : حدثني يونس أخبرنا ابن وهب قال: قال ابن زيد : حدثني أبي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ما السماوات السبع في الكرسي إلا كدراهم سبعة ألقيت في ترس)) . وقال: قال أبو ذر رضي الله عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض)) .

****

قال : ((**وقال ابن جرير**)) أي الطبري؛ الإمام المفسِّر ((**حدثني يونس أخبرنا ابن وهب قال: قال ابن زيد**)) أي عبد الرحمن ابن زيد ابن أسلم ((**حدثني أبي**)) أي زيد ابن أسلم ، وزيد ابن أسلم تابعي ، فإذا قال التابعي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو مرسل ، وابنه عبد الرحمن ضعيف .

قال: ((**قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما السماوات السبع في الكرسي إلا كدراهم سبعة ألقيت في ترس**)) أي نسبة السماوات السبع للكرسي كنسبة دراهم سبعة ألقيت في ترس .

قال: ((**وقال أبو ذر**)) وهذا يوهم أن هذا الذي ذُكر متصل بما قبله ، لكن هذا الحديث المروي عن أبي ذر جاء بأسانيد عديدة يشد بعضها بعضا .

((**قال أبو ذر رضي الله عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض**)) ، وجاء في تتمة الحديث في بعض رواياته «وفضل العرش على الكرسي مثل ذلك» . وتأمل هنا هذه العظمة لهذه المخلوقات التي تهديك إلى عظمة من خلقها ؛ قال ((**ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حدي ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض**)) وجاء في حديث آخر أن السماوات السبع والأرض إلى الكرسي مثل ذلك ؛ ((ما السماوات السبع والأرضون السبع في الكرسي إلا كحلقة ألقيت في فلاة ، وفضل العرش على الكرسي مثل ذلك)) هكذا جاء الحديث في بعض رواياته .

تأمل في هذه النسَب لهذه المخلوقات ؛ هذه الأرض التي تمشي عليها عندما تصعد فوق جبل من الجبال وتنظر إلى هذه الأرض تجد أن فيها سعة عجيبة ، وإذا ارتفعت أكثر رأيت من السعة أعجب وأعجب ، هذه الأرض الواسعة مترامية الأطراف مع السماوات السبع المحيطة بها –وسيأتي معنا أن بين الأرض والسماء مسيرة خمسمائة عام ، وكثف كل سماء خمسمائة عام ، وبين كل سماء وسماء مسيرة خمسمائة عام – هذه الأرضون والسماوات السبع نسبتها إلى الكرسي الذي قال الله عنه ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ [البقرة:٢٥٥] كحلقةٍ من حديد ألقيت في صحراء ، ما نسبة الحلقة الصغيرة من الحديد إذا ألقيت في صحراء ما نسبتها إلى الصحراء؟

قال : ((وفضل العرش على الكرسي مثل ذلك)) أي نسبة الكرسي إلى العرش مثل نسبة السماوات السبع والأرضون السبع إلى الكرسي . إذًا هذه الأرض التي أنت تعيش فيها ماذا تكون في هذا الكون العظيم الفسيح الواسع !! فإذا تفكرت في هذه العظمة متدرجًا من الأرض إلى السماوات إلى الكرسي إلى العرش العظيم كل ذلك يهديك إلى عظمة الخالق سبحانه وتعالى ووجوب إفراده وحده تبارك وتعالى بالعبادة .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «بين السماء الدنيا والتي تليها خمسمائة عام، وبين كل سماء وسماء خمسمائة عام، وبين السماء السابعة والكرسي خمسمائة عام، وبين الكرسي والماء خمسمائة عام، والعرش فوق الماء، والله فوق العرش، لا يخفى عليه شيء من أعمالكم» . أخرجه ابن مهدي عن حماد بن سلمة عن عاصم عن زر عن عبد الله رضي الله عنه . ورواه بنحوه المسعودي عن عاصم عن أبي وائل عن عبد الله . قاله الحافظ الذهبي رحمه الله تعالى ، قال: وله طرق .

****

ثم أورد رحمه الله تعالى عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: ((**بين السماء الدنيا والتي تليها خمسمائة عام، وبين كل سماء وسماء خمسمائة عام ، وبين السماء السابعة والكرسي خمسمائة عام ، وبين الكرسي والماء خمسمائة عام**)) ؛ انظر هذه المسافات التي تدلك على عظمة هذه المخلوقات ، وأن السعة والكبر كلما ارتفعْت زادت العظمة واتسعت وزاد الكبر وزادت النسب بين هذه المخلوقات ؛ ((**بين كل سماء وسماء خمسمائة عام ، وبين السماء السابعة الكرسي خمسمائة عام ، وبين الكرسي والماء خمسمائة عام ، والعرش فوق الماء، والله تبارك وتعالى فوق العرش، لا يخفى عليه شيء من أعمالكم**)) وهذا فيه الجمع بين العلو ؛ علو الله سبحانه وتعالى على مخلوقاته ، استواءه على عرشه المجيد سبحانه وتعالى ، وأنه مطَّلع على العباد لا تخفى عليه خافية كما قال الله سبحانه: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الحديد:٤] .

وعن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((هل تدرون كم بين السماء والأرض؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: بينهما مسيرة خمسمائة سنة، وبين كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة سنة، وكثف كل سماء مسيرة خمسمائة سنة، وبين السماء السابعة والعرش بحرٌ بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض، والله تعالى فوق ذلك، وليس يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم)) أخرجه أبو داود وغيره .

****

قال : ((**وعن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل تدرون كم بين السماء والأرض؟**)) وهذه دعوة للتأمل في عظمة هذه المخلوقات والذي يهدي إلى تعظيم من خلقها وأوجدها سبحانه وتعالى .

((**هل تدرون كم بين السماء والأرض ؟ قلنا: الله ورسوله أعلم ، قال: بينهما** -أي السماء والأرض- **مسيرة خمسمائة عام ، ومن كل سماءٍ إلى سماء مسيرة خمسمائة عام ، وكِثَف كل سماء مسيرة خمسمائة عام، وبين السماء السابعة والعرش بحرٌ بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض** -أي خمسمائة عام- **والله سبحانه وتعالى فوق ذلك، وليس يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم**)) أي فوق هذا الماء العرش المجيد العرش العظيم العرش الكريم ، والله سبحانه وتعالى مستوٍ على عرشه استواءً يليق بجلاله وكماله وعظمته لا يخفى عليه شيء من أعمال العباد .

قال رحمه الله تعالى :

فيه مسائل؛ الأولى: تفسير قوله تعالى: ﴿ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ .

﴿ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا ﴾ أي مع ترامي أطرافها وتباعد مسافاتها يكون شأنها أنها في قبضة الرحمن جل وعلا يوم القيامة ، وقد ساق رحمه الله تعالى من الأحاديث ما يفسر ذلك ويبينه ، كحديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : ((يطوي الله السماوات بيده يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين السبع)) .

الثانية: أن هذه العلوم وأمثالها باقية عند اليهود الذين في زمنه صلى الله عليه وسلم لم ينكروها ولم يتأوَّلوها.

أن هذه العلوم التي تتعلق بمعرفة الله سبحانه وتعالى ومعرفة عظمته جل وعلا وأمثالها من العلوم باقية عند اليهود ؛ أي مما لم يدخُله التحريف ، ولهذا وُجدت عند هذا الحبر الذي جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم . فقال : «باقية عند اليهود الذين في زمانه صلى الله عليه وسلم ولم ينكروها ولم يتأولوها» ، وقد وُجد في أمة محمد عليه الصلاة والسلام من الناس من أنكر هذه وتأولها ولم يقبلها ، وهذا واحد من علماء اليهود جاء بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم ولا يزال باقي هذا الأمر موروثًا لم يتغير ولم يحرفوه ولم يبدلوه، وجاء وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم به وضحك النبي صلى الله عليه وسلم تصديقًا لقوله .

الثالثة: أن الحبر لما ذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم صدَّقه ، ونزل القرآن بتقرير ذلك.

أن الحبر لما ذكر ذلك للنبي عليه الصلاة والسلام صدَّقه لأنه صلى الله عليه وسلم لما سمع الحبر يقول ذلك ضحك حتى بدت نواجذه ، قال ابن مسعود «تصديقا لقوله» ، وقرأ عليه الصلاة والسلام قول الله عز وجل: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ [الزمر:٦٧] .

الرابعة: وقوع الضحك من رسول الله صلى الله عليه وسلم لما ذكر الحبر هذا العلم العظيم.

لما ذكر الحبر هذا العلم العظيم – أن الله يضع السماوات على اصبع والأرضين على اصبع إلى آخر ما جاء في الحديث – ضحك النبي عليه الصلاة والسلام لما سمع هذا العلم العظيم الذي ذكره هذا الحبر ، وكان ضحك النبي عليه الصلاة والسلام تصديقًا لقوله . ومن ينكر ذلك من المعطلة يقولون إن النبي صلى الله عليه وسلم ضحك إنكارًا لقوله ؛ أيليق بمقام النبي صلى الله عليه وسلم أن يؤتى بين يديه ويقال في حق الله ما لا يليق به ثم يضحك؟ لا والله ، ولهذا ابن مسعود رضي الله عنه قال : «ضحك حتى بدت نواجذه تصديقًا لقوله» ، وهذا هو الذي

يليق بمقامه عليه الصلاة والسلام ، ولو كان الذي قيل لا يليق بالله لما ضحك بل لغضب ولظهر الغضب على وجهه كما هو الشأن في كثير من الأحاديث التي فيها مواقف ظهر فيها الغضب على وجه النبي صلى الله عليه وسلم حينما قيل في شأن الله عز وجل أو شرعه ما لا يليق .

الخامسة: التصريح بذكر اليدين، وأن السماوات في اليد اليمنى والأرضين في اليد الأخرى.

وهذا جاء في حديث عبد الله بن عمر وهو في صحيح مسلم قال : ((يطوي السماوات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى)) ، ثم قال بعد ذلك ((ثم يطوي الأرضين السبع ثم يأخذهن بشماله)) ؛ وهذا فيه التصريح بذكر اليدين لله سبحانه وتعالى . وذكر اليدين أيضًا جاء في القرآن الكريم ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[المائدة:٦٤] .

السادسة: التصريح بتسميتها الشمال.

أي كما في حديث ابن عمر قال : ((يأخذهن بشماله)) وهذا فيه التصريح بالشمال ، ولا يعارض هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم ((وكلتا يدي ربي يمين)) ، لأن المقصود بقوله ((وكلتا يدي ربي يمين)) دفع توهم النقص .

السابعة: ذكر الجبارين والمتكبرين عند ذلك.

أي عند ذِكر أن الله عز وجل يطوي السماوات ويأخذهن بيمينه والأرضين ويأخذهن بشماله ؛ ذُكر عند ذلك الجبارون والمتكبرون ، وهذا الذكر يبين أن كل جبار من الناس وكل متكبر كان تكبُّره وتجبُّره على لا شيء ، تكبرًا وتجبرًا على لا شيء ، على أي شيء يتكبر هذا الإنسان؟ وما الذي فيه يدعوه إلى التكبر؟ وما هو إلا مخلوقٌ ضعيف أوله نطفة وآخره جيفة وهو بين ذلك يحمل في بطنه العذِرة ، على أي شيء يتكبر هذا الإنسان!! ففي ذلك الموقف العظيم عند ذكر طي السماوات والأرضين وأن الله يأخذ السماوات بيمينه والأرضين بالأخرى في ذلك المقام يقول: أين الجبارون أين المتكبرون ؟

الثامنة: قوله: «كخردلة في كف أحدكم ».

أي كما جاء في الأثر عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وهذا مما يبين أن هذه المخلوقات شأنها حقيرٌ وصغيرٌ بالنسبة لمن خلقها وأوجدها سبحانه وتعالى ، فهي في كف الرحمن كخردلة في يد أحدنا ، والخردلة في يد أحدنا القطعة الصغيرة في يد الإنسان لا تساوي شيئا ، وهذا مثال وإلا مقام الله سبحانه وتعالى أجل وأعظم .

التاسعة: عظم الكرسي بالنسبة إلى السماوات.

لأن الله جل وعلا قال: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ﴾ [البقرة:٢٥٥] ، ومر معنا في الأحاديث ما يدل على عظم الكرسي بالنسبة للسماوات ، وأن السماوات السبع والأرضون السبع بالنسبة إلى الكرسي كحلقة ألقيت في فلاة .

العاشرة: عظمة العرش بالنسبة إلى الكرسي.

أي كما جاء في الحديث قال : ((ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألاقيت بين ظهراني فلاة)) .

التفريق بين الكرسي والعرش : الكرسي مخلوق وهو دون العرش ، والعرش هو أعظم المخلوقات وسقفها ، وقد قال ابن عباس وصح ذلك عنه قال : «الكرسي موضع القدمين» ، فالكرسي هو مخلوق ذكر الله سبحانه وتعالى صفته وعظمته بأنه وسع السماوات والأرض ، وأن نسبته كما جاء في الحديث إلى العرش كحلقة من حديد ألقيت في فلاة ، فالكرسي مخلوق عظيم من عظمته أنه وسع السماوات والأرض ، والعرش مخلوق أعظم من الكرسي ، ونسبة الكرسي إلى العرش كحلقة ألقيت في فلاة .

الحادية عشرة: أن العرش غير الكرسي.

أن العرش غير الكرسي ؛ هذا مخلوق وهذا مخلوق ، والنصوص التي تقدمت معنا مر معنا فيها ما يدل على أن العرش غير الكرسي .

الثانية عشرة: كم بين كل سماء إلى سماء ؟.

مر ذكر ذلك ؛ أن بين كل سماء وسماء خمسمائة عام .

الثالثة عشرة: كم بين السماء السابعة والكرسي؟

أيضا مر معنا أن بين السماء السابعة والكرسي خمسمائة عام .

الرابعة عشرة: كم بين الكرسي والماء؟

أيضا كما جاء خمسمائة عام .

الخامسة عشرة: أن العرش فوق الماء.

أن العرش فوق الماء ، والعرش هو سقف المخلوقات وأعلاها .

السادسة عشرة: أن الله فوق العرش.

أن الله تبارك وتعالى فوق العرش أي مستو على عرشه المجيد استواءً يليق بجلاله وكماله وعظمته سبحانه وتعالى .

السابعة عشرة: كم بين السماء والأرض؟

جاء معنا في حديث العباس أن بين السماء والأرض خمسمائة عام .

الثامنة عشرة: كثف كل سماء خمسمائة سنة.

أي كما جاء في حديث العباس .

التاسعة عشرة: أن البحر الذي فوق السماوات بين أعلاه وأسفله مسيرة خمسمائة سنة .

أي كما جاء ذلك مصرحًا به في حديث العباس ابن عبد المطلب رضي الله عنه .

وبهذا يُختم هذا الكتاب المبارك كتاب التوحيد لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى ، وأسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يجزي هذا الإمام خير الجزاء على حسن صنيعه وحسن جمعه لهذا الكتاب وغيره من الكتب التي عظُم نفعها وفائدتها بمنِّ الله سبحانه وتعالى وفضله ؛ فنسأل الله جل وعلا أن يجزيه خير الجزاء ، وأن يرفع مقامه في عليين ، وأن يغفر لنا وله ولوالدينا وللمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات ، ونسأله جل في علاه أن يصلح لنا أجمعين شأننا كله ، وأن لا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ، وأن يهدينا إليه صراطًا مستقيما ، ونسأله سبحانه وتعالى أن ينفعنا بما علَّمنا وأن يزيدنا علمًا ، وأن يجعل ما نتعلمه حجة لا علينا ، إنه تبارك وتعالى سميع الدعاء وهو أهل الرجاء وهو حسبنا ونعم الوكيل .